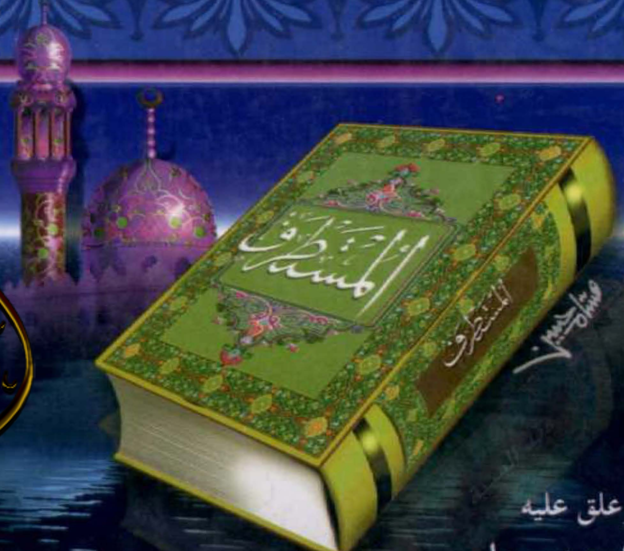
المستطرف

فى كل فن مستظرف

تأليف / شهاب الدين محمد الأبشيهى



خرج أحاديثه
محمد بيومى

حققه وعلق عليه
محمد مهنا

مكتبة الإيمان
بالمنصورة

المستطرف
فى كل فن مستظرف

تأليف

شهاب الدين محمد بن أحمد الفتح الأبشيهى

خرج أحاديثه
الشيخ / محمد بيومى

ضَبَطَهُ وَعَلَّقَ عَليه وقدَّم له
مُحمد رِضوان مهنا

مكتبة الإيمان ـ المنصورة

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الأبشيهي ، محمد بن أحمد بن منصور ، ١٣٨٨- ١٤٤٨

المستطرف في كل فن مستظرف / تأليف شهاب الدين محمد بن أحمد الفتح الأبشيهي ، أخرج أحاديثه محمد بيومي ، ضبطه وعلق عليه وقدم له محمد رضوان مهنا . - ط٢- المنصورة : مكتبة الإيمان ،٢٠٠٦

٩٦٨ص ،١٧ x ٢٤سم .

تدمك x - 246 - 290 -977

١- الثقافة الإسلامية . أ - بيومي ، محمد (مخرج أحاديث)

ب - مهنا ، محمد رضوان (مقدم ، معلق ،ضابط) ٢١٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٧١٦٤

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جَلَّ عن شَبَهِ الخليقة ، وتعالى عن الأفعال القبيحة ، وتنزّه عن الجور ، وتكبّر عن الظلم ، وعدل فى أحكامه ، وقهر بلا معين ، ودبر بلا وزير . السامع لكل نجوى . قامت السموات بأمره ، ورجفت الجبال من خشيته .

والحمد لله أن بعث محمدًا ﷺ : بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة ، والدلائل الواضحة بشيرًا ونذيرا . وداعيا بإذنه وسراجا منيرا ـ وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فإن كتاب « **المستطرف فى كل فن مستظرف** » للأديب المحدث : شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتح الأبشيهى المحلى الشافعى ـ من الكتب التى نالت اهتمامًا بالغًا وكبيرًا من الدارسين والمتأدبين .

فهو كتاب من أطرف وأظرف الكتب لما حواه من العديد من الجوانب الدينية . والأدبية والاجتماعية والتاريخية ، ولما اشتمله من آيات قرآنية ، وآثار نبوية شريفة ، وضمنه من دوحة اللسان العربى الشعر الرصين ، والنثر الشائق ، والأمثال والحكم المختارة الهادية والمسعفة . والنوادر واللطائف والظرائف ، والمواعظ الجمة والخطب البليغة ، والألفاظ اللغوية العذبة والغرائب والطرف يرهف لها السمع وينشرح بها الصدر ، وتطرب لها النفوس ، وتستريح لديها الأفئدة فتنبسط سرورًا بعد حسرة وعبوسًا ، وتهدأ فى ظلها الوارف تلك الأجسام المتعبة الواهنة . وتلتذ بثمارها الدانية .

وقد تناول الحديث عنه صاحب « كشف الظنون » خير وصف قائلا : وهو يشتمل على كل فن ظريف؛ وفيه الاستدلال بآيات القرآن الكريم ، وأحاديث صحيحة ، وحكايات حسنة من الأخبار ، ونقل فيه كثيرا مِمَّا ذكره الزمخشرى فى كتابه « ربيع الأبرار » ، وابن عبد ربه فى «العقد الفريد » . وقد صرح الأبشيهى بأنه استقى مواد كتابه من مجموع ما توفر لديه من كتب السابقين . وأودعها كتابه : تلك النوادر الهزلية والأشعار والأمثال والغرائب .

ولم يكن هذا الكتاب بكرًا ـ غير مسبوق ـ فى مجاله . بل قد سبقه إلى ذلك العديد من المصنفات التى جمعت من أندر الدر أنقاه ومن اللآلئ أجوده وأصفاه ، ومن الثمار اليانعة الدانية أطيبها ومن الملح والنوادر أجملها ، ومن الشعر أرقاه وأسلسه ، ومن النثر : الحكم والخطب والرسائل أرقها وأبلغها ـ « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، و« زهر الآداب » للحصرى ، و«البيان

والتبيين » للجاحظ ، و« العمدة » لابن رشيق ، و« خزانة الأدب » للخطيب البغدادى، و« العقد الفريد » لابن عبد ربه . و« ربيع الأبرار » للزمخشرى .

ويقع الكتاب فى جزأين . مشتملا على أربعة وثمانين بابا . مبتدئًا بـ « فى مبانى الإسلام». وفيه خمسة فصول . . ومنتهيًا بما جاء ـ فى فضل الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام فكان مِسْكَ الختام. كما كان البدء بخير الهدى هدية السماء للبشرية ـ الإسلام ـ دين الإنسانية جمعاء.

التعريف بالمؤلف

اسمه : هو أبو الفتح بهاء الدين محمد بن أحمد بن منصور بن أحمد بن عيسى الأبشيهى . المحلى . الشافعى .

مولده : بـ « أبشويه » سنة (٧٩٠ هـ ـ ١٣٩٩ م) : وهى إحدى قرى مديرية الغربية بمصر فعرف بها . وأقام فى « المحلة الكبرى » فترة من الزمن يقرأ القرآن ويدرس الفقه والنحو ، فعرف بـ «المحلى » وتمذهب بالمذهب الشافعى فنسب إلى « الشافعى » .

وانتقل إلى القاهرة . وحضر دروس الحافظ جلال الدين البلقينى وولى خطابة بلده .

وقصد مكة حاجًا وعاد واستقر فى القاهرة إلى أن توفى ـ رحمه الله ـ سنة (٨٥٠ هـ ـ ١٤٤٦ م) (١) .

شخصه : يتسم بالتواضع والإخلاص ، والصدق والأمانة : قلما تجد ذلك فى شخص اجتمعت له . فقد كان أمينًا صادقًا شجاعًا حينما اعترف وصرح بالمصادر التى جمع منها مادة كتابه وبخاصة « ربيع الأبرار » للزمخشرى ، و« العقد الفريد » لابن عبد ربه . وهو ذو حِسٍّ مرهف وأديب شاعر غزير الثقافة : واسع العلم . عظيم الفضل . حسنِ الذوق . يشهد له برجاحة العقل وحسن الاختيار فيما اختار وانتقى من الكم الزاخر ، والدُّرِّ اللامع ، وجوامع الكلم . ينضاف إلى ذلك ما له من شعر دالّ على رقة شعورة وفيض عبقريته ، ورفاهة حسه ، وانفعاله بمواقف فاضت بها شاعريته شعرًا رقيقًا .

سبقه : أنه أنشأ فهرسًا لأبواب كتابه تطالعك حين البدء . يضم أبواب الكتاب جميعًا فكان بحق من السبَّاقين لهذا النوع من التبويب والفهرسة . لتسهل وتيسر على القارئ والدارس والمطلع الرجوع إلى بغيته .

آثاره :

١ ـ أطواق الأزهار على صدور الأنهار فى الوعظ فى مجلدين .

٢ـ « المستطرف فى كل فن مستظرف فى جزأين . مشتملا على ٨٤ بابا . وفيه فوائد كثيرة تاريخية واجتماعية وأدبية وغيرها . ولذلك نقله الإفرنج إلى الفرنسية ، وطبعت الترجمة فى باريس سنة ١٨٩٩ . وترجم إلى التركية؛ وطبعت هذه الترجمة فى الآستانة سنة ١٢٦٣ هـ(٢) .

---

(١) راجع الضوء اللامع ٧ / ١٠٩ ، معجم المؤلفين ٣ / ١١٠ ، كشف الظنون ١٦٧٣ ، تاريخ الأدب العربى ٣/ ٨٤٨ ، الأعلام ٥ / ٣٣٢ دائرة المعارف الإسلامية . وبروكلمن ٢ / ٥٦ ، وتاريخ آداب اللغة العربية . زيدان ٣ / ١٥٦ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٣ / ١٥٦ .

والكتاب له العديد من المطبوعات القديمة والحديثة ، والناظر فيه ، يطالعه الخطأ والتصحيف والتحريف، والنقص والخلل فى مواده . فاستعنت بالله الذى لا معين ولا موفق غيره فله الحمد على ما أنعم به وهدى على إخراجه فى ثوب جديد جدير به ومستحقه . ترضى من يحوزه ويعود إليه ليتزين بِدُرِّه ، ويتجمل بفصيح لفظه .

وتحدد عملنا فيما يلى :

١ ـ التعريف بالمؤلف . وشخصه . وآثاره .

٢ ـ قابلنا العديد من النسخ المطبوعة والرجوع إلى الكتب التى اعتمدها المؤلف فَتَمَّ بذلك تصحيح الأخطاء الفاشية سواء أكانت مطبوعة أو غيرها وبذلك توصلنا إلى الصورة الصادقة للأصل .

٣ ـ تحديد الآيات القرآنية بين قوسين مزهرين ﴿﴾ بذكر اسم السورة ورقم الآية فيها .

٤ ـ ضبط الشعر وعزوه إلى قائله ما أمكن . وتوثيقه بالرجوع إلى دواوين الشعراء . وكتب الأدب التى استقى منها المؤلف مادة كتابه .

٥ ـ شرح ما ندَّ وغمض من ألفاظ لغوية بعيدة المعنى من كتب اللغة (اللسان ـ المعجم الوسيط ـ تاج العروس . القاموس المحيط) وأدعك مع المؤلف . وكتابه لترشف من رحيق جنى اختياره وتلذ من ثمار جناه .

وهذا ما قمنا به من عمل فى هذا السفر . وإن كان فيه تقصير ونقص فمن عندنا . ولمن اطلع فيه وأهدى إلينا عيبنا وتقصيرنا لنصلحه . فله الشكر على ما قدم وأسْدَى وهدفنا الصواب. والحمد لله فى الآخرة والأولى على ما أنعم وأهدى وأرشد إنه نعم المولى ونعم النصير.

محمد رِضوان مهنا

عفَا الله عنه وعن وَالِديْه

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك العظيم العلى الكبير ، الغنى اللطيف الخبير ، المنفرد بالعز والبقاء ، والإرادة والتدبير ، الحي العليم الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير ، أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير ، وأشكره على ما أعان عليه على قصد ويسر من عسير ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مشير ، ولا ظهير له ولا وزير ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير ، المبعوث إلى كافة الخلق من غنى وفقير ، ومأمور وأمير ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير ، وينجو بها فى الآخرة من عذاب السعير، وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم المصير .

أما بعد : فقد رأيت جماعة من ذوى الهمم ، جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحِكَم، وبسطوا مجلدات في التواريخ والنوادر ، والأخبار ، والحكايات ، واللطائف ، ورقائق الأشعار ، وألّفوا في ذلك كتبًا كثيرة ، تفرد كل منها بفرائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة، فاستخرت الله تعالى وجمعت من جموعها هذا المجموع اللطيف، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف ، (وسميته المستطرف في كل فن مستظرف) واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم ، وأحاديث صحيحة من أحاديث النبي الكريم ، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار ، ونقلت فيه كثيرًا مما أودعه الزمخشري في كتابه « ربيع الأبرار» وكثيرًا مما نقله ابن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد» ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة ، من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة ، وأودعته من الأحاديث النبوية، والأمثال الشعرية ، والألفاظ اللغوية ، والحكايات الجدية ، والنوادر الهزلية، ومن الغرائب والدقائق ، والأشعار والرقائق ، ما تشنف بذكره الأسماع وتقر برؤيته العيون، وينشرح بمطالعته كل قلب محزون (شعر) .

من كُلِّ معنى يكادُ المَيْتُ يَفْهَمُهُ ... حسنًا ويَعشَقُهُ القِرطاسُ والقلمُ

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين بابًا من أحسن الفنون ، متوجة بألفاظ كأنها الدرّ المكنون، كما قال بعضهم شعرًا في المعنى :

ففي كُلِّ باب منه دُرٌّ مؤلـــفٌ ... كنظم عُقُودِ زَيَّنَتْها الجواهـــرُ

فإنْ نُظمَ العقد الذي فيه جَوْهرٌ ... على غير تأليفِ فما الدُّرُّ فاخرُ

وضمنته كل لطيفة ، ونظمتُه بكل ظريفة ، وقرنْتُ الأصول فيه بالفصول ، ورجوت أن يتيسر

لي ما رُمْتَه من الوصول . وجعلت أبوابه مقدمة ، وفصلتها في مواضعها مرتبة منظمة، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه ، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه ، فيجد كل معنى في بابه إن شاء الله تعالى والله المسؤول في تيسير المطلوب ، وأن يلهم الناظر فيه ستْر مايراه من خلل وعيوب ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المُهَوِّنُ للصعاب .

وفضل الشفاعة وإصلاح ذات البين ، وفيه فصلان . (**الباب السادس والعشرون**): فى الحياء والتواضع ، ولين الجانب وخفض الجناح ، وفيه فصلان . (**الباب السابع والعشرون**): فى العجب والكبر والخيلاء ، وما أشبه ذلك . (**الباب الثامن والعشرون**): فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت . (**الباب التاسع والعشرون**): فى الشرف والسؤدد وعلو الهمة . (**الباب الثلاثون**): فى الخير والصلاح ، وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين، رضى الله عنهم أجمعين . (**الباب الحادى والثلاثون**): فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء ، رضى الله عنهم. (**الباب الثانى والثلاثون**) : فى ذكر الأشرار والفجار ، وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة . (**الباب الثالث والثلاثون**) : فى الجود والسخاء والكرم ، ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف ، وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد . (**الباب الرابع والثلاثون**): فى البخل والشح وذكر البخلاء ، وأخبارهم وما جاء عنهم . (**الباب الخامس والثلاثون**): فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيف ، وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك . (**الباب السادس والثلاثون**) : فى العفو والحلم والصفح ، وكظم الغيظ ، والاعتذار وقبول المعذرة ، والعتاب ، وما أشبه ذلك . (**الباب السابع والثلاثون**): فى الوفاء بالوعد وحسن العهد ورعاية الذمم . (**الباب الثامن والثلاثون**): فى كتمان السر وتحصينه ، وذم إفشائه . (**الباب التاسع والثلاثون**): فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد ، وفيه فصول . (**الباب الأربعون**): فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد ، وشدة البأس والتحريض على القتال ، وفيه فصول. (**الباب الحادى والأربعون**): فى ذكر أسماء الشجعان، وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم ، وذكر الجبناء وأخبارهم ، وذم الجبن . (**الباب الثانى والأربعون**): فى المدح والثناء وشكر النعمة ، والمكافأة ، وفيه فصول. (**الباب الثالث والأربعون**): فى الهجاء ومقدماته . (**الباب الرابع والأربعون**): فى الصدق والكذب ، وفيه فصلان . (**الباب الخامس والأربعون**): فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم ، وصلة الرحم والقرابات ، وذكر الأنساب ، وفيه فصول . (**الباب السادس والأربعون**): فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم ، وذكر الحسن والقبح والطول والقصر والألوان واللباس ، وما أشبه ذلك . (**الباب السابع والأربعون**): فى ذكر الحلى والمصوغ والطيب والتطيب ، وما جاء فى التختم . (**الباب الثامن والأربعون**): فى الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين . وما أشبه ذلك ، وفيه فصول . (**الباب التاسع والأربعون**): فى الأسماء والكنى والألقاب ، وما استحسن منها (**الباب الخمسون**): فى الأسفار والاغتراب ، وما قيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان ، وحب الوطن والحنين إلى الأوطان . (**الباب الحادى والخمسون**): فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه . (**الباب الثانى والخمسون**): فى ذكر الفقر ومدحه . (**الباب**

الثالث والخمسون): فى ذكر التلطف فى السؤال ، وذكر من سئل فجاد. (**الباب الرابع والخمسون**) فى ذكر الهدايا والتحف ، وما أشبه ذلك . (**الباب الخامس والخمسون**) فى العمل والكسب والصناعات والحرف ، والعجز والتوانى وما أشبه ذلك . (**الباب السادس والخمسون**): فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله ، والصبر على المكاره ، والتسلى عن نوائب الدهر ، وفيه ثلاثة فصول . (**الباب السابع والخمسون**): فيما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة ، والسرور بعد الحزن ، ونحو ذلك . (**الباب الثامن والخمسون**) فى ذكر العبيد والإماء والخدم ، وفيه فصلان . (**الباب التاسع والخمسون**) : فى أخبار العرب ، وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم . (**الباب الستون**) : فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤيا . (**الباب الحادى والستون**): فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد ، والتيقظ والتبصر، ونحو ذلك . (**الباب الثانى والستون**): فى ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات ، مرتبًا على حروف المعجم . (**الباب الثالث والستون**): فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم . (**الباب الرابع والستون**): فى خلق الجان وصفاتهم . (**الباب الخامس والستون**): فى ذكر البحار وما فيها من العجائب ، وذكر الأنهار والآبار ، وفيه فصول . (**الباب السادس والستون**): فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان ، وفيه فصول . (**الباب السابع والستون**): فى ذكر المعادن والأحجار وخواصها . (**الباب الثامن والستون**): فى ذكر الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس ، ومن كرهه واستحسنه . (**الباب التاسع والستون**): فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ، ونوادر الجلساء فى مجالس الخلفاء . (**الباب السبعون**): فى ذكر القينات والأغانى. (**الباب الحادى والسبعون**): فى ذكر العشق ومن بلى به، والافتخار به والعفاف ، وأخبار من مات بالعشق ، وما فى معنى ذلك ، وفيه فصول . (**الباب الثانى والسبعون**) فى ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت ، وكان وكان ، والموشحات، والزجل ، والقومة ، والألغاز ، ومدح الأسماء والصفات ، وفيه فصول . (**الباب الثالث والسبعون**): فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن ، وما يمدح وما يذم من عشرتهن ، وفيه فصول . (**الباب الرابع والسبعون**): فى ذم الخمر وتحريمها والنهى عنها . (**الباب الخامس والسبعون**): فى المزاح والنهى عنه ، وما جاء فى الترخيص فيه ، والبسط والتنعم ، وفيه فصول. (**الباب السادس والسبعون**) : فى النوادر والحكايات ، وفيه فصول . (**الباب السابع والسبعون**): فى الدعاء وآدابه وشروطه ، وفيه فصول . (**الباب الثامن والسبعون**): فى القضاء والقدر وأحكامهما والتوكل على الله تعالى . (**الباب التاسع والسبعون**): فى التوبة وشروطها والندم والاستغفار . (**الباب الثمانون**) فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء ، والسنة والعيادة وثوابها ، وما أشبه ذلك ، وفيه فصول . (**الباب الحادى والثمانون**): فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر

وأحواله. (**الباب الثانى والثمانون**): فى الصبر والتأسى والتعارى والمراثى ونحو ذلك ، وفيه فصول . (**الباب الثالث والثمانون**): فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها ، ونحو ذلك . (**الباب الرابع والثمانون**): فى فضل الصلاة على النبى ﷺ وهو آخر الأبواب ، ختمتها بالصلاة على سيد العباد . أرجو بذلك شفاعته ﷺ يوم المعاد .

الباب الأول

في مباني الإسلام وفيه خمسة فصول

الفصل الأول : في الإخلاص لله تعالى والثناء[1] عليه

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له . فرد لا مثل له . صمد لا ندٌ له . أزلي قائم، أبدي دائم ، لا أول لوجوده ، ولا آخر لأبديته . قيوم لا يفنيه الأبد ، ولا يغيره الأمد، بل هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، منزه عن الجسمية ليس كمثله شيء ، وهو فوق كل شيء ، فوقيته لا تزيده بعدًا عن عباده ، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد ، وهو معكم أينما كنتم ، لا يشابه قربه قرب الأجسام ، كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام ، منزه عن أن يحده زمان ، مقدس عن أن يحيط به مكان ، تراه أبصار الأبرار في دار القرار ، على ما دلت عليه الآيات والأخبار ، حيٌ قادر جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور ، ولا تأخذه سنة ولا نوم . له الملكوت والعزة والجبروت. خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، لا تحصى مقدوراته ، ولا تتناهى معلوماته، عالم بجميع المعلومات ، لا يعزب[2] عنه مثقال ذرة[3] في الأرض ولا في السموات ، يعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر ، مدبر للحادثات ، لا يجري في ملكه قليل ولا كثير ، ولا جليل ولا حقير، خير أو شر نفع أو ضر ، إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته ، فما شاء كان، ومالم يشأ لم يكن ، فهو المبدئ المعيد الفاعل لما يريد ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته . لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا . سميع بصير متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه ، وكل ما سواه ـ سبحانه وتعالى ـ ، فهو حادث أوجده بقدرته ، وما من حركة وسكون إلا وله في ذلك حكمة دالة على وحدانيته ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] . وقال أبو العتاهية[4] :

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلـهُ ؟ ... أم كيف يَجْحَدُهُ الجاحـدُ ؟
وفي كُلِّ شيء لـه آيـةٌ ... تَدُلُّ على أنَّـهُ الواحـدُ
ولله في كـلِّ تحريـكةٍ ... وتسكينةٍ في الوَرَى شاهدُ

---

(١) الثناء : المدح .
(٢) لا يعزب : لا يبعد ولا يخفى.
(٣) الذرة : أصغر جزء فى عنصر ما ـ والذّر :من النَّمل : صغار النمل .
(٤) هو إسماعيل بن القاسم بن القاسم العنزى المعروف بأبى العتاهية . شاعر عباسى واشتهر بشعر الزهد ت ٢١١هـ .

وقال غيره :

كل ما تَرْتقي إليه بوهـــمٍ من جلالٍ وقــدرةٍ وسنــاءِ
فالذي أبـــدعَ البريةَ أعْلَـى منه سبــحانَ مُبْدعُ الأشياءِ

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ في بعض وصاياه لولده : « اعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد لا يُضادهُّ في ملكه أحدٌ » . وعنه عليه الصلاة والسـلام : « كل ما يتصور في الأذهان فالله سبحانه بخـلافه» .

وقال لبيد بن ربيعة (١) :

ألا كُــلُّ ما خـــلا الله بَاطـلُ وكُلُّ نعيــمٍ لا مــحالةَ زائلُ
وكُلُّ ابن أنثى لو تطاولَ عمـرُه إلى الغاية القصوى فللقبر آيلٌ
وَكُلُّ أناسٍ سوف تدخلُ بـينهم دُوَيْهيةٌ (٢) تصفرُ منها الأناملُ
وكُلُّ امرئٍ يومًا سيعرفُ سَعْيَهُ إذا حُصِّلَتْ عند الإله الحـصائلُ

وروي أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر : إن أشعر كلمة قالتها العرب : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » (٣).

ثم بعد هذا الاعتقاد الإقرار بالشهادة بأن محمدًا رسول الله بعثه برسالته إلى الخلائق كافة وجعله خاتم الأنبياء ، ونسخ بشريعته الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة ، فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، من سؤال منكر ونكير ، وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة ، ويقولان له : من ربك ؟وما دينك ؟ومن نبيك؟. ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق ، وأن الميزان حق ، والصراط حق ، والحساب حق ، وأن الجنة حق، والنار حق ، وأن الله تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم المقربون ، وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام ، حتى لا يبقى في جهنم من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان . ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء ، وأن يعتقد فضل الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ، ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار . فمن

(١) شاعر مخضرم ـ جاهلى أدرك الإسلام ، وأسلم ويُعد من الصحابة من أصحاب المعلقات.
(٢) دويهية : تصغير داهية : جمع داوه وهى المصيبة الشديدة.
(٣) أخرجه البخارى بنحوه فى المناقب ٣٨٤١ .ومسلم فى « الشعر » (٥٨٤٨) عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه .

اعتقد جميع ذلك مؤمنًا به موقنًا فهو من أهل الحق والسنة ، مفارقُ لعصابة الضلال والبدعة، رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة ، وجعلنا من أهلها ، ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها ، إنه سميع مجيب .فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة، قال رسول الله ﷺ : « بني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا»(١) .

الفصل الثاني : في الصلاة وفضلها

قال الله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة : ٢٣٨] . وقال تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة : ٤٣] وقال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء : ١٠٣] . واختلفوا في اشتقاق اسم الصلاة مم هو؟، فقيل : هو من الدعاء ، وتسمية الصلاة دعاء ، معروفة في كلام العرب ، فسميت الصلاة صلاة: لما فيها من الدعاء . وقيل: سميت بذلك من الرحمة . قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب : ٥٦] فهى من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن الناس دعاء . قال ﷺ : « اللَّهم صل على آل أبي أوفى »(٢) أي ارحمهم. وقيل : سميت بذلك من الاستقامة من قولهم صليت العود على النار إذا قومته ، والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتنهاه عن خلافه ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] وقيل : لأنها صلة بين العبد وربه . وعن رسول الله ﷺ قال : «عَلَمُ الإيمان الصلاة ، فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن »(٣) وعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال وهو على المنبر : « إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة » قيل : وكيف ذلك ؟ قال: « لا يتمّ ركوعها وسجودها وخشوعها وتواضعه وإقباله على الله فيها » . وقالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ : « كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » . وقيل للحسن(٤) : ما بال

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان (٨) ومسلم فى الإيمان (١١٤) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى فى « الزكاة » (١٤٩٧) ومسلم فى « الزكاة » (٢٤٥٣) .

(٣) **ضعيف** . رواه الخطيب البغدادى فى تاريخه (١١ / ١٠٩) وابن النجار عن أبى سعيد الخدرى . [ضعيف الجامع ٣٧٢٥].

(٤) هو الحسن البصرى (٢١ ـ ١١٠هـ) ولد فى المدينة ، وشبَّ فى كنف على بن أبى طالب . عظمت هيبته فى القلوب. حبر الأمة فى زمنه وإمام أهل البصرة . وكان ذا دلال على الولاة يأمرهم وينهاهم . فصيحًا . حكيمًا .

المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا ؟ فقال : « لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره » . وقال بعضهم : « لا تفوت أحدًا صلاةُ في جماعة إلا بذنب » . وكانت رابعة العدوية(١) تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، وتقول : والله ما أريد بها ثوابًا ولكن ليسر ذلك رسول الله ﷺ . ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام : انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم والليلة . وقال بعضهم: صليت خلف ذي النون المصري(٢) ، فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: « الله » ثم بهت وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظامًا لربه جلّ وعلا ، ثم قال : «الله أكبر » فظننت أن قلبي انخلع من هيبة تكبيره . وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود كذب من ادعى محبتي . وإذا جن عليه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه ؟ ولعبد الله بن المبارك رضي الله تعالى عنه :

إذا ما الليلُ أظلمَ كابدوهُ ... فيُسْفِرُ عنهمُ وهُمُ رُكُوعُ(٣)
أطار الخوفُ نومَهم فقاموا ... وأهلُ الأمن في الدنيا هُجوع(٤)

وكان سيدي الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم التحريري رحمه الله، كثيرًا ما يتمثل بهذه الأبيات :

يا أيها الراقدُ كم ترقُدُ ... قم يا حبيبي قدْ دنا الموعدُ
وخُذْ من الليل ولو ساعةً ... تحظى إذا ما هجع الرُّقَّدُ
مَنْ نام حتى ينقضي ليلهُ ... لمَ يَبْلُغ المنزلَ لو يَجْهَدُ

وكان سيدي أويس القرني (٥) لا ينام ليله ويقول : « ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر» وقال حذيفة رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة » وقال هشام ابن عروة : « كان أبي يطيل المكتوبة ويقول: هي رأس المال » . وقال أبو الطفيل : « سمعت أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول : « يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فأطفئوها، سمعت رسول الله ﷺ يقول الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر»(٦) . وجزًّ

---

(١) رابعة (٧١٤ ـ ٨٠١م) امرأة من البصرة . كانت تعزف بالمعازف ثم عاشت بالتنسك . ومحبة الله .
(٢) ذو النون (أبو فياض المصرى) زاهد من كبار مؤسسى التصوف . اتهم بالزندقة ولكن فضيلته أظهرت حقيقته . ت ٨٦٠م.
(٣) كابدوه : قاسوا شدته وتحملوا المشقة والعناء . يسفر : يتضح وينكشف .
(٤) هجوع : النوم ليلا . وفى التنزيل ﴿ **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون** ﴾ .
(٥) أويس أصله يمنى سكن القفار . أحد النساك، أدرك حياة النبى ﷺ ولم يره. الغالب أنه قتل فى صفين.
(٦) رواه مسلم فى « الطهارة » (٥٤١) بلفظ « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » عن أبى هريرة رضى الله عنه .

محمد بن المنكدر (١) ، عليه وعلى أمه وعلى أخته ، الليل أثلاثًا ، فماتت أخته . فجزأه عليه وعلى أمه ، فماتت أمه . فقام الليل كله . وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلى في بيته يقول لأهله : تحدثوا فلست أسمع حديثكم . وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام . فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة فما شعر به حتى أطفئ ، وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير في المسجد الحرام يحسبه جذعًا منصوبًا لطول انتصابه في الصلاة . وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط . وختم القرآن في ركعة واحدة ، أربعة من الأئمة عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد ابن جبير ، وأبو حنيفة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ. ورأى الأوزاعي شابًا بين القبر والمنبر ، فلما طلع الفجر استلقى ثم قال : «عند الصباح يحمد القوم السرى » (٢) فقال : يا ابن أخي لك ولأصحابك لا للجمالين . وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة ، فقيل له: كيف تصبر ؟ فقال : « بلغني أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال: فلان صبور . وأنا بين يدي ربي أفلا أصبر على ذباب يقع علي . وقال أبو صفوان بن عوانة : « ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلي في القمر كأنه يشبه الملائكة » وقال الحسن : « ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة ـ عليها السلام ـ بنت رسول الله ﷺ ، وكانت تقوم بالأسحار حتى تورمت قدماها » . وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه ، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكانت دموعه تقع في مصلاه كوكف (٣) المطر ، وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان ، هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام . فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام) ؟. وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له : ادع الله أن يجعلني رفيقك في الجنة . فقال : « أعني على نفسك بكثرة السجود»(٤) . وقال حاتم الأصم(٥) ـ رحمه الله تعالى ـ : «فاتتني صلاة الجماعة مرة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا » . وكان السلف ـ رضي الله تعالى ـ عنهم يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ، وسبعًا إذا فاتتهم الجماعة . وقال ابن ـ عباس رضي الله عنهما ـ : «ركعتان مقتصدتان في تفكر ، خير من قيام ليلة والقلب ساه » .

---

(١) الإمام الحافظ البارع. أبو بكر . أحمد بن محمد بن عمر . . الإمام القدوة محمد بن المنكدر القرشى التيمى. المدنىّ المنكدرىّ . نزيل خراسان . سكن البصرة ، ثم أصبهان، ثم الرىّ ، ثم نيسابور . مات بـ«مرو» سنة٣١٤هـ.

(٢) مثل : الميدانى ١ / ٣٠٣ ، والفاخر ١٩٣ . وجمهرة الأمثال ٢ / ٤٢ . والسُّرَى : السير ليلا .

(٣) وكف : سال وتقاطر .

(٤) أخرجه مسلم فى الصلاة (٤٨٩) عن ربيعة بن كعب الأسلمى رضى الله عنه .

(٥) هو : عبد الرحمن بن علوان الزاهد . من قدماء المشايخ فى خراسان . من أهل بلخ . توفى ٨٥٢م.

وأنشد بعضهم :

خَسِرَ الذي تَرَكَ الصلاةَ وخابا   وأبى مَعَادًا صالحًا ومآبا
إن كان يجْحَدُها فحسبُك أنّه   أضحى بربِّكَ كافرًا مُرْتابا
أو كان يتركُها لنوعِ تكاسلٍ   غَطَّى على وجه الصوابِ حجابا
فالشافعيُ ومالكُ رأيَا له   إن لم يتبْ حَدّ الحسامِ عقَابا
والرأيُ عندي للإمامِ عذابُه   بجميع تأديبٍ يراه صوابا

اللهمَّ أعنا على الصلاة وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شىء من فضل السواك والأذان .

أما السواك : فقد قال الرسول لله : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » (١) وقال أيضًا : «صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك» (٢) وقال حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ: « كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجد شاص(٣) فاه بالسواك » . وقال ﷺ : « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب »(٤) . وعنه ﷺ أنه قال : « لو يعلم الناس ما فى السواك لبات مع الرجل فى لحافه »(٥) . وقال أيضًا : « أفواهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها »(٦) . والاختيار فى السواك أن يكون بعود الأراك (٧) . ويجزى بغيره من العيدان وبالسعد والإشنان(٨) ، والخرقة الخشنة وغير ذلك مما ينظف . ويستاك عرضًا مبتدئًا بالجانب الأيمن من فيه، وينوى به الإتيان بالسنة . والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان . وقال الأصحاب يقول عند السواك : « اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين » . ويستاك فى ظاهر الأسنان وباطنها ، ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه إمرارًا لطيفًا ، ويستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد اللين ، فإن اشتد يبسه لينه بالماء، وقد قيل : إن من

(١) رواه البخارى فى « الجمعة » (٨٨٧) ومسلم فى « الطهارة » (٥٧٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٢) ضعيف . رواه أحمد (٦ / ١٤٦) والبزار (٥٠١ كشف الأستار) وابن خزيمة (١٣٧) والحاكم (١ / ١٤٦) وانظر الضعيفة (١٥٠٣) .
(٣) شاص : نقَّى فمه ونظف أسنانه بالسِّواك .
(٤) حسن رواه البخارى تعليقًا فى « الصوم » (٤ / ١٥٨) والنسائى فى « الطهارة » (١ / ١٠) وأحمد (٦ / ٤٧، ٦٢ ، ١٢٤ ، ١٤٦ ، ٢٣٨) وابن خزيمة (١٣٥) .
(٥ ، ٦) لم أقف عليه .
(٧) الأراك : نبات شجيرى . كثير الفروع . ينبت فى البلاد الحارة . عيدانه تنظف به الأسنان .
(٨) الأشنان : شجر ينبت فى الأرض الرملية . يستعمل هو أو رماده فى غسل الثياب والأيدى .

فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ويسهل خروج الروح .

وأما الأذان: فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « يد الرحمن علي رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه » (١). قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [فصلت: ٣٣] . نزلت فى المؤذنين . وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة » (٢). رواه مسلم ، وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : « إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين » (٣) . رواه البخارى ، ومسلم ، وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة » رواه البخارى (٤). والأحاديث فى فضله كثيرة مشهورة والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث : فى الزكاة وفضلها

قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة فى مواضع شتى من كتابه . قال الله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] . وقال تعالى : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ [النور : ٣٧] . وقال تعالى : ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] . وعن بريدة ـ رضى الله تعالى عنه ـ: عن النبى ﷺ أنه قال : « ما حبس قومٌ الزكاةَ إلا حبَسَ اللهُ عنهم القَطْر» (٥) وعن عائشة ـ رضى الله عنهاـ عن النبى ﷺ قال : « ما خالطتْ الزكاةُ مالاً قط إلا أهلَكَتْه »(٦) . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى ﷺ قال : « من كان عنده ما يزكى به ولم يزك ومن كان عنده ما يحج ولم يحج سأل الرجعة » . يعنى قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠] .

ولْنُلحِقَ بهذا الفصل ذكر شىء من الصدقة ،وفضلها وما جاء فيها ، وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب، ودفع البلاء . قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف : ٨٨] . وقال تعالى : ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾ الآية [الأحزاب : ٣٥] . والآيات الكريمة فى ذلك كثيرة ، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة ، وروى الترمذى فى جامعه بسنده ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ: « خير

---

(١) ضعيف . . رواه أبو الشيخ فى الأذان والخطيب البغدادى فى تاريخه وابن النجار عن أنس رضى الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم فى الصلاة (٣٨٧) . (٣) أخرجه البخارى فى الأذان (٦٠٨).

(٤) البخارى فى الأذان (٦٠٩). (٥) حسن . رواه الحاكم (٢ / ١٢٦) والبيهقى (٣ / ٣٤٦) .

(٦) ضعيف . رواه الحميدى، وابن عدى والبغوى والقضاعى . وانظر تخريج أحاديث مشكلة الفقر للألبانى ص٣٩.

الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره »(١) . وفى صحيح مسلم، وموطأ مالك ، وجامع الترمذى ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نقص مال من صدقة » . أو قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا ، وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى » .

ودخلت امرأة شلاء على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالت : « كان أبى يحب الصدقة وأمى تبغضها ، لم تتصدق فى عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة ، فرأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت، وكأن أمى قد غطيت عورتها بالخلقة وفى يدها الشحمة تلحسها من العطش ، فذهبت إلى أبى وهو على حافة حوض يسقي الناس ، فطلبت منه قدحًا من ماء فسقيت أمى فنوديت من فوقى ألا من سقاها ؟، فشل الله يدها فانتبهت كما ترين » .

ووقف سائل على امرأة وهى تتعشى فقامت فوضعت لقمة فى فيه ، ثم بكرت إلى زوجها فى مزرعته ، فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة تريد قضاءها ، فاختلسه الذئب ، فوقفت وقالت : « يا رب ولدى » ، فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب ، فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر ، فقال لها : « هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتها فى فم السائل » .

وعشش ورشان(٢) فى شجرة فى دار رجل ، فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخ ذلك الورشان ، ففعل ذلك مرارًا ، وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخه، فشكا الورشان ذلك إلى سليمان ـ عليه السلام ـ وقال : يا رسول الله أردت أن يكون لى أولاد يذكرون الله تعالى من بعدى ، فأخذها الرجل بأمر امرأته ، ثم أعاد الورشان الشكوى ، فقال سليمان لشيطانين : « إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين » . فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير ، ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته ، فشكا الورشان ذلك إلى سليمان ـ عليه السلام ـ ، فقال للشيطانين : « ألم تفعلا ما أمرتكما به؟ » فقالا : اعترضنا ملكان فطرحانا فى الخافقين.

وقال النخعى(٣) : كانوا يرون أن الرجل المظلوم إذا تصدق بشىء دفع عنه البلاء . وكان الرجل يضع الصدقة فى يد الفقير ويتمثل قائمًا بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائل ، وقد قال رسول الله ﷺ : « الصدقة تسد سبعين بابًا من الشر »(٤) . وعنه ﷺ قال : « ردوا صدقة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من طعام »(٥) . وروى عنه ﷺ أنه قال : « ردوا

---

(١) حسن.رواه الترمذى فى « البر والصلة » (١٩٤٤).
(٢) الورشان : نوع من الحمام البرى أكدر اللون . فوق ذنبه بياض .
(٣) النخعى. المحدث العالم، أبو على.الحسين بن على بن محمد بن مصعب النخعى البغدادى.
(٤) ضعيف . رواه الخطيب البغدادى فى تاريخه عن أنس رضى الله عنه .
(٥) ضعيف . رواه العقيلى فى الضعفاء عن عائشة رضى الله عنها .

مذمة السائل ولو بظلف محرق » (١). وعنه أيضًا ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » (٢). وقال عيسى - صلوات الله وسلامه عليه - : « من رد سائلاً خائبًا لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام » (٣). وكان نبينًا محمَّد ﷺ يناول المسكين بيده ، وعنه ﷺ : « ما من مسلم يكسو مسلمًا ثوبًا إلا كان في حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة »(٤) . وقال عبد العزيز بن عمير : الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه. وعن الربيع بن خيثم(٥) أنه خرج في ليلة شاتية وعليه برنس خز (٦) ، فرأى سائلاً فأعطاه إياه ، وتلا قوله تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] . وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن سوء الخلق شؤم وحسن الملكة نماء ، والصدقة تدفع ميتة السوء » (٧) . وقال يحيى بن معاذ : ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة ، وعن عمر - رضي الله عنه - : أن الأعمال تباهت فقالت الصدقة : أنا أفضلكن ، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه أن - رسول الله ﷺ قال : « تداركوا الهموم والغموم بالصدقات يدفع الله ضركم وينصركم على عدوكم» ، وعن عبيد بن عمير قال : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأعطش ما كانوا قط ، فمن أطعم لله أشبعه الله، ومن سقى لله سقاه الله ، ومن كسا لله كساه الله. وقال الشعبي(٨): من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه. وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل ، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه ، فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنًا أو غيره مما ينتفع به ، فإن لم يكن عنده شيء أعطاه كحلاً أو أخرج إبرة وخيطًا فرقع بهما ثوب السائل .

ووجه رجل ابنه في تجارة فمضت أشهر ولم يقع له على خبر ، فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم ، فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالمًا رابحًا ، فسأله أبوه : هل أصابك في سفرك بلاء؟ قال: نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر ، وغرقت في جملة الناس ، وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط ، وقالا لي : قل لوالدك : هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك؟! وقال علي - رضي الله تعالى عنه، وكرم الله وجهه - : « إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك

---

(١) حسن . رواه مالك وأحمد والنسائى عن حواء بنت السكن رضى الله عنها .
(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة (١٤١٣). . (٣ ، ٤) لم أقف عليه.
(٥) الربيع : زاهد . أصيب فى آخر عمره بالفالج - الشلل - قيل له : ما نراك تعيب أحدًا . فقال : لست عن نفسى راضيًا فأتفرغ لذم الناس. توفى ٦٨٧م .
(٦) البرنس : ثوب يكون غطاء الرأس جزءًا منه متصلا به . الخَزّ : الحرير.
(٧) ضعيف : فى سنده عمر بن أبى شبيب وهو ضعيف وانظر: «العلل» لابن أبى حاتم (٢/ ٢٠٧).
(٨) هو (أبو عامر بن شراحيل) ٦٤٢ - ٧٢٣م تابعى . علامة الكوفة . محدث . من تلاميذه أبو حنيفة .

زادك فيوافيك به حيث تحتاج إليه ، فاغتنم حمله إياه » . ولله دَرُّ القائل حيث قال:

يَبْكي على الذَّاهبِ مِنْ مَالِهِ وإنَّما يَبْقَى الذي يذْهَبُ

وحُكي: أن رجلاً عَبَدَ الله سبعين سنة ، فبينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها، وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت إليها ، وأقبل على عبادته ، فولت المرأة، فنظر إليها ، فأعجبته فملكت قلبه وسلبت لبه ، فترك العبادة وتبعها وقال : إلى أين ؟ فقالت : إلى حيث أريد . فقال : هيهات صار المراد مريدًا والأحرار عبيدًا . ثم جذبها فأدخلها مكانه ، فأقامت عنده سبعة أيام ، فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة ، وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام ، فبكى حتى غشي عليه ، فلما أفاق قالت له : يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيري ، وأنا ما عصيت الله مع غيرك ، وإني أرى في وجهك أثر الصلاح، فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرني . قال: فخرج هائمًا على وجهه ، فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان ، وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم في كل ليلة بعشرة أرغفة، فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز ، فمد ذلك الرجل العاصى يده ، فأخذ رغيفًا ، فبقى منهم رجلاً لم يأخذ شيئًا ، فقال : أين رغيفى ؟ فقال الغلام : قد فرقت عليكم العشرة . فقال: أبيت طاويًا [1] ، فبكى الرجل العاصي وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه : أنا أحق أن أبيت طاويًا لأنني عاصٍ ، وهذا مطيع ، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك . فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل فر من ذنبه ، وجاء طائعًا . وقالت ملائكة العذاب : بل هو رجل عاص، فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذي آثر به نفسه . فوزنوا ذلك ، فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة ، وقبل الله توبته .

وحكي: أن رجلاً جلس يومًا يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية ، فوقف سائل ببابه ، فخرج إليه وانتهره ، فذهب ، فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته ، وطلق زوجته ، وتزوجت بعده برجل آخر ، فجلس يأكل معها في بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية ، وإذا بسائل يطرق الباب ، فقال الرجل لزوجته : ادفعي إليه هذه الدجاجة، فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول ، فدفعت إليه الدجاجة ورجعت وهي باكية ، فسألها زوجها عن بكائها، فأخبرته أن السائل كان زوجها ، وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول ، فقال لها زوجها : أنا والله ذلك السائل .

وذكر عن مكحول: أن رجلاً أتى إلى أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فقال : ادع الله لابني فقد وقع في نفسي الخوف من هلاكه . فقال له : ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأنجع

(١) طاويا : جائعا .

وأسرع إجابة؟ قال : بلى . قال : تصدق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامة ما معه ، فخرج الرجل من عنده ، وتصدق على سائل بدرهم ؛ وقال : هذا خلاص ولدي وسلامته وما معه ، فنادي في تلك الساعة منادٍ في البحر : ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث . فلما قدم سأله أبوه عن حاله؛ فقال : يا أبت لقد رأيت في البحر عجبًا يوم كذا وكذا في وقت كذا وكذا ـ، وهو اليوم الذي تصدق فيه والده عنه بالدرهم ، ـ وذلك أنَّا أشرفنا على الهلاك والتلف ، فسمعنا صوتًا من الهواء ، ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث : وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين .

والآثار والحكايات في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى والله أعلم .

الفصل الرابع : في الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة : ١٨٣] . قيل : الصوم عموم، وخصوص، وخصوص الخصوص: **فصوم العموم**: هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة ، **وصوم الخصوص**: هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، **وصوم خصوص الخصوص**: هو صوم القلب عن الهمم الدنية، وكفه عما سوى الله بالكلية . قال رسول الله ﷺ: « زكاة الجسد الصيام »(١) . وعنه ﷺ أنه قال : « للصائم فرحتان : فرحة عند إفطاره ، وفرحة عند لقاء ربه »(٢) . وقال وكيع في قوله تعالى : ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة : ٢٤] . إنها أيام الصوم تركوا فيها الأكل والشرب . وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : « من أفطر يومًا في رمضان من غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر »(٣). وروي في صحيح النسائي عنه أيضًا ﷺ أنه قال : «من أفطر يومًا في رمضان من غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر »(٤). وروي

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه البخارى فى « الصوم » (١٩٠٤) ومسلم فى « الصيام » (٢٢٦٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) ضعيف . رواه الترمذى (٧٢٣) وأبو داود (٢٣٩٦) وأحمد (٢ / ٣٨٦ ، ٤٤٢ ، ٤٧٠) وابن ماجه (١٦٧٢) وفى سنده أبو المطوس واسمه يزيد بن المطوس وهو مجهول الحال ثم هو أيضًا لم يسمع من أبى هريرة . وقال القرطبى : حديث ضعيف لا يحتج بمثله . وقال الذهبى : لا يثبت .

(٤) ضعيف . رواه النسائى فى « السنن الكبرى » (٣٢٧٨ ، ٣٢٧٩ ، ٣٢٨٠، ٣٢٨١ ، ٣٢٨٢ ، ٣٢٨٣) وفى سنده أبو المطوس وقد سبق بيان حاله.

في صحيح النسائي عنه أيضًا ﷺ أنه قال : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين » (١). وروى الزهري أن تسبيحة واحدة في شهر رمضان أفضل من ألف تسبيحة في غيره . وروي عن قتادة أنه كان يقول: من لم يغفر له في شهر رمضان فلن يغفر له في غيره. وقال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لتمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها ، ولو أذن الله للسموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة»(٢) . وقال ﷺ : « ليس من عبد يصلي في ليلة من شهر رمضان إلا كتب الله له بكل ركعة ألفًا وخمسمائة حسنة ، وبنى له بيتًا في الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب ، لكل باب منها مصراعان من ذهب ، وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام » (٣). وقال ﷺ : « إن لكل صائم دعوة فإذا أراد أن تقبل ، فليقل في كل ليلة عند فطره: يا واسع المغفرة اغفر لي »(٤) . وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : من صام يومًا من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا انسلخ عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول ، ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقًا على الله أن يرويه يوم القيامة . وقال بعضهم : الصيام زكاة البدن ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى. وروي في صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : « الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». وعنه ﷺ أنه قال : « صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر»(٥) وهي الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر، والخامس عشر، من كل شهر . وفي صحيح البخاري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وفضل الصوم غزير لأنه خصه الله تعالى بالإضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي ﷺ أنه قال مخبرًا عن ربه عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » . وقد يكتفى في فضله بهذا الحديث الجليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) هذا الحديث رواه أيضًا البخارى فى « الصوم » (١٨٩٨ ، ١٨٩٩) ومسلم فى « الصيام » (٢٤٥٦).

(٢) موضوع . رواه ابن الجوزى فى « الموضوعات » (٢ / ١٨٩ ، ١٩١) والحديث ذكره المصنف مكون من حديثين وقد حكم عليهما ابن الجوزى بالوضع .

(٣) لم أقف عليه وعلامات الوضع لائحة عليه .

(٤) لم أقف عليه .

(٥) رواه البخارى فى « الصوم » (١٩٧٩) ومسلم فى « الصيام » (٢٦٩١).

الفصل الخامس : في الحج وفضله

قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] . وقال رسول الله ﷺ : « مَن خرج من بيته حاجًا أو معتمراً فمات . أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة» (١) . وقال ﷺ : « من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيًا » (٢). وفي الحديث : « إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة» (٣) وفيه : « أعظم الناس ذنوبًا من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم في الدنيا» (٤). وفي الخبر : « أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة ، وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق » (٥). وجاء في الحديث الصحيح : أن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما قضى مناسكه لقيته الملائكة . فقالوا : يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام (٦). وقال مجاهد : إن الحجاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الإبل ، وصافحوا ركبان الحمر ، واعتنقوا المشاة اعتناقًا . وكان من سنة السلف ـ رضي الله عنهم ـ أن يشيعوا الغزاة ، ويستقبلوا الحجاج ويقبلوهم بين أعينهم ، ويسألوهم الدعاء لهم ، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام . وعن النبي ﷺ :« أن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف ، فإن نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة ، وأن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها » (٧) .

وحكي: أن جميلة الموصلية (٨) بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان حجت سنة ست

---

(١) حسن رواه أبو يعلى (٦٣٥٧) والطبرانى فى « الأوسط » (٥٣٢١) والبيهقى فى « شعب الإيمان» (٤١٠٠) وانظر : « الصحيحة » (٦ / ١١٧) .

(٢) ضعيف . رواه الدارمى (١٧٨٥) والبيهقى وأبو يعلى وسعيد بن منصور فى سننه وفى سنده ليث بن أبى سليم وهو ضعيف . وشريك النخعى سيئ الحفظ . وانظر : «الموضوعات » (٢ / ٢٠٩) .

(٣، ٤) لم أقف عليه .

(٥) حسن . رواه أحمد (١ / ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣٧١) والترمذى (٩٦١) وابن خزيمة (٢٧٣٥) وابن حبان (٣٧١٢) .

(٦) قول المصنف : وجاء فى الحديث الصحيح فيه تساهل وأن التصحيح دون ذكر مصدر الحديث فيه إخلال والحديث الذى ذكره لم أقف عليه . والله أعلم.

(٧) لم أقف عليه .

(٨) بنت صاحب الموصل الحمدانية . إحدى شهيرات النساء فى الكرم والعقل والجمال توفيت غرقًا فى دجلة سنة ٣٧١ هـ .

وثمانين فصارت تاريخًا مذكورًا . قيل : إنها سقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج ، واستصحبت البقول المزروعة في المراكن[١] على الجمال ، وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ، ولم تستصبح[٢] فيها وعندها إلا بشموع العنبر ، وأعتقت ثلاثمائة عبد ومائتي جارية ، وأغنت الفقراء والمجاورين . ولما بنى آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ البيت وقال : يا رب إن لكل عامل أجرًا ، فما أجر عملي ؟ قال : إذا طفت به غفرت لك ذنوبك . قال : زدني . قال : جعلته قبلة لك ولأولادك ، قال : يا رب زدني . قال : أغفر لكل من استغفرني من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك . قال : يا رب حسبي . وفي الحديث : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[٣] . وقيل للحسن: ما الحج المبرور؟ قال : أن ترجع زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة .

وأول من كسا الكعبة الديباج[٤] عبد الله بن الزبير، وكانت كسوتها المسوح والأنطاع[٥] وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم .وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة ، فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر ، وكان يطوف بالبيت فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه.

ورؤي الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ يطوف بالبيت ، ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول : عبيدك ببابك. خويدمك ببابك. سائلك ببابك. مسيكينك ببابك . يردد ذلك مرارًا ثم انصرف ـ رضي الله عنه ـ ، فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون ، فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام ، فجلس معهم ، وقال : لولا أنه صدقة لأكلت معكم. ثم قال : قوموا بنا إلى منزلي . فتوجهوا معه ، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم .

وحج عبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنه ـ ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكًا ، وحملهم على ثلاثين راحلة ، وأمر لهم بثلاثين ألفًا ، وقال: أعتقهم لله تعالى لعله يعتقني من النار . وقال الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ : إني لأستحيي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته ، فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرة .

---

(١) المراكن : جمع المركن : آنية لغسل الثياب .

(٢) إيقاد المصابيح واستضاءتها .

(٣) أخرجه البخارى فى « الحج » (١٧٧٣).

(٤) الثياب الحريرية ـ الثوب من الحرير الخالص .

(٥) المسوح الكساء من الشعر . والأنطاع : جمع نَطَع بساط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس . أو العذاب .

ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حبان الضرير حين لم يهد إليه الحجاج شيئًا :

كأنَّ الحجيجَ الآن لم يقرّبُوا منّيَ ... ولم يحمِلُوا منها سِوَاكًا ولا نَعْلاَ
أَتَوْنا فما جادُوا بعودِ أراكةٍ ... ولا وضعُوا في كفٍّ طفلٍ لنا نُقْلا (١)

وقال غيره :

يَحجُّون بالمالِ الذي يَجْمَعُونَه ... حرامًا إلى البيت العتيقِ المحرّمِ
ويزعمُ كُلٌّ منهم أن وِزْرَه(٢) ... يُحَطُّ ولكنْ فوقَه في جهنَّمِ

وقال آخر:

حَجَّ في الدَّهْر حجةً ... حَجَّ فيها وأحرما
وأتانا مِنَ الحجا ... زِ كما راحَ مُحْرِما
فهو ذو الحجةِ الذي ... ما تَوَقَّى مُحرَّمَا

وتخاصم بدوي مع حاج عند منصرف الناس فقيل له : أتخاصم رجلاً من الحجاج؟ فقال:

يَحُجُّ لِكَيْمَا يغفرُ الله ذنبَهُ ... ويرجَعُ قد حُطَّتْ عليه ذنوبُ

وقال أبو الشمقمق (٣) :

إذا حَجَجْتَ بمالٍ أصله دنسٌ ... فما حَجَجْتَ ولكنْ حَجَّتِ العيرُ
ما يقبلُ اللهُ إلاَّ كُلَّ طيبةٍ ... ما كُلُّ من حَجَّ بيتَ اللهِ مبرورُ

والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) النقل : ما يبقى من الحجارة عند هدم البيت. والنقل : أيضا النعل أو الخف .
(٢) الوِزْرُ : الذنب والإثم .
(٣) أبو الشمقمق : (نحو ٢٠٠ هـ = ـ نحو ٨١٥م) مروان بن محمد خرسانى الأصل . من أهل البصرة . شاعر هجاء كان يتهاجى مع شعراء عصره مثل بشار بن برد وتغلّب عليه . وهجا يحيى بن خالد البرمكى . وله أخبار مع شعراء عصره مثل أبى العتاهية وأبى نواس وابن أبى حفصة . وكان يهزل كثيرا ويجدّ فيكثر صوابه . قبيح المنظر . والشمقمق لغة : الطويل النشيط ؛ وفى التركية تعنى : المدلَّل.

في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك

نص الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل ،وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال ولوضحها،وبين بدائع مصنوعاته وشرحها ، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل : ١٢] ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل ، فأقبل ثم قال له : أدبر ، فادبر ، فقال عز من قائل : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أعز عليَّ منك . بك آخذ وبك أحاسب وبك أعاقب» (١) . وقال أهل المعرفة والعلم: العقل جوهر مضيء خلقه الله عز وجل في الدماغ ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة .

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين : قسم لا يقبل الزيادة والنقصان ، وقسم يقبلهما . فأما الأول: فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء . وأما الثاني: فهو العقل التجريبي وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع ، وباعتبار هذه الحالة يقال: إن الشيخ أكمل عقلاً وأتم دراية ، وإن صاحب التجارب أكثر فهمًا وأرجح معرفة ، ولهذا قيل : من بيضت الحوادث سواد لمته ، وأخلقت التجارب لباس جدته ، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته ، تصاريف أقداره وأقضيته. كان جديرًا برزانة العقل ورجاحة الدراية ؛ وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحًا على ذوى التجارب والآداب ، ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ فيما أخبر الله تعالى به فى محكم كتابه العزيز حيث يقول : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم:١٢]. فمن سبقت له سابقة من الله تعالى فى قسم السعادة ، وأدركته عناية أزلية ، أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية ، فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه ، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه ، وإن كان حديث السن قليل التجربة ، كما نقل فى قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبى حيث رد حكم أبيه داود ـ عليه السلام ـ فى أمر الغنم والحرث(٢) .

وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود ـ عليه السلام ـ أحدهما : صاحب غنم، والآخر : صاحب حرث . فقال أحدهما : إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثى فأهلكته

---

(١) ضعيف جدًا إن لم يكن موضوعًا . رواه الطبرانى فى « الأوسط » (١٨٤٥) وابن أبى الدنيا فى « العقل وفضله » (١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه . وفى سنده حفص بن عمر ضعفه أبو حاتم وقال أبو زرعة منكر الحديث . والفضل بن عيسى الرقاشى منكر الحديث . وقال ابن القيم : أحاديث العقل كلها كذب كقوله « لما خلق الله العقل » يقصد هذا الحديث . وكذا حكم ابن تيمية وابن الجوزى على أحاديث العقل كلها بالوضع .

(٢) الحرث : الزرع .

وأكلته ولم تبق لى فيه شيئًا ، فقال داود ـ عليه السلام ـ: الغنم لصاحب الحرث عوضًا عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرا على سليمان ، وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة ، فقال لهما : ما حكم بينكما الملك ؟ فذكرا له ذلك . فقال : غير هذا أرفق بالفريقين . فعادا إلى داود ـ عليه السلام ـ وقالا له ما قاله ولده سليمان ـ عليه السلام ـ فدعاه داود عليه السلام وقال له : ما هو الأرفق بالفريقين ؟ فقال سليمان : تسلم الغنم إلى صاحب الحرث . ـ وكان الحرث كرمًا (١) قد تدلت عناقيده فى قول أكثر المفسرين ـ فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها ، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به ، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التى كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته ، فقال له داود : القضاء كما قلت . وحكم به كما قال سليمان عليه السلام . وفى هذه القصة نزل قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] . فهذه المعرفة والدارية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة ، بل حصلت بعناية ربانية وألطاف إلهية ، وإذا قذف الله تعالى شيئًا من أنوار مواهبه فى قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب ، ورجح على ذوى التجارب والاكتساب فى كثير من الأسباب ، ويستدل على حصول كمال العقل فى الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه ، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته ، فإن المشاهدة من خصائص الأجسام. فأقول : يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها : ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال ، ورغبته فى إسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عارًا ويورثه سوء السمعة . وقد قيل لبعض الحكماء : بم يعرف عقل الرجل ؟ فقال: بقلة سقطه فى الكلام، وكثرة إصابته فيه. فقيل له: فإن كان غائبًا ، فقال: بإحدى ثلاث إما برسوله ، وإما بكتابه ، وإما بهديته ، فإن رسوله قائم مقام نفسه ، وكتابه: يصف نطاق لسانه، وهديته: عنوان همته ، فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها. وقيل : من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته (٢) للناس، ويكفى أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه . فإنه روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق » فمقتضاه أن من رُزِقَ تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس » وقال على بن عبيدة ، العقل ملك والخصال رعية ، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها . فسمعه أعرابى فقال : هذا كلام يقطر عسله. وقيل: بأيدى العقول تمسك أعنة النفوس ، وكل شىء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا . وقيل: لكل شىء غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد ، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار فى المروج(٣) . واختلف

(١) الكرْم : العنب . وابنة الكرْم : الخمر.

(٢) مداراته : طلب وجوه فآتاها وعالجها .

(٣) المروج : جمع مرج : أرض واسعة ذات نبات ومرعى للدواب .

الحكماء فى ماهيته (١). فقال قوم : هو نور وضعه الله طبعًا وغريزة فى القلب كالنور فى العين. وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور ، وعمى القلب كعمى البصر. قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج :٤٦]. وقيل: محل العقل الدماغ وهو قول أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ وذهب جماعة إلى أنه فى القلب كما روى عن الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] . وبقولـه تعالـى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق:٣٧] . أى عقل ، وقالوا : التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا : المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ، ولا يسقط لهم فهم ، وعليكم (٢) بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلـة وتجربـة.

قال الشاعر :

أَلَمْ ترَ أنَ العقلَ زينٌ لأَهْلِه ... ولكنْ تمامُ العقلِ طولُ التجاربِ

وقال آخر :

إذا طال عُمرُ المرءِ فى غير آفةٍ ... أفادَتْ له الأيامُ فى كَرِّها عَقْلاَ

وقال عامر بن عبد قيس : إذا عَقَلْكَ عَقَلَكَ (٣) عما لا يعنيك فأنت عاقل . ويقال : لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس . وقيل : يعيش بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان . قال الشاعر :

إذا لَمْ يكنْ للمرئِ عقلٌ فإنّه ... وإنْ كان ذا بيتٍ على الناس هَيِّنُ
وَمَنْ كانَ ذا عقلٍ أُجِلَّ لعقلِه ... وأفضلُ عقلٍ من يَتَدَيَّنُ

وقالوا : العاقل لا تبطره المنزلة السنية ، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح ، والجاهل تبطره أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح . وقيل لعلى ـ رضى الله عنه ـ : صف لنا العاقل ؟

---

(١) الماهية : ماهية الشىء كُنْهُهُ وحقيقته وجوهره .

(٢) عليكم : اسم فعل أمر بمعنى : الزموا.

(٣) عَقَلْكَ : الأول : هو اسم للعقل . وعَقَلَك : الثانى فعل ماض بمعنى المنع . والمعنى: إذا عقلك منعك عن أشياء لا تهمك . فهذا إصابة حكمة العقل وسلامة تصرفه فى الأمور . وفى الحديث : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » .

قال : هو الذى يضع الشىء مواضعه . قيل : فصف لنا الجاهل ؟ قال : قد فعلت. يعنى الذى لا يضع الشىء مواضعه . وقال المنصور (١) لولده : خذ عنى ثنتين : لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير . وقال أردشير (٢): أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب ، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة ، والعقل إلى التجربة . وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدى إلى أربعة : العقل إلى الرياسة ، والرأى إلى السياسة ، والعلم إلى التصدير ، والحلم إلى التوقير . وقال القاسم بن محمد : من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه. وقيل : أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه . وقيل : ثلاثة هن رأس العقل : مداراة الناس، والاقتصاد فى المعيشة ، والتحبب إلى النـاس وقيل : من أعجب برأى نفسـه بطل رأيه ، ومن ترك الاستماع من ذوى العقول مات عقله . وعن عمرو بن العاص ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغاراً ، وأرحمهم كباراً . وقيل : العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق . وقيل : لا ينبغى للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت ، ولا طعامًا حتى يستمرئه ، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه ، وقيل : طول اللحية أمان من العقل. وسئل بعضهم : أيما أحمد فى الصبا الحياء أم الخوف ؟ قال : الحياء لأن الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على الجبن. وقيل: غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله . وقال أبو الدرداء ـ رضى الله تعالى عنه ـ : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عويمر ازدد عقلا تزدد من الله تعالى قربًا » قلت: بأبى أنت وأمى ومن لى بالعقل ؟ قال : «اجتنب محارم الله وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلاً ، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد فى الدنيا عقلاً، وتزدد من الله قربًا وعزاً » (٣) . وحكى بعض أهل المعرفة قال : حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر ، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم. ويروى عن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إنّ المكارمَ أخلاقٌ مطهرةٌ ... فالعقلُ أولُها والدينُ ثانيها
والعلمُ ثالثُها والحِلْمُ رابِعُها ... والودُّ خامِسُها والعُرْفُ ساديها
والبرُّ سابعُها والصَّبْرُ ثامنها ... والشكرُ تاسعُها واللين عاشيها
والعينُ تعلمُ من عينىّ مُحدِّثَها ... إنْ كانَ مِنْ حزبها أو مِن أعَاديها
والنفسُ تعلمُ أنّى لا اصدقُهُا ... ولسْتُ أرْشُدَ إلاّ حين أعْصيَها

---

(١) الخليفة العباسى الثانى . فى عهده تأسست مدينة بغداد ، عاصمة الخلفاء العباسيين توفى (١٥٨هـ ـ٧٧٥م) .
(٢) أردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية حكم إيران من (٢٢٤ ـ ٢٤١م) وآخر الحفيد أردشير بن هرمز بن سابور وهما اثنان : أحدهما من الأسرة الساسانية والثانى من الأسرة الهخامنشية .
(٣) لم أقف عليه .

وقال بعض الحكماء : العاقل من عقله فى إرشاد ، ورأيه فى إمداد ، فقوله سديد ، وفعله حميد . والجاهل من جهله فى إغراء ، فقوله سقيم ، وفعله ذميم . ولا يكتفى فى الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفه ونظافة بزته(١) ، إذ كم من كنيف مبيض، وجلد مفضض . وقد قال الأصمعى(٢) : رأيت بالبصرة شيخًا له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة ، وحوله حاشية وهرج ، وعنده دخل وخرج ، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت : ما كنية سيدنا ؟ فقال : أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، قال الأصمعى: فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله ، ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله . وقد يكون الرجل موسومًا بالعقل مرموقًا بعين الفضل ، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله . وقيل : إن إياس بن معاوية(٣) القاضى كان من أكابر العقلاء ، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها ، فكان من جملة الوقائع التى صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه فى زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة ، فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج ، فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيسًا فيه جملة من الذهب ، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده ، فجاء إلى القاضى إياس وقص عليه القصة ، فقال القاضى : هل أخبرت بذلك أحدًا غيرى ؟ قال : لا . قال : فهل علم الرجل أنك أتيت إلى ؟ قال : لا . قال : انصرف واكتم أمرك ، ثم عد إلى بعد غد . فانصرف . ثم إن القاضى دعا ذلك الرجل المستودع ـ فقال : قد حصل عندى أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيئ لها موضعًا حصينًا . فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل ، فقال له القاضى إياس : امض إلى خصمك واطلب منه وديعتك ، فإن جحدك فقل له : امض معى إلى القاضى إياس أتحاكم أنا وأنت عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته فجاء إلى القاضى وأعلمه بذلك . ثم إن ذلك الرجل المستودع ـ جاء إلى القاضى طامعًا فى تسليم المال ، فسبه القاضى وطرده . وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره . ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها . فقال : الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض ، فتمكننا الغرة(٤) منهم والوثبة عليهم ، وعقدوا لذلك

---

(١) صلفة : الصلف : التمدح بما ليس فيه أو عنده وادعى فوق ذلك إعجابًا وتكبرًا . والبزة : الثياب

(٢) هو عبد الملك بن قريب الباهلى . أبو سعيد الأصمعى . راوية العرب . وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان . تصانيفه كثيرة ، منها : « الإبل » و « الأضداد » . ولد بالبصرة وتوفى فيها سنة ٢١٦ هـ .

(٣) هو إياس بن معاوية بن قرة المزنى قاضى البصرة . اشتهر بعدله فى القضاء ، وضرب به المثل : « أزكى من إياس » مجمع الأمثال : ١ / ٣٢٥ ، (ت ٧٣٩ م) .

(٤) الغرة : الغفلة . والوثبة : القفزة دفعة واحدة والظفر والنصر .

المشورات ، وتراجعوا فيه بالمناظرات ، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر . وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة والرأى غائبًا عنهم ، فقالوا : من الحزم عرض الرأى عليه. فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال : لا أرى ذلك صوابًا . فسألوه عن علة ذلك فقال : فى غد أخبركم إن شاء الله تعالى . فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا : قد وعدتنا أن تخبرنا فى هذا اليوم بما عولنا (١) عليه، فقال : سمعًا وطاعة . وأمر بإحضار كلبين عظيمين كان قد أعدهما ، ثم حرض بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر ، فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما ، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئبًا كان قد أعده لذلك ، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعًا على الذئب فقتلاه . فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال : مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب ، لا يزال الهرج (٢) بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم ، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء .

وأما ذم الأحمق : فقد قال ابن الأعرابى (٣) : الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأى، فلا يشاور ولا يلتفت إليه فى أمر من الأمور . والحمق: غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت . قال الشاعر :

لِكُلِّ داءٍ دواءٌ يُستطبُّ بِه إلا الحماقةَ أعيتْ مَنْ يُداوِيهَا

والحمق مذموم . قال رسول الله ﷺ : « الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل » ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ ، فمن أفرط طول لحيته قل دماغه ، ومن قل دماغه قل عقله ، ومن قل عقله فهو أحمق . وأما صفته من حيث الأفعال : فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه ، والعجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب ، وكثرة الالتفات والخلو من العلم ، والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء ، إن استغنى بطر وإن افتقر قنط (٤) ، وإن قال أفحش، وإن سئل بخل، وإن سأل ألح ، وإن قال لم يحسن ، وإن قيل له لم يفقه ، وإن ضحك قهقه،

---

(١) عوَّل : استعان به .

(٢) الهرج : الوقوع فى فتنة واختلاط وقتل .

(٣) ابن الأعرابى : هو محمد بن زياد . من أهل الكوفة من أكابر أئمة اللغة . أخذ الأدب عن أبى معاوية الضرير والمفضل الضبى ـ صاحب المفضليات ـ من مؤلفاته : « النوادر » و « الأنوار » توفى سنة ٢٣١ هـ .

(٤) بطر : عدم الشكر عند حدوث النعمة وطغى بها فصرفها إلى غير وجهها . أى : استخفها جهلا وكبرًا فلم يشكرها . قنط : يئس .

وإن بكى صرخ ، وإن اعتبرنا هذه الخلال (١)وجدناها في كثير من الناس ، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق . قال عيسى ـ عليه السلام : «عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما ، وعالجت الأحمق فأعياني » والسكوت عند الأحمق جوابه . ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال : حجر على حجره.

وحكي : أن أحمقين اصطحبا في طريق ، فقال أحدهما للآخر : تعال نتمن على الله فإن الطريق تقطع بالحديث . فقال أحدهما : أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها . وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئًا . قال : ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة . فتصايحا وتخاصما ، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق ، ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكمًا بينهما ، فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقّان (٢)من عسل ، فحدثاه بحديثهما ، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، قال : صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء، وأعشبت الأرض ، فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال : يا رب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا ، فبلغ ذلك بعض الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، فهم أن يدعو عليه ، فأوحى الله إليه : لا تدع عليه فإني أجازي العباد على قدر عقولهم . ويقال : فلان ذو حمق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه . وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال :

وما هَوَجِي يا هِندُ إلا سَجِيَّةٌ أجُرُّ لها ذَيْلي بحُسْنِ الخَلائق (٣)
ولو شِئتُ خادعْتُ الفتى عن قَلُوصِه ولاطمْتُ في البَطْحاء من كلِّ طارقِ(٤)

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح ، والحمق المؤذي : هو من بقر سقر . والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) الخلال : جمع خلَّة : الخصلة . يقال : فيه خلَّة حسنة وخَلَّة سيئة .
(٢) زقاق . الزِّق : وعاء من جلد يُجزُّ شعره . يتخذ للماء والشراب وغيره . جمع أزقّاق وزِقاق .
(٣) هوجى : طولى . سجيَّة: الطبيعة والخُلُق . الخلائق : جمع خليقة وهى الطبيعة التى يخلق عليها الإنسان .
(٤) القلوص: الناقة الشابة القوية على السير . البطحاء : الوادى المنبسط الواسع . الطارق : الآتى ليلا .

في القرآن وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧ ، ٢٢, ٣٢ ، ٤٠] وسمى الله تعالى القرآن كريمًا فقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ . وسماه حكيمًا ، فقال تعالى: ﴿يسٓ ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١ ، ٢] . وسماه مجيدًا فقال تعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١] . أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ـ ، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الإتيان بآية من مثله ، قال تعالى : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة : ٢٣] . وقال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] فهو النور المبين والحق المستبين لا شيء أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ولا أكثر من إفادته ولا ألذ من تلاوته ، قال رسول الله ﷺ : « القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم »(١) . وقال أيضًا ﷺ : « أصغر البيوت بيت صفرٌ من كتاب الله تعالى »(٢) . وقال الشعبي (٣) : الذي يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل ، ووفد غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، ومعه ابنه الفرزدق (٤) فقال له: من أنت؟ قال: غالب بن صعصعة . قال : ذو الإبل الكثيرة ؟ قال: نعم . قال: فما فعلت بإبلك؟ قال : أذهبتها النوائب وزعزعتها (٥) الحقوق . قال: ذلك خير سبلها . ثم قال له : يا أبا الأخطل من هذا الذي معك ؟ قال: ابني وهو شاعر . قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر . فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى (٦) على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة وفي ذلك قال :

وما صَبَّ رِجْلي في حديدِ مجاشعٍ ... مع القيدِ إلا حاجةٌ لي أُرِيدُهَا

---

(١) ضعيف . رواه الترمذى فى« فضائل القرآن » (٢٩٠٦) وضعفه .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) هو عامر بن شراحيل . . الشعبى الحميرى . من التابعين . راوية . وهو من رجال الحديث الثقات . فقيها . شاعرًا توفى بالكوفة سنة ١٠٣ هـ .

(٤) النوائب : جمع نائبة وهى المصائب والنوازل . زعزعتها : فرقتها .

(٥) آلى على نفسه : أقسم وحلف .

وقال أنس ، ـ رضي الله عنه ـ : قال رسول الله ﷺ : « يا بني لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت وإذا أمسيت، فإن القرآن يحيي القلب الميت ، وينهي عن الفحشاء والمنكر » .

وحكى الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار قال : ومن حكايات الحشوية ما قيل : إن إبراهيم الخواص مر بمصروع فأذن في أذنه فناداه الشيطان من جوفه دعني أقتله فإنه يقول : القرآن مخلوق. وكان سفيان الثوري - رحمه الله تعالى ـ إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة ، وأقبل على قراءة القرآن . وكان الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالى ـ إذا دخل شهر رمضان يفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم ، ويقبل على القراءة في المصحف . وكان أبو حنيفة ، والشعبي ـ رحمهما الله تعالى ـ يختمان في رمضان ستين ختمة . وقال علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ: من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً . وقال الشعبي : اللسان عدل على الأذن والقلب فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك . وقال رسول الله ﷺ: « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي فقد استصغر ما عظم الله » (١). وعنه ﷺ أنه قال : «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد» . قيل : يا رسول الله وما جلاؤها ؟ قال : « قراءة القرآن وذكر الموت» (٢). وقال عمر بن ميمون : من نشر مصحفًا حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا . وقال علي ـ كرم الله وجهه ـ: من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة، ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات . وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : لأن أقرأ البقرة . وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة (٣) . وقال رسول الله ﷺ : « اقرءوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » (٤) . وعن صالح المزني قال : قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: « يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟» وكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الإثنين بطه إلى طسم نبأ موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ويختم ليلة الخميس . وعن علي ـ رضي الله عنه ـ : لا خير في

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) رواه ابن شاهين فى الترغيب فى الذكر .

(٣) الهذرمة : السرعة فى القراءة .

(٤) رواه ابن نصر عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه .

عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها . وكان عكرمة بن أبي جهل ـ رضي الله تعالى عنه ولعن أباه ـ، إذا نشر المصحف أغمي عليه ويقول : هو كلام ربي . وأبطأت عائشة ـ رضي الله عنها ـ على رسول الله ﷺ ليلة ، فقال : « ما حبسك»؟ قالت: قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتًا منه فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال : « هذا سالم مولى أبي حذيفة ، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله » ، وقال ابن عيينة ، رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت : يا رسول الله قد اختلفت علي القراءات فعلى قراءة من تأمرني فقال : « على قراءة أبي عمرو » . وعن أبي عمرو إني لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فقرأت عليهم (فاشدد بها يدك) . فينبغي للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهارًا سفرًا وحضرًا .

وقال الشيخ محيي الدين النووي - رحمه الله تعالى في كتابه الأذكار : قد كان للسلف ـ رضي الله عنهم ـ عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه ، فكانت جماعة منهم يختمون في كل شهر ختمة ، وآخرون في كل شهر عشر ليال ختمة، وآخرون في كل ثلاث ليال ختمة ، وكان كثيرون في كل يوم وليلة ختمة ، وختم جماعة في كل يوم وليلة ختمتين ، وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمان ختمات ، أربعًا في الليل ، وأربعًا في النهار ، وروي أن مجاهدًا ـ رحمه الله تعالى ـ كان يختم القرآن في شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء . وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم ، فمنهم عثمان بن عفان ، وتميم الداري، وسعيد بن جبير ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ، وروينا في مسند الإمام المجمع على حفظه وجلاله وإتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي رحمه الله ، عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ ، قال : إذا وافق ختم القرآن أول الليل ، صلت عليه الملائكة حتى يصبح ، وإذا وافق أول النهار ، صلت عليه الملائكة حتى يمسي ، قال الدارمي : هذا حديث حسن عن سعد ، وأفضل القراءة : ما كان في الصلاة وأما في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل ، والنصف الأخير منه أفضل من الأول ، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد الصبح ، ولا كراهة في وقت من الأوقات ، ولا في أوقات النهي عن الصلاة ، ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة . وقيل : إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن ، وإن الرحمة تنزل عند ختمه ، ويستحب الدعاء عقب الختم استحبابًا مؤكدًا تأكيدًا شديدًا . ويجب على القارئ الإخلاص في قراءته ، وأن يريد بها وجه الله تعالى وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شيء سوى ذلك ، وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر في ذهنه أنه يناجي ربه سبحانه وتعالى ، ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى ، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه ، وينبغي للقارئ إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع فهذا هو المقصود المطلوب وبه تنشرح الصدور ويتيسر

المرغوب، ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ،وقد كان الواحد من السلف ـ رضي الله عنهم ـ يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها ويستحب البكاء والتباكي لمن لا يقدر على البكاء فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين ، وشعار عباد الله الصالحين ، قال الله تعالى : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩]، وقال السيد الجليل ـ صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف ـ إبراهيم الخواص ـ رضي الله تعالى عنه ـ : دواء القلب خمسة أشياء ، قراءة القرآن بالتدبر ، وخلو البطن، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين ، وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة ، وآثار بفضيلة الإسرار ، قال العلماء : إن أراد القارئ بالإسرار بعد الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك ، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذي غيره، من مصل أو نائم أو غيرهما ، والأحاديث في فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة ، من أراد الزيادة فلينظر في كتاب (التبيان في آداب حملة القرآن) لشيخ مشايخ الإسلام محيي الدين النووي[(١)] ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ ، وقد جاء في فضل القرآن أحاديث كثيرة. وروي في فضل قراءة سور من القرآن في اليوم والليلة فضل كبير ، منها يس ، وتبارك الملك ، والواقعة ، والدخان ، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له[(٢)] ،وفى رواية له « من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح مغفوراً له» ، وفي رواية عن ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة »[(٤)] ، وعن جابر رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ ألم تنزيل الكتاب، وتبارك الملك ، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : من قرأ في ليلة : ﴿إذا زلزلت الأرض﴾ كانت له كعدل نصف القرآن، ومن قرأ :﴿ يا أيها الكافرون﴾ كانت له كعدل ربع القرآن ، ومن قرأ : ﴿ قل هو الله أحد . .﴾ كانت له كعدل الثلث، والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة ، وقد أشرنا إلى المقاصد منها، والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) يحيى بن شرف بن مرى بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووى. الدمشقى الشافعى (محيى الدين، أبو زكريا) فقيه. محدث. حافظ. لغوى. شارك فى العلوم . ولد بـ «نوى» من أعمال حوران. من آثاره الكثيرة: «الأربعون النووية » فى الحديث، و«ووصية الطالبين وعمدة المفتين» فى فروع الفقه الشافعى. و«تهذيب الأسماء واللغات . « التبيان فى آداب حملة القرآن» و «رياض الصالحين» وغيرهم توفى سنة (٦٧٧هـ).

(٢) ضعيف . رواه ابن حبان (٢٥٧٤ ـ إحسان) وفى سنده الحسن البصرى وهو مدلس وقد عنعنه .

(٣) ضعيف . رواه ابن الضريس عن الحسن البصرى مرسلا .

(٤) ضعيف . رواه ابن سلام فى « فضائل القرآن » ص ١٣٨ .

في العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] . وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلَّموا العلم فإن تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد ، وطلبه عبادة ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، وبيان سبيل الجنة ، والمؤنس فى الوحشة ، والمحدث فى الخلوة ، والجليس فى الوحدة ، والصاحب فى الغربة ، والدليل على السراء، والمعين على الضراء ، والزين عند الأخلاء ، والسلاح على الأعداء، بالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار في الدرجات العلى ، ومجالسة الملوك في الدنيا ، ومرافقة الأبرار في الآخرة ، والفكر في العلم يعدل الصيام ، ومذاكرته تعدل القيام ، وبالعلم توصل الأرحام وتفصل الأحكام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وبالعلم يعرف الله ويوحد، وبالعلم يطاع الله ويعبد »(١) .

قيل : العلم دَرْكُ حقائق الأشياء مسموعًا ومعقولاً ، وقال النبي ﷺ : « خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل »(٢) ، وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ، ولغدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة ، ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا وملك موكل به . يبشر بالجنة ، ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة »(٣) ، وقال على كرم الله وجهه ـ : أقل الناس قيمة أقلهم علمًا ، وقال أيضًا ـ رضى الله عنه ـ: العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون ، والحكماء وسط البحر يغوصون ، والعارفون فى سفن النجاة يسيرون . وقال موسى ـ عليه السلام ـ فى مناجاته : إلهى من أحب الناس إليك ؟ قال : عالم يطلب علمًا ، وقال بعض السلف رضى الله عنهم ـ : **العلوم أربعة** : الفقه : للأديان ، والطب : للأبدان ، والنجوم : للأزمان ، والنحو : للسان ، وقيل : العالم طبيب هذه الأمة والدنيا داؤها ، فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره .

---

(١) موضوع : رواه ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم وفضله » (١ / ٥٤ ـ ٥٥) وفى سنده موسى بن محمد ابن عطاء البلقاوى كان يضع الحديث وشيخه عبد الرحيم بن زيد العمى كذاب .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) لم أقف عليه وعلامات الوضع لائحة عليه.

وسئل الشعبى عن مسألة فقال : لا علم لى بها ، فقيل له : ألا تستحي؟ ، فقال : ولِمَ أستحى مما لا تستح الملائكة منه حين قالت لا علم لنا ؟ ، وعن النبى ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » (١) ، وروى :« كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»(٢)، وقال على ـ كرم الله وجهه ـ : من نصب نفسه للناس إمامًا فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، وقيل : مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم ، وأنشدوا (٣) :

يا أيُّها الرجلُ المعلمُ غَيْرَهُ ... هَلاَّ لِنَفْسِكَ كان ذا التعليمُ
تَصِفُ الدَّواءَ لذى السَّقَام وَذِي الضَّنَى ... كَيْما يصحّ بِهِ وأنتَ سَقِيمُ(٤)
وأَرَاكَ تُلْقِحُ بالرَّشَادِ عُقُولَنَا ... أبدًا وأنتَ مِنَ الرَّشادِ عَدِيمُ(٥)
فابْدَأْ بنفسِك فانْهَهَا عن غيِّها ... فإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فأنتَ حكيمُ
فَهُنَاك يُسْمَعُ ما تقولُ ويُهتَدَى ... بالقولِ مِنْك ويَنْفَعُ التعليمُ
لاَ تَنْهَ عن خُلقٍ وتَأتِي مِثْلَهُ ... عارٌ عليكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقال بعضهم :

إنِّي رأيتُ الناسَ فى عَصْرِنا ... لا يطْلُبون العلمَ للعلمِ
إلاَّ مباهـــاةً لأصحابِـــه ... وَعُـــدّةً للغَـــشِّ والظلمِ

نظر رجل إلى امرأته وهى صاعدة السلم ، فقال لها : أنت طالق إن صعدت ، وطالق إن نزلت ، وطالق إن وقفت ، فرمت نفسها إلى الأرض ، فقال لها : فداك أبى وأمى إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة فى أحكامهم ، وقال النبى ﷺ : « هلاك أمّتى فى شيئين: ترك العلم ، وجمع المال »(٦) . وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال : «العلم بالله ،

---

(١) حسن . رواه الترمذى فى« العلم » (٢٦٨٥) .
(٢) حسن . رواه أبو داود فى« العلم » (٣٦٤١ و٣٦٤٢) والترمذى فى« العلم » (٢٦٨٢) وابن ماجة فى «المقدمة» (٢٢٣) .
(٣) الشعر لـ « أبو الأسود الدؤلى » من الشواهد النحوية منهم سيبويه (١ / ٤٢٤) ونسبه للأخطل . وذكره الأعلم فى شرح شواهده أنه لأبى الأسود ، ومنهم الأشمونى ، وابن هشام .
(٤) السَّقام : المرض . الضَّنَى : مرض فتمكن منه الضعف والهزال .
(٥) تلقح: تدخل فى العقول خلاصة تجاريك الأمور ، ونظرك فى العواقب . يقال: جرَّب الأمور فلقّحت عقله .
(٦) لم أقف عليه .

والفقه فى دينه » ، وكررها عليه ، فقال : يا رسول الله : أسألك عن العمل ، فتخبرنى عن العلم ، فقال : « إن العلم ينفعك معه قليل العمل ، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل» (١).
وقال عيسى عليه السلام : من علم وعمل عُدَّ فى الملكوت الأعظم عظيمًا .

وقال الخليل عليه السلام : العلوم أقفال والأسئلة مفاتيحها ، وعنه عليه السلام : زلة العالم مضروب بها الطبل ، وزلة الجاهل يخفيها الجهل ، وقال الحسن : رأيت أقوامًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق ، فاطلبوا العلم طلبًا لا يضر بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضر بالعلم .

وقال يزيد بن ميسرة : من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجوه العباد إليه ، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه ، وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ألا أخبركم بأجود الأجواد ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول الله . قال: « الله أجود الأجواد ، وأنا أجود ولد آدم ، وأجود من بعدى رجل علم علمًا فنشره ، يبعث يوم القيامة أمة وحده ، ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل » . وقال الثورى (٢): كان يقال: العالم الفاجر فتنة لكل مفتون ، عن الفضيل (٣) رحمه الله تعالى أنه قال : لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوا حيث أنزله الله إذًا لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس ، وكانوا لهم تبعًا، ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فأعظم بها منْ مصيبة والله أعلم ، وللقاضى العلامة أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى (٤)وقد أحسن كل الإحسان كأنما طرزت فى خَلَع حسان :

ولم أَقْضِ حَقَّ العلِم إن كُنْتُ كُلَّمَا ... بدا طمعٌ صَيَّرتُه لى سُلَّما
ولم أبتذلْ فى خدمةِ العِلم مُهْجَتى ... لأخدُمَ من لاقيتُ لكِنْ لأخْدَمَا
أأشقى به غَرسًا وأَجْنِيه ذِلَّةً ... إذًا فأتباعُ الجهلِ قَدْ كانَ أسْلَمَا

(١)لم أقف عليه .
(٢)هو سفيان الثورى (٧١٥ ـ ٧٧٨ م) من أئمة المحدثين ، وعلماء الكلام الصوفيين فى العراق . استقل برأيه ولم يهب غضب الخليفة . له :« الجامع الكبير » و « الجامع الصغير » و « الفرائض » توفى سنة١٦١هـ.
(٣)هو أبو عبد الله فضيل بن عياض . نشأ فى أبيورد ؛ وتعاطى السرقة على الطريق ؛ ثم سمع القرآن فتاب . درس الحديث فى الكوفة . ودخل بلاط هارون الرشيد ، ودعا الناس إلى التقشف . توفى سنة (٨٠٣م) .
(٤)على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجانى. أبو الحسن أحد القضاة الأدباء . ولد بجرجان ، وولى قضاءها ، ثم قضاء الرى فقضاء القضاة . توفى بينسابور سنة ٣٩ هـ . له « ديوان شعر » و « الوساطة بين المتنبى وخصومه » و « تهذيب التاريخ ».

فإنْ قُلْتُ زَنْدُ العلمِ كابٍ فإنَّما كَبَا حين لم نحرسْ حِمَاهُ وأظْلَمَا(١)
ولَوْ أنّ أهلَ العلمِ صَانوه صَانَهُمْ ولَوْ عَظَّمُوه فى النفوسِ لعُظّما
ولكِنْ أهانوهُ فهَانُوا ودنَّسُوا مُحَيّاهُ بالأطْماعِ حتى تَجَهَّما(٢)

وقيل : من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره ، وقال الفضيل : شر العلماء من يجالس الأمراء ، وخير الأمراء من يجالس العلماء ، وقال لقمان : جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بماء السماء ، وقيل : من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار ، وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طالبي العلم قال : مرحباً بكم ينابيع الحكمة ومصابيح الظلمة ، خلقان الثياب جدد القلوب ، رياحين كل قبيلة، وقال علي رضي الله عنه : كفى بالعلم شرفًا أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح به إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه ، وعن النبى ﷺ : « ما آتى الله أحدًا علمًا إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحدًا »(٣)، ودعا بعضهم لآخر فقال: جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية ، وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعلمه ، وعن عمر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « على باب الجنة شجرة تحمل ثمارًا كَثُدِىٍّ النساء ، يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب ، والناس عِطاش ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، من تعلم بابًا من العلم ليعلمه للناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبيًا، وعن أنس رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ : « ويل لأمتى من علماء السوء ، يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم »(٤) .

شعر :

العلْمُ أنفسُ شىءٍ أنتَ داخِرُهُ مَنْ يَدرُسِ العلمَ لم تُدرَسْ(٥) مفاخِرُهُ
أقْبِلْ على العلمِ واستقبلْ مقاصدَهُ فأوَّلُ العلــمِ إقبــالٌ وآخــرُهُ

قال الشعبى(٦) : دخلت على الحجاج حين قدم العراق ، فسألنى عن اسمى ، فأخبرته ، ثم

---

(١) زند : قدح وأخرج نوره وناره ـ سطوعه . كابٍ من كبا : سقط وتعثر .
(٢) محياه : احتشم وخجل . تجّهما : استقبله بوجه كريه .
(٣) ضعيف جدًا . رواه ابن الجوزى فى«العلل » عن أبى هريرة رضى الله عنه انظر «ضعيف الجامع »(٤٩٧٦) .
(٤) ضعيف . رواه الحاكم فى تاريخه « ضعيف الجامع » (٦١٥٢) .
(٥) بلى وذهب أثره.
(٦) عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى أبو عمر . اتصل بعبد الملك بن مروان ؛ وكان سميره ونديمه . ولد لسبعة أشهر . والشعبى نسبة إلى شعب وهو بطن بن همدان ولد بالكوخة وتوفى بها سنة ١٠٣ هـ .

قال : يا شعبى : كيف علمك بكتاب الله ؟ قلت : عنى يؤخذ ، قال: كيف علمك بالفرائض؟ قلت : إلى فيها المنتهى ، قال : كيف عِلْمُك بأنساب الناس ؟ قلت : أنا الفيصل فيها ، قال : كيف علمك الشعر ؟ قلت : أنا ديوانه ، قال : لله أبوك ، وفرض لى أموالاً ، وسودنى على قومى ، فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان [١] ، وخرجت وأنا سيدهم .

قال البستى [٢] :

إذا لمْ يزدْ علمُ الفتى قلبَهُ هدىً ... وَسيَرتَه عَدْلاً وأخلاقَهُ حُسْناَ
فَبشِّرهُ أنّ اللهَ أَوْلاه فتنةً ... تغشّيه حِرمانًا وتوسعِهُ حُزْنَا

وقال الهيثم بن جميل : شهدت مالك بن أنس رضى الله عنه ، سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال فى اثنـتين وثلاثين منها لا أدرى ، وقال الأوزاعى[٣] : شكت النواويس[٤] إلى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار ، فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه ، وقال على رضى الله عنه : من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض ، ولصالح اللخمي شعـــر :

تَعَلَّمْ إذَا ما كُنْتَ لَسْتَ بعالمٍ ... فما العلمُ إلا عِنْدَ أهلِ التعلُّمِ
تَعَلَّمْ فإنّ العلمَ أزينُ للفتى ... من الحُلَّةِ الحسناءِ عند التكلمِ

ودخل عبد الله بن مسلم الهذلي على المهدي في القـراء فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دخل في الرماة ، فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دخل في المغنين فأخذ كذلك ، ثم دخل في القصاص فأخذ كذلك ، فقال المهدي : لم أر كاليوم لما يجمع الله في أحد منك . وملَّ جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه في بيت فرقي السطح ، وجعل يستمع من كوة ، حتى وقع عليه الثلج ، فصبر ، فشكر الله ذلك ، فجعله إمام الحكماء لا يختلفون في شيء إلا صدروا عن

---

(١) هَمْدان : موقعها شمالى صنعاء وغربى مأرب ونجران . وهى قبيلة عربية فرع من اليمنيين . كانت أراضيهم مركزا عاليا لثقافة عربية عالية .

(٢) أبو الفتح البستى على بن محمد بن الحسين . شاعر وكاتب . ولد فى بست قرب سجستان وإليها نسبته . من كتاب الدولة السامانية فى خراسان . مات غريبا فى بلده أو جند ببخارى سنة ٤٠٠ هـ . له ديوان شعر.

(٣) عبد الرحمن الأوزاعى (٨٩ـ١٥٨هـ ـ ٧٠٧ ـ ٧٧٤ م) ولد فى بعلبك . من أئمة الفقهاء فى الإسلام . كان جريئًا . احتج بقوة على الجرائم التى اقترفها العباسيون فى لبنان بعد ثورة المنيطرة (٧٥٩ م) توفى فى بيروت ، ودفن فى قبلة المسجد المعروف باسمه .

(٤) النواويس : جمع الناووس : مقبرة النصارى .

رأيه ، وشكا رجل[١] إلى وكيع بن الجراح [٢] سوء الحفظ ، فقال له : استعن على الحفظ بترك المعاصي ، فأنشأ يقول :

شَكَوْتُ إلى وكيعٍ سوءَ حِفْظِي ... فأرْشَدَني إلى تَرْكِ المعَاصِي
وَذلِكَ أنَّ حِفْظَ العِلْمِ فَضْلٌ ... وفضلُ اللهِ لا يُؤْتَى لِعَاصِي

ووُجِدَ في بعض الآثار عن بعضهم أنه قال : إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب أو المصحف أو ابتداء القراءة في كل شيء أردت : بسم الله وسبحان الله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عدد كل حرف كُتِبَ ويُكْتَبُ أبد الآبدين، ودهر الداهرين ، وصلى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

قيل : وإذا أردت أن لا تنسى حرفًا فقل قبل القراءة : اللهمَّ افتح علينا حكمتك ، وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والإكرام . وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة : آمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه .

(ومن فوائد سيدي الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى في الحفظ) يقرأ في كل يوم عشر مرات ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٧٩] يا حي يا قيوم يا رب موسى وهارون ، ويا رب إبراهيم ، ويا رب محمَّد عليه وعليهم الصلاة والسلام ، ألزمني الفهم وارزقني العلم والحكمة والعقل ، برحمتك يا أرحم الراحمين . وعن أبي يوسف قال : مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أدع مجلس أبي حنيفة خوفًا أن يفوتني منه يوم. وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة : ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث ، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري حتى كان يقال: إن حديثًا لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث ، وقال البخارى رحمه الله تعالى: أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتي ألف حديث غير صحيح، وقال ما وضعت فى كتابي الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، وقال : أخرجته من ستمائة ألف حديث ، وصنفته في ست عشرة سنة ، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى . وقال مجاهد: أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه ، فما برحنا حتى تعلمنا منه ، وكان يقال الليث ابن سعد رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته ، ولهذا قال الشافعي لما قدم مصر بعد موته:

---

(١) الرجل هو الإمام الشافعى والشعر له فى ديوانه : ٢٦٢١ .

(٢) هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسى ، أبو سفيان . حافظ للحديث . كان محدث العراق فى عصره. ولد بالكوفة سنة ١٢٩ هـ . وتوفى (بفيد) راجعا من الحج سنة ١٩٧ هـ .

والله لأنت أعلم من مالك وإنما أصحابك ضيعوك ، وقال الليث بن سعد (١) : ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس . ويقال : إذ سئل العالم فلا تجب أنت ، فإن ذلك استخفاف بالسائل والمسؤول ، وقالوا : من خدم المحابر خدمته المنابر .

شعر :

لا تَدّخِرْ غَيْرَ العلو م فإنّها نعمَ الذخائرُ
فالمرءُ لو رَبِحَ البقاءَ مَعَ الجهالةِ كان خاسرُ

وللشافعي رضي الله تعالى عنه شعر :

أخي لَنْ تنالَ العلمَ إلاَّ بِستَّةٍ سَأُنْبِيكَ عن تَفْصِيلِهَا بِبيَانِ
ذكاءٍ وَحِرْصٌ واجتهادٌ وبُلْغَة (٢) وصُحْبَةُ أُسْتاذٍ وَطُولُ زمانِ

وقال الزهري (٣) : العلماء أربعة ، سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام ، وقال بعضهم : العلماء سرج الأزمنة كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره ، وقيل لإبراهيم بن عيينة : أي الناس أطول ندامة؟ قال : أما في الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره ، وأما في الآخرة فعالم مفرط (٤).

شعر :

كُنْ عالمًا وارضَ بصفّ النِّعالِ ولا تكنْ صدرًا بغير الكمالِ
فإنْ تَصَدَّرْتَ بِلاَ آلةٍ صَيَّرْتَ ذاك الصّدْرَ صفَّ النِّعالِ

وقيل : لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام ، جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر ، ثم طار فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام وقال : يا نبي الله إن هذا العصفور يقول يا موسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لا يعلمه الخضر ، والخضر على علم من علم الله علمه إياه لا تعلمه أنت وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ولا الخضر ، وما علمي وعلمك وعلم الخضر في علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر. قالل الله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[البقرة :٢٥٥] وقال تعالى :

---

(١)ابن عبد الرحمن الفهمي بالولاء أبو الحارث (٩٤ ـ ١٧٥ هـ) إمام أهل مصر في عصره .
(٢)البلغة : ما يكفى من الطعام يسدّ الحاجة ولا يَفْضُل عنها .
(٣)هو محمد بن مسلم . من بنى زهرة بن كلاب . أول من دون الحديث ، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء . تابعى توفى بِشَغَب سنة ١٢٤ هـ .
(٤)مسرف متجاوز الْحَدّ .

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[المدثر: ٣١] . قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : خلق الله تعالى أربعين ألف عالم ، الإنس والجن عالمان ، والبواقي لا يعلمها إلا هو ، وقال موسى عليه السلام : يا رب قد قلت للسموات والأرض: ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ، فلو لم تطعك السموات والأرض ماذا كنت فاعلاً بهما ؟ قال : يا موسى كنت آمر دابة من دوابي أن تبتلعهما ، قال موسى : يارب وأين تلك الدابة ؟ قال : في مرج من مروجي ، قال موسى: يا رب وأين ذلك المرج؟ قال : في علم من علمي لا يعلمه إلا أنا . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة، فقال: «فيم تفكرون ؟ تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله ، فإن الله خلق من جانب العرب أرضًا يقال لها: البيضاء ، تقطعها الشمس في أربعين يومًا ، فيها خلق ما عصوا الله طرفة عين»، فقال ابن عمر : يا رسول الله أين إبليس منهم ؟ قال : « ما علموا بإبليس خُلق أم لا » . قال : أمن بني آدم ؟ قال : « ما علموا بآدم خلق أم لا ، فهذه كلها مما أعدها الله في علم غيبه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾يس : ٨٢ ، ٨٣] . وقال قتادة (١): لو كان أحد منا مكتفيًا من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام إذ قال : هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدًا ؟. وقال الحكماء: أفضل العلم وقوف العالم عند علمه ، وقال بعضهم : ليس العلم ما خزنته الدفاتر وإنما العلم ما خزنته الصدور ، وقيل : العلم يؤدي إلى التصدير ، وقيل : من تواضع للعلم ناله ومن لم يتواضع له لم ينله ، وقيل : من برق علمه برق وجهه ومن لم يستفد بالعلم مالاً اكتسب به جمالاً ، العلم نور وهدى، والجهل غي وردى . وقال بعضهم : العالم يعرف الجاهل ، والجاهل لا يعرف العالم ، لأن العالم ، كان جاهلاً ، والجاهل لم يكن عالمًا . وقيل : أربعة يسودون العبد : العلم، والأدب، والصدق ، والأمانة ، وقيل : أهل العراق أطلب الناس للعلم. وقال حماد بن سلمة (٢): مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها . ولإبراهيم بن خلف المهراني:

النَّحْوُ يُصْلِحُ مِنْ لسان الألْكَنِ (٣) والمرءُ تُكْرِمُهُ إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طلبتَ من العلومِ أجَلَّهَا فأجلُّهَا منها مُقِيمُ الألْسُنِ

---

(١)هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز أبو الخطاب السدوسى البصرى (٦١ ـ ١١٨ هـ) مفسر حافظ ضرير أكمه .

(٢)حماد بن سلمة بن دينار البصرى الرّبعى بالولاء أبو سلمة . مفتى البصرة . وأحد رجال الحديث ، ومن النحاة توفى سنة ١٦٧ هـ .

(٣)الألكن : عَيٌّ وثقل لسانه وصعب عليه الإفصاح ، وأخطأ .

وقال علي بن بشار :

رأيتُ لسانَ المرءِ آيةَ عقْلِه ... وعنوانَهُ فانظرْ بماذا تعنْونُ؟
ولا تَعْدُ إصلاحَ اللسان فإنّه ... يُخبِّرُ عمّا عِنْدَه ويبينُ
ويُعْجِبُني زِيٌّ الفتى وجمالُهُ ... فَيَسْقُطُ من عينيً ساعةَ يلحنُ

ودخل أعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال : سبحان الله يلحنون ويربحون . وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن، فقال : لمَ لا تنظر في العربية ؟ فقال : بلغني أن من نظر فيها قل كلامه ، فقال : ويحك لأن يقلَّ كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ. وكان يقال : مجالسة الجاهل مرض للعاقل . وقال أبو الأسود الدؤلي إذا أردت أن تعذب عالمًا فاقرن به جاهلاً . وقال الشاعر :

جَهِلْتَ ولا تَدْرِي بأنَّكَ جاهلٌ ... ومَنْ لِي بأنْ تَدْري بأنّكَ لا تَدْرِي

وقال رجل للحسن أنا أفصح الناس . قال : لا تقل هذا ، قال : فخذ عليَّ كلمة واحدة ، قال: هذه واحدة ، أبو جهل كناه المسلمون بذلك وكانت قريش تكنيه أبا الحكم ، فقال حسان رضي الله تعالى عنه :

الناسُ كَنُّوه أبـــا حكـــمٍ ... واللهُ كَنَّاه أبـــا جَهْـــلِ

وأما ما جاء في الأدب : فقد قال بعض الحكماء العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام ، وقال علي كرم الله وجهه : الأدب كنز عند الحاجة عون على المروءة ، صاحب في المجلس أنيس في الوحدة تعمر به القلوب الواهية[(١)] ، وتحيا به الألباب الميتة وينال به الطالبون ما حاولوا . وقيل : عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح .

وحكي : أن رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن ، فقال : ابن من أنت ؟ قال : ابن الأدب يا أمير المؤمنين ، قال: نعمَ النسب انتسبت إليه ، ولهذا قيل : المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد . قال الشاعر :

كُنِ ابْنَ مَنْ شِئْتَ واكتسبْ أدبًا ... يُغْنِيَك محمودُهُ عن النَّسَبِ
إنَّ الفتى مَنْ يَقُول: هَا أنَا ذَا ... ليس الفتى مَنْ يقولُ كان أبي

وقال بعض الحكماء : من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضيعًا، وبعد وصيته وإن كان خاملاً ،

(١) الواهية : الضعيفة المسترخية .

وساد وإن كان غريبًا ، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيرًا . قال بعض الشعراء:

لكلِّ شيءٍ زينةٌ في الوَرَى ... وزينةُ المرءِ تمامُ الأدبِ
قد يَشْرُفُ المرءُ بآدابهِ ... فِينا وإنْ كان وضيعَ الأدبِ

وقال بعض الأعاجم مفتخرًا :

مَاليَ عَقْلِي وهِمَّتي حَسَبِي ... مَا أَنَا مَوْلى وما أنا عربي
إذا انْتَمَى مُنْتَمٍ إلى أحدٍ ... فإنَّني مُنْتَمٍ إلى أَدَبِي

وقيل : الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب ، وقيل : المرءُ بفضيلته لا بفصيلته وبكماله لا بجماله ، وبآدابه لا بثيابه . وقيل لرجل : من أدبك ؟ قال : رأيت جهل الجهال قبيحًا فاجتنبته فتأبت ، ومن أدب ولده صغيرًا سُرَّ به كبيرًا ، مَنْ عرف الأدب اكتسب به المال والجاه ، خير الخلال(١) الأدب ، وَشر المقال الكذب ، وقيل لبقراط (٢) ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له ؟ قال : كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذي ليس بناطق، ودخل أبو العالية على ابن عباس رضي الله عنهما فأقعده معه على السرير وأقعد رجالاً من قريش تحته، فرأى سوء نظرهم إليه وحموضة (٣) وجوههم ، فقال : ما لكم تنظرون إليَّ نظر الشحيح إلى الغريم المفلس ، هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير ويرفع المملوك على المولى ، ويقعد العبيد على الأسرة ، وقال جالينوس (٥) : إن ابن الوضيع إذا كان أديبًا كان نقص أبيه زائدًا في منزلته ، وابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائدًا في سقوطه ، وقيل: أحسن الأدب أن لا يفتخر المرءُ بأدبه . وسمع معاوية رجلاً يقول : أنا غريب فقال : كلا الغريب من لا أدب له . ويقال : إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب ، ولعبد الملك بن صالح (٦) :

---

(١) الخلال : المصادقة والإخاء .

(٢) بقراط :(٤٦٠ ـ ق م ـ ...) ولد فى جزيرة كوس (اليونان) أشهر الأطباء الأقدمين .علل الأمراض باضطراب الأخلاط ، وجعل لها مصدرين : الهواء والغذاء، نقلت بعض كتبه إلى العربية . منها :« تقدمة المعرفة » و « طبيعة الإنسان » .

(٣) حموضة : تغير وفساد وكرهة .

(٤) الشحيح : البخيل الحريص . الغريم : الخصم ـ المدين .

(٥) جالينوس :(١٣١ ـ ٢٠١ م) طبيب يونانى . عمل على تحرير الطب من الخرافات . وأقامه على أساس علمى. مؤكدًا اهمية الملاحظة السريرية . ويقال: إنه وضع اليمين التى لا يزال الأطباء يقسمونها حتى اليوم فى حفل التخرج . له اكتشافات فى علم التشريح . ائتم به أئمة أطباء العرب .

(٦) هو عبد الملك بن صالح بن علی بن عبد الله بن عباس . أمير من بنى العباس . ولاه الهادى إمرة الموصل وعزله الرشيد . وبلغه أنه يطلب الخلافة فحبسه ببغداد سنة ١٨٧ هـ . وتوفى سنة ١٩٦ هـ . كان من أفصح الناس وأخطبهم .

فِي الناسِ قومٌ أَضَاعُوا مَجْدَ أوَّلهم ما في المكارمِ والتقوى لهم أَرَبُ[1]
سُوءُ التأدُّبِ أَرْدَاهُمُ وأَرْذَلَهم وقد يَزِينُ صحيحَ المنصبِ الأدبُ

وقيل: أربعة تسوِّد العبد : الأدب ،والعلم ،والصدق، والأمانة ، وقال بعض الحكماء : خمسة لا تتم إلا بخمسة . لا يتم الحسب إلا بالأدب ، ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة ، ولا يتم الغنى إلا بالجود ، ولا يتم البطش إلا بالجرأة ، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق . والله تعالى أعلم.

---

(١) أرب : الغاية والأمنية .

فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء : إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة ، وألزمه القناعة ، وفقهه في الدين ، وعضده باليقين ، فاكتفى بالكفاف ، واكتسى بالعفاف ، وإذا أراد به شرًا حبب إليه المال ، وبسط منه الآمال ، وشغله بدنياه ووكله إلى هواه ، فركب الفساد وظلم العباد . الثقة بالله أزكى أمل والتوكل عليه أوفى عمل . من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ . من سره الفساد ساءه المعاد . كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع ، لا يغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة . مَنْ أطاع هواه باع دينه بدنياه . ثمرة العلوم العمل بالمعلوم. من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد ، ومَنْ قَنعَ بعطائه لم يدخله حسد . أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه . خير الناس من أخرج الحرص من قلبه ، وعصى هواه في طاعة ربه . نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف . البخيل حارس نعمته وخازن لورثته. من لزم الطمع عدم الورع. إذا ذهب الحياء حل البلاء. علم لا ينفع كدواء لا ينجع . من جهل المرءِ أن يعصي ربه في طاعة هواه ، ويهين نفسه في إكرام دنياه . أيام الدهر ثلاثة : يوم مضى لا يعود إليك ، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك ، ويوم مستقبل لا تدري ما حاله ولا تعرف من أهله . من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب . لا تبت على غير وصية وإن كنت من جسمك في صحة ، ومن عمرك في فسحة. عظ المسيء بحسن أفعالك ودُلَّ على الجميل بجميل خلالك . إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن ، ويحرك من عدوك ما سكن . لا يجد العجول فرحًا ولا الغضوب سرورًا ولا الملول صديقًا . حسن النية من العبادة . وحسن الجلوس من السياسة . من زاد في خلقه نقص في حظه . من ائتمن الزمان خانه. أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء . لا يكمل للإنسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال : يقطع رجاءه مما في أيدي الناس ، ويسمع شتم نفسه ويصبر ، ويحب للناس ما يحب لنفسه ، ويثق بمواعيد الله . إياك والحسد فإنه يفسد الدين ، ويضعف اليقين ، ويذهب المروءة . قيل لأفلاطون[1] : ما الشيء الذي لا يحسن أن يقال ، وإن كان حقًا ؟ قال : مدح الإنسان نفسه . أربعة تؤدي إلى أربعة ، الصمت إلى السلامة ، والبر إلى الكرامة ، والجود إلى السيادة ، والشكر إلى الزيادة . من ساء تدبيره أهلكه

---

(١) أفلاطون :(٤٣٠ ـ ٣٤٧ ق م) من مشاهير فلاسفة اليونان تلميذ سقراط ومعلم أرسطا طاليس . قال : إن الحقيقة التى يطلبها العالم ليست فى الظواهر المنفردة والزائلة . ولكن فى الفكر السابق لوجود الكائن ؛ وقال: إن غاية الفكر الخير . من مؤلفاته :« الجمهورية » و « السياسة » و « المحاورات » .

جده . الغِرَّة (١) ثمرة الجهل . آفة القوة استضعاف الخصم ، آفة النعم قبيح المن (٢)، آفة الذنب حسن الظن، الحزم أسد الآراء والغفلة أضر الأعداء .

من قعد عن حيلته أقامته الشدائد ، ومن نام عن عدوه أيقظته المكايد . من قَرَّبَ السفلة وأطرح ذوي الأحساب والمروءات استحق الخذلان . من عفا تفضل. من كظم غيظه فقد حلم . من حلم فقد صبر ، ومن صبر فقد ظفر . من ملك نفسه عند أربع حَرَّمَهُ الله على النار: حين يغضب ، وحين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهي . من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما ، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما . كلام المرئ بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل ، واقتصر منه على القليل . كل امرئ يعرف بقوله ، ويوصف بفعله فقل سديدًا وافعل حميدًا . من عرف شأنه وحفظ لسانه وأعرض عمالا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته، وقلَّت ندامته . كن صموتًا وصدوقًا ، فالصمت حرز ، والصدق عز . من أكثر مقاله سئم ، ومن أكثر سؤاله حرم . من استخف بإخوانه خذل ، ومن اجترأ على سلطانه قتل . ما عز من أذل جيرانه ، ولا سعد من حرم إخوانه . خير النوال(٣) ما وصل قبل السؤال . أولى الناس بالنوال أزهدهم فى السؤال . من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه . من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه . من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه . إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطنع إليك فانشره . من جاور الكرام أمن من الإعدام(٤) . من طاب أصله زكا (٥) فرعه . من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة . مَنْ مَنَّ بمعروفه سقط شكره ، ومن أعجب بعمله حبط أجره . من رضى من نفسه بالإساءة شهد على أصله بالرداءة . من رجع فى هبته بالغ فى خسته . من رقى فى درجات الهمم عظم فى عيون الأمم . من كبرت همته كثرت قيمته . من ساء خلقه ضاق رزقه . من صدق فى مقاله زاد فى جماله. من هان عليه المال توجهت إليه الآمال . من جاد بماله جَلّ (٦) ، ومن جاد بعرضه ذَلّ . خير المال ما أخذ من الحلال ، وصرف فى النوال ، وشر المال ما أخذ من الحرام ، وصرف فى الآثام . أفضل المعروف إغاثة الملهوف . من تمام المروءة أن تنسى الحق لك ، وتذكر الحق عليك ، وتستكبر الإساءة منك، وتستصغرها من غيرك . من أحسن المكارم عفو المقتدر . جود الرجل يُحَبِّبه إلى أصدقائه ، وبخله يبغضه إلى أوِدَّائه (٧). لا تُسئ إلى من أحسن إليك ، ولا تعن على من أنعم عليك . من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه . من طال تعديه كثرت أعاديه . شر الناس من ينصر

(١) جده : حظه . الغِرَّة : جهل الأمور والغفلة عنها .
(٢) المن ذكّره بنعمته عليه وفخر بها . (٣) النوال : العطاء .
(٤) الإعدام : الفقر . (٥) زكا : نما وزاد وطهر وصلح . (٥) جَلّ : عَظُمَ .
(٧) أوِدَّاءه : أحبابه .

الظلوم ، ويخذل المظلوم . من حفر حفيرًا لأخيه كان حتفة فيه . من سل سيف العدوان أغمد فى رأسه. من لم يرحم العبرة سلب النعمة ، ومن لم يُقِلْ العَثْرةَ [١] سُلِبَ القدْرةَ . لا تحاج من يذهلك خوفه ، ويملكك سيفه . صَمْت تسلم به خير من نُطْقٍ تندم عليه. من قال مالا ينبغى سمع مالا يشتهى . جرح الكلام أصعب من جرح الحسام . من سكت عن جاهل فقد أوسعه الله جوابًا ، وأوجعه عتابًا . من أمات شهوته أحيا مروءته . من كثرت عوارفه كثرت معارفه . من لم تقبل توبته عظمت خطيئته . إياك والبغى فإنه يصرع الرجال، ويقطع الآجال . الناس فى الخير أربعة أقسام : منهم من يفعله ابتداء ، ومنهم من يفعله اقتداء، ومنهم من يتركه حرمانًا، ومنهم من يتركه استحسانًا ، فمن فعله ابتداء فهو كريم ، ومن فعله اقتداء فهو حكيم ، ومن تركه حرمانًا فهو شقى ، ومن تركه استحسانًا فهو دنى . من سالم سلم ، ومن قدم الخير غنم ، ومن لزم الرقاد عدم المراد . ومن دام كسله خاب أمله . العجول مخطئ وإن ملك ، والمتأنى مصيب وإن هلك . من أمارات الخذلان معاداة الإخوان . استفساد الصديق من عدم التوفيق ، الرفق مفتاح الرزق . من نظر فى العواقب سلم من النوائب، ومن أسرع فى الجواب أخطأ فى الصواب. من ركب العجل أدركه الزلل . من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه . من قلت فضائله ضعفت وسائله . من فعل ما شاء لقى ما ساء . من كثر اعتباره قل عثاره . من ركب جده غلب ضده . القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير . ظن العاقل أصح من يقين الجاهل . قليل تحمد آخرته خير من كثير تذم عاقبته . من خاف سطوتك تمنى موتتك . إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل . من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه. من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة . لا تَشْتكُ ضعفك إلى عدوك ، فإنك تشمته بك ، وتطمعه فيك. من لم يعمل لنفسه عمل للناس ، ومن لم يصبر على كده صبر على الإفلاس . من أفشى سره أفسد أمره . الحازم من حفظ ما فى يده، ولم يؤخر شغل يومه لغده . من طلب ما لا يكون طال تعبه . لا تفتح بابًا يعييك [٢] سده، ولا تَرْمِ سهمًا يعجزك رده . سوء التدبير سبب التدمير. أغمد سيفك ما ناب عنك لسانك. ليس العجب من جاهل يصحب جاهلا ، ولكن العجب من عاقل يصحبه ، لأن كل شىء يَفِرُّ من ضده ، ويميل إلى جنسه . إذا نزل القدر بطل الحذر ، رب عطب تحت طلب ، ومنية تحت أمنية . لا يخلو المرء من ودود يمدح ، وعدو يقدح [٣]. الجوع خير من الخضوع . الكذوب متهم وإن صدقت لهجته ، ووضحت حجته . من طاوعه طرفه اشتد حتفه . من لم تسر حياته لم تغم وفاته . من أعظم الذنوب تحسين العيوب . الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية .

---

(١) العثرة : الزلة .
(٢) يعييك : يعجزك .
(٣) القدح : عابه فى عِرْضه .

إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل . من ساءت أخلاقه طاب فِراقُه . من حسنت خصاله طاب وصاله . بُعْدٌ يورث الصفا خير من قُرْبٍ يوجب الجفا . اللسان سيف قاطع لا يؤمن حده ، والكلام سهم نافذ لا يمكن رده . من اطلع على جاره انتهكت حجب أستاره . أجهل الناس من قل صوابه ، وكثر إعجابه . أظهر الناس نفاقًا من أمر بالطاعة ، ولم يأتمر بها ، ونهى عن المعصية ، ولم ينته عنها . من سلا عن المسلوب كمن لم يسلب ، ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب ، الفضيلة بكثرة الآداب لا بفراهة الدواب . من زادت شهوته نقصت مروءته . من عرف بشىء نسب إليه، ومن اعتاد شيئًا حرص عليه . عند الجدال يظهر فضل الرجال . من أخر الأكل لذ طعامه، ومن أخَّر النوم طاب نومه .

موت فى دولة وعز خير من حياة فى ذلة وعجز . مقاساة الفقر هى الموت الأحمر ، ومسألة الناس هى العار الأكبر . حَقٌّ يضر خير من باطل يسر . كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر ، ومرهوب منه ينفع ولا يضر . عثرة الرجل تزيل القدم ، وعثرة (١)اللسان تزيل النعم . المزاح يورث الضغائن (٢) من حلم ساد ومن تفهم ازداد . معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب . شَرُّ ما صحب المرء الحسد. ربما أصاب الأعمى رشده ، وأخطأ البصير قصده . اليأس خير من التضرع إلى الناس . لا تكن ضاحكًا فى غير عجب ولا ماشيًا فى غير أرب (٣) من سعى بالنميمة حذره القريب ومقته الغريب . الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استبد برأيه . أشرف الغنى ترك المنى .

من ضاق خلقه مله أهله . الحسد للصديق من سقم المودة . كل الناس راض عن عقله . دنياك كلها وقتك الذى أنت فيه . استر سوأة أخيك ، لما يعلم فيك . خمول الذكر أسنى من الذكر الذميم . العجلة أخت الندامة.

من كرم أصله لان قلبه ومن قَلَّ لُبُّهُ زاد عجبه (٤). ربما أدرك بالظن الصواب . ليس لمعجب، ولا لمتكبر صديق . سَلْ عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار . لا تُعَادِيَنَّ أحدًا ، فإنك لا تخلو من عداوة جاهل أو عاقل ، فالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل . ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربِّه . من قَلّ سروره كان الموت راحته . لا تَرُدَّنَّ على ذى خطأ خطأه ، فيستفيد منك علمًا ، ويتخذك عدوًا . استحى مِنْ ذَمِّ مَنْ لو كان حاضرًا، لبالغت فى مدحه ومدح مَنْ لو كان غائبًا ، لسارعت إلى ذمه .

---

(١) عثرة الرِّجْل : زَلَّ وكبا . وعثرة اللسان : تعس وهلك .

(٢) الضغائن: جمع ضغينة : الأحقاد .

(٣) الأرب : الأمنية .

(٤) لُبُّهُ : عقله . والعجب : الغرور والجهل روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشىء .

وقيل : المنفعة توجب المحبة ، والمضرة توجب البغضة ، والمخالفة توجب العداوة ، والمتابعة توجب الألفة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب ، والجور يوجب الفرقة ، وحسن الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوحشة ، والكبر يوجب المقت، والتواضع يوجب الرفعة ، والجود يوجب المدح ، والبخل يوجب الذم ، والتوانى يوجب التضييع، والحزم يوجب السرور ، والحذر يوجب السلامة ، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة ، وبالتأنى تسهل المطالب ، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة ، وبخفض الجانب تأنس النفوس ، وبسعة خلق المرئ يطيب عيشه ، والاستهانة توجب التباعد ، وبكثرة الصمت تكون الهيبة ، وبعدل المنطق تجلب الجلالة ، وبالنصفة تكثر المواصلة ، وبالأفضال يعظم القدر ، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال ، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه . وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل .

واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة . ومن صِغَرِ الهِمّةِ الحسد للصديق على النعمة . والنظر فى العواقب نجاة . ومن لم يحلم ندم . ومن صبر غنم . ومن سكت سلم . ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم . ومن أطاع هواه ضَلّ . ومع العجلة الندامة ومع التأنى السلامة. وزارع البرِّ يحصد السرور ، وصاحب العقل مغبوط. وصداقة الجاهل تعب . إذا جهلت فاسأل ، وإذا زللت فارجع ، وإذا أسأت فاندم ، وإذا ندمت فاقلع . المروءات كلها تبع للعقل والرأى ، تبع للتجربة والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة ، والأعمال كلها تتبع القدر .

واختار العلماء أربع كلمات من أربعة كتب فمن التوراة : من قنع شبع . ومن الإنجيل : من اعتزل نجا . ومن الزبور : من سكت سلم . ومن القرآن : ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[آل عمران : ١٠١] .

واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات ، لا تحمل بطنك ما لا يطيك . ولا تعمل عملا لا ينفعك . ولا تغتر بامرأة . ولا تثق بمال ولو كثر. والله تعالى أعلم .

في الأمثال السائرة وفيه فصول

الفصل الأول : فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم

اعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه ، وحلّى بجواهره كتابه . وقد نطق كتاب الله تعالى ، وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها ، ولم يخل كلام سيِّدنا رسول الله ﷺ عنها ، وهو أفصح العرب لسانًا ، وأكملهم بيانًا ، فكم في إيراده وإصداره من مثل يعجز عن مباراته في البلاغة كل بطل . وسنذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب، والمولدين، والعامة .

فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] . ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَق ﴾ [يوسف : ٥١]. ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾ [يوسف : ٤١] . ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود : ٨١] . ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ [الأعراف :٩٥] ، ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) ﴾ [النجم : ٥٨] . ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة :٤٤] . ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤] ، ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام : ٦٧] . ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء : ٨٤] . ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) ﴾ [النساء : ١٩]. ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران : ١٢] . ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر : ٣٨] . ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : ٤٤] . ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [المائدة : ٩٩] . ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة :٢٤٩] . ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة : ٩١] ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر : ١٤] ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) ﴾ [الرحمن : ٦٠] ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾[فاطر : ١٤] ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ [الروم : ٣٢] . ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ [المائدة : ١٠٠] . ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء : ٢١] . ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ص : ٢٤] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف :٢] . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾

[النساء : ٤٩]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١]، ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) ﴾ [يس : ٤٦] . ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام : ٢٨] . ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) ﴾ [المائدة : ٩٨]. ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾ [المؤمنون : ٧٥] . ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] . ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف : ٢٣] . ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) ﴾ [الزخرف: ٣٨] . ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ [الذاريات : ٣٦] . ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾ [النجم :٣٢] ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن : ٢٩] ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾ [المرسلات: ٥٠]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾ [هود : ١٣٢ ، النحل : ٩٣] . ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠)﴾ [المزمل : ١٠]. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦، الجاثية :١٥]. ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر: ٢] . ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [[الواقعة : ٧٦] . ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] ، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص : ٨٨]، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان :٦٧] . ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾ [الصافات : ٦١]. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) ﴾ [الرحمن : ٢٦] . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]. ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥)﴾ [الطور : ١٥] .

ومن الأمثال من الحديث النبوي :(إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى) . (نية المرء خير من عمله) .(آفة العلم النسيان). (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) .(إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) .(أنزلوا الناس منازلهم) . (اليد العليا خير من اليد السفلى) . (من مات غريبًا مات شهيدًا).(مطل الغني ظلم) . (يد الله مع الجماعة) .(الجار قبل الدار) ، (والرفيق قبل الطريق). (من غشنا فليس منا). (سيد القوم خادمهم) .(الحياء شعبة من الإيمان) . (تخيروا لنطفكم) .(ابدأ بنفسك ثم بمن تعول) .(حدث عن البحر ولا حرج). (المجالس بالأمانات) .(كل ميسر لما خلق له). (اطلبوا الخير من حسان الوجوه). (إياك وما يعتذر منه). (الوحدة خير من جليس السوء).(استعينوا على الحوائج بالكتمان). (الندم توبة) .(لا يكون

المؤمن طعانًا ولا لعانًا). (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك). (من كثر سواد قوم فهو منهم). (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) .(انتظار الفرج عبادة) . (كاد الفقر أن يكون كفرًا).(نعم صومعة الرجل بيته) .(الأعمال بخواتيمها).

الفصل الثاني : في أمثال العرب

إن من البيان لسحرًا [(١)]. إن الجواد قد يعثر : إن البلاء موكل بالمنطق . إن أخا الهيجاء من يسعى معك ، ومن يضر نفسه لينفعك . أنف في السماء وإست في الماء . إن الذليل الذي ليست له عضد . أي الرجال المهذب. إنما هو كبرق خلب . إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم. إياك أعني فاسمعي يا جارة ، إن لم يكن وفاق ففراق . إنك لا تجني من الشوك العنب. إذا حان القضاء ضاق الفضاء . إن المناكح خيرها الأبكار . إذا كنت مناطحًا فناطح بذوات القرون. أوى إلى ركن بلا قواعد . إياك أن تضرب بلسانك عنقك . أكل وحمد خير من أكل وذم . آفة المروءة خلف الوعد . إذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن . إذا أتاك أحد الخصمين ، وقد فقئت عينه ، فلا تقض له حتى يأتيك خصمه ، فلعله فقئت عيناه . ترك الذنب أيسر من طلب التوبة . اتق شر من تحسن إليه . الناس إخوان، وشتى في الشيم . بلغ السيل الزبى . أجع كلبك يتبعك . حافظ على الصديق ولو في الحريق . اشتدي يا أزمة تنفرجي . أتبع السيئة الحسنة تمحها . الخيل أعرف بفرسانها . رمتني بطرفها وانسلت . رب رمية من غير رام . الرباح مع السماح . رب أكلة تمنع أكلات . استراح من لا عقل له . رب أخ لم تلده أمك . رب طمع أدى إلى عطب . ربما كان السكوت جوابًا . رب ملوم لا ذنب له. رب عين أنم من لسان . رحم الله من هداني إلى عيوبي . ركوب الخنافس ولا المشي على الطنافس . سَبق السيف العذل . زوج من عود خير من قعود . سَبَّكَ من بلّغك السَّبَّ . سحابة صيف عن قليل تقشع . شر أيام الديك ، يوم تغسل رجلاه . طاعة النساء ندامة . اطلب تظفر . طرف الفتى يخبر عن لسانه . ظاهر العتاب خير من باطن الحقد . عند الصباح يحمد القوم السرى . الظلم مرتعه وخيم . عند النطاح يغلب الكبش الأجم .

العبــدُ يُقـــرعُ بـالعَصَـــا والْحُــرُّ تكفِيـهِ المـلامَةُ

اعقل وتوكل . العتاب قبل العقاب . عند الرهان تعرف السوابق . عند الامتحان يكرم المرء أو يهان . عند النازلة تعرف أخاك . في القمر ضياء والشمس أضوأ منه. القول ما قالت جذام .

---

(١) هو من الأمثال التى صدرت عن الرسول عليه الصلاة والسلام . ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال ١ / ٧ برقم ١ استفتح به كتابه . وكذا فى جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى ١ / ١٣ واستفتح به كتابه أيضا ونسبه إلى النِّبىَّ عليه الصلاة والسلام .

لقد أسمعت لو ناديت حيًا . أقلل طعامك يحمد منامك . كل فتاة بأبيها معجبة . كل كلب ببابه نباح. كاد العروس أن يكون ملكًا . كثرة العتاب توجب البغضاء . أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع . الكلام أنثى ، والجواب ذكر . كل إناء يرشح بما فيه . كما تزرع تحصد. كل امرء في بيته صبي. كلب جوال خير من أسد رابض . لقد ذل من بالت عليه الثعالب. ليس الخبر كالعيان . لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة . لكل قادم دهشة. لعل لها عذرًا وأنت تلوم. لكل ساقطة لاقطة . لكل مقام مقال . لك لسان من رطب ويدان من خشب . للباطل جولة ثم يضمحل . ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة . لكل غد طعام . لكل دهر دولة ورجال. لا عطر بعد عروس. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. لا يضر السحاب نباح الكلاب. لا تَقْتَنِ من كلبِ سوءٍ جَرْوًا . مقتل الرجل بين فكيه . ما حَكَّ جِلْدَكَ مِثلُ ظَفْرِكَ. من عتب على الدهر طال عتبه . معاتبة الإخوان خير من فقدهم . النفس مولعة بحب العاجل. هذه بتلك والبادي أظلم. يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة . يكسو الناس وإسته عارية . يدك منك وإن كانت شلاء .

الفصل الثالث : في أمثال العامة والمولدين

التسلط على المماليك دناءة . اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر ، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر. أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية . الحاجة تفتق الحيلة . الحاوي لا ينجو من الحياة. الحية تدور وإلى الرحى ترجع . المؤذي ردي كلما جلوته صدي . الأسواق موائد الله في أرضه . السلامة إحدى الغنيمتين . الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ . الطير بالطير يصاد. اطّلع القرد في الكنيف فقال : هذه المرآة لهذا الوجه الظريف . العادة طبيعة خامسة . الغائب حجته معه . الخضوع عند الحاجة رجولية . الناس أتباع لمن غلب . النكاح يفسد الحب. النصح بين الملأ تقريع. الحُرُّ حُرٌّ وإن مَسّه الضرُّ . والعبد عبد وإن ملك الدر . الثقيل إذا تخفف صار طاعونًا . أضيع من حلى على زنجية . العمل للزرنيخ والاسم للنورة أنشط من أير دخل نصفه . البغل الهرم لا يفزعه صوت الجلجل . بدن وافر وقلب كافر .

تزاوروا ولا تجاوروا . تعاشروا كالإخوان ، وتعاملوا كالأجانب . ثمرة العجلة الندامة . جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة . حيثما سقط لقط . خذ اللص قبل أن يأخذك . خذ القليل من اللئيم وذُمَّهُ . وذُلٌّ من لا سفيه له . رِيقُ العدو سمٌّ قاتلٌ . رب ساع كقاعد . زكاة البدن العِلَلْ . زلق الحمار وكان من سهوة المكَاريَ . زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تُبقي ولا تذر . سلطان غشوم خير من فتنة تدوم . سواء قوله وبوله . سفير السوء يفسد ذات البين . شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه . صديق الوالد عم الولد . ضرب الطبل تحت الكساء طاعة. الولاة بقاء العز . طفيلي ويقترح . عناية القاضي خير من شاهدي عدل . دلت على أهلها براقش .

(وهو اسم كلبة نبحت فدلت على الجيش فقتلوهم) غِشٌّ القلوب يظهر في فلتات الألسن وصفحات الوجوه. غنى المرء في الغربة وطن . فَرٌّ من الموت وفي الموت وقع . فم يسبح وقلب يذبح . فلان كالكعبة يزار ولا يزور . قيل للمزمار : تهيأ للزمر . قال : المزمار في كمي والريح في فمي . كل قليلاً تعش كثيرًا . كلامه ريح في قفص . كالإبرة تكسو الناس وهي عريانة . كلمة حكمة من جوف خرب . كاد المريب يقول : خذوني . كنت سندالاً فصرت مطرقة. كُلٌّ ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة . كلما طار قصوا جناحه . لو كان المزاح فحلاً لم ينتج إلا شرًا . لسان الجاهل مفتاح حتفه . لكل جديد لذة. لو ضاعت صفعة ما وجدت إلا في قفاه . لو كان في البوم خير ما فات الصياد . من اعتمد على شرف آبائه فقد عَقَّهُمْ . مِنْ سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً . وبالله التوفيق .

الفصل الرابع : في الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف :

ألاَ كُلُّ شيء ما خَلاَ اللهَ باطلٌ — وكُلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائلُ
إذا جاء موسى وألقى العصا — فقد بَطَلَ السِّحْرُ والساحرُ
إذا لم يكنْ فيكنَّ ظلٌّ ولا خبا — فأبعدَكُنَّ اللهُ من شجراتِ
إذا كنتُ في فكري وقلبي ومقلتي — فأي مكانٍ من مكانِك ألطفُ
إذا أراد كريمٌ مَنْعَ صاحبَهُ — فليس يَخفى عليه كيف ينفعُه
إذا ما أتيتَ الأمرَ مُنع صاحبُه — ضَلَلْتَ وإن تقصدْ إلى الباب تهتد
إذا أنتَ لم تُنْصِفْ أخاك وجدْتَه — على طرفِ الهجران إن كان يعقلُ
إذا لَمْ يكُنْ عندي نوالٌ هَجَرْتني — وإن كان لي مالٌ فأنتَ صديقي
الناسُ في طلب المعاش وإنما — بالجِدِّ يُرزَقُ منهم مَنْ يُرْزقُ
أيها السائلُ عمَّا قد مضى — هل جديدٌ مثل ملبوس خلق؟
إنما أنفُسُنَـــا عـــاريةٌ — والعواري حُكْمُهُما أن تُسْتَرَدّْ
إنَّ العدوَ وإن أبدى مسالمةً — إذا رأى منك يومًا غِرَّةً وثبا
أتمنى على الزمان مُحالاً — أن ترى مقلتاي طلعةَ حرٍّ

إذا ملكٌ لم يكنْ ذا هِبَـة ... فدَعْــهُ فدولتــه ذَاهِبَــهْ
إذا ثارتْ خطوبُ الدهرِ يومًا ... عليك فكنْ لها ثبتَ الجنانِ
إذا كنتَ لا ترضى بما قد تَرَى ... فدونــك الحبــلَ بــه فاختنق
إن الأمورَ إذا بَدتْ لِزوَالِها ... فعلامة الإدبــارِ فيهــا تَظْهَرُ
إذا ضاع شيءٌ بين أمٍّ وبنتِها ... فإحداهما لا شكّ ذلك آخذُه
إذا كان رَبُّ البيتِ بالطبلِ ضاربًا ... فلا تَلُمِ الصِّبيانَ فيه على الرَّقصِ
إذا ما أراد اللهُ إهلاك نملةٍ ... سمتِ بجناحيها إلى الجو تَصْعَدُ
إذا أنت لم تعرضْ عن الجهل والخنا(١) ... أصبْت حليمًا أو أصابَكَ جاهلُ
إذا لم تستطعْ أمرًا فَدَعْه ... وجاوزْه إلى ما تستطيعُ
إذا صوَّت العصفورُ طار فؤادُهُ ... ولكن حديدَ النابِ عند الثرائد(٢)
أهن عامرًا تُكْرَمْ عليه فإنما ... أخو عامر مَنْ مَسَّه بهوانِ
إذا مَحاسِنِيَ اللاتي أتيتُ بها ... عُدَّتْ ذنوبًا فَقُلْ لي كيف أعتذرُ ؟
إخوانُ صدقٍ ما رأوْك بِغِبْطةٍ ... فإذا افتقرت فقد هوى بِكَ مَنْ هوى
إذا اعتادَ الفتى خَوْضَ المنايا ... فأيسرُ ما يَمُرُّ بــه الوحــولَ
أَلَمْ تَرَ أنَّ المرء تدوى(٣) يمينهُ ... فيقْطَعُها عمدًا ليسلمَ سَائِرُه .
إذا أنتَ لم تُعْلِمْ طبيبَكَ كُلَّ ما ... يَسُوءُك أبعدْتَ الدواءَ عن السَّقَمِ
إذا أنتَ حمَّلتَ الخؤون (٤) أمانةً ... فإنَّك قد أسندتَها شَرَّ مُسْنَدِ
أَكُلُّ خليلٍ هكذا غيرُ منصفٍ ... وكُلُّ زمانٍ للكرام بخيلُ ؟
إذا أنتَ عِبْتَ المرء ثم أَتَيْتَهُ ... فأنتَ ومَنْ تُزْرِي(٥) عليه سواءُ
أساتُ إذا أحسنتُ ظَنِّي بِكُم ... والحزمُ سوءُ الظنِّ بالناس
الحادثاتُ إذا أَلَمَّ خُطُوبُها ... فلها مساو (٦) مرةً ومحاسنُ

(١) الخنا : الفحش في الكلام .
(٢) الثرائد : جمع ثريد : طعام من خبز تفتته وتبلله بالمرق .
(٣) تدوى : أصابها الداء والآفة .
(٤) الخؤون : كثير الخيانة فى العهد والأمانة .
(٥) تزرى : زرى زراية أى عابه وعتب عليه .
(٦) مساوٍ : مساوئ مفاسد ضِدّ المحاسن .

الخيرُ لا يأتيك مُتَّصِلاً والشَّرُّ يَسبِقُ سَيْلَهُ مطرُهُ
العلمُ ينهضُ بالخسيسِ إلى العلا والجهلُ يَقْعُدُ بالفتى المنسوبِ(١)
الكفر بالنعمةِ يدعو إلى زوالِها والشكرُ أبْقى لهاَ
أيا دارهِمْ ما كنت أنتَ بِدَارِهم ولا أنا مُذْ سار الركابُ بهم أنا
اقلّبُ طرفي لا أرى غير صاحب يميلُ مع النعماءِ حيث تميلُ
إذا ما قضيت الدَّين بالدَّينْ لم يكن قضاءً ولكنْ ذاك غُرْمٌ على غُرْمِ

حرف الباء الموحدة :

بِنَا فوقَ ما تشكو فصبرًا لعَلَّنَا نرى فَرَجًا يَشفي السَّقامَ قريبا
بالملح نُصْلِحُ ما نخشى تَغيُّرهُ فكيف بالملِح إنْ حَلَّتْ به الغِيَرُ(٢)
بني عَمِّنا إنَّ العداوةَ شأنُها ضغائنُ تبقى في نفوس الأقاربِ

حرف التاء المثناة الفوقية:

تَحِنُّ إليه أفئدةُ البرايا وتهواه الخلائقُ للسَّماع
تلومُ على القطيعة مَنْ أتاها وأنت سَنَنْتَهَا للناس قبلي
تُلْجِئ الضروراتُ في الأمورِ إلى سلوك ما لا يليقُ بالأدب
تفرقت الظِّباءُ على حراشٍ(٣) وما يدري حراشُ ما يصيدُ
تجتلي الأذنُ منه أحسنَ مما تجتلي العينُ من وجوهِ البُدورِ

حرف الجيم :

جَنَّ(٤) له الدهرُ فنال الغِنَى آه لِمَنْ أغفَلَه الدهرُ
جَرَّبْتُ أهلي وأهليه فما تركتُ إلى التجاربِ في وُدِّ امرئٍ غَرَضَا

حرف الحاء المهملة :

حَيَّاك مَنْ لم تكنْ تَرْجُو تَحِيَّتَهُ لولا الدراهمُ ما حَيَّاك إنسانُ

---

(١) الخسيس : الدنيء الحقير . والفتى المنسوب : صاحب الاعتزاز بالأصل .
(٢) الغير : أحداث الدهر المتغيرة .
(٣) حراش : هيجها ليصيدها .
(٤) جَنَّ : استتر .

حرف الخاء المعجمة :

خَفّضِ الجأشَ واصبِرنْ رويْدًا فالرزايا إذا توالتْ تَوَلَّتْ
خليليَّ إن الحبَّ صعبٌ مِرَاسُه وإنَّ عزيزَ القومِ فيه يُهانُ
خاطرْ بنفسك كي تُصيبَ غنيمةً إنَّ الجلوسَ مع العيالِ(١) قبيحُ
خيالُكَ في عيني وذكرُك في فمي ومثواك في قلبي فأينَ تغيبُ ؟
خُنْ مَنْ أمنتَ ولا تركَنْ إلى أحدٍ فما نَصَحْتُكَ إلا بعد تجريبي

حرف الدال المهملة :

داودُ محمودٌ وأنتَ مذممٌ عجبًا لذاك وأنتُمَا مِنْ عودِ
دعيني أنهبُ الأموالَ حتّى أعِـفَّ الأكرمينَ عن اللئامِ

حرف الدال المعجمة :

ذُو العقلِ يَشْقَى في النعيمِ بعَقْلهِ وأخو الجهالَةِ في الشقاوةِ يَنْعَمُ

حرف الراء :

رُبَّ مهزولٍ سمينٌ عِرْضُهُ وسمينُ الجسمِ مهزولُ الحسبِ
رُدّوا عليَّ صحائفًا سَوَّدتُها فيكم بـلا حـقٍ ولا استحقـاقِ
رضيتُ ولا أرضى إذا كان مُسْخِطي من الأمر ما فيه رضا صاحبِ الأمرِ
رُبَّ يوم بكيتُ منه فلما صِرتُ في غيره بكَيْتُ عليه

حرف الزاي :

زنيمٌ(٢) ليس يعرفُ مَنْ أبوه بَغِيٌّ الأمِّ ذو حَسَبٍ لئيم

حرف السين المهملة :

سُروري أنْ نَبْقى بخيرٍ ونعمةٍ وإني من الدنيا بذلك قانعُ
سُوءُ حظّي أنَالَني مِنْك هجرًا فعلى الحظ لا عليك العتابُ
سَبَكْنَـــاه ونَحْسَبُه لُجينـًا فأبدى الكِيرُ عن خَبَثِ الحديدِ(٣)
سَتَذكُرُني إذا جَـرّبتَ غيري وتعلمُ أنني نِعْمَ الصديقُ

(١) العيالُ : أهل بيت الرجل الذى ينفق عليهم .
(٢) الزنيم : الدعى الملحق بالقوم وتقول العرب عنه : ابن أبيه لجهلهم بأبيه .
(٣) سبكناه : سبك : أذابه وخلصه من الخبث ثم أفرغه فى قالب . اللجين : الفضة . الكير : جهاز من جلد يستخدمه الحداد للنفخ فى النار لإشعالها .

حرف الشين المعجمة :

شَفِيعي إليك اللهُ لا رَبَّ غَيْرُهُ وليس إلى رَدّ الشفيع سبيل
شكرتُكَ قبل الخيرِ إنْ كنتَ واثقًا بأني بعد الخيرِ لا شَكَّ شاكرُ

حرف الصاد المهملة :

صحَّحْ لنـــا وَالـــدَهُ أوَّلا وأنتَ في حِلٍّ من الوالدةِ

حرف الضاد المعجمة :

ضاقتْ ولو لم تضقْ لما انْفَرَجَتْ والسِّرُّ مِفتاحُ كُلِّ ميسورِ

حرف الطاء المهملة :

طويلُ عُمْرِ المعالي والندى أبدًا قصيرُ عمرِ الأعادي والمواعيدِ
طُوبى لأعينِ قومٍ أَنْتَ بينهُمُ القومُ في نزهةٍ من وجهِك الحسنِ

حرف الظاء المشالة :

ظهرتْ خياناتُ الثِّقاتِ وغيرهُمْ حتى اتَّهمنا رؤيةَ الأبصارِ
ظلمتُ امرءا كَلَّفْتَهُ غيْرَ خُلْقِهِ وهل كانتِ الأخلاقُ إلا غرائزا ؟

حرف العين المهملة :

علم اللّهُ كيف أنتَ فأعطا ك المحلَّ الجليلَ مِنْ سلطانِه
على المرء أن يسعى لما فيه نفعُهُ وليس عليه أن يُساعِدَه الدهرُ
عسى فرجُ يأتي به اللهُ إنّهُ له كُلَّ يومٍ في خليقته أمرُ
عتبتُ على عمرٍو فلما تركْتُه وجربْتُ أقوامًا بكيتُ على عمرِو

حرف الغين المعجمة :

غنيٌّ بلا دين عن الخلق كُلّهم وإنَّ الغنى إلا عَنِ الشيء لا به
غلامٌ أتاه اللؤمُ من شَطْرِ نَفْسِه ولم يأتِه مِنْ شَطْر (١)أم ولا أبِ

---

(١)الشَّطر : الناحية .

حرف الفاء :

فلم أرَ كالأيامِ للمرء واعظًا ... ولا كصروفِ الدهرِ للمرء هاديا
فَنَفْسك أكرمْها فإنك إن تهُنْ ... عليك فلن تلقى لها الدهرَ مُكرمًا
فصبرٌ جميلٌ إنَّ في اليأس راحة ... إذا الغيثُ لم يمطرْ بلادَك ماطرُه .
فما أكثرَ الأصحابَ حين تَعُدُّهم ... ولكنهم في النائباتِ قليلُ
فإن كانتِ الأجسامُ منَّا تباعدَتْ ... فإنّ المَدَى بين القلوبِ قريبُ
فلو كان حمدًا يُخلدُ المرء لم يمتْ ... ولكنْ حمد المرء غيرُ مخلَّدِ
فإنْ تفُقِ الأنامُ وأنت منهمْ ... فإن المسكَ بعضُ دَمِ الغزالِ

حرف القاف :

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكلِه ... ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمعهْ
قد زال ملكُ سليمانَ فعاوده ... والشمسُ تنحطّ في المجرى وترتفعُ
قد يُدْرِكُ المتاني نُجْحَ حاجته ... وقد يكونُ مع المستعجل الزّللُ
قد يدركُ الشرفَ الفتى ورداؤه ... خلقٍ وجَيْبُ قميصِه مرقــوعُ(١)

حرف الكاف :

كُلُوا اليوم من رزق الإله وأبشروا ... فإنَّ على الخلاق رزقَكُم غدا
كفى راجرًا للمرء أيامُ دَهْرِه ... تروحُ له بالواعظاتِ وتغتدي .
كنتُ من كربتي أفِرُّ إليهم ... فَهُمْ كربتي فأينَ الفرارُ
كانوا بني أم ففرق شَملهم ... عدمُ العقول وخِفّةُ الأحلامِ
كُلّ المصائبِ قد تَمُرُّ على الفتى ... فتهونُ غيرُ شماتةِ الأعداءِ
كأنّك من كُلّ النفوسِ مُركبٌ ... فأنت إلى كُلّ الأنام حبيبُ
كالكلبِ إن جاع لم يمنعْكَ بصبصةً ... وإن ينلْ شِبعًا ينبحْ من الأشرِ

حرف اللام :

لعمرُكَ ما يدري الفتى كيف يتّقي ... إذا هو لم يجعلْ له اللهَ واقيا

(١) مرقوع : خَلِقٌ بالٍ مصلح بالرقعة .

لعمري ما ضاقت بلادٌ بأهلها ولكنَّ أخلاقَ الرجال تضيقُ
لِلموت فينا سهامٌ وهي صائبةٌ مَنْ فاته اليومِ سهمٌ لم يفتْهُ غدا
لو أن خِفَّةَ عقله في رِجْله سبقَ الغزالَ ولم يفته الأرنبُ
لو كان ما بي في صخر لأنْحَلَه فكيف يحملُهُ خَلَقٌ من الطين
لعمركُ ما الأيامُ إلا مُعارةٌ فما استطعْتَ من معروفها (١)فتزوَّد
لِكُلّ امرئٍ حالان بؤسٌ ونعمةٌ وأعطفَهم في النائباتِ أقاربُهُ

حرف الميم :

منْ يحمد الناسَ يحمدُوه والناسُ مَنْ عابَهُمْ يعابُ
مَنْ لمْ يَعُدْنا (٢) إذا مَرِضْنَا إن مات لم نشهدْ الجنازَه
متى يبلغُ البنيانُ يومًا تمامَه إذا كنت تبنيه وغيرُك يهدمُ
مَنْ كان فوق محلِّ الشمس رُتْبَتُه فليس يرفعُهُ شيءٌ ولا يضعُ
مِنَ الناس مَنْ يغشى الأباعدَ نفْعُهُ ويشقى به حتى المماتِ أقاربُه
ما كان في المخْدَعِ من أمركم فإنه فـــي المسجـــدِ الجامـــعِ
ما قام عمروٌ في الولا يـــة قائـــمًا حتـــى قعـــدْ

حرف النون :

نُسَوِدُ أعْلاها وتأبى أصولُها (٣) وليس إلى رَدّ الشباب سبيلُ
نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شُرْبِه
ندمتُ ندامةَ الكُسَعي (٤) لمّا رأتْ عيناه ما صنعـــتْ يـــداه

حرف الهاء :

هناكم الله بالدنيا ومتعكم بما نحُب لكم منها ونرضاه
هل بالحوادث والأيام من عجب أم هل إلى ردّ ما قد فات مِنْ طلبِ
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا أليس مصيرُ ذاك إلى الزوال
هنيئًا لمن لا ذاق للدهر لوعةً ولم تأخذِ الأيامُ منه نصيبا
هم يحسدوني على موتي فواحَزني حتى على الموتِ لا أخلو مِنَ الحسدِ

---

(١)المعروف : الخير والإحسان .
(٢)يعود : يزور .
(٣)نصبغ أعالي الشعر ومنابتها لا تستجيب للسواد فتنبت بيضاء .
(٤)محارب بن قيس اتخذ قوسا وخمسة أسهم وكمن . فمر قطيع فرمى عيراً فامخطه ثم بات فلما أصبح نظر فإذا الحمر مطرحة مصرعة ، وأسهمه بالدم مضرجة . فندم وقطع إبهامه.

حرف الواو :

ولم أرَ كالمعروفِ أمّا مذاقُهُ فحلوٌ وأمّا وجهُهُ فجميلُ
وإذا خشيتَ من الأمور مقدّرًا وهربت منه فَنَحْوَهُ تتوجّهُ
والرزقُ يخطئُ بابَ عاقلِ قومه ويبيتُ بوّابًا ببابِ الأحمقِ
ولا يغرُرْكَ طولُ الحلمِ منيٍّ فما أبدًا تصادفني حليما
ولا خيرَ فيمَن لا يوطِّنُ نفسَه على نائباتِ الدَّهر حين تنوبُ
وإذا أتَتْكَ مذمتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأني كاملُ
وما للمرء خيرٌ في حياة إذا ما عُدَّ من سقطِ المتاعِ
وما المرء إلا كالهلالِ وضوئه يوافي تمامَ الشهر ثم يغيبُ
وقد تسلبُ الأيامُ حالاتِ أهلِها وتعدو على أسدِ الرجال الثعالبُ
ومَنْ يأمنِ الدهرَ الخؤونَ فإنني برأي الذي لا يأمنُ الدهرَ أقْتدي
وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجدْ ذُخرًا يكونُ كصالح الأعمال
ومَنْ يكنِ الغُرابُ له دليلاً يمرُّ به على جِيَفِ الكِلابِ
ومَنْ يكُ مثلي ذا عيال ومُقْترًا من الزاد يطرحْ نفسَه أيَّ مطرح
ولربما مُنِعَ الكريـــمُ وما به بخلٌ ولكنْ سوءُ حظ الطالب
ولا بات يسقينا سوى الماء وحدَهُ وهذا جزاءُ من بات ضيف الضفادع
ومَنْ عاشَ في الدنيا فلا بُدَّ أن يرى من العيشِ ما يصفو وما يتكدرُ
ولو دامت الدُّوَلاتُ دامتْ لغيرنا رعايا ولكن ما لهنّ دوامُ
وأَحْسِنْ فإنَّ المرء لابدَّ ميِّتٌ وأنك مجزيٌّ بما كنتَ ساعيا
ولا تُرِيَنَّ الناسَ إلاَّ تجملاً وإن كنتَ صِفْرَ الكفِّ والبطنَ طاويا
وما لامرئٍ طولُ الخلودِ وإنما يُخلّدُه طولُ الثناء فيخلدُ
ولربَّ نازلة يضيقُ بها الفتى ذرعًا وعند اللهِ منها المخرجُ
وكان رجائي أن أعودَ ممتعًا فصار رجائي أن أعودَ مُسَلما
وتجلُّـــدِي[1] للشامتيـــن أريهـمُ أني لريبِ الدهر لا أتضعضع
ولا بـــد من شكوى إلى ذي مروءةٍ يواسيك أو يسليك أو يتوجَّعُ
وهوّن حزني عن خليلي أنني إذا شئتُ لاقيتُ الذي مات صاحبُهُ
ويـــومٌ علينـــا ويـــومٌ لنـــا ويـــومٌ نُســـاءُ ويومٌ نُسَـــرُّ

(١) التجلد : التصبر ، وأظهر القوى والصلابة .

حرف اللام ألف :

لا تنظرنَّ إلى الجهالة والحجى(١) وانظر إلى الإقبال والإدبار
لا تَسْألِ المَرْءَ عن خلائقه في وجهه شاهدٌ من الخبر
لا يصبرُ الحرُّ تحت ضيم وإنما يصبرُ الحِمَارُ
لا تَنْه عن خُلُق وتأتِيَ مثلهُ عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ
لا يُبالي الشتمَ عرضٌ كُلُّهُ شتمٌ وذمُّ
لا تنظرن إلى امرئٍ ما أصلُه وانظرْ إلى أفعاله ثُمَّ احْكُمِ
لا يسْكُنُ المرء في أرض يُهانُ بها إلا من العَجْزِ أو من قِلَّةِ الحِيلِ
لا يَقْبلون الشكرَ ما لم ينعموا نعِمًا يكونُ لها الثناءُ تَبيعا
لا أسألُ الناسَ عمّا في ضمائرِهم ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

حرف الياء المثناة التحتية :

يَفِرُّ من المنيةِ كُلُّ حَيّ ولا ينجي من القدر الحذارُ
يريك الرضا والغِل(٢) حَشْو جُفُونه وقد تنطق العينان والفمُ ساكتُ
يهمهم(٣) للشعير إذا رآه ويعبسُ إن رأى وجه اللجام
يفارقني مَنْ لا أطيق فِراقَه ويصحبني في الناسِ مَنَ لا أُرِيدُهُ
يزيدُ تفضلاً وأزيدُ شكرًا وذلك دأبُه(٤) أبدًا ودأبي
يواسي الغرابُ الذئبَ في كُلِّ صيده وما صارتِ الغربانُ في سعف النخل
يهونُ علينا أن تُصابُ جُسُومُنا وتسلمُ أعراضٌ لنا وعقولُ
يَغُرُّ الفتى مَرُّ الليالي سليمةً وَهُنَّ به عَمًّا قليل غوائرُ(٥)
يُغيظني وهو على رِسْلِه(٦) والمرؤُ في غيظ سِواهُ حَليمُ
يُريكَ البشاشةَ عند اللقا ويبريكَ في السِّرِّ بريَ القلمِ

(١) الحجى : جمع أحجاء: العقل والفطنة .
(٢) الغِلّ : العداوة والحقد .
(٣) همهم : أصوات الخيل معها بَحَحٌ .
(٤) الدأب : العادة .
(٥) غوائر : أحداث الدهر ونوازله المهلكة
(٦) رِسْلِه : الترفق والتمهل والاتئاد .

الفصل الخامس : في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف : إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك . إذا أبغضك جارك حول باب دارك . إذا كان صاحبك عسل لا تلحسه كله . المستعجل والبطيء عند المعدية يلتقي ألف ذقن ولا سلام عليكم . ألف ذقن ولا ذقني. إذا غاب عنك أصله كانت دلائل نسبته فعله . إذا وصلت وسلم الله بع بما قسم الله . إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش . إذا كان النبيذ دردي ، والعشيق كردي ، والبقل فول حار ، والعشاء بيسار إيش يكون الحال. إذا كان القطن أحمر، والمغسل أعور ، والدكة مخلعة ، والنعش مكسر ، اعلم أن الميت من أهل سقر، والوادي الأحمر . إيش ينفع الضراط عند طلوع الروح ، قال: تقريف للحاضرين وتفريق للملائكة. القشر والنشر والعشا خبيزة . أكل الدقة والنوم في الأزقة ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة . إيش أنت في الحارة يا منخل بلا طارة . الرجم بالطوب ولا الهروب . إذا وقعت يا فصيح لا تصيح . أقرع يقول لأقرع امش بنا نزرع في بركة القرعان إيش ما يطلع يطلع النصف لي والربع لي والثمن لي والثمن الآخر لك ولي . العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طبيب . اقعد يا حمار حتى ينبت لك الشعير . أي موضع راح الحزين يلقى جنازة .

قال الشاعر :

إنْ دامَ هذا السَّيرُ يا مسعُودُ ... لا جملٌ يبقى ولا قَعُودُ

غيره :

إذا لم تكنْ لِي والزمانُ شَرُمْ بَرُمْ ... فلا خَيْرَ فيك والزمان ترلَّلِي

غيره :

إذا أقبلتْ كادتْ تُقادُ بشعْرَةٍ ... وإن أدبرتْ كادتْ تَقُدُّ السلاسلَ

حرف الباء الموحدة : بينما يتروى البخيل قضى الكريم حاجته . بينما يسعد المغتر فرغ عمره. بينما أصل قبره نسيت همه . بينما يعدل المعتر حاله جاء الموت شاله . بينما يخلص ربنا حقي اتفرقعت جوزة حلقي . بينما يقطع الجريد يفعل الله ما يريد . بينما يجيء الدرياق من العراق يكون الملسوع مات . بين حانا ومانا حلقت الحانا . بدوي مقروح لقي التمر مطروح. أين يخلي ويروح . بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شد على رأسك . بدال اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان . بدال لحمتك التلاتة هات لك شد يا شماتة . بقى للكلب سرج وغاشية

وغلمان وحاشية . بقى للخرا مرا ويحلف بالطلاق . بعد الجوع والقلة بقي لك حمار وبغلة .

حرف التاء المثناة فوق : تموت الحدادي وعينها في الصيد . تعالوا بنا نقبح ونرجع غدا نصطلح. تدحرج الخرا لعند البعر قال له : إيش أنت قال له بزم قردش . ترك الفضول من حزم العقول . تراب العمل ولا زعفران البطالة . تسكر وتخانق ما هو شي موافق . تجارة الأحمق على أهل بيته تضارب الريح مع الموج . جاء الهم على النواتية . تزاوروا ولا تجاوروا . تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها .

حرف الثاء المثلثة : ثوب العيرة ما يدفي . ثقيل واسمه صخر بن جبل . ثور علقوه أغمي عليه قال: حتى يطلع شيء يرشوه عليه . ثور عاجز ما يدور ساقية ثقيل من أولاد الزنا مَرّ العنا. ثوب عليه وثوب على الوتد، قال : أنا اليوم أحسن من كل من في البلد .

حرف الجيم : جور القط ولا عدل الفار . جمل موضع جمل يبرك . جهد المقل دموعه . جمل بحبه قال : وأين المحبة ؟ جيت أصطاد صادوني . جار له حق وجار ما له حق وجار لا صحبته عافية . جارك مرآك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك . جا كتاب من عند خاله قـال: كل من هو في حاله . جا كتاب من عند عمه قال : كل من هو ملهى بهمه . جاءوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها . جوزوها له ما لها إلا له . جوزوا مشكاح لريمه ما علـى الاثنين قيمـــة .

حرف الحاء المهملة : حاجة لا تهمك وصى عليها زوج أمك . حول حبيبي ما عونة وقدرته مع كانونة . حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت . حلينا القلوع وأرسينا وأصبحنا على ما أمسينا . حب وواری واكره وداری . حدثتني ونصحتني عايرتني وفرحتني . حط فليساتك في كمك واشتر أبوك وأمك . حبة قرض تخرب أرض .

حرف الخاء المعجمة : خديني وارغبي فيه . أنا حصاد ملوخية وعند الخبز آكل مية وعند الشغل ما لي نية . خبثت لي وصلحت لك . خذ ذا الصبي فوق صبيانك تمام لأحزانك . خزينة في جره وملحه في صره . خبزه بلا إدام ويعزم على الجيران .

حرف الدال المهملة : دار الظالم خراب ولو بعد حين . درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك . دواء ما لا تشتهي النفوس تعجيل الفراق .

حرف الذال المعجمة : ذا درب ما يسد ريح . ذي ما هي رمانة إلا قلوب ملانة . ذا لي وذا أيدي عليه . ذي مائدة ما يقعد عليها طفيلي . ذا الخبز ما هو من دار العميان . ذا الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليه حك أنفه . ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشايشها . ذكروا المدن جاءت القرى تحجل .

حرف الراء المهملة : راح ذاك الزمان بناسه وجا هذا الزمان بفاسه . وكل من تكلم بالحق كسروا راسه . رأوا حجار راكب حيط قالوا : إلى أين يا حجار؟ قال : مسافر . قالوا : من كانت هذه المطية مطيته لا يشرق ولا يغرب . رأوا سكران يقرأ قالوا : غن تشاكل روحك . رأوا شيخًا يتهجى قالوا : يختم على الصراط . رأوا وردانة على سنداس قالوا : ما لذي الفسيقة إلا ذي البليطة. رأوا على قبره مكتوب يا سعادة ساكنه قالوا : أبصر من يزاحمه . راكب بلاش ويناغش مراة الريس . ركبتك وراي حطيت يدك في الخرج . راح الجندي وخلى خلقه عندي . رزق الكلاب على المجانين . راسين في عمامة ما يكون . راحت على جمل وجاءت على قطة. قال: ما لذي الشيلة إلا ذي الحطة . ركبت خنفسة زمر زنبور. قال : ماذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل .

قال الشاعر :

رَاح الـــذي كنـــا نعـــيـــشُ بفضلـــه بـــين الورى
وبقـــي الذيـــن حياتهـــم ووجودهـــم مثـــل الخـــرا

حرف الزاي المعجمة : زقزوق على بركة يضحك وهو ضحكة . زاوية بلا عيش بنيت ليش. زوج القصيرة يحسبها صغيرة . زوجت بنتي أقعد في دراها جاتني وأربعة وراها .

قال الشاعر :

زوجـــت بنتـــي تنستـــر ويمتلـــي بيتـــي قمـــاش
جـــا غزلهـــا فـــي أكلهـــا ونيكهـــا طِلِعْ بَـــلاش

زنبور زن على حجر مسن ، قال له : إيش تريد؟ قال : ألحسك قال : أنا ألحس البولاد . زنبور زن على فلس جحش ، قال له : إيش تطلب قال : له عسل . قال له : قصدت معدن يا دندن.

حرف السين المهملة : سل المجرب ولا تنس الطبيب . سموك مسحر قال: فرغ رمضان . سموك حبل قال : وطولت. سموك راجح قال: إن شاء الله تجي الحق . سبع وزر ولا استتر.

قال الشاعر :

سيغنـــي الله عـــن بُقْـــراط دن ويأتـــي الله باللـــبن الحليـــب

وقال آخر:

سيغنـــي الله عـــن زيـــد ويأتـــي الله بالفـــرج القريـــب

حرف الشين المعجمة : شره ووضيع ويغضب سريع . شيء ما نابه وتقطعت ثيابه . شعر يحلق وشعر ما يحلق. شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفل . شمني ولا تدعكني . شيء ما يجيء على القلب عنايته صعبة . شرى العبد ولا تربيته . شخت بغلة عامت زبلة .

حرف الصاد المهملة : صام سنة وفطر على بصلة . صبري على الحبيب ولا فقده . صاحب يضر عدو مبين . صباح الفوال ولا صباح العطار . صباحك يا أعور قال: ذي خناقة بايتة . صباح الخير يا جاري أنت في دارك وأنا في داري .

حرف الضاد المعجمة : ضرب الحبيب كأكل الزبيب . ضربتين في الرأس تعمي . ضرب وبكي وسبق يشتكي . ضربة على كيس غيري كأنها في عدل حنا . ضمنوا حداية لغراب قال: الكل يطيروا . ضربوا بياع الكسبرة خري بياع التوم ، قال: ذي داهية جات على الخضرية .

حرف الطاء المهملة : طارت الطيور بأرزاقها . طفيلي ويجلس في الصدر . طفيلي ويقترح . طويل الكم خطار قليل الفرح في الدار . طبق وجارية على صحن بسارية . طبلوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام . طعامك ما جاني ودخانك عماني . طار طيرك وأخذه غيرك . طول ما أعيش يكفيني رعي الحشيش . طول الغيبة وجانا بالخيبة.

حرف الظاء المعجمة : ظهرك عندي نصف الليل .

حرف العين المهملة : عنقود لى في الهوا من لا يصل إليه يقول : حامض ولا استوى . عشق بداله لا أباله . عاشق ما يسمع بكا صغير . عاشق ما يسمع كلام مفارق . عاشق مقل شيء ما زرع إيش جاى يستغل . عزومة حسبت عليك كل وبحلق بعينك . عند المخاضة يبان القيليط . عند الطعان يبان الفارس من الجبان . عريان التينة وفي حزامه سكينة . عريان وفي كمه ميزان :

حرف الغين المعجمة : غابت السباع ولعبت الضباع . غربة وكربة ما يحمل الحال . غطاس وقلقاس نحسين في قدره . غالي السوق ولا رخيص البيت .

حرف الفاء : فرجة بلا كسر تعمي البصر . فقير ونقير وكلامه كثير ويقول: هاتوا عشا من يخني . فوق الشراطة ملخ أودانه . فارس خرا ويسوق في الوحل . فارس خرا واسمه عنتر. فارس خرا ويسابق الخيل . فرد ضربة في الرأس تكفي . فصدوا قرد ضرط قالوا: به دم زايد . فرغت الرعانة يا جانم .

حرف القاف : قالوا للأعمى: زوق عصاتك قال: هو أنا محب فيها . قالوا للحمار: اجتر قال: مضغ المحال ما ينطلي. قالوا للقرد: شب قال : أيادي ملاح وتمسك الماصول . قالوا للقرد: اطلب من ربك قال: هو أنا عنده بوجه يبسط . قالوا للجمل: زمر قال: لا شفف

ملمومة ولا أيادي مفرودة . قالوا : للدبة طرزي قالت: دي خفة أيادي . قالوا : للكلاب احرثوا قالوا ما جرت بهذا عادة . قالوا للغراب: مالك تسرق الصابون قال: الأذى طبعي . قالوا لبقر الديوان: إذا متم يكفنوكم في حرير قالوا : اشتهينا نروح بجلودنا . قالوا للغزالة: ارحلي حركت ذنبها . قالوا للعرب : ارحلوا حملوا المناسف.

حرف الكاف : كل من عودته بأكلك كلما نظرك جاع . كشكار دايم ولا علامة مقطوعة . كل كرهًا واشرب كرهًا ولا تعاشر كرهًا . كل هَمٍ كاوي عند همي ياوي . كل شيء لا يشبه قانيه حرام . كل مائة عصفور ما يجو حداية . كل ألف مصة ما يجو بغصة . كل ألف بوسة ما يجو بعبوسة . كملت يا لحمان بالشعرة والصنان . كمل حبيبي كل المعاني أعرج وقيليط ومعجباني. كمل حبيبي وأكمل أعرج وقيليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا. كأنه خان للغجر ولا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر . كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار . كأنه عصفور ينيك بلاش ويأوي في الأعشاش .

حرف اللام : لولاك يا كمي ما أكلت يا فمي . لولاك يا لساني ما انسكيت يا قفاي . لولا الغيرة والحسد كانت عجوزة كفت بلد . لولا أختك ما صرت ابن عمتك . لو قليناها بلية ما جات هكذا . لو كان فيها خير ما رماها طير. لك وعليك ما يصعب عليك . لك أسوة بغيرك. لقمة بدقة ولا خروف بزقة . لقمة تحت حيطة ولا خروف بعيطة . لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه . لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعة ما يخليها . لو عمل لي من الذهب وليمة هو عندي بتلك العين القديمة . لو شال رأسه إلى السما كأنه عصيدة بما . لو نظر الجمل لصنمه كان كدمه . لولا الكشط والبراية ما كانت لأولاد الخرا كتاب .

حرف الميم : محبه بلا محبه ما تساوي حبه . ما شلتك يا دمعتي إلا لشدتي . من عاشر غير جنسه دق الهم صدره. من قدم النحس تعب في تأخيره . من عاشر الحداد احترق بناره . من عاشر الزبداني فاحت عليه روايحه . من ركب في غير سرجه وغرزه دخل الهوا إسته وهزه. من لا يحط يده لزنده ما يعرف حره من برده . ما رأيتك يا نور حتى ابيضت العيون . ما لى على فراقكم جلد إلا هجاجي من البلد . ما كفانا هم أبونا قام جاب أبوه ، قال: خذوا جدكم ربوه . من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به . من يكلم القبح يروح عرضه وينفضح . ما تنقدوهم كلهم زغلية ما فيهم من يعجب النقاد . من أولاد الزنا مر العنا .

حرف النون : نواية تسند الجره. قال: وتسند الزير الكبير . نفسك أتلفت أى شىء أخلقت . نصف البلا ولا البلا كله . ناقص ونحاس . ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول: خاطرك. قالت لها : وأنت كنت على أى ورقه . نيتك مطيتك . نسيت يا فلاح ما كنت فيه كعبك المشقق والوحل فيه . نيك حتى تبقى ديك .

حرف الهاء : هانت الزلابية حتى أكلها بنو وائل . هان المسك وانتثر . هدية تعر قومها تخليتها ولا لومها . هدية الأحباب على ورق السداب . قال : هو أعمى عن ورق الموز . هو عرس تأكل وتنسل . أهدوا هدية وأعينهم فيها يقول: الله يردها . هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل.

حرف الواو : واحد نتفه وآخر لقفه وقال آخر : يا قريب الفرج . واحد بيخطبوا له وهو قائم عليه قال: أنا فى حاجتك . واحد جائز رأى قرد يجرش ترمس قال: ما لذى الفاكهة البدرية إلا ذى الصورة القمرية . واحد سموه عنبر وصنعته سرباتى ، قال: الذى كسبه فى الاسم خسره فى الصنعة . وحش ويكش ويقعد فى الوش ويغنى بلينا بكم ، وقت أكل الدجاج ما يفتكرونى وفى وقت شيل التراب هات يدك . وإيش قام على تومه بفصل الحكومه . وقت الشوا أو اليخنى ما قلت: يا أخى الحقنى ووقت ضرب الدره قلت: اصفعوا واصفعنى .

حرف اللام ألف : لا تعيرنى ولا أعيرك الدهر حيرنى وحيرك . لا أصل شريف ولا وجه ظريف . لا أخوك ولا ابن عمك تشقق ثوبك على إيش . لا عاش بليق . لا حراس ولا دراس لا عاش العار ولا بنى له دار . لا ربح ثوابه ولا خلاه لأصحابه . لا فى الفراق نجد راحة ولا فى الوصل . لا تشكرن فتى حتى تجربه . لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجى . لا يضر السحاب نبح الكلاب . لا يغرك تظريفى الأصل فى ريفى .

حرف الياء : يا شب مليح ما أحسن وصفك لا فى يدك ولا فى طرفك . يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه يموت وفي قلبه من الهم واجس . يا طارق الباب العشي لا تطرق الباب ما تم شي.يا من ملنا ما كان حلنا . ليسا ما لنا في العشرة سنة . يهينكم قدومه قد جاكم بشومه . يا ليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا . يا ويل من كان عشيه من بيت خيه . يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر .

أمثال النساء

حرف الألف : أحبك يا سوارى مثل معصمى . الذى فى قلب أم حنين تحلم به فى الليل . إن كنت حره لا تضيعي نقابك بره . إن لم تعملى وتفتخري وإلا انهري وانغفري . إن كانت الدايه أحن من الوالده قال: ذي داهية عيارة . الكلام لك ياجارة إلا أنت حمارة . إيش تعمل الماشطة في الوجه المشؤوم . إيش قام على الحزينة بالنقش والزينة . إيش ينفع النفخ فى الوجه الأصم . أرمله عدس ومتزوجة عدس . اقعدي بعدسك اسم. الزوج ولا طعم الترمل . العاقلة فينا تزنى بيقطينا . إذا كان زوجى راضى إيش فضول القاضى . استعارت الرعنة شىء حسبته لها أخذت المقص ودارته لها . اقعدى فى عشك حتى يجي حد ينشك .

حرف الباء الموحدة : بعد أن كنت لى وحدى بقيت أسمع أخبارك . بعد سنة وشهرين جابت بنت بشفرين . بعد أن كان زوجها بقى طباخ فى عرسها . بعد مشيك فى الحلقة بقالك سلالم وغرفه واسمك ستيته . بعد أمى وأختى الكل جيراني . بينما تتنقب الحوله انصرف القاضي . بنت الخرا تزف لابن الخرا بدف . باتت ناموسة على جميزة قالت: صبحك الله بالخير قالت : من درى بك قبله . بدال ما تمشى وتهزى كتفك رقعي فردة خفك . بخرا أو تزاحم بالبوس . بقى لأم سيسي برقع وللضفدعة زماره . بعد مشيك فى الخلافي لبست الصافى. بعيد على الحزينة تستعمل الزينة .

حرف التاء : تابت القحبة يوم وليلة قالت: ما بقى فى البلد حكام . تضاربت المجنونة والحمقا حسبته الرعنة من حقا . تضارب وتتعرى وتصيح يا قلة رجالى . تأخذوا أبونا وتكابرونا. ترتانه وبيبانه ومفاتيح الخزانه . تباهت الرعنة بشعر بنت أختها . تخلونى وإلا استحل بجارنا قالت : إذا كان ذا قلبك خذيه بلا استحلال . تتغمى ولا تخلى الغنج . تقعد عيوشة فى ديارتها ما لا حد حاجة فى زيارتها .

حرف الثاء : ثوب سيدى ثوب حبيبى ثوب ستى ثوب قحبه .

حرف الجيم : جاره بجاره والعداوه خساره . جانى عذولى ورتالى ما هى محبه إلا شماته لى. جاريه وزبديه على باذنجانه مقليه . جاتنا العدوه مكحله قطران لا غيرة وقلبها فرحان . جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونه معهم .

حرف الحاء المهملة : حوله وتنتقب بنخ . حزانى ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق . حزانى ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية . حزينة وواعيه . حبله ومرضعة وعلى كتفها أربعة ، وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل . حوله ونصرانية لا مليحة ولا أصل طيب . حزينة ما لها مملوك سمت زنبورها خوشكلدم . حزينة ما لها ملك اكترت لها بواب . حزينة ما لها كاملية طلبت لها خف وشعرية .

حرف الخاء المعجمة : خطبوها تعززت وكان زمان البوار . خلت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب . خذى قطيفة واكتمى سرى. قالت : ما يطاوعني قلبي . خلت ما يعنيها واتبعت حك رجليها .

حرف الدال المهملة : درى زوجك بكتبتك تمى نهارك مع ليلتك . دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب .

حرف الذال المعجمة: ذكرت العجوز أطلالها .

حرف الراء : رقصتى ما أحسنتى كان قعادك أجمل . رعنا يضحكوا بها ومن تضحك

تساعدهم . رأوا جاموسة منقبة بحصيره قالوا: ما لذا الشكل الوضيع إلا دا القماش الرفيع . راحت تبيع ربعه غابت جمعه . راحت رجال الهيبة وبقيت رجال الخيبة . راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس . رأوا خنفسة على مكنسة قالوا : مالذى الصيفة إلا ذا الحمار الأزعر.

حرف الزاى : زمر بالزميميره تبان لك العاقله من المجينينه . زوجى ما حكم على قام لى عشيقى بشمعه . زوجوا بنت نشادرى لسرباتى[1] قالوا : قليلات الخرا تتدحرج لبعضها .

حرف السين المهملة : سودا وتتنقش بسباخ سودا منقبة قفل على خزانة. سألوها عن أبيها قالت: جدى شعيب .

حرف الشين المعجمة : شدى قرطاسك من عند موسه قالوا: دا شيء مافرحتى به وأنت عروسه وشامتة ومعزية .

حرف الصاد المهملة : صارت القحبة واعظه . صارت القويقة شاعرة .

حرف الضاد المعجمة : ضحك ابن سنة غمى على أمه قالت : ما أخف دمه .

حرف الطاء المهملة : طلعت ترحم نزلت تتوحم .

حرف الظاء المعجمة : ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة .

حرف العين المهملة : عميا تحفف مجنونة وتقول : حواجبك سود مقرونة . عاقله وجابت طفله وجاتها خطار واشتروا لها قلقاس دكر وحطب أخضر فى نهار مطر وقالوا لها: اطبخي . على قدر لمحة تقع الصلحة . عجوزة وجابت غلام إذا جنت لا تلام . عجوزة وخرفانة دى داهية كمانة .

حرف الغين المعجمة : غيرك يقوم مقامك عليش قلبى أعذبه .

حرف الفاء : فرحت حزينة خرجت مدينة .

حرف القاف : قالوا للمغانى : اتزوقوا قلبوا عصايبهم . قحبة ما كنست بيتها كنست المسجد. قالوا : دى قحبة تطلب الثواب .

حرف الكاف : كل من تبعت هواها صارت سراويلها رداها . كبرتى يا برقوقة وبقى لك دبوقة . كانوا مغانى صاروا ملاهى . كلى قليه وباتى هنيه كأنها من الباسطيه قماش على جريدة. كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر . كأنها من عمايم اليهود صفرا طويلة رفيعة . كأنها من

---

(١) النشادرى : بائع النشادر ذات الرائحة الكريهة . السرباتى : الرجل الذى يعمل فى مجرى الغائط ومخرجه .

بيت الوالى ما يتحدث فيها سوى الحاشية . كأنها ضبه جعيدي مخلوعة ولا تاخذ شيء .

حرف اللام : لو كان ما ينقش إلا السمان بارت المواشط من زمان . للساعة ما حبلت جابت المرسين . لولا المعاير ما كنت الحراير .

حرف الميم : ماشطة وتمشط بنتها . من افتكرنا بياسمنيا ما نسينا . منقبة قفل على خزانة.

حرف النون : نواية تسند الجر . قال : وتسند الزير الكبير .

حرف الهاء : هش يا دبانة أنا حبلى من مولانا .

حرف الواو : وجه لا يرى بالذهب يشترى .

حرف اللام ألف : لا أنت مليحة ولا تغني بايش تدلي . لا راحت ولا جات كما هي .

حرف الياء : يعيش المدلل بلا مكلل . يا غزاله الأقمار أين كنت بالنهار ؟ . يا ما تحت النقاب والشعرية من كل بلية . يا من ملنا ما كان حلنا للساعة ما لنا في العشرة سنة .

الباب السابع

في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول

الفصل الأول : في البيان والبلاغة

أما البيان: فقد قال الله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن : ١ـ ٤] وقال ﷺ : « إن من البيان لسحرا » . قال ابن المعتز [١] : البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حَدُّه [٢] فقد قال الجاحظ [٣] : البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى .

وأما البلاغة: فإنها من حيث اللغة هي أن يقال : بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق : ٣] . وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾ [القلم : ٣٩] : أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية . **وقال اليوناني** : البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة. **وقال الهندي** : البلاغة تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام . **وقال الكندي** [٤] : يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني . وقيل : إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس ؟ فقال : أقلهم لفظًا ، وأسهلهم معنى ، وأحسنهم بديهة . ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول : « نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم » . وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة . وقيل : ثلاثة تدل على عقول أصحابها ، الرسول على عقل المرسل ، والهدية على عقل المهدي، والكتاب على عقل الكاتب . وقال أبو عبد الله وزير المهدي : البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن المعتز بالله . . . أبو العباس الشاعر المبدع . خليفة يوم وليلة . كان مولعا بالأدب . وكان يقصد فصحاء العرب ويأخذ منهم . من تصانيفه :« الزهر والرياض » و « طبقات الشعراء » و«البديع» توفى سنة ٢٩٦ هـ .

(٢) الحدُّ : حَدُّ الشى: تعريفه الجامع لكل أفراده والمانع لكل ما ليس منه .

(٣) الجاحظ : هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى . أبو عثمان الشهير بالجاحظ . كبير أئمة الأدب ..رئيس فرقة الجاحظية من المعتزلة . مولده ووفاته بالبصرة . له تصانيف كثيرة منها « الحيوان » و « البيان والتبيين »و « البخلاء » و « الرسائل » توفى سنة ٢٢٥ هـ .

(٤) أبو يوسف يعقوب . ولد فى الكوفة ترجم مؤلفات اليونان . كان حجة فى علم الفلك . من المعتزلة . توفى سنة ٢٦٠ هـ .

وقال البحتري[(١)] : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل . وقالوا : البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان ، ولا يسلك إلا ببصائر البيان .

وقال الشاعر :

لَكَ البلاغةُ ميدانٌ نشأتَ به وكُلُّنا بقصورٍ عَنْك نعترفُ
مَهِّدْ لي العذرَ فى نظمٍ بعثتُ به من عنده الدرّ لا يُهدى له الصَّدفُ

وروي أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال : يا غلام اذهب إلى فلان ، فقل له: يقطع لسانها ، قال : فطلب حجامًا. فقالت : ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة ، فلولا تبصرها بأنحاء الكلام، ومذاهب العرب، والتوسعة في اللفظ ، ومعاني الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل .

وقال الثعالبي : البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالي ، ويخيط الألفاظ على قدر المعاني . والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً ، ومعناه بكرًا . وقال الإمام فخر الدين الرازي[(٢)] ـ رحمة الله تعالى ـ عليه في حد البلاغة : إنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل ، والتطويل الممل ، ولهذه الأصول شُعَب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق .

الفصل الثاني : في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازى ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد ، وأصلها من قولهم أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة . وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة ، بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحدة في تسوية الحكم بينهما . ويزعم بعضهم أن البلاغة : في المعاني ، والفصاحة: في الألفاظ ، ويستدل بقولهم : معنى بليغ ، ولفظ فصيح .

وقال يحيى بن خالد : ما رأيت رجلاً قط إلا هِبْتَهُ حتى يتكلم ، فإن كان فصيحًا عظم في

(١) هو أبو عبادة ولد فى منبج . شاعر عربى طائى عباسى . حافظ على الأساليب التقليدية . أكثر شعره فى المدح . برع فى الوصف له ديوان وكتاب الحماسة جمع فيه شعر الأقدمين توفى سنة ٢٨٤ هـ .

(٢) ولد فى الرى . شيخ الإسلام فى هراة ، فقيه ومحدث . من آثاره :« مفاتيح الغيب » وهو المشهور بـ«التفسير الكبير » و « أساس التقديس » فى علم الكلام . توفى سنة ٦٠٦ هـ .

صدري ، وإن قصر سقط من عيني

وقد اختلف الناس في الفصاحة : فمنهم من قال : إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني ، ومنهم من قال : إنها لا تخص الألفاظ وحدها . واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال : نرى الناس يقولون: هذا لفظ فصيح ، وهذه الألفظ فصيحة ، ولا نرى قائلاً يقول : هذا معنى فصيح ، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني ، وإن قلنا : إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح ، وذلك غير مألوف في كلام الناس . والذي أراه في ذلك : أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحًا حسنًا . ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف ، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة ، والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنتَ كنتَ كتمتَ الحبَّ كُنتَ كما ... كُنّا وكُنْتَ ولكنْ ذاك لم يكُنِ

وكقول بعضهم أيضًا :

ولا الضعفُ حتى يبلُغَ الضّعْفُ ضِعفَهُ ... ولا ضعفَ الضعف بل مثله ألف

وكقول الآخر :

وقَبْرُ حَرْب بمكان قَفْـرِ ... وليْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبِ قَبْر

قيل : إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلاً في النطق به . وقيل : من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار . وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق ـ عليه الصلاة والسلام ـ على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه ملكها على الخفي من أمره والمستور .

قال الشاعر :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفُ فؤادُهُ ... ولم يبقَ إلاَّ صُورةُ اللَّحمِ والدمِ

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلامًا فصيحًا فقال : بارك الله لك يا عم في جمالك . أي: فصاحتك .

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة ، فقال أبو العيناء [١] يستجيزها : أحمد الله كثيرًا .

---

(١) هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمى . أديب فصيح من ظرفاء العالم . ومن أسرع الناس جوابا اشتهر بنوادره ولطائفه . خبيث اللسان فى سب الناس . كف بصره . توفى بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ .

فقالت : حيث أنشأك ضريرًا . فقال : يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها. وقال فيلسوف : كما أن الآنية تمتحن بأطيانها ، فيعرف صحيحها من مكسورها ، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقه.

وقال المبرِّدُ (١) قلت للمجنون: أجزني هذا البيت :

أرى اليومَ يومًا قد تكاثَفَ غَيْمُهُ وإبراقُه فاليوم لا شَكَّ ماطرُ

فقال :

وقد حجبتْ فيه السحائبُ شمسَه كما حجبَتْ وردَ الخدودِ المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل : حدثني ، فقال : يا أمير المؤمنين افتتح ، فإن الحديث يفتح بعضه بعضًا . وقال الهيثم بن صالح لابنه : يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال : يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت يعني كلامًا وصوابًا ، قال : يا بني ، ما رأيت موعوظًا أحق بأن يكون واعظًا منك . وقال الشعبي (٢) : كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول : أجزها أصلحك الله ، فإن الحديث من وراء ذلك ، فيقول : والله لحديثك أحب إليَّ منها . وقال ابن عيينة (٣) : الصمت منام العلم ، والنطق يقظته ، ولا منام إلا بتيقظ ولا يقظة إلا بمنام . قال ابن المبارك (٤) :

وهذا اللسانُ بريدُ الفؤادِ يَدُلُّ الرجالَ على عقلِه

ومر رجل بأبي بكر الصدِّيق ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، ومعه ثوب ، فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : أتبيعه ؟ فقال : لا ، رحمك الله ، فقال أبو بكر : لو تستقيمون لقومت ألسنتكم ، هلا قلت : لا ورحمك الله .

ومنه : ما حكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم (٥) عن شيء ، فقال : لا ، وأيد الله أمير

---

(١) المبرِّد : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدى ، أبو العباس . المعروف بالمبرد . إمام العربية فى بغداد فى زمنه . وأحد أئمة الأدب والأخبار . ولد بالبصرة سنة (٢١٠ هـ) من آثاره :« إعراب القرآن » و «المقتضب» و «الكامل » . توفى ببغداد سنة ٢٨٦ هـ .

(٢) سبق التعريف به ص ١٨ .

(٣) هو سفيان بن عيينه بن ميمون الهلالى الكوفى محدث . ولد بالكوفة سنة (١٠٧ هـ) حافظ ثقة . له : «الجامع» فى الحديث . وكتاب فى« التفسير » توفى فى مكة سنة (١٩٧ هـ) .

(٤) ابن المبارك: هو يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى . أبو محمد اليزيدى . عالم بالعربية والأدب. سكن بغداد أدب المأمون بن الرشيد من كتبه :« المقصور والممدود » و « النوادر » فى اللغة . توفى بمرو سنة (٢٠٢ هـ).

(٥) الأسيدى المروزى أبو محمد (١٥٩ ـ ٢٤٢ هـ) قاضٍ . رفيع القدر . من نبلاء الفقهاء . يتصل نسبه بأكثم ابن صيفى حكيم العرب .

المؤمنين ، فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها . وكان الصاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ . ويقال : اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم ، وقال بعضهم شعرًا :

سحبانُ يقصرُ عن بحورِ بيانِهِ عجزًا ويغرقُ مِنْه تحت عبابِ
وكذاك قُسٌ ناطقٌ بعكاظه يعيا لديه بحجةٍ وجوابِ

وقيل : إنه حج مع ابن المنكدر شابان ، فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا : قد أبرقنا، وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن ، فرأيا قبة فيها امرأة ، فقالا : بارقة وكانت قبيحة ، فقال ابن المنكدر : بل صاعقة . وكان أصحاب أبي علي الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون : حجة ، فعرضت لهم قبيحة ، فقالوا : داحضة . وكتب إبراهيم بن المهدي : إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعًا في نيل البلاغة ، فإن ذلك العناء الأكبر ، وعليك بما سهل مع تجنبك الألفاظ السفل. ويقال : القول على حسب همة القائل يقع ، والسيف بقدر عضد الضارب يقطع . وقال الأحنف : سمعت كلام أبي بكر حتى مضى ، وكلام عمر حتى مضى ، وكلام عثمان حتى مضى ، وكلام علي حتى مضى ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ، ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة .وقال معاوية ـ رضي الله تعالى عنه ـ : ما رأيت أبلغ من عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ ، ما أغلقت بابًا فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت بابًا فأرادت إغلاقه إلا أغلقته .

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ، وهو من الذكاء والفصاحة ما حكي أن رجلاً كان أسيرًا في بني بكر بن وائل وعزموه على غزو قومه ، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه ، فقالوا : لا ترسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم ، فجاءوا بعبد أسود ، فقال له : أتعقل ما أقوله لك ؟ ، قال : نعم إني لعاقل ، فأشار بيده إلى الليل ، فقال : ما هذا ؟ قال : الليل قال: ما أراك إلا عاقلاً ، ثم ملأ كفيه من الرمل وقال : كم هذا ؟ قال : لا أدري وإنه لكثير، فقال : أيما أكثر النجوم أم النيران ؟ قال : كل كثير ، فقال : أبلغ قومي التحية ، وقل لهم : يكرموا فلانًا يعني أسيرًا كان في أيديهم من بكر بن وائل ، فإن قومه لي مكرمون ، وقل لهم : إن العرفج (١) قد دنا وشكت النساء ، وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها ، وأن يركبوا جملي الأصهب بأمارة ما أكلت معكم حيسًا ، واسألوا عن خبري أخي الحرث . فلما أدى

(١) العرفج : نبت طيب الريح أغبر إلى الخضرة ، وله زهرة صفراء ، وليس له حب ولا شوك .

العبد الرسالة إليهم قالوا : لقد جن الأعور ، والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملاً أصهب ، ثم دعوا بأخيه الحرث فقصوا عليه القصة ، فقال : قد أنذركم ، أما قوله: قد دنا العرفج ، يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح ، وأما قوله : شكت النساء أي أخذت الشكاء للسفر ، وأما قوله : أعروا ناقتى الحمراء أي ارتحلوا عن الدهناء ، واركبوا الجمل الأصهب ، أي الجبل . وأما قوله : أكلت معكم حيسًا ، أي إن أخلاطًا من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس : يجمع التمر والسمن والأقط ، فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا .

وأسرت طيِّئ غلامًا من العرب ، فقدم أبوه ليفديه ، فاشتطوا عليه ، فقال أبوه : والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيِّئ ما عندي غير ما بذلته ثم انصرف ، وقال : لقد أعطيته كلامًا إن كان فيه خير فهمه ، فكأنه قال له : الزم الفرقدين يعني في هروبك على جبل طيِّئ ، ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجا.

وكانت علية بنت المهدي (١)تهوى غلامًا خادمًا اسمه طَلٌّ ، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها ، فاطلع الرشيد يومًا عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة ، ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ ﴾[البقرة : ٢٦٥] ، فالذي نهى عنه أمير المؤمنين ومن ذلك قولهم : تركت فلانًا يأمر وينهَي وهو على شرف الموت ، أي يأمر بالوصية وينهى عن النوح ، ويقال : ما رأيت فلانًا ، أي ما ضربته في رئته ، ولا كَلَمْتُه أي ما جرحته ، فإن الكلوم الجراح ، وما رأيت ربيعًا ، فالربيع حظ الأرض من الماء ، والربيع النهر ، وما رأيت كافرًا ولا فاسقًا ، فالكافر : السحاب، والفاسق : الذي تجرد من ثيابه ، وما رأيت فلانًا راكعًا ولا ساجدًا ولا مصليًا ، فالراكع : العاثر الذي كبا لوجهه، والساجد : المدمن النظر ، والمصلي : الذي يجيء بعد السابق ، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجًا، فالدجاجة : الكبة من الغزل ، والفروجة : الدراعة ، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورًا . فالبقرة : العيال الكثيرة . يقال : جاء فلان يسوق بقره ، أي عياله ، والثور : القطعة الكبيرة من الأقط (٢)

وحكي أن معاوية ـ رضي الله تعالى عنه ـ بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس (٣)إذ دخل رجل من أهل الشام ، فقام خطيبًا ، وكان آخر كلامه

---

(١) علية بنت المهدى بن المنصور ـ العباسية ـ من بنى العباس (١٦٠ ـ ٢١٠ هـ) أخت هارون الرشيد . أديبة . شاعرة . تحسن صناعة الغناء .

(٢) الأقط : لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويطبخ به .

(٣) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرىّ السعدى التميمى ، أبو بحر (٣ ق هـ ـ ٧٢ هـ) سيد تميم، وأحد الدهاة الفحصاء . والأحنف لقب له لحنف كان فى رجله ، أى اعوجاج .

أن لعن عليا ـ رضي الله تعالى عنه ـ ولعن لاعنه ، فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم ، فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليًا ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، فلقد لقي ربه ، وأُفرِد في قبره ، وخلا بعمله ، وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته ، فقال معاوية : يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت ، وايم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعًا أو كرهًا ، فقال له الأحنف : يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك وإن تجبرني على ذلك ، فوالله لا تجري شفتاي به أبدًا ، فقال : قم فاصعد ، قال : أما والله لأنصفنك في القول ، والفعل ، قال : وما أنت قائل إن أنصفتني؟ ، قال : أصعد المنبر ، فأحمد الله وأثني عليه ، وأصلي على نبيه محمَّد ﷺ ثم أقول : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية وعليا اقتتلا فاختلفا ، فادعى كل واحد منهما أنه مبغى عليه وعلى فئته ، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ، ثم أقول : اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ، والعن الفئة الباغية ، اللهم العنهم لعنًا كثيرًا أمنوا رحمكم الله . يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفًا ولو كان فيه ذهاب روحي . فقال معاوية : إذًا نعفيك يا أبا بحر.

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب : إن عليًا قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر قال : أفعل ، فصعد المنبر ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ : أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب، فالعنوه فعليه لعنة الله ، ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين من لعنت منهما بينه ، فقال: والله لا زدت حرفًا ولا نقصت حرفًا ، والكلام إلى نية المتكلم .

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت : يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وَفَرَّحَك بما آتاك ، وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت ، فقال لها : من تكونين أيتها المرأة ؟. فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم ، وأخذت أموالهم ، وسلبت نوالهم . فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره ، وأما المال فمردود إليك ، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه ، فقال : أتدرون ما قالت هذه المرأة ؟ ، فقالوا : ما نراها قالت إلا خيرًا . قال : ما أظنكم فهمتم ذلك ، أما قولها : أقر الله عينك ، أي أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت ،وأما قولها : وفرحك بما آتاك ، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] وأما قولها : وأتم الله سعدك،

فأخذته من قول الشاعر :

إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصهُ ... ترقَّبْ زوالا إذا قيلَ ، تمَّ

وأما قولها : لقد حكمت فقسطت ، فأخذته من قوله تعالى : **﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾** [الجن : ١٥] ، فتعجبوا من ذلك .

وحكي : أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى ، فقال له : أطال الله بقاءك ، وأقر عينك، وجعل يومي قبل يومك ، والله إنه ليسرني ما يسرك ، فأحسن إليه ، وأجازه على دعائه، وأمر له بصلة ، وكان ذلك دعاء عليه لأن معنى قوله : أطال الله بقاءك ، حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية ، وأما قوله : وأقر عينك ، فمعناه سكن الله حركتها أي أعماها ، وأما قوله : وجعل يومي قبل يومك ، أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة قبل يومك الذي تدخل فيه النار ، وأما قوله : إنه ليسرني ما يسرك ، فإن العافية تسره كما تسر الآخر . فانظر إلى الاشتراك وفائدته ، ولولا الاشتراك ما تهيأ لمتستر مراد ، ولا سلم له في التخلص قياد، وكان حماد الراوية [١] لا يقرأ القرآن، فكلفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف، فصحف في نيف وعشرين موضعًا من جملتها قوله تعالى : **﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾** [النحل : ٦٨] بالغين المعجمة والسين المهملة ، وقوله : **﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾** [التوبة : ١١٥] بالباء الموحدة **﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾** [القصص : ٨] بالباء الموحدة . وقوله :**﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾** [لقمان : ٣٢] بالجيم والباء الموحدة . وقوله : **﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾** [مريم:٧٤] بالزاي وترك الهمزة . وقوله : **﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾** [الأعراف: ١٥٦] بالسين المهملة. وقوله : **﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾** [البقرة : ١٣٨] بالنون والعين المهملة . وقوله : **﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ﴾** [القصص:٥٥] بإسقاط التاء. وقوله : **﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾**[ص:٢] بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة ، وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

وحكي : أن المأمون ولى عاملاً على بلاد ، وكان يعرف منه الجور في حكمه ، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه ، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه ، ولم يعلمه أن

---

(١) هو حماد بن سابور بن المبارك : أبو القاسم . أول من لقب الراوية . كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم وأنسابهم ولغاتهم توفى سنة (١٥٥ هـ) .

أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن إليه ، وسأله أن يكتب كتابا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة، فكتب كتابًا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين : أما بعد ، فقد قدمنا على فلان ، فوجدناه آخذًا بالعزم ، عاملاً بالحزم ، قد عدل بين رعيته ، وساوى في أقضيته ، أغنى القاصد ، وأرضى الوارد ، وأنزلهم منه منازل الأولاد ، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد ، وعمر منهم المساجد الداثرة ، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة ، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام . فكان معنى قوله : آخذًا بالعزم ، أي إذا عزم على ظلم أو جور ، فعله في الحال ، وقوله : قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته ، أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير ، وقوله

عمر منهم المساجد الداثرة ، وأفرغهم من عمل الدنيا ، وشغلهم بعمل الآخرة ، يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئًا من الدنيا ، ومعنى قوله : يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين ، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم . فلما جاء الكتاب إلى المأمون عـزله عـنهم لوقته ، وولى عليهم غيره .

ومن ذلك ما حكي : أن القاضي الفاضل (١) كان له صديق خصيص به ، وكان صديقه هذا قريبًا من الملك الناصر صلاح الدين ، وكان فيه فضيلة تامة ، فوقع بينه وبين الملك أمر ، فغضب عليه ، وهم بقتله ، فتسحب إلى بلاد التتر ، وتوصل إلى أن صار وزيرًا عندهم ، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه ، فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل : اكتب إليه كتابًا عرفه فيه أنني أرضى عليه ، وأستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر، فإذا حضر قتلته ، واسترحت منه ، فتحير الفاضل بين الاثنين ، صديقه يعز عليه ، والملك لا يمكنه مخالفته ، فكتب إليه كتابا واستعطفه غاية الاستعطاف ، ووعده بكل خير من الملك ، فلما انتهى الكتاب ختمه بالْحَمْدَلَة والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب إنَّ شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب .

فشدد « إنّ » ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه ، فقرأه في غاية الكمال وما فهم «إنّ»، وكان قصد الفاضل ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوك ﴾ [القصص : ٢٠] ، فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه ، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً ، فلما أراد أن ينهي الكتاب ، ويكتب إن شاء تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفًا وأراد بذلك ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ﴾ [المائدة: ٢٤] ، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ، ثم أوقف الملك على الجواب

(١) هو : عبد الرحيم بن على بن سعيد اللخمى . كان من وزراء السلطان صلاح الدين . وكان صلاح الدين يقول : لا تنظروا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل . توفى سنة (٥٩٦ هـ) .

بخطه ، ففرح بذلك .

وحكي : أن بعض الملوك طلع يومًا إلى أعلى قصره يتفرج ، فلاحت منه التفاتة ، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراءون أحسن منها ، فالتفت إلى بعض جواريه ، فقال لها : لمنْ هذه ؟ فقالت : يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز ، قال : فنزل الملك وقد خامره حبها ، وشغف بها ، فاستدعى فيروز ، وقال له : يا فيروز ، قال : لبيك يا مولاي ، قال : خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية ، وائتني بالجواب ، فأخذ فيروز الكتاب ، وتوجه إلى منزله ، فوضع الكتاب تحت رأسه ، وجهز أمره ، وبات ليلته ، فلما أصبح ودع أهله وسار طالبًا لحاجة الملك ، ولم يعلم بما قد دبره الملك ، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعًا وتوجه متخفيًا إلى دار فيروز ، فقرع الباب قرعًا خفيفًا ، فقالت امرأة فيروز : من بالباب؟ قال : أنا الملك سيد زوجك ،ففتحت له ، فدخل وجلس ، فقالت له : أرى مولانا اليوم عندنا ، فقال: زائر ، فقالت : أعوذ بالله من هذه الزيارة ، وما أظن فيها خيرًا ، فقال لها : ويحكِ إنني الملك سيد زوجك ، وما أظنك عرفتني . فقالت : بل عرفتك يا مولاي ، ولقد علمت أنك الملك ، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم :

سأتْرُكُ مَاءَكم مِنْ غيرِ ورد(١) وذاك لكثرةِ الورَّادِ فيهِ
إذا سَقَطَ الذبابُ على طَعامٍ رفعتُ يدي ونفسي تَشْتَهِيه
وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ إذا كانَ الكلابُ وَلَغْنَ فيه(٢)

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قُلْ للذي شَفَّهُ الغرامُ بنا وصاحبُ الغدرِ غير مصحوبِ
واللّهِ لا قال قائلٌ أبدًا قد أكَلَ الليثُ فضلةَ الذيبِ

ثم قالت : أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه ، قال : فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها ، فنسي نعله في الدار ، هذا ما كان من الملك . وأما ما كان من فيروز، فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب ، فلم يجده معه في رأسه ، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه ، فرجع إلى داره ، فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره ، فوجد نعل الملك في الدار ، فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله ، فسكت ولم يبد كلامًا، وأخذ الكتاب ، وسار إلى حاجة الملك ، فقضاها ، ثم عاد إليه ، فأنعم عليه بمائة دينار ، فمضى

(١) وِردْ : مكان الشرب ـ أى من غير ان اشربه وأذوقه .
(٢) ولغ : شرب الكلب من الإناء بأطراف لسانه ، أو ادخل فيه لسانه وحركه .

فيروز إلى السوق ، واشترى ما يليق بالنساء ، وهيأ هدية حسنة وأتى إلى زوجته ، فسلم عليها ، وقال لها : قومي إلى زيارة بيت أبيك ، قالت : وما ذاك ؟ قال : إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك ، قالت : حبًا وكرامة ، ثم قامت من ساعتها ، وتوجهت إلى بيت أبيها ، ففرحوا بها ، وبما جاءت به معها ، فأقامت عند أهلها شهرًا ، فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها ، فأتى إليه أخوها ، وقال له : يا فيروز إما أن تخبرنا بسبب غضبك ، وإما أن تحاكمنا إلى الملك ، فقال : إن شئتم الحكم ، فافعلوا ، فما تركت لها عليَّ حقًا، فطلبوه إلى الحكم ، فأتى معهم ، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسًا إلى جانبه ، فقال أخو الصبية : أيد الله مولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستانًا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة ، وأشجار مثمرة ، فأكل ثمره ، وهدم حيطانه ، وأخرب بئره ، فالتفت القاضي إلى فيروز ، وقال له : ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز : أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان ، فقال القاضي : هل سلم إليك البستان كما كان ؟ قال : نعم ، ولكن أريد منه السبب لرده ، قال القاضي : ما قولك ؟ قال : والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه ، وإنما جئت يومًا من الأيام ، فوجدت فيه أثر الأسد ، فخفت أن يغتالني ، فحرمت دخول البستان إكرامًا للأسد ، قال : وكان الملك متكئًا فاستوى جالسًا ، وقال : يا فيروز ارجع إلى بستانك آمنًا مطمئنًا ، فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرًا ، ولا التمس منه ورقًا ، ولا ثمرًا ولا شيئًا ، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة ، وخرج من غير بأس ، ووالله ما رأيت مثل بستانك ، ولا أشد احترازًا من حيطانه على شجره ، قال : فرجع فيروز إلى داره ، ورد زوجته ، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم .

وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ، ومنه ما يجده المتستر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق ، ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعاريض مندوحة عن الكذب . كما روي في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائرًا بأصحابه يقصد بدرًا ، فلقيهم رجل من العرب فقال : ممن القوم ؟ فقال له النبي ﷺ : « من ماء » أخذ ذلك الرجل يفكر ويقول : من ماء من ماء يرددها لينظر أي العرب يقال لهم : ماء ، فسار النبي ﷺ بأصحابه لوجهته ، وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله ، فإن الله عز وجل قال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٥، ٦] . وكما روي عن أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار: وهو رجل يهديني السبيل، وقد صدق فيما قال ـ رضي الله عنه ـ ، فقد هداه الله وهدانا السبيل، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام. وكما حكي عن الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ

أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول في القرآن ؟ فقال الشافعي (١) : إياي تعني ، قال : نعم . قال : مخلوق ، فرضي خصمه منه بذلك ، ولم يرد الشافعي إلا نفسه .

وكما حكي عن ابن الجوزي (٢) ـ رحمه الله تعالى ـ : أنه سئل وهو على المنبر وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته ، وهم فريقان : قوم سنية وقوم شيعة ، فقيل له : من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أم علي ـ رضي الله عنهما ـ ، فقال : أفضلها بعده من كانت ابنته تحته ، فأرضى الفريقين ولم يرد إلا أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر رضي الله عنه ـ ، وهي عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وكانت تحت رسول الله ﷺ ، والشيعة ظنوا أن الضمير في ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ وهي: فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ، وكانت تحت علي ـ رضي الله عنه ـ ، فهذه منه جيدة حسنة وكلمة بأتت جفون الفريقين منها وسنة (٣) ، والله أعلم .

الفصل الثالث : في ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم ، فأحب الحسن أن يتكلم ، فزجره وقال : يا صبي تتكلم في هذا المقام ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن كنت صبيًا، فلست بأصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان ـ عليه السلام ـ حين قال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ [النمل : ٢٢] ، ثم قال : ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى.

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ، أتته الوفود ، فإذا فيهم وفد الحجاز ، فنظر إلى صبي صغير السن ، وقد أراد أن يتكلم فقال : ليتكلم من هو أسن منك ، فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي : يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك ، قال : صدقت ، فتكلم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا قدمنا عليك من بلد تحمد الله

---

(١) هو : محمد بن إدريس ، أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة . ولد بغزة بفلسطين سنة (١٥٠هـ) وحمل منها إلى مكة . وزار بغداد مرتين . قال المبرد : كان الشافعي آدبهم وأعرفهم بالفقه . قصد مصر سنة (١٩٩ هـ) وتوفى بها سنة (٢٠٤ هـ) .

(٢) ابن الجوزى : عبد الرحمن بن محمد الجوزى القرشى البغدادى ، أبو الفرج . علامة عصره فى الحديث والتاريخ . كثير التصانيف له : « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » و « الأذكياء وأخبارهم » وغيرها توفى فى بغداد سنة (٥٩٧ هـ) .

(٣) الوسن : النعاس والنوم .

الذي مَنّ علينا بك ، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك ، أما عدم الرغبة ، فقد أمنا بك في منازلنا ، وأما عدم الرهبة ، فقد أمنا جورك بعدلك ، فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ : عظني يا غلام . فقال : يا أمير المؤمنين إن أناسًا غرّهم حِلْمُ اللّه وثناء الناس عليهم ، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه ، فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] . فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة ، فأنشدهم عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ :

تعلَّمْ فليس المرء يُولدُ عالمًا ... وليس أخو علمٍ كمنْ هو جاهلُ
فإنَّ كبيرَ القومِ لا عِلمَ عنده ... صغيرٌ إذا التفّتْ عليه المحافلُ

وحكي : أن البادية قحطت في أيام هشام [1] ، فقدمت عليه العرب ، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب ، وهو ابن ست عشرة سنة ، له ذؤابة [2] ، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام ، فقال لحاجبه : ما شاء أحد أن يدخل عليَّ إلا دخل حتى الصبيان ، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقًا فقال : يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرًا وطيًا ، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره ، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته ، فأعجبه كلامه، وقال له: انشره لله درك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث : سنة : أذابت الشحم؛ وسنة : أكلت اللحم ، وسنة : دقت العظم ، وفي أيديكم فضول مال ،فإن كانت للّه ففرقوها على عباده ، وإن كانت لهم ، فعلام تحبسونها عنهم ، وإن كانت لكم ، فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزي المتصدقين ، فقال هشام ، ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار ، وله بمائة ألف درهم ، ثم قال له : ألا حاجة ؟ قال : ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين ، فخرج من عنده وهو من أجلّ القوم .

وقيل : إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر [3] يستلب أمواله حتى عيل صبره ، فبعث إليه يقول : إن لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي ، فوفد عليه وكان صغير الجثة ، فاقتحمته عينه وتنقصه ، فقال : مهلاً أيها الملك إن الرجال ليسوا بعظم

(١) هو : هشام بن عبد الملك بن مروان من ملوك الدولة الأموية فى الشام . ولد فى دمشق سنة (٧١ هـ) وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة (١٠٥ هـ) وكان حسن السياسة . يقظًا فى أمره . يباشر الأعمال بنفسه توفى سنة (١٢٥هـ) .

(٢) الذؤابة : الشعر المضفور من الرأس .

(٣) ملقب بـ « أبو قابوس » آخر ملوك بنى لخم فى الحيرة (نحو ٥٨٠ ـ ٦٠٢ م) كان مسيحيا وأخته هند راهبة وكان شاعره النابغة الذبيانى .

أجسامهم ، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان ، وإن صال صال بجنان ، ثم أنشأ يقول :

يا أيُّها الملكُ المرجوُّ نائلُه ... إنِّي لِمَنْ مَعشرٍ شُمٌّ الذرى زهر(١)

فَلاَ تَغُرَّنَّك الأجسامُ إنّ لنا ... أحلامَ عادٍ وإنْ كنا إلى قصرِ

فكم طويلٍ إذا أبصَرْتَ جُثَّتَهُ ... تقولُ: هذا غداة الروعِ ذو ظَفَرِ(٢)

فإنْ ألَمَّ به أمرٌ فأفْظَعه ... رأيته خاذلاً بالأهْلِ والزُّمَرِ(٣)

فقال : صدقت ، فهل لك علم بالأمور؟ ، قال : إني لأنقض(٤) منها المفتول ، وأبرم منها المحلول ، وأجيلها حتى تجول ، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول ، وليس للدهر بصاحب من لا ينظر في العواقب . قال : فتعجب النعمان من فصاحته وعقله ، ثم أمر له بألف ناقة وقال له : يا سعد إن أقمت واسيناك ، وإن رحلت وصلناك ، فقال : قُرْبُ الملك أحب إلي من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأدناه ، وجعله من أخص ندمائه .

وحكي : أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء ، وعن دين لا يقبل الله غيره ، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة ، وعن صلاة كل شيء ، وعن أربعة فيهم الروح ، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وعن رجل لا أب له ، وعن رجل لا أم له ، وعن قبر جرى بصاحبه ، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها ، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة ، ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، وعن شجرة نبتت من غير ماء ، وعن شيء تنفس ولا روح له ، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد ، وعن البرق والرعد وصوته ، وعن المحو الذي في القمر . فقيل لمعاوية : لست هناك ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه ، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل . فكتب إليه ، فأجابه ، أما الشيء : فالماء ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] . وأما لا شيء : فإنها الدُّنيا تبيد وتفنى ، وأما دين لا يقبل الله غيره ، فلا إله إلا الله ، وأما مفتاح الصلاة : فالله أكبر ، وأما غرس الجنة : فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأما صلاة كل شيء : فسبحان الله وبحمده ، وأما الأربعة الذين فيهم الروح ، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام

---

(١) شم الذرى : كرم الأصل وسموه والأنفة والكبرياء .

(٢) الروعِ : الفزع . والجرب . والظفر : الفوز والغلبة .

(٣) الزُمَرُ : الجماعات .

(٤) أنقض : أهدم البناء . وأحُلُّ الحبل .

النساء : فآدم ، وحواء ، وناقة صالح ، وكبش إسماعيل ، وأما الرجل الذي لا أب له : المسيح، وأما الرجل الذي لا أم له : فآدم عليه السلام ، وأما القبر الذي جرى بصاحبه : فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر . وأما قوس قزح : فأمان من الله لعباده من الغرق ، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة : فبطن البحر حين انفلق لبني إسرائيل ، وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال ، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين ، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم ، فأخذوا التوراة معذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف : ١٧١]. وأما الشجرة التي تنبت من غير ماء : فشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس ـ عليه السلام ـ ، وأما الشيء الذي يتنفس بلا روح : فالصبح ، قال الله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير : ١٨] . وأما اليوم : فعمل، وأمس : فمثل، وغد : فأجل ، وبعد غد : فأمل . وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب ، وأما الرعد : فاسم الملك الذي يسوق السحاب ، وصوته : زجره ، وأما المحو الذي في القمر : فقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : ١٢] . ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ، ولا النهار من الليل . ودعا بعض البلغاء لصديق له ، فقال : تمم الله عليك ما أنت فيه ، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه .

وحكى : أن الحجاج (١) سأل يومًا الغضبان بن القبعثري عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له : من أكرم الناس ؟ قال : أفقههم في الدين وأصدقهم لليمين ، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم للمهانين ، وأطعمهم للمساكين . قال : فمن ألأم الناس ؟ قال : المعطى على الهوان، المقتر على الإخوان ، الكثير الألوان . قال : فمن شر الناس ؟ قال : أطولهم جفوة ، وأدومهم صبوة ، وأكثرهم خلوة ، وأشدهم قسوة . قال : فمن أشجع الناس ؟ قال : أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف ، وأتركهم للحيف . قال : فمن أجبن الناس ؟ قال : المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف ، المرتعش عند الوقوف ، المحب ظلال السقوف ، الكاره لضرب السيوف. قال : فمن أثقل الناس ؟ قال : المتفنن في الملام ، الضنين بالسلام ، المهذار في

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي ، أبو محمد . قائد ، داهية ، سفاك للدماء . خطيب . ولد ونشأ في الحجاز سنة (٤٠ هـ) انتقل إلى الشام ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليها العراق ، فقمع الثورة فيها ، وثبتت له الإمارة . توفي سنة (٩٥ هـ) .

الكلام ، المقبقب[1] على الطعام . قال : فمن خير الناس ؟ قال : أكثرهم إحسانًا وأقومهم ميزانًا، وأدومهم غفرانًا ، وأوسعهم ميدانًا ، قال : لله أبوك ، فكيف يعرف الرجل الغريب ، أحسيب هو أم غير حسيب ؟ قال : أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداورته على أصله ، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله ، والنذل الجاهل يجهله ، فمثله كمثل الدُّرَّةُ إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها ، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها ، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة، فقال الحجاج : لله أبوك ، فما العاقل ، والجاهل ؟ قال : أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هذرًا ، ولا ينظر شزرًا ، ولا يضمر غدرًا ، ولا يطلب عذرًا ، والجاهل هو المهذار في كلامه ، المنان بطعامه ، الضنين بسلامه المتطاول على إمامه ، الفاحش على غلامه ، قال : لله أبوك ، فما الحازم الكيس ؟ قال : المقبل على شأنه ، التارك لما لا يعنيه ، قال : فما العاجز ؟ قال : المعجب بآرائه الملتفت إلى ورائه ، قال : هل عندك من النساء خبر ؟ قال : أصلح الله الأمير إني بشأنهن خبير إن شاء الله تعالى . إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت ، ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة ، فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه ، ومن شاورهن كدّرْنَ عيشه ، وتكدرت عليه حياته ، وتنغصت لذاته ، فأكرمهن أعفهن ، وأفخر أحسابهن العفة ، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة ، فقال له الحجاج : يا غضبان إني موجهك إلى ابن الأشعث[2] وافد ، فماذا أنت قائل له ؟ قال : أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه ، فقال : إني أظنك لا تقول له ما قلت وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، قال : كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني ، وأجريه في ميداني ، قال : فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان ، فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينًا عليه أي جاسوسًا ، وكان يفعل مع جميع رسله ، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له : إن الحجاج قد هم بخلعك وعزلك ، فخذ حذرك ، وتغد به قبل أن يتعشى بك ، فأخذ حذره عند ذلك ، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية ، وخلع فاخرة ، فأخذها وانصرف راجعًا ، فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر القيظ وهي رملة شديدة الرمضاء ، فضرب قبته فيها ، وحط عن رواحله فبينما هو كذلك إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدًا نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة ، وقد ظمئ ظمأ شديدًا ، فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال الغضبان : هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها ، ما حاجتك

(١) وهو الجالس على الطعام كأنه قبّة .
(٢) ابن الأشعث : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى . أمير . قائد شجاع . داهية . صاحب وقائع مع الحجاج . تم له : كرمان وسجستان والبصرة وفارس . توفى سنة (٨٥ هـ) .

يا أعرابي ؟ قال : أصابتني الرمضاء وشدة الحر والظمأ ، فيممت قبتك أرجو بركتها ، قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم ، قال : أيتهن تعني ؟ قال : قبة الأمير بن الأشعث. قال : تلك لا يوصل إليها . قال : إن هذه أمنع منها ، فقال الأعرابى : ما اسمك يا عبد الله ؟ قال : آخذ ، فقال : وما تعطي ؟ قال : أكره أن يكون لي اسمان . قال : بالله من أين أنت ؟ قال : من الأرض . قال : فأين تريد ؟ قال: أمشي في مناكبها . فقال الأعرابي وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر : أتقرض الشعر؟ قال : إنما يقرض الفأر . فقال : أفتسجع ؟ قال : إنما تسجع الحمامة، فقال : يا هذا ائذن لي أن أدخل قبتك . قال : خلفك أوسع لك . فقال : قد أحرقني حر الشمس ، قال : مالي عليها من سلطان، فقال : الرمضاء أحرقت قدمي ، قال : بل عليها تبرد ، فقال : إني لا أريد طعامك ، ولا شرابك ، قال : لا تتعرض لما لا تصل إليه ، ولو تَلِفَتْ روحك ، فقال الأعرابي : سبحان الله . قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك ، فقال الأعرابي : ما عندك غير هذا ؟ قال : بلى. هراوة أضرب بها رأسك، فاستغاث الأعرابي يا جار بني كعب . قال الغضبان : بئس الشيخ أنت، فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث ، فقال الأعرابي : ما رأيت رجلاً أقسى منك أتيتك مستغيثًا فحجبتنى وطردتني ، هلا أدخلتني قبتك وطارحتني القريض؟ قال : ما لي بمحادثتك من حاجة ، فقال الأعرابي : بالله ما اسمك؟، ومن أنت ؟ فقال : الغضبان بن القبعثري . فقال : اسمان منكران خلقا من غضب . قال : قف متوكئًا على باب قبتي برجلك هذه العوجاء ، فقال : قطعها الله إن لم تكن خيرًا من رجلك هذه الشنعاء، قال الغضبان: لو كنت حاكمًا لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة ، فقال الأعرابي : إني لأظنك حروريًا . قال : اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير ويريده ، فقال : إني لأظن عنصرك فاسدًا . قال : ما أقدرني على إصلاحه ، فقال الأعرابي : لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى ، وهو يقول :

لا باركَ اللهُ في قومٍ تسودُهم ... إنّي أَظُنُّكَ ـ والرحمنِ ـ شيطانا
أتيتُ قُبتَهُ أرجو ضيافتَهُ ... فأظهر الشيخُ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج، وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن لأشعث وبين الأعرابي قال له الحجاج : يا غضبان كيف وجدت أرض كِرمان ؟ قال : أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش ، بها ضعاف هؤلاء إن كثروا جاعوا ، وإن قلوا ضاعوا ، فقال له الحجاج : ألست صاحب الكلمة التي بلغتني أنك قلت لابن الأشعث: تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك؟، فوالله لأحبسنك عن الوساد ، ولأنزلنك عن الجياد ، ولأشهرنك في البلاد ، قال : الأمان أيها الأمير،

فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له ، فقال له : ألم أقل لك ؟ كأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا ، اذهبوا به إلى السجن ، فذهبوا به ، فقيد وسجن ، فمكث ما شاء الله ، ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها ، فقال لمن حوله : كيف ترون قبتي هذه وبناءها ؟ فقالوا : أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة ، نضرة بهجة ، قليل عيبها كثير خيرها ، قال : لِمَ لم تخبروني بنصح ؟ قالوا : لا يصفها لك إلا الغضبان ، فبعث إلى الغضبان، فأحضره ، وقال له : كيف ترى قبتي هذه وبناءها ؟ قال: أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك ، ولا يسكنها وارثك ، ولا تبقى لك ، وما أنت لها بباق ، فقال الحجاج : قد صدق الغضبان ردوه إلى السجن ، فلما حملوه قال: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** (١٣) ﴾[الزخرف : ١٣] ، فقال : أنزلوه ، فلما أنزلوه قال : ﴿**رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** (٢٩)﴾[المؤمنون : ٢٩] فقال : اضربوا به الأرض، فلما ضربوا به الأرض ، قال : ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ** (٥٥) ﴾ [طه : ٥٥] فقال : جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٤١) ﴾[هود : ٤١] فقال الحجاج : ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاءً وخبثًا ، ثم عفا عنه ، وأنعم عليه ، وخلى سبيله.

وحدث الزبير قال : دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون ، وقد كانت ضياعهم أُخذت ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك ، أتأذن له في الكلام ، فقال : تكلم . فقال : الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم ، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ، ونستمتع الله لحياطة ديننا ودنيانا ، ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين ، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا ، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، فإن الحق لا تعفو آثاره ، ولا ينهدم مناره ، ولا ينبت(١) حبله ، ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده ، والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين . هذا المقام مقام العائذ بظلك ، الهارب إلى كنفك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكَلَب الدهر(٢) ، وذهاب النعمة ، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب ، ويبرد غليل القلوب ، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفاد منها نعم آبائه الطيبين ، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين ، وقد قمت مقامي هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيِّبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين ، والمهدي ناصر المسلمين ، والمنصور منكل الظالمين

(١) ينبت : ينقطع .
(٢) تعاود النوائب : ارتدّت إليه النوازل بعد ما أعرضت عنه . كلب الدهر : على أهله ألحّ عليهم واشتد .

ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفًا إليك بالطاعة التي أفرع عليها غصني واحتنكت بها سني ، وريش بها جناحي ، متعوذا من شماتة الأعداء وحلول البلاء ، ومقارفة الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن على جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين ، وعرفه ، وقد أثبت الله الحق فى نصابه ، وأقره فى داره ، وأربابه ، يا أمير المؤمنين إن الدهر ذو اغتيال ، وقد حال بعد حال فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار، و العجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدرًا بعد صفو ، ومرًا بعد حلو ، وهبنا نعم آبائك اللاتى غذتنا صغاراً وكباراً وشبابًا وأشياخًا وأمشاجًا (١) فى الأصلاب ، ونطفًا فى الأرحام، وقدمنا فى القرابة حيث قدمنا الله منك فى الرحم ، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك ، ووجوهنا قد عنت لطاعتك ، فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين ، إن الله قد سهل بك الوعور وجلا بك الديجور(٢) وملأ من خوفك القلوب والصدور ، بك يردع الفاسق ويقمع بك المنافق ، فارتبطت نعم الله عندك بالعفو والإحسان فإن كل راع مسؤول عن رعيته ، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها ، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر . وقد قال الله جل ثناؤه ، وتعالت قدرته : ﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٢٢) ﴾[النور : ٢٢] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي ومنعه الكافي ثم أنشد يقول :

أميرَ المؤمنين أتاك ركبٌ لهم قُربى وليس لهم تلادُ (٣)
هم الصدرُ المقدّمُ من قريشٍ وأنتَ الرأسُ تتبعُكَ العبادُ
لقد طابتْ بك الدُّنيا ولذّت وأرجو أنْ يطيبَ بك المعادُ
فكيف تنالُكُمُ لحظـــاتُ عـــينٍ ؟ وكيف يقلُّ سؤدُدَكَ البلادُ ؟

قال : فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية ، وأمر برد ضياعه وقرّب منزلته وأدناه ، ودفع إليه من المال ما أغناه .

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء : ما حكى: أن عبد الملك بن مروان جلس يومًا وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته ، فقال : أيكم يأتيني بحروف المعجم فى بدنه وله عَلَىَّ ما يتمناه ، فقام إليه سويد بن غفلة ، فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ، قال : هات . فقال: نعم يا أمير المومنين . أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع

(١) الأمشاج : الأخلاط التى تكون فى السرة .
(٢) الديجور : الظلام .
(٣) التلاد : المال الموروث .

طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة ، وجه يد ، وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين ، فقام بعض أصحاب عبد الملك ، وقال : يا أمير المؤمنين أنا أقولها ثلاثًا ، فقال : هات ولك ما تتمناه ، فابتدأ يقول : أنف أسنان أذن ، بطن بنصرة بزة ، ترقوة تمرة تينة ، ثغر ثنايا ثدي ، جمجمة جنب جبهة ، حلق حنك حاجب، خد خنصر خاصرة، دبر دماغ درادير ، ذقن ذكر ذراع ، رقبة رأس ركبة ، زند زردمة زب ، فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ، ساق سرة سبابة ، شفة شفر شارب ، صدر صدع صلعة ، ضلع ضفيرة ضرس ، طحال طرة طرف ، ظهر ظفر ظلم ، عين عنق عاتق ، غبب غلصمة غنة، فم فك فؤاد ، قلب قفا قدم ، كف كتف كعب ، لسان لحية لوح، منخر مرفق منكب ، نغنوغ ناب نِنٌّ ، هامة هيئة هيف ، وجه وجنة ورك ، يمين يسار يافوخ. ثم نهض مسرعًا ، فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال : فعندها ضحك عبد الملك وقال : والله ما تزيدنا عليها شيئًا أعطوه ما يتمناه ، ثم أجاره وانعم عليه ، وبالغ في الإحسان إليه.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء، وكان على عتوه وإسرافه جوادًا ، وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك أتبع ذلك الاستغفار مرات ، وكان يطعم على ألف خوان ، وكان يطوف على الموائد ويقول : يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانيًا، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال ، وذلك في كل يوم وكان يقول : أرى الناس يتخلفون عن طعامي، فقيل له : إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا ، فقال : قد جعلت رسولي إليهم كل يوم الشمس إذا طلعت وعند المساء إذا غربت .

حكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال : لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده ، وقال : أيها الناس ، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها ، واملولح عذبها ، وعظم خطبها ، وظهر ضرامها ، وعسر إخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع ، وذهن جامع ، وقلب ذكي ، وأنف حمي ، فيخمد نيرانها ، ويردع غيلانها ، وينصف مظلومها ، ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد، وتأمن العباد ؟ فسكت القوم ، ولم يتكلم أحد ، فقام الحجاج وقال : يا أمير المؤمنين أنا للعراق. قال: ومن أنت لله أبوك ؟ قال : أنا الليث الضمضام ، والهزبر الهشام ، أنا الحجاج بن يوسف . قال : ومن أين ؟ قال : من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف . قال : اجلس لا أم لك، فلست هناك . ثم قال : ما لي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة ، فلم يجبه أحد ، فقام إليه الحجاج وقال : أنا مجندل الفساق ، ومطفئ نار النفاق ، قال : ومن أنت؟ قال : أنا قاصم الظلمة ، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة، آفة الكفر والريبة ، قال: إليك عني ، وذاك ،

فلست هناك ، ثم قال : مَن للعراق ؟ فسكت القوم، وقام الحجاج وقال : أنا للعراق ، فقال : إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة ، فما آيتك وما علامتك ؟ قال : العقوبة والعفو ، والاقتدار والبسط، والازورار والإدناء، والإبعاد والجفاء ، والبر والتأهب ، والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب ، فمن جادلني قطعته ، ومن نازعني قصمته ، ومن خالفني نزعته ، ومن دنا مني أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته ، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني ، فإن كنت للأعناق قطاعًا ، وللأموال جماعًا، وللأرواح نزاعًا ، ولك في الأشياء نفاعًا ، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين ، فإن الناس كثير ، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل ، فقال عبد الملك : أنت لها ، فما الذي تحتاج إليه ؟ قال : قليل من الجند والمال ، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال : هيِّئ له من الجند شهوته وألزمهم طاعته ، وحذرهم مخالفته ، ثم دعا الخازن ، فأمره بمثل ذلك ، فخرج الحجاج قاصدًا نحو العراق قال: بن عمير : فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت فقال : هذا الحجاج قدم أميرًا على العراق ، فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد ، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثمًا بها ، ثم صعد المنبر ، فلم يتكلم كلمة واحدة ، ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة ، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال : وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي ، فلما رأى الحجاج على المنبر قال: لصاحب له : أسبه لكم ؟ قال : اكفف حتى نسمع ما يقول ، فأبى ابن صابئ وقال : لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق ، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميرًا كما هو ما كان بشيء، والحجاج ساكت ينظر يمينًا وشمالاً، فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال : هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئًا ، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم ، فهل اجتمعتم ؟ فقال رجل من القوم : قد اجتمعنا أصلح الله الأمير ، فكشف عن لثامه، ونهض قائمًا فكان أول شيء نطق به أن قال : والله إني لأرى رءوسًا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها ، وإني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودًا ، وأصلبها مكسرًا، فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة ، واضطجعتم في مراقد الضلال ، والله لانكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلاً في كل واد ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات ، وقيل وقال وكان ويكون ، يا أهل العراق : إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله ، فأتاها

وعيد القرى من ربِّها ، فاستوثقوا واستقيموا، واعملوا ولا تميلوا ، وتابعوا ، وبايعوا ، واجتمعوا، واستمعوا ، فليس مني الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ، ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ، ووجدت الكذب مع الفجور ، ووجدت الفجور في النار ، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم ، وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة [(١)]، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه ، يا غلام : اقرأ كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم ، فلم يرد أحد شيئًا ، فقال الحجاج : اكفف يا غلام ، ثم أقبل على الناس فقال : أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئًا عليه ؟ هذا أدبكم الذي تأدبتم به ، أما والله لأؤدبنكم أدبًا غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام ، فقرأ حتى بلغ قوله : سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ، ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته ، ووضع الناس عطاياهم ، فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش ، فقال : أيها الأمير إني على الضعف كما ترى ، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار ، أفتقبله بديلاً مني ؟ فقال : نقبله أيها الشيخ ، فلما ولى قال له قائل: أتدري من هذا أيها الأمير ؟ قال : لا . قال : هذا ابن صابئ الذي يقول :

هَمَمْتُ ولَمْ أفعلْ وكدتُ ولَيْتَنِي ... تركتُ على عثمانَ تبكي حلائلُه [(٢)]

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان ـ رضي الله عنه ـ وهو مقتول ، فوطئ في بطنه ، فكسر ضلعين من أظلاعه ، فقال الحجاج : ردوه فلما ردوه قال له الحجاج : أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار ؟ إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحًا للمسلمين . يا سياف اضرب عنقه ، فضرب عنقه ، وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر .

ومن حكايات الحجاج ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم [(٣)] ، وأعطى الأموال، بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فشق عليه ، وكتب إليه ، أما بعد ، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء ، وتبدير في العطاء ، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية ، وفي العمد بالقو ، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما

---

(١) أبو سعيد أمير بطاش ، جواد . قيل عنه : سيد أهل العراق . ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان . توفى سنة (٨٣ هـ) .

(٢) حلائله : كنايه عن الزوجة .

(٣) دير واقع على بعد نحو ٣٩ كم من الكوفة على حد الصحراء فى جهة البصرة عنده انتصر الحجاج على عبد الرحمن بن الأشعث (٨٢هـ ـ ٧٠١ م) .

هو مال الله تعالى ، ونحن أمناؤه ، فإن كنت أردت الناس لي فما أغناني عنهم ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك عني أمران : لين وشدة ، فلا يؤمننك إلا الطاعة، ولا يوحشنك إلا المعصية ، وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر ، فلا تقتلن جانحًا ، ولا أسيرًا ، وكتب في أسفل الكتاب :

إذا أنتَ لم تترُكْ أمورًا كرهتُها ... وتطلبُ رضائي بالذي أنا طالبُهْ
فــإنْ تَــرَ مِنِّــي غفلةً قرشيةً ... فيا ربَّما قد غَصَّ بالماء شاربُهْ
وإنْ تــرَ منِّــي وثبةً أُمويَّةً ... فهذا وهذا كُلّ ذا أنا صاحبُهْ
فلا تأمننِّي والحــوادثُ جمــةٌ ... فإنَّكَ تُجزي بالذي أنت كاسبُهْ
فلا تَعْدُ ما يأتيك مني وإنْ تعد ... يقُمْنَ به يومًا عليك نوادِبُهْ
فلا تمنعنّ الناسَ حقًا عَلمته ... ولا تعطينَّ ما ليس للناسِ واجبُهْ
فإنّك إنْ تُعْطي الحقوقَ فإنّما ... النوافلُ شيءٌ لا يُثيبُك واهبُهْ .

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد ، فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال ، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة ، فإن كان قتلي العصاة إسرافًا وإعطائي المطيعين تبذيرًا، فليضمن لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدًا فأقاد بهم ولا قتلت إلا لك ، ولا أعطيت إلا فيك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنا لا أبْغِي رِضَاكَ وأتَّقِي ... أذاك فَلَيْلِي لا تُوارى كواكبُه
وما لامرئٍ بعد الخليفةِ جنةٌ ... تَقِيهِ من الأمرِ الذي هو راكبُه
إذا قارفَ الحجاجُ فيك خطيئةً ... لَقَامَتْ عليه بالصياح نوادبُه
إذا أنا لم أُدْنِ الشفيقَ لنصْحه ... وأُقْصِ الذي تسْري إليَّ عقاربُه
وأَعْطِ المواسي في البلاء عطيةً ... لردّ الّذي ضاقت عليَّ مذاهبُه
فمن يتَّقي بُؤْسي ويرجو مودَّتي ... ويَخْشَى غدًا والدهرُ جمٌّ نوائبُه
وأمري إليكَ اليومَ ما قُلْتَ قُلْتُه ... وما لم تَقُلْه لم أقلْ ما يقاربُهْ
ومهما أردْتُ اليومَ مني أردتُه ... وما لم تُرِدْه اليومَ إني مُجانبُه .
وَقِفْ بي على عدِّ الرضا لا أجُوزهُ ... مدى الدهرِ حتى يُرجعَ الدَّرَّ حالبُه
وإلاَّ فَدَعْنِي والأمورَ فإنَّني ... شفيقٌ رفيقٌ أحكَمَتْهُ تجاربُه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صولتي ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى ، فمن يلومني على محبته ، يا غلام اكتب إليه : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عينًا بما هناك .

وفي مروج الذهب للمسعودي[١] : أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام ، ولدته مشوهًا لا دبر له ، فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدي وأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصور له في صورة الحارث بن كلدة[٢] حكيم العرب ، فسألهم عن ذلك ، فأخبره مخبر من أهله ، فقال لهم: اذبحوا له تيسًا والعقوه من دمه ، وأولغوه فيه ، ثم اطلوا به وجهه ، ففعلوا ذلك ، فقبل الثدي، فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء ، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدر غيره عليها ، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحارث بن كلدة، فدخل عليها يومًا في السحر[٣] ، فوجدها تخلل أسنانها فطلقها ، فسألته لم فعل؟ فقال لها : إن كنت باكرت باكرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كان بقايا طعام بفيك ، فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن ، وإنما تخللت من شظايا السواك ، فقال : قضي الأمر ، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج . وقيل: إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة ، ومات وله ثلاث وخمسون سنة ، وكان من عنف السياسة ، وثقل الوطأة ، وظلم الرعية ، والإسراف في القتل على ما لا يبلغه وصف ، أحصي من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفًا ، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل ، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد ، وقيل للشعبي[٤] ، أكان الحجاج مؤمنًا ؟ قال : نعم بالطاغوت ، وقال : لو جاءت كل أمَّة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم ، وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم وما أعان الله تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم ، وأنا قائل إن شاء الله تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان .

---

(١) المسعودى : أبو الحسن مؤرخ وجغرافى نشأ فى بغداد ، وطوف فى البلاد ، توفى سنة ٣٤٥هـ -٩٥٦م وضع كتابه « مروج الذهب ومعارف الجوهر »كتاب فى أخبار الزمان .

(٢) الثقفى . طبيب العرب فى عصره . وأحد الحكماء المشهورين من أهل الطائف أخذ الطب عن أهل فارس . له كلام فى الحكمة ، وكتاب « محاورة فى الطب » توفى سنة (نحو ٥٠ هـ - ٦٧٠ م) ، (المعارف: ٩١، ٢٥٦، ٢٨٨).

(٣) السحر : آخر الليل وقبيل الصبح .

(٤) تقدمت ترجمته .

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكى عن أبي عبد الله النميري أنه قال : كنت يومًا مع المأمون وكان بالكوفة ، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة [١] ، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية [٢] القد ، قاعدة النهد ، كأنها القمر ليلة تمامه ، وبيدها قربة قد ملأتها وحملتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر ، فانحل وكاؤها [٣] فصاحت برفيع صوتها : يا أبت أدرك فاها قد غلبني فوها لا طاقة لي بفيها ، قال : فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها، فقال لها المأمون : يا جارية من أي العرب أنت ؟ قالت : أنا من بني كلاب ، قال : وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب ؟ فقالت : والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ، ويضربون بالسيف ، ثم قالت : يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال : أوَ عندك علم بالأنساب ؟ قالت : نعم . قال لها : أنا من مضر الحمراء ، قالت : من أي مضر ؟ قال : من أكرمها نسبًا ، وأعظمها حسبًا ، وخيرها أمًا وأبًا ، وممن تهابه مضر كلها. قالت : أظنك من كنانة ، قال : أنا من كنانة ، قالت : فمن أي كنانة ؟ قال : من أكرمها مولدًا وأشرفها محتدًا وأطولها في المكرمات يدًا ، ممن تهابه كنانة وتخافه ، فقالت : إذن أنت من قريش ، قال: أنا من قريش ، قالت : من أي قريش ؟ قال : من أجملها ذكرًا وأعظمها فخرًا ، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه ، قالت : أنت والله من بني هاشم ، قال : أنا من بني هاشم ؟، قالت : من أي هاشم ، قال : من أعلاها منزلة ، وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخافه ، فعند ذلك قبّلت الأرض ، وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين . قال: فعجب المأمون وطرب طربًا عظيمًا وقال : والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاقته العساكر ، فنزل هناك ، وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه ، فزوجه بها وأخذها وعاد مسرورًا ، وهي والدة ولده العباس والله أعلم .

وحكى : أن هند بنت النعمان [٤] كانت أحسن أهل زمانها ، فوصف للحجاج حسنها، فأنفذ إليها يخطبها ، وبذل لها مالاً جزيلاً ، وتزوج بها ، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف

(١) الطريدة : ما طردت من صيد وغيره ـ هربت .

(٢) خماسية : يقال . جارية خماسية ، أى بنت خمس سنوات .

(٣) الوكاء رباط القربة .

(٤) هي هند (الصغرى) بنت النُّعْمان بن المنذر بن امرئ القيس اللخمية . نبيلة . فصيحة . توفيت نحو سنة (٧٤هـ) .

درهم ودخل بها ، ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة ، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول :

وما هندٌ إلاَّ مهرةُ عربيةٌ سَلِيلَةُ أفراسٍ تحلَّلَها بَغْلُ
فإنْ ولدتْ فحلاً فللَّهِ دَرُّها وإنْ ولدتْ بغلاً فجاء به البغلُ .

فانصرف الحاج راجعًا ولم يدخل عليها ، ولم تكن علمت به ، فأراد الحجاج طلاقها ، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر (١)، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم ، وهي النى كانت لها عليه، وقال : يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ، ولا تزد عليهما ، فدخل عبد الله بن طاهر عليها ، فقال لها : يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت ، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله ، فقالت : اعلم يا ابن طاهر : أنا والله كُنَّا فما حمدنا ، وَبِنَّا فما ندمنا ، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف ، ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان خبرها ووصف له جمالها ، فأرسل إليها يخطبها ، فأرسلت إليه كتابًا تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين ، أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها ، وكتب إليها يقول : إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب ، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال ، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة ، فكتبت إليه بعد الثناء عليه ، يا أمير المؤمنين ، والله لا أحل العقد إلا بشرط ، فإن قلت : ما هو الشرط ؟ قلت : أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها ، ويكون ماشيًا حافيًا بحليته التي كان فيها أولاً ، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكًا شديدًا، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك ، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف ، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز ، فتجهزت، وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند ، فركبت هند في محمل الزفاف ، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ، ثم إنها قالت للهيفاء : يا داية اكشفي لي سجف المحمل ، فكشفته، فوقع وجهها في وجه الحجاج، فضحكت عليه ، فأنشأ يقول :

فإن تَضْحكِي مِني فيا طُولَ ليلةٍ تركتُكِ فيها كالقباءِ المفرَّجِ

(١)عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق الخزاعى بالولاء أبو العباس (١٨٢ ـ ٢٣٠ هـ) أمير خراسان، من أشهر الولاة فى العصر العباسى .

فأجابته هند تقول :

وما نُبالي إذا أرواحُنا سَلِمَتْ بما فَقَدْنَاه مِنْ مالٍ ومن نَشَبِ(١)
فالمالُ مُكتسبٌ والعِز مُرتجعٌ إذا النفوسُ وقاها اللهُ مِنْ عَطبِ

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة ، فرمت بدينار على الأرض ، ونادت : يا جمال إنا قد سقط منا درهم ، فارفعه إلينا ، فنظر الحجاج إلى الأرض، فلم يجد إلا دينارًا ، فقال : إنما هو دينار ، فقالت : بل هو درهم قال : بل دينار ، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم ، فعوضنا الله دينارًا ، فخجل الحجاج وسكت ، ولم يرد جوابًا ، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان ، فتزوج بها ، وكان من أمرها ما كان ، وقد وَجَدْتُ في بعض النسخ ما هو أوسع من هذا ، ولكن اقتصرتُ على القليل منه إذ فيه الغرض والله أعلم.

وقيل : إن جارية عُرِضَتْ على الرشيد ليشترِيَهَا ، فتأملها وقال لمولاها: خذ جاريتك ، فلولا كلف بوجهها وخنس بأنفها لاشتريتها ، فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مُبادرة : يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول ، فقال : قولي ، فأنشدت تقول:

ما سَلِمَ الظبيُ علي حُسْنِه كَلاً ولا البدرُ الذي يُوصفُ
الظّبيُ فيه خَنَسٌ بيِّنٌ والدرُّ فيه كلفٌ يُعرفُ (٢)

قال : فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها . وقيل : عرضت على المأمون جارية بارعة الجمال فائقة في الكمال ، غير أنها كانت تعرج برجلها ، فقال لمولاها : خذ بيدها وارجع ، فلولا عرج بها لاشتريتها . فقالت الجارية : يا أمير المؤمنين إنه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها .

ومن ذلك ما حكى : أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب ، فعبر يومًا تحت جوسق (٣)، ببستان ، فرأى جارية ذات وجه زاهر ، وكمال باهر ، لا يستطيع أحد وصفها ، فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار لبه ، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه ، وكانت

---

(١) النشب : المال الأصيل من ناطـق ـ خيل وإبل وغنم ـ وصامت ـ عقار ـ بيوت . وأراضٍ . وضياع ـ وحدائق .

(٢) الخنس : تأخر قصبة الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى طرف الأنف مما تمدح به الحسناء. والكلف : بقع سوداء أشربت حمرة تظهر فى الوجه .

(٣) الجوسق : القصر « فارسى » .

الجارية عزباء. وكتب إليها رقعة يعرض إليها بالزيارة في جوسقها ، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبراً ، وجعلت فيه زِرَّ ذهب ، وربطت ذلك على مِنديل، وقالت للعجوز : هذا جواب رقعته ، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه، وتحير في أمره ، وكانت له ابنة صغيرة السن ، فلما رأت أباها متحيراً في ذلك قالت له : يا أبت أنا علمت معناه قال : وما هو لِلَّه دَرُّكِ ؟ قالت:

أهدتْ لَكَ العنبرَ في جوفِهِ زرٌ من التِّبرِ خفي اللحامِ
فالزِرُّ والعنْبَرُ مَعْنَاهُمَا زُرْ هكذا مختفيًا في الظلامِ

قال : فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها .

وحكي : أن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل ، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة، فناداها شخص منهم وأراد أن يواقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل ، فقال : لأي شيء يا بني تميم ما تِكتنون ؟ فقالت : ولِمَ لا نِكتني وكسرت الفعل، فضحك عليها، وقال: أفعل إن شاء الله ، فخجلت من قوله وتغير وجهها ، وأرادت أن توقعه كما أوقعها ، فقالت له : هل تحسن شيئًا من العروض ؟ قال : نعم . قالت : قطع لي:

حَولُــوا عَنَّــــا كَنِيسَتكم يا بني حَمَّالة الحطبِ

فقطعه ، فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه ، وأضحكت أصحابه ، فقال : ويحك لم تبرحي حتى أخذت ثأرك .

وحكي : أن شاعراً كان له عدو ، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة ، فقال له : يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتني امض إلى داري وقف بالباب وقل :

* ألاَ أَيُّها الْبِنْتَانِ إنَّ أَبَاكُمَا *

فقال: سمعًا وطاعة ، ثم إنه قتله ، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ، ووقف بالباب وقال :

* ألاَ أَيُّهَا البنتان إنَّ أَبَاكُمَا *

وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل: * ألا أيها البنتان إن أباكما. أجابتا بفم واحـد :

* قَتِيلٌ خُذَا بالثَّأرِ مِمَّنْ أَتَاكُمَا *

ثم تعلقتا بالرجل ، ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره فأقر بقتله فقتله ، والله أعلم .

وقيل : بينما كثيرُ عزة [١] مارًا بالطريق يومًا إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي ، فقال لها : تنحي عن الطريق ، فقالت له : ويحك ومن تكون ؟ قال : أنا كثير عزة . قالت: قبحك الله ، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق ؟ قال : ولَم ؟ قالت : ألست القائل:

وَمَا رَوْضَةٌ بالحسنِ طيبةُ الثَّرَى يَمُجُّ النَّدَى جَنْجَاثَها وَعَرارَها [٢]
بِأطيب من أرْدانِ [٣] عَزَّةَ مُوهِنًا إذا أوقدتْ بالمجمر اللَّدنِّ نَارهَا ؟

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها ، لِمَ لا قلت مثل سيدك امرئ القيس :

وكنتُ إذا ما جِئْتُ بالليلِ طارقًا وَجَدْتُ بها طِيبًا وإنْ لم تطيَّب ؟

فقطعته ولم يرد جوابًا . وقيل : أتى الحجاج بامرأة من الخوراج ، فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا : عاجلها بالقتل أيها الأمير . فقالت الخارجية : لقد كان وزراء صاحبك خيرًا من وزرائك يا حجاج . قال : ومن هو صاحبي ؟ قالت : فرعون استشارهم في موسى ـ عليه السلام ـ فقالوا : أرجه وأخاه . وأتى بأخرى من الخوارج ، فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها : الأمير يكلمك ، وأنت لا تنظرين إليه ، فقالت : إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه .

وحكى ابن الجوزي (٤) في كتابه (المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب) ـ رضي الله عنه ـ قال: لما ولي عمر ـ رضي الله عنه ـ الخلافة بلغه أن أصدقة أزواج النبي ﷺ خمسمائة درهم ، وأن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ كان صداقها على علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أربعمائة درهم ، فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ، فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : أيها الناس لا تزيدوا في مهورَ النساء على أربعمائة درهم ، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين ، فهاب الناس أن يكلموه ، فقامت امرأة في يدها طول ، فقالت له : كيف يحل لك هذا ، والله تعالى يقول : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٢٠] فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : امرأة أصابت ورجل أخطأ . وقيل : جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله

---

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعى . أبو صخر . شاعر متيم مشهور . من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر . عفيف فى حُبِّه لعزة بنت جميل وأكثر فيها التغزل حتى سمى بها . وكان مفرطا فى القصر دميما . له ديوان شعر . توفى بالمدينة سنة (١٠٥ هـ ـ ٧٢٣ م) .
(٢) الجنجات : نبات سُهلى له زهرة صفراء طيبة الريح ، وكذلك العراء .
(٣) أردان : جمع رُدْن : الكمُّ . (٤) تقدمت ترجمته .

عنه ـ ، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ، ويقوم الليل ، فقال لها : نِعْمَ الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعبًا ، فقال : يا أمير المؤمنين : إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن فراشه، فقال له : كما فهمت كلامها احكم بينهما ، فقال كعب: عليَّ بزوجها ، فأحضر ، فقال له : إن هذه المرأة تشكوك ، قال : أفي أمر طعام أم شراب ؟ قال : بل في أمر مباعدتك إياها عن فراشك ، فأنشدت المرأة تقول :

يَا أَيُّهَا القاضي الحكيمُ أنْشِدُه ألْهَى خليلي عن فراشي مسجدُهُ
نهارُه وليلُه لا يَرْقدُهُ فلستُ في أمرِ النساءِ أحْمَدُه

فأنشأ الزوج يقول :

زَهَّدَنِي في فرشِها وفي الحلل أني امرؤ أذْهَلَنِي ما قد نَزَل
في سورة النمل وفي السبع الطوَل وفي كتابِ اللَّه تخويفُ يَجِلّ

فقال له القاضي :

إنَّ لها عليك حقًّا لم يزلْ في أربعٍ نَصِيبُهَا لَمنْ عَقَلْ
فَعَاطِهَا ذاك وَدَعْ عَنْك العِلَلَ

ثم قال : إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة ، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : لا أدري من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما ؟ اذهب فقد وليتك البصرة .

حكاية المتكلمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ : خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق إذ أنا بسواد على الطريق ، فتميزت ذاك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف ، فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقالت : ﴿ **سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ [يس:٥٨]، قال : فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان ؟ قالت : ﴿ **من يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَه** ﴾ [الأعراف:١٨٦] ، فعلمت أنها ضالة عن الطريق ، فقلت لها : أين تريدين ؟ قالت : ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾ [الإسراء: ١] ، فعلمت أنها قد قضت حجها ، وهي تريد بيت المقدس ، فقلت لها : أنت منذ كم في هذا الموضع ؟ قالت : ﴿ **ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا**

(١٠)﴾ [مريم : ١٠] ، فقلت : ما أرى معك طعامًا تأكلين؟ قالت : ﴿ هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩)﴾ [الشعراء: ٧٩] فقلت : فبأي شيء تتوضئين ؟ قالت : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء: ٤٣] ، فقلت لها : إن معي طعامًا، فهل لك في الأكل ؟ قالت : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] ، فقلت : ليس هذا شهر رمضان . قالت : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ [البقرة: ١٥٨] ، فقلت : قد أبيح لنا الإفطار في السفر . قالت :﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤)﴾ [البقرة: ١٨٤] ، فقلت : لِمَ لا تكلميني مثل ما أكلمك ؟ قالت :﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق:١٨] ، فقلت : فمن أي الناس أنت ؟ قالت : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء: ٣٦] فقلت : قد أخطأت فاجعليني في حل ، قالت : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف: ٩٢] فقلت : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة ، قالت :﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧] قال : فأنخت ناقتي ، قالت :﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] فغضضت بصري عنها وقلت لها : اركبي ، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت :﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[الشورى : ٣٠] فقلت لها : اصبري حتى أعقلها ، قالت : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩] فعقلت الناقة وقلت لها : اركبي فلما ركبت قالت : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [الزخرف: ١٣، ١٤] قال : فأخذت بزمام الناقة ، وجعلت أسعى وأصيح فقالت : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان: ١٩] فجعلت أمشي رويدًا رويدًا وأترنم بالشعر ، فقالت : ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمل : ٢٠] فقلت لها : لقد أوتيت خيرًا كثيرًا ، قالت : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فلما مشيت بها قليلاً قلت : ألك زوج ؟ قالت :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١] فسكت ، ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة ، فقلت لها : هذه القافلة فمن لك فيها ؟ فقالت: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦] فعلمت أن لها أولادًا فقلت :وما شأنهم في الحج؟ قالت:﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(١٦)﴾ [النحل:١٦] فعلمت أنهم أدلاء الركب ، فقصدت بها القباب والعمارات فقلت : هذه القباب فمن لك فيها ؟ قالت : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) ﴾ [النساء : ١٢٥]﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾ [النساء :١٦٤]﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا ، فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف: ١٩] فمضى أحدهم فاشترى طعامًا فقدموه بين يدي

فقالت : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحاقة: ٢٤] فقلت : الآن طعامكم على حرام حتى تخبروني بأمرها ، فقالوا : هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاء ، فقلت : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾[الجمعة: ٤] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن

في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

قيل : إن معن بن زائدة(١) دخل على المنصور ، فقال له : هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة(٢) مائة ألف على قوله :

معنُ بنُ زائدةَ الذي زادتْ بـــه ... شرفًا علـى شرفٍ بنـــو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله :

ما زلتُ يَوْمَ الهاشمية مُعْلِنًا ... بالسيف دون خَليفةِ الرحمـــن
فمنعتَ حوزته وكُنْتَ وِقَاءه ... مِـــنْ وقعِ كُلِّ مهندٍ وسنـــانِ

فقال : أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع . ووفد ابن أبي محجن على معاوية، فقام خطيبًا فأحسن ، فحسده معاوية وأراد أن يوقعــه ، فقال له : أنت الذي أوصاك أبوك بقولــه:

إذا متُّ فادفني إلى جَنْبِ كرمةٍ ... تروِّيَ عِظَامي بَعْدَ موتي عروقُها
ولا تدفننِّي في الفلاةِ(٣) فإنني ... أخافُ إذا ما مِتُّ أن لا أذوقَها

وقال: بل أنا الذي يقول أبي :

لا تسألِ الناسَ ما مالي وكثرته ... وسائل الناسَ ما جُودي وما خلقي
أعطي الحسامَ غداة الروعِ حُصّته ... وعاملُ الرمح أُرَوِّيه من العلق(٤)
وأطعنُ الطعنةَ النجلاءَ عن عرضٍ ... وأكتمُ السِّرَّ فيه ضَرْبَة العنقِ
ويعلمُ الناسُ أنّي مِنْ سَرَاتِهِمُ ... إذا سَمَا بَصَرُ الرّعديدِ بالفرقِ(٥)

---

(١) هو : معن بن عبد الله بن مطر الشيبانى، أبو الوليد . من أشهر أجواد العرب ، وأحد الشجعان الفصحاء . أدرك العصرين الأموى والعباسى وولاه المنصور اليمن ثم سجستان . مات قتيلا سنة (١٥١ هـ) .

(٢) هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصة . كان جده أبو حفصة مولى لمروان . وقيل : كان طبيبا يهوديا فأسلم . تقرب إلى الرشيد بهجاء العلوية توفى ببغداد سنة (١٨٢ هـ) .

(٣) الفلاة : الأرض الواسعة المقفرة . ليس فيها ماء ولا كلأ ولا ناس .

(٤) الغلق : الدم .

(٥) السَّرَاة : السادة . . الرعديد : الجبان . الفرق : الشديد الفزع .

فقال له معاوية : أحسنت والله يا ابن أبي محجن ، وأمر له بصلة وجائزة.

وقيل : أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثي ، فقال له : ألست القائل :

وَمِنَّا شريدٌ والبطينُ وقعنبُ ... وَمِنَّا أميرُ المؤمنين شَبِيبُ

فقال : يا أمير المؤمنين إنما قلت : وَمِنَّا أميرُ المؤمنين شبيب ، وأردت بذلك مناداة لك. فكان ذلك سببًا لنجاته.

ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميمًا ، فقال له معاوية : إنك لدميم والجميل خير من الدميم وإنك لشريك وما لله من شريك ، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك ؟ فقال له : إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر ، والسهل خير من الصخر ، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت ، فكيف صرت أمير المؤمنين ؟ ثم خرج وهو يقول :

أَيَشْتُمُنِي معاويةُ بنُ حربٍ ... وسيفي صارمٌ وَمَعِي لِسَاني
وَحَولي مِنْ ذَوي يزنٍ ليوثُ ... ضراغمَةُ تهشُّ إلى الطعانِ؟
يُعَيِّرُ بالدمامةِ مِنْ سَفَاه ... ورباتُ الحجالِ مِنَ الغواني

ودخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج ، فقال له سليمان : قبح الله رجلاً أجرك رسنه (١) ، وأولاك أمانته ، فقال : يا أمير المؤمنين رأيتني والأمر لك وهو عني مدبر ، فلو رأيتني وهو علي مقبل لاستكبرت مني ما استصغرت ، واستعظمت مني ما استحقرت ، فقال سليمان : أترى الحجاج استقر في جهنم؟ فقال : يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك ، فإن الحجاج وَطَّأ (٢) لكم المنابر ، وأذل لكم الجبابرة، وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك ، فحيثما كانا كان .

وقال يهودي لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم ؟، فقال علي ـ كرم الله وجهه ـ : ولمَ أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] . ووجد الحجاج على

(١) الرسن : الحبل .

(٢) وطَّأ : هيأ وسهل ومهد .

منبره مكتوبًا ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾[الزمر : ٨] فكتب تحته : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾[آل عمران : ١١٩] . ودخل عقيل [(١)] على معاوية وقد كف بصره ، فأجلسه معه على سريره ثم قال له : أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم ، فقال له عقيل : وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم . وقيل : اجتمعت بنو هاشم يومًا عند معاوية فأقبل عليهم وقال: يا بني هاشم إن خيري لكم لممنوح ، وإن بابي لكم لمفتوح فلا يُقْطَع خيري عنكم ، ولا يُرَدُّ بابي دونكم ، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمرًا مختلفًا ، إنكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني ، وإذا أعطينكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم : أعطانا دون حقنا، وقصر بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له ، هذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم ، قال: فأقبل عليه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال : والله ما منحتنا شيئًا حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بابًا حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابًا لنكفن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر ، أكفاك أم أزيدك ، قال : كفاني يا ابن عباس . وقال معاوية يومها : أيها الناس إن الله حبا قريش بثلاث فقال لنبيه ﷺ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ونحن عشيرته الأقربون ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤] . ونحن قومه ، وقال: ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾ [قريش:١] . ونحن قريش ، فأجابه رجل من الأنصار فقال : على رسلك يا معاوية فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾[الأنعام: ٦٦] . وأنتم قومه . وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[الزخرف : ٥٧] وأنتم قومه وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠] وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا لزدناك .

وقال معاوية أيضًا لرجل من اليمن : ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! فقال: أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢] ، ولم

[(١)] هو : عقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى . وكنيته : أبو زيد . أعلم قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها وأنسابها . وكانت تتحاكم الناس إليه فى قريش . قاتل مع قريش فى بدر ، وأسره المسلمون ثم رجع إلى مكة بعد أن أُفْتُدِىَ . أسلم بعد الحديبية . كان الناس يأخذون عنه الأنساب فى مسجد المدينة . توفى سنة (٦٠هـ ـ ٦٨٠ م) .

يقولوا: اللهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه . وقال يومًا لجارية بن قدامة : ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية ! فقال : ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية وهي الأنثى من الكلاب! قال : اسكت لا أم لك . قال : أم لي ولدتني أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا ، وإنك لم تهلكنا قسوة ، ولم تملكنا عنوة، ، ولكنك أعطيتنا عهدًا وميثاقًا ، وأعطيناك سمعًا وطاعة ، فإن وفيت لنا وفينا لك ، وإن نزعت إلى غير ذلك فإنا تركنا وراءنا رجالاً شدادًا ، وأسنة حدادًا ، فقال معاوية : لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية ، فقال له : قل : معروفًا فإن شر الدعاء محيط بأهله . وخطب معاوية يومًا فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١] فعلام تلومونني إذا قصرت في عطاياكم ؟. فقال له الأحنف(١) : وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزله الله لنا مـن خزائنك وحُلْت بيننا وبينه. وقيل : دخل مجنون الطاق يومًا إلى الحمام وكان بغير مئزر فرآه أبو حنيفة(٢) ـ رضي الله تعالى عنه ـ وكان في الحمام فغمض عينيه فقال المجنون : متى أعماك الله ؟ قال : حين هتك سترك .

ومن ذلك ما حكي أن الحجاج خرج يومًا متنزهًا فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه ، وانفرد بنفسه ، فإذا هو بشيخ من بني عجل فقال له : من أين أيها الشيخ ؟ قال : من هذه القرية، قال : كيف ترون عمالكم ؟ قال : شر عمال ، يظلمون الناس ، ويستحلون أموالهم، قال : فكيف قولك في الحجاج ؟ قال : ذاك ما ولي العراق شرٌّ منه قبحه الله ، وقبح من استعمله ، قال : أتعرف من أنا ؟ قال : لا ، قال : أنا الحجاج ، قال : جعلت فداك أو تعرف من أنا ؟ قال : لا . قال : فلان بن فلان مجنون بني عجل أصرع في كل يوم مرتين ، قال : فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة .

وقال رجل لصاحب منزل : أصلح خشب هذا السقف فإنه يقرقع . قال : لا تخف فإنه يسبح . قال : إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد .

وقالت عجوز لزوجها : أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب ؟ قال : أما حلال فنعم ، وأما طيب فلا .

وقال ملك لوزيره : ما خير ما يرزقه العبد ؟ قال : عقل يعيش به ، قال : فإن عدمه ، قال: أدب يتحلى به ، قال : فإن عدمه ؟ قال : مال يستره ، قال : فإن عدمه ؟ قال : فصاعقة تحرقه، وتريح منه العباد والبلاد .

---

(١) سبقت ترجمته .
(٢) (٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) فقيه . صاحب المذهب الحنفى السُّنىّ المعروف باسمه . وقف حياته على دراسة العلوم الدينية. تلميذاه : أبو يوسف والشيبانى .

وتنبأ رجل في زمن المنصور فقال له المنصور : أنت نبي سفلة ؟ فقال : جعلت فداك كل نبي يبعث إلى شكله .

ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة

ما ذكر أن إبراهيم (١) مغني الرشيد غنى يومًا بين يديه فقال له : أحسنت أحسن الله إليك، فقال له : يا أمير المؤمنين إنما يحسن الله إلى بِكَ ، فأمر له بمائة ألف درهم . وقال رجل لبعض العلوية : أنت بستان ، فقال العلوي : وأنتَ النهر الذي يسقى منه البستان. وذبحت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كتفًا، فقال لها النبي ﷺ: «ما عندك منها ؟ » فقالت : ما بقي منها إلا كتف ، فقال : « كلها إلا كتفًا » ، وقال عبد الله بن يحيى لأبي العيناء : كيف الحال ؟ قال : أنت الحال . فانظر كيف أنت لنا ؟ ، فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته ، وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس، فقال لعمرو : من أنت ؟ قال : عمرو عمرك الله بن سعد أسعدك الله بن سالم سلمك الله . قال : أنت تكلؤنا الليلة ؟ قال : الله يكلؤك يا أمير المؤمنين وهو خير حافظًا وهو أرحم الراحمين فقال المأمون :

إنَّ أخا الهيجاءِ مَنْ يَسْعى مَعَكْ ... وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ
وَمَنْ إذا رَيْبُ الزمانَ صدَّعَكَ ... شتَّتَ فيك شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار قال عمرو : وددت لو أن الأبيات طالت ، وقال المعتصم للفتح ابن خاقان (٢) وهو صبي صغير : أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفصِّ لِفَصٍّ كان في يده ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين : اليد التي هو فيها أحسن منه ، فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة. وقيل: إن رجلاً سأل العباس ـ رضي الله عنه ـ : أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله ، وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندي : أأنت سعيد ؟ قال : أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة ، وقال المأمون للسيد بن أنس : أأنت السيد ؟ قال : أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس ، وقال الحجاج للمهلب وهو يماشيه : أأنا أطول أم أنت ؟ قال : الأمير أطول ، وأنا أبسط قامة أراد الطول وهو الفضل . والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها ، ولكني اقتصرت على هذا وأوجزت ، وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية .

---

(١) هو : إبراهيم الموصلى ، رئيس المطربين ، أبو إسحاق بن ما هان بن بهمن الفارسى الأصل ، الأرجانى . برع فى الشعر والأدب والموسيقى ، واتصل بالبرامكة والخلفاء . وكان ندىَّ الصوت توفى سنة (١٨٨ هـ) .

(٢) هو : الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج ، أبو محمد . شاعر . أديب . فصيح ، كان فى غاية الذكاء والفطانة . فارسى الأصل من أبناء الملوك . آخاه المتوكل العباسى . وجعل له إمارة الشام . من آثاره :« الصيد والجوارح » و « اختلاف الملوك » قتل مع المتوكل سنة (٢٤٧ هـ ـ ٨٦١ م) .

الباب التاسع

في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل : خطب المأمون فقال : اتقوا الله عباد الله وأنتم في مهل ، بادروا الأجل ولا يغرنكم الأمل ، فكأني بالموت قد نزل ، فشغلت المرءَ شواغله ، وتولت عنه فواصله ، وهيئت أكفانه ، وبكاه جيرانه ، وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي ، فهو في التراب عفير ، وإلى ما قدم فقير . وقال الشعبي : ما سمعت أحدًا يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطئ ما خلا زيادًا فإنه لا يزداد إكثارًا إلا ازداد إحسانًا .

وخطب علي ـ رضي الله عنه ـ فقال في خطبته : عباد الله الموت ليس منه فوت ، إن أقمتم أخذكم ، وإن فررتم منه أدرككم ، الموت معقود بنواصيكم ، فالنجا النجا والوحا الوحا ، فإن وراءكم طالبًا حثيثًا وهو القبر ، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول : أنا بيت الظلمة ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الديدان ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه يومًا يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير **﴿تذهل كلُّ مرضعةٍ عمَّا أرضعتْ وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها وترى النَّاسَ سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولَكنَّ عذابَ اللَّهِ شديدٌ﴾** [الحج:٢] . ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه فيه نار تتسعر . حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليها حديد ، وماؤها صديد ، ليس لله فيها رحمة ، قال : فبكى المسلمون بكاء شديدًا ، ثم قال : ألا وإن وراء ذلك اليوم **﴿وجنةٍ عرضها السَّموات والأرض أُعدَّت للمتَّقين﴾** [آل عمران :١٣٣] أدخلنا الله وإياكم دار النعيم ، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم .

وخطب الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه : إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ـ رضي الله عنه ـ خطب بالبصرة فقال : أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو ، وكل صمت في غير فكر فهو سهو ، والدنيا حلم والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ، ونحن في أضغاث أحلام .

قيل : اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد ، وأظهر قوم الكراهة ، فقام رجل من الخطباء من عُذْرَة (١) يقال له : يزيد بن المقنع (٢) فاخترط من سيفه شبرًا ثم قال : أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية ، ثم قال : فإن يهلك ، فهذا وأشار إلى يزيد ، ثم قال : فمن أبى فهذا ، وأشار إلى سيفه ، فقال له معاوية : أنت سيد الخطباء .

---

(١) قبيلة عربية من بنى العبيد من قبائل قضاعة بن مالك الحميرى . المعارف ٩٨ ، ١٠٤ .
(٢) توفى سنة ٧٠هـ .

فصل
فى ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل : ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي ، والمكان الخضر الخالي ، وقيل : أمسك على النابغة الجعدي (١) أربعين يومًا فلم ينطق بالشعر ، ثم إن بنى جعدة غزوا، فظفروا ، فاستخفه الطرب والفرح ، فرام الشعر ، فذل له ما استصعب عليه ، فقال له قومه : والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا . وقال أبو نواس (٢) : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى ، فما ظنك بالرجال ؟ وقال : الرجال الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاءوا ، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده ، وقيل : وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرضت القريض ؟ قال : نعم . قال : أرويت الشعر ؟ قال : لا . فكتب إلى عبد الله أبا زياد بارك الله لك في ابنك فأروه الشعر ، فقد وجدته كاملاً، وإني سمعت عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول : أرووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق ، وينقى مساويها ، وتعلموا الأنساب فرب رحم مجهولة قد وصفت بعرفان النسب ، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم فى البر والبحر ، ولقد همت بالهرب يوم صفين ، فما ثبتني إلا قول القائل :

أقول لها إذا جَشَأَتْ وجاشت(٣) مكَانَكِ تُحمدي أو تَستريحي

وقيل : لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر (٤)، كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء ، فلا يتميز عن فحولهم ، ثم تنسك ، فكان يختم القرآن كل يوم وليلة ،

---

(١) هو : قيس بن عبد الله بن عُدس الجعدى العامرى . أبو ليلى. شاعر فحل . مخضرم صحابيا اشتهر فى الجاهلية. وكان ممن هجر الأوثان ، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام . وفد على النبى سنة تسع . فأسلم. وشهد فتح فارس . توفى نحو سنة (٥٠ هـ ـ ٦٧٠ م) .

(٢) الحسن بن هانئ (١٤٥ ـ ١٩٨ هـ = ٧٦٢ ـ ٨١٣ م) ولد فى الأهواز . من كبراء شعراء العصر العباسى . لقب بشاعر الخمر . قضى عزَّ حياته فى بغداد مقربا إلى الرشيد والأمين والمأمون . اتصل بالبرامكة . أسرف فى اللهو ومشرب الخمر، ثم تاب فى آخر أيامه . له « ديوان شعر » .

(٣) جشأت وجاشت : هاجت من حزن أو فزع .

(٤) هو : خلف بن حيان أبو محرز . المعروف بـ«الأحمر».راوية.عالم بالأدب . شاعر من أهل البصرة . كان أبواه موليين من فرغانة ثم أعتقاه وخلف معالم الأصمعى . قال الأخفش : لم أدرك أحدًا أعلم بالشعر من خلف والأصمعى . له:«ديوان شعر»و«جبال العرب وما قيل فيها من شعر».توفى فى نحو سنة (١٨٠هـ ـ ٧٩٩م) .

وبذل له بعض الملوك مالاً جزيلاً على أن يتكلم فى بيت من الشعر شكوا فيه فأبى . وكان الحسن ابن علي ـ رضي الله عنه ـ يعطي الشعراء ، فقيل له فى ذلك ، فقال : خير مالك ما وقيت به عرضك . وقال أبو الزناد (١) : ما رأيت أروى للشعر من عروة (٢) قلت له : ما أرواك يا أبا عبد الله ؟ فقال : وما روايتي مع رواية عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا ، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل : « كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيًا » ولم ينطق به موزونًا ، فقال أبو بكر الصّدّيق ـ رضى الله عنه ـ : أشهد أنك رسول الله حقًا وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي له ﴾ [يس: ٦٩].

ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء ، وسقطاتهم

فمن ذلك قول قيس بن الخطيم (٣) وهو شاعر الأوس وشجاعها :

وما المالُ والأخلاقُ إلا معارةٌ ... فما استطعْتَ من معروفِها فتزودِ

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها :

لَعَمْرُكَ ما الأيامُ إلاَّ معارةٌ ... فما استطعْتَ مِن معروفها فتزودِ

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب :

فما كان قيسٌ هلكُهُ هلكُ واحدٍ ... ولكنهُ بنيانُ قومٍ تهدَّما

أخذه من قول امرئ القيس :

فلو أنَّها نفسٌ تموتُ سَوِيّةً ... ولكنّها نفسٌ تَساقطُ أنفُسَا

ويقال : من سرق شيئًا واسترقه ، فقد استحقه ، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ .

فمن السرقة الفاحشة قول كثير فى عبد الملك بن مروان :

إذا ما أرادَ الغزوَ لم يَثْنِ هَمَّهُ ... حَصَانٌ(٤) عليها عقد دُرّ يزينُها

---

(١) عبد الله بن ذكوان . توفى سنة ١٣١ هـ .

(٢) عروة بن يحيى بن أذينة توفى سنة ١٣٠ هـ .

(٣) قيس بن الخطيم بن عدى الأوسى ، أبو زيد (نحو ٢ ق هـ) شاعر الأوس ، وأحد صناديدها فى الجاهلية. له: ديوان شعر .

(٤) الحَصَان : العفيفة .المتزوجة .

أخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروي :

إذا ما أرادَ الغزوُ لم يَثْنِ همه حَصَانٌ عليها لؤلؤٌ وشنوف(١)

وجرير على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله :

فلو كان الخلودُ بفضلِ قومٍ على قومٍ لكان لنا الخلودُ

من قول زهير (٢) وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو :

فلو كان حمدٌ يُخلد المرء لم يمتْ ولكنَّ حَمْدَ المرءِ غيرُ مُخلّدِ

وقد قال الشَّمَّاخُ :

وأمرٍ ترجّي النفسُ ليس بنافعٍ وآخرَ تَخْشَى ضيرَهُ لا يَضِيرُها

وهو مأخوذ من قول الآخر :

تُرَجِّي النفوسُ الشيءَ لا تستطيعُهُ وتَخْشى من الأشياء ما لا يضَيرُها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول :

وأحسنُ مِنْ نَوْرٍ فَتَّحَهُ الصبا بياضُ العطايا فى سوادِ المطالبِ

أخذه من قول الأخطل (٣) :

رأيتُ بياضًا فى سوادٍ كَـأنَّهُ بياضُ العطايا فى سوادِ المطالبِ

ومـن سقـطـات الشعـراء

ما قيل : إن أبا العتاهية(٤) كان مع تقدمه فى الشعر كثير السقط ، روي أنه لقي محمد بن

---

(١) الحَصَان : العفيفة . الشنوف : جمع الشَّنْف : القرط وقد يخصص الشنْف بما يعلق فى أعلى الأذن . والقرط بما يعلق فى أسفلها .

(٢) زهير بن أبى سلمى . ربيعة بن رياح المزنى من مضر . حكيم الشعراء فى الجاهلية . كان أبوه شاعرًا وخاله شاعر وأخته سلمى شاعرة وابناه كعب وبجير شاعران وأخته الخنساء شاعرة . أسرة كلها شعراء . له معلقة . توفى سنة (١٣ ق هـ) .

(٣) الأخطل : غياث بن غوث التغلبى : نصرانيا . اتصل بالأمويين ينصرهم بشعره فياضا يمدحهم مندفعا فى هجو أعدائهم . له : ديوان شعر كبير (ت ٩٠هـ) .

(٤) أبو العتاهية : هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العينى العنزى . شاعر مكثر فى شعره إبداع ـ سريع البديهة . توفى فى بغداد سنة (٧٢٥ هـ) .

مبادر بمكة ، فمازحه وضاحكه ، ثم إنه دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة فى كل سنة ، وأنا أقول فى كل سنة مائتي قصيدة ، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية ؟، فقال : يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول :

أَلاَ يَـــــا عُتْبَةَ الساعــة أمـــوتُ الساعــةَ الساعــة

لقلت كثيرًا ولكني أقول :

ابْنُ عبدِ الحميد يوم تُوُفّى هَدَّ ركنًا ما كان بالمهدودِ
ما درى نعشُهُ ولا حامِلُوه ما على النعشِ من عفافٍ وجودِ

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فكاد أبو العتاهية يموت غمًا وأسفًا . وكان بشار بن برد(١) يسمونه أبا المحدثين ، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق ، وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال :

إنما عظمُ سُلَيْمَى حبتي قصبُ السكر لا عَظْمُ الجَمَلْ
وإذا أَدْنَيْتُ منها بَصَلاً غَلَبَ المِسْكُ على ريح البَصَلْ

هذا مع قوله :

إذا قامَتْ لِمِشْيَتِها تَثَنَّتْ كأن عظامَها من خَيْزُرَانِ

ومع قوله في الفخر :

كأنّ مُثَارَ النقعِ فوق رؤوسِنا وأسيافُنَا ليلٌ تهاوى كواكبُهُ

ومع قوله أيضًا :

إذا أنتَ لم تشربْ مرارًا على الْقَذَى ظَمِئْتَ وأي الناسِ تصفو مشاربُهُ

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام ، وقوته على رقائق المعاني وعلى ما في شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول :

وضاقتِ الأرضُ حتى صار هارِبُهم إذا رأى غير شيءٍ ظَنَّهُ رجلاً

(١) بشار بن برد العقيلى بالولاء (٩٥ ـ ١٦٧ هـ) فارسى الأصل أشهر المولدين على الإطلاق . نسبته إلى امرأة «عقيلية » أعتقته من الرق سخط عليه المهدى إذ رآه فى البصرة سكران يؤذن ، فرماه بالزندقة : وضُرِبَ سبعين سوطا حتى مات . كان أعمى . غليظ المنظر متبرمًا بالناس يسخر منهم ويهجوهم .

وغير شيء معناه المعدوم ، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش . ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الأسماع قوله :

تَقَلْقَلْتُ بالهمِّ الذي قلقلَ الحشا ... قلاقلُ عشس كُلُّهن قلاقلُ

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى :

إنْ كان مِثْلُك كان أو هو كائنٌ ... فبرئتُ حينئذٍ مِنَ الإسلامِ

ومن معانيه المسروقة قوله :

ونهبُ نفوسِ أهلِ النهبِ أولى ... بأهل المجدِ من نَهْبِ القماشِ

أخذه من قول أبي تمام :

إنَّ الأسودَ أسودَ الغابِ هِمَّتُها ... يوم الكريهة في المسلوبِ لا السَّلْبِ

قال أبو عبد الله الزبيري : اجتمع راوية جرير ، وراوية كثير ، وراوية جميل ، وراوية الأحوص، وراوية نصيب ، فافتخر كل منهم وقال : صاحبي أشعر ، فحكَّموا السيدة سكينة (١) بنت الحسين ـ رضي الله تعالى عنهما ـ بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر ، فخرجوا حتى استأذنوا عليها ، وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتك صائدةُ القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلامِ

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق ؟. قبح الله صاحبك وقبح شعره فهلا قال : فادخلي بسلام . ثم قالت لراوية كثير : أليس صاحبك الذي يقول :

يَقَرُّ بعيني ما يَقَرُّ بعينها ... وأحسنُ شيء ما به العين قرت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح ، أيحب صاحبك أن ينكح ؟. قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركتُ عقلي معي ما طلبتُها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أراه هوى ، وإنما طلب عقله . قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول :

---

(١)هي : سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب . نبيلة . شاعرة . من أجمل النساء وأطيبهن نفسا . سيدة نساء عصرها . تجالس سادات قريش : يجتمع إليها الشعراء فيجلسون فتراهم ولا يرونها . وتسمع كلامهم فتفاضل بينهم وتناقشهم توفيت سنة (١١٧ هـ) رحمة اللّه عليها . (أعلام النساء) كحالة ٢ / ٢٠٢ ـ ٢٢٤ .

أهيم بدعدٍ ما حييتُ فإنْ أَمُتْ فوا حزني مَنْ ذا يهيمُ بها بعدي

فما له همة إلا من يتعشقها بعده . قبحه الله وقبح شعره هلا قال:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أَمُتْ فلا صَلحَتْ دعدُ لذي خِلة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذي يقول :

مِنْ عَاشِقِينِ تَوَاعَدَا وتراسَلاَ لَيلاً إذا نَجْمُ الثريا حَلقَا
بَاتَا بِأَنْعَمِ ليلةٍ وألذّها حتى إذا وضح الصباحُ تَفَرَّقَا

قبحه الله وقبح شعره هلا قال: تعانقا . فلم تثن على واحد منهم، وأحجم رواتهم عن جوابها ـ رضي الله عنها ـ .

وروى ابن الكلبي[١] قال : لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله ، فأقاموا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدي بن أرطاة[٢] عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال :

يا أيهُّا الرجُلُ المُزْجِي[٣] مَطِيّتُهُ هذا زمانُك إنّي قد خَلاَ زَمَني
أَبْلِغْ خليفتَنَا إنْ كنتَ لاقِيَهُ أني لدى البابِ كالمشدودِ في قَرَنِ[٤]
لا تَنْسَ حاجتَنَا لاقَيْتَ مَغْفِرَةً قد طال مُكْثي عن أهْلِي وعن وَطَنِي

فقال : نعم يا أبا عبد الله ، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ قال : يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك، وألسنتهم مسمومة، وسهامهم صائبة، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : ما لي وللشعراء ، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ مُدِحَ فأعطى ، وفيه أسوة لكل مسلم، قال : صدقت ، فمن بالباب منهم ؟ قال : ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي[٥] قال: لا قرب الله قرابته ولا حَيًّا وجهه ، أليس هو القائل :

---

(١) هو : هشام بن محمد بن أبى النضر بن السائب بن بشر الكلبى . مؤرخ . عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامهم . له تصانيف كثيرة منها :« أسواق العرب » و « الكنى » و « جمهرة الأنساب » توفى سنة (٢٠٤هـ)

(٢) عدى بن أرطاة الفزارى ، أبو واثلة . أمير . من أهل الكوفة . توفى سنة (١٠٢ هـ) .

(٣) المزجى : المحث مطيته على السرعة فى السير .

(٤) القرن : الأسير المشدود بالحبل .

(٥) شاعر رقيق غزله . من سراة قريش . من طبقة جرير والفرزدق . رقيق الأسلوب لطيف العواطف فى غزله العفيف من طبقة جرير والفرزدق . تنسّك فى آخر حياته . ولد فى الليلة التى توفى فيها عمر بن الخطاب فسمى باسمه . له ديوان مطبوع مات غرقا سنة (٩٣ هـ) .

ألاَ ليتَني في يوم تدنو منيتي شَمَمْتُ الذي ما بين عينيكِ والفمِ
وليتَ طَهُورِي كان ريقَكِ كُلَّهُ وليتَ حنَوُطِي من مشاشك والدم(١)
ويا ليت َسلمى في القبور ضَجِيعتي هنالك أو في جنةٍ أو جهنمِ

فليته عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ، ثم يعمل عملاً صالحًا ، والله لا يدخل عليَّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : جميل بن معمر العذري (٢) قال : أليس هو القائل :

الا ليتنا نحيا جميعًا فإنْ نَمُتْ يوافى لدى الموتِ ضريحي ضريحُها
فما أنا في طولِ الحياة براغبٍ إذا قِيل: قد سُوي (٣) عليها صفيحها
أظلُّ نهاري لا أَرَاها وتلتقي مع الليل رُوحِي في المنام وروحُها

والله لا يدخل عليَّ أبدًا ، فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : كثير عزة (٤) قال : أليس هو القائل:

رهبانُ مدينَ والذين عهدتُهم يَبْكونَ من حَذَرِ الفراقِ قُعُودا
لو يسمعون كما سَمِعْتُ حديثَها خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وسجودًا

أبعده الله ، فوالله لا يدخل عليَّ أبدًا ، فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : الأحوص الأنصاري (٥) قال : أبعده الله،والله لا يدخل عليَّ أبدًا ، أليس هو القائل ، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه :

اللهُ بيني وبين سيِّدها يفرُّ مِنِّي بها وأَتْبَعُهُ

فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : همام بن غالب الفرزدق . قال : أليس هو القائل يفتخر بالزنا في قوله :

---

(١) طهورى : ما يتطهر به من ماء ونحوه : يريد أن يكون ريقك هو وضوئى . الحنوط : أخلاط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة . المشاش : حجارة رخوة وتراب .

(٢) شاعر من بنى عذرة . من عشاق العرب افتتن ببثينة فتغنى بها حتى عرف بـ « جميل بثينة » فى شعره صدق العاطفة وبساطة التعبير . فتناقل الناس أخبارهما توفى سنة (٨٢ هـ) .

(٣) سوّى : مات ودفن فيها : صفيحها : انطبق بعضها على بعض .

(٤) كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعى. أبو صخر : شاعر متيم مشهور . يقال له :(كثير عزة) . توفى سنة (١٠٥ هـ) .

(٥) من بنى ضبة . شاعر هجاء . صافى العبارة . معاصرا لجرير والفرزدق . وفد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه ثم بلغه عنه ما غيره عليه فرده إلى المدينة وأمر بجلده . له ديوان شعر . توفى سنة (١٠٥ هـ) .

هُمَّا دُلَّيانِي من ثمانين قامة   كما انْقَضَّ بازٌ لَيِّن الريش كاسِرُهُ
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا   أحيٌّ فَيُرجى أم قتيلٌ نحاذِرُه
فقلتُ ارفعوا الأجراسَ لا يَفْطِنوا بنا   ووليتُ في أعقابِ ليلٍ أُبادِرُهُ ؟

والله لا دخل عليَّ أبدًا ، فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : الأخطل التغلبي . قال : أليس هو القائل :

ولستُ بصائمٍ رمضانَ عُمْري   ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحِي
ولستُ بزاجرٍ عيسًا بكورًا   إلى أطْلالِ مكّةَ بالنجاحِ
ولستُ بقائمٍ كالعبدِ يدعو   قُبَيْلَ الصبحِ حَيَّ على الفلاحِ
ولكنّي ساشربُها شَمُولاً   واسجدُ عِنْد مُنَبَلِجِ الصباحِ؟

أبعده الله عني ، فوالله لا دخل عليَّ أبدًا ، ولا وطئ لي بساطًا ، وهو كافر ، فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت ؟ قال : جرير . قال : أليس هو القائل :

طرقتْك صائِدَةُ القُلُوبِ وليس ذا   وقتَ الزِّيارة فارجعي بسلامِ؟

فإن كان ولا بد ، فهذا ، فأذن له. قال عدي بن أرطاة : فخرجت فقلت : ادخل يا جرير ، فدخل وهو يقول :

إنَّ الذي بعثَ النَّبِيَّ محمدًا   جعَلَ الخلافة في الإمام العادل
وَسِعَ الخلائقَ عَدْلُهُ ووَقارُهُ   حتى ارعَوُوا وأقامَ مَيْلَ المائلِ(١)
إنّي لأرجُو منه نَفعًا عاجلاً   والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجلِ
واللَّهُ أنزلَ في الكتابِ فريضةً   لابن السبيلِ وللفقيرِ العائلِ

فلما مثل بين يديه قال : يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقًا ، فأنشأ يقول:

كم باليمامةِ من شعثاءَ أرملةٍ   ومِن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنظرِ
ممن بَعْدُلكَ يكفِيَ فَقْدَ والده   كالفرخ في العشِّ لم يدرجْ ولم يطرِ
أأذكرُ الجهدَ والبلوى التي نزلَتْ   أم قَدْ كَفَاني ما بَلَّغتُ مِنْ خبرى؟
إناّ لَنَرجُوا إذا ما الغيثُ أخلَفَنَا   من الخليفة ما نَرْجُوا مِنَ المطرِ

(١) ارعووا : رجعوا عن الجهل وحسن رجوعهم . اقام : احسنه وعدله .

إنّ الخِلافةَ جاءتْه على قدرٍ كما أتى ربَّه موسى على قدرِ
هذي الأراملُ قد قضَّيْتَ حَاجَتَها فَمَنْ لحاجةِ هذا الأرملِ الذكرِ
الخيرُ مَادُمْتَ حيًّا لا يُفارِقُنا بُورِكْتَ يا عُمَرَ الخيراتِ من عمرِ

فقال : والله يا جرير لقد وافيت الأمر ، ولا أملك إلا ثلاثين دينارًا فعشرة أخذها عبد الله ابني ، وعشرة أخذتها أم عبد الله ، قال لخادمه : ادفع إليه العشرة الثالثة ، فقال : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته ، ثم خرج فقال له الشعراء : ما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوءكم خرجت من عند أمير يُعْطِي الفقراءَ ويمنع الشعراء ، وإنني عنه لراضٍ ، ثم أنشأ يقـول :

رأيتُ رُقَى الجِنّ لا تستفزُّهُ وقد كان شيطاني من الجِنّ واقيا

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد : قال الأحنف الشريف : من عدت سقطاته ، وقلَّت عثراته ، وقالوا : كل صارم ينبو ، وكل جواد يكبو ، وكان الأحنف بن قيس حليمًا سيدًا يضرب به المثل ، وقد عُدَّت له سقطة وهو أن عمرو بن الأهتم [١] دس إليه رجلاً يسفهه فقال : يا أبا بحر ما كان أبوك في قومه ؟ قال : كان أوسطهم وسيدهم ، ولم يتخلف عنهم ، فرجع إليه ثانيًا ، ففطن أنه من قبل عمرو بن الأهتم ، فقال : ما كان أبوك ؟ قال: كانت له فتوة ومروءة ، ومكارم أخلاق ، ولم يكن أهتم سلاجًا [٢] ، وقال سعيد بن المسيَّب [٣] : ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة ، ثم قام يريد الصلاة فوجد الناس قد خرجوا من المسجد ، وقال قتادة : ما نسيت شيئًا قط ، ثم قال : يا غلام ناولني نعلي. قال : النعل في رجلك . وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودهاتهم ، وقد عدت له سقطات منها : أن الحادي حدا به يومًا فقال :

إنّي عليـــك أيُّهـــا النّجِـيُّ أكـــرمُ مَـــنْ يمشي به المطي

فقال هشام: صدقت . وذكر عنده سليمان وأخوه ، فقال : والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك ولما ولي الخلافة قال : الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام. قال النابغة : * أيُّ الرجال المهذب * ، وصلى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) هو : عمرو بن سنان التميمى من أهل نجد أحد السادات الشعراء الخطباء فى الجاهلية والإسلام . مخضرم . وفد على النبى فأسلم ولما تكلم بين يدى النبى أعجبه كلامه فقال النبى ـ عليه السلام ـ : « إن من البيان لسحرا » فصارت مثلا . ولم يكن فى بادية العرب من هو أخطب منه . ولقب : بالأهتم : لأن ثنيته هتمت ـ كسرت ـ ثنيته ـ أسنانه من أصلها ـ يوم الكلاب توفى سنة (٥٧ هـ) .

(٢) السلج : بلع الطعام دون مضغ .

(٣) سعيد بن المسيِّب بن حَزْن بن أبى وهب المخزومى القرشى (١٣ ـ ٩٤ هـ) سيد التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته . حتى سُمّى راوية عمر .

الباب العاشر

في التوكل على اللَّه تعالى ، والرضا بما قسم ، والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك .وفيه . فصول

الفصل الأول : في التوكل على اللَّه تعالى

قال الله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان : ٥٨] . وقال تعالى : ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال : ٢] . وقال تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] . وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، عن النبيﷺ قال : « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير » . رواه مسلم . قيل : معناه متوكلون ، وقيل : قلوبهم رقيقة . وعن البراء بن عازب[(١)] ـ رضي الله عنه ـ أن رسول اللهﷺ قال : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصًا وتعود بطانًا »، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من دعاني أجبته ، ومن استغاثني أغثته ، ومن استنصرني نصرته ، ومن توكَّل عليَّ كفيته، فأنا كافي المتوكلين وناصر المستنصرين ، وغياث المستغيثين ، ومجيب الداعين.

وحكي : أنه كان في زمن هارون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر ، وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادًا عظيمًا ، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب ، ففي بعض الأيام رؤي عبد يصفق ويرقص ويغني ، فَحُمِلَ إلى الخليفة هارون الرشيد ، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس ، فقال : إن سيدي عنده خزانة بُرٍّ ، وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها ، فلهذا أنا إذًا لا أبالي فأنا أرقص وأفرح ، فعند ذلك قال الخليفة : إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله ، فالتوكل على الله أولى ، فسلم للناس أحوالهم، وأمرهم بالتوكل على الله تعالى .

وحكي : أن حاتمًا الأصم[(٢)] كان رجلاً كثير العيال ، وكان له أولاد ذكور وإناث ، ولم يكن يملك حبة واحدة ، وكان قدمه التوكل ، فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم ، فتعرضوا لذكر الحج ، فداخل الشوق قلبه ، ثم دخل على أولاده ، فجلس معهم يحدثهم ، ثم قال لهم:

---

(١) صحيح . رواه أحمد (١ / ٣٠) والترمذى (٢٣٤٤) وأبو يعلى (٢٤٧) وابن المبارك فى « الزهد » (٥٥٩) والحاكم (٤ / ٣١٨) وأبو نعيم فى« الحلية » (١٠ / ٦٩) والبغوى فى«شرح السنة » (٤١٠٨) وابن حبان (٧٣٠) وهو من حديث عمر بن الخطاب وليس البراء بن عازب كما قال المصنف . والله أعلم .

(٢) هو : حاتم بن عنوان . أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم . من مشايخ خراسان زاهد . اشتهر بالورع والتقشف والجود . وله كلام فى الحكم والزهد من أهل بلخ . وقيل فيه : لقمان هذه الأمة . توفى سنة (٢٣٧ هـ) .

لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجًا ، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم ؟ فقالت زوجته وأولاده : أنت على هذه الحال لا تملك شيئًا ونحن على ما ترى من الفاقة ، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحال ؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت : ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك ؟ ، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناول للرزق ، وليس برزاق ، فذكرتهم ذلك ، فقالوا : صدقتْ ـ والله ـ هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت ، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافرًا ، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج ، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه ، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون : لو سكَتت ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء ، وقالت : إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم ، ولا تخجلني معهم، فبينما هم على هذه الحال إذ خرج أمير البلدة متصيدًا ، فانقطع عن عسكره وأصحابه ، فحصل له عطش شديد ، فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الأصم ، فاستسقى منهم ماءً ، وقرع الباب فقالوا : من أنت ؟ قال : الأمير ببابكم يستسقيكم ، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت : إلهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعًا ، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا ، ثم إنها أخذت كوزًا جديدًا وملأته ماء، وقالت للمتناول منها : اعذرونا ، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه ، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير ؟ فقالوا : لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يُعْرَفُ بحاتم الأصم، فقال الأمير : لقد سمعت به ، فقال الوزير : يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئًا ، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعًا ، فقال الأمير: ونحن أيضًا قد ثقلنا عليهم اليوم ، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم ، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار ، ثم قال لأصحابه : من أحبني ، فليلق منطقته ، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ، ثم انصرفوا ، فقال الوزير : السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق ، فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير ، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً واستردها منهم ، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديدًا ، فقالوا لها : ما هذا البكاء ؟ إنما يجب أن تفرحي ، فإن الله قد وسع علينا ، فقالت : يا أم . والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعًا ، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة ، فأغنانا بعد فقرنا ؟، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين ، اللهم انظر إلى أبينا ، ودبره بأحسن التدبير ، هذا ما كان من أمرهم .

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم ، فإنه لما خرج محرمًا ولحق بالقوم توجع أمير الركب ، فطلبوا له طبيبًا ، فلم يجدوا ، فقال : هل من عبد صالح ؟ ، فدل على حاتم ، فلما دخل عليه

وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته ، فأمر له بما يركب ، وما يأكل ، وما يشرب ، فنام تلك الليلة مفكرًا في أمر عياله ، فقيل له في منامه : يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه ، ثم أخبر بما كان من أمر عياله ، فأكثر الثناء على الله تعالى ، فلما قضى حَجَّهُ ورجع تلقته أولاده ، فعانق الصبية الصغيرة وبكى ، ثم قال : صغار قوم كبار قوم آخرين . إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به ، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه .

ومن كلام الحكماء : من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة ، ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع ، ومن علم أن مولاه خير له من العبادة ، فقصده كفاه همه وجمع شمله ، وفي الحديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنت عند النبي ﷺ يومًا فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت ، فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

ورفع إلى الرشيد : أن بدمشق رجلاً من بني أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند ، يخشى على المملكة منه ، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة ، قال منارة خادم الرشيد : فاستدعاني الرشيد وقال : اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام وائتني بفلان الأموي ، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك ، فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به ، واذكر لي حاله ومآله ، وقد أجلتك لذهابك ستًا، ولمجيئك ستًا، ولإقامتك يومًا، أفهمت ؟ قلت : نعم . قال : فسر على بركة الله ، فخرجت أطوي المنازل ليلاً ونهارًا لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصدًا نحو دار الأموي، فإذا هي دار عظيمة هائلة ، ونعمة طائلة، وخدم وحشم، وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة ، ومصاطب متسعة ، وغلمان فيها جلوس ، فهجمت على الدار بغير إذن، فبهتوا وسألوا عني ، فقيل لهم : إن هذا رسول أمير المؤمنين ، فلما صرت في وسط الدار رأيت أقوامًا محتشمين ، فظننت أن المطلوب فيهم ، فسألت عنه ، فقيل لي : هو في الحمام ، فأكرموني ، وأجلسوني ، وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر ، وأنا أتفقد الدار ، وأتأمل الأحوال

(١) صحيح . رواه أحمد (١ / ٢٩٣) والترمذى (٢٥١٦) وابن السنى فى« عمل اليوم والليلة » (٤١٩) وأبو يعلى (٢٥٥٦) وقال الترمذى : حسن صحيح .

حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان ، فسلم عليَّ وسألني عن أمير المؤمنين ، فأخبرته وأنه بعافية ، فحمد الله تعالى ، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال : تقدم يا منارة كُلْ معنا ، فتأملت تأملاً كثيرًا إذ لم يمكنني ، فقلت : ما آكل ، فلم يعاودني ، ورأيت ما لم أره إلا في دار الخلافة ، ثم قدم الطعام ، فوالله ما رأيت أحسن ترتيبًا ، ولا أعطر رائحة ، ولا أكثر آنية منه ، فقال: تقدم يا منارة ، فكُلْ . قلت : ليس لي به حاجة ، فلم يعاودني ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحدًا منهم عندي ، فحرت لكثرة حفدته ، وعدم من عندي ، فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ، ثم قام فصلى الظهر ، فأتم الركوع والسجود ، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلني ، وقال : ما أقدمك يا منارة ؟ فناولته كتاب أمير المؤمنين ، فقبله ووضعه على رأسه، ثم فضَّه وقرأه، فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله ، فضاقت الدار بهم على سعتها، فطار عقلي ، وما شككت أنه يريد القبض علي ، فقال: الطلاق يلزمه والحج والعتق والصدقة ، وسائرأيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره ، ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلني وقدم رجليه وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل ، وسرنا، فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ويقول: هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا ، وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا، وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا ، فقلت: يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك ، وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه ، وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيدًا فريدًا ، وأنت تحدثني حديثًا غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه ، وكان شغلك بنفسك أولى بك ؟ ، فقال: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦] ، لقد أخطأت فراستي فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا لوفور عقلك ، فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء ، أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي (١) وناصية أمير المؤمنين ، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضى علي بأمر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه ، وإن لم يكن قد قدر علي بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر مَنْ على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى ، وما لي ذنب فأخاف ، وإنما هذا واشٍ (٢) وشى عند أمير المؤمنين ببهتان (٣) ، وأمير المؤمنين

---

(١) الناصية : شعر مقدم الرأس (كناية عن حياته) .
(٢) الواشي : النَّمَّامُ (٣) البهتان : الكذب والافتراء .

كامل العقل ، فإذا اطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي، وعلي عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جوابًا . ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر ، وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا ، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض ، فقال : هات يا منارة أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك عليَّ ، فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة والغضب يظهر في وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه ، وخواصه وضيق الدار بهم ، وتفقدي لأصحابي ، فلم أجد منهم أحدًا اسودَّ وجهه ، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه ، فلما قلت : إنه قدم رجليه أَسْفَرَ [1] وجهه واستبشر ، فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه وما قلت له ، وما قال لي . قال : هذا رجل محسود على نعمته ، ومكذوب عليه ، وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا [2] عليه وعلى أولاده وأهله . اخرج إليه ، وانزع قيوده ، وفكه وأدخله عليَّ مكرمًا ، ففعلت ، فلما دخل قبل الأرض ، فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه ، واعتذر إليه ، فتكلم بكلام صحيح ، فقال له أمير المؤمنين : سل حوائجك ، فقال : سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي . قال : هذا كائن ، فسل غيره ؟ قال: عدل أمير المؤمنين في عماله ما أحوجني إلى سؤال . قال : فخلع عليه أمير المؤمنين ، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه ، قم في حفظ الله وودائعه ورعايته ،لا تقطع أخبارك عنا وحوائجك ، فانظر حسن توكله على خالقه ، فإنه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لباه ، ومن سأله أعطاه ما تمناه .

وروي : أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار [3] مكتوبة في التوراة فكتبها وهي : يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقيًا ، وسلطاني لا ينفد أبدًا ، يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائنى ملآنة ، وخزائني لا تنفد أبدًا ، يا ابن آدم لا تأنس بغيري، وأنا لك ، فإن طلبتني وجدتني ، وإن أنست بغيرى فُتُّكَ وفاتك الخير كله ، يا ابن آدم خلقتك لعبادتي ، فلا تلعب ، وقسمت رزقك فلا تتعب ، وفي أكثر منه فلا تطمع ، ومن أقل منه فلا تجزع ، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك ، وكنت عندي محمودًا ، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في

---

(١) أسفر : أضاء وأشرق .

(٢) شوش : اختلط عليه الأمر واضطرب .

(٣) كعب بن ماتع بن ذى هجن الحميرى . تابعى . من كبار علماء اليهود فى اليمن . أسلم زمن أبى بكر . أخذ عنه الصحابة كثيرا من أخبار الأمم، ومعرفته الواسعة فى التوراة . توفى فى حمص سنة (٣٢هـ) .

البر ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك ، وكنت عندي مذمومًا ، يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع ، ولم أعي بخلقهن أيعييني رغيف أسوقه لك من غير تعب ، يا ابن آدم أنا لك محب ، فبحقي عليك كن لي محبًا ، يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد ، فإني لم أنس من عصاني ، فكيف من أطاعني وأنا على كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط .

قال الشاعر :

وما ثمَّ إلاَّ اللهُ في كلِّ حالةٍ فلا تتكلْ يومًا على غير لُطفِهِ
فكم حالةٍ تأتي ويكرهُها الفتى وخيرتُه فيها على رغمِ أنفِهِ

ولمؤلفه (١) ـ رحمه الله ـ :

تَوَكَّلْ على الرحمنِ في الأمر كُلِّه فما خاب حقًا من عليه توكلاً
وكُنْ واثقًا باللهِ واصْبِرْ لِحكْمِهِ تفزْ بالذي تَرجُوه مِنْه تفضلاً

الفصل الثاني : في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧] . أن المراد بها القناعة . وقال ﷺ : « القناعة مال لا ينفد » (٢) . وقيل: يا رسول الله ما القناعة ؟ قال : « الإياس مما في أيدي الناس وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ من القناعة بالجانب الأوفر ، وأنه كان يشتهي الشيء فيدافعه سنة ، قال الكندي (٣):

العبـــدُ حـــرٌ مـــا قنـــعْ والحـــرُّ عبـــدٌ مـــا طمـــعْ

وقال بشر بن الحرث (٤) : خرج فتى في طلب الرزق ، فبينما هو يمشي فأعيا ، فآوى إلى خراب يستريح فيه ، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هي :

---

(١) مؤلف الكتاب .

(٢) ضعيف . رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١ / ٧٢ / ٦٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) الكندي: يعقوب بن إسحاق ، أبو يوسف ولد في الكوفة ، لقب بـ « فيلسوف العرب » . تعلم في بغداد والبصرة . أقام في بلاط العباسيين . ترجم بالعربية مؤلفات اليونان . التي نقل منها إلى اللاتينية . كان حجة في الفلك . معتزلي توفي سنة (٢٦٠ هـ) .

(٤) بشر بن الحرث بن علي بن عبد الرحمن المروزي أبو نصر المعروف بالحافي . من كبار الصالحين توفي سنة (٢٢٧هـ).

إنِّي رأيتُكَ قاعدًا مُستقبِلي فعلمتُ أنَّكَ للهمومِ قرينُ
هوِّنْ عليك وكُنْ بربِّك واثقًا فأخو التوكّلِ شأنُه التهوينُ
طَرَحَ الأذى عن نفسِه في رزقِهِ لمـــا تَيَقَّنَ أنــــهُ مَضمُونُ

قال : فرجع الفتى إلى بيته ، ولزم التوكل وقال : اللهمَّ أدبنا أنت . قال الجاحظ : إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم ، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة وفي ذلك بطلان المصالح ، وذهاب المعايش ، فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه ، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيرًا أو خلفًا قال: ويلك يا حجام والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه . قال : ويلك يا حائك ، فجعل الله تعالى الاختلاف سببًا للائتلاف ، فسبحانه من مدبر قادر حكيم ، ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف كلبه معه في بيته لباسه شملة من وبر أو شعر ، ودواؤه بعر الإبل وطيبه القطران وبعر الظباء، وحلى زوجته الودع ، وثماره المقل [1]، وصيده اليربوع [2]وهو في مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة، وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به .

وقال سعد بن أبي وقاص [3]ـ رضي الله تعالى عنه ـ : يا بني إذا طلبت الغنى ، فاطلبه في القناعة ، فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وعليك باليأس ، فإنك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه .

وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة ، فجاءه حماد بن أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال : هي من مال رجل ما أقدم عليه أحد في زهده وورعه وطيب كسبه ، فقال : لو كنت أقبل من أحد شيئًا لقبلتها تعظيمًا للميت ، وإكرامًا للحي ، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة .

وقال عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : اتخذوا البيوت منازل ، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية ، واشربوا من الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام .

وأنشد المبرد :

إنْ ضَمِنَ زيدٌ بما في بَطْنِ رَاحَتِهِ فالأرضُ واسعةٌ والرزقُ مبسوطُ
إنَّ الذي قدَّرَ الأشياءَ بحكمتِهِ لم يَنْسَني قاعدًا والرَّحْلُ محطوطُ

(١)المقل : ثمر الدوم من فصيلة النخليات يستخرج من ثماره نوع من الدبس ـ عسل التمر.
(٢)اليربوع : نوع من القواضم يشبه الفأر قصير اليدين طويل الرجلين وله ذنب طويل .
(٣)سعد بن أبي وقاص : مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري ، أبو إسحاق . (٢٣ ق هـ ـ ٥٥ هـ) الصحابي الأمير فاتح العراق ، ومدائن كسرى . وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . ويقال له : فارس الإسلام .

قال عبد الواحد بن زيد : ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا ، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة ، قيل له : متى يكون العبد راضيًا عن ربه؟ قال: إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة ، وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي، فسكر يومًا ففاتته الصلاة ، فجاءته جارية له بجمرة ، فوضعتها على رجله ، فانتبه مذعورًا ، فقالت له : إذا لم تصبر على نار الدنيا ، فكيف تصبر على نار الآخرة ؟. فقام فصلى الصلوات ، وتصدق بما يملكه وذهب يبيع البقل ، فدخل عليه فضيل وابن عيينة ، فإذا تحت رأسه لبنة [(١)] وما تحت جنبه شيء، فقالا له : إنه لم يدع أحد شيئًا إلا عوضه الله منه بديلاً ، فما عوضك عما تركت له؟ قال : الرضا بما أنا فيه .

وقال الثوري[(٢)] : ما وضع أحد في يده في قصعة غيره إلا ذل له، وقال الفضيل: من رضي بما قسم الله له بارك الله له فيه ؛ وكان عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول : الشمس في الشتاء جلالي ، ونور القمر سراجي ، وبقل البرية فاكهتي ، وشعر الغنم لباسي ، أَبِيتُ حيث يدركني الليل ليس لي ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، أنا الذي كَبَبْتُ الدنيا على وجهها.

بيت مفرد :

إنَّ القناعةَ مَنْ يَحلُلْ بساحتِها ... لم يلقَ في ظلِّها همًّا يُؤرِّقُهُ[(٣)]

وقال عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : انظروا إلى الطير تغدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحرث ، ولا تحصد ، والله يرزقها ، فإن زعمتم أنكم أكبر بطونًا من الطير ، فهذه الوحوش والبقر والحمر ولا تحرث ولا تحصد والله يرزقها . وقيل : وفد عروة بن أُذينة على هشام بن عبد الملك ، فشكا إليه خلته[(٤)] ، فقال له القائل :

لقد علمْتُ وما الإسرافُ من خلقي ... أنَّ الذي هو رِزقِي سوف يأتيني

أسعى إليه فيُعْييني تَطلبُه ... ولو قعدتُ أتاني ليس يُعْيِيني

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق فقال : يا أمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت، وخرج ، فركب ناقته وكرَّ إلى الحجاز راجعًا ، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه ، فذكر عروة، فقال في نفسه : رجل قريش قال حكمة ووفد علي ، فجبهته[(٥)] ورددته خائبًا ، فلما

---

(١) اللَّبِنُ : طوب من طين لم يحرق .

(٢) الثورى : سفيان بن سعيد (٧١٥ ـ ٣٧٧٨) من أئمة المحدثين وعلماء الكلام الصوفيين فى العراق . استقل فى رأيه ، ولم يَهَبْ غضب الخليفة . قيل : إنه أعلم بالحلال والحرام له :« الجامع الكبير » و « الجامع الصغير » و «الفرائض » و«تفسير القرآن الكريم ».

(٣) يؤرقه : يقلقه ويمنع عنه النوم والراحة .

(٤) خلته : فقره .

(٥) جبهته : استقبلته بالمكروه .

أصبح وجه إليه بألفي دينار ، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة ، وأعطاه المال، فقال : أبلغ أمير المؤمنين مني السلام وقل له : كيف رأيت قولي ؟؛ سعيت ، فأكديت ، فرجعت ، فأتاني رزقي في منزلي ، ولما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له : أنصاري ، وثقفي ، فلما سارا تخلف الأنصاري وقال : الذي أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني ، فوفد الثقفي وقال : أحوز الحظين ، فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له : ما فعل زميلك الأنصاري ؟ قال: رجع إلى أهله ، فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار ، وبعث للأنصارى بثمانية آلاف دينار ؛ فخرج الثقفي وهو يقول :

فوالله ما حِرْصُ الحريصِ بنافعٍ ... فيغني ولا زُهْدُ القنوع بضائرِ
خرَجْنا جميعًا مِنْ مَساقِطِ رُوسِنَا ... على ثِقَةٍ منا بجود ابن عامرِ
فلما أَنَخْنا الناجعاتِ بِبابه ... تخلفَ عني اليثربي ابن جابرِ
وقال : ستَكْفِيني عطيةُ قادرٍ ... على ما يشاءُ اليوم للخلقِ قاهرِ
فإنَّ الذي أعطى العراقَ ابنَ عامر ... لَرَبيٌّ الذي أرجو لسدٍّ مفاقري
فقلتُ : خَلا لي وجهُهُ ولعَلّه ... سيجعلُ لي حظّ الفتى المتزاورِ
فلمَّا رآني سأل عنه صبابةً ... إليه كما حَنَّتْ ظُؤَارُ (١) الأباعرِ
فأبْتُ وقد أيقنْتُ أنْ ليس نافعًا ... ولا ضائرًا شيءٌ خـــلافُ المقادرِ

قيل : أوحى الله تعالى إلى موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: أتدري لِمَ رزقت الأحمق؟ قال : لا يا رب ، قال : ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال ، ولبعض العرب:

ولا تجزعْ إذا أُعسِرْتَ يومًا ... فقد أَيسِرْتَ في الزمن الطويلِ
ولا تظنَّنّ بربِّك ظنَّ سوءٍ ... فإنَّ اللهَ أولى بالجميلِ
وإنَّ العُسْرَ يتبعُه يسارٌ ... وقول اللهِ أصدقُ كُلِّ قيلِ
فلو أنَّ العقولَ تسوقُ رِزْقًا ... لكان المالُ عند ذوي العقولِ

وأوحى الله تعالى إلى يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ : انظر إلى الأرض فنظر إليها ، فانفجرت ، فرأى دودة على صخرة ، ومعها الطعام ، فقال له : أتراني لم أغفل عنها ، وأغفل عنك ، وأنت نبي وابن نبي ؟ .

ودخل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ المسجد وقال لرجل كان واقفًا على باب المسجد:

(١) الظؤار : المرضعة لغير ولدها .

أمسك عليَّ بغلتي ، فأخذ الرجل لجامها ، ومضى وترك البغلة ، فخرج علي وفي يده درهمان ليكافئ بها الرجل على إمساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام ، فركبها ومضى ، ودفع لغلامه درهمين يشتري بهما لجامًا ، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال علي ـ رضي الله عنه ـ : إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قُدرَ له .

وقيل لراهب: من أين تأكل ؟ فأشار إلى ـ فِيهِ ـ، وقال : الذي خلق هذه الرحى يأتيها بالطحين، وقال سليم بن المهاجر الجيلي :

كَسَوْتُ جميلَ الصَّبرِ وجهي فَصَانَهُ ... به اللهُ عن غِشْيانِ كُلِّ بخيلِ
فما عِشْتُ لم آتِ البخيلَ ولم أقمْ ... على بابه يومًا مُقامَ ذَليلِ
وإنَّ قليلاً يَسْتُرُ الوَجْهَ أنْ يُرَى ... إلى الناسِ مَبْذُولاً لغيرِ قَلِيلِ

وصلى معروف الكرخي[١] خلف إمام ، فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف : من أين تأكل؟ قال : اصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك . قال: ولمَ ؟ قال : لأن من شك في رزقه شك في خالقه ، وقال أبو حازم : مَالمْ يُكْتَبْ لي لو ركبت الريح ما أدركته ، وقال عمر ابن أبي عمر اليوناني:

غلا السعرُ في بغدادَ مِنْ بَعْدِ رَخصِه ... وإنّى في الحالين باللهِ واثقُ
فلستُ أخافُ الضيقَ واللهُ واسعُ ... غِنَاهُ ولا الحرْمَانَ ، والله رازقُ

وقال القهستاني[٢] :

غَنِيٌّ بلا دُنْيا عن الخلقِ كُلِّهم ... وإن الغِنَى الأعلى عن الشيء لاَ بِهِ

وقال منصور الفقيه :

الموتُ أسهلُ عندي ... بَيْنَ القنا والأسنَّة[٣]
والخيلُ تجْري سِراعًا ... مُقطَّعاتِ الأعنة[٤]
مِنْ أنْ يكونَ لِنَذْلٍ ... عَلَيَّ فضلٌ ومِنَّة

---

(١) معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ . أحد أعلام الزهاد والمتصوفين . ولد في كرخ بغداد . توفى سنة ٢٠٠ هـ .

(٢) القهستاني : محمد بن جمعة بن خلف ، أبو قريش القهستاني الأصم . من حفاظ الحديث . ثقة . متقن . مكثر . رحال . له « المسند الكبير » و « كتاب في الحديث » . توفى بـ « قهستان » سنة (٣١٣ هـ) .

(٣) القنا : قصبة الرمح . الأسنة : نصل الرمح .

(٤) الأعنة : جمع عِنان سير اللجام الذى تلجم به الدابة .

وأنشد أعرابي :

أيا مالكُ لا تسألِ الناسَ والتمِسْ   بِكَفَّيْك فَضْلَ اللهِ فاللهُ أوسعُ
ولو تسألُ الناسَ الترابَ لأوشكُوا   إذا قِيلَ : هَاتُوا أَنْ يَمَلُّوا ويمْنَعُوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ : أوصني قال : «عليك باليأس مما في أيدي الناس ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر » ، وقيل : إذا وجدت الشيء في السوق ، فلا تطلبه من صديقك ، وقيل لأعرابية: من أين معاشكم ؟ قالت : لو لم نَعِشْ إلا من حيث نعلم لم نعش . وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغبطك بها مَنْ دُونَكَ ولا يحقرك معها مَنْ فوقَكَ .

وقال المعري (١) :

إذا كنتَ تبغي العيشَ فابغِ توسطًا   فعند التناهى يقصر المُتَطاولُ
تُوقّى البدورُ النقصَ وهي أهِلَّةٌ   ويدرِكُها النُقصانُ وهي كواملُ

وقال آخر :

اقنعْ بأيسرِ رزقٍ أنتَ نائلُهُ   واحذرْ ولا تتعرضْ للإراداتِ
فما صفَا البحرُ إلاَّ وهو مُنتَقِصٌ   ولا تَعكَّرَ إلا في الزياداتِ

وقال أعرابي : استظهر على الدهر بخفة الظهر . قال هشام بن إبراهيم البصري :

وكم ملكٍ جانبتُهُ عن كراهةٍ   لإغلاقِ بابٍ أو لتشديدِ حاجبِ
ولِي في غِنَى نفسي مرادٌ ومذهبٌ   إذا انصرفتُ عني وُجُوه المذاهبِ

وقيل : ينبغي أن يكون المرءُ في دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن أتته صحفة تناولها ، وإن لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها ، وقال شقيق بن إبراهيم البلخي : قال لي إبراهيم بن أدهم (٢) ـ رحمه الله تعالى ـ : أخبرني عما أنت عليه . قلت : إن رزقت أكلت ، وإن منعت صبرت . قال : هكذا تعمل كلاب بلخ . فقلت : كيف تعمل أنت ؟ قال : إن رزقت آثرت ، وإن منعت شكرت ، وقال بعضهم :

هي القناعةُ فالزمْها تعِشْ مَلِكًا   لو لم يكنْ منك إلا راحةُ البدنِ
وانظرْ لِمَنْ مَلَكَ الدنيا بأجمعِهَا   هل راح منها بغيرِ القطنِ والكفنِ

---

(١) أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعرى (٩٧٩ ـ ١٠٥٨ م) ولد فى معرة النعمان . شاعر ومفكر . فقد بصره فى الرابعة من عمره . رحل إلى بغداد ثم عاد إلى المعرة . فحبس نفسه فيها . وسمى بـ «رهين المحبسين» وعاش معتزلا الناس متزهدًا . كان رقيق العاطفة قوى الشعور . ثابت العقل . لاذعا فى نقده . متبرما من الناس متشائم . من مؤلفاته : « سقط الزند » و « اللزوميات » و « رسالة الغفران » . توفى سنة ٤٤٩ هـ .

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور ، التميمى البلخى ، أبو إسحاق : زاهد مشهور ت : ١٦١ هـ .

وقال آخر :

وإنَّ القناعـــةَ كنـــزُ الغنـــى فصـــرتَ بأذيالهـــا ممتسَـــكُ
فَـــلا ذَا يرانـــي علـــى بابِهِ ولاَ ذاَ يرانـــي لـــه مُنهمكُ
فصـــرتُ غنـــيًّا بـــلا درهمٍ أَمُرّ علـى النـاسِ شِبْـه الملكْ

جاء فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة ، فلم يجد عندهم شيئًا للعشاء ووجدهم بغير سراج، فجلس ليلته يبكى من الفرح ويقول : بأي يد كانت مني تركت مثلي على هذه الحالة . والله تعالى أعلم .

الفصل الثالث : فى ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١، ٢] .

وروي أن النبي ﷺ قرأ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ قال : « يقول ابن آدم مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، وتصدقت فأمضيت »[1]

وروى عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، أن النبي ﷺ قال : « يا عائشة إن أردت اللحوق بي ، فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلقي ثوبًا حتى ترقعيه » .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « صلاح أول هذه الأمة بالرشد واليقين ، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » . وقيل : الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد في رزقه ، وقيل لحكيم : ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب ؟ قال : لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب . وما أحسن ما قال بعضهم :

إذا طاوعتَ حِرْصَك كُنتَ عبدًا لكـلِّ دنيئةٍ تُدعـــى إليهـــا

وقال آخر وأجاد :

قد شابَ رأسي ورأسُ الدهر لم يَشِبَ إنَّ الحريصَ على الدنيا لفي تعبِ

---

(١) رواه مسلم فى« الزهد » (٧٢٧٧) والترمذى فى « الزهد » (٢٣٤٢) والنسائى فى « الوصايا » (٦ / ٢٣٨) عن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه . وتصدير المصنف لهذا الحديث بـ « روى » فيه إخلال لأن «روى » صيغة من صيغ التضعيف .

(٢) ضعيف جدًا . رواه الترمذى(١٧٨٠) وابن سعد فى «الطبقات » (٨ / ١ / ٥٢) والحاكم (٤ / ٣١٢) وابن عدى فى « الكامل » (٤ / ٥٢) والبغوى فى « شرح السنة » (٣١١٥) وفى سنده صالح بن حسان، قال البخارى : منكر الحديث .

وقيل للإسكندر [(١)] : ما سرور الدنيا ؟ قال : الرضا بما رزقت منها . قيل : فما غمها ؟ قال: الحرص عليها .

وقال الحسن : لو رأيت الأجل ومروره لنسيت الأمل وغروره .

وقال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ : اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر ؟ إن أسامة لطويل الأمل » .

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : كان نبي الله ﷺ يخرج فيبول ثم يمسح بالترب ، فأقول: إن الماء منك قريب ، فيقول : ما تدريني لعلي ما أبلغه ، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ يرفعه : لا يزال الكبير شابًا في اثنين ، حب المال ، وطول الأمل . وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك ؟ قال : قصير الأجل ، طويل الأمل ، مسيء العمل ، وقيل : من جرى في عِنان أمله كان عاثرًا بأجله ، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال ، ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان [(٢)] في قوله :

وذِي حــــرصٍ تــــراهُ يَلُمُّ وفْـرًا ... لوارثـــــه ويدْفَـعُ عـــن حِماهُ
ككلبِ الصيد يمسكُ وهــو طاوٍ [(٣)] ... فريستَــــهُ لِيَأكُلَها سِــــــوَاهُ

ولقد أحسن من قال في الجناس الحقيقي :

إذا ما نازعَتْكَ النفسُ حِرْصًا ... فامسِكْها عن الشهواتِ أمْسِكْ
ولا تحرصْ ليومٍ أنتَ فيه ... وَعُدَّ فرزقُ يومك رزقُ أمسكْ

ومن كلام الحكماء : إياكم وطول الأمل ، فإن من ألهاه أمله أخزاه عمله ، قال عبد الصمد ابن المعذَّل [(٤)] :

ولـــي أملٌ قطعـــتُ بـــه الليالي ... أراني قـــد فنيتُ بـــه وَدَامَا

---

(١) الإسكندر الأكبر : (٣٥٦ ـ ٣٢٤ق م) توفى فى بابل . تعلم على أرسطوطاليس ملك مكدونيا محل فيلبس أبيه . وعزم على فتح إمبراطورية الفرس فكسرهم . وأسس فى مصر الإسكندرية . ويعد من أعظم الغزاة وأشجعهم.

(٢) أحمد بن مروان بن دوستك (٣٦٧ ـ ٤٥٣ هـ) صاحب ديار بكر وميافارقين . كردى الأصل . يلقب بالملك نصر الدولة .

(٣) طاوٍ : جائع .

(٤) عبد الصمد المعذّل بن غيلان بن الحكم العبدى . من بنى عبد القيس ، أبو القاسم من شعراء الدولة العباسية توفى سنة نحو ٢٤٠ هـ .

قال الحسن : إياكم وهذه الأماني ، فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيرًا قط في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال قس بن ساعدة (١):

وما قد تَوَلّى فهو لا شَكّ فائتٌ ... فهل ينفعنيّ ليتني ولعلّني

وقال آخر :

ولا تَتَعَلَّل بالأماني فإنّها ... عطايا أحاديثُ النفوسِ الكواذبُ

وقال آخر وأجاد :

اللهُ أصْدَقُ والآمالُ كاذبةٌ ... وجُلُّ هذي المنى في الصدر وسْواسِ

وقال آخر :

شَطّ(٢) المزارُ بسعدى وانتهى الأملُ ... فلا خيالٌ ولا رسمٌ ولا طللٌ

إلاّ رجاءَ فما ندري أندركُهُ ... أم يستمرُّ فيأتي دُونَه الأجَلُ

وقال أبو العتاهية :

لقد لعبتُ وجَدَّ الموتُ في طلبي ... وإنّ في الموت لي شُغلاً عن اللعبِ

ولو شمرّت فكرتي فيما خُلِقتُ له ... ما اشتدّ حرصي على الدنيا ولا طلبي

وله أيضًا :

تعالى اللهُ يا سلمُ بنُ عمرو ... أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ

هَبِ الدنيا تقادُ إليكَ عفوًا ... أليس مصيرُ ذلك للزوالِ؟

وقد ضمنتُ البيت الأخير فقلتُ (٣) :

أيا مَنْ عاشَ في الدنيا طَويلاً ... وأفنى العمرَ في قِيلٍ وقالَ

وأتعَبَ نفسَه فيما سَيَفْنى ... وجمّع من حرَام أو حَلالَ

هَبِ الدنيا تقادُ إليك عفوًا ... أليسَ مصيرُ ذلك للزوالِ؟

---

(١) قُسُّ بن ساعدة بن عمرو بن مالك ، من بنى إياد . أحد حكماء العرب ، ومن كبار خطبائهم فى الجاهلية ، كان أسقف نجران. توفى (نحو ٢٣ ق هـ ـ نحو ٦٠٠ م) .

(٢) شط : بَعُدَ .

(٣) القائل مؤلف الكتاب .

ومما جاء في الطمع وذمه

قال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ : أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع ، وقال ـ رضي الله عنه ـ : ما الخمر صرفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع .

وفي الحديث: « إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر »[١] . وقال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رق، وعبد شهوة، وعبد طمع. وقال بعضهم: من أراد أن يعيش حرًا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقيل : اجتمع كعب وعبد الله بن سلام[٢] فقال له كعب : يا ابن سلام مَنْ أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به ، قال : فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه ؟ ، قال : الطمع وشره النفس ، وطلب الحوائج إلى الناس .

واجتمع الفضل ، وسفيان ، وابن كريمة اليربوعي ، فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أفضل الأعمال الحلم عند الغضب ، والصبر عند الطمع ،وقيل :لما خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ عجن بطينته ثلاثة أشياء : الحرص ، والطمع ، والحسد ؛ فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة، فالعاقل يخفيها ، والجاهل يبديها ، ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه .

قال إسماعيل بن قطري القراطيسي :

حَسْبِـــي بعلمــــي إنْ نفــعْ ... ما الذُّلُّ إلاَّ في الطمعْ
مــن راقــبَ اللــهَ نَــزَعْ[٣] ... عــن ســوءِ ما كان صَنَعْ
مــا طــارَ طَيْرٌ وارتَفَــعْ ... إلا كمــا طَــارَ وَقَــعْ

وقال سابق البربري[٤] :

يخادعُ ريبَ الدهر عن نفْسِهِ الفتى ... سَفَاهًا وريبُ الدَّهر عنها يخادعه
ويطمعُ في سوف ويَهْلكُ دُونَها ... وكم مِـنْ حريصٍ اهْلَكَتْهُ مَطَامِعُهْ

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) كعب: سبق أن ترجم له . عبد الله بن سلام الإسرائيلي يهودي. صحابي . أسلم عند قدوم النبي عليه السلام إلى المدينة . كان اسمه (الحصين) فسماه الرسول (عبد الله) وفيه نزل قوله تعالى :﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

(٣) نزع : ابتعد .

(٤) سابق البربر .هو سابق بن عبد الله البربرى ، أبو سعيد . شاعر . من الزهاد . له كلام فى الحكمة والرقائق والبربرى لقب له ، ولم يكن من البربر . سكن الرقة . كان ينشد عمر بن عبد العزيز من مواعظه . توفى نحو سنة (١٠٠ هـ ـ ٧١٨ م) .

وقيل لأشعب (١) ما بلغ من طمعك ؟ قال : أرى دخان جاري فأفت خبزي ، وقال أيضًا: ما رأيت رجلين يتساران في جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله ، وما زفت عروس إلا كنست بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إليّ.

قال بعضهم :

لا تَغْضَبَنَّ على امرئٍ ... لَكَ مانعٌ ما في يَدَيْه

واغْضبْ على الطَّمعِ الذي استـ ... ـدعاكَ تطلبُ مـا لَدَيْه

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) أشعب : أشعب بن جبير المشهور بالطامع . ويقال له : ابن أم حُميدة . ويكنى : أبا العلاء ، وأبا القاسم . ظريف . من أهل المدينة. ويضرب المثل بطعمه . وأخباره كثيرة متفرقة فى كتب الأدب . توفى بالمدينة سنة (١٥٤ هـ ـ ٧٧١ م) .

الباب الحادى عشر

فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب

قال الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . واختلف أهل التأويل مع ما أمده اللّه تعالى من التوفيق على **ثلاثة أوجه**: **أحدها**: أنه أمره بها في الحرب ليستقر له بالرأى الصحيح، فيعمل عليه، وهذا قول الحسن . **ثانيها**: أنه أمره بالمشاورة لِمَا علم فيها من الفضل ، وهذا قول الضحاك . ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون، وإن كان فى غُنْية عن مشورتهم، وهذا قول سفيان، وقال ابن عُيينة : كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين والخالق مدبر أمره؟، ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس، وإن كان عالمًا ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار، ولا افتقر من اقتصد» [(١)] وقال عليه الصلاة والسلام :« من أُعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل » [(٢)]. وكان يقال : ما استنبط الصواب بمثل المشاورة . وقال حكيم : المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأى .

وقال الحسن : الناس ثلاثة : فرجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل. فأما الرجل الرجل :فذو الرأى والمشورة. . وأما الرجل الذى هو نصف رجل : فالذى له رأى ولا يشاور . . وأما الرجل الذى ليس برجل: فالذى ليس له رأى ولا يشاور .

وقال المنصور لولده: خذ عنى اثنتين: لا تقل فى غير تفكير ، ولا تعمل بغير تدبير وقال الفضل: المشورة فيها بركة وإنى لأستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية. وقال أعرابى : لا مال أوفر من العقل ، ولا فقر أعظم من الجهل ، ولا ظهر أقوى من المشورة ، وقيل: من بدأ بالاستخارة، وثنى بالاستشارة ، فحقيق أن لا يخيب رأيه . وقيل : الرأى السديد أحمى من البطل الشديد :

قال أبو القاسم النهروندى:

وَمَا أَلْفُ مَطْرُورِ السِنانِ مُسَدَّدٍ ... يُعارضُ يومَ الروعِ رأياً مُسدّدًا [(٣)]

---

(١) ضعيف جداً : رواه الطبرانى فى « الأوسط » (٦٦٢٧) وفى « الصغير » (٢/ ٧٨) وفى مسنده عبد السلام ابن عبد القدوس . . . وكلاهما ضعيف جداً كما فى مجمع الزوائد (٨/ ٩٦) .

(٢) لم اقف عليه .

(٣) مطرور ـ: الطَّرُّ : الشَّقُّ والقطع .

وقال على رضى اللّه عنه ـ : خاطر من استغنى برأيه ،وسمع محمد بن داود وزيرالمأمون قول القائل :

إذا كُنْتَ ذا رأى فكُنْ ذَا عزِيمةٍ فإنَّ فسَادَ الرأيِ أنْ يتَرَدَّدَا

فأضاف إليه قوله:

إذا كُنْتَ ذا عزْمٍ فأنفِذْه عاجِلاً فإنَّ فسَادَ العزْمِ أنْ يتقيَّدَا

ولمحمدبن إدريس الطائى:

ذهَبَ الصوابُ برَأيِه فكأنَّما آراؤُه اشْتُقَّتْ من التَّأْيِيدِ
فإذا دَجا خَطْبٌ تَبَلَّجَ رأيُهُ صُبْحًا مِنَ التوفيقِ والتسديدِ

ولمحمد الوراق (١) :

إنَّ اللبيبَ إذا تفرَّقَ أمرُهُ فَتَقَ الأمور مُناظرًا ومُشاورًا
وأخُو الجهالةِ يستبدُّ برأيِه فتَراه يعْتسفُ الأمورَ مُخاطِرًا(٢)

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون فى العهد:

لقدْ بانَ وجْهُ الرأيِ لى غيْرَ أنَّنى عدَلْتُ عن الأمرِ الذى كان أحْزَمَا(٣)
فكيْف يُردُّ الدَّرُّ فى الضرعِ بعْدَما توزَّعَ حتى صارَ نهباً مُقسَّمَا(٤)
أخافُ التواءَ الأمرِ بعد استوائِه وأنْ ينقض الحبلُ الذى كان أُبرِمَا(٥)

وقال آخر:

---

(١) محمد بن هبة اللّه بن محمد الوراق ،أبو الحسن. أديب. نحوى .عروضى. من أهل بغداد .كان ضريراً . يعلم أولاد الخليفة القائم بأمر اللّه . آثاره : شرح فى العروض .توفى ٤٧٠هـ .

(٢) يعتسف الأمور : الميل على غير الطريق ـ سار فيه على غير هدى .

(٣) أحزما . الحزم :أخذ الرجل أمره بالثقة .

(٤) الدُّرُّ:اللبن . الضرع : الثدى من البقرة ونحوه .

(٥) أبرم . فتل الحبل ينقض : يفك ما فتله. وقول اللّه تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل :٩٢]

. خليلىَّ ليس الرأىُ فى جنبِ واحدِ أشيرَا علىَّ اليومَ ما تريَانِ

ووصف رجل عضد الدولة فقال له: وجه فيه ألف عين ، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب . وقال أردشير بن بابك : أربعة تحتاج إلى أربعة . الحسب إلى الأدب. والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة.

وقال: لا تستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدُّرَّةَ لا يستهان بها لهوان غائصها، وقال جعفر بن محمد: لا تكونن أول مشير ، وإياك الرأى الخطير ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تشيرن على مستبد برأيه ، ولا على متلون ، ولا على لحوح . وقيل : ينبغى أن يكون المستشار صحح العلم ، مهذب الرأى، فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب، وكم ناقد فى شىء ضعيف فى غيره .

قال أبو الأسود الدؤلى(١)

ومَا كُلُّ نُصْحٍ بمُؤتيكَ نُصْحَهُ ومَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَه بِلَبِيبِ
ولكِنْ إذا ما استُجْمِعَا عِنْدَ واحدِ فحُقَّ لهُ مِنَ طاعَةٍ بنصيبِ

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى: منها : لئلا يقع بين المستشارين منافسة ، فتذهب إصابة الرأى ، لأن من طباع المشتركين فى الأمر التنافس، والطعن(٢) من بعضهم فى بعض ، وربما سبق أحدهم بالرأى الصواب فحسدوه وعارضوه، وفى اجتماعهم أيضاً للمشورة تعريض السر للإذاعة فإذا كان ذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للإبهام، فإن عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد ، وإن عفا عنهم ألحق الجانى بمن لا ذنب له .

وقيل: إذا أشار عليك صاحبك برأى ولم تحمد عاقبته فلا تجعلن ذلك عليه لومًا وعتاباً بأن تقول : أنت فعلت، وأنت أمرتنى، ولولا أنت ، فهذا كله ضجر ولوم وخفة .

وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك، فجرد له النصيحة لأنه بالاستشارة قد خرج عن عداوتك

---

(١) ظالم بن سفيان الدؤلى من كناية . تابعى . فقيه. محدث. شاعر . أمير . شريف. نحوى . واضع علم النحو . توفى سنة٦٩ هـ .

(٢) الطعن : سلبه انتقصه ـ وعابه وسفه رأيه .

إلا موالاتك، وقيل: من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن بذر فى السباخ[١].

قال الشاعر يمدح من له رأى وبصيرة :

بَصِيرٌ بأعقابِ الأمور كأنَّما يُخاطبُهُ مِنْ كُلِّ أمرٍ عواقبُهُ

وقال ابن المعتز [٢]: المشورة راحة لك، وتعب على غيرك .وقال الأحنف[٢] : لا تشاور الجائع حتى يشبع ،ولا العطشان ،حتى يروى ،ولا الأسير حتى يطلق ،ولا المقِلّ حتى يجد.

ولما أراد نوح بن مريم قاض مروان أن يزوج ابنته استشار جاراً له مجوسياً ، فقال : سبحان الله ! الناس يستفتونك وأنت تستفتي . قال: لا بد أن تشير عليَّ .قال :إن رئيس الفرس كسري كان يختار المال ،ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ،ورئيس العرب كان يختار الحسب ، ورئيسكم محمد كان يختار الدين ، فانظر لنفسك بمن تقتدى .

وكان يقال : من أعطى أربعاً لم يمنع اربعاً .من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ،ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ،ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب .

وقيل : إذا استخار الرجل ربه واستشار صحبه وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه ،ويقضى الله تعالى فى أمره ما يحب. وقال بعضهم : خمير الرأى[٣] خير من فطيره ،وتقديمه خير من تأخيره.

وقالت الحكماء : لا تشاور معلمًا ، ولا راعى غنم ،ولا كثير القعود من النساء ،ولا صاحب حاجة يريد قضاءها، ولا خائفاً ،ولا حاقناً[٤] ،وقيل: سبعة لا ينبغى لصاحب أن يشاورهم : جاهل، وعدو ،وحسود ، ومراءٍ ، وجبان ، وبخيل ، وذو هوى ، فإن الجاهل يضل والعدو يريد الهلاك،والحسود يتمنى زوال النعمة ،والمرائى واقف مع رضا الناس،والجبان من رأيه الهرب ، والبخيل حريص على جمع المال فلا رأى له فى غيره ،وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته .

وحكى: أن رجلاً من أهل يثرب يُعرف بالأسلمى. قال: ركبنى دَيْن أثقل كاهلى ، وطالبنى

---

(١) السباخ : أرض ذات ملح ونَز لا تصلح للزراعة .

(٢) الشاعران: وقد ترجم لهما .

(٣) خمير الرأى : ناضجه وثابته .فطير الرأى : المعجل به .

(٤) الحاقن : الذى به بول شديد . يقال : لا رأى لحاقن .

به مستحقوه ، واشتدت حاجتى إلى ما لا بد منه ، وضاقت علىّ الأرض ، ولم أهتد إلى ما أصنع ، فشاورت من أثق به من ذوى المودة والرأى ، فأشار علىّ بقصد المهلب بن أبى صفرة(١) بالعراق ، فقلت له ، تمنع المشقة، وبعد الشقة ،وتيه المهلب(٢) ، ثم إنى عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره، فلا والله ما زادنى على ما ذكره الصديق الأول، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها ،فركبت ناقتى وصحبت رفقة فى الطريق ، وقصدت العراق،فلما وصلت دخلت على المهلب ،فسلمت عليه وقلت له: أصلح الله الأمير إنى قطعت إليك الدهناء (٣)، وضربت أكباد الإبل من يثرب ،فإنه أشار علىَّ بعض ذوى الحجى والرأى بقصدك لقضاء حاجتى،فقال : هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة ؟، فقلت : لا . ولكنى رأيتك أهلاً لقضاء حاجتى ، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت ،وإن يحل دونها حائل لم أذم يومك ،ولم أيأس من غدك ، فقال المهلب لحاجبه :اذهب به وادفع إليه ما فى خزانة مالنا الساعة ،فأخذنى معه ، فوجدت فى خزانته ثمانين ألف درهم، فدفعها إلىَّ ، فلما رأيت ذلك لم أملك نفسى فرحاً وسروراً ،ثم عاد الحاجب به إليه مسرعاً، فقال : هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك ؟ فقلت : نعم أيها الأمير وزيادة ، فقال :الحمد لله على نُجْحِ سعيك، واجتنائك جنى (٤) مشورتك ،وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا ،قال الأسلمى (٥): فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه :

يَا مَنْ على الجودِ صَاغَ اللهُ راحتَه ... فليسَ يُحْسِنُ غيرَ البذلِ والجودِ
عمّتْ عطَايَاكَ أهْلَ الأرضِ قاطِبةً ... فأنتَ والجودُ منحوتَانِ منْ عُودِ
مَنِ استشاركَ فبابُ النُجحِ (٦) مُنفتحٌ ... لديْه فِيمَا ابْتَغَاهُ غيرُ مردُودِ

ثم عدت إلى المدينة فقضيت دينى ،ووسعت على أهلى ،وجاريت المشير ،وعاهدت الله تعالى أن لا أترك الاستشارة فى جميع أمورى ما عشت.

---

(١) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدى العتكى، أبو سعيد . أمير . بطاش . جواد . توفى سنة ٨٣هـ.
(٢) التيه : الكبر.
(٣) الدهناء : الفلاة ـ الأرض الواسعة المقفرة . المهلكة .
(٤) اجتناؤك الجنى :التقاطك الثمر .
(٥) هو نضلة بن عبيد بن الحارث الأسلمى . صحابى . من سكان المدينة،والبصرة .شهد قتال الأزارقة مع المهلب بن أبى صفرة . توفى بخراسان سنة ٦٥ هـ .
(٦) النجح :الفوز والإصابة .

وحكى عن الخليفة المنصور : أنه كان صدر من عمه عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك ،فحبسه عنده ، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن على ،وكان واليًا على الكوفة ، ما أفسد عقيدته فيه، وأوحشه منه ، وصرف وجه ميله إليه عنه ، فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه ، وتأرق جفنه، واسنحضر ابن عمه عيسي بن موسى وأجراه على عادة إكرامه ثم أخرج من كان بحضرته ، وأقبل على عيسى وقال له: يا ابن العم إنى مُطعكَ على أمر لا أجد غيرك من أهله ،لا أرى سواك مساعداً لى على حمل ثقله،فهل أنت فى موضع ظنى بك ، عامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى ؟ فقال له عيسى بن موسى : أنا عبد أمير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه، فقال:إن عمى وعمك عبد الله قد فسدت بطانته،واعتمد على ما بعضه يبيح دمه ، وفى قتله صلاح ملكنا ، فخذه إليك واقتله سراً ،ثم سلمه إليه ، وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص ، وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً،فيكون قد استراح من الأثنين عبد الله،وعيسى .

قال عيسى: فلما أخذت عمى وفكرت فى قتله رأيت من الرأى أن أشاور فى قضيته من له رأى عسى أن أصيب الصواب فى ذلك ، فأحضرت عمى يونس بن قرة الكاتب[1] ،وكان لى حسن ظن فى رأيه، وعقيدة صالحة فى معرفته ، فقلت له : إن أمير المؤمنين دفع إلى عمه عبد الله، وأمرنى بقتله وإخفاءَ أمره ، فما رأيك فى ذلك ؟، وما تشير به ؟ فقال لى يونس : أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك، وعم أمير المؤمنين، فإنى أرى لك أن تدخله فى مكان داخل دارك ، وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك ،وتتول بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه ،وتجعل دوه مغالق وأبواباً ، واظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته ،وأنفذت أمره فيه ، وانتهيت إلى العمل بطاعته ، فكأنى به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به ، وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رءوس الأشهاد، فإن اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك ،وآخذك بقتله، وقتلك .

قال عيسى بن موسى : فقبلت مشورة يونس وعملت بها ،وأظهرت لأمير المؤمنين أنى أنفذت أمره ،ثم حج المنصور ،فلما قدم من حجه،وقد استقر فى نفسه أننى قد قتلت عمه عبد الله دسّ إلىّ عمومته إخوة عبد الله،وحثهم على أن يسألوه فى أخيهم،ويستوهبوه منه، فجاءوا إليه، وقد جلس، والناس بين يديه على مراتبهم فسألوه فى عبد الله. فقال:نعم إن حقوقكم تقتضى أسعافكم بحاجتكم ،كيف؟ وفيها صلة رحم ،وإحسان إلى من هو فى مقام الوالد ، ثم

(١) ثابت بن قرة بن هارون بن ثابت بن مالا جريوس . الحاسب الحكيم الحرانى . كان صيرفيا ثم اشتغل بعلوم الأوائل . فبرع فيها . وبرع فى الطب،والفلسفة . توفى سنة ٢٨٨ هـ .

أمر بإحضار عيسى بن موسى ،فأحضر لوقته ، فقال : يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجى إلى الحج عمى عبد الله ليكون عندك فى منزلك إلى حين رجوعى ، فقال عيسى : قد فعلت يا أمير المؤمنين . فقال المنصور :وقد سألنى فيه عمومتك ،وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم،وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه ، فائتنا به الساعة .

قال عيسى : فقلت : يا أمير المؤمنين ألم تأمرنى بقتله والمبادرة إلى ذلك؟ قال : كذبت لم آمرك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك ، ثم أظهر الغيظ ،وقال لعمومته : قد أقر بقتل أخيكم مدعياً أننى أمرته بقتله ،وقد كذب علىَّ .قالوا : يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه ، فقال : شأنكم به .

قال عيسى : فأخذونى إلى الرحبة ،واجتمع الناس علىّ، فقام واحد من عمومتى إلى وسل سيفه ليضربنى به ،فقلت له : يا عم أفاعل أنت ؟ قال: أى والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخى ؟ فقال لهم : لا تعجلوا وردونى إلى أمير المؤمنين، فردونى إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلى بقتله والذى دبرته علىَّ عصمنى الله تعالى من فعله،وهذا عمك باق حَىٌّ سوىٌّ،فإن أمرتنى بدفعه إليهم دفعته الساعة ،فأطرق المنصور ،وعلم أن ريح فكره صادفت إعصارًا،وأن انفراده بتدبيره قارف خسارًا، ثم رفع رأسه،وقال : ائتنا به ،فمضى عيسى ،وأحضرعبد الله ، فلما رآه المنصور قال لعمومته : اتركوه عندى وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً . قال عيسى:فتركته وانصرفت وانصرف إخوته ،فسلمت روحى ،وزالت كربتى ،وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس، وقبول مشورته والعمل بها .

ثم إن المنصور أسكن عبد الله فى بيت أساسه قد بنى على الملح ،ثم أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح وسقط البيت،فمات عبد الله ،ودفن بمقابر باب الشام ، وسلم عيسى من هذه المكيدة من سهام مراميها البعيد .

ومما جاء فى النصيحة :اعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين ، قال الله تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾ هود] .وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾[الأعراف]. وقال صالح عليه السلام ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾ الأعراف].

روى عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ: « إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة إن الدين

النصيحة ». قالوا :لمن يا رسول الله ؟ قال: « لله ،ولكتابه ،ولرسوله،ولأئمة المسلمين، وعامتهم » (١) .

فالنصح الله هو : وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل،والقيام بتعظيمه ،والخضوع له ظاهرًا وباطنًا ،والرغبة فى محابه والبعد عن مساخطه، وموالاة من أطاعه،ومعاداة من عصاه، والجهاد فى رد العصاة إلى طاعته قولاً وفعلاً . والنصيحة لكتابه : إقامته فى التلاوة ، وتحسينه عند القراءة .وتفهم ما فيه ،والذبّ (٢) عنه من تأويل المحدثين وطعن الطاعنين ،وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين . قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]. والنصيحة للرسول ﷺ :إحياء سنته بالطلب لها وإحياء طريقته فى بث الدعوة، وتألف الكلمة ،والتخلق بالأخلاق الظاهرة .والنصيحة للأئمة : معاونتهم على ما كلفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة ،وإرشادهم عند الهفوة ، وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء ،وإعلامهم بأخلاق عمالهم ، وسيرتهم فى الرعية، وسَدّ خلتهم عن الحاجة،ورد القلوب النافرة إليهم . والنصيحة لعامة المسلمين : الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم ، والرحمة لصغيرهم ، وتفريج كربهم ،وتوقى ما يشغل خواطرهم، يفتح باب الوسواس عليهم.

واعلم أن جرعة النصيحة مُرَّةٌ لا يقبلها إلا أولو العزم .وقال ميمون بن مهران(٣) : قال لى عمر بن عبد العزيز (٤) - رضي الله عنه -: قل لى فى وجهى ما أكره،فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره ،وفى منثور الحكم ودَّكَ مَنْ نصحك، وقَلاكَ (٥) من مشى فى هواك وقال أبو الدرداء (٦)_ رضي الله عنه -: إن شئتم لأنصحن لكم ،إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله تعالى إلى عباده وعملو فى الأرض نصحًا .

ولورقة بن نوفل(٧):

---

(١) رواه مسلم فى « الإيمان (١٩٣) باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، وهوعن تميم الدارى وليس أبو هريرة كما قال المصنف .

(٢) الذَّبُّ :الدفع.

(٣) ميمون بن مهران الرقى،أبو أيوب . فقيه من القضاة . توفى سنة ١١٧هـ.

(٤) عمر بن عبد العزيز:خامس الراشدين .جده عمر بن الخطاب لأمه : أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك . توفى سنة ١٠١ هـ .

(٥) قلاك: أبغضك وكرهك وهجرك . وفى القرآن الكريم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣].

(٦) عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى الخزرجى . صحابى حكيم . فارس . قاض. اشتهر بالشجاعة والنسك ولى قضاء دمشق .توفى سنة ٣٢ هـ.

(٧) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى حكيم.جاهلى .اعتزل عبادة الأوثان .تنصر . له اطلاع على الكتب الدينية. لم يدرك الإسلام .ابن عم خديجة زوج النبى . توفى نحو ١٢ ق.هـ.

لقدْ نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لَهم إنّى النذيرُ فلا يغرركُمُ أحدُ
لا شئَ مّما ترى تبقى بشاشته إلاّ الإلَهُ ويُرْدَى(١) المالُ والولدُ
لمْ تُغنِ عنْ هُرْمُزٍ يومًا ذخائرهُ والخُلْدَ قدْ حاولَتْ عادٌ فما خلَدُوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد: إنى قد أعددتك لأمر ،قال :يا أمير المؤمنين . إن الله تعالى قد أعد لك منى قلبًا معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطة لطاعتك،سيفاً مجرداً على عدوك .

وأنشد الأصمعى(٢) :

النُّصحُ أرخصُ ما باعَ الرجالُ فلا تردُدْ على ناصح نُصحا ولا تلُمُ
إن النصَائحَ لا تخفى مناهلُها على الرجالِ ذوى الألبابِ والفهمِ

ولمعاذ بن مسلم(٣) :

نصحتُك والنَّصيحةُ إنْ تعَدّتْ هوَى المنصُوحِ عزّ لهَا القبولُ
فخالفْتَ الذى لكَ فيه حظٌ فنالكَ دُون ما أمّلْت غُولُ

وقيل :أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب(٤) أن لا يضع يده فى يد الحجاج فلم يقبل منه،وسار إليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتُكَ أمراً حازِمًا فعصَيْتنى فأصبحْتَ مسلُوبَ الإمَارةِ نادِمَا
أمرتُك بالحجاجِ إذْ أنتَ قادرٌ فنفسُكَ أولى اللومِ إنْ كُنْتَ لائِمَا
فما أنَا بالباكى عليكَ صبابة وما أنا بالدّاعِى لتُرجعَ سَالما

ويقال: من اصفرّ وجهه من النصيحة، اسودّ لونه من الفضيحة.

---

(١) يردى : يهلك .

(٢) عبد الملك بن قريب من قيس .اشتهر بكنيته (الأصمعى) .من أهل البصرة .قدم بغداد أيام الرشيد . شديد الحفظ. آثاره :« الأصمعيات». رجز العجاج.كتاب أسماء الوحوش،«كتاب الإبل» .توفى سنة ٢١٤ .

(٣) أبو مسلم معاذ بن مسلم الهرّا النحوى الكوفى . .من موالى محمد بن كعب القرظى . روى الحديث. وله فى القراءات صنف فى النحو.شاعر . توفى سنة ١٨٧هـ.

(٤) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى . أمير . ولى خراسان بعد وفاة أبيه.عزله عبد الملك بن مروان. .توفى سنة ١٠٢هـ

وقال طرفه (١):

ولا ترفِدَنَّ النصحَ منْ لَيْسَ أهلَهُ وكُنْ حينَ تَستَغنِى برأيكَ غانيا
وإنِ امرأ يومًا تَوَلّى برأْيِه فدعْه يُصيبُ الرشدَ أو يكُ غَاوِيا

وفى مثله قال بعضهم :

منَ الناسِ منْ إن يستشرْك فتجتَهدْ لهُ الرأىَ يستغشِشْكَ ما لمْ تُتابعهْ
فلا تمنَحنَّ الرأىَ منْ ليْس أهلَهُ فلا أنتَ محمودٌ ولا الرأىُ نافِعُهْ

والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١)طرفة . ترجم له .

الباب الثانى عشر
فى الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك

قال الله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل :١٢٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل]. وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٢]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١]. ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [آل عمران: ١١٤] .والآيات فى ذلك كثيرةمشهورة وفوائدها جمة منشورة .

وروينا فى صحيح مسلم عن أبى مسلم عن أبى سعيد الخدرى ـ ﷺ ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ،فإن لم يستطع فبلسانه،فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » (١) .

وقال شيخنا محيى الدين النووى (٢)ـ رحمة الله تعالى عليه ـ فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] .إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها ، بل الصواب فى معناها: أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة مَنْ ضَلَّ.

ومن جملة ما أمروا به :الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والآية مرتبة فى المعنى على قوله تعالى: ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾[المائدة :٩٩] .

وقال محمد بن تمام : الوعظة جند من جنود الله تعالى ،ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر .

ومن كلام على ـ رضى الله تعالى عنه ـ: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت فى

(١) أخرجه أبو داود فى الملاحم (٤٣٤٠).

(٢) النووى : يحيى بن شرف بن مرى بن حسن الحزامى ،الحورانى ، النووى ، الشافعى . محيى الدين . فقيه. محدث . ولد فى نوى من مؤلفاته: تهذيب الأسماء واللغات.تصحيح التنبيه فى فقه الشافعية . ، رياض الصالحين ، شرح صحيح مسلم . توفى سنة ٦٧٦هـ .

إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالأدب ،والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب .

وأنشد الجاحظ:

وليْسَ يزْجُرُكُمْ ما تُوعَظُونَ بهِ والبُهْمُ يزْجُرُهَا الراعِى فتنْزَجِرُ[١]

وكتب رجل إلى صديق له : أما بعد ،فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك ،واستح من الله بقدر قربه منك،وخِفْهُ بقدر قدرته عليك؛ والسلام .

وقيل:من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ وقال لقمان: الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر [٢] على الشيخ الكبير . قيل :أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إنك إن أتيتنى بعبد آبق[٣] كتبتك عندى حميدا،ومن كتبته عندى حميداً لم أعذبه بعدها أبدًا، وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عظنى وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين : هل أحد أحب إليك من نفسك؟،قال: لا قال: إن أردت أن لا تسىء إلى من تحب فافعل ، وقال النبى ﷺ فى بعض خطبه: أيها الناس الأيام تطوى ،والأعمار تفنى ،والأبدان فى الثرى تبلى،وأن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ، ويقربان كل بعيد ،ويخلقان كل جديد. فى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات».

ولما لقى ميمون بن مهران الحسن البصرى [٤] قال له: لقد كنت أحبُّ أنْ ألقاك فعظنى ،فقرأ الحسن البصرى :﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّه ﴾[الجاثية:٢٣] ، ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) ﴾[الشعراء].

فقال : عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتنى أحسن موعظة .

ولما ضرب ابن ملجم ـ لعنه الله ـ علياً رضي الله عنه ،دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق فدعا الحسن والحسين ـ رضى الله تعالى عنهما ـ وقال : أوصيكما بتقوي الله تعالى ،والرغبة فى الآخرة، والزهد فى الدنيا ،ولا تأسفا على شىء فاتكُمَا منها، فإنكما عنها راحلان . افعلا الخير وكونا للظالم خصماً،وللمظلوم عونًا ،ثم دعا محمداً ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك؟، قال:بلى.قال :فإنى أوصيك به ،وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ،ومعرفة فضلهما،ولا تقطع أمرا دونهما ، ثم أقبل عليهما ،وقال:أوصيكما به خيراً ،فإنه أخوكما ،وابن أبيكما .

---

(١) الزجر : المنع والنهى .

(٢) وعْرٌ : جبل وعر صلْبُ .

(٣) آبق : هارب .

(٤) سبق أن ترجم لهما .

تعلمانِ أن أباه كان يحبه ،فأحباه ؛ ثم قال: يا بنِىَّ أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة،وكلمة الحق فى الرضا والغضب،والقصد فى الغنى والفقر،والعدل فى الصديق والعدو، والعمل فى النشاط والكسل،والرضا عن الله فى الشدّة والرخاء،يا بنىّ ما شَرٌّ بعده الجنة بشرٌّ ، ولا خير بعده النار بخير،وكل نعيم دون الجنة حقير ،وكل بلاء دون النار عافية، يا بنى من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومَنْ رضى بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته ، ومَنْ سَلَّ سيف البغى قتل به ومنْ حفر لأخيه بئرا وقع فيها .ومَنْ هتك حجاب هتكت عورات بنيه،ومَنْ نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ،ومَنْ أعجب أخيه برأيه ضلَّ ،ومنْ استغنى بعقله زلّ، ومن تكبّر على الناس ذلَّ ،ومن خالط الأنذال احتقر ،ومن دخل مداخل السوء اتهم ،ومنْ جالس العلماء وقر ،ومن مزح استخف به ،ومن أكثر من شىء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ،ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه،ومن قلّ ورعه مات قلبه ،ومن مات قلبه دخل النار يا بنى الأدب ميزان الرجل ،وحسن الخلق خير قرين، يا بنىَّ العافية عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر الله تعالى،وواحدة فى ترك مجالسَة السفهاء، يا بنىّ زينة الفقر الصبر ،وزينة الغنى الشكر. يابنىّ لا شرف أعلى من الإسلام،ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة ،ولا لباس أجمل من العافية. يا بنىّ الحرص مفتاح التعب ومطية النصب (١).

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة،نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا ، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع،وتركتم عليه ما حمل،ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له.

وقال الأوزاعى(٢) للمنصور فى بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين ، فأتاه جبريل - عليه السلام - .فقال : يا محمد ما هذه الجريدة التى بيدك ؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً ، فكيف بمن سفك دماء المسلمين ، وانتهب أموالهم ؟ يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه

---

(١) الحرص : الجشع والشىء واشتدت رغبته فيه .النصب :التعب والإعياء .

(٢) الأوزاعى :عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى .الدمشقى،أبو عمرو.من قبيلة الأوزاع.إمام الديار الشامية فى الفقه والزهد .وأحد الكتاب المترسلين .ولد فى بعلبك .ونشأ فى البقاع .مؤلفاته : كتاب السنن فى الفقه ،والمسائل فى الفقه .توفى ١٥٧هـ .

بخدشة خدشها أعرابياً من غير تعمد. يا أمير المؤمنين: لو أن ذنوباً (١) من النار صُبَّ، ووضع على الأرض لأحرقها ،فكيف بمن يتجرعه ؟ ، ولو أن ثوبا من النار وضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتقمصه ؟ ،ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بِمنْ يتسلسل بها،ويرد فضلها على عاتقه ؟ .

وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ، وكان والى المدينة :احذر أن يأتى رجل غداً ليس فى الإسلام نسب ،ولا أب ولا جد ،فيكون أولى برسول الله ﷺ منك،كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى ،وكما كانت امرأة نوح ، وامرأة لوط أولى بفرعون ،ومنْ أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومنْ أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه .

وروى زياد عن مالك بن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال:لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس ،وابن طاوس (٢) قال:دخلنا عليه وهو جلس على فرش ،وبين يديه أنطاع قد بسطت،وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا ،فأطرق زماناً طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثنى عن أبيك. قال: سمعت أبى يقول: قال رسول الله ﷺ :« أن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى فى ملكه، فأدخل عليه الجور فى حكمه » .

فأمسك أبو جعفر ساعةحتى أسود ما بيننا وبينه قال: مالك ؟ فضممت ثيابى مخافة أن ينالها شيء من دم بن طاوس ،ثم قال : يا ابن طاوس ناولنى هذه الدواة.فأمسك عنه ، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها ، قال: أخاف أن تكتب بها معصية ، فأكون شريكك فيها . فلما سمع ذلك قال:قوما عنى .فقال ابن طاوس: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ [الكهف: ٦٤]. قال: مالك فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم .

وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،قال لكعب الأحبار : يا كعب خوفنا . قال: أوليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ؟ قال:بلى يا كعب ،ولكن خوفنا. فقال:يا أمير المؤمنين اعمل، فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً ، لازدريت (٣) عملهم مما ترى ، فنكس عمر رضي الله عنه

(١) الذنوب :الدلو العظيم.

(٢) مالك بن أنس بن مالك الحميرى . أبو عبد الله [٩٣ ـ ١٧٩هـ] إمام دار الهجرة .وأحد الأئمة الأربعة .
طاوس بن كيسان الخولانى الهمدانى ، بالولاء أبو عبد الرحمن [٣٣ ـ ١٠٦] من أكابر التابعين تفقها فى الدين ورواية الحديث .وتقشفا فى العيش .وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك.

(٣) ازدريت : حقَّرَ .

رأسه ،وأطرق ملياً ،ثم رفع رأسه ،وقال :يا كعب خوفنا . فقال :يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه، حتى يسيل من حرها ، فنكس عمر ثم أفاق ، فقال : يا كعب زدنا ،فقال: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة ، فلا يبقى ملك مقرب،ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسى .

وقال سيدى الشيخ أبو بكر الطرطوشى(١) رحمة الله تعالى عليه : دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش وهو أمير على مصر ، فقلت : السلام عليكم ورحمة الله ،وبركاته ،فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً ،وأكرمنى إكراماً جزيلاً ، وأمرنى بدخول مجلسه ،وأمرنى بالجلوس فيه . فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلاً علياً شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخا ،وملكك طائفة من ملكه، وأشركك فى حكمه ،ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ،فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك،وليس الشكر باللسان ،وإنما هو بالفعال والإحسان .قال الله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾[سبا:١٣]، واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك ،وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك،فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير(٢) .قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[الحجر] ، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الانبياء] ،واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذفيرها سليمان بن داود عليه السلام فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم ،وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾[ص]، فو الله ما عدها نعمة كما عددتموها.ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ،بل خاف أن تكون استدراجاً (٣) من الله تعالى،ومكراً به. فقال: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. فافتح الباب، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وأغث الملهوف ، وأعانك الله على نصـر المظلوم وجعلك

---

(١) محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى المالكى . المعروف بالطرطوشى ،ويعرف بابن أبى رندة، أبو بكر . فقيه أصولى . محدث مفسر [٤٥١ ـ ٥٢٠هـ] نشأ فى طرطوشة بالأندلس .نزل بيت المقدس . توفى بالإسكندرية .

(٢) الفتيل : الخيط الذى فى شقّ النواة. . النقير: نُقرةُ صغيرة فى ظهر النواة. القطمير : القشرة الرقيقة على ظهرالنواة كاللفافة لها .

(٣) استدراجاً: خداعا . أى يدنيه إلى الهلاك بالإنعام والإمهال،وقال القرآن الكريم : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[الأعراف] ،[القلم: ٤٤] .

كهفاً للملهوف وأماناً للخائف . ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت [1] البلاد شرقاً وغرباً ، فما اخترت مملكة وارتحت إليها ، ولذت [2] لى الإقامة فيها غير هذه المملكة ، ثم أنشدته :

والنّاسُ أكْيسُ [3] من أنْ يَحْمَدُوا رجلاً حتى يَرَوْا عندَهُ آثارَ إحسانِ

وقال الفضل بن الربيع [4] : حج هارون الرشيد سنة من السنين، فبنما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب ،فقلت : من هذا ؟ فقال ويحك قد حاك فى نفسى شىء لا يخرجه إلا عالم، فانظر لى رجلاً أسأله عنه ، فقلت: ههنا سفيان بن عيينة [5] ، فقال :امض بنا إليه ، فأتيناه، فقرعت عليه الباب ،فقال: من هذا ؟ فقلت :أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك ،فقال : جد لما جئنا له ،فحادثه ساعة ،ثم قال له:أعليك دين؟ قال: نعم. فقال : يا أبا العباس اقض دينه ،ثم انصرفنا . فقال: ما أغنى عنى صاحبك شيئاً ، فانظر لى رجلا أسأله ،فقلت ههنا الفضيل بن عياض [6] ، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلى فى غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها فقرعت عليه الباب ، فقال: من هذا ؟ فقلت : أجب أميرالمؤمنين ،فقال : مالى ولأمير المؤمنين ، فقلت : سبحان الله ! أما تجب عليك طاعته ؟ ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة ،فجعلنا نجول عليه بأيدينا ،فسبقت كف الرشيد كفى إليه، فقال: أواه من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله تعالى ؟ فقلت فى نفسى: ليُكلمنَّه الليلة بكلام نقى من قلب نقى ،فقال:جد لما جئنا له رحمك الله تعالى ، فقال: وفيم جئت ؟حملت على نفسك،وجميع من معك حملوا عليك ، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصاً [7] من ذنب ما فعلوا ، ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك . ثم قال:إن عمر بن عبد العزيز ﷺ لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة ،فقال لهم أنى قد ابتليت بهذا البلاء ، فأشيروا علىّ. فعدَّ الخلافة بلاء، وعددتُها أنت وأصحابك نعمة،فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فصم عن الدنيا ،وليكن

---

(1) جبت : قطعت الأرض سيراً . (2) لذّ : وجد الشىء لذيذا .

(3) أكيس: الفطانة فى استنباط ما هو أنفع .

(4) هو وزير الرشيد .وبسببه كانت نكبة البرامكة . توفى سنة ٢٠٨ هـ .

(5) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى . أبو محمد (١٠٧ ـ ١٩٨هـ) محدث الحرم المكى.

(6) الفضل بن الربيع بن يونس . أبو العباس . وزير . أديب . حازم توفى بطوس (٢٠٨هـ) أبوه: الربيع بن يونس بن محمد بن أبى فرْوة كيسان من موالى بنى العباس . أبو الفضل . وزير من العقلاء الموصوفين بالحزم توفى سنة ١٦٩هـ .

(7) شقص : القطعة من الشىء.

إفطارك فيها عن الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فليكنْ كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا. فبرّ أباك، وارحم أخاك، وتحنن على ولدك. وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مُتْ، وإنى لأقول هذا، وإنى لأخاف عليك أشد الخوف يوم تَزِلُّ الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ؟. فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا حتى غشى عليه، فقلت له: أرفق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك، وأرفق به أنا، ثم أفاق هارون الرشيد، فقال: زدنى. فقال: يا أمير المؤمنين بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز ﷺ شكا إليه سهرًا، فكتب له عمر يقول: يا أخى اذكر سهر أهل النار وخلود الأبدان، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائمًا ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك، ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له عمر: ما أقدمك ؟ فقال له: لقد خلعت قلبى بكتابك لا وليت ولاية أبدًا حتى ألقى الله عز وجل، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، ثم قال: زدنى. قال: يا أمير المؤمنين إن العباس عَمَّ النبى ﷺ جاء إليه، فقال: يا رسول الله أمرنى إمارة، فقال له النبى ﷺ: « يا عباس، نفسٌ تحها خير من إمارة لا تحييها. إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل »، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، ثم قال: زدنى يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه، أنت الذى يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقى هذا الوجهمن النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك، فإن النبى ﷺ قال: « منْ أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة »، فبكى هارون الرشيد بكاءًا شديدًا، ثم قال له: أعليك دينٌ ؟. قال: نعم دينٌ لربى يحاسبنى عليه، فالويل لى إن ناقشنى. والويل إن سألنى، والويل لى إن لم يلهمنى حجتى. قال هارون: إنما أعنى دينَ العباد. قال: إن ربى لم يأمرنى بهذا. وإنما أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات].

فقال له هارون: هذه ألف دينار فخذها وأنفقها على عيالك وتقَوَّ بها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشد تكافئنى أنت بمثل هذا، سلّمك الله ووفقك، ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال لى هارون: إذ دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا، فإن هذا سيد المسلمين اليوم.

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له شروط وصفات . قال سليمان الخواص : مَنْ وعظ أخاه فيما بينه وبينه ، فهى نصيحة ،ومَنْ وعظه على رؤوس الأشهاد فإنما بكّتَهُ (١) .

وقالت أم الدرداء (٢) رضى اللّه تعالى عنها : منْ وعظ أخاه سِراً فقد سرّه وزانه، ومَنْ وعظه علانية فقد ساءه وشأنه،ويقال : منَ وعظه جهراً فقد فضحه وضرّه.

وعن عبد العزيز بن أبى داود قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئاً أمره فى ستر ، ونهاه فى ستر ،فيؤجر فى ستره ويؤجر فى أمره ،ويؤجر فى نهيه .

وعن عمر رضى اللّه تعالى عنه :إذا رأيتم أخاكم ذا زَلَّةٍ فقوموه وسددوه، وادعوا اللّه أن يرجع به إلى التوبة ، فيتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم .

وباللّه التوفيق إلى أقوم طريق ،وحسبنا اللّه ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) بكّتَهُ : قرّعه وعنفه .

(٢) خيرة بنت أبى حدرد . واسمه : سلامه بن عمير بن أبى سلمة الأسلمى . صحابية . من فضليات النساء . وذوات الرأى فيهن . حفظت عن النبى وعن زوجها أبى الدرداء . روى عنها جماعة من التابعين .توفيت نحو سنة ٣٠ هـ .

الباب الثالث عشر

فى الصمت وصون اللسان والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول :

الفصل الأول :فى الصمت وصون اللسان

قال الله تعالى:﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[ق] وقال تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر] .

واعلم أنه ينبغى للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه ،ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك عنه،لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه بل هذا كثير وغالب فى العادة والسلامة لا يعادلها شىء ،وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ،فليقل خيرا أو ليصمت » .

قال الشافعى رضى الله تعالى عنه فى الكلام :إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر فى كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم ،وإن شك لم يتكلم حتى تظهر .

وروينا فى صحيحهما عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال: يا رسول الله:أى المسلمين أفضل ؟ قال: « مَنْ سلم الناس من لسانه ويده » .

وروينا فى كتاب الترمذى عن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه قال:قلت:يا رسول الله : ما النجاة ؟ قال:« أمسك عليك لسانك ،وليسعك بيتك ،وابك على خطيئتك »(١) .قال الترمذى حديث حسن.وروينا فى كتاب الترمذى،وابن ماجة،عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مِنْ حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »(٢) . والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة، وفيما أشرت كفاية لمن وفقه الله تعالى .

وأما الآثار عن السلف وغيرهم فى هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شىء منها .

فمما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة ،وأكثم بن صيفى(٣) اجتمعا ، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب ؟ فقال: هى أكثر من أن تحصر ،وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها . قال: وما هى ؟ قال: حفظ اللسان.

---

(١) ضعيف :رواه الترمذى فى « الزهد » (٢٤٠٦) وفى سنده على بن يزيد الألهانى وهو كما فى التقريب (٢/٤٦).

(٢) صحيح :رواه الترمذى فى « الزهد » (٢٣١٧) وابن ماجه فى « الفتن » (٣٩٧٦).

(٣) سبق الترجمة لهم .

وقال الإمام الشافعى رضي الله عنه لصاحبه الربيع :يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك،فإنك إذا تكلمت بالكلمة فيما لا يعنيك ملكتك ولم تملكها ،وقال بعضهم : مثل اللسان مثل السبع ،إن لم توثقه عدا عليك ولحقك شره .

ومما أنشدوه فى الباب :

احفَظْ لسانَك أيّها الإنسانُ لا يَلْدغنَّكَ إنَّه ثعبانُ
كمْ فى المقابِرِ منْ قتيلِ لِسانِه كانتْ تهابُ لقاءَهُ الشجعانُ

وقال الفارسى :

لعَمْرُك إنَّ فى ذنْبى لشُغْلا لِنفسِى عنْ ذنوبِ بنى أمية
على ربٍّ حِسابُهم إليه تناهى عِلْمُ ذلك لا إليَّهْ

وقال على رضي الله عنه : إذا تم العقل نقص الكلام ، وقال أعرابى: رُبَّ منطق صدع(١) جمعاً . وسكوت شعَّبَ(٢) صدعاً،وقال وهب بن الورد (٣) : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء :تسعة منها فى الصمت ، والعاشر : فى عزلة الناس ، وقال على بن هشام رحمة الله تعالى عليه:

لعَمْرُك إنَّ الحلمَ زَينٌ لأهْلِه وما الحلمُ إلا عادةٌ وتحلّمُ
إذا لَمْ يكنْ صمتُ الفتى عن ندامَةٍ وعىّ(٤) فإنَّ الصمْتَ أولى وأسلمُ

وقال ابن عيينة(٥) : من حرم الخير فليصمت،فإن حُرِمَهُ فالموت خير له، وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأبى ذر رضي الله عنه : « عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان، وعون على أمر دينك»(٦) .

ومن كلام الحكماء: مَنْ نطق فى غير خير فقد لغا(٧) ،ومنْ نظر فى غير اعتبار فقد سها ، ومَنْ سكت فى غير فكر فقد لها ،وقيل: لو قرأت صحيفتك لأغمدت صفيحتك(٨) ،ولو رأيت

---

(١) الصدع :الشق . فرق .
(٢) شعّب : أصلح صدعه ـ شقه.
(٣) فى معجم الأعلام. وُهيب بن الورد بن أبى الورد . المخزومى ، بالولاء ، أبو أمية. من العباد الحكماء . من أهل مكة . توفى سنة ١٥٣ هـ .
(٤) العىّ : الحصر والعجز .
(٥) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى المكى. أبو محمد . محدث . فقيه . آثاره : تفسير القرآن الكريم وجزء فيه أحاديث . توفى سنة ١٩٦هـ .
(٦) أخرجه مسلم فى « البر والصلة والآداب » (٢٥٨٩).
(٧) لغا : الخطأ والباطل
(٨) الصحيفة : ما يكتب فيها ـ الصفيحة : كناية عن السيف .

ما فى ميزانك لختمت على لسانك. ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته، فقيل له: ألا تتكلم ؟ فقال: الكلام صيرنى فى بطن الحوت.

وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم ،وكان يقال: مِنَ السكوت ما هو أبلغ من الكلام لأن السفيه إذا سكت عنه كان فى اغتنام، وقيل لرجل: بم سادكم الأحنف ،فالله ما كان بأكبركم سناً، ولا بأكثركم مالاً؟ فقال: بقوة سلطانه على لسانه .

وقيل: اجتمع أربعة ملوك، فتكلموا ،فقال ملك الفرس: ما ندمت على ما لم أقل مرة ، وندمت على ما قلت مراراً ، وقال قيصر: أنا على ردّ ما لم أقل أقدر منى على ما قلت .وقال ملك الصين ما لم أتكلم بكلمة ملكتها ،فإذا تكلمت بها ملكتنى، وقال ملك الهند . العجيب ممَّن يتكلم بكلة إن رفعت ضرت ،وإن لترفع لم تنفع،وكان بهرام جالسًا ذات ليلة تحت شجرة، فسمع منها صوت طائر ، فرماه ،فأصابه، فقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان . لو حفظ هذا لسانه ما هلك ،وقال على رضى الله تعالى عنه : بكثرة الصت تكون الهيبة .وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع،وإن أكثرت منه قتل ،وقال لقمان لولده : يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم،فافتخر أنت بحسن صمتك ،يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح: كيف أنتن ؟ فيقلن بخير إن تركتنا .

قال الشاعر :

احْفظَ لسَانَكَ لا تقولُ فَتُبْتَلَى إنَّ البلاءَ مُوكّلٌ بالمنطق

الفصل الثانى
فى تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً فى الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس . وهى: ذكرك الإنسان بما يكره ،ولو بما فيه سواء كان فى دينه أو نفسه أو خلْقه أو خُلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابك أو رمزت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك، فأما الدين : فكقولك : سارق خائن ظالم متهاون بالصلاة متساهل فى النجاسات ليس باراً بوالديه قليل الأدب لا يضع الزكاة موضعها، ولا يجتنب الغيبة، وأما البدن : فكقولك : أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود أو أصفر، وأما غيرهما فكقولك: فلان قليل الأدب متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقاً، كثير النوم كثير الأكل وما أشب ذلك ، أوكقولك :فلان أبوه نجار أو إسكاف أو حداد أو حائك تزيد تنقيصه بذلك أو فلان سيئ الخلق متكبر، مراءٍ . معجب . عجول. جبار ، ونحو ذلك؛ أو فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثوب ونحو ذلك.

وقد روينا فى صحيح مسلم، ، وسنن أبى داود ،والترمذى، والنسائى عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:« أتدرون ما الغيبة ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قال: وإن كان فى أخى ما أقول ؟. قال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته (١) » قال الترمذ حديثٍ حسن صحيح .

وروينا فى سنن أبى داود، والترمذى عن عائشة ﵂ قالت: قلت للنبى ﷺ حسبك من صفية كذا كذا. قال بعض الرواة تعنى قصيرة . فلقال:« لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته أى خالطته مخالطة تغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها » (٢) وروينا فى سنن أبى داود عن أنس ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ:« لما عرج بى إلي السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون به وجوههم وصدورهم، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم» (٣) .

وروى عن جابر ﷺ عن النبى ﷺ أنه قل : « إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا ،ثم

(١) بهته : البهت : القذف بالباطل .
(٢) صحيح : رواه أبو داود فى « الأدب » (٤٨٧٥) ،والترمذى فى « صفة القيامة » (٢٥٠٢).
(٣) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٢٢٤) وأبو داود (٢/ ٢٩٨) .

قال رسول الله ﷺ :« إن الرجل ليزنى فيتوب،فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لم تغفر له حتى يغفر له صاحبها » (١) .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: من اغتاب المسلمين وأكل لحمهم بغير حق ، وسعى بهم إلى السلطان ،جيء به يوم القيامة مزرقة عيناه ينادى بالويل والثبور، ويعرف أهله ولا يعرفونه، وقال معاوية بن قرة:أفضل الناس عند الله أسلمهم صدراً وأقلهم غيبة ،وقال الأحنف (٢): فِيَّ خصلتان : لا أغتاب جليس إذا غاب عنى ،ولا أدخل فى أمر قوم لا يدخلوننى فيه.وقيل للربيع بن خيثم: ما نراك تعيب أحدًا . فقال: لست عن نفسى راضياً فأتفرغ لذم الناس .وأنشد :

لِنفْسى أبْكى لستُ أبْكِى لغَيْرِها لِنَفْسِى منْ نفْسِى عَن الناسِ شاغلُ

وقال كثير عزة :

وسَعى إلىَّ بِعيْبِ عزّة نِسْوَةٌ جعلَ الإلهُ خُدودَهُنَّ نِعَالَهَا

وقال محمد ين حزم :أول من عمل الصابون سليمان،وأول من عمل السويق (٣) ذو القرنين وأول من عمل الحيس (٤) يوسف وأول ممن عمل خبز الجرادق (٥) نمروذ ، وأول من كتب فى القراطيس (٦) الحجاج ،وأول من اغتاب إبليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام.

وأوحى الله تعال إلى موسى عليه السلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة ،وإن أصرَّ فهو أول من يدخل النار .ويقال: لا تأمن منْ كذَب لك أن يكذِبَ عليك ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك.

وقيل للحسن البصرى (٧) رضى الله تعالى عنه : إن فلانا اغتابك ، فأهدى إليه طبقا من

---

(١) ضعيف جداً: رواه ابن أبى الدنيا فى « ذم الغيبة » (٢٥) وفى الصمت (١٦٤) والطبرانى فى «الأوسط» (٦٥٩٠) والبيهقى فى « الشعب » (٦٧٤١) وقال الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ٩٢) فيه عباد بن كثير وهو متروك .

(٢) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حُصين المرى السعدى المنقرى التميمى . أبو بحر . سيد تميم .وأحد العظماء.الدهاة العظماء الشجعان . لقب بالأحنف . لاعوجاج كان فى رجله.توفى سنة٣ق.هـ .

(٣) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة ـ القمح ـ والشعير.

(٤) الحيس : تمر ولبن محمص وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثريد .

(٥) الجرادق : جمع الجرْدق : الرغيف (فارسية) .

(٦) القراطيس : جمع قرطاس : الصحيفة يكتب فيها . وفى القرآن الكريم ﴿ **تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا**﴾[الأنعام: ٩١].

(٧) الحسن بن أبى الحسن بن يسار البصرى ، أبو سعيد من سادات التابعين ، عرف بالعلم والورع والزهد والعبادة . أبو مولى زيد بن ثابت الأنصارى ، وأمه خيرة مولاة أم سلمة . زوج النبى ﷺ توفى سنة ١١٠هـ.

رطب . فأتاه الرجل ، وقال له : اغتبتك فأهديت إلى. فقال الحسن :أهديت إلى حسناتك، فأردت أن أكافئك .

وعن ابن المبارك رحمه اللّه تعالى قال: لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والدَىَّ لأنهما أحق بحسناتى ، وإذا حاكى إنسان إنساناً بأن يمشى متعارجاً ،أو متطاطئاً ،أو غير ذلك من الهيئات، يريد تنقيصه بذلك فهو حرام . وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضاً تفهم به كما تفهم بالتصريح ، فيقال لأحدهم : كيف حال فلان؟ فيقول : اللّه يصلحنا . اللّه يغفر لنا . اللّه يصلحه .نسأل اللّه العافية ،نحمد اللّه الذى لم يبتلينا بالدخول علي الظلمة، نعوذ باللّه من البر ، يعافينا اللّه من قلة الحياء، اللّه يتوب علينا . . . وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة .

واعلم أنه كما حرم على المغتاب ذكر الغيبة ، كذلك يحرم على السامع استماعها ،فيجب على من يستمع إنسانا يبتدئ بغيبة أن ينهاه إن لم يخف ضرراً ، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه،ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته ، فإن قال بلسانه: اسكت وقلبه يشتهى سماع ذلك ، قال بعض العلماء ،إن ذلك نفاق .قال اللّه تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام : ٦٨] .ومما أنشدوه فى هذا المعنى:

وسمعُكَ صُنْ عَنْ سماعِ القبيحِ كصَونِ اللسانِ عن النطقِ بِهْ
فإنَّكَ عندَ سماعِ القبيحِ شريكٌ لقائلهِ فانْتبِهْ
وكمْ أزْعج الحرصُ مِنْ طالبٍ فوافى المنيةَ فِى مطْلبهْ

الفصل الثالث
في تحريم السعاية بالنميمة

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : ١٠ ، ١١] . وحسبك بالنمام خسة ورذيلة سقوطه وضعته والهماز: المغتاب الذي يأكل لحوم الناس ، الطاعنُ فيهم . وقال الحسن البصري ، هو الذي يغمز بأخيه في المجلس وهو الهمزة اللمزة . وقال علي والحسن البصري رضي الله عنهما العتل: الفاحش السيىء الخلق، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، العتل الفاتك الشديد المنافق ، وقال عبيد بن عمير ، العتل الأكول الشروب القوي الشديد ، يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة . وقال الكلبي هو الشديد في كفره . وقيل : العتل الشديد الخصومة بالباطل ، والزنيم هو الذي لا يعرف من أبوه . قال الشاعر:

زَنِيمٌ ليس يُعْرَفُ مَنْ أبوه بغي الأم ذُو حَسَبٍ لَئِيم (١)

وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : لا يدخل الجنة نمام . وروي أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله » (٢) . قال الإمام أبو حامد الغزالي (٣) رحمة الله تعالى عليه : النميمة إنما تطلق في الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كقوله فلان يقول فيك كذا ، فينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية وينبغي لمن حملت إليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا أن لا يصدق من نم إليه لأن النمام فاسق ، وهو مردود الخير ، وأن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويبغضه في الله تعالى ، فإنه بغيض عند الله والبغض في الله واجب، وأن لا يظن بالمنقول عنه السوء ، لقول الله تعالى : ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] . وسعى رجل إلى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة ، فقال له انصرف حتى أكشف عنك ، فكشف عنه فإذا هو ابن بغي يعني ولد زنا . قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : لا ينم على الناس إلا ولد بغي . وروي أن النبي ﷺ قال : « الا أخبركم بشراركم ،

---

(١) الزنيم : ابن الزنا : الحسب : الأصل .

(٢) رواه البخارى فى الأدب (٦٠٥٢) باب الغيبة عن ابن عباس رضى الله عنه.

(٣) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ] الطوسى ، الشافعى . المعروف : بالغزالى : حجة الإسلام . أبو حامد . حكيم . متكلم فقيه ، أصولى ، صوفى ، ولد بالطابران ـ طوسى . بخراسان من آثاره : إحياء علوم الدين ، تهافت الفلاسفة ، الحصن الحصين فى التجريد والتوحيد ، المنقذ من الضلال ، الدرة الفاخرة فى كشف علم الآخرة ، توفى بالطابران سنة ٥٠٥هـ.

قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « شراركم المشاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة والباغون العيوب» (١) .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ، ملعون كل نمام ، ملعون كل منان » (٢) . والشغاز المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة ، والقتات : النمام ، والمنـان : الذي يـعمل الخير ويمـن به . وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذي قدرة فهي المهلكة والحالقة التي تجمع الخصال الذميمة، من الغيبة وشؤم النميمة والتغرير بالنفوس والأموال في النوازل والأحوال ، وتسلب العزيز عزه وتحط المسكين عن مكانته والسيد عن مرتبته ، فكم دم أراقه سعي ساع ، وكم حريم استبيح بنميمة نمام، وكم من صفيين تباعدا وكم من متواصلين تقاطعا ، وكم من محبين افترقا، وكم من إلفين تهاجرا وكم من زوجين تطالقا ، فليتق الله ربه عز وجل ، رجلٌ ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار أن يصغي لساع أو يستمع لنمام . ووجد في حكم القدماء أبغض الناس إلى الله المثلث . قال الأصمعي : هو الرجل يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه. وقال بعض الحكماء : احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون ، إذا سرق اللصوص المتاع. سرقوا هم المودات . وفي المثل السائر : من أطاع الواشي ضيع الصديق ، وقد تقطع الشجرة فتنبت ، ويقطع اللحم السيف فيندمل واللسان لا يندمل جرحه . ودفع إنسان رقعة إلى الصاحب ابن عبادة يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالاً كثيراً ، فكتب إليه على ظهرها : والنميمة قبيحة وإن كانت صحيحة ، والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعي لعنه الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وروينا في كتاب أبي داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيء فإني أحب أن أخرج إليكم وأن سليم الصدر (٣). ومن الناس من يتلون ألوانا ويكون بوجهين ولسانين ، فيأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا . قال صالح بن عبد الله القدوس (٤) رحمه الله تعالى :

قل للذي لَسْتُ أدْري مِنْ تلونه ... أناصحٌ أم على غِشٍّ يُناجيني؟
إني لأكثر مما سُمْتني عَجبًا ... يدٌ تشحّ وأخرى مِنْكَ تأسُوني
تغتابُني عندَ أقوامٍ وتمدحُني ... في آخرينَ وكلٌّ عَنْكَ يأتيني
هَذَان شيْئانِ قد نافيتَ بَيْنَهُمَا ... فاكفف لِسانَكَ عن شتْمي وتَزْييني

---

(١) حسن رواه ابن أبى الدنيا فى « ذم الغيبة » (١٢٠) وفى « الصمت» (٢٥٨).
لم أقف عليه .
(٢) ضعيف رواه أبو داود فى « الأدب» (٤٨٦٠) ، والترمذى فى «المناقب» (٣٨٩٧) وفى سنده زيد بن زائد وهو
(٣) مقبول كما فى «التقريب» (١/ ٢٧٤) والوليد بن هشام مستور كما فى التقريب (٢/ ٣٣٦).
(٤) صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدى الجذامى . شاعر مخضرم ـ العصر الأموى والعباسى ـ شاعر حكيم متكلم . شعر: حكم وأمثال وله مناظرات مع أبى الهذيل العلاف. كف بصره فى-

وقيل : لألف لحوح جموح خير من واحد متلون(١) . وكان يشبه المتلون بأبي براقش، وأبى قلمون ، فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون في اليوم ألوانًا وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانًا ، ويقال للطائش الذي لا ثبات معه أبو رياح ، تشبيهًا بمثال فارس من نحاس بمدينـة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور مع الريح ويمناه ممدودة وأصابعها مضمومة إلا السبابة ، فإذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به ، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه ، والذي يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة ، يسمى أبا رياح ، أيضًا ، ويقال : أخلاق الملوك مثل في التَّلَوُّن . قال بعضهم :

ويومٌ كأخلاقِ الملوكِ تلونًا فَصَحْوٌ وتغييمٌ وَطَلٌّ وَوَابلُ (٢)
أشبِّهه إياكَ يا مَنْ صِفَاتهُ دُنوٌّ وإعْراضٌ ومنعٌ ونَائِل (٣)

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه ، فأنكره الأحنف ، فقال له معاوية : بلغني عنك الثقة ، فقال له الأحنف : إن الثقة لا يبلغ مكروهًا . وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية ، وإذا أتاه ساع يقول له : إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبناك ، وإن استقلتنا أقلناك.

وكتب في جواب كتاب ساع : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس مَنْ دَلَّ على شيء وأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعايته صادقًا لكان في صدقه لئيمًا إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة . وقيل : من سعى بالنميمة حذره الغريب ومقته القريب . وقال المأمون : النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلا جددتها ، ولا جماعة إلا بددتها ، ثم لا بد لمن عُرف بها ونسب إليها ، أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم :

مَنْ نمَّ في الناس لم تؤمَنْ عقاربه على الصديقِ ولَمْ تؤمَنْ أفَاعيهِ
كالسيلِ بالليلِ لا يَدْري به أحدٌ مِنْ أينَ جاء ولا من أينَ يأتيه
الويْلُ للعهْدِ مِنه كَيْفَ ينقُضُهُ والويلُ للود مِنه كَيْفَ يُفْنيهِ

وقال آخر :

يَسْعى عَليكَ كمَا يَسْعَى إليك فَلا تأمن غَوائلَ ذِي وَجْهَين كيَّادِ (٤)

= آخر عمره ، اتُّهم عند المهدى بالزندقة فقتله ببغداد توفى نحو ١٦٠هـ .

(١) إلفٌ : الأنيس المحب . لحوح : كثير السؤال المديم : جموح : العاصى أمر صاحبه حتى غلبه . متلون : لون فلان : لم يثبت على خُلق . المتقلب .

(٢) الطلُّ : المطر الخفيف : الوابل : المطر الشديد الضخم القطر . (٣) النائل : العاطى.

(٤) كيَّادِ : صيغة مبالغة . مكر به وأراده بسوء .

وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

من يُخبرِك بشتمٍ عَنْ أخٍ فَهُوَ الشاتمُ لاَ منْ شتمكْ
ذاك شيءٌ لم يُواجِهْكَ به إنّما اللومُ عَلَى مَنْ أعلمكْ

وقال آخر :

إنْ يَعْلَمُوا الخَيْرَ أخفُوه وَإنْ عَلِمُوا شَرا أَذَاعُوا وَإنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

وقال آخر:

إن يسَمْعُوا ريبة طارُوا بها فَرَحًا مِنيٍّ وما سَمِعُوا مِنْ صَالح دَفَنُوا
صمٌ إذا سَمِعوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وإن ذُكِرتُ بسوءٍ عِنْدهَم أذِنُوا (١)

وقال الحسن : ستر ما عاينت أحسن من إشاعة ما ظننت . وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه : من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها .

ومما جاء في النهي عن اللعن: ما روينا في صحيحى البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لعن المؤمن كقتله** » . وروينا في صحيح مسلم أيضًا عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة** » . وروينا في سنن أبي داود ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض ، فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمينًا وشمالاً فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذي لعن إن كان أهلاً لذلك ، وإلا رجعت إلى قائلها** » (٢). ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله : لعن الله الظالمين ، لعن الله الكافرين ، لعن الله اليهود والنصاري، لعن الله الفاسقين ، لعن الله المصورين ونحو ذلك .

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ : « **لعن الواصلة والمستوصلة**»(٣) ، وأنه قال : « **لعن الله آكل الربا** » ، وأنه قال : « **لعن الله المصورين** » ، وأنه قال : « **لعن الله من لعن والديه** » ، وأنه قال : « **لعن الله من ذبح لغير الله** »، وأنه قال : « **لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » ، وأنه قال : « **لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال** » ، وجميع هذه الألفاظ في البخاري ومسلم بعضها

(١) أذن : أكثر الإعلان والإشاعة والذيوع وأنذر بالشر .
(٢) حسن : رواه أبو داود فى « الأدب » (٤٩٠٥) باب فى اللعن.
(٣) الواصلة : التى تصل الشعر ، والمستوصلة : الذى يفعل بها ذلك ـ الطالبة من النساء أن تصل شعرها بشعر غيرها.

فيهما ، وبعضها في أحدهما ، والله أعلم .

ومما جاء في العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة: قال رسول الله ﷺ : « **الخمول نعمة ، وكل يتبرأ والظهور نقمة وكل يتمنى** » .

وقال بعضهم :

تلحّفْ بالخُمُول تَعِشْ سَليمًا وجالِس كُلَّ ذي أدَبٍ كريمِ

وقال جعفر بن الفراء :

من أخْمَلَ النفس أحْيَاهَا وروَّحها ولم يبت طاويًا مِنْها عَلَى ضَجر

إن الرياحَ إذا اشْتدتْ عَوَاصِفُها فليس ترمي سِوَى العَالي مِنَ الشجَرِ

وقال أعرابي : رُب وحدة أنفع من جليس ووحشة أنفع من أنيس . وكان أبو معاوية الضرير(١) يقول : في خصلتان ، ما يسرني بهما رد بصري: قلة الإعجاب بنفسي ، وخلو قلبي من اجتماع الناس إليَّ . وقال عمر رضي الله عنه : خذوا حظكم من العزلة . وصعد حسان على أطم من آطام (٢) المدينة ونادى بأعلى صوته يا صباحاه ، فاجتمعت الخزرج ، فقالوا ما عندك؟ قال : قلت بيت شعر ، فأحببت أن تسمعوه . قالوا : هات يا حسان. فقال :

وإن امرءًا أمسى وأصبح سالمًا من الناس إلا ما جنى لسعيدُ

ولما بنى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه منزله بالعقيق (٣) قيل له : تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق ، فقال : رأيت أسواقهم لاغية (٤) ومجالسهم لاهية ، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية . وقيل لعروة أخي مرداس :لِمَ لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم ، فقال : أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلى حب الرياسة فأخسر الدارين. وقال سفيان بن عيينة(٥) دخلنا على الفضل في مرضه نعوده ، فقال ما جاء بكم؟ ، والله لو لم تجيئوا لكان أحب إليَّ ، ثم قال : نعم الشيء المرض لولا العبادة ، وقيل للفضل : إن ابنك يقول : وددت لو أني بالمكان الذي أرى الناس فيه ، ولا يروني ، فقال : ويح ابني لمَ لا أتمها ؟، فقال : لا أراهم ولا يروني ، وقال علي رضي الله تعالى عنه : طوبى (٦) لمن شغله عيبه عن عيوب الناس

---

(١) معاوية بن سفيان الأعمى،أبو القاسم، شاعر . راوية، بغدادى . من تلاميذ الكسائى، توفى نحو ٢٢٠هـ.

(٢) الأطم : الحصن ، وكل بناء مرتفع.

(٣) واد بناحية المدينة المنورة .

(٤) لاغية : اللغى : المخطئ القائل باطلا ، اللاهى : اللاعب الساهى عن الشىء وترك ذكره.

(٥) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى ، أبو محمد . محدث الحرم المكى. توفى سنة ١٩٨هـ.

(٦) طوبى : الحسنى والخير . وفى القرآن الكريم ﴿طوبى لهم وحسن مئاب ﴾ [الرعد:٢٩].

وطوبى لمن لزم بيته ، وأكل قوته ، واشتغل بطاعته، وبكى على خطيئته ، فكان من نفسه في شغل ، والناس منه في راحة .

وقال سفيان : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس . وقيل لراهب في صومعته : ألا تنزل ، فقال : من مشى على وجه الأرض عثر (١).

والكلام في مثل هذا كثير، وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١)عثر : زلّ .

الباب الرابع عشر

في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روي عن الحسن أنه قال للحجاج : سمعت ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ يقول : قال رسول اللّه ﷺ : « وقروا السلاطين وبجلوهم ، فإنهم عزُّ اللّه ، وظله في الأرض إذا كانوا عدولا »(١) ، فقال الحجاج : ألم نكن فيهم إذا كانوا عدولا ؟ قال : قلت : بلى. وعن عمر ـ رضي اللّه تعالى عنه ـ قال : قلت للنبي ﷺ : أخبرني عن هذا السلطان الذي ذلت له الرقاب، وخضعت له الأجساد ما هو ؟ قال : « ظل اللّه في الأرض ، فإذا أحسن فله الأجر وعليكم الشكر ، وإذا أساء فعليه الإصر (٢) وعليكم الصبر » . وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « أيما راع استرعى رعيته ، ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلا ضاقت عليه رحمة اللّه تعالى التي وسعت كل شيء » .

وقال مالك بن دينار (٣) - رضي اللّه تعالى عنه ـ: وجدت في بعض الكتب يقول اللّه تعالى: أنا ملك الملوك ، رقاب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، لا تشغلوا ألسنتكم بسبِّ الملوك ، ولكن توبوا إلى اللّه يعطفهم عليكم .

وقال جعفر بن محمد ـ رحمة اللّه تعالى عليه ـ: كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان . وقال كسرى لسيرين : ما أحسن هذا الملك لو دام . فقال : لو دام لأحد ما انتقل إلينا . وَمَرَّ طارق السرطي بابن شبرمة في موكبه قال :

أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّ فَإِنَّها ... سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ (٤)

وجلس الإسكندر (٥) يومًا فما رفع إليه حاجة فقال : لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي. وقال

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) الإصر : العهد ، والعبء الثقيل . وفى القرآن ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

(٣) مالك بن دينار البصرى ، أبو يحيى . عالم . زاهد . ورع . كان يكتب المصاحف بالأجرة . ولا يأكل إلا من كسبه. توفى سنة ١٣١ هـ .

(٤) تقشع : الكشف والانجلاء .

(٥) الإسكندر الكبير [٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق . م] الملقب بذى القرنين . تعلم على أرسطوطاليس . ملك مكدونيا . أحد عباقرة الحرب . ابن فيلبس . بسط سلطانه على اليونان . أخضع مصر ، وأسس الإسكندرية . واحتل بابل بعد أن انتصر على داريوس فى العراق ـ فى أربيل (٣٣١ ق . م) وكسر الفرس فى آسيا الصغرى (إيسوس ٣٣٤ ق . م) . توفى فى بابل ودفن بالإسكندرية .

الجاحظ : ليس شيء ألذ ولا أسر من عزِ الأمر والنهي ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن تقليد المنن إعتاق (١) الرجال لأن هذه الأمور تصيب الروح، وحظ الذهن وقسمة النفس ، وقيل : الملك خليفة اللّه في عباده ، ولن يستقيم أمر خلافته مع خلافته . وقال الحجاج : سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها . وقال أردشير (٢) لابنه : يا بني الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أُسٌّ ، والملك حارس ، وما لم يكن له أُسٌّ فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع. قيل : لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل ، عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى يولد له ولد، فتملك ، وأغار العرب على نواحي فارس في صباه ، فلما أدرك ركب، وانتخب من أهل النجدة فرسانًا وأغار على العرب ، فانتهكهم بالقتل ، ثم خلع أكتاف سبعين ألفًا ، فقيل له : ذو الأكتاف ، وأمر العرب حينئذ بإرخاء الشعور ولبس المصبغات ، وأن يسكنوا بيوت الشعر ، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة .

وقيل : من أخلاق الملوك حب التفرد . كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان ، وإذا لبس حُلَّة لم ير أحد مثلها ، وإذا تختم بخاتم كان حرامًا على أهل المملكة أن يتختموا بمثله .

وكان سعيد بن العاص (٣) بمكة إذا اعتم لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه . وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترئ أحد من خلق اللّه أن يدخل عليه بمثلها . وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه . وأخبرني من سافر إلى اليمن أنه لا يأكل الإوز بها أحد غير الملك .

وقيل : من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فَحْصَ المرضعةِ عن ابنها ، وكان أردشير متى شاء قال : لِأَرْفَعِ أهلِ مملكته وأَوْضَعِهم : كان عندك في هذه الليلةَ كيت وكيت ، حتى كان يقال : يأتيه ملكٌ من السماء ، وما ذاك إلا بتفحصه وتيقظه .

وكان عِلْمُ عمرَ ـ رضي اللّه عنه ـ بِمَنْ نأى عنه كَعِلْمه بِمَنْ بات معه على وساد واحد. ولقد اقتفى معاوية أثره . وتعرف إلى زياد رجل ، فقال : أتتعرف إليَّ وأنا أعرف بك من أبيك وأمك وأعرف هذا البرد الذي عليك ؟ ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه .

وعن بعض العباسيين قال : كلمت المأمون ـ رحمه اللّه تعالى ـ في امرأة خطبتها ، وسألته

(١) العتق : التحرير .

(٢) أرديشر بن بابك . مؤسس الدولة الساسانية . حكم إيران من [٢٢٤ ـ ٢٤١ م] بعد أن أطاح بأردوان الخامس آخر ملوك الدولة الأشكانية . جعل الزرادشتية الدين الرسمى للدولة .

(٣) الأموى ، القرشى . صحابى . من الأمراء الولاة الفاتحين . توفى سنة ٥٩ هـ .

النظر إليها ، فقال : يا أبا فلان من قصتها وحليتها وفعلها وشأنها كيت وكيت ، فوالله ما زال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتني .

ومما جاء في طاعة ولاة أمور الإسلام : أمر اللَّه تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء : ٥٩] .

وروينا في صحيح البخاري عن جابر بن عبد اللَّه الأنصاري ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : بايعت رسول اللَّه ﷺ على شهادة أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمدًا رسول اللَّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والسمع والطاعة ، والنصح لكل مسلم .

وسُئِلَ كعب الأحبار [١] عن السلطان ، فقال : ظل اللَّه في أرضه من ناصحه اهتدى ، ومن غشه ضَلَّ . وعن حذيفة بن اليمان [٢] ـ رضي اللَّه عنه ـ ، لا تسبوا السلطان فإنه ظِلُّ اللّه في الأرض ، به يقوم الحق ويظهر الدين ، وبه يدفع اللَّه الظلم ويهلك الفاسقين . وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه ، كيف كانت طاعتي لك ؟ قال : أحسن طاعة . قال : فَأَطِعْني كما كُنتُ أُطِيعُك خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ، ومن ثوبك حتى تبدو عقباك [٣] .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ ، عن النبي ﷺ قال : « **من أطاعني فقد أطاع اللَّه ، ومن عصاني فقد عصى اللَّه، ومن أطاع أمري فقد أطاعني ، ومن عصى أمري فقد عصاني** » .

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ومناصحته ومحبته والدعاء له . ولو تتبعت ذلك لطال الكلام ، لكن اعلم أرشدني اللَّهُ وإيَّاكَ إلى الاتباع ، وجنبنا الزيغ والابتداع ـ أن من قواعد الشريعة المطهرة ، والملة الحنيفة المحرزة [٤] أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية ، وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين ، وتنظم أمور المسلمين ، وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة ، وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان ، وأن طاعته عصمة من كل فِتْنة ، وبطاعة السلطان تقام الحدود ، وتؤدى الفروض ، وتحقن الدماء ، وتؤمن السبل، وما أَحسن ما قالت العلماء : إن طاعة السلطان هُدًى لِمَنِ استضاء بنورها وأن الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة بريء من الذمة ، وأن طاعة السلطان حبل اللَّه المتين ، ودينه القويم ، وأن الخروج منها خروج من أُنسِ الطاعة إلى وَحْشَةِ المعصية ، ومَنْ غَشَّ السلطان ضَلّ وزَلَّ،

---

(١) كعب الأحبار بن ماتع بن ذى هجن . الحميرى ، أبو إسحاق . تابعى . كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن توفى سنة ٣٢ هـ .

(٢) حذيفة بن اليمان حِسل بن جابر العبسى ، أبو عبد اللَّه . واليمان لقب حِسل . صحابى ، من الولاة الشجعان الفاتحين توفى سنة ٣٦ هـ .

(٣) عقباك : مثنى عقب : عظم مؤخر القدم .

(٤) المحرزة : المصونة المحصنة المنيعة . فيقال : الحريز : الحصين : حِرْز حريز .

ومَنْ أخلص له المحبة والنصح حَلّ من الدين والدنيا في أرفع محل .

وأن طاعة السلطان واجبة ، أمر اللّٰه تعالى بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم .

وقد اقتصرنا في ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه ، ونسأل اللّٰه تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، وأن يصلح شأننا ، إنه قريب مجيب ، وحسبنا اللّٰه ونعم الوكيل ، وصلى اللّٰه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

فيما يجب على مَنْ صَحِبَ السلطان والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان : فقد قال ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ ، قال لي أبي : يا بني إني أرى أمير المؤمنين يستخليك [١] ويستشيرك ، ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ ، وإني أوصيكَ بخلال [٢] ثلاث : لا تُفْشِيَنَّ له سرًا ، ولا تُجْرِيَنَّ عليه كذبًا ، ولا تَغْتَابَنَّ عنده أحدًا ، قال الشعبي ـ رحمه اللّه تعالى ـ: قلت لابن عباس : كل واحدة منهن خير من ألف ، فقال : أي واللّه ، ومن عشرة آلاف .

وقال بعض الحكماء : إذا زادك السلطان تأنيسًا فزده إجلالاً ، وإذا جعلك أخًا ، فاجعله أبًا، وإذا زادك إحسانًا ، فزده فعل العبد مع سيده ، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس ، فأخذوا في الثناء عليه ، فعليك بالدعاء له ، ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة ، فإن ذلك تنبيه بالوحشة والغربة .

وقال مسلم بن عمر لِمَنْ خدم السلطان : لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ، ولا تتغير منه إذا أقصاك .

وروي : أن بعض الملوك استصحب حكيمًا ، فقال له : أصحبك على ثلاث خصال [٣] ، قال : وما هن ؟ قال : لا تهتك لي سترًا ، ولا تشتم لي عرضًا ، ولا تقبل فِيَّ قول قائل حتى تستشيرني ، قال : هذا لك . فماذا لِي عليك؟ قال : لا أفشي لك سرًا، ولا أدخر عنك نصيحةً، ولا أوثر عليك أحدًا ، قال : نِعْمَ الصاحبُ للمستصحب أنت .

وقال بزرجمهر [٤] : إذا خدمت ملكًا من الملوك، فلا تطعه فى معصية خالقك، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه بالهيبة لهم والوقار ، لأنهم إنما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة ؛ وإن طال أنسك بهم تزدد غمًا .

وقالوا : عَلِّمِ السلطان وكأنك تتعلم منه ، وأَشِرْ عليه وكأنك تستشيره ، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ، ويثق بك ، فإياك والدخول بينه وبين بطانته ، فإنك لا تدري متى يتغير منك ، فيكونون عونًا عليك ، وإياك أن تعادي مَنْ إذا شاء أن يطرح ثيابه ، ويدخل مع الملك في ثيابه فعل . وفي الأمثال القديمة « **احذروا زمارة المخدة** » [٥] . وفيه قيل : بيت

---

(١) يستخليك : يتفرس ويتوسم فيك الخير .

(٢) الخلال : المصادقة والإخاء .

(٣) الخصال : جمع خصلة : خُلُق فى الإنسان يكون فضيلة أو رذيلة .

(٤) حكيم فارس . قتل بنصيحة أسداها لكسرى أنوشروان .

(٥) مثل يضرب للزانية .

منفرد :

لَيسَ الشَّفيعُ الذى يَأتِيكَ مُتَّزِرًا مِثْلَ الشفيعِ الذى يَأتِيكَ عُرْيَانا [١]

وقال يحيى بن خالد : إذا أَصْحَبْتَ السلطان فَدَارِهِ مُداراة المرأة العاقلة لِصُحْبَةِ الزوج الأحمق.

وأما ما جاء في التحذير من صحبة السلطان : فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهي عن صحبة السلطان ، قال في كتاب (كليلة ودمنة) : ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل : صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم على التجربة . وكان يقال: قد خاطر بنفسه من ركب البحر ، وأعظم منه خطرًا من صحب السلطان . وكان بعض الحكماء يقول : أحق الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان ، فإنَّ مَنْ صَحِبَ السلطان بغير عقل ، فقد لبس الشعار الغرور . وفي حكم الهند « صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر ».

وقيل للعتابي [٢] لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب ؟، قال : لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء ، ويرمي من السور في غير شيء ، ولا أدري أي الرجلين أكون . وقال معاوية لرجل من قريش : إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي ، ويبطش بطش الأسد. وقال ميمون بن مهران [٣] ، قال لي عمر بن عبد العزيز : يا ميمون احفظ عني أربعًا: لا تصحبن السلطان وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ، ولا تخلون بامرأة وإن أقرأتها القرآن ، ولا تصل من قطع رحمه فإنه لك أقطع ، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدًا، وكم رأينا، وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به ، فكان كما قيل :

عَدْوَى البليدِ [٤] إلى الجليدِ سَرِيعةٌ والجمرُ يُوضعُ فى الرَّمادِ فَيَخْمَدُ

ومثلُ مَنْ صحب السلطان ليصلحه ، مثلُ مَنْ ذهب ليقيم حائطًا مائلاً ، فاعتمد عليه ليقيمه، فخر الحائط عليه فأهلكه .

---

(١) الشفيع : الشافع . متزرا : لابس الإزار : ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن هل يتساويان العريان والساتر نصف جسمه؟ .

(٢) كلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد العتابى التغلبى ، أبو عمرو . أديب مترسل . شاعر . ناثر . أصله من الشام من أرض قنسرين كان معتزليا. رُمى بالزندقة . من آثارة : المنطق ، الآداب ، الألفاظ . فنون الحكم ، الأجواد . توفى سنة ٢٢٠هـ .

(٣) ترجم له .

(٤) الجليد : الصلب القوى . الصابر على المكروه .

قال الشاعر :

ومُعَاشِرُ السُّلطانِ شِبْهُ سَفِينةٍ في البحرِ تَرْجُفُ دائمًا مِنْ خَوْفِه
إِنْ أَدخلَتْ مِن مائِه في جَوْفِها يغتالُها مَعَ مَائِها في جَوْفِهِ (١)

وفي كتاب (كليلة ودمنة) : لا يسعد من ابتلي بصحبة الملوك ، فإنهم لا عهد لهم ، ولا وفاء ، ولا قريب ولا حميم ، ولا يرغبون فيك إلا أن يطمعوا فيما عـندك ، فيقـربوك عـند ذلك، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك ، ولا وُدَّ للسلطان ولا إخاء ، والذنب عنده لا يغفر.

وقالت الحكماء : صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف . وقال محمد بن واسع (٢) ، والله لَسَفُّ التراب ولَقَضمْ العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين. وقال محمد بن السماك : الذباب على العَذِرَة (٣) خير من العابر على أبواب الملوك . وقيـل : من صحب السلطان قبل أن يتأدب ، فقد غرر بنفسه . وقال ابن المعتز من شـارك السلطان فـي عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة ، وعنه إذا زادك السلطان تأنيسًا وإكرامًا فزده تهيبًا واحتشامًا . وقـال أبو علي الصغاني : إياك والملوك ، فإن مَنْ والاهم أخذوا مالـه ، ومَنْ عاداهم أخذوا رأســـه .

وقيل : مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها: بهار ، أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة : عقل ، وصبر ، ومال ، وتحته مكتوب : كذب عدوّ اللّهِ مَنْ كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان .

وقال حسان بن ربيع الحميري : لا تثقن بالملك فإنه ملـول ، ولا بالمـرأة فإنها خـؤون ، ولا بالدابة فإنها شرود . وقال عبيد بن عمير : ما ازداد رجل من السلطان قربًا إلا ازداد مـن الله بعـدًا، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه ، وقال ابن المبارك(٤) رحـمه الله ـ:

أَرَى الملوكَ بِأَدْنى الدّينِ قَدْ قَنعُوا وَلَا أَرَاهُم رضَوا في العيشِ بالدُّونِ (٥)
فاستَغْنِ بالدينِ عَنْ دُنْيَا الملوكِ كَمَا اسْـ ـتَغْنَى الملوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدّينِ

(١) يغتاله : يأخذه من حيث لا يدرى فيهلكه .
(٢) محمد بن واسع بن جابر الأزدى ، أبو بكر . فقيه ورع . من الزهاد . من أهل البصرة ، توفى ١٢٣هـ.
(٣) العَذِرَة : الغائط .
(٤) عبدَ اللّه بن المبارك واضح الحنظلى بالولاء .التميمى ، المروزى ، أبو عبد الرحمن .له رحلات وتصانيف.جمع الفقه والحديث والعربية وأيام الناس.توفى بـ « هيت » على الفرات سنة ١٨١هـ
(٥) الدون : اليسير القليل .

وقال بعضهم في ولاة بني مروان :

إِذَا مَا قَطَعْتُمْ لَيْلَكُم بِمُدَامِكُم وَأَفْنَيْتُمُو أَيَّامكُم بِمَنَام (١)
فَمَنْ ذَا الذي يَغْشَاكُم في مُلمّة وَمَنْ ذا الذي يَغْشَاكُمُ بسلام (٢)
رَضِيتُمْ مِنَ الدُّنيا بأيسرِ بُلْغَة بِلَثْمِ غُلامٍ أو بِشُرب مُدامِ (٣)
وَلَمْ تَعْلَمُوا أنَّ اللسَانَ مُوَكّلٌ بِمَدْحِ كِرَامٍ أَوْ بِذَمِّ لِئَامِ

نهت الحكماء عن خدمة الملوك ، فقالوا : إن الملوك يستعظمون في الثواب رد الجواب ، ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب ، وقيل : شر الملوك من أمنه الجريء وخافه البريء .

والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعمَ النصير ؛ وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) بمدامكم : المدام : الخمر .
(٢) يغشاكم : يقصدكم وينزل بكم .
(٣) البلغة : ما يكفى الإنسان من القوت ـ العيش ـ ولا يزيد .

الباب السادس عشر

في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال اللَّه تعالى حاكيًا عن موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩]. فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ . ثم ذكر حكمة الوزارة ، فقال: ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه: ٣١، ٣٢] دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة ، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة ، ثم قال : ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه : ٣٣، ٣٤] دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين أهل الخبرة والمعرفة ، تنتظم أمور الدنيا والآخرة ، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح ، وأفره[١] الخيل إلى السوط ، وأحد الشفار إلى المسن، كذلك يحتاج أَجَلُّ الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير .

وروى أبو سعيد الخدري ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « ما بعث اللَّه من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه اللَّه ». وقال وهب بن منبه : قال موسى لفرعون : آمن ولك الجنة ولك ملكك . قال : حتى أشاور هامان ، فشاوره في ذلك ، فقال له هامان : بينما أنت إله تُعبد إذ صرت تَعبُد ، فأنف واستكبر ، وكان من أمره ما كان . وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالاً ، ولبئس القرناء شَرٌّ قرين لِشَرٍّ خدين[٢] ، وأشرف منازل الآدميين النبوة ، ثم الخلافة ثم الوزارة ،وفي الأمثال : « نعمَ الظهير الوزير » . وأولَى ما يُظْهِرُ نُبْلَ السلطان ، وقوة تمييزه ، وجودة عقله : في انتخاب الوزراء ، واستنقاء الجلساء ، ومحادثة العقلاء ، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله ، وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذكره ، وترسخ في النفوس عظمته ، والمرؤ موسوم[٣] بقرينه وكان يقال : حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم.

وفي كتاب (كليلة ودمنة) : لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان ، وقال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف ، وفي كل صحيفة : ارحمِ المسكينَ واخشَ الموت ، واذكرِ الآخرة ، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه ، ومثل الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه ، كالماء الصافي فيه التمساح ، فلا يستطيع المرؤ دخوله ، وإن كان سابحًا

(١) الفاره : الخفيف النشيط . والملاحة والحسن .
(٢) خدين : الصديق .
(٣) الموسوم : المُعْلَمُ . بصاحبه .

وإلى الماء محتاجًا ، ومثل السلطان كمثل الطبيب ، ومثل الرعية كمثل المرضى ، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء ، فإذا كذب السفير بطل التدبير . وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدًا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه ، فإذا سقاه الطبيب على وصفة السفير هلك العليل ، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل ، فيقتله الملك .

فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقًا في لسانه . عدلاً في دينه . مأمونًا في أخلاقه. بصيرًا بأمور الرعية ، وتكون بطانة الوزير أيضًا من أهل الأمانة والبصيرة ، وليحذر الملك أن يولي الوزارة لئيمًا ، فاللئيم : إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر على ذوي الفضل ، ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء ؛وكان الوزير من أهل العقل والأدب، فوجد عنده رجلاً ذميًا كان الخليفة يميل إليه ويقربه ، فقال الوزير منشدًا :

يَا مَلِكًا طَاعَتُهُ لازمَه وَحُبُّهُ مُفْتَرَضٌ واجبُ
إنَّ الذي شَرُفْتَ مِنْ أجْلِهِ يَزْعُمُ هذا أنّه كاذبُ

وأشار إلى الذِّمِّي (١) ، فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك ، فسأله ، فلم يجد بدًا من أن يقول : هو صادق ، فاعترف بالإسلام . وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع ، وقال لوزيره: إذ رأيتني غضبان ، فادفع إليَّ رقعة بعد رقعة ، وكان في **الأولى** : أنك لست بإله ، وأنك ستموت، وتعود إلى التراب ، فيأكل بعضك بعضًا ، وفي **الثانية**: ارحم مَنْ في الأرض يرحمك مَنْ في السماء ، وفي **الثالثة** : اقضِ بين الناس بحكم اللّه ، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك .

ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء ، وأزمة الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا :« لا تغتر بمودة الأمير إذا غَشَّكَ الوزير ، وإذا أحبك الوزير ، فَنَمْ لا تخش الأمير » ، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها ، فمن أتى الدار من بابها ولج ، ومن أتاها من غير بابها انزعج . وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر ، فكما أن مَنْ لم ينظر في المرآه لا يرى محاسن وجهه وعيوبه ، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها . **ومن شروط الوزير** : أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفًا بهم . .

واعلم أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة ، وإن استقلها ، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس ، وكما أن المرآة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة

(١) الذمّي : الذى أُعطِي عهدًا يأمن به على ماله وعرضه ودينه .

صقلها ونقائها من الصدأ . كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير ، وصحة فهمه ونقاء قلبه .

والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر

أما الحجاب : فقد قيل : لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب .

وقيل : إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم ، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. وقال ميمون بن مهران ، كنت عند عمر بن عبد العزيز ، فقال لحاجبه :مَنْ بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن ، يزعم أنه بلال مؤذن رسول اللّه ﷺ فَأذَنْ له أن يدخل ، فلما دخل قال : حدثني أبي أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « **مَنْ وَلِيَ شيئًا من أمور المسلمين ثم حَجَبَ عنه ، حَجَبَه اللّه عنه يوم القيامة** » ، فقال عمر لحاجبه : الزم بيتك ، فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب . وكان خالد بن عبد اللّه القشيري يقول لحاجبه : إذا أخذت مجلسي فلا تحجبن عني أحدًا . فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث : عيب يكره أن يطلع عليه أحد ، أو ريبة يخاف منها أن تظهر ، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئًا .

وكانت العجم تقول : لا شيء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك ، ولا شيء أهيب للرعية، وأكف لهم عن الظلم من سهولتهم .

وقيل لبعض الحكماء : ما الجرح الذي لا يندمل (١) ؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم (٢)، ثم يرده بغير قضائها ، قيل : فما الذي هو أشد منه ؟ قال : وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له .

ووقف عبد اللّه بن العباس العلوي على باب المأمون يومًا ، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق ، فقال عبد اللّه لقوم معه : إنه لو أذن لنا لدخلنا ، ولو صرفنا لانصرفنا ، ولو اعتذر إلينا لقبلنا، وأما النظرة بعد النظرة ، والتوقف بعد التعرف لا أفهم معناه ، ثم تمثل بهذا البيت .

وَمَا عَنْ رِضَى كانَ الحِمَارُ مَطِيَّتِي ... وَلَكِنَّ مَنْ يَمْشِي سَيَرْضَي بِمَا رَكِبْ

ثم انصرف ، فبلغ ذلك المأمون ، فضرب الحاجب ضربًا شديدًا ، وأمر لعبد اللّه بصلة جزيلة وعشر دواب .

قال الشاعر :

رَأَيْتُ أُنَاسًا يُسْرِعُون تبادرًا (٣) ... إذا فَتَحَ الْبَوَّابُ بَابَكَ إِصْبَعاً
وَنَحْنُ جُلوسٌ ساكِتون رَزَانَةً (٤) ... وَحِلْمًا إلى أن يُفتَحَ البابُ أجْمَعَا

(١) لا يندمل : لا يبرأ . ولا يشفى .
(٢) اللئيم : خلاف الكريم . فهو أن يجتمع فيه الشحُّ ومهانة النفس ودناءة الآباء .
(٣) تبادر : المبادرة : المسارعة لإنفاذ الأمر .
(٤) الرزانة : الوقار والحلم .

ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي [(١)] حينًا فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف في وصولها إليه وفيها :

إِذَا كَانَ الكريمُ لَهُ حِجابٌ   فَمَا فَضْلُ الكريمِ عَلَى اللئيمِ

فأجابه أبو دلف بقوله :

إِذَا كَانَ الكريمُ قَلِيلَ مالٍ   ولَمْ يُعْذَرْ تعلَّل بالحجابِ
وأبوابُ الملوكِ مُحجّباتٌ   فَلا تَسْتَنْكِرَنْ حُجَّابَ بَابِي

ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم :

سأهجُرُكُم حتى يلينَ حِجَابُكُم   على أنَّهُ لا بُدَّ سَوْفَ يلينُ
خُذُوا حِذْرَكُم مِنْ صَفْوَةِ الدهرِ إِنَّها   وَإِنْ لَمْ تكنْ خَانتْ فَسَوْفَ تَخُونُ

وقال آخر :

مَاذَا عَلَى بَوَّابِ دَارِكُمُ الذي   لَمْ يُعْطِنا إِذنًا ولا يُستأذنُ؟
لَوْ ردّنا رَدًّا جَميلاً عَنْكمُ   أَوْ كانَ يدفعُ بالتى هِيَ أَحْسنُ

وقال آخر

أَمرْتَ بالتسهيلِ في الإِذْنِ لِي   ولَمْ يَرَ الحاجبُ أَنْ يَأْذَنا
فَلَنْ تَرَانِي بَعْدَهَا عَائِدًا   ولَنْ تَرَاهُ بَعْدُ مُسْتَأذَنَا

وقال آخر:

ولَقَدْ رأَيتُ بِبَابِ دَارِكَ جَفْوَةً   فِيها لِحُسْنِ صَنِيعِكَ التكديرُ [(٢)]
مَا بَالُ دَارِكَ حين تَدْخلُ جنّةٌ   وبِبابِ دارِكَ مُنكرٌ ونكيرُ [(٣)]

وقال آخر :

إذا جِئْتُ أَلْقَى عند بابِكَ حَاجِبًا   مُحَيَّاهُ مِنْ فِرطِ الجهالَةِ حالكُ [(٤)]
وَمِنْ عَجَبٍ مَغْناكَ جنّةُ قاصِدٍ   وَحَاجِبُها مِنْ دُونِ رِضْوانَ مَالكُ [(٥)]

---

(١) أبو دلف العجلى هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل . من بنى عجل . سيد قومه . أمير الكرخ . وأحد الأمراء الأجواد الشجعان . الشعراء . مدائح الشعراء فيه كثيرة . آثارة : البزاة والصيد ، سياسة الملوك . توفى سنة ٢٢٦ هـ .

(٢) التكدير : تعكير المودة .

(٣) منكر ونكير : ملكا السؤال فى القبر .

(٤) مُحياه : وجهه . حالك : شديد السواد .

(٥) مغناك : منزلك ودارك : والشطر الثانى طباق : الداخل جنة فبوابها رضوان ، والخارج جهنم فبوابها مالك .

وقال آخر :

سأتركُ بابًا أنتَ تَملكُ إذْنَه ولو كنتُ أعمى عن جميعِ المسالكِ
فلو كنتَ بوّابَ الجِنَانِ تركتُها وحوَّلتُ رِجْلي مُسْرِعًا نحو مَالكِ

وقال آخر :

ماذا يُفيدُكَ أن تكونَ مُحَجَّبًا والعبد بالباب الكريم يلوذ (١)
ما أنتَ إلا في الحصارِ مَعِي فَلا تتعبْ فكلّ مُحاصَرٍ مأخوذُ

وقال أبو تمام :

سأتركُ هذا البابَ ما دامَ إذْنُه عَلَى ما أرَى حتى يلينَ قَليلا
فَمَا خَابَ مَنْ لَمْ يَأْتِه مُتعمدًا وَلا فَازَ مَنْ قد نالَ مِنْه وُصُولا
إذا لَمْ نجدْ للإذنِ عِندك مَوضِعًا وَجَدْنَا إلى تَرْكِ المَجيءِ سَبِيلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب : قل له : إن الكرى (٢) قد خطب إلى نفسي وإنما هي هجعة وأهب ، فخرج الحاجب ، فقال له الرجل : ما الذي قال لك ؟ قال : قال كلامًا لا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك . وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إذنه وبذل طعمه . وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة (٣) والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسألته** » . وجاء النامي (٤) الشاعر لبعض الأمراء فحجبه ، فقال :

سأَصْبرُ إنْ جفوتَ فكَم صَبَرْنا لمثلكَ مِنْ أميرٍ أو وزيرِ
رَجَوْناهُمْ فَلَمَّا أخلَفُونا تَمادَتْ فيهم غِيَرُ الدهورِ (٥)
فَبِتْنَا بالسلامةِ وَهْيَ غُنمٌ وباتوا في المحابِسِ والقبورِ
وَلَمَّا لَمْ نَنَلْ مِنهُم سُرورًا رأينا فيهمُ كُلَّ السرورِ

(١)يلوذ : يلجأ ويحتمي . (٢)الكرى : النعاس . (٣)الخلة : الفقر
(٤)أحمد بن محمد الدَّارمى المِصِّيصِّى المعروف بالنامى أبو العباس. أديب . شاعر . عالم باللغة . من فحول شعراء عصره . يتلو المتنبى فى المنزلة عند سيف الدولة الحمدانى. توفى سنة ٣٩٩ هـ.
(٥)غير الدهر : أحداثه المتغيرة .

وأنشدوا في ذلك أيضًا :

قُلْ للذين تحجَّبُوا عَن رَاغبٍ ... بمنازلٍ مِنْ دُونهَا الحُجّابُ
إنْ حَالَ عن لُقْيَاكُمُ بَوّابُكم ... فاللهُ ليسَ لِبَابِه بَوّابُ

واستأذن سعد بن مالك على معاوية ، فحجبه ، فهتف بالبكاء ، فأتى الناس وفيهم كعب(١) فقال : وما يبكيك يا سعد ؟ فقال : ومالي لا أبكي وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ، ومعاوية يلعب بهذه الأمة ؟ فقال كعب : لا تبك ،فإن فى الجنة قصرًا من ذهب يقال له: عدن أهله الصديقون والشهداء ، وأنا أرجو أن تكون من أهله . واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم ، فحجبه فقال :

في كُلِّ يومٍ لِي بِبَابِكَ وَقفةٌ ... أَطْوي إليه سَائِرَ الأبوابِ
وإذا حَضَرْتُ رَغِبْتُ عَنكْ فإنَّه ... ذَنْبٌ عُقُوبَتُهُ على البوّابِ

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم : فقد قال اللّه تعالى لداود ـ عليه السلام ـ: **﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾** [ص:٢٦] .

جاء في التفسير أن من اتباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي في قلبك محبة خاصة ،وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه .قال ابن عباس ـ رضي اللّه عنهماـ: كان الذي أصاب سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ أن ناسًا من أهل جرادة امرأته ، وكانت من أكرم نسائه عليه ، تحاكموا إليه مع غيرهم ، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدًا .

وروي عن عبد الرحمن بن سمرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال لي رسول اللّهﷺ : « **يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فإنّك إنْ أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها** »(٢) . وقال معقل بن يسار ـ رضي اللّه عنه ـ ، سمعت النبيﷺ يقول : «**ما من عبد يسترعيه اللّه رعية ، فلم يحطها بنصيحته ألا لم يجد رائحة الجنة** »(٣) .

وفي الحديث : « **من ولي من أمور المسلمين شيئًا ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل**

---

(١) كعب بن جعيل بن قمير بن عجرة التغلبى .شاعر تغلب .مخضرم :جاهلى إسلامى أدركه الأخطل فى صباه وهاجاه . توفى حوالى ٥٥ هـ .

(٢) رواه البخارى فى « الأحكام » (٧١٤٧) ، ومسلم فى « الجهاد » (٤٦٣٤) .

(٣) رواه البخارى فى « الأحكام » (٧١٥٠) ، ومسلم فى « الإيمان » (٣٥٦) .

بيته ، **فليتبوأ مقعده من النار** » (١) . وروي أن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة ، فأبى ، وقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم ، فيأمر اللَّه تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه ، ثم يأمر اللَّه تعالى بالعظام ، فترجع إلى أماكنها ، فإن كان اللَّه مطيعًا أخذ بيده ، وأعطاه كفلين من رحمته ، وإن كان للَّه عاصيًا انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفًا** » (٢) ، فقال عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع قال: نعم. وكان سلمان ، وأبو ذر حاضرين، فقال سلمان : أي واللَّه يا عمر ومع السبعين سبعون خريفًا في واد يلتهب التهابًا ، فضرب عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ بيده على جبهته وقال : إنا للَّه وإنا إليه راجعون . من يأخذها بما فيها ، فقال سلمان : من أرغم اللَّه أنفه والصق خده بالأرض .

وروى أبو داود (٣) في السنن قال : جاء رجل إلى رسول اللَّ ﷺ فقال : يا رسول اللَّه إن أبي عريف على الماء ، وإني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده ، فقال النبي ﷺ : «**العرفاء في النار** » (٤). وروى أبو سعيد الخدري ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة الإمام الجائر** » . وقالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة ، فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة** » (٥). وقال الحسن البصري إن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله، فقال : يا رسول اللَّه خِرْ لي فقال : « **اقعد في بيتك** » (٦). وقال أبو هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ : ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولاً ، أنجاه عمله أو أهلكه. وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك : هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؟ قال سليمان : قل . فقال طاوس : أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه اللَّه في ملكه فجار في حكمه ، فاستلقي سليمان على سريره وهو يبكي، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه.

---

(١) رواه الطبرانى فى« المعجم الكبير » (٢٠ / ٢٢١ ، ٥١٣) .

(٢) ضعيف : أورده الهيثمى فى « المجمع » (٥ / ٢٠٦) وقال : رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفه .

(٣) سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأردى السجستانى ، أبو داود . أصله من سجستان . إمام أهل الحديث فى وقته . آثاره : السنن ـ المراسيل . كتاب الزهد . توفى سنة ٢٧٥ هـ .

(٤) لم أقف عليه فى سنن أبى داود . والله أعلم .

(٥) ضعيف : رواه الطبرانى فى« الأوسط » (٢٦١٩) والبيهقى (١٠ / ٩٦) .

(٦) ضعيف لإرساله .

وقال ابن سيرين [١] جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيرون إليه في الواحهم ، فلم ينظر إليها ، وقال : هذا حكم لا أتولى حكمًا أبدًا . وقال أبو بكر بن أبي مريم : حج قوم، فمات صاحب لهم بأرض فلاة ، فلم يجدوا ماء ، فأتاهم رجل فقالوا له : دلنا على الماء . فقال : احلفوا لي ثلاثًا وثلاثين يمينًا أنه لم يكن صرافًا ، ولا مكاسًا ، ولا عريفًا ، ويروى : ولا عرافًا ، ولا بريدًا ، وأنا أدلكم على الماء ، فحلفوا له ثلاثًا وثلاثين يمينًا كما تقدم ، فأعانهم على غسله ، ثم قالوا له : تقدم فصلِّ عليه ، فقال : لا ، حتى تحلفوا لي ثلاثًا وثلاثين يمينًا كما تقدم ، فحلفوا له فصلى عليه ، ثم التفتوا فلم يجدوا أحدًا ، فكانوا يرون أنه الخضر ـ عليه السلام ـ.

وقال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ قال لي رسول الله ﷺ : « **يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي ، وإني أراك ضعيفًا ، فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم** » [٢].

ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق : ما حكي : أن ملكًا من ملوك الفرس يقال له : أردشير، وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير ، وكان ذا بأس شديد ، قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع ، وأن هذه البنت بكر ذات خدر ، فسير أردشير من يخطبها من أبيها ، فامتنع من إجابته ، ولم يرض بذلك ، فعظم ذلك على أردشير ، وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت ، وليقتلنه هو وابنته شر قتلة ، وليمثلن بهما أخبث مُثلة ، فسار إليه أردشير في جيوشه ، فقاتله ، فقتله أردشير ، وقتل سائر خواصه ، ثم سأل عن ابنته المخطوبة، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء ، وأكمل البنات حسنًا وجمالاً وقدرًا واعتدالاً ، فبهت أردشير من رؤيته إياها ، فقالت له : أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية ، وأن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا ، وقتل أبي ، وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت ، وأنه أسرني في جملة الأسارى ، وأتى بي في هذا القصر ، فلما رأتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني ، وسألت أباها أن يتركني عنده لتأنس بي ، فتركني لها ، فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد ، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك ، فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك .

فقال أردشير : وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتله ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال ، فمالت نفسه إليها ، فأخذها للتسري، وقال : هذه أجنبية من الملك ولا أحنث

---

(١) محمد بن سيرين البصرى . أبو بكر . تابعى . إمام . فقيه . ورع . ولد بالبصرة . به صمم. روى الحديث سمع من أبى هريرة ، وعبد الله بن عمر . ومالك بن أنس . مؤلفاته : كتاب « تعبير الرؤيا » ـ تفسير الأحلام . توفى ١١٠ هـ .

(٢) رواه مسلم فى« الإمارة » (١٨٢٦) باب كراهية الإمارة بغير ضرورة .

في يميني بأخذها ، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها ، فحملت منه ، فلما ظهر عليها الحمل، اتفق أنها تحدثت معه يومًا ، وقد رأته منشرح الصدر ، فقالت له : أنت غلبت أبي وأنا غلبتك، فقال لها : ومن أبوك ؟ فقالت له : هو ملك بحر الأردن ، وأنا ابنته التي خطبتها منه ، وأنني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت ، والآن هذا ولدك في بطني ، فلا يتهيأ لك قتلي

فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة ، وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه ، فانتهرها ، وخرج من عندها مغضبًا ، وعوَّل على قتلها.

ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها ، فلما رأى الوزير عزمه قويًا على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا ، وأنه لا يقبل فيها شفاعة شافع ، فقال: أيها الملك إن الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيتها أنت ، وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال : إن امرأة قهرت رأي الملك ، وحنثته في يمينه لأجل شهوة النفس ، ثم قال أيها الملك : إن صورتها مرحومة ، وحمل الملك معها ، وهي أولى بالستر ، ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق ، فقال له الملك : نعم ما رأيت خذها غرقها، فأخذها الوزير ، ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ، ومعه ضوء ورجال وأعوان ، فَتَحيَّل إلى أن طرح شيئًا في البحر أوهم مَنْ كان معه أنها الجارية ، ثم إنه أخفاها عنده ، فلما أصبح جاء إلى الملك، فأخبره أنه غرقها ، فشكره على ما فعل .

ثم إن الوزير ناول الملك حُقًا مختومًا وقال : أيها الملك إني نظرت مولدي ، فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم ، وإن لي أولادًا ، وعندي مال قد ادخرته من نعمتك ، فخذه إذا أنا مت إن رأيت ، وهذا الحقُ فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية ، فإنه إرثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء ما اكتسبته منه إلا هذا الجوهر ، فقال له الملك : يطول الرب في عمرك ، ومالك لك ولأولادك سواء كنت حيًا أو ميتا ، فألح عليه الوزير أن يجعل الْحُقَّ عنده وديعة ، فأخذه الملك وأودعه عنده في صندوق.

ثم مضت أشهر الجارية ، فوضعت ولدًا ذكرًا جميلاً حسن الخلقة مثل فلقة القمر ، فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته ، فرأى أنه إن اخترع له اسمًا وسماه به، وظهر لوالده بعد ذلك، فيكون قد أساء الأدب ، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك، فسماه : شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية : ابن ملك ، فإن « شاه » ملك ، « وبور » ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر ، وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة ، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم ، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية، وهو يوهم أنه مملوك له اسمه : شاه بور ، إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد، وقد طعن في السن، وأقعده الهرم ، فمرض وأشرف على الموت ، فقال للوزير : أيها الوزير :

قد هرم جسمي ، وضعفت قوتي وإني أرى أنّي ميتٌ لا محالة ، وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضي له به .

فقال الوزير : لو شاء اللّه أن يكون للملك ولد ، كان قد ولي بعده الملك ، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها ، فقال الملك : لقد ندمت على تغريقها . ولو كنت أبقيتها حتى تضع، فلعل حملها يكون ذكرًا ، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا ، قال : أيها الملك إنها عندي حية ولقد ولدت ووضعت ولدًا ذكرًا من أحسن الغلمان خَلْقًا وخُلُقًا.

فقال الملك : أحق ما تقول ؟ فأقسم الوزير أن نعم ثم قال : أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب ، وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن ، لا يكاد ذلك ينخرم أبدًا ، وإنني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلامًا في سنه وهيئته ولباسه ، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو . وإني سأعطي كل واحد منهم صولجانًا وكرة ، وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا ، ويتأمل الملك صورهم ، وخلقتهم وشمائلهم ، فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو ، فقال الملك: نعمَ التدبير الذي قلت.

فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك ، فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور ، فإنه كان إذا ضربها، وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم ، فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه ، فلاحظ أردشير ذلك منه مرارًا ، فقال: أيها الغلام ما اسمك ؟ قال : شاه بور ، فقال له : صدقت أنت ابني حقًا ، ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه .

فقال له الوزير : هذا هو ابنك أيها الملك ، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والدًا بحضرة الملك ، فتحقق الصدق في ذلك ، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها ، فقبلت يد الملك ، فرضي عنها ، فقال الوزير : أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى إحضار الحُقّ المختوم ، فأمر الملك بإحضاره ، ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فإذا فيه ذكر الوزير وأنثياه (١) مقطوعة مصانه فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك ، وأحضر عدولاً من الحكماء ، وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك ، فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة ، قال : فدهش الملك أردشير ، وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة ، وشدة مناصحته ، فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به .

ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه ، ولم يزل يتقلب في نعمه وهو

(١) أنثياه : الخصيتان .

مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ، ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه ، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير ، وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه اللَّه تعالى.

واللَّه تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم ، وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين .

الباب الثامن عشر

فيما جاء في القضاء ، وذكر القضاة ، وقبول الرشوة والهدية على الحكم ؛ وما يتعلق بالديون ، وذكر القصاص ، والمتصوفة ؛ وفيه فصول

الفصل الأول

فيما جاء في القضاء ، وذكر القضاة ، وأحوالهم ، وما يجب عليهم

قال اللَّه تعالى : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص : ٢٦] . وقال تعالى : ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ﴾ [ص : ٢٢] . وقال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة : ٤٥] . وقال رسول اللَّه ﷺ : « من حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه ، فلم يقض بينهما بالحق ، فعليه لعنة اللَّه » (١) وعن أبي حازم قال : دخل عمر على أبي بكر ـ رضوان الله عليهما ـ ، فسلم عليه ، فلم يرد عليه ، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف (٢): أخاف أن يكون وجد عليَّ (٣) خليفة رسول اللَّه ﷺ ، فكلم عبد الرحمن أبا بكر ، فقال : أتاني ، وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري ، وعلمت أن اللَّه سائلي عنهما وعما قالا وقلت. وادعى رجل على علي عند عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ وعليٌّ جالس ، فالتفت عمر إليه وقال : يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك ، فتناظرا ، وانصرف الرجل ، ورجع علي إلى مجلسه ، فتبين لعمر التغير في وجه علي ، فقال : يا أبا الحسن مالِيَ أراك متغيرًا ، أكرهت ما كان؟ قال: نعم . قال : وما ذاك ؟ قال : كنيتني بحضرة خصمي . هلا قلت يا علي قم ، فاجلس مع خصمك، فأخذ عمر برأس علي ـ رضي الله عنهما ـ ، فقبله بين عينيه ، ثم قال : بأبي أنتم بكم هدانا اللَّه ، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور .

وعن أبي حنيفة ـ رضي اللَّه عنه ـ: القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح ، وإن كان سابحًا . وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء ، فأبي ، فحلف ليضربنه بالسياط، وليسجننه ، فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب ، فقال : الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليَّ من الضرب بمقامع (٤) الحديد في الآخرة . وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال : أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق ـ رضي اللَّه عنه ـ ، فكشف

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) أبو محمد . قرشي . زهري . أسلم على يدى أبى بكر . وهاجر الهجرتين . شهد بدرا وأحد . أحد العشرة المبشرين بالجنة . وأحد الستة أصحاب الشورى . توفى سنة ٣٢ هـ .

(٣) وجد : حقد وغضب .

(٤) مقامع جمع مقمعة : حديدة كالمجن يضرب بها على رأس الفيل .

عن باب مغلق فظنناه كنزًا ، فكتبنا إلى أبي بكر ـ رضي اللَّه تعالى عنه ـ، فكتب إلينا ، لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي ، ثم فتح ، فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان .

إِذَا خَانَ الأميرُ وكَاتِبَاهُ وقَاضِيَ الأرضِ دَاهَنَ(١) في القضاءِ
فَويلٌ ثمَّ وَيلٌ ثُم وَيلٌ لِقاضِيَ الأرضِ مِنْ قَاضِي السماءِ

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه : هذا سيف عاد بن إرم . عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن اللَّه مع القاضي ما لم يَجُرْ ، فإذا جار برئ اللَّه منه ولزمه الشيطان** » (٢) . وقال محمد بن حريث : بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع الناس إليه فكان لا يجبهم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال : اللهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك فقبض . وعن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ عن النبي ﷺ : « **القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة** » (٣) . وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء : لعلك تريد أن تكون قاضيًا ، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضيًا .

وقيل أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، كان أمير البصرة وقاضيًا فيها وكان يقول : إن الرجلين يتقدمان إلي فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له .

وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار ، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيى : لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، ولم يكن للرجل بينة ، فأراد أن يحلف المأمون فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار ، وقال : واللَّه ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إني تناولتك من جهة القدرة ، ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطاءه .

وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد باللَّه إلى أبي يوسف ابن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل ، فقال أبو يوسف : ثم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع ، يا غلام ائتني بعمرو بن أبي عمرو النحاس فإنه إن

(١) داهن : خادع وغش . وأظهر غير ما يضمر .

(٢) حسن : رواه الترمذى فى « الأحكام » (١٣٣٠) وابن حبان (٥٠٦٢) والحاكم (٤ / ٩٣) والبيهقى (١٠ / ٨٨) .

(٣) لم أقف عليه .

قدم علي الساعة أمرته ببيع هذا العبد ، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين ، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه ، فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة ، فقال له لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي ، فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم وقال العكلي (١) يمدح بعض القضاء :

رَفَضْتَ وعَطَّلْتَ الحكومةَ قَبْلَه ... في آخرَيْن ومَلَّها رُوَّاضُهَا
حَتَّى إذا ما قامَ ألْفٌ بَيْنَها ... بالْحَقِّ حَتَّى جُمِّعَتْ أوْفَاضُها (٢)

وفي ضد ذلك قول بعضهم :

أبْكِي وأنْدُبُ مِلّةَ الإسلامِ ... إذْ صِرْتَ تَقْعَدَ مَقْعَدَ الحكامِ
إنَّ الحوادثَ ما عَلِمْتَ كثيرةٌ ... وأرَاكَ بَعْضَ حوادثِ الأيامِ

وتقدمت امرأة إلى قاض ، فقال لها جاء معك شهودك ؟، فسكتت : فقال كاتبه : إن القاضي يقول لك : جاء شهودك معك ، قالت : نعم ، هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك، وقل عقلك ، وعظمت لحيتك حتى غطت على لُبِّكَ ما رأيت ميتًا يقضي بين الأحياء غيرك .

وقيل : المضروب بهم المثل في الجهل ، وتحريف الأحكام ، قاضي مني ، وقاضي كسكر ، وقاضي أيدج (٣) ، وهو الذي قال فيه أبو إسحاق الصابي :

يَا رُبَّ عِلجٍ أعلَجِ ... مثْلُ البعيرِ الأهْوج (٤)
رأيتُهُ مُطلّعا ... من خلف باب مرتج (٥)
وخَلْفَــــه عُذَيْبَةٌ ... تَذْهَبُ طورًا وتَجِي (٦)
فَقُلْتُ مَنْ هَذَا تُرَى؟ ... فقِيلَ قَاضِي أيدجِ

---

(١) كهمس بن قعنب بن وعلة بن عطية العكلى . أعشى بنى عكل . شاعر . كان فى عصر جرير . له ديوان شعر . توفى سنة ١٠٠ هـ .
(٢) أوفاض : الفِرَقُ من الناس والأخلاط من قبائل شتى .
(٣) أسماء بلاد .
(٤) العلج : الشديد الضخم السمين . الواحد من كفار العجم ، والحمار الوحشى .
(٥) باب مرتج : باب مغلق .
(٦) عذبة : طرف العمامة .

وقاضي شُلْبَةَ وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري :

رأيتُ رَأْسًا كَدبَّه ولِحْيَةً كَالْمِذَبَّة (١)
فَقُلْتُ : مَنْ أنتَ قُلْ لِي؟ فَقَالَ: قَاضِي شُلُبَّهْ

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادعت عنده ، فقضى لها فقال هذيل الأشجعي :

فُتِنَ الشَعْبِيّ لمَّا رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا (٢)
فَتَنَتْهُ بِبَنَانٍ كَيْفَ لَوْ رأى مِعْصَمَيْها ؟
ومَشَتْ مشيًا رُوَيْدًا ثُمَّ هَزَّتْ مِنْكَبَيْها
فَقَضَى جَوْرًا على الخَصْمِ وَلَمْ يَقْضِ عَلَيْها (٣)

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطًا .

وحكى ابن أبي ليلى قال : انصرف الشعبي يومًا من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول : * فُتِنَ الشعبيُ لما * وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبي وقال: * رَفَعَ الطرفَ إليهَا * ثم قال أبعده اللّه . أما أنا فما قضيت إلا بالحق .

وأنشد بعضهم في أمين الحكم :

تَتَمَاوَتْنَ إذا مَشيتَ تخشعًا حتى تُصِيبَ وَدِيعةً لِيَتِيمِ

الفصل الثاني
في الرشوة والهدية على الحكم ، وما جاء في الديون

أما الرشوة ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « لعن اللّه الراشي والمرتشي » (٤) . وقال عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ: لا تولوا اليهود ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا ، ولا يحل في دين الله الرشا ، قال الشهيدي : وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم .

وفي نوابغ الحكم أن البراطيل (٥) تنصر الأباطيل . وعن ابن مسعود ـ رضي اللّه عنه ـ قال: مَنْ شفع شفاعة ليرد بها حقًا أو يدفع بها ظلمًا ، فأهدى له فقبل فذلك السحت (٦)، فقيل له:

(١) المذبة : ما يدفع بها الذباب .
(٢) الطرف : البصر .
(٣) جورا : ظلما .
(٤) حسن : رواه أحمد (٢ / ١٦٤ ، ١٩١ ، ٢١٢) وأبو داود (٣٥٨٠) والترمذى (١٣٣٧) وابن ماجة (٢٣١٣) وابن حبان (٥٠٧٧) .
(٥) البراطيل : الرشاوى .
(٦) السحت : ما قبح وخبث من المكاسب . كالرشوة .

ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم ، قال الأخذ على الحكم كفر ، وأنشد المبرد - رحمه الله تعالى - :

وَكُنْتُ إذا خَاصَمْتُ خصمًا كَبَبْتُهُ (١) عَلَى الوَجْه حتى خَاصَمَتْنِي الدراهمُ
فَلَمَّا تَنازعْنَا الْحُكومةَ غَلبتْ عَلَيّ وقَالَتْ: قُمْ فإنَّكَ ظَالِمُ

وأما الدين وما جاء فيه - نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال - : فقد روي عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : « **مَنْ تداين بدين وفي نفسه وفاؤه ثم مات ، تجاوز الله عنه ، وأرضى غريمه بما شاء . ومَنْ تداين بدين وليس في نفسه وفاؤه ثم مات ، اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة** » (٢). رواه الحاكم . وروي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ إذا أُتِيَ له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ، ويسأل عن دينه فإن قيل عليه : دين كف عن الصلاة عليه ، وإن قيل : ليس عليه دين صُلى عليه ، فأُتي بجنازة ، فلما قام ليكبر ﷺ قال : « **هل على صاحبكم من دين ؟** » فقالوا : ديناران يا رسول الله ، فعدل النبي ﷺ عنه وقال : « **صلوا على صاحبكم** »، فقال علي - كرم الله وجهه - : هما عليّ يا رسول الله وهو بريء منهما ، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ، ثم قال لعلي - رضي الله عنه - : « **أجزاك الله عنه خيراً ، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك ، إنه ليس مَنْ ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ،ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة** » (٣).

وقال بعض الحكماء : الدين همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار ، وهو غل جعله الله في أرضه ، فإذا أراد الله أن يذل عبدًا جعله طوقًا في عنقه . وجاء سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - يتقاضى دينًا له على رجل ، فقالوا : خرج إلى الغزو، فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « **لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ، ثم أُحيي ، ثم قتل لم يدخل الجنّة حتى يقضي دينه** » (٤). وعن الزهري قال : لم يكن رسول الله ﷺ يصلي على أحد عليه دين ، ثم قال بعد : « **أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وعليه دين فعليّ قضاؤه** » ثم صلّى عليهم . وعن جابر لاَ هَمَّ إلا هَمَّ الدين، ولا وجع إلا وجع العين . وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « **من تزوج امرأة بصداق ينوي أن لا يؤديه إليها ، فهو زان ، ومَنِ استدان دينًا ينوي أن لا يقضيه فهو سارق** »، وقال حبيب بن ثابت : ما احتجت إلى شيء أستقرضه إلا استقرضته من نفسي، أراد

---

(١) كبّه : كبه لوجهه : صرعه - قلبه والقاه .

(٢) ضعيف جداً : رواه الحاكم (٢ / ٢٣) وفى سنده بشر بن نمير قال الذهبى : متروك .

(٣) ضعيف : رواه الدارقطنى (٢ / ٣٢٢) ، والبغوى فى « شرح السنة » (٢١٥٥) والبيهقى (٦ / ٧٣) وفى سنده عطية العوفى وهو ضعيف .

(٤) رواه سعيد بن منصور فى « سننه » كما فى كنز العمال (١٥٤٩٦) .

أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة ، ونظيره قول القائل :

وَإِذَا غَلا شَيْءٌ عليَّ تَرَكْتُهُ فَيَكونُ أرخَصَ ما يكونُ إِذَا غَلا

وقال بعضهم أيضًا :

لَقَدْ كانَ القَرِيضُ سَمِيرَ قَلْبِي فَأَلْهَتْنِى القُرُوضُ عن القَرِيضِ (١)

وقال غيلان بن مرة التميمي :

وَإِنِّي لأقضي الدّينَ بالدينِ بَعْدَمَا يَرى طالبي بالدينِ أَنْ لَسْتُ قَاضِيا

فأجابه ثعلبة بن عمير :

إِذَا مَا قَضَيْتَ الدينَ بالدينِ لَمْ يَكُنْ قَضَاءً ولَكِنْ ذاكَ غُرْمُ عَلَى غُرْمِ (٢)

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال : حبًا وكرامة ، ولكن سكن قلبي برهن يساوي ضعْف ما تطلبه ، فقال: يا أبا سعيد أما تثق بي ؟ قال : بلى ، وإن خليل اللَّه كان واثقًا بربه، وقد قال له : ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[البقرة : ٢٦٠].

اللهم أوف عنَّا دَيْنَ الدنيا بالميسرة ، ودين الآخرة بالمغفرة ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

الفصل الثالث

في ذكر القُصَّاصِ ، والمتصوفة ، وما جاء في الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء في ذكر القُصَّاصِ والمتصوفة (٣): فقد روي عن خباب بن الأرت (٤) قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا** » . وروي أن كعبًا كان يَقُصُّ ، فلما سمع الحديث ترك القَصَصَ . وقال ابن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ : لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ، ولا عهد أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ـ رضي اللَّه عنهم ـ وإنما كان القَصَصُ حين كانت الفتنة .

وقال ابن المبارك : سألت الثوري ، من الناس ؟ قال العلماء ، قلت: فمن الأشراف ؟ قال:

---

(١) القريض : قرض الشّعْر ـ قول الشعر . والقروض : واحده القَرْض : الدّيْن .

(٢) الغرم : لزمه شيء غير ما يجب عليه . ويقال غرم الدية والدّين : أداهما عن غيره

(٣) المتصوفة : طائفة من المسلمين تنسكوا وزهدوا فى متع الحياة الدنيوية . من تصفية القلوب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومُنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة . من أعلامهم . ابن العربى وابن الفارض ، والحلاج .

(٤) خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمى ، أبو يحيى . صحابى . من السابقين . توفى سنة ٣٧ هـ .

المتقون ، قلت : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قلت : فمن الغوغاء ؟ قال : القُصَّاصُ الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام ، قلت : فمن السفهاء ؟ قال : الظلمة . قيل : وَهَبَ رجلٌ لقَاصٍ خاتمًا بلا فص ، فقال : وهب اللَّه لك في الجنة غرفة بلا سقف . وقال قيس بن جبير النهشلي : الصعقة التي عند القُصَّاصِ من الشيطان .

وقيل لعائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ : إن أقوامًا إذا سمعوا القرآن صعقوا ، فقالت : القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال .

وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن ، فقال : ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط ، فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا ، فهو كما قالوا . وكان بمرو قَاصٌ يبكي بمواعظه ، فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبورًا صغيرًا فيحركه ، ويقول : مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة . وقال بعضهم : قلت لصوفي : بعني جُبَّتَكَ ، فقال : إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد . وسئل بعض العلماء عن المتصوفة ، فقال : أكلة رقصة ، ووعظ عيسى ـ عليه السلام ـ بني إسرائيل ، فأقبلوا يمزقون الثياب فقال : ما ذنب الثياب ، أقبلوا على القلوب فعاتبوها .

وأما ما جاء في الرياء : فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] . وعن معاذ بن جبل ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال لي رسول اللَّه ﷺ : « **يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين ، وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين** » (١). وقيل : لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه ، فهو من أقبح الرياء .

وقيل : كُلُّ ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير اللَّه ، فليس من اللَّه في شيء . وعن شداد بن أوس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » فقالوا : ما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : « **الرياء** » (٢). وقيل : بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله ، فجاء رجل يريد أن يستظل معه ، فمنعه ، وقال : إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني ، فقال له الرجل : قد علم الناس أنني لست ممن تظله الغمامة، فحولها اللَّه تعالى إلى ذلك الرجل.

وقال عبد الأعلى السلمي يومًا : الناس يزعمون أني مراء ، وكنت أمس واللَّهِ صائمًا ، ولا أخبرت بذلك أحدًا .

اللهم أصلح فساد قلوبنا ، واستر فضائحنا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) صحيح : رواه أحمد (٥ / ٤٢٨ ، ٤٢٩) ، والبيهقى فى « الشعب » (٦٨٣١) ، والبغوى فى « شرح السنة » (٤١٣٥) .

الباب التاسع عشر
في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

اعلم - أرشدك اللَّه - أن الله تعالى أمر بالعدل ، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الإحسان ، وهو فوق العدل . فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل : ٩٠] . فلو وسع الخلائق العدل ما قرن اللَّه به الإحسان .

والعدل : ميزان اللَّه تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والمحق من المبطل . واعلم أن عدل الملك يوجب محبته ، وجوره يوجب الافتراق عنه ، وأفضل الأزمنة ثوابًا أيام العدل ، وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : **«لعمل الإمام العادل في رعيته يومًا واحداً أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عامًا»** . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « **عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة** » [١] . وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - ، عن النبي ﷺ أنه قال : « **ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء** » [٢] . وعن عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - أنه قال لكعب الأحبار : أخبرني عن جنّة عدن ، قال يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل ، فقال عمر: واللَّه ما أنا نبي ، وقد صدقت رسول اللَّه ﷺ ، وأما الإمام العادل : فإني أرجو أن لا أجور ، وأما الشهادة : فأنى لي بها ؟. قال الحسن : فجعله الله صديقًا . شهيداً . حكمًا . عدلاً .

وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل: أيما أبلغ عندكم الشجاعة أو العدل ؟، قالوا : إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة . ويقال : عدل السلطان أنفع من خصب الزمان . وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته .

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز - رضي اللَّه عنه - يشكو إليه من خراب مدينته ويسأله مالاً يرمها به ، فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك ، فإذا قرأت كتابي ، فحصن مدينتك بالعدل ، ونق طرقها من الظلم ، فإنه مرمتها والسلام .

(١) ضعيف : رواه ابن عساكر عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٢) ضعيف رواه أحمد (٢ / ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٤٤٥ ، ٤٧٧) والترمذى (٣٥٩٨) ، وابن ماجه (١٧٥٢) ، وفى سنده أبو مدلة مولى عائشة وهو مجهول .

ويقال : إن الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف ، فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز ـ رضي اللَّه عنه ـ ارتفع في السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف ، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف ، وقيل : أكثر . وقال : إن عشت لأبلغنه إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ، فمات في تلك السنة. ومن كلام كسرى لا ملك إلا بالجند ، ولا جند إلا بالمال ، ولا مال إلا بالبلاد ، ولا بلاد إلا بالرعايا ، ولا رعايا إلا بالعدل .

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ، ولأمير المؤمنين المنصور ، فكتب المنصور لعامله استوف لأمير المؤمنين حقّه ، وفرق ما بقي بين الغرماء ، فلم يلتفت إلى كتابه ، وضرب للمنصور بسهم من المال ، كما ضرب لأحد الغرماء ، ثم كتب للمنصور : إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء ، فكتب إليه المنصور: مُلئت الأرض بك عدلاً. وكان أحمد بن طولون (١) والي مصر متحليًا بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء ، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم .

حكي : أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يومًا ، فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره ، فدخل العباس إليه وأخبره بذلك ، فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح ، فلما أحضر إليه . قال : أنت الذي كسرت العود ، قال : نعم . قال : أفعلمت لمن هو؟ قال : نعم هو لابنك العباس ، قال : أفما أكرمته لي ؟، قال: أكرمه لك بمعصية اللَّه عَزَّ وجَلّ ، واللَّه تعالى يقول : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة : ٧١] . ورسول الله ﷺ يقول : « **لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق** » . فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك ، ثم قال : كل مُنكر رأيته فغيره وأنا من ورائك .

ووقف يهودي لعبد الملك بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمني فانصفني منه وأذقني حلاوة العدل ، فأعرض عنه ، فوقف له ثانيًا ، فلم يلتفت إليه ، فوقف له مرة ثالثة، وقال : يا أمير المؤمنين إنا نجد في التوراة المنزلة على كليم الله موسى ـ صلوات اللَّه وسلامه عليه: إن الإمام لا يكون شريكًا في ظلم أحد حتى يرفع إليه ، فإذا رفع إليه ذلك ولم يزله ، فقد شاركه في الظلم والجور . فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال إلى من ظلمه ، فعزله وأخذ لليهودي حقه منه .

---

(١) أحمد بن طولون . أبو العباس . أمير الديار المصرية والشامية والثغور . كان المعتز بالله قد ولاه مصر. عرف بالشجاعة والكرم والتواضع وحسن السيرة . توفى سنة ٢٧٠هـ.

وروي: أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له ، فأتى إلى المنصور ، فقال له : أصلحك اللّه يا أمير المؤمنين أأذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً ؟ فقال : بل اضرب المثل. فقال : إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظنًا منه أن لا ناصر له غيرها ، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه ، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه ، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه ، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى اللّه تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان ، وقد نزلت بي نازلة ، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا اللّه تعالى ، فإن أنصفتني وإلا رفعت أمري إلى اللّه تعالى في الموسم ، فإني متوجه إلى بيته وحرمه . فقال المنصور : بل ننصفك ، وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه .

وكان الإسكندر يقول : يا عباد اللّه إنما إلهكم اللّه الذي في السماء الذي نصر نوحًا بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة ، وإليه مفزعكم عند الكرب واللّه لا يبلغني أن اللّه تعالى أحب شيئًا إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي ، ولا أبغض شيئًا إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي ، وقد أُنبِئْتُ أن اللّه تعالى يُحِبُّ العدل في عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفي وسوطي ، ومن ظهر منه العدل من عمالي ، فليتكئ في مجلسي كيف شاء ، ولَيَتَمَنَّ علي ما شاء فلن تخطئه أمنيته، واللّه تعالى المجازي كلاً بعمله .

ويقال : إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان .

وقيل : مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سفطًا [1] ، ففتح ، فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها : هذه من حب رمان عمل في خراجه بالعدل .

وقيل : تظلم أهل الكوفة من واليهم ، فشكوه إلى المأمون ، فقال : ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه ، فقال رجل منهم : يا أمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والإنصاف منك ، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدًا بلدًا حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ، ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصيبنا منه أكثر من ثلاث سنين ، فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم .

وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة ، فنزل بواصل بن عطاء [2] وقال : بلغني أبيات عن

---

(١) السفط : وعاء يوضع فيه الطيب .

(٢) واصل بن عطاء . المعروف بالغَزَّال ، أبو حذيفة . مولى بنى ضبَّة . أحد الأئمة المتكلمين فى علم الكلام . كان الثغ بالراء أى : يجعلها : غينا . وهو رأس المعتزلة . وهو القائل : إن الفاسق من هذه الأمة : لا مؤمن ولا كافر منزل بين المنزلتين . توفى سنة ١٨١ هـ .

سليم بن يزيد العدوي في العدل ، فقم بنا إليه ، فأشرف عليهم من غرفة ، فقال لواصل : من هذا الذي معك ؟ قال : عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس ـ رضي الله عنهم ـ ، فقال : رَحْبٌ على رَحْبٍ ، وقُرْبٌ على قُرْبٍ ، فقال : إنه يحب أن يسمع أبياتك في العدل ، فقال : سمعًا وطاعة ، وأنشد يقول :

حَتَّى مَتَى لا نَرَى عَدلاً نُسَرُّ بِهِ ... وَلَا نَرَى لِوُلاة الْحَقِّ أعْوانَا
مُسْتَمْسِكِينَ بِحقٍ قائمين به ... إذا تلوَّنَ أهلُ الجَورِ ألوانا
يا لَلرِجَال لِدَاءٍ لا دَواءَ لَهُ ... وَقَائدِ ذي عَمَي يَقْتَادُ عُمْيانا

فقال المنصور : وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم مت . وقيل : لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم ، فابتدأ بأهل بيته ، فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها ، وسألوها أن تكلمه، فقال لها : إن رسول اللّه ﷺ سلك طريقًا، فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول اللّه ﷺ ، فلما قُضِيَ الأمر إلى معاوية جره يمينًا وشمالاً ، وايم اللّه لئن مُدَّ في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول اللّه ﷺ وأصحابه . فقالت له : يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يومًا عصيبًا ، فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة ، فلا أمَّنَنِيهِ اللّه.

وقال وهب بن منبه (١): إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل اللّه النقص في أهل مملكته في الأسواق ، والزروع ، والضروع وكل شيء ، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل اللّه البركة في أهل مملكته كذلك .

قال الوليد بن هشام : إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده . وقال ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ: إن ملكًا من الملوك خرج يسير في مملكته متنكرًا ، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات ، فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها ، فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس ، فقال له الملك : ما بال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس ؟ فقال : لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خيرها فهم بأخذها ، فنقص لبنها ، فإن الملك إذا ظلم أو همَّ بالظلم ذهبت البركة . فتاب الملك ، وعاهد ربّه في نفسه أن لا يأخذها ولا يحسد أحدًا من الرعية ، فلما كان من الغد حلبت عادتها .

ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو ، وأن كل

---

(١) عبد الله بن وهب بن منبه الأبناوى الصنعانى الذمارى . أبو عبد اللّه . مؤرخ . كثير الإخبار عن الكتب القديمة . يعد فى التابعين . توفى سنة ١١٤ هـ(معجم الأعلام : ٩٣٢) .

قصبة منها تعصر قدحًا ، فعزم الملك على أخذها منها ، ثم أتاها وسألها عن ذلك ، فقالت : نعم ، ثم إنها عصرت قصبة ، فلم يخرج منها نصف قدح ، فقال لها : أين الذي كان يقال ؟ فقالت : هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني ، فارتفعت البركة منها ، فتاب الملك وأخلص للّه النيّة ، وعاهد اللّه أن لا يأخذها منها أبدًا ، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي [1] ـ رحمه اللّه ـ في كتابه « سراج الملوك » قال : حدثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال : كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ، ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك ، فغصبها السلطان ، فلم تحمل شيئًا من ذلك العام، ولا تمرة واحدة ، وقال لي شيخ من أشياخ الصعيد : أعرف هذه النخلة ، وقد شاهدتها وهي تحمل عشرة أرادب وستين ويبة وكان صاحبها يبيعها في سني الغلاء كل ويبة بدينار .

وحكى أيضًا ـ رحمه اللّه تعالى ـ قال : شهدت في الإسكندرية والصيد مطلق للرعية السمك يطفو على الماء لكثرته ، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر ، ثم حجزه الوالي ومنع الناس من صيده ، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا .

وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

وروى أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا : كان الناس إذا أصبحوا في زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا مَنْ قُتِلَ البارحة ، ومَنْ صُلِب ، ومَنْ جُلِد ، ومَنْ قُطِع ، وما أشبه ذلك ، وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار ، ولما ولي سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة ، ويتغالون في المناكح والسراري ، ويعمرون مجالستهم بذكر ذلك .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز ـ رضي اللّه عنه ـ كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن، وكم وردك كل ليلة ، وكم يحفظ فلان ، وكم يختم ، وكم يصوم من الشهر ، وما أشبه ذلك.

---

[1] محمد بن الوليد بن محمد بن خلق القرشي الفهرى الأندلس . أبو بكر الطرطوشى . ويقال : ابن رندقة . أديب من الفقهاء المالكية . من أهل طرطوشة بشرقى الأندلس . توفى سنة ٥٢٠ هـ .

فينبغي للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف ـ رضي اللَّه عنهم ـ ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك ، وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل أو ملك مقرب ، وقد قيل : إن مثله كمثل الرياح التي يرسلها اللَّه تعالى بشرًا بين يدي رحمته ، فيسوق بها السحاب ، ويجعلها لقاحًا للثمرات ، وروحًا للعباد .

ولو تتبعت ما جاء في العدل والإنصاف ، وفضل الإمام العادل لألفت في ذلك مجموعًا جامعًا لهذا المعنى ، ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأمه السامع ، وباللَّه التوفيق إلى أقوم طريق ، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب العشرون

في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك

قال اللّه تعالى : ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود : ١٨] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم :٤٢] قيل : هذ تسلية للمظلوم ووعيد للظالم ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف : ٢٩] وقال تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٢٧]، وقال رسول اللّهﷺ « مَنْ مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام »[١] ، وقال أيضاًﷺ : « رحم اللّه عبداً كان لأخيه قبله مظلمة في عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتي يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم »[٢] ، وقال أيضاًﷺ : « مَنْ اقتطع حق امرئٍ مسلم أوجب اللّه له النار وحرم عليه الجنة » ، فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئًا يسيرًا قال : « ولو كان قضيبًا من أراك »[٣] .وعن حذيفة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّهﷺ : « أوحى اللّه تعالى إِلَيَّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتًا من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منهم مظلمة ، فإني ألعنه ما دام قائمًا يصلي بين يدي حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة »[٤] وعن علي ـ رضي اللّه عنه ـ عن النبيﷺ : « إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل اللّه تعالى حقه » ، وعنهﷺ أنه قال : « ما مِنْ عبد ظُلم فشخص ببصره إلى السماء إلا قال اللّه عز وجل لبيك عبدي حَقٌ لأنصرنك ولو بعد حين » ، وعنه أيضًا أنه قال :« ألا إن الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفر ، وظلم لا يترك ، وظلم مغفور لا يطلب » ، فأما الظلم الذي لا يغفر : فالشرك باللّه ـ والعياذ باللّه تعالى ـ، قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء:٤٨] . وأما الظلم الذي لا يترك : فظلم العباد بعضهم بعضًا ، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب : فظلم العبد نفسه.

ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج ، فقال : يا رَبِّ إن حلمك على الظالمين قد أضر

---

(١) ضعيف : رواه الطبراني فى « الكبير » (٦١٩) وفى « مسند الشاميين » (١٩١١) والبيهقى فى« الشعب » (٧٦٧٥) وفى سنده عياش بن مؤنس قال الهيثمى فى« المجمع » (٤ / ٢٠٥) لم أجد من ترجمه .

(٢) صحيح : رواه الترمذى فى « صفة القيامة » (٢٤٢٠) وقال : حسن صحيح .

(٣) رواه البخارى فى « الشهادات » (٢٦٧٣) ومسلم فى « الإيمان » (٣٦٤) .

(٤) موضوع : رواه الحاكم فى « تاريخه » والبيهقى وابن عساكر والديلمى وفى سنده : إسحاق بن أبى يحيى وهو هالك يأتى بالمناكير على الأثبات .

بالمظلومين . فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت ، وكأنه قد دخل الجنة ، فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين وإذا مناد ينادي حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين، وقيل : من سَلَبَ نعمةَ غَيْره سَلَبَ نِعْمَتَهُ غَيْرُه .

وسمع مسلم بن بشار رجلاً يدعو على من ظلمه فقال له : كِلِ الظالمَ إلى ظلُمِه فهو أسرع فيه من دعائك .

ويقال من طال عدوانه زال سلطانه ، وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم ، ورُئي لوح في أفق السماء مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتحته هذا البيت :

فَلَمْ أرَ مِثْلَ العَدْلِ للمرئِ رَافعًا وَلَمْ أرَ مِثْلَ الْجَوْرِ للمرئِ وَاضعًا

وقال الشاعر :

كُنْتَ الصحيحَ وَكُنَّا مِنْكَ في سَقَمٍ فإنْ سَقِمْتَ فَإنَّا السالمون غَدَا
دَعَتْ عَلَيْكَ أكُفٌ طَالَمَا ظُلِمَتْ وَلَنْ تُرَدَّ يَدٌ مَظْلُومَةٌ أبَدَا

وكان معاوية يقول : إني لأستحي أن أظلم مَنْ لا يجد عليَّ ناصرًا إلا الله ، وقال أبو العيناء(١) كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود ، وقلت قد تضافروا علي وصاروا يدًا واحدة فقال : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠]، فقلت له : إن لهم مكرًا فقال: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣]، قلت : هم فئة كثيرة فقال : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] . وقال يوسف بن إسباط من دعا لظَالمَ بالبَقاءَ ، فقد أحبَ أن يَعصَي الله في أرضه . وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال أبو القاسم ﷺ : « **من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه**»(٢)، وقال مجاهد : « يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام ، فيقال لهم : هل يؤذيكم هذا ؟ فيقولون : إي والله ، فيقال لهم : هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين » .

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لما كشف الله العذاب عن قوم يوسف ـ عليه السلام ـ ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه ، وقال أبو ثور

(١) محمد بن القاسم الهاشمي(أبو العيناء). ولد في الأهواز وتوفي بالبصرة. أديب وشاعر . نشأ في البصرة . تعلم على أبي عبيدة والأصمعي ، وأبي زيد. رويت عنه الأخبار في « الأغاني » توفي سنة ٢٨٣هـ.
(٢) رواه مسلم في « البر والصلة » (٢٦١٦ / ٢٦١٧) .

ابن يزيد : الحجر في البنيان من غير حلّه عربون على خرابه ، وقال غيره : لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب ، وقال بعض الحكماء : اذكر عند الظلم عدل اللّه فيك ، وعند القدرة قدرة اللّه عليك لا يعجبك رحب الذراعين سفّاك الدماء ، فإن له قاتلاً لا يموت .

وقال سحنون بن سعيد : كان يزيد بن حاتم يقول : ما هبت شيئًا قط هيبتي من رجل ظلمته ، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا اللّه فيقول : حسبك اللّه ، الله بيني وبينك . وقال بلال ابن مسعود: اتق اللّه فيمن لا ناصر له إلا اللّه . وبكى علي بن الفضل يومًا فقيل له: ما يبكيك؟. قال : أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي اللّه تعالى ولم تكن له حجة .

وروي أن النبي ﷺ قال: « **يقول اللّه تعالى اشتد غضبي على من ظلم مَنْ لا يجد له ناصرًا غيري** » ، ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر : يا سليمان اذكر يوم الأذان ، فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له : ما يوم الأذان ؟ فقال : قال اللّه تعالى: ﴿**فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [الأعراف :٤٤] قال : فما ظلامتك ؟ قال : أرض لي بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك ، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضًا مع أرضه .

وروي أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم فضربه المعلم يومًا من غير ذنب فأوجعه ، فحقد أنوشروان عليه، فلما ولي الملك قال للمعلم : ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلمًا ؟ فقال له : لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك ، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان : زه زه (١).

وقال محمد بن سويد وزير المأمون :

فَلا تَأْمَنَنَّ الدَّهرَ حُرًّا ظَلَمْتَهُ ... فَمَا لَيْلُ حُرٌّ إنْ ظَلَمْتَ بِنَائم

وروي أن بعض الملوك رَقَمَ (٢) على بساطه :

لا تَظْلَمَنَّ إذا مَا كُنْتَ مُقْتدرًا ... فالظُّلْمُ مَصدرُه يُفْضِى إلى النّدمِ

تَنامُ عيناك والمظلومُ مُنتبِهٌ ... يَدْعُو عَلَيْكَ وعينُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

وما أحسن ما قال الآخر :

أتهزأُ بالدعاءِ وَتزدَرِيه ... وَمَا تَدْرِي بِمَا صنعَ الدعاءُ

(١) لفظة فارسية يقال : استحسانا . كما يقال فى العربية عند المدح والإعجاب أو الفخر : بخ بخ.
(٢) رقَم : كتب .

سِهامُ الليلِ نافذةٌ ولكنْ لَهَا أمدٌ وَلِلأمدِ انْقِضَاءُ
فَيَمْسِكُها إذ ما شَاءَ ربِّي وَيُرْسِلُهَا إذا نَفَذَ القضاءُ

وقال أبو الدرداء : إياك ودمعة اليتيم ، ودعوة المظلوم فإنها تسري بالليل والناس نيام ، وقال الهيثم بن فراس السامي من بني سامة بن لؤي في الفضل بن مروان :

تجبَّرتْ يا فَضْلُ بنُ مروانَ فاعْتَبِرْ فَقَبْلَكَ كان الفضلُ والفضلُ والفضل
ثَلاثةُ أملاكِ مَضَوْا لِسَبِيلهِم أَبَادهمُ الموتُ المشتَّتُ والقتل

يريد الفضل بن الربيع ، والفضل بن يحيى ، والفضل بن سهل .

ووجدت تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رُقْعَةٌ مكتوب فيها :

وحق اللهِ إنّ الظلم لؤمٌ وأنَّ الظلم مرتعُهُ وخيمُ
إلى ديّان يوم الدين نمضي وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الخصومُ

ووجد القاسم بن عبيد اللّه المكتفي في مصلاه رقعة مكتوبًا فيها :

بَغَي وللبغـــي سهـــامٌ تنتظـــرْ أنفذ في الأحشاءِ من وَخْزِ الإبرْ
سهامُ أيدي القانتين في السَّحَر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء : ما كنت لألِيَ(١) هذا بعدما حدثني إبراهيم ، قال : وما حدثك إبراهيم ؟ قال : حدثني عن علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ : « **إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة ، وأعوان الظلمة ، وأشياع الظلمة حتى مَنْ بَرَى لهم قلمًا أو لاق لهم دواة ، فيجمعُون في تابوت من حديد ثم يرمي بهم في نار جهنم** » (٢). وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات (٣) قال : جلس أبي للمظالم يومًا فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالسًا ، فقال له : ألك حجة ؟ قال : نعم . أدنني إليك فإني مظلوم وقد أعوزني العدل والإنصاف ، قال : ومن ظلمك ؟ قال : أنت ، ولست أصل إليك فأذكر حاجتي . قال : وما يحجبك ، وقد ترى مجلسي مبذولاً ؟ قال : يحجبني عنك هيبتك ،

(١) إلِيَ : أكون وَاليًا .
(٢) لم أقف عليه .
(٣) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، أبو جعفر ، المعروف بابن الزيات . نحوى . لغوى . أديب . وزر للمعتصم . ونال عنده خطوة . وله أشعار رائعة . وعذ به الخليفة المتوكل فى التنور . بعد الحبس وتوفى ٢٣٣هـ وهارون هذا ابنه .

وطول لسانك ، وفصاحتك . قال : ففيم ظلمتك ؟ قال : في ضيعتي الفلانية أخذها وكيلك غصبًا مني بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها ، فيبطل ملكي فوكيلك يأخذ غلتها ، وأنا أؤدي خراجها ، وهذا لم يسمع بمثله في المظالم، فقال له محمد : هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء ، فقال له الرجل : أيؤمنني الوزير من غضبه حتى أجيب؟ قال: نعم قد أمنتك. قال : البينة هم الشهود ، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء ، وأي شيء هذه الأشياء إن هي إلا الجور وعدولك عن العدل ؟ فضحك محمد ، وقال : صدقت والبلاء موكل بالمنطق ، وإني لأرى فيك مصطنعًا ، ثم وقع له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه ؛ فكان قبل أن يتوصل إلى الإنصاف وإعادة ضيعته له ، يقال له : يا فلان كيف الناس ؟ فيقول : بشر بين مظلوم لا يُنصر ، وظالم لا ينتصر، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ورد عليه ضيعته وأنصفه . قيل له ليلة : كيف الناس الآن ؟ قال : بخير . قال : قد اعتمدت معهم الإنصاف ، ورفعت عنهم الإجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب ، وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب ، والفوز بكل مطلوب.

ومما نقل في الآثار الإسرائيلية في زمان موسى ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ أن رجلاً من ضعفاء بني إسرائيل كان له عائلة ، وكان صيادًا يصطاد السمك ، ويقوت منه أطفاله وزوجته ، فخرج يومًا للصيد فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ، ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله ، فلقيه بعض العوانية (١) ، فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد ، فرفع العواني خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصبًا بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال : إلهي جعلتني ضعيفًا وجعلته قويًا عنيفًا ، فخذ لي بحقي منه عاجلاً فقد ظلمني ولا صبر لي إلى الآخرة ، ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزته (٢) في أصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له : دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسري الألم إلى بقية الكف ، فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه (٣) ، فقال له الطبيب : ينبغي أن تقطع اليد إلى

---

(١) العوانية : خدام الحاكم .

(٢) نكز : النخس بشيء مدبب .

(٣) فرائصه جمع فريصة : العضلة الصدرية .

المعصم لئلا يسري الألم إلى الساعد ، فقطعها فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضواً انتقل الألم إلى العضو الآخر الذي يليه ، فخرج هائماً على وجهه مستغيثًا إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به ، فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلاً يقول : يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك ؟ امض إلى خصمك الذي ظلمته فارضه ، فانتبه من النوم وفكر في أمره فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد ، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الإقالة مما جناه ، ودفع إليه شيئًا من ماله وتاب من فعله فرضي عنه خصمه الصياد ، فسكن في الحال ألمه ، وبات تلك الليلة . فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ، ونزل الوحي على موسى ـ عليه السلام ـ: يا موسى وعزتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته .

ومما تضمنته أخبار الأخيار : ما رواه أنس ـ رضي اللّه عنه ـ قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه تعالى عنه ـ قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ، فقال عمر ـ رضي اللّه عنه ـ لقد عذت بمجير فما شأنك ؟ فقال : سابقت بفرسي ابنًا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعني(١) بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين فبلغ ذلك عمرًا أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك .

فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو ابن العاص إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصري : أقم حتى يأتيك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو ابن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرمى إليه عمر ـ رضي اللّه عنه ـ بالدرة ، قال أنس ـرضي اللّه عنه ـ: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول اضرب ابن الأكرمين . قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت . قال : ضعها على ضلع عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني . قال : أما واللّه لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع ، ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال : يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟ فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول : إني لم أشعر بهذا .

وقيل : لما ظلم أحمد بن طولون(٢) قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى

(١) يقنعنى : ضرب رأس بالسوط .

(٢) أحمد بن طولون . أبو العباس . أمير الديار المصرية ، والشامية والثغور تركى . شجاع . جواد . حسن السيرة شديد على خصومه فتاكٌ فيمن خالفه وعصاه . بنى الجامع المنسوب إليه بالقاهرة . وقلعة يافا بفلسطين . توفى سنة ٢٧٠ هـ .

السيدة نفيسة (١) يشكونه إليها فقالت لهم : متى يركب ؟، قالوا : في غد ، فكتبت رقعة ووقفت بها في طريقه وقالت : يا أحمد يا ابن طولون . فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها ملكتم فأسرتم ، وقدرتم فقهرتم ، وخولتم فعسفتم ، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم هذا ، وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها ، وأكباد جوعتموها ، وأجساد عريتموها ، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون ، وجوروا فإنا باللّه مستجيرون ، وأظلموا فإنا إلى الله متظلمون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] قال : فعدل لوقته .

وحكي أن الحجاج حبس رجلاً في حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها : قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام ، والموعد القيامة ، والسجن جهنم ، والحاكم لا يحتاج إلى بينة ، وكتب في آخرها :

سَتَعْلَمُ يَا نَؤُومْ إذا الْتَقَيْنَا ... غَدًا عِنْدَ الإلهِ مَنِ الظّلومُ
أَمَا واللهِ إِنَّ الظلمَ لُؤْمٌ ... وَمَا زَالَ الظلومُ هو الملومُ
سَيَنْقطعُ التلذُّذُ عَنْ أُناسٍ ... أَدَامُوه وَيَنْقَطِعُ النَّعِيمُ
إلى ديّانِ يَوْمِ الدينِ نَمْضِي ... وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الخُصومُ

وحكي أبو محمد الحسين بن محمد الصالحي قال : كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار بعد أن أكل فانتبه منزعجًا وقال . يا خادم :، فأسرعنا الجواب فقال : ويلكم أعينوني والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدراً في سفينة فارغة فاقبضوا عليه ، وائتوني به ووكلوا بالسفينة من يحفظها ، فأسرعنا فوجدنا ملاحًا في سفينة منحدرة وهي فارغة فقبضنا عليه، ووكلنا بها من يحفظها وصعدنا به إلى المعتضد ، فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها ، وقال : أصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك ، فتلعثم وقال : نعم ، كنت سحراً في المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلى كثيرة وجواهر ، فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سَدَدْتُ فمها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ، ثم طرحتها في الماء ولم أجسر على

(١) السيدة نفيسة : نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب . ولدت بمكة سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت فى المدينة . تزوجت إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق . وانتقلت إلى القاهرة . صاحبة المشهد المعروف بمصر . عالمة بالحديث والتفسير . تقية . صالحة سمع عنها الشافعى وزارها العلماء وأخذوا عنها . توفيت فى مصر سنة ٢٠٨ هـ .

حمل سلبها إلى داري لئلا يفشو الخبر علي ، فعولت على الهروب والانحدار إلى واسط[(١)] فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين ، وأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني إليك ، فقال : وأين الحلى والسلب ؟ قال : في صدر السفينة تحت البواري .

قال المعتضد : علي به الساعة ، فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ، ثم أمر أن ينادى ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرًا وعليها ثياب فاخرة وحلى فليحضر ، فحضر في اليوم الثاني ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم .

قال: فقلت : يا مولاي من أين علمت أو أوحى إليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية .

فقال : بل رأيت في منامي رجلاً شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التي قتلها اليوم ظلمًا وسلبها ثيابها ، وأقم عليه الحد ولا يفتك ، فكان ما شاهدتهم .

فيتعين على كل ولي أمر أن يعدل في الأحكام ، وأن يتبصر في رعيته ؛ وعلى كل غافل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالنصفة ويراقب اللّٰه في السر والعلانية ، ويعلم أن اللّٰه يجازي على الخير والشر ، ويعاقب الظالم على ظلمه وينتصر للمظلوم ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفلته ؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا اللّٰه ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلا باللّٰه العلي العظيم ، وصلَّى اللّٰه على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين ، والحمد للّٰه رب العالمين .

---

(١) مدينة عراقية واقعة بين الكوفة والبصرة .

الباب الحادي والعشرون

في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال ، وسيرة السلطان في استجباء الخراج ، وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان

الفصــل الأول

في سيرة السلطان في استجباء الخراج والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى : الخراج عماد الملوك ، وما استعزوا بمثل العدل ، وما استنذروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراب البلاد تعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور، ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو إن شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع ، ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته ، وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين ، فيتركونها فتخرب الأرض ، ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ، ويضعف الخراج ، وينتج من ذلك ضعف الأجناد ، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان .

وروي : أن المأمون أرِقَ ذات ليلة فاستدعى سميرًا يحدثه ، فقال : يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة ، فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها ، فقالت بومة البصرة لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلي في صداق ابنتي مائة ضيعة خربة ، فقالت بومة الموصل لا أقدر عليها لكن إن دام والينا ـ سلمه اللّه ـ علينا سنة واحدة فعلت ذلك ، قال : فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم ، وأنصف الناس بعضهم من بعض ، وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية .

وقال أبو الحسن بن علي الأسدي : أخبرني أبي قال : وجدت في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون في زمن يوسف الصديق ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار، من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد كحفر الخلجان ، والإنفاق على الجسور ، وسد الترع، وتقوية من يحتاج إلى التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة في البلدان وغير ذلك من الآلات ، وأجرة من يستعان به لحمل البذر وسائر نفقات تطبيق الأرض ، ثمانمائة ألف دينار ، ولما ينصرف للأرامل والأيتام وإن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون أربعمائة ألف دينار ، ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائة ألف دينار ، ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبًا وينادى عليه ، برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم

يحضر، فيحضر لذلك جمع كثير ، ماتتا ألف دينار ، فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهنؤوه بتفرقة الأموال ، ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والنعماء والسلامة ، وأنهوا إليه حال الفقراء فيأمر بإحضارهم وتغيير شعثهم [١] ، ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته ؛ فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذي كان له ، ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتبة في كل سنة ماتتا ألف دينار ، ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ للملك ويجعله في بيت الملك لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار .

وقال أبو رهم : كانت أرض مصر أرضًا مدبرة حتى أن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه حيث شاءوا ويرسلونه حيث شاءوا ، وذلك قول فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف:٥١] . وكان ملك مصر عظيمًا لم يكن في الأرض أعظم منه ملكًا ، وكانت الجنان بحافتي النيل متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد ، وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعًا لما دَبَّرُوا من جسورها ، وحافاتها ، والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها ، وذلك قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الدخان : ٢٥، ٢٦] .

وقال عبد الله بن عمر ـ رضي اللّه عنهما ـ: استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدبيره فجعل أهل القرى يسألونه أن يجري لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالاً، فكان يذهب به من قرية إلى قرية من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى القبلة ويسوقه كيف أراد وإلى حيث قصد ، فليس خليج بمصر أكثر عطوفًا منه ؛ فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة، فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر ، فقال له فرعون : إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبده ، ويفيض عليه من خزائنه وذخائره ، ولا يرغب في ما بأيديهم ، رد على أهل القرى أموالهم ، فرد عليهم ما أخذه منهم . فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف اللّه ولا يرجو لقاءه ، ولا يخاف عذابه ، ولا يؤمن بيوم الحساب فكيف تكون سيرة من يقول : لا إله إلاّ اللّه محمّدًا رسول اللّه ، ويوقن بالحساب والثواب والعقاب ؟ .

وقال ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ في قوله تعالى : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥] . قال : هي خزائن مصر ، ولَمَّا استوثق أمر مصر ليوسف ـ عليه السلام ـ، وكمل وصارت الأشياء إليه وأراد اللّه تعالى أن يعوضه على صبره ، لما لم يرتكب محارمه ، وكانت مصر أربعين فرسخًا في مثلها ، وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب ، وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلم ، وكانت السنون التي حصل فيها الغلاء والجوع مات

(١) شعر الرأس : مُغْبَرٌ مُلَبَّدٌ .

العزيز ، وتملك يوسف ، وافتقرت زليخا ، وعَمِيَ بَصَرُها ، فجعلت تتكفف الناس . فقيل لها : لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك ويغنيك ، فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه ، ثم قيل لها : لا تفعلي لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسيء إليك ، ويكافئك على ما سبق منك إليه .

فقالت :أنا أعلم بحلمه وكرمه ، فجلست له على رابية في طريقه يوم خروجه ، وكان يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته ، فلما أحست به قامت ، ونادت سبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيتهم ، والعبيد ملوكًا بطاعتهم ، فقال يوسف ـ عليه السلام ـ : من أنت؟ فقالت : أنا التي كنت أخدمك بنفسي ، وأرجِّل شعرك بيدي ، وأكرم مثواك بجهدي، وكان مني ما كان ، وقد ذقت وبال أمري ، وذهبت قوتي ، وتلف مالي ، وعمي بصري، وصرت أسأل الناس ، فمنهم من يرحمني ، ومنهم من لا يرحمني ، وبعدما كنت مغبوطة (١) أهل مصر كلها. صرت مرحومتهم بل محرومتهم ، وهذا جزاء المفسدين ، فبكى يوسف ـ عليه السلام ـ بكاءً شديدًا ، وقال لها : هل في قلبك من حبك إياي شيء؟ قالت : نعم ، والذي اتخذ إبراهيم خليلاً لنظرة إليك أحب إلي من ملء الأرض ذهبًا وفضة ، فمضى يوسف وأرسل إليها يقول : إن كنت أيما (٢) تزوجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنيناك.

فقالت لرسول الملك : أنا أعرف أنه يستهزئ بي هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي ، فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ فأمر بها يوسف ـ عليه السلام ـ فجهزت ، وتزوج بها ، وأدخلت عليه فَصَفَّ يوسف ـ عليه السلام ـ قدميه ، وقام يصلي ، ودعا اللّٰه تعالى باسمه العظيم الأعظم ، فرد اللّٰه عليها حسنها ، وجمالها ، وشبابها ، وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها ، فإذا هي بكر فولدت له إفرائيم بن يوسف ، ومنشا بن يوسف . وطاب في الإسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما .

فينبغي للقوي أن لا ينسى الضعيف ، وللغني أن لا ينسى الفقير ، فَرُبَّ مطلوب يصير طالبًا، ومرغوب فيه يصير راغبًا ، ومسئول يصير سائلاً ، وراحم يصير مرحومًا ، فنسأل اللّٰه تعالى أن يرحمنا برحمته ويغنينا بفضله.

ولما ملك يوسف ـ عليه السلام ـ خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير ، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع .

---

(١) المغبوط : الذى فى نعمة ويتمنى الإنسان أن يكون له من النعمة مثلها دون أن يتمنى زوال نعمة من رآه منعما وهذه مشروعة . وهذه الغبطة غير الحسد . فالحسد تمنى انتقال النعمة من المنعم عليه إليه وصرفها عن الغنى وانتقالها إليه . وهذه حرام ـ .

(٢) الأيم : التى فقدت زوجها ـ الأرملة .

ومن حسن سيرة العمال : ما روي أن عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ استعمل على حمص رجلاً يقال له : عمير بن سعد ، فلما مضت السنة كتب إليه عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ أن أقدم علينا ، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشيًا حافيًا عكازته بيده ، وإداوته ، ومزوده ، وقصعته على ظهره، فلما نظر إليه عمر قال له : يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلادَ سوء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أما نهاك اللَّه أن تجهر بالسوء ، وعن سوء الظن ؟ وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها ، فقال له: وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها ، وأدفع بها عدوًا إن لقيته، ومزود (١) أحمل فيه طعامي ،وإداوة (٢) أحمل فيها ماء لشربي ولطهوري ، وقصعة (٣) أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي ، وآكل فيها طعامي ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي ، قال : فقام عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ من مجلسه إلى قبر رسول اللَّه ﷺ ، وأبي بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ، فبكى بكاءً شديدًا ، ثم قال : اللهمّ ألحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل ، ثم عاد إلى مجلسه ، فقال : ما صنعت في عملك يا عمير ؟ فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منه شيء لأتيتك به ، فقال عمر : عد إلى عملك يا عمير ، قال : أنشدك اللَّه يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي ، فأذن له فأتى أهله ، فبعث عمر رجلاً يقال له : حبيب بمائة دينار ، وقال له : اختبر لي عميرًا وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله هل هو في سعة أم ضيق؟، فإن كان في ضيق فادفع إليه المائة دينار ، فأتاه حبيب ، فنزل به ثلاثًا ، فلم ير له عيشًا إلا الشعير والزيت، فلما مضت ثلاثة أيام قال : يا حبيب إن رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشًا منا ، فإننا واللَّه وتاللَّه لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به ، قال : فدفع إليه المائة دينار ، وقال: قد بعث بها أمير المؤمنين إليك ، فدعا بفرو خلق لامرأته ، فجعل يصر منها الخمسة دنانير ، والستة ، والسبعة، ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها .

فقدم حبيب على عمر ، وقال: جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير، فأمر له عمر بوسقين من طعام وثوبين ، فقال : يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما ، وأما الوسقان (٤) فلا حاجة لي بهما عند أهلي صاعٌ من بر هو كافيهم حتى أرجع إليهم .

---

(١) مزود : وعاء يوضع فيه الزاد .

(٢) إداوة : إناء صغير يوضع فيه الماء .

(٣) القصعة : وعاء يؤكل فيه . ويستخدم للثريد . وغالبا كان يتخذ من الخشب .

(٤) الوسق : حمل بعير .

وروي أن عمر ـ رضي اللّه عنه ـ صَرَّ أربعمائة دينار ، وقال للغلام : اذهب بها إلى أبي عبيدة (١)بن الجراح ؛ ثم تربص عنده في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها ، فذهب بها الغلام إليه ، وقال له :يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه في بعض حوائجك، قال : وصله اللّه ورحمه ، ثم دعا بجاريته ، وقال لها : اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها ، فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له : انطلق بها إلى معاذ بن جبل (٢)، وانظر ما يكون من أمره ، فمضى إليه وقال له كما قال لأبي عبيدة بن الجراح ؛ ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة ، فرجع الغلام ، فأخبره فقال عمر: إنهم إخوة بعضهم من بعض ـ رضي اللّه تعالى عنهم أجمعين ـ .

الفصل الثاني
في أحكام أهل الذمة

روي عن عبد الرحمن بن غنم قال : كتبنا لعمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ حين صالح نصارى أهل الشام . بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ، ولا فيما حواليها كنيسة ولا ديرًا ولا قلية (٣) ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ، ولا ما كان مختطًا منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل ، وأن تنزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوى في كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ، ولا نكتمه عن المسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو إليه أحدًا ولا نمنع أحدًا من ذوي قراباتنا الدخول في دين الإسلام إن أراده ، وأن نوقر المسلمين ، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، وأن لا نتشبه بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب في السروج ، ولا نتقلد بالسيوف ، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ، و لا نبيع الخمر ، وأن

---

(١) أبو عبيدة بن الجراح : عامر بن عبد اللّه بن الجراح بن هلال الفهرى القدسى . أمير . قائد . صحابى . أحد العشرة المبشرين بالجنة . أمين هذه الأمة . ولد بمكة . كان من السابقين إلى الإسلام . تولى قيادة الجيش بعد خالد بن الوليد . توفى فى طاعون عمواس سنة ١٨ هـ .

(٢) معاذ بن جبل بن عمير بن أوس . الأنصارى . الخزرجى ، أبو عبد الرحمن صحابى . جليل . كان أعلم الأمة بالحلال والحرام ، توفى سنة ١٨ هـ .

(٣) القلية : حجرة الناسك أو الراهب (يونانية) .

تجز مقادم رؤوسنا ، ونلزم زيَّنا حيثما كنا ، وأن نشد الزنار على أوساطنا ، ولا نظهر صلباننا ، ولا كتبنا في شيء من أسواق المسلمين وطرقهم ، ولا نضرب بالنواقيس في كنائسنا إلا ضربًا خفيفًا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، ولا نتطلع على منازلهم ، وقد شرطنا ذلك على أنفسنا ، وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ، وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق .

فكتب إليه عمر ـ رضي اللّه عنه ـ أن امض ما سألوه ، والحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم ، أن لا يشتروا شيئًا من سبايا المسلمين ؛ ومن ضرب مسلمًا عمدًا فقد خلع عهده .

وروي : أن بني ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز ـ رضي اللّه عنه ـ فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا قوم من العرب أفرض لنا ، قال: نصارى ؟ قالوا: نصارى. قالوا : ادعوا إلي حجامًا، ففعلوا ، فجز نواصيهم ، وشق من أرديتهم حزمًا يحتزمون بها ، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج ، وأن يركبوا على الأكف(١) من شق واحد .

وروي : أن أمير المؤمنين الخليفة جعفرًا المتوكل أقصى اليهود والنصارى ولـم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم ، وخالف بين زيهم وزي المسلمين ، وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل ، فأحيا اللّه به الحق ، وأمات به الباطل ، فهو يذكر بذلك ، ويترحم عليه ما دامت الدنيا.

وكان عمر ابن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ يقول : لا تستعملوا اليهود والنصارى ، فإنهم أهل رشا في دينهم ، ولا يحل في دين اللّه الرشا .

ولما استقدم عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ أبا موسى الأشعري ـ رضي اللّه عنه ـ من البصرة ، وكان عاملاً بها للحساب ، دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيًا ، فقال له عمر : قاتلك الله وضرب بيده على فخذه ، وليت ذميًا على المسلمين ، أما سمعت اللّه تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة : ٥١] . هلا اتخذت حنيفيًا(٢) ؟ فقال: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه ، فقال : لا

(١) الأكف : جمع مفرد أكاف الحمار : البرذعة .

(٢) حنيفيا : الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه . والحنفاء : فريق من العرب قبل الإسلام كانوا ينكرون الوثنية . كل من كان قبل الإسلام على دين إبراهيم عليه السلام ـ (فى الحج ، والختان ، واعتزال الأصنام) والحنيفية : ملة الإسلام ، ويوصف بها ، فيقال : المِلَّة الحنيفية .

أكرمهم إذ أهانهم اللّه ، ولا أعزهم إذ أذلهم اللّه ، ولا أدنيهم إذ أقصاهم اللّه .

وكتب بعض العمال إلى عمر ـ رضي اللّه عنه ـ أن العدو قد كثر وأن الجزية قد كثرت ، أفنستعين بالأعاجم ؟ فكتب إليه أنهم أعداء اللّه ،وأنهم لنا غششة فأنزلوهم حيث أنزلهم اللّه.

ولما خرج رسول اللّه ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة فقال : إني أريد أن اتبعك وأصيب معك . قال : أتؤمن باللّه ورسوله ؟ قال : لا ، قال : ارجع ، فلن نستعين بمشرك ، ثم لحقه عند الشجرة ، فقال : جئتك لأتبعك وأصيب معك . قال : أتؤمن باللّه ورسوله ؟ قال : لا . قال : فارجع ، فلن أستعين بمشرك ، ثم لحقه عند ظهر البيداء، فقال له مثل ذلك ، فأجابه بمثل الأول ، فقال : نعم . فخرج به وفرح به المسلمين ، وكان له قوة وجلد وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بكافر ، هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ ويراق دمه، فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين ؟.

وكتب عمر بن عبد العزيز ـ رضي اللّه تعالى عنه ـ إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن ، فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة ، فكتب إليهم إن لم يكن في أهل القرآن خير، فأجدر أن لا يكون في غيرهم.

قال أصحاب الشافعي: ويلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين ، وأن يلبسوا قلانس (١) يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة ، ويشدوا الزنانيير على أوساطهم ، ويكون في رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام ، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات(٢)، وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الإزار ، وقيل : فوق الإزار ، وهو الأولي ، ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام ، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ، ولا يركبون الخيل ولا البغال ، ولا الحمير بالأكف عرضاً ولا يركبون بالسروج ، ولا يتصدرون في المجالس، ولا يبدؤون بالسلام ، ويلجأون إلى أضيق الطرق ، ويمنعون أن يتطاولوا على المسلمين في البناء، وتجوز المساواة ، وقيل : لا تجوز . وإن تملكوا دارًا عالية أقروا عليها ، ويمنعون من إظهار المنكر كالخمر ، والخنزير ، والناقوس ، والجهر بالتوراة والإنجيل ، ويمنعون من المقام في أرض الحجاز ـ وهي مكة ، والمدينة ، واليمامة ـ وإن امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم ، وإن زنى أحد منهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عينًا (٣) للكفار ، أو دل على عورة المسلمين ، أو فتن مسلمًا عن دينة ، أو قتله ، أو قطع عليه الطريق تنتقض ذمته .

---

(١) القلانس جمع قَلَنْسُوَة : لباس الرأس .

(٢) الطليسانات جمع الطيلس : كساء يلبسه الخواص . وهو من لباس العجم . وهو ما يعرف في العامية المصرية بـ «الشال » .

(٣) العين : الجاسوس . وهو مجاز مرسل من فنون البلاغة : من إطلاق الجزء على الكل .

وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء ، فمنهم من قال : إنها مقدرة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ إلى عثمان بن حنيف بالكوفة ، فوضع على الغني ثمانية وأربعين درهمًا ، وعلى مَنْ دونه أربعة وعشرين درهمًا ، وعلى من دونه اثني عشر درهمًا ، وذلك بمحضر من الصحابة ـ رضي اللَّه عنهم أجمعين ـ ، ولم يخالفه أحد ، وكان الصرف اثنا عشر بدينار ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وأحد قولي الشافعي . ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر ، ولا يجوز أن ينقص عنه ، ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين .

وأما الكنائس ، فأمر عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ أن تهدم كل كنيسة بعد الإسلام ، ومنع أن تجدد كنيسة ، وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ، ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه ، وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء ، وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين . وشدد في ذلك عمر بن عبد العزيز ، وأمر أن لا يترك في دار الإسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة .

واللَّه تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل ، وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثاني والعشرون

في اصطناع المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وقضاء حوائج المسلمين ، وإدخال السرور عليهم

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾[البقرة : ٢٣٧] . وقال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[المائدة : ٢] . وقال رسول اللَّه ﷺ : « **مَنْ مشى في عون أخيه ومنفعته ، فله ثواب المجاهدين في سبيل اللَّه** » (١)، وعن أنس - رضي اللَّه عنه - أن النبي ﷺ قال : « **الخَلْقُ كلهم عيال اللَّه ، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله** » (٢)، رواه البزار ، والطبراني في معجمه ، ومعنى عيال اللَّه : فقراء اللَّه تعالى ، والخَلْقُ كلهم فقراء اللَّه تعالى ، وهو يعولهم ، وروينا في مسند الشهاب عن عبد اللَّه بن عباس - رضي اللَّه عنهما - ، عن النبي ﷺ أنه قال : « **خير الناس أنفعهم للناس** » (٣) ، وعن كثير بن عبيد بن عمرو بن عوف المزني ، عن أبيه ، عن جده ، رضى الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن للَّه خلقًا خلقهم لقضاء حوائج الناس ، آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار ، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون اللَّه تعالى والناس في الحساب** » (٤) . وعن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **مَنْ سعى لأخيه المسلم في حاجة ، فقُضيت له أو لم تُقْضَ غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكُتبَ له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق** » (٥). وعن نافع عن ابن عمر - رضي اللَّه عنهما - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **مَنْ قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفًا عند ميزانه ، فإن رجح وإلا شفعت له** » (٦). رواه أبو نعيم في الحلية .

وروينا في مكارم الأخلاق لأبي بكر الخرائطي (٧)، عن أنس - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه : « **من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب اللَّه له بكل خطوة سبعين ، حسنة وكفّر عنه سبعين سيئة ، فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإن مات في خلال**

(١) ضعيف : رواه ابن البخاری عن علی بن أبی طالب رضی الله عنه .

(٢) ضعيف رواه البيهقی فی « الشعب » وأبو يعلی والبزار والطبرانی وابن أبی الدنيا فی قضاء الحوائج (ص ٧٧)، وفی سنده يوسف بن عطية الصفار وهو متروك كما فی التقريب .

(٣) حسن لغيره : رواه القضاعی فی « مسند الشهاب » (١٢٩ ، ١٢٣٤) وهو عن جابر رضی الله عنه ، وانظر « الصحيحة » (١ / ٧١٣) .

(٤) ضعيف فی سنده كثير بن عبيد بن عمرو وهو ضعيف كما فی « التقريب » (٢ / ١٣٢) .

(٥) لم أقف عليه .

(٦) موضوع : رواه أبو نعيم فی « الحلية » (٦ / ٣٥٣) وفی سنده إبراهيم بن الهيثم الغفاری قال الذهبی : نسبه ابن حبان إلی أنه يضع الحديث . وقال الحاكم : يروی عن جماعة من الضعفاء أحاديث موضوعة .

(٧) محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر السامری . الخرائطی ، أبو بكر . محدث . أديب . سكن الشام، وتوفی بفلسطين سنة ٣٢٧ هـ .

ذلك دخل الجنة بغير حساب » (١) . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من مشى مع أخيه في حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين الناس سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض** » (٢) . رواه أبو نعيم ، وابن أبي الدنيا . وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن لله عند أقوام نعمًا يقرها عندهم ما داموا في حوائج الناس ما لم يملوا فإذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم** » (٣) رواه الطبراني.

وروينا من طريق الطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من عبد أنعم الله عليه نعمة ، فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس إليه ، فتبرم ، فقد عرض تلك النعمة للزوال** » (٤) . وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أغاث ملهوفًا كتب الله له ثلاثًا وسبعين حسنة : واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه والباقي في الدرجات** » (٥) . وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «**أتدرون ما يقول الأسد في زئيره ؟** » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « **يقول: اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف** » (٦)، رواه أبو منصور الديلمي ، في مسند الفردوس . وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قيل : يا رسول الله أي الناس أحب إليك ؟ قال : «**أنفع الناس للناس** » ، قيل : يا رسول الله ، فأي الأعمال أفضل ؟ قال : « **إدخال السرور على المؤمن** » ، قيل : وما سرور المؤمن ؟ قال : « **إشباع جوعته ، وتنفيس كربته ، وقضاء دينه ، ومن مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه ، ومَنْ مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام ، ومَنْ كف غضبه ستر الله عورته ، وإن الخُلُقَ السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل** » (٧) . وعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ لقي أخاه المسلم بما يحب ليَسُرَّه بذلك سرَّه الله يوم القيامة** » (٨) ، رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن ، وروي عن عائشة رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ أدخل على أهل**

---

(١) موضوع .. رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٩٣) وابن الجوزي في « الموضوعات » (٢ / ١٧٣) وقال : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ . قال يحيى : عبد الرحيم بن زيد كذاب وأبوه ليس بشيء.

(٢) ضعيف . رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨ / ٢٠٠) وابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٣٥) .

(٣) ضعيف جدًا . رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٣٥٠) وقال الهيثمي في « المجمع » (٨ / ١٩٢) : فيه عمرو بن الحصين وهو متروك .

(٤) حسن . رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٥٢٩) .

(٥) موضوع . رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٣٩) وفي سنده زياد بن أبي حسان . قال الحاكم : روى عن أنس وغيره أحاديث موضوعة .

(٦) حديث : باطل .

(٧) ضعيف . رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٣٦) وفي سنده بكر بن خنيس وهو ضعيف .

(٨) ضعيف . رواه الطبراني في «الصغير» (٢/١٤٧) والدولابي في «الكنى» (١/١٥٩) وابن عدي في «الكامل» (٢/٢١٥) وفي سنده أحمد بن عبد الله بن أبي بزة وهو ضعيف.

بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له سروراً دون الجنة » [١] ، رواه الطبراني . وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما أدخل رجل على المؤمن من سرور إلا خلق اللّه مِنْ ذلك السرور ملكًا يعبد اللّه تعالى ويوحده ، فإذا صار العبد في قبره أتاه ذلك السرور، فيقولُ له : أما تعرفني ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا السرور الذي أدخلتني على فلان . أنا اليوم أؤانس وحشتك ، وألقنك حجتك ، وأثبتك بالقول الثابت ، وأشهد مشاهدك يوم القيامة ، وأشفع لك إلى ربك وأريك منزلك في الجنّة » ، رواه ابن أبي الدنيا .

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ يرفعه : « إذا أراد أحدكم الحاج فليبكر لها يوم الخميس ، وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران ، وآية الكرسي ، وإنا أنزلناه في ليلة القدر ، وأم الكتاب، فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة » [٢] ، وهو حديث مرفوع .

ومن كلام الحكماء : إذا سألت كريمًا حاجة ، فدعه يفكر فإنه لا يفكر إلا في خير ، وإذا سألت لئيمًا حاجة فعاجله ، لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل . وسأل رجل رجلاً حاجة ، ثم توانى عن طلبها ، فقال له المسئول : أنمت عن حاجتك ؟ فقال : ما نام عن حاجته مَنْ أسهرك لها ، ولا عدل بها عن محجة النجح مَنْ قصدك بها ، فعجب مِنْ فصاحته ، وقضى حاجته ، وأمر له بمال جزيل .

وقال مسلمة لنصيب : سلني ، فقال كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة ، فأمر له بالف دينار . وقال علي بن أبي طلب ـ كرم اللّه وجهه ـ ، فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها، وعنه أيضًا قال: لا تكثر على أخيك بالحوائج فإن العِجْلَ إذا أفرط في مَصٍّ ثدي أمه نطحته . وقال ذو الرياستين [٣] لثمامة ابن أشرس ما أدري ما أصنع بكثرة الطلاب ؟ فقال : زل عن موضعك وعلى أن لا يلقاك منهم أحد ، فقال له : صدقت ، وجلس لهم في قضاء حوائجهم .

وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي قال : عرضت على أبي الحسن علي بن محمد

---

(١) ضعيف . رواه الطبرانى فى « الأوسط » (٧٥١٩) وفى « الصغير » (٩١٠) وقال الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ١٩٣) فيه عمر بن حبيب القاضى وهو ضعيف .

(٢) لم اقف عليه .

(٣) ذو الرياستين : الفضل بن سهل السرخسى ، أبو العباس (١٥٤ ـ ٢٠٢ هـ) وزير المأمون ، وصاحب تدبيره . يلقب بذى الرياستين (الحرب والسياسة) . وثمامة بن أشرس النمرى ، أبو معن . من كبار المعتزلة وأحد الفصحاء البلغاء المقدَّمين . توفى نحو سنة ٢١٣ هـ .

ابن الفرات (١) رقعة في حاجة لي ، فقرأها ووضعها من يده ، ولم يوقع فيها بشيء ، فأخذتها وقمت وأنا أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين :

وَإذا خطبتَ إلى كريمٍ حاجةً ... وَأَبَى فَلا تَقْعَدْ عَلَيْه بِحاجبِ

فَلَرُبَّمَا مَنَعَ الكريمُ وَمَا بِه ... بُخلٌ وَلَكِنْ سوء حظٌ الطالبِ

فقال ـ وقد سمع ما قلت ـ ارجع يا أبا جعفر ، بغير سوء حظ الطالب ، ولكن إذا سألتمونا الحاجة ، فعاودونا ، فإن القلوب بيد اللّه تعالى ، فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت .

وسأل إسحاقُ بن ربعي ، إسحاقَ بنَ إبراهيم المصعبي أن يوصل له رقعة إلى المأمون ، فقال لكاتبه : ضمها إلى رقعة فلان ، فقال :

تَأنَّ لِحَاجتي واشْدُدْ عُراها ... فقد أَضْحَتْ بمنزلةِ الضَيَاعِ (٢)

إِذَا شَارَكْتَها بِلبانِ أُخرى ... اضرَّ بها مُشارَكَةُ الرّضاعِ

وقال أبو دقاقة البصري :

أَضْحَت حَوائجُنا إليكَ مناخةً ... مَعقُولةً بِرحابَكَ الوصَّالَ

أطْلِقْ فديتْكَ بالنجاحِ عِقَالهَا ... حتى تَثورَ معًا بِغَيْرِ عِقالِ (٣)

وقال سلم الخاسر (٤) :

إذا أَذِنَ اللهُ في حَاجةٍ ... أَتَاكَ النجاحُ عَلَى رِسْلِهِ .

فلا تَسْألِ الناسَ مِنْ فَضْلِهِمْ ... وَلَكِنْ سَلِ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ

وَلِلّهِ دَرُّ القائل حيث قال :

أَيُّهَا المادحُ العبادَ لِيُعْطَى ... إنَّ لله مَا بِأَيْدي العبادِ

فاسْألِ اللهَ مَا طَلَبْتَ إِلَيْهم ... وارْجُ فَرْضَ الْمُقَسِّم الجوّادِ

وعن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين ـ رضي اللّه تعالى عنهم ـ قال : أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة ، فقال: إذا كانت لك حاجة إليَّ ، فأرسل إليَّ رسولاً أو اكتب لي كتابًا ، فإني لأستحي من اللّه أن يراك ببابي. وعن علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ أنه قال: والذي

---

(١) على بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات ، أبو الحسن . الوزير . من الفصحاء . الدهاة . أديب . جواد . كان يجرى الأرزاق على أهل الدين والعلم والفقراء . توفى سنة ٣١٢ هـ .

(٢) عُراها : جمع عروة . العروة من الثوب مدخل زِره . والبيت كناية عما يستمسك به ويعتصم .

(٣) العقال . الرباط الذى يُشد به عنق البعير إلى رجله حتى لا يقوم من مناخه .

(٤) ترجم له .

وسع سمعه الأصوات ، ما مِنْ أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق اللَّه تعالى من ذلك السرور لطفًا ، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تُطْرَدُ غريبة الإبل ، وقال لجابر بن عبد اللَّه الأنصاري - رضي اللَّه عنهما -: يا جابر مَنْ كثرت نعم اللَّه عليه كثرت حوائج الناس إليه ، فإن قام بما يجب للَّه فيها عرضها للدوام والبقاء ، وإن لم يقم فيها بما يجب للَّه عرضها للزوال .

نعوذ باللَّه من زوال النعمة ، ونسأله التوفيق والعصمة ، وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا إلى يوم الدين ، والحمد للَّه رب العالمين .

الباب الثالث والعشرون

في محاسن الأخلاق ومساويها

قال اللَّه تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] . فخص اللَّه تعالى نبيه ﷺ من كريم الطباع ومحاسن الأخلاق ، من الحياء والكرم ، والصفح ، وحسن العهد بما لم يؤته غيره ، ثم ما أثنى اللَّه تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الْخُلُقِ ، فقال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ . قالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ: كان خُلُقُه القرآن ، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه ، وكان الحسن ـ رضي اللَّه عنه ـ إذا ذكر رسول اللَّه ﷺ قال : « أكرم ولد آدم على اللَّه عز وجل أعظم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ منزلة عند اللَّه ، أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى» ، وكان يأكل على الأرض ، ويجلس على الأرض ، ويقول : « **إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد** » (١) ، ولا يأكل متكئًا، ولا على خوان وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل القثاء بالرطب ، ويقول : « **برد هذا يطفئ حَرَّ هذا** » (٢) ، وكان أحب الطعام إليه اللحم، ويقول : « **هذا يزيد في السمع ، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل** » ، وكان يحب الدباء (٣) ، ويقول: « **يا عائشة إذا طبختم قدراً ، فأكثروا فيه من الدباء فإنها تشد قلب الحزين**» (٤)، وكان يقول : « **إذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها** » ، وكان يكتحل بالإثمد (٥) ، ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن والكحل والمرآة والمشط والإبرة يخيط ثوبه بيده ، وكان يضحك من غير قهقهة ، ويرى اللعب المباح ولا ينكره ، وكان يسابق أهله . قالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ: سابقته ، فسبقته ، فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكتفي وقال : هذه بتلك ، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ، ولا مشرب ، ولا ملبس ، وهو أُمِّيّ لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحارى ؛ يتيمًا لا أب له ولا أم ، فعلمه اللَّه تعالى جميع محاسن الأخلاق ، وكان أفصح الناس منطقًا وأحلاهم كلامًا ، وكان يقول : « **أنا أفصح العرب** » (٦) ، وقال أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ: والذي بعثه بالحق نبيًا ما قال لي في شيء قط كرهه لِمَ فعلته ؟؛ ولا في شيء لِم أفعله لم لا فعلته ؟. ولا لامني أحد من أهله إلا قال دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر.

---

(١) صحيح : رواه أبو الشيخ . فى « أخلاق النبى ﷺ » (ص٦٠) والبغوى فى« شرح السنة » (١١ / ٢٨٦) عن عائشة رضى الله عنها ، وانظر « الصحيحة » (٥٤٤) .

(٢) حسن : رواه أبو داود فى « الأطعمة » (٣٨٣٦) ، والبيهقى (٧ / ٢٨١) .

(٣) الدباء : القرع .

(٤) لم أقف عليه .

(٥) الإثمد : الكحل .

(٦) موضوع :رواه الطبرانى فى « الكبير » (٦/٣٦ / ٥٤٣٧) وفى سنده مبشر بن عبيد وهو متهم بالوضع . .

وقال بعض مشايخنا ـ رحمهم اللَّه تعالى ـ لا مانع من أن النبي ﷺ إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية فالنبي ﷺ أعطاه اللَّه تعالى مرتبه الملك مع كونه عبدًا له متواضعًا ، فحاز المرتبتين : مرتبة العبودية ، ومرتبة الملكية ، ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويركب الحمار بلا إكاف ، ويردف خلفه ، ويأكل الخشن من الطعام ؛ وما شبع قط من خبز بُرٍّ ثلاثة أيام متوالية حتى لقي اللَّه تعالى مَنْ دَعا لَبّاه ، ومَنْ صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذي يرفعها ، يعود المريض ويتبع الجنائز ، ويجالس الفقراء، أعظم الناس منَ اللَّه مخافة ، وأتعبهم لله عز وجل بدنًا ، وأجلدهم في أمر اللَّه لا تأخذه في اللَّه لومة لائم . قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . أما واللَّه ما كانت تغلق من دونه الأبواب ، ولا كان دونه حجاب ﷺ.

وقالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ ما ضرب رسول اللَّه ﷺ امرأة قط ولا خادمًا له ، ولا ضرب بيده شيئًا إلا أن يجاهد في سبيل اللَّه ، ولا خيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون إثمًا أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه ، وقال إبراهيم بن عباس : لو وزنت كلمة رسول اللَّه ﷺ بمحاسن الناس لرجحت ، وهي قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « **إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم** » (١).

وفي رواية أخرى : « **فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن** » . وعنه ﷺ حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه ، والزمام بيد الملك ، والملك يجره إلى الخير ، والخير يجره إلى الجنة ، وسوء الخلق زمام من عذاب اللَّه تعالى في أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يجره إلى الشر ، والشر يجره إلى النار.

وقال بعض السلف : الْحَسَنُ الْخُلُقُ ذو قرابة عند الأجانب والسيئ الخلق أجنبي عند أهله، وقال الفضيل : لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليَّ من أن يصحبني عابد سيئ الخلق ، لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه ، والعابد إذا ساء خُلقه مَقَتُوه (٢)

بيت منفرد :

إِذَا رَامَ التَّخَلُّقَ (٣) جَاذَبَتْه خَلَائِقُهُ إلى الطَّبعِ القديمِ

---

(١) ضعيف : رواه أبو يعلى (٦٥٥٠) والبزار (٨٧٧) وأبو نعيم فى « الحلية » (١٠ / ٢٥) وفى سنده عبد الله بن سعيد المقبرى وهو ضعيف .

(٢) مقتوه : من المقت : البغض .

(٣) التخلقُ : التَّصنُّعُ التظاهر بما ليس فيه .

قيل : أبي اللّه لسيئ الخلق التوبة لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل في ذنب آخر لسوء خلقه. وعن عائشة قالت: كان رسول اللّه ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل : « ما بال فلان ، ولكن يقول : ما بال أقوام يقولون » حتى لا يفضح أحدًا ، وعنه ﷺ : **« ما شيء في الميزان أثقل مِنْ حُسْنِ الخلق »**(١) ، وعنه ﷺ قال : **« ثلاث مَنْ كُنَّ فيه كُنَّ له ، مَنْ صدق لسانه زكا عمله ، ومَنْ حسنت نيته زيد في رزقه ، ومَنْ حَسُن بِرّه لأهل بيته زيد له في عمره»**، ثم قال : **« وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان في الرزق »**(٢) . وقيل : « سوء الخلق يعدي لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله » ، وكتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين ـ رضي اللّه عنهم ـ في إعطائه الشعراء ، فكتب إليه الحسين أنت أعلم مني بأن خير المال ما وقي به العرض . فانظر إلى شرف أدبه ، وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه : فأنت أعلم مني ، وكان بينه وبين أخيه كلام، فقيل له : ادخل على أخيك ، فهو أكبر منك ، فقال : إني سمعت جدي رسول اللّه ﷺ يقول: **« أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنّة »** وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنة ، فبلغ ذلك الحسن ،فجاءه عاجلاً ـ رضي اللّه عنهما، وأنشد في المعنى :

وَإِنّي لألقى المرءَ أَعْلَمُ أنَّهُ ... عَدُوٌّ وفي أحشائه الضِّغْنُ كامنُ (٣)
فَأَمْنَحُهُ بِشْرًا فَيَرْجِعُ قَلْبُهُ ... سليمًا وقَدْ مَاتَتْ لَدَيْهِ الضغائِنُ

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل ، فانفذ إلى الجوهريين بصفتها ، فقالوا : باعها فلان من مدة ، ثم إن ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليه وأحضر بين يدي جعفر ، فلما رأى ما ظهر عليه . قال له : أراك قد تغير لونك ألست يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك ؟، وأقسم باللّه لقد أنسيت هذا ، ثم أمر للجوهري بثمنها، وقال للرجل : خذها الآن حلالاً طيبًا وبعها بالثمن الذي يطيب خاطرك بـه ، لا تبع بيع خائف .

ودخل محمد بن عباد على المأمون ، فجعل يعممه بيده ، وجارية على رأسه تتبسم ، فقال لها المأمون : مم تضحكين ؟ فقال ابن عباد : أنا أخبرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبحي

---

(١) صحيح : رواه أبو داود في« الأدب » (٤٧١٩) باب حسن الخلق .
(٢) لم أقف عليه .
(٣) الضِّغْنُ : الحقد .

وإكرامك إياي ، فقال : لا تعجبي فإن تحت هذه العمامة كرمًا ومجدًا . قال الشاعر:

وهل ينفعُ الفتيانَ حُسْنُ وُجُوهِهِمْ إذا كانتِ الأعراضُ غيرَ حِسانِ
فلا تجعل الحسْنَ الدليلَ على الفتى فما كُلّ مصقولِ الحديد يماني (١)

وحكي : أن بهرام (٢) الملك خرج يومًا للصيد فانفرد عن أصحابه ، فرأى صيدًا ، فتبعه طامعًا في لحاقه حتى بعد عن عسكره ، فنظر إلى راع تحت شجرة ، فنزل عن فرسه ليبول ، وقال للراعي : احفظ على فرسي حتى أبول ، فعمد الراعي إلى العِنان وكان ملبسًا ذهبًا كثيرًا ، فاستغفل بهرام وأخرج سكينًا ، فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذي عليه ، فرفع بهرام نظره إليه ، فرآه فغض (٣) بصره ، وأطرق برأسه إلى الأرض ، وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته، ثم قام بهرام ، فوضع يده على عينيه ، وقال للراعي : قدم إليَّ فرسي ، فإنه قد دخل في عيني مِنْ سافى الريح ، فلا أقدر على فتحهما ، فقدمه إليه ، فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكره ، فقال لصاحب مراكبه: إن أطراف اللجام قد وهبتها ، فلا تتهمن بها أحدًا.

وذكر : أن أنوشروان (٤) وضع الموائد للناس في يوم نيروز (٥) وجلس ، ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان ، فلما فرغوا من الطعام جاءوا بالشراب ، وأحضرت الفواكه ، والمشموم (٦) في آنية الذهب والفضة ، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال ، وخبأه تحت ثيابه ، وأنوشروان يراه ، فلما فقده الشرابي صاح بصوات عال : لا يخرجن أحد حتى يفتش ، فقال كسرى : ولِمَ ؟ فأخبره بالقضية ، فقال : قد أخذه من لا يرده ، ورآه من لا ينم عليه ، فلا تفتش أحدًا ، فأخذَ الرجل الجام ومضى فكسره ، وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة ، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ، ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية ، فدعاه كسرى ، وقال له : هذا من ذاك ، فقبّل الأرض ، وقال : نعم أصلحك اللّه .

وقال عبد اللّه بن طاهر كنا عند المأمون يومًا ، فنادى بالخادم يا غلام ، فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانيًا ، وصاح يا غلام ، فدخل غلام تركي ، وهو يقول : ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا

(١) المصقول : المَجْلُوّ من السيوف . اليمانى : السيف المنسوب إلى اليمن .
(٢) بهرام بن هرمز . خلف أباه . فكان سادس ملك فى الأسرة الساسانية ، ولم يحكم غير اربعة اشهر .
(٣) غَضَّ : غَضَّ بصره : كَفَّه وخَفَضَهُ .
(٤) ترجم له .
(٥) النيروز : فى الفارسية : اليوم الجديد . أول يوم فى السنة الشمسية الإيرانية .
(٦) المشموم : المسك وما يتعطر به .

يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إلى كم يا غلام ، فنكس المأمون رأسه طويلاً، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه ، ثم نظر إليَّ فقال : يا عبد اللّه إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه ، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه ، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا .

وقال ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة واليًا، وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف ، فواللّه ما ترك فينا فقيرًا إلا أغناه ، ولا مديونًا إلا أدى عنه دينه ، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء ، ويكلمنا بكلام أحلى من الجني (١) ولقد شهدت منه مشهدًا لو كان من معاوية لذكرته ، تغدينا يومًا عنده ، فأقبل الفراش بصحفة ، فعثر في وسادة ، فوقعت الصحفة من يده ، فواللّه ما ردها إلا ذقن الوليد ، وانكب جميع ما فيها في حجره ، فبقي الغلام متمثلاً واقفًا ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه فقام الوليد فدخل، فغير ثيابه ، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته ، فأقبل على الفراش ، وقال: يا بائس ما أرانا إلا روعناك . اذهب ، فأنت وأولادك أحرار لوجه اللّه تعالى .

ومرض أحمد بن أبي داود ، فعاده المعتصم ، وقال : نذرت إن عافاك اللّه تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار ، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين ، فاجعلها في أهل الحرمين ، فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة ، فقال : نويت أن أتصدق بها على من ههنا ، وأطلق لأهل الحرمين مثلها ، فقال أحمد : متع اللّه الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين ، فإنك كما قال النميري (٢) لأبيك الرشيد ـ رحمة اللّه تعالى عليه ـ:

إِنَّ المكارِمَ والمعروفَ أوديةٌ ... أَحلَّكَ اللهُ مِنْها حيثُ تَجتمِعُ
مَنْ لَمْ يكُنْ بِأمينِ اللهِ مُعْتصمًا ... فليس بالصلواتِ الخمسِ يَنْتفعُ

وقيل للأحنف بن قيس(٣) : ممن تعلمت حسن الخلق ؟ فقال : من قيس بن عاصم ، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادمة له بسفود(٤) عليه شواء حار ، فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له ، فقتله لوقته ، فدهشت الجارية ، فقال : لا روع عليك أنت حرة لوجه اللّه تعالى .

وكان ابن عمر ـ رضي اللّه عنه ـ إذا رأى أحدًا من عبيده يحسن صلاته يعتقه ، فعرفوا ذلك

(١) الجنى : الثمار كل ما يجنى من الشجر . والعسل .
(٢) الهيثم بن الربيع . ينتهى نسبه إلى نمير بن عامر بن صعصعة . شاعر مجيد من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية . فصيح . راجز . من سكان البصرة . أهوج ، جبان ، بخيل . كذّاب . يعرف بأبى حيّة . وله شعر رقيق . توفى نحو سنة ١٨٣ هـ .
(٣) سبق أن ترجم له .
(٤) السَّفُّود : عود من حديد ـ السيخ ـ ينظم فيه اللحم ليشوى .

من خُلُقه ، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له ، فكان يعتقهم، فقيل له في ذلك ، فقال : مَنْ خَدَعَنا فِي اللّه انخدعنا له .

وروي: أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة ، فأُلقِيَ عليه من فوق سطح طِسْت رماد ، فتغير أصحابه ، وبسطوا ألسنتهم في المُلْقِي للرماد ، فقال أبو عثمان : لا تقولوا شيئًا ، فإن مَنِ استحق أن يصب عليه النار ، صولح بالرماد لم يجز له أن يغضب ، وقيل لإبراهيم بن أدهم (١) ـ تغمده اللّه تعالى برحمته ـ: هل فرحت في الدنيا قط ؟ فقال : نعم مرتين : **إحداهما** : أني كنت قاعدًا ذات يوم، فجاء إنسان فبال عليَّ ، **والثانية** : كنت جالسًا فجاء إنسان فصفعني ؛ وروي أن علي بن أبي طالب ـ كرم اللّه وجهه ـ دعا غلامًا له ، فلم يجبه، فدعاه ثانيًا ، وثالثًا فرآه مضطجعًا ، فقال: أما تسمع يا غلام ؟ قال : نعم . قال : فما حملك على ترك جوابي ؟ قال : أمنت عقوبتك ، فتكاسلت ، فقال : اذهب فأنت حُرٌ لوجه اللّه تعالى .

وحكى : أن أبا عثمان الحيري دعاه إنسان إلى ضيافة ، فلما وافى باب الدار قال له الرجل : يا أستاذ ليس لي وجه في دخولك ، فانصرف ـ رحمك الله ـ، فانصرف أبو عثمان ، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه ، وقال : يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له ، وقال : احضر الساعة، فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال في الأولى ، ثم فعل به ذلك أربع مرات ، وأبو عثمان ينصرف ويحضر ، ثم قال : يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه ، فقال أبو عثمان : لا تمدحني على خلق تجده في الكلاب ، فإن الكلب إذا دعي حضر وإذا زجر انزجر . وقال الحرث بن قصي : يعجبني من القراء كل فصيح مضحاك ، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كَثَّرَ اللّه في المسلمين مثله .

ومن محاسن الأخلاق : ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم (٢) قال : كنت نائمًا ذات ليلة عند المأمون ، فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه ، وأنا نائم ، فينغص عليَّ نومي ، فرأيته وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلاثمائة خطوة ، فأخذ منها كوزًا ، فشرب ، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه ، فخطا خطوات خائفًا لئلا ينبهني حتى صار إلى فراشه ، ثم رأيته آخر الليل قام يبول ، وكان يقوم في أول الليل وآخره ، فقعد طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام، فلما تحركت وثب قائمًا وصاح يا غلام ، وتأهب للصلاة . ثم جاءني ، فقال لي : كيف أصبحت يا أبا محمد ؟، وكيف كان مبيتك ؟ قلت : خير مبيت جعلني اللّه فداك يا أمير

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمى البلخى . أبو إسحاق زاهد مشهور . توفى ١٦١هـ.
(٢) سبق أن ترجم له .

المؤمنين، قال : لقد استيقظت للصلاة ، فكرهت أن أصيح بالغلام ، فأزعجك، فقلت : يا أمير المؤمنين قد خصك اللّٰه تعالى بأخلاق الأنبياء ، وأحب لك سيرتهم، فهناك اللّٰه تعالى بهذه النعمة، وأتمها عليك ، فأمر لي بألف دينار ، فأخذتها وانصرفت .

قال: وبت عنده ذات ليلة ، فانتبه وقد عرض له السعال ، فجعلت أرمقه ، وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه، فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته ، فأنتبه .

قال يحيى : وكنت معه يومًا في بستان ندور فيه ، فجعلنا نمر بالريحان ، فيأخذ من الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان : أصَلح هذا الحوض ، ولا تغرس في هذا الحوض شيئًا من البقول، قال يحيى : ومشينا في البستان من أوله إلى آخره ، وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل فكان يجذبني أن أتحول أنا في الظل ، ويكون هو في الشمس ، فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان ، فلما رجعنا قال يحيى : واللّٰه لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك ، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي ، فقلت : واللّٰه يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت ، فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس ، ووضع يده على عاتقي ، وقال : بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا ، فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف .

انظر إلى أخلاقهم ـ رضي اللّٰه تعالى عنهم ـ ما أحسنها وإلى أفعالهم ما أزينها .

نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا ، وأن يبارك لنا في أرزاقنا إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العلي العظيم ، وصلى اللّٰه على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والعشرون

في حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة وما أشبه ذلك

اعلم أن المودة والأخوة والزيارة سبب التآلف ، والتآلف سبب القوة ، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع وركن شديد بها يمنع الضيم ، وتنال الرغائب وتُنجح المقاصد ، وقد من اللهُ تعالى على قوم وذكَّرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء ، وردها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء ، فقال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] . ووصف نعيم الجنة ، وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة ، إذ جعلهم إخوانًا على سرر متقابلين ، وقد سَنَّ رسول الله ﷺ الإخاء وندب إليه، وآخى بين الصحابة ـ رضي اللّه تعالى عنهم أجمعين ـ .

وقد ذكر اللّه تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم إذ يقولون :﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء]. وقال علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ، وكرم اللّه وجهه ـ : الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين ، وأنشدوا في ذلك :

وَمَا المرءُ إلا بِإِخْوَانِه كما يَقْبِضُ الْكَفُّ بِالْمِعْصَمِ
وَلا خَيْرَ فِي الكفُّ مَقْطوعَة وَلا خَيْرَ في الساعدِ الأجذمِ (١)

وقال زياد : خير ما اكتسب المرء الإخوان فإنهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان، وعون في السراء والضراء ، ومن كلام علي ـ رضي اللّه عنه، وكرم الله وجهه ـ:

عَليكَ بإخوانِ الصفَا فإنَّهُمْ عمادٌ إذا اسْتنجدْتَهُم وظُهورُ
وإنَّ قليلاً ألفُ خِلٍّ وصاحبٍ وإنَّ عدُوًا واحِدًا لَكَثِيرُ

وقال الأوزاعي(٢) : الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب إن لم تكن مثله شانته. وقال عبد الله بن طاهر : المال غاد ، ورائح ، والسلطان ظل زائل ، والإخوان كنوز وافرة .

وقال المأمون للحسن بن سهل : نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة . قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين ؟ قال : خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيِّبة ، والفراش الوَاطئ ، والنظر إلى الحسن من كل شيء ، قال : فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال ؟ قال : صدقت ، وهي أولاهن .

---

(١) الأجزم المقطوع .

(٢) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى الدمشقى ، أبو عمرو . من قبيلة الأوزاع إمام الديار الشامية فى الفقه والزهد . ولد فى بعلبك ونشأ فى البقاع. توفى سنة ١٥٧هـ .

وقال سليمان بن عبد الملك : أكلت الطيب ، ولبست اللّيّن ، وركبت الفاره (١) ، وافتضضت العذراء ، فلم يبق من لذاتي إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ . وكذلك قال معاوية رضي الله عنه : نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط ، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرئه، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء ، وركبت المطايا حتى اخترت نعلي ، ولبست الثياب حتى اخترت البياض ، فما بقي من اللذات ما تتوقى إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم . وأنشدوا في معنى ذلك :

وَمَا بَقِيَتْ من اللّذاتِ إلاَّ مُحادثَةُ الرجالِ ذَوي العقولِ
وَقَدْ كُنّا نَعُدُّهُمْ قَلِيَلاً فَقَدْ صَارُوا أَقَلَّ مِنَ القليلِ

وقال لبيد :

مَا عَاتَبَ المرءَ اللبيبَ كنفسِهِ والمرءُ يُصْلِحُهُ الجليسُ الصالحُ

وقال آخر :

إذا مَا أَتَتْ مِن صاحبٍ لَكَ زلةٌ فَكُنْ انتَ مُحْتالاً لِزلَّتِه عُذرًا (٢)

وقيل لابن السماك (٣): أي الإخوان أحق ببقاء المودة ؟ قال : الوافر دينه ، الوافي عقله ، الذي لا يَمَلُّكُ على القرب ، ولا ينساك على البعد ، إن دنوت منه داناك ، وإن بعدت عنه راعاك وإن استعنت به عضدك ، وإن احتجت إليه رفدك ، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله . وأنشدوا في المعنى :

إنَّ أخاك الصدقَ مَنْ يَسْعى مَعَكْ وَمَنْ يَضرُّ نَفْسِه لِينْفَعَكْ
وَمَنْ إذا رَيْبُ الزمانِ صَدَعَكْ شتّتَ فيك شَمْلَه لِيجْمَعَكْ

وقال غيره :

وَلَيْس أخي مَنْ وَدَّني بِلِسَانِه ولَكنّ أَخِي مَنْ ودَّني وهو غائبُ (٤)
وَمَنْ مَالُهُ مَالِي إذا كُنْتُ مُعدَمًا ومَالِي لَهُ إِنْ أَعْوزَتْهُ النَّوائبُ (٥)

---

(١) الفاره : الجارية الحسناء الفتية.
(٢) الزلة : الخطأ . محتالا: الحيلة . من الكلام ما عدل به عن وجهه.
(٣) ابن السماك : عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير بن محمد . الأنصارى الخرسانى . الهروى المالكى المعروف بابن السماك ، أبو ذر محدث ، حافظ ، صوفى . رحالة . جاور مكة وتوفى بها سنة ٤٣٤ هـ . آثاره: مستدرك على الصحيحين . السنة والصفات فضائل القرآن . دلائل النبوة . فضائل مالك .
(٤) ودنى : أحبنى.
(٥) مُعدمًا : فقيرًا .

وقال أبو تمام :

مَنْ لي بإنسانٍ إذا أغضبتُهُ وجهلتُ كان الحلمُ رَدَّ جوابهِ (١)
وإذا صبوتُ إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بطرفه وبِقَلبه ولَعَلَّهُ أَدْرى بهِ

وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحب إليك ؟ قال : الذي يسد خلتي، ويغفر زلتي، ويقيل عثرتي . وقيل : مَنْ لا يؤاخي إلا من لا عيب فيه قل صديقه ، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ، ومَنْ عاتب على كل ذنب ضاع عتبة ، وكثر تعبه . قال الشاعر :

وَمَنْ لَمْ يُغمض عَيْنَه عَنْ صديقِه وعن بعضٍ ما فيه يَمُتْ وهو عاتبُ

وقال آخر :

إِذا كُنتَ في كُلِّ الأمورِ مُعاتبًا صديقَكَ لَمْ تلقَ الذي لا تُعاتبُهُ
وإِنْ أنتَ لم تشربْ مرارًا على الأذى ظَمِئْتَ وأيُّ الناسِ تَصْفُو مَشارِبُه

وقال : إذا رأيت من أخيك أمرًا تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ، ولكن داو كلمته، واستر عورته، وابقه، وابرأ من عمله . قال الله تعالى : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٦]. فلم يأمره بقطعهم ، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيىء. وقال ﷺ: « **الأرواح أجناد مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** »(٢). وقال عليه الصلاة والسلام : إن روحي المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم ما رأى أحدهما صاحبه. وفي ذلك قال بعضهم :

هَوِيْتُكمْ بالسمعِ قَبْلَ لقائِكم وَسَمْعُ الْفَتَى يَهْوَى لَعَمْرِي كَطَرْفِهِ
وخُبِّرتُ عنكم كلَّ جودٍ ورِفْعةٍ فلما التقينا كنتُم فوق وصفِهِ

وقال آخر (٣):

تبسّمَ الثغرُ عن أوصافِكم فَغَدَا مِنْ طِيبِ ذِكْرِكم نَشْرًا فَأَحْيَانَا
فمِنْ هُناك عَشِقْنَاكُمْ ولَمْ نَرَكُمْ والأذنُ تَعْشَقُ قبلَ العينِ أحْيانا

---

(١) الحلم : الأناة وضبط النفس.
(٢) رواه مسلم فى « الأدب » (٦٥٨٤) باب الأرواح جنود مجندة عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٣) الشاعر بشار بن برد والبيت :
ياقَوْمُ أُذنى لِبَعْضِ الحَيِّ عَاشِقَةٌ والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العينِ أحْيَانَا

ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حبًّا لصاحبه ، ما زار أخ أخًا في الله شوقًا إليه ورغبة في لقائه إلا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنّة ، وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان ، ولا غم يعدل فراقهم . وقالوا : شَرُّ الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة ، وقالوا : إن من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقًا، ولعدو صديقك عدوّا ، وقالوا : أعجب الأشياء ودّ من يهودي ،وحفظ من نصراني ، ورياضة من دِهْرِيّ ، وكرم من أعجمي ، والحذر من الكريم إذا أهنته ، واللئيم إذا أكرمته ، والعاقل إذا أحرجته، والأحمق إذا مازحته ، والفاجر إذا عاشرته . وقالوا : اصحب من الإخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة ، فنسي جمائله وبقي شاكرًا ناشرًا ذاكرًا لجميلتك ، يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل . وقال ابن عائشة : لقاء الخليل شفاء الغليل . وقال بعض الحكماء: إذا وقع بصرك على شخص ، فكرهته فاحذره جهدك.

قال عبد الله بن طاهر (١) :

خَلِيليَّ للبغضاءِ حالٌ مُبِيْنَةٌ ... وللحبِ آثارٌ تُرى ومعارفُ
فما تُنكرُ الْعَينَان فالقلبُ مُنكرٌ ... وما تَعْرِفُ العينانِ فالقلبُ عارفُ

وقال آخر :

وكُنْتُ إذا الصديقُ أرادَ غَيْظِي ... وشرَّقَني على ظمإٍ بريقِي(٢)
غفرتُ ذُنوبَهُ وكظمتُ غَيْظِي ... مَخَافَة أَنْ أعيشَ بلا صديقِ

وقال آخر :

ولَيسْ فتى الفتيانِ مَنْ جُلُّ هَمه ... صَبوحٌ وإنْ أمسى فَفَضلُ غَبُوقِ
ولَكِنْ فتى الفتيانِ مَنْ راحَ أَوْ غَدَا ... لِضُرٍّ عدوٍّ أو لِنَفْعِ صديقِ

وأما آداب المعاشرة : فالبشاشة، والبشر، وحسن الخلق ،والأدب ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « **من أخلاق النبيِّين والصِّديقين البشاشة إذا تراءوا والمصافحة إذا تلاقوا** »(٣) . وكان القعقاع بن شور الهذلي(٤) إذا جالسه رجل يجعل له نصيبًا من

(١) سبق أن ترجم له .
(٢) شرَّقني : يقال : شرق فلان بالماء : غصَّ به.
(٣) لم أقف عليه
(٤) القعقاع بن شور الهذلى . من بنى بكر بن وائل . تابعى . من الأجواد . يضرب به المثل فى حسن المجاورة. كان فى عصر معاوية .

ماله ويعينه على حوائجه ، ودخل يومًا على معاوية ، فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس ، فدفعها للذي فسح له ، فقال :

وَكُنْتُ جليسَ قَعْقَاعِ بنِ شَوْرٍ وَمَا يَشْقى بِقعقاعٍ جَلِيسُ
ضَحُوكُ السِّنِّ إنْ نَطَقُوا بِخيرٍ وعِنْدَ الشَّرِّ مِطراقٌ عَبُوسُ

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : لجليسي علي ثلاث أن أرمقه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس ، وأصغي له إذا حدث ، ويقال : لكل شيء محل ، ومحل العقل مجالسة الناس، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته . ومثل الجليس السوء ، مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه .

وكانت تحية العرب : « صبحتك الأنعمة وطيب الأطعمة » وتقول أيضًا : « صبحتك الأفالح وكل طير صالح» . ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة ، فقال : إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب. وقيل: أول ما يتعين على الجليس: الإنصاف في المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما في محله .

وقال ﷺ : « ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل »(١) . وقال جعفر الصادق(٢) رضي الله عنه: إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدور؛ وينبغي للإنسان أن لا يُقْبِلَ بحديثه على من لا يقبل عليه ، فقد قيل : إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع ، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ، ولا يبتدع كلامًا لا يليق بالمجلس، فقد قيل : لكل مقام مقال ، وخير القول ما وافق الحال . وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مر بسمعه أولاً أن لا يقطع عليه ما يقوله ، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول . وعَدُّوا ذلك ، من باب الأدب ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه .

وقيل : ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم ، الجالس في مجلس ليس له بأهل ، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه ، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخلاه فيه ، والمتعرض لما لا يعنيه ، والمتآمر على رب البيت في بيته ، والآتي إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه ، والمستخف بقدر السلطان .

---

(١) ضعيف : رواه الفريابى عن أبى هريرة رضى الله عنه . ضعيف الجامع (٣٠٥٥) .

(٢) هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط ، الهاشمى القرشى ، أبو عبد الله الملقب بالصادق [٨٠ ـ ١٤٨ هـ] سادس الأئمة الأثنى عشر عند الإمامية . كان من أجلاء التابعين . ولقب بالصادق : لأنه لم يعرف عنه الكذب قط.

ويتعين على الجليس أن يراعي ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصًا إذا كان جليسه ذا هيبة ، فقد قيل : رُبَّ كلمة سلبت نعمة .

وقال أبو العباس السفاح : ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يَعْدُ علي حديثًا قط. وقيل : إن أبا العباس كان يحدثه يومًا إذ عصفت الريح فأرمت طستًا من سطح إلى المجلس ، فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلي ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح. فقال : ما أعجب شأنك يا هذلي ، فقال : إن الله يقول : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤]. وإنما لي قلب واحد ، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال ، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجمت لها ، فقال السفاح : لئن بقيت لك لأرفعن مكانك ، ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة .

وكان ابن خارجة (١) يقول : ما غلبني أحد قط غلبة رجل يُصغي إلى حديثي .

وفي نوابغ الحكم: أكرم حديث أخيك بإنصاتك ، وصُنْهُ من وصمة التفاتك . وقيل : من حق الملك إذا تثاءب أو ألقى المروحة من يده أو مدّ رجليه أو تمطّى أو اتكأ أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرته ، وكان أردشير إذا تمطى قام سماره . ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث وإن طال الدهر .

قال روح بن زنباع (٢): أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة ، فما أعدت عليه حديثًا إلا مرة واحدة ، فقال لي: قد سمعته منك . وعن الشعبي قال : ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه . وقال عطاء بن أبي رباح (٣) : إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه قط ، وقد سمعت به من قبل أن يولد .

وقيل : المودة : طلاقة الوجه، والتودد إلى الناس. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه ـ: إن المسلمين إذا التقيا ، فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر ، وقيل : البشر يدل على السخاء كما يدل النَّوْرُ على الثمر . وقيل : مِنَ السنّة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم، ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيبًا .

وقالوا : إذا أردت حسن المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات ، وإذا جلست فلا تتكبر على

(١) ابن خارجة : أسماء بن خارجة توفى سنة ٦٦ هـ .

(٢) روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامى . أبو زرعة . أمير فلسطين ، وسيد اليمامة فى الشام ، وقائدها وخطيبها وشجاعها . توفى سنة ٨٤ هـ .

(٣) عطاء بن أسلم بن صفوان ، ابن أبى رباح . تابعى . من أجلاء الفقهاء . توفى سنة ١١٤ هـ .

أحد ،وتَحفظ من تشبيك أصابعك ، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك ، وتخليل أسنانك ، وإدخال أصبعك في أنفك ، وكثرة بصاقك ، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة ، وليكن مجلسك هادئًا، وحديثك منظومًا مرتبًا ، واصغ إلى كلام مجالسك، واسكت عن المضاحك ،ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع أحدًا على الظلم، ولا تهازل أَمَتَك ولا عبدك ، فيسقط وقارك عندهما ، وإذا خاصمت فانصف وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك ، ولا تكثر الإشارة بيدك ولا الالتفات إلى من وراءك وهدئ غضبك وتكلم ، وإذا قَرَّبكَ سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك ،وكلمه بما يشتهي ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه ، وإن كنت لذلك مستحقًا عنده ، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالتزم ترك الغيبة ،ومجانبة الكذب، وصيانة السر، وقلة الحوائج، وتهذيب الألفاظ، والمذاكرة بأخلاق الملوك، والحذر منهم. وإن ظهرت المودة، ولا تتجشأ بحضرتهم ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم ، ولا تجالس العامة فإن فعلت فآداب ذلك ترك الخوض في حديثهم ،وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم[١]، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم ، وإياك أن تمازح لبيبًا أو سفيهًا ، فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزاح يخرق الهيبة ، ويذهب بماء الوجه ،ويعقب الحقد، ويذهب بحلاوة الإيمان والودُّ ويشين فقه الفقيه، ويجرئ السفيه ،ويميت القلب ،ويباعد عن الرب تعالى، ويكسب الغفلة والذلة ، ومَنْ بُليَ في مجلس بمزاح أو لغط ، فليذكر الله عند قيامه ، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال :« مَنْ جلَس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر له ما كان في مجلسه ذلك »[٢].

وأما آداب المسايرة : فقد روي أن رسول الله ﷺ تعقب هو وعلي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ ورجل آخر من الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ في سفر على بعير ، فكان إذا جاءت نوبته في المشي مشى ، فيعزمان عليه أن لا يمشي فيأبى، ويقول : ما أنتم بأقدر مني على المشي، وما أنا بأغنى منكم عن أجر ، وقال ﷺ : « **لا تتخذوا ظهور الدواب كراسي** » . وقيل: « **لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث : إذا ساروا ليلاً أو خاضوا سيلاً، أو واجهوا خيلاً** »، وقال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: لا يكون الصديق صديقًا حتى يحفظ أخاه

---

(١) أراجيف : جمع إرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.

(٢) صحيح : رواه الترمذى فى « الدعوات » (٣٤٣٣) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٣٩٧) والحاكم (٥٣٦/١) وصححه ووافقه الذهبى.

في ثلاث، في نكبته، وغيبته ،ووفاته .

وأما ما جاء في الإخوان القليلي الموافاة العديمي المكافأة الذين ليس عندهم صديق : فقال وهب بن منبه [١] : صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة ،ولا أقالني عثرة، ولا ستر لي عورة . وقال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: إذا كان الغدرُ طبعًا ، فالثقة بكل أحد عجز . وقيل لبعضهم : ما الصديق ؟ قال : اسم وضع على غير مسمى، وحيوان غير موجود . قال الشاعر :

سَمِعْنا بالصديقِ ولا نَرَاهُ ... عَلَى التحقيقِ يُوجَدُ في الأنامِ
وأَحْسَبُهُ مُحالا نَمَّقُوه ... عَلَى وَجْهِ المجازِ مِنَ الكلام

وقال أبو الدرداء[٢] : كان الناس ورقًا لا شوك فيه ، فصاروا شوكًا لا ورق فيه ، وقال جعفر الصادق[٣] لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم ، وإن كان مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر . وقيل لبعض الولاة : كم لك صديق؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير؛ وأنشد :

الناسُ إخوانُ مَنْ دَامَتْ لَهُ نعَمٌ ... والوَيْلُ للمرئِ إنْ زَلَّتْ به القدمُ

ولما نكب علي بن عيسى الوزير [٤] لم ينظر ببابه أحدًا من أصحابه الذين كانوا يألفونه في ولايته ، فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانيًا ، فقال :

مَا الناسُ إلاَّ مَعَ الدنيا وصاحِبِها ... فكُلَّمَا انْقَلَبَتْ يومًا بِهِ انْقَلَبُوا
يُعظِّمون أخا الدنيا فَإنْ وَثَبَتْ ... يومًا عَلَيْه بِمَا لا يَشْتَهي وَثَبُوا

وقال آخر :

فَمَا أَكْثَرَ الأصحابَ حِينَ نَعُدُّهُم ... ولَكِنَّهُمْ في النَّائِباتِ قَلِيلُ

---

(١) سبق أن ترجم له.

(٢) أبو الدرداء . الخزرجي ، الأنصارى من صحابة النبى ﷺ . أصبح من أكبر علماء القرآن . إمام وقاضئ دمشق . توفى سنة ٣٢ هـ ـ ٦٥٢ م .

(٣) ترجم له.

(٤) هو على بن عيسى بن داود بن الجراح البغدادى. وزير المقتدر : فارسى الأصل، نشأ كاتبا مثل أبيه . ولاه المقتدر الوزارة ثم عزله ثم ولاه ثم نقم عليه . فكانت حياته مضطربة .آثاره معانى القرآن جامع الدعاء . ديوان الرسائل توفى سنة ٣٣٤هـ.

وقال البحتري :

إِيَّاك تغترّ أو تَخدعك بارقةٌ مِنْ ذي خِداعٍ يَرى بِشْرًا وَأَلْطافا
فَلَوْ قَلَبْتَ جميعَ الأرضِ قاطبةً وسِرْتَ في الأرض أَوْساطًا وأطْرافا
لَمْ تَلْقَ فيها صَدِيقًا صَادِقًا أبدًا وَلا أخًا يَبذلُ الإنصافَ إنْ صَافَى

وقال بعضهم في المعنى أيضًا :

خليليَّ جَرَّبْتُ الزمانَ وَأَهْلَه فَمَا نَالَنِي مِنْهمُ سِوى الهمِّ والْعَنَا
وَعَاشَرْتَ أبناءَ الزمانِ فَلَمْ أَجِدْ خَلِيلاً يُوفيٌّ بالعُهودِ وَلا أنَا

وقال آخر :

لَمَّا رأيتُ بَني الزّمانِ وَمَا بِهِمْ خِلٌ وفيّ للشدائد اصطفي
فَعلمتُ أنّ المستحيلَ ثلاثةٌ : الغولُ والعنقاءُ، والخلُّ الوَفِي

بيت منفرد :

وَكُلُّ خليلٍ ليس في اللهِ وُدُّهُ فَإِنّي بِهِ في وُدِّه غَيْرُ واثقِ

وقال آخر :

إذا ما كُنتَ متّخذًا خليلاً فَلا تَأْمَنْ خَلِيلَكَ أَنْ يَخُونا
فَإِنَّكَ لم يَخُنْكَ اخٌ امينٌ وَلَكِنْ قَلَّمَا تَلْقَى أَمِينا

وقال آخر :

تُحِبُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أنني أَوَدُّكَ إِنَّ الرَّأْيَ عَنْكَ لَعَازِبُ (١)
وَلَيْسَ أخي مَنْ وَدَّني بلسانهِ ولكنْ أخي من ودّني وهو غائبُ
وَمَنْ مَالُهُ مَالِي إذا كُنتُ مُعْدَمًا ومالي له إن أعوزتهُ النوائبُ (٢)

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة (٣) وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زور عنه كتابًا إلى أعدائه وعزله ، لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له ، ثم إن السلطان ظهر له في بقية

(١) العارب : البعيد الخفى .
(٢) النوائب : جمع نائبة : ما ينزل بالرجل من الكوارث والحوادث المؤلمة.
(٣) سبق أن ترجم له . من الشعراء الأدباء . يضرب به المثل بحسن الخط . ولد فى بغداد سنة ٢٧٢ هـ . تولى شئون الوزارة فى عهد العديد من الخلفاء . مات سجينًا سنة ٣٢٨ هـ .

يومه أنه بريء مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه ، فأنشد يقول هذه الأبيات:

تَخالفَ النّاسُ والزمانُ فَحَيثُ كان الزمانُ كَانُوا
عَادَانِيَ الدّهرُ نِصفَ يَوْم فَانكَشفَ النّاسُ لِيَ وبَانُوا
يَا أيُّهَا المُعرِضُونَ عَنّا عُودُوا فَقَدْ عَادَ لي الزمانُ

ومثله في المعنى :

أَخُوكَ أَخُوكَ مَنْ يَدْنُو وَتَرْجُو مودَّتَهُ وإنْ دُعِيَ اسْتَجَابا
إذا حَارَبْتَ حَارَبَ مَنْ تُعَادِي وَزَادَ سِلاحُهُ مِنْك اقْتِرَابا

وقال أبو بكر الخالدي(١) :

وأخٍ رَخُصْتُ عَلَيْه حتى مَلَّني والشَّيْء مَمْلُولٌ إِذَا مَا يَرْخُصُ
مَا في زَمَانِكَ من يَعَزُّ وُجُودُهُ إِنْ رُمْتَهُ إلاَّ صَدِيقٌ مُخْلِصُ

فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلا مَنْ له دين، وتقوى ، فإن المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة ، وما أحسن ما قال بعضهم :

وَكُلُّ مَحبةٍ في اللهِ تبقَى عَلَى الحالَيْنِ مِنْ فَرَجٍ وضيقِ
وَكُلُّ محبّةٍ فِيما سِوَاه فَكالحُلفَاء (٢) فِي لَهَبِ الحريقِ

فينبغي للإنسان أن يجتنب معاشرة الأشرار، ويترك مصاحبة الفجر ويهجر من ساءت خلته وقبحت بين الناس سيرته ، قال الله تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] . وقال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] . فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم، وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة ، فليس أحد من الخلق إلا وفيه خُلق من أخلاق البهائم .

ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة، فإذا رأيت الرجل جاهلاً في خلائقه. غليظًا في طبائعه. قويًا في بدنه لا تؤمن ضغائنه، فألحقه بعالم النمورة ، والعرب تقول: أَجْهَلُ مِنْ نَمِرٍ ، وإذا رأيت الرجل هجامًا على أعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب، فإن دأبَ الكلب أن يجفو، من لا يجفوه ويؤذي من لا يؤذيه ، فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح ، ألست تذهب وتتركه؟ وإذا رأيت إنسانًا قد جبل على الخلاف إن قلت: نعم. قال: لا ، وإن قلت: لا. قال: نعم ،

(١) أبو بكر بن صالح الخالدى . له : « هدية الملوك فى الإخلاص والسلوك » توفى حوالى ١١٠٠ هـ .
(٢) الحلفاءُ : نبت أطرافه محددة كأطراف سَعَف النخل . ينبت فى مغايض الماء.

فألحقه بعالم الحمير ، فإن دأب الحمار إن أدنيته بعد وإن أبعدته قرب ، فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقته . وإن رأيت إنسانًا يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود ، وخذ حِذْرك منه كما تأخذ حِذْرَك من الأسد . وإذا بليت بإنسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب ، وإذا رأيت مَنْ يمشي بين الناس بالنميمة، ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم الظربان(١) ، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشى بينهم ظربان فتفرقوا . وإذا رأيت إنسانًا لا يسمع الحكمة والعلم، وينفر من مجالسة العلماء ،ويألف أخبار أهل الدنيا ، فألحقه بعالم الخنافس ، فإنه يعجبها أكل العذرات(٢) وملامسة النجاسات، وتنفر من ريح المسك والورد ، وإذا شمت الرائحة الطيِّبة ماتت لوقتها . وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلها ، يبيض ثيابه ويعدل عمامته وينظر في عطفيه ، فألحقه بعالم الطواويس. وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات ، فألحقه بعالم الجِمَال ، والعرب تقول: أحْقَد من جَمَل ، فتجنب قرب الرجل الحقود، وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار، وأهل الغدر، ومن لا وفاء لهم؛ فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق، وأراح قلبه وبدنه. والله أعلم .

وأما الزيارة والاستدعاء إليها : فقد قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى :« **وجبت محبتي للمتحابين فيَّ ، والمتباذلين فيَّ ، والمتزاورين فيَّ ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**» . وقال ﷺ : « **من عاد مريضًا أو زار أخًا نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا**»(٣). وقيل : « **المحبة شجرة أصلها الزيارة** » .

قال الشاعر :

زُرْ مَنْ تُحِبُّ وإنْ شَطَّتْ بِكَ الدارُ ... وَحَالَ مِنْ دُونه حُجْبٌ وأَسْتَارُ (٤)
لا يَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ مِنْ زِيَارَتِهِ ... إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارُ

ولكن الزيارة غبًا لقوله ﷺ : « زر غبًا (٥) تزدد حبًا » .

---

(١) الظربان : حيوان من رتبة اللواحم . أصغر من السنور . أصلم ـ مقطوع ـ الأذنين . مجتمع الرأس مُنْتِن الرائحة .
(٢) العَذْرات : جمع العَذرَة : الغائط ـ البراز .
(٣) ضعيف : رواه أحمد (٢ / ٣٢٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤) ، والترمذى (٢٠٠٨) وابن ماجه (١٤٤٣) وفى سنده أبو سنان وهو عيسى بن سنان القسملى وهو ضعيف .
(٤) شطت : بعدت . حجب وأستار : حواجز وموانع.
(٥) الغب : زيارة متباعدة تجيء يوما وتغيب يومين أو ثلاث.

قال الشاعر في معنى ذلك :

عَلَيْكَ بِإغْبَابِ الزِّيارة إنّها إذا كَثُرتْ صارت إلى الهَجْرِ مَسْلَكَا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الغيثَ يَسْأمُ دائمًا ويسأل بالأيدي إذا هو أمْسَكَا (١)

ويقال: الإكثار من الزيارة مُمِلٌّ ، والإقلال منها مُخِلٌّ .

وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا ما تَقَاطَعْنَا ونَحْنُ ببلدةٍ فَمَا فَضْلُ قُرْبِ الدارِ مِنّا على البُعْدِ

وقال آخر :

وَإن مُرُورِي بالدِّيارِ التي بِهَا سُلَيْمَى وَلَمْ أَلْمِمْ بِهَا لَجفَاءُ (٢)

وقال آخر :

قَدْ أَتَانا مِنْ آل سُعْدَى رسولٌ حَبَّذَا ما يقولُ لِيَ وأَقُولُ

وقال آخر :

أَزُورُ بُيوتًا لاصِقَاتٍ بِبَيْتِها وَقَلْبِي في البيتِ الذي لا أَزُورُه

وزار محمد بن يزيد المهلبي المستعين (٣) ووهب له مائتي ألف درهم ، وأقطعه أرضًا فقال:

وَخَصَصْتَنِي بِزيارةٍ أَضْحَى لَنَا مَجْدٌ بها طولَ الزمانِ مُؤَثَّلُ (٤)
وَقَضَيْتَ دَيْنِي وهو دَيْنٌ وافرٌ لَمْ يَقْضِه مع جُودِه المتوكِّلُ (٥)

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة :

نَحْنُ في أفضلِ السرورِ ولَكِنْ ليس إلا بِكُم يَتِمُّ السرورُ
عَيْبُ مَا نَحْنُ فيه يا أَهْلَ وُدِّي أَنَّكُم غِبْتُمْ وَنَحْنُ حضورُ
فَأَجِدُّوا المسيرَ بل إِنْ قَدِرتُمْ أَنْ تَطِيرُوا مع الرياحِ فَطِيرُوا

(١) يُسْأل بالأيدى : كناية عن صلاة الاستسقاء . ورفع الأيدى بالدعاء فى أيام القحط وانقطاع المطر .
(٢) الإلمام : النزول للزيارة .
(٣) المستعين هو : أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد . أمه أم ولد . صقلية . ولد سنة ٢٢٠ هـ . بويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المنتصر . وظل خليفة إلى أن خلع سنة ٢٥٢ هـ ثم قتله المعتز فى نفس السنة .
(٤) المؤثل : الأصيل الثابت .
(٥) المتوكل على الله . جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد . قُتِل بأمر ابنه المنتصر . هو ووزيره : الفتح بن خاقان سنة ٢٤٧ هـ .

وقيل لفيلسوف : أي الرسل أنجح ؟ قال : الذي له جمال وعقل . وقيل : إذا أرسلتم رسولاً في حاجة ، فاتخذوه حسن الوجه حسن الاسم .

وقال لقمان لابنه : يابني لا تبعث رسولاً جاهلاً ، فإن لم تجد حكيمًا عارفًا ، فكن رسول نفسك.

وقال بعضهم :

إذَا أَبْطَأَ الرسولُ فَقُلْ : نَجاحٌ وَلا تَفْرَحْ إذَا عَجِلَ الرَّسُولُ

وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والعشرون

في الشفقة على خلق الله تعالى ، والرحمة بهم، وفضل الشفاعة ، وإصلاح ذات البين ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في الشفقة على خلق الله تعالى ، والرحمة بهم

قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] . ووصف الله نفسه لعباده فقال عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقال الله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة : ١ ، ٢] . قال المفسرون : ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنّة والحلم على الخلق ، ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ مثله . وقيل: يقال : رحمن الدُّنيا ورحيم الآخرة . وعن أنس ابن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ: « **والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم** »، قلنا يا رسول الله كلنا رحيم. قال : « **ليس الرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة ، ولكن الرحيم الذين يرحم المسلمين** » [(١)] رواه أبو يعلى والطبراني . وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **مَنْ لا يَرحم لا يُرحم ، ومَنْ لا يَغفر لا يُغفر له** »[(٢)] . وعنه ﷺ قال : « **ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم** »[(٣)] . وعن أبي بكر الصدِّيق - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ ، قال الله عزَّ وجلَّ : « **إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خَلْقي** » ، رواه أبو محمد بن عدي في كتاب الكامل .

ورويناً من طريق الطبراني ، عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : « **مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » [(٤)]، قال الطبراني : إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، فسألته عن هذا الحديث ، فقال النبي ﷺ ، وأشار بيده : « **صحيح صحيح صحيح**

---

(١) ضعيف : رواه أبو يعلى (٤٢٥٨) وفى سنده ابن سنان وهو ضعيف وابن إسحاق مدلس وقد عنعنه.

(٢) صحيح : رواه أحمد (٤ / ٣٦٥) .

(٣) صحيح : رواه أحمد (٢ / ١٦٥ ، ٢١٩) والبخارى فى « الأدب المفرد » (٣٨٠) .

(٤) رواه مسلم فى « الأدب » (٦٤٦٣) باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم والبخارى فى « الأدب » (٦٠١١) باب رحمة الناس والبهائم .

ثلاثًا ». وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ، عن النبي ﷺ قال : « **مَنْ مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تَمرُّ عليه يده نور يوم القيامة** » [(١)] .

ودخل عامل لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فوجده مستلقيًا على ظهره وصبيانه يلعبون على بطنه ، فأنكر ذلك عليه ، فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك ؟ قال : إذا دخلت سكت الناطق . فقال له : اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولدك ، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ . وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إن أبدال أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين**» [(٢)] .

الفصل الثاني
في الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى : ﴿ **مَنْ يَشْفَع شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَع شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا** ﴾ . وقال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره ، فيقول له : جعلت لك جاهًا ، فهل نصرت به مظلومًا أو قمعت به ظالمًا أو أغثت به مكروبًا ؟** »[(٣)] . وقال ﷺ : « **أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له** » [(٤)] . وعن أبي بردة ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا ، ويقضي الله تعالى على لسان نبيّه ما شاء**» [(٥)] . وعن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **أفضل الصدقة صدقة اللسان** »، قيل : يا رسول الله ، وما صدقة اللسان ؟ قال : « **الشفاعة تفك بها الأسير، وتحقن بها الدماء، وتجر بها المعروف إلى أخيك ، وتدفع عنه بها كريهة** »[(٦)] . رواه الطبراني في المكارم. وقال علي رضي الله عنه : الشفيع جناح الطالب .

---

(١) ضعيف : رواه أحمد (٥ / ٢٥٠ ، ٢٦٥) والطبراني في « الكبير » (٧٨٢١) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه . وفي سنده علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف.

(٢) ضعيف جدًا : رواه أبو بكر الكلاباذي في « مفتاح المعاني » (١١ / ١ ـ ٢ رقم ١١) والبيهقي في «شعب الإيمان» وفي سنده صالح المري وهو متروك الحديث ، والحسن البصري مدلس وقد عنعنه الضعيفة (١٤٧٧) .

(٣ ، ٤) لم أقف عليه .

(٥) رواه البخاري في « الزكاة » (١٤٣٢) ومسلم في « الأدب » (٦٥٦٨) .

(٦) ضعيف رواه الطبراني في « مكارم الأخلاق » (١٣١) وفي سنده أبو بكر الهذلي ضعفه أحمد وغيره.

وقال رجل لبعض الولاة : إن الناس يتوسلون إليك بغيرك ، فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكري لك لا لغيرك . وقيل : كان المنصور معجبًا بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهم ـ ، وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه في الشفاعات ، فثقل ذلك على المنصور ، فحجبه مدة ، ثم لم يصبر عنه ، فأمر الربيع أن يكلمه في ذلك ، فكلمه ، وقال : اعف يا أمير المؤمنين لا تثقل عليه في الشفاعات ، فقبل ذلك منه ، فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع ، فسألوه إيصالها إلى المنصور ، فقص عليهم القصة ، فأبوا إلا أن يأخذها ، فقال : اقذفوها في كمي ، ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين ، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما آتاك ،وهنأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك ، فما بنَت العرب في دولة الإسلام ولا العجم في سالف الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك، ولكن سَمُجَتْها في عيني خصلة [١] ، قال : وما هي ؟ قال : ليس لي فيها ضيعة ، فتبسم ، وقال : قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها ، فقال : أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر، فجعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه، ثم أقام معه يومه ذلك ، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه ، فجعل يردهن، ويقول : ارجعن خائبات خاسرات ، فضحك المنصور وقال : بحقي عليك ألا أخبرتني، وأعلمتني بخبر هذه الرقاع ؟ فأعلمه ، وقال : ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كريمًا ، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر [٢] :

لَسْنَا وإنْ أحسابُنا كَرُمَتْ ... يومًا على الأحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كما كَانَتْ أَوائِلُنَا ... تَبْنِي ونفعلُ مثل ما فَعَلُوا

وتصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها ، قال محمد : فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت .

وقال المبرد [٣] أتاني رجل لأشفع له في حاجة ، فأنشدني لنفسه :

---

(١) سمجتها : سَمُج سماجة وسُمُوجة : قَبُح . الخَصْلَة : خُلُق فى الإنسان يكون فضيلة أو رذيلة .
(٢) ابن أبى طالب . أحد الثائرين على بنى أمية . وكان قد تغلب على فارس . وحلوان ،وقومس ، وأصبهان، والرى ثم هزمه عامر بن ضبارة بإصطخر . شاعر . جواد . اتهم بالزندقة . توفى سنة ١٢٩ هـ .
(٣) سبق أن ترجم له .

إنيّ قصدتُك لا أُدلي بمعرفةٍ ... ولا بقربٍ ولكنْ قد فَشَتْ نِعَمُك[١]
فَبِتّ حَيْرانَ مكْروبًا يؤرِّقُني ... ذلّ الغريبِ ويُغشيني الكرى كَرَمُكْ[٢]
مَا زِلْتُ أَنْكبُّ حتى زُلْزِلَتْ قَدَمي ... فاحتَلْ لِتَثْبيتِها لا زُلْزِلَت قَدَمُكْ
فَلَوْ هَمَمْتَ بغيرِ الْعُرْفِ ما عَلِقَتْ ... بِهِ يداك ولا انقْادَتْ لهَ شُيِمَكُ[٣]

قال : فشفعت له وأنلته من الإحسان ما قدرت عليه ، وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت :

شَفِيعي إليكَ اللهُ لا شَيْءَ غَيْرُه ... ولَيْسَ إلى رَدِّ الشفيعِ سَبِيلُ

فأمره بلزوم الدهليز[٤] ، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفًا، ذهب الرجل ، فقال يحيى : والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعتها عنه .

شعر :

وقد جِئتُكُم بالمصطفى مُتشفّعًا ... ومَا خَابَ مَنْ بالمصطفى يَتَشفَّعُ
إلى بابِ مَوْلانا رَفَعْتُ ظَلامتَي ... عَسَى الْهَمُّ عَنيِّ والمصائبُ تُرْفعُ

وقال آخر :

تَشَفَّعْ بالنّبِيِّ فكُلُّ عَبْدٍ ... يُجَار إذا تَشفَّعَ بالنبيِّ
وَلا تَجزعْ إذا ضَاقَتْ أمورٌ ... فكَمْ للهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيِّ

وروي أن جبريل ـ عليه السلام ـ قال : يا محمدُ لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال : سقي الماء للمسلمين ، وإعانة أصحاب العيال ، وستر الذنوب على المسلمين إذا أذنبوا ، اللهمَّ استر ذنوبنا ، واقض عنا تبعاتنا ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) فشت : كثرت وانتشرت .

(٢) يغشيني : يغطيه ويضمه .

(٣) الْعُرْفُ : المعروف والعطاء . ضد النكر والمنع . الشِّيَمُ : الْخُلُق والطباع.

(٤) الدهليز : ما بين الباب والدار . المسلك الطويل الضيق .

الباب السادس والعشرون

في الحياء والتواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في الحياء

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : مكارم الأخلاق عشرة : صدق الحديث ، وصدق اللسان، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، والمكافأة بالصنيع ، وبذل المعروف ، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للصاحب ، وقري الضيف، ورأسهن الحياء . قال رسول الله ﷺ : « **الحياء شعبة من الإيمان** »(١). وقال رسول الله ﷺ : « **إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت** »(٢). وقال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: مَنْ كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وعن زيد بن علي عن آبائه يرفعونه : مَنْ لم يستح فهو كافر. قال أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ إني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحني فيه صلبي حياء من ربي ، وقال بعضهم : الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء. وقال الخواص : إن العباد عملوا على أربع منازل : على الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء، فأرفعها منزلة الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال. قالوا : سواء علينا رأيناه أو رآنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه . ويقال : القناعة دليل الأمانة ، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة ، والزيادة دليل بقاء النعمة ، والحياء دليل الخير كله .

الفصل الثاني

في التواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح

قال الله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر : ٨٨] . وقال تعالى : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] . وقال رسول الله ﷺ : « **أفضل العبادة التواضع** » . وقال ﷺ : « **لا ترفعوني فوق قدري ، فتقولوا فيَّ ما قالت النصارى في المسيح ، فإن الله عزَّ وجلَّ اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً** » ، وأتاه ﷺ رجل فكلمه فأخذته رعدة ، فقال ﷺ له : « **هون عليك ، فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من**

---

(١) رواه البخارى فى « الإيمان » (٩) ومسلم فى الإيمان (١٥١) .

(٢) رواه البخارى فى « الأدب » (٦١٢٠) .

قريش تأكل القديد » ، وكان ﷺ يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم في مهنة أهله، ولم يكن متكبرًا ولا متجبرًا ، أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعًا ، وكان إذا حدث بشيء مِمَّا أتاه الله تعالى قال : «ولا فخر» . وقال ﷺ : « **إن العفو لا يزيد العبد إلا عزًا فاعفوا يعزكم الله ، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرفعكم الله ، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء فتصدقوا يزدكم الله** » . وقال عدي بن أرطأة لإياس بن معاوية : إنك لسريع المشية ، قال ذلك أبعد من الكبر وأسرع في الحاجة . وخرج معاوية على ابن الزبير، وابن عامر ، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «**مَنْ أحب أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار** » . وقيل : التواضع سلم الشرف . ولَبِسَ مطرف [١] بن عبد الله الصوف، وجلس مع المساكين ، فقيل له في ذلك ، فقال : إِنَّ أبي كان جبارًا ، فأحببت أن أتواضع لربي لعله أن يخفف عن أبي تجبره وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال ،وتواضع الجودي، فرفعه فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه. وقال الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ : « هل تعرف لِمَ كلمتك من بين الناس ؟» قال : لا يا رب . قال : « لأني رأيتك تتمرغ بين يدي في التراب تواضعًا لي» . وقيل: من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس . وقال أبو مسلم صاحب (الذخيرة): ما تاه إلا وضيع ولا فاخر إلا لقيط ، وكل من تواضع لله رفعه الله .فسبحان من تواضع كل شيء لِعِزِّ جبروت عظمته ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) مطرف بن عبد الله بن الشّخير . الحرشى العامرى أبو عبد الله من كبار التابعين . زاهد .توفى سنة ٨٧هـ

الباب السابع والعشرون

فى العجب ، والكبر، والخيلاء ، وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل ، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح ، وقبول التأديب ، والكبر يكسب المقت ، ويمنع من التألف . قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثال حبة من كبر» (١) ، وقال رسول الله ﷺ : « من جرّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه » (٢) .

وقال الأحنف بن قيس(٣) : ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه. ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه . ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه فقال: وددت أني مثلك في ظنك وأن أعدائي مثلك في الحقيقة . ورأى رجل رجلاً يختال في مشيه ، فقال : جعلني الله مثلك في نفسك ولا جعلني مثلك في نفسي .

وقال الأحنف : عجبت لِمَنْ جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر؟ .

ومَرَّ بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار(٤) وهو يتبختر في مشيه ، فقال له مالك : يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك ، فقال: أوما تعرفني ؟ قال : أعرفك معرفة أكيدة أولّك نُطْفَةَ مَذِرَة ، وآخرك جِيفة قَذِرة ، وأنت بين ذلك تحمل العَذِرَة (٥)، فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه .

وقالوا: لا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة والسيادة .

وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرَّم الجنة على المتكبرين ، فقال تعالى : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ [القصص : ٨٣] ، فَقَرَنَ الكِبْرَ بالفسادِ . وقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ [الأعراف : ١٤٦] . قال بعض الحكماء : ما رأيت متكبرًا إلا ما تَحَوَّل مَا بِه بِي ، يعني أتكبر عليه.

واعلم أن الكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله ، والعرب تجعل جذيمة

---

(١) رواه مسلم فى « الإيمان » (٢٥٩) عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم فى « اللباس » (٥٣٥٧) عن ابن عمر رضى الله عنه .

(٣) سبق أن ترجم له .

(٤) مالك بن دينار البصرى ، أبو يحيى . من رواة الحديث . توفى سنة ١٣١ هـ .

(٥) مَذِرَة : فاسدة . قَذِرة : متسخة . عَذِرة : الغائط .

الأبرش[١] غاية في الكبر ، يقال: إنه كان لا ينادم أحدًا لتكبره ويقول: إنما ينادمني الفرقدان[٢]. وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبرًا . روي أنه قال لغلامه : اسقني ماء ، فقال: نعم . فقال: إنما يقول: نعم من يقدر أن يقول : لا ، اصفعوه ، فصفع ودعا أكارًا فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذارًا لمخاطبته ، ويقال : فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر .

قال الجاحظ : المشهورون بالكبر من قريش: بنو مخزوم ، وبنو أمية ، ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب ، وبنو زرارة بن عدي . وأما الأكاسرة: فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيدًا وأنفسهم إلا أربابًا ، وقيل لرجل من بني عبد الدار : ألا تأتي الخليفة؟ فقال: أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي ، وقيل للحجاج بن أرطأة : ما لكَ لا تحضر الجماعة ؟ قال : أخشى أن يزاحمني البقالون .

وقيل : أتى وائل بن حجر إلى النبيّ ﷺ فأقطعه أرضًا، وقال لمعاوية : أعرض هذه الأرض عليه واكتبها له ، فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة ، ومشى خلف ناقته فأحرقه حر الشمس، فقال له : اردفني خلفك على ناقتك ، قال : لست من أرداف الملوك، قال : فأعطني نعليك . قال : مَا بُخْلٌ يمنعني يا ابن أبي سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أقيال[٣] اليمن أنك لبست نعلي . ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفًا ، وقيل : إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه، فأقعده معه على السرير وحدثه . وقال المسرور بن هند لرجل : أتعرفني؟ قال : لا ، قال: أنا المسرور ابن هند ، قال : ما أعرفك . قال : فتعسا ونكسًا لمن لم يعرف القمر .

قال الشاعر :

قُولا لاحْمَقَ يلْوي التيهُ أَخْدَعَهُ ... لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي التِّيهِ لَمْ تَتِهِ[٤]
التِّيهُ مَفْسَدَةٌ لِلدِّينِ مَنْقَصَةٌ ... للعقلِ مُهْلَكَةٌ للعرضِ فانْتَبِهِ

وقيل : لا يتكبر إلا كل وضيع ، ولا يتواضع إلا كل رفيع ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم التنوخى . القضاعى . ثالث ملوك الدولة التنوخية فى العراق : جاهلى ، وكان يقال له : « الوضاح » وسمى « الأبرش » لبرص فيه وينسبون إليه تأسيس : الحيرة والأنبار .
(٢) الفرقدان : نجم قريب من القطب الشمالى ثابت ، وبقربه نجم آخر مماثل له وأصغر منه ، وهما فرقدان.
(٣) أقيال : جمع قَيْل . والقَيْلُ : حاكم من ملوك اليمن فى الجاهلية . دون الملك الأعظم .
(٤) التيه : التكبر. أخدعه : كناية عن العتو والشدة .

الباب الثامن والعشرون

في الفخر ، والمفاخرة ، والتفاضل ، والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة : ١٨]. نزلت في علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، وعقبة بن أبي معيط ، وكانا تفاخرا ، وقوله تعالى : ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]. نزلت في أبي جهل، وعمار بن ياسر ، والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب ، وقد قال ﷺ : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ، وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ . فالفخر في الإسلام بالتقوى . وقال رسول الله ﷺ : « إن نبيكم واحد، وإن أباكم واحد، وإنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت؟ »

وقال الأصمعي : بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شابًا متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول:

يَا مَنْ يُجِيبُ دُعَا المضْطَرِّ في الظُّلَمِ ... يا كَاشفَ الضرِّ والبَلْوى مع السَّقمِ
قَدْ نامَ وَفْدُكَ حولَ البيتِ وانْتَبَهُوا ... وأنت يا حَيُّ يا قيومُ لَمْ تَنَمِ
أَدْعُوكَ ربِّي حَزِينًا هَائِمًا قَلِقًا ... فارْحَمْ بُكائي بِحَقِّ البيتِ والحرمِ
إِنْ كَانَ جُودُكَ لا يَرجُوه ذُو سفَهٍ ... فَمَنْ يجودُ على العاصِين بالكرم

ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشد يقول :

ألا أيّها المقصودُ في كلِّ حَاجَتِي ... شكَوْتُ إليك الضرَّ فارْحَمْ شِكَايَتِي؟
ألا يَا رَجَائِي أنتَ تَكشفُ كُرْبَتِي ... فَهَبْ لي ذُنُوبي كُلها واقْضِ حَاجتِي؟
أَتَيْتُ بأعمالٍ قِباحٍ رَدِيئَةٍ ... وَمَا في الْوَرَى عَبْدٌ جَنَى كَجِنَايَتِي(١)
أَتحْرِقُنِي بالنارِ يا غَايَةَ الْمُنَى؟ ... فَأَيْنَ رَجَائِي؟ ثُمَّ أَيْنَ مَخَافَتِي؟

ثم سقط على الأرض مغشيًا عليه ، فدنوت منه ، فإذا هو زين العابدين بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين ، فرفعت رأسه في حجري وبكيت ، فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال : من هذا الذي يهجم علينا ؟ قلت : عُبَيْدُك

(١) جنى كجنايتى : أذنب كذنبى على نفسى .

الأصمعي ، سيدى ما هذا البكاء والجزع ، وأنت من أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة؟ أليس الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ؟ [الأحزاب: ٣٣] فقال : هيهات هيهات يا أصمعي إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ، ولو كان عبدًا حبشيًا، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرًا قرشيًا ، أليس الله تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾؟ [المؤمنون: ١٠١ـ ١٠٣] .

والفخر : وإن نهت عنه الأخبار النبوية ومَجَّته (١) العقول الذكية إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعًا لا تكلفًا، وجبلة (٢) لا تعلمًا ، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ولا ينبه على مناقبهم سواهم، وكان كعب بن زهير(٣) إذا أنشد شعرًا قال لنفسه : أحسنت وجاوزت، ولله الإحسان ، فيقال له : أتحلف على شعرك ؟ فيقول : نعم لأني أبصر به منكم. وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها ، ويقول عند إنشادها : أي علم بين جنبي وأي لسان بين فكي . وقال الجاحظ:ولو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب . ولما أبدع ابن المقفع(٤) في رسالته التي سماها باليتيمة تنزيهًا لها عن المثل ، سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها ، ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله.

وسنذكر في هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئًا من نظم البلغاء، ونثرهم في الافتخار، ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره .

قال أبو بكر الهذلي(٥) :سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوي الفلاة وعليه جبة حمراء وعمامة عدنية ، وفي يده سوط يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره، فدعوته ، وسألته عن نسبه وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة ، فأحسن الجواب ، فأعجبه ما رأى منه، فقال أنشدني شعرًا ، فأنشده شعرًا لأوس بن حجر(٦) وغيره من الشعراء من

---

(١) مَجَّته : لفظته. وأخرجته من فيه. (٢) الجبلة : الطبيعة والخِلْقَة .

(٣) كعب بن زهير بن أبى سلمى المزنى . شاعر مخضرم جاهلى إسلامى . أهدر النبيﷺ دمه .أسلم ثم عفا عنه ، وخلع عليه بردته لاستحسانه قصيدته التى أنشدها مادحًا معتذرًا . توفى سنة ٢٦ هـ .

(٤) عبد الله بن المقفع . فارسى الأصل . كاتب . شاعر . نشأ بالبصرة . اتهم بالزندقة . فقتله سفيان بن معاوية المهلبى بأمر من المنصور سنة ١٤٥ هـ . آثارة : كليلة ودمنة . الأدب الكبير ، الأدب الصغير .

(٥) سبق أن ترجم له .

(٦) أوس بن حجر بن مالك التميمى أبو شريح من مشاهير شعراء تميم فى الجاهلية . عمِّر طويلا ، ولم يدرك الإسلام . وكان مغرمًا بالنساء . غزلا . توفى نحو ٢ ق . هـ نحو ٦٢٠ م.

بني عمرو بن تميم ، وحدثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله :

إِنَّ الأمورَ إذا أَوْردْتَها صَدَرَتْ   إِنَّ الأمورَ لَها وِرْدٌ وإصدارُ

فقال : ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت . قال : كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهم لضيفه وأحوطهم من وراء جاره ، اجتمعت العرب بعكاظ ، فكلهم أقروا له بهذه الخلال ، فقال له : والله يا أخا بني تميم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك ، ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان :

وإنّي مِنَ القومِ الذين هُمُ هُمُ   إذا ماتَ مِنْهم سَيّدٌ قامَ صاحبُهْ
نجومُ سماءٍ كُلَّما غَابَ كوكبٌ   بدا كَوْكَبٌ تَأْوِي إليه كَوَاكبُه
أَضَاءَتْ لهم أَحْسَابُهُم وَوُجُوهُهُمْ   دُجَى اللَّيْلِ حتى نظم الجزْعُ ثاقبُه (١)
وَمَا زَالَ فِيهم حَيْثُ كَان مُسوّدًا   تَسِيرُ المنايا حيثُ سارَتْ ركائبُه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب، وقال : مَنْ ابنُ علي ـ رضي الله تعالى عنه؟ـ فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : إن الله عَزَّ وجَلَّ لم يبعث بعثًا إلا جعل له عدوًا من المجرمين ، فأنا ابن علي، وأنت ابن صخر ،وأمك هند وأمي فاطمة، وجدتك قيلة وجدتي خديجة ، فلعن الله ألأمنا حسبًا ،وأخملنا ذكرًا ،وأعظمنا كفرًا ،وأشدنا نفاقًا ،فصاح أهل المسجد آمين آمين، فقطع معاوية خطبته ودخل منزله .

وروي: أن معاوية خرج حاجًا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالاً ولم يحضر الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي فقال له معاوية: مرحبًا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا ، فقال له الحسن : ولم ينفد ما عندك وخراج الدنيا يجيء إليك ، فقال معاوية: إني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند، فقال الحسين: قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة .

ودخل الحسين يومًا على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر، ويقول : نحن، ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال : أشهد أن محمدًا رسول الله . قال الحسين : يا يزيد جَدُّ مَنْ هَذَا ؟ فخجل يزيد ،ولم يرد جوابًا .

وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر :

لَقَدْ فَاخَرَتْنَا مِنْ قريشٍ عِصَابَةٌ   بِمطِّ خُدُودٍ وامْتِدَادِ أَصَابِعِ
فَلَمَّا تنَازَعْنَا الفخارَ قَضَى لَنَا   عَلَيْهِمُ بِمَا نَهْوَى نِداءُ الصوامِعِ
تَرَانَا سُكُوتًا والشهيدُ بِفَضْلِنَا   عَلَيْهِم جَهِيرُ الصوتِ مِنْ كُلِّ جَامِعِ

---

(١) الجزع : واحدته جزعة : خرز فيه سواد وبياض .

وله أيضًا :

إنّي وقَوْمِيَّ مِنْ أنسابِ قَوْمِهِمُ كَمَسْجِدِ الْخَيْفِ مِنْ بَحْبُوحَةِ الْخَيْفِ
مَا عُلّقَ السيفُ مِنّا بِابْن عَاشِرَةٍ إلا وَهِمّتُه أَمْضَى مِنَ السَّيفِ

وتفاخر العباس بن عبد المطلب، وطلحة بن شيبة، وعلي بن أبي طالب ، فقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ، وقال طلحة : أنا خادم البيت، ومعي مفتاحه ؛ فقال علي : ما أدري ما تقولان انا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بستة اشهر ، فنزلت : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] .

وتفاخر رجلان على عهد موسى ـ عليه السلام ـ فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين ، فقال الآخر : أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته ، فأوحى الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ : أما الذي عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم في النار، والذي انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنّة .

قال سلمان الفارسي:

أَبِى الإسلامُ لا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمِ

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك ، فقال الفرزدق : أنا ابن محيي الموتى ، فأنكر سليمان قوله: فقال: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] وجدي فدى الموءودات(١) فاستحياهن ، فقال سليمان إنك مع شعرك لفقيه .

وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات . وللعباس بن عبد المطلب :

إنَّ القبائلَ مِنْ قُريشٍ كُلها لَيَرَوْنَ أَنّا هَامُ(٢) أهلِ الأبْطَحِ
وتَرَى لنا فَضْلاً على سَادَاتِها فَضْلَ المنارِ على الطريقِ الأوْضَحِ

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

ألسنَا بَنِي مروانَ كَيْف تَبدَّلَتْ بِنَا الحالُ أَوْ دَارَتْ عَلَيْنَا الدوائرُ؟
إِذَا وُلِدَ المَوْلُودُ مِنَّا تَهَلَّلَتْ لَهُ الأرضُ واهتَزَّتْ إِلَيْه المنابرُ

(١) الموءودات : جمع مؤنث سالم واحدته موءودة : وهى البنت التى كان والدها يدفنها حيَّة فى الجاهلية. خوف العار.

(٢) هام : جمع هامة وهى الرأس . وهام الأهل والقوم : ساداتهم ورؤساؤهم.

وكتب إليه كتابًا يهجوه فيه ويسبه ، فكتب إليه صاحب مصر : أما بعد ، فإنك عرفتنا فهجوتنا ،ولو عرفناك لأجبناك ، والسلام .

وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضًا، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخرمة الكندي، وخالد بن صفوان بن الأهتم (١)، فخاضوا في الحديث وتذاكروا مصر واليمن ، فقال إبراهيم بن مخرمة : يا أمير المؤمنين إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا، ولم يزالوا ملوكًا ورثوا الملك كابرًا عن كابر وآخرًا عن أول منهم النعمان والمنذر، ومنهم: عياض صاحب البحرين، ومنهم: مَنْ كان كل يأخذ سفينة غصبًا ، وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب ، وإن سئلوا أعطوا ، وإن نزل بهم ضيف قروه ، فهم العرب العاربة، وغيرهم المتعربة .

فقال أبو العباس : ما أظن التميمي رضي بقولك ، ثم قال: ما تقول أنت يا خالد ؟ قال: إن أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت ، قال : تكلم ولا تهب أحدًا ، وقال : أخطأ المقتحم بغير علم ، ونطق بغير صواب ، وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب، ولا جاءت بها سنّة يفتخرون علينا بالنعمان، والمنذر، ونفتخر عليهم بخير الأنام ،وأكرم الكرام سيِّدنا محمَّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فلله المنة به علينا وعليهم، فَمِنّا : النبي المصطفى والخليفة المرتضى، ولنا البيت المعمور وزمزم، والحطيم ، والمقام، والحجابة، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر ، وَمِنّا: الصديق، والفاروق، وذو النورين ، والرضا والولي، وأسد الله ،وسيد الشهداء ، وبِنَا عَرفوا الدين ، وأتاهم اليقين ، فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه (٢)، ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم . قال : فما اسم العين عندكم ؟ قال : الجمجمة ، قال : فما اسم السن؟ قال : الميدن ، قال: فما اسم الأذن ؟ قال : الصنارة ، قال : فما اسم الأصابع؟ قال: الشناتير، قال : فما اسم الذئب ؟ قال : الكنع ، قال :أفعالم أنت بكتاب الله عزَّ وجلَّ ؟ قال: نعم . قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢] وقال تعالى : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم :٤] ، فنحن العربَ والقرآن بلساننا أُنزِلَ ، ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾ [المائدة:٤٥] ولم يقل: والجمجمة بالجمجمة ؟، وقال تعالى: ﴿ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ [المائدة :٤٥] ولم يقل : والميدن بالميدن . وقال

---

(١) خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمى المنقرى . من فصحاء العرب المشهورين توفى سنة ١٣٣هـ .

(٢) اصطلم : قطعت أذنه .

تعالى: ﴿ **وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ** ﴾ [المائدة : ٤٥] ولم يقل الصنارة بالصنارة، وقال تعالى: ﴿ **يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم** ﴾ [البقرة :١٩] ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم ، وقال تعالى : ﴿ **فَأَكَلَهُ الذِّئْب** ﴾ [يوسف:١٧] ولم يقل: الكنع ، ثم قال لإبراهيم: إني أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت ، قال : وما هن ؟ قال : الرسول منا أو منكم؟ قال : منكم . قال فالقرآن أنزل علينا أو عليكم ؟ قال: عليكم. قال: فالمنبر فينا أو فيكم ؟ قال : فيكم . قال: فالبيت لنا أو لكم ؟ قال : لكم . قال : فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم إلا سائس قرد ، أو دابغ جلد ، أو ناسج برد، **قال** : فضحك أبو العباس ، وأقر لخالد وحباهما جميعًا .

وقال بشار بن برد (١) يفتخر :

إذا نَحْنُ صُلْنا صَوْلَةً مُضرِيَّةً ... هَتَكْنا حِجابَ الشَّمسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا
إذَا ما أعرنَا سَيدًا مِنْ قبيلة ... ذُرا مِنْبَرٍ صلَّى عَلَيْنا وَسَلَّما

وقال السموأل بن عادياء(٢) :

إِذَا المرء لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُه ... فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَديه جَميلُ
وَإنْ هُو لَمْ يَحمِلْ على النفسِ ضَيْمَهَا(٣) ... فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
تُعَيِّرُنَا أَنّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا ... فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الْكِرامَ قَلِيلُ
وَمَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاه مِثْلَنا ... شَبَابٌ تَسَامى لِلْعُلا وَكُهولُ
وَمَا ضرَّنا أنّا قَلِيلٌ وَجَارُنا ... عزيزٌ ، وَجَارُ الأكْثَرِين ذَلِيلُ
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجيرُه ... مَنيعٌ يَردُّ الطَّرْفَ وهو كَلِيلُ (٤)
سَرَى أَصْلُه تحتَ الثَّرَى وَسَمَا به ... إلى النَّجْم فَرْعٌ لا يزالُ طَوِيلُ
وَإِنَّا أناسٌ لا نرى القتلَ سُبَّة ... إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

(١) سبق أن ترجم له .
(٢) السموأل بن غريض بن عادياء الأزدى . يهودى . صاحب الحصن المعروف : بالأبلق . شاعر جاهلى حكيم من سكان خيبر . فى شمالى المدينة . يضرب به المثل فى الوفاء . ففضل قتل ابنه على التفريط بأمانه أودعها عنده امرؤ القيس. له هذه قصيدة الشهيرة . توفى نحو ٦٥ ق . هـ .
(٣) ضيمها : الضيم : الظلم والمذلة .
(٤) الطرف : النظر . كليل : متعب .

يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنَا لَنَا ... وتَكْرَهُهُ آجَالُهُم فَتَطولُ
وَمَا مَاتَ مِنّا سيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِه ... ولا طُلَّ مِناً حيثُ كان قتيلُ
تَسيلُ على حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنا ... ولَيْسَتْ على غَيرِ الظُّبَاتِ تَسِيلُ
ونَحْنُ كَمَاءِ المزْنِ مَا في نِصَابِنَا ... كهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بخيل
وننكرُ إن شئنا على الناس قولهمْ ... ولا يُنْكِرون القوْلَ حين نقولُ
إذا سَيّدٌ منَّا خَلا قَامَ سيِّدٌ ... قَؤُول بما قال الكرامُ فعُولُ
وَمَا خَمَدَتْ نارٌ لَنَا دُونَ طارق(١) ... وَلا ذَمَّنَا في النازِلِينَ نَزِيلُ
وأَيَّامُنَا مَشهورَةٌ في عَدُوِّنا ... لهَا غُرَرٌ مَشهورةٌ وحُجُولُ
وأسْيافُنا في كلِّ شرقٍ ومَغْرِبٍ ... بها مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِين(٢) فُلُولُ
مُعوَّدَةٌ أَنْ لا تُسَلَّ نِصَالُهَا ... فَتُغْمَدُ حتى يُسْتَباحَ قَتِيلُ
سَلِي إِنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنّا وَعَنْهُمُ ... فَلَيْسَ سواءً عالمٌ وجَهولُ
فإنّا بني الريَّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِم ... تدورُ رَحَاهُم حَولهم وتَجُولُ

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ، ومعهم خطيبهم وشاعرهم ، خطب خطيبهم ، فافتخر ، فلما سكت أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم، فخطب ثابت بن قيس فأحسن ، ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر (٣) فقال :

نَحنُ الملوكَ فَلا حَيٌّ يُفاخِرُنا ... فِينا العلاءُ وفِينا تُنْصبَ الْبِيَعُ
ونَحْنُ نُطعِمُهم في القَحْطِ ما أكَلُوا ... مِنَ الْعَبِيطِ إذا لَمْ يُؤْنَسْ الفَزع (٤)
ونَنْحَرُ الكُوَم عبطًا في أرومَتنا ... للنازِلِين إذا ما أُنْزِلُوا شَبِعُوا
تِلْكَ المكارمُ حُزْنَاها مُقارعةً ... إذا الكرامُ على أمثالِها اقتَرَعُوا

---

(١) الطارق : الآتى ليلا . ما خمدت لنا نار : تظل النار متقدة ليهدى بها الطارق ليلا . وفى القرآن الكريم : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾ [الطارق : ١ ـ ٣]

(٢) الدارعين : الفرسان اللابسين الدروع .

(٣) الزبرقان بن بدر التميمى السعدى . صحابى من رؤساء قومه . لقب بالزبرقان « اسم من أسماء القمر » : لحسن وجهه ، وكان شاعراً فصيحا فيه جفاء الأعراب . توفى سنة ٤٥ هـ .

(٤) القحط : احتباس المطر، ويبس الأرض ـ عام المجاعة . عبيطا:الذبيحة تنحر وهى سمينة فتية من غير علة .

ثم جلس ، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم ، فقام فقال :

إنَّ الذوائِبَ(١) مِنْ فِهْرٍ وَإخْوَتِهم ... قد بَيَّنوا سُنَنًا للناسِ تُتَّبعُ
يَرْضَى بها كُلُّ مَنْ كانت سَرِيرَتُه ... تَقْوى الإلَهِ وبِالأمْرِ الذي شَرَعُوا
قومٌ إذا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُم ... أو حَاوَلوا النفْعَ في أشْياعِهم نَفَعُوا
سَجِيةٌ تِلْكَ مِنْهم غيرُ مُحدثَةٍ ... إنَّ الخلائقَ فاعلمْ شَرُّها البِدَعُ
لَوْ كان في الناسِ سبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ ... فَكُلُّ سَبْقٍ لأدنى سَبْقِهم تَبَعُ
لا يرفعُ الناسُ ما أوهَتْ أكُفُّهم ... عِنْد الدفاعِ ولا يُوهُون ما رَفَعُوا (١)
ولا يضِنُّونَ عن جَارٍ بِفُضْلِهِم ... ولا يَمَسُّهُم في مَطْمعٍ طَمَعُ
خُذْ مِنهم مَا أتوا عَفْوًا إذا عَطَفُوا ... وَلا يكُنْ هَمُّكَ الأمرَ الذي مَنَعُوا
أكْرِمْ بِقَوْمِ رَسُولِ اللهِ شيعَتُهمُ ... إذا تَفَرَّقَتِ الأهواءُ والشِّيَع

فقال التميميون عند ذلك : وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا، وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا ، وما انتصفنا ولا قاربنا ، وقال شاعر من بني تميم :

أيَبْغِي آلُ شَدَّادٍ عَلينا ... وَمَا يَرْعى لشَدَّادٍ فصَيلُ (٢)
فإنْ تُغْمَدْ مَنَاصِلُنا نَجِدْها ... غِلاظًا في أناملِ مَنْ يصولُ (٣)

وقال سالم بن أبي وابصة :

عليْكَ بالقصدِ فِيما أنتَ فَاعلُه ... إنَّ التخلُّقَ يأتي دُونَهُ الخُلُق
وَمَوْقِفٌ مِثْلُ حَدِّ السيفِ قُمْتُ به ... أحْمِي الذمارَ وتَرْميني به الحَدَقُ(٤)
فَمَا زَلَقتُ وَلا أبْديتُ فاحشةً ... إذا الرجالُ على أمثالِها زَلَقُوا

وأما التفاضل والتفاوت : فقد روي أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد، وعكرمة ابن أبي جهل قال : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [الروم : ١٩] لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله ﷺ ومن كلام علي رضي الله عنه لمعاوية ـ

(١) الذوائب من فهر : استعارة تصريحية : السادة والرؤساء . والذؤابة خصلة الشعر في مقدمة الرأس .
(٢) الفصيل : ولد الناقة .
(٣) مناصلنا : المنصل : السيف .
(٤) الزمار : ما ينبغي حياطته والذود عنه . كالأهل والعرض.

رضي الله عنه ـ : أما قولك إنا بنو عبد مناف فكذلك نحن ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبي طالب . وقال أحمد بن سهل: الرجال ثلاثة: سابق، ولاحق، وماحق، فالسابق: الذي سبق بفضله ، واللاحق: الذي لحق بأبيه في شرفه، والماحق: الذي محق شرف آبائه . وقيل : إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث ، وأشعب الطماع وربتهما ، قال أشعب : فكنت أسفل، وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين .

وقال أبو العواذل زكريا بن هارون :

عليٌّ وعبدُ اللهِ بينهما ابٌ ... وَشتَّانَ مَا بَيْنَ الطبائعِ والْفِعْلِ
أَلَمْ تَرَ عَبْدَ اللهِ يَلْحَى على النَّدَى ... عليًا وَيلْحاه عليٌّ عَلَى البُخْلِ(١)

وحج أبو الأسود الدؤلي(٢) بامرأته، وكانت شابة جميلة، فعرض لها عمر بن أبي ربيعة، فغازلها ، فأخبرت أبا الأسود ، فأتاه فقال :

وإنِّي لَيَنْهاني عن الجهلِ والْخَنَا ... وَعَنْ شَتْمِ اقوامٍ خَلائقُ أربعُ (٣)
حياءٌ، وإسلامٌ ،وتقوى ،وأنَّني ... كريمٌ وَمِثْلِي مَنْ يَضُرُّ وينفعُ
فَشتَّانَ مَا بَيْني وبينَكَ إنَّني ... عَلَى كُلِّ حالٍ أَسْتَقِيمُ وتَضْلَعُ (٤)

وقال ربيعة الرقي(٥) :

لَشتَّانَ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى ... يَزيدُ سَلِيمٌ والأعزُّ بنُ حاتِمِ
يزيدُ سَلِيمُ سالمُ المالِ والْفَتَى ... فَتَى الأزْدِ للأمْوَالِ غيرُ مُسالِمِ
فَهَمّ الفتَى الأزْدِي إتلافُ مَالِه ... وَهَمُّ الْفَتَى الْقيسي جَمْعُ الدراهمِ
فَلا يَحْسَبِ القيسيّ أني هَجَوْتُهُ ... ولَكِنَّني فَضَّلْتُ أَهْلَ المكارمِ

---

(١) يلحاه : يلومه .
(٢) ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدُؤلى . من كنانة .فارس . شاعر . نحوى ، فقيه . من سادات التابعين وأول من وضع علم النحو . توفى بالبصرة بالطاعون سنة ٦٩ هـ .
(٣) الخنا : الفحش .
(٤) تضلع : تقوس كالضلع . جار واعتدى .
(٥) ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العيذار الأسدى ، أبو ثابت . أو أبو شبابة الرقى . شاعر غزل . كان نعريرا يلقب بالغاوى . وله ملح مع الرشيد كثيرة. مولده فى الرقة على الفرات، وإليها نسبته . توفى سنة ١٩٨هـ .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين:

يَقولُ : أنا الكَبِيرُ فَعَظِّمُونِي ... ألا ثكلَتْكَ أُمُّكَ مِنْ كَبِيرِ
إِذَا كَانَ الصَّغِيرِ أَعَمَّ نَفْعًا ... وأجْلَدَ عِنْدَ نَائِبَةِ الأمورِ
ولَمْ يَأتِ الْكَبِيرُ بِيَوْم خَيْرٍ ... فَمَا فُضُلُ الْكَبِير عَلَى الصَّغِيرِ

والله أعلم بالصواب ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد ،وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب التاسع والعشرون

في الشرف، والسؤدد، وعلو الهمة

قال رسول الله ﷺ: «من رزقه الله مالاً فبذل معروفه وكف أذاه فذلك السيد»(١). وقيل لقيس بن عاصم (٢): بم سدت قومك؟ قال: لَمْ أخاصم أحدًا إلا تركت للصلح موضعًا. وقال سعيد بن العاص (٣) ما شاتمت رجلاً مذ كنت رجلاً لأني لم أشاتم إلا أحد رجلين إما كريم، فأنا أحق أن أجله، وإما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسي عنه. وقالوا: من نعت السيد أن يكون يملأ العين جمالاً، والسمع مقالاً.

وقيل: قدم وفد من العرب على معاوية، وفيهم الأحنف بن قيس، فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت، ونازلة نزلت، ونائبة نابت (٤)، الكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين، فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهد والغائب.

وقال رجل للأحنف بن قيس: بمَ سدت قومك، وما أنت بأشرفهم بيتًا، ولا أصبحهم وجهًا، ولا أحسنهم خلقا؟ فقال: بخلاف ما فيك، قال: وما ذاك؟ قال: تركي من أمرك ما لا يعنين، كما عناك من أمري ما لا يعنيك، وقيل: السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادي، وعلى الأعداء كالليث العادي.

وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسي(٥)، وسؤدده أنه قدم من سفر، فجمعه، والشماخ بن ضرار المزني (٦) الطريق، فتحادثا، فقال له عرابة: ما الذي أقدمك المدينة يا شماخ؟ قال:

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي التميمي. أبو علي أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم كان شاعرًا، اشتهر وساد في الجاهلية. وفد على النبي ﷺ في وفد تميم سنة ٩ هـ فأسلم. توفى سنة ٢٠ هـ.

(٣) سبق أن ترجم له.

(٤) الرادفة: الداهية. الصوت القوي. النفخة الثانية في الصور يوم القيامة. وفي القرآن ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٧] النازلة: المصيبة: النائبة: النازلة من الكوارث والحوادث المؤلمة.

(٥) عرابة بن أوس بن قيظي الأوسي الحارثي الأنصاري. من سادات المدينة الأجواد المشهورين توفى سنة ٦٠ هـ.

(٦) الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني. شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. توفي سنة ٢٢ هـ.

قدمتها لأمتار [١] منها ، فملأ له عرابة رواحله بُرًا وتمرًا ، وأتحفه بتحف غير ذلك ، فأنشد يقول:

رَأيتُ عَرَابَةَ الأوسيَ يَسْمُو إلى الخيراتِ مُنْقطعَ القَرينِ
إذَا مَا رَاية رُفِعت بمَجْدٍ تَلَقَّاها عَرَابَةَ باليمنِ

وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة : فممن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة [٢] ، قيل: إنه دخل يومًا على المنصور ، وقعد في مجلسه ، فقام رجل ، وقال : مظلوم يا أمير المؤمنين ، قال : مَنْ ظلمك ؟ قال : عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي ، فقال المنصور : يا عمارة قُمْ ، فاقعد مع خصمك ، فقال : ما هو لي بخصم إن كانت الضيعة له ، فلست أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ولا أقوم مِنْ مقامٍ شرفني به أمير المؤمنين ، ورفعني ، وأقعد في أدنى منه لأجل ضيعة .

وتحدث السفاح هو ، وأم سلمة يومًا في نزاهة نفس عمارة ، وكِبْره ، فقالت له : ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه ، فإن ثمنها خمسون ألف دينار ، فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس ، فوجه إليه فحضر ، فحادثته ساعة ، ثم رمت إليه بالسبحة ، وقالت : هي مِنَ الطُّرفِ وهي لك ، فجعلها عمارة بين يديه ، ثم قام وتركها ، فقالت : لعله نسيها ، فبعثت بها إليه مع خادم فقال للخادم :هي لك ، فرجع الخادم فقال : قد وهبها لي ، فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه . وأهدى عبيد الله بن السَّرِّي إلى عبد الله بن طاهر [٣] لما ولي مصر مائة وصيف مع كل وصيف ألف دينار ، ووجه إليه بذلك ليلاً فرده ، وكتب إليه لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهارًا ، ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل : ٣٦] .

وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سُبِيتْ ، فنادت وا محمداه وا معتصماه، فبلغه الخبر ، فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال : لبيك أيتها المنادية .وكان سعيد بن

---

(١) الأمتار : من الميرة أشترى وأبتاع التجارة .

(٢) عمارة بن حمزة بن ميمون . من ولد عكرمة مولى ابن عباس . كاتب من الولاة الأجواد والشعراء توفى سنة ١٩٩ هـ .

(٣) عبيدالله بن السَّرِّي بن الحكم . أمير مصر وابن أميرها . من الولاة تدافع عبيد الله وعبد الله بن طاهر . أقام بالعراق إلى أن توفي سنة ٢٥٠ هـ ، عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، أبو العباس ، أمير خراسان . من أشهر الولاة في العصر العباسي ، أصله فارسي من باذغيس بخراسان ، ولي إمارة الشام ، ونقل إلى مصر، ثم إلى خراسان ـ سيد نبيل ، عالي الهمة ، شهم .توفي في مرو سنة ٢٣٠ هـ .

عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة ، قيل له في مرضه :إن المريض يستريح إلى الأنين وإلى شرح ما به إلى الطبيب ، فقال : أما الأنين ، فهوجزع وعار ، والله لا يسمع الله مني أنينا ، فأكون عنده جزوعًا ، وأما وصف ما بي إلى الطبيب ، فوالله لا يحكم غير الله في نفسي إن شاء أمسكها ، وإن شاء قبضها.

ومن كبر النفس : ما روي عن قيس بن زهير : إنه أصابته الفاقة ، واحتاج فكان يأكل الحنظل [١] حتى قتله ، ولم يخبر أحدًا بحاجته .و من الشرف والرياسة :حفظ الجوار ، وحمى الذمار .وكان العرب ترى ذلك دينًا تدعو إليه ، وحقًا واجبًا تحافظ عليه ، وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جارًا قال : يا هذا إنك اخترتني جارًا ، أو اخترت داري دارًا ، فجناية يدك علي دُونَك ، وإن جَنتْ عليك يدٌ ، فاحتكم حكم الصبي على أهله .

وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة ، فمن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب ، خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يُسمِّيها ويُنسبه ، فعاذت بقبر أبيه ، فلم يذكر لها اسمًا ولانسبًا ، ولكن قال :

عَجُوز تُصلي الخمسَ عَاذَتْ بغالبِ فَلا والَّذِي عَاذَتْ به لا أضِيرُها

وقال مروان بن أبي حفصة [٢] :

همُ يَمنعونَ الجارَ حَتَّى كأنَّما لجارِهم بين السَّماكينِ مَنْزَلُ [٣]

وقال ابن نباتة [٤] :

ولَو يكونُ سَوادُ الشَّعر في ذِمَم مَا كَانَ للشَيْب سُلطانٌ على القِممِ

وقيل : إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه ، واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه ، وأرغب السجان واستماله ، وهرب هو والسجان ، وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك ، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه، وأقامه عنده ، فكتب

---

(١) الحنظل : ثمرته في حجم البرتقالة ولونها ، فيها لُبٌّ شديد المرارة .

(٢) مروان بن سليمان يحيى بن أبي حفصة . شاعر ، مجيد ، من أهل اليمامة . مدح المهدي والرشيد ، وله مدائح ومراث عجيبة في معن بن زائدة ، قتل سنة ١٨٢ هـ .

(٣) السماكين : نجمان نيران أحدهما في الشمال ـ الرامح ، والآخر في الجنوب ـ الأعزل .

(٤) جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن بن نباتة . الفارقي المصري ، أبو بكر . شاعر ، كاتب ،ولد في القاهرة أصله من ميا فارقين ، آثاره : ديوان شعر ، المفاخرة بين السيف والقلم توفي ٧٦٨هـ .

الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن ، وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخ أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأيًا ، فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك، فكتب سليمان إلى أخيه يقول: يا أمير المؤمنين إني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديمًا وحديثًا ، ولم أجر عدواً لأمير المؤمنين ، وقد كان الحجاج قصده وعذبه واغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلمًا ، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد صار إلي واستجار بي ، فأجرته وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم، فإن رأى أمير المؤمنين ، أن لا يخزيني في ضيفي فليفعل ، فإنه أهل الفضل والكرم ، فكتب إليه الوليد : إنه لابد أن ترسل إليّ يزيد مغلولاً مقيدًا ، فلما ورد ذلك على سلميان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد ابن المهلب فقيده ، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعًا بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد ، وكتب إليه : أما بعد ، يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ، ولقد هممت أن أكون ثالثهما ، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد ، فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ، ثم اجعل يزيد ثانيًا ، واجعلني إذا شئت ثالثا ، والسلام .

فلما دخل يزيد بن المهلب ،وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال: لقد أسأنا إلى أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ ، فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه ، فقال له الوليد : ما يحتاج إلى كلام ، فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج . ثم إنه أحضر حدادًا ، وأزال عنهما الحديد ، وأحسن إليهما ، ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد ابن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما إلى سليمان ، وكتب كتابًا إلى الحجاج يقول له : لا سبيل لك على يزيد بن المهلب فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم . فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل .

وحكى: أن رجلاً من الشيعة كان يسعى في فساد الدولة ، فجعل المهدي لِمن دلَّ عليه ، أو أتى به مائة ألف درهم ، فأخذه رجل من بغداد فأيس من نفسه فَمرَّ به معن بن زائدة [١] وقال له: يا أبا الوليد أجرني أجارك الله ، فقال معن للرجل : مالك وما له ؟ فقال : إن أمير المؤمنين طالبه . قال : خلِّ سبيله ، قال : لا أفعل . فأمر مَعنُ غلمانه فأخذوه غصبًا ، وأردفه بعضهم خلفه ، ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة ، فأرسل خلف معن فأحضره، فلما دخل عليه ، قال له : يا معن أتجير علي ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين قتلت في يوم واحد في طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتي أفما تروني أهلاً أن تجيروا إلى

(١) معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني ، أبو الوليد .من أشهر أجواد العرب ، وأحد الشجعان الفصحاء. توفى ١٥١ هـ .

رجلاً واحدًا استجار بي ، فاستحيا المهدي ، وأطرق طويلاً ، ثم رفع رأسه ، وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد ، قال :إن رأى أميرالمؤمنين أن يصل من استجار بي فيكون قد أجاره وحباه ، قال : قد أمرت له بخمسين ألف درهم . فقال معن : يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، وأن ذنب الرجل عظيم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل ، قال : قد أمرت له بمئة ألف درهم ، فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل، ودفع له المال ، ووعظه وقال له : لا تتعرض لمساخط الخلفاء .

وكان جعفر [1] بن بن أبي طالب يقول لأبيه :يا أبت إني لأستحي أن أطعم طعامًا وجيراني لا يقدرون على مثله ، فكان أبوه يقول: إني لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب .

وسقط الجراد قريبًا من بيت بعض العرب ، فجاء أهل الحي ، فقالوا : نريد جارك . فقال: أما إذ جعلتموه جاري ، فوالله لا تصلون إليه ، وأجاره حتى طار ، فسمي مجير الجراد، وقيل : هو أبو حنبل . والحكايات في معنى ذلك كثيرة ،والله سبحانه وتعالى أعلم وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، ابن عم الرسول ﷺ أسلم قديما ، وهاجر إلى الحبشة ، صحابي ،هاشمي ، شجاع يقال له : جعفر الطيار وهوأخو علي بن أبي طالب أسنّ من علي بعشر سنين ، وله مواقف مشهورة خلدها التاريخ هناك ، ومقامات محمودة ، وأحوال رشيدة ، وأجوبة سديدة صائبة . استشهد في غزوة «مؤتة » في سنة ٨ هـ .

الباب الثلاثـــون

في الخير والصلاح ، وذكر السادة الصحابة ، وذكر الأولياء الصالحين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ

اعلم .. أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عثمان ، ثم علي ـ رضي الله عنه أجمعين ـ ، وفضائلهم أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، وإني والله ، أحبهم وأحب من يحبهم ، وأسأل الله أن يميتني على محبة النبي محمد ﷺ ومحبتهم ، وأن يحشرنا في زمرتهم وتحت ألويتهم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، شعر :

إِنِّي أُحِبُّ أبا حَفْصٍ وشِيعَتَـهُ ... كَمَا أُحِبُّ عتِيقًا صَاحِبَ الغـــارِ[1]

وَقَدْ رَضِيتُ عَلِيًّا قُدْوة عَلَمًـــا ... وَمَا رَضِيتُ بِقَتْلِ الشَّيْخِ في الـــدارِ[2]

كُلُّ الصحابةِ سَادَاتِي ومُعتقَدِي ... فَهَلْ عَلَيَّ بهذا القولِ مِنْ عـــــارِ ؟

وروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ أصبح منكم اليوم صائمًا ؟** » فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « **فَمَنْ أطعم اليوم منكم مسكينًا ؟** » فقال أبو بكر : أنا ، فقال ﷺ : « **فَمَنْ عاد منكم اليوم مريضًا ؟** » قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله ﷺ : « **ما اجتمعن في أحد إلا دخل الجنة** »[3] . وقال ﷺ : «**لو كان بعدي نبي لكان عمر** »[4] ، وقال له النبي ﷺ : « **والذي بعثني بالحق بشيراً ما سلكتَ واديًا إلا سلك الشيطان واديًا غيره** » ، ولما أسلم ـ رضي الله عنه ـ قال : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ ، قال : « بلى » ، قال : والذي بعثك بالحق نبيًا لا نعبد الله سرًا بعد هذا اليوم . ولما قدم عمر ـ رضي الله عنه ـ الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيمًا لهم، وقال : انظر إلى ملك العرب فرآه على فرس ، وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه، ومخلاته في قربوس[5] السرج ، وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها ، فوصفه البطريق فقال : لا ترى بمحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء . وأمّا أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه ـ ففضائله كثيرة ، ومناقبه شهيرة فهو جامع القرآن ، وَمَنِ استَحيَتْ منه ملائكة

---

(١) أبو حفص : كنية الفاروق عمر . عتيقا : لقب الصديق .
(٢) الشيخ : يعني عثمان بن عفان .
(٣) رواه مسلم في « الزكاة » (٢٣٣٦) وفي « الفضائل » (٦٠٦٥) .
(٤) حسن : رواه الترمذي في « المناقب » (٣٦٨٦) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه .
(٥) القربوس : الجزء المرتفع من السرج .

الرحمن ـ رضي الله عنه ـ . وقال جميع بن عمير : دخلت على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقلت لها : أخبريني من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ؟ ، قالت : فاطمة ، قلت : إنما أسألك عن الرجال ، قالت : زوجها ، فوالله لقد كان صوامًا قوامًا. ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ في يده فردها إلى فيه قلت: فما حملك على ما كان؟، فأرسلت خمارها على وجهها وبكت ، وقالت : أمر قضي علي وقال معاوية لضرار بن حمزة الكناني : صف لي عليًا فاستعفى فألح عليه ، فقال : أما إذن فلا بد أنه والله كان بعيد المدى ـ شديد القوى . يتفجر العلم من جوانبه . وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الْعَبْرَة طويل الفكرة يقلب كفه ويعاتب نفسه . يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان والله يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين . لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ الخائف ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأني الأن أسمعه يقول : يا دنيا إِلَيَّ تعرضت أم إِلَيَّ تشوقتِ ؟ . هيهات غري غيري . لقد أبنتك (١) ثلاثًا لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشكِ حقير ، وخطركِ كبير ، آه من قلة الزاد ، ووحشة الطريق ، قال : فوكفت (٢)دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء . وقال رحم الله أبا الحسن ـ : كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزني عليه والله حزن من ذبح ولدها في حجرها ، فلا ترقأ عبرتها ، ولا تسكن حَيْرَتها ، ثم قام فخرج .

وقيل : أول من سل سيفًا في سبيل الله تعالى الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح ، فقال : قُتِلَ محمد ، فخرج متجردًا وسيفه معه صلتًا فتلقاه رسول الله ﷺ فقال : « ما لك يا زبير ؟ » قال : سمعت أنكَ قُتِلْتَ ، قال : « فماذا أردت أن تصنع؟ » . قال : أردت والله أن أستعرض على أهل مكة . وروي أحبط بسيفي مَنْ قدرتُ عليه فضمه رسول الله ﷺ وأعطاه إزارًا له فاستتر به وقال له : « أنت حواريي ودعا له » .

قال الأوزاعي : كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها ، وباع دارًا له بستمائة ألف درهم ، فقيل له : أيا أبا عبد الله غبنت ، قال : كلا والله لم أغبن أشهدكم أنها في سبيل الله تعالى ، وهبط جبريل ـ عليه السلام ـ على رسول الله

---

(١) أبنتك : الْبَيْنُ : الفرقة . وبانت المرأة عن زوجها انفصلت بطلاق . فيقول : طلقتك ثلاثا لا تَحِلّي لي بَعْد. حتى ينكحك غيرى ـ أبنتك ثلاثًا ـ بينونة كبرى ـ فقه .

(٢) الوكف : سيل الماء . أي : سالت دموعه وقطرت .

ﷺ يوم أُحُد فقال : من حملك على ظهره ؟ وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخر ، قالَ : « طلحة » ، قال : أقرئه السلام ، واعلمه أني لا أراه يوم القيامة في هول من أهوالها إلا استنقذته منه . من هذا الذي عن يمينك ؟ قال : المقداد بن الأسود » ، قال : إن الله يحبه ويأمرك أن تحبه . من هذا الذي بين يديك يتقي عنك ؟ قال : « عمار بن ياسر»، قال : بشره بالجنة حُرِّمَتْ النار عليه .

وَمَرَّ أبو ذر على النبي ﷺ ، ومعه جبريل ـ عليه السلام في صورة دحية الكلبي (١) فلم يسلم ، فقال جبريل : هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه . فقال : « أتعرفه يا جبريل ؟ » قال : والذي بعثك بالحق نبيًا لهو في ملكوت السموات والسبع أشهر منه في الأرض ، قال : « بمَ نال هذه المنزلة ؟ » قال : بِزُهْدِ في هذه الحطام الفانية . وقال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء » ، ثم قرأ: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وقال أبو بكر السفاح لأبي بكر الهذلي : بم بلغ الحسن ما بلغ ؟ ، قال : جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثنتي عشرة سنة لم يجاوز سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها ، ولم يقلب درهمًا قط في تجارة ، ولم يل عملاً لسلطان ، ولم يُأمَرْ بشيء حتى فعله ، ولم يُنْه عن شيء حتى يدعه ، قال السفاح : بهذا بلغ .

وقال الجاحظ : كان الحسن يستثنى من كل غاية ؛ فيقال : فلان أزهد الناس إلا الحسن ، وأفقه الناس إلا الحسن ، وأفصح الناس إلا الحسن ، وأخطب الناس إلا الحسن .

وقال بعضهم : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها، وأويس (٢) لم يملكها ، فقيل : لو ملكها لفعل كما فعل عمر ، فقال : ليس من لم يجرب كمن جرب .

وقال أنس في ثابت البناني : إن للخير مفاتيح وإن ثابتًا من مفاتيح الخير . وكان حبيب الفارسي من أخيار الناس وهو الذي اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفا ، كان يخرج البدرة فيقول : يا رب اشتريت نفسي منك بهذه ، ثم يتصدق بها .

وكان أيوب السختياني (٣) من أزهد الناس وأورعهم ، ذكر عند أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى

(١) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي صحابي . بعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام . يضرب به المثل في حسن الصورة . شهد اليرموك . توفي سنة ٤٥ هـ .

(٢) أويس بن عامر بن جزء بن مالك القَرَني . من بني قرن بن ردمان . أحد النساك العباد . من سادات التابعين توفي ٣٧ هـ .

(٣) أيوب بن كيسان السختياني . توفي سنة ١٣١ هـ .

ـ فقال : رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقامًا عند منبر النبي ﷺ لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدي .

وقال سفيان الثوري (١) : جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك (٢) فلم أقدر . وكان الخليل بن أحمد (٣) النحوي من أزهد الناس وأعلاهم نفسًا ، وكان الملوك يقصدونه ويبذلون له الأموال فلا يقبل منها شيئًا ، وكان يحج سنة ، ويغزو سنة حتى مات رحمه الله ـ. وقال ابن خارجة : جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتبا عليه شيئًا ، وروي أنه غَسَّلَ كَرْزَ بنَ وبرة فلم (٤) يوجد على جسده مثقال لحم .

وعن محمد بن الحسن قال : كان أبو حنيفة واحد زمانه ، لو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال في العلم والكرم والزهد والورع .

وحج وكيع بن الجراح (٥) أربعين حجة ورابط في عبادان أربعين ليلة ، وختم بها القرآن أربعين ختمة ، وتصدق بأربعين ألفًا وروى أربعة آلاف حديث ، وما رؤي واضعًا جنبه قط . ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح وهو أسود مفلفل الشعر ، يفتي الناس في الحلال والحرام فتمثل يقول : تلك المكارم لا قعبان من لبن .

ومن مشايخ الرسالة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ : سيدي أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي أستاذ إبراهيم بن شيبان ، كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت إليه أيدي بني آدم سنين كثيرة ، وكان أكله من أصول العشب شيئًا تعود أكله .

ومنهم : سيدي فتح بن شحرف بن داود . يكنى : أبا نصر من الزاهدين الورعين ، لم يأكل الخبز ثلاثين سنة ، قال أحمد بن عبد الجبار : سمعت أبي يقول : صحبت فتح بن شحرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء ، ثم رفعها يومًا ، فقال : طال شوقي إليك فأعجل قدومي عليك . وقال محمد بن جعفر : سمعت إنسانًا يقول : غَسَّلْنا فتح بن شحرف، فرأينا

---

(١) ترجم له .

(٢) ترجم له .

(٣) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي ، أبو عبد الرحمن . من أئمة اللغة والأدب ، وواضع علم العروض . توفي سنة ١٧٠ هـ .

(٤) كرز بن وبرة الحارثي ، أبو عبد الله . تابعي . من أهل الكوفة . يضرب به المثل في التعبد . توفي سنة نحو ١١٠ هـ .

(٥) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي . أبو سفيان . حافظ للحديث . ثبت . توفي سنة ١٩٧ هـ .

مكتوب على فخذه لا إله إلا الله فتوهمناه مكتوبًا ، وإذا هو عرق داخل الجلد ، ومات ببغداد ، فَصُلِّيَ عليه ثلاثًا وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحو من خمسة وعشرين ألفًا إلى ثلاثين ألفا .

ومنهم :سيدي فتح بن سعيد الموصلي . يكنى : أبا نصر من أقران بشر الحافي وسري السقطي كبير الشأن في باب الورع والمجاهدات . قال إبراهيم بن نوح الموصلي : رجع فتح الموصلي إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائمًا ، فقال : عشوني ، فقالوا : ما عندنا شيء نعشيك به ، فقال : ما بالكم جلوس في الظلمة ، فقالوا : ما عندنا شيء نسرج به ، فجعل يبكي من الفرح ، ويقول : إلهي مثلي يُتْرَك بلا عشاء ولا سراج بأي يد كانت مني ، فما زال يبكي إلى الصباح .

وقال فتح : رأيت بالبادية غلامًا لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد على السلام ، فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى بيت ربي عَزّ وجل فقلت : بماذا تحرك شفتيك؟ قال : أتلو كلام ربي ، فقلت : إنه لم يجر عليك قلم التكليف ؟ قال : رأيت الموت يأخذ مَنْ هو أصغر سنًا مني ، فقلت : خُطَاكَ قصيرة وطَرِيقُكَ بعيدة ، فقال : إنَّما عَلَيّ نقل الخطا وعليه البلاغ ، فقلت : أين الزاد والراحلة ؟ قال : زَادَي يقيني وراحلتي رجلاي ، فقلت: أسألك عن الخبز والماء ، قال : يا عماه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله ؟ ، قلت : لا . فقال : إن سيدي دعا عباده إلى بيته ، وأذِنَ لهم في زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم ، وإني استقبحت ذلك ، فحفظت الأدب معه، أفتراه يضيعني ؟ فقلت : حاشا وكلاّ، ثم غاب عن بصري فلم أره إلا بمكة ، فلما رآني. قال : أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين .

ومنهم :سيدي أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري صحب شاه الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي ، وكان يقال : في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم ، أبو عثمان الحيري بنيسابور ، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله الحلاج بالشام . ومن كلامه لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء : المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل ، وقال : منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته ، ولا نقلني إلى شيء فسخطته .

ومنهم : سيدي سليمان الخواص . يكنى : أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين ، والعباد الموصوفين سكن الشام ، ودخل بيروت ، وكان أكثر مقامه ببيت المقدس ، قيل : اجتمع حذيفة المرعشي ، وإبراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط . فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت ، فقال بعضهم : الغني : مَنْ كان له بيت يسكنه ، وثوب يستره، وسداد من عيش يكفيه عن فضول الدنيا. وقال بعضهم : الغنى : من لم يحتج إلى الناس . فقيل لسليمان : ما تقول أنت

في ذلك ؟ ، فبكى وقال : رأيت جوامع الغنى في التَّوَكُّلِ ، ورأيت جوامع الفقر في القنوط . والغَنِيُّ حق الغنى : مَنْ أسكن الله في قلبه مِنْ غِناه يقينًا ، ومِنْ معرفته توكُّلاً ، ومِنْ قِسمته رضا ؛ فذلك الغني حق الغنى وإن أمسى طاويًا ، وأصبح معوزًا [١] ؛ فبكى القوم من كلامه .

ومنهم : سيدي أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني أحد رجال الطريقة ـ قدس الله سرَّه ـ ، كان من أجل السادات وأرباب الجد في المجاهدات ، ومن كلامه : مَنْ أحسن في نهاره كُفِيَ في ليله ، ومَنْ أحسن في ليله كُفِي في نهاره ، ومَنْ صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم مِنْ أن يعذب قلبًا بشهوة تركت له ، وقال : لكل شيء علامة، وعلامة الخذلان ترك البكاء ، وقال : لكل شيء صدأ ، وصدأ نور القلب شبع البطن .

وقال أحمد بن أبي الحواري: شكوت إلى أبي سليمان الوسواس فقال : إذا أردت أن ينقطع عنك فأي وقت أحسست به ، فافرح فإنك إذا فرحت به انقطع عنك لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن ، وإذا اغتممت به زادك .

وقال ذو النون المصري ـ رحمه الله تعالى ـ: اجتمعوا ليلاً على أبي سليمان الداراني فسمعوه يقول : يا رب إن طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيدك ، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك ، وإن جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إياك .

وقال علي بن الحسين الحداد : سألت أبا سليمان بأي شيء تعرف الأبرار ؟ قال : بكتمان المصائب ، وصيانة الكرامات . وروي عنه أنه قال : نمت ليلة عن وِرْدي [٢] فإذا حوراء تقول لي: أوتنام وأنا أربي لك في الخدور [٣] منذ خمسمائة عام .

ومنهم : سيدي أبو محمد عبد الله بن حنيف . من زهاد المتصوفة . كوفي الأصل ، ولكنه سكن أنطاكية . ومن كلامه : لا تغتم إلا من شيء يضرك غدًا ، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غدًا، وله كرامات ظاهرة وبركات متواترة .

ومنهم : سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء ، أصبهاني الأصل . كتب عن ستمائة شيخ ، ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف وقطع البادية على

(١) طاويا : جائعًا . معوز : المحتاج المختل حاله من العيش .
(٢) الورد : الجزء من القرآن أو الذكر .
(٣) الخدور : المرأة ألزمها خِدْرَها وصانها عن الخدمة . فهي خَدُور .

الجريد ، وكان في ابتداء أمره يكسب في كل يوم ثلاثة دراهم وثلثًا ، فيأخذ من ذلك لنفسه دانقًا ويتصدق بالباقي ، ويختم مع العمل كل يوم ختمة ، فإذا صلى العتمة في مسجده خرج إلى الجبل إلى قُرَيْب الصبح ، ثم يرجع إلى العمل ، وكان يقول في الجبل : يا رب إما أن تهب لي معرفتك ، أو تأمر الجبل أن ينطبق علي فإني لا أريد الحياة بلا معرفتك .

ومنهم : سيدي يحيى بن معاذ الرازي ـ قدس الله سره ـ . يكنى: أبا زكرياء أحد رجال الطريق كان أوحد وقته ، ومن كلامه : لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ، ويوم حشره ميزانه، وقال : ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال : إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تسره فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه ، وقال : الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص ، وقال: بئس الصديق صديقٌ يحتاج إلى أن يقال له : اذكرني في دعائك ، وقال : على قدر حبك لله يحبك الخلق ، وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق ، وعلى قدر شغلك بالله تشتغل في أمرك الخلق ، وقال : مَنْ كان غناه في كيسه لم يزل فقيرًا ، ومَنْ كان غناه في قلبه لم يزل غنيًا ، ومَنْ قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محرومًا .

وروي : أنه قدم شيراز فجعل يتكلم على الناس في علم الأسرار ، فأتته امرأة من نسائها ، فقالت : كم تأخذ من هذه البلدة ؟ قال : ثلاثون ألفًا أصرفها في دين عَلَيّ بخراسان ، فقالت: لك على ذلك على أن تأخذها وتخرج من ساعتك ، فرضي بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد ، فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت ، فقالت : إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك .

ومنهم : سيدي يوسف بن الحسين الرازي . يكنى : أبا يعقوب كان وحيد وقته في إسقاط التصنع ، عالمًا أديبًا صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي . من كلامه : إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال فإن قبل فاعلم أنه أحمق . وقال : إذا رأيت المريد يشتغل بالرُّخَصِ فاعلم أنه لا يجيء منه شيء ، وقال : لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصي أحب من أن ألقاهَ بِذَرَّةٍ مِنَ التصنع ، وقال أبو الحسن الدراج : قصدت زيارة ابن الرازي من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله فكل من سألته يقول : أي شيء تريد مِنْ هذا الزنديق؟، فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف ، فبت تلك الليلة في مسجد ، ثم قلت في نفسي : جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالسًا في المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد عَلَيَّ السلام وقال : مِنْ أين ؟ قلت : مِنْ بغداد ، فقال : أتحسن من قولهم شيئًا ؟ قلت : نعم ، وأنشدته.

رأَيْتُكَ تَبْنِي دَائمًا في قَطِيعَتِي ... وَلَوْ كُنْتَ ذا حَزْمٍ لَهَدَمْتَ مَا تَبْنِي

فأطبق المصحف ، ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وثوبه ، ورحمته من كثرة بكائه ، ثم التفت إليه ، وقال : يا بني أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق ؟ ، وها أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ، ولم تقطر من عيني قطرة ، قد قامت على القيامة بهذا البيت.

ومنهم : سيدي حاتم بن علوان الأصم ـ قدس الله سِرّه ـ . يكنى : أبا عبد الرحمن من أكابر مشايخ خراسان صاحب شقيق البلخي ، ومن كلامه : الزم خدمة مولاك تَأْتكَ الدنيا راغمةً والآخرة راغبةٌ ، وقال : من ادعى ثلاثًا بغير ثلاث فهو كذاب ؟ مَنِ ادعى حُبَّ الله تعالى مِنْ غيرَ وَرَعٍ عن محارمه فهو كذاب ، وَمَنِ ادعى مَحَبَّةَ النبي ﷺ مِنْ غيرَمحبة الفقر فهو كذاب ، وَمَنِ ادعى حُبَّ الجنة مِنْ غير إنفاق ماله فهو كذاب ، وسأله رجل علام بنيت أمرك في التوكل على الله عزّ وجلّ ؟ قال : على أربع خصال : علمتُ أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنتْ به نفسي، وعلمتُ أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به ، وعلمتُ أن الموت يأتيني بغتة فأنا أُبَادِرُه ، وعلمتُ أني لا أخلو من عين الله عزّ وجلّ حيث كنت فأنا أستحي منه .

وسبب تسميته بالأصم : ما حكاه أبو علي الدقاق : أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة ، فقال حاتم : ارفعي صوتك وأراها أنه أصم فَسُرَّتِ المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم ـ رحمه الله تعالى عليه ـ .

ومنهم : الحسن بن أحمد الكاتب . من كبار مشايخ المصريين . صحب أبا بكر المصري، وأبا علي الروذباري ، وكان أوحد مشايخ وقته ، من كلامه : روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها ، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها ، وتدل عليهم وإن ستروها ، وأنشدوا في هذا المعنى :

إذا مَا أَسَرَّتْ أنفسُ الناسِ ذكرَهُ ... تَبَيَّنَهُ فيهم ولَم يَتَكَلَّمُوا

تَطيبُ به أنفاسُهم فَتُذيعُهـا ... وَهل سِرُّ مِسْكٍ أُودِعَ الريحَ يُكتَمُ ؟

ومن كلامه أيضًا : إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية ، فأول ما يفيده الاستغناء به عن الناس . وقال : صُحْبَة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم ، وقال : إذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه .

ومنهم : سيدي جعفر بن نصر الخلدي . يكنى : بأبي محمد ، بغدادي المنشأ والمولد ،

صحب الجنيد ، وانتمى إليه ، وحج قريبًا من ستين حجة ، روي : أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكي بكاء بحرقة ، فقال لها : ما لك تبكين ؟ فقالت: ثكلي بولدي ، فأنشأ يقول :

يَقُولُون : ثكلَي وَمَنْ لَمْ يَذُقْ فِرَاقَ الاحبَّةِ لَمْ يُثْكَـلِ
لَقَدْ جرّعَتْنِي لَيَالِيَ الْفِـــرَاقِ شرَابًا أمرَّ مِنَ الْحَنْظَلِ

وروي : أنه كان له فَصٌّ فوقع منه يومًا في الدجلة ، وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت ، فدعا به فوجد الفص في وسط أوراق كان يتفحصها ، وصورة الدعاء أن تقول : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع عليَّ ضالتي . وقد روي : أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثًا . وروى الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه : قال : ودعت في بعض حجاتي المزين الكبير الصوفي فقلت : زودني شيئًا . فقال : إن فقدت شيئًا ، أو أردت أن يجمع الله بيني وبينك أو بينك وبين إنسان ، فقل : ياجامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين كذا، فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو الإنسان .

ومنهم : سيدي معروف بن فيروز الكرخي ـ قدس الله سرَّه ـ يكنى : أبا محفوظ من كبار المشايخ . مجاب الدعوة وهو أستاذ السري ، وكان أبواه نصرانيين ، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي ، فكان المؤدب يقول له : قل : هو ثالث ثلاثة ، فيقول : بل هو الواحد الصمد ، فضربه المؤدب على ذلك ضربًا وجيعًا ، فهرب منه ، فكان أبواه يقولان : ليته يرجع إلينا على أي دين شاء ، فنوافقه عليه ، فرجع إلى أبويه ، فدق الباب ، فقيل : مَنْ بالباب ؟ ، فقال : معروف ، فقيل : على أي دين ، فقال : على دين الإسلام ، فأسلم أبواه ، وكان مشهورًا بإجابة الدعوة.

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ : إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الفترة والكسل ، وكان يعاتب نفسه ويقول : يا مسكين كم تبكي ، وتندب . أخلص تخلص ، وقال سرِّي : سألت معروفًا عن الطائعين لله بأي شيء قدروا على الطاعات لله عزَّ وجل ؟ . قال: بخروج حب الدّنيا مِنْ قلوبهم ، ولو كانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة ، ومن إنشاداته :

الماءُ يَغْسِلُ ما بالثوبِ مِنْ دَرَنٍ وَلَيْسَ يَغْسِلُ قَلْبَ المذنبِ الماءُ

وقال إبراهيم الأطروش : كان معروف قاعدًا يومًا على الدجلة ببغداد ، فمر بنا صبيان في زورق يضربون بالملاهي ، ويشربون ، فقال له أصحابه : أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء ؟ فادع عليهم ، فرفع يديه إلى السماء ، وقال : إلهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا

أسألك أن تفرحهم في الآخرة ، فقال له أصحابه : إنما سألناك أن تدعو عليهم ، ولم نقل لك ادع لهم ، فقال : إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضرك ذلك .

وقال سري : رأيت معروفًا في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته : من هذا ؟ فقالوا : أنت أعلم يا رب ، قال : هذا معروف الكرخي سكر بحبي لا يفيق إلا بلقائي، وقيل له في مرضه : أَوْصِ ، فقال : إذا مِتُّ فتصدقوا بقميصي هذا ، فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانًا كما دخلتها عريانًا ، وقال أبو بكر الخياط : رأيت في المنام كأني دخلت المقابر ، فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان، وإذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويجيء، فقلت : يا أبا محفوظ ما فعل الله بك ؟ أوَ ليس قد مِتَّ ؟ قال : بلى . ثم أنشد يقول :

موتُ التُّقَي حَياةٌ لا نَفادَ [1]لها قد مَاتَ قومٌ في الناس أحياءُ

ومنهم : قاسم بن عثمان الكرخي . يكنى : أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ صحب أبا سليمان الداراني وغيره ، وكان من أقران السَّرّى ، والحرث المحاسبي ، وكان أبو تراب النخشبى يصحبه .

ومن كلامه : مَنْ أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى وما بقي ، ومن أفسد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي .

وقال : السلامة كلها في اعتزال الناس ، والفرح كلهَ في الخلوة بالله عزَّ وجلَّ ، وسُئِل عن التوبة ، فقال : التوبة رد المظالم ، وترك المعاصي ، وطلب الحلال ، وأداء الفرائض . وقال لأصحابه : أوصيكم بخمس : إن ظلمتم فلا تَظْلموا ، وإن مُدِحتم فلا تَفْرحوا ، وإن ذُمِمتُمْ فلا تحزنوا ، وإن كُذِّبْتم فلا تغضبوا ، وإن خانوكم فلا تخونوا .

وقال محمد بن الفرج : سمعت قاسم بن عثمان يقول : إن لله عبادًا قصدوا الله بهممهم فأفردوا بطاعتهم ، واكتفوا به في توكلهم ، ورضوا به عوضًا عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا ، فليس لهم حبيب غيره ، ولا قرة عين إلا فيما قرب إليه ، وكان يقول : قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة ، ثم قال : اعرف وضع رأسك ونم ، فما عَبَدَ الله الْخَلْقُ بشيء أفضل من المعرفة .

وروي عن أنه قال :رأيت في الطواف حول البيت رجلاً فتقربت منه ، فإذا هو لا يزيد على قوله : اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتي لم تُقْضَ ، فقلت له : ما لكَ لا تزيد على هذا الكلام ؟ فقال : أحدثك ، كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا ،

(١) النفاد : الفَناء .

فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا ، فنظرت إلى السماء ، فإذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين في كل باب جارية ، فقدم رجل منا فضربت عنقه ، فرأيت جارية في يدها منديل قد هبطت إلى الأرض ، فضربت أعناق الستة وبقيت أنا ، وبقي باب وجارية ، فلما قُدِمتُ لتضرب عنقي استوهبني بعض خواص الملك ، فوهبني له ، فسمعتها تقول : بأي شيء فاتك هذا يا محروم ؟ وأغلقت الباب ، فأنا يا أخي متحسر على ما فاتني . قال قاسم بن عثمان : أراه أفضلهم لأنه رأى ما لَمْ يَرَوْا وتُرِكَ يعملُ على الشوق .

ومنهم : سيدي أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي ، كان جليل القدر مالكي المذهب ، عظيم الشأن . صحب الجنيد ، وَمَنْ في عصره ، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جد في الطاعات ، ويقول : هذا شهر عظمه ربي ، فأنا أولى بتعظيمه . وَسُئِلَ عن قول النبي ﷺ : « **خير عمل المرئ كسبه يمينه** » ، فقال : إذا كان الليل ، فخذ ماء وتهيأ للصلاة ، وَصَلِّ ما شئت ، ومد يديك ، وَسَلِ الله عزَّ وجلَّ ، فذلك كسب يمينك ، ولما حج ورأى مكة المشرفة ـ شرفها الله تعالى ـ وقع مغشيًا عليه ، فلما أفاق أنشد يقول:

هَذِهِ دَارُهُم وَأَنْتَ مُحِبٌّ   مَا بَقَاءُ الدموعِ في الآماقِ (١)

وروي أنه قال : كنت يومًا جالسًا ، فجرى في خاطري أني بخيل ، فقلت : مهما فتح الله عليَّ به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقاني ، قال : فبينما أنا متفكر إذ دخل عليَّ شخص ومعه خمسون دينارًا ، فقال : اجعل هذه في مصالحك ، فأخذتها وخرجت ، وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه ، فتقدمت إليه وناولته الصُّرَّةَ ، فقال لي : ادفعها للمزين، فقلت له: إنها دنانير ، فقال : إنك لبخيل ، قال : فناولتها للمزين ، فقال المزين : إن مِنْ عاداتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجرًا ، قال : فرميتها في الدجلة ، وقلت : ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى .

ومنهم : سيدي زرقان بن محمد أخو ذي النون المصري . صاحب سياحة . كان بجبل لبنان .

حكي عن يوسف بن الحسين الرازي قال: بينما أنا بجبل لبنان أدور إذا أبصرت زرقان أخا ذي النون المصري جالسًا على عين ماء وقت صلاة العصر ، فسلمت عليه وجلست من ورائه ، فالتفت إليَّ ، وقال : ما حاجتك ؟ فقلت : بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذي النون المصري أعرضهما عليك ؛ فقال : قل . فقلت : سمعته يقول :

---

(١) الآماق : جمع (المؤق ، الموق) طرف العين مما يلي الأنف . وهو مجرى الدمع .

قَدْ بَقِينا مُذَبْذَبِينَ حَيَــــارَى نَطْلُبُ الوصلَ مَا إليه سَبِيـلُ (١)
فَدَوَاعِي الْهَوَى تَخِفُّ عَلَيْنَـا وَخِلافُ الْهَوَى عَلَيْنا ثَقِيـلُ (٢)

فقال زرقان: ولكني أقول :

قَدْ بَقِينا مُذْهَلِين حَيَــــارَى حَسْبُنَا رَبُّنَا وَنِعْمَ الوكيـلُ
حَيْثُمَا الفَوْزُ كان ذَاكَ مُنَانَــا وَإِلَيْه في كُلِّ أَمْرٍ نَمِيـلُ

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسي . فقال : رحم الله ذا النون المصري ، رجع إلى نفسه، فقال ما قال ، ورجع زرقان إلى ربه ، فقال ما قال . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : زرقان بن محمد أخو ذن النون المصري ، وأظن أنه أُخُوَّةُ مؤاخاةٍ نَسَبٍ ، وكان من أقرانه ورفقائه .

ومنهم : سيدي أبو عبد الله النباجي سعيد بن بريد كان من أقران ذي النون المصري ، ومن أقران أستاذي أحمد بن أبي الحواري ، له كلام حسن في المعرفة وغيرها . روي عنه أنه قال : أصابني ضيق وشدة وأنا مفكر في المسير إلى بعض إخواني ، فسمعت قائلاً يقول لي في النوم : أيجمل بالحر المريد إذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه إلى العبيد ؟ ، فانتبهت وأما من أغنى الناس .

ومنهم : سيد بشر بن الحرث ـ قدس الله روحه ـ يكنى : أبا نصر أحد رجال الطريقة ، أصله من مَرْو ، وسكن بغداد ، وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين ، صحب الفضيل بن عياض ، وروى عن سري السقطي وغيره .

ومن كلامه لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك ؟ . وقال : أول عقوبة يُعَاقَبُها ابن آدم في الدنيا مفارقة الأحباب ، وقال : غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وخفاء مكانه عنهم . وقال : التكبر على المتكبر من التواضع . وسئل عن الصبر الجميل ، فقال : الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس .

(١) مذبذبين : التحرك حيران يتردد . وفي القرآن الكريم ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ﴾ [النساء : ١٤٣] .
(٢) الدواعي : الأسباب .

وقيل : إنه لقي رجلا سكران فجعل الرجل يقبل يد بشر ، ويقول : يا سيدى يا أبا نصر وبشر لا يدفعه عن نفسه ، فلما ولي الرجل تغرغرت عينا بشر ، وجعل يقول : رجل أحب رجلاً على خير توهمه لعل المحب قد نجا والمحبوب لا يدري ما حاله .

وروي: أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله ، فقالت : إني امرأة أغزل بالليل والنهار، وأبيعه ولا أبين غزل الليل من غزل النهار ، فهل على ذلك شيء ؟ فقال : يجب أن تبيني ، فلما انصرفت قال أحمد لابنه : اذهب ، فانظر أين تدخل ؟ ، فرجع ، فقال : دخلت دار بشر، فقال : قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر .

ولما مرض مرضه الذي مات فيه قال له أهله : نرفع ماءك إلى الطبيب قال : أنا بعين الطبيب يفعل بي ما يريد فألحوا عليه ، فقال لأخته : ادفعي إليهم الماء فدفعته إليهم في قارورة، وكان بالقرب منهم طبيب نصراني ، فدفعوا إليه القارورة ، فقال : حركوا الماء ، فحركوه ، فقال : ضعوه فوضعوه ، فقالوا له : ما بهذا وصفت لنا ؟. قال : وبماذا وصفت لكم ؟ قالوا : وصفت بأنك أحذق أهل زمانك في الطب ، قال : هو كما وصفت لكم ، إنَّ هذا الماء إنْ كان ماء نصراني ، فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده ، وإن كان ماء مسلم ، فماء بشر الحافي لأن ما في زمانه أخوف منه ، قالوا : هو ماء بشر ، فقال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فلما رجعوا إلى بشر قال لهم : أسلم الطبيب . قالوا له : ومَنْ أعلمك بهذا ؟ قال: لما خرجتم من عندي نُوديتُ يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب . توفي سنة سبع وعشرين ومائتين .

ومنهم :سيدي أبو زيد طيفور بن عيسى البسطامي . من أجل المشايخ . كبير الشأن ، وَمِنْ كلامه : ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسي وهي تبكي إلى أن سقتها وهي تضحك . وسُئِلَ : بأي شيء وجدت هذه المعرفة . فقال : ببطن جائع ، وبدن عار ، وقيل له : ما أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى . فقال : لا يمكن وصفه ، فقيل له : ما أهون ما لَقِيْتهُ نفسُك منْك ؟ فقال أما هذا فنعم دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني ، فمنعتها الماء سنة ، وقال : الناس كلهم يهربون من الحساب ، ويتجافون عنه ، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني، فقيل له : لمَ ؟ فقال: لَعَلَّه يقول فيما بين ذلك : يا عبدي ، فأقول: لبيك ، فقوله لي : عبدي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها ، ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء ، وقال له رجل : دلني على عمل أتقرب به إلى ربي ، فقال : أحب أولياء الله ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه ، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب ولي ، فيغفر لك . وسُئِل عن المحبة ، فقال : استقلال الكثير من نفسك

واستكثار القليل من حبيبك . توفي سنة إحدى وستين ومائتين ـ رحمه الله تعالى ـ .

ومنهم : شيخ الطائفة سيدي أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري . شيخ وقته ، وفريد عصره ، أصله من نهاوند ، ومولده ومنشأه ببغداد . صحب جماعة من المشايخ ، وصحب خاله السري ، والحرث المحاسبي ، ودرس الفقه على أبي ثور ، وكان يفتي في مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة .

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ : علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه، وقال : الأدب أدبان : أدب السِّرِّ ، وأدب العلانية ، فأدب السِّرِّ : طهارة القلوب ، وأدب العلانية : حفظ الجوارح من الذنوب . ورؤي في يده يومًا سُبْحة ، فقيل له : أنت مع تمكنك وشرفك وتأخذ بيدك سُبْحة ؟ فقال : نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبدًا .

وقال الحسن بن محمد السراج : سمعت الجنيد يقول : رأيت إبليس في منامي ، وكأنه عريان ، فقلت له : ألا تستحي من الناس ؟ فقال : بالله هؤلاء عندنا من الناس لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة ، ولكن الناس عندي ثلاثة نفر : فقلت : ومن هم ؟ قال : في مسجد الشونيزي قد أضنوا قلبي ، وأنحلوا جسمي كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عزَّ وجلّ ، فأكاد أن أحرق ، قال الجنيد : فانتبهت من نومي ، ولبست ثيابي وجئت إلى مسجد الشونيزي بليل ، فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه ، وقال : يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شيء تقبل .

قيل : إن الثلاثة الذين كانوا في مسجد الشونيزي : أبو حمزة ، وأبو الحسن الثوري ، وأبو بكر الدقاق ـ رضي الله عنهم ـ ، وقال محمد بن قاسم الفارسي : بات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذي كان يعتاده في البرية ، فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي ويقول :

بِحُرْمَةِ غُرْبَتي كَمْ ذَا الصُّدودُ ... ألاَ تَحِنُّو عَلَيَّ ألاَ تَجُـودُوا ؟
سُرُورُ العيدِ قَدْ عَمَّ النَّواحِي ... وحُزْني في ازْدياد لا يَبِيــدُ
فَإنْ كُنْتُ اقْتَرَفْتُ خِلاَلَ سُوءٍ ... فعُذْري في الهوى أنْ لاَ أعودُ

توفي الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد ، وصلى عليه نحو ستين ألفًا ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ .

وممن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات عليَّ ببركته سيدي الشيخ الإمام العالم

العامل أبو المعالي ، وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطريني المالكي ـ قدس الله سِرَّه ، وروحه، ونَوَّر ضريحه ـ ، كان أوحد زمانه في الزهد والورع قامعًا لأهل الضلال والبدع ، وله أسرار ظاهرة وبركات متواترة . قد أطاع أمره الخلائق عجمًا وعربًا ، وانتشر ذكره في البلاد شرقًا وغربًا، وأتت الملوك إلى بابه ، واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه ، ما أتاه مكروب إلا فرج الله كربته ، ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته ، كان محافظًا على النوافل ملازمًا للفرض ، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض ، لم يمتع نفسه في الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة بل قيل : إنه غضب على نفسه فمنعها شرب الماء شهوراً عديدة ، وكان ـ رضي الله عنه ـ كثير الشفقة والحنو على أصحابه . نصوح لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه، يدخل عليه أعدى عدوه ، فيقبل ببشره وبره عليه ، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه ، كما قال بعضهم :

وَإنِّي لألْقى المرءَ أعلمُ أنّه عَدُوِّي وَفِي أَحْشَائِه الضِّغْنُ كامنُ
فَأمْنَحُه بِشْرى فَيَرجعُ قَلْبُهُ سليمًا وقـد مَاتَتْ لَدَيْهِ الضَّغائِنُ

وكانت حملة أهل زمانه عليه ، وأحوالهم في كل أمر راجعة إليه ، وكنت كثيرًا ما أسمعه يتمثل بهذا البيت :

وَمَا حَمَّلُوني الضَيْمَ إلاَّ حَمَلْتُهُ لأنّي مُحِبٌّ والمحِبُّ حَمُولُ

وكان ـ رضي الله عنها ـ كثير المصافاة عظيم الموافاة ، شأنه الحلم والستر لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه ، وما استشاره أحد في أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه . صحبته ـ رضي الله عنه ـ نحو خمس عشرة سنة ، فكأنها من طيبها كانت سنة ، ما قطع بِرَّهُ يومًا واحدًا عني حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص مني ، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة ـ بيض الله وجهه في القيامة ، وبلغه من فضل ربه مآربه ـ وكان ـ رضي الله عنه ـ فقيهًا في مذهب الإمام مالك ، إمام كبير لم ير له فى زمانه من شبيه ولا نظير ، وله في علم الحقيقة أقـوال ، وكـم رأينا له من مكاشفات وأحوال . ولو تتبعت مناقبه لاتسع الكلام ، ولكـني أقول : كان أوحـد عصره والسلام .

عاش ـ رضي الله عنه ـ نيفًا وستين سنة ، وكان الناس في زمانه في عيشة راضية ، وأحوال حسنة وكان ـ رضي الله عنه ـ كثير الأمراض والأسقام حصل له في آخر عهده ضعف شديد أقام به نحو سنة ، ثم تزايد مرضه في العشر الأُوَل من ذي الحجة الحرام ، فلما كانت ليلة الحادي عشر اشتد به الأمر واحتضر ، ولم يزل في النزع إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة ، ثم توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سعيدًا حميدًا في ليلة الجمعة حادي عشر ذي الحجة الحرام سنة سبعة

وعشرين وثمانمائة ، ولما أُخْبِرَ الناسُ بوفاته عَظُم مصابه على المسلمين ، ووقع النوح والبكاء والأسف في أقطار البلدان حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم ، وصاروا يبكون ، ويتوجعون ، ويتأسفون على فراقه ، وكيف لا ؟ ، وهو إمام العصر ، عَلاَّمة الدهر حُقَّ فيه قول القائل :

حَلَفَ الزمانُ لَيَأتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حَنِثَتْ يَمِينُكَ يَا زَمانُ فَكَفِّرِ(١)

رضي الله عنه ورضي عنا به ، ونفعنا ببركته في الدين والدنيا والآخرة ، فشرعوا في تجهيزه وغُسْلِه ، فكنت ممن حضر غُسْله ، ولكن لم يكن ذهني معي في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقدِهِ ، كيف لا ؟ ، وقد كان والدًا شفوقًا وبارًا محسنًا عشوقًا ، فلما انتهى غُسْلُه ـ رضي الله عنه ـ جاء القضاة والنواب والكشاف والولاة وحملوه على أعناقهم ، ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعته ، وضاقت بهم الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس ، فلم يُرَ أكثر جمعًا ولا أغزرها دمعًا من ذلك اليوم ، وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه .

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ : بيننا وبينهم الجنائز . يريد بذلك اجتماع الناس ، والله أعلم . فارتفع نعشه على أعناقهم وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدي سليمان الدواخلي نفعنا الله ببركته ، ودفن يوم الجمعة بزاويته التي أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين سراج الدين أبي حفص عمر الطريني المالكي في قبر واحد . نفعنا الله ببركته ، وجعل الجنة منقلبه ومثواه ، وحشرنا وإياه في زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين ، وأفضل المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطريني أدام الله أيامه للمسلمين ، وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) حلف : أقسم . حنث في يمينه حِنثًا : لم يَبرّ فيها وأثم . فَكَفِّرْ : أدِّ الكفارة: صدقة أو صيام .

الباب الحادي والثلاثون

في مناقب الصالحين ، وكرامات الأولياء رضي الله عنهم -

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر ، ومناقبهم أكثر من أن تحصر ، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في زمرة نبينا محمد ﷺ يوم المحشر إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

حكاية :قال مالك بن دينار [1]- رحمه الله تعالى - : احتبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستسقي مرارًا ، فلم نر للإجابة أثرًا ، فخرجت أنا ، وعطاء السلمي ، وثابت البناني ، ويحيى البكاء ، ومحمد بن واسع ، وأبو محمد السختياني ، وحبيب الفارسي ، وحسان بن ثابت بن أبي سنان ، وعتبة الغلام ، وصالح المزني ، حتى إذا صرنا إلى المصلي بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب ثم استسقينا ، فلم نر للإجابة أثرًا حتى انتصف النهار ، وانصرف الناس ، وبقيت أنا ، وثابت البناني بالمصلى ، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح رقيق الساقين عليه جبة صوف . قَوَّمْتُ ما عليه بدرهمين ، فجاء بماء فتوضأ ، ثم جاء إلى المحراب ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال : إلهي وسيدي ومولاي إلى كم تَرُدُّ عِبادك فيما لا ينفعك ، أنفد ما عندك؟ أم نقص ما في خزائنك ؟ ، أقسمت عليك بحبك لي إلا أسقيتنا غيثك الساعة . قال : فما تم كلامه حتى تغيمت السماء ، وجاءت بمطر كأفواه القرب . قال مالك : فتعرضت له ، وقلت له : يا أسود أما تستحي مما قلت ؟ قال : وما قلت ؟ قلت : قولك : بحبك لي وما يدريك أنه يحبك ؟ قال : تنح عني.. يا مَنِ اشتغل عَنْه بِنَفْسِهِ ، أفتراه بدأني بذلك إلا لمحبته إياي ؟ ثم قال : محبته لي على قدره ، ومحبتي له على قدري ، فقلت له : يرحمك الله ارفق قليلاً ، فقال : إني مملوك وعَلَيَّ فَرْضٌ مِنْ طاعة مالكي الصغير .

قال :فانصرف ، وجعلنا نقفو أثره على البعد حتى دخل دار نخاس ، فلما أصبحنا أتين النخاس ، فقلت : يرحمك الله ، أعندك غلام تبيعه منا للخدمة ؟ قال : نعم عندي مائة غلام للبيع ، فجعل يعرض علينا غلامًا بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلامًا ، فلم ألق حبيبي فيهم ، فقال : عودا إليَّ في غير هذا الوقت ، فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره ، وإذا بالأسود قائم يصلي ، فقلت حبيبي ورب الكعبة ، فجئت إلى النخاس ، فقلت له : بعني هذا الغلام ، فقال : يا أبا يحيى هذا الغلام ليست له همة في الليل إلا البكاء، وفي النهار إلا الخلوة والوحدة . فقلت له : لابد من أخذه منك ولك الثمن ، وما عليك منه ،

(١) سبق أن ترجم له .

فدعاه ، فجاء وهو يتناعس ، فقال : خذه بما شئت بعد أن تبرئني من عيوبه كلها، فاشتريته منه بعشرين دينارًا ، وقلت له : ما اسمك ؟ قال : ميمون ، فأخذت بيده أريد المنزل ، فالتفت إليَّ وقال : يا مولاي الصغير لماذا اشتريتني وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين ؟ فقلت له : والله يا سيدي إنما اشتريتك لأخدمك بنفسي ، قال : ولم ذلك ؟ فقلت : ألست صاحبنا البارحة بالمصلى ؟ قال : بلى ، وقد أطلعت على ذلك ، قلت : نعم ، وأنا الذي عارضتك البارحة في الكلام بالمصلى . قال : فجعل يمشي حتى أتى إلى مسجد ، فاستأذنني ودخل المسجد ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال : إلهي وسيدي ومولاي ، سِرٌّ كان بيني وبينك أطلعت عليه غيرك ، فكيف يطيب الآن عيشي ؟ . أقسمت عليك بك إلا ما قبضتني إليك الساعة ، ثم سجد ، فانتظرته ساعة ، فلم يرفع رأسه ، فجئت إليه وحركته ، فإذا هو قد مات ـ رحمة الله تعالى عليه ـ ، قال : فمددت يديه ورجليه ، فإذا هو ضاحك مستبشر ، وقد غلب البياض على السواد ، ووجهه كالقمر ليلة البدر ، وإذا شاب قد دخل من الباب ، وقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أعظم الله أجورنا في أخينا ميمون ، هاكم الكفن ، فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط ، فغسلّناه وكفناه فيهما ودفناه : فبقبره نستسقي إلى الآن ، ونطلب الحوائج من الله تعالى ـ رحمة الله عليه ـ .

وحكي عن حذيفة المرعشي ـ رضي الله عنه ـ ، وكان خدم إبراهيم الخواص[1] رضي الله عنه ـ وصحبة مدة ، فقيل له : ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال : بقينا في طريق مكة أيامًا لم نأكل طعامًا ، فدخلنا الكوفة ، فأوينا إلى مسجد خرب ، فنظر إليَّ إبراهيم وقال : يا حذيفة أرى بك أثر الجوع ، فقلت : هو كما ترى ، فقال : عليَّ بدواة وقرطاس ، فأحضرتهما إليه ، فكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى ، ثم قال:

أَنَا حَامِدٌ أَنَا شاكِرٌ أَنَا ذاكِــرٌ ... أنا جائعٌ أنا ضائعٌ أنا عَــارِي

هِي ستَةٌ وَأنا الضَّمِينُ لِنِصْفِهـا ... فَكُنِ الضَّمِينَ لِنِصْفَهَا يا بَــارِي

مَدْحِي لِغَيْرِكَ لَهبُ نارٍ خُضتُها ... فَأجرْ عُبَيْدَكَ مِنْ لَهِيبِ الــنارِ

قال حذيفة : ثم دفع إليَّ الرقعة، وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفعها إلى أول مَنْ يلقاك، قال: فخرجت، فأول مَنْ لقيني رجل على بغلة ، فناولته الرقعة ، فأخذها، فقرأها وبكى، وقال: ما فعل بصاحب هذه الرقعة ؟ قلت : هو في المسجد الفلاني ، فدفع إليَّ

(١) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل . أبو إسحاق الخواص صوفي . أوحد المشايخ في وقته . من أقران الجنيد. ولد في « سُرَّ مَنْ رأى » . ومات في جامع الري سنة ٢٩١ هـ .

صُرَّةً فيها ستمائة درهم ، فأخذتها ومضيت ، فوجدت رجلاً ، فسألته مَنْ هذا الراكب على البغلة؟ فقال : هو رجل نصراني ، قال : فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة ، فقال : لا تمس الدراهم ، فإن صاحبها يأتي الساعة ، فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكبًا على بغلته ، فترجّل على باب المسجد ، ودخل ، فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ، ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . قال : فبكى إبراهيم الخواص فرحًا به وسرورًا ، وقال : الحمد لله الذي هداك للإسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

وحكي: أن بعضهم كان ملاحًا ببحر النيل المبارك بمصر ، قال : كنت أعدي من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي ، ومن الشرقي إلى الجانب الغربي ، فبينما أنا ذات يوم في الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة ، فقال : السلام عليكم ، فرددت عليه السلام ، فقال : أتحملني إلى الجانب الغربي لله تعالى ؟ فقلت : نعم ، فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربي ، وكان على ذلك الفقير مرقعة ، وبيده ركوة وعصا ، فلما أراد الخروج من الزورق قال: إني أريد أن أحملك أمانة ، قلت : وما هي ؟ قال : إذا كان غدًا وقت الظهر تجدني عند تلك الشجرة ميتًا وستنسى ، فإذا ألهمت ، فأتني وغسّلني وكفّني في الكفن الذي تجده عند رأسي وصلِّ عليَّ وادفني تحت الشجرة ، وهذه المرقعة ، والعصا ، والركوة [1] يأتيك من يطلبها منك ، فادفعها إليه ، ولا تحتقره .

قال الملاح : ثم ذهب وتركني ، فتعجبت من قوله، وبت تلك الليلة ، فلما أصبحت انتظرت الوقت الذي قال لي ، فلما جاء وقت الظهر ونسيت فما تذكرت إلا قريب العصر ، فسرت بسرعة ، فوجدته تحت الشجرة ميتًا ، ووجدت كفنًا جديدًا عند رأسه تفوح منه رائحة المسك ، فغسَّلتُه وكفَّنته فلما فرغت مِن غُسله حضر عندي جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحدًا فصلينا عليه ، ودفنته تحت الشجرة ، كما عهد إليَّ ، ثم عُدْتُ إلى الجانب الشرقي ، وقد دخل الليل فنمت ، فلما طلع الفجر ، وبانت الوجوه إذ أنا بشاب قد أقبل عليَّ ، فحققت النظر في وجهه ، فإذا هو من صبيان الملاهي كان يخدمهم ، فأقبل وعليه ثياب رقاق ، وهو مخضوب الكفين وطاره تحت إبطه ، فسلم عليَّ ، فرددت عليه السلام .

فقال : يا ملاح أنت فلان ابن فلان . قلت : نعم . قال : هات الوديعة التي عندك . قلت : من أين لك هذا ؟ قال : لا تسأل . فقلت: لابد أن تخبرني ، فقال : لا أدري . إلا

---

(١) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

أني البارحة كنت في عرس فلان التاجر ، فسهرنا نرقص ونغني إلى أن ذَكر اللهَ الذاكرون على المآذن ، فنمت لأستريح ، وإذا برجل قد أيقظني ، وقال : إن الله تعالى قد قبض فلانًا الولي وأقامك مقامه ، فَسِرْ إلى فلان ابن فلان صاحب الزورق ، فإن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت، قال : وأخذ الركوة والعصا ، ولبس المرقعة وسار ، وتركني أتحرق وأبكي لما حرمت من ذلك ، وأقمت يومي ذلك أبكي إلى الليل ثم نمت فرأيت رَبَّ العِزَّةِ جَلَّ جلاله في النوم ، فقال: يا عبدي أثقل عليك أن مننت على عبد عاصٍ بالرجوع إليَّ؟ ،إنما ذلك فضلي أوتيه من أشاء من عبادي وأنا ذو الفضل العظيم .

وحكى أبو إسحاق الصعلوكي قال : خرجت سنة إلى الحج ، فبينما أنا في البادية تائه ، وقد جن الليل ، وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت صوت شخص يقول : يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة ، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم قد أشرف على الموت ، وحوله رياحين كثيرة منها ما أعرف ومنها ما لا أعرف ، فقلت له : مَنْ أنت ؟، ومِنْ أين أنت ؟ قال: مِنْ مدينة شمشاط كنت في عزة ورفعة ، فطالبتني نفسي بالغربة والعزلة ، فخرجت ، وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقيض لي وليًا من أوليائه وأرجو أن تكون أنت هو ، فقلت : ألك حاجة ؟ قال : نعم لي والدة وإخوة ، وأخوات ، فقلت : هل اشتقت إليهم قط ؟ قال : لا. إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم ، فهممت أريدهم ، فاحتوشتني (١) السباع والهوام وبكين معي، وحملوا إليّ هذه الرياحين التي تراها ، قال أبو إسحاق: فبينما أنا معه يرق له قلبي ،وإذا بحية عظيمة فِي فمها باقة نرجس كبيرة ، فقالت : دع ولي الله تعالى ، فإن الله يغار على أوليائه، قال : فغشي عليه ، وغشي عليَّ ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه ـ رحمه الله ـ، قال : فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة بيدها رَكوة ما رأيت أشبه بالشاب منها ، فلما رأتني نادت :يا أبا إسحاق ما شأن الشاب الغريب الذي مات غريبًا ، فإني منتظرتك منذ كذا ؟ فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها : أشم ريحهم ، فصاحت أواه أواه قد بلغ والله الشَّمُّ ، ثم شهقت شهقة خرجت روحها ، فخرج إليها بنات أتراب عليهن مرقعات ومروط (٢) ، فكفلن أمرها ، وتولين دفنها ، وهن مستترات ـ رضوان الله على الجميع ـ شعر :

يَا نسيمًا هَبَّ مِنْ وَادي قُـبا   خبِّريني كَيْفَ حالُ الغُربا
كَمْ سَأَلْتُ الدَّهرَ أن يَجمعنا   مِثْلَ مَـا كُنَّا عَلَيْـه فَأبَى

---

(١) احتوشته : احاطت به .
(٢) المروط : جمع مرط : كساء من خزٍّ أوصوف أوكتان . يؤتزر به . وتتلفع به المرأة .

وحكى: أن رجلا كان يعرف بدينار العيار ، وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ ، فمر في بعض الأيام بمقبرة ، فأخذ منها عظمًا ، فتفتت في يده ، ففكر في نفسه ، وقال : ويحك يا دينار كأني بك ، وقد صار عظمك هكذا رفاتًا ، والجسم ترابًا ، فندم على تفريطه وعزم على التوبة ، ورفع رأسه إلى السماء ، وقال : إلهي وسيدي ألقيت إليك مقاليد أمري فاقبلني وارحمني ، ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب ، فقال : يا أماه ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده؟ قالت : يخشن ملبسه ومطعمه ، ويغل يديه وقدميه ، فقال : أريد جبة من صوف وأقراصًا من شعير ، وغُلّين وافعلي بي كما يُفعل بالعبد الآبق [1] لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني، ففعلت به ما أراد ، فكان إذا جَنَّ عليه الليل أخذ في البكاء والعويل ، ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار ؟ كيف تعرضت لغضب الجبار ؟، ولا يزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه : يا بنى ارفق بنفسك ، فقال: دعينى أتعب قليلا لعلى أستريح طويلا، يا أماه إن لي غدًا موقفًا طويلاً بين يدي رَبٍّ جليل ، ولا أدري أيؤمر بي إلى ظِلٍّ ظليل أو إلى شَرٍّ مقيل ؟ قالت : يا بني خذ لنفسك راحة ، قال : لست للراحة أطلب ، كأنك يا أماه غدًا بالخلائق يُسَاقون إلى الجنة ، وأنا أساق إلى النار مع أهلها ، فتركته وما هو عليه ، فأخذ في البكاء والعبادة وقراءة القرآن ، فقرأ في بعض الليالي : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر : ٩٢ ، ٩٣] . ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشي عليه ، فجاءت أمه إليه ، فنادته ، فلم يجبها ، فقالت له : يا حبيبي وقرة عيني أين الملتقى ؟ فقال بصوت ضعيف : يا أماه إن لم تجدينى في عرصات [2] القيامة ، فاسألي مالكًا خازن النار عني ، ثم شهق شهقة ، فمات ـ رحمه الله تعالى ـ فغسلته أمه وجهزته ، وخرجت تنادي : أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار ، فجاء الناس من كل جانب ، فلم ير أكثر جمعًا ولا أغزر دمعًا من ذلك اليوم ، فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة ، فرآه يتبختر في الجنة وعليه حلة خضراء ، وهو يقرأ الآية : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ويقول : وعزته وجلاله سألني ، ورحمني، وغفر لي ، وتجاوز عني ألا أخبروا عني والدتي بذلك .

وحكى عن الحسن البصري : قال : نزل سائل بمسجد ، فسأل الناس أن يطعموه كِسْرة ، فلم يطعموه ، فقال الله تعالى لملك الموت : اقبض روحه ، فإنه جائع ، فقبض روحه ، فلما جاء المؤذن رآه ميتًا ، فأخبر الناس بذلك ، فتعاونوا على دفنه ، فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن في المحراب مكتوبا عليه : هذا الكفن مردود عليكم بئس القوم أنتم استطعمكم فقير ، فلم

(١) الآبق : العبد الهارب .

(٢) عرصات : جمع عرصة : ساحة الدار ، وكل بقعة ليس فيها بناء .

تطعموه حتى مات جوعًا ، مَن كان من أحبابنا لا نكله إلى غيرنا .

وحكى أبو علي المصري : قال:كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يومًا : حدثني أعجب ما رأيت من الموتى ، فقال :جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه حسن الثياب ، فقال لي : أتغسل لنا هذا الميت ؟ قلت : نعم . فتبعته حتى أوقفني على باب ، فدخل هنيهة، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها ، فقالت : أنت الغاسل ؟ قلت : نعم . قالت : بسم الله ادخل ، ولا حولا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فدخلت الدار وإذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت ، وروحه لَبَّتِه (١) ، وقد شخص بصره، وقد وُضِعَ كَفَنهُ وحَنُوطُه (٢)عند رأسه ، فلم أجلس إليه حتى قبض ، فقلت: سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته ، فأخذت في غُسله ، وأنا أرتعد ، فلما أدرجتُه أتت الجارية وهي أخته ، فقبلته ، وقالت : أما إني سألحق بك عن قريب ، فلما أردت الانصراف شكَرتَ لي ، وقالت : أرسل إليَّ زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت ، فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به ، فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية ، فوقفت بالباب واستأذنت ، فقالت : بسم الله تدخل زوجتك ، فدخلت زوجتي ،وإذا بالجارية مستقبلة القبلة ، وقد ماتت ، فغسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها ـ رحمة الله عليهما ـ شعر :

أأحبابَنا بِنتُم عن الدارِ فاشتــكت ... لِبُعدكم آصَالُها وَضُحـاهـا (٣)
وَفَارقتُمُ الدارَ الأنيسةَ فاستــوت ... رُسوم مَبانِيها وَفَاحَ كُلاهـا (٤)
كأنَّكم يومَ الفراقِ رَحَلْتُـم ... بِنَومي فَعَيني لا تُصيبُ كَرَاهَـا
وكُنتُ شحيحًا من دُموعي بِقطرةٍ ... فقد صِرتُ سَمْحًا بَعدكُم بِدِماها(٥)
يَراني بَسَّامًا خلـيلي يَظُنُّ بي ... سُروراً وأحشَائي السقامُ مَلاهـا
وَكَم ضحكة في القلب منها حَرَارَةٌ ... يُشبُّ لظاها لو كشفت غطاهـا

(١) لَبَّتَه : منحره ـ موضع القلادةمن العنق .
(٢) الحنوط : كل ما يخلط من الطيب بأكفان الموتى وأجسامهم خاصة .
(٣) بنتم : فارقتم وبعدتم . الأصائل : جمع أصيل من بعد العصر ـ وقت إصفرار الشمس إلى مغربها .
(٤) كُلاَّها : ما يحيط بها نواحيها وجوانبها .
(٥) الشحيح : شديد البخل . سمحًا : كريمًا.

رَعَى الله أيامًا بطيب حَديثكُم تقضَّت وحيّاها الحيا وسقاها(١)

فما قلت : إِيها بَعْدَها لِمُسَامرٍ مِنَ الناسِ إلاَّ قال : قلبي آها(٢)

وحكى سرّيّ السقطي(٣) ـ رحمه الله تعالى ـ قال : أرقت ليلة ولم أقدر على النوم ، فلما طلع الفجر صليت ، فلما أصبحت دخلت المراستان (٤) فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول:

تُغَلُّ (٥) يَدي إِلَى عُنُقي وَمَا خَانَتْ وَمَا سَرَقَتْ

وَبَيْنَ جَوَانِحِي كَبدٌ أُحِس بِهَا قَدِ احترَقَتْ

قال : فقلت للقيم : ما هذه الجارية ؟ قال : هذه جارية اختل عقلها ، فحبست لعلها تصلح ، فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت :

مَعْشَرَ الناسِ مَا جُننتُ ولكن أنا سكْرَانةٌ وَقَلبِيَ صَاحِي

لِمَ غَللتم يَدي ولَمْ آتِ ذنبًا غَيْرَ هَتْكي في حُبه وافتضاحِي

أنا مَفتونةٌ بحبِّ حبيبٍ لستُ أبغِي عَنْ بابه مِنْ بَرَاحِ(٦)

مَا عَلَيَّ مَنْ أحَبَّ مَوْلى الموالِيّ وارْتضاه لِنفسهِ مِنّ جُناح(٧)

قال : فلم سمعتُ كلامها بكيتُ بكاءٌ شديدًا ، فقالت : يا سَرّي هذا بكاؤك من الصفة ، فكيف لو عرفته حق المعرفة ؟ قال : فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها ، فلما رآني عظمني ، فقلت : والله هي أحق مني بالتعظيم ، فلمَ فعلت هذا ؟ قال : لتقصيرها في الخدمة وكثرة بكائها ، وشدة حنينها وأنينها كأنها ثكلى لا تنام ولاتدَعنا ننام ، وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مُطربة ، قلت : فما كان بدء أمرها ؟ قال :كان العود في حجرها يومًا ، فجعلت تقول :

---

(١) الحيا : المطر .

(٢) إيها ، آها : ألفاظ التوجع ، والندامة والحسرة .

(٣) سَريّ السَّقطي بن المغلس السقطي . أبو الحسن ، من كبار المتصوفة ولد في بغداد .وأول من تكلم بالتوحيد وأحوال الصوفية فيها ، وكان إمام البغداديين ، خالد الجنيد وأستاذه توفى في بغداد سنة ٢٥٣ هـ .

(٤) المارستان : المستشفى .

(٥) تُغلّ : الغلّ : طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير والمجرم أو في اليد .

(٦) مفتونة : محبة عاشقة. . براح : مفارقة ، نازحة .

(٧) الجناح : الجرم والإثم .

وَحَقكَ لا نقصتُ الدَّهرَ عهداً ... وَلا كَدَّرتُ بَعْدَ الصَّفْوِ وِدّاً
مَلأتَ جَوانحي والقَلْبَ وجداً ... فكيفَ أقرُّ يا سكَني وأهْدَا ؟
فَيَا مَنْ لَيسَ لِي مَوْلىً سواهُ ... تُراك رَضِيتَني بالبابِ عَبْدَا

فقلت لسيدها : أطلقها وعليَّ ثمنها ، فصاح وافقراه من أين لك عشرون ألفًا يا سَريّ ؟ فقلت : لاتعجل عليّ ، فقال : تكون في المارستان حتى توفيني ثمنها . فقلت : نعم ، قال سري : فانصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع ، وأنا والله ماعندي درهم من ثمنها ، فبت طول ليلتي أتضرع إلى الله تعالى ، فإذا بطارق يطرق الباب ، ففتحت ، فدخل عليَّ رجل معه ستة من الخدم ومعهم خمس بدرٍ[1] ، فقال : أتعرفني يا سَري ؟ قلت : لا ، قال : أنا أحمد بن المثنى كنت نائما ، فهتف بي هاتف ، وقال لي : يا أحمد هل لك في معاملتنا ؟ فقلت : ومن أولى مني بذلك ؟ فقال : احمل إلى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الفلانية ، فإن لنا بها عمل ، قال سَري : فسجدت لله شكرًا وجلست أتوقع طلوع الفجر ، فلما طلع صلينا وذكرنا ، وانصرفنا نحوها ، فسمعناها تقول :

قَدْ تَصبَّرتُ إلَى أنْ ... عِيلَ مِنَ حبِّك صَبْرِي[2]
ضَاقَ مِنْ غُلِّى وَقَيدي ... وامتَهانِي مِنك صَدْري
لَيسَ يَخفى عَنْكَ أمري ... يَا مُنَى قَلبي وَذُخْري
أنتَ قد تُعتق رِقي ... وَتفُكُّ اليومَ أسْري[3]

قال سري : فبينما أنا أسمعها ، وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكي ، فقلت : لا بأس عليك قد جئناك برأس مالك ، وربح عشرة آلاف درهم ، فقال :والله لا فعلت ذلك . قلت نزيدك . قال : والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت ، وهي حُرَّة لوجه الله تعالى ، فقال: فتعجبت من ذلك وقلت : ما كان هذا كلامك بالأمس ، فقال : حبيبي لاتوبخني فالذي وقع لي من التوبيخ كفاني ، وأشهدك أني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى ، وإني هارب إلى الله تعالى ، فبالله لاتردني عن صحبتك ، فقلت : نعم . ثم التفت ، فرأيت صاحب المال يبكي ،فقلت : ما يبكيك ؟ قال : يا أستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني إليه ورد عليَّ ما بذلت أشهدك أني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله ، وكل عبد

(١) بدر : جمع بدرة : كيس فيه مقدار من المال يتعامل به .
(٢) عيل : عجز ونفد .
(٣) تعتق رِقي : تحررني .

أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى ، قال سَري : فقلت : ما أعظم بركتك يا جارية . قال: فنزعنا الغُلَّ من عنقها ، والقيد من رجلها ، وأخرجناها من المارستان ، فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ولبست خمارًا من صوف ومدرعة من شعر وولت .

وقال سري : فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة . فبينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتًا فتبعناه فإذا هي امرأة كالخيال ، فلما رأتني قالت : السلام عليك يا سري ، فقلت لها : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت ؟ فقالت : لا إله إلا الله وقع الشك بعد المعرفة ، فتأملتها ، فإذا هي الجارية ، فقلت لها : ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق ؟ فقالت : أنسي به ووحشتي من غيره ، ثم توجهت إلى البيت وقالت : إلهي كم تخلفني في دار لا أرى فيها أنيسًا ، قد طال شوقي فعجل قدومي عليك ، ثم شهقت شهقة وخرت ميتة ـ رحمة الله تعالى عليها ـ فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامًا إلى أن خَرَّ إلى جانبها ميتًا، ـ رحمة الله عليه ـ ، فدفناهما في قبر واحد . شعر :

بِحُرْمَةِ مَا قَدْ كان بَيني وَبَينَكـم مِنَ الودّ إلا ما رَجَعتُم إلى وَصلي
وَلاَ تَحرِموني نَظْرَةَ مِنْ جَمالكم فَلَن تَجِدوا عَبدًا ذليلاً لكم مثلـي
فوالله مَا يَهْوى فُؤادي سِواكُم وَلو رَشَقُوه بالأَسـنَّة والنَّبـل

وحكى : أنه كان في زمن بني إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد ، وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير ، فاعتراه فتور في بعض الأيام ، فأزال الله عنه سحابته ، وحجب إجابته ، فكثر لذلك حزنه وشجونه ، وطال كمده وأنينه وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة ويبكي ويتأسف ويتحسر ويتلهف فقام ليلة من الليالي ، فصلى ما شاء الله وبكى وتضرع ودعا الله تعالى ونام ، فقيل له في المنام : إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك فأت الملك الفلاني في بلد كذا واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك .

قال : فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلد التي ذكرت له في المنام ، فدخلها وسأل من يرشده إلى قصر الملك ، فجاء إلى القصر وإذا عند بابه غلام جالس على كرسي عظيم من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر ، والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس ، فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه ، فقال له الغلام : من أين أنت؟ ، وما حاجتك ؟ فقال : من بلاد بعيدة ، وقصدي الاجتماع بالملك ، فقال له الغلام : لا سبيل لك اليوم ، فسل حاجتك أقضها لك إن استطعت ، فقال : إن حاجتي لا يقضيها إلا الملك ، فقال الغلام : إن الملك ليس له إلا يوم واحد في الجمعة يجتمع إليه الناس فيه ، فاذهب حتى

يـبي ذلك ، فانصرف الرجل إلى مسجد ـاثر (١) وأقام يعبد الله تعالى فيه ، وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس ، فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء إلى القصر ، فوجد خلقًا كثيرًا عند الباب ينتظرون الإذن ، فوقف مع جملة الناس ، فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول ، فدخل أرباب الحوائج ، ودخل صاحب السحابة معهم ، وإذا بالملك جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم ، فجعل رأس النوبة يقدم الناس واحدًا بعد واحد حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة ، فلمانظر إليه الملك . قال : مرحبًا بصحاب السحابة . اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس ، وانظر في أمرك .

قال : فتحير صاحب السحابة في أمره ، فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه، فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره ، ثم مشى به في دهليز (٢) القصر ، فلم يجد في طريقه إلا مملوكًا واحدًا، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد ، وإذا به بناء مهدوم ، وحيطان مائلة ، وبيت خرب فيه برش (٣) وليس هناك ما يساوي عشرة دراهم إلا سَجَّادة خَلِقَة ، وقدح للوضوء ، وحصيرة رثة وشيء من الخوص (٤) فانخلع الملك من ثياب الملك ، ولبس مرقعة من صوف ، وجعل على رأسه قلنسوة من شعر ، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى يا فلانة . قالت: لبيك . قال : أتدرين من هو الليلة ضيفنا ؟ قالت : نعم صاحب السحابة فدعا بها لحاجة ، فخرجت ، فإذا هي امرأة كالشن (٥) البالي عليها مسح من شعر خشن، وهي شابة صغيرة ، قال الرجل : فالتفت إليَّ الملك ، وقال : يا أخي نطلعك على حالنا، أو نقضي حاجتك وتنصرف ،فقلت : والله لقد شغلني حالكما عما جئت بسببه .

فقال الملك: الله يعلم أنه كان لي في هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابرًا عن كابر ، فلما توفوا إلى ـ رحمة الله تعالى ـ، ووصل الأمر إليّ بغض الله إليَّ الدنيا ، وأهلها، فأردت أن أسيح في الأرض ، وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم ، فيملكونه عليهم ، فخفت عليهم دخول الفتنة ، وتضييع الدين ، والشرائع ، وتبديل شمل الدين ، فبايعوني وأنا والله كاره ، فتركت أمورهم على ماكانت عليه ، وجعلت السماط على عادته ، والحراس على حالها ، والمماليك على دأبها ، ولم أغير شيئًا ،وأقعدت المماليك على الأبواب بالسلاح إرهابًا

(١) الداثر : قديم دارس متهدم .
(٢) دهليز : المدخل بين الباب والدار .
(٣) البرش : حصير صغير من سعف النخيل يجلس عليه .
(٤) الخوص : ورق النخيل .
(٥) الشَّنُّ : القربة الصغيرة القديمة .

لأهل الشرور وردعًا عن أهل الخير ، وتركت القصر مزينًا على حاله ، وفتحت له بابًا وهو الذي رأيته يوصلني إلى هذه الخربة ، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا ، وأضفر الخوص وأبيعه ، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيتها : هي ابنة عمي زهدت في الدنيا كزهدي، واجتهدت حتى صارت كالشَّنِّ البالي ، والناس لايعلمون ما نحن فيه ، ثم إني أقمت لي نائبًا ينوب عني طول الجمعة ، وعلمت أني مسئول ، فجعلت لي يومًا في الجمعة أبرز للناس فيه ، وأكشف مظالمهم كما رأيت ، وأنا على هذه الحالة مدة ، فأقم عندنا ـ يرحمك الله ـ حتى نبيع خويصاتنا ونبتاع من ثمنها طعامنا وتفطر معنا ، وتبيت عندنا الليلة ، ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى .

فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسي العمر ، فأخذ ما عملاه من خوص وسار به إلى السوق ، فباعه واشترى من ثمنه خبزًا وفولاً ، واشترى بباقي ثمنه خوصًا ، فلما كان عند الغروب أفطرا وأفطرت معهما وبت عندهما .

قال : فقاما في نصف الليل يصليان ويبكيان ، فلما كان السحر قال الملك :اللهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته وإنك قد دللته علينا ، اللهم ارددها عليه إنك على كل شيء قدير ، والمرأة تؤمن على دعائه ، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء ، فقال لي : لك البشارة بقضاء حاجتك وتعجيل إجابتك ، قال : فودعتهما وانصرفت والسحابة معي كما كانت، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرِّهما شيئًا إلا أعطاني إياه ـ رحمة الله تعالى عليهما .

شعر:

استَعمِلِ الصَّبرَ تَجني بَعدَه العَسَــلا ولازمِ البــابَ حتـــى تبلُغ الأمَـلاَ
وَمرِّغِ الخَدَّ في أعــتــابه سَحَـــرًا واحمِلْ لَمرضاته في الحُبِّ كُلّ بــلا
فَمَا يفوزُ بِوَصل يَا أخيَّ سِـــوى صَب لِثقلِ الهَوى والوَجدِ قد حمَلا (١)
هذا الحَبيب ينادي في الدّجى سَحَرا فانَهض وكُن رَجُلا بالسَّعي قد وَصلا

وحكى عن مالك بن دينار(٢) ـ رحمه الله تعالى ـ : قال خرجت إلى مكة حاجًا ، فبينما أنا سائر إذا رأيت شابًا ساكتًا لا يذكر الله تعالى ، فلما جَنَّ الليل رفع وجهه نحو السماء ، وقـال:

(١) الصَّبّ : العاشق المشتاق .

(٢) مالك بن دينار البصري ، أبو يحيى . من رواة الحديث . . وربما يأكل من كسبه . يكتب المصاحف بالأجرة. توفي بالبصرة سنة ١٣١ هـ .وقد سبق أن ترجم له .

يا من لا تُسُّره الطاعات ، ولاتَضرُّه المعاصي ، هَبّ لي مالا يسرك ، واغفر لي ما لا يضرك . ثم رأيته بذي الحليفة ، وقد لبس إحرامه ، والناس يلبون وهو لا يلبي ، فقلت : هذا جاهل ، فدنوت منه ، فقلت له : يا فتى ، قال : لبيك ، قلت له : لِمَ لاتلبي ؟ فقال : يا شيخ وماتغني التلبية ، وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات ، والله إني لأخشى أن أقول لبيك، فيقول : لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك ولا أنظر إليك ، فقلت له : لا تقُل ذلك، فإنه حليم إذا غضب رضي ، وإذا رضي لم يغضب ، وإذا وعد وفى ، ومتى توعد عفا، فقال يا شيخ : أتشير عليَّ بالتلبية ؟ قلت : نعم ، فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب ، وأخذ حجرًا فوضعه على خده الآخر ،وأسبل دموعه ، وقال : لبيك اللهم لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعي بين يديك ، فأقام كذلك ساعة ، ثم مضى فما رأيته إلا بمنى ، وهو يقول : اللهم إن الناس ذبحوا ونحروا ، وتقربوا إليك ، وليس لي شيء أتقرب به سوى نفسي ، فتقبلها مني ، ثم شهق شهقة ، وخرميتًا ـ رحمة الله تعالى عليه .

وحكى: أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي ،وكان شيخًا لكل من بالعراق ، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات، فخرج في بعض السنين إلى السياحة ، ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد[1]، والشبلي [1] ، وغيرهما من مشايخ العراق . قال الشبلي : فلَم نزلّ في خدمته ، ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار ، فطلبنا ماء نتوضأ به ، فلم نجد ، فجعلنا ندور بتلك القرية ، وإذا نحن بكنائس شمامة ، وقساوسة ورهبان ،وهم يعبدون الأصنام ، والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم ، ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية ، وإذ نحن بجوارٍ يستقين الماء على البئر ، وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها، وفي عنقها قلائد الذهب، فلما رآها الشيخ تغير وجهه ،وقال : هذه ابنة مَن؟ فقيل له : هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ : فلِمَ لايدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تسقي الماء؟ فقيل له : أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته وخدمته ولاتعجبها نفسها ، فجلس الشيخ ونكس رأسه ، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، ولا يكلم أحدًا ، غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه ، ولايدرون ما يصنعون .

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز ، أبو القاسم . صوفي مولده ، ومنشأه ،ووفاته ببغداد ، أصل أبيه من نهاوند . كان يعرف بالقواريري نسبه لعمل القوارير وعرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخزّ توفى سنة ٢٩٧ هـ.

الشبلي : ولف بن جحدر الشبلي . ناسك . في مبدأ أمره واليا في « دنباوند » من نواحي رستاق الريّ . ولي الحجابة للموفق العباسي . ثم ترك الولاية وعكف على العبادة . فاشتهر بالصلاح . له شعر صوفي جيد . أصله من خراسان . توفي ببغداد سنة ٣٣٤ هـ .

قال الشبلي : فتقدمت إليه ، وقلت له : يا سيدي إن إصحابك ومريديك يتعــجبون من سكوتك ثلاثة أيام ، وانت ساكت لم تكلم أحداً ، قال : فأقبل علينا ، وقال : يا قوم اعلموا أن الجارية التي رأيتها بالأمس قد شغفت بها حبًا ، واشتغل بها قلبي ، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض .

قال الشبلي : فقلت : يا سيدي أنت شيخ العراق ومعروف بالزهد في سائر الآفاق وعدد مريديك اثنا عشر ألفا ، فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز . فقال : يا قوم جرى القلم بما حكم ، ووقعت في بحار العدم، وقد انحلَّت عني عُرَى الولاية . وطويت عني أعلام الهداية، ثم إنه بكى بكاء شديداً ، وقال : يا قوم انصرفوا ،فقد نفذ القضاء والقدر ، فتعجبنا من أمره وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد ، فخرج الناس إلى لقائه ، ومريدوه في جملة الناس ، فلم يروه ، فسألوا عنه ، فعرَّفناهم بما جرى ، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنًا عليه وأسفًا ، وجعل الناس يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات ، والزوايا ، والخوانق ولحق الناس حزن عظيم ، فأقمنا سنة كاملة ، وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره ، فأتينا القرية ، فسألنا عن الشيخ، فقيل لنا : إنه في البرية يرعى الخنازير ، قلنا : وما السبب في ذلك ؟ قالوا : إنه خطب الجارية من أبيها ، فأبى أن يزوجها إلا ممن هو على دينها ، ويلبس العباءة ، ويشد الزنار ، ويخدم الكنائس ، ويرعى الخنازير ، ففعل ذلك كله ، وهو في البرية يرعى الخنازير .

قال الشبلي : فانصدعت قلوبنا ، وانهملت بالبكاء عيوننا ، وسرنا إليه ، وإذا به قائم قدام الخنازير ، فلما رآنا نكس رأسه ، وإذا عليه قلنسوة النصارى ، وفي وسطه زنار وهو متوكيء على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب ، فسلمنا عليه ، فرد علينا السلام،فقلنا : يا شيخ ما ذاك ؟ وماذا ؟ وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟ فقال : يا إخواني وأحبابي ليس لي من الأمر شيء ، سيدي تصرف في كيف شاء ،وحيث أراد . أبعدني عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه ، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده ، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء ، ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال : يا مولاي ما كان ظني فيك هذا ، ثم جعل يستغيث ويبكي ونادى: يا شبلي اتَّعِظ بغيرك. فنادى يا شبلي بأعلى صوته: بك المستعان وأنت المستغاث ، وعليك التكلان . اكشف عنا هذه الغمة بحلمك ، فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك ، قال : فلما سمعت الخنازير بكاءهم ، وضجيجهم أقبلت إليهم ، وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم ، وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال .

قال الشبلي : فظننت أن القيامة قد قامت ، ثم إن الشيخ بكى بكاءِ شديدًا . قال الشبلي : فقلنا له : هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد ؟ فقال :كيف لي بذلك . وقد استرعيت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب ؟ فقلت : يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرأه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيئًا ؟ فقال : نسيته كله إلا آيتين ، فقلت : وما هما ؟ قال : قوله تعالى : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج : ١٨] .و الثانية : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة : ١٠٨] ، فقلت : يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، فهل تحفظ منها شيئًا ؟ قال : حديثًا واحدًا ، وهو قوله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » .

قال الشبلي : فتركناه ، وانصرفنا ، ونحن متعجبون من أمره ، فسرنا ثلاثة أيام ، وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر ، وطلع ، وهو يشهد شهادة الحق ، ويجدد إسلامه ، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور ، فنظر إلينا ، وقال : يا قوم اعطوني ثوبًا طاهرًا ، فأعطيناه ثوبًا، فلبسه ، ثم صلى وجلس ، فقلنا له : الحمد لله الذي ردك علينا ، وجمع شلمنا بك ، فصف لنا ما جرى لك ، وكيف كان أمرك ؟ فقال : يا قوم لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم، وقلت له : يا مولاي أنا المذنب الجاني ، فعفا عني بجوده ، وبستره غطاني ، فقلنا له : بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب ؟ قال : نعم . لما وردنا القرية ، وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي : ما قدر هؤلاء عندي وأنا مؤمن موحد ، فنوديت في سري ليس هذا منك ، ولو شئت عرفناك ، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي ، فكان ذلك الطائر هو الإيمـان .

قال الشبلي : ففرحنا به فرحًا شديدًا ، وكان يوم دخولنا يومًا عظيمًا مشهودًا . وفتحت الزوايا ، والرباطات والخوانق ، ونزل الخليفة للقاء الشيخ ، وأرسل إليه الهدايا ، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفا ، وأقام على ذلك زمانًا طويلاً ، ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث ، وزاده على ذلك .

فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح ، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية ، فنظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود ، فقلت له : ما الذي تريد ؟ فقال: قل لشيخكم: إن الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك . قال : فدخلت فعرفت الشيخ ، فاصفر لونه وارتعد ، ثم أمر بدخولها ، فَلَمَّا دخلت عليه بكت بكاءً شديدًا ، فقال لها الشيخ : كيف كان مجيئك ؟ ومن أوصلك إلى ههنا ؟ قالت : يا سيدي لما وليت من قريتنا جاءني من أخبرني بك ، فبت ولم يأخذني قرار ، فرأيت في منامي شخصًا وهو يقول : إن أحببت أن تكوني من المؤمنات ، فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام ، اتبعي ذلك الشيخ،

وادخلي في دينه ، فقلت : وما دينه ؟ قال : دين الإسلام ، قلت : وما هو ؟ . قال: شهادة أن لاإله إلا الله ،و أن محمداً رسول الله ، فقلت : كيف لي بالوصول إليه ؟ قال : أغمضي عينيك ، وأعطيني يدك ، ففعلت ، فمشى قليلاً ، ثم قال : افتحي عينيك ، ففتحتهما، فإذا أنا بشاطئ دجلة ، فقال : امضي إلى تلك الزاوية ، واقرئي الشيخ مني السلام، وقولي له : إن أخاك الخضر يسلم عليك ، قال : فأدخلها الشيخ إلى جواره ، وقال : تعبدي ههنا .

فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها ، وتغير لونها ، فمرضت مرض الموت وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ ، فقالت : قولوا للشيخ يدخل عليَّ قبل الموت ، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها ،فلما رأته بكت ، فقال لها : لا تبكي، فإن اجتماعنا غداً في القيامة في دار الكرامة ، ثم انتقلت إلى ـ رحمة الله تعالى ـ فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات ـ رحمة الله تعالى عليه .

قال الشبلي : فرأيته في المنام ،وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية ، وهما ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليماً .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والثلاثون

في ذكر الأشرار والفجار ، وما يرتكبون من الفواحش ، والوقاحة ،والسفاهة

عن النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : « **قبل قيام الساعة يرسل الله ريحًا باردة طيبة ، فتقبض روح كل مؤمن ،ويبقى شرار الخلق يتهارجون** [١] **تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة** » [٢] وقال مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ : كفى بالمرء شرًا أن لا يكون صالحًا ويقع في الصالحين .وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال : الشر يطفيء الشر، فإن كان صادقًا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفيء إحداهما الأخرى ، وإنما يطفيء الشرَّ الخيرُ كما يطفيء الماء النار . ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال : فلان عري من حُلة التقوى ، ومُحِيَ عنه طابعُ الهدى ، لا تثنيه يد المراقبة ، ولا تكفه خيفة المحاسبة ، وهو لِدَعائم دينه مضيِّع ، ولدواعي شيطانه مطيع .

شعر :

كَأَنَّه التَّيسُ قد أوْدى به هَرِم ... فَلا لَحمٌ ولا صوف ولا ثمر

وقيل : مَنْ فعل ما شاء لقي ما ساء . وقيل : زنى رجل بجارية فأحبلها ، فقالوا له : يا عدو الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت ؟ قال : قد بلغني أن العزل مكروه ، قالوا : فما بلغك أن الزنا حرام ؟ . وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة : ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها؟ قال : فمَنْ لي إذا ذاك بلذة الخلسة ، ولقاء المسارقة ، وانتظار الموعد ؟ .

وقال أبو العيناء : رأيت جارية مع النخاس وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها ، فسألتها عن ذلك ، فقالت : يا سيدي إنه يواقعني من قيام ، ويصلي من قعود ، ويشتمني بإعراب ، ويلحن في القرآن ، ويصوم الخميس والاثنين ، ويفطر رمضان ، ويصلي الضحى ، ويترك الفرض . فقلت : لا أكثر الله في المسلمين مثله .

وكانت ظلمةُ القوادة وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم ، فَلمّا شبت زنت ، فلما كبرت قادت . وقال صاحب (المسالك والممالك) [٣] إن عامة ملوك الهند يرون

---

(١) يتهارجون : يختلطون ويتناكحون ويتسافدون .

(٢) رواه مسلم في « الفتن» (٧٢٣٠) باب ذكر الدجال وصفته .

(٣) عنوان كتب عديدة في الجغرافيا منها : للسرخسي المتوفى سنة ٢٨٦ هـ ، وللبكري المتوفى سنة ٤٨٨ هـ، ولابن حوقل ، وللجيهاني ، ولابن خرداذبه ، وللمهلبي، وللمراكشي .

الزنا مباحًا ، خلا ملك قمار ، قال الزمخشري [١] : رحمه الله : أقمت بقمار [٢] سنين ، فلم أر ملكًا أغير منه ، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل . وقمار ينسب إليها العود القماري كما ينسب إلى مندل ، قال مسكين الدارمي [٣] :

وَلا ذنب لِلعودِ القُماريِّ إنَّه يُحرقُ إنْ نَمَّت عَلَيْه رَوَائحه

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم ، وإن الناس اليوم أديانهم تبعٌ لأهوائهم .وقال رسول الله ﷺ : « **حسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم** » [٤].

ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء : قال رسول الله ﷺ : « **إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت** »[٥] ، وفي ذلك قيل :

إذا لم تصُن عِرضًا وَلَمْ تَخْش خالقًا وَتَستَح مَخلوقا فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام : العاقل : شجاع القلب ،والأحمق : شجاع الوجه . وذم رجل قومًا ، فقال : وجوههم وأيديهم حديد أي وقاح بخلاء . ووصف رجل وقحًا فقال : لو دق الحجارة بوجهه لرضها [٦] ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها ، قال الشاعر :

لَوْ أنَّ لِي مِنْ جلدِ وَجْهكَ رقعة لَجعَلْتُ مِنها حَافزًا للأشهبِ[٧]

وقال آخر :

إِذا رُزِقَ الفتى وَجْهًا وَقَاحًا تَقَلَّبَ في الأمورِ كَمَا يَشاءُ

وقال أنوشروان : أربعة قبائح وهي في أربعة أقبحُ : البخل في الملوك والكذب في القضاء والحسد في العلماء ، والوقاحة في النساء . ويقال : من جسر أيسر ومن هاب خاب .

---

(١) الزمخشري : محمود بن عمر بن محمد ، أبو القاسم الخوارزمي . صاحب الكشاف في التفسير . توفى سنة ٥٣٨ هـ .

(٢) قمار : مكان في بلاد الهند .

(٣) ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح الدارمي . عراقي . شاعر . شجاع من أشراف تميم لقب بـ مسكين لقولـه:

أنا مسكين لمن أنكرني ولِمن يعرفني جد نطق

توفى سنة ٨٩ هـ .

(٤) رواه مسلم في « البر والصلة » (٦٤٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) رضها : الشيء اليابس رضه وكسره .

(٧) الرقعة: ما يصلح به الخرق أو القطع في الثوب ونحوه . الأشهب: الحصان الذي غلب بياض لونه السواد .

قال الشاعر :

لاَ تكُونَنَّ فِي الأُمور هَيوبًا فَإلىَ خيبةٍ يصيرُ الهَبوبُ

وقال علي ـ رضي الله عنه : الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا ، وإذا افترقوا نفعوا ، فقيل : قد علمنا مضرة اجتماعهم ـ فما منفعة افتراقهم ؟ قال : يرجع أهل المهن إلى مهنهم ، فينتفع الناس بهم كرجوع البناءُ إلى بنائه والنساج إلى منسجه ، والخباز إلى مخبزه . وقال بعض السلفْ : لا تسبوا الغوغاء ، فإنهم يطفئون الحريق ، ويخرجون الغريق . وقال الأحنف : ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا .

وقال حكيم : لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل ، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل أراد السفه .

قال الشاعر (١) :

الا لاَ يَجْهلَنّ احَدٌ علَينا فَنجهلَ فوْقَ جَهْلِ الجَاهِلينا

وقيل : الجاهل من لا جاهل له . أي :من لا سفيه له يدفع عنه . وقيل : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ جالس ، إذ جاء أعرابي ، فلطمه ، فقام إليه واقد ابن عمرو ، فجلد به الأرض ، فقال عمر : ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه .

وقال الشاعر :

وَلا يَلْبثُ الجّهَّالُ أن يتهَضَّمُوا اخَا الحلمِ مَا لَمْ يَسْتَعِنْ بِجهولِ

وقال صالح بن جناح :

إذا كُنتَ بَيْن الجَهْلِ والحِلْم قاعــدًا وخُيرتَ أنّي شئتَ فالحِلمُ أفضـــلُ

ولكنْ إذا أنصفتَ مَنْ ليس مُنصفًا ولَمْ يَرْضَ منْكَ الحلمَ فالجهلُ أمثلُ

وقال الأحنف بن قيس (٢) :

وَذِي ضغن أبيتُ القول عَنْه بحِلم فاستمرَّ على المقـــالِ

وَمَنْ يَحلُمْ ولَيس لـه سَفيهٌ يُلاقِ المُعضِلاتِ مِنَ الرِّجال

---

(١) الشاعر هو :عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب. الديوان ٦٢ . من بني تغلب،أبو الأسود. شاعر جاهلي . من أصحاب المعلقات فارس. شجاع. سيد قومه. من الطبقة الأولى . توفى نحو ٤٠ ق. هـ .

(٢) سبق أن ترجم له .

وقال آخر :

فإنْ كَنْتَ مُحتاجًا إلى الحِلْمِ إنّني إلى الجهل في بَعضِ الأحايين أحوجُ
وَلِي فرسٌ للخيرِ بالخير ملُجَمٌ وَلي فرسٌ للشرِّ بالشَّرِّ مُسرحُ
فَمَنْ رَامَ تقويمي فإنَّني مُقَّومٌ ومَن رَامَ تَعْويجِي فَإنّي مُعَوَّجُ

وقال آخر :

فَإنْ قيلَ : حِلمٌ قُلْتُ : للْحِلمِ مَوْضعٌ وَحِلْمُ الفتى في غيرِ مَوْضِعِه جَهْلُ

اللّهم إنا نعوذ بك أن نجهل أو يجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثالث والثلاثون

في الجود والسخاء والكرم ، ومكارم الأخلاق ، واصطناع المعروف ، وذكر الأمجاد ، وأحاديث الأجواد

اعلم أن الجود بذل المال ، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه ، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

قيل : إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد .وقيل : مَنْ أعطى البعض وأمسك البعض، فهو صاحب سخاء ، ومَنْ بذل الأكثر فهو صاحب جود ، ومَنْ آثر غيره بالحاضر ، وبقي هو في مقاساة الضرر : فهو صاحب إيثار .

وأصل : السخاء هو السماحة ، وقد يكون المعطي بخيلاً إذا صعب عليه البذل ، والممسك سخيًا إذا كان لا يستصعب العطاء .

فمن الإيثار : ما حكي عن حذيفة العدوي أنه قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ، ومعي شيء من الماء ، وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به بين القتلى ، فقلت له : أسقيك ، فأشار إليَّ أن نعم . فإذا برجل يقول : آه ، فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق واسقه ، فإذا هو هشام بن العاص [١] . قلت أسقيك ، فأشار إلىَّ أن نعم . فسمع آخر يقول : آه ، فأشار إليَّ أن انطلق إليه ، فجئته فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمي ، فإذا هو قد مات .

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار : ما حكاه أبو محمد الأزدي قال : لما احترق المسجد بمرو، ظنَّ المسلمون أن النصارى أحرقوه ، فأحرقوا خاناتهم ، فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات ، وكتب رقاعًا فيها القطع ، والجلد ، والقتل ، ونثرها عليهم ، فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها . فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل ، فقال : والله ما كنت أبالي لولا أم لي وكان بجنبه بعض الفتيان ، فقال له : في رقعتي الجلد وليس لي أم ، فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك . ففعل ، فقتل ذلك وتخلص هذا الرجل .

وقيل لقيس بن سعد : هل رأيت قط أسخى منك ؟ قال : نعم، نزلنا بالبادية على امرأة، فجاء زوجها ، فقالت له : إنه نزل بنا ضيفان . فجاءنا بناقة فنحرها ، وقال : شأنكم. فلما كان

---

(١) هشام بن العاص بن وائل بن هاشم . صحابي أسلم بمكة .وهاجر إلى الحبشة ، ثم عاد إلى مكة ، ومنها إلى المدينة . وهو أخو عمرو بن العاص . قُتل في أجنادين سنة ١٣ هـ .

من الغد جاء بأخرى فنحرها ، وقال : شأنكم ، فقلنا : ما أكلنا مِنَ التي نحرت البارحة إلا القليل ، فقال : إني لا أطعم ضيفاني البائت . فبقينا عنده أيامًا ، والسماء تمطر وهو يفعل كذلك ، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته ، وقلنا للمرأة : اعتذري لنا إليه ومضينا ، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام ، أعطيتمونا ثمن قرانا ، ثم إنه لحقنا ، وقال : خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا ، فأخذناها وانصرفا .

وقال بعض الحكماء : أصل المحاسن كلها الكرم ، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام ،وجميع خصال الخير من فروعه .وقال رسول الله ﷺ : « **تجاوزوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر** »[(١)].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال : ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئًا قط ، فقال: لا وعنه ﷺ أنه قال : « **السخي قريب من الله ، قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة قريب من النار ، ولَجَاهِل سخيٌ أحبٌ إلى الله من عابد بخيل** »[(٢)] .وقال بعض السلف : منع الموجود سوء ظن بالمعبود .وتلا قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ : ٣٩] .

وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفًا ، وقال أكثم بن صيفى : صاحب المعروف لا يقع ، وإن وقع وجد له متكأ .

وقيل للحسن بن سهل : لاخير في السرف ، فقال : لا سرف في الخير ، فقلب اللفظ واستوفى المعنى . ووجد مكتوبًا على حجر : « انتهز الفرص عند إمكانها ، ولا تحمل نفسك همَّ ما لم يأتك ، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك ، فكم من جامع لبعل حليلته » .

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ : ما جمعت من المال فوق قوتك فإنما أنت فيه خازن لغيرك .

وقال النعمان بن المنذر[(٣)] : يومًا لجلسائه : مَنْ أفضل الناس عيشًا ، وأنعمهم بالا ، وأكرمهم طباعًا ، وأجلهم في النفوس قدرًا ؟ فسكت القــوم ، فقام فتى فقال : أبيت ،

(١) ضعيف : رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (١٤/ ٩٨) وفي سنده أبو عمر الرملي وهو لا يعرف وذو النون ضعيف وليث بن أبي أسلم كان قد اختلط .

(٢) ضعيف : رواه الترمذي في « البر والصلة » (١٩٦١) والعقيلي في « الضعفاء » (٢/ ١١٧) وابن عدي في «الكامل » (٣/ ٤٠٣) وفي سنده سعيد بن محمد الوراق وهو ضعيف كما في التقريب (١/ ٣٠٤) وقال أبو حاتم : هذا حديث منكر .

(٣) النعمان بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية كان ملكًا شجاعا . داهية ، وهو صاحب يومى البؤس والنعيم . عزله كسرى وسجنه إلى أن مات نحو ١٥ ق . هـ.

اللعن[1]، أفضل الناس من عاش الناس في فضله . فقال : صدقت .

وكان أسماء بن خارجة يقول : ما أحب أن أرد أحدًا عن حاجة ، لأنه إن كان كريمًا أصون عرضه أو لئيمًا أصون عنه عرضي .

وكان مورق العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه ، فيضع عند أحدهم البذرةَ ، ويقول له : امسكها حتى أعود إليك ، ثم يرسل يقول له : أنت منها في حِلٍّ .

وقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ : باع طلحة بن عثمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ أرضًا بسبعمائة ألف درهم ، فلما جاء المال قال : إن رجلاً يبيت هذا عنده لا يدري ما يطرقه لغَرِيرٌ[2] بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين.

ولما دخل المنكدر[3] على عائشة ـ رضي الله عنه ـ قال لها : يا أم المؤمنين أصابتني فاقة فقالت : ما عندي شيء ، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك . فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد ، فأرسلت بها إليه في أثره ، فأخذها ودخل بها السوق ، فاشترى جارية بألف درهم ، فولدت له ثلاثة أولاد ، فكانوا عباد المدينة ، وهم : محمد ، وأبو بكر ، وعمرو بن المنكدر .

وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ، جاء إليه رجل ، فسأله برحم بينه وبينه فقال : هذا حائطي بمكان كذا وكذا ، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم ، يراح إلى المال بالعشية ، فإن شئت فالمال ، وإن شئت فالحائط .وقال زياد بن جرير :رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وإنه ليخيط إزاره بيده .

وذكر الإمام أبو علي القالي[4] في كتاب (الأمالي) أن رجلاً جاء إلى معاوية ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقال له : سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي ، فقال له معاوية: أمن قريش أنت ؟ قالت : لا ، قال : فأي رحم بيني وبينك ؟ قال : رحم آدم ـ علي السلام ـ قال : رحم مُجفوة ، والله لأكونن أول من وصلها ، ثم قضى حاجته .

---

(١) عبارة تقال تحية للملوك أبيت اللعن : أي : ابيت ان تأتي من الأمور ما تُلعن عليه .
(٢) الغرير : الذي لاتجربة له فيسهل خداعه .
(٣) سبق أن ترجم له .
(٤) إسماعيل بن القاسم بن عبدون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان القالي ،عالم باللغة والشعر والأدب، ولد في عنارجرد على الفرات الشرقي رحل إلى العراق والأندلس واستوطن قرطبة . توفى سنة ٣٥٦ هـ آثاره: الأمالي ، النوادر ، البارع .

وروى: أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه ، وقال : إنا لا نعيرها فارغة . وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد ، ولم يناول أحداً شيئًا ، وإنما كان يطرحه في الأرض ، فيتناول الآخذ من الأرض، وكان يقول : الدنيا أقل خطراً من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى . وقد قال النبي ﷺ : «اليد العليا خير من اليد السفلى » (١). وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم ـ، عن الكرم فقال : هوالتبرع بالمعروف قبل السؤال ، والرأفة بالسائل مع البذل .

وقدم رجل من قريش من سفر ، فَمَر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر ، وأضر به المرض ، فقال له : يا هذا أعنا على الدهر ، فقال لغلامه : ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه ، فصب في حجره أربعة آلاف درهم فَهَمَّ ليقومَ ، فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل : ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك ؟ فقال : لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني .

وقال بعضهم : قصد رجل إلى صديق له فدقَ عليه الباب ، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال : عليَّ دين كذا وكذا ، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه ، ثم دخل الدار باكيًا ، فقالت له زوجته : هلاً تعللت حيث شقت عليك الإجابة ، فقال : إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى أن سألتني .

ويروي: أن عبد الله بن أبي بكر ، وكان من أجود الأجواد ،عطش يومًا في طريقه ، فاستقى من منزل امرأة ، فأخرجت له كوزاً ، وقامت خلف الباب ، وقالت : تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم ، فإنني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام ، فشرب عبد الله الماء، وقال يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم ، فقالت : سبحان الله أتسخر بي ؟ فقال : يا غلام احمل إليها عشرين ألفًا ، فقالت :أسأل الله العافية ، فقال : يا غلام احمل إليها ثلاثين ، فما أمست ، حتى كثر خطابها ،وكان رضي الله تعالى عنه ـ ينفق على أربعين داراً عن يمينه وأربعين عن يساره ،وأربعين أمامه ، وأربعين خلفه ، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد ، ويعتق في كل عيد مائة مملوك ـ رضي الله تعالى عنه .

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة ،فسأل عنهم فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين . فقال : أخزى الله مالاً يمنع عني الإخوان من الزيارة ، ثم

---

(١) أخرجه البخارى فى الزكاة (١٤٣٨) .

أمر مناديًا ينادي من كان لقيس عنده مال ، فهو منه في حل . فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد.

وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود ، وله أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود ، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة ، فيفرقها في الناس ولا يرى إلا وعليه دين. وسَمَّنَ رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها ، فمرّ بعبد الله بن جعفر ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقال : يا صاحب البهيمة أتبيعها ؟ قال : لا ، ولكنها هي لك هبة ،ثم تركها له ، وانصرف إلى بيته ، فلم يلبث يسيرًا ، وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفرًا . عشرة منهم يحملون حنطة ، وخسمة لحمًا وكسوة ، وأربعة يحملون فاكهة ونقلاً ، وواحد يحمل مالاً ، فأعطاه جميع ذلك واعتذر إليه ـ رضي الله تعالى عنه.

ولما مات معاوية ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه ، فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك ؟ ، فقال : كان ـ رحمه الله ـ يعطيني ألف ألف ، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف . فقال : بأبي وأمي أنت ، فقال : ولهذه ألف ألف، فقال : أما إني لا أقولها لأحد بعدك ، فقيل ليزيد : أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد ، فقال : والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة ، ثم وَكَّلَ به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل ، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين .

وخرج ـ رضي الله عنه ـ وهو والحسنان(١) ، وأبو دحية الأنصاري ـ رضي الله تعالى عنهم ـ من مكة إلى المدينة ، فأصابتهم السماء بمطر ، فلجأوا إلى خباء أعرابي ، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء ، فذبح لهم الأعرابي شاة ، فلما ارتحلوا . قال عبد الله للأعرابي : إنْ قدمتَ المدينة، فَسَلْ عنَّا ، فاحتاج الأعرابي بعد سنين، فقالت له امرأته : لو أتيت المدينَة ، فلقيت المدينة ، الفتيان ، فقال : قد نسيت أسماءهم ، فقالت : سَلْ عن ابن الطيار ، فأتى المدينة ، فلقي سيدنا الحسن ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها ، ثم أتي الحسن ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل ، فأمر له بألف شاة ، ثم أتى عبد الله بن جعفر ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، فقال : كفاني إخواني الإبل والشياه ، فأمر له بمائة ألف درهم . ثم أتي أبا دحية ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، فقال : والله ما عندي مثل ما أعطوك ، ولكن ائتني بإبلك ، فأوقرها لك تمرًا . فلم يزل اليسار في عقب الأعراب من

(١) الحسنان : هما : الحسن والحسين ابنا الإمام علي ـ رضي الله عنهم اجمعين .

ذلك اليوم .

وقال الحسن ، والحسين يومًا لعبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنهم ـ : إنك قد أسرفت في بذل المال ، فقال : بأبي أنتما . إن الله عزَّ وجلَّ عودني أن يتفضل عَلَيَّ ، وعودتُه أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقطع عني المادة .

وامتدحه نصيب [١] ، فأمر له بخيل ، وأثاث ، ودنانير ودراهم . فقال له رجل : مثل هذا الأسود تعطي له هذا المال ؟ فقال : إن كان أسود فإن ثناءه [٢] أبيض ، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال ، وهل أعطيناه إلا ثيابًا تبلى ومالاً يفنى ، وأعطانا مدحًا يروى ، وثناء يبقى ، وخرج عبد الله ـ رضي الله عنه ـ يومًا إلى ضيعة له ، فنزل على حائط به نخيل لقوم ، وفيه غلام أسود يقوم عليه ، فأتى بِقُوتِهِ ثلاثة أقراص ، فدخل كلب ، فدنا من الغلام ، فرمى إليه بقرص ، فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني ، والثالث ، فأكلهما . وعبد الله ينظر إليه ، فقال : يا غلام . كم قُوتُكَ كُلَّ يوم ؟ قال : ما رأيت ؟ قال : فَلِمَ آثرت هذا الكلب ؟ قال : أرضنا ما هي بأرض كلاب ، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعًا ، فكرهت أن أرده ، قال : فما أنت صانع اليوم ؟ قال: أطوي يومي هذا .

فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السخاء ، وإن هذا لأسخى مني ، فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام ، ثم أعتقه ، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل ، والآلات فقال الغلام : إن كان ذلك لي فهو في سبيل الله تعالى ، فاستعظم عبد الله ذلك منه ، فقال يجود هذا وأبخل أنا ؟ لا كان ذلك أبدًا .

وكان عبيد الله بن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ من الأجواد ، أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه ، قال : يا ابن عباس إن لي عندك يدًا ، وقد احتجت إليها ، فَصَعَّد فيه بصره ، فلم يعرفه ، فقال : مَا يَدُكَ ؟ قال : رأيتك واقفًا بفناء زمزم ، وغلامك يمتح [٣] لك من مائها ، والشمس قد صهرتك ، فظللتك بفضل كسائي حتى شربت ، فقال : أجل إني لأذكر ذلك ، ثم قال لغلامه : ما عندك ؟ قال : مائتا دينار ، وعشرة آلاف درهم . فقال : ادفعها إليه، وما أراها تفي بحق يده .

وقدم عبد الله بن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ على معاوية مرة ، فأهدى إليه من هدايا

---

(١) نصيب ، مولى المهدي . شاعر مجيد . من الموالي السود . من بادية اليمامة توفي نحو ١٧٥ هـ .
(٢) ثناء : من الثناء وهو المدح .
(٣) يمتح : يستخرج الماء من البئر بالدلو .

النوروز حللاً كثيرة ومسكًا ، وآنية من ذهب وفضة ، ووجهها إليه مع حاجبه ، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب ، وهو ينظر إليها ، فقال له : هل في نفسك منها شيء ؟ قال : نعم ، والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف ـ عليهما الصلاة والسلام فضحك عبد الله ، وقال : خذها ، فهي لك ، قال : جُعِلْتُ فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية ، فيحقد علي ، قال : فاختمها بخاتمك ، وسلمها إلى الخازن ، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلاً ، فقال الحاجب : والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم .

وَحَبَسَ معاويةُ عن الحسن بن علي ـ رضي الله تعالى عنهما ـ صِلاتَه ، فقيل : لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس ، فإنه قدم بنحو ألف ألف ، فقال الحسين : وأني تقع ألف ألف من عبد الله ، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت ، وأسخى من البحر إذا زخر ، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه ، وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم ، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه ، وقال : ويلك يا معاوية أصبحت لين المهاد، رفيع العماد ، والحسين يشكو ضيق الحال ، وكثرة العيال ثم قال لوكيله : احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب ، وأخبره أني شاطرته ، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني ، فلما أتاه الرسول قال ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] . ثَقَّلْتُ والله على ابن عمي، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ .

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ فقال له : يا ابن عَمِّ محمد ﷺ إنه ولد في هذه الليلة مولود ، وإني سميته باسمك تبركًا بك ، وأن أمّه ماتت، فقال له : بارك الله لك في الْهِبَةِ ، وآجرك على المصيبة ، ثم دعا بوكيله ، وقال له : انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه ، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته ، ثم قال للأنصاري : عد إلينا بعد أيام ، فإنك جئتنا ، وفي العيش يُبْسٌ ، وفي المال قلة ، فقال الأنصاري : جُعِلْتُ فداءك لو سبقت حاتمًا بيوم ما ذكرته العرب .

وقال أبو جهم بن حذيفة يومًا لمعاوية : أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال(١) :

يَقِينًا مَا نَخَافُ وَإِنْ ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا أَرَانَاهُ يَقِينَا

(١) حسان بن عبد كلال الحميري . من ملوك حمير في الجاهلية . اتجه بجيش إلى الحجاز بهدف انتزاع الحجر» من الكعبة ، ونقله إلى اليمن ليصرف الناس إلى اليمن ليتحول الحج إليه فحاربه فهر بن مالك بقبائل كنانة وغيرها فعاد منهزما .

نَميلُ عَلَى جوَانِبِه كَأنّا إذا ملْنا نَميلُ عَلَى أَبِينا
نُقَلبه لِنَخبِرَ حَالَتَيْـــهِ فَنَخبُرَ منهما كَرمًا ولِينا

فأمر له بمائة ألف درهم ، وأنشده عبد الله بن الزبير ـ رضي الله تعالى عنهما ـ :

بَلَوْتُ الناسَ قَرْنًا بَعْدَ قَـــرْنٍ فَلَمْ أرَ غَيْرَ ختّالٍ وقـــال[1]
ولَمْ أرَ في الخطوب أَشَدَّ وَقْعًا وأَمْضى مِنْ مُعاداة الرجـــال
وذُقْتُ مَرارَةَ الأشياءِ طُـــــرًّا فما شَيْءٌ أمَرُّ مِنَ السُّـــؤالِ

فأعطاه مائة ألف درهم . ودخل عليه الحسن يومًا وهو مضطجع على سريره ، فسلم عليه، وأقعده عند رجليه ، وقال : ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تزعم أني لَسْتُ للخلافة أهلاً ، ولا لها موضعًا ؟ فقال الحسن : أو عجبًا مما قلت ؟ قال : كل العجب . قال الحسن : وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجليك ، فاستحيا معاوية ، واستوى جالسًا ، ثم قال : أقسمت عليك يا أبا محمد إلاَّ ما أخبرتني كم عليك دينًا ؟ قال : مائة ألف درهم ، فقال : يا غلام أعط أبا محمد ثلاثمائة ألف يقضي بها دينه ، ومائة ألف يفرقها على مواليه ، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه ، وسوغها إليه الساعة .

وكان معن بن زائدة [2] من الأجواد ، وكان عاملاً على العراق بالبصرة ، قيل : إنه أتى إليه أحد الشعراء ، فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه ، فلم يتهيأ له ذلك ، فقال يومًا لبعض الخدم : إذا دخل الأمير البستان ، فعرفني ، فلما أعلمه بذلك ، فكتب الشاعر بيتًا ونقشه على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، وكان معن جالسًا على القناة ، فلما رأى الخشبة أخذها ، وقرأها فإذا فيها بيت مفرد :

أَيَا جُودَ مَعنٍ نَاجِ مَعْنًا بِحَاجَتِي فَلَيْسَ إِلَى مَعنٍ سِوَاكَ شَفِيعُ

فقال : مَن الرجل صاحب هذه ؟ فأتي به إليه ، فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بَدرٍ ، فأخذها وانصرف . ووضع مَعْنُ الخشبةَ تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها ، وقال : عَلَيَّ بالرجل صاحب هذه ، فَأُتِيَ به ، فقال له : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بِدَرٍ ، فأخذها وانصرف . ووَضع مَعْنُ الخشبةَ تحت بساطه ، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها ، ونظر فيها ، وقال : عَلَيَّ بالرجل صاحب هذه،

---

(١) ختّال : مخادع .
(٢) سبق أن ترجم له .

فَأُتِيَ به إليه ، فقال له : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بدَرٍ ، فأخذها ، وتفكر في نفسه ، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه ، فخرج من البلد بما معه ، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده ، فقال مَعْنُ : لقد ساء والله ظَنُّهُ ، ولقد هممتُ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ، ولا دينار . وفيه يقول القائل (١) :

يَقُولون مَعْنُ لاَ زَكاةَ لِمَالِــــــه ... وَكَيْفَ يُزَكّى المالَ مَنْ هُوَ باذِلُــــه
إِذَا حَالَ حَوْلٌ لَــمْ تَجِدْ فــي دَارِهِ ... منَ المال إلاَّ ذِكْرُه وجمائِــــــلُهُ
تَرَاهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّـــــــــلاً ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الذي أَنْتَ نَائِـــــلُه
تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حتى لو أَنَّــــه ... أَرَادَ انْقِباضًا لم تُطِعْه أَنامِلُـــــه(٢)
فَلَوْ لَمْ يكنْ في كَفِّهِ غيرِ نَفْسِــــه ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِـــــــلُه

ومن قول مَعنٍ :

دَعِيني أَنْهَبُ الأموالَ حتى ... أُعِفَّ الأكْرَمين عِنِ اللئَامِ

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء ، وله أخبار في الجود عجيبة . من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال : لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته ، فقلت : أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي ، فأصحبك ، قال : إذا قدمت واسط، فأتنا إن شاء الله تعالى ، فسافر ، وأقمت ، فقال لي بعض إخواني : اذهب إليه ، فقلت : كان جوابه فيه ضعف ، قالوا : أتريد من يزيد جوابًا أكثر مما قال ؟ قال : فسرت حتى قدمت عليه ، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر ، فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري ، فالتفت إِلَيَّ يزيد ، وقال : إيه يا عقيل ، فقلت :

أَفَاض القومُ فِي ذِكْرِ الْجَوارِي ... فَأَمَّ الأغْرَبونَ فَلَنْ يَقُولُوا (٣)

قال : إنك لم تبق عزبًا . فلما رجعت إلى منزلي إِذْ أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبَدْرَة عشرة آلاف درهم ، وفي الليلة الثانية كذلك ، فمكثت عشر ليالي ، وأنا على هذه الحالة ، فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر ، فقلت : أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت ، فإن رأيت أن تأذني لي في الرجوع ، فأكبت عدوي، وأسر صديقي ، فقال : إنما

---

(١) القائل : أبو تمام . وترجم له .
(٢) بسط الكف : كناية عن الجود والعطاء والسَّخاء ، انقباضا : كناية عن البخل وعدم العطاء .
(٣) الأعزبون : واحدة عزب . والعزب من لا زوج .

أُخيِّرُكَ بين خَلَّتَيْن إما أن تقيم فَنُولِّيكَ ، أو ترحل فَنُغْنيك ، فقلت : أَوَ لَمْ تغننى أيها الأمير ؟ قال : إنما هذا أثاث المنزل ، ومصلحة القدوم ، فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وَحَدَّث أبو اليقظان عن أبيه قال : حج يزيد بن المهلب ، فطلب حلاقًا يحلق رأسه ، فجاء بحلاق ، فحلق رأسه ، فأمر له بخمسة آلاف درهم ، فتحير الحلاق ودهش ، وقال : آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضي إلى أم فلان أخبرها أني قد استغنيت ؟ فقال : اعطوه خمسة آلاف أخرى، فقال : امرأتي طالق إذا حلقت رأس أحد بعدك .

وقيل : إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه ، مقداره مائة ألف درهم ، فجمعت له، وهو في السجن ، فجاءه الفرزدق يزوره ، فقال للحاجب : استأذن لي عليه ، فقال : إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه ، فقال الفرزدق : إنما أتيت متوجعًا لما فيه ، ولم آت ممتدحًا ، فأذن له ، فلما أبصره قال :

أبا خالد ضَاقتْ خُراسانُ بَعْدَكُمُ وقال ذَوُو الحاجاتِ : أَيْنَ يَزيـدُ؟
فَمَا قَطرتْ بالشرقِ بَعْدَكَ قَطْـرَةٌ وَلاَ اخْضَرَّ بِالْمرَوْينِ بَعْدَكَ عُودُ
وَمَا لِسرُورٍ بَعْدَ عِزِّكَ بَهْجَــــةٌ وَمَا لِجَوَادٍ بَعْدَ جُودكَ جُــــودٌ

فقال يزيد للحاجب : ادفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ، ودع الحجاج ، ولحمي يفعل فيه ما يشاء ، فقال الحاجب للفرزدق هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه ، ثم دفعها إليه ، فأخذها وانصرف .

وَمَرَّ يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله تعالى عنه ـ بعجوز أعرابية ، فذبحت له عنزًا ، فقال لابنه : ما معك من النفقة ؟ قال : مائة دينار . قال: ادفعها إليها ، فقال : هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك . قال : إن كان يرضيها اليسير ، فأنا لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي .

وقال مروان بن أبي الحبوب الشاعر : أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفًا وخمسين ثوبًا ، ورواحل كثيرة ، فقلت أبياتًا في شكره ، فلما بلغت قولي :

فَأَمْسِك نَدَى كَفَّيْكَ عَنِّي وَلاَ تَزِدْ فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْغَى وَأَنْ أَتَجَبَّرَا (١)

فقال : والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي ، وأمر له بضياع تُقَوَّم بألف ألف . وقال أبو العيناء : تذاكروا السخاء ؛ فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية ، وعلى البرامكة في الدولة

(١) الندى : الجود والكرم . التجبر : التكبر .

العباسية ، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعًا وأفضل وسئل إسح...
الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد ، فقال : أما الفضل فيرضيك فعله ، وأما جع...
فيرضيك قوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وفي يحيى يقول القائل :

سَأَلْتُ الندى هَلْ أنتَ حُرٌّ ؟ فقال : ولَكِنَّنِي عَبْدٌ لِيَحْيَى بـنِ خَالِدِ
فَقُلْتُ : شراءٌ قال : لا، بل وِرَاثَةٌ تورَاثَنِي مِنْ وَالِدٍ بَعْدَ والـدِ

وفي الفضل يقول القائل :

إذا نَزَلَ الفضلُ بنُ يَحْيَى بِبَلْـدةٍ رأيتَ بِهَا غيثَ السَّمَاحةِ يَنْبُـتُ
فَلَيْسَ بِسَعَّالٍ إذا سِيلِ حَاجَـةً ولاَ بِمُكِبٍّ في ثرى الأرض يُنْكُتُ

وفي محمد يقول القائل :

سَأَلْتُ الندى والجودَ مَا لي أرَاكُمَا تَبَدَّلْتُما عِزًّا بِذُلٍ مُؤَبَّـدِ
ومَا بَالُ رُكنِ المجدِ أمسى مُهَدَّمًا ؟ فَقَالَ : أَصبْنَا بابْنِ يَحْيَى مُحَمَّدِ
فَقلتُ فَهَلاَّ مُتُّما بعدَ مَوْتِـهِ وقَدْ كُنْتُمَا عَبْدَيْه فـي كُلِّ مَشْهَـدِ
فَقَالاَ أَقَمْنَا كَيْ نُعَزَّي بِفَقْـدِهِ مَسَافَةَ يوم ثُمَّ نَتْلُوهُ فِي غَـدِ

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ، وكرم الله وجهه ـ : مَنْ كانت له...
فليرفعها إلى في كتاب لأصون وجهه عن المسألة . وجاءه ـ رضي الله تعالى عنه ـ أعرابي فقال...
يا أمير المؤمنين : إن لي إليك حاجة ، الحياء يمنعني أن أذكرها ، فقال : خطها في الأرض...
فكتب إني فقير ، فقال : يا قنبر اكسه حلَّتي ، فقال الأعرابي :

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحاسِنُهـا فَسوف أكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَـلا
إنْ نِلْتَ حُسْنَ الثنا قَدْ نِلْتَ مكْرُمَةً وليس تَبْغي بما قَدَّمْتَه بَـدَلاَ
إنَّ الثناءَ لَيُحْيِي ذِكرَ صَاحِبِـه كالغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلَ والْجَبَـلاَ
لاَ تَزْهَدِ الدَّهْرَ في عُرْفٍ بَدَأْتَ بـه كُلُّ امْرِىءٍ سوف يُجْزَي بالذي فَعَـلا

فقال : يا قنبر زده مائة دينار ، فقال : يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم . فقال ـ رضي الله تعالى عنه ـ : صَهْ يا قنبر ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اشكروا لمن أثنى عليكم ، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » ولعبد الله بن جدعان :

إنِّي وإنْ لَمْ يَنَلْ مَالِي مُدَاخَلَتِي وهابُ ما مَلَكَتْ كفِّي مِنَ المالِ
لاَ أحْبِسُ المالَ إلا حَيْثُ أُنفِقُهُ وَلاَ يُغَيِّرُنِي حالٌ إلى حـــالِ

وقال بعض العرب لولده : يا بني لا تزهَدَنَّ في معروف فإن الدهر ذو صروف ؛ فكم راغب كان مرغوبًا إليه ، وطالب كان مطلوبًا ما لديه ، وكن كما قال القائل :

وَعُدَّ مِنَ الرحمنِ فَضْلاً ونِعْمَةً عليكَ إذا ما جاءَ للخير طالـــبُ
وَلاَ تَمْنَعَنَّ ذا حاجةٍ جاءَ راغبًا فإنَّكَ لا تَدْرِي مَتَى أنْتَ راغِبُ

وقال بعضهم :

أبيتُ خَمِيصِ البطن عُرْيانَ طاوِيًا وَأُوثِرُ بالزادِ الرفيقَ عَلَى نَفْـــسِي (١)
وَأَمْنَحُه فَرْشِي وأَفْتَرِشُ الثَّـــرَى وأجعلُ سِتْرَ الليلِ مِنْ دُونِهِ لُبْسِي (٢)
حذارِ أحاديث المحافِلِ فِي غـــدٍ إذا ضَمَّنِي يومًا إلى صَدْرِهِ رَمْـسِي (٣)

وقال يحيى البرمكي (٤) : أَعْطِ من الدنيا وهي مقبلة ، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئًا ، وأَعْطِ منها وهي مدبرة فإنَّ مَنْعَكَ لا يبقى عليك منها شيئًا ، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ، ويقول : لله دَرُّه ما أطبعه على الكرم ، وأعلمه بالدنيا ، وقد أملى يحيى من نظمه فقال :

لاَ تَبْخَلَنَّ بدُنيا وهي مُقبلَـــةٌ فليسَ يَنْقُصُها التبذيرُ والسَّـرفُ (٥)
فإنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَى أن تجودَ بِهـا فليس تَبْقَى وَلَكِنْ شُكْرُها خلـفُ (٦)

وقال يحيى لولده جعفر : يا بني ما دام قلمك يرعد فامطره معروفًا ، وقال بعضهم :

لاَ تُكْثِرِي في الجودِ لائِمَتِي وَإِذَا بَخِلْتُ فَأَكْثِرِي لَوْمِـي

---

(١) خميص البطن : جوعان . أوثر افضل واقدم على نفسي .
(٢) الثَّرى : التراب .
(٣) احاديث المحافل : احاديث الناس في المجلس . رمسى : قبري .
(٤) يحيى بن خالد بن برمك . الوزير . سيد بني برمك . مؤدب الرشيد ومربيه . ولما ولى الرشيد الخلافة . دفع بخاصته إلى يحيى ، وقلده أمره . فعلا شأنه وعظمت مكانته . جواد . سياسي . حكيم . وقبض الرشيد عليه وأودعه السجن إلى أن مات في سجن الرقة سنة ١٩٠ هـ .
(٥) السّرف : مجاوزة الحد في العطاء .
(٦) احرى : أجدر وأحق . خلَف : ما استخلفته من شيء .

كَفَى فَلَسْتُ بِحَامِلٍ ابــــدًا ما عِشْتُ هَمَّ غَدٍ إلى يَوْمِي

وقال علي - رضي الله تعالى عنه ، وكرم وجهه - : لا تستح من عطاء القليل ، فالحرمان أقل منه . وسُئِل إسحاق الموصلي عن المخلوع(١) ، فقال : كان أمره كله عجبًا ، كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه ، وكان عطاؤه عطاء مَنْ لا يخاف الفقر . كان عنده سليمان بن أبي جعفر يومًا ، فأراد الرجوع إلى أهله ، فقال له : سفر البَرِّ أحب إليك أم سفر البحر ؟ قال : البحر ألين علي . فقال : أوقروا له زورقه ذهبًا ، وأمر له بألف درهم .

وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك ، وقال : قد هجاني يا أمير المؤمنين ، فاستحضره سليمان ، وقال : لا أم لك أتهجو سعيدًا ؟ قال: يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر : عشقت جارية مدنية ، وأتيت سعيدًا ، فقلت : إني أحب هذه الجارية ، وإن مولاتها أُعْطِيَتْ فيها مائتي دينار وقد أتيتك ، فقال لي : بورك فيك، فقال سليمان : ليس هذا موضع بورك فيك . قال : فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد ، فذكرت له خالي ، فقال : يا جارية هاتي مطرفًا ، فأتته بمطرف خزٍّ ، فصرَّ لي في كل زاوية مائتي دينار، فخرجت وأنا أقول :

أبا خالد أَعْنِي سعيدَ بنَ خـــالدٍ أخا العُرْفِ لا أَعْني ابنَ بنتِ سَعيـدِ
ولَكِنَّنِي أَعْنِي ابنَ عائشةَ الـــذي أبو أَبَوَيْه خالدُ بنُ أسيـــدِ
عَقيدُ الندى ما عاشَ يَرضَى به الندى فإنْ ماتَ لم يرضَ النَّدَى بِعَقيـــدِ
ذَرُوه ذَرُوه إنَّكُم قد رَقَدْتُمُـــو وَمَا هُو عن إحْسانِكم بِرَقـــودِ

فقال سليمان : قل ما شئت . وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها :

إذا تكرَّهْتَ أن تُعطي القليلَ ولَـم تقدرْ على سِعَةٍ لم يَظْهرِ الجـودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تَمْنَعَكَ قِـــلَّتُهُ فكُلُّ ما سَدَّ فَقْرًا فهو محمودُ(٢)

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه ، وفردة نعلة . وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضًا بثمانين ألفا ، فقيل له : لو اتخذت لولدك من هذا المال ذُخرًا ؟ فقال : بل أجعله ذخرًا لي، وأجعل الله ذخرًا لولدي ، وقسمه بين ذوي الحاجات .

---

(١) المخلوع (المؤمنى) عبد الواحد بن يوسف . توفى سنة ٦٢١هـ .
(٢) بَثّ النوال : ورع العطايا .

وكان ابن مالك القشيري من الأجواد ، قيل : إنه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات ، فعاتبه خاله ، فقال :

يا خالُ ذرْني وَمَالِي مَا فعلتُ بِـه وَخُذْ نَصِيبَكَ منه إنّني مُـوْدي(١)
فلنْ أطيعَكَ إلا أنْ تُخلّدَنـي فانْظرْ بكَيْدِكَ هل تَستطيعُ تَخْلِيـدِي؟ (٢)
الحمدُ لا يُشْتَرَى إلاَّ بِمَكْرُمَـةٍ ولن أعيشَ بمالِ غيرِ محمـودِ

وقال المهلب : عجبت لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الأحرار بفعاله ؟ . ونزل بأبي البَخْتَرَي وهب بن وهب (٣) القرشي ضيفًا ، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل ، فلما هَمَّ بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه ، فأنكر ذلك عليهم ، فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل .

ووفدت ليلى الأخيلية (٤) على الحجاج ، فقالت فيه :

إذا وَرَدَ الْحَجَاجُ أرضًا مَرِيضَـةً تَتَبَّعَ أقْصَى دَائِها فَشَفَاهـا (٥)
شَفَاها مِنَ الداءِ العُضَالِ الذي بها غلامُ إذا هَزَّ القناةَ سَقَاها (٦)

فقال : لا تقولي غلام ، ولكن قولي همام . يا غلام . أعطها خمسمائة ، فقالت : أيها الأمير اجعلها نَعَمًا (٧) ، فجعلها إبلاً إناثًا ، وقال أبو الفياض الطبري :

والعزُّ ضيفٌ لا يَراه بِرَبْعِـه مَنْ لا يَرَى بَذْلَ التِّلادِ تِـلادا (٨)
والجودُ أعْلى كَعْبَ كَعْبِ قَبْلنـا فَمَضَى جوادًا يومَ ماتَ جَـوادًا

(١) مودي . مُنفق ومتلفه
(٢) كيدك : تدبيرك
(٣) وهب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زمعة من بني عبد المطلب بن أسد بن عبد العزي ، من قريش ، أبو البُخْتَرَي . قاض من العلماء بالأخبار والأنساب . متهم بوضع الحديث . توفي سنة ٢٠٠ هـ .
(٤) ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب الأخْيَلِيَّة ، من بني عامر بن صعصعة . شاعرة . فصيحة . ذكية . جميلة . اشتهرت بأخبارها مع توبة الحميري . وأبلغ شعرها قصيدتها في رثاء توبة . توفيت في ساوة بالري نحو سنة ٨٠ هـ .
(٥) أرضا مريضة : بها فتنة وفساد .
(٦) الداء العضال : المرض الذي لا طِبَّ له . القناة: الرمح الأجوف .
(٧) النَعَمُ : الإبل خاصة .
(٨) التلاد : الأصل القديم ، والمال الموروث .

وقال آخر :

أيقنتُ أنَّ مِنَ السماحِ شجاعةً وَعَلِمْتُ أنَّ مِنَ السماحةِ جُودَا

وقال أحمد بن حمدون النديم : عملت أم المستعين (١) بساطًا على صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب ، وأعينهم وجواهر ، أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار ، وسألته أن يقف عليه ، وينظر إليه ، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته . قال أحمد بن حمدون : فقال لي : ولأترجة الهاشمي : اذهبا ، فانظرا إليه ، وكان معنا الحاجب ، فمضينا ورأيناه ، فوالله ما رأينا في الدنيا شيئًا حسنًا إلا وقد عمل فيه ، فمددت أنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان ، فوضعته في كمي ، ثم جئناه ، فوصفنا له حسن ما رأيناه ، فقال أترجة : يا أمير المؤمنين : إنه قد سُرِق منه شيئًا ، وغمزه على كمي ، فأريته الغزالي ، فقال : بحياتي عليكما ارجعا ، فخذا ما أحببتما ، فمضينا ، فملأنا أكمامنا وأقبيتنا نمشي كالحبالى ، فلما رآنا ضحك ، فقال بقية الجلساء : ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين ؟ فقال: قوموا فخذوا ما شئتم ، ثم قام ، فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك؟ .

ونظر يزيد المهلبي سطلا من ذهب مملوءً مسكًا ، فأخذه بيده وخرج ، فقال له المستعين : إلى أين ؟ فقال : إلى الحمام يا أمير المؤمنين . فضحك من قوله ، وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقي ، فانتبهوه ، فوجهت إليه أمه تقول : سَرَّ الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه ، فإنني أنفقت عليه مائة ألف وثلاثين ألف دينار ، فقال : يحمل إليها مثل ذلك تعيد مثله ، ففعلت ، ومضى حتى رآه وفعل به كفعله الأول .

ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يومًا ، فوافق فيه الفرزدق ، فقال : يا أبا فراس اختر عشرًا من الإبل ، ففعل ، فقال : ضم إليها مثلها ، فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة ، فقال : هي لك ، فقال :

يَا طَلْحَ أَنْتَ أَخُو الندى وقيدُهُ إنَّ الندى ما مَاتَ طلحةُ مَاتَا

إِنَّ النـــدى أَلْقَ إِلَيْكَ رِحَالَـهُ فَبِحَيْثُ بِتَّ مِنَ المنـازلِ بَاتَا

وقدم زياد الأعجم (٢) على عبد الله بن الحشرج بنيسابور ، فأكرمه ، وأنعم عليه ، وبعث

---

(١) المستعين : أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد . ولد سنة ٢٢٠هـ . بويع بالخلافة سنة ٢٤٨ هـ ، وخلع سنة ٢٥٢هـ . أمه أم ولد . صقلية . اسمها : مخارق .

(٢) زياد بن سليمان الأعجم . من شعراء الدولة الأموية . ولد ونشأ بأصفهان . انتقل إلى خراسان ، ومات فيها سنة ١٠٠ هـ .

إليه بألف دينار ، فقال :

إنَّ السَّمَاحَةَ والمرُوءَةَ والنَّدَى   في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحشرجِ

فقال : زدني ، فقال : كل شيء وثمنه . ووفد أبو عطاء السدى على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له ، فأنزله ، وأحسن إليه ، وقال : ما عندك يا أبا عطاء ؟ فقال : وما عسى أن أقول ، وأنت أشعر العرب غير أني قلت بيتين . قال : هات . ما قلت ؛ فقال :

يَا طَالَبَ الجود أمّا كنتَ تطلبُهُ   فاطلبْ على بابه نصرَ بنَ سيَّـــارِ

الواهبُ الخيلَ تَغْدُو في أعِنّتِها   مع القِيانِ وفيها ألفُ دينـــارِ (١)

فأعطاه ألف دينار ، ووصائف ، وكساه كسوة جميلة ، فقسم ذلك بين رفيقيه ، ولم يأخذ منه شيئًا ، فبلغ ذلك نصرًا ، فقال : يا له . قاتله الله من سيد ، ما أضخم قدره ، ثم أمر له بمثله .

وقال العتبي : أشرف عمرو بن هبيرة يومًا من قصره ، فإذا هو بأعرابي يُرْقِلُ قلوصه(٢) ، فقال عمرو لحاجبه : إن أرادني هذا الأعرابي ، فأوصله إليَّ ، فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال : أردت الأمير ، فدخل به إليه ، فلما مُثِّلَ بين يديه ، قال له : ما حاجتك ؟ فأنشد الأعرابي يقول :

أصْلحكَ الله قَلَّ مَا بِيـدي   وَلاَ أُطيقُ العِيالَ إذْ كثــرُوا

أَناخَ دَهْري عَلَيَّ كَلْكَـــلَهُ   فَأرسلُونِي إليكَ وانْتظرَوا (٣)

فأخذت عمر الأريحية ، فجعل يهتز في مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إليَّ وانتظروا ؛ إذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم ، ثم أمر له بألف دينار . وقيل : أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم ، فجرى القلم بخمسمائة ألف ، فراجعه الخازن في ذلك ، فقال : انفذه ، فما بقي إلا نفاذه ، وأَنَّ خروجَ المال أحب إلى من الاعتذار ، فاستشرفه (٤) الخازن . فقال : إذا أراد الله بعبد خيرًا صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته ، وأنا أردت شيئًا وأراد الجواد

---

(١) الأعنّة : جمع عنان . (بكسر العين) سير اللجام الذي تُمسَك به الدابة . القيان : جمع القيِّنةِ . وهي الجارِيَة المغنية وعَنان (بفتح العين) الجمع أعنان السماء. نواصيها وما اعترض من أقطارها.

(٢) يُرقل قلوصه : يرقل يسرع . القلوص : من الإبل : الفتية المجتمعة الخَلْق .

(٣) أناخ : أقام بالمكان واستقر به وثقل . الكلكل : الصدر . وكلكل الدهر : حوادثه ونوازله .

(٤) استشرقه : تعرض الشيء أطلعه عليه ورفع بصره إليه ينظره .

الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه ، فكانت إرادة الله الغالبة ، وأمره النافذ .

ووقف أعرابي على ابن عامر ، فقال : يا قمر البصرة ، وشمس الحجاز ، ويا ابن ذِرْوة العرب ، وابن بطحاء مكة ، برحت بي الحاجة ، وأكْدَتْ بي الآمال إلا بفنائك ، فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر الجدّ والشرف والهمة ، فأمر له بمائتي ألف درهم . وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل (١) :

أأتْرَكُ إنْ قَلّتْ دَرَاهِمُ خالدٍ   زيارتَه؟ إنّي إذًا للئيمُ

فقال : أو قَلّت دراهم خالد ؟ احملوا إليه ألف درهم ، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة ابن عقيل ، وقال : هذه قطرة من سحابك . ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى، ثم قال : والله ما بكائي جزعًا من العزل ، ولا أسفًا على الولاية ، ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها مَنْ لا يعرف لها حقًا .

وأراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات ، فقال يحيى بن خالد لِرَجاء بن عبد العزيز، وكان على نفقاته : ما عند وكلائنا من الأموال ؟ قال : سبعمائة ألف درهم . قال : فاقبضها إليك يا رجاء . فلما كان من الغد دخل عليه رجاء ، فقبل يده ، وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور : قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال ، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا ، فقال منصور : أنا أستخبر لك هذا . فقال يحيى : إذن يقول لك ، قل له يقبل يدي كما قبلت يده ، فلا تقل له شيئًا ، فقد تركتها له .

وقيل : إن الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسين ألفا . ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم ، ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكره .

وعن الأخفش الصغير (٢) قال : كان أُسَيْدُ بنُ عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدرًا وأكثرهم أدبًا ، وأفصحهم لسانًا ، وأثبتهم جنانًا ، فطال عمره ونكبه دهره ، فخرج عشية ينتقل لأهله ، فمر به عميلة الفزاري ، فسلم ، وقال : ما أصارك يا عَمٍّ إلى ما أرى ؟ فقال : بخل مثلك بماله ، وصون وجهي عن مسألة الناس ، فقال : والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى

---

(١) عمارة بن بلال بن جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي . شاعر هجّاء . فصيح . واسع العلم . سكن بادية البصرة وكان النحويون يأخذون اللغة عنه . توفي سنة ٢٣٩ هـ .

(٢) علي بن سليمان بن الفضل ، أبو المحاسن . المعروف بالأخفش الصغير . عالم بالنحو واللغة . من أهل بغداد تنقل في البلاد ثم عاد إلى بغداد . آثاره : (الأنواء) . (شرح سيبويه) . (المهذب) توفي في بغداد سنة ٣١٥هـ .

من حالك ، فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة فقا[illegible] عمد عمر[illegible] غلام غلام في جنح الليل ، قال : فكأنما ألقمتْ فاهُ حجراً ، وبات متململاً بين [illegible] ويأس . فلما كان وقتِ السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : عميلة قد قسم ماله شطرين ، وبعث إليك بشطره ، فأنشأ يقول :

رآني عَلَي مَا بِي عَميلَةُ فاشْتكى ... إلَى مَا لَهُ فَواسَي وَمَا هَجَرْ
وَلَمَّا رأى المجدَ استُعيرتْ ثِيابُه ... تردّى رداءً سابغ الذيلِ واتَّزَرْ
غُلامٌ حَبَاه اللهُ بالحسنِ يَافعًا ... له سِيمياءٌ لا تَشُقُّ على البصرْ
كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ في جبينِه ، ... وفي أنفِه الشِّعْرَي ، وفي جِيدِهِ القمرْ

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي (١)من الأجواد . قيل : إنه كان لرجل جارية يهواها ، فاحتاج إلى بعيها ، فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل ، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هَنيئًا لَكَ الذي قد قَبضتَهُ ... ولم يبقَ في كفِّي غيرُ التحسُّرِ
أبوءُ بحزنٍ من فِراقِكَ مُوجِعٌ ... أُنَاجِي به صَدْرًا طويلَ التَّفكُّرِ

فأجابها بقوله :

وَلَوْلا قعودُ الدهر بي عَنكِ لَمْ يكُنْ ... يُفرِّقُنا شيءٌ سوى الموت فاعْذُري
عَلَيْك سلامٌ لا زيارةَ بَيْنَنَا ... وَلاَ وَصْلَ إلا أنْ يشاءَ ابنُ معمرِ

فقال ابن معمر : قد شئت ، وقد وهبتك الجارية ، وثمنها ، فخذها وانصرف . ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام ، فلما دخلها توجه إلى منزله ، فوجده في دار الخراج يطالب ، فدخل عليه يتوجع له ، فلما رآه محمد قال :

وَلَقَدْ قَدِمتُ على رجالٍ طَالَمَا ... قَدِمَ الرجالُ عليهم فَتموَّلُوا
أَخنَى الزمانُ عَلَيْهِمُ فكأنَّمَا ... كانوا بأرضٍ أَقْفَرتْ فَتَحوَّلُوا

فقال أبو الشمقمق (٢):

---

(١)عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان التميمي القرشي . من كبار القادة الشجعان الأجواد . من رجال مصعب ابن الزبير . ولي بلاد فارس . وصفه قطري بن الفجاءة :"بطل يقاتل لدينه ، وملكه بعزيمة نادرة المثال . ما حضر حربًا إلا كان أول فارس بقتل قرنه ـ مثله ـ توفي سنة ٨٢ هـ .

(٢)سبق أن ترجم له .

الجودُ أفلسَهُم وأذهبَ مَالَهم فاليومَ إنْ رَاموا السماحةَ يَبْخَلُوا

قال : فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه ، فكتب بذلك مستوفى الخراج إلى الخليفة ، فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة ، وإسقاط ما عليه من البقايا ، وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروءته .

وقال أبو العيناء : حصلت لي ضيقة شديدة ، فكتمتها عن أصدقائي ، فدخلت يومًا على يحيى بن أكثم القاضي ، فقال : إن أمير المؤمنين جلس للمظالم ، وأخذ القصص ، فهل لك في الحضور ؟ قلت : نعم ، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين ، فلما دخلنا عليه وأجلسني ، ثم قال : يا أبا العيناء ، بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رَجَوْتُكَ دونَ النّاسِ كُلِّهِـــم وللرجاءِ حقوقٌ كُلُّها تجِـــبُ

إنْ لَم يكنْ لي أسبابُ أعيشُ بهـــا ففي العُلا لَكَ أخلاقٌ هي السبـــبُ

فقال : يا سلامة انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين ، فقال : بقية من مال ، قال : فادفع له منها مائة ألف درهم ، وابعث له بمثلها في كل شهر . فلما كان بعد أحد عشر شهرًا مات المأمون ، فبكى عليه أبو العيناء ، حتى تقرحت أجفانه ، فدخل عليه بعض أولاده، فقال : يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء ؟ ، فأنشأ أبو العيناء يقول :

شيْئان لو بكتِ الدماءُ عليهما عَيْناي حتى يُؤْذَنا بذهـــابِ

لم يَبْلُغا المعشارَ من حَقَّيْهمـا فقدُ الشبابِ وفُرْقةُ الأحبابِ

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة ، وكان راتبه منها في الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة ، وسوى ما يطبخ في دار الصدقة . وكان الموكل بصدقته سليم الخادم ، فقال له سليم يومًا : أيها الأمير إني أطوف القبائل ، وأدق الأبواب لصدقاتك ، وإن اليد تمد إليّ، وفيها الحناء ، وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب ، أفأعطي أم أرد ؟ قال : فأطرق طويلاً ، ثم قال : كل يد امتدت إليك فلا تردها .

وقال سلمة بن عياش(١) في جعفر بن سليمان :

وَمَا شَمَّ أَنْفِي رِيحَ كَفٍّ شَمَمْتُها مِنَ الناسِ إلاَّ رِيحُ كفِّكَ أطيبُ

---

(١) سلمة بن عياش . شاعر . راوية . نقاد . من أهل البصرة . له اخبار مع أبي حيَّة النميري . من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية . وهو من شعراء الحماسة لأبي تمام،وابن الشجريَ . توفي حوالي سنة ١٧٠هـ.

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ، ومائة مثقال عنبر . وكان عبد العزيز بن عبد الله جوادًا . مضيافًا ، فتغذى عنده أعرابي يومًا ، فلما كان من الغد مَرَّ على بابه ، فرأى الناس في الدخول على هيئتهم الأمس ، فقال : أَو كُلَّ يوم يطعم الأمير الناس ؟ قالوا : نعم ، فأنشأ يقول:

أَكُلُّ يومٍ كَأَنَّه عِيدُ أَضْحَـــى   عِنْدَ عبدِ العزيزِ أو عيدُ فطـرِ ؟
ولَه ألفُ جَفْنَة مُتْرَعـــــات   كُلُّ قدرٍ يَمُدُّهَا أَلفُ قِـــدْرِ [١]

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص [٢] ، فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعدًا ، فقال له سعيد : ألك حاجة ؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى ، فذكر أن أباه مات ، وخلف دينًا وعيالاً ، وسأله أن يكتب له كتابًا إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله ، فدفع له عشرة آلاف دينار ، وقال له : لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم .

ودخل رجل على عَلي بن سليمان الوزير ، فقال : سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم إلا ما أجرتني من خصمي ، فقال : ومن خصمك حتى أجيرك منه ؟ ، فقال : الفقر، فأطرق الوزير ساعة ، وقال : قد أمرت لك بمئة ألف درهم ، فأخذها وانصرف . فبينما هو في الطريق إذ أمر الوزير برده إليه ، فلما رجع قال له : سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم متى أتاك خصمك معنفًا ، فارجع إلينا متظلمًا .

وقال الأعمش [٣] : كانت عندي شاة ، فمرضت ، وفقدت الصبيان لبنها ، فكان خيثمة ابن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني . هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ ، وكانت تحتي لبد أجلس عليه ، فكان إذا خرج يقول : خذ ما تحت اللبد حتى وصل من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بِرِّه حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ .

وحكى أبو قدامة القشيري قال : كنا مع يزيد بن مزيد [٤] يومًا ، فسمع صائحًا يقول : يا يزيد بن مزيد ، فطلبه فأتى به إليه ، فقال : ما حملك على هذا الصياح ؟ قال : فُقِدَتْ دابتي ونَفَدت نفقتي ، وسمعت قول الشاعر :

(١) الجَفْنَةُ : القصعة ـ مُترعات : مُمْتَلِئَات .
(٢) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي القرشي . صحابي . من الأمراء الولاة الفاتحين . ربى في حجر عمر بن الخطاب . ولى الكوفة لعثمان ، وولي المدينة لمعاوية مات سنة ٥٩ هـ .
(٣) الأعمش سليمان بن مهران توفى ١٤٨هـ .
(٤) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني . أمير . شجاع . ولي أرمينية . وجهه الرشيد لقتال وليد بن طريف الشيباني الخارجي فقاتله وقتله بسيف رسول الله ﷺ « ذو الفقار » . توفي يزيد سنة ١٨٥ هـ .

إِذا قِيلَ : مَنْ للجودِ والمجدِ والنَّدَى فَنادِي بِصَوْت يا يزيدُ بنُ مزيدِ

فأمر له بفرس أبلق كان معجبًا به ، وبمائة دينار ، وخلعة سنية فأخذها وانصرف .

وحكي : أن قومًا من العرب جاءُوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره ، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام، وهو يقول له: هل لك أن تبيعني بعيرك بنجيبي[1] ؟ وكان الميت قد خلف نبيًا ، وكان للرائي بعير سمين ، فقال : نعم ، وباعه في النوم بعيره بنجيبه ، فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير ، فنحره في النوم ، فانتبه الرائي من نومه ، فوجد الدم يسيح من نحر بعيره ، فقام وأتم نحره ، وقطع لحمه ، وطبخوه ، وأكلوا ، ثم رحلوا وساروا ، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب ، فتقدم منهم شاب ، فنادى ، هل فيكم فلان بن فلان ؟ فقال صاحب البعير : نعم ها أنا فلان ابن فلان فقال: هل بعت مِنْ الميت شيئًا ؟ قال : نعم . بعته بعيرى بنجيبه في النوم ، فقال : هذا نجيبه فخذه وأنا ولده ، وقد رأيته في النوم ، وهو يقول : إن كنت ولدي، فادفع نجيبي إلى فلان . فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته ؟ .

وروى عن الهيثم بن عدي (٢): أنه قال : تَمَارَى (٣) ثلاثة نفر في الأجواد ، فقال رجل : أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر ، فقال الآخر : أسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة ، فقال الآخر : بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي ، فتنازعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم رجل : لقد أفرطتم في الكلام ، فليمض كل واحد إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود، فنحكم على العيان .

فقام صاحب ابن جعفر فوافاه ، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له ، فقال الرجل : يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل ومنقطع به ، قال : فأخرج رجله ، وقال : ضع رجلك واستو على الناقة ، وخذ ما في الحقيبة ، وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار . ومضى صاحب قيس ، فوجده نائمًا فقالت له جارية قيس : ما حاجتك ؟ فقال : ابن سبيل ومنقطع به ، فقالت له الجارية : حاجتك أهون من إيقاظه ، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيرها ، وامض إلى معاطن (٤) الإبل ، فخذ راحلة من رواحله ، وما يصلحها ،

(١) النجيب : الفتى القوي من الإبل .

(٢) هيثم بن عدى بن عبد الرحمن الثعلبى الطائى . البحترى . الكوفى (أبو عبد الرحمن) مؤرخ. عالم بالأدب والنسب أصله من منبج . توفى فى فم الصلح قرب واصل سنة ٢٠٧هـ.

(٣) تمارى : التمارى : المناظرة والمجادلة .

(٤) المعاطن : مبرك الإبل ـ الحظيرة موضع يحاط عليه لتأوى إليه الماشية .

وعبدًا ، وامض لشأنك ، قيل : إن قيسًا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت ، فأعتقها ، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله ، فَخُلُق خدم الرجل مُقْتَبسٌ من خُلُقِه ، قال بعض الشعراء :

وَإِذَا مَا اخْتَبَرْتَ وُدَّ صديقٍ فاخْتَبِرْ وُدَّهُ مِنَ الغِلْمَانِ

ومضى صاحب عرابة ، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة ، فقال : يا عرابة . ابن سبيل ومنقطع به . وكان معه عبدان ، فصفق بيده اليمنى على اليسرى ، وقال : أواه أواه ، والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء ، ولا تركت له الحقوق مالاً ، ولكن خذ هذين العبدين . فقال الرجل : والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك ، فقال : إن أخذتهما ، وإلا فهما حران لوجه الله تعالى ، فإن شئت ، فأعتق ، فأخذ الرجل العبدين ومضى .

ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد ، فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهد .

قيل : إن شاعرًا قصد خالد بن يزيد ، فأنشده شعرًا يقول فيه :

سَأَلْتُ الندى والْجُودَ حُرَّانَ أنتُما ؟ فَقَالاَ : يَقِينًا إِنَّنا لَعَبِيدُ
فَقُلْتُ : وَمَنْ مَوْلاَكُمَا؟ فَتَطَاوَلاَ إِلَيَّ وَقَالا : خالدُ ويزيدُ

فقال : ياغلامُ أعطه مائة ألف درهم ، وقال له : إن زدتنا زدناك ، فأنشد يقول :

كريمٌ كريمُ الأمهاتِ مُهَذَّبٌ تُدفِّقُ يُمْناه النَّدَى شمائِلُه
هو البحرُ مِنْ أَيِّ الجهاتِ أَتَيْتَهُ فَلُجَّتُهُ المعروفُ والْجودُ سَاحِلُهُ
جَوادٌ بَسِيطُ الْكَفِّ حَتَّى لو أَنَّه دَعَاها لِقَبْضٍ لَم تُجِبْهُ أَنَامِلُه

فقال : يا غلام أعطه مائة ألف درهم ، وقال له : إن زدتنا زدناك ، فأنشد يقول :

تَبَرَّعْتَ لي بالجودِ حتى نَعَشْتَنِي وَأَعْطَيْتَنِي حتى حَسِبْتُكَ تَلْعَبُ
وَأَنْبَتَّ رِيشًا في الجناحَيْن بعْدَمَا تَسَاقَطَ مِنِّيَ الرِيشُ أو كادَ يَذهبُ
فَأَنتَ الندى ، وابنُ الندى ، وأخو الندى حَلِيفُ الندى ما لِلندى عَنْكَ مَذْهبُ

فقال : يا غلام أعطه مائة ألف درهم ، وقال له : إن زدتنا زدناك ، فقال : حسب الأمير ما سمع وحسبي ما أخذت ، وانصرف .

وأما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية : فهو حاتم بن عبد الله الطائي [١] ، وهرم بن سنان [٢] ، وخالد بن عبيد الله ، وكعب بن مامة الأيادي [٣] . وضرب المثل بحاتم ، وكعب، وحاتم أشهرهما ، فأما كعب ، فجاد بنفسه ، وآثر رفيقه بالماء في المفازة ، ومات عطشًا ، وليس له خبر مشهور . وأما خالد بن عبيد الله ، فإنه جاء إليه بعض الشعراء ، ورجله في الركاب يريد الغزو ، فقال له : إني قلت فيك بيتين من الشعر ، فقال : في مثل هذا الحال ؟ قال : نعم ، فقال : هاتهما ، فأنشده يقول :

يَا وَاحِدَ العربِ الـذي ... مَا في الأنامِ لَهُ نَظِيرُ
لَوْ كانَ مِثْلُك آخَــرٌ ... ما كانَ في الدنيا فقِيرُ

فقال : يا غلام ، أعطه عشرين ألف دينار ، فأخذها وانصرف ، وأما حاتم ، فأخباره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة ، ويكني أبا سفانة ، وأبا عدي ، وكان يسير في قومه بالمرباع : والمرباع : ربع الغنيمة ، وكان ولده يعادي النبي ﷺ ، فبعث النبي ﷺ عليًا إلي طئ ، فهرب عدي بأهله وولده ولحق بالشام ، وخلف أخته سفانة ، فأسرتها خيلُ رسول الله ﷺ ، فلما أُتِيَ بها إلى النبي ﷺ قالت : يا محمدُ هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فإن رأيت أن تخلي عني ، ولا تُشْمِتْ بي أحياء العرب ، فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ويحمل الْكَلَّ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائبًا أنا بنت حاتم الطائي ، فقال لها النبي ﷺ : « **يا جارية هذه صفات المؤمنين حقًا ، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه . خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق** » . وقال فيها : « **ارحموا عزيزًا ذَل وغنيًا افتقر ، وعالمًا ضاع بين جهال** » [٤] . فأطلقها وَمَنَّ عليها ، فاستأذنته في الدعاء له ، فأذن لها ، وقال لأصحابه : « **اسمعوا وعوا** » ، فقالت : أصاب الله بِبِرِّكَ مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سببًا في ردها عليه .

---

(١) حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني ، أبو عدي : فارس . شاعر . جواد . جاهلي . يضرب المثل بجوده . توفي ٤٦ .ق.هـ .

(٢) هرم بن سنان بن حارثة المري . من مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . من أجواد العرب في الجاهلية . يضرب به المثل في الجود توفي سنة ١٥ .ق.هـ .

(٣) كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي ، أبو دؤاد . جاهلي . كريم . يضرب به المثل في حسن الجوار .

(٤) ضعيف : رواه ابن حبان في « المجروحين » (٢ / ١١٨) وفي سنده عيسى بن طهمان قال ابن حيان. لا يجوز الاحتجاج بما يرويه .

فلما أطلقها ﷺ رجعت إلى قومها ، فأتت أخاها عديًا وهو بدومة الجندل [١] ، فقالت له: أخي ائت هذا الرجل قبل أن تَعْلَقَكَ حبائله ، فإني قد رأيت هديًا ورأيًا سيغلب أهل الغلبة رأيت خصالاً تعجبني . رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ . وإني أري أن تلحق به ، فإن يك نبيًا فللسابق فضله ، وإن يك ملكًا فلن يذل في عزِ الْيُمْنِ .

فقدم عدي إلى النبي ﷺ فألقى له وسادة محشوة ليفًا ، وجلس النبي ﷺ على الأرض ، فأسلم عدي بن حاتم ، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها ، وكانت من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها وتعطيها الناس ، فقال لها أبوها ، يا بنية إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه ، فإما أن أعطي وتمسكي ، وإما أن أمسك وتعطي ، فإنه لا يبقى على هذا شيء ، فقالت له : منك تعلمت مكارم الأخلاق .

قال ابن الأعرابي : كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية ، وكان جوادًا يشبه جوده شعره، ويصدق قوله فعله ، وكان حيثما نزل عرف منزله ، وكان مظفرًا إذا قاتل غلب ، وإذا سُئِلَ وَهَبَ، وإذا سابق سَبَقَ ، وإذا أَسَرَ أَطْلَقَ ، وكان إذا أهل رَجَبُ الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشرًا من الإبل وأطعم الناس ، واجتمعوا إليه ، وكان قد تزوج ماوية بنت عفير ، وكانت تلومه على إتلاف المال ، فلا يلتفت لقولها . وكان لها ابن عم يقال له : مالك ، فقال لها يومًا : ما تصنعين بحاتم ، فوالله لئن وجد مالاً ليتلفه ، وإن لم يجد ليتكلفن ، ولئن مات ليتركن أولاده عالة على قومك . فقالت ماوية : صدقت إنه كذلك .

وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية ، وكان طلاقهن أن يكن في بيوت من شعر ، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب ، وإن كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق وإن كان من قبل اليمن حولته إلى الشام ، وإن كان من قبل الشام حولته إلى اليمن ، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته ، فلم يأتها ، ثم قال لها ابن عمها : طلقي حاتمًا وأنا أتزوجك ، وأنا خير لك منه ، وأكثر مالاً ، وأنا أمسك عليك ، وعلى ولدك . فلم يزل بها حتى طلقته ، فأتاها حاتم ، وقد حولت باب الخباء ، فقال حاتم لولده : يا عدي ما ترى ما فعلت أمك ؟ فقال : قد رأيت ذلك .

قال : فأخذ ابنه وهبط بطن واد ، فنزل فيه ، فجاءه قوم ، فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون ، وكان عدتهم خمسين فارسًا ، فضاقت بهم ماوية ذرعًا ؛ وقالت لجاريتها : اذهبي إلى

(١) دومة الجندل : شمالي غربي نجد .

ابن عمي مالك ، وقولي له : إن أضيافًا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً ، فأرسلْ إلينا بشيء نقريهم ، ولبن نسقيهم ، وقالت لها : انْظُرِي إلي جَبِينِه وفَمِه ، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه ، وإن ضرب بلحيته على زَوره [١] ، ولطم رأسه ، فأقبلي ودعيه ، فلما أتته وجدته متوسدًا وطبًا [٢] من لبن ، فأيقظته وأبلغته الرسالة، وقالت له : إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم ، فلطم رأسه بيده ، وضرب بلحيته ، وقال : أقرئيها السلام، وقولي لها: هذا الذي أمرتكِ أن تطلقي حاتمًا لأجله ، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم .

فرجعت الجارية ، فأخبرتها بما رأت ، وبما قال لها ، فقالت لها : اذهبي إلى حاتم ، وقولي له : إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ، ولم يعلموا مكانك ، فأرسل إلينا بناقة نقريهم ، ولبن نسقيهم ، فأتت الجارية حاتمًا ، فصاحت به ، فقال : لبيك قريبًا دعوت ، فأخبرته بما جاءت بسببه ، فقال لها : حبًا وكرامة ، ثم قام إلى الإبل ، فأطلق اثنتين من عقالهما ، وصاح بهما حتى أتيا الخباء ، ثم ضرب عراقيبهما ، فطفقت ماوية تصيح : هذا الذي طلقتك بسببه . نترك أولادنا وليس لهم شيء ، فقال لها : ويحك يا ماوية الذي خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم .

وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها في بقاع الأرض لينظر إليها مَنْ ضَلَّ عن الطريق ليلاً ، فيقصدها ، ولم يكن حاتمًا يمسك شيئًا ما عدا فرسه وسلاحه ، فإنه كان لا يجود بهما ، ثم جاد بفرسه في سنة مجدبة .

حكى : أن ملكان [٣] ابن أخي ماوية قال : قلت لها يومًا : يا عمة حدثيني ببعض عجائب حاتم ، وبعض مكارم أخلاقه ، فقالت : يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه : أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف [٤] ، وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا فأخذتُ سفانة ، وأخذ عديًا ، وجعلنا نعللهما حتى ناما ، فأقبل علي يحدثني ويعللني بالحديث حتى أنام ، فرفقت به لِمَا به من الجوع ، فأمسكت عن كلامه لينام ، فقال لي : أنمت ؟ فلم أجبه ، فسكت ، ونظر في فناء الخباء ، فإذا شيء قد أقبل ، فرفع رأسه ، فإذا امرأة ؛ فقال : ما هذا ؟ فقالت : يا أبا عدي أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب أو كالذئاب جوعًا ، فقال لها : أحضري صبيانك، فوالله

(١) زوره : صدره .
(٢) الوطب : سقاء اللبن . تَوَسَّدَ جعله وسادة تحت رأسه وهو نائم .
(٣) ملْكَان (أخو مَلْك) بن خزيمة بن مدركة من مضر . جَدٌّ . جاهلي . بنوه بطون جمة ـ كثيرة . وماوية بنت مَعاويةَ بن زيد بن عبد الله بن دارم زوجة حاتم إحدى المنجبات من النساء في الجاهلية .
(٤) الخف : كناية عن الإبل ، الظلف : الغنم .

لأشبعنهم ، فقامت سريعة لأولادها ، فرفعت رأسي ، وقلت له : يا حاتم ، بماذا تشبع أطفالها؟، فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل ، فقال : والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها ، فلما جاءت المرأة نهض قائمًا ، وأخذ المدية بيده وعمد إلى فرسه ، فذبحه ، ثم أجج نارًا ودفع إليها شفرة ، وقال : قطعي ، واشوي ، وكلي ، وأطعمي صبيانك ، فأكلت المرأة ، وأشبعت صبيانها ، فأيقظت أولادي ، وأكلت ، وأطعمتهم ، فقال: والله إن هذا لهو اللؤم تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم ، ثم أتى الحي بيتًا بيتًا يقول لهم : انهضوا بالنار ، فاجتمعوا حول الفرس ، وتقنع [1] حاتم بكسائه وجلس ناحية ، فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها ، قليل ولا كثير إلا العظم والحافر ، ولا والله ما ذاقها حاتم ، وإنه لأشدهم جوعًا وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره :

أَمَاوِيَّ إنَّ المالَ غادٍ ورائـــحٌ ... وَيَبْقى من المالِ الأحاديثُ والـذكرُ
وَقَدْ عَلِمَ الأقوامُ لو أنَّ حاتمًا ... أرادَ ثَراءَ المالِ كَانَ له وَفْـــرُ

وأغار قوم على طيئ ، فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ، ونادى في جيشه وأهل عشيرته ، ولقي القوم ، فهزمهم وتبعهم ، فقال له كبيرهم : يا حاتم هَبْ لي رمحك ، فرمى به إليه ، فقيل لحاتم : عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك . فقال : قد علمت ذلك ، ولكن ما جواب مَنْ يقولُ هَبْ لي ؟ ولما مات عظم على طيئ موته ، فادعى أخوه أنه يخلفه ، فقالت له أمه : هيهات ـ شتان ـ والله ما بين خلفتيكما ، وضعته ، فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلاً من الجيران ، وكنت أنت ترضع ثديًا ويدك على الآخر، فأني لك ذلك. قال الشاعر :

يَعِيشُ النَّدَى ما عاشَ حاتمُ طَيِّئٍ ... وَإِنْ ماتَ قَامَتْ لِلْسَخَاءِ مآتمُ

وكانت العرب تسمي الكلب داعي الضمير ، ومتمم النعم ، ومشيد الذكر لما يجلب من الأضياف بنباحه . والضمير : الغريب ، وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح ، ولم تشب النيران، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العمد لتستوحش فتنبح ، فتهتدي الضُّلاّل ، وتأتي الأضياف على نباحها .

والحكايات في ذكر الأجواد ، والكرماء ، والأسخياء ، وأهل المعروف ، وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر .

(١) تقنع : القناع : غطى رأسه وستر وجهه .

ففي مثل هذا المناقب فليتنافس المتنافسون ، ولمثلها فليعمل العاملون ، فإن فيها عزَّ الدنيا ، وشرف الآخرة ، وحسن الصيت ، وخلود جميل الذكر ، فإنا لم نجد شيئًا يبقى على ممر الدهر إلا الذكر حسنًا كان أو قبيحًا . وقد قال الشاعر :

وَلاَ شَيْءَ يَدُومُ فَكُنْ حديثًا   جَمِيلَ الذِّكْرِ فالدُّنْيَا حَدِيثُ

فانتهز فرصة العمر ، ومساعدة الدنيا ، ونفوذ الأمر ، وقدم لنفسك كما قدموا ، تُذْكَرُ بالصالحات كما ذُكِرُوا ، وادخر نفسك في القيامة كما ادخروا ، واعلم أن المأكول للبدن ، والموهوب للمعاد ، والمتروك للعدو ، فاختر أي الثلاث شئتَ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والثلاثون

في البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٣٧] . وقال رسول الله ﷺ : « **إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم** » (١) . وعن ﷺ أنه قال : « **البخل جامع لمساوئ القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء** » (٢) . وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : إن البخل لو كان قميصًا ما لبسته أو كان طريقًا ما سلكته .

وقيل : بخلاء العرب أربعة : الحطيئة ، وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلي (٣) ، وخالد ابن صفوان .

فأما الحطيئة (٤) : فَمَرَّ به إنسان وهو على باب داره وبيده عصا ، فقال : أنا ضيف فأشار إلى العصا ، وقال : لِكِعَابِ الضيفان أعددتها .

وأما حميد الأرقط : فكان هجاء للضيفان فحاشًا عليهم ، نزل به مرة أضياف ، فأطعمهم تمرًا ، وهجاهم ، وذكر أنهم أكلوه بنواه .

وأما أبو الأسود ، فتصدق على سائل بتمرة ، فقال له : جعل الله نصيبك من الجنة مثلها. وكان يقول : لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم .

وأما خالد بن صفوان : فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه : يَا عَيَّار كَمْ تعير ، وكم تطرف وتطير ، لأطيلن حبسك . ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه . وقيل له : لم لا تنفق، ومالك عريض ؟ فقال : الدهر أعرض منه ، وأنشد بعضهم :

وَهَبْنِي جَمعتُ المالَ ثُمَّ خزَنْتُه وَحَانَتْ وَفَاتِي هل أُزادُ به عُمْرَا ؟
إذا خزَنَ المالَ البخيلُ فإنّه سَيُورِثُهُ غَمًّا وَيُعْقِبُهُ وِزرَا

(١) ضعيف : رواه ابن جرير الطبري ، عن أبي هريرة .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني ، أول من وضع علم النحو ، كان مقدما ومعدودا من الفقهاء والأعيان والأمراء والفرسان ، شهد مع علي صفين ، توفى في البصرة بالطاعون سنة ٦٩ هـ .

(٤) أبو مليكة جرول بن أوس . شاعر من الفحول . مخضرم . أدرك الجاهلية والإسلام ، هجاء عنيفا مفحشًا هجا أباه وأمه وزوجه ونفسه توفى سنة ٤٥ هـ .

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل ، فقيل : هو محموم ، فقال : كلوا بين يديه حتى يعرق .

وكتب سهل بن هارون كتابًا في مدح البخل ، وأهداه إلى الحسن بن سهل ، فوقع على ظهره ، « قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه » .

وقال ابن أبي فنن [١] :

ذَرِينِي وَإتْلاَفي لِمَالِي فإنَّنـــي ... أحبُّ من الأخلاقِ مَا هو أجملُ
وَإنْ أحقَّ الناسِ باللَّوْمِ شَاعــرٌ ... يلومُ على البُخْلِ الرجالَ وَيَبْخَـلُ

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً جدًا ، أصابه القولنج [٢] في بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في الطست ، فقال لغلامه : اجمع الدهن الذي نــزل مــن الحقنة وأسرج به .

وكان المنصور شديد البخل جدًا ، مرَّ به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج ، فحدا له يومًا بقول الشاعر :

أَغَرَّ بَيْنَ الحاجِبَـــين نُورُهُ ... يَزِينُه حَيَاؤُه وخَيـــرُهُ
وَمِسْكُهُ يَشُوبُهُ [٣] كَافُـورُهُ ... إذا تَغَذَّى رُفعتْ سُتُورُه

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال : يا ربيع أعطه نصف درهم ، فقال مسلم : نصف درهم يا أمير المؤمنين ، والله لقد حدوت لهشام ، فأمر لي بثلاثين ألف درهم . فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم ، يا ربيع : وكل به مَنْ يستخلص منه هذا المال قال الربيع : فما زلت أمشي بينهما وأروضه ؛ حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وكان أبو العتاهية [٤] ، ومروان بن أبي حفصة [٥] بخيلين يضرب ببخلهما المثل ، قال مروان: ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لي المهدي ، فوزنتها فرجحت

---

(١) صالح بن سعيد ، أحمد بن أبي فنن ، أبو عبد الله ، شاعر مطبوع محدث . من شعراء العصر العباسي .
(٢) القولنج : مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح ـ الإمساك ـ وسببه : التهاب القولون .
(٣) يشوبه : يخالطه .
(٤) إسماعيل بن القاسم بن سويد العنزي، العترى من قبيلة عنزة بالولاء . أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية شاعر مكثر . سريع الخاطر .ولد في عين التمر ، ونشأ في الكوفة ، وسكن بغداد وتوفى بها سنة ٢١١ هـ كان يقول شعرآ في الغزل والمديح والهجاء ، ثم تنسّك وعدل إلى شعر الزهد والحكم والأمثال . له ديوان شعر .
(٥) سبق أن ترجم له .

درهمًا ، فاشتريت به لحمًا ، واشترى يومًا لحمًا بدرهم ، فلما وضعه في القدر دعاه صديقه ، فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين ، فجعل القصاب ينادي على اللحم ، ويقول : هذا لحم مروان. واجتاز يومًا بأعرابية ، فأضافته ، فقال : إن وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهمًا ، فوهبه سبعين ألف درهم ، فوهبها أربعة دوانق .

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو : يقال : إن من عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر ، ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه فإذا استوى جرَّ كُلٌّ منهم خيطه ، وأكل لحمه وتقاسما المرق .

وقيل لبخيل : مَنْ أشجع الناس ؟ قال : مَنْ سمع وقع أضراس الناس على طعامه ، ولم تنشق مرارته.

وقيل : لبعضهم ، أما يكسوك محمد بن يحيى ؟ فقال : والله لو كان له بيت مملوء إبرًا ، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء ، والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ[1] منْ دُبرُ ، ما أعاره إياها ، فكيف يكسوني ؟ وقد نظم ذلك من قال :

لَوْ انَّ دَارَكَ انْبَتَتْ لَكَ واحتَشَت ... إبرًا يَضيقُ بها فناءُ المنزلِ
وَأتَاكَ يُوسفُ يَسْتعيركَ إبـــرة ... لِيخيط قَدَّ قَميصه لَمْ تَفعلَ

وكان المتنبي[2] بخيلاً جدًا مدحه إنسان بقصيدة ، فقال له : كم أمْلتَ منا على مدحك ؟ قال: عشرة دنانير . قال له : والله لو ندفت[3] قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقًا[4] .

وقال دعبل[5] : كنا عند سهل بن هارون ، فلن نبرح حتى كاد يموت من الجوع، فقال : ويلك يا غلام آتنا غداءنا ، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل ، فتأمل الديك فرآه بغير رأس ، فقال لغلامه : وأين الرأس ؟ فقال : رميته ، فقال : والله إني لأكره من يرمي برجله ، فكيف برأسه ؟ ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ، ومنه يصيح الديك ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذي يتبرك به وعينه التي يضرب بها المثل ، فيقال : شراب كعين الديك ،

(١) قُدَّ : شقَّ الثوب طويلا .
(٢) سبق أن ترجم له .
(٣) ندف القطن : نفشه بالمندف ليرق .
(٤) الدانق : سدس الدرهم .
(٥) دعبل بن علي بن رزين الخزاعي . أبو علي ، اصله من الكوفة شاعر هجاء توفى سنة ٢٤٦ هـ .

ودماغه عجيب لوجع الكلية ، ولم نر عظمًا أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وَهَبْكَ ظننت أني لا آكله ، أما قلت عنده مَنْ يأكله . انظر في أي مكان رميته فأتني به .

فقال : والله لا أدري أين رميته ؟ ، فقال : ولكني أنا أعرف أين رميته .رميته في بطنك، الله حسبك .

وقيل : مِنَ الناس مَنْ يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس . قال بعضهم في أبي دلف[1]:

أبو دُلفٍ يُضيِّعُ ألـــفَ ألـــف ويضربُ بالحسام على الرغيف
أبو دُلـــفٍ لِمطبَــخِهِ قُتـار[2] ولَكِن دُونَه سَــلُّ السيــوفِ

واشتكى رجل مروزي صدره من سعال ، فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة ، ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء ، فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام إذ أتاه بعض أصدقائه ، فوصف له ماء النخالة ، وقال : إنه يجلو الصدر ، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها ، فجلا صدره ووجده يعصم ، فلما حضر غداؤه أمر به ، فرفع إلى العشاء ، وقال لامرأته : اطبخي لأهل بيتنا النخالة ، فإني وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدور . فقالت : لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء ، فالحمد لله على هذه النعمة .

وعن خاقان بن صبح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة ، وقد علق فيها عودًا بخيط ، فقلت له : ما بال هذا العود مربوطًا ؟ قال : قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره ، فلا نجد إلا عودًا عطشان ، ونخشى أن يشرب الدهن . قال : فبينما أن أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو ، فنظر إلى العود ، فقال الرجل : يا فلان لقد فررت من شيء ووقعت فيما هو شر منه ، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشفان هذا العود ، لم لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد ، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف ، والعود أيضًا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها . فقال له الرجل الخراساني : أرشدك الله ، ونفع بك ، فلقد كنت في ذلك من المسرفين .

وقال الهيثم بن عدي [3] : نزل على أبي حفصة الشاعر رجل من اليمامة ، فأخلى له

---

(١) القاسم بن عيسى بن إدريس بن نزار بن عدنان العجلي ، كريم ، شجاع ، صاحب وقائع مشهورة ، أخذ عنه الأدباء والفضلاء ،له صنعة في الغناء ، آثاره : السلاح ، البزاة والصيد ، توفى سنة ٢٢٥ هـ .

(٢) القُتار : الدخان .

(٣) الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الثعلبي الطائي مؤرخ عالم بالأدب والنسب أصله من منبج توفى ٢٠٧ هـ .

المنزل، ثم هرب مخافة أن يلزمه قِرَاهُ(١) في هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه ، ثم رجع وكتب إليه :

يَا أيُّها الخارجُ مِنْ بَيْتِهِ ... وَهَارِبًا مِنْ شَدَّةِ الخَوفِ
ضَيْفُكَ قَدْ جَاء بِزادٍ لَهُ ... فارْجِعْ وَكُنْ ضَيْفًا على الضَّيفِ

واشترى رجل من البخلاء دارًا وانتقل إليها ، فوقف ببابه سائل ، فقال له : فتح الله عليك. ثم وقف ثان ، فقال له مثل ذلك ، ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك ، ثم التفت إلى ابنته ، فقال لها : ما أكثر السؤال في هذا المكان . قالت : يا أبت ما دمت مستمسكًا لهم بهذه الكلمة فما تبالى كثروا أم قلوا .

والألم اللئام وابخلهم : حميد الأرقط (٢) الذي يقال له هجاء الأضياف ، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له :

مَا بين لَقْمَتِه الأولى إذا انْحدَرَت ... وبَين أُخرى تَلِيها قَيْدُ أُظفُورِ

وقال فيه أيضًا :

تُجهِّزُ كَفَّاهُ ويَحْدِرُ حَلْقهُ ... إلى الزَّور ما ضَمَّتْ عليه الأناملُ

وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطبًا فأكثر ، ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابي ، فسقطت منه في التراب ، فأخذها أبو الأسود ، وقال : لا أدعها للشيطان يأكلها ، فقال الأعرابي : والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزل من السماء ما تركها .وقال أعرابي : لنزيل نزل به : نزلت بواد غير ممطور ، ورجل بك غير مسرور ، فأقم بِعُدم أو ارحل بندم وللحمدوني:

رأَيتُ أبَا زُرارَ قَالَ: يومًا ... لحاجِبه وفي يده الحسامُ
لَئن وَضَعَ الخِوانَ وَلاحَ شَخصٌ ... لأَخْتطِفنَّ رأسَك والسلامُ (٣)
فَقَالَ سِوَى أَبيكَ فذاك شَيخٌ ... بَغيضٌ ليس يَردَعُه الكلامُ

---

(١) القرى : ما يقدم إلى الضيف .

(٢) حميد بن مالك الأرقط ـ سمى بالأرقط : لآثار كانت في وجهه ،شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية مجيد في وصف الطبيعة ، عاصر العجاج ، وتنازعا الأراجيز ، يُعَدُّ من أشهر البخلاء .

(٣) الخِوَانُ : مايؤكل عليه .

فَقَام وَقَالَ مِنْ حَنَــقٍ إلَــيـه بِبيتٍ لَمْ يُردْ فيه القيــامُ
أبي وَابنا أبي والكلب عنـدي بمنزلةٍ إذا حَضرَ الطعــامُ
وَقَالَ لَهُ : ابنْ لي يا كَلْـبٍ على خُبزي أُصادرُ او اضامُ
إذا حَضرَ الطعامُ فَلا حُقُــوقٌ علَيّ لِوالِدي وَلا ذِمَــامُ
فَمَا في الأرضِ اقبحُ مِنْ خِوانٍ عليه الخبزُ يَحْضُره الزِّحامُ

فأين هذا من القائل :

بَخِيلٌ يَرى في الجودِ عارًا وإنَّما يَرَى المرءَ عارًا أن يَضِنَّ وَيَبخلا
إذ المرؤُ أثرى ثُمَّ لم يرجُ نَفعُه صَــديقُ فَــــلاقَته المَنيَّةُ اوّلا

وقال آخر :

وآمرةٍ بالبخلِ قلتِ لَهَا : اقصِري فَلَيسَ إلَيْه ما حَييتُ سَبيلُ
أرى الناسَ إخوانَ الكريمَ وَمَا أرَى بَخيلاً لَهُ في العالمين خَليلُ

وقالوا : إذا سألت لئيمًا شيئًا ، فعاجله ، ولا تدعه يفكر ، فإنه كلما فكر ازداد بعدًا ، وقال ربعي الهمداني :

جَمعتُ صنوفَ المال مِنْ كُلِّ وُجهةٍ وَمَا نِلتُها إلا بكَفٍّ كريمِ
وَإنِّي لأرجُو أن أموتَ وَتَنقضِــي حَيَاتي وَمَا عِندي يدٌ للئيمِ

وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق(١) :

ممنْ تعلَّمتَ هذا أن لا تجود بشيء
أما مرَرْتَ بِعبد لعبدِ حَاتِم طيء

ومما قالته الشعراء في البخلاء ، وطعامهم : فَمن أهجي مَن قيل فيهم : بيت جرير في بني تغلب :

والتغْلِبي إذا تَنحنْح لِلقري حَكَّ إستَه وتَمثَّلَ الأمثالا

وله أيضًا فيهم :

قومُ إذا أكلُوا أخفُوا كَلامَهُمُ واستوثَقوا مِنْ رِتَاجٍ (٢) البابِ والدارِ

---

(١) ترجم له .
(٢) الرتاج : المغلاق ، المزلاج : الترباس .

قَومُ إذا استَنبحَ الضيفانُ كلبُهمُ قَالوا لأمِّهمُ : بُولي على النارِ
فَتَمنُعُ البولَ شُحًا ان تجُود بِه وَمَا تَبولُ لَهُم إلا بمقـــــدارِ
والخبزُ كالعَنبرِ الهنْديِّ عِندهُمُ والقمحُ خَمسُــون إردبًا بدينارِ

فأين هؤلاء من الذي قال فيه الشاعر :

أَبلجُ بيْنَ حَاجِبيْه نُورُه إذا تَغَدَّى رُفِعت سُتورُهُ

وقال بعضهم في بخيل :

أتَانَا بَخيـلُ بِخُبـــزٍ لَهُ كَمـثلِ الدَّرَاهـــمِ في رِقَّتهِ
إذا مَا تنفَّسَ حَوْلَ الخِوانِ تَطَايرَ فـــي البيتِ مِنْ خِفَّتِه

وقال آخر :

تَراهُمُ خَشْيَةَ الأضيافِ خُرسًا يُقيمونَ الصلاةَ بِلاَ أذَانِ

وقال آخر وقد بات عند بخيل :

فَبتَنا كأنَّا بينهمُ اهلُ مَاتــمِ عَلَى ميّت مُستودَع بَطْنَ مُلْحَدِ (١)
يُحَدِّثُ بَعضًا بـمُصــــــابه ويَأمُرُه بَعـــضُنــا بعـضًا بالتجلد

وقال آخر :

وَجيزَةَ لا ترى في الناسِ مِثلهُمُ إذا يكونِ عِيدُ وإفطــــارُ
أن يوقدوا يُوسِعُونا مِنْ دُخانهمُ ولَيس يبلُغنا مَا تَطْبُخُ النارُ

وقال آخر وأجاد :

فَصَدَقْ أيمُانه إنّ قَالَ مُجتــــهدًا لا والرغيفِ فَذَاكَ البرُّ من قسمِه
فإنّ هممتَ به فاعـبَثْ بخُبـزَتهِ فَإنّ مَوْقِعَها مِنْ لَحـمِه وَدَمـــه
قَدْ كَانَ يُعجبُنـــي لَوْ انّ غَيْرَتَهُ على جَرَادقةٍ كـانت على حرَمِهِ(٢)

(١) ملحد : شق في جانب القبر للميت .
(٢) جرادقه : جمع جردقه الأرغفة .

وقال آخر :

ذَهبَ الكرامُ فلا كِرامُ وبَقي الْعضاريطُ اللّئامُ[١]
مَنْ لا يُقيلُ وَلا يُنيـ ـلُ ولا يُشَمُّ لـه طعامُ

وقال آخر :

خَليليّ مِنْ كَعْبِ أعينَا أخَاكما عَلى دَهره إنَّ الكريمَ مُعينُ
وَلا تَبْخلاَ بُخْلَ ابن قزْعةَ إنَّه مَخَافة أن يُرجَى نَدَاهُ حَزينُ
إذا جئتهُ في حَاجةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تَلقهُ إلا وأنتَ كَمَينُ

وقال آخر :

لهُ يومان: يومُ نَدَى ، ويومٌ يسلُّ السيفَ فيه من القِرابِ
فأمَّا جُودُهُ فعلَى قِحابِ وأمَّا سَيْفُه فعَلى الكلابِ[٢]

وقال آخر :

زفَفْتُ إلى نَبْهانَ مِنْ صَفو فِكرَتي عَرُوسًا غَدا بَطْنَ الكتابِ لها صَدرا
فَقَبَّلَها عشرًا وَهامَ بِحبِّها فلمَّا ذَكَرتُ المهرُ طَلَّقَها عشرًا

وقال آخر :

لوْ عبَر البحرَ بأمواجِه في ليلةٍ مُظلمَةٍ بَاردةْ
وَكَفُّهُ مملُوءَةٌ خَردلا[٣] ما سَقَطَتْ مِنْ كَفِّه واحده

وقال آخر :

يَا قائمًا في داره قَاعدًا مِنْ غيْرَ مَعنيّ لا ولا فائدهْ
قَدْ ماتَ أضيافُك مِنْ جُوعِهِم فاقرأ عَلَيهِمْ سُورةَ المائده

وقال آخر :

---

(١) العضاريط : الأجير على طعام بطنه ،والصعاليك ،واللئام .
(٢) القحاب : واحده القحبة : البغي نبات عشبى ينبت بريا فى الحقول مع الزرع . حبه صغير جدًا أسود.
(٣) الخردل : جمع خردلة .

نَوَالُكَ دُونَه شَوْكُ القَتَادِ وَخُبْزكَ كالثّرَيَّا في البُعدِ[١]
فَلَو أبصرت ضيفًا في منَامٍ لَحرَّمتَ الرُّقادَ إلى المَعادِ[٢]

وقال آخر :

لا تعجَبَنَّ لُخبز زَلَّ مِنْ يَده فالكوكبُ النحسُ يسقي الأرض أحيانًا

وقال ابن أبي حازم [٣] :

وَقَالُوا : قد مَدَحتَ فتيّ كريمًا فَقُلت : وكيفَ لي بفتى كريمِ ؟
بَلوتُ وَمَرَّ بي خَمسون حولاً وَحَسبُك بالمجرَّبِ من عليم
فَلا احدٌ يُعَدُّ لِيوَمِ خَيرٍ وَلا احدٌ يَجُودُ على عديمِ

ومن رؤساء أهل البخل : محمد بن الجهم [٤] ، وهو الذي قال : وددت لو أن عشرة من الفقهاء ، وعشرة من الخطباء ، وعشرة من الشعراء ، وعشرة من الأدباء تواطئوا على دمي ، واستسهلوا شتمي حتى ينتشر ذلك في الآفاق ، فلا يمتد إليَّ أمل آمل ، ولا يبسط نحوي رجاء راج .

وقال له أصحابه يومًا : إنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك ، فلو جعلت لنا علامة تعرفت بها وقت استثقالك لمجالستنا ، فقال : علامة ذلك : أن أقول : يا غلام هات الغذاء .

وقال عمر بن ميمون : مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جارًا له ، فقلت: ما بالكما ؟ فقال أحدهما : إن صديقًا لي زارني فاشتهى رأسًا فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس .

قال رجل من البخلاء لأولاده : اشتروا لي لحمًا فاشتروه ، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة ، وعيون أولاده ترمقه . فقال : ما أعطي أحدًا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها . فقال ولده الأكبر : أمشمشها يا أبت وأمصها حتى لا أدع

(١) النوال : العطاء والمعروف . القتاد : نبات صلب له شوك كالإبر .وفي المثل : « من دونه خرط القتاد » .
(٢) المعاد : الآخرة .
(٣) عبد العزيز بن سلمة بن دينار المدني ، أبو تمام ، فقيه محدث .
(٤) محمد بن الجهم عالم بالمنطق والتنجيم ، من آثاره : كتاب في الاختيارات ، كان حيًا قبل ٢١٨ هـ .

للذر [1] فيها مقيلا . قال : لست بصحابها . فقال الأوسط : ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدري أحد لعام هي أم لعامين . قال : لست بصاحبها ، فقال الأصغر :يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفًا . قال : أنت صاحبها ، وهي لك زادك الله معرفة وحزمًا .

ووقف أعرابي على باب أبي الأسود وهو يتغدى ، فسلم فرد عليه ، ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه ، فقال له الأعرابي : أما إني قد مررت بأهلك ، قال : كذلك كان طريقك . قال : وامرأتك حبلى . قال : كذلك كان عهدي بها . قال : قد ولدت . قال : كان لابد لها أن تلد . قال : ولدت غلامين . قال : كذلك كانت أمها . قال : مات أحدهما . قال : ما كانت تقوى على إرضاع اثنين . قال : ثم مات الآخر . قال : ما كان ليبقى بعد موت أخيه .

وقال : ماتت الأم ، قال : حزنًا على ولديها .قال : ما أطيب طعامك . قال: لأجل ذلك أكلته وحدي ، ووالله لا ذقته يا أعرابي .

وقيل : خرج أعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة ، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيِّه ، فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جائعًا ، فسأله عن أهله ، وقال : ما حال ابني عمير ؟ قال : على ما تحب قد ملأ الأرض والحي رجالاً ونساءً . قال : وكلبنا إيقاع ؟ قال : قد ملأ الحي نبحًا ، قال : فما حال جملي زريق ؟ قال : على ما يسرك . قال : فالتفت إلى خادمه ، وقال : ارفع الطعام ، فرفعه ولم يشبع الأعرابي ، ثم أقبل عليه يسأله ، وقال : يا مبارك الناصية أعد علي ما ذكرت ، قال :سل عما بدا لك ، قال : فما حال كلبي إيقاع ؟ قال : مات . قال : وما الذي أماته ؟ قال :اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات . قال : أومات جملي زريق ؟ قال : نعم . وما الذي أماته ؟ قال : كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير . قال : أو ماتت أم عمير ؟ قال : نعم . قال : وما الذي أماتها ؟ قال : كثرة بكائها على عمير . قال أو مات عمير ؟ قال: نعم . قال : وما الذي أماته ؟ قال : سقطت عليه الدار . قال : أو سقطت الدار ؟ قال : نعم . فقام له بالعصا ضاربًا فولى من بين يديه هاربًا.

وحكى بعضهم قال : كنت في سفر فضللت عن الطريق فرأيت بيتًا في الفلاة فأتيته ، فإذا به أعرابية فلما رآتني قالت : من تكون ؟ قلت : ضيف . قالت : أهلاً ومرحبًا بالضيف انزل على الرُّحب والسعة ، قال : فنزلت فقدمت لي طعامًا فأكلت ، وماء فشربت ، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب هذا البيت ، فقال : مَن هذا ؟ فقالت : ضيف . فقال : لا أهلاً ولا

(١) الذَّرُّ : صغار النمل .

مرحبًا ما لنا وللضيف ، فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتًا في الفلاة فقصدته ، فإذا فيه أعرابية فلما رأتني قالت : من تكون ؟ قلت : ضيف ، قالت: لا أهلاً ولا مرحبًا بالضيف ما لنا وللضيف ؟ فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت فلما رآني قال : من هذا ؟ قالت : ضيف . قال : مرحبًا وأهلاً بالضيف . ثم أتى بطعام حسن فألت ، وماء فشربت ، فتذكرت ما مَرَّ بي بالأمس ، فتبسمت ، فقال : مم تبسمك ؟ فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلها ، وما سمعت منه ومن زوجته ، فقال : لاتعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي وإن بعلها أخو امرأتي هذه ، فغلب على كل طبع أهله .

وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة وأخبارهم ونوادرهم شهيرة ، وفيماذكرته كفاية.

وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والثلاثون

في الطعام وآدابه ، والضيافة

وآداب المضيف ، وأخبار الأكلة ، وماجاء عنهم ، وغير ذلك

أما إباحة الطيب من المطاعم : فقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ [المائدة : ٤] وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف : ٣٢]. وقال رسول الله ﷺ : « محرم الحلال كمحلل الحرام » (١) وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه » (٢) . و كان الحسن ـ رضي الله تعالى عنه ـ يقول : ليس في اتخاذ الطعام سرف . وسُئِلَ الفضيل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص (٣) للزهد ، فقال : ما للزهد وأكل الخبيص ؟ ليتك تأكل وتتقي الله إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام ، انظر كيف بِرُّكَ بوالديك ، وصلتك للرحم ؟ وكيف عطفك على الجار ؟ وكيف رحمتك للمسلمين ؟ وكيف كظمك للغيظ ؟ وكيف عفوك عمن ظلمك ؟ وكيف إحسانك إلى من أساء إليك ؟ وكيف صبرك واحتمالك للأذى ؟ أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص .

وأما نعوت الأطعمة وما جاء فيها : فقد نقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالوذج(٤) واللوزينج أيهما أطيب ؟ فقال : يا أمير المؤمنين لا أقضي على غائب . فأحضرهما إليه ، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ، ثم قال : يا أمير المؤمنين كلما أردت أن أقضي لأحدهما أتى الآخر بحجته .

واختلف الرشيد وأم جعفر في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب ، فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك فقال : يا أمير المؤمنين لا يقضي على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى، فقال له الرشيد : احكم . قال : قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين .

فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار ، فبلغ ذلك زبيدة فأمر له بألف دينار إلا ديناراً .

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) ضعيف : رواه ابن أبي الدنيا في « قرى الضيف » وفي سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف .

(٣) الخبيص : حلواء تتخذ من تمر وسمن يخلطان ويخبصان .

(٤) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل ،أوتصنع من النشا والماء والسكر .

وسمع الحسن البصري رجلاً يعيب الفالوذج فقال : لُباب البرّ بلُعاب النحل بخَالصِ السمن ما أظن عاقلاً يعيبه .

وقال الأصمعي : أول من صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان .وأتى أعرابي بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له : هل تعرف هذا ؟ فقال : هذا وحياتك الصراط المستقيم .

وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم . وعن أبي الدرداء ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم** »(١) وكان ﷺ يقول : «**هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة وهو يزيد في السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل**»(٢) وكان ﷺ يحب الدباء ويقول : « **يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثروا من الدباء فإنها تشد القلب الحزين وهي شجرة أخي يونس** » (٣) . وعنه ﷺ أنه قال : « **عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد الدماغ ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ويغزر الدمعة** » (٤) .

وعن أبي رافع قال : كان أبو هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ يقول : أكل التمر أمان من القولنج ، وشرب العسل على الريق من الفالج ، وأكل السفرجل يحسن الولد ، وأكل الرمان يصلح الكبد ، والزبيب يشد العصب ، ويذهب بالنصب والوصب والكرفس يقوي المعدة ويطيب النكهة ، وأطيب اللحم الكتف . وكان يديم أكل الهريسة ، وكان يأكل على سماط معاوية ، ويصلي خلف علي ، ويجلس وحده . فسئل عن ذلك فقال : طعام معاوية أدسم ، والصلاة خلف علي أفضل ، وهو أعلم ، والجلوس وحدي لي أسلم . وسميت المتوكلية ، والمأمونية بالمأمون .

وقال الحسن بن سهل يومًا على مائدة المأمون : الأرز يزيد في العمر ، فسأله المأمون عن ذلك ؛ فقال : يا أمير المؤمنين إن طب الهند صحيح ، وهم يقولون : إن الأرز يُرى منامات حسنة ، ومن رأى منامًا حسنًا كان في نهارين . فاستحسن قوله ووصله . وقال أبو صفوان : الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا .

وقيل لأبي الحرث : ما تقول في الفالوذجة ؟ قال : وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا (٥)

---

(١) موضوع : رواه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/ ٣٠٢) وفي سنده سليمان بن عطاء ، قال ابن حبان : يروى عن سلمة أشياء موضوعة فلا أدري التخليط منه أو من سلمة .

(٢ ، ٣) لم أقف عليه .

(٤) موضوع : رواه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٩٤ ، وفي سنده عبد الله بن أحمد بن عامر وأبوه وهما يرويان الموضوعات .

(٥) اعتلجا : اضطربا اقتتالا واصطراعا .

في صدري ، والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذجة لآمن ، ولكنه لقيه بعصا .

وكانت العرب لا تعرف الألوان ، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح ، وحتى كان زمان معاوية ـ رضي الله تعالى عنه ـ فاتخذ الألوان .

ويقال للمرقة المسخنة : بنت نارين ، وكان بعض المترفهين يقول : جنبوا مائدتي بنت نارين. وقالوا :كل طعام أعيد عليه بالتسخين مرتين فهو فاسد . وقيل : إذا لقي اللحم في العسل ، ثم أخرج بعد شعر طريًا فإنه لا يتغير . ويقال للسكباج(١) : سيد المرق ، وشيخ الأطعمة ، وزين الموائد . ويقال : إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة ، ويقال : ابن حبة . قال بعضهم:

في حبَّةِ القلبِ مِنّي زَرَعتُ حُبَّ ابنِ حَبَّه

وعن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ رفعه :« أكرموا الخبز » قالوا : وما كرامته يا رسول الله ؟ قال : « لا ينتظر به الأدام ، إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره »(٢) . وفي الحديث : « من داوم على اللحم أربعين يومًا قسا قلبه ، ومن تركه أربعين يومًا ساء خلقه »(٣) ، وقيل : المائدة التي أنزلت على بني إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث ، وسمكة عند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان .

ودخل ابن قزعة يومًا على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه ، فقال : ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز بأكل الموز ؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه . فقال : ما الذي أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حُشيت زبدًا وعسلاً ، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم ، سهل المقشر. لين المكسر . عذب المطعم بين الطعوم . سلس في الحلقوم . ثم مد يده وأكل .وسمع رجلاً يذم الزبد . فقال له : ما الذي ذممت منه : سواد لونه أم بشاعة طعمه، أم صعوبة مدخلة ، أم خشونة ملمسه ؟ وقيل له : ما تقول في الباذنجان؟ ، فقال : أذناب المحاجم، وبطون العقارب ، وبذور الزقوم . قيل له : إنه يحشي باللحم فيكون طيبًا ، فقال :لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح .

وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ، ثم قال لزادان : هل عمل كسرى مثلها ؟ فاستعفاه، فأقسم عليه ؛ فقال : أولم عبدٌ عند كسرى ، فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة ، في يد كل

(١) السكباج : طعام يعمل من اللحم والخل مع توابع .
(٢) انظر الموضوعات لابن الجوزي (٢/ ٢٩٠) .
(٣) لم أقف عليه وعلامات الوضع لائحة عليه .

واحد إبريق من ذهب . فقال الحجاج : أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفًا.

وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة وكتب إليه : إني اخترت لعملها السكر السوسي ، والعسل المارداني ، والزعفراني الأصبهاني ، فأجابه والله العظيم ما عملت إلا قبل أن توجد أصبهان ، وقيل أن تفتح السوس ، وقبل أن يوحي ربك إلى النحل .

وقيل :إن أبا جهم بن عطية كان عينًا [1] لأبي مسلم الخولاني على المنصور ، فأحس المنصور بذلك، فطاوله الحديث يومًا حتى عطش ،فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم ، فناوله إياه ،فشرب منه فما بلغ داره حتى مات ، فقيل في ذلك :

تَجَنَّب سَويقَ اللوزِ لا تقربنَّه   فشربُ سويقِ اللوز أرْدَى أبَا جَهّمِ [2]

وقال أبو طالب المأموني :

فَمَا حملَتْ كفُّ امرئ متطعمًا   ألذَّ وأشهى من أصابع زَيْنبَ [3]

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يعمل ببغداد ، يشبه أصابع النساء المنقوشة ، ودخل السائب علَى عليٍّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ في يوم شاتٍ ، فناوله قدحًا فيه عسل وسمن ولبن ، فأباه فقال : أما إنك لو شربته لم تزل دفئًا شبعان سائر يومك .وعن نافع بن أبي نعيم قال : كان أبو طالب يعطي عليًا قدحًا من اللبن يصبه على اللات ، فكان علي يشرب اللبن ، ويبول على اللات .

وأما الزهد في المآكل :فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه ، ومنهم من لا يقدر عليه . قالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ : والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ماكان لنا منخل، ولا أكل رسول الله ﷺ خبزًا منخولاً منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض ، قيل : فكيف كنتم تأكلون الشعير ؟ قالت : كنا نقول : أف أف . وعن جابر ـ رضي الله تعالى عنه ـ رفعه : **«نعم الأدم الخل ، وكفي بالمرئ سرفًا أن يتسخط ما قرب إليه »** وقال عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ : ما اجتمع عند رسول الله ﷺ أدمان إلا أكل أحدهما ، وتصدق بالآخر . وقالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها : ما كان يجتمع لونان في لقمة في فم رسول الله ﷺ ، إن كان لحمًا لم يكن خبزًا وإن كان خبزًا لم يكن لحمًا ، وعن النبي ﷺ أنه قال :« **ياعلي ابدأ بالملح واختم به فإن فيه شفاء**

---

(١)عينًا : جاسوسًا مجاز مرسل علاقته الجزئية .
(٢)أردى : أهلك وقتل .
(٣)متطعما : الطعام : تتذوقه وتستطيبه فتأكله .

من سبعين داء »(١) . ورُوي أن نبيًا من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ شكا إلى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما .

وسنذكر فضل الزهد في المآكل والمشارب في باب مدح الفقراء إن شاء الله تعالى .

وأما ما جاء في آداب الأكل : فقد قال رسول الله ﷺ : « **من قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب** »(٢) وكان ﷺ إذا وُضع بين يديه الطعام قال : « **بسم الله اللَّهم بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه** » ، وقال ﷺ : «**من أكل طعامًا فقال : الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له من ذنبه ، ومن لبس ثوبًا فقال : الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه** »(٣) . وقالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ : قال رسول الله ﷺ : «**إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى ، فإن نسي في أوله فليقل بسم الله أوله وآخره**»(٤) . وفي حديث ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ، قال رسول الله ﷺ : « **إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب** »(٥) ، وقال ﷺ : « **الأكل في السوق دناءة** »(٦) وعن أنس ـ رضي الله تعالى عنه : أن النبي ﷺ زجر عن الشرب قائمًا قال : فسألناه عن الأكل قائمًا ، فقال : « **هو شر من الشرب** » . وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال : إذا أكلت فضم شفتيك ، ولا تلتفتن يمينًا ولا شمالاً ، ولا تلقمن بسكين ، ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة ، ولا تبصق في الأماكن النظيفة .

ومن هذا ما رواه الزهري أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب ، وقال علي ـ رضي الله تعالى عنه : نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حارًا. وفي الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ : قال : ما عاب النبي ﷺ طعامًا قط إن اشتهاه أكل وإلا تركه.

---

(١) موضوع : رواه ابن الجوزي في الموضوعات » (٢/ ٢٨٩) وقال : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ والمتهم به عبد الله بن أحمد بن عامر وأبوه فإنهما يرويان نسخة عن أهل البيت كلها باطلة .

(٢) لمْ أقف عليه .

(٣) ضعيف . رواه أحمد (٣/ ٤٣٩) وأبو داود (٤٠٢٣) وابن ماجه (٥٨٢٣) والحاكم (١/ ٥٠٧ ، ٤/ ١٩٢) وقال : صحيح الإسناد ! وتعقبه الذهبي بقوله : أبو مرحوم ضعيف .

(٤) صحيح . رواه أبو داود في « الأطعمة » (٣٧٦٧) وابن ماجه في « الأطعمة » (٣٢٦٤) .

(٥) رواه مسلم في « الأطعمة » (٥١٦٧) .

(٦) ضعيف . رواه الطبراني في « الكبير » (٧٩٧٧) عن أبي أمامة الباهلي . وقال الهيثمي في « المجمع » (٤/ ٢٥) : فيه عمر بن موسى بن وجيه وهوضعيف ا.هـ قد ورد الحديث أيضًا عن أبي هريرة ولا يصح . انظر «الموضوعات » (٣/ ٣٦) .

وقال عمر بن هبيرة : عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة ،وتعين على المروءة ، قيل: وما إعانته على المروءة ؟ قال : أن لا تتوقى نفسك إلى طعام غيرك . وعن النبي ﷺ قال : «من أكل من سقط المائدة عاش في سعة ، وعوفي في ولده ، وولد ولده من الحمق »(١) . ،وعنه ﷺ: « من سقط شيئًا من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار »(٢) .

وكان الحرث بن كلدة يقول : إذا تغذى أحدكم فلينم على غذائه ، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة ، وقيل : خير الغذاء بواكره وخير العشاء سوافره . وعن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه .

وقال الحجاج لأعرابي يومًا على سماطه : ارفق بنفسك ، فقال : وأنت ياحجاج اغضض من بصرك . وقال معاوية لرجل على مائدته : خذ الشعرة من لقمتك ، فقال : وإنك تراعيني مراعاة من يرى الشعرة في لقمتي ، لا أكلت لك طعامًا أبدًا .ووضع معاوية أن بين يدي الحسن ابن علي ـ رضي الله تعالى عنهما ـ دجاجة ، ففكها ، فقال معاوية : هل بينك وبين أمها عداوة؟ فقال الحسن : فهل بينك وبين أمها قرابة ؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه، كما توقر مجالس الملوك ، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

وأحضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء فَقُدم جَديٌ مشوي ، فجعل الأعرابي يسرع في أكله منه ، فقال له الخليفة : أراك تأكله بَحردٍ(٣) كأن أمه نطحتك ، فقال : أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك .

وأما ما جاء في كثرة الأكل : فقد روي عن حذيفة ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن النبي ﷺ : **«من قل طعامه . صح بطنه ، وصفا قلبه ، ومن كثر طعامه ، سقم بطنه ، وقسا قلبه »**(٤) .وعن ﷺ: **« لا تُميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات »**(٥) . وقال ﷺ : **« ما زين الله رجلاً بزينة أفضل من عفاف بطنه »**(٦) ، وقال عمرو بن عبيد : ما رأيت الحسن ضاحكًا إلا مرة واحدة ، قال رجل من جلسائه : ما آذاني طعام قط. فقال له آخر: أنت لو كانت في معدتك الحجارة لطحنتها .وقال علي ـ كرم الله وجهه ـ : البطنة(٧) تذهب

(١، ٢) لم أقف عليه .
(٣) الحرد : الاعتزال والانفراد ، وفي القرآن الكريم ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾[القلم : ٢٥] .
(٤) لم أقف عليه .
(٥) أورده الغزالي في « الإحياء » (٣/ ٨١) وقال العراقي : لم أقف له على أصل.
(٦) لم أقف عليه .
(٧) البطنة : امتلاء المعدة بكثرة الاكل .

الفطنة .وقال ابن المقفع : كانت ملوك الأعاجم إذا رات الرجل نهمًا شرهًا (١) أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل ، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار .وتقول العرب : أقلل طعامًا تحمد منامًا ، وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا :

لسْتُ بِأكَّالٍ كأكلِ العبدِ وَلا بِنَوَّام كَنومِ الفهدِ

وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد :

إذا لَمْ أزُرْ إلاَّ لأكل أكلَةِ فلا رَفَعتُ كَفِّي إلى طعامي
فَمَا أكلةٌ إن نِلتُها بغَنيمةٍ ولا جوعةٌ إن جُعتـها بِغَرامِ

وقال عائشة ـ رضي الله تعالى عنها : أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلامًا فألقى بين يديه تمرًا فأكل فأكثر فقال ﷺ : « **إن كثرة الأكل شؤم** » .وقالوا : الوحدة خير من الجليس السوء، والجليس السوء من الأكيل السوء .

وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال ، فقال : اشكر ، فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية ، قال : أجل ، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد .

ودعت أبا الحرث حبيبة له ، فحادثته ساعة ، فجاع فطلب الأكل ، فقالت له : أما في وجهي مايشغلك عن الأكل ، قال : جعلت فداءك لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا.

وأما أخبار الأكلة : فقد قيل : إن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل، فقال : أكلت مائة رغيف بمكوك (٢) بلح .ومرَّ ميسرة المذكور يومًا بقوم وهو راكب حمارًا ، فدعوه للضيافة ، فذبحوا له حماره وطبخوه ، وقدموه له ، فأكله كله ، فلما أصبح طلب حماره ليركبه، فقيل له : هو في بطنك ، و قال المعتمر بن سليمان : قلت لهلال المازني : ما أكلة بلغتني عنك ، قال : جعت مرة ومعي بعير لي ، فنحرته وشويته وأكلته ،ولم أبق منه إلا شيئًا يسيرًا حملته على ظهري فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لي ، فلم أقدر أن أصل إليها ، فقالت : كيف تصل إليَّ وبيننا جمل ؟ فقلت له :كم تكفيك هذه الأكلة ، فقال : أربعة أيام .

وقال الأصمعي : إن سليمان بن عبد الملك كان شرهًا نهمًا ، وكان من شرهه أنه إذا أتي بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى أن يبرد ، ولا أن يؤتى بمنديل ، فيأخذ

(١) الشره: النهم الذي يحب الأكل ويكثر منه.
(٢) المكوك : مكيال قديم . وقيل : يسع صاعًا ونصف الصاع .

بكمه، فيأكلِ واحدة واحدة حتى يأتي عليها ، فقال الرشيد :ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس أني عرضت على جباب سليمان ، فرأيت فيها آثار الدهن ، فظننته طيبًا حتى حدثتني ، ثم أمر لي بجبة منها ، فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك .

وقال الشمردلِ وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف ، فدخل هو وعمر ابن عبد العزيز إليّ ، وقال : يا شمردل : ما عندك ما تطعمني ؟ قلت : عند جدي كأعظم ما يكون سمنًا ، قال : عَجِّلْ به فأتيته به كأنه عكة [(١)] سمن ، فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذًا . قال : هلم يا أبا جعفر ، فقال : إني صائم فأكله ، ثم قال : يا شمردل ويلك أما عندك شيء ؟ قلت : ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام ، فأتيته بهن فأتى عليهن ، ثم قال : يا شمردل أما عندك شيء؟ قلت : سويق كأنه قراضة الذهب ، فأتيته به ، فعبه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا غلام أفرغت من غدائنا ؟ قال : نعم . قال : ما هو ؟ قال : نيف وثلاثون قدرًا ، قال : ائتني بقدر قدر ، فأتاه بها ومعه الرقاق ، فأكل من كل قدر ثلثه ، ثم مسح يده ، واستلقى على فراشه ، وأذن للناس فدخلوا ، وصُفَّ الخوان ، فقعد وأكل مع الناس.

وكان هلال بن الأسعر [(٢)] يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ ، وكان غليظًا عتلاً [(٢)]. وقال أعرابي لرجل رآه سمينًا : أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك .

وقال المحمر الأعرابي :كانت لي بنت تجلس على المائدة فتبرز كفّا كأنها صلفة [(٣)]في ذراع كأنه جمارة [(٤)] ، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها ، فكبرت وزوجتها ، وصرت أجلس على المائدة مع ابن لي ، فيبرز كفًا كأنها كرنافة [(٥)]، فوالله لن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها .

وقال مسلم بن قتيبة : عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفًا مع كل رغيف سمكة . ويقال: فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام ، وعصا موسى في سرعة الالتهام .

وقيل :لأبي مرة : أي الطعام أحب إليك ؟ قال : لحم سمين وخبز سميد [(٦)]أضرب فيه ضرب ولي السوء في مال اليتيم وقال صدقة بن عبيد المازني : أولم لي أبي لما تزوجت ، فعمل عشر جفان [(٧)]ثريد من جزور ، فكان أول من جاءنا هلال المازني ، فقدمنا له جفنة مترعة [(٨)]، فأكلها، ثم أخرى ، فأكلها ، حتى أتى على الجميع ، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ ، فوضع طرفها في شدقه وفرغها في جوفه ، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام .

---

(١) عكة سمن : إناء صغير يوضع فيه السمن .
(١) هلال بن الأسعر بن خالد المازني . شاعر . اشتهر في العصر الأموي . توفى ١٣٠ هـ .
(٢) عتلا : غليظًا جافيًا . (٣) الصلفة : خوافي قلب النخلة .
(٤) الجمارة : شحم النخلة .
(٥) الكرنافة : أصول قضبان النخل التي تبقى في الجذع بعد قطع السعف من النخلة .
(٦) السميد : القمح المجروش. (٧) جفان : قصع وآنية للطعام .
(٨) مترعة : ممتلئة .

وكان عبيد الله بن زياد يأكل في كل يوم خمس أكلات ، فخرج يومًا يريد الكوفة ، فقال له رجل من بني شيبان : الغداء أصلح الله الأمير ، فنزل ، فذبح له عشرين طائرًا من الإوز ، فأكلها ، ثم قُدِّم الطعام ، فأكل ، ثم أتى بزنبيلين في أحدهما تين ، وفي الآخر بيض ، فجعل يأكل من هذا تينة ، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه ، ثم رجع وهو جائع.

وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف ، فذكر ذلك للمهدي ، فقال : دعوت يومًا بالفيل ، وأمرت ،فألقي إليه رغيف رغيف ، فأكل تسعة وتسعين ، وألقي إليه تمام المائة ، فلم يأكله.

وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهري أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول : إن معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع . ونزل رجل بصومعة راهب ، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة ، وذهب ليحضر إليه العدس ، فحمله وجاء ، فوجده قد أكل الخبز ، فذهب ، فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس ، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب : أين مقصدك ؟ قال : إلى الأردن . قال : لماذا ؟ قال : بلغني أن بها طبيبًا حاذقًا أسأله عما يصلح معدتي ، فإني قليل الشهوة للطعام ، فقال له الراهب : إن لي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قال : إذا ذهبت وأصلحت معدتك ، فلا تجعل رجوعك عليّ.

وأما المهازلة [١] **على الطعام** : فقد روي عن يحيى بن عبد الرحمن - رضي الله تعالى عنه - قال : قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كان عندي رسول الله ﷺ ،وسودة فصنعت حريرة[٢] ، فجئت به ، فقلت لسودة : كلي ، فقالت : لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلين أو لألطخن وجهك، فقالت : ما أنا بذائقته ، فأخذت من الصحفة شيئًا ، فلطخْتُ به وجهها ، ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها ، فتناولت من الصحفة شيئًا ، فلطخت به وجهي ، وجعل رسول الله ﷺ يضحك . واشترى غندر يومًا سمكًا وقال لأهله : أصلحوه ، ونام ، فأكل عياله السمك ولطخوا يده ، فلما انتبه قال : قدموا إليَّ السمك ، قالوا : قد أكلت . قال : لا ، قالوا : شُمَّ يدَك ، ففعل ، فقال : صدقتم ، ولكن ما شبعت . ودخل الحمدوني على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم ، فقال : لقد ذكرتموني ضيف إبراهيم ، وقول الله تعالى: ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة** ﴾ . ثم قال : كلوا رحمكم الله فضحكوا ، وأكلوا . والحكايات في ذلك كثيرة .

وأما الضيافة وإطعام الطعام : فقد قال الله تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ** ﴾ [الذاريات : ٢٤] وقال رسول الله ﷺ : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم**

---

(١) المهازلة : الهزل : ضد الجهل .

(٢) الحريرة : الدقيق يطبخ بلبن أو سمن .

ضيفه ولا يؤذ جاره » [١] وقال ﷺ : **« من أكل وذو عينين ينظر إليه ، ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له »** [٢] . وقال الحسن : كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع . وقيل لإبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ : بم اتخذك الله خليلا ؟ قال بثلاث : ما خيرت بين شيئين إلا اخترت الذي لله على غيره ، ولا اهتممت بما تكفل لي به ، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف . ويقولون : ما خلا مضيف الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف . وكان الزهري إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام . وقالوا : المائدة مرزوقة . أي من كان مضيافًا وسع الله عليه .

وقالوا : أول من سن القرى إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ، وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم ، وأول من أفطر جيرانه على طعامه في الإسلام عبد الله بن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ، وهو أول من وضع موائده على الطريق ، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء ، فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق. وقيل لبعض الكرماء : كيف اكتسبت مكارم الأخلاق ، والتأدب مع الأضياف ؟ فقال : كانت الأسفار تحوجني إلى أن أفد على الناس، فما استحسنته من أخلاقهم اتعبته ، وما استقبحته اجتنبته .

وأما آداب المضيف : فهو أن يخدم أضيافه ، ويظهر لهم الغنى ، وبسط الوجه ، فقد قيل: البشاشة في الوجه خير من القِرَى[٣] ، قالوا : فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك ؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوي ـ رحمه الله ـ هذا الكلام بأبيات ، فقال :

إذا المرءُ وافى مَنْزِلاً مِنْك قَاصِداً ... قِرَاكَ وأرمَتْه لَديْك المسالكُ[٤]
فكُنْ بَاسِمًا في وَجْهِهِ مُتهَلـــلاً ... وَقُل مَرْحَبًا أهلاً ويومٌ مُباركُ[٥]
وَقَدِّمْ له ما تَستطِيعُ مِنَ القِـرى ... عَجُولاً وَلا تَبْخَلْ بِمَّا هو هَالِكُ
فَقَدَ قِيلَ بَيْتٌ سالفٌ مُتـــقدِّمُ ... تَدَاوَلَه زيدٌ وعمروٌ ومــــالك
بشاشة وجهِ المرءِ خيرٌ مِنَ القِرَى ... فَكَيفَ بَمن يأتي به وهو ضاحك؟

---

(١) رواه البخاري في « الأدب » (٦٠١٨) ومسلم في « الإيمان » (١٧٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) لم أقف عليه.
(٣) القرى : قرى الضيف ضيافته وما يقدم له من الطعام .
(٤) المسالك : جمع مسلك : الطريق.
(٥) مَتَهلَّلا : متلألئًا : مستبشرا فرحا.

وقالت العرب : تمام الضيافة الطلاقة [١] عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المؤاكلة ، وقال حاتم الطائي :

سَلِي الطارق المُعتر يا أُمّ مَالك إِذَا مَا أتَانِيَ بَيْن ناري ومَجْزري [٢]

أَأبسطُ وَجْهي إِنَّه أوَّلُ القِرَى وأبذُلُ مَعْروفيَ لَهُ دَونَ مُنكَرى

وقال آخر في عبد الله بن جعفر :

إِنَّكَ يا ابنَ جَعْفرٍ خَيْرُ فتى وَخيرُهُم لِطَارق إذا أَتى [٣]

ولله درُّ القائل :

اللهُ يَعلمُ أنَّه مَا ســــرَّني شيء كَطَارقةِ الضُّيوف النّزَّل

مَا زِلتُ بالتَّرحيب حَتى خِلتَنِي ضَيفا لَهُ والضَّيفُ ربُّ المنزِل

أخذه من قول الشاعر :

يَا ضَيْفَنَا لَوْ زُرتَنَا لَوَجَدْتَنَا نَحنُ الضُّيوف وأنْتَ رَبُّ المُنزلِ

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان [٤] :

مَنْزلُنَا رَحْبٌ لِمَـنْ زَاره نَحْنُ سواءٌ فيـه والطَّـارق

وكلُّ مَا فِيه حَـــلالٌ لَهُ إلا الذي حَرّمَه الخـالـــق

وقال الأصمعي : سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال : أو ما سمعت قول عاصم بن وائل :

وإنّا لنقرِي الضيفَ قبْلَ نُزُوله ونُشْبعه بالبشْر مِنْ وَجْه ضَاحِكِ

وقال بعض الكرام :

أضَاحِكُ ضَيْفي قَبْلَ أنْ أُنزلَ رَحْلهُ وَيَخصبُ عِنْدي والمحلُّ جَديبُ

(١) الطلاقة : بشاشة الوجه.

(٢) المعتر : الرجل الغليظ ، الكثير اللحم .

(٣) الطارق : الآتي ليلاً .

(٤) علي بن عبد الله بن حمدان . أبو حسن . سيف الدولة الحمداني : أمير حلب . شاعر . فارسي . اجتمع ببابه من شيوخ الشعراء ما لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء . وأخباره مع الشعراء كثيرة . توفى سنة ٣٠٣ هـ .

وَمَا الخِصْبُ للأضيافِ أن تُكْثِرَ القِرَى ... ولَكنمَا وَجْهُ الكَرِيم خَصِيبُ

وقال آخر :

عَوَّدْتُ نَفْسِي إذا مَا الضَّيْفُ نَبَّهَنِي ... عَقَرتُ العِشَارَ عَلَى عُسْرَ وإيسَارِ[1]

ومن آداب الضيف : أن يتفقد دابة ضيفه ، ويكرمها قبل إكرام الضيف . قال الشاعر :

مَطِيَّة الضَّيْفِ عِنْدي تِلْوَ صَاحبها ... لَن يأمَنَ الضَّيفُ حَتى تُكرمَ الفَرسَا

وقال علي بن الحسين ـ رضي الله تعالى عنهما : من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بنفسه وأهله. أما سمعت قول الله عز وجل ؟ ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ [هود : ٧١] .

ومن آداب الضيف : أن يحدث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم ، ولا ينام قبلهم ، ولا يشكو الزمان بحضورهم، ويَبَشُّ عند قدومهم ، ويتألم عند وداعهم ، وأن لا يحدث بما يروعهم به .

كما حكى بعضهم قال : استدعاني إسحاق بن إبراهيم الظاهري إلى أكل هريسة في بكرة نهار فدخلت ، فأحضرت لنا الهريسة فأكلنا ، فإذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طباخه، فاستدعى خادمه ، فأسر إليه شيئًا لم نعلمه ، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة ، فكشف على الصينية ، فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج ، فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لا نعقل .

فيجب على المضيف أن يراعي خواطر أضيافه كيفما أمكن ، ولا يغضب على أحد بحضورهم ، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه ، ولا يعبس بوجهه ، ولا يظهر نكدًا ، ولا ينهر أحدًا ، ولا يشتمه بحضرتهم ، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن.

كما حكى عن بعض الكرام : أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه ، وعمل لهم سماطًا، وكان له ولد جميل الطلعة ، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ويأنسون به ، ففي آخر النهار صعد إلى السطح ، فسقط فمات لوقته ، فحلف أبوه علي أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكي إلى أن تصبح ، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده ، فقال : هو نائم ، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم : إن رأيتم أن نصلي علي ولدي ، فإنه بالأمس سقط من على السطح، فمات لساعته ، فقالوا له : لِمَ لا أخبرتنا حين سألناك ؟ فقال : ما ينبغي لعاقل أن ينغص على أضيافه في التذاذهم ، ولا يكذر عليهم في عيشهم ، فتعجبوا من صبره وتجلده ، ومكارم

---

(١) عقر العشار : ذبح النوق .

أخلاقه، ثم صلوا على الغلام ، وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا .

وعلى المضيف : أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه ، وتفقد غلمانهم بما يكفيهم ، ويسهل حجابه وقت الطعام ، ولا يمنع واردًا . وقيل لبعض الأمراء الكرام : لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير ، ويحترز عن العدو ، فقال : إن عدوا يأكل طعامنا ولا ينخدع ولا يمكنه الله منا ، الأليق بالكريم الرئيس : أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام ، فإن ذلك أول الشناعة عليه ، وعليه أن يسهر مع أضيافه ، ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات ، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الظرف إن كان من أهل ذلك ، وأن يرى أضيافه مكان الخلاء ، فقد قيل عن ملك الهند : إنه قال : إذا ضافك أحد فأره الكنيف[1] فإنّي ابتليت به مرة، فوضعته في قلنسوتي . وقالوا : لا بأس أن يدخل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة .

وقد قصد النبي ﷺ ، والشيخان منزل الهيثم بن التيهان ، وأبي أيوب الأنصاري [2] ، وكذلك كانت عادة السلف رضي الله تعالى عنهم . وكان لعون بن عبد الله المسعودي ثلاثمائة وستون صديقًا ، فكان يدور عليهم في السنة ، ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه ، فيأكل وهو غائب ، فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة ـ رضي الله تعالى عنها ـ فأكل طعامها وهي غائبة ،وكان الحسن ـ رضي الله تعالى عنه ـ يومًا عند بقال ، فجعل يأخذ من هذه الجونة[3] تينة، ومن هذه فستقة فيأكلها ، فقال له هشام : ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع؟ فقال له : يا لكع[4] اتل عليّ آية الأكل ، فتلا : ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور : ٦١] فقال الصديق : من استروحت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب .

وعلى المضيف الكريم : أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما في يده بل يحضر إليهم ما وجد . فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة ، وحشف التمر . ويقولون : ما ندري أيهما أعظم وزرًا الذي يحتقر ما قدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه . وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: « من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف » [5] .

---

(١) الكنيف : المرحاض .

(٢) خالد بن زيد توفى ٥٢ هـ .

(٣) الجونة : سلة صغيرة مغطاة بالجلد تكون عند العطارين .

(٤) اللكع : اللئيم .

(٥) لم أقف عليه .

حكي عن الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ أنه كان نازلاً عند الزعفراني (١) ببغداد ، فكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية ، فأخذها الشافعي منها يومًا ، وألحق فيها لونًا آخر ، فعرف الزعفراني ذلك ، فأعتق الجارية سرورًا بذلك ، وكانت سُنَّة السلف ـ رضي الله عنهم ـ أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي .

ومن السُّنة : أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار ، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته ، فقد قيل : ثلاثة تضني: سراج لا يضيء ، ورسول بطيء ومائدة ينتظر لها من يجيء ، ونزل الإمام الشافعي رضي الله عنه ـ بالإمام مالك ـ رضي الله عنه ، فصب بنفسه الماء على يديه ، وقال له : لا يَرُعك ما رأيت مني ، فخدمة الضيف على المُضيف فرض :

أعرضْ طَعَامَكَ وابْذله لِمَـنْ أكَـلا واحلِفْ عَلى مَنْ ابي واشكُر لِمَن فَعلا
وَلا تكن سابري العرض مُحتشـما مَنَ القليلِ فَلسـتَ الدَّهر محتـفلاً(٢)

ومن البخلاء : من يعزم على الضيف ، فيعتذر له ، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار ، كأنه تخلص من ورطة ، وقيل لبعض البخلاء : ما الفرج بعد الشدة ؟ قال : أن يعتذر الضيف بالصوم. ومن البخلاء : من يعجبه طعامه ويصف زباديه ، ويشتهي أن تبقى على حالها ، ومنهم: من يحضر طعامه فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس ، ويعتذر أن في أصحابه من يحضر بالغداة عنده .

وحكي عن بعض البخلاء : أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل ، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل ، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه ، فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز ، فقال له : ترى أن تأكل عسلا بلا خبز . قال : نعم ، وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة ، فقال له البخيل : مهلاً يا أخي والله إنه يحرق القلب ، قال : نعم صدقت ، ولكنه قلبك .

وحكى عن بعضهم : أنه قال : غلب عليّ الجوع مرةً، فقلت : أمضي إلى دار فلان لأتغدى عنده ، فجئت إلى باب بيته، فوجدت غلامه، فقلت له: أين سيدك؟ فقال: والله لا قلت لك عليه إلا أن أعطيتني كسرة ، قال : فرجعت هاربًا . ومن البخل تقديم الشيء اليسير وتفخيمه .

(١) الزعفراني : الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني البغدادي ، محدث فقيه صاحب الشافعي ببغداد وله عدة مصنفات توفى ٢٦٠ هـ .

(٢) السابري : ثوب رقيق جيد ،منه عرض سابري ، لأنه يرغب فيه بأدنى عرض .

وحكى عن بعض البخلاء : أنه حلف يومًا على صديقه ، وأحضر له خبزًا وجبنًا ، وقال له: لا تستقل الجبن ، فإن الرطل منه بثلاثة دراهم ، فقال له ضيفة : أنا أجعله بدرهم ونصف ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن ، فأين هؤلاء من الذي يقول :

قَالَتْ : أما تَرحلُ تَبْغي الغِنَى قُلتُ : فَمَن للطارق المُعْتَمِ[١]
قَالتْ : فَهَل عندكَ شيءٌ له؟ قُلتُ نعمْ جَهدُ الفَتى المُعْدمِ
فكَمْ وحَق اللهِ مِـــنَ لَيْلة قَدْ أُطْعَمْ الضيف ولمْ أطعـــمِ
إنّ الغِنى بالنَّفسِ يَا هـــذه لَيْس الغنَى بالمَـــال والدّرْهَمِ

وقال بعض البخلاء :

سَرَى نَحْوَنَا يَبْغِي القِرَى طاوِيَ الحَشَى لَقَدْ عَملتْ فيه الظنونُ الكَوَاذِبُ[٢]
فَبَاتَ لَهُ منّا إلى الـصُبْحِ شــاتِمٌ بُعدّدُ تطفيلَ الضُّيوف وضَارِبُ[٣]

فشتان ما بين القائلين :

وأما آداب الضيف : فهو أن يبادر إلى موافقة المضيف في أمور منها : أكل الطعام ، ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن .

فقد حكى : أنه ورد على بعض الأعراب ضيف ، فدخل به إلى بيته ، وقدم له الطعام ، فقال الضيف : لست بجائع ، وإنما أحتاج إلى مكان أبيت فيه ، فقال الأعرابي : إذا كان هذا ، فكن ضيف غيري ، فإني لا أرى أن تمدحني في البلاد ، وتهجوني فيما بيني وبينك.

وحكى عن بعض التجار : قال : استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لأعرض عليه قماشًا من تجارتي ، فبينما أنا بين يديه ، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت ، فقمت من مجلسه ، فقال : يا فلان . ما هذا الخلق العامي ؟ اجلس ، فجلست وتحققت كرمه ، وجعلت آكل الكمثراة في لقمة ، والتفاحة في لقمة ، ثم قدم الطعام وكنت جائعًا ، فأكلت جيدًا ثم انصرفت ، فلم أشعر في اليوم الثاني إلا وقد جاءني غلامه ببغلته ، فاستدعاني إليه ، فقال : يا فلان إني قليل الأكل بطيء الهضم ، ولقد طابت لي مؤاكلتك بالأمس ، فأريد أن لا تنقطع بعدها عني ، فكنت متى انقطعت حضر غلامه في طلبي ، فحصل له بقربي منه مال كثير وجاه

---

(١) المعتم : الضيف النازل في عتمة ـ ظلمة ـ الليل.
(٢) سرى : اتجه وسار ليلاً ، وطاوي الحشا : أي جائعًا .
(٣) التطفيل : مِنَ التَّطفُّل ، أي : يدخل الولائم والأعراس دو أن يدعى لها .

عريض .

ومن آداب الضيف أيضًا : أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة ، وموضع قضاء الحاجة ، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم ، وأن لا يخالفه إذا أجلسه في مكان وأكرمه به ، وأن لا يمتنع من غسل يديه . وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها.

فقد نقل في بعض المجاميع : أن بعض الكرماء كان عربيدًا [1] على أضيافه سيئ الخلق بهم، فبلغ ذلك بعض الأذكياء ، فقال : الذي يظهر لي من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق ، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف ، ولابد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره ، قال : فقصدته وسلمت عليه ، فقال : هل لك أن تكون ضيفي ؟ قلت : نعم ، فسار بين يدي إلى أن جاء إلى باب داره ، فأذن لي ، فدخلت ، فأجلسني في صدر مجلسه ، فجلست حيث أجلسني، وأعطاني مسندًا ، فاستندت إليه ، فأخرج لي شطرنجًا ، وقال : أتتقن شيئًا ؟ قلت : نعم . فلعبت معه ، فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه ، وأنا آكل ، فلما فرغنا قدم طستًا وإبريقًا ، وأراد أن يسكب الماء على يدي ، فلم أمنعه من ذلك ، وأراد الخروج من بين يدي بعد أن قدم نعلي ، فلم أرده عن ذلك ، فلما أراد الرجوع . قلت : يا سيدي أنشدك الله إلا فرجت عني كربة ؟ قال : وما هي ؟ فأخبرته الخبر ، فقال : والله ما يحوجني لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى داري، فأجلسه في الصدر، فيأبى ذلك، ثم أقدم إليه الطعام، فلا أتحفه بشيء مستظرف إلا رده عليّ ، ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل ، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل ، ثم أريد أن أشيعه ، فلا يمكنني من ذلك ، فأقول في نفسي لا يحكم الإنسان على نفسه حتى في بيته ، فعند ذلك أشتمه وألعنه وأضربه ، وفي معنى ذلك يقول بعضهم :

لا يَنْبَغِي للضـيـف أنْ يَعْتَرِضْ إنْ كَانَ ذا حَزْم وطَبْعٍ لطـيـفِ
فالأمر للإنســـــان في بيتْه إن شاءَ أنْ يُنْصِفَ أوْ أنْ يَحيفَ

ومما يعاتب على الضيف أمور منها : كثرة الأكل المفرط ، إلا أن يكون بدويا ، فإنها عادته . ومنها : أن يتتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيها الزبادي والأمراق والحلوى وغير ذلك ، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكي وقت الانصراف من الطعام ليعطي على اسم ولده الصغير، ومنها : قبح المؤاكلة ، وقد عد فيها عيوب كثيرة: فمنها:

---

(١) عربيدًا : سيئ الخلق .

(٢) يحيف : ينقص ويظلم .

المتشاوف ، والعداد ، والجراف ، والرشاف ، والنفاض ، والقراض ، والبهات ، واللتات، والعوام ، والقسام ، والمخلل ، والمزبد ، والمرنخ ، والمرشش ، والمفتش ، والمنشف ، والملبب ، والصباغ ، والنفاخ ، والحامي ، والمجنح ، والشطرنجي ، والمهندس ، والمتمني ، والفضولي .

فأما المتشاوف : فهو الذي يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام ، فلا تراه إلا متطلعًا لناحية الباب يظن أن ما دخل هو الطعام . **وأما العداد** : فهو الذي يستغرق في عد الزبادي ويعد على أصابعه ، ويشير إليها ، وينسى نفسه . **والجراف** : هو الذي يجعل اللقم في جانب الزبدية ، ويجرف بها إلى الجانب الأخر . **والرشاف** : هو الذي يجعل اللقمة في فيه ويرتشفها ، فيسمع لها حين البلغ حسن لا يخفى على جلسائه ، وهو يلتذ بذلك . **والنفاض** : هو الذي يجعل اللقمة في فيه ، وينفض أصابعه فى الزبدية . والقراض : هو الذى يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذ بها ويضعها فى الطعام بعد ذلك ، والبهات : هو الذى يبهت فى وجوه الآكلين حتى يبهتهم ، ويأخذ اللحم من بين أيديهم ، واللتات: هو الذى يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها في الطعام . والعوام : هو الذي يميل ذراعيه يمنةً ويسرة لأخذ الزبادي . **والقسام** : هو الذي يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها في الطعام من فيه. **والمخلل** : هو الذي يخلل أسنانه بأظفاره ، **والمزبد** : هو الذي يحمل معه الطعام . **والمرنخ** : هو الذي يرنخ اللقمة في الأمراق ، فلا يبلع الأولى حتى تلين الثانية . **والمرشش** : هو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه . **والمفتش** : هو الذي يفتش على اللحم بأصابعه. **والمنشف** : هو الذي ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها . **والملبب** : هو الذي يملأ الطعام لبابًا. **والصباغ** : هو الذي ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده . **والنفاخ** : هو الذي ينفخ في الطعام . **والحامي** : هو الذي يجعل اللحم بين يديه فيحميه من مؤاكليه . **والمجنح** : هو الذي يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له في المجلس ، فلا يشق عليه الأكل . **والشطرنجي** : هو الذي يرفع زبدية ويضع زبدية أخرى مكانها . **والمهندس** : هو الذي يقول لمن يضع الزبادي: ضع هذه هنا وهذه ههنا ، حتى يأتي قدامه ما يجب . **والمتمني** : هو الذي يقول : ليتني لم يكن معي من يأكل . **والفضولي** : هو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام : إن كان قد بقى عندك في القدور شيء ، فاطعم الناس ، فإن فيهم من لم يأكل .

ومن الأضياف : من لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه ، فيبقى الغلام واقفًا والإبريق في يده ، والناس ينتظرونه . ومنهم : من يغسل يديه بالأشنان مرة واحدة ، فإذا اجتمع الوسخ والزفر تسوك بهما. ومنهم: من يدخل الدار فيبتديء بالهندسة أولا، فيقول: كان ينبغي أن يكون

باب المجلس من ههنا ، والإيوان كان ينبغي أن يكون من ههنا ، وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس ، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر ، وإن كان قد استحكم جوعه استعفى من الطعام، وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم : من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة ، فيتألم عن انقطاعهم ،ويستوحش من غيبتهم، ويسلطهم على عرض صاحبهم.

ولقد حكي عن مغن غير مجيد : أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة ، وما ذاك إلا أنه إذا سئل أين كنت ؟. قال : كنت عند الناس ، وإذا قيل له : أين أكلت ؟ قال : أكلت في بطني ،وإذا قيل له : أين شربت ؟ قال : شربت في فمي . ومنهم : من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه : اشتر كذا ، فيقول : والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئًا فأذوقه ، فيعجز صابح المنزل ويخجله إذا لم يكن في بيته شيء موجود ، وليت شعري إذا كان لا يأكل فلأي شيء حضر . ومنهم : من يرى صاحب البيت قد أسرّ إلى صديقه شيئًا ، فيقول: ما الذي قال المولى لصاحبنا ، وهو لا يريد أن يعلمه . ومنهم : من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط مكارم أخلاق ، وإنما ذلك يكون في بيته لا في بيوت الناس. ومنهم : من يقول لصاحب الدعوة : من يغني لنا ؟، فيقول : فلان ، فيقول له : غلطت ؟ لم لا دعوت فلانًا ، ومنهم : من يسأل صاحب البيت ، كيف قوته في النكاح ، فيقول له : أنا رجل كَبير قد ضعفت قوتي وشهوتي ، أو يقول : ما لي قوة طائلة في ذلك ، فيقول : أنا والله كلما مرَّ عليَّ عام تزايدت شهوتي وكثر لهذا الفن تشوفي[1] ، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت . ومنهم : من يشكو حاله مع أهل بيته ويذكر نفقته عليهن وكسوته لهن ، وكثرة إنعامه وإحسانه إليهن ، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق وكبر النفس ، لتستقل زوجة صاحب البيت ما هي فيه مع زوجها ، وربما كان ذلك سببًا لفراقها منه . ومنهم : من تعجبه نفسه ويستحسن لباسه ، ويستطيب رائحته ، وإذا سمع الغناء تواجد ، وأظهر الطرب ، وحرك رأسه . ويقوم قائمًا يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات ، ويظن في نفسه أنه يعشق، وأن رسول صاحبة البيت لا يبطئ عنه ، ومنهم : من يقال له : العب الشطرنج ، فيأباه ويشتغل بالدندنة[2] ، فيقع في الفضول . ومنهم : مَنْ يتأمر على غلمان صاحب البيت ،ويهين أولاده ، ويظن أنه يدل عليهم ومنهم : من يقول له صاحب البيت : كل ، فيقول : ما آكل إلا أنا ورفيقي. ومنهم : من يسمع السائل على الباب ، فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير

(١) التشوف : التزين والتحبب .
(٢) الدندنة : الطنين والصوّت والنغم ولم يفهم منه كلام .

إذنه، أو يقول للسائل : فتح الله عليك ، ومنهم : من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ، ويقلده بذلك المنن ، وأكثر الناس واقع في ذلك .

نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه إنه جواد كريم رؤوف رحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّي الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السادس والثلاثون

في العفو ، والحلم ، والصفح ، وكظم الغيظ ، والاعتذار ، وقبول المعذرة ، والعتاب ، وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجل نبيَّه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر : ٨٥] . قيل : هو الرضا بلا عتب . وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] . وقال تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] . ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **رأيت قصوراً مشرفة على الجنة ، فقلت : يا جبريل لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** » . وقال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه : لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال : « **ما زال جبريل ـ عليه السلام ـ يوصيني بالعفو ، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود** »[(١)] .

وقال الحسن بن أبي الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد ، منْ كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون عن الناس ، وتلا قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال علي ـ كرَّم الله وجهه ـ: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . وكان المأمون ـ رحمه الله ـ تعالى يحب العفو ويؤثره ، ويقول : لقد حُبِّبَ إليَّ العفو حتى أني أخاف أن لا أثاب عليه ، وكان يقول : لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو لارتكبوها ، وقال : لو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إلي إلا بالجنايات .

وقال علي ـ كرم الله وجهه ـ : إذا قدرت على عدوك ، فاجعل العفو عنه شكرًا للقدرة عليه، وقال ـ رضي الله تعالي عنه : أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم ، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه ، وقال ـ رضي الله عنه ـ: إن أوَّلَ عوض الحليم عن حلمه، إن الناس أنصار له على الجاهل .

وقال المنتصر : لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ، ولذة التشفي [(٢)] يلحقها ذم الندم . وقال ابن المعتز : لا تُشِنْ [(٣)] وجه العفو بالتقريع [(٤)] به . وقيل : ما عفا عن الذنب مَنْ قرَّع به . وقال

---

(١) لم أقف عليه .
(٢) التشفّي : الانتقام الذى يبلغ ما لم يذهب به غيظه منه .
(٣) تشِن الشّينُ : العيب والقبح .
(٤) تقريع . قرّع : اللوم والعتاب.

رجل لرجل سبَّه : إياك أعني ، فقال له : وعنك أعرض . وكان الأحنف ـ رحمه الله تعالى ـ كثير العفو والحلم ، وكان يقول : ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث : إن كان فوقي عرفت له فضله ، وإن كان مثلي تفضلت عليه ، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه ، وكان مشهورًا بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته ، وكان يقول : وجدت الاحتمال أنصر لي من الرجال . وقيل له : ممن تعلمت الحلم ؟ فقال : من قيس بن عاصم . كنا نختلف إليه في الحلم كما يختلف إلى الفقهاء في الفقه ، ولقد حضرت عنده يومًا، وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاءوا به مكتوفًا ، فقال : ذعرتم أخي أطلقوه ، واحملوا إلى أم ولدي ديته ، فإنها ليست من قومنا ، ثم أنشأ يقول :

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَصْبِيرًا وتَعْزِيَةً ... إحدى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ ترِدِ

كِلاَهُمَا خَلَفٌ مِنْ فقدِ صَاحِبِه ... هَذا أخي حِينَ أَدْعُوه وَذَا وَلَدي (١)

وقيل : مِنْ عادة الكريم إذا قدر غفر ، وإذا رأى زلة ستر . وقالوا : ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام . وقيل : من انتقم فقد شفى غيظه ، وأخذ حقه ، فلم يجب شكره ، ولم يحمد في العالمين ذكره ، والعرب تقول : لا سؤدد مع الانتقام ، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته ، وإن كان ولابد من الانتقام ، فليرفق في انتقامه إلا أن يكون حدًا من حدود الله تعالي .

وقال المنصور لجانٍ عجز عن العذر : ما هذا الوجوم ، وعهدي بك خطيبًا لسنًا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مباهاة ، ولكنه موقف توبة ، والتوبة بالاستكانة والخضوع ، فرق له وعفا عنه . وسعي إلى المنصور برجل من ولد الأشتر النخعي ، ذكر له عنه أنه يميل إلى بني علي والتعصب لهم ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه قال : يا أمير المؤمنين ذنبي أعظم من نقمتك، وعفوك أعظم من ذنبي ، ثم قال :

فَهَبْني مُسيئًا كالذي قُلْتُ ظالمًا ... فعفوًا جميلاً كي يكونَ لك الفضلُ

فَإِنْ لم أكُنْ للعفو مِنْكَ لِسُوءِ ما ... أَتَيْتُ بِهِ أهلاً فأنْتَ لَه أهلُ

فعفا عنه ، وأمر له بصلة ، وأُحْضِر إلى المأمون رجلٌ قد أذنب ذنبًا ، فقال له : أنت الذي فعلت كذا وكذا ؟ قال : نعم يا أمير أنا ذاك الذي أسرف على نفسه ، واتكل على عفوك ، فعفا عنه وخلى سبيله . وأُحْضِر إلى الهادي رجلٌ من أصحاب عبد الله بن مالك ، فوبخه على ذنب، فقال : يا أمير المؤمنين إن إقراري يلزمني ذنبًا لم أفعله ، ويلحق بي جرمًا لم أقف عليه، وإنكاري رَدٌّ عليك ، ومعارضة لك ، ولكني أقول :

(١) الخَلَفُ : العوض .

فَإِنْ كُنْتَ تَبْغي بالعقابِ تَشفيًا فَلاَ تَزهَدَنْ عندَ التجاوزِ في الأجرِ

فقال : لله دَرَكُ مِنْ معتذر بحق أو باطل ، ما أمضى لسانك ، وأثبت جنانك ،وعفا عنه وخلى سبيله . وركب يومًا عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ بغلة له شهباء ، ومَرَّ على قوم. فقال بعضهم : من يقوم لأمير ، فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف ؟ فقال واحد منهم : أنا ، فقام وأخذ بِعنَان بغلته ، وقال : أصلح الله الأمير ، أنت أكرم الناس خيلاً ، فَلِمَ ركبت دابة أشهابَّ وجهها ؟ فقال : إنى لا أَمَلُّ دابتي حتى تملني ، ولا أَمَلُّ رفيقي حتي يملني . فقال : أصلح الله الأمير ، أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه ، فمن الأم ؟ قال : على الخبيرِ سَقَطْتَ: أمى النابغة بنت حرملة بن عزة سَبَتْها رماحُ العرب ، فَأُتِيَ بها سوق عكاظ ، فبِيعَتْ، فاشتراها عبد الله بن جدعان ، ووهبها للعاص بن وائل ، فولدت ، وأنجبت ، فإن كان قد جُعِلَ لك جَعْلٌ(١)، فارجع وخذه ، وأَرْسِلَ عِنان الدابة . وقيل : إن أمه كانت بغيًا عند عبد الله بن جدعان ، فوطئها في طُهْرٍ واحد أبو لَهب ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، والعاص ابن وائل ، فولدت عمراً ، فادعاه كُلُّهم ، فحكمت فيه أمه ، فقالت : هو للعاص ، لأن العاص هو الذي كان ينفق عليها . وقالوا : كان أشبه بأبي سفيان .

وكان الواثق يتشبه بالمأمون في أخلاقه وحلمه ، وكان يقال له : المأمون الصغير . نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : لست به ، فقالت : السلام عليك أيها الأمير ، فقال لها : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، فقالت : ليسعنا عدلكم ، فقال : إذًا لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد لأنكم حاربتم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وكرم وجهه ، ومنعتم حقه ، وسممتم الحسن ـ رضي الله عنه ، ونقضتم شرطه ، وقتلتم الحسين ـ رضي الله عنه ـ ، وسبيتم أهله ، ولعنتم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على منابركم وضربتم علي بن عبد الله ظلمًا بسياطكم ، فعدلنا لا يُبقِي منكم أحدًا ، فقالت : فليسعنا عفوكم ، قال: أما هذا ، فنعم ، وأمر برد أموالها عليها ، وبالغ في الإحسان إليها .

وكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ يُعْرَفُ بالحلم ، وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة ، وكان يقول : إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي ، وذنب لا يسعه عفوي ، وحاجة لا يسعها جودي ، وهذه مروءة عالية المرتبة . وقال له رجل يومًا : ما أشبه إستك بإست أمك، فقال : ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها . وكتب معاوية إلى عقيل بن أبي طالب ـ رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما ، يقول : من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب . أما بعد ، يا بني عبد المطلب ، فأنتم والله فروع قُصَيّ ، ولُبَابُ عبد مناف، وصفوة هاشم، فأين

(١) الجُعْلُ : ما يجعل على العمل من أجر.

أخلاقكم الراسية ، وعقولكم الكاسية ؟ وقد ـ والله ـ أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ، ولن يعود لمثله إلى أن يُغَيَّبَ في الثرى ، فكتب إليه عقيل يقول :

صَدَقْتَ قُلْتَ حَقًّا غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنْ لاَ أَرَاكَ وَلاَ تَرَانِي
وَلَسْتُ أَقُولُ سُوءًا في صَدِيقي وَلَكِنِّي أَصُدُّ إِذَا جَفَانِي[1]

فركب إليه معاوية ـ رضي الله عنه ـ وناشده في الصفح عنه ، واستعطفه حتى رجع .

وحكي عنه ـ رضي الله عنه ـ أنه لما ولي الخلافة ، وانتظمت إليه الأمور، وامتلأت منه الصدور ، وأذعن لأمره الجمهور ، وساعده في مراده القدر المقدور ، استحضر ليلة خواص أصحابه ،وذاكرهم وقائع أيام صفين ، وَمَنْ كان يتولى كِبْرَ الكريهة من المعروفين ، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى مَنْ كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض، فقالوا : امرأة من أهل الكوفة تسمى : الزرقاء بنت عدي[2] كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف ، وترفع صوتها صارخة : يا أصحاب عَلِيٍّ تُسمِعهم كلامًا كالصوارم ، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل ، والمدبر لقابل ، والمسلم لحارب ، والفارُّ لكَرَّ ، والمتزلزل لاستقر .

فقال لهم معاوية ـ رضي الله عنه ـ : أيكم يحفظ كلامها ؟ فقالوا : كلنا نحفظه ، قال : فما تشيرون علي فيها ؟ قالوا : نشير بقتلها ، فإنها أهل لذلك .

فقال لهم معاوية ـ رضي الله عنه ـ : بئسما أشرتم ، وقبحًا لما قلتم . أيحسن أن يشتهر عني أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وَفَّتْ لصاحبها ، إني إذًا للئيم ، لا والله لا فعلت ذلك أبدًا . ثم دعا بكاتبه فكتب كتابًا إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها ، ومهد لها وطاء لينًا ومركبًا ذلولاً ، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها ، فقالت بعد قراءة الكتاب : ما أنا بزائغة عن الطاعة ، فحملها في هودج ، وجعل غشاءه خزًا مبطنًا ، ثم أحسن صحبتها ، فلما قدمت على معاوية . قال لها : مرحبًا وأهلاً خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك يا خالة؟ ، وكيف رأيت سيرك ؟ قالت : خير مسير ، فقال : هل تعلمين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى . قال : ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين ، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتحرضين على القتال ؟ قالت : نعم ، قال : فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبُتِرَ الذنب ، والدهر ذو غِيَر ، ومَنَ تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر . فقال : صدقت،

---

(١) أصد : أهجر . جفاني : نبا وبَعُدَ.

(٢) الزرقاء بنت عَدِيّ بن غالب بن قيس الهمدانية . خطيبة من ذوات الشجاعة . من أهل الكوفة . توفيت سنة نحو ٦٠ هـ .

فهَل تعرفين كلامك ، وتحفظين ما قلت؟ قالت : لا والله ، قال : لله أبوك ، فلقد سمعتك تقولين : أيها الناس إن المصباح لايضيء في الشمس ، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يُقطع الحديد إلا بالحديد ، ألا مَنِ استرشدنا أرشدناه ، ومَنْ سألناه أخبرناه أن الحق كان يطلب ضالة فأصابها ، فصبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار ، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات ، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله ، فإنه لا يستوي المحق والمبطل ، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة:١٨] ، فالنزال النزال ، والصبر الصبر ، ألا وأن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خير الأمور عاقبة ، ائتوا الحرب غير ناكصين ، فهذا يوم له ما بعده .

يا زرقاء . أليس هذا قولك وتحريضك ؟ قالت : لقد كان ذلك ، قال : لقد شاركت عليًا في كل دم سفكه ، فقالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك . مثلك من يُبَشَّر بخير ويَسُرُّ جليسه ، فقال معاوية : أوَ قد سرَّك ذلك ؟ قالت : نعم ، والله لقد سرني قولك وأني لي بتصديقه ؟ .

فقال لها معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلَيّ مِنْ حبكم له في حياته ، فاذكري حوائجك تقض . فقالت : يا أمير المؤمنين إني آليت على نفسي أن لا أسأل أحدًا بعد عَلِيٍّ حاجةً، فقال : قَد شَارَ عَلَيَّ بَعْضُ مَنْ عرفك بقتلك ، فقالت : لؤم من المشير، ولو أطعته لشاركته ، قال : كلا بل نعفو عنك ،ونحسن إليك، ونرعاك ، فقالت : يا أمير المؤمنين كرم منك ، ومثلك مَنْ قدر فعفا ، وتجاوز عمن أساء ،وأعطي من غير مسألة ، قال : فأعطاها كسوة ودراهم ، وأقطعها ضيعة تغل كل سنة عشرة آلاف درهم ، وأعادها إلى وطنها سالمة ، وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها .

وقيل : كان لعبد الله بن الزبير(١) رضي الله عنهما ـ أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية ، وفيها أيضًا عبيد يعملون فيها ، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله ابن الزبير ، فكتب عبد الله كتابًا إلى معاوية يقول له فيه : أما بعد ، يا معاوية، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي ، فَانْهَهُمْ عن ذلك ، وإلا كان لي ولك شأن ، والسلام . فلما وقف معاوية على كتابه ، وقرأه دفعه إلى ولده يزيد ، فلما قرأه قال له معاوية : يا بني ما ترى؟. قال : أرى أن تبعث إليه جيشًا يكون أوله عنده ، وآخره عندك يأتونك برأسه ، فقال: بل غير ذلك خير منه

---

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى ، أبو بكر . فارس قريش فى زمنه . وأول مولود فى المدينة بعد الهجرة . وبويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ عقب موت يزيد بن معاوية . فحكم مصر ، والحجاز ، واليمن ، وخراسان ، والعراق ، وأكثر الشام . وجعل قاعدة مُلْكِه المدينة . قتل بمكة سنة ٧٣ هـ ـ بعد مواجهة شرسة مع جيش الأمويين بقيادة الحجاج الثقفى .

يا بني ، ثم أخذ ورقة، وكتب فيها : جوَابُ كتابِ عبد الله بن الزبير، يقول فيه : أما بعد ، فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله ﷺ ، وساءني ما ساءه ، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه ، نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام .

فلما وقف عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ على كتاب معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، كتب إليه : قد وقفت على كل كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام.

فلما وقف معاوية على كتاب عبد اللّه بن الزبير ، وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه تهلل وجهه ، وأسفَرَ ، فقال له أبوه : يابني مَنْ عفا ساد ، وَمَنْ حَلُمَ عظم ، ومَنَ تجاوز استمال إليه القلوب ، فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء ، فداوه بمثل هذا الدواء .

ولما دخل الفيل من دمشق ، واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه ، فبينما هو كذلك إذ نظر في بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمه ، فأتى الحجرة ودق الباب ، فلم يكن من فتحه بُدٌّ ، فوقعت عينه على الرجل ، فقال له : يا هذا في قصري ، وتحت جناحي تهتك حرمتي ، وأنت في قبضتي ، ما حملك على هذا ؟ قال : فبهت الرجل، وقال : حلمك أوقعني ، فقال له معاوية : فإن عفوت عنك تسترها علي ، قال : نعم . فعفا عنه وخلى سبيله . وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجاني، وهو عروض قول الشاعر:

إِذَا مَرِضْتُم أَتَيْنَاكُمُ نَعودُكُم ... وَتُذْنِبُون فَنَأْتِيكُم ونَعْتَذِرُ

وحكي :عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال : ما رأيت رجلاً أربط جاشًا ، وأثبت جنانًا من رجل سُعِيَ به إلى المنصور ، أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية ، فأمرني بإحضاره إليه، فقال له المنصور : قد رفع إلينا خبر الودائع ، والأموال التي عندك لبني أمية ، فأخرج لنا منها ، وأحضرها ، ولا تكتم منها شيئًا ، فقال : يا أمير المؤمنين وأنت وارث بني أمية ؟ قال : لا . قال : فَوَصِيٌّ لهم في أموالهم ورباعهم ؟ قال : لا ، قال : فما مسألتك عما في يدي من ذلك؟ قال : فأطرق المنصور ، وتفكر ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقال : إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم ، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه ،فأجعله في بيت أموالهم. فقال : يا أمير المؤمنين ، فيحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه ، فإن بني أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين . قال : فأطرق المنصور ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقال : يا ربيع ، ما أرى الشيخ إلا قد صدق ، وما يجب عليه شيء ، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه ، ثم قال : هل لك حاجة ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أن تجمع بيني وبين مَنْ سعى بي إليك ، فوالله الذي لا إله إلا هو ما في يدي لبني أمية مال ولا وديعة ، ولكنني لما مثلت بين يديك ، وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن،

وبين ذلك القول الذي ذكرته أولاً ، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة . فقال : يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به ، فجمعت بينهما ، فلما رآه قال : هذا غلامي اختلس لي ثلاثة آلاف دينار من مالي ، وأبق (١) مني ، وخاف مِنْ طلبي له ، فسعي بي عند أمير المؤمنين . قال: فشدد المنصور على غلامه وخوفه ، فأقر بأنه غلامه ، وأنه أخذ المال الذي ذكره ، وسعى به كذبًا عليه وخوفًا من أن يقع في يده ، فقال له المنصور : سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه ، فقال: قد عفوت عنه ، وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها ، وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه. فقال له المنصور : ما على ما فعلت مِنْ مزيد ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي وعفوك عني ، ثم انصرف . قال الربيع : فكان المنصور يتعجب منه ، وكلما ذكره يقول : ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع .

وغضب الرشيد على حميد الطوسي (٢) ، فدعا له بالنطع والسيف ، فبكى ، فقال له : ما يبكيك؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لابد منه ، وإنما بكيت أسفًا على خروجي من الدنيا ، وأمير المؤمنين ساخط على ، فضحك وعفي عنه ، وقال : إن الكريم إذا خادعته انخذع .

وأمر زياد بضرب عنق رجل ، فقال : أيها الأمير إن لي بك حرمة ، قال : وما هي ؟ قال: إن أبي جارك بالبصرة ، قال : ومن أبوك ؟ قال : يا مولاي إنى نسيت اسم نفسي ، فكيف لا أنسى اسم أبي ؟ فرد زياد كمه على فمه ، وضحك وعفا عنه .

وأمر الحجاج بقتل رجل فقال : أسألك بالذي أنت غدًا بين يديه أذل موقفًا مني بين يديك إلا عفوت عني ، فعفا عنه . ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث أتى برجل من بني تميم، فقال : والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب ما أحسنت في العفو ، فقال الحجاج: أف لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا ؟ وعفا عنه وخلى سبيله . وكان إبراهيم ابن المهدي(٣) يقول : والله ما عفا عني المأمون تقربًا إلى الله تعالى ، ولا صلة الرحم ، ولكن له سُوقٌ في العفو يكره أن تكسد بقتلي .

وسئل الفضل عن الفتوة ، فقال : الصفح عن عثرات الإخوان . وفي بعض الكتب المنزلة: أن كثرة العفو زيادة في العمر . وأصله قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾

(١) أبق : العبد الآبق : الفار الهارب .

(٢) حميد بن عبد الحميد الطوسى . أحد أمراء الدولة العباسية . من كبار قواد المأمون . جواد . مدحه الشعراء ورثوا أبناءه . قتل مسموما سنة ٢١٠ هـ .

(٣) إبراهيم بن المهدي عم المأمون . أهل بيته نقموا عليه وبايعوا لإبراهيم بن المهدي توفى المهدي سنة ٢٢٤هـ. وسيأتي .

[الرعد : ١٧]. وقال يزيد بن مزيد (١) : أرسل إلى الرشيد ليلاً يدعوني، فأوجست منه خيفة، فقال لي : أنت القائل : أنا ركن الدولة والثائر لها ، والضارب أعناق بغاتها ؟ لا أم لك ، أي ركن ؟ ، وأي ثائر أنت ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ما قلت هذا ، إنما قلت : أنا عبد الدولة ، والثائر لها ، فأطرق وجعل ينحلُّ غضبه عن وجهه ، ثم ضحك، فقلت : أحسن من هذا قولي:

خِلاَفَةُ اللهِ في هَارونَ ثَابِتَةٌ وَفِي بَنِيهِ إلى أَنْ يُنْفَخَ الصُّور(٢)

فقال : يا فضل أعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح . وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل، فقال : ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك ، وأقول : أي رَبِّ سَلْ مصعبًا لِمَ قتلني ؟ فقال : أطلقوه ، فلما أطلقوه ، قال : أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتك في خفض عيش . قال : قد أمرت لك بمائة ألف درهم ، فقال :

أَنَا الْمُذنِبُ الخطاءُ والعَفْوُ واسعٌ وَلَوْ لَمْ يكنْ ذنبٌ لما عُرِفَ العفوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل ، فقال : والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال رجاء بن حيوة (٣) : يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت ، فاصنع ما أحب الله ، فعفا عنه وأمر له بصلة . وقال الحسن : إن أفضل رداء تَرَدَّى به الإنسان الحلم. وهو والله عليك أحسن مِنْ بُرْدِ الْحِبَرِ (٤) . وفيه قال أبو تمام(٥) :

رقِيقُ حَواشي الحلمِ لو أنَّ حِلْمَه بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتُ في أنَّه بُرْدُ

ويقال : الحليم سليم ، والسفيه كليم . وقال محمد بن عجلان : ما شيء أشدَّ على الشيطان من عالم معه حلم ، إن تكلم تكلم بعلم ، وإن سكت سكت بحلم ، يقول الشيطان : سكوته علي أشد من كلامه .

شعر :

إذا كُنْتَ تَبْغِي شِيمَةَ غيرَ شيمةٍ طُبِعْتَ عليها لم تُطعْكَ الضرائبُ

وعن علي بن الحسين ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا

(١) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني . أبو خالد . أمير من القادة الشجعان . توفى سنة ١٨٥ هـ .
(٢) الصُّورُ : كالقرن ينفخ فيه ليجتمع الناس ، وهو : صور يوم القيامة .
(٣) رجاء بن حيوة بن جرول الكندى ، أبو المقدام . شيخ أهل الشام فى عصره . توفى سنة ١١٢ هـ .
(٤) بُرْد الحَبِر ، والحِبَرُ . مفرد الحِبَرَةُ : ثوب من قطن أو كتان مخطط كان يصنع باليمن . وهو أيضا : ملاءة من حرير . كانت ترتديها النساء بمصر حين خروجهن .
(٥) سبق أن ترجم له .

غضب . وفي التوراة : اذكرني إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبت ، فلا أمحقك فيما أمحق ، وإذا ظُلِمْتَ فاصبر ، وارض بنصرتي ، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك .

وكان ابن عون [١] إذا غضب على إنسان قال له : بارك الله فيك ، وكانت له ناقة كريمة ، فضربها الغلام فأندر [٢] عينها . فقالوا : إنْ غَضِبَ ابنُ عونٍ ، فإنه يغضب اليوم ، فقال للغلام: غفر الله لك .

وقال رجل لرسول الله ﷺ : أي شيء أشد ؟ قال : « غضب الله » . قال : فما يباعدني من غضب الله؟ . قال : « أن لا تغضب » ويقال : من أطاع الغضب أضاع الأرب [٣] .

قالوا أبو العتاهية :

وَلَمْ أرَ في الأعداءِ حين اختَبَرْتُهم عَدُوًّا لِعَقْلِ المَرْءِ أعْدَى مِنَ الغضبِ

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب . وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : كفي بالمرئ إثمًا أن يقال له : اتق الله فيغضب، ويقول عليك نفسك . وكتب عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ إلى عامل من عماله : أن لا تعاقب عند غضبك ، وإذا غضبت على رجل ، فاحبسه ، فإذا سكن غضبك فأخرجه ، فعاقبه على قدر ذنبه ، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطًا . وقيل لابن المبارك [٤] ـ رحمه الله تعالى ـ : اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة . قال : تَرْكُ الغضبِ . وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ، ويشتد غضبه ، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة رجلاً. وقال للأول : إذا اشتد غضبي ، فقم إلى بهذه الصحيفة ونولنيها ، وقال للثاني : إذا سكن بعض غضبي فناولنيها ، وقال للثالث : إذا ذهب غضبي : فناولنيها . **وكان في الأولى** : « اقصر ، فما أنت وهذا الغضب ، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا» . **وفي الثانية** : « ارحم مَنْ في الأرض يرحمك من في السماء». **وفي الثالثة** : « احمل عباد الله على كتاب الله ، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك ».

روى أنه أنوشروان . وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت :

لَيْسَتِ الأحلامُ في حالِ الرِّضَا إنَّما الأحلامُ في حالِ الغضبِ

---

(١)عون بن عبد الله الهذلي ، خطيب . راوية ، ناسب ، شاعر ، توفى ١١٥ هـ .
(٢)أندر عينها : أخرجها من مكانها .
(٣)الأرب : الغاية والحاجة .
(٤)سبق أن ترجم له .

وعن معاذ بن جبل ، عن أنس ـ رضي الله عنهما ـ، عن النبي ﷺ : « مَنْ كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخبره في أي الحُورِ شاء»(١) ، وروي : ملأه الله أمنًا وإيمانًا .

وقال ابن السماك (٢) : أذنب غلام لامرأة من قريش ، فأخذت السوط ، ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط ، وقالت : ما تَرَكَتِ التقوى أحدًا يشفي غيظه . وقال أبو ذر لغلامه : لِمَ أرسلت الشاة على علف الفرس ؟ قال : أردت أن أغيظك ، قال : لأجمعن مع الغيظ أجرًا أنت حر لوجه الله تعالى . واستأذن رهط من اليهود رسول الله ﷺ ، فأذن لهم ، فقالوا : السام عليك يا محمد ، فقال : وعليكم ؛ فقالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ : بل السام عليكم ، واللعنة ، فقال : يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله ، فقالت : ألم تسمع ما قالوا ؟ ، قال : قد قلت وعليكم . ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له : حمزة ، سرق ، وقامت عليه البينة ، فهم عبد الملك بقطع يده ، فكتب إليه حمزة من السجن يقول :

يَدِي يَا أميرَ المؤمنين أُعِيذُها ... بِعفْوِكَ أنْ تَلْقَى مَقامًا يَشِينُهَا
فَلاَ خيرَ في الدنيا وكانت خَبِيثَةً ... إذا ما شمالٌ فارَقَتْهَا يَمِينُها

قال : فأبى عبد الملك إلا قطعه ، فدخلت عليه أم حمزة ، وقالت : يا أمير المؤمنين بُنَيَّ وكاسبي ، وواحدي ، فقال لها عبد الملك : بئس الكاسب لك . هذا حد من حدود الله تعالى، فقالت : يا أمير المؤمنين اجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها ، فقال عبد الملك : ادفعوه إليها، وخلى سبيله . شعر :

إِذَا مَا طَاشَ حِلْمُكَ عَنْ عَدُوّ ... وَهَانَ عليك هِجرانُ الصديقِ
فَلستَ إذًا أخَا عَفْوٍ وصفحٍ ... وَلاَ لأخٍ على عهدٍ وثيقِ
إذا زلَّ الرفيقُ وأنتَ مِمَّنْ ... بلا رفقٍ بقيتَ بِلا رفيقِ
إذا أنتَ اتّخذتَ أخًا جَدِيدًا ... لما أنكرتَ من خلقٍ عتَيقِ
فما تَدْرِي لَعَلَّكَ مُسْتجيرٌ ... مِنَ الرمضاءِ فَرَّ إلى الحريقِ
فكَمْ مِنْ سالكٍ لطريقٍ أَمْنٍ ... أتَاه يُحاذِرُ في الطريقِ

وشتم رجل رجلاً فقال له : يا هذا لا تغرق في شتمنا ، ودع للصلح موضعًا ، فإني أبيت

---

(١) حسن : رواه أحمد (٣ / ٤٣٨) وأبو داود (٤٧٧٧) والترمذى (٢٤٩٣) وابن ماجة (٤١٨٦) والطبرانى فى « الصغير » (٢ / ١٢٣) .
(٢) سبق أن ترجم له .

مشاتمة الرجال صغيرًا ، فلن أجيئها كبيرًا ، وإنى لا أكافئ من عصى الله فيَّ بأكثر من أن أطيع الله فيه .

وحكي عن جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ أن غلامًا له وقف يصب الماء على يديه ، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست ، فطار الرشاش في وجهه ، فنظر جعفر إليه نظر مغضب ، فقال : يا مولاي ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] قل : قد كظمت غيظي ، قال : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] قال : قد عفوت عنك ، قال : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] قال : اذهب ، فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى . وقيل : لما قدم نصر بن منيع بين يدي الخليفة ، وكان قد أمر بضرب عنقه ، قال : يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها . قال : قل ، فأنشأ يقول :

زَعَمُوا بأنَّ الصقرَ صَادَفَ مَرَّةً ... عُصفُورَ بَرٍّ ساقه التقديرُ
فَتَكَلَّمَ العصفورُ تحت جَنَاحِه ... والصَّقْرُ مُنْقَضٌّ عليه يَطيرُ
إنّي لِمِثلِكَ لا أُتَمِّمُ لُقْمَةً ... ولَئِنْ شُويتُ فإنَّني لحقيرُ
فَتَهَاوَنَ الصقرُ الْمُدِلُّ بِصَيْدِه ... كَرَمًا وأَفْلَتَ ذَلك العصفورُ

قال فعفا عنه وخلى سبيله قال الشاعر :

أقرِر بِذَنْبِكَ ثم اطلبْ تجاوُزَهُم ... عنهُ فإن جحودَ الذنبِ ذنْبَانِ

وقال بعضهم :

يَسْتَوجِبُ العفوَ الفتى إذا اعترفَ ... وتابَ عمَّا قد جَنَاه واقترف
لِقَوْلِه: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ... إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[1]

وقال آخر :

إذا ذَكَرْتُ أَيادِيك التي سَلَفَتْ ... مَع قُبحِ فِعْلِي وَزَلاتي ومُجْتَرَمي
أَكَادُ أَقتلُ نفسي ثُمَّ يُدرِكُني ... عِلْمي بأنَّكَ مَجبُولٌ على الكرمِ

وروي أن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ رأى سكران ، فأراد أن يأخذه ليعزره ، فشتمه السكران، فرجع عنه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين لَمَّا شتمك تركته ، قال : إنما تركته لأنه أغضبني ، فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي ، فلا أحب أن أضرب مسلمًا لحمية نفسي . وغضب المنصور على رجل فأمر بضرب عنقه ، فأنشأ يقول :

---

(١) ضمن الشاعر البيت الثانى آية قرآنية اقتبسها من القرآن الكريم ، الآية ٣٨ من سورة الأنفال .

وَإِنَّا الكاتبونا وَإِنْ أَسَأْنَا فَهِبْنَا للكرامِ الكاتِبِينا

فعفا عنه ، وخلى سبيله ، وأكرمه . وقال الرشيد لأعرابي : بم بلغ فيكم هشام بن عروة[(١)] هذه المنزلة ؟ قال : : بحلمه عن سفيهنا ، وعفوه عن مسيئنا ، وحمله عن ضعيفنا . لا مَنَّانٌ إذا وهب ، ولا حقود إذا غضب ، رحب الجنان سمح البنان ، ماضي اللسان ، قال : فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه ، وقال : والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد .

وقيل لمعن بن زائدة [(٢)] : المؤاخذة بالذنب من السؤدد . قال : لا ، ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم جُرْمه ، وقل شفعاؤه ، ولم يجد ناصراً .

وقال محمود الوراق [(٣)] :

سَأُلْزِمُ نَفْسِي الصفحَ عَن كلِّ مُذْنِبٍ وإنْ عظُمتْ مِنهُ عليَّ الجرائمُ
فما الناسُ إلا واحدٌ من ثلاثة شريفٌ ، ومشروفٌ ،ومِثْلِي مُقَاوِمُ
فَأَمَّا الذي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ وأَتْبَعُ فيه الحقَ، والحقُّ لازمُ
وأَمَّا الذي دونِي فإنْ قال صُنْتُ عَنْ إجَابَته نَفْسِي وَإِنْ لاَمَ لاَئمُ
وأَمَّا الذي مِثْلِيَ فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا تفضَّلْتُ إِنَّ الْحُرَّ بالفضلِ حَاكِمُ

وقال الأحنف بن قيس [(٤)] لابنه : يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه ، فإن أنصفك ، وإلا فاحذره . قال الشاعر :

إذا كُنتَ مُختَصًا لِنفسِك صَاحبًا فَمِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَاه بالوُدِّ أَغْضِبَه
فَإِنْ كَانَ في حالِ القطيعةِ مُنْصِفًا وَإِلاَّ فقد جَرَّبْتَــهُ فَتَجَنَّبَه

ومن أمثال العرب : احْلَمْ تَسُد . قال الشاعر :

لَنْ يَبْلَغَ الْمَجْدَ أقوامٌ وإنْ شَرُفوا حتى يَذِلُّوا وإنْ عَزُّوا لأقوامِ
وَيَشْتُمُوا فَتَرى الألوانَ مُسْفِرَةً لاَ صَفْحَ ذُلٌ وَلَكِنْ صَفْحَ إكْرامِ

---

(١) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى ، أبو المنذر . تابعى . من أئمة الحديث . من علماء المدينة . توفى سنة ١٤٦ هـ .
(٢) سبق أن ترجم له .
(٣) محمود بن حسن الوراق . شاعر . مُعْظَمُ شعره فى الحكم والمواعظ . توفى سنة ٢٢٥ هـ .
(٤) سبق أن ترجم له .

وقال آخر :

وَجَهْلٍ رَدَدْنَاهُ بِفَضْلِ حُلُومِنَا ... وَلَوْ أَنَّنَا شِئْنَا رَدَدْنَاه بالجهلِ

وقال الأحنف : إياكم ورأي الأوغاد ، قالوا : وما رأي الأوغاد ؟ قال : الذين يرون الصفح والعفو عارًا . وقال رجل لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - : لأسبنك سبًا يدخل معك قبرك، فقال : معك والله يدخل لا معي . وقيل : إن الأحنف سبه رجل وهو يماشيه في الطريق، فلما قرب من المنزل ، وقف الأحنف ، وقال له : يا هذا إن كان قد بقي معك شيء ، فهات ، وقله ههنا ، فإني أخاف أن يسمعك فتيان الْحَيِّ فيؤذوك ، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا .

وقال لقمان لابنه : يا بُنَيّ ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه .

ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير [١] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عن الجهلِ وَالْخَنَا ... أَصبتْ حَلِيمًا أَوْ أَصابَكَ جَاهِلُ

وقال آخر :

وَإِذا بَغَى باغٍ عَلَيْكَ بِجَهْلِه ... فاقْتُلْهُ بالمعروفِ لا بالمنكَرِ

وقال آخر :

قُلْ مَا بدا لَكَ مِن صِدْقٍ ومنْ كَذِبٍ ... حِلْمِي أَصَمُّ وأُذْنِي غَيْرُ صَمَّاءِ

ويروى في بعض الأخبار ، أن ملكًا من الملوك أمر أن يُصْنَعُ له طعام ، وأحضر قومًا من خاصته ، فلما مُدَّ السماط أقبل الخادم ، وعلى كفه صحن فيه طعام ، فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك ، فأمر بضرب عنقه، فلما رأي الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فَصَبَّ جميع ما كان فيه على رأس الملك، فقال له : ويك .. ما هذا ؟ فقال : أيها الملك إنما صنعت هذا شحًا على عرضك وغيرة عليك ، لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني :قتله في ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد ، ولم يقصده ، فتنسب إلى الظلم والجور . فصنعت هذا الذنب العظيم لِتُعْذَرَ في قتلي ، وتُرْفَعَ عنك الملامة .

قال : فأطرق الملك مليًا ثم رفع رأسه إليه ، وقال : يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار ، قد وهبنا قبيح فعلك ، وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك ، اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى .

---

(١) سبق أن ترجم له .

وحكي عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه ، والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه ، أنه لما خرج عمه إبراهيم المهدي عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون ، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق ، فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي ، وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ، ولم يزل المأمون متطلبًا لإبراهيم حتى أخذه ، وهو متنقب مع نسوة ، فَحُبِسَ ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال المأمون : لا سلم الله عليك ولا قرب دارك ، استَغْوَاكَ الشيطان حتى حَدَّثتك نفسُك بما تنقطع دونه الأوهام . فقال له إبراهيم : مهلاً يا أمير فإن ولي الثأر محكم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فإن أخذت فبحقك وإن عفوت فبفضلك ، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات:

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ ... وأنتَ أعْظَمُ مِنْهُ
فَخُذْ بِحَقِّكَ أَوْ لا ... فاصْفَحْ بِعَفْوِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي ... مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه ، وقال : يا إبراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول وأكثر مما تأمل ، ولقد حَبَّبْتَ إلى العفو حتى خفت أن لا أُوجَرَ عليه، لا تثريب عليك اليوم . ثم أمر بفك قيوده ، وإدخاله الحمام ، وإزالة شعثه ، وخلع عليه ، ورَدَّ أمواله جميعها إليه فقال فيه مخاطبًا :

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ ... وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قد حَقَنْتَ دَمِي
فَإِن جَحَدْتُكَ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ كَرَمٍ ... إِنِّي لَبِاللُّؤْمِ أَوْلَى مِنْكَ بالكرمِ

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري ، فقال له عباد : أيها الأمير أنشدك الله لا تقتلني ، فوالله إني لأعول أربعًا وعشرين امرأة مالهن كاسب غيري . فَرَقَّ لهن واستحضرهن ، وإذا واحدة منهن كالبدر ، فقال لها الحجاج : ما أنت منه؟ قالت : أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول ؛ ثم قالت :

أَحَجَّاجُ إِمَّا أَنْ تَمُنَّ بِتَرْكِهِ ... عَلَيْنا وَإِمَّا أَنْ تَقْتُلَنا مَعًا
أَحَجَّاجُ لاَ تَفْجَعْ بِهِ إِنْ قَتَلْتَهُ ... ثَمَانًا وعَشْرًا واثْنَتَيْن وأَرْبَعًا
أَحَجَّاجُ لاَ تَتْرُكْ عَلَيْهِ بَنَاتِهِ ... وَخَالاتِهِ يَنْدُبْنَهُ الدَّهْرَ أَجْمَعَا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة . ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ـ رضي الله عنه ـ ، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانًا . فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه ، فاستأذن فأذن له عمر ، فلما دخل قال : هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل ، فغضب عمر حتى هَمَّ أن يوقع به ، فقال له الحرّ : يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وأن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر ـ رضي الله عنه ـ حين تلاها عليه ، وكان وقافًا عند كتاب الله تعالى .

وحكي : أن رجلاً زَوّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع ، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ، ثم جاء بها إلى وكيل الفضل فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل ، فشرع في أن يزن له الألف دينار ، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مُهِمٍّ ، فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل ، وأوقفه على الورقة ، فنظر الفضل فيها ، ثم نظر في وجهه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فأطرق [١] الفضل ، بوجهه ثم قال للوكيل : أتدري لم أتيتك في هذا الوقت ؟ قال : لا ، قال : جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة ، فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل فقبضه، وصار متحيرًا في أمره فالتفت إليه الفضل ، وقال له : طب نفسًا وامض إلى سبيلك آمنًا على نفسك ، فقبل الرجل يده ، وقال له : سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة ، ثم أخذ المال ومضى.

فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة والأفعال الجليلة ، ويقتفي نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فقد كان أكثر الناس حلمًا ، وأحسنهم خَلْقًا وأكرمهم خُلُقًا ، وأكثرهم تجاوزًا وصفحًا ، وأبرهم للمعتر عليه نجحًا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

وأما ما جاء في العتاب : فقد قِيلَ : العتاب خير من الحقد ، ولا يكون العتاب إلا على زلة. وقد مدحه قوم فقالوا : العتاب : حدائق المتحابين ، ودليل على بقاء المودة .

-وقد قال أبو الحسن بن منقذ شعرًا :

أَسْطُو عَلَيْه وَقَلْبِي لو تَمكَّنَ مِنْ ... يَدَيَّ غَلَّهُما غَيْظًا إِلَى عُنُقِي[٢]

(١) الوجل : صفرة تعلو الوجه عند الخوف أو استشعار الخوف . والخجل: حمرة تعلو الوجه عند الحياء والخفر.
(٢) البيت كناية عن إعراضه عن السب الذى سمعته أذناه .

وَأَستَعِيرُ لَهُ مِنْ سَطْوَتِي حَنَقًا ... وَأَيْنَ ذُلُّ الهوى مِنْ عِزَّةِ الحنق؟

وذمة بعضهم ، قال إياس بن معاوية (١) : خرجت في سفر ومعي رجل من الأعراب ، فلما كان في بعض المناهل لقيه ابن عم فتعانقا وتعاتبا وإلى جانبهما شيخ من الحي فقال لهما : أنعما عيشًا إنَّ المعاتبة تبعث التجني ؛ والتجني يبعث المخاصمة ؛ والمخاصمة تبعث العداوة ، ولا خير في شيء ثمرته العداوة . قال الشاعر :

فَدَعْ ذِكْرَ العتابِ فَرُبَّ شَرّ ... طَوِيلٍ هاجَ أَوَّلُه العتابُ

وقيل : العتاب من حرقات الشوق ، وإنما يكون هذا بين المتحابين . قال الشاعر :

عَلاَمَةُ ما بين المحبين في الهوى ... عِتَابُهُمُ في كُلِّ حقّ وباطلِ

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله معه يقول :

عَرَضْنَا أَنْفُسًا عَزَّتْ عَلَيْنا ... عَلَيْكُم فاسْتَخَفَّ بها الهوانُ

ولَو أنَّا رَفَعْنَاهَا لَعَزَّتْ ... ولَكِنْ كُلُّ مَعْرُوضٍ مُهانُ

وقال آخر يعاتب صديقه :

وكُنْتُ إذا مَا جِئْتُ أَدْنَيْتَ مَجْلِسي ... وَوَجْهُك مِنْ تِلْكَ البَشَاشَةِ يَقْطرُ

فَمَنْ لِي بالْعَيْنِ التي كُنْتُ مَرَّةً ... إِلَيّ بِها في سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

وقال أبو الحسن بن منقذ :

أَخْلاقُكَ الْغُرُّ السَّجَايَا مَا لَهَا ... حَمِلَتْ قَذَى الواشِين وهي سُلاَفُ

وَمْرآة رَأْيكَ في عَبِيدكَ مَا لَهَا ... صَدِئَتْ وانتَ الْجَوْهَرُ الشَّفَّافُ

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حَطٌّ عليه :

اقْرَأْ كِتَابَك واعْتَبِرْه قَرِيبًا ... فَكَفَى بِنَفْسِك لِي عَلَيْك حَسِيبًا

أَكَذَا يكونُ خِطابُ إخوانِ الصفَا ... إِنْ أَرْسَلُوا جَعَلُوا الخطابَ خُطُوبًا

مَا كَانَ عُذْرِي إِنْ أَجَبْتُ بِمِثْلِهِ ... أَوْ كُنْتُ بِالَعَتْبِ العنيفِ مجيبًا

لَكِنَّنِي خِفْتُ انْتِقَاصَ مَوَدَّتِي ... فَيُعدُّ إِحْسَانِي إِلَيْك ذُنُوبًا

---

(١) إياس بن معاوية بن قرة المزني ، أبو واثلة . قاضي البصرة ، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء . يضرب المثل بذكائه وزكنه .

وقال آخر :

أَرَاكَ إِذا ما قُلْتَ قَوْلاً قَبِلْتَهُ ... ولَيْسَ لأقوالي لَدَيْكِ قُبولُ
ومَا ذَاكَ إِلا أَنْ ظَنَّكَ سَيِّئٌ ... بِأَهْلِ الوفا والظَّنُّ فِيكِ جَمِيلُ
فَكُنْ قَائلاً قَوْلَ الحَمَاسِي تَائِهًا ... بِنَفْسِكَ عُجْبًا وَهُو مِنْكَ قَلِيلُ
وتُنْكِرُ إِنْ شِئْنَا على الناسِ قَوْلَهُمْ ... ولا يُنْكِرُون الْقَوْلَ حِينَ نقَولُ

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته إضاقة ، ثم ولي عَمَلاً ، فأثرى ، فقصده محمد مُسَلِّمًا فرأى منه تغيرًا ، فكتب إليه :

لئَنْ كَانَتِ الدُّنيا أَنَالَتْكَ ثَرْوَةً ... فَأَصبَحْتَ ذا يُسْرٍ وَقَدْ كُنْت ذا عُسْرِ
فَقَدْ كَشَفَ الإِثراءُ مِنْكَ خَلائِقًا ... مِنَ اللُّؤمِ كَانَتْ تَحْتَ ثوبٍ مِنَ الفَقْرِ

وقال آخر في المعنى :

دَعَوْتُ اللهَ أَنْ تَسْمُو وَتَعْلُو ... عُلُوَّ النَّجْمِ فِي أُفْقِ السماءِ
فَلَمَّا أَنْ سَمَوْتَ بَعُدْتَ عَنِّي ... فَكَانَ إِذًا عَلَيَّ نَفْسِي دُعَائِي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرمًا وابن عرادة يتجنى عليه ففارقه ، وصاحب غيره ، ثم ندم ورجع إليه وقال :

عَتِبْتُ عَلَى سَلْمٍ فَلَمَّا فَقَدْتُهُ ... وَصَاحَبْتُ أَقْوامًا بَكَيْتُ عَلَى سَلْمِ
رَجَعْتُ إِلَيْه بَعْدَ تَجْرِيبِ غَيْرِه ... فكَان كَبُرْءِ بَعْدَ طُولٍ مِنَ السُّقْمِ (١)

وقال مسلم بن الوليد (٢):

وَيُرْجِعُنِي إِلَيْكَ إذا نَأَتْ بي ... دِيَارِي عَنْكَ تَجْرِبَةُ الرِّجالِ

وقال أبو الحسن القابسي :

إِذَا أَنَا عَاتَبْتُ الْمَلُومَ فَإِنَّما ... أَخُطُّ بِأَقْلامِي عَلَى الْماءِ أَحْرُفَا
وَهَبْهُ ارعَوَى بَعْدَ العتابِ أَلَمْ تكُنْ ... مَودَّتُهُ طَبْعًا فَصَارَتْ تَكَلُّفًا (٣)

وقال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ معاتبة الصديق أهون من فقده . وما أحسن ما قيل في

(١)البرء : الشفاء وبين البرء والسُّقم . طباق .
(٢)مسلم بن الوليد الأنصارى . المعروف بـ « صريع الغوانى ». شاعر غزل . من شعراء الدولة العباسية ، من أهل الكوفة . نزل بغداد . ومدح الرشيد والبرامكة . توفى سنة ٢٠٨ هـ .
(٣)ارعوى : كف وارتدع . التكلف : التصنع .

العتاب :

وَفِي الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أقوامٍ   وَهُوَ الْمَحَكُّ لَدَي لُبْسٍ وَإبْهامِ

فما ثَمَّ شيء أحسن من معاتبة الأحباب ، ولا ألذ من مخاطبة ذوي الألباب .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والثلاثون

في الوفاء بالوعد ، وحفظ العهد ، ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب اللّه تعالى الذي من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هُدَاه . قال اللّه تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة : ١] . وقال جلّ وعلا : ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد : ٢٠]. وقال جلّ وعلا ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل : ٩١] . وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] . والآيات في ذلك كثيرة . من أشدها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢، ٣].

وروي في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول اللّه ﷺ قال: « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » . فالوفاء من شيم النفوس الشريفة ، والأخلاق الكريمة ، والخلال الحميدة ، يعظم صاحبه في العيون ، وتصدق فيه خطرات الظنون ، ويقال : الوعد سحابة والإنجاز مطره . وقال عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ: لكل شيء رأس ورأس المعروف تعجيله ، وأنشدوا :

إذا قلتَ في شيءٍ : نعم فأتِمَّهُ فإنَّ نَعَمْ دينٌ على الحرِّ واجبُ
وإلاَّ فقل : لا تسترحْ وتُرِحْ بها لئلاً يقول الناسُ : إنّك كاذبُ

وقال آخر :

لا كَلَّفَ اللّه نفسًا فوق طاقتها ولا تجودُ يدٌ إلاّ بما تجدُ
فلا تعِدْ عِدَةً إلاَّ وَفَّيْتَ بها واحذرْ خلافَ مقالٍ للذي تعدُ

وقال أعرابي : وعد الكريم نقد وتعجيل ، ووعد اللئيم مطل وتعليل ، وقال أعربي أيضًا : العذر الجميل خير من المطل الطويل . ومدح بشارُ خالدَ بن برمك فأمر له بعشرين ألفًا ، فأبطأت عليه ، فقال لقائدة : أقمني حيث يَمُرُّ فأقامه فَمَرَّ ، فأخذ بلجام بغلته ، وأنشأ يقول :

أظلَّت علينا منكَ يومًا سحابةٌ أضاء لها برقٌ وأبطأ رَشاشُها
فلا غَيمُها يُجلى فييأسُ طامعٌ ولا غيثُه يأتي فَتُرْوِي عِطاشُها

فقال : لا تبرح حتى تؤتى بها .

وقال صالح اللخمي :

لئن جَمَعَ الآفاتِ فالبخلُ شرُّها وشرٌّ من البخل المواعيدُ والمطلُ
ولا خَيرَ في وعدٍ إذا كان كاذبًا ولا خير في قولٍ إذا لم يكنْ فعلُ

وقيل : ماتت للهذلي أم ولد ، فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له : إن أمير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها ، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة. فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين ، ونسيه المنصور ، فحج المنصور ومعه الهذلي فقال المنصور وهو بالمدينة : إني أحب أن أطوف الليلة المدينة فاطلب لي من يطوف بي . فقال الهذلي: أنا لها يا أمير المؤمنين ، فطاف به حتى وصل بيت عاتكة ، فقال : يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص :

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتعزَّلُ   حَذَرَ العِدَا وبه الفؤادُ مُوكَّلُ
إني لأمنحُكِ الصدودَ وإنّني   قَسَمًا إليكِ مَعَ الصُّدود لأميلُ

فكَرِه المنصورُ ذِكْرَ بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه فلما رجع المنصور أَمَرَّ القصيدة على قلبه فإذا فيها :

وأراكَ تفعلُ ما تقولُ وبعضُهمْ   مَذِقُ اللّسانِ يقولُ ما لا يَفْعلُ

فذكر المنصور الوعد الذي كان وعد به الهذلي فأنجزه له واعتذر إليه وقال الشاعر:

تعجيلُ وعد المرء أُكرومةٌ   تنشر عنه أطيب الذكر
والحرُّ لا يَمْطُلُ معروفه   ولا يليقُ المطل بالحرّ

وقال آخر :

ولقد وعدتَ وأنتَ أكرمُ واعدٍ   لا خير في وعدٍ بغير تمام
أنعم عليّ بِمَا وعدت تكرُّمًا   فالمطل يُذهب بهجة الإنعامِ

وقال آخر :

لِعبدِك وعدٌ قد تقدم ذكره   فأوله حمدٌ وآخره شُكرُ
وقد جُمِعت فيك المكارمُ كُلُّها   فما لك عن تأخير مكرمةٍ عُذْرُ

وقال آخر :

وميعاد الكريم عليه دينٌ   فلا تزد الكريم على السلام
يذكّره سلامك ما عليه   ويغنيك السلام عن الكلام

وقال آخر :

شكاك لساني ثم أمسكت نصفه   فنصف لساني بامتداحك ينطقُ
فإن لم تنجز ما وعدت تركتني   وباقي لساني بالمذمة مطلق

وقال آخر :

بِاتَتْ لوعدك عيني غيرَ راقدة والليلُ حَيُّ الدياجي مُنبتُ السَّحرِ
هذا وقد بتُّ من وعدٍ على ثقةٍ فكيف لو بتُّ من هجرٍ على حذرِ؟

وقال آخر :

نُذكّرُ بالرّقاع إذا نسينا ويأبى اللّه أن تَنْسي الكرامُ

وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم : فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف المسامع ، كقضية الطائي ، وشريك نديم النعمان بن المنذر .

وتلخيص معناها :أن النعمان كان قد جعل له يومين : **يوم بؤس** : من صادفه فيه قتله وأرداه، **ويوم نعيم**:من لقبه فيه أحسن إليه وأغناه . وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره ، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئًا لصبيته وصغاره ، فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم بؤسه؛ فلما رآه الطائي علم أنه مقتول ، وأن دمه مطلول ، فقال : حيا اللّه الملك إن لي صبية صغارًا وأهلاً جياعًا وقد أرقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم، وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس ، وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى [1] ، ولن يتفاوت الحال في قتلي بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت ، وأوصي بهم أهل المروءة من الحي لئلا يهلكوا ضياعًا ، ثم أعود إلى الملك ، وأسلم نفسي لنفاذ أمره .

فلما سمع النعمان صورة مقاله، وفهم حقيقة حاله ، ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رَقَّ له ورثى لحاله ، غير أنه قال له: لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا فإن لم ترجع قتلناه ، وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائي إلى شريك وقال له :

يا شريــكُ بــنُ عَديّ مــا مــنْ المــوتِ انهزامُ
مَــنْ لأطفــالٍ ضعــافِ عَدمــوا طعــمَ الطعــامِ
بــين جوعٍ وانتظارِ وافتقــارٍ وسقــامِ
يــا أخا كلّ كريمٍ أنــتَ مــن قــومٍ كرامِ
يــا أخــا النّعمان جُدْ لي بضمــانٍ والتــزامِ
ولــك اللّهُ بِــأنّيَ راجــعٌ قبــل الظــلامِ

فقال شريك بن عدي : أصلح اللّه الملك علي ضمانه ، فمر الطائي مسرعا ، وصار النعمان

---
(١)الطوى : الجوع .

يقول لشريك : إن صدر النهار قد ولى ولم يرجع ، وشريك يقول : ليس للملك علي سبيل حتى يأتي المساء . قال النعمان لشريك : قد جاء وقتك ثم قم فتأهب للقتل . فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً وأرجو أن يكون الطائي ، فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل .

قال: فبينما هم كذلك وإذ بالطائي قد اشتد عدوه في سيره مسرعًا حتى وصل . فقال: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي . ثم وقف قائمًا ، وقال : أيها الملك مُرْ بأمرك ، فأطرق النعمان ، ثم رفع رأسه ، وقال : والله ما رأيت أعجب منكما أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقامًا يقوم فيه ولا ذكرًا يفتخر به ، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء. فلا أكون أنا ألأم الثلاثة ألا وإني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ، ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي ، وكرم شريك . فقال الطائي :

ولقد دَعَتْني للخلافِ[1] عشيرتي ... فَعَدَدْتُ قولَهُمو من الإضلالِ
إني امرؤٌ مني الوفاءُ سجيةٌ ... وفعالُ كُلِّ مهذبٍ مفضالِ[2]

فقال له النعمان : ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك ؟ فقال : ديني فمن لا وفاء فيه لا دين له . فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه ، وأعاده مكرمًا إلى أهله وأناله ما تمناه .

ومن ذلك . . ما حكي أن الخليفة المأمون لما ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه ، دخل على المأمون بعض إخوانه يومًا ، فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب وهواه مع العلويين ، وكذلك كان أبوه قبله ، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر ، فتشوش فكره ، وضاق صدره ، فاستحضر شخصًا وجعله في زي الزهاد والنساك الغزاة ، ودسه إلى عبد الله بن طاهر ، وقال له : امض إلى مصر وخالط أهلها وداخل كبراءها ، واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي، واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك ، وادعه إلى القاسم بن محمد العلوي ، واكشف باطنه وابحث عن دفين نيته ، وائتني بما تسمع .

ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون ، وتوجه إلى مصر ، ودعا جماعة من أهلها ، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه ، فلما نزل من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب إليه ، وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده ، فقال له : لقد فهمت ما قصدت فهات ما عندك ، فقال : ولي الأمان ؟ قال : نعم . فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد ، فقال : له عبد الله : أوَتنصفني فيما أقوله لك ؟ قال : نعم . قال : فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة ؟ قال : نعم ، قال : فيجب عليَّ وأنا في

[1] الخلاف : خلف الوعد ونقضه .
[2] مفضال : صيغة مبالغة للفضل .

هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب، وأمري فيما بينهما مطاع وقولي مقبول ، ثم إني ألتفت يمينًا وشمالاً فأرى نعمة هذا الرجل غامرة وإحسانه فائضًا عليَّ ، أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وتقول : اغدر وجانب الوفاء؟، واللّه لو دعوتني إلى الجنة عيانا لما غدرتُ ولا نكثتُ بيعته ، وتركت الوفاء له . فسكت الرجل ، فقال له عبد اللّه : وتقول : والله ما أخاف إلا على نفسك، فارحل من هذا البلد . فلما يئس الرجل منه، وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون فأخبره بصورة الحال ، فسره ذلك ، وزاد في إحسانه إليه ، وضاعف إنعامه عليه .

ومما يعد من محاسن الشيم ، ومكارم أخلاق أهل الكرم، ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم : ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه. قال: قال لي أبو الفتح المنطيقي: كنا جلوسا عند كافور الإخشيدي (١) ، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة والمكنة، ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر ، فحضرت المائدة والطعام، فلما أكلنا نام وانصرفنا ، ولما انتبه من نومه طلب جماعه منا ، وقال: امضوا الساعة: إلى عقبة النجارين، وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فإن كان حيا، فاحضروه ، وإن كان قد توفي فسلوا عن أولاده، واكشفوا أمرهم. قال : فمضينا إلى هناك وسألنا عنه، فوجدناه قد مات، وترك بنتين إحداهما : متزوجة ، والأخرى عاتق فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك، فسير في الحال واشترى لكل واحده منهما دارا وأعطاهما مالا جزيلا وكسوة فاخرة ، وزوج العاتق، وأجرى على كل واحدة منهما رزقا ، وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما ، فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك، وقال: أتعلمون سبب هذا ؟ قلنا: لا، فقال: اعلموا أني مررت يوما بوالدهما المنجم، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحاله رثة، فوقفت عليه ، فنظر إلي واستجلبني وقال: أنت تصير إلى رجل جليل القدر وتبلغ منه مبلغا كبيرا،وتنال خيرا، ثم طلب مني شيئا ، فأعطيته درهمين كانا معى ، ولم يكن معى غيرهما ، فرمى بهما إلي وقال : أبشرك بهذه البشاره وتعطيني درهمين ؟ ثم قال: وأزيدك أنت والله تملك هذا لبلد وأكثر منه ، فاذكرني إذا صرت إلي الذي وعدتك به ولاتنس. فقلت له: نعم ،فقال: عاهدني أنك تفي لي ولا يشغلك ذلك عن افتقادي، فعاهدته، ولم يأخذ مني الرهمين ، ثم إني شغلت عنه بما تجدد لي من الأمور والأحوال وصرت إلى هذه المنزلة ، ونسيت ذلك فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته في المنام قد دخل علي، وقال لي : أين الوفاء بالعهد الذي بيني وبينك، وإتمام وعدك ؟ لا تغدر فيغدر بك، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم ، ثم زاد في إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده ، والله أعلم.

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق ، وأخبرت به الثقات في الآفاق، وظهرت روايته بالشام

---

(١) كافور بن عبد الله الإخشيدي . أبو المسك . الامير المشهور صاحب المتنبي ، كان عبداً حبشيًا اشتراه الإخشيد ملك مصر فنسب إليه ـ وأعتقه ارتقى إلى ملك مصر كان فطنًا حسن السياسة توفى بالقاهرة ٣٥٧هـ.

والعراق ، وضرب به الأمثال في الوفاء بالإنفاق ، حديث السموأل بن عاديا، وتلخيص معناه ، أن امرأ القيس الكندى لما أراد المضي إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل[١] دروعا وسلاحا وأمتعة تساوي من المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل : فقال السموأل : لا أدفعها إلا لمستحقها ، وأبى أن يدفع إليه منها شيئا. فعاوده ، فأبى وقال: لا أغدر بذمتي ولا أترك الوفاء والواجب علي. فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره ،فدخل السموأل في حصنه وامتنع به ، فحاصره ذلك الملك .وكان ولد السموأل خارج الحصن، فظفر به ذلك الملك ، فأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ،فلما رآه قال : إن ولدك قد أسرته، وها هو معي، فإن سلمت إلي الدروع والسلاح التي لامرئ القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك ، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختر أيهما شئت. فقال له السموأل : ماكنت لأخفر ذمامي، وأبطل وفائي . فاصنع ماشئت، فذبح ولده وهو ينظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبا . واحتسب السموأل ذبح ولده وصبره محافظة على وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح ورأى حفظ ذمامه ، ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه .

فسارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسموأل ، وإذ مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكروا السموأل في الأول، وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتقله بيديه وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه ، واستنطق الأفواه لفعله بالثناء عليه ، واستنطق الأيدي المقبوضة عنه بالإحسان إليه.

ومما وضع في بطون الدفاتر واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون ، قال : طلبني أمير المؤمنين ليلة ، وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي : خذ معك فلانًا وفلانًا وسماهما : أحدهما : علي بن محمد، والآخر : دينار الخادم ، واذهب مسرعًا لم أقوله لك، فإنه قد بلغني أن شيخًا يحضر ليلاً إلى دور البرامكة ، وينشد شعرًا ويذكرهم ذكرًا كثيرًا ، ويندبهم ويبكي عليهم ، ثم ينصرف، فامض الآن أنت ، وعلي ، ودينار حتى تروا هذه الخرابات ، فاستتروا خلف بعض الجدران ، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئًا ، فائتوني به. قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات ، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد ، وإذا شيخ وسيم له جمال، وعليه مهابة ووقار قد أقبل، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول:

ولما رأيتُ السيفَ جَنْدلَ جعفرًا ... ونادى منادٍ للخليفةِ في يحيى
بكيتُ على الدنيا وزاد تأسُّفِي ... عليهم وقلتُ: الآن لا تنفعُ الدنيا

---

(١) السمؤل بن غريض بن عاديا الأزدي . شاعر جاهلي حكم من سكان خيبر . كان يتنقل بينها وبين حصن له (الأبلق) له : ديوان شعر . توفى سنة (٦٥ ق. هـ) .

مع أبيات أطالها ورددها ، فلما فرغ قبضنا عليه ، وقلنا له : أجب أمير المؤمنن ، ففزع فزعًا شديدًا ، وقال : دعوني حتى أوصي وصية ، فإني لا أوقن بعدها بحياة . ثم تقدم إلى بعض الدكاكين ، فاستفتح ، وأخذ ورقة ، وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه ، ثم سرنا به ، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره ، وقال له : من أنت ؟، وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم ؟ وما تقوله فيها ؟. قال الخادم : ونحن وقوف نسمع ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندي أيادي خطيرة ، أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم ؟ قال : قل . قال : يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال ، فلما ركبني الدين ، واحتجت إلى بيع مسقط راسي ورؤوس أهلي ، أشاروا عليٍّ بالخروج إلى البرامكة ، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيًا وصبية ، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد ، فدعوت بثويبات (١) لي كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس ، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعًا لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد أسأل عن دور البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان ، فطمعت في القوم ، وولجت المسجد ، وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنه لم تكن صناعتي ، وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم،فقاموا وأنا معهم ، فدخلوا دار يحيى بن خالد ، ودخلت معهم ، وإذا بيحيى جالس على دكة له في وسط بستان ، فسلمنا ، وهو يعدنا مائة وواحد وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا غلام أمرد (٢) عذاراه خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون (٣) في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر (٤)، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني ، فوضعوه بين يدي الغلام إلى جنب يحيى ، ثم قال يحيى للقاضي : تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا . فخطب القاضي، وزوجه ، وشهد أولئك الجماعة ، وأقبلوا علينا بالنثار (٥) ببنادق المسك والعنبر ، فالتقطت، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي، ونظرت ، فإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلاً ، فخرج إلينا مائة واثنا عشر خادمًا مع كل خدم صينية من فضة عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ، ويقول: الأول فالأول، حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على

---

(١)ثويبات : تصغير ثوب .

(٢)الأمرد : الغلام : نبت شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبد . فهو أمرد .

(٣)المنطقة : الحزام يُشَدّ على الوسط .

(٤)الفهر : حجر ناعم صلب يسحق به الصيدلى الأدوية .

(٥)النثار : ما رمى به متفرقا .

أخذ الصينية ، فغمزني الخادم ، فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كمي ، وأخذت الصينية في يدي وقمت ، وجعلت ألتفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب بها .

فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني إذ قال للخادم :ائتني بذلك الرجل . فرددت إليه ، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي ، ثم أمرني بالجلوس ، فجلست فقال لي : ممن الرجل ؟ فقصصت عليه قصتي ، فقال للخادم : ائتني بولدي موسى ، فأتى به ، فقال : يا بني هذا رجل غريب ، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك . فقبض موسى على يدي وأدخلني إلى دار من دوره ، فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش، وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال : إن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل ، وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك ، وأكرمه ، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام ، فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد ، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء ؟ . فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم ، فقالوا لي: قم ، فاخرج إلى عيالك بسلام . فقلت : واويلاه سلبت الدنانير والصينية ، وأخرج إلى عيالي في هذه الحالة. إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث، ثم الرابع ، فلما رفع الستر الخادم الستر الأخير . قال لي : مهما كان لك من الحوائج فارفعها إليّ فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به . فلمّا رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنًا ونورًا ، واستقبلني منها رائحة الند والعود [1] ونفحات المسك ، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج ، وحمل إلي ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين ، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق ، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث سنوات لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعوني ؟، فلما جاءتهم البلية ، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل ، أجحفني عمرو ابن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به ، فلما تحامل عليّ الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم ، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليّ وأشكرهم على إحسانهم . فقال المأمون : عليّ بعمرو بن مسعدة ، فلما أُتي به قال : يا عمرو ، أتعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة ، قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا ، قال : رد له كل ما استأديته منه في مدته ، ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده، قال : فعلا نحيب الرجل وبكاؤه ، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال: يا هذا قد أحسنا إليك، فلمَ تبكي ؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضًا من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آت خراباتهم ، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين ، ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ .

---

(١) النَّدُّ : ضرب من النبات يتبخر بعوده . العود : ضرب من الطيب يتبخر به .

قال إبراهيم بن ميمون ، فلقد رأيت المأمون قد دمعت عيناه ، وظهر عليه حزنه وقال: لعمري هذا من صنائع البرامكة ، فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ، ولإحسانهم فاذكر .

وقيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوام عهده ، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وتشوقه إلى إخوانه ، وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر :

سقى اللَّهُ أطلالَ الوفاءِ بكفّه ... فقد دَرَسَتْ أعلامُه ومنازلُه(١)

وقال آخر :

أُشْــدُدْ يَديْـكَ بِمَنْ بَلَوْتَ (٢) وفاءَهُ ... إنّ الوفــاءَ مِــنَ الرجــال عزيزُ

وقال مالك بن عمارة اللخمي (٣) : كنت جالسًا في ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعروة بن الزبير ، وكنا نخوض في الفقة مرة ، وفي المذاكرة مرة، وفي أشعار العرب ، وأمثال الناس مرة ، فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في فنون العلم ، وحسن استماعه إذا حُدِّثَ ، وحلاوة لفظه إذا حَدَّث ، فخلوت معه ليلة ، فقلت له : واللَّه إني لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك ، وإقبالك على جليسك ، فقال : إن تعش قليلً ، فسترى العيون طامحة إليَّ ، والأعناق نحوي متطاولة ، فإذا صار الأمر إليَّ ، فلعلك أن تنقل إلي ركابك، فلأملأن يديك . فلما أفْضَتْ (٤) إليه الخلافة ، توجهت إليه ، فوافيته يوم الجمعة ،وهو يخطب على المنبر ، فلما رآني أعرض عني ، فقلت : لعله لم يعرفني ، أو عرفني وأظهر لي نكره ، فلما قضيت الصلاة ، ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب ، فقال : أين مالك بن عمارة ؟ فقمت ، فأخذ بيدي ، وأدخلني عليه ، فمد إلي يده ، وقال : إنك تراءيت لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت ، فأما الآن ، فمرحبًا وأهلاً ، كيف كنت بعدي ؟ فأخبرته ، فقال : أتذكر ما كنت قلت لك ؟ قلت : نعم ، فقال : والله ما هو بميراث وعيناه، ولا أثر رويناه، ولكني أخبرك بخصال مني سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى : ما خنت ذا ود قط، ولا شَمِتٌ بمصيبة عدو قط ، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي حديثه ، ولا قصدت كبيرة من محارم اللَّه تعالى متلذذًا بها ، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع اللَّه تعالى منزلتي وقد فعل.

ثم دعا بغلام ، فقال له : يا غلام بَوِّئْهُ (٥) منزلاً في الدار ، فأخذ الغلام بيدي ، وأفرد لي

(١) الطَّلُّ : ما بقى شاخصا من آثار الديار ونحوها . دَرَسَ : عفَا وذهب أثره .

(٢) بَلَوْت : خبرت وجربت وعرفت .

(٣) مالك بن بركات بن المنذر بن مسعود بن عون اللخمي . أول من ولى إمارة « المعرة » من بني لخم . توفى ١٣٤ هـ.

(٤) انتهت إليه الخلافة ـ أصبح الخليفة .

(٥) بواه : أنزله وأسكنه .

منزلاً حسنًا ، فكنت في ألذ حال ، وأنعم بال ، وكان يسمع كلامي وأسمع كلامه ، ثم أدخل عليه في وقت عشائه ، وغدائه ، فيرفع منزلتي ويقبل عليَّ ويحادثني ، ويسألني مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لي عشرون ليلة ، فتغديت يومًا عنده ، فلما تفرق الناس نهضت قائمًا ، فقال : على رِسْلِكَ ، فقعدت ، فقال : أي الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك في المعاشرة ، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة ، فقلت : يا أمير المؤمنين فارقت أهلي وولدي على أني أزور أمير المؤمنين ، وأعود إليهم ، فإن أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد ، فقال : لا ، بل أرى لك الرجوع إليهم والخيار لك بعد في زيارتنا ، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار ، وكسوناك وحملناك . أتراني قد ملأت يديك ؟ فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعدًا ، وزرنا إذا شئت ، صحبتك السلامة .

ومن ذلك ما روي عن أبي بكار الأعمى ، وكان قد انقطع إلى آل برمك ، قال مسرور الكبير: لما أمرني الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه ، فوجدت عنده أبا بكر الأعمى يغنيه ويقول :

فلا تحزنْ فَكُلُّ فتىً سيأتي ... عليه الموتُ يَطرقُ أو يُنادي

فقلت : في هذا والله قد أتيتك ، ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته ، وضربت عنقه ، فقال أبو بكار : ناشدتك الله إلا ما ألحقتني به ، فقلت له : ما الذي حملك على هذا ؟ فقال: أغناني عن الناس ، فقلت : حتى أستأمرَ الرشيد ، ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد ، وأخبرته بخبر أبي بكار ، فقال : هذا رجل فيه مصطنع أَضْمُمْهُ إليك ، وانظر ما كان يجري عليه جعفر فادفعه إليه . وكان يحيى بن خالد إذا أكد في يمينه قال : لا والذي جعل الوفاء أعز ما يرى .

قال أبو فراس بن حمدان الشاعر :

بمن يَتَّقي الإنسانُ فيما ينوبُه؟ ... وَمِنْ أين للحرِّ الكريم صِحابُ؟

وقد صار هذا الناسُ إلاَّ أقلَّهُم ... ذئابًا على أجسادهن ثيابُ

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب ، فقال : كان ـ رحمه الله تعالى ـ يفعل كذا وكذا ، فقال المنصور : عليك لعنة الله تطأ بساطي وتترحم على عدوي ؟ فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي ، فقال له المنصور : ارجع يا شيخ ، فإني أشهد أنك لوفِيّ حافظ للخير ، ثم أمر له بمال ، فأخذه ، ثم قال : والله لولا جلالةُ أمير المؤمنين وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة . فقال له المنصور : لِلّه دَرُّك ، فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدًا مخلدًا .

وخرج سليمان بن عبد الملك ، ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبابين[(١)] الشام ، فإذ امرأة جالسة على قبر تبكي ، قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها ، فحكت شمسًا عن متون غمامة ، فوقفنا متحيرين ننظر إليها، فقال لها يزيد بن المهلب : يا أمة الله : هل لك في أمير المؤمنين بعلاً ؟ فنظرت إلينا، ثم أنشأت تقول :

فإن تَسْألاني عن هواي فإنَّهُ يجولُ[(٢)] بهذا القبرِ يا فتيان
وإني لأستَحْييه والترب بيننا كما كُنتُ أستحييه وهو يراني

ومن ذلك ما روي عن نائلة بنت القرافصة بن الأحوص[(٣)] الكلبي زوج عثمان ـ رضي الله عنهما ، أن عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يدها ، وخطبها معاوية ، فردته ، وقالت : ما يعجب الرجل مني ؟ قالوا : ثناياك ، فكسرت ثناياها ، وبعثت بها إلى معاوية ، فكان ذلك مما رغب قريشًا في نكاح نساء بني كلب .

ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فَصٍّ ياقوت قيمته ألف ألف ، وقال له: انج بهذا فأخذه زياد ودقه بين حجرين ، وقال: والله لا ينتفع به أحد بعدك .

ولما قدم هدبة بن الخشرم[(٤)] للقتل بحضرة مروان بن الحكم ، قالت زوجته: إن لهدبة عندي وديعة ، فامهله حتى آتيك بها ، فقال : أسرعي ، فإن الناس قد كثروا ، وكان مروان قد جلس لهم بارزًا عن داره ، فمضت إلى السوق ، وأتت إلى قصاب ، فقالت: أعطني شفرتك، وخذ هذين الدرهمين ، وأنا أردها عليك ، فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفها على وجهها ، ثم جدعت أنفها من أصله ، وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب . ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس ، فقالت : أتراني يا هدبة متزوجة بعد ما ترى ؟، فقال : الآن طابت نفسي بالموت ، فجزاك الله من حليلة وفية خيرًا .

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختامًا هو أوجزها كلامًا ، وأحسنها نظامًا ، وأبينه حكمًا وإحكامًا ، وهي قضية جمعت الأمرين : وفاءً وغدرًا ، وعرفًا ونكرًا ، وخيرًا وشرًا ، ونفعًا وضرًا ، واشتملت على حال شخصين : أحدهما : وفى بعهده ففاز ونجا ، وحاز من مقترحات مُنَاهُ ما أمل ورجا . وغدر الآخر : فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجًا ، ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجًا : وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم ، وكان مطلعًا على أحوال أحمد بن طولون عارفًا بأموره عالمًا بوروده وصدوره ، فقال : ما معناه :

(١) جبابين : جمع جبانة : مقبرة .
(٢) يجول : يتحرك كناية عن أنه فارس شجاع . حركته في الحروب فرٌ وكرّ .
(٣) زوجة عثمان بن عفان ـ خطيبة . شاعرة . من ذوات الرأي والشجاعة .
(٤) هدبة بن الخشرم بن كرز من بني عامر بن ثعلبة . شاعر . فصيح . مرتجل . راوية . من أهل بادية الحجاز. قتل سنة ٥٠ هـ .

إن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلاً مطروحًا ، فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة ، وأحسنهم زيًا وصورة ، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن ، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به ، فأخذه إليه ، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه ، وقال له : أنت عندي بمكانة أرعاك بها، ولكن عادتي أني آخذ العهد على كل من أصرفه في شيء أنه لا يخونني فعاهده ، ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله ، فصار أحمد اليتيم مستحوذًا على المقام حاكمًا على جميع الحاشية الخاص والعام ، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن إليه ، واعتمد في أمور بيوته عليه .

فقال له يومًا : يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية ففي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر ، فائتني بها ، فمضى أحمد ، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب ، فلما رآه خرج الفتى ، وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير ، وقد أحسن إليَّ ، وأخذ العهد عليَّ ، ثم تركها ، وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه . وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة ، وخرج من الحجرة لئلا يذكرها للأمير ، فأقامت أيامًا لم تجد من الأمير ما غيره عليها .

ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه ، وغمرها بعطاياه ، واشتغل بها عمن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، ولا يراها ، وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الغادرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة ، فلما أعرض عنها اشتغالاً بالجارية الجديدة المجدة السعيدة الحامدة المحمودة الوصيفة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة ، وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه من ملاعبة أترابها ، وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف رضاب أضرابها ، وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره ، فكبر عليها إعراضه عنها ، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها .

فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها ، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها ، وقالت : إن أحمد اليتيم راودني عن نفسي . فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظًا وغضبًا ، وهمَّ في الحال بقتله ، ثم عاوده حاكم عقله ، فتأنى في فعله ، واستحضر خادمًا يعتمد عليه ، وقال له : إذا أرسلت إليك إنسانًا ومعه طبق من ذهب ، وقلت لك على لسانه : املأ هذا الطبق مِسكاً ، فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق ، وأحضره مغطى ، ثم إن الأميرَ أبا الجيش جلس لشربه ، وأحضر عنده ندماءه الخواص ، وأدناهم لمجلس قربه ، وأحمد

اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء ، ولا هجس هاجس في قلبه ، فلما مثل بين يدي الأمير، وأخذ منه الشراب شرع في التدبير .

فقال : يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم ، وقل له : يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكًا ، فأخذ أحمد اليتيم ومضى ، فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء ، والخواص ، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال : أنا ماض في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق ، فقالوا له : أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير ، فأدار عينيه ، فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية ، فأعطاه الطبق، وقال له : امض إلى فلان الخادم وقل له : يقول لك الأمير : املأ هذا الطبق مسكًا .

فمضى ذلك الفراش إلى الخادم ، فذكر له ذلك ، فقتله ، وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق، وأقبل به ، فناوله لأحمد اليتيم ، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر ، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال : ما هذا ؟ فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم ، وما كان من إنفاذ الطبق ، وإرساله مع الفراش ، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره . قال : أتعرف لهذا الفراش خبرًا يستوجب به ما جرى عليه ؟ فقال : أيها الأمير إن الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة ، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك ، وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده ، وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره ، لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر ، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها ، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها ، وأمره بقتلها ،ففعل ، وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه ، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه .

فانظر ـ رحمك اللّه ـ إلى آثار الوفاء كيف تحمي من المعاطب ، وتنجي من قبضة التلف بعد إمضاء القواضب ، ويفضي بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب ؟، فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده ، وهو بشر مثله، وليس في الحقيقة بعبده ، واطلع اللّه عزّ وجلّ على صدق نيته وقصده دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده ، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيًا في طاعته بعقده كيف لا يفيض عليه من الطاف مواهب بره ورفده ، ويفتح له من أنواع رحمته ، وأقسام نعمته ما لا ممسك له من بعده ؟،

وقالوا : ليس شيء أوفى من القمرية [1] إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ، ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى اللّه على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد للّه رب العالمين .

---

(١) القُمْرِيَّةُ : ما لونها القُمرة وجه القمر : نوع من الحمام حسن الصوت .

الباب الثامن والثلاثون

في كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه

قال اللَّه تعالى حكاية عن يعقوب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف : ٥] ، فلما أفشى يوسف ـ عليه السلام ـ رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت إخوته ، فحل به ما حل . ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم : ١٠] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير : ٢٤] . أي بمتهم . وفي الحديث : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود»[١] . وقال علي ـ رضي اللَّه عنه وكرم وجهه ـ : سِرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره .

واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجودًا من أمناء الأموال ، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن إحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال ، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق . وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستقل الحمل الثقيل ، فيحمله ويمشي به ، ولا يستطيع كتم السر . وأن الرجل يكون سره في قلبه ، فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال ، فإذا أذاعه استراح قلبه ، وسكن خاطره ، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً . وقال عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ: القلوب أوعية والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره .

ومن عجائب الأمور : أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها ، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها ، وكم مِنْ إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ولو كتمه أَمِنَ سَطَوَاته . وقال أنوشروان : من حصن سره ، فله بتحصينه خصلتان ، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات . وقيل : كلما كثرت خزائن الأسرار زادت ضياعًا . وقيل : انفرد بسرك لا تودعه حازمًا فيزل ، ولا جاهلاً فيخون ، وقال كعب بن سعد الغنوي [٢] :

ولست بمبدٍ للرجال سَرِيَرتي ... ولا أنا عن أَسْرَارِهِمُ بسؤُولِ

وقال أبو مسلم صاحب الدولة [٣] :

أدركتُ بالحزمِ والكِتمان ما عجزتْ ... عَنْه مُلوكُ بني مروانَ إذ جَهُدوا

---

(١) هذا الحديث ورد عن معاذ بن جبل ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، وأبى هريرة ـ رضى الله عنهم ـ وجميع هذه الطرق لا تخلو من ضعف .

(٢) شاعر جاهلى مجيد . شعره نقى . يستشهد به أهل اللغة . له ديوان شعر . توفى نحو سنة (١٠ ق . هـ).

(٣) عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى . صاحب دولة بنى العباس . نشأ بالكوفة . نشر دعوة بنى العباس فى خراسان ونجح . قتله المنصور فى المدائن سنة ١٣٧ هـ .

مَا زِلْتُ أسعى عليهم في ديارهم   والقومُ في غفلةٍ بالشام قد رَقَدُوا
حتى ضربتُهم بالسيف فَانْتَبَهُوا   من نومةٍ لم ينمْها قَبْلَهمْ أحدُ
ومن رعا غنمًا في أرضٍ مسبعةٍ   ونام عنها تولّى رعيها الأسد

وأسرَّ رجل إلى صديقه حديثًا ، ثم قال له : أفهمت ؟ قال : بل جهلت . ثم قلت له : أحفظت ؟ قال : بل نسيت . وقيل لبعضهم : كيف كتمانك للسر ؟ قال : أجحد المخبر ، وأحلف للمستخبر . وقال المهلب : أدنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسِرَّ إليه . ومن أحسن ما قيل في كتمان السِّرِّ قول الشاعر :

ولها سرائرُ في الضمير طويتها   نسي الضميرُ بأنّها في طيّةِ

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوي فقال :

إني كتمتُ حديثَ ليلى لم أبحْ   يومًا بظاهره ولا بِخَفِيِّهِ
وحفظتُ عهدَ ودادها متمسكًا   في حبِّها برشاده أو غيِّه
ولها سرائرُ في الضمير طَوَيّتُها   نسي الضميرُ بأنّها في طيِّه

وقيل : كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال ، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سِرَّه ، قال الشاعر :

ومستودعي سرًّا كتمت مكانه   عن الحِسّ خوفًا أن ينمّ به الحس
وَخِفْتُ عَلَيْهِ من هوى النفس شهوة   فأودعته من حيث لا يَبْلغ الحِسُّ

وقال قيس بن الخطيم[1] :

أجودُ بمكنون التلاد[2] وإنّني   بسرِّي عَمَّنْ يسألني لضنّينُ
وإن ضيّع الأقوامُ سِرِّي فإنّني   كتومٌ لأسرارِ العشير أمينُ

وقال جعفر بن عثمان :

يا ذا الذي أودعني سرّهُ   لا ترجُ أن تسمعه منيً
لم أجْرِهِ قطّ على فكرتي   كأنه لم يَجْرِ في أذني

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول : ما أفشيت سري إلى أحد قط ، فأفشاه ،

---

(١) من شعراء يثرب في الجاهلية مع حسان بن ثابت . تعصب لأوس قبيلته على خزرج . في أيام أوس . وصف النساء والحرب وعيشة البدوي المتحضر .
(٢) مكنون التلاد : المال القديم ـ التراث ـ .

فلمته إذ كان صدري به أضيق . وقال الأحنف بن قيس : يضيق صدر الرجل بسِّره ، فإذا حدث به أحداً قال : اكتمه عليَّ . قال الشاعر :

إذا المرء أفشى سرَّه بلسانه ... ولام عليه غيرَهُ فهو أحمقُ
إذا ضاق صدرُ المرئِ عن سرِّ نفسِه ... فصدر ُالذي يُستودع السِّرَّ أضيقُ

وقال آخر :

إذا ما ضاق صدرُك عن حديث ... وأَفْشَتْهُ الرجالُ فَمَنْ تلومُ
وإن عاتبتُ مَنْ أفشى حديثي ... وسِرِّي عِنْدَه فأنا الملومُ

وقال صالح بن عبد القدوس [١] : لا تودع سرك إلى طالبه ، فالطالب للسر مذيع ، ولا تودع مالك عند من يستدعيه ، فالطالب للوديعة خائن . وقيل لأعرابي : ما بلغ من حفظك للسر؟ قال : افرقه تحت شغاف قلبي ، ثم أجمعه وانساه كأني لم أسمعه . وكان أحزم الناس من لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر ، فيفشيه عليه . وقال حيكم : قلوب الأحرار قبور الأسرار ، وقيل : الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختيار حمق . وقال بعضهم :

إذا ما غفرتُ الذنبَ يوماً لصاحبِ ... فلست معيدًا ما حييت له ذكرا
ولست إذا ما صاحبٌ خان عهده ... وعندي له سرٌّ مذيعًا له سرًا

وأين هذا من قول القائل :

ولا تودع الأسرار أذني فإنّما ... تصبّنّ ماءً في إناءٍ مُثَلَّمِ[٢]

أو القائل :

ولا أكتم الأسرار لكن أنمها ... ولا أدع الأسرار تعلو على قلبي
وإن قليل العقل من بات ليلةً ... تقلّبُهُ الأسرار جنبًا إلى جنبِ

وقال آخر :

وإنك كلّما استودعت سرّاً ... أنمُّ [٣] منَ النسيمِ على الرياضِ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

أناسٌ امِنّاهُمُ فنموا حَدَيثَنا ... فَلَما كَتَمنا السِّرّ عنهم تقوّلُو[٤]

---

(١) شاعر . حكيم . شارك بشار في عقيدته . عمي في أخريات حياته مات مصلوب الزندقته نحو سنة ١٦٠ هـ.
(٢) مثلم : مشقق . (٣) أنمّ : أدلّ وأظهر . وأذاع .
(٤) تقوّلوا : اختلقوه كذبا .

ولِلَّهِ دَرُّ المتنبي حيث قال :

وللسرِّ مني موضعٌ لا يناله ... نديمٌ ولا يُفضي إليه شرابُ

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

الباب التاسع والثلاثون
في الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول
الفصل الأول
في الغدر والخيانة

قال رسول اللّه ﷺ : « **أعجل الأشياء عقوبة البغي** » . وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه - قال: قال رسول للّه ﷺ : « **المكر والخديعة والخيانة في النار** » . وقال أبو بكر الصديق - رضي اللّه عنه - : ثلاث من كن فيه كن عليه . البغي ، والنكث ، والمكر . قال الله تعالى : ﴿ **إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم** ﴾ [يونس : ٢٣] . وقال تعالى : ﴿**فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ**﴾ [الفتح : ١٠] وقال تعالى : ﴿**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾[فاطر : ٤٣] . وكم أوقع القدر في المهالك من غادر ، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر ، وطوقه غدره طوق خزي ، فهو على فكّه غير قادر ، وأوقعه في خطة خسف وورطة حتف (١) ﴿ **فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ** ﴾ [الطارق : ١٠] ، ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الألباب من قصة ثعلبة ابن حاطب الأنصاري .

وتلخيص معناها : أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبي ﷺ فجاءه يومًا وقال : يا رسول اللّه ادع اللّه أن يرزقني مالاً فقال له رسول اللّه ﷺ : « **ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه** » . ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى ، فقال : يا رسول اللّه ادع اللّه أن يرزقني مالاً، فقال رسول اللّه ﷺ : « **يا ثعلبة أما لك في رسول اللّه أسوة حسنة ، والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبًا وفضة لسارت** » . ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة ، فقال : يا رسول اللّه ادع اللّه أن يرزقني مالاً ، والذي بعثك بالحق نبيًا لئن رزقني اللّه مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. وعاهد اللّه تعالى على ذلك ، فقال رسول اللّه ﷺ : « **اللهم ارزق ثعلبة ما قال** » ، فاتخذ ثعلبة غنمًا فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، ونزل واديًا من أوديتها ، وهي تنمو كما ينمو الدود .

وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له : حمامة المسجد ، فلما كثرت الغنم ، وتنحى صار يصلي مع رسول اللّه ﷺ الظهر والعصر ، ويصلي بقية الصلوات في غنمه ، فكثرت ونمت حتى بَعُدَ عن المدينة ، فصار لا يشهد إلا الجمعة ، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضًا عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة ، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الأخبار ، فذكره رسول اللّه ﷺ ذات يوم فقال: « **ما فعل ثعلبة ؟** » قالوا : يا رسول اللّه اتخذ

(١) الخسف : الذل . الحتف : الموت .

غنمًا ما يسعها واد ، فقال رسول الله ﷺ : « يا ويح ثعلبة » . فأنزل الله تعالى آية الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين ، رجل من بني سليم ، ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب الصدقة ، وكيف يأخذانها ؟ ، وقال لهما : « مرّا بثعلبة بن حاطب ، وبرجل آخر من بني سليم ، فخذا صدقاتهما » . فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ ، فقال : ما هذه إلا جزية ، أو ما هذه إلا أخت الجزية ؟ انطلقا حتى تفرغا ، ثم عودا إليّ ، فانطلقا ، وسمع بهما السلمي ، فنظر إلى خيار إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ، فلما رأياه قالا : ما هذا ؟ قال : خذاه ، فإن نفسي به طيبة ، فمرا على الناس وأخذا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة ، فقال : أروني كتابكما ، فقرأه ، ثم قال : ما هذه إلا جزية ، أو ما هذه إلا أخت الجزية ؟ اذهبا حتى أرى رأيًا . قال : فذهبا من عنده ، وأقبلا على رسول الله ﷺ ، فلما رآهما قال . قبل أن يتكلما : « يا ويح ثعلبة » ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة : ٧٥ ـ ٧٨] . وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ذلك ، فخرج حتى أتاه ، فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ ، فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : « إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة » ، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه ، فقال رسول الله ﷺ : «هذا عملك قد أمرتك ، فلم تطعني » ، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، وقُبِضَ رسولُ الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا ، ثم أتى إلى أبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ حين استخلف فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار ، فاقبل صدقتي ، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك ، فلا أقبلها أنا ، فَقُبِضَ أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، ولم يقبلها ، فلما ولي عمر ـ رضي الله عنه ـ أتاه ، فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي ، فلم يقبلها منه ، وقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ، فأنا لا أقبلها ؟ وقُبِضَ عمر ـ رضي الله عنه ـ ، ولم يقبلها ، ثم ولي عثمان ابن عفان ـ رضي الله عنه ـ ، فسأله أن يقبل صدقته ، فقال له : لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، فأنا لا أقبلها . ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه (١) .

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره ،ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره ،

---

(١) هذه القصة باطلة سندا ومتنا ، وقد أفرد لها بعض أهل العلم مصنفات لبيان بطلانها ونكارتها من ذلك كتاب «ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه » تأليف / عراب محمود الحمش ، ورسالة « حديث ياويح ثعلبة دراسة نقدية ـ للدكتور / الطامو محمد الدرديري .

واعقبه نفاقًا يخزيه يوم فاقته وفقره ، فأي خزي لمرجع من ترك الوفاء بالميثاق ، وأي سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق ، وأي عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوي الأخلاق ، وكان يقال : لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء، واتضاع قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم . قال الشاعر :

غَدَرْتَ بأمْرٍ كُنْتَ أَنْتَ جَذَبْتَنَا إِلَيْه وبئس الشِّيمةُ الغَدْرُ بالعَهْدِ

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام ، وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول : خذلني اللّه إن خذلته ، فقال ذلك ثلاث مرات ، فقال الفضل بن الربيع : قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله : يا أبا العباس أجد نفسي أن أمري لا يتم ، فقلت له : ولمَ ذلك ؟ أعز الله الأمير قال : لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر وكان كذلك لم يتم أمره .

وورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة (١) ، كان ملكًا بين دجلة والفرات ، وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق ، وبلغ ملكه الشام ، فأغار على مدينة سابور ذي الأكتاف (٢) ، فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقًا كثيرًا ، ثم إن سابور جمع جيوشًا وسار إلى ضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء ، ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت فخرجت من الربض وكانت من أجمل أهل دهرها ، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن ، وكان سابور من أجمل أهل زمانه ، فرآها ورأته فعشقها وعشقته وأرسلت إليه تقول : ما تجعل لي إن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي ؟ فقال: أحكمك ، فقالت : عليك بحمامة مطوقة ورقاء ، فاكتب عليها بحيض جارية ، ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة فتتداعى المدينة كلها ، وكان ذلك طلمسًا لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له : وأنا أسقي الحرس الخمر فإذا صرعوا فاقتلهم ، ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن، واحتمل بنته النضيرة وأعرس بها ، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام ، فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها (٣) وأثرت فيها ، وقيل : كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها ، ثم إن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها . وقيل : إنه أمر رجلاً فركب فرسًا جموحً وضفر غدائرها بذنبه، ثم استركضه فقطعها قطعًا قطعه اللّه ما أغدره .

---

(١) الضيزن بن معاوية بن العبيد السَّليحي القضاعي . ملك جاهلي . توفي نحو ٣٠٤ ق . هـ .

(٢) سابور الثاني ملك من بني ساسان (٣١٠ ـ ٣٧٩ م) لقب : بذي الأكتاف لانه امر بفك أكتاف أسرى الحرب. حارب العرب حلفاء امبراطورية بيزنطية (٣٣٨ م) .

(٣) عكنتها : العُكنُ : ما تثنى من لحم البطن من السُّمن .

وتقول العرب : جزاني جزاء سنمار ، وهو أن يزدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مرىء فدل على ظهر الجزيرة ، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان وهو عامله على أرض العرب وأمره أن يبنى له جوسقًا فامتثل أمره ، وبنى له جوسقًا كأحسن ما يكون وكان الذي بنى الجوسق رجلاً يقال له : سنمار ، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقال : لو علمت أنكم توفوني أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت، فقالوا : وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع ، فكانت العرب تقول : جزاني جزاء سنمار .

وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم ـ لعنه اللّه ـ ، غدر بعلي ـ رضي اللّه عنه ـ وقتله . وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام ـ رضي اللّه عنه ـ وقتله ، وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ـ لعنه الله ـ ، غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقتله . وجعل المنصور العهد إلي عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدي عليه ، فقال عيسى :

أينسى بنو العبّاس ذبِّيَّ (١) عنهمُ ... بسيفي ونارُ الحَرْبِ زاد سعيرُها
فتحتُ له شرقَ البلاد وغربَها ... فذلّ معاديها وعزَّ نصيرُها
أُقَطِّعُ أرحامًا عليَّ عزيزةً ... وأبدي مكيدات لها وأثيرُها(٢)
فلما وضعتُ الأمر في مستقره ... ولاحت له شمسٌ تلألأ نورُها
دُفِعْتُ عن الأمر الذي أستحقُّهُ ... وأُوسَقُ أوساقًا من الغدر عيرُها (٣)

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجاؤها إلى خباء أعرابي ، فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت ، فجاء ابن عمه يطلبه ، فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها ، وأنشد يقول :

وَمَنْ يصنعِ المعروفَ مع غير أهله ... يلاقي كما لاقى مجيرُ أمّ عامرِ(٤)
أعدَّ لها لما استجارت ببيته ... أحاليب ألبانِ اللقاح الدرائر(٥)
وأسمنها حتى إذا ما تمكنت ... فَرَتْه بأنيابٍ لها وأظافرِ
فَقُلْ لذوي المعروف: هذا جزاءُ مَنْ ... يجودُ بمعروفٍ على غير شاكرِ

وحكي بعضهم قال : دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو

---

(١) الذَّبُّ : الدفع والطرد . (٢) المكيدة : الخديعة والمكر والاحتيال .
(٣) الوسق : حمل البعير. العير : قوافل الجمال والبغال والحمير يجلب عليها الطعام .
(٤) أم عامر : كنية الضبعة . (٥) الأحاليب : الألبان . اللقاح : الناقة غزيرة اللبن .

ذئب . فقالت : أتدري ما هذا ؟ فقلت : لا ، قالت : هذا جرو ذئب أخذناه صغيرًا وأدخلناه بيتنا وربيناه ، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى ، وأنشدت :

بقرتَ شُوَيْهَتي وفجعتَ قومي وأنتَ لِشاتنا ابنٌ ربيبُ (١)
غُذِّيتَ بِدَرِّها ونشأتَ معها فمن أنباك أنّ أباك ذيبُ (٢)
إذا كان الطِّباعُ طباعَ سوءٍ فلا أدبٌ يُفيدُ ولا أديبُ

اللهمَّ إنّا نعوذ بك من البغي وأهله ، ومن الغادر وفعله ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى له وصحبه وسلَّم .

الفصل الثاني : في السرقة والسراق

قيل : مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال : ما هذا ؟ قيل : السلطان يقطع سارقًا، فقال : لا إله إلاّ اللَّه سارق العلانية يقطع سارق السر . وأمر الإسكندر بصلب سارق ، فقال : أيها الملك إني فعلت ، وأنا كاره . فقال : وتصلب أيضًا وأنت كاره . وسرق مدني قميصًا ، فأعطاه لابنه يبيعه ، فَسُرِق منه ، فجاء له ، فقال : بكم بعته ؟ قال : برأس المال . وقال أكتل السلمي، وكان لصًا فاتكًا :

وإني لأستحي من اللهِ أن أرى أُجَرْجِرُ حبلي ليس فيه بعيرُ
وأن أسأل المرء الدنيء بعيرَهُ وأجمالُ ربيٍّ في البلاد كثيرُ

قال الفرزدق :

وإنّ أبا الكرشاء ليس بسارقٍ ولكنْ متى ما يسرق القومُ يأكلِ

وكان لعمرو بن دويرة البجلي أخ قد كَلَفَ (٣) ببنت عم له ، فتسور عليها الدار ذات ليلة ، فأخذه إخوتها وأتوا به خالد بن عبد اللَّه القسري ، وجعلوه سارقًا ، فسأله خالد ، فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية ، فهم خالد بقطعه ، فقال عمرو أخوه :

أخالدُ قد واللهِ أوطئت عشوةً وما العاشقُ المظلومُ فينا بسارقِ
أقرّ بما لم يأته المرء إنّه رأى القطع خَيْرًا من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية .

---

(١) بقرت : الشقّ . شويهتي : تصغير : شاة . ربيب : نشأ وتغذى وقوى جسديا مصاحبا للشاة وأخ لها .
(٢) الدر : اللبن . أنباك : أخبرك وأعلمك .
(٣) كَلِفَ : أحب وأولع .

الفصل الثالث
فيما جاء في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة : ٦٤] . وقال تعالي : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] . وقال تعالي ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر :٦] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن :١٤] . وقال رسول الله ﷺ : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك »[(١)] . وقال أبو بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ : العداوة تتوارث ، وقال زياد ابن عبد الله :

فلو انّي بُلِيتُ بهاشمي ... خُؤُولَتُه بنو عبد المُدانِ
صبرت على عداوته ولكنْ ... تعالوْا فانظروا بمن ابتلاني

وبث رجل في وجه أبي عبيدة مكروهًا ، فأنشأ يقول :

فلو أنّ لحمي إذ وَهَيَ لَعِبَتْ به ... سباعٌ كرامٌ او ضباعٌ وأذؤبُ
لَهَوَّنَ وجدي او لَسَلَّي مُصيبتي ... ولكنما اودى بحلميَ أكلُب

وقيل لكسرى : أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً ؟ قال : عدوي ، قيل كيف ذلك ؟ قال: لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه في عافية وأمن ، وقيل : كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح[(٢)] المعلن ، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفي وبطن . وقالوا : إياك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه ، ودخل مع الملك في لحافه . وقال أبو العتاهية :

تنحّ عن القبيحِ ولا ترِدْهُ ... وَمَنْ أوليْتَه حسنًا فزده
ستلقي من عدوك كُلَّ كيدِ ... إذ كاد العدوُّ ولم تَكِدْهُ

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب ، فقتل أخوها زوجَها وهي حبلي بِهجْرِس من كليب ، فلما كبر وشَبَّ قال :

أصَابَ ابي خَالِي ومَا أنا بالذي ... أميل وأمري بين خالي ووالدي
وأَوْرَثَ جَسَّاسُ بن مرة غُصَّةً ... إذا ما اعترتني حَرُّها غير بارد

(١) موضوع : رواه البيهقى فى « الزهد الكبير » (٣٤٥) وقال العراقى فى تخريج الإحياء (٤/ ٤) : فيه محمد ابن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين .
(٢) الدغل : المضمر حقدًا . الكاشح : العدو المبغض .

ثم قال بعد ذلك :

يا لَلرِجالِ لقلبٍ ما له جَلَدٌ　　　كيف العزاء وثَأْرِي عِنْدَ جَسَّاسِ

ثم حمل على خاله فقتله وقال :

الم ترني ثأرت لأبي كليبًا　　　وقد يرجى المرشّحُ للدخول
غسلت العار عن جسم ابن بكرٍ　　　بِجَسَّاسِ بن مرةَ ذي البتُولِ

بيت:

سَنٌّ العداوةَ آباءٌ لنا سلفوا　　　فلن تبيد وللآباء أبناء

ويقال : دار عدوك لأحد أمرين : إما لصداقة تؤمنك ، أو لفرصة تمكنك .

وكتب سويد إلى مصعب .

فبلّغْ مصعبًا عني رسولي　　　وهل تلقى النصيح بكل واد
تعلّم أنَّ أكثر من تناجي　　　وإن ضحكوا إليك هم الأعادي

ويقال : فلان كثير المراق مرُّ المذاق . وقال الحجاج لخارجي : والله إني لأبغضك ، قال : أدخل الله الجنّة أشدنا بغضًا لصاحبه . ولما أراد أنوشروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته ، فأنكروا عليه ، وقال بعضهم : إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت، فقال : إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، وكانت أم قباذ تركية ، وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم ، فقيل : هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك ، فقال : إن قصره من رجليه ولا يكاد يرى إلا جالسًا أو راكبًا ، فلا يستبين ذلك فيه . فقيل : هو بغيض في الناس، فقال : أواه هلك ابني هرمز ، فقد قيل : إذا كان في الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس فلا خير فيه ، وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه :

ولست براءٍ عيب ذي الوُدِّ كلّه　　　ولا بُغْضَ ما فيه إذا كنتُ راضيا
فَعَيْنَ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ　　　كما أن عين السُّخْطِ تُبدي المساويا

وفي المعنى قيل :

وعينُ البغض تُبرزُ كلَّ عيبٍ　　　وعينُ الحُبِّ لا تجدُ العيُوبا

وعن أبي حيان قال : قال لقمان : نقلت الصخور، وحملت الحديد ، فلم أر شيئًا أثقل من

الدين ، وأكلت الطيّبات وعانقت الحسان ، فلم أر شيئًا ألذ من العافية . وأنا أقول: لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء خصوصًا إذا كانوا مساهمين في نسب أو مجاورين في بلد . اللهّم إنّا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم . وقيل لأيوب عليه السلام ـ : أي شيء كان عليك في بلائك أشد ؟ قال : شماتة الأعداء.

وأنشد الجاحظ :

تقول العــاذلاتُ تسـلَّ عَنْها ... وداو عليلَ قَلْبِكَ بالسُّلُوِّ
وكيف ونظرةٍ منهـا اختلاسًا ... ألذُّ مــن الشماتة بالعــدو

وقال ابن أبي جهينة المهلبي :

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الأعداء

وقال الجاحظ : ما رأيت سنانًا أنفذ من شماتة الأعداء . وقيل : لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضر موت ، فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف ، فقال رجل منهم:

أبلغْ أبا بكْرٍ إذا ما جِئتَهُ ... أنَّ البغايا [1] مِن بني مرَّام
أظْهَرْنَ في موت النبي شماتةً ... وخَضَّبْنَ أيديهن بالعــلاّم [2]
فاقْطعْ هُديت أكفهــنَّ بصـــارمٍ ... كالبرق أومض في مُتُون غَمامِ [3]

فكتب أبو بكر الصدِّيق ـ رضي اللَّه عنه ـ إلى المهاجر عامله ، فأخذهن وقطع أيديهن .

ويقال: فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل ، ولا يؤمل صلاحًا إلا في فسادك ولا رفعة إلا في سقوط حالك .

وقال حكيم : لا تأمن عدوك وإن كان ضعيفًا ، فإن القناة [4] قد تقتل ، وإن عدمت السنان.

قال الشاعر :

فلا تأمنْ عدوّك لو تراه ... أقلَّ إذا نظرت من القُراد
فإن الحرب تَنشأُ من جبانٍ ... وإنَّ النار تُضرمُ من رمادِ

بيت مفرد :

فمن لم يكن مُنْكُمَ مُسيئًا فإنَّه ... يَشُدّ على كَفٍّ المسيء فيجلبُ

(١) البغايا : الفاجرات المتكسبات بفجورهن .
(٢) العلام : السمة والأمارة .
(٣) الصارم : السيف القاطع .
(٤) القنا : خشبه الرمح .

وقال عبد اللّه بن سليمان بن وهب :

كِفايةُ الله خيرٌ من توقّينا وعادةُ الله في الماضين تكفينا
كاد الأعادي فلا واللهِ ما تَرَكُوا قولاً وفعلاً وتلقينًا وتَهْجينا
ولم نزد نحن في سرٍّ وفي علنٍ على مقالتنا يا ربّنا اكفينا
فكان ذاك وردً الله حَاسِدَنا بغيظهِ لم ينل تقديره فينا

الفصل الرابع
في الحسد

قال اللّه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء : ٥٤] وقال رسول اللّه ﷺ : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود »[1] . وقال علي ـ رضي الله عنه ـ : الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له . وقيل : الحسود غضبان على القدر . ويقال : ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش : الحقد ، والحسد ، وسوء الخلق . وقيل: بئس الشعار الحسد . وقيل لبعضهم : ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب ، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة ، فذكر جمع دواعي الحسد ، وقال أعرابى : الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود ، وهو مأخوذ من الحديث : « قاتل اللّه الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله » . وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي : ـ رحمة الله تعالى عليه ـ : يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود : **أولاها**: غم لا ينقطع . **الثانية** : مصيبة لا يؤجر عليها ، **الثالثة** : مذمة لا يحمد عليها ، **الرابعة**: سخط الرب، **الخامسة** : يغلق عنه باب التوفيق .

ومن ذلك ما حكي أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه ، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان . وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده ، وقال في نفسه : إن لم أحتل علي هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين ، وأبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله ، فطبخ له طعامًا، وأكثر فيه من الثوم ، فلما أكل البدوي منه قال له : احذر أن تقترب من أمير المؤمنين ، فيشم منك رائحة الثوم ، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته ، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين ، فخلا به وقال : يا أمير المؤمنين إن البدوي

(١) سبق تخريجه .

يقول عنك للناس : إن أمير المؤمنين أبخر وهلكتُ من رائحة فمه . فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم ، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال : إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح ، فكتب أمير المؤمنين كتابًا إلى بعض عماله يقول فيه : إذ وصل إليك كتابي هذا ، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه الكتاب ، وقال له : امض به إلى فلان وائتني بالجواب . فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده ، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير ، فقال : أين تريد ؟ قال : أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان ، فقال الوزير في نفسه : إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل ، فقال له : يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ، ويعطيك ألفي دينار ؟ فقال: أنت الكبير ، وأنت الحكم ، ومهما رأيته من الراي أفعل .

قال : أعطني الكتاب ، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار ، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده ، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير . فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي ، وسأل عن الوزير ، فأخبر بأن له أيامًا ما ظهر ، وأن البدوي بالمدينة مقيم ، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي، فحضر، فسأله عن حاله ، فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها ، فقال له : أنت قلت عني للناس أني أبخر ؟ فقال : معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم ، وإنما كان ذلك مكرًا منه وحسدًا ، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه . فقال أمير المؤمنين : قاتل اللّه الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله . ثم خلع على البدوي واتخذه وزيرًا وراح الوزير بحسده. وقال المغيرة شاعر آل المهلب :

آل المهلب قومٌ إن مدحتَهُمُ ... كانوا الأكارم آباءً وأجدادا
إن العرانين (١) تلقاها مُحَسَّدَةً ... ولا ترى لِلِئام الناس حُسَّادا

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك . وقال مالك بن دينار : شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعضهم ، فإنهم أشد تحاسدًا من التيوس (٢) . وعن أنس ـ رضي اللّه تعالى عنه ـ رفعه : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقال منصور (٣) الفقيه :

(١) العرانين : عرانين القوم ساداتهم وأشرافهم . والعرنين : أول كل شيء .
(٢) التيوس : جمع تيس . الذكر من المعز والظباء والوعول إذا بلغ سنة .
(٣) منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي ، أبو الحسن . فقيه . شاعر . ضرير . مدح الخليفة المعز . خبيث اللسان في هجائه . توفي بمصر سنة (٣٠٦ هـ ـ ٩١٨ م) .

منافسة الفتى فيما يزول على نقصان همّته دليلُ
ومختار القليل أقل منه وكل فوائد الدنيا قليل

يقول اللّه عز وجل : الحاسد عدوّ نعمتي . متسخط لفعلي . غير راض بقسمتي التي قسمت لعبادي. قال الشاعر :

أيا حاسدًا لي على نعمتي أتدري على مَنْ أسأتَ الأدبْ؟
أسأت على اللهِ في حكمه لأنَّك لم ترضَ لي ما وهبْ
فأخزاك ربيٌّ بأن زادني وسدّ عليك وجوه الطلبْ

وقال الأصمعي : رأيت أعرابيًا قد بلغ عمره مائة وعشرون سنة ، فقلت له : ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت . وقالوا : لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : ألا لا تعادوا نعم اللّه ، قيل: ومن يعادي نعم اللّه ؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله . وقيل لعبد اللّه بن عروة : لِمَ لزمت البدو، وتركت قومك ؟ فقال : وهل بقي إلا حاسد على نعمتي أو شامت على نكبة ؟ .

وقال الشاعر:

يا طالب العيش في أمنٍ وفي دعةٍ رغدًا بلا قترٍ صفوًا بلا رنق (١)
خلِّصْ فؤادَكَ مِنْ غِلٍّ ومِنْ حَسدٍ فالغِلُّ في القلبِ مِثْلُ الغِلِّ في العُنُقِ(٢)

وقال آخر :

اصبر على حسد الحسو د فإنَّ صبرْك قاتلُه
كالنَّار تأكلُ بعضَهَا إن لم تجدْ ما تأكلُهْ

وفي نوابغ الحكم : الحسد حسك من تعلق به هلك ، ولبعضهم :

إني حُسِدْتُ فزاد اللهُ في حسدي لا عاش من عاش يومًا غير محسود

وقال نصر بن سيار :

إني نشأت وحسادي ذوو عُددٍ يا ذا المعارج لا تنقصْ لهم عددا
إن يحسدوني على ما بي لما بهم فَمِثْلُ ما بيَ مما يجلب الحسدا

---

(١) قتر : ضيق فى النفقة . رنق : الكدر .

(٢) الغِلّ الأولى والثانية : الحقد . الغُلّ : الأخيرة : طوق من حديد أو جلد يجعل فى العنق .

وكان عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ يقول : نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد .

وقيل لأرسطاطاليس [1] : ما بال الحسود أشد غمًّا ؟ قال : لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس .

واللَّه سبحانه وتعالى أعلم ، وصلَّى اللَّه على **سيِّدنا محمَّد** وعلى آله وصحبه وسلم .

(۱) أرسطو أو أرسطوطاليس : (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق م) فيلسوف يوناني . تلميذ أفلاطون وأستاذ الإسكندر المقدوني . من آثاره : « الأرغانون » وكتاب « السياسة » وكتاب « الشعر » .

الباب الأربعون

في الشجاعة وثمرتها ، والحروب وتدبيرها ، وفضل الجهاد ، وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصلان

الفصل الأول : في فضل الجهاد في سبيل الله وشدة البأس

قد أثنى اللّه تعالى على الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، ووصف المجاهدين فقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾[الصف: ٤] . وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء . والرأي في الحرب إمام الشجاعة . قال رسول اللّه ﷺ : « **الحرب خدعة** » (١) . وقال ﷺ : « **ما من قطرة أحب إلى اللّه تعالى من قطرة دم في سبيله أو قطرة دمع في جوف ليل من خشيته** » (٢) . وسمع رجل عبد اللّه بن قيس ـ رضي الله عنه ـ يقول : قال رسول اللّه ﷺ : « **إن الجنّة تحت ظلال السيوف** » (٣) ، فقال : يا أبا موسى أنت سمعت رسول اللّه ﷺ يقوله ؟، قال : نعم ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه ، فألقاه ، ثـم مشى بسيفه إلى العـدو ، فضرب به حتى قتل.

وكتب أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ إلى خالد بن الوليد : اعلم أن عليك عيونًا من اللّه ترعاك وتراك ، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ، ولا تغسل الشهداء من دمائهم ، فإن دم الشهيد يكون له نورًا يوم القيامة . وعن أنس رضي ـ اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ حين انتهينا إلى خيبر : « **اللّه أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين** » (٤) . وعنه رفعه : « **لغدوة في سبيل اللّه أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»(٥) . وعن ابن مسعود رفعه : « **إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل** » (٦) . وقيل : إن أنس بن النضر عم أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ لم يشهد بدرًا ، فلم يزل متحسرًا يقول: أول مشهد شهده رسول اللّه ﷺ غيبت عنه ، فلما كان يوم أحد قال : « **واها لريح الجنة دون أحد** » . فقاتل

---

(١) رواه البخاري في « الجهاد » (٣٠٣٠) ، ومسلم في « الجهاد » (٤٤٥٨) .
(٢) لم اقف عليه .
(٣) رواه البخاري في الجهاد (٢٨١٨) .
(٤) رواه البخاري في « الجهاد » (٤١٩٨) باب غزوة خيبر .
(٥) رواه البخاري في « الجهاد » (٢٨٩٢) ومسلم في « الجهاد » (٤٧٩٠) .
(٦) رواه مسلم في « الجهاد » (٤٨٠٢) .

حتى قتل ، فوجد في بدنه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا ببنانه ، وعن فضالة بنت عبيد رفعه : «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمي له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمن من فتنة القبر»(١) . وعن سهل بن حنيف رفعه : « من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » (٢) .

فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ، ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة .

الفصل الثاني
في الشجاعة وثمرتها ، والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل ، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة . ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس . قال الحكماء : وأصل الخير كله في ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه : الوجه الأول : إذا التقى الجمعان ، وتزاحف العسكران ، وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي : هل من مبارز . والثاني : إذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه ، يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة ، فيتقلب تقلب المالك لأموره القائم على نفسه . والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبني عدوهم ، ويقوي قلوب أصحابه ، ويرجّي الضعيف ، ويمدهم بالكلام الجميل ، ويشجع نفوسهم ، فمن وقع أقامه ، ومن وقف حمله ، ومن كبا به فرسه حماه ، حتى ييأس العدو منهم ، وهذا أحمدهم شجاعة .

وعن هذا قالوا : إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم .

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي(٣) ـ رحمة الله تعالى عليه ـ في كتابه « سراج الملوك » قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا في بلادنا ، قالوا : دارت حرب بين المسلمين والكفار ، ثم افترقوا، فوجدوا في المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته من الرأس ، فقالوا : إنه لم ير قط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها في جاهلية ولا إسلام ، فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٦ / ٢٠ ، ٢٢) وأبو داود (٢٥٠٠) والترمذي (١٦٢١) والطبراني في « الكبير» (١٨ / ٨٠٢ ، ٨٠٣) .

(٢) رواه مسلم في « الجهاد » (٤٨٤٧) باب استحباب طلب الشهادة فيسبيل الله تعالى .

(٣) محمد بن الوليد القرشي الفهري المالكي الطرطوشي . أبو بكر .توفي سنة ٥٢٠ هـ .

لهم، فكانو إذ عيروا بانهزامهم يقولون : لقينا أقوامًا هذا ضربهم ، فيرحل أبطال الروم إليها ليروها.

قالوا : ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلاً ، ولا يغفل عنه وإن كان حقيرًا، فكم برغوث أسهر فيلاً ، ومنع الرقاد ملكًا جليلاً . قال الشاعر :

فلا تحقرنّ عدوًا رماك وإنْ كان في ساعديه قِصرْ
فإنّ السيوفَ تحزُّ الرِّقابَ وتعْجَزُ عمّا تنالُ الإبر

واعلموا أن الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتبا ورتبوا فيها ترتيبًا ، ولنصف منها أشياء نبدأ منها أولاً : بما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم . قال الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] فقوله تعالى : ﴿ مَّا اسْتَطَعْتُم ﴾ مشتمل على كل ما هو مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة . وفسر النبي ﷺ القوة حين مرَّ على أناس يرمون ، فقال : « ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»(١).

وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملاً صالحًا من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وأمثال ذلك . والشأن كل الشأن في استجادة القواد ، وانتخاب الأمراء ، وأصحاب الألوية ، فقد قالت حكماء العجم : أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد . فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة والنجدة ، والشجاعة والجرأة ، ثابت الجأش ، صارم القلب ، صادق البأس ، ممن قد توسط الحروب ، ومارس الرجال ومارسوه ، ونازل الأقران وقارع الأبطال ، عارفًا بمواضع الفرص . خبيرًا بمواضع القلب والميمنة والميسرة من الحروب ، فإنه إذا كان وصدر الكل عن رأية كانوا جميعًا كأنهم مثله ، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهًا وإلاَّ ردَّ الغنم إلى الزربية .

واعلم أن الحرب خدَع عند جميع العقلاء ، وكان عظماء الترك يقولون : ينبغي للعاقل العظيم للقياد أن يكون فيه عدة أخلاق من البهائم ، شجاعة الديك ، وبحث الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب على الجراح ، وحراسة الكركي، وغارة الذئب، وسمن نغير - وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء .

وكان يقال: أشد خلق الله تعالى عشرة : الجبال ، والحديد ينحت الجبال ، والنار تأكل

---

(١) رواه مسلم في « الجهاد » (٤٨٦٤) من عقبة بن عامر رضي الله عنه .

الحديد، والماء يطفىء النار ، والسحاب يحمل الماء ، والريح تصرف السحاب ، والإنسان يتقي الريح بجناحيه ، والسُّكر يصرع الإنسان ، والنوم يذهب السكر ، والهم يمنع النوم ، فأشد خلق ربك الْهَمُّ . اللهمَّ إنَّا نعوذ بك من الهمّ والحزن .

ومن الحيل في الحرب : أن يبث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم ، ويستميل قلوب رؤسائهم ، وذوي الشجاعة منهم ، فيدس إليهم ، ويعدهم وعدًا جميلاً ، ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهبات الفخيمة والولايات السنية ، وإن رأى وجهًا عاجلهم بالهدايا وسامهم إما الغدر بصحبهم ، وإما الاعتزال وقت اللقاء ، ويكتب على السهام أخبارًا مزورة ، ويرمي بها في جيوشهم. واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر ، وأن الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالاً عليها ، وإذا أذن اللّه تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة .

وقال الحكماء : إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة . ويغلب الضعف بإقبال دولته كما يغلب القوي ببقاء مدته ، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال ، وكماة الأبطال في القلب ، فإنه إذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب ، فإذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كان حصنًا للجناحين يأوي إليه كل منهزم ، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان .

مثال ذلك : أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجّى عودته ولو بعد حين ، وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان . وقلَّ عسكرٌ انكسر قلبه فأفلح أو تراجع ، اللهمَّ إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش ، فيخلي القلب قصدًا وتعمدًا ، حتى إذا توسطه العدو ، واشتغل بنهبه انطلق عليه الجناحان . فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب ، ويقال : حبب إلى عدوك الفرار بأن لا تتبعهم إذا انهزموا . ويقال : الشجاع محبب حتى إلى عدوه ، والجبان مبغض حتى إلى أمه.

ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه : أما تستعد ؟ قال : عدتي ثبات قلبي ، وإصابة رأيي ، ونصل سيفي ، ونصرة خالقي . وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع ، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب .

فأنشده مسلمة قول الحطيئة :

قومٌ إذا حاربُوا شدُّوا مآزِرَهُم ... دونَ النساء ولو باتت بأطْهَارِ

فقال يزيد : إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا ، وأما مثل هذا ونظرائه فلا . فقام إليه مسلمة ، فقبله بين عينيه ، وقيل: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلاً من آل ساسان ، فوفد عليهم بهرام جور فقال : اعمدوا إلى أسدين جائعين فاطرحوا بينهما التاج ، فمن أخذه فهو

الملك . ففعلوا ، فدنا منهما فأهويا نحوه ، فأخذ برأس أحدهما ، فأدناه من رأس الآخر ، ثم نطحه به فقتلهما جميعًا ، وشد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه ، وملكته الفرس عليهم.

وقيل : لم يكن في العجم أرمى من الملك بهرام : خرج يتصيد يومًا ، وهو مُرْدِفٌ (١) حظية له كان يعشقها ، فعرضت له ظباء ، فقال : في أي موضع تريدين أن أضع هذا السهم ؟ فقالت: أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث وإناثها بالذكران ، فرمى ظبيًا ذكرًا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين ، ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك ، فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه .

ويقال : إن من أعظم المكايد في الحرب الكمين ، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحمي الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بندًا منشورًا ، ويسمع صوت الطبل ، فحينئذ يكون همه خلاص نفسه . وعليك بانتخاب الفرسان ، واختيار الأبطال ، ولا تنس قول الشاعر :

والناس ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إنْ أمْرٌ عَنَى(٢)

بل قد جرب ذلك ، فوجد الواحد خيرًا من عشرة آلاف .

وسأحكي لك من ذلك ما ترى فيه العجب .

فمن ذلك : لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية ابن روميل النصراني على مدينة (وشقة) من ثغور بلاد الأندلس ، وكان العسكران كالمتكافئين ، كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل . فحدث من حضر الوقعة من الأجناد قال : لما دنا اللقاء . قال الطاغي ابن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله : استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر ، فذهب ، ثم رجع ، فقال له فيهم فلان وفلان ، فعد سبعة رجال . فقال له : انظر من في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم، فعدهم ، فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون ، فقام الطاغية ضاحكًا مسرورًا ، وهو يقول : ما أبيضك من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم ، فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره ، ولا تزحزح عن مقامه ، حتى فنى أكثر العسكرين ، ولم يفر واحد منهم ، قال : فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة ، ثم حملوا علينا جملة وداخلوا

---

(١) أركب عشيقته خلفه .

(٢) أمرٌ عنى : أهمه وشغل به .

مداخلة ، ففرقوا بيننا ، وصرنا شطرين ، وحالوا بيننا وبين أصحابنا ، فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم ، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه ، وانكسر عسكر المسلمين ، وتفرق جمعهم ، وملك العدو مدينة (وشقة) .

فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل ، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفراً ، وليعتبر بضمان العِلْج [١] بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد .

وحكي سيدي أبو بكر الطرطوشي [٢] ـ رحمة الله تعالى عليه ـ قال : سمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحيى قال : بينما المنصور بن أبي عمر في بعض غزواته إذ وقف على نشز[٣] من الأرض مرتفع ، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ، ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملأوا السهل والجبل ، فالتفت إلى مقدم العسكر ، وهو رجل يعرف بابن المضجعي ، فقال له : كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير ؟ قال : أرى جمعًا كثيراً وجيشًا واسعًا كبيراً ، فقال له المنصور ما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة ؟ فسكت ابن المضجعي. قال له المنصور : ما سكوتك ؟ ، أليس في هذا الجيش ألف مقاتل ؟ قال : لا ، فتعجب المنصور ، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين ؟: قال : لا ، فحنق المنصور ، ثم قال : أفيهم مائة رجل من الأبطال ؟ قال : لا ، قال : أفيهم خمسون رجلاً من الأبطال ؟ قال : لا ، قال: فسبه المنصور ، وأغلظ عليه ، فأخرج على أسوأ حال ، فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم ، وتصاف الجمعان ، فبرز علج من الروم بين الصفين شاكي السلام ، وجعل يكر ويفر ويقول : هل من مبارز ؟، فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة، فقتله العلج ، ففرح المشركون ، وصاحوا . واضطرب المسلمون لها ، ثم جعل العلج يمرح بين الصفين وينادي : هل من مبارز اثنين لواحد ؟ ،فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتجاولا ساعة ، فقتله العلج ، وجعل يكر ويحمل ،وينادي ويقول: هل من مبارز ؟ ثلاثة لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين ، فقتله العلج ، فصاح المشركون ، وذل المسلمون، وكادت أن تكون كسرة ، فقيل للمنصور : ما لها إلا ابن المضجعي؟ فبعث إليه ، فحضر . فقال له المنصور : ألا ترى ما

---

(١) العِلْج : الجاف الشديد من الرجال . والحمار الوحشي والضخم القوي من كفار العجم .

(٢) محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى المالكى ، ويعرف بابن أبى رندقة (٤٥٠ ـ ٥٢٠ هـ / ١٠٥٩ ـ ١١٢٦ م) فقيه . أصولى . محدث . مفسر . نشأ فى طراطوشة بالأندلس توفى بالإسكندرية . آثاره : سراج الملوك ـ مختصر تفسير الثعالبى .

(٣) نشز : ما ارتفع من الأرض .

صنع هذا العلج الكلب منذ اليوم ؟ فقيل : لقد رأيته ، فما الذي تريد ؟ قال : أن تكفي المسلمين شره . قال : الآن يكفي المسلمون شره ـ إن شاء الله تعالى ـ ، ثم قصد إلى رجال يعرفهم ، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالاً ، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس ، والرجل في حليته ، ونفسه غير متصنع ، فقال له ابن المضجعي : ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم؟ قال : قد رأيته ، فما الذى تريد؟ قال : أريد أن تكفي المسلمين شره. قال : حبًا وكرامة . ثم إنه وضع القربة بالأرض ، وبرز إليه غير مكترث به ، فتجاولا ساعة ، فلم ير الناس إلا المسلم خارجًا إليهم يركض ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العلج يلعب بها في يده، ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور ، فقال له ابن المضجعي : عن هؤلاء الرجال أخبرتك . قال: فرد ابن المضجعي إلى منزلته ، وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين .

حكي : أنه كان للمعرب فارس يقال له : ابن فتحون ، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه، وكان المستعين (١) يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار ، وكانت جيوش الكفار تهابه ، وتعرف منه الشجاعة ، وتخشى لقاءه . فيحكي : أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له : ويلك لِمَ لا تشرب ؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء ؟. فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ، ومنزلته من السلطان ، فوشوا به عند المستعين ، فأبعده ومنعه من عطائه .

ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم ، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفًا ، ثم برز علج إلى وسط الميدان ، ونادى وقال : هل من مبارز ؟ فبرز إليه فارس من المسلمين ، فتجاولا ساعة، فقتله الرومي ، فصاح المشركون سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين ، وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفين وينادي : هل من اثنين لواحد ؟ فخرج إليه فارس من المسلمين ، فقتله الرومي، فصاح الكفار سرورًا ، وانكسرت نفوس المسلمين ، وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادي ويقول : ثلاثة لواحد ، فلم يجترئ أحد من المسلمين أن يخرج إليه . وبقي الناس في حيرة ، فقيل للسلطان : ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون ، فدعاه ، وتلطف به ، وقال له : يا أبا الوليد : أما ترى ما يصنع هذا العلج ؟ فقال : هاهو بعيني ، قال : فما الحيلة فيه ؟ قال : الساعة أكفي المسلمين شره ، فلبس قميص كتان ، واستوى على سرج فرسه بلا سلاح ، وأخذ بيده سوطًا طويلاً ، وفي طرفه عقدة معقودة ، ثم برز إليه ، فتعجب منه النصراني ، ثم حمل

---

(١) المستعين : الخليفة العباسي : أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد . أمه أم ولد (مخارق) صقلية ولد سنة (٢٢٠ هـ) بويع بالخلافة يوم توفى المنتصر سنة (٢٤٨ هـ) . خلع من الخلافة سنة (٢٥٢ هـ) .

كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج بن فتحون ، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج ، ثم انقلب في سرجه وحمل على العلج وضربه بالسوط ، فالتوى على عنقه ، فجذبه بيده من السرج ، فاقتلعه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدي المستعين ، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون ، فاعتذر إليه ، وأكرمه ، وأحسن إليه ، وبالغ في الإنعام عليه ، ورده إلى أحسن أحواله ، وكان من أعز الناس إليه .

وينبغي لقائد الجيش أن يخفي العلامة التي هو مشهور بها ، فإن عدوه قد يستعلم حيلته وألوان خيله ورايته ، ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهارًا ، وليبدل زيه ويغيِّر خيمته كي لا يلتمس عدوه غرة منه ، وإذا سكن الحرب ، فلا يمشي في النفر اليسير من قومه خارج عسكره ، فإن عيون عدوه متجسسة عليه ، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش أفريقية عند فتحها ، وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار ، فجعل مقدم العدو يمشي خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين ، فجاء الخبر إلى عبد اللَّه بن أبي السرح وهو نائم في قبته ، فخرج فيمن وثق به من رجاله ، وحمل على العدو ، فقتل الملك ، وكان الفتح .

وبمثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك ، ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وأباد جمعه . وكانت الروم قد جمعت جيوشًا يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها ، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف ، كتائب متواصلة ، وعساكر مترادفة ، وكراديس (١) يتلو بعضها بعضًا ، لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد ، وقد استعدوا من الكراع (٢) والسلاح والمجانيق ، والآلات المعدة للحروب ، وفتح الحصون بما لا يحصي ، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين : الشام، والعراق ، ومصر ، وخراسان ، ودياربكر ، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم ، وأن نجوم السعود قد خدمتهم ، ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت (٣) أخبارهم إلى بلاد المسلمين ، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام ، فاحتشد للقائهم الملك « ألب أرسلان » ، وهو الذي يسمي الملك العادل ، وجمع جموعه بمدينة « أصبهان » ، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم (٤) ، فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين ، وقالوا لألب أرسلان : غدًا يتراءى الجمعان ، فبات المسلمون ليلة الجمعة ، والروم في عدد لا يحصيهم إلا اللَّه الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع ، فبقي المسلمون وجلين لما دهمهم ، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض ، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو ، فأمر « ألب

(١) كراديس : الطوائف العظيمة من الخيل أو الجيش .
(٢) الكراع : البقر والغنم .
(٣) تواترت : تتابعت وتوالت .
(٤) يؤمهم : يتقدمهم .

أرسلان »(١) أن يعد المسلمين ، فبلغوا اثني عشر ألفًا فكانوا كالشامة البيضاء في الثور الأسود ، فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين ، والنظر في العواقب ، واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي، فتشاوروا برهة ، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء ، فتوادع القوم وتحاللوا وناصحوا الإسلام وأهله ، وتأهبوا أهبة اللقاء ، وقالوا « لألب أرسلان » : بسم الله نحمل عليهم ، فقال ألب أرسلان : يا معشر أهل الإسلام أمهلوا ، فإن هذا يوم الجمعة ، والمسلمون يخطبون المنابر ، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس ، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ، ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم إذ ذاك ، وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزينته وفرسه ، ثم قال لرجاله : لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلي ، ويتبع أثري ، ويضرب بسيفه ، ويرمي سهمه حيث أضرب بسيفي ، وأرمي بسهمي ، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم ، فقتلوا من كان دونها ، ووصلوا إلى الملك ، فقتلوا من كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك ، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا ، وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أيامًا ، وأخذ المسلمون أموالهم، وغنائمهم ، وأتوا بالملك أسيرًا بين يدي ألب أرسلان والحبل في عنقه ، فقال له ألب أرسلان : ماذا كنت تصنع بي لو أسرتني ؟ قال : وهل تشك أنني كنت أقتلك ؟ ، فقال له ألب أرسلان : أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به ، فبيعوه لمن يزيد فيه ، فكان يقاد والحبل في عنقه، وينادي عليه من يشتري ملك الروم ، وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام ، ومنازل المسلمين ، وينادون عليه بالدراهم والفلوس ، فلم يدفع فيه أحد شيئًا ، حتى باعوه من إنسان بكلب ، فأخذه الذي ينادي عليه ، وأخذ الكلب ، وأتى بهما إلى ألب أرسلان ، وقال : قد طفت به جميع العسكر ، وناديت عليه ، فلم يبذل أحد فيه شيئًا سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب ، فقال : قد أنصفك إن الكلب خير منه . ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه وذهب إلى القسطنطينية ، فعزلته الروم ، وكحلوه بالنار .

فانظر ماذا يأتي على الملوك إذا عرفوا في الحرب من الحيلة والمكيدة ؟. اللهم انصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين ، وأهلك الكفرة ، والمشركين ، وانصر المسلمين نصرًا عزيزًا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم، والحمد للّه رب العالمين .

---

(١) ألب أرسلان السلطان السلجوقي . اشتهر بشجاعته . كبح الثورات . وفتح الكرج . استولى على حلب (٤٦٣ هـ) وغلب ديوجين ملك الروم . مات قتلا ٤٦٥ هـ .

الباب الواحد والأربعون

في ذكر أسماء الشجعان ، وذكر الأبطال ، وطبقاتهم ، وأخبارهم ، وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

الطبقة الأولى : الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ عم رسول الله ﷺ ، أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ . قتل في غزوة أُحد ، رماه وحشي مولى جبير ابن مطعم بحربة فقتله . وكان فارس قريش غير مدافع ، وبطلها غير ممانع ، وعظم قتله على النبي ﷺ ونذر أن تقتل به سبعين رجلاً من قريش ، وكبّر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة.

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وكرم وجهه ـ . آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ ، ومؤيد بالتأييد الإلهي ، كاشف الكروب ومجليها ، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها ، .وهو المتقدم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف . روي عنه ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موتة على فراش . وقال بعض العرب : ما لقينا كتيبة فيها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلا أوصى بعضنا على بعض . وقال ـ رضي الله عنه ـ لمعاوية : قد دعوت الناس إلى الحرب ، فدع الناس جانبًا واخرج إليّ ليعلم أينا المران على قلبه ، والمغطى على بصره ، وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخًا يوم بدر ، وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوي .

وقيل له ـ كرم الله وجهه ـ : إذا جالت الخيل ، فأين نطلبك؟ قال: حيث تركتموني . وقيل له : كيف تقتل الأبطال ؟ قال : لأني كنت ألقى الرجل ، فأقدر أني أقتله ، ويقدر هو أني قتلته، فأكون أنا ونفسه عونًا عليه . وقال مصعب بن الزبير : كان علي ـ رضي الله عنه ـ حذرًا في الحروب شديد الروغان (١) لا يكاد أحد يتمكن منه ، وكانت درعه صدرًا لا ظهر لها، فقيل له : أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك ؟ ، فقال : إذا مكنت عدوي من ظهري ، فلا أبقى الله عليه إن أبقى عليّ . **قتله** عبد الرحمن بن ملجم المرادي ـ لعنة الله تعالى عليه ـ ، غدره وهو في صلاة الصبح .

سبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم ـ لعنه الله ـ تزوج بقطام بنت علقمة ، وكانت خارجية، فقالت له : لا أقنع إلا بصداق أسميه وهو ثلاثة آلاف درهم ، وعبد ، وأمة ، وأن تقتل علي بن أبي طالب . فقال لها : لك ما سألت إلا علي بن أبي طالب ، وكيف لي به ؟ قالت : تغتاله ، فإن سلمت أرحت الناس من شره ، وأقمت مع أهلك ، وإن أصبت دخلت

---

(١) الروغان : حاد وذهب يمنة ويسرة في سرعة وخديعة .

الجنة . فقال :

ثلاثــةُ آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ وضربُ عَلِيٍّ بالحسامِ المِخْذَمِ (١)
فلا مهرٌ أغلى مِنْ عَلِيٍّ وإن علا ولا فَتْكٌ إلا دون فتكِ ابن ملجمِ

قيل : إنه طعنه وهو داخل المسجد في الغلس (٢) ، وذلك في تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين . كفن ـ رضي اللّه عنه ـ في ثلاثة أثواب ، ودفن في الرحبة مما يلي باب كندة من أبواب المسجد .

قالوا : ولما ضربه ابن ملجم ـ لعنه اللّه ـ . ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنهم ـ ، فاحتضنوه ، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب ، فأخذه ، فأومأ علي ـ رضي الله عنه ـ إلى المغيرة أن صل بالناس ، فصلى بهم الفجر وأقبلت همدان ، فدخلوا على عليٍّ، فقالوا : يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة ـ إن شاء الله تعالى ـ ، فقال : لا تفعلوا إنما النفس بالنفس . قال : ثم إن الحسن ـ رضي الله عنه ـ صلى الفجر وصعد المنبر ، فأراد الكلام ، فخنقته العبرة ، ثم نطق ، فقال : الحمد للّه على ما أحببنا وكرهنا ، واشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ وإني أحتسب عند اللّه عز وجل مصابي بأفضل الآباء رسول اللّه القائل ﷺ : « من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته فيّ». فإنها أعظم المصائب ، واللّه الذي لا إله إلا هو الذي أنزل على عبده الفرقان ، لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول اللّه ﷺ ، ولا يدركه الآخرون . فعند اللّه نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ . فواللّه لا أقول اليوم إلا حقًا ، لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد ، والشجر، والدواب .

ولقد قبض في الليلة التي رفع فيها عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ إلى السماء ، وقبض فيها موسى بن عمران ، ويوشع بن نون ـ عليهما السلام ـ وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ ، ولقد كان رسول اللّه ﷺ يبعثه في السرية ، ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فما يرجع حتى يفتح اللّه عزّ وجلّ على يديه ، وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادما لأهله ، الا إن أمور اللّه تعالى تجري على اجرالها ، فما احسنها من الله واسواه من انفسكم .

الا إن قريشا أعطت أزمتها شياطينها ، فقادتها بأعنتها إلى النار ، فمنهم : من قاتل رسول اللّه ﷺ حتى اظهره اللّه تعالى عليه ، ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد على النفاق أعوانا .

---

(١) المِخْذَم : السيف القاطع .
(٢) الغلس : ظلمة آخر الليل .

رفع الكتاب ، وجف القلم ، وأمور تقضى في كتاب قد خلا. ثم أطرق الحسن ، فبكى الناس بكاء شديدا، ثم نزل ، فجرد سيفه ، ودعا بابن ملجم ، فأقبل يخطر واضعا شعره على أذنيه حتى قام بين يديه ، فقال : ياحسن إني ما عاهدت اللّه تعالى على عهد قط إلاّ وفيت به . عاهدت اللّه تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلته ، فإن تخلني أقتل معاوية ، فإن أنا قتلته أضع يدي على يدك ، وإن أقتل ، فهوالذي تريد . فقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ : أما واللّه لا سبيل إلى بقائك ، ثم قام إليه فضربه بالسيف ، فاتقاه ابن ملجم بيد ، ثم أسرع السيف فيه فقتله .

ومن الأبطال : **خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي** : ـ رضي اللّه عنه ـ . سيف اللّه ، وسيف رسول ﷺ بطل مذكور ، وفارس مشهور في الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة ، وقتل مسيلمة الكذاب ـ لعنه اللّه ـ . وكان الفتح لخالد يوم اليمامة ، وهو الذي فتح دمشق ، أكثر بلاد الشام ، وله وقائع عظيمة في الروم . أيد الله بها الإسلام . مات على فراشه ، وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا زحفًا ، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه أثر طعنة أو ضربة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي لا نامت عين الجبان . وكان ينشد ويرتجز ويقول :

لا ترعِبُونا بالسيوفِ المُبرقَه إن السهام بالرَّدَى مفرقه
والحرب دونها العِقالُ مُطْلَقَةْ وخالدٌ من دينه على ثِقَهْ

الزبير بن العوام- رضي اللّه عنه ـ حواري رسول اللّه ﷺ وابن عمته بطل شجاع لا يمارى ، وشهم لا يحاول . قتله عمرو بن جرموز ، اغتاله وهو في الصلاة.

عمرو بن معد يكرب الزبيدي : فارس من فرسان الجاهلية ، وله مواقف مذكورة ، ومواطن مشهورة ، وأسلم ثم ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام ، وشهد حروب الفرس ، وكان له فيها أفعال عظيمة ، وأحوال جسيمة ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ إذا رآه قال: الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمرًا . روي عنه ـ رضي اللّه عنه ـ أنه سأله يومًا ، فقال له : يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب ؟ قال : فعن أيها تسأل ؟ قال : ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يخطئ ويصيب ، قال : فما تقول في الرمح ؟ قال : أخوك وربما خانك . قال : فما تقول في الترس؟ قال : هو الدائر ، وعليه تدور الدوائر ، قال : فما تقول في السيف ؟ قال : ذلك العدة عند الشدة .

وقيل: إنه نزل يوم القادسية على النهر ، فقال لأصحابه : إنني عابر على هذا الجسر قال : فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي ، وقد عرفني القوم، وأنا قائم بينهم . وإن أبطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم . ثم انغمس فحمل على القوم ، فقال بعضهم لبعض : يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم ؟ ، والله ما نظن أنكم تدركونه حيّا،

فحملوا فانتبهوا إليه ، وقد صرع عن فرسه ، وقد أخذ برجل فرس رجلاً من العجم ، فأمسكها والفارس يضرب فرسه ، فلم تقدر أن تتحرك ، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلّى فرسه، فركبه عمرو قال : أنا أبو ثور كدتم والله تفقدونني. فقالوا: أين فرسك ؟ فقال : رمي بنشابة، فغار وشب فصرعني .

ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين ، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل ، فضرب عمرو الفيل ، فقطع عرقوبه، فسقط رستم ، وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار ، فقتل رستم وانهزمت العجم .

وقُتِلَ عمرو بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمّر حتى ضعف وكان من الشعراء المعدودين، وفيه يقَول العباس بن مرداس :

إذا مات عمرُو قُلْتُ للخيلِ :أوطئي زَبِيدًا فَقَد أوْدَى بِنَجَدتها عمرُو

ومنهم : **طلحة الأسدي** : ـ رضي اللَّه عنه ـ ، كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلامًا ، ثم ارتد وتنبأ ، وجمع جمعًا عظيمًا ، فَفَلّ خالد بن الوليد جمعه وكان يتكهن ، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح .

المقداد بن الأسود :ـ رضي اللَّه عنه ـ كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوي الجنان رابط الجأش ، وله في الشجعان اسم مشهور ، ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته ـ رضي اللَّه عنه ـ وأرضاه .

وسعد بن أبي وقاص الزهري الأنصاري : ـ رضي اللَّه عنه ـ كان فارسًا بطلاً راميًا ، وهو أول من رمى في سبيل اللَّه بسهم ، ولما قتل عثمان بن عفان ـ رضي اللَّه عنه ـ اعتزل ، ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف أنفه .

أبو دجانة الأنصاري :ـ رضي اللَّه عنه ـ الذي خرج يتبختر بين الصفين ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنها لمشية يبغضها اللَّه تعالى إلا في هذا الموضع . **والمثنى بن حارثة الشيباني** : ـ رضي اللَّه عنه ـ هو أول من فتح حرب الفرس .**وأبو عبيد بن مسعود الثقفي**: ـ رضي الله عنه، قاتل القوم يوم قس الناطف في حرب القادسية . **وعمار بن ياسر** : ـ رضي الله عنه ـ صاحب رسول الله ﷺ الذي قال فيه رسول اللَّه ﷺ : « الحق يدور مع عمار حيث دار » ، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية ، فقتل بصفين وكان مع علي ـ رضي الله عنه ـ . **هاشم بن عتبة** :ـ رضي الله عنه من أكابر الشجعان ، صاحب راية علي ـ رضي الله عنه ـ بصفين . **مالك بن الحرث النخعي الأشتر** ـ رضي الله عنه ـ ، مات مسمومًا في شربة من عسل ، فقال معاوية : إن لله جنودًا

منها العسل. **القعقاع بن عمرو** طاعن الفيل في عشية القادسية ـ رضي الله عنه ـ .

الطبقة الثانية : عبد الله بن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ ، قاتل جرجير ملك أفريقية الذي كان يرى أنه أشجع أهل عصره . قال عمر بن عبد العزيز لابـن أبي مليكة : صف لي عبد اللّه بن الزبير ، فقال : والله ما رأيت جلدًا قط ركب على لحم ، ولا لحمًا على عصب ولا عصبًا على عظم مثل جلده ، ولحمه ، وعصبه ، ولا رأيت نفسًا بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه . ولقد قام يومًا إلى الصلاة ، فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحييه وصدره ، فوالله ما خشع له بصره وقطع له قراءته ، ولا ركع دون الركوع كان يركع . قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة ، وأسلمه أصحابه وعشيرته ، وصلبه الحجاج ، ألا إلى اللّه تصير الأمور .

أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب بن الحنفية :ـ رضي اللّه عنه ـ ، كان أبوه يلقيه في الوقائع ويتقي به العظائم، وهو شديد البأس ، ثابت الجنان ، قيل له يومًا : ما بال أمير المؤمنين علي ـ كرم اللّه وجهه ـ يقحمك الحروب دون الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ ؟ فقال : لأنهما كانا عينيه وكنت أنا يديه ، فكان يتقي عينيه بيديه . وقيل : إن أباه عليًا ـ رضي الله عنه ـ اشترى درعًا فاستطالها ، فأراد أن يقطع منها ، فقال له محمد : يا أبت علّم موضع القطع ، فعلم على موضع منها ، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها ، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها ، فقطعها من الموضع الذي حده أبوه . وكان عبد اللّه بن الزبير مع تقدمه في الشجاعة يحسده على قوته ، وإذا حدّث بها الحديث غضب .مات حتف أنفه بشعب رضوى .

عبد الله بن حازم السلمي ـ رضي اللّه عنه ـ والي خراسان شجيع مضر وفارسها في عصره ، قتله وكيع بن أبي سويد بخراسان في الفتنة . **وكيع بن أبي سويد** : قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره ، شجاع فاتك أهوج ولي خراسان . قيل : لما قتل عبد الله بن حازم ، ولم يتم أمره لهوجه مات حتف أنفه . **مصعب بن الزبير بن العوام** شجاع بطل جواد ، جاد بماله وبنفسه، قتله عبيد الله بن زياد في الحروب التي كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان . **عمير بن الحباب السلمي** : فارس الإسلام قتله بنو تغلب في الحرب التي كانت بينهم وبين قيس . **مسلمة بـن عبد الملك بن مروان** . فحل بني أمية وفارسها ووالي حروبها ، قيل : إنه جلس يومًا ليقضي بين الناس بمصر ، فكلمته امرأة، فلم يقبل عليها ، فقالت : ما رأيت أقل حياء من هذا قط ، فكشف عن ساقه فإذا فيه أثر تسع طعنات . فقال لها : هل ترين أثر هذا الطعن؟، والله لو أخرت رجلي قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن ، وما منعي من تأخيرها إلا الحياء ، وأنت تنحليني قلته . **المعتصم** : بطل شجاع ، فارس صنديد لم يكن في بني العباس أشجع منه ولا أشد قلبًا. قال ابن أبي داود : كان المعتصم يقول لي : يا أبا عبد اللّه عض على ساعدي بأكثر

قوتك ، فأقول : والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك ، فيقول : إنه لا يضرني فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنّة ، فكيف تعمل فيه الأسنان ، ويقال : إنه طعنه بعض الخوارج، وعليه درع ، فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين . وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها ، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقًا في العنق .

إبراهيم بن الأشتر النخعي كان من الشجعان المعدودين ، حارب عبيد اللّه بن زياد وهو في أربعة آلاف ، وعبيد الله في سبعين ألفًا ، فظفر به ، وقتله بيده وهزم جيشه . **عبد الله بن الحر الجعفي** ، شجاع شاعر فاتك له وقائع عظيمة هائلة ، وأخباره في الشجاعة مشهورة .

جحدر بن ربيعة العكلي(١) ، كان بطلاً شجاعًا فاتكًا مغيرًا شاعرًا ، قهر أهل اليمامة ، وأبادهم، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف ، فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه ، ويأمره بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيرًا ، فوجّه العامل إليه فتية من بني حنظلة ، وجعل لهم جعلاً عظيمًا إن هم قتلوا جحدرًا أو أتوا به أسيرًا ، فتوجه الفتية في طلبه حتى إذا كانوا قريبًا منه أرسلوا يقولون له : إنهم يريدون الانقطاع إليه والارتفاق به ، فوثق بذلك منهم ، وسكن إلى قولهم، فبينما هو معهم يومًا إذ وثبوا عليه فشدوه وثاقًا ، وقدموا به على العامل ، فوجه به إلى الحجاج معهم ، فلما قدموا به عليه ، ومثل بين يديه قال له : أنت جحدر ؟ قال : نعم . أصلح اللّه الأمير . قال : ما جراك على ما بلغني عنك ؟ قال : أصلح اللّه الأمير : كلب(٢) الزمان ، وجفوة السلطان ، وجراة الجنان . قال : وما بلغ من أمرك ؟ قال : لو ابتلاني (٣) الأمير ، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه ، قال : فتعجب الحجاج من ثبات عقله ، ومنطقه ، ثم قال: يا جحدر إني قاذف بك في حاجر فيه أسد عظيم ، فإن قتلك كفانا مؤنتك، وإن قتلته عفونا عنك . قال : أصلح اللّه الأمير قَرُبَ الفرجُ إن شاء اللّه تعالى ، فأمر به ، فصفدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسدًا ويحمله إليه ، فتحيل العامل وارتاد له أسدًا كان كاسرًا خبيثًا قد أفنى عامة المواشي ، فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه في تابوت وسحبوه على عجل، فلم قدموا به على الحجاج أمر به فألقي في الحاجر ولم يطعم شيئًا ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب ، ثم أمر بجحدر أن ينزلوه إليه ، فأعطوه سيفًا وأنزلوه إليه مقيدً ، وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر، فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض ووثب وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال ، وارتاعت أهل الأرض ، فشد عليه جحدر، وهو ينشد

---

(١) جحدر هذا . شاعر من أهل اليمامة قاطع وناهب المال ـ طريق ما بين حجر واليمامة .

(٢) كلب الزمان : اشتد .

(٣) ابتلانى : جربنى وامتحننى .

ويقول:

ليثٌ وليثٌ في مجالٍ ضنْكِ(١) كلاهما ذُو قوَّةٍ وسفك
وَصَوْلــــةٍ وبطْشــــةٍ وفَتْــــكِ أن يكْشِفَ الله قنــاع الشــكِّ

فأنتَ لي في قبضتِي ومُلْكي

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته ، فكبر الناس وأعجب الحجاج ذلك ، وقال : لِلَّهِ دَرُّك ما أنجبك ، ثم أمر به ، فأخرج من الحاجر وفك عنه قيوده ، وقال له : اختر إما أن تقيم معنا فنكرمك ، ونقرب من منزلتك وإما أن نأذن لك ، فتلحق ببلادك وأهلك على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثًا ، ولا تؤذي بها أحدًا ، قال : بل أختار صحبتك أيها الأمير ، فجعله من سُمَّاره وخواصه ، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة . وكان من أمره ما كان .

المهلب بن أبي صفرة : كان من الشجعان ، ومن الأبطال المعدودة ، وأولاده كلهم أنجاد أبطال إلا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكنًا ، وكان المهلب يقول : ما شهد معي المغيرة حربًا إلا رأيت البشرى في وجهه ، وحمل عليه بعض الشجعان ، وفي يديه شجرة ، فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج ، وحمل من تحتها فبراها بسيفه .

وكان المهلب يقول : أشجع الناس ثلاثة : **ابن الكلبية** ، **وأحمر قريش** ، **وراكب البغلة** ، فابن الكلبية : **مصعب بن الزبير** ، وأحمر قريش **عمر بن عبد الله بن معمر** ما لقي خيلاً قط إلا فرقها . وراكب البغلة : **عباد بن الحصين** مما كان قط في كربة إلا فرجها وهو من الإسلام .

وكان للمهلب في الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين ، وكان سيدًا كريمًا ، مات حتف أنفه ، وكذلك ابنه المغيرة ، وفيه يقول زياد الأعجم :

مات المغيرةُ بعــد طــول تعرضٍ للقتــــل بــين أسنّةٍ وصفائــح

وكان في **الخوارج** فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال ، وذكرهم يطول ، وخرج عما أردناه. فمنهم : **أبو بلال مرداس**: خرج في أربعين فهزم ألفين . **وشبيب الخارجي** الذي غرق في الفرات ، ونذرت امرأته (غزالة) أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في الأولى: البقرة، وفي الثانية: آل عمران ، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع ، ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها ، **والحجاج** : في الكوفة في خمسين ألفًا . ومنهم: **قطري بن الفجاءة** : كان رأس

(١) الضنك : الضيق من كل شيء وفي القرآن الكريم ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه : ١٢٤] .

الخوارج، وخاطبوه بأمير المؤمنين ، وعظموه وبجلوه ، وأشعاره في الشجاعة تدل على مكانه منها، قُتل في بعض وقائع الخوارج.

الطبقة الثالثة : **معن بن زائدة الشيباني** : قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي . **الوليد بن طريف الشيباني** : قتله يزيد بن مزيد . **عمرو بن حنيف** : كان من الفرسان المعدودة ، نقل عنه أنه كان يتصيد ، فتتبع حمار وحش وما زال يركض إلى أن حاذاه ،فجمع رجليه ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمار الوحش ، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين في يده حتى قتله . **أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي** : فارس . بطل . شاعر . نديم . جامع لما تفرق في غيره ، طعن فارسين رديفين ، فأنفذ الرمح من ظهريهما ، وحمل برمحه أربعة نفر ، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قالوا : وينظمُ(١) فارسين بطعنة ... يـومَ اللقـاء ولا يـَراه جَليلا
لا تَعْجَبوا لـو كـان مَدُّ قناتِهِ ... ميـلا إذًا نظم الفـوارسَ ميـلا

وسأله يومًا رجل شيئًا ، فقال له : أتسأل وجدك القائل :

وَمَنْ يفتقرُ منّا يعـشْ بِحُسـامِه ... ومَنْ يفتقرُ من سائر الناس يسألِ
وإنّا لنَلْهو بالسيوفِ كَمَـا لهتْ ... فتاةٌ بعِقْـدٍ أو سِخَـابِ قَرَنْفـل

فخرج الرجل ، فجرد سيفه ، فلم يصادفه في طريقه إلا وكيل لأبي دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقتله ، فبلغ الخبر أبا دلف فقال : دعوه ، فإني علمته في نفسي . **بكر بن النطاح** بطل شنجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة، وأخبار مذكورة .

ومما جاء في مدح السيف : قال رسول الله ﷺ : « **الخير في السيف والخير مع السيف والخير بالسيف** » . وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب ، وممن تمثل به نهشل ، فقال:

أخٌ ماجدٌ ما خانني يومَ مشهدٍ ... كما سيف عمرو لم تخنه مضاربُه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال:

خليلي لـم أخُنـه ولـم يَخني ... إذا مـا صـاب أوساط العظامِ
خليلي لـم أهـبه مـن قِلاهُ(٢) ... ولكـنَّ المواهـبَ للكـرام

---

(١) نظم : جمعهما بضربة واحدة .

(٢) قلاه : القلى : البغض . وذكره الله في قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى : ٣] .

حَبَوْتُ به كريمًا من قريشٍ فَسُرَّ به وصِينَ عن اللئامِ(١)
وودّعت الصّفيَّ صفيَّ نفسي على الصَّمصامِ أضعافَ السلامِ(٢)

ولم يزل في آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه ، فلم يزل عند بني مروان ، ثم طلبه السفاح، والمنصور ، والمهدي ، فلم يجدوه، فجد الهادي في طلبه حتى ظفر به ، وكان مكتوبًا عليه هذا البيت :

ذَكَرٌ على ذكرٍ يصول بصارمٍ ذَكَرٌ يمانٍ في يمين يماني(٣)

وقال ابن الرومي :

لَمْ أرَ شيئًا حاضرًا نَفْعُه للمرئِ كالدرهم والسيفِ
يقضي له الدرهمُ حاجاته والسيفُ يَحميه من الحَيفِ (٤)

وقال زيد بن علي رضي الله عنهما :

السيف يعرفُ عزمي عند هزّته والرمْحُ بِي خُبْرٌ والله لي وَزَرُ
إنّا لنأملُ ما كانت أوائلُنا من قبلُ تأملُه إن ساعد القدرُ

وقال عبد الله بن طاهر :

يبيت ضَجيعي السيفُ طورًا وتارةً تَعَضُّ بهامات الرجالِ مضاربُه
أخو ثقة أرضاهُ في الروع صاحبًا وفَوْقَ رضاه أنني أنا صَاحِبُه
وليس أخو العلياءِ إلا فتىً له بها كلفٌ ما تَسْتَقِرُّ رَكَائِبُه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله ، فطلب منه سيف الزبير، وقال له : رده عليَّ ، فإنه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين ، فقال له عبد الملك : أوَ تعرفه ؟ قال : نعم . قال : بماذا ؟ قال : أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك . أعرفه بقول الشاعر :

ولا عيبَ فِيهم غَيْر أنَّ سيُوفَهم بهنّ فلولٌ من قِراع الكتائبِ(٥)

---

(١) حبوت : حبا : العطاء ، وأيضًا : اختصه ومال إليه .
(٢) الصمصام : السيف القاطع .
(٣) ذكر في الشطر الأول الرجل الفارس . وذكر في الشطر الثاني : السيف القاطع .
(٤) الحيف : الظلم والجور .
(٥) الفلول : جمع فَلّ : كسر في حد السيف . قراع الكتائب : ضرب بعضهم بعضًا بالسيوف .

وقال الأجدع الهمداني :

لقد علمت نسوانُ همدان أنّني لهنّ غداة الروعِ غيرُ خَذولِ
وأبذلُ في الهيجاءِ وجهي وإنّني له في سوى الهيجاءِ غيرُ بذولِ

وقال آخر :

عشرون ألفٌ فتىً ما منهم أحدٌ إلاّ كألفِ فتىً مِقْدامُه بَطَلُ
راحت مزاوِدُهُم(١) مملوءةً أملاً ففرّغوها وأوْكُوها من الأجلِ

ومن أخبار الشجعان: ما حكاه الفضل بن يزيد : قال : نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين، وكنت مشغوفًا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها ، فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها ، وهي آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله في حسنه وجماله ، له ذؤابتان كالسبج(٢) المنظوم ، وهي تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب ، وأكثر ما أسمع منها أي بني ، وهو يبتسم في وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر لا يرد جوابًا . فاستحسنتُ ما رأيتُ ، واستحليتُ ما سمعتُ ، فدنوتُ منه وسلمت ، فرد عليَّ السلام ، فوقفت أنظر إليها ، فقالت : يا حضري ما حاجتك؟ فقلت : الاستكثار مما أسمع، والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام . فقالت : يا حضري إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره ، فقلت : قد شئت يرحمك الله .

فقالت : حملته والرزق عسر ، والعيش نكد حملاً خفيفًا حتى مضت له تسعة أشهر ، وشاء الله عز وجل أن أضعه ، فوضعته خلقًا سويًا ، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل، وأعطى وآتى من الرزق بما كفى وأغنى ، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فربي كأنه شبل أسدٍ أقيه برد الشتاء ، وحر الهجير ، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب ، فحفظه القرآن ، فتلاه ، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده ، فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ، ومشى بين بويتات الحي الخيلاء ، فأخذه في قري الضيف وإطعام الطعام ، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه ، فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب ، فخرج فتيان الحي في طلب ثأر لهم ، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج ، حتى إذا أمعن القوم ، ولم يبق في الحي غيره ، ونحن

(١) المزاود جمع مزود : وعاء الزاد .
(٢) السبج : خرز أسود يصنع منه العقد .

آمنون وادعون ، ما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو ، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها ، وهو يسألني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقًا عليه وضنًا به ، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات(١) رمى دثاره وثار كما يثور الأسد ، وأمر بإسراج فرسه ، ولبس لأمة حربه ، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم ، فطعن أدناهم منه فرمى به ، ولحق أبعدهم منه فقتله ، فانصرفت وجوه الفرسان ، فرأوه صبيًا صغيرًا لا مدد وراءه فحملوا عليه ، فأقبل يؤم البيوت ، ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة ، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ، ففرق شملهم وشتت جمعهم، وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ، ومرق كم يمرق السهم ، وناداهم : خلوا عن المال ، فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهلكن دونه ، فانصرفت إليه الأقران ، وتمايلت نحوه الفرسان ، وتميزت له الفتيان ، وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنّة ، وعطفوا عليه بالأعنّة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل ، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها ، ولا كتيبة إلا مزقها حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه ، ثم ساق المال ، وأقبل به ، فكبّر القوم عند رؤيته ، وفرح الناس بسلامته ، فوالله ما رأينا قط يومًا كان أسمح صباحًا وأحسن رواحًا من ذلك اليوم ، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيان الحي هذه الأبيات :

تأملّنَ فِعْلي هل رأيتُنّ مثلَهُ ... إذا حشرجت نَفْس الجبان من الكربِ
وَضَاقت عليه الأرض حتى كأنّه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلبِ
ألــم أعطِ كــلا حقّه ونصيبه ... من السمهري اللدن والمرهف العضبِ
أنا ابن أبي هند بن قيسِ بنِ مالكٌ ... سليلُ المعـالي والمكـــارمِ والسَّيب(٢)
أبي لي أن أعطي الظلامة مرهفٌ ... وطرفٌ قويٌّ الظهر والجوف والجنبِ
وعزمٌ صحيحٌ لو ضربت بحدّه الـ ... ـجبال الرواسي لانحطَطْن إلى الترابِ
وعرضٌ نقي دونكنّ وأحتَمِي ... وبيتٌ شريفٌ في ذُرى تَغْلَبِ الغلبِ
فإن لم أقاتل دونكنّ وأحتمي ... لكنْ وأحْميكُنّ بالطعن والضربِ
فلا صدّق اللاتي مشين إلى أبي ... يُهَنّينه بالفارسِ البطـل النَّـدب (٣)

(١) المخدرات : النساء المقيمات فى سترهن .
(٢) السيب : العطاء .
(٣) الندب : سريع استجابة الصريخ.

وقال الشاعر :

آرَاؤُهـــم ووجوههـــم وسُيوفُهُـم ... فـــي الحادثات إذا دَجَـوْنَ نُجُـومُ
منهـــا معالـــم للهـــدى ومصابـــح ... تجلـــو الدجـى والأخريـات رجـــوم

وقال آخر :

فوارسُ قَوّالَون للخيلِ أقْدِمي ... وليس على غير الرؤوس مَجَالُ
بأيديهُمُ سمرُ العوالي كأنّما ... تشيبُ على أطرافِهِنّ ذُبالُ

وقال آخر :

قومٌ إذا اقتحموا العجاج رأيْتَهم ... شمسًا وخلت وجوههم أقمارا
لا يَعْدِلون برِفدِهم عن سائلٍ ... عدَلَ الزمانُ عليهم أو جَارا
وإذا الصريخُ دَعَاهُم للمّةٍ ... بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم : قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن ، فقال : « **اللهمّ إني أعوذ بك من الهمّ والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال** » نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ ويكفيك أن يقال في وصف الجبان ، إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضة طال سهاده ، يفزع من صرير الباب ، ويقلق من طنين الذباب ، إن نظر إليه شزرًا أغمي عليه شهرًا . يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح ، قال الشاعر :

إذا صوّت العصفورُ طارَ فؤادُهُ ... وليثٌ حديدُ النابِ عند الثرائد

وكان حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ من الجبناء ، روي عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان في قاع أطم مع النساء يوم الخندق ، فأتاهم في ذلك اليوم يهودي يطوف بالحصن ، فقالت صفية بنت عبد المطلب ـ رضي الله عنها ـ : يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود ، فانزل إليه فاقتله . فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قال : فاعتجرت صفية ، ثم أخذت عمودًا ونزلت من الحصن ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، ورجعت إلى الحصن ، فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه ، فإنه ما منعني من سلبه إلا أنه رجل ، فقال : ما لي بسلبه من حاجة .

وقيل : كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب ، وكان يحبها حبًا شديدًا ،

فأصابته إضاقة وفاقة ، فاحتاج إلى ثمنها ، فحملها إلى العراق ، وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف ، فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة ، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه ، فأنزله قريبًا منه ، وأحسن إليه ، فدخل على الحجاج ، والجارية تكبسه ، وكان الفتى جميلاً، فجعلت الجارية تسارقه النظر ، ففطن الحجاج بها ، فوهبها له ، فأخذها وانصرف، فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدري أين هي ؟ وبلغ الحجاج ذلك ، فأمر مناديًا أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا ، ولم يحضرها ، فلم يلبث أن أتيي له بها .

فقال لها الحجاج : يا عدوة الله كنت عندي من أحب الناس إليَّ ، فاخترت ابن عمي شابًا حسن الوجه ، ورأيتك تسارقينه النظر ، فعلمت أنك شغفت به ، فوهبتك له ، فهربت من ليلتك . فقالت يا سيدي : اسمع قصتي ، ثم اصنع بي ما شئت . قال : هاتي ولا تخفي شيئًا. قالت: كنت للفتى القرشي ، فاحتاج إلى ثمني ، فحملني إلى الكوفة ، فلما قربنا منها دنا مني فوقع عليَّ ، فسمع زئير الأسد ، فوثب واخترط سيفه وحمل عليه ، وضربه ، فقتله، وأتى برأسه ، ثم أقبل عليَّ وما برد ما عنده ، ثم قضى حاجته ، وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إليَّ ، فلما علا بطني وقعت فأرة من السقف ، فضرط ، ثم غشي عليه ، فمكث زمانًا طويلاً وأنا أرش عليه الماء ، وهو لا يفيق ، فخفت أن يموت ، فتتهمني به ، فهربت فزعًا منك .

فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك ، وقال : ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدًا . قالت : على أن لا تردني إليه . قال : لك ذلك .

وحدث جار لأبي حنيفة النميري قال : كان لأبي حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق ، وكان يسميه لعاب المنية ، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه ، وهو واقف على باب بيته ، وقد سمع حسًا في داره ، وهو يقول : أيها المغتر بنا المجترئ علينا ، بئس والله ما اخترت لنفسك خير قليل ، وسيف صقيل ، وهو لعاب المنية الذي سمعت به . اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك ، ثم فتح الباب على وجل ، فإذا كلب قد خرج ، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفانا حربًا .

وخرج المعتصم يومً إلى بعض متصيداته ، فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه : أفيك خير يا رجل ؟ قال : لا ، فضحك المعتصم ، وقال : قبح الله الجبان .

ورأى الإسكندر سميًا له لا يزال ينهزم ، فقال له: يا رجل إما أن تُغَيّرَ فعلك ، وإما أن تُغَيّرَ اسمك . ووقع في بعض العساكر ضجة ، فوثب خراساني إلى دابته ليلجمها ، فصير اللجام في

الذنب من الدهش ،وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت ، فناصيتك كيف طالت ؟.

وخرج أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس، وكان مرداس في أربعين ، فانهزم أسلم منه ، فلاموه على ذلك ، وذمه ابن أبي زياد ، فقال: لأن يذمني ابن أبي زياد حيًّا أحب إليَّ من أن يمدحني ميتًا . وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك ، فكبر ذلك عليه ، فشكاهم إلى ابن أبي زياد ، فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه . وفي ذلك يقول بعضهم شعرًا :

يقول جبانُ القومِ في حال سكرهِ وقد شرب الصهباء :هل من مبارزِ؟
وأين الخيولُ الأعوجياتُ في الوَغَى أنازل منهم كلّ ليثٍ مناهز
ففي السُكْرِ قيسٌ وابنُ معدي ، وعامرٌ وفي الصَّحْو تلقاه كبعض العجائزِ(١)

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب ، والحمد لله الكريم الوهاب ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وأصحابه الطاهرين ، والحمد لله رب العالمين .

(١) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسى أحد صناديدها . توفى نحو ٢ق. هـ . وابن معدي . معد يكرب بن الحارث بن عمر بن حُجر . آكل المرار الكندي من قطحان توفى ٦٠ ق .هـ . وعامر . عامر بن جوين بن عبد رُضاه الطائي . شاعر فارسى . من أشراف طيئ في الجاهلية .

الباب الثاني والأربعون

في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول

في المدح والثناء

المدح: وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها ، يكون نعتًا حميدًا، وهذا يصح من المولى في حق عبده ، فقد قال الله تعالى في حق نبيّه أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] . وقال تعالى لنبيه محمَّد ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] وقال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى آخر الآية [المؤمنون : ١ ، ٢] . فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة، وأما قوله ﷺ: « **إذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب** » ! فقد قال العتبي : هو المدح الباطل والكذب ، وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به ، وقد مدح أبو طالب ، والعباس ، وحسان، وكعب ، وغيرهم رسول الله ﷺ ولم يبلغنا أنه حثا في وجه مادح ترابًا ، وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ . **وفي حثو التراب معنيان : أحدهما** : التغليظ في الرد عليه ، **والثاني** : كأنه يقال له : يكفيك التراب . وكان أبو بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ إذا مُدِحَ قال: اللهمَّ أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهمَّ اجعلني خيرًا مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون . ومدح سارية الديلي رسول الله ﷺ وهو سارية الذي أمَّره عمر ـ رضي الله عنه ـ على السرية ، وناداه في خطبته بقوله : يا سارية الجبل ، فمن مدحه في رسول الله ﷺ قوله :

فما حملتْ من ناقةٍ فوق ظهرها ... أَبَرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب ، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله :

وأحسنُ منك لم تَرَ قطُّ عيني ... وأجملُ منك لم تلدِ النساءُ

خُلقْتَ مُبرًا من كُلِّ عيبٍ ... كأنَّك قد خُلقْتَ كما تشاءُ

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصري رضي الله عنه قوله :

لو لَمْ تكُنْ فيه آياتٌ مبيّنةٌ ... كانتْ بديهتُهُ تُنْبيك بالخبرِ

ولما حججت وزرته ﷺ ، تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بأبيات مطولة ، وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف وأنا مكشوف الراس ، وابكي من جملته :

يا سيِّدَ الساداتِ جئتُكَ قاصدًا ... أرجو رضاك واحتمي بِحِمَاكَا

والله يا خيرَ الخلائق إنَّ لي … قلبًا مشوقًا لا يروم سواكا
وَوَحقِّ جاهك إنني بك مُغرمٌ … والله يعلمُ أنني أهواكا
أنتَ الذي لولاك ما خُلقَ امرؤ … كلاَّ ولا خُلقَ الورى لولاكا
أنتَ الذي من نورك البدرُ اكتسى … والشمسُ مشرقةٌ بنــور بهاكا
أنتَ الذي لما رُفعتَ إلى السما … بك قـد سمــتْ وتزينتْ لسراكا
أنتَ الذي ناداك ربُّك مرحبًا … ولقد دعــاك لقربــه وحباكا
أنتَ الذي فينا سألتَ شفاعةً … ناداك ربُّك لــم تكــن لسواكا
أنتَ الذي لمـــا تَوَسَّلَ آدمٌ … من ذنبه بك فازَ وهو أباكَ
وبكَ الخليلُ دعــا فعادت ناره … بردًا وقد خمدت بنور سناكا
ودعـــاك أيـــوبٌ لضُــرّ مسّه … فأُزيل عنه الضرُّ حين دعاكا
وبك المسيحُ أتى بشــيرًا مخبـرًا … بصفات حُسْنك مادحًا لعلاكا
وكذاك مـــوسى لـم يزل متوسّلاً … بك في القيامــة مرتَجٍ لنداكا
والأنبيـــاءُ وكلٌّ خلقٍ في الورى … والرسلُ والأملاكُ تحت لواكا
لك معجزاتٌ أعجزتْ كُلَّ الورى … وفضائل جَلَّت فليس تحاكى
نطق الذراعُ بِسُمّة لك معلنًا … والضبُّ قد لبّاك حين أتاكا
والذئبُ جاءك والغزالةُ قد أتت … بك تستجيرُ وتحتمي بحماكا
وكذا الوحوشُ أتَتْ إليك وسلّمت … وشكا البعيرُ إليك حين رآكا
ودعوتَ أشجارًا أتتك مُطيعةً … وسعتْ إليك مجيبةً لنداكا
والماءُ فاض براحتيك وسبحت … صُمُّ الحصـــى بالفضل في يمناكا
وعليك ظلّلت الغمامةُ في الورى … والجـــذعُ حنّ إلى كريم لقاكا
وكذاك لا أثرٌ لمشْيك في الثرى … والصخرُ قد غاصتْ به قدماكا
وَشَفَيْتَ ذا العاهات من أمراضه … وملأت كُــلَّ الأرض من جدواكا
ورددتَ عين قَتادةٌ بعد العمى … وابن الحصين شَفَيْتَه بشفاكا
وكذا حبيبٌ وابن عفرا عندما … جُرِحَا شَفَيْتَما بلمس يداكا
وَعَلِيٌّ مِنْ رَمَد به داويته … في خيبر فشفي بطيب لماكا
وسألتَ ربَكَ في ابن جابر بعدما … قد مات أحياه وقد أرضاكا

ومسست شاةً لأمِّ معبد بعدما نشفت فدرت من شفا رقياكا
ودعوت عام المحل ربّك معلنًا فانهل قَطْرُ السُّحْبِ عند دعاكا
ودعوت كلَّ الخلق فانقادوا إلى دعواك طوعًا سامعين نداكا
وخفضت دينَ الكفر يا عَلَمَ الهدى ورفعتَ دينك فاستقام هناكا
أعداك عادوا فيْ القليب بجهلهم صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا
في يوم بدرٍ قد أتتك ملائكٌ مــن عنـد ربك قاتلت أعداكا
والفتح جاءك يوم فتحك مكةً والنصرُ في الأحزاب قد وافاكا
هودٌ ويونسُ من بهاك تجملا وجمالُ يوسفَ من ضياء سناكا
قد فُقْتَ يا طه جميع الأنبيا نورًا فسبحـان الـذي سوّاكا
واللهِ يا ياسينُ مِثْلُك لم يكن في العالمين وحـق مــن نباكا
عــن وصفك الشعـراء يا مُدَّثِرُ عجزوا وكلّوا عــن صفات علاكا
إنجيلُ عيسى قد أتى بك مخبرًا وأتى الكتابُ لنا بمدح حلاكا
ماذا يقولُ المادحون؟ وما عسى أن يجمـعَ الكتّاب من معناكا
واللهِ لـو أنَّ البحارَ مَدادُهُم والعشبُ أقلامٌ جعلن لذاكا
لم تقدر الثقلان تجمع ذرةً أبدًا ومـا استطاعوا لـه إدراكا
لي فيك قلبٌ مغرمٌ يا سيدي وحشاشــةٌ محشــوةٌ بهواكـا
فإذا سكَتُّ ففيك صمتي كُلُّهُ وإذا نَطَقْتُ فمـادحٌ علياكـا
وإذا سمعتُ فعنك قولاً طيبًا وإذا نظـرتُ فـلا أرى إلاّكا
يا مالكي كُـن شافعي من فاقتي إنّي فقيرٌ فـي الـورى لغناكا
يا أكرم الثقلين يا كنزَ الورى جُدْ لي بجودك وارضني برضاكا
أنا طامعٌ في الجود منك ولم يكن لابن الخطيب من الأنام سواكا
فعساك تشفـعُ عنـد حسابه فلقد غدا مستمسكًا بعراكا
ولأنت أكرمُ شافعٍ ومُشفَّعٍ ومــن التجا لحماك نال وفاكا
فاجعل قراي شفاعةً لي في غدٍ فعسى أُرَى في الحشر تحت لواكا
صلّى عليك اللهُ يا خيرَ الورى مـا حــنّ مُشتاقٌ إلى مثواكا
وعلى صحابَتِكَ الكرامِ جميعِهِم والتابعيــن وكــل مــن والاكا

وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف من مدحه الله تعالى وأثنى عليه؟ ، وقد قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ، ولا فخر » ، والله لو أن البحر مداد ، والأشجار أقلام ، وجميع الخلائق كتاب لما استطاعوا أن يجمعوا النزر اليسير من بعض صفاته ، ولكلوا عن الإتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ .

ومدح رجل هشام بن عبد الملك ، فقال له : يا هذ إنه قد نهي عن مدح الرجل في وجهه ، فقال : ما مدحتك ، ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكرًا ، فقال له هشام : هذا أحسن من المدح ، ووصله وأكرمه .

وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان : رأيت نفسي فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أني حيث أنتهى من القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك . وقال الحرث بن ربيعة في رجل من آل المهلب :

فتىً دهرُهُ شطران فيما ينوبه ... ففي بأسه شطرٌ وفي جوده شطرُ
فلا مِنْ بُغاةِ الخير في عينه قذىً ... ولا مِنْ زئيرِ الحربِ في أذنه وَقْرُ(١)

وقال أعرابي لرجل : لا يذم بلد أنت تأويه ، ولا يشتكي زمان أنت فيه . وكان الحجاج يستثقل زيد بن عمرو العكلي ، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال : يا أمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو ، وسهمك الذي لا يطيش ، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم ، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه . وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له : وأنت النهر الذي يُسقى منه ذلك البستان . وقال رجل لأبي عمرو الزاهد صاحب كتاب « الياقوتة » في اللغة ، أنت والله عين الدنيا ، فقال له : وأنت والله نور تلك العين .

وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقفي :

قومٌ إذا نزل الغريبُ بدارهم ... تركوه ربَّ صواهلٍ وقيان(٢)
وإذا دعوتهم ليوم كريهةٍ ... سدّوا شعاع الشمس بالفرسانِ(٣)

وقال أوس بن حاتم الطائي :

فإن تنكحي ماوية الخير حاتمًا ... فما مثله فينا ولا في الأعاجم

---

(١) قذى : ما يقع فى العين من تراب وغيره . وقر : ثقل السمع أو الصمم. قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ [لقمان : ٧] .

(٢) رب صواهل وقيان : صاحب خيل وإماء . كناية عن كرم الضيافة وجميل المنزل .

(٣) البيت كناية ، عن شجاعتهم وسرعة نجدة المستغيث ودفع الظلم فهم أهل فروسية ونخوة.

فتىً لا يزال الدهر أكبر همَّه … فِكاكُ أسيرٍ أو معونة غارم

وقال ابن حمدون في آل المهلب :

آل المهلب معشرٌ أمجادٌ … ورثوا المكارمَ والوفاءَ فسادوا

شاد المهلبُ ما بَنَى آباؤه … وأتى بنَوُه ما بنَاَه فشادوا

وكذاك من طابتْ مغارسُ نَبْتِه … وبنى له الآباء والأجداد

وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة ، فلما سجن ونقب له السجن وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق :

ولما رأيتُ الأرضَ قد سُدَّ ظهرُها … ولم يبقَ إلاَّ بطنُها لك مخرجا

دعوت الذي ناداه يُونسُ بعدما … ثوى في ثلاثٍ مظلماتٍ ففرجا

فقال ابن هبيرة : ما رأيت أشرف من الفرزدق هجاني أميرًا ، ومدحني أسيرًا ، وقال السَّرِّي ابن عبد الرحمن الرفاء في خالد بن حاتم :

يا واحدَ العرب الذي دانت له … قحطان قاطبةً وساد نزارا

إني لأرجو إن لقيتُك سالمًا … ان لا أعالج بعدك الأسفارا

وقال كعب بن مالك الأنصاري في آل هاشم :

يا آلَ هاشمِ الإلهُ حباكم … ما ليس يبلغه اللسانُ المفصلُ

قومٌ لأصلهم السيادةُ كلّها … قدمًا وفرعُهُمُ النبيُّ المرسلُ

وقال الحسين بن دعبل الخزاعي :

ملكَ الأمور بجوده وحُسامِه … شرفًا يقودُ عدوَّهُ بزمامه

فأطاع أمر الجود في أمواله … وأطاع أمر اللّهِ في أحكامه

وقال آخر :

يلقى السيوفَ بصدره وبِنَحْرِه … ويقيمُ هَامَتَه مقامَ المِغْفر (١)

ويقول للطرف :اصطبرْ لِسَنَي القنا … فعقرت ركن المجد إن لم تعقر

وإذا تراءى شخصُ ضيفٍ مُقْبِلٍ … مُتَسَرْبِلٍ أثوابَ محـلٍ أغبر

أَوْمَي إلى الكوماء هذا طارقٌ … نَحَرَتْني الأعداء إن لـم تنحرِ (٢)

(١) الهامة : الرأس المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٢) أَوْمَى : أشار . الكوماء : الناقة العظيمة السنام . طارق : الآتى ليلا ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق : ١]

وقال شاعر بني تميم :

إذا لبسوا عَمائِمَهم طَوَوها على كرمٍ وإن سَفَرُوا أناروا (١)
يبيع ويشتري لَهُمُ سواهمْ ولكنْ بالطعان هُمُ تجارُ
إذ ما كنت جار بني تميمٍ فأنت لأكرم الثقلين جار

وقالت امرأة من بني نمير وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون : من ذا الذي يقول:

لعمري ما رماح بني نمير بطائشة الصدور والأقصَارِ ؟

قالوا : زيد الأعجم . قالت : أشهدكم أن له ثلث من مالي ، وكان مالا كثيرًا ، وأثنى رجل على رجل ، فقال : هو أفصح أهل زمانه إذا حَدَّثَ ، وأحسنهم استماعًا إذا حُدِّثَ وأمسكهم عن الملاحاة إذ خولف . يعطي صديقه النافلة ولا يسأله الفريضة . له نفس عن الفحشاء محصورة ، وعلى المعالي مقصورة كالذهب الإبريز الذي يعز كل أوان ، والشمس المنيرة التي لا تخفى بكل مكان . هو النجم المضيء للحيران ، والمنهل البارد العذب للعطشان ، وقال الحسن ابن هانئ:

إذا نحنُ أثنينا عليك بصالحٍ فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرتِ الألفاظ يومًا بمدحه لغيرك إنسانًا فأنت الذي نعني

وله في الفضل بن الربيع :

لقد نَزَلْتَ أبا العباس منزلةً ما إن ترى خلفها الأبصارُ مُطَّرَحا
وكَّلت بالدهر عينًا غير غافلة بجود كَفِّكَ تأسو كلَّ ما جرحا

وقال زياد الأعجم في محمد بن القاسم الثقفي :

إنَّ المنابرَ أصبحتْ مُختالةً بمحمدِ بنِ القاسمِ بن محمدِ
قادَ الجيوشَ لسبعَ عشرة حِجّةً يا قرب سَوْرَةِ سُؤددٍ من مولد (٢)

ومن بدائع مدائح المتنبي قوله :

ليت المدائحَ تستوفي مناقبة فما كُليبٌ وأهله الأعصر الأوَلِ
خذْ ما تراه ودعْ شيئًا سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحلِ
وقد وجدتُ مكان القول ذا سعةٍ فإن وجدتَ لسانًا قائلاً فقل

---

(١) السفر : الكشف والوضوح . من السفور .

(٢) السورة : وثب وثار فى الحرب لشجاعته . سؤدد : ساد قومه فهو سيدهم .

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء ، فأعطاه سبعين ألفًا ، وخلع عليه خلعًا سنية حتى إنه لم يستطع أن يقوم ، فغار الشعراء منه ، فجمعهم وقال : يا لله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض إن أحدكم يأتينا ليمدحنا فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتًا ، فما يبلغن حتى يذهب رونق شعره ، وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال :

إني أمنتُ من الزمان وصرفهِ ... لما عَلِقْتُ من الأمير حبالا
لو يستطيعُ الناسُ من إجلاله ... جعلوا له حُرَّ الوجوه نعالا
إن المطايا تشتكيك لأنها ... قطعت إليك سباسبًا ورمالا (١)
فإذا وَرَدْنَ بنا وَرَدْنَ خفائفًا ... وإذا صَدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثقالا (٢)

ووفد أبو نواس على الخصيب بمصر ، فأذن له وعنده الشعراء ، فأنشد الشعراء أشعارهم ، فلما فرغوا قال أبو نواس : أنشد أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا . قال : أنشدها ، فأنشده قصيدته التي منها قوله :

إذا لم تزرْ أرضَ الخصيبِ رِكَابُنَا ... فأي فتىً بعد الخصيب نزورُ
فتىً يشتري حسنَ الثناءِ بماله ... ويعلمُ أن الدائراتِ تدورُ
فما فاته جودٌ ولا ضَلَّ دُونه ... ولكنْ يسيرُ الجودُ حيث يسيرُ

فاهتز الخصيب لها طربًا ، وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة .

وحكي أن أبا دلف سار يومًا مع أخيه معقل ، فرأيا امرأتين تتماشيان ؛ فقالت إحداهما للأخرى : هذا أبو دلف ؟ قالت : نعم الذي يقول فيه الشاعر :

إنما الدنيا أبو دلفٍ ... بين باديه ومُحْتَضَره
فإذا ولّى أبو دلفٍ ... ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه ، فقال له معقل : ما لك يا أخي تبكي؟ فقال : لأني لم أقض حق الذي قال هذا . قال : أولَم تعطه مائة ألف درهم ؟ قال : والله ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار . ويقال : هذه المدحة ، فأين المنحة ؟ قال بعضهم:

إذا ما المدحُ صار بلا نوالٍ ... من الممدوح كان هو الهجاءُ

(١) السباسب : المفازة ـ الصحراء المهلكة فمن يجتازها فقد فاز بالحياة .
(٢) وردن : إتيان مكان الشرب . صدر : رجع بعد الارتواء . . النبي كناية عن الكرم وكثرة العطاء تذهب إليه فارغة وتعود محملة بالعطايا والهبات .

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش ، محمد بن نصر صاحب حلب ، فأجازه بألف دينار ، ثم مات محمد بن نصر ، وقام ولده نصر مقامه ، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها :

تباعدتُ عنكم حرمةً لا زهادةً ... وسرت إليكم حين مسّني الضرُّ
فجاء أبو نصر بألفٍ تَصَرَّمَتْ ... وإنّي عليمٌ أنّ سَيخلُفَها نصرُ

فلما فرغ من إنشادها قال نصر : والله لو قال : سيضعفها نصر لأضعفتها له ، وأعطاه ألف دينار في طبق فضة .

ومدح بعض الشعراء وقيل : هو البديع الهمذاني [1] إنسانًا فقال :

يكادُ يحكيه صوبُ الغيثِ مُنسكبًا ... لو كان طلقَ الْمُحَيَّا يمطرُ الذهبا
والدهرُ لو لم يخنْ،والشمسُ لو نطقتْ ... والليثُ لو لم يصدْ ،والبحر لو عذبا

وقال آخر :

أخو كرمٍ يُفضي الورى من بساطه ... إلى روض مجدٍ بالسماح مجوّد
وكم لجباه الراغبين لديه من ... مجال سُجود في مجالس جُود

ويقال : فلان رقيق الجود ودخيله ، وزميل الكرم ونزيله ، وغرة الدهر وتحجيله ، مواهبه الأنواء ، وصدره الدهناء ، عونه موقوف على اللهيف ، وغوثه مبذول للضعيف ، يطفو جوده على موجوده ، وهمته على قدرته ، ينابيع الجود تتفجر من أنامله ، وربيع السماحِ يضحك عن فواضله . إن طلبت كريمًا في جوده مَتٌ قبل وجوده ، أوماجدًا في أخلاقه مَتٌ ولم تلاقه ، باسل تعود الإقدام حيث تزل الأقدام ، وشجاع يرى الإحجام عارًا لا تمحوه الأيام ، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته . وَصَفَّى كُدورته . خُلُقٌ كنسيم الأشجار على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد في الأيام ، وأبهج من نور البدر في الظلام ، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته ، ويؤلف الآراء المتشتتة في مودته ، هو ملح الأرض إذا فسدت ، وعمارة الدنيا إذا خرجت ، يحل دقائق الأشكال ، ويزيل جلائل الأشكال . البيان أصغر صفاته ، والبلاغة عنوان خطراته ، كأنما أوحي التوفيق إلى صدره ، وحبس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يبعث بالكلام ويقوده بألين زمام حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره ، والمعاني تتغاير في الامتثال لأوامره ، يوجز فلا يخل ويطنب فلا يمل ، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيبس ، ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس ، فهو إذا أنشأ وشى وإذا عبّر حبّر، وإذا أوجز ، تاهت به الأيام

---

(١) أحمد بن الحسين بن سعيد بن بشر الهمذاني . شاعر . ولد بهمذان . اتصل بالصاحب بن عباد . مات مسمومًا سنة ٣٩٨ هـ .

وباهت في يمينه الأقلام ، له أدب لو تصور شخصٌ لكان بالقلوب مختصًا . قال الشاعر :

له خُلُقٌ على الأيام يصفو   كما تصفو على الزمن العُقَارُ

وقال آخر :

لو كان يحوي الروضُ ناضرَ خَلْقِه   ما كان يذبلُ نَوْرُهُ بشتائه
أو قابلَ الأفلاكَ طالعُ سَعْدِه   ما صار نحسٌ في نجوم سمائه

وقال آخر :

ووجهُكَ بدرٌ في الغياهبِ مُشرقٌ   وكفُّكَ في شُهْبِ السنين غمامُ
عجيبٌ لبدرٍ لا يزالُ أمامه   سحابٌ وَلا يغشاه منه ظلامُ
وأعجبُ من هذا غمامٌ إذا سطا   تلظّى مكان البرقِ منه حسامُ

وقال الحسين بن مطير الأسدي :

له يومُ بُؤسٍ فيه للناس أبؤسٌ   ويومُ نعيمٍ فيه للناس أنعمُ
فَيُمْطِرُ يومَ الجودِ مِنْ كفّه النّدى   ويمطرُ يوم البؤسُ من كفّه الدمُ
فلو أنَّ يومَ البؤسِ خلّى عقابه   على الناس لم يصبح على الأرض مُجرمُ
ولو أنَّ يومَ الجودِ خلّى يمينه   عن المال لم يصبحْ على الأرض معدمُ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة (١):

والله ما عجبى لقدرك أنّه   قدرٌ على باغٍ مداه بعيد(٢)
إلاّ لكونِك لست تشكو وحشة   فى هذه الدنيا وأنتَ وحيدُ

ولصفي الدين الحِلّي (٣):

أثنى فَتُثْنِينى صفاتُك مظهرًا   عيّا وكم أعيتْ صفاتُك خاطبا
لو أننى والخلقُ جميعًا ألْسُنٌ   نُثْنى عليكَ لما قضينا الواجبا

---

(١) محمد بن محمد بن الحسن . الحذاقى . المصرى . شاعر . راجز . وشّاح . ناثر . مترسل ولد بالقاهرة وتوفى بها سنة ٧٦٨ هـ .

(٢) الباغى مداه : أى طالبه لمعرفته .

(٣) عبد العزيز بن سرايا بن على . السُنْبُسى . الطائى . الحلى . شاعر . ناثر . ولد بالحلة ونشأ بها توفى سنة (٧٥٠ هـ) من آثاره : الدر النفيس فى أجناس التجنيس . و (العاطل الحالى والمرخص الغالى) .

وللشيخ برهان الدين القيراطي(١) :

أوصافُكُم تجرى أحاديثُها مجرى النجوم الزُّهرِ فى الأفق
كما أحاديثُ الندى عنكمُ تَسندُها الركبانُ من طرقِ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

رَوَتْ عنكَ أخبارُ المعالى محاسنًا كَفَتْ بلسان الحال عن ألسن الحمد
فوجهُكُ عن بشرٍ وكفُّك عن عَطا وخُلُقُك عن نبلٍ ورأيُك عن سعدِ

وقال غيره :

من زار بابَك لم تبرح جوارحُهُ تروى أحاديثَ ما أوليْتَ من مِنَنِ (٢)
فالعينُ عن قُرّةٍ والكفُّ عن صلةٍ والقلبُ عن جابر والسمعُ عن حسن

ولأبي فراس بن حمدان :

لئن خُلق الأنامُ لحب كأس ومزمار وُطنبور وعُود
فلم يُخلقْ بنو حمدانَ إلا لمجدٍ أو لبأس أو لجودِ

وقال آخر :

إنَّ الهباتِ التى جادَ الكرامُ بها مطروقةٌ وندى كفّيْك مبُتكرُ (٣)
ما زلتَ تَسبقُ حتى قال حاسدُكم له طريقٌ إلى العلياء مقتصرُ

ولمحمد بن مناذر في آل برمك (٤) :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك فيا طيبَ أخبار وأحسن منظرِ
لهم رحلةٌ فى كل عام إلى النَّدا وأُخْرى إلى البيت العتيق المنوّر
إذا نزلوا بطْحَاءَ مكَّة أشرقتْ بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفَرِ
فما خُلِقتْ إلاَّ لجود أكفُّهُمْ وأقدامُهم إلاَّ لِسَعْى مظفّرِ
إذا رام يحيى الأمرَ ذُلّتْ صِعابُه وناهيك من داعٍ له ومدبّرِ

---

(١)برهان الدين إبراهيم بن عبد الله الطائى القيراطى من أعيان القاهرة شاعر فقيه .أديب توفى سنة (٧٨١هـ).
(٢)منن : مفردها مِنّة : الإحسان والإنعام .
(٣)مطروقة : معروفة لها ما يماثلها . مبتكر . مبتدع .
(٤)محمد بن مناذر ـ مولى بنى جبير بن يربوع ، أبو جعفر . شاعر . عالم . لغوى . نشأ بالبصرة متعبداً ثم هجا الناس توفى سنة ١٩٨ هـ .

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاء مجنون وأنشد :

ليت شعرى أى قومٍ أجدبُوا فأُغيثوا بك من بعد العَجَفْ (١)
نظر اللهُ لهم من بيننا وحرمناك بذنب قد سَلَف
يا أبا إسحاق سِرْ فى دَعَةٍ (٢) وامض مصحوبًا فما منك خَلَفْ
إنما أنتَ ربيعٌ باكرٌ حيثما صَرَفَه اللهُ انصرف

وقال آخر :

لو كان يُقعدُ فوق الشمس مِنْ كرمٍ قومٌ لقيل اقعدُوا يا آلَ عباسِ
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس وارتفعوا إلى السماء فأنتم سادةُ الناس

وللحسين بن مطير الأسدي في المهدي (٣) :

ويَعبدُ الناسُ يا مهدِىُّ أفضلَهُم ما كان فى الناس إلا أنتَ معبودُ
أضحتْ يمينُك من جود مصورةً لا بل يمينُك منها صُوِّرِ الجودُ
لو أنْ من نُورِه مِثقالُ خردلةٍ فى السود طُرًّا (٤) إذن لابيضَّت السودُ

وقال آخر :

أوليتَنى نِعمًا وفضلاً زائدًا وبرَرْتنى حتى رأيتُك والدا (٥)
أقسمتُ لو جار السجودُ لِمُنْعِمٍ ما كنتُ إلا راكعًا لك ساجدًا

وقال آخر :

ثناؤك فى الدنيا من المسك أعطرُ وحظُّكُ فى الدنيا جزيلٌ موفَّرُ
وكفُّكَ بحرٌ والأناملُ أنهرٌ رعى اللهُ كفًّا فيه بحرٌ وأنهرُ
أعيذُك بالرحمنِ من كلّ حاسد فلا زالتِ الحسادُ تغبى وتصغُرُ (٦)
لسانى قصيرٌ فى مديحك سيِّدى لأنى فقيرٌ والفقيرُ مقصِّرُ

(١)العجف : القحط والجدب والهزال . (٢)دعة : السعة والأمان .
(٣)ابن مكمل الأسدى . شاعر مخضرم عاش فى الأموية والعباسية . شاعر . راجز ربّه البدوى . مدح معن بن زائد ورثاه توفى سنة ١٦٩ هـ .
(٤)الطرة : ما تتزين به المرأة من الشعر الموفى على جبهتها بالقصّ والتصفيف .
(٥)بررتنى : من البر وهو العطاء والإحسان .
(٦)تغبى : تجهل وتختفى .

الفصل الثانى فى هذا الباب : فى شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب ، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عزَّ وجلَّ ، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك ، وعن غيرك . والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة . قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]. أيقنوا أنها من الله، وقيل : الشكر معرفة العجز عن الشكر ، وقد روى : أن داود ـ عليه السلام ـ قال : إلهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك ؟، فأوحى الله تعالى إليه : الآن قد شكرتنى .

وفى هذا يقال : الشكر على الشكر أتم الشكر . ولمحمود الوراق(1) :

إذا كان شكرى نعمةَ الله نعمةً ... علىّ له فى مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلاَّ بفضله ... وإنْ طالتِ الأيامُ واتّصلَ العمرُ
إذا مسَّ بالسراء عمّ سرورُها ... وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجرُ
فما منهما إلاَّ له فيه نعمةٌ ... تضيقُ بها الأوهامُ والسرُّ والجهرُ

وفى مناجاة موسى ـ عليه السلام ـ : إلهى خلقت آدم بيدك ، وفعلت . وفعلت ، فكيف شكرك؟ فقال : اعلم أن ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكره لى . وأما شكر اللسان ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى : ١١] . ويروى عن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : قال رسول الله ﷺ « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بالنعم شكر »(2) . وقال عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ: تذكروا النعم ، فإن ذكرها شكر . وأما الشكر الذى فى الجوارح ، فقد قال الله تعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣] . فجعل العمل شكرًا . وروى أن النبى ﷺ : « قام حتى تورمت قدماه فقيل له: يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنب وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدًا لله شكورًا »(3) وقال أبو هارون : دخلت على أبى حازم ، فقلت له : يرحمك الله ما شكر العينين ؟ قال : إذا رأيت بهما خيرًا ذكرته وإذا رأيت بهما شرا سترته، قلت : فما شكر الأذنين ؟ قال : إذا سمعت بهما خيرًا حفظته ، وإذا سمعت

(1) محمود بن حسن الوراق : شاعر . غزير اتصف شعره بالمواعظ والحكم . توفى سنة ٢٣٠ هـ
(2) حسن : رواه أحمد فى المسند وابنه عبد الله فى « زوائده » (٤ / ٢٧٨ ، ٣٧٥) .
(3) رواه البخارى فى « الرقاق » (٦٣٧١) ومسلم فى « التوبة » (٨٩٨٦) .

بهما شرًا نسيته. وفى حكمة إدريس ـ عليه الصلاة والسلام ـ : لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمة بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعًا إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه ، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك ، فأدم مواساة الفقراء . وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر ، فقال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم ﴾ [إبراهيم : ٧] . وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر ، لم يظهر عليه المزيد علمناه أنه لم يشكر فإذا رأينا الغنى يشكر الله تعالى بلسانه ، ومَالُهُ فى نقصان علمنا أنه قد أخل بالشكر ، إما أنه لا يزكى مَالَهُ أو يزكيه لغير أهله ، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقًا عليه من كسوة عريان ، أو إطعام جائع أو شبه ذلك ، فيدخل فى قول النبى ﷺ : « لو صدق السائل ما أفلح مَن ردّه » . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم ﴾ [الرعد : ١١] . وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الإحسان .

وقال بعض الحكماء من أعطى أربعًا لم يمنع من أربع: من أعطى الشكر لا يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لا يمنع القبول ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب .

قال المغيرة بن شعبة : اشكُرْ مَن انعم عليك وأنعِمْ على مَنْ شكرك ، فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت . وكان الحسن يقول : ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن (١) بها ، كلما شكرت نعمة تجده ذلك بالشكر أعظم منها عليك ، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها .

وروى : أن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ دعى إلى أقوام ليأخذهم على ريبة ، فافترقوا قبل أن يأخذها عثمان ، فأعتق رقبة شكرًا لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم .

ويروى : أن نملة قالت لسليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ: يا نبى الله أنا على قدرى أشكرُ لله منك ، وكان راكبًا على فرس ذلول (٢) فخرّ ساجدًا لله تعالى ، ثم قال : لولا أنى أبجلُكَ لسألتُكَ عن إن تنزع منى ما أعطيتنى . وقال صدقة بن يسار : بينما داود ـ عليه السلام ـ فى محرابه إذ مرت به دودة ، فتفكر فى خلقها ، وقال : ما يعبأ الله بخلق هذه ، فأنطقها الله تعالى له ، فقالت له : يا داود تعجبك نفسك ، وأنا على قدر ما آتانى الله تعالى أذْكَرُ لله وأَشْكَرُ له منك على ما آتاك . وقال على ـ رضى الله عنه ـ : احذروا نفار النعم (٣) فما كل شاردٍ مردود . وعنه ـ عليه السلام ـ : إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر . وقيل :

(١) مرتهن : رهين ، وأسير لها .
(٢) ذلول : مسخرة سهلة الانقياد .
(٣) نفار النعم : شرودها وزوالها .

إذا قصرت يداك عن المكافأة ، فليطل لسانك بالشكر . وقال حكيم : الشكر ثلاث منازل : ضمير قلب ، ونشر اللسان [١] ؛ ومكافأة اليد . قال الشاعر :

أفادتكم النعماءُ منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضميرَ المحجبا [٢]

وقال ابن عائشة : كان يقال : ما أنعم الله على عبد نعمة ، فظلم بها إلا كان له حقًا على الله تعالى أن يزيلها عنه ، وأنشد أبو العباس بن عمارة فى المعنى :

أعاركَ مالَه لتقومَ فيه ... بواجبه وتقضى بعضَ حقّه
فلم تقصُدْ لطاعتِه ولكنْ ... قويتَ على معاصيه برزقِه

وقال آخر :

ولو أنّ لى فى كلّ مَنبت شعرةٍ ... لسانًا يطيلُ الشكرَ كنتُ مقصرًا

وقال محمد بن حبيب الراوية : إذا قل الشكر خسر المنّ . وروى : إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان. وسئل بعض الحكماء: ما أضيع الأشياء ؟ قال: مَطرُ الجود فى أرض سبخة [٣] لا يجف ثراها ، ولا ينبت مرعاها ، وسراج يوقد فى الشمس ، وجارية حسناء تزف إلى أعمى، وصنيعة تسدى إلى مَنْ لا يشكرُها . وقال عبد الأعلى بن حماد : دخلت على المتوكل ، فقال: يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور ، فقلت : يا أمير المؤمنين بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة . وأنشدته :

لأشكرنَّ معروفًا هَمَمت به ... فإنّ همّك بالمعروف معروفُ [٤]
ولا ألومُكُ إن لم يمضه قدرٌ ... فالشرُّ بالقَدر المحتوم مصروفُ

وقال أبو فراس بن حمدان :

وما نعمةٌ مكفورة قد صنعتُهَا ... إلى غير ذى شكر تُمَانعنى أخرى [٥]
سآتى جميلاً ما حَييتُ فإننى ... إذا لم أفدْ شكرًا أُفدتُ به أجرًا

وقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : من امتطى الشكر بلغ به المزيد . وقيل : من جعل

---

(١)نشر اللسان : أى طيب كلامه . (٢)المحجب : الخفى المستور .
(٣)سبخة : الأرض ذات النز والملح لا تصلح للزراعة .
(٤)يمضه : ينفذه ، مصروف : مبعد . مردود عن وجهه .
(٥)مكفورة : من الكفر وهو الجحود والنكران تمانعنى : تزدنى .

الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد . وقال ابن السماك : النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة ، فإذا فقدت عُرِفَت . وقيل : من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها . وكان يقال : إذا كانت النعمة وسيمة (١) ، فاجعل الشكر لها تميمة (٢) .

وقال حكيم : لا تصطنعوا ثلاثة ، اللئيم : فإنه بمنزلة الأرض السبخة ، والفاحش : فإنه يرى أن الذى صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشه ، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه . وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر .

ودخل أبو نخيلة (٣) على السفاح لينشده فقال : ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة (٤) :

أمسلمةٌ يا فخر كلِّ خليفةٍ ويا فارسَ الدنيا ويا جبلَ الأرض
شكرتك إنّ الشكر دينٌ على الفتى وما كلُّ من أوْلَيْتَه نعمة يقضى
وأحييت لى ذكرى وما كان خاملاً ولكنّ بعض الذكر أنْبَهُ من بعَضِ

وسمعه الرشيد فقال : هكذا يكون شعر الأشراف مدح صاحبه ، ولم يضع نفسه . وعن نصر ابن سيار (٥) عن عكرمة ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، عن النبى ﷺ أنه قال : « من أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له » . ثم قال نصر : اللهم إنى أنعمت على بنى سام فلم يشكروا ، اللهم اقتلهم ، فقتلوا كلهم . وعن على بن الحسين ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن ليشبع من الطعام ، فيحمد الله تعالى ، فيعطيه من الأجر ما يعطى الصائم القائم ، إن الله شاكر يحب الشاكرين » . وعن محمد بن على : ما أنعم الله على عبد نعمة ، فعلم أنها من الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها ، ولا أذنب عبدٌ ذنبًا فعلم أن الله قد اطلع عليه إن شاء غفر له وإن شاء أخذه قبل أن

(١) الوسيمة : الجمال والحسن والضياء .
(٢) التميمة : ما تعلق على الإنسان أو الشىء لدفع العين .
(٣) هو أبو نخيلة وهو اسمه ، أمه ولدته جنب نخلة وكنيته أبو الجنيد بن حزن بن زائدة بن لقيط من بنى حمان من سعد بن زيد مناة بن تميم الحمانى السعدى التميمى ، شاعر راجز ، فصيح كان عاقًا لأبيه ، مدح بنى أمية وبنى العباس ، ولقب نفسه شاعر بنى هاشم ، قال فى المنصور أرجوزة يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، فكانت سبب هلاكه حوالى سنة ١٤٥ هـ .
(٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان الأموى . قائد . شجاع . غزا الروم . حاصر القسطنطينية ولاه أخوه يزيد إمرة العراقين . توفى سنة ١٢١ هـ .
(٥) نصر سيار بن رافع بن حرى بن ربيعة الكنانى . أمير شجاع . داهية . كان أمير خراسان لهشام بن عبد الملك غزا ما وراء النهر . توفى بـ « ساوة » سنة ١٣١ هـ .

يستغفره إلا غفر الله له قبل أن يستغفر . وأولى رجل رجلاً أعرابيًا خيرًا ، فقال : لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأنشد بعضهم وأجاد :

سأشكرُ لا إنى أجازيك مُنْعمًا ... بشكرى ولكنّ كى يُزادَ لك الشكرُ
وأذكرُ أيامًا لدىَّ اصطنعتَها ... وآخِرُ ما يبقى على الشاكرِ الذكرُ

وقال آخر :

أوليْتَنى نِعَمًا أبوحُ بشكْرِها ... وكَفَيْتنى كُل الأمورِ بأَسْرِهَا
فلأشكُرَنَّك ما حَيِيتُ وإنْ أمتْ ... فلَتَشْكُرنك أعْظُمِى فى قَبْرِها

وقال آخر :

أيا ربُّ قد أحسنتَ عَوْدًا وبَدْأةً ... إلىَّ فلم ينهضْ بإحسانِك الشكرُ
فَمَن كان ذا عذرٍ لديكَ وحجّةٍ ... فعذرى إقرارى بأن ليس لى عُذْرُ

وقال محمود الوراق :

إلهى لك الحمدُ الذى أنتَ أهلُه ... على نعم ما كنتُ قطُّ لها أهلاً
إن ازددت تقصيرًا تَزدنى تفضلاً ... كأنى بالتقصير أَستَوْجُب الفضْلا

وقد أحسن نُصَيْبُ (١) فى وصف الثناء والشكر بقوله :

فعاجوا وأثنوا بالذى أنتَ أهلُهُ ... ولو سكتُوا أثْنَتْ عليك الحقائبُ(٢)

وقال رجل من غطفان :

الشكرُ أفضلُ ما حاولتُ مُلتمسًا ... به الزيادة عند اللهِ والناسِ

وقيل : اشكر المنعم عليك ، وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ، ومن أخيك المناصحة .

---

(١) نصيب بن رباح ، أبو محجن . مولى عبد العزيز بن مروان اشتراه ثم أعتقه . شاعر فحل أسود مقدم فى المدح والنسيب عفيفا . لم ينسب ويشبب إلا بامرأته . وله فى سواد لونه شعر كثير توفى ١٠٨ هـ .

(٢) عاجوا : مالوا وعطفوا ، وعاج بالمكان : أقام ، والحقائب : الدهور . والحقيبة : مدة من الزمن .

الفصل الثالث : فى المكافأة

قال رسول الله ﷺ : « من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له » (١) . ولما وفد النجاشى على رسول الله ﷺ ، قام يخدمهم بنفسه ، فقيل له : يا رسول الله : لو تركتنا كفيناك ، فقال : كانوا لأصحابى مكرمين . وقيل : أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال :

أذكُرْ صنيعى إذا فاجاك ذو سفه ... يوم السقيفة والصِّدِّيقُ مشغولُ

فقال عمر بأعلى صوته : ادن منى ، فدنا منه ، فأخذ بذارعه حتى استشرفه (٢) الناس وقال: ألا إن هذا ردّ عنى سفيهًا من قومه يوم السقيفة ثم حمله على نجيب وزاد في عطائه ، وولاه صدقة قومه وقرأ : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، وقال رجل لسعيد ابن العاص ، وهو أمير الكوفة : لى يد عندك بيضاء . قال: وما هى ؟ قال : كَبَتْ (٣) بك فرسُك، فتقدمتُ إليك قبل غلمانك ، فأخذت بعضدك وأركبتك ، وأسقيتك ماء ، قال : فأين كنت إلى الآن ؟ قال : حُجِبْتُ عن الوصول إليك ، قال : قد أمرنا لك بمائتى ألف درهم ، وبما يملكه الحاجب إذا حجبك عنا .

وقال قطرى بن الفجاءة الخارجى (٤) : أسره الحجاج ثم مَنَّ عليه ، فأطلقه ، فقيل له : عاود قتال عدو الله ، فقال : أهيهات (٥) شديدًا مطلقها وأرق رقبة معتقها ، ثم قال :

أأقاتلُ الحجاجَ عن سلطانه ... بيد تُقرُّ بأنها مولاتُه
ماذا أقولُ إذا وقفتُ إزاءه ... فى الصّفِّ واحتجّتْ له فعلاتُه؟
أأقول : جار علىَّ لا إنّى إذا ... لأحقُ مَنْ جارتْ عليه ولاته؟
وتحدّثَ الأقوامُ أن صنائعًا ... غرستْ لدىَّ فحنظلت نخلاتُه(٦)

واجتاز الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ بمصر فى سوق الحدادين ، فسقط سوطه ، فقام إنسان،

---

(١) قال العراقى فى « تخريج الإحياء » (١ / ٤٢٣) أخرجه أبو داود والنسائى من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ :« من صنع » .

(٢) استشرفه : جعله يطل عليهم ويظهر لهم . (٣) كبت : عثرت . واتكفات .

(٤) قطرى بن الفجاءة بن مازن بن زيد مناة من بنى كابية بن حرقوص ، أبو نعامة . شاعر . خطيب ، فارس كان مع الأمويين ثم انقلب عليهم . قاتله المهلب . سقط قتيلا سنة ٧٨ هـ .

(٥) هيهات : اسم فعل ماض بمعنى « بعد » . (٦) الحنظل : نبات مر الثمر .

فأخذه ومسحه وناوله إياه فقال لغلامه : كم معك ؟ قال : عشرة دنانير ، قال : ادفعها إليه واعتذر له ، واستنشد عبد الملك عامر الشعبى ، فأنشده لغير ما شاعر حتى أنشد لحسان :

مَــنْ سرَّه شرفُ الحياةِ فلم يزلْ فـــى عُصْبَةٍ من صالحى الأنصارِ
البائعـــين نفوسَهـــم لنبيِّهـــم بالمشرفىِّ وبالقنـــا الخطّـــار(١)
الناظريـــــن بأعـــــين مُحْمَـــرَّةٍ كالجمرِ غيرِ كليلةِ الأبصـــار(٢)

فقام أنصارى ، فقال : يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة على ستين من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها ، فقال عبد الملك : وله عندى ستون ألفًا ، وستون من الإبل . وعن على - كرم الله وجهه - : أحسنوا فى عقب غيركم تحفظوا فى عقبكم. وقال المدائنى (٣) : رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة ، ثم رأيته ماشيًا فى سفر ، فسألته عن ذلك فقال : ركبت حيث يمشى الناس ، فكان حقًا على الله أن يرجلنى حيث يركب الناس .

ومما جاء فى المكافأة : ما حكى عن الحسن بن سهل (٤) قال : كنت يومًا عند يحيى بن خالد البرمكى وقد خلا فى مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد ، فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج ، فقضاها لهم، ثم توجهوا لشأنهم ، فكان آخرهم قيامًا أحمد بن أبى خالد الأحول ، فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه ، وقال : يا بنى إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثًا ، فإذا فرغت من شغلى هذا ، فذكرنى أحدثك به ، فلما فرغ من شغله ، وطعم قال له ابنه الفضل : أعزك الله يا أبى ، أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الأحول ، قال: نعم يا بنى . لما قدم أبوك من العراق أيام المهدى كان فقيرًا لا يملك شيئًا ، فاشتد بى الأمر إلى أن قال لى مَنْ فى منزلى: إنَّا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شىء نقتات به ، قال : فبكيت يا بنى لذلك بكاءً شديدًا ، وبقيت ولهان وحيران مطرقًا مفكرًا ، ثم تذكرت منديلاً كان عندى ، فقلت لهم : ما حال المنديل ؟ فقالوا : هو باق عندنا، فقلت :

---

(١) المشرفى : السيف ، والقنا الخطار : الرمح الخارق . (٢) كليلة : ضعيفة .

(٣) المدائنى : على بن محمد بن عبد الله المدائنى نسبه إلى المدائن . مؤرخ ، وأديب ، وراوية . من أهل البصرة مؤلفاته العديدة . من أهم مراجع تاريخ آسيا الوسطى على أيام الفتوحات . عنه أخذ الطبرى والبلاذرى . توفى سنة ٢٢٥ هـ .

(٤) هو الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسى أبو محمد ، وزير المأمون العباسى ، وأحد كبار القادة ، والولاة فى عصره ، اشتهر بالذكاء المفرط والأدب والفصاحة والكرم وحسن التوقيعات . وهو والد « بوران » زوجة المأمون، أصيب بمرض السويداء ثم شفى منه ، وتوفى فى سرخس سنة ٢٣٦ هـ من بلاد خراسان ، وهو أخو ذو الرياستين الفضل بن سهل .

ادفعوه لى ، فأخذته ، ودفعته إلى بعض أصحابى وقلت له : بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهمًا ، فدفعتها إلى أهلى ، وقلت : انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها ، ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدى ، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه ، فخرج عليهم راكبًا ، فلما رآنى سلم على، وقال : كيف حالك ؟ فقلت : يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهمًا ، فنظر إلىَّ نظرًا شديدًا ، وما أجابنى جوابًا ، فرجعت إلى أهلى كسير القلب ، وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد ، فقالوا : بئس والله ما فعلت . توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل ، فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك ، فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلاً ، فما يراك بعد اليوم ولا بهذه العين . فقلت : قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه ، فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة ، فلما بلغت الباب استقبلنى رجل ، فقال لى : قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين ، فلم ألتفت لقوله ، فاستقبلنى آخر ، فقال لى ، كمقالة الأول ، ثم استقبلنى حاجب أبى خالد ، فقال لى : أين تكون ؟ قد أمرنى أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين . فجلست حتى خرج ، فلما رآنى دعانى ، وأمر لى بمركب ، فركبت وسرت معه إلى منزله ، فلما نزل قال : علىَّ بفلان وفلان الحناطين ، فأحضرا ، فقال لهما : ألم تشتريا منى غلاتْ السواد بثمانية عشر ألف درهم ؟ قالا : نعم ، قال : ألم اشترط عليكما شركة رجل معكما ؟ قالا : بلى ، قال : هو هذا الرجل الذى اشترطت شركته لكما ، ثم قال لى : قم معهما ، فلما خرجنا قالا لى : ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون لك فيه الربح الهنيء ، فدخلنا مسجدا ، فقالا لى : إنك تحتاج فى هذا الأمر إلى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شيء ، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله، فتنتفع به ، ويسقط عنك التعب والكلف ؟ فقلت لهما : وكم تبذلان لى ؟ فقالا : مائة ألف درهم ، فقلت: لا أفعل ، فما زالا يزيدانى وأنا لا أرضى إلى أن قالا لى : ثلاثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا . فقلت : حتى أشاور أبا خالد . قالا : ذلك لك . فرجعت إليه وأخبرته ، فدعا بهما ، وقالا لهما : هل وافقتماه على ما ذكر؟ قالا : نعم . قال : اذهبا ، فاقبضاه المال الساعة . ثم قال لى : أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل . فأصلحت شانى وقلدنى ما وعدنى به ، فما زلت فى زيادة حتى صار أمرى إلى ما صار . ثم قال لولده الفضل : يا بنى فما تقول فى ابن مَنْ فعل بأبيك هذا الفعل ؟، وما جزاؤه ؟ قال : حقٌّ لعمرى وجب عليك له ، فقال : والله يا ولدى ما أجد له مكافأة غير أنى أعزل نفسى وأوليه ، ففعل ذلك ـ رضى الله عنه ـ ، وهكذا تكون المكافأة .

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال : دخلت يومًا مجلس المأمون ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد ، فلما رآنى قال لى : عباس ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين، قال : خذ هذا إليك فاستوثق منه ، واحتفظ به ، وبكر به إلىَّ فى غد واحترز عليه كل الاحتراز . قال العباس : فدعوت جماعة ، فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت فى نفسى : مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى، فأمرتهم ، فتركوه فى مجلس لى فى دارى ، ثم أخذت أسأله عن قضيته ، وعن حاله، ومن أين هو ؟ فقال : أنا من دمشق ، فقلت : جزى الله دمشق وأهلها خيرًا ، فمن أنت من أهلها ؟ قال: وعمن تسأل ؟ قلت : أتعرف فلانًا ؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت : وقع لى معه قضية . فقال : ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه، فقال : ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق ، فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى إن الوالى تدلى فى زنبيل من قصر الحجاج ، وهرب هو وأصحابه ، وهربت فى جملة القوم ، فبينما أنا هارب فى بعض الدروب ، وإذا بجماعة يَعْدون خلفى ، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم ، فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك ، وهو جالس على باب داره ، فقلت : أغثنى أغاثك الله، قال : لا بأس عليك ادخل الدار ، فدخلت ، فقالت زوجته : ادخل تلك المقصورة فدخلتها ، ووقف الرجل على باب الدار ، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك ، فقال : دونكم الدار، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها ، فقالوا : هو ههنا ، فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا ، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف ، فقالت المرأة : اجلس لا بأس عليك ، فجلست ، فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف قد صرف الله عنك شرهم ، وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى . فقلت له : جزاك الله خيرًا ، فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها ، وأفرد لى مكانًا فى داره ، ولم يحوجنى إلى شىء ، ولم يفتر (١) عن تفقد أحوالى ، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها .

فقلت له : أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى ، فلعلى أقف منهم على خبر ، فأخذ علىَّ المواثيق بالرجوع إليه ، فخرجت وطلبت غلمانى ، فلم أر لهم أثرًا ، فرجعت إليه ، وأعلمته الخبر ، وهو مع هذا كله لا يعرفنى ، ولا يسألنى ، ولا يعرف اسمى، ولا يخاطبنى إلا بالكنية ، فقال : علام تعزم ؟ فقلت : عزمت على التوجه إلى بغداد ، فقال: القافلة بعد ثلاثة

(١)يفتر : يقصر .

أيام تخرج ، وها أنا قد أعلمتك . فقلت له : إنك تفضلت علىَّ هذه المدة ، ولك علىَّ عهد الله انى لا أنسى لك هذا الفضل ، ولأوفينك مهما استطعت ، قال ، فدعا غلامًا له أسود ، وقال له: أسرج الفرس الفلانى ، ثم جهز آلة السفر ، فقلت فى نفسى : أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحى ، فأقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب ، فلما كان يوم خروج القافلة جاءنى السحر (١) ، وقال لى: يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت فى نفسى: كيف أصنع، وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى (٢) به مركوبًا ؟، ثم قمت ، فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر ، ثم جاءنى بسيف ومنطقة ، فشدهما فى وسطى ، ثم قدم بغلاً ، فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ، ودفع إلى نسخة ما فى الصندوقين ، وفيهما خمسة آلاف درهم ، وقدم إلىَّ الفرس الذى كان جهزه ، وقال: اركب ، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك . وأقبل هو وامرأته يعتذران إلىَّ من التقصير فى أمرى ، وركب معى يشيعنى ، وانصرفت إلى بغداد ، وأنا أتوقع خبره لأفى بعهدى لى فى مجازاته ومكافأته ، واشتغلت مع أمير المؤمنين ، فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره ، فلهذا أنا أسأل عنه .

فلما سمع الرجل الحديث قال : لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء ، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ، ولا مؤنة تلزمك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضر الذى أنا فيه غير عليك حالى ، وما كنت تعرفه منى ، ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته . فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له: فما الذى أصَارَكَ إلى ما أرى ؟ فقال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك، فَنُسِبَتْ إلىَّ ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد ، وأُخِذْتُ أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت ، وقُيِّدْتُ وبعث بى إلى أمير المؤمنين ، وأمرى عنده عظيم وخطبى لديه جسيم ، وهو قاتلى لا محالة ، وقد أخرجت من عند أهلى بَلا وصية ، وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف إلى أهلى بخبرى ، وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد ، فإن أنت فعلت ذلك ، فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لى بوفاء عهدك .

قال العباس : قلت : يصنع الله خيرًا . ثم أحضر حدادًا فى الليل فَكَّ قيوده ، وأزال ما كان فيه من الأنكال (٣) وأدخله حمام داره ، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سير من أحضر إليه غلامه ، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه ، فاستدعى العباس نائبه ، وقال : على بالفرس

(١) السَّحَرُ : آخر الليل قبيل الفجر .
(٢) أكرى : استأجر .
(٣) الأنكال : جمع : نُكْل : القيود القاسية .

الفلانى ، والفرس الفلانى والبغل الفلانى ، والبغلة الفلانية حتى عَدَّ عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ، ومن الطعام كذا . وكذا قال ذلك الرجل : وأحضر لى بدرة عشرة آلاف درهم ، وكيسًا فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه فى الشرطة : خذ هذا الرجل وشيِّعه إلى حد الأنبار [١] . فقلت له : إن ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم ، وخطبى جسيم . وإن أنت احتججت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فأرد وأقتل . فقال لى: انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى ، فقلت : والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك ، فإن احتجت إلى حضورى حضرت ، فقال لصاحب الشرطة : إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا ، فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمته ، وإن أنا قتلت ، فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه ، وانشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم ، وتجتهد فى إخراجه من بغداد .

قال الرجل : فأخذنى صاحب الشرطة وصيرنى فى مكان أثق به ، وتفرغ العباس لنفسه ، وتحنط وجهز له كفنًا. قال العباس : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون فى طلبى ويقولون : يقول لك أمير المؤمنين : هات[٢] الرجل معك وقم . قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين ، فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا . فقال : أين الرجل ؟ فسكت ، فقال: ويحك أين الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين اسمع منى ، فقال : لله علىَّ عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب . ولكن اسمع حديثى وحديثه، ثم شأنك ما تريد أن تفعله فى أمرى . قال : قل . فقلت : يا أمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أننى أريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى، وقلت : أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين : إما أن يصفح عنى ، فأكون قد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلنى فأفيه بنفسى. وقد تحنطت وها كفنى يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال : ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيرًا . إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ، وتكافئه بعد المعرفة ، والعهد بهذا لا غيره . هلا عرفتنى خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر فى وفائك له ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتى، فإن احتجت إلى حضوره حضر .

فقال المأمون : وهذه منِّه أعظم من الأولى اذهب الآن إليه ، فطيِّب نفسه وسكن روعه وائتنى به حتى أتولى مكافأته . قال العباس: فأتيت إليه، وقلت له : ليزل خوفك . إن أمير المؤمنين

---

(١) الأنبار : مدينة قديمة فى العراق على الفرات . فتحها خالد بن الوليد . كانت مقرًا للخلافة إلى أن تأسست بغداد .

(٢) هاتِ : اسم فعل أمر بمعنى أحضر .

قال : كيت وكيت . فقال : الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه ، ثم قام ، فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا ، فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه ، وحدثه حتى حضر الغداء ، وأكل معه وخلع عليه ، وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستعفى ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها ،وعشرة أبغال بآلاتها ،وعشر بدر ،وعشرة آلاف دينار ، وعشرة مماليك بدوابهم ، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به ، وإطلاق خراجه ، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق ، فصارت كتبه تصل إلى المأمون ، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى : يا عباس هذا كتاب صديقك . والله تعالى أعلم .

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه : ما أورده ابن القاسم الأنبارى(١) رحمه الله تعالى ـ أن سوارًا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين ، قال : انصرفت يومًا من دار الخليفة المهدى ، فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام ، فلم تقبله نفسى ، فأدرت به ، فرفع ، ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسى ، دخل وقت القائلة (٢) ، فلم يأخذنى النوم ، فنهضت وأمرت ببغلة ، فأسرجت وأحضرت فركبتها ، فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ومعه مال ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد، قلت : أمسكها معك واتبعنى ، فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ، ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء ، ثم رجعت إلى باب الأنبار ، وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة ، وعلى الباب خادم ، فعطشت ، فقلت للخادم: أعندك ما تسقينيه؟ قال: نعم ، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولنى ، فشربت، وحضر وقت العصر ، فدخلت مسجدًا على الباب فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يلتمس ، فقلت : ما تري يا هذا ؟ قال : إياك أريد . قلت : فما حاجتك ؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى ، وقال: شممت منك رائحة طيبة ، فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشىء ، فقلت: قل ، قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر ؟ قلت : نعم ، قال هذا قصر كان لأبى ، فباعه ، وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كنا فيها، وعميت، فقدمت هذه المدينة ، فأتيت صاحب هذا الدار لأسأله شيئًا يصلنى به وأتوصل إلى سوار ، فإنه كان صديقًا لأبى ، فقلت : ومن أبوك ؟ قال : فلان بن فلان فعرفته ، فإذا هو كان من أصدق الناس إلىَّ ، فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار ، منعه من الطعام والنوم والقرار ، حتى جاء به ، فأقعد

---

(١) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان بن دعامة الأنبارى . نحوي . لغوى . أديب . مفسر محدث . ولد بالأنبار . كان يعلم أولاد الخليفة الراضى بالله . توفى ببغداد سنة ٣٢٨ هـ .

(٢) القائلة : أى وقت القيلولة شدةَّ الحَرِّ عند الظهر .

بين يديك ، ثم دعوت الوكيل ، فأخذت الدراهم منه ، فدفعتها إليه ، وقلت له : إذا كان الغد فسر إلى منزلى ، ثم مضيت ، وقلت : ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا ، فأتيته ، فاتأذنت عليه فأذن لى ، فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بألفى دينار ، فأحضرت، فقال : ادفعها إلى الأعمى ، فنهضت لأقوم ، فقال : اجلس ، فجلست ، فقال : أعليك دين ؟ قلت: نعم قال: كم دينك ؟ قلت: خمسون ألفًا ، فحادثنى ساعة ، وقال: امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلى فإذا بخادم معه خمسون ألفًا ، وقال : يقول لك أمير المؤمنين: اقض بها دينك. قال: فقبضت منه ذلك ، فلما كان من الغد أبطأ على الأعمى، وأتانى رسول المهدى يدعونى فجئته، فقال : قد فكرت البارحة فى أمرك ، فقلت : يقضى دينه ، ثم يحتاج إلى القرض أيضًا ، وقد أمرت لك بخمسين ألفًا أخرى، قال : فقبضتها وانصرفت ، فجاءنى الأعمى ، فدفعت إليه الألفى دينار ، وقلت له : قد رزقك الله تعالى بكرمه ، وكافاك على إحسان أبيك ، وكافأنى على إسداء المعروف إليك ، ثم أعطيته شيئًا آخر من مالى ، فأخذه وانصرف . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومما هو أوضح حسنًا وأرجح معنى : ما حكاه القاضى يحيى بن أكثم (١) ـ رحمة الله عليه ـ قال : دخلت يومًا على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدى وهو مطرق مفكر ، فقال لى : أتعرف قائل هذا البيت ؟

الخيرُ أبقى وإن طال الزمــانُ به ... والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

فقلت : يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص (٢) فقال : علىَّ بعبيد ، فلما حضر بين يديه قال له : أخبرنى عن قضية هذا البيت ، فقال : يا أمير المؤمنين كنت فى بعض السنين حاجًا ، فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ألحقت أولها بآخرها ، فسألت عن القصة ، فقال لى رجل من القوم: تقدم ترما بالناس ، فتقدمت إلى أول القافلة ، فإذا أنا بشجاع(٣) أسود فاغر فاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء

---

(١) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن . التميمى . الأسيدى المروزى ، أبو محمد . فقيه أصولى . مجتهد . ولد بمرو سنة ١٥٩ هـ اتصل بالمأمون . فولاه قضاء البصرة . ثم قضاء القضاة ببغداد . توفى سنة ٢٤٢هـ. وفى تهذيب التهذيب توفى سنة ٢٤٣ هـ .

(٢) عبيد بن الأبرص أحد شعراء الجاهلية الذين وفدوا على النعمان بن المنذر فى يوم بؤسه ، والظاهر أن هناك التباسًا فى الاسم بينه وبين آخر من الشعراء الذين كانوا فى عصر الرشيد ؛ لأن الحادثة تدل على أنها وقعت لشاعر من المسلمين واقتضى ذلك التنبيه والإشارة .

(٣) شجاع : أفعى .

البعير ، فهالنى أمره وبقيت لا أهتدى إلى ما أصنع فى أمره ، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانيًا ، فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه ، فقلت : أفدى هذا العالم بنفسى ، وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا ، فأخذت قِرْبةُ من الماء، فتقلدتها وسللت سيفى وتقدمت . فلما رآنى قربت منه سكن ، وبقيت متوقعًا منه وثبة يبتلعنى فيها ، فلما رأى القِرْبةَ فتح فاه ، فجعلت فم القِرْبةَ فيه، وصببت الماء كما يصب الماء فى الإناء ، فلما فرغت القِرْبةُ تسيب فى الرمل ومضى ، فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه . ومضينا لحجنا ثم عدنا فى طريقنا ذلك وحططنا فى منزلنا ذلك فى ليلة مظلمة مدلهمة (١) ، فأخذت شيئًا من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق ، فقضيت حاجتى ثم توضأت وصليت ، وجلست أذكر الله تعالى ، فأخذتنى عينى ، فنمت مكانى ، فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسًا ، وقد ارتحلوا وبقيت منفردًا لم أر أحدًا، ولم أهتد إلى ما أفعله ، وأخذتنى حيرة وجعلت أضطرب ، وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول :

يا أيها الشخصُ المُضلُّ مركبُـــه ... مـــا عنده من ذى رشاد يصحبُهُ
دُونكَ هذا البكــرَ منـــا تركبُـــه ... وبكـــرُك الميمـــون حقًا تجنبُه
حتـى إذا مـــال الليل زال غيهبُه ... عنـــد الصباحِ فـــى الفلا تُسيِّبُه(٢)

فنظرت ، فإذا أنا ببكر قائم عندى ، وبكرى إلى جانبى ، فأنخته وركبته وجنبت بكرى ، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة ، وانفجر الفجر ، ووقف البكر ، فعلمت أنه قد حان نزولى فتحولت إلى بكرى وقلت :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ... ومن همومٍ تُضلّ المدلجَ الهادى
الا تُخبِرُني باللـــهِ خالقنـــا ... من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
وارجِـــعْ حميدًا فقد أبلغتنـــا مِننا ... بوركتَ من ذى سنامٍ رائحٍ غادى

فالتفت البكر إلىَّ وهو يقول :

أنا الشجاعُ الذى الفَيتَنى رَمضًا ... واللهُ يكشفُ ضُرَّ الحائرِ الصَّادى (٣)
فجـدتَ بالماء لمـــا ضـــنّ حاملُـــه ... تكرّمًا منـــك لـــم تمـــنْنْ بأنكاد

(١) مُدلهمة : مشتدة الظلام . (٢) الغيهب : الظلام . وتسيبه . تطلقه .
(٣) الرمض : العطش من شدة الحرارة ، والصادى : الظامى.

فالخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به ... والشرُّ أخبثُ ما أَوْعَيْتَ من زاد
هذا جزاؤك مِنِّى لا أمنٌّ به ... فاذهبْ حميدًا رعاكَ الخالقُ الهادى

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات ، فكتبت عنه ، وقال : لا يضيع المعروف أين وضع ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

هذا آخر الجزء الأول من الكتاب

الباب الثالث والأربعون

فى الهجاء ومقدماته

القصد من الهجاء الوقوف على مُلَحِه وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعانٍ بديعة ، لا التشفى بالأغراض والوقوع فيها. وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجو ولا صدق الشاعر فيما رماه به ، فما كل مذموم بذميم ، وقد يهجى الإنسان بهتانًا وظلمًا أو عبثًا أو إرهابًا . قال المتوكل لأبى العيناء [١]: كم تمدح الناس وتذمهم ، قال : ما أحسنوا وأساءوا . وقد رضى الله تعالى على عبد من عبيده فمدحه ، فقال : ﴿ نِعمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[٢] [ص : ٤٤] وغضب علي آخر ، فقال : ﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : ١١ ، ١٢] ، قيل الزنيم: الملصق بالقوم وليس منهم ، وقال دعبل[٣] فى المأمون بعد البيعة له ، وقتل الأمين :

إنّى من القوم الذين هُمُو هُمُو ... قَتَلُوا أخاك وشرَّفُوك بمقعَد
شادُوا لذِكرِكَ بعد طُولِ خمُولِه ... واستنقذوك من الحضيضِ الأَوْهَد [٤]

فقال المأمون : ما أبهته ليت شعرى متى كنت خاملاً ، وفى حجر الخلافةِ ربيت وبدِرِّها[٥] غذيت . ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس [٦]، فقيل له : أتبكى على جعفر وأنت هجوته ؟ فقال : كان ذلك لركوب الهوى ، وقد بلغه والله أنى قلت :

ولست وإن أطنبت[٧] فى وصف جَعْفرٍ ... بأولِ إنسانٍ خَرَى فى ثِيَابِه

فكتب يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه .

ومن العبث بالهجو ما روى أن الحطيئة هم بهجاء . فلم يجد من يستحقه فقال :

أبت شفتاى اليوم إلاّ تكلّما ... بسوء فلا أدرى لِمَنْ أنا قائله
أرى بى وجهًا قبّح الله خَلْقه ... فَقُبِّح من وجه وقُبِّحَ حَامِلهُ

---

(١) أبو العيناء : محمد بن القاسم الهاشمى ولد فى الأهواز سنة (١٩٠ هـ ٨٠٥ م) . وتوفى فى البصرة . أديب شاعر . نشأ فى البصرة روى عنه أخبار فى « الأغانى » .
(٢) أواب : رجع عن ذنبه وتاب فهو رجّاع إلى الله وطاعته .
(٣) دعبل بن على الخزاعى ، أبو على . شاعر هجاء خليعًا. أصله من الكوفة وأقام ببغداد . وهجا الخليفة . كان طوالا ضخمًا اطروشًا . توفى سنة ٢٤٦هـ .
(٤) الأوهد : الأرض المنخفضة ، المقصود أنهم رفعوا ذكرك بعد أن كنت فى مهانة وازدراء .
(٥) دَرُّها : لبنها . (٦) سبق التعريف به.
(٧) اطنبت : أكثرت القول .

وعبث بأمه فقال :

تنحـي فاجلسـى عنّا بعيـدًا ... أراح الله منـك العالمينا
أغـربـالاً إذا استودعـت سـرًا ... وكانونـا علـى المحدِّثينـا
حياتُـك مـا علمـت حـياة سوء ... وموتـك قـد يسـر الصالحينا

وقال رجل : ما أبالى أهجيت أم مدحت . فقال له الأحنف : أرحت نفسك من حيث تعب الكرام . وقال رجل لآخر: إن هجوتنى أتموت ابنتى ؟ قال: لا ، قال: أفتخرب ضيعتى؟ قال: لا ، قال: فرجلى مع ساقى إلى حلقى فى حرِّ (١) أمك ، قال: ولم تركت رأسك ؟ قال : لأنظر ما تصنع . وأنا أقول : إنما يخشى من الهجو من يخاف على عرضه، وأما من لا يخاف على عرضه فقد يستوى عنده المدح والذم وبئس الرجل ذاك . وكان الرجل من نمير إذا قيل له : ممن الرجل ؟ يقول : من نمير (٢)وأمال بها عنقه ، فلما هجاهم جرير بقوله :

فَغُضِّ الطـرفَ إنَّـك مـن نُمَيْرٍ ... فـلا كَعْبًا بَلَغْتَ ولا كِلابـا

صار إذا قيل لأحدهم : ممن الرجل ؟: يقول : من بنى عامر . وما لقيت قبيلة من العرب بهجو ما لقيت نمير بهجو جرير . وهجا ابن بسام(٣) رجلاً فقال :

يا طَلـوعَ الرقيـب مـن غير إلف ... يـا غريمًا أتـى علـى ميعادِ
يا ركودًا فـى وقـت غيمٍ وصيف ... يـا وجـوه التجار يـوم كسـادِ

وقصد ابن عيينة (٤) قبيصة المهلبى . واستماحه . فلم يسمح له بشىء فانصرف مغضبًا ، فوجه إليه داود بن يزيد بن حاتم ، فترضاه : وأحسن إليه ، فقال فى ذلك :

داودُ محمـودٌ وأنـت مذمّمٌ ... عجبًا لذاك وأنتُمـا مـن عُود
وَلَرُبَّ عود قـد يشقُّ لِمَسْجِدِ ... نصفًا وباقيـه لِحشّ يهودى
فالحشُّ أنتَ له وذاك بمسجدَ ... كم بَيْن مَوْضِعِ مَسْلحِ وسُجُودِ (٥)
هـذا جزاؤك يـا قُبَيْصُ لأنـه ... جادت يداه وأنت قفل حديد

---

(١) حِرُّ أمك : فرجها ، الحِرّ مبضع المرأة خاصة .

(٢) نمير : اسم قبيلة أهلها قطنوا اليمامة . كانوا يتعيشون من التلصص . هجاهم . جرير .

(٣) على بن محمد بن نصر بن بسَّام ، أبو الحسن . ويقال له : الشاعر البسَّامى . شاعر مطبوع . هجاء . هجا أباه وإخوته وكل أهل بيته . عالم بالأدب وبالأخبار . من آثاره « اخبار الأحوص » . و« مناقضات الشعراء» و« أخبار عمر بن أبى ربيعة » توفى سنة ٣٠٢ هـ.

(٤) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى . المكى ، أبو محمد . محدث . فقيه ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ. طلب الحديث. من آثاره : تفسير القرآن وجزء فيه أحاديث. توفى سنة ١٩٦ هـ.

(٥) الحُش : البستان : المسلح : مكان التغوُّط .

وله هجاء فى خالد :

أبـوك لنـا غيثٌ يغيـثُ بوبْله وأنتَ جرادٌ لستَ تُبقى ولا تذرُ
لـه أثرٌ فـى المكرمـاتِ يسـرنا وأنتَ تعفى[1] دائمًا ذلك الأثر

وقال المبرد فى حقه : لم يجتمع لأحد من المحدثين فى بيت واحد هجاء رجل ومدح أبيه إلاَّ له . ولما قعد حماد بن عجرد لتأديب ولد الأمين . قال بشار بن برد :

قُـلْ للأمين جزاك اللهُ صالحةً لا يجمعُ اللهُ بين السَّخْل والديب[2]
السخـلُ يعلـمُ أن الذئـبَ آكلُهُ والذئبُ يعلـمُ ما بالسخلِ من طيبِ

وقال فيه أيضًا :

يـا أبا الفضـل لا تنمْ وقع الذئبُ فـى الغنمْ
إنّ حمـاد عجـرد شيخُ سـوءٍ قـد اغتنم
بيـن فخذيـه حَـرْبَةٌ فـى غـلافٍ مـن الأدمْ
إن رأى ثـمَّ غَفْلَةً يجْمَـعُ الميـم بالقلم

فشاعت الأبيات ، فأمر الأمين بإخراج حماد .

وقال رجل لأخيه لأبويه : لأهجونك هجاء يدخل معك فى قبرك ، قال : كيف تهجونى وأبوك أبى ، وأمك أمى؟ قال أقول :

بنـى أميـةَ هبُّوا طال نومكُمُو إنّ الخليفة يعقـوبَ بنَ داود
ضاعت خلافُتكم يا قومُ فالتمسوا خليفة اللهِ بيـن المـاء والعود

فدخل يعقوب المهدى ، فأخبره أن بشارًا هجاه ، فاغتاظ المهدى وانحدر إلى البصرة لينظر فى أمرها ، فسمع أذانا فى ضحى النهار ، فقال : انظروا ما هذا ؟، وإذا به بشار وهو سكران ، فقال له : يا زنديق عجب أن يكون هذا من غيرك ، ثم أمر به فضربه سبعين سوطًا حتى أتلفه بها وألقى فى سفينة ، فقال عين الشمقمق ترانى حيث يقول:

إن بشـارَ بـنَ بـردِ تيـسُ أعمـى فـى سفينة

---

(١) تعفّى : تمحو وتزيل .
(٢) السخل : ولد الضأن والمعزى ذكرًا أو انثى .

فلما مات ألقيت جثته فى الماء . فحمله الماء ، فأخرجه إلى الدجلة ، فجاء بعض أهله ، فحملوه إلى البصرة ، وأخرجت جنازته ، فما تبعه أحد ، وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه . وخاصم أبو دلامة رجلاً ، فارتفعا إلى عافية القاضى ، فلما رآه أبو دلامة (١) أنشد يقول :

لقد خاصمتنى دهاةُ الرجال وخاصمتُها سنة وافيهْ
فما أدحضَ اللهُ لى حُجَّة ولا خيب اللهُ لى قافيه
ومَنْ خِفتُ من جوره فى القضاء فلستُ أخافُك يا عافية

فقال عافية : لأشكونك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنه أنك هجوتنى قال له أبو دلامة : إذًا والله يعزلك . قال : ولمَ ؟ قال : لأنك لا تعرف الهجاء من المدح ، قال : فبلغ ذلك المنصور ، فضحك وأمر له بجائزة .

ودخل أبو دلامة على المهدى وعنده إسماعيل بن على ، وعيسى بن موسى والعباس بن محمد ، وجماعة من بنى هاشم ، فقال له المهدى : والله لئن لم تهج واحدًا ممن فى هذا البيت لأقطعن لسانك . فنظر إلى القوم وتحير فى أمره ، وجعل ينظر إلى كل واحد ، فيغمزه بأن عليه رضاه ، قال أبو دلامة ، فارددت حيرة ، فما رأيت أسلم لي من أن أهجو نفسى، فقلت :

الا أبلغْ لديك أبا دُلامة فلست من الكرامِ ولا كَرامَه
جمعتَ دمامةً وجمعتَ لؤمًا كذاك اللؤمُ تتبعُه الدّمامه (٢)
إذا لبس العمامةَ قلتُ قردًا وخنزيرًا إذا نزع العمامه

فضحك القوم ، ولم يبق منهم أحدًا إلا أجازه .

وقال ابن الأعرابى: إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب فى محمد بن هاشم:

لم تندُ كفاك من بذل النوال كما لم يندَّ سيفُك مذ قلدته بدم (٣)

وهجا بعضهم القمر ، فقال : يهدم العمر، ويوجب أجرة المنزل، ويسحب الألوان ، ويقرض الكتان ، ويضل السارى ، ويعين السارق ، ويفضح العاشق .

---

(١) أبو دلامة : هو زيد بن الجون الأسدى بالولاء ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون جسيم وسيم ، نشأ فى الكوفة واتصل بالخلفاء واتصل من بنى العباس وله فيهم مدائح كثيرة وكان يُتَّهَمُ بالزندقة لتهتكه، وأخباره كثيرة متفرقة توفيِ سنة ١٦١ هـ .

(٢) الدمامة : القبح . (٣) لم تند : لم تتكرم .

ولابن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره :

انظــرْ إلى الأيـام كيـف تسوقُنا قسرًا إلــى الأقــدار بالأقــدار؟
ما أوقد ابــنُ طُلَيْــب قَــطٌّ بداره نارًا وكان خرابُهــا بالنــار

وكان للوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب ، دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت ، فقال فيها ابن المنجم (١):

أقولُ وقــد عاينتُ دارَ ابن صورة وللنــار فيهــا وهجةٌ تتضرمُ
فما هــو إلا كافرٌ طــال عمــرهُ فجاءتــه لمــا استبطأَتْه جهنْمُ

وقد أحسن الأديب كمال الدين على بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى(٢) فى ذم دار كان يسكنها حيث قال :

دارٌ سكنتُ بها أقلُّ صِفَاتها أن تكثرَ الحشراتُ فــى جنباتها
الخيرُ عنها نازحٌ متباعدٌ والشرُّ دانٍ مــن جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوضُ عدمتُه كم أعدمَ الأجفانَ طيبُ سناتها
وتبيــتُ تسعدُهــا براغيــثُ متى غنتْ لها رقصــت على نغماتها
رقصٌ بتنقيــط ولكــنْ قافُــه قد قدمــت فيــه علــى أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسدُّ عيــ ــن الشمس ما طربى سوى غناتها
أين الصــوارمُ والقناَ مــن فتكها فينا وأين الأســد مــن وثباتها
وبها مــن الخطــاف ما هو معجزٌ أبصارنا عــن وصــف كيفياتها
وبهـا خفافيــش تطيــر نهارها مع ليلها ليســتْ على عاداتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت عنه العتاقُ الجرد فــى حملاتها(٣)
وبه خنافسُ كالطنافسِ أفرشت فى أرضها وعلت على جنباتها
لو شم أهل الحرب منتنَ فسوِها أردى الكُماة الصيد عن صهواتها
وبنات وردانٍ وأشكــالُ لهــا مما يفــوت العيــن كنهُ ذواتها

(١) على بن هارون بن على بن يحيى بن أبى منصور ، أبو الحسن ولد سنة ٢٧٧ هـ . أديب . شاعر . راوية للشعر . نسابة . نادم جماعة من الخلفاء والوزراء . آثاره : « كتاب النيروز والمهرجان » و« الفرق بين اللفظ المحيط ببعض ما لفظ به اللقيط » و « الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحرار » توفى سنة (٣٥٢ هـ).
(٢) أديب . شاعر . ناثر (٦١٠ ـ ٦٩٢ هـ) من آثاره : قصائد فى مدح الرسول ﷺ سماها : الشفعية . والمقامة البحرية . دفن بمقابر الصوفية بدمشق .
(٣) العتاق الجرد : الخيل الكريمة.

أبدًا تمص دماءَنا فكأنها ... حجامة لبدت على كاساتها(١)
وبها من النمل السليمانى ما ... قد قل ذر الشمس عن ذرَّاتها
ما راعنى شىء سوى وزغاتها(٢) ... فتعوَّذوا الله من لدغاتها
سجعت على أوكارها فظنتها ... ورقَ الحمام سجعن فى شجراتها
وبها زنابير تُظَنُّ عَقَاربًا ... حر السموم أخف من زفراتها
وبها عقارب كالأقارب رتَّعٌ ... فينا حمانا الله لدغ حماتها
كيف السبيلُ إلى النجاة ولا نجـ ... ـاة ولا حياة لمن رأى حياتها
منسوجة بالعنكبوت سماؤها ... والأرض قد نسجت على آفاتها
فضجيجها كالرعد فى جنباتها ... وترابها كالرمل فى خشناتها
والبوم عاكفةٌ على أرجائها ... والدود يبحث فى ثرى عرصاتها(٣)
والجن يأتينا إذا جن الدجى ... تحكى الخيول الجرد فى حملاتها(٤)
والنارُ جُزءَ من تلهُّب حرِّها ... وجهنم تعزى إلى لفحاتها
شاهدت مكتوبًا على أرجائها ... ورأيت مسطورًا على جنباتها
لا تقربوا منها وخافوها ولا ... تلقوا بأيديكم إلى هلَكَاتها
أبدًا يقولُ الداخلون ببابها ... يارب نج الناس من آفاتها
قالوا : إذا ندب الغرابُ منازلاً ... يتفرقُ السكانُ من ساحاتها
وبدارنا ألفا غرابٍ ناعق ... كذب الرواة فأين صدقُ رواتها؟
صبرًا لعل اللهَ يعقب راحةً ... للنفس إذا غلبتْ على شهواتها
دارٌ تبيتُ الجنُّ تحرسُ نفسها ... فيها وتندبُ باختلاف لغاتها
كم بتُّ فيها مفردًا والعين من ... شوق الصباح تسحُ من عبراتها(٥)
وأقولُ يارب السموات العلا ... يا رازقا للوحش فى فلواتها
أسكنتنى بجهنم الدنيا ففى ... أخراى هب لى الخلدَ فى جنَّاتها
واجمع بمن أهواه شملى عاجلاً ... يا جامع الأرواح بعد شتاتها

(١) حجامة : الحجام هو استخراج الدماء من الجسد .
(٢) ورغاتها : نوع من الزحافات يقال : إنه سام أبرص .
(٣) العرصات : الفسحات .
(٤) الجرد : الخيل الأصيلة .
(٥) تسح : تذرف .

ولبعضهم فى بلان (١) :

أشكو إلى الله بلانًا بُليتُ به ... مَسّتْ أناملُهُ ظهرى فأدمانى
فلا يُدلكُ تدليكًا بمعرفة ... ولا يُسرَّحُ تسريحًا بإحسانِ

وللشيخ شمس الدين البدوى فى بلان أيضًا :

وبلانٌ لــه ظهــرٌ يُباهى ... بــه حــدّ الشفــارِ المرهفــات
هرى جسمــى فألبسـه نجيعًا ... علــى حُلَل الستور السابلات(٢)
ورام يلينُ أعضائــى برفق ... فأيبسهـــا وكســر فوقحانى(٣)
ولم أنظـر لــه أبدًا جميلاً ... وذلــك مــن عظيـم المهلكات
وأعمى مقلتى بصنانِ إبطٍ(٤) ... يفوحُ بـه على كل الجهات
فلا تجعــلْ إلهى مثل هذا ... يُغسِّلنــى إذا حانــت وفاتــى

ولبعضهم فى حمَّام :

وحــمّام دخلْنَــاهُ لأمــر ... حكَــى سَقرًا وفيهـا المجرمُونا
فيصطرِخُوا يقولوا : أخرِجُونا ... فــإن عُدْنـا فإنـا ظالمِونَا

وللشريف أبى يعلى الهاشمى البغدادى فى نظام الملك يهدده بالهجاء يقول :

أيجملُ يــا نظامَ الملك أنّــى ... أعــاودُ مــن ذُراك كمـا قدمتُ
وأصدرُ عــن حياضك(٥) وهى نهبٌ ... بأفــواه السُّقــاةِ ومـــا وردتُ
يــدُلُ على فعالك ســوءُ حالى ... ويخبــرُ عن نوالك إن كتمت
إذا استخبــرتُ ماذا نلــت منـه ... وقــد عمَّ الــورى كرمًا سكتُ

ومن عرض بالهجو فى شعره الخوارزمى(٦) قال فى أبى جعفر :

أبــا جعفــرِ لستَ بالمنصف ... ومِثْلُــكَ إن قــال قولاً يفــى

---

(١) البيتان : لشرف الدين . عبد العزيز بن محمد الأنصارى الدمشقى الحموى الشافعى . شاعر أديب . ولد بدمشق وتوفى بحماة سنة ٦٦٢ هـ . والبلان : قَيِّم الحمام .

(٢) السابلات : اللينة السهلة . (٣) فوقحاني : يداي .

(٤) بصنان إبط : أى برائحة إبط منتنة. (٥) حياضك : مياهك والمقصود عن جودك وكرمك.

(٦) الخوارزمى : هو محمد بن موسى الخوارزمى ، فلكى ، رياضى ، مؤرخ ، جغرافى ، من أهل خوارزم ، مصنفاته « الجبر والمقابلة » « تقويم البلدان » و« صــور الأرض عن المدن والجبال » توفى بعد الواثق سنة ٨٥٠م .

فإن أنتَ انجزتَ لى ما وعدتَ وإلا هُجيتَ وأدخلتَ فى
وقد علم الناسُ ما بعد فى فَقَطٌ [١] الحديثَ ولا تكشفِ

ومدح السراج [٢] الوراق إنسانًا فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده يقول :

أعد مدحى على وخذ سواه فقد أتعبتنى يا مستريح
ولا تغضبْ إذا أُنشدتَ يومًا سواه وقيل : هذا صحيح

وله أيضًا يقول :

أعد مدحًا كذبت عليك فيه وقد عُوقِبْت بالحرمان عنه
ولكنى سأصدقُ فيك قولاً فلا يَصعب عليك الحقُ منه

وقال بعضهم فى حُجّاج قدموا ولم يهدوا إليه شيئًا :

مضوا لِيَحُجُّوا كأنَّها تكاد لفرط البشر أن توضح السبلا
وعادوا كأن القار [٣] فوق وُجُوهِهِم فلا مرحبًا بالقادمين ولا سهلاً
وجاءوا وما جادوا بعوذ أراكة ولا وضعوا فى كف طفلٍ لنا نُقلا [٤]

وقال آخر :

إذا رمتُ هجوًا فى فلان تصدنى خلائق قبحٍ عنه لا تتزحزح [٥]
تجاوزَ قدرَ الهجو حتى كأنه بأقبح ما يُهجى به المرء يُمدحُ

---

(١) فغط : استر .

(٢) السراج القدامة : هو سراج الدين القدامة عمر بن محمد بن حسن ولد سنة ٦١٥ هـ ، ثانى ثالوث الظرف والفكاهة شهرة بعد الجزار والحمامى ثالثهم، ولد بمصر وعاش بالقاهرة وكان مطبوعًا على الفكاهة ، تولى بعض المناصب واتصل ببعض الرؤساء قال ابن عساكر : « ملكت ديوان شعره وهو فى سبعة أجزاء كبار فخمة ».

وشعره الغالب سهل قريب من الكلام الجارى ، وللسراج شعر كثير فى المجون على عادة شعراء عصره . توفى بالقاهرة سنة ٣٩٥ هـ .

(٣) القار : القطران والزفت .

(٤) أراكة : الأراك شجر طيب الرائحة تستعمل عوده لتنظيف الأسنان . والنقل : فطائر من الحلوى وغيره .النَقْل والنُقْل : النعل أو الخلف والخلق البالي .

(٥) رمت : أردت .

وهجا بعضهم امرأة فقال :

لها جسم برغوثٍ وساق بعوضة ... ووجه كوجه القرد بل هو أقبحُ
تُبرق عينيها إذا ما رأيتها ... وتعبس فى وجه الضجيع وتكلح
لها منظرٌ كالنار تحسب أنها ... إذا ضحكت فى أوجه الناس تلفح
إذا عاين الشيطان صورة وجهها ... تعوذ منها حين يمسى ويصبح

ولبعضهم فى عظيم أنف :

لك وجهٌ وفيه قطعةُ أنف ... كجدارٍ قد دعموه ببَغْلَةِ(١)
وهو كالقبرِ فى المثال ولكنْ ... جعلوا نصفه على غير قِبْلَه

وفيه أيضًا :

رأينا للزكىِّ جدارَ أنف ... يضاهى فى تشامخه الجبالا
تصدى للهلالِ لكى يراهُ ... فلولا عظمُه لرأى الهلالا

ولبعضهم فى أبخر(٢) مخنث :

قالوا : فلانٌ به نتنٌ فقلتُ لهم ... : يا قومُ قد حار فكرى فى مساويه
يا قوم لا تعجبوا من نتن نكهته ... فالأيرُ يدفعُ ما فِيه إلى فيه

ولصفى الدين الحلى(٣) :

رأى فرسى إصطبل عيسى فقال لى ... :«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»
به لم أذق طعم الشعير كأننى ... «بسقط اللوى بين الدخول فحومل»
تقعقع من برد الشتاء أضالعى ... «لما نسجتها من جنوبٍ وشمألِ»

وله أيضًا :

لِيَهْنِك أنَّ لى ولدًا وعبدًا ... سواءٌ فى المقال وفى المقام
فهذا سابقٌ من غير سينٍ ... وهذا عاقلٌ من غير لام

وله فى طبيب يدعى إسحاق :

مَباضعُ إسحاقَ الطبيبِ كأنها ... لهما بفناء العالمين كفيلُ
مُعودة أن لا تُسل نصالُهَا ... فتغمد حتى يستباحَ قتيل

(١) جدار : حائط .
(٢) أبخر : أنتن ريح فحمه .
(٣) عبد العزيز بن سرايا بن على الطائى الحلى ، أبو الفضل . ولد فى الحلة ٦٧٧ هـ له ديوان شعر فى مدح المنصور توفى سنة ٧٥٠ هـ .

وله فى أحمق طويل اللسان :

لـو أن قـوة وجهـه فـى قلبه ... قَنَصَ الأسودَ وجنـدلَ الأبطالا
أو كـان طـولُ لسانـه بيمينه ... أفنـى الكنـوزَ وأنفـد الأموالا

وهجا أعرابى رجلاً ثم مدحه فقال :

إنى مدحتُـك فى فساد قريحتى ... وعلمتُ أن المدحَ فيك يضيعُ
لكن رأيـتُ المسكَ عند فساده ... يُـدنى إلى بيت الخلا فيضوعُ(١)

وقيل لبعضهم : ما تقول فى فلان ؟ قال : هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما .

وقيل لرجل : كيف وجدت فلانًا ؟ قال : طويل اللسان فى اللؤم ، قصير الباع فى الكرم ، وثابًا على الشر منّاعًا للخير .

وسمع أعرابى قوله تعالى : ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا** ﴾ [التوبة : ٩٧] . فانتفض ، ثم سمع قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [التوبة : ٩٩] . فقال : الله أكبر هجانًا ثم مدحنا ، وكذلك قال الشاعر :

هجوتُ زهيرًا ثم إنى مدحتُه ... وما زالتِ الأشرافُ تُهجَى وتُمدَحُ

استب رجلان ، فقال أحدهما للآخر : لو قطع زِبُّك وعلق ، لم تبق زانية بالكوفة إلا عرفته.
وقال أبو زيد العبدى :

ولقد قتلتُكَ بالهجاء فلم تمت ... إن الكلابَ طويلةُ الأعمار

وقال المتوكل لأبى العيناء : ما بقى أحد فى المجلس إلا هجاك، وذماك غيرى فقال .

إذا رَضِيَتْ عنـى كـرامُ عَشِيرتى ... فـلا زال غضبانًا علـىّ لِئَامُهـا

---

(١) يضوع : ينتشر .

الباب الرابع والأربعون

فى الصدق والكذب

وفيه فصلان: الفصل الأول : فى الصدق

قال الله تعالى مبشرًا للصادقين : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُم ﴾ [المائدة : ١١٩] . وقال تعالى : ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] . فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم .

وقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : عليك بالصدق وإن قتلك ، وما أحسن ما قيل فى ذلك :

عليك بالصدق ولو أنه ... أحرقَكَ الصدقُ بنار الوعيدْ
وابغِ رضا المولى فأغبى الورى ... مَنْ أسخطَ المولى وأرضى العبيدْ

وقال إسماعيل بن عبيد الله : لما حضرت أبى الوفاة جمع بنيه ، فقال لهم : يا بنى عليكم بتقوى الله وعليكم بالقرآن ، فتعاهدوه ، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً ، ثم سئل عنه أقرَّ به ، والله ما كذبت قط منذ قرأت القرآن . وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سألت رسول الله ﷺ بِمَ يعرف المؤمن ؟ قال : « بوقاره ولين كلامه ، وصدق حديثه » . وقيل: لكل شىء حلية وحلية النطق الصدق .

وقال محمود الوراق :

الصدقُ منجاةٌ لأربابه ... وقربةٌ تُدْنى من الربٌ

وقيل : الصدق عمود الدين ، وركن الأدب ، وأصل المروءة ، فلا تتم هذه الثلاثة إلا به . وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله ، وانتفع به سامعه . وقال المهلب بن أبى صفرة : ما السيف الصارم فى يد الشجاع بأعزً له من الصدق . وكان يقال على الصدوق : فلان وقف لسانه على الصدق . ويقال : الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعى . ويقال: لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لأطلع على خزائن الغيب ، ولكان أمينًا فى السماوات والأرض . وقيل : مَنْ لزم الصدق وعود لسانه به وفق . ويقال : الصدق بالحر أحرى. وقال عتبة بن أبى سفيان : إذا اجتمع فى قلبك أمران لا تدرى أيهما أصواب ، فانظر أيهما أقرب إلى هواك ، فخالفه ، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى . وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذى يزن : « وضع الخد للحق عز» وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان ، فأمر له بمائة ناقة ، فقَبَّل يده ، وقال : والله ما قبلتُ يَد

قُرَشِيّ غيرك إلا واحدًا ، فقال : أهو المنصور ؟ قال : لا والله ، قال: فمن هو ؟ قال: الوليد ابن يزيد . قال : فغضب ، وقال : والله ما قبلتها لله تعالى ، فقال : والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى ، ولكن قبلتها لنفسى ، فقال : والله لاضرَّكَ الصدقُ عندى أعطوه مائة أخرى .

قال عامر العدوانى فى وصيته : إنى وجدت صدق الحديث طرفًا من الغيب فاصدُقُوا ، يعنى من لزم الصدق وعود لسانه وُفق ، فلا يكاد ينطق بشىء يظنه إلا جاء على ظنه . وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية ، فقال لأهلها : نحن من قد عرفتم ، كنا عبدين فأعتقنا الله تعالى ، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى ، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخى ، فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى ، وإن تردونا ، فالله أكبر . فأقبل بعضهم على بعض .

فقالوا : بلال ممن عرفتم سابقته ، ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ . فزوجوا أخاه ، فزوجوه ، فلما انصرفوا قال له أخوه : يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ وتترك ما عدا ذلك ، فقال : مه (١) يا أخى صدقت فأنكحك الصدق .

وخطب الحجاج فأطال ، فقام رجل . فقال : الصلاة فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك، فأمر بحبسه ، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلى سبيله ، فقال : إن أقر بالجنون خليته ، فقيل له ، فقال : معاذ الله لا أزعم أن الله ابتلانى وقد عافانى . فبلغ ذلك الحجاج ، فعفا عنه لصدقه .

الفصل الثانى من هذا الباب : فى الكذب وما جاء فيه

قال الله تعالى فى الكاذبين ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : ٦٠] . وقال رسول الله ﷺ : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور . والفجور يهدى إلى النار . وتحروا الصدق فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة » (٢) . وعن عبد الله ابن عمر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به » (٣) . ويقال : راوى الكذب أحد الكذابين . ويقال: رأس المآثم

(١) مه ، اسم فعل أمر مبنى على السكون بمعنى اكفف .

(٢) رواه البخارى فى « الأدب » (٦٠٩٤) ومسلم فى « الأدب » (٦٥١٤) عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٣) منكر رواه الترمذى فى « البر والصلة » (١٩٧٢) وابن أبى الدنيا فى « مكارم الأخلاق » (١٤٦) وابن عدى=

الكذب وعمود الكذب البهتان [(١)]. وقيل : أمران لا ينفكان من الكذب ، كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار . وقال الحسن فى قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[الأنبياء : ١٨]. وهى لكل واصف كذب إلى يوم القيامة . وقال الأصمعى : قلت لكذاب : أصدقت قط ؟ قال : لولا أنى أخاف أن أصدق فى هذا لقلت لك : لا ، فتعجب .

وقال محمود بن أبى الجنود :

لى حيلةٌ فيمَن يَنم ... وليس فى الكذاب حيلة
من كان يخلقُ ما يقولُ ... فحيلتى فيه قليلة

ويقال : فلان أكذب من لمعان السراب ، ومن سحاب تموز [(٢)]. وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب ، وكان يقول : إن منعت الكذب انشقت مرارتى ، وإنى والله لأجد به مع ما يلحقنى من عاره من المسرة ما لا أجده بالصدق مع ما ينالنى من نفعه .

وقال فيلسوف : من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله .

ولبعضهم :

حَسْبُ الكذوب من البلـ ... ـيّة بعضُ ما يُحكى عليه
فمتى سمعتَ بِكِذبةٍ ... من غيره نُسِبَتْ إليه

وأضاف صيرفى [(٣)] قومًا . فأقبل يحدثهم ، فقال بعضهم : نحن كما قال تعالى : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[المائدة : ٤٢] . وعن عبد الله بن السدى قال : قلت لابن المبارك حدثنا حديثًا ، قال : ارجعوا ، فلست أحدثكم ، فقيل له : إنك لم تحلف ، فقال: لو حلفت لكفرت وحدثتكم ، ولكن لست أكذب ، فكان هذا أحب إلينا من الحديث .

وقال مجاهد : يُكتبُ على ابن آدم كل شىء حتى أنينه فى سقمة [(٤)] ، وحتى أن الصبى يبكى، فتقول له أمه : اسكت وأشترى لك كذا ، ثم لا تفعل ، فتكتب كذبة ، وقال الفُضَيل : ما من مضغة [(٥)] أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً . ولا مضغة أبغض إلى الله

= فى « الكامل » (٥ / ٢٨٣) وابن حبان فى « الضعفاء » (٢ / ١٣٧) وأبو نعيم فى « الحلية » (١٩٧/٨) وفى سنده عبد الرحيم بن هارون وهو ضعيف ، وكذبه الدارقطنى كما فى « التقريب » (١ / ٥٠٥) .

(١)البهتان : الإفك والزور .
(٢)تموز : اسم شهر من الشهور الشمسية .
(٣)الصيرفى : بائع النقود بنقود غيرها .
(٤)سقمه : مرضه .
(٥)مضغة : قطعة لحم أو غيره تمضغ .

تعالى من اللسان إذا كان كذوباً . وعن ابن ـ مسعود رضى الله تعالى عنه ـ مرفوعًا : « أعظم الخطايا اللسان الكذوب » قال الشاعر :

لا يكذبُ المرء إلاّ من مهانته ... أو فعْلِه السوءَ أو من قلة الأدبِ
لَبَعْضُ جيفةِ كلبٍ خير رائحة ... من كذبة المرئِ فى جدّ وفى لعبِ

ولما نصب معاوية ـ رضى الله تعالى عنه ـ ابنه يزيد لولاية العهد أقعده فى قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية ، ثم يسلمون على يزيد ، حتى جاء رجل ، ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها ، والأحنف ساكت ، فقال معاوية : ما لك لا تقول يا أبا بحر ؟ فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت وأخافكم إن صدقت . فقال : جزاك الله خيرًا عما تقول ، ثم أمر له بألوف ، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب ، فقال له : يا أبا بحر إنى لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى ، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع فى إخراجها إلا بما سمعت ، فقال له الأحنف : يا هذا أمسك ، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهًا.

وقيل : إن الكذب يُحمدْ إذا وصل بين المتقاطعين ، أو أصلح بين الزوجين ، ويُذَمُّ الصدقُ إذا كان غيبة ، وقد رفع الحرج عن الكاذب فى الحرب ، وعن المصلح بين المرئ وزوجه ، وكان المهلب فى حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوى بذلك جأشهم ، فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم ، قالوا : جاءنا بكذب . وقال يحيى بن خالد : رأينا شارب خمر نزع ، ولصًا أقلع ، وصاحب فواحش رجع ، ولم نر كذابًا صار صادقًا . وكان عمرو بن معد يكرب مشهورًا بالكذب . وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التعصب لليمن : أكان ابن معد يكرب (١) يكذب ؟ فقال : كان يكذب فى المقال : ويصدق فى الفعال . قيل : إن بلالاً لم يكذب منذ أسلم ـ رضى الله تعالى عنه ـ ، والحمد لله وحده .

---

(١) عمرو بن معد يكرب بن عبد اللّه الزبيدى . أبو ثور . فارس اليمن . قُدِّم على زيد الخيل فى الشدة والبأس. وفد على المدينة فأسلم . وتوفى سنة ٢١ هـ .

الباب الخامس والأربعون

فى بر الوالدين وذم العقوق ، وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم ، وصلة الرحم والقرابات ، وذكر الأنساب

وفيه فصول : الفصل الأول : فى بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء : ٣٦]. وقال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] وقال تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤] . وقال تعالى : ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤].وعن على ـ رضى الله تعالى عنه ـ: لو علم الله شيئًا فى العقوق أدنى من أفٍّ لحرمه ، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار . وقيل : إنَّ رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين .

وحكى أبو سهل عن أبى صالح ، عن أبى نجيع ، عن ربيعة ، عن عبد الرحمن ، عن عطاء بن أبى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة وكتب له براءة من النار »[(١)] وقال رسول الله ﷺ : « إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها عاق » .

وكان رجل من النساك يُقبل كل يوم قدم أمه ، فأبطأ يومًا على إخوته ، فسألوه ، فقال : كنت أتمرغ فى رياض الجنة ، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات ، وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى ـ عليه السلام ـ ثلاث آلاف وخمسمائة كلمة فكان آخر كلامه ، يا رب أوصنى قال : أوصيتك بأمك حسنًا ، قال له سبع مرات ، قال حسبى ، ثم قال : يا موسى ألا إن رضاها رضاى ، وسخطها سخطى . وقال عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله تعالى عنه ـ لابن مهران : لا تأتين أبواب السلاطين ، وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر ، ولا تخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن، ولاتصحبن عاقًا ، فإنه لن يقبلك وقد عق والديه . وقال فيلسوف : من عق والديه عقه ولده . وقال المأمون: لم أر أحدًا أبر من الفضل بن يحيى بأبيه ، بلغ على برِّه له أنه كان لا يتوضأ إلا بماء سخن ، فمنعهم السجان من الوقود ليلة باردة ، فلما أخذ يحيى مضجعه

---

(١) ضعيف لإرساله .

قام الفضل إلى قمقم نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح . فلم يزل قائمًا وهو فى يده إلى المصباخ حتى استيقظ أبوه من منامه .

وقيل : طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء فلما أتاه بالشربة نام أبوه . فما زال الولد واقفًا بالشربة فى يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه . وقال رجل لعمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ: إن لى أما بلغ منها الكبر أنها لا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية ، فهل أديت حقها ؟ قال : لا . لأنها كانت تصنع بك ذلك وهى تتمنى بقاءك ، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها . وقال ابن المنكدر : بت أكبس رِجْلَ أبى وبات آخر يصلى ولا يسرنى ليله بليلتى . وقيل : إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذى لا ينتصف منه . وقيل لعلى بن الحسين ـ رضى الله تعالى عنه ـ : إنك من أبر الناس ولا تأكل مع أمك فى صحفة ، فقال : أخاف أن تسبق يدى يدها إلى ما تسبق عيناها إليه ، فأكون قد عققتها .

الفصل الثانى

فى الأولاد وحقوقهم وذكر الجبناء والأذكياء والبلداء والأشقياء

قال رسول الله ﷺ : « الولد ريحانة من الجنة »[(١)] . وقال الفضل : ريح الولد من الجنة . وكان يقال : ابنك ريحانتك سبعًا ، ثم حاجبك سبعًا ، ثم عدو أو صديق . وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قلت لسيدى رسول الله ﷺ : يا رسول الله : هل يولد لأهل الجنة ؟ قال : « والذى نفسى بيده إن الرجل يشتهى أن يكون له ولد ، فيكون حمله ووضعه وشبابه الذى ينتهى إليه فى ساعة واحدة » . وقيل : من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كى لا يفسق . وقال عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ : إنى لأكره نفسى على الجماع رجاء أن يخرج الله منى نسمة تسبحه وتذكره . وقال ـ رضى الله تعالى عنه ـ : أكثروا من العيال ، فإنكم لا تدرون بمن ترزقون . وقال شبيب بن شبة : ذهبت اللذات إلا من ثلاثة : شم الصبيان ، وملاقاة الإخوان ، والخلوة مع النسوان . ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة . فقال : من هذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذه تفاحة القلب ، فقال : انبذها عنك ، فإنهن يلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ويورثن الضغائن . قال : لا تقل يا عمرو ذلك، فوالله ما مرض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الإخوان إلا هن . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين إنك حببتهن إلى . وقيل لرجل : أى ولدك أحب إليك ؟ قال : صغيرهم حتى يكبر . ومريضهم حتى يبرأ ، وغائبهم حتى يحضر . وقال ابن عامر لامرأته أمامة بنت الحكم الخزاعية :

(١) ضعيف : رواه الحكيم الترمذى عن خولة بنت حكيم (ضعيف الجامع ٦١٧٩) .

إن ولدت غلامًا فلك حكمك ، فلما ولدت . قالت : حكمى أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان من فالوذج (١)، وأن تعقّ بألف شاة ، ففعل لها ذلك. وغضب معاوية على يزيد . فهجره ، فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة وبهم نصول على كل جليلة ، فإن غضبوا فأرضهم . وإن سألوا فأعطهم ، وإن لم يسألوا فابتدئهم ، ولا تنظر إليهم شزرًا ، فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك .

فقال معاوية : يا غلام إذا رأيت يزيد فاقرأه السلام ، واحمل إليه مائتى ألف درهم ، ومائتى ثوب . فقال يزيد : من عند أمير المؤمنين ؟ فقيل له : الأحنف . فقال يزيد بن معاوية: على به، فقال : يا أبا بحر كيف كانت القصة ؟ فحكاها له ، فشكر صنيعه ، وشاطره الصلة .

وحكى الكسائى : أنه دخل على الرشيد يومًا فأمر بإحضار الأمين والمأمون ولديه ، قال : فلم يلبث قليلا أن أقبلا ككَوْكبى أفق يزينهما هداهما ووقارهما وقد غضا (٢) أبصارهما حتى وقفا فى مجلسه ، فسلما عليه بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فاستدناهما ، وأسند محمدًا عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم أمرنى أن ألقى عليهما أبوابًا من النحو ، فما سألتهما شيئًا إلا أحسنا الجواب عنه ، فسره ذلك سرورًا عظيمًا ، وقال : كيف تراهما ؟ فقلت :

أرى قمرى أفق وفرعين (٣) شامة ... يزينهما عرقٌ كريمٌ ومحتدُ(٤)
سليلى أمير المؤمنين وحائزى ... مواريث ما أبقى النبىُّ محمدُ
يسدان أنفاقَ النفاق بشيمة ... يزينهُما حزمٌ وسيفٌ مهنَّدُ

ثم قلت : ما رأيت ـ أعز الله أمير المؤمنين ـ أحدًا من أبناء الخلافة ومعدن الرسالة وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما ألسنًا ، ولا أحسن ألفاظًا ، ولا أشد اقتدارًا على الكلام روية وحفظًا منهما ، أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييدًا وعزًا ، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمعًا ، وأمن الرشيد على دعائه ، ثم ضمهما إليه ، وجمع عليهما يديه ، فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج وقال : كأنكما بهما وقد

---

(١) فالوذج : حلوى تصنع من دقيق القمح (فارسي معرب) .
(٢) غضا : أطرقا حياء .
(٣) فرعين : الفرع : الشعر ، والمشامة : السواد.
(٤) المحتد : الأصل .

دهم القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وقد تشتت أمرهما ، وافترقت كلمتهما بسفك الدماء ، وتهتك الستور . وكان يقال : بنو أمية دنٌّ خَلٍّ أخرج الله منه زقّ عسل ، يعنى عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله تعالى عنه ـ. وسَبَّ أعرابى ولده وذكر له حقه ، فقال : يا أبتاه إن عظيم حقك علىَّ لا يبطل صغير حقى عليك . قال سيدى عبد العزيز الديرينى ـ رحمه الله تعالى ـ:

أُحبُّ بُنَيَّتى ووددتُ أنى ... دفنتُ بُنَيَّتى فى قاع لحدِ
مابى أن تهونَ علىَّ لكنْ ... مخافة أن تذوق الذُّلّ بعدِى
فإن زوّجتُها رجلا فقيرًا ... أراها عنده والهَمّ عندى
وإن زوجتُها رجلاً غنيًا ... فيلطمُ خدها ويسبُّ جدى
سألتُ اللهَ يأخذُها قريبًا ... ولو كانتْ أحبَّ الناسِ عندى

وقال هارون بن على بن يحيى المنجم :

أرى ابنى تشابه من علىٍّ ... ومن يحيى وذاك به خليقُ
وإن يُشْبِهْهُما خُلقًا وخلقًا ... فقد تَسرى إلى الشَّبه العروقُ

وقال أبو النصر مولى بنى سليم :

ونفرحُ بالمولود من آل برمك ... ولا سيما إن كان من ولدِ الفضلِ

وقال الحسن بن زيد العلوى :

قالوا : عقيمٌ (١) لم يولدْ له ولدٌ ... والمرؤ يخلفُه منْ بعده الولدُ
فقلت : من علقت بالحرب همتُه ... عاف النساءَ ولم يكثُرْ له عددُ

وكان الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ يرقص ولده ويقول :

أزهرٌ من آل بنى عتيق
مباركٌ من ولد الصديقِ
ألذه كما ألذ ريقى

وكانت أعرابية تُرقِّص ولدها وتقول :

يا حبذا ريحُ الولد ... ريح الخُزامى(٢) فى البلدْ
أهكذا كلُّ ولدِ ... أم لم يلدْ مثلى أحدْ

(١) عقيم : لا ينجب الأطفال .
(٢) الخزامى : شجر طيب الرائحة .

وكان أعرابى يُرقِّص ولده ويقول :

أحبه حُبَّ الشحيحِ ماله
قد ذاق طَعْمَ الفقر ثم ناله
إذا أراد بذله بدا له

وكان لأعرابى امرأتان . فولدت إحداهما جارية والأخرى غلامًا ، فرقصته أمه يومًا وقالت معايرة لضرتها :

الحمـدُ للـهِ الحميـد العـالى أنقذنى العـام مـن الجوالـى
مـن كـل شوهـاء كَشَنٍّ بالـى لا تدفعُ الضيمَ عـن العيال(١)

فسمعتها ضرتها فأقبلت تُرقِّص ابنتها وتقولُ :

ومـا علىَّ أن تكـونَ جاريـةْ تغسلُ رأسى وتكون الفاليَـه(٢)
وترفـعُ الساقـط مـن خماريـه حتـى إذا بلغـت ثمانيَـهْ
أزَرْتهـا بِنِقْبـةٍ يمانيـه انكحتُهـا مـروانَ أو معاويـةُ

أصـهارُ صـدقٍ ومهـورٍ غاليَهْ

قال فسمعها مروان ، فتزوجها على مائة ألف مثقال ، وقال : إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ويخان عهدها ، فقال معاوية : لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ولكن لا نحرم الصلة ، فبعث إليها بمائتى ألف درهم والله أعلم .

ومما جاء فى الأولاد البلداء القليلى التوفيق قيل : نظر أعرابى إلى ولد له قبيح المنظر ، فقال له : يا بنى إنك لست من زينة الحياة الدنيا . وقال رجل لولده وهو فى المكتب : فى أى سورة أنت ؟ قال : لا أقسم بهذا البلد ووالدى بلا ولد ، فقال : لعمرى من كنت أنت ولده ، فهو بلا ولد . وأرسل رجل ولده يشترى له رشاء (٣) للبئر طوله عشرون ذراعًا ، فوصل إلى نصف الطريق ، ثم رجع فقال : يا أبت عشرون فى عرض كم ؟ قال : فى عرض مصيبتى فيك يا بنى. وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة ، فبينما هو يومًا يمشى مع أبيه إذ برجل يصيح بشاب

(١)الشن : القربة الخلقة .
(٢)الفالية : المسرحة والمنظفة .
(٣)الرشاء : حبل الدلو ونحوه .

يا عبد الله ، فلم يجبه ذلك الشاب ، فقال : ألا تسمع ؟ فقال : يا عم كلنا عبيد الله ، فأى عبد تعنى ، فالتفت أبو حمزة إليه ، وقال : يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب ؟ فلما كان من الغد إذ برجل ينادى شابًا يا حمزة ، فقال حمزة ابن الأعرابى : كلنا حماميز الله ، فأى حمزة تعنى ، فقال له أبوه : ليس يعنيك يا من أخمد الله به ذكر أبيه . وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم ، فأرسله فى حاجته ، فأبطأ عليه ، ثم عاد ولم يقضها ، فنظر إليه ثم قال :

عَقْلُه عقلُ طائرٍ وهو فى خِلْقَةِ الجملْ

فأجابه :

مشبَهٌ بك يا أبى ليس لى عنك مُنتقلْ

ونهى أعرابى ابنه عن شرب النبيذ ، فلم ينته وقال :

أمن شربةٍ من ماء كرمٍ شربتُها غضبت علىَّ الآن طابت لى الخمرُ
سأشربُ فاسْخَطْ لا رضيتَ كلاهما حبيبٌ إلى قلبى عقوقُك والسُكرُ[(١)]

وقيل : قال ذلك يزيد بن معاوية لأبيه حين نهاه عن شرب الخمر .

ومما جاء فى صلة الرحم : قال رسول الله ﷺ : « صلة الرحم منهاة للولد مثراة للمال»[(٢)] . وقيل : وُجِدَ حجرٌ حين حفر إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أساس البيت ، مكتوب عليه بالعبرانية ، أنا الله ذو بكة[(٣)] خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من أسمائى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بترته،أى قطعته . وقال رسول الله ﷺ : «أعجل الخير ثوابًا صلة الرحم»[(٤)] . وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور ، عن عطاء بن أبى مروان عن أبيه كعب الأحبار أنه قال : والذى فلق البحر لموسى بن عمران إن فى التوراة لمكتوبًا ، يا ابن آدم اتق ربك وبر والديك وصل رحمك ، أزد فى عمرك ، وأُيَسِّرْ لك فى يسيرك ، وأصرف عنك عسيرك . وعن أبى أمامة الباهلى ـ رضى الله عنه ـ، عن النبى ﷺ أنه قال : « صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفئ غضب الرب جل وعلا ، وصلة الرحم تزيد فى

---

(١) عقوقك : نكران الجميل وعَقّ أباه : تنكر له وجحد فضله عليه .
(٢) ضعيف : رواه الطبرانى فى « الأوسط » (٧٨١٠) عن عمرو بن سهل . وقال الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ١٥٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه من لم أعرفهم .
(٣) ذوبكة : ذو قهر وغلبة.
(٤) لم أقف عليه .

العمر» (١) . وذكر تمام الحديث .

الفصل الثالث : من هذا الباب : فى ذكر الأنساب ، والأقارب ، والعشيرة

قال عمر رضى الله عنه : تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم، فتصلوا بها أرحامكم. وقيل: لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء ، وتنازع الأكفاء ، لكان تعلمها من أحزم الرأى ، وأفضل الثواب، ألا ترى إلى قول قوم شعيب ـ عليه السلام ـ حيث قالوا: ﴿**وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ**﴾ [هود : ٩١]، فأبقوا عليه لرهطه . وقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: تعلموا العربية، فإنها تزيد فى المروءة ، وتعلموا النسب ، فرب رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها .

وسئل عيسى ـ عليه السلام ـ : أى الناس أشرف ؟ فقبض قبضتين من تراب ، وقال : أى هاتين أشرف ؟ ثم جمعهما وطرحهما ، وقال : الناس كلهم من تراب إن أكرمكم عن الله أتقاكم(٢) . كان أبو كبشة جد رسول الله ﷺ من قبل أمه ، فلما خالف رسول الله ، دين قريش قالوا : نزعة عرق أبى كبشة ، حيث خالفهم فى عبادة الشعرى، وقال خالد بن عبد الله القشيرى : سألت واصل بن عطاء عن نسبه. فقال : نسبى الإسلام الذى من ضيعه فقد ضيع نسبه ، ومن حفظه فقد حفظ نسبه ، فقال خالد : وَجْهُ عبدٍ وكلام حرٌ . ومن كلام على ـ كرم الله وجهه ـ : أكرم عشيرتك ، فإنهم جناحك الذى به تطير ، فإنك بهم تصول وبهم تطول وهم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم وعُد سقيمهم ، وأشركهم فى أمورك ، ويسر عن معسرهم. وكان يقال : إذا كان لك قريب ، فلم تمشِ إليه برجلك ولم تعطه من مالك ، فقد قطعته . ويقال : حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر ، وحنو الأكبر على الأصغر . قال رسول الله ﷺ : « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده » (٣). قال بعضهم :

وإذا رُزِقْتَ من النوافل ثروةً فامنحْ عشيرتَك الأدانى فضلها(٤)
واعلم بأنك لم تسودْ فيهم حتى ترى دمثَ الخلائق سهلَهَا

---

(١) ضعيف : رواه الطبرانى فى« الكبير » (٨٠١٤) ولؤلؤ فى « الفوائد المنتقى » (٢ / ٢١٥ / ١) كما فى «الصحيحة » (٤ /٥٣٨) وفى سنده حفص بن سليمان الأسدى وهو متروك كما فى« التقريب » (١/١٨٦).

(٢) يصدقها قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

(٣) ضعيف : رواه أبو نعيم فى « أخبار أصبهان » (١ / ١٢٢) وفى سنده محمد بن مشكان وهو لا يعرف ، وعبد الرحمن بن أيوب وهو ضعيف ، وانظر « الضعيفة » (١٨٧٨) .

(٤) النوافل : العطايا والنعم .

الباب السادس والأربعون

فى الخلق وصفاتهم، وأحوالهم، وذكر الحسن والقبيح، والقصر والألوان، والثياب، وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ ينتهى الحسن والجمال . كان سيدنا محمد ﷺ : ربعة من القوم لا بائنًا من طول ولا تقتحمه عين من قصر ، أبيض اللون مشربًا بحمرة ، أدعج (١) العينين، مفلج الثنايا (٢) ، دقيق المسربة (٣)، أزهر الجبين ، واضح الخد ، أقنى (٤) الأنف ، كأن عنقه إبريق فضة ، ظاهر الوضاءة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ، شثن(٥) الكفين مسيح القدمين، واسع الصدر ، من لبته إلى سرته شعر يجرى كالقضيب ، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر الذراعين والمنكبين ، لم يبلغ شيبه فى رأسه ولحيته عشرين شعرة ، ضخم الكراديس (٦) ، أنور المتجرد ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعًا ، بين كتفيه خاتم النبوة، كأنه زر حجلة (٧) ، أو بيض حمامة، لونه كلون جسده ، أبلج الوجه، حسن الخلق وسيمًا قسيمًا فى جبينه زجج (٨) وفى عينيه دعج ، وفى عنقه سطع (٩) ، وفى لحيته كثافة ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنهم وأكملهم من قريب ، كأنما منطقه خرزات نظم يتحدرن . قال أنس ـ رضى الله عنه ـ : ما رأيت من ذى لمة سوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ . ومدحه حسان بن ثابت ـ رضى الله تعالى عنه ـ فقال :

وأحسنُ منك لم ترَ قطُّ عينى ... وأجملُ منكَ لم تلدِ النساءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً من كل عيبٍ ... كأنك قد خُلِقتَ كما تشاء

اللهم صل وسلم عليه واجعله شفيعًا لمن يصلى عليه . وقال ﷺ : « ما حسن الله خلق عبد

---

(١) ادعج : واسع .
(٢) مفلج الثنايا : الثنايا جمع ثنية وهى إحدى الأسنان الأربع التى فى مقدم الفم .ومفلح الثنايا : مفرقها .
(٣) المسربة : مجرى الدمع ونحوه .
(٤) أقنى الأنف : الذى ارتفع أعلاه وأحدودب وسطه وضاق منخراه .
(٥) شثن : خشنت وغلظت .
(٦) الكراديس : جمع كردوس : كل عظم تام ضخم ؛ نحو المنكبين : مجتمع رأس العضد والكتف .
(٧) الحجل : طائر فى حجم الحمام . (٨) زجج : رقة ونعومة .
(٩) سطع : ارتفع ووضح .

خلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار » (١) . وقد كان المتوكل ـ رحمه الله ـ من أحسن الخلفاء العباسيين وجهًا وأبهاهم منظرًا . وكان مصعب بن الزبير (٢) من أحسن الناس وجهًا .

حكى :أنه كان جالسًا بفناء داره يومًا بالبصرة ، إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه ، فقال لها: ما وقوفك يرحمك الله ؟ فقالت : طفئ مصباحنا ، فجئنا نقتبس من وجهك مصباحًا .

وقيل لأعرابية ظريفة :ما بال شفتيك مشققة ؟ فقالت : إن التين إذا حلا تشقق والورد يتشقق إذا مسه الندى . وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس ـ رضى الله تعالى عنهم ـ من أجمل الناس وجهًا ، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، فكانت تقول : ما نظرت وجهى فى مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهى ، إلا الوليد ، فكنت إذا نظرت إلى وجهى مع وجهه رحمت وجهى من حسن وجهه . قال الشاعر :

ولو أنها فى عهد يوسفَ قطعتْ قلوبَ رجالٍ لا أكف نساءِ

وقال كثير :

ولو أن عزةَ حاكمتْ شَمسَ الضحى فى الحُسن عند موفَّقٍ لقضى لها

ومما جاء فى محاسن الخلق منظوما على الترتيب من الفَرْق إلى القَدَمِ :

ما قيل فى الشعر :كان يقال : من تزوج امرأة أو اتخذ جارية فليستحسن من شعرها ، فإن الشعر الحسن أحد الوجهين .

قال بكر بن النطاح (٣) :

بيضاءُ تسحب من قيام شَعْرَها وتغيبُ فيه وهو وجْهٌ أسَحَمُ (٤)
فكأنها فيه نهارٌ ساطِعٌ وكأنَّه ليلٌ عليها مُظْلِمُ

وللمتنبى :

نشرتْ ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها فى ليلة فأرَتْ ليالى أربعا
واستقبلتْ قمر السَماء بوجهها فأرتنى القمرَيْن فى وقت معا

(١)رواه البيهقى فى « الشعب » (٨٠٣٨) عن أبى هريرة « ضعيف الجامع » (٥٠٥٦) .
(٢)أخو عبد الله بن الزبير . قاوم الخوارج . وقضى على المختار الثقفى توفى سنة (٧١ هـ) .
(٣)بكر بن النطاح : توفى سنة ١٩٢ هـ ـ ٨٠٨ م . هو أبو وائل الحنفى شاعر بصرى غزل من فرسان بنى حنيفة من أهل اليمامة ، انتقل إلى بغداد أيام الرشيد ، رثاه أبو العتاهية بقوله :
ماتَ ابنُ نطاحٍ أبو وائلٍ بكر فأضحى الشعر قد ماتا !
(٤)أسحم : أسود .

وله أيضًا :

لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصنَّ به الجمالا
وضفَّرْنَ الغدائرَ لا لِحسْنٍ ولكنْ خفن فى الشعر الضلال

وقال الصفدى (١) :

لولا شفاعةُ شِعْرِه فى صبّه ما كان زارَ ولا أزالَ سقاما
لكنْ تنازلَ فى الشفاعة عنده فغدا علىَ أقدامه يترامى

وقال ابن الصائغ (٢) :

ثنى غصنًا ومدّ عليه فرعًا كحظى حين أطلب منه وصلا
وبِلَيْله على الأردافِ منه فلم أر مثل ذاك الفرع أصلا

وقال آخر :

أرخى ثلاثًا يَوْمَ حمّامه ذوائبًا تعبـــقُ منهـــا الغوالى
فقلـــتُ والقصـــدُ ذؤاباتـــه واسهرى فى ذى الليالى الطوال (٣)

وقال آخر :

بدت ثُرياً قُرْطهُا وشَعْرُها مُتصلٌ بكعبها كما ترى
يا عجبًا لشعرِها لما ابْتدى من الثّريًا فانتهى إلى الثرى

وقال ابن المعتز :

توارت عن الواشى بليل ذوائب لها من مُحيًا واضح تحتَهُ فجرُ
يُغطى عليها شعرُها بظلامه وفى الليلة الظلماءِ يفتقدُ البدرُ

---

(١) الوشى : الحرير الناعم المخطط .
(٢) ابن الصائغ : ٦٤٥ ـ ٧٢٠ هـ هو محمد بن حسن بن سباع بن أبى بكر الجذامى أبو عبد الله شمس الدين المعروف بابن الصائغ ، أديب عالم بالعربية ، مصرى الأصل ، دمشقى المولد والوفاة ، كان له حانوت بالصاغة له « المقامة الشهابية » و « شرح ملحة الإعراب » وقصيدة طويلة فى الصنائع والفنون وشرح مقصورة ابن دريد وغيرها ، وله ديوان شعر من مجلدين منه الأبيات التى يقول فيها :
والطيرُ يقرأُ والنسيمُ مُرددُ والغصنُ يرقصُ والغديرُ يصفقُ .
(٣) ذؤاباته : جمع : ذؤابة أى الشعر الأسود المضفور من مقدم شعر الرأس .

ومما قيل فى الأصداغ :

قال ابن المعتز :

ريمٌ(۱) يتيه بحسن صورته عبث النعاس بلحظ مقلته
وكأن عقربَ صُدْغه وقفت لما دنتْ من وَرْد وَجْنَته

وقال الحادلى :

وعهدى بالعقارب حين تَشْتُو يُخفِّفُ لدغُها ويقلُ ضرًا
فما بالُ الشتاء أتى وهذى عقاربُ صُدْغِها تزدادُ شرًا

وقال آخر :

وما ضرّهُ نارٌ بخدّيه ألهبت ولكن بها قلبُ المحبِّ يعذبُ
عناقيدُ صُدغيه بخديه تلتوى وأمواجُ رِدْفيْه بِخَصْرَيه تلعبُ
شربتُ الهوى صِرفًا زلالاً وإنما لواحظُه تسقى وقلبى يشربٌ

وقال آخر :

حل القبا ولوى صدغيه فانعقدا وا حيرتى بين محلولِ ومعقود(۲)
وأسكرتنى ثناياه وريقته هل هذه الخمرُ من تلك العناقيد؟

(ومما قيل فى مدح العذار) قال أبو فراس بن حمدان :

يا مَنْ يلومُ على هواه جهالةً انظرْ إلى تلك السوالفِ تعذرِ
حسنتْ وطابَ نسيمها فكأنها مِسكٌ تساقطَ فوق خدٍ أحمرِ

وقال محمد بن وهب :

صدودُك والهوى هتَكَا استتَارى وساعَدَنى البكاءُ على اشتهارى
وكم أبصرتُ من حُسْنٍ ولكَنْ عليك لشقْوتى وَقَعَ اختيارى
ولم أخلعْ عِذارًا فيك إلا لما عاينتُ مَن خَلْعِ العذار

---

(۱)ريم : الظبى الخالص البياض .

(۲)القبا : الخباء .

وقال آخر :

ومعذرٍ رَقَّتْ حَوَاشِي خَدِّه فقلوبُنا وجْدًا عليه رقاقُ
لم يَكْسُ عارضه السواد وإنما نفضت عليه سوادها الأحداق(١)

وقال آخر :

ومهفهفٍ راقَتْ نضارةُ وجهه والعينُ تنظرُ منه أحسن منظر
أصْلَى بنار الخدِّ عَنْبَرُ خاله فبدا العذارُ دخان ذاك العنبر

وقال آخر :

أصبحت سلطان القلوب ملاحةً وجمال وجهك للبرية عسكرُ
طلعت طلائع وجنتيك منيرة بالنصر يقدمها اللواء الأخضرُ

وقال آخر :

يا ذا الذى خَطَّ العِذَارُ بِخَدّه خَطَّيْن هاجا لوعةً وبلابلا(٢)
ما صحَّ عندى أنَّ لحظك صارمٌ حتى حملت بعارضيك حمائلا

وقال آخر :

مَنْ لا رأى كعبة الحسن التى حُرِسَت بالنَّمْل حيث مقام النحل فى فَمِه
فلينظرِ النملَ أضحى فوق عارضِه يطوفُ سبعًا حول مَبْسَمِه

وقال بدر الدين الدمامينى (٣) :

يُحدثُ ليـلُ عارضـه بأنـى سأسلُـوه وينصـرمُ المـزارُ
فأشـرق صبـحُ غُرَّتِه ينـادى حديـثُ الليـل يمحـوه النهـارُ

وقال آخر :

وقالوا تسلـى فقـد شانـه عذارٌ أراحـك مـن صدّه(٤)
فقلـتُ : وَهِمتُـم ولكننـى خلعـتُ العـذارَ علـى خـده

---

(١) الأحداق : سواد العيون . (٢) وبلابلا : شدة الهمِّ والوسواس .

(٣) محمد بن أبى بكر بن عمر . الإسكندرى . أديب . شاعر . نحوي . لغوى . فى شعره رقة وعليه طلاوة. آثاره: « كتاب القوافى » فى العروض و « شمس المُغرِب في المرقص والمطرب » و « تحفة الغائب فى شرح مغنى اللبيب » وتوفى فى كلبرجا (الهند) سنة ٨٢٧ هـ .

(٤) شانه : عابه ، والصد : الهجر والامتناع .

قال سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء :

على وجنتيه جَنَّةٌ ذاتُ بهجةٍ ترى لعيون الناس فيها تزاحُمَا
حمى وَرْدَ خديه حُماةُ عذاره فيا حُسْنَ ريحان العذارِ حما حَمَى

وقال ابن نباتة (١) :

وبمهجتى رشأ يَميس قوامُهُ فكأنه نشوانُ من شفتيه (٢)
شغِفَ العذارُ بخده ورآه قد نعستْ لواحظُه فدبَّ عليه

وقال الموصلى :

لِحديث نبتِ العارضين حلاوةٌ وطلاوةٌ هامت بها العشاقُ
فإذا نهانى المرؤ قلتُ : ترفقوا فإليكم هذا الحديثُ يساقُ

وقال آخر :

أصبحتُ مكسورًا بسهم لحاظه ومُقيّدًا من صُدغه بلسانه
حتى بدا سَيْفُ العذار مُجرَّدًا فخشيت يقتلنى وذا من شأنه

وقال آخر :

يا صاح قد حضر المدامُ ومُنيتى وحظيتُ بعد الهجر بالإيناس
وكسا العذار الخد حسنًا فاسقنى واجعل حديثك كله فى الكاس

وقال ابن نباتة : .

وضعتُ سلاحَ الصبر عنه فما لهُ يغازلُ بالألحاظ من لا يغازلُه
وسال عذارٌ فوقَ خديه سائلٌ على خدّه فليتقِ اللهَ سائِلُه

(ومما قيل فى ذم العذار) قال الشاعر :

غدا لما التحى ليلاً بهيمًا وكان كأنه قمرٌ منيرٌ
وقد كُتِبَ السوادُ بعارضيه لِمَنْ يقرأُ وجاءكم النذيرُ

---

(١) سبق التعريف به . محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقى الأصل (أبو بكر ابن نباتة) . ناثر . مؤرخ شاعر عصره . أصله من ميافارقين ولد بالقاهرة . توفى سنة ٧٦٨ هـ .من آثاره :«ديوان شعر» ، « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » ، « سلوك دول الملوك » .

(٢) رشأ : غزال ، ونشوان : فرح وثمل .

وقال آخر فى ذمه :

قُلْتُ لأصحابى وقد مر بى منتقبًا بعد الضيا بالظلم(١)
بالله يا أهلَ وُدى قفوا ثم انظروا كيف زوالُ النعم

وقال آخر :

ما زال ينتفُ ريحانًا بعارضه حتَّى استطالَ عليه صار يحلقُه
كأنما طورُ سِينا فوق عارضه طُولَ الزمان فموسى لا يفارقُه

وقال آخر :

ومازال يحلفْ لى بكل أليةٍ أن لا يزالَ مدى الزمان مصاحبى(٢)
لما جنى نزل العذارُ بخده فتعجبوا لسواد وجه الكاذب

قال ابن المعتز :

يارب إن لم يكن فى وصله طمعٌ ولم يكنْ فرجٌ من طوْل جفوته
فاشفِ السَّقام الذى فى لحظِ مقلته واستر ملاحة خديه بلحيته

ومما قيل فى الجبين والحواجب : قال خالد الكاتب (٣) :

لها من ظباء الرمل عينٌ مَريضةٌ وَمِنْ ناضر الريحان خُضرَةُ حاجبِ
وَمِنْ يانع الأغصان قدٌّ وقامةٌ وَمِنْ حالكِ الحبْرِ اسْوداد الذوائبِ

وقال آخر :

غزانى الهوى فى جيشه وجُنوده وهبَّ على الجيش من كل جانبِ
بميسرة أجنادُها أعينُ المها وَمَيْمَنَةٍ تقضى بزجّ الحواجبِ

وقال آخر :

أيا قمرًا تبسمَ عن أقاحٍ ويا غصنًا يميل مع الرياح
جَبِينُك المُقبَّلُ والثنايا صباحٌ فى صباحٍ فى صباحِ

---

(١) منتقبًا : أى يرتدى نقابًا يستر وجهه . (٢) الية : قسم .

(٣) خالد بن يزيد البغدادى . المعروف بالكاتب ، « أبو الهيثم » شاعر . كاتب . ولد بخراسان ، وعاش ببغداد . أحد الكتاب فى أيام المعتصم . له ديوان شعر . توفى ببغداد سنة ٢٦٢ هـ .

ومما قيل فى العيون : قال الأصمعى ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع فى قوله :

وكأنّها دون النساء أعارَها ... عينيه أحورَ من جآذر جاسم(١)
وسنانُ أقصدهُ النعاسُ تلاعبَتْ ... فى جفنة سِنَةٌ وليس بنائم(٢)

وقال ابن المعتز :

عليمٌ بما تحت العيون من الهوى ... سريعٌ بكسر اللحظ والقلبُ جازعُ
فَيَجرحُ أحشائى بعينِ مريضةِ ... كما لانَ متنُ السيف والحد قاطعُ

وقال الأخطل (٣):

ولا تَلمِمْ بدار بنى كليبِ ... ولا تقربْ لها أبدًا رِحَالاً
ترى فيها بوارق مرهفاتِ ... يكَدْنَ يكِدْن بالحرق الرجالا

(وقال أبو فراس وأحسن) :

وبيضٌ بألحاظ العيون كأنما ... هززْنَ سيوفًا واستلَلْنَ خناجرا
تصدين لى يومًا بمنعرج اللوى ... فغادرْنَ قلبى بالتصبر غادرا
سَفَرْنَ بدورًا وانتقبنَ أهِلَّةً ... وَمِسْنَ غُصونًا والتفَتْنَ جآذرا

وقال آخر :

ومريضُ جفنٍ ليس يصرفُ طرفَه ... نحو امرئ إلا رماه بحتفه
قد قلتُ إذ أبصرتُهُ مُتمايلاً ... والردْفُ يجذبُ خَصْرَه من خلفه
يا مَنْ يسلّمُ خصرَه مِنْ ردْفِهِ ... سَلّم فؤادَ محبّه من طَرْفِهِ

وقال أبو هتان :

أخو دنف رمتْه فأقصدتْه ... سهامٌ مِنْ جفونك لا تطيشُ(٤)
فَوَاتِكُ لا يُقالُ سوى احْوِرارِ ... بِهِنّ ولَا سوى الأهدابِ ريش

---

(١) جآذر جاسم : محلة مشهورة بالبقر الوحشى التى يضرب المثل بجمال عيونها .
(٢) وسنان : أى به نعاس .
(٣) غياث بن غوث بن الصلت من بنى تغلب وأمه من إياد ولد سنة (١٩ هـ) شاعر مبدع اتصل بخلفاء بنى أمية . هجاء . أحد الشعراء المشهورين ، جرير والفرزدق . اشتهر بهجاء جرير توفى سنة (٩٠ هـ) .
(٤) الدنف : المرض.

أَصبْن فؤادَ مهجتِه فأضحى سقيمًا لا يموت ولا يعيشُ
كئيبًا إن ترحَّلَ عنه جيشٌ من البلوى أناخ به جيوشُ

وقال آخر :

وجاءوا إليه بالتعاويذ والرُّقَى فصبوا عليه الماء من شدة النُّكْس
وقالوا : به من أعين الجن نظرةٌ ولو أنصفوا قالوا : به أعين الإنس

وقال عز الدين الموصلى (١) :

لها عينٌ لها غَزْوٌ وعزلٌ مُكَحّلَةٌ ولى عينٌ تباكتْ
وحاكتْ فى فعائِلِها المواضى فيا لكِ مُقلةٌ غَزلتْ وحاكَتْ

وقال برهان الدين القيراطى (٢) :

شَبّهُ السيف والسّنان بعينى مَنْ لقَتْلى بين الأنام استحلا
فأتى السيفُ والسنانُ وقالا :حدثًا دون ذاك حَاشَى وكلا

وله أيضا :

بأبى أهيفُ المعاطف لدنٌ حسد الأسمرُ المثقَّفُ قده
ذو جفون مذ رمت منها كلامًا كَلَّمَتْنى سيوفُهُن بحده

وقال بدر الدين بن حبيب (٣) :

عيناه قد شهدَتْ بأنى مخطئ وأتَتْ بخط عذاره تذكارا
يا حاكمَ الحب اتئد فى قتلتى فالخطُّ زورٌ والشهودُ سكارى(٤)

(١) على بن الحسين بن على بن أبى بكر . الموصلى . الحنبلى ، عز الدين . أقام فى حلب . وسكن دمشق . من آثاره « بديعية وشرحها »ـ « ديوان شعر » . توفى سنة ٧٨٩ هـ .

(٢) إبراهيم بن شرف الدين بن عبد الله بن محمد القيراطى المصرى . برهان الدين .(٧٢٦ ـ ٧٨١ هـ) شاعر. آثاره :« ديوان شعر » سماه (مطلع النيرين)،و« مجموع أدب» اسمه:الوشاح المفصل . مات بمكة.

(٣) الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب بن عمر الدمشقى الأصل . (٧١٠ ـ ٧٧٩ هـ) ولد بحلب وتوفى بها. عالم . شاعر . ناثر . من آثاره : « أخبار الدول وتذكار الأول » فى التاريخ و « حاشية التوشيح فى الفقه الشافعى » و« فصول الربيع وأصرل البديع » . وله شعر ونثر .

(٤) اتئد : تمهل .

وقال جلال الدين بن خطيب داريا :

شهدتْ جفونُ معذبنى بملالة منى وأن ودَادَه تكليفٌ
لكنَّنى لم أناً عنه لأنهَ خبرٌ رواه الجفنُ وهو ضعيفُ(١)

وقال الشيخ عز الدين الموصلى :

يا مقلةَ الحب مهلاً فقد اخذْتِ بثأرِكْ
وأنتِ يا وجنتيه لا تحرقينى بَنارِكِ

وقال ابن الصائغ :

لمثلى من لواحظها سهامٌ لها فى القلب فتكٌ أى فتك
إذا رامَتْ تَشُكُّ به فؤادًا يموتُ المستهامُ بغير شَكّ

وقال الصلاح الصفدي (٢) :

يا عاذلى(٣) على عينٍ مُحَجَّبَةٍ خِفْ سحرَ ناظرها فالسحرُ فيه خَفِى
وخذْ فؤادى ودعْه نُصبَّ مقلتِها لا ترمِ نفسَكَ بين السهم والهدف

وقال آخر :

بسهم أجفانِه رمانى فذبتُ من هجره وبينه
إن مِتُّ ما لى سواه خَصْمٌ لأنه قاتلى بعينه

وقال آخر :

سهامُ الجَفْن كمِ قتلتْ لنفسٍ مُبرأةٌ من السلوى زكيةٌ
فما أقوى جفونك وهى مَرْضى وأقدرَها على قتل البرية

(١) أناى : ابتعد .

(٢) الصلاح الصفدى : هو خليل بن أيبك ، ولد بصفد سنة ٦٦٧ هـ ، وتعاطى أول حياته صناعة الرسم ثم اشتغل بالأدب وتقلد كثيراً من الوظائف منها كتابة السر بالقاهرة ، ووكالة بيت المال فيدمشق ، وكان الصفدى حسن العشرة ذا مروءة محببًا إلى كل أصدقائه ومخالطيه ، وله مصنفات عديدة منها كتاب «الوافى بالوفيات » وهى فى نحو ثلاثين مجلدة ، و« أعوان النصر وأعيان العصر » ، و« شرح لامية العجم » و«التذكرة الصفدية » وغير ذلك كثير كما أنه جمع بين النثر والشعر والنقد والتاريخ وكتبه تمثل مرجعًا قيمًا للعصر الذى عاش فيه .

(٣) يا عاذلى : يا لائمى .

ومما قيل فى الخال (١) : للصلاح الصفدي :

بروحى خدُّه المحمرُ أضحى ... عليه شامة شَرْطُ المحبة
كأن الحسنَ يعشقُه قديمًا ... فنقطه بدينار وجبه

ولابن الصائغ :

بروحى أفدى خالَه فوق خده ... وَمَنْ أنا فى الدنيا فأفديه بالمالِ
تباركَ مَنْ أخلى من الشعر خده ... وأسكن كُل الحسن فى ذلك الخالِ

للشيخ جمال الدين بن نباتة :

لله خالٌ على خدِ الحبيب له ... فى العاشقين كما شاء الهوى عبثُ
أورثتهُ حبةَ القلبَ القتيلِ به ... وكان عهدى بأنَّ الخالَ لا يَرِثُ

وقال آخر :

يا سالبًا قمرَ السماء جمالَه ... ألبستنى فى الحزن ثوبَ مماته
أحرقتَ قلبى فارتمى بشرارةٍ ... علقتْ بخدك فانْطَفَتْ فى مائه

للشيخ تقى الدين بن حجة (٢) :

قلتُ للخالِ إذ بدا ... فى نقا جيدِه السعيد
فُزْتَ يا عبد قال لى ... أنا عبدٌ لكل جيد (٣)

وقال ابن أيبك :

فى الجانب الأيمن من خدِّها ... نقطةُ مِسْك أَشْتَهى شمَّها
حَسِبْتُه لما بدا خَالَها ... وجدتُه من حسنها عَمَّها

---

(١) الخال : شامة سوداء فى الوجه .

(٢) محمد بن على بن عبد اللّٰه الحموى . المعروف بابن حِجَّة الحموي ، ابو بكر ، وابو المحاسن . ولد ونشأ بحماة . طلب الأدب فى دمشق والموصل وحماة القاهرة . أديب وشاعر . من آثاره : « خزانة الأدب » و «ثمرات الأوراق » . توفى بحماة سنة ٨٣٧ هـ .

(٣) الجيد : العنق . النقا : الخالص من الشوائب ـ الناصع .

وقال الحسين بن الضحاك (١) :

يا صائدَ الطير كم ذا باللحظ تُضْنى وتَسْبى(٢)
نصبْت نقطَة خالٍ فَصِدت طائرَ قلبى

ومما قيل فى الخدود : قال ابن المعتز :

صل بخدى خديك تلقَ عجبًا من معان يحارُ فيها الضميرُ
فبِخدَّيك للربيع رياضٌ وبخدَّىَّ للدموعِ غديرُ

وقال آخر :

وَرْدُ الخدود ونَرْجِسُ اللحظاتِ وتَصافُحُ الشفتين فى الخلواتِ
شىءٌ أُسرُّ به وأعلمُ أنه وحياتِه أحلى من اللذات

ومما قيل فى الثغور : قال يوسف بن مسعود الصواف :

بِرُوحى مَنْ ولّى فولى بمهجتى وولى منامى وهو كالوَصْل شاردُ
حمى ثغرَه منى بسيف لحاظِه وحتامَ يحمى ثغرَهُ وهو باردُ

وقال آخر :

أنفقتُ كنزَ مدامعى فى ثغره وجمعتُ فيه كل معنى شاردِ
وطلبتُ منه جزاءَ ذلك قُبْلَةً فمضى وراح تغزّلى فى البارد

وقال آخر :

رأى ثغرَ من أهوى عذولى فقال لى ولم يدْرِ أنَّ اللومَ فى خده يُغرى
شُغِلتُ بهذا وارتبطتُ بحسنه وأحسنُ ما كان الرباطُ على ثغرِ

وقال ابن ريان (٣) :

لاحَتْ على مَبْسِمه المُشتهى ثلاثُ شامات غدت فى التثام
لا تعجبوا إن كَثَرَتْ حوْلَه فالمنهل العذبُ كثيرُ الزحام

(١) الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلى المعروف بالخليع ، أبو على . شاعر مطبوع . ماجن . كان أبو نواس يغير على معانيه فى الخمر . توفى سنة ٢٥٠ هـ .

(٢) تضنى : تمرض وتسقم .

(٣) الحسن بن سليمان بن أبى الحسن بن سليمان بن ريّان ، أبو محمد بهاء الدين . شاعر . قاضٍ . كاتب . خطاط توفى بحلب

ومما قيل فى طيب الريق والنكهة : قال ذو الرمة :

أسيلةُ مجرى الدمع هيفاءُ طفلةٌ عروبٌ كإيماض الغمام ابتسامها (١)
كأنّ على فِيها وما ذُقْتُ طعمَه زُجاجةَ خمرٍ طاب فيها مُدامُها

وقال شهاب الدين الكردى :

ذكـــرتُ ريـــحَ حبيبـى بشـــرب راح تعـــطَّرُ
وليـــس ذا بعجيبٍ فالشـــىء بالشـــىء يُذْكَرُ

وقال غيره :

رشفتُ ريقا حلوًا ولم يكنْ لى صبرٌ
وسوف أحظى بوصلٍ فأولُ الغيثِ قطرٌ

وقال الصلاح الصفدى :

نَقَلَ الأراكُ بـــأن ريقَةَ ثَغْرِه من قهوة مُزِجت بماء الكوثر (٢)
قد صح ما نقل الأراكُ لأنهُ يرويه نصًا عن صِحَاحِ الجوهرى

وقال آخر :

ثلاثٌ تجمعْنَ فـــى ثغرهـــا مـــلاحٌ أدلّتُهـــا واضحةٌ
فإن قيل: ماهى؟ قلْ لى أقلْ هى الطعمُ واللونُ والرائحةُ

وقال آخر :

ياربَّ ممُتْنع الوصال مُحجب بستوره كالبدر بين غيومه
دارت مراشفُه علـــى وكأسُهُ فَسكِرتُ فى الحالين من خُرْطُومه

وقال آخر :

أريقًا من رُضابك أم رحيقًا رشفتُ فكدت منه لن أفيقا
وللصهباء أسماءٌ ولكنْ جهلتُ بأن فى الأسماء ريقًا

---

(١) أسيلة مجرى الدمع : أى ملساء الخد ولينه. كإيماض الغمام : كإشراقه وافتراره . والغمام : هو السحاب الأبيض . والعروب : الكثير الضحك .
(٢) قهوة : الخمرة .

ومما قيل فى حسن الحديث :

قال البحترى :

ولما التقينا والنَّقَا (١) موعدٌ لنا ... تعجَّبَ رائى الدُّرِّ حُسنًا ولاقِطُه
فَمنْ لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ... وَمِن لؤلؤ عند الحديث تساقطهُ

وقال سلم الخاسر (٢) :

ظللنا فبتنا عند أم محمد ... بيومٍ ولم نشرب شرابًا ولا خمرًا
إذا صَمَتَتْ عنا ضَجِرنا لِصَمْتِهاَ ... وإن نطقتْ هاجتْ لألبابنا(٣) سكرا

وقال ابن الرومى :

يُمسى ويصبحُ معرِضًا فكأنه ... ملكٌ عزيزٌ قاهرٌ سلطانُه
ليست إساءتُه بناقصةٍ له ... دُرٌّ يساقطُه إلى لسانه

ومما أحسن هذه الأبيات : وهى من طارف الشعر ووافره وناقده ، وجيد الكلام ، وبارع الوصف :

وكل حديث الناس إلا حديثَها ... رجيعٌ وفيما حدَّثَتْك الطرائفُ
جَرَحْنَ بأعناق الظباء وأعين الـ ... ـجآذر وارتجتْ بهن الروادفُ
رَجَحْنَ بأردافٍ ثِقالٍ وأسْوُقٍ ... جِذالٍ(٤) وأعضاءٍ عليها المطارفُ

ومما قيل فى رقة البشرة :

قال ابن المعتز :

نَضّتْ عنها القميصَ لِصَبٌ ماء ... فَوَرَّدَ خدها فرَطُ الحياء(٥)
وقابلتِ الهواءَ وقد تعرَّتْ ... بمعتدلٍ أرق من الهواء
ومدَّتْ راحةً كالماء مِنها ... إلى ماء عتيد فى إناء(٦)

---

(١) النقا : قطعة من الرمل .

(٢) سلم الخاسر سمى بالخاسر : لأنه باع مصحفا واشترى بثمنه طنبورًا . سالم بن عمرو بن حماد الشهير بـ «سَلم الخاسر». شاعر خليع ماجن من أهل البصرة . له مدائح فى المهدى والرشيد وأخباره مع بشار وأبى العتاهية . توفى سنة ١٨٦ هـ .

(٣) الألباب : جمع لب : العقول .

(٤) الجذل : المنتصب الثابت .

(٥) نضت : خلعت .

(٦) عتيد : حاضر مهيأ .

فلما قضتْ وطرًا وهمت على عجل إلى أخذ الرداءِ
رأتْ شخصَ الرقيب على تدانٍ فأسبلتِ الظلامَ على الضياء (١)
فغاب الصبحُ منها تحت ليلٍ وظل الماء يقطرُ فوق ماءِ

وقال آخر :

تغيرَ عن مودته وحالا وكان مواصلاً فطوى الوصالا
وعلمه التدللُ كيف هجرى فليتِ الوصلَ كان له دلالا
ترى من فوق حِقْوَيه قضيبًا إذا ما حركته خُطاهْ مالا (٢)
إذا كلَّمتَه أثَّرتَ فيه وإن حرّكْتَه فالخمرُ سالا

وقال بشار :

وما ظَفَرَتْ عينى غداةَ لَقِيتُها بشىء سوى أطرافها والمحاجر
كحوراء من حُور الجنان غريرةٍ يَرى وَجْهَه فى وجهها كلُّ ناظرِ (٣)

ومنه أخذ أبو نواس قوله :

نظرتُ إلى وجههِ نظرةً فأبصرتُ وجهى فى وجهه

وقال آخر :

توهَّمه قلبى فأصبحَ خدُّه وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
ومر بفكرى جِسْمُهُ فجرحتُه ولم أر جسمًا قطّ تجرحُهُ الفِكر

وقال آخر :

سقى اللهُ روضًا قد تبدى لناظرٍ به شادنٌ كالغصن يلهو ويمرحُ
وقد نَضَحَتْ خداه من ماء ورد وكلُّ إناءٍ بالذى فيه ينضحُ (٤)

وقال آخر :

وأهيفَ خدُّه كُسى احمرارًا وحاز الحسنَ فهو بلا شبيه
فلو أخجلتُه بالقول جهدى لحمرة خده ما بان فيه

---

(١) الظلام . استعارة مكنية ـ والظلام : الشعر الأسود المسترسل . الضياء : استعارة . المراد به الوجه الجميل الأبيض .
(٢) حقويه : خصريه حيث يعقد الإزار .
(٣) غريرة : جميلة مترفة .
(٤) نضحت : رشحت وفاحت وفاضت .

ومما قيل فى التقبيل : لمظفر الأعمى :

قبَّلتُه فتلظَّى جمرُ وجنته ... وفاح من عارضيه العنبرُ العَبِق (١)
وجال بينهما ماءٌ ولا عجبُ ... لا ينطفئ ذا ولا ذا منه يحترقُ

وقال آخر :

سألتُهُ فى ثغرة قُبْلَةً ... فقال ثغرى لم يجز لثمه
فَهَاكَهَا فى الخد واقنع بها ... ما قارب الشيء له حكمه

وقال صاحب حماة :

قال الذى تيمنى ... قولوا لمن خبلتُه
يرومُ منى قُبْلَةٌ ... لو مات ما قَبَّلْتُه

وللشيخ عز الدين الموصلى (٢) :

كالزَّرد المنظوم أصداغُه ... وخدُّه كالورد لما وَرَدْ (٣)
بالغتُ فى اللثم وقبَّلتُه ... فى الخد تقبيلاً يفُكُّ الزردً

وقال آخر :

رأيتُ الهِلاَلَ على وجْهه ... فلم أدْرِ أيهما أنورُ
سوى أن ذاك بعيدُ المزار ... وهذا قريبٌ لمن ينظرُ
وذاك يغيبُ وذا حاضرٌ ... وما مَنْ يغيبُ كَمَنْ يحضُرُ
ونفعُ الهلالِ قليلٌ لنا ... ونفْع الحَبِيب لنا أكْثَرُ

وقال ابن صابر :

قبلتُ وجنتَه فالْفَتَ جيدَهُ ... خَجَلاً وماس بعْطفه الميَّاسِ (٤)
فانهلَّ من خديه فوق عِذاره ... عرقٌ يحاكى الطلّ فوق الآس (٥)
فكأنني استقطرتُ وردَ خدوده ... بتصاعدِ الزفراتِ من أنفاسي

---

(١) عارضيه : صفحات خده . العبق : رائحة الطيب .
(٢) الشيخ عز الدين الموصلى : هو على بن الحسين بن على ، شاعر وأديب من أهل الموصل أقام مدة فى حلب وسكن دمشق وتوفى بها سنة ٧٨٩ هـ ، له ديوان شعر جمعه فى مجلد وبديعية شرحها فى كتاب سماه «التوصل البديع إلى التوسل بالشفيع» وهى مخطوطة .
(٣) الزّرد : حلق الدرع والمغفر .
(٤) المياس : المتبختر المختال . المعجب .
(٥) الآس : الريحان ورقه عطر ، وخضرته دائمة .

وقال آخر :

قبَّلتُ رِجْلَ حبيبى ... فازورّ واحمر خدًا[1]
وقال تلثمُ رِجْلى ... لقد تنازلتَ جدًا
فقلتُ ما جئتُ بَدعًا ... ولا تجاوزتُ حدًا
رِجلٌ سعتْ بك نحوى ... حقوقُها لا تؤدَّى

ومما قيل فى الوجه الحسن :

قال ابن نباتة :

إنسيّةٌ فى مثال الجن تحسَبُها ... شمسًا بدتْ بين تشريقٍ وتغميمِ
شقتْ لها الشمسُ ثوبًا من محاسِنها ... فالوجه للشمس والعينان للريمِ

وقال عبد الله بن أبى خبيص :

تصُدُّ من غير علَّة ... بالعزْ أضحت مُذلَّه
كأنها حين تدنو ... شمسٌ عليها مظله
وإن أضاءتْ بليلٍ ... تفوقُ نورَ الأهلّه

وقال آخر :

أقسمُ بالله وآياتِه ... ما نظرتْ عينى إلى مثله
ولا بدا وجهُهُ طالعًا ... إلا سألتُ الله من فضله

وقال آخر :

أقيمى مكان البدر إن أفلَ البدرُ ... وقومى مقام الشمسِ قد أمها الفجرُ
ففيك من الشمسِ المنيرةِ نورُها ... وليس لها منك التبسمُ والثغرُ

وقال عمر بن أبى ربيعة :

ذاتُ حسنٍ إن تغب شمسُ الضحى ... فلنا من وجهها عنها خَلَفْ
أجمع الناسُ على تفضيلِها ... وهواهُمُ فى سوى هذا اختلَفْ

---

(١) ازور : أشاح بوجهه .

(أخذ أبو تمام هذا المعنى فرده إلى المدح) :

لو أن إجماعنَا فى فضل سؤدُدِهِ فى الدين لم يختلفْ فى الأمة اثنان

وقال آخر :

يا مفردًا فى الحسن والشكل مَنْ دَلَّ عينيك على قتلى
البدر من شمس الضحى نورُهُ والشمسُ من نورك تستملى

وقال آخر :

ففى أربعٍ منى حلَّت منك أربعُ فما أنا أدرى أيها هاج لى كربى(١)
أَوَجْهُكَ فى عينى أم الريقُ فى فمى أم النطقُ فى سمعى أم الحبُّ فى قلبى

فلما سمعه إسحاق بن يعقوب الكندى (٢) قال هذا تقسيم فلسفى وجعله العلوى خمسة فقال:

وفى خمسة منى حَلَتْ منك خمسةٌ فريقك منها فى فمى طيب الرشف
ووجهُكَ فى عينى ولَمْسُك فى يدى ونِطقُكَ فى سمعى وعَرْفُك فى أنفى(٣)

وقال ابن نباتة :

أيها العاذلُ الغبى تأملْ مَنْ غدا فى صفاته القلبُ ذائبٌ
وتعجبْ لِطُرَةٍ وجبينٍ إن فى الليل والنهار عجائبْ

وقال محمود المخزومى :

رأيتُكَ فى الشمس المنيرة غَدْوَةً فكنتَ على عينى أبهى من الشمس
لأنّك تزهو إن بدا الليلُ بهجةً وشمسُ الضحى ليست تضىء إذا تُمْسِى

وقال آخر :

إذا احتجَبَتْ لم يكفكَ البدرُ وجهَهَا وتكفيك فقدَ البدر إن غربَ البدرُ
وحسبُكَ من خمرٍ مَذاقةُ ريقِها ووالله ما من ريقها حسبُكَ الخمرُ

---

(١) الكرْبُ : الحزن والهمُّ .
(٢) يعقوب بن إسحق بن الصباح الكندى أبو يوسف . فيلسوف الإسلام والعرب . اشتهر بالطب والفلك والموسيقى والفلسفة والهندسة . توفى سنة ٢٦٠ هـ .
(٣) العرف : الرائحة الطيبة .

ومما قيل فى البنان المخضب قال ابن الرومى :

وقفتْ وقفةً بباب الطاق ... ظَبْية من مخدَّرات العِراقِ
بنتُ سبعٍ وأربعٍ وثلاث ... أسَرتْ قلبَ صبِّها المشتاقِ
قُلْتُ مَنْ أنت يا غزالُ ؟ فقالتْ ... أنا من لُطْفِ صَنْعَةِ الخلاقِ
لا ترمْ وصلَنا فهذا بنانٌ ... قد صبغْنَاهُ من دمِ العُشَّاقِ

وقال الراضى بالله :

قالوا : الرحيلُ فأنشبتْ أظفارَها ... فى خدِّها وقد اعتقلت خطابَها[(١)]
فظننتُ أن بنانَها من فضةٍ ... قطفت بنور بنفسجٍ عنابها

وقال آخر :

لما اعتنقنا للوداع وأعربَتْ ... عبراتُنا عنَّا بدمع ناطق
فرَّقن بين محاجر ومعاجر ... وجمعن بين بنفسج وشقائق [(٢)]

وقال آخر :

ولما تلاقينا رأيتُ بنانها ... مُخضبةً تحكى عُصارة عندم[(٣)]
فقلت : خضبتِ الكف بعدى أهكذا ... يكونُ جزاءُ المستهام المتيم
فقالت وأذكتْ فى الحشى لاعجَ الجوى ... مقالةَ مَنْ بالودِّ لم يَتَبَرَّم[(٤)]
بكيتُ دمًا يوم النوى فمسحتُه ... بكفى فاحمرت بنانى من دمى[(٥)]

وقال آخر :

دَنَوْنَ عشيةَ التَّوديع منىٍّ ... ولى عينان بالدَّم تجريان
فلم يمسحْنَ إكرامًا جفونى ... ولكن رُمْنَ تَخْضِيبَ البنانِ

ومما قيل فى النحور :

قال دعبل :

أتاحَ لك الهوى بيضًا حِسانًا ... تُباهى بالعيونِ وبالنحورِ

---

(١) خطابها : كلامها .
(٢) معاجر : جمع معجر وهو الثوب الذى تشده المرأة على رأسها .
(٣) العندم : نبات يصبغ به . (٤) يتبرم : يتأفف ويتحلل . (٥) النوى : الفراق والبعد .

نظرتُ إلى النجور فكدتَ تقضى ... فكيف إذا نظرت إلى الخصور

ومما قيل فى نعت النهود :

قال العباس بن الأحنف :

والله لو أن القلوبَ كقلبها ... ما رقَّ للولد الوالدُ
جالَ الوشاحُ على قضيبٍ زانه ... تفاحُ صدرٍ ما حوته ناهدُ

وقال آخر :

ومحبوبةٍ عند الوداع رأيتُها ... تنشفُ دمعًا بالرداء الممسَّك
وتبكى حذارَ البين منها بدمعة ... تسيلُ على الخدين فى حسن مسلك
فَتَحَسَّتُ مجرى الدمع من وجناتها ... بقيةَ طلٍّ فوق وردٍ مُمعَّكَ(١)
وقد سَفِرَتْ عن غرة بابليةٍ ... وصدرٍ به نهدٌ بحقٍ مفكك

وقال عمرو بن كلثوم (٢) :

تراكَ إذا دخلتَ على خلاء ... قد امتدتْ عيونُ الكاشحينا (٣)
لنهدٍ مثل حق العاج حسنًا ... حصينًا من أكف اللامسينا(٤)

وقال آخر :

بصدرها كوكبًا درٌّ كأنهما ... ركنان لم يَدْنَسا من لمس مُسْتَلِمِ
صانتهما بستورٍ من غَلَائلها ... فالناسُ فى الحل والركنان فى الحرم

وقال آخر :

صدورٌ فوقهن حِقَاقُ عاجٍ ... ودُرٌّ زانه حسنُ اتساق
يقولُ الناظرون إذا رأوه ... أهذا الحَلْىُ من هذى الحقاقِ؟
وما تلك الحِقَاقُ سوى ثُدىٍّ ... جعلن من الحقاق على وفاق
نواهدُ لا يعدُّ لهن عيبٌ ... سوى مَنْعِ المحبِّ من العناقِ

---

(١) تحست مجرى الدمع : أى تتحسس وتزيل الدموع بمنديلها .

(٢) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ، أبو الأسود . من بنى تغلب . شاعر جاهلى وفارس شجاع . سيد قومه توفى سنة ٤٠ .ق . هـ .

(٣) الكاشحين : المبغضين .

(٤) الحق : إناء من جلد يوضع فيه الطيب .

وقال آخر :

لقد فتكتْ عيونُ الغيد فينا ... ببِيضٍ مرهفات وهى سودُ[١]
وتطعَنُنا القدودُ إذا التقينا ... بسمرٍ من أسنَّتِها النهودُ[٢]

ومما قيل فى الأرداف والخصور :

قال ابن الرومى :

وشربتُ كأسَ مدامة مِنْ كفها ... مقرونَة بمدامة مِنْ ثغرِها
وتمايلتْ فضحكتُ من أردافِها ... عجبًا ولكنِّى بكيتُ لِخَصْرِها

وقال الطنبغا المحاربى :

ردفُه زاد فى الثقالة حتى ... أقعدَ الخصرَ والقوامَ السويا
نَهَضَ الخصرُ والقوامُ وقالا ... : فضعيفان يغلبان قويًا

وقال آخر :

يا خَصْرُهُ كم جَفَاء ... تُبدِى وأنت نحيلُ
يا رِدفَه مِلْتَ عنِّى ... ما أنتَ إلاَّ بخيلُ

القيراطى :

بَدَتْ روادفُ بدرى ... تحتَ الحنين لعينى
فقلتُ يا بدرُ هذا ... حقًا خيالُ لحَيْنِى[٣]

وقال آخر :

أسُائلُها أين الوشاحُ وقد سرت ... مُعطلةٌ منه معطَّرةَ النشر[٤]
فقالتَ وأومتْ لِلسُّوارِ نَحَلْتُه ... إلى معصمى لما تَلَقْلَقَ فى خصرى

وقال آخر :

بيضٌ وسمرٌ مُقلتاه وقدُّه ... بدرٌ وليلٌ وجنتاه وشعرُه
أقسى من الحجر الأصم فؤادُه ... وأرقُّ من شكوى المتيم خَصرُه

---

(١) الغيد : مفردها الغادة من الفتيات : الناعمة اللينة . ومرهفات : لطيفات رقيقات .
(٢) النهود : جمع نهد وهو الثدى البارز .
(٣) لحينى : مماتى وهلاكى .
(٤) معطلة : أى لا ترتديه ، والنشر : فوح الطيب .

وقال آخر :

رخيماتُ المقال مدَّللات جواعلُ فى الثرى قُضبًا جذالا (١)
جَمعن فخامةَ وخلوصَ جيدٍ وقدًا بعد ذلك واعتدالا

ومما قيل فى المعاصم :

قال عمر بن أبى ربيعة :

حسروا الوجوه بأذرع ومعاصم ورنوا بنجلٍ للقلوب كوالم(٢)
حسروا الأكمة عن سواعد فضةٍ فكأنما انتصبت مُتونُ صوارمِ

ومما قيل فى اعتدال القوام :

قال صلاح الدين الصفدى :

تقولُ له الأغصانُ مُذْ هزّ عطفه : أتزعمُ أنَّ اللين عندك ما ثوى؟
فقم نحتكم للروضِ عند نسيمهِ لِيَقْضِيَ على من مال منا إلى الهوى

وقيل : ليس لأحد من شعراء العرب فى نعت محاسن المرأة من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما لذى الرُّمة حتى كأنه حضرى من أهل المدن لا من أهل الوبر ، وقال القاضى مجد الدين بن مكانس:

أقولُ لحبِّى قُمْ ومِلْ يا مُعذِّبى كَمِيْلةِ خودٍ غَيَّر السكرُ حالهاُ(٣)
ولا تلهَ عن شىء إذا ما حكيتَها فقام كغصن البان لِينًا وما لها

وقال آخر :

ومُحْكِم أعطافَهُ فى قتل صَبٍّ ما غوى
فاعْجَبْ لعادلِ قده فى النفسِ يحكمُ بالهوى

وقال آخر :

ومهفهفٍ عنى يميلُ ولم يملْ يومًا إلىَّ فصحتُ من الم الجوى
لِمَ لا تَميلُ إلىَّ يا غصنَ النقا؟ فأجاب كيف؟ وأنت من أهل الهوى

---

(١) جذالا : منتصبة .
(٢) رانوا : تطلعوا ، النجل : العيون الواسعة . وكوالم : أى مجرحة .
(٣) الخود : المرأة الشابة الناعمة .

ومما قيل فى الساق :

قال ذو الرُّمة :

لم أنسَهُ إذا قام يكشفُ عامدا عنْ ساقه كَاللّؤلُئِ البَرّاق
لا تعجبوا إن قام فيه قيامتى إنَّ القيامةَ يومَ كشفِ السَّاق

وقال آخر :

جاءتْ بساقٍ أبيضَ أملسَ كلؤلُئٍ يبدو لعشاقِها
فافتتنت فيها جميعُ الورى وقامت الحرب على ساقها

وقال ابن منقذ :

بدرٌ ولكنّه قريبٌ ظبىٌ ولكنه أنيس
إن لم يكنْ قدُّه قضيبًا فما لأعطافه تميسُ(١)

ومما قيل فى مشى النساء :

قال بعضهم :

يهزُزْنَ للمشى أطرافًا مخضبةً هزَّ الشمال ضُحى عيدانَ نِسْرين
أو كاهتزازِ رُدَيْنِىٍّ تداولَه أيدى الرجال فزاد المتنُ فى اللين

وقال آخر :

يمشينَ مشى قَطا البطاح تأودًا(٢) قُبَّ البطونُ(٣) رواجحَ الأكفالِ
فكأنهن إذا أردن زيارةً يقلعنَ أرجلهنَّ من أوحالِ

ومما قيل فى العناق وطيبه :

لابن المعتز :

ما أقصَرَ الليلَ على الراقد وأهونَ السُّقْمَ على العائد
كأنَّنى عانقتُ ريحانة تنفّسَتْ فى ليلها البارِدِ

(١) لأعطافه تميس : أى أن جانبيه يتمايلان غنجًا ودلالا .
(٢) تأودًا : تمايلا وانثناء .
(٣) قب البطون : ضمائرها ودقاقها ، ورواجع الأكفال : أى سمان المؤخرة .

فلو ترانا فى قميصِ الدّجى حَسِبْتَنَا فى جسدٍ واحدِ

وقال آخر :

وموشحٍ نازعْتُ فضلَ وشاحه وأعرتُه من ساعِدِى وشاحا
بات الغيُورُ يَشقُّ جلدَةَ وجهه وأمالَ أعطافًا علىَّ ملاحًا

وقال ابن المعذَّل :

أقولَ وَجَنْحُ الدّجى مُسْبِلٌ ولليلُ فى كل فجٍ يدُ(١)
ونحنِ ضجيعان فى مسجد فللّه ما ضمنا المسجدُ
أيا غدُ إن كنتَ لى مُحْسنًا فلا تدنُ من ليلتى يا غدُ
ويا ليلةَ الوصلِ لا تَقْصُرى كما ليلةُ الهجر لا تنفذُ

وقال آخر :

وليلٍ رقيق الطَّرَّتين تظلمت كواكبُه من بدره المتالقُ(٢)
لهونا بغزلان الصريمة تحته نميت الهوى ما بين صدرٍ ومرفقُ(٣)

قال ابن المعتز :

وكم عناقٍ لنا وكم قُبَلٍ مختلسات حِذَارَ مُرتقبِ
نَقْرُ العصافير وهى خائفةٌ من النواطير يانع الرُّطَبِ

وقال ديك الجن (٤) :

ومعدولةٍ مهما أمالت إزارَها فغصنٌ وأمَّا قدُّها فقضيبُ
لها القَمرُ السارى شقيقٌ وإنها لتطلعُ أحيانًا له فيغيب
أقول لها والليل مُرْخٍ سدوله وغصن الهوى غَضٌّ النبات رطيبُ
:لأنتِ المنى يا زينَ كلِّ مليحةٍ وأنتِ الهوى أُدعى له فأجيبُ

(١) فج : الطريق الواسع الواضح بين جبلين .
(٢) الطرتين : الطرة ما تصففه المرأة من شعر على جانبى جبهتها .
(٣) الصريمة : الرمال ذات الشجر .
(٤) عبد السلام بن رغبان . شاعر عباسي . شاعر ماجن خليع . ولد بحمص . توفى سنة ٢٣٥ هـ .

وقال على بن الجهم :

سقى اللهُ ليلاً ضمنّا بعد فرقة ... وأدنى فؤادًا من فؤاد مُعذبِ
فبتنا جميعًا لو تراقُ زجاجةٌ ... من الخمر فيما بيننا لم تُسرَّبِ

وقال آخر :

يا ليلُ دُمْ أريدُ براحًا ... حَسْبى بوجه مُعُذّبى مصبَاحًا(١)
حَسْبى به نُورًا وحسبى ريقُهُ ... خَمْرًا وحَسْبى خده تفّاحا
حَسْبى بمضحكه إذا استضحكتُه ... مُسْتَغْنيًا عن كل نجمٍ لاحا
طوَّقتُه طَوْقَ العناق بساعد ... وجعلَتْ كفى للثام وشاحا
هذا هو اليومُ النعَيمُ فخلّنا ... متعانقيْن فلا نريدُ بَراحَا

وقال آخر :

ولم أنسَ ضمّى للحبيب على رضًا ... ورشْفى رِضابًا كالرحيق المسلسل
ولا قولَه لى عند تقبيلِ خده ... تنقّلْ فلذّات الهوى فى التنقُّل

ومما قيل فى السمن :

قال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعى ـ رضى الله عنه ـ يقول : ما رأيت سمينًا عاقلاً إلا محمد بن الحسن . قال الشاعر :

لا أعشقُ الأبيض المنفوخَ من سمنٍ ... لكننى أعشقُ السُّمر المهازيلا
إنّي امرؤٌ أركبُ المُهْرَ المضمَّر فى ... يوم الرِّهاب وغَيْرى يركبُ الفِيلا

ومما قيل فى مدح الألوان والثياب : ومدح البياض :

قال رسول الله ﷺ : « البياض نصف الحسن » ، وكان ﷺ أبيض أزهر اللون مشربًا بحمرة . قال الشاعر :

بيضُ الوجوه كريمة أحسَابُهم ... شُمُّ الأنوف من الطرازِ الأوَّل

ومما قيل فى مدح السواد :

قيل لبعضهم : ما تقول فى السواد ؟ قال : النور فى السواد أراد بذلك نور العينين فى

(١) براحا : مفارقة ، وحسبى : أى يكفينى .

سوادهما، وقال بعضهم :

قالوا : تعشقْتَها سوداءَ قلتُ لهم :لَوْنُ العوالى ولون المِسْكِ والعُودِ
إنى امرؤ ليس شأنُ البيض مرتفعًا عندى ولو خلت الدنيا من السودِ

وقال الحيقطان :

لئن كُنْتَ جعد الرأس واللونُ فاحمٌ فإنى بسيط الكفِ والعرضُ أزهرُ
وإنّ سوادَ اللون ليس بضائرى إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر(١)

دخل إبراهيم بن المهدى على المأمون فقال : إنك لنعم الخليفة الأسود ، فقال إبراهيم : نعم ، فتمثل المأمون ببيت نصيب ، فقال :

إن كنت عبدًا فنفسى حُرّةٌ كرمًا أو أسودَ اللون إنى أبيضُ الخُلُق

ثم قال يا عم : أخرجنا من الهزل إلى الجد : فأنشد إبراهيم :

ليس يُزْرِى السَّوادُ بالرَّجُل الشهـم ولا بالفتى الأريب الأديب (٢)
إن يكُنْ للسَّواد فيك نصيبٌ فبياضُ الأخلاقِ مِنْك نصيبى

وقال آخر :

لامَ العواذلُ فى سوداءَ فاحمةٍ كأنَّها فى سَوادِ القَلْب تِمثَالُ
وهام فى الخالِ أقوامٌ وما علموا أنى أهيمُ بشخصٍ كُلُّه خَالُ

وقيل لمدنى : كيف رغبتم فى السواد ؟ فقال : لو وجدنا بيضاء لسودناها .

وقال آخر :

يكونُ الخالُ فى خدٌ قبيح فيكْسُوه الملاَحةَ والجمالا
فكيف يُلامُ ذو عشقٍ على من يراها كُلَها فى الخد خالا؟

وقال آخر :

فاستحسنوا الخالَ فى خد فقلت لهم إنى عشقتُ مليحًا كلّه خالُ

---

(١) أخطر : أتبختر ، وأتباهى .
(٢) الأديب : العاقل الذكى .

وقال أبو حاتم المدنى ينشد :

وَمَنْ يكُ مُعجبًا ببناتِ كِسْرى   فإنى مُعْجَبٌ ببنات حَام(١)

وتفاخرت حبشية ورومية ، فقال الرومية : أنا حبّةُ كافور ، وأنت عِدْل فَحْمٍ ، فقالت الحبشية : أنا حبَّة مِسْك، وأنت عِدْل ملحٍ ، وقد قال الشاعر :

احبُّ لحبهّا السُّودانَ حتى   أُحبُّ لحُبّها سُودَ الكلابِ

وقال آخر :

أشبَهَك المسكُ وأشبَهْتِه   قائمةٌ فى لونه قاعده
لا شَكَّ إذ لونُكُمَا واحدٌ   أنَّكما من طينةٍ واحده

ومما قيل فى الصفرة :

قال الشاعر :

أصفراء كان الهجرُ منك مزاحًا   ليالى كأن الودُّ منك مباحا
كأنَّ نساءَ الحى ما دُمْت فيهمُ   قِباحًا فلما غِبْتِ صِرنَ ملاحا

وقال آخر :

قالوا : به صفرةٌ شانت محاسنه   فقلت: ما ذاك من عيب به نزلا
عيناه مطلوبةٌ فى ثأر مَنْ قتلتْ   فلست تلقاه إلاَّ خائفًا وجلا

ومما قيل فى طول اللحية :

قيل : إن اللحية الطويلة عُشٌ البراغيث . ونظر يزيد الشيبانى إلى رجل ذى لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب (٢) ، فقال له : يا هذا إنك من لحيتك فى مؤنة ، فقال أجل، ولذلك أقول:

لها درهمٌ للدُهْن فى كل جمعة   وآخرُ للحنّاء ينتدبان
ولولا نوالٌ مِنْ يَزِيدَ بن مزيدٍ   لأصبح فى حافاتِها الحِمْنان(٣)

(١) بنات حام : أى البنات السود .
(٢) خاضب : مغير لونها بالخضاب .
(٣) الحمنان : صغار القردان ، والحمنان عنب طائفى صغير الحب .

وقال إسحاق بن خلف فى قصير طويل اللحية :

ماشيتُ داود فاستضحكتُ من عجب كأنَّه والد يمشى بمولود
ما طولُ داود إلا طولُ لحيته يظن داود فيها غير موجودِ

وقال ابن المقفع :

تأملتُ أسواقَ العِراق فلم أجدْ دكاكينَهم إلا عليها المواليا
جُلوسًا عليها ينفضون لحاَهم كما نفضت عجفُ البغال المخاليا [1]

ومما قيل فى عظم الخلقة والطول والقصر :

قيل : خرب القهندر [2] فبرزت منه جماجم أموات ، فتصدعت جمجمة فانتثرت أسنانها ، فوزن السن منها ، فكان وزنها أربعة أرطال ، فأتى بها إلى ابن المبارك ، فجعل يقلبها ويتعجب من عظمها ، ثم قال :

إذا ما تذكرْتُ أجسامَهُم تَصَاغَرَتِ النَّفْسُ حتى تهونَ

وأراد ملك الروم أن يباهى أهل الشام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل ، والثانى قصير شديد القُوَّةِ، فدعا للطويل بقيس بن عبادة ، فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل ، فبلغت ثدييه ، فلاموا قيسًا على نزع السراويل فقال :

أردتُ لِكَيْما يعلمَ الناسُ أنَّها سراويلُ قيسٍ والوفودُ شُهودُ
وكى لا يقُولوا خان قيسٌ وهذه سراويلُ عاد أحرزتها ثمودُ
وإنِّي من القوم اليمانين سيدٌ وما الناسُ إلا سيدٌ ومسُودُ

ثم دعا معاوية للرجل الشديد فى قوته بمحمد بن الحنفية ، فخيره بين أن يقعد فيقيمه أو يقوم فيقعده ، فغلبه فى الحالتين وانصرفا مغلوبين .

وقيل : كان سلمة بن مرة الناموسى أسر امرأ القيس بن النعمان اللخمى الملك ، وكان الناموسى قصيرًا مقتحمًا، واللخمى طويلاً جسيمًا . فقالت بنت امرئ القيس : يا هذا القصير اطلق أبى ، فسمعه سلمة بن مرة ، فقال:

لقد زعمتْ بنْتُ امرئ القيس أنَّنى قصيرٌ وقد أعيا أباها قصيرُها
وربَّ طويلٍ قد نزعْتُ سِلاحَه وعانَقْتُهُ والخيلُ تَدْمِى نُحُورهَا

(١) عجف البغال : البغال الضعيفة .
(٢) القهندر : اسم مكان .

وقالوا : عظم اللحية يدل على البله ، وعرضها على قلة العقل ، وصغرها على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد ، والعين المتوسطة فى حجمها تدل على الفطنة ، وحسن الخلق والمروءة ، والتى يطول تحديقها تدل على الحمق ، والتى تكسر طرفها تدل على خفة وطيش ، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان .

ومما قيل فى القبح والدمامة : أراد رجل أن يكتب كتابًا لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً وحش الصورة بشع المنظر ، فلم يقدر على تحليته لفرط دمامته ، فكتب إلى صاحبه يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره ، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره .

وَمرَّ أبو الأسود الدؤلى بمجلس لبنى بشير فقال بعض فتيانهم : كأن وجهه وجه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها . وقال الجاحظ : ما أخجلنى قط إلا امرأة مرت بى إلى الصائغ ، فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيت مبهوتًا ، ثم سألت الصائغ ، فقال : هذه المرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أصوره ؟ ، فأتت بك إلى لأصوره على صورتك ، وفى الجاحظ يقول الشاعر :

لو يمسخ الخنزير مسخًا ثانيًا ... ما كان إلاَّ دون قبح الجاحظ
رجلٌ ينوب عن الجحيم بوجهه ... وهو العمى فى عين كلِّ ملاحظ
ولو أنَّ مرآةً جلت تمثاله ... ورآه كان له كأعظم واعظ(١)

وقال الأصمعى : رأيت بدوية من أحسن الناس وجهًا ولها زوج قبيح ، فقلت : يا هذه أترضين أن تكونى تحت هذا ؟ فقالت : يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه ، فجعلنى ثوابه، وأسأت فيما بينى وبين ربى ، فجعله عذابى. أفلا أرضى بما رضى الله به ؟، وحج مخنث ، فرأى رجلاً قبيح الوجه يستغفر ، فقال : يا حبيبى ما أراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم .

وقال بعضهم لرجل : طلع لى دمل فى أقبح المواضع ، فقال له : كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء ؛ وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر ، فدخل اليمن ، فلم ير فيها أحسن منه وجهًا فقال :

لم أرَ وجهًا حسنًا مُنذُ دخلتُ اليمنا
فيا شقاءَ بلدة أحسنُ من فيها أنا

---

(١) جلت تمثاله : أرته وجهه .

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة ، فقال لها : قد عرفت أنى رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره ، فقالت : لاشك فى احتمالك المكاره مع حملك هذا الأنف أربعين سنة .

وقال الشاعر فى رجل كبير الأنف :

لك وجهٌ وفيه قطعةُ أنفٍ كجدار قد أدْعمُوه ببَغْلَه
وهو كالقبرِ فى المثال ولكنْ جعلوا نَصْبَه على غير قبله

وقال آخر :

لك أنفٌ من أنوف أنَفَتْ منه الأنوفُ
أنتَ فى القدس تصلى وهو فى البيت يطوفُ

ومما قيل فى الثقلاء : قال مطيع بن إياس (١) :

قلت لعباس أخينا يا ثقيل الثقلاء
أنت فى الصيف سمومٌ(٢) وجليدٌ فى الشتاء
أنت فى الأرض ثقيل وثقيلٌ فى السماء

ومما قيل فى الملابس وألوانها والعمائم ونحوها : قال الله تعالى : ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى : ١١] وقال تعالى : ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١] . وقال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (٣). وقال ﷺ «تعمموا تزدادوا جمالا » (٤). وقال ﷺ : « العمائم تيجان العرب» (٥). وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم

(١) مطيع بن إياس : هو مطيع بن إياس الكنانى أبو سلمى شاعر من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية كان ظريفًا مليح النادرة ماجنًا اتهم بالزندقة ، مولده ومنشأه بالكوفة ، وأصل أبيه من فلسطين، مدح الوليد بن يزيد ونادمه، انقطع فى الدولة العباسية إلى جعفر بن المنصور إلى أن مات، وكان صديقًا لحماد عجرد الشاعر، وحماد الراوية ولاه المهدى الصدقات بالبصرة فتوفى سنة ١٦٦ هـ وأخباره كثيرة ، وفى شعره ما كان يغنى عنه .

(٢) السموم : الريح الحارة .

(٣) حسن . رواه الترمذى (٢٨١٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه .

(٤) لم أقف عليه ، ولكن ورد بلفظ « اعتموا تزدادوا حلمًا » عن أسامة بن عمير رواه الطبرانى فى « الكبير » (٥١٧) وابن عدى فى « الكامل » والبيهقى فى« الشعب » وفى سنده عبيد الله بن أبى حميد، قال البخارى: منكر الحديث . والحديث رواه الحاكم (٤ / ١٩٣) عن ابن عباس وصححه وتعقبه الذهبى بقوله: تركه أحمد يعنى عبيد الله .

(٥) موضوع . رواه القضاعى في « مسند الشهاب » (٨٦) وفى سنده موسى بن إبراهيم المروزى كذبه يحيى بن معين .

بدر وعليه عمامة صفراء، فنزلت الملائكة ، وعليهم عمائم صفر قد أرخوها . وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ، فتخلف عن الجيش ، وأتى إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء من خز ، فنقضها رسول الله ﷺ وعممه بيده وأسدلها بين كتفيه قدر شبر ، وقال : هكذا اعتم يا ابن عوف . وبعث ملك الروم إلى النبى ﷺ جبة ديباج . فلبسها ثم كساها عثمان . وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ويدخل المسجد ، فقيل له فى ذلك، فقال : إنى أجالس ربى . وقيل : المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة . وقيل : البس البياض والسواد، فإن الدهر هكذا بياض نهار وسواد ليل .

ومما قيل في لبس السواد قول أبى قيس :

رأيتُكَ فى السواد قلتُ بدرًا بدا فى ظلمة الليل البهيم
وألقيتَ السواد فقلتُ شمس محتْ بشعاعها ضوءَ النجوم

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمُرَ (١) العراق ، فباع الجميع إلا السود ، فشكا إلى الدارمى ذلك ، وكان الدارمى قد نسك وتعبد ، فعمل بيتين ، وأمر من يغنى بهما فى المدينة ، وهما هذان البيتان :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ماذا فعلْتِ بزاهد متعبّدِ
قد كان شمَّر للصلاة إزارَهُ حتى قعدْتِ له بباب المسجدِ

قال : فشاع الخبر فى المدينة أن الدارمى رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم يبق فى المدينة مليحة إلا اشترت لها خمارًا أسودَ ، فلما نفد التاجر ما كان معه رجع الدارمى إلى تعبده وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها، وقال آخر فى **لابسة الأحمر** :

وشمسٍ من قِضيبٍ فى كثيبٍ تبدَّتْ فى لباس جُلّنارى(٢)
سقتنى ريقَها صِرفًا وحيَّتْ بوجنتها فهاجت جُلُّ نارى

وقال آخر فى لابسة ثوب خمرى :

فى ثوبها الخمرى قد أقبلتْ بوجنة حمراءَ كالجمر
فملتُ سكرًا حين أبصرتُها لا تُنكروا سُكرى من الخمر

(١) خُمُر : جمع خمار .وهو ثوب تغطى به المرأة رأسها .
(٢) جُلّنار : زهر الرمان (فارسية) .

وقال الصنوبرى (١) فى لابسة أخضر :

وجاريةٍ أذْنبتْها الشطاره ترى الشمسَ من حُسنها مُستعاره
بدت فى قميصٍ لها أخضر كما ستر الورقُ الجلناره
فقلتُ لها: ما اسم هذا اللباسِ فأبدتْ جوابًا لطيف العباره
شققنا مرائرَ قومٍ به فنحن نسمِّيه شقَّ المراره

وقال حكيم لابنه : إياك أن تلبس ما يديم الملك نظره إليه به ، واعلم أن الوشى لا يلبسه إلا الأحمق أو ملك. وعليك بالبياض . وقيل : لباس البخلاء الاستبرق لطول بقائه ، ولباس المترفين السندس لقلة بقائه ، ولباس المقتصدين الديباج لتوسط بقائه . وقال بعض الأمراء لحاجبه: أدخل علىَّ عاقلاً ، فأتاه برجل : فقال : بم عرفت عقله ؟ فقال : رأيته يلبس الكتان فى الصيف والقطن فى الشتاء ، والملبوس فى الحر ، والجديد فى البرد.

وقيل: كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعًا إذا اتسخت ألقاها فى النار فيحترق الوسخ ولا تحترق ، وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة وسروايل مجوهرة ، وتكة من أنابيب الزمرد ، وقيل : الأقبية لباس الفرس ، والقراطق : لباس الهند، والأزر : لباس العرب . وسئل بعض العرب عن الثياب ، فقال: الصفر أشكل ، والحمر أجمل ، والخضر أقبل ، والسود أهول ، والبيض أفضل ، وقال أفلاطون : الصبغ الشقائقى ، والروائح الزعفرانية تسكن الغضب، والصبغ الياقوتى والروائح الوردية تحرك السرور ، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العشقية ، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركة القوة الغريزية ، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة تحركت الطبائع كلها ، وكان مصعب بن الزبير يقول : لكل شىء راحة ، وراحة البيت كنسه ، وراحة الثوب طيه ، وقال بعض الأعراب: رأيت فى البصرة برودًا كأنها نسجت بأنواع الربيع ، ودخل بعض العذريين على معاوية وعليه عباءة ، فازدراه ، فقال يا أمير المؤمنين : إن العباءة لا تكلمك وإنما يكلمك من فيها .

ومما قيل فيمن رذل لبسه وعرف نفسه : قال الأصمعى : رأيت أعرابيًا فاستنشدته ، فأنشدنى أبياتًا ، وروى أخبارًا ، فتعجبت من جماله وسوء حاله ، فسكت سكتة ثم قال :

أأخىَّ إن الحادثا ت عركتنى عركَ الأديم(٢)
لا تُنْكِرَنَّ أن قد رأيتَ أخاك فى طِمْرىٍ عديم (٣)
إنْ كانَ أثوابى رِثا ثِ فإنّهنَّ على كريم

(١) أحمد بن محمد بن الحسن بن مراد الضبى . المعروف بالصنوبرى الحلبى ، أبو بكر . ولد فى أنطاكيا شاعر . وصاف للطبيعة توفى سنة ٣٣٤ هـ .

(٢) عرك الأديم : عرك الجلد دلكه وحكه حتى محاه. (٣) طِمرى : الثوب الخلق البالى .

قال بعضهم : وقيل للشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ :

عليَّ ثيابٌ لو تقاسُ جميعُها بفلسٍ لكان الفلسُ منهن أكثرا
وفيهنَّ نفسٌ لو يقاسُ بِبَعْضِها نفوسُ الورى كانت أجلَّ وأكبرا
وما ضر نصلُ السيفِ أخلاقُ غمده إذا كان عَضْبًا حيث وَجَّهْتَهُ بَرَى (١)

ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه فأنشده :

ترى الرجلَ الخفيفَ فتزدريه وفى أثوابه أسدٌ هصورُ(٢)
ويُعْجِبُكَ الطريرُ فتبتليه فيُخلفُ ظنك الرجلُ الطريرُ(٣)
لقد عظم البعيرُ بغير لُبٍّ فلم يستغن بالعِظَم البعيرُ
يصرفُه الصبيُّ بغير وجه ويَحْبِسُهُ على الخسفِ الجريرُ(٤)
وتضربُه الولِيدَةُ بالهراوى فلا عارٌ عليه ولا نكيرُ
فإن أكُ فى شِرَارِكُمُ قليلاً فإنى فى خيار كُمُو كثيرُ

ويقال : كل ما تشتهيه نفسك والبس ما تشتهيه الناس وقد نظمه من قال :

إن العيونَ رمتْك إذ فاجأتها وعليك مِنْ مِهنِ الثياب لباسُ
أما الطعامُ فكُلْ لنفسك ما اشتهتْ واجعلْ لِباسك ما اشتهته الناسُ

وفى هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) الغمد : جراب السيف العضب : القاطع .
(٢) تزدريه : تحتقره .أسد هصور : أسد مفترس .
(٣) الطرير : ذو الهيئة الحسنة . وتبتليه : تمتحنه وتختبره .
(٤) الخسف الجرير : الخسف : الذل والقهر ، والجرير : المذنب .

الباب السابع والأربعون

فى التختم والحلى والمصوغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك

ما جاء فى التختم: عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ﷺ يتختم فى يمينه ، وقُبِضَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ والخاتم فى يمينه .

قال بعض من مدحه ـ عليه الصلاة والسلام:

كَفٌّ الرسالةِ ليس يخفى حُسْنُها وتمامُ حُسْنِ الكفِّ لبس الخاتم

وذكر السلامى أن رسول الله ﷺ كان يتختم فى يمينه ، والخلفاء بعده ، فنقله معاوية ـ رضى الله تعالى عنه ـ إلى اليسار ، وأخذ الأموية بذلك ، ثم نقله السفاح إلى اليمين ، فبقى إلى أيام الرشيد ـ رضى الله تعالى عنه ـ ، فنقله إلى اليسار ، وأخذ الناس بذلك ، وعن على ـ رضى الله تعالى عنه ـ ، عن النبى ﷺ : « تختموا بخواتم العقيق ، فإنه لا يصيب أحدكم غم ما دام عليه ذلك » . وبلغ عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله تعالى عنه ـ أن ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار ، فكتب إليه عزمت عليك إلا ما بعت خاتمك بألف دينار وجعلتها فى بطن جائع ، واستعمل خاتمًا من ورق وانقش عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه . وكان خاتم على ـ رضي الله عنه ـ من ورق ، ونقشه : نعم القادر الله . وكان لأبى نواس خاتمان أحدهما عقيق مربع وعليه مكتوب:

تعاظمَنى ذنبى فلما قَرَنْتُه بعفوك ربى كان عفوكُ أعظما

والآخر حديد صينى عليه : أشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا ، وأوصى عند موته أن يغسل الفص ويجعل فى فمه. قال جعفر بن محمد ـ رضى الله تعالى عنه ـ : ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروزج . وقيل : الخواتم أربعة : الياقوت للعطش ، والفيروزج للمال ، والعقيق للسنة، والحديد الصينى للحرز ، وقيل : للخوف ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما جاء فى الحلى :

قيل :إن قرطى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما ، ولم يدر قيمتهما .

وقال محمد : بعثنى يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفى ، كانت

للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسرى اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار ، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحب ، فدخلت عليه بهما فقال : اكتب معك بوزنهما ، فقلت يا أمير المؤمنين : هما أعظم من أن يكتب بوزنهما ، فقال : صدقت . وبعث معاوية إلى عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ طوقًا من ذهب فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار ، فقسمته بين أزواج النبى ﷺ . وكان ملك العرب كلما مرت عليه سنة من سنى ملكه زيدت فى تاجه خرزة ، وكان يقال لها : خرزات المُلك .

ذكر ما جاء في الطيب والتطيب :

قال رسول الله ﷺ : « أطيب الطيب المسك »(١) . وعن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: كأنى أنظر إلى وبيص الطيب فى مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم . وعن سهل بن سعد يرفعه: « إن فى الجنة لمرعى من مسك مثل مراعى دوابكم هذه » وعن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : دخل علينا رسول الله ﷺ . فنام فعرق فجاءت أمى بقارورة ، فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ وقال : يا أم سليم : ما هذا الذى تصنعين ؟ فقالت : هذا عرقك نجعله فى طيبنا ، وهو من أطيب ريحة الطيب . وعن عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : لو كنت تاجرا ما اخترت على العطر إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه ، وناول المتوكل فتى فأرة المسك فقال :

لئن كان هذا طِيبَنَا وهو طيِّبٌ ... لقد طيبتْه من يديك الأناملُ

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية ، فسأله : كم أنفق عليها ؟ فذكر مالاً جزيلاً ، فقال : هذه غالية : فسميت بذلك . وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخت هند بنت أسماء فقال : علمينى كيف تصنعين طيبك ؟ فقالت : لا أفعل تريد أن تعلمه جواريك هو لك منى كما أردته ، ثم قالت : والله إنى ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول :

اطيبُ الطيبِ عَرْفُ أُمِّ اباِنِ ... فارُ مسكٍ بعنبرٍ مسحوقِ

قال أبو قلابة : كان ابن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مرَّ ؛ من طيب ريحه ، وعن الحسن بن زيد الهاشمى ، عن أبيه قال : رأيت ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ يطلى جسده . فإذا مر فى الطريق قال الناس : أمرَّ ابن عباس أم مَرَّ المسك ؟ وعنه عن أبيه قال : رأيت ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ حين أحرم والغالية على صدغيه (٢) كأنها لزقة . وقال أبو الضحى : رأيت على رأس الزبير من المسك ما لو

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٣/ ٦٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٢) الغالية : الطيب وأخلاطه .

كان لى لكان رأس مالى . وقيل : لما بنى (١) عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله تعالى عنه ـ بفاطمة بنت عبد الملك، أسرج فى مسارجه تلك الليلة بالغالية .

وقال الشعبى : الرائحة الطيبة تزيد فى العقل ، وقال على ـ كرم الله وجهه ـ : تشمموا النرجس ولو فى العام مرة، فإن فى قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس . وكان الشعبى يقول : إذا ورد الورد صدر البرد . وكانت الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم بالطيب . وكان من اختلف فى طرقات المدينة وجد عرفًا طيبًا ، قيل : ولذلك سميت طيبة . وأقول : والله ما طابت طيبة إلا بالقلب الطاهر ﷺ، وما أحسن ما قيل :

إذا لم أطَبْ فى طيبةٍ (٢) عن طيبٍ ... به طيبةٌ طابت فأين أُطَيَّبُ

وقيل : إن فأرة المسك دويبة شبيهة بالخشف (٣) تصاد لسرتها ، فإذا صادها الصياد عصب السرّة بعصابة شديدة ، فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها ، ثم يأخذ السرة فيدفنها فى الشعير حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكًا ذكيًا بعد أن كان لا يرام نتنًا . وقد يوجد جرذان سود يقال لها: فأرات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها .

وحكى : أن العنبر يأتى على طفاوة الماء لا يدرى أحد معدنه ، فلا يأكله شىء إلا مات ولا ينقره طائر إلا بقى منقاره فيه ، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه ، والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفارًا فيه . وقال الزمخشرى ـ عفا الله عنه ـ : سمعت ناسا من أهل مكة يقولون: هو من زبد بحر سرنديب . وأجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق ، وأدونه الأسود . وفى حديث ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ : ليس فى العنبر زكاة إنما هو شىء نثره البحر . **وأما العود:** فأجوده المندلى وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند . وأجوده أصلبه ؛ وامتحان رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم ، فإن انطبع ، فرطب وإلا فلا ، ومن خصائصه : أن رائحته تطبع فى الثوب أسبوعًا فلا يقمل ما دامت فيه . **وأما الكافور** : فهو ماء شجر بجزيرة الكافور يحزونه بالحديد فإذا خرج ظاهرًا وضربه الهواء انعقد كالصموغ الجامدة على الأشجار . **وأما الند** : فمصنوع وهو العود المستقطر والعنبر والبان :

لو كنتُ أحملُ جمرًا حين زرتكُمُ ... لم ينكر الكلبُ أنى صاحب الدار
لكن أتيتُ وريحُ المسك يقدُمُنى ... والعنبرُ النّدُّ مشبوب على النار

---

(١) بنى : تزوج ونكح .
(٢) طيبة : المدينة المنورة .
(٣) الخُشْفُ : ولد الظبي أول ما يولد .

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب بأيام الورد . وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرض الورد فى مجلسه ، ويطيب جميع آلاته بالورد . وقال الحسن بن سهل : أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب فالنرجس يقوى بالورد ، والورد يقوى بالمسك . والبنفسج يقوى بالعنبر ، والريحان يقوى بالكافور ، والنسرين يقوى بالعود.

وقال جالينوس : المسك يقوى القلب ، والعنبر يقوى الدماغ ، والكافور يقوى الرئة ، والعود يقوى المعدة، والغالية تحل الزكام ، والصندل يحل الأورام ، وعن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - عن النبى ﷺ قال : « لا تردوا الطيب فإنه طيب الريح خفيف المحمل » .

تبخر بعض الأمراء وعنده أعرابى . ففرطت من الأمير ريح خفيفة ، فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابى أم لا ؟ فقال : ما أطيب هذا المثلث ! قال : نعم ، ولكنك ربعتها .

وقال الأحنف : إن شم رائحة المسك يحيى القلب . وقال سلمة لابن عباس وعنده جعفر بن سليمان : ما شممت أنفى من ريح مسك شممته من الناس إلا ريح كفك أطيب . فأمر له بألف دينار ، ومائة مثقال مسك ، ومائة مثقال عنبر.

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن والأربعون

فى الشباب والصحة والعافية ، وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى الشباب وفضله

روى عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أنه قال : ما بعث الله نبيًا إلا شابًا ولا أُوتى العلم عالما إلا شابًا ، ثم تلا هذه الآية : ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء : ٦٠] وقد أخبر الله تعالى به ، ثم آتى يحيى بن زكريا الحكمة فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم : ١٢] وقال تعالى : ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف : ١٠] . وقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف : ١٣] . وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف : ٦٠] . وقال أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ : « قبض رسول الله ﷺ وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء » . وقد قدَّم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حداثة سنه . وعتاب بن أسيد ولاه مكة وبها أكابر قريش ، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم .

وقال بعض البلغاء : الشباب باكورة الحياة ، وأطيب العيش أوائله كما أن أطيب الثمار بواكيرها . والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء ، وأكثر الوسائل لقلوبهن . ولذلك قال الشاعر :

أحلى الرجالِ مع النساء مواقعًا   مَنْ كان أشبهَهُم بهن خدودا

وما بكت العرب على شىء ما بكت على الشباب ، ولو لم يكن هذا الشباب حميدا ، وزمانه حبيبًا لوسامة صورته ، وبهجة منظره ، وجمال خلقته ، واعتدال قامته ، ولما جاور الله فى جنات خلده الشباب ، كما قال رسول الله ﷺ : « جردًا مردا أبناء ثلاثين » وقد جاء فى ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها .

الفصل الثانى : فى الشيب وفضله

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ . وفى الخبر أن الله تعالى يقول: « **الشيب نورى وأنا أستحى أن أحرقه بنارى** » . وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه قال: جاء رجلان إلى النبى ﷺ شيخ وشاب ، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « كبر كبر » . وبهذه الرواية : « من وقر كبيرًا لكبر سنه آمنه الله من فزع يوم القيامة». وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ ، عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى وعزتى وجلالى وفاقة

خلقى إلى إنى لأستحى من عبدى وأمتى يشيبان فى الإسلام أن أعذبهما . ثم بكى ، فقيل له : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : أبكى ممن يستحى الله منه وهو لا يستحى من الله » . وقال : «من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرمه الله على النارِ » . وقال : « إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله فى الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات » . وقيل : كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم حتى يبلغ ثمانين سنة . وقال ابن وهب : إن أصغر من مات من وُلد آدم ابن مائتى سنة ، فبكته الإنس والجن لحداثة سنه ، وقال النخعى : كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت . وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ رفعه : « من أتى عليه أربعون سنة ثم لم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار » . وعن أنس ـ ﷺ ـ قال : قال ملك الموت لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، يا أطول النبيين عمرًا كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل فى بيت له بابان ، فقام وسط البيت ساعة ، ثم خرج من الباب الثانى . ويقال : أطع أكبر منك ولو بليلة . وقال عبد العزيز بن مروان مَنْ لم يتعظ بثلاث لم ينته بشىء: الإسلام ، والقرآن ، والشيب . قال الشاعر :

يا عامرَ الدنيا على شَيْبِه ... فيك أعاجيبُ لمن يُعجبُ
ما عُذرُ مَنْ يعمرُ بُنيانُه ... وعمرُه منهدمٌ يخربُ

وقال الشعبى : الشيب علة لا يعاد منها ، ومصيبة لا يُعزى عليها ، وقال الفرزدق :

ويقولُ : كيف يميلُ مثلُك للصِّبا ... وعليك من عظم المشيبِ عِذار
والشيبُ ينُقصُ فى الشباب كأنه ... ليلٌ يصيحُ بعارضيه نَهارُ

وقال أبو دلف فى بياض اللحية :

تكَوَّنَنى همٌّ لبيضاء نابته ... لها بُغضةٌ فى مضمر القلب ثابتَهْ
ومن عجبٍ أنى إذا رُمتُ قصَّها ... قصصتُ سواها وهى تضحكُ نابتَهْ

وقال أيضا :

أرى شيبَ الرجال من الغوانى ... بمبلغ شيبهن من الرجال

وقال ابن المعتز :

فظللتُ أطلبُ وصلَها بتذللٍ ... والشيبُ يغمزُها بأن لا تفعلى

قيل : صاح شاب بشيخ أحدب . بكم ابتعت هذا القوس يا عماه ؟ فقال : يا بنى إنى أعطيتها بغير ثمن . ومرَّ رجل أشمط (١) بامرأة عجيبة فى الجمال ، فقال : يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه ، وإلا فأعلمينا . فقالت : كأنك تخطبنى ؟ قال : نعم ، فقالت : إن فىَّ عيبًا ، قال : وما هو ؟ قالت : شيب فى رأسى ، فثنى عنان دابته ، فقالت : على رسلك، فلا والله ما بلغت عشرين سنة ، ولا رأيت فى رأسى شعرة بيضاء ، ولكنى أحببت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ما تكره منى ، فأنشد ، ويقال : إنه لابن المعتز :

رأين الغوانى الشيب لاح بمفرقى ... فأعرضن عنى بالخدود النواضر

وقال آخر :

سألتُها قُبْلةً يومًا وقد نَظَرتْ ... شَيْبى وقد كُنْتُ ذا مالٍ وذا نعم
فأعرضَتْ ومالتْ وهى قائلةٌ ... لا والذى أَوْجَدَ الأشياءَ من عدم
ما كان لى فى بياض الشيب من أَرَبٍ ... أفى الحياة يكون القُطْنُ حشو فمى؟ (٢)

وقال آخر :

قالتْ أرى مَسْكَةَ الشعرِ البهيم غَدَتْ ... كافورةً قد أحالتها يدُ الزمن
فقلتُ طيبٌ بطيب والتنقلُ فى ... معادن الطيب أمر غير ممتهنِ
قالتْ صدقتَ وما أنكرتَ ذاك بذا ... المسكُ للشمِّ والكافورُ للكفنِ

وقال آخر :

قالتْ : أراكَ خَضَبْتَ الشيبَ قلت لها ... سترتُه عنك يا سمعى ويا بصرى
فقهقهتْ ثم قالتْ مِنْ تعجبِها ... تكاثرَ الغِشُّ حتى صار فى الشَّعرِ

وقال ابن نباتة :

تبسمَ الشيبُ بوجه الفتى ... يوجبُ سحَّ الدمع من جَفْنِهِ (٣)
وكيف لا يبكى على نفسه ... مَنْ ضَحِكَ الشيبُ على ذقنه؟

وقال ابن المعتز :

فما أقبحَ التفريطَ فى زمن الصِّبا ... فكيف به والشيبُ فى الرأس شاملُ؟

---

(١) أشمط : خالط شعره الشيب
(٢) أرب : غاية .
(٣) سح : هطل وذرف .

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر :

رأتْ وَضَحًا فى الرأسِ منى فَرَاعَهَا فريقان مُبْيضٌ به وبَهيم
تفاريقُ شيبٍ فى السواد لوامع فيا حُسنَ ليلٍ لاح فيه نُجُومُ

ويقال فى الرجل إذا شاب : ليله عسعس وصبحه تنفس :

إذا نازع الشيبُ الشبابَ فأصْلَتا بسيفيهما فالشيبُ لا شكَّ غالبُ

وقال آخر :

ألا إِنَّ شيبَ العبد من نَقرةِ القفا وشَيْبَ كرامِ الناس شيبُ المفارق

وقال العتبى [١] :

قالتْ: عهدتُك مَجنُونًا فَقُلْتُ لها :إنّ الشَبَابَ جُنونٌ بُرْؤُهُ الكِبَرُ

وقال على بن ربيع :

كَبِرتُ ودَقَّ العَظْمُ منى وعقَّنى بنىَّ وزالتْ عن فِراشى العقائدُ
وأصبحتُ أعشى أخبِطُ الأرضَ بالعَصَا يقودونى بين البيوت الولائد[٢]

وقال آخر :

عريتُ من الشباب وكنتُ غُصنًا كما يَعْرى من الورق القضيبُ
ونُحْتُ على الشَّبابِ بَدْمع عَيْنى فما نَفَعَ البكاءُ ولا النحيبُ
فيا ليتَ الشبابَ يعودُ يومًا فأخبره بما فعل المشيبُ

وقال ابن النقيب :

وكم كان من عين علىَّ وحافظ وكم كان من واشٍ لها ورقيبِ
فلما بدا شيبى اطمأنتْ قلوبُهم ولم يحفظونى واكتفوا بمشيبى

---

(١) العتبى : هو محمد بن عبد الله أبو عبد الرحمن الأموى ، أديب كثير الأخبار ، حسن الشعر من أهل البصرة، توفى فيها سنة ٢٢٨ هـ ، له تصانيف منها « أشعار النساء » و « أشعار الأعاريب » و « الخيل » ، قال ابن النديم : كان العتبى وأبوه سيدين أديبين فصيحين .

(٢) الولائد : الصبية الصغار .

وقال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ : ما شبهت الشباب إلا كشىء كان فى كمى فسقط . قال الشاعر:

شيئان لو بكت الدماءَ عليهما عيناك حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشارَ من حقيهما فقدُ الشباب وفُرقةُ الأحباب

وقال الجاحظ :

أَتَرْجُوَ أن تكونَ وأنتَ شيخٌ كما قد كنتَ فى زمن الشباب؟
لقد كَذَبَتْك نَفْسُكَ ليس ثَوْبٌ دريسٌ كالجديد من الثياب(١)

ومما جاء فى الخضاب :

قال ﷺ : « عليكم بالخضاب فإنه أهيب لعدوكم وأعجب لنسائكم » ، وعن أبى عامر الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ : رأيت أبا بكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ يُغَيِّرُ بالحناء والكتم(٢). وقيل : خضاب الحناء يصفى البصر ويذهب بالصداع ويزيد فى البهاء .

تُسوّد أعلاها وتأبى أصولها(٣) وليس إلى رد الشباب سبيل

وقيل : وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذى يزن . فقال له : لو خضبت شعرك، فلما رجع إلى مكة اختضب . فقالت امرأته نبيلة : ما أحسن هذا لو دام . فقال :

ولو دام لى هذا الخضابُ حَمَدْتُهُ وكان بديلاً من خليلٍ قد انصرم
تمتعتُ منه والحياة قصيرةٌ ولابدَّ من موت نبيلة أو هرم

وقال آخر :

يا خاضبَ الشيب الذى فى كل ثالثة يعودُ
إن الخضابَ إذا نَضَا فكأنّه شيبٌ جديدُ(٤)
فَدَعِ المشيبَ وما يريـ ـدُ فلن يعودَ كما تريدُ

وقال محمود الوراق :

فما مِنك الشبابُ ولستَ مِنه إذا سامتك لِحيَتُك الخِضَابا

---

(١) دريس : بال ومهلهل .
(٢) الكتم : ثمرة تشبه الفلفل . تستعمل فى الخضاب ـ الحناء ـ .
(٣) تأبى أصولها : ترفض وتنكر منابت الشعر إلا أن تخرج بيضاء .
(٤) نضا : خلِع وفارقَ .

الفصل الثالث : فى العافية والصحة

عن أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إليك انتهت الأمانى يا صاحب العافية» . وعنه ﷺ أنه قال : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له : ألم أصح بدنك وأروك بالماء البارد ؟ » وقال على ـ رضى الله تعالى عنه ـ فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر : ٨] . هو الأمن والصحة والعافية . وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : يسألُ اللهُ العبادَ عن الأبدان والأسماع والأبصار فِيمَ استعملوها ؟، وهو أعلم بذلك ، وقال ابن عيينة : من تمام النعمة طول الحياة فى الصحة والأمن والسرور. وقالت عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ : لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافية . وقال قبيصة بن ذؤيب : كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة فى مرضه : يا أهل النعم لا تستقلوا شيئًا من النعم مع العافية . ويقال : البحر لا جوار له، والملك لا صديق له ، والعافية لا ثمن لها ، قال ابن الرومى :

إذا ما كساكَ الدهرُ سربالَ صحة ... ولم تخلُ من قوت يَحُلُّ ويقربُ
فلا تغبطن أهل الكثيرِ فإنما ... على قدر ما يعطيهم الدهرُ يَسْلُبُ

ويقال : صحة الجسم أوفر القسم . وذكر بعضهم العافية . فقال : وأى وطاء وأى غطاء . وقال حكيم : إن كان شىء فوق الحياة فالصحة . وإن كان شىء مثل الحياة فالغنى ، وإن كان شىء فوق الموت فالمرض . وإن كان شىء مثل الموت فالفقر. وقال على ـ رضى الله تعالى عنه ـ: ما المبتلى الذى اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء .

وقيل :إن فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء فى شدة ومحنة ، فقالت لها : ما تصنعين ها هنا ؟ اذهبى معى إلى البيوت التى فيها أنواع النعيم والخصب ، فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذى كانت تسكنه قد هيأ لها الرصد : لَبِنَةً تحتها شحمة ، فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها ، فهربت الفارة البرية وهزت رأسها متعجبة ، وقالت : أرى نعمة كثيرة وبلاء شديدًا ألا وإن الفقر والعافية أحب إلى من غنى يكون فيه الموت ، ثم فرت إلى البرية .

وكان عند رومى خنزير فربطه إلى أسطوانة ، ووضع العلف بين يديه ليسمنه ، وكان بجنبه أتان لها جحش ، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر ، فقال لأمه : يا أماه ما أطيب هذا العلف لو دام. فقالت له : يا بنى لا تقربه ، فإن وراءه الطامة (١) الكبرى ، فلما أراد

(١) الطامة : المصيبة والداهية .

الرومى أن يذبح الخنزير ، ووضع السكين على حلقه جعل يضرب وينفخ ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه، وأخرج لها أسنانه ، وقال : ويحك يا أماه انظرى هل بقى فى خلال أسنانى شىء من ذلك العلف فاقلعيه ؟. فما أحسن القنع مع السلامه ، والله أعلم بالصواب .

الفصل الرابع : فى أخبار المعمرين فى الجاهلية والإسلام

قال الحسن ـ رضى الله تعالى عنه ـ: أفضل الناس ثوابا يوم القيامة المؤمن المعمر . وقال رسول الله ﷺ : « **ألا أنبئكم بخياركم** » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : «**أطولكم أعماراً فى الإسلام إذا سددوا** » . وزعموا أن تُبّعًا الفزارى كان من المعمرين ، وإنه دخل على بعض خلفاء بنى أمية ، فسأله عن عمره ، فقال : عشت أربعمائة وعشرين سنة فى فترة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فى الجاهلية ، وستين فى الإسلام . قال له : أخبرنى عما رأيت فى سالف عمرك قال : رأيت الدنيا ليلة فى أثر ليلة ويومًا فى أثر يوم ، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق ومفرق مال مجموع ، وبين قوى يظلم ، وضعيف يظلم ، وصغير يكبر وكبير يهرم ، وحى يموت وجنين يولد ، وكلهم بين مسرور بموجود ومحزون بمفقود .

وقد قال ابن الجوزى : إن آدم ـ عليه السلام ـ عاش ألف سنة ، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة ، وعاش ابنه مهلاييل ثمانمائة وخمسًا وتسعين سنة ، وعاش ابنه إدريس ثلثمائة وخمسًا وتسعين سنة، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنتين وستين سنة ، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة ، وأما ابنه نوح ـ عليه السلام ـ، فروى عن عبد الله بن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أنه قال : عاش نوح ـ عليه السلام ـ ألفًا وأربعمائة وخمسين عامًا. وأما الخضر ـ عليه السلام ـ واسمه خضرون فهو أطول بنى آدم عمرًا . وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة .

وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها . وعاش أكثم بن صيفى ثلاثمائة وستين سنة وأدرك الإسلام ، وعاش سطيح سبعمائة سنة ، وعاش قس ابن ساعدة الأيادى سبعمائة سنة ، وكان من حكماء العرب . وعاش لبيد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة ، وأدرك الإسلام. وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم . ومن المعمرين : عدى بن حاتم الطائى وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة . ومن المعمرين : ذو الأصابع العذرى عاش مائتين وعشرين سنة، وهو أحد حكماء العرب فى الجاهلية ، ومن المعمرين : عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، ومن المعمرين :

عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام .

وقد رأيت رجلا من أهل محلة مسير بالغربية ، وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة ، وإن امرأته بلغت من العمر كذلك . ولقد رأيت منه ما لم أره من بعض شبان هذا العصر فى القوة وشدة البأس ، ورأيت له ولدًا شيخًا هو أشد قوة من ولده ، وذلك فى صفر تسع وعشرين وثمانمائة، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب التاسع والأربعون
فى الأسماء والكنى والألقاب ، وما استحسن منها

فأشرف الأسماء وأعظمها « بسم الله الرحمن الرحيم » قال الله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] . وعن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ ، عن رسول الله ﷺ : « من رفع قرطاسًا من الأرض مكتوبًا عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » إجلالاً له ، لاسمه عن أن يداس كان عند الله من الصديقين ، وخفف عنه وعن والديه العذاب وإن كانا مشركين» . وعن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ : لم يرنّ (١) إبليس ـ لعنه الله ـ قط إلا ثلاث رنات : رنة حين لُعِنَ وأخرج من ملكوت السموات والأرض ، ورنة حين ولد محمد ﷺ ، ورنة حين أنزلت سورة الحمد . وفى أولها « بسم الله الرحمن الرحيم » فتثقل حسناتهم فى الميزان . فتقول الأمم: ما أثقل موازين أمة محمد ، فتقول الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ابتداء من كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق فى كفة لرجحت كفة الأسماء » .

وأما الأسماء والكنى :

ففى صحيح مسلم عن ابن عمر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **«أحب أسمائكم إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن . وأصدقها حارث وهمام ؛ وأقبحها حرب ومرة »** ، وينبغى أن تنادى من لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة لا يتأذى بها ولا يكون فيها كذب كقولك يا فقيه ، يا أخى ، يا فقير ، يا سيدى ، يا صاحب الثوب الفلانى أو البغل الفلانى أو الفرس الفلانى أو السيف الفلانى وما أشبه ذلك . ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام (٢) من ذهب فيه ألف مثقال ، فقال له : أسألك عن شىء إن أجبتنى عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجام بما فيه ، فقال : سَلْ يا أمير المؤمنين ، قال : أسألك عن شىء له اسم ولا كنية له ، وعن شىء له كنية ولا اسم له ، قال : المنارة ، وأبو رياح ، فعجب المتوكل وأعطاه الجام بما فيه . وقيل لعثمان : « ذو النورين » ـ رضى الله تعالى عنه ـ لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين فى الإسلام ، وقيل : لأنه تزوج برقية ثم بأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ ، ولم يوجد من تزوج بابنتى نبى غيره. وكان قتادة بن النعمان الأنصارى ـ رضى الله تعالى عنه ـ أصيب فى عينه يوم أحد فسقطت على خده فردها رسول الله ﷺ ، فكانت أحسن وأصح من الأخرى ، فكانت

---

(١) الرنّة : الصيحة الشديدة .

(٢) جامٌ : إناء للشراب والطعام من فضة . وقد غلب استعماله في قدح الشراب .

تعتل أى ترمد عينه الباقية ولا تعتل عينه المردودة ، فقيل : **ذو العينين** . وقال أبو هريرة ـ رضى الله تعالى عنه : كنيت بهرة صغيرة كنت أحملها فى حجرى فألعب بها، وكان رسول الله ﷺ يقول : يا أبا هريرة ، واختلف فى اسمه ، فقيل : عبد الرحمن ، وقيل : عبد شمس ، وقيل : عمير ، وقيل : سليمان ، وقال الشعبى ـ رضى الله تعالى عنه ـ كُنْيةُ الدجال : أبو يوسف . **ذو الشهرة** : أبو دجانة الأنصارى ـ رضى الله تعالى عنه ـ كان له شهرة يلبسها بين الصفين . **ذو الرياستين** : الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم ، وولى رياسة الجيوش والدواوين ، ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا ، فقال :

واليوم يومُ المهرجان هديتى فيه اللسانْ
لكَ دولتان حديثةٌ وقديمةٌ ورياستانْ
لكَ فى الورى من هاشمٍ نبت وبيتٌ خِسْروانْ
علم الخليفةُ كيف أنـ ـتَ فصرتَ فى هذا المكانْ؟

فأمر له بجميع الهدايا .

المطيبون : بنو عبد مناف ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، ونعيم بن مرة، والحرث بن فهر . غمسوا أيديهم فى خَلُوق (١) ثم تحالفوا .

شيبة الحمد : جد عبد المطلب لقب بشيبة كانت فى رأسه حين ولد، قال حذافة :

بنو شيبة الحمد الذى كان وجهه يضئ ظلام الليل كالقمر البدر

وقيل له : عبد المطلب لأن عمه المطلب مر به فى سوق مكة مردوفا (٢) له . فجعلوا يقولون: من هذا الذى وراءك ؟ فيقول : عبد لى . سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ اسمه عبد الله ولقباه : **العتيق** ، **والصديق** لجماله وتصديقه بخبر الإسراء ؛ أو لأنه أولى من صدق رسول الله ﷺ . سيدنا عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ **لقب بالفاروق**: لأنه قال يوم أسلم : لا يعبدُ اللهُ اليوم سراً ، فظهر بالإسلام ، وفرق بين الحق والباطل . **الكامل** : سعد بن عبادة ، ـ رضى الله تعالى عنه ، لأنه كان يكتب ويحسن الرمى والعوم . طلحة بن عبد الله ـ رضى الله تعالى عنه ـ كان يقال له **طلحة الخير** ، **وطلحة الفياض**، **وطلحة الطلحات** لسخائه ، **رشح الحجر** ، **وأبو الريان** : عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبخره ، **عكة العسل** : سعيد بن العاص ـ رضى الله تعالى عنه ـ . **الحبر** : عبد الله بن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ لقب بذلك لعلمه ، كان يقال له : مرة الحبر ومرة البحر . **الأشدق** : عمرو بن سعيد لأنه كان مائل

(١) خلوق : طيب أعظم أجزائه من الزعفران .
(٢) مردوفًا : راكب خلف الراكب . والتابع خلف آخر .

الشدق . **الفياض** : عكرمة بن ربعى لقب بذلك لسخائه . **المصطلق** : خزيمة بن سعد الخزاعى قيل له : المصطلق لحسن صوته وشدته ، وكان أول من غنى خزاعة . **راح يكذب** : لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به ، فإذا رأوه قالوا : راح يكذب . **وأصل الغزال** كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين وكان يتتبع العجائز فيتصدق عليهم ولم يكن غزالاً . **سليمان التيمى** : كان داره ومسجده فى بنى تميم ولم يكن منهم وهو شيبانى . **أبو عمرو الشيبانى** : لم يكن من بنى شيبان ، وإنما كان يعلم يزيد بن مزيد الشيبانى . **اليزيدى** : كان يعلم يزيد بن منصور الحميرى فنسب إليه . **ذو القروح** : امرؤ القيس كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة فقرحته وقالوا: لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب ، وهى مفاخرهم ، وقال بعضهم :

أُكنِّيه حين أناديه لأُكرِمَهُ ولا أُلقِّبُهُ والسَّوْءَةُ اللقَبُ

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ [طه : ٤٤] ، أى كنياه ، ولما ضرب موسى ـ عليه الصلاة ـ والسلام البحر ولم ينفلق أوحى الله تعالى إليه أن كنه ، فقال : انفلق أبا خالد ، فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم .

وأما الألقاب :

فقد قال الله تعالى : ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ [الحجرات : ١١] سماه الله تعالى فسوقًا. واتفق العلماء ـ رضى الله تعالى عنهم ـ على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك . كالأعمش والأعمى والأعرج والأحول والأفطس والأقرع ونحو ذلك ، وقل من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم يزل فى الأمم كلها يجرى فى المخاطبات والمكاتبات من غير نكير . غير أنها كانت تطلق على حسب الموسومين .

وأما ما استحسن من تلقيب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل وذهب التفاوت وانقلب النقص والشرف شرعًا واحدًا فمنكر ، وهب أن العذر مبسوط فى ذلك، فما العذر فى تلقيب من ليس من الدين فى دبير ولا قبيل ولا له فيه ناقة ولا فصيل بل هو محتوٍ على ما يضاد الدين، وينافى كمال الدين وشرف الإسلام، وهى لَعَمْرُ الله الغصة التى لا تساغ والغبن الذى يعجز الصبر دونه فلا يستطاع ، نسأل الله تعالى إعزاز دينه وإعلاء كلمته ، وأن يلح فسادنا ويوقظ غافلنا .

الرجل يكنى باسم ولده والمرأة كذلك ، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التفاؤل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له ، وقد يكنون بما يلائم المكنى من غير الأولاد ؛ كقول رسول الله ﷺ فى على ـ رضى الله تعالى عنه ـ **أبو تراب** ، وذلك أنه نام فى غزوة ذى العشيرة ،

فذهب به النوم ، فجاء رسول الله ﷺ وهو متمرغ فى التراب ، فقال له : « اجلس أبا تراب »، وكان أحب أسمائه إليه . وكقولهم : أبى لهب لحمرة خديه ولونه . وقال الزمخشرى ـ رحمه الله تعالى ـ: وسمعتهم يكنون الكبير الرأس والعمامة : بأبى الرأس وأبى العمامة . وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية : يا أبا الطويلة . وسمعت عرب البحيرة يكنون بأسماء بناتهم ، كأبى زهو، وأبى سلطانة ، وأبى ليلى ونحو ذلك ، ولا حرج فى ذلك، وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبى فلانة منهم سيدنا عثمان بن عفان ـ رضى الله تعالى عنه ـ كان له ثلاث كنى: أبو عمرو ، وأبو عبد الله ، وأبو ليلى .

ومنهم : أبو أمامة . وأبو رقية : تميم الدارى ، وأبو كريمة : المقداد بن معد يكرب ، وكثير من الصحابة ومن التابعين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ. أبو عائشة : مسروق بن الأجدع ، وكان لأنس أخٌ صغير وله نُغَيْرٌ يلعب به فمات ، فدخل رسول الله ﷺ فرآه حزينا . فقال: « ما شأنه ؟ » فقالوا : مات نُغَيْرُه . فقال : «يا أبا عمير ما فعل النُّغير» . ونظر المأمون إلى غلام حسن فى الموكب . فسأله عن اسمه . فقال : لا أدرى . فقال :

تسمَّيْتَ لا أدرِى فإنَّك لا تَدْرِى ... بما فَعَلَ الحُبُّ المبَرِّحُ فى صَدْرِى (١)

وعن على ـ رضى الله تعالى عنه ـ، عن النبى ﷺ : « إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه ووسعوا له فى المجلس ولا تقبحوا له وجهًا » وعنه : « ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر من اسمه محمداً أو أحمد فأدخلوه فى مشورتهم إلا كان خيراً لهم ، وما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه محمداً أو أحمد إلا قدس الله ذلك المنزل فى كل يوم مرتين » . وكل ذلك ببركة هذا الاسم الشريف » .

ومما جاء فى مدح الأسماء منظومًا :

قال بعضهم فى مليح اسمه إبراهيم :

رأيتُ حبيبى فى المنام مُعانِقِى ... وذلك لِلمهجورِ مرتبةٌ عُلْيَا
وقد رَقَّ لى من بعد هجرٍ وقسوةٍ ... وما ضَرَّ إبراهيمُ لو صدَّقَ الرؤيا

وفيه أيضًا :

لا زال بابُك كعبة محجوبَة ... وتُرَابُها فَوْقَ الجباه وسيمُ (٢)
حتىَّ يُنَادى فى البقاعِ بأسْرِهَا ... هذا المقامَ وأنْت إبراهيم

---

(١) المبرح : الشديد الألم .

(٢) وسيم : الحسن الوجه .

وفيه أيضا :

يا سمىَّ الخليلِ إنَّ فُؤُادى فيه من لوعة الغَرَام جحيمُ
وعجيبُ يا قَاتلى أن قلبى فيه نارٌ وأنت فيه مقيمُ

ولبعضهم فى مليح اسمه عمر :

يا أعدل الناس أسماكُمُ تجورُ على فؤاد مُضْنَاك بالهُجْرَان والبين
أظنُّهم سرقوك القاف من قَمَرٍ وأبدلوها بعينٍ خيفة العين

وفيه أيضًا :

ما عليهم فى الهوى لو نظروا حين سمُّوكَ فقالوا : عمرُ
أبدلوا قافك عَينًا غلطًا أخطأوا ما أنتَ إلا قمرُ

ولبعضهم فى مليح حامل شمعة موقودة اسمه عثمان :

وافى إلى بشمعة وضياؤها وضياؤه حكيَا لنا القمرين
ناديتُه ما الاسم يا كل المنى؟ فأجابنى عثمانُ ذو النورين

ولبعضهم فى مليح اسمه يوسف :

يا مَنْ سبى الشُّعراءَ نملُ عِذاره النجمُ يشهدُ لى بأنى مدنف
صيرتَ قلبى من صُدودِك فَاطرًا فامنن علىَّ بزورةٍ يا يوسف(١)

وللصفى الحلى فيمن اسمه داود :

وَثقْتُ بأن قلبى من حديد وفيه على الهَوَى بأسٌ شديدُ
فَلانَ على هواكِ ولا عجيبٌ إذا داودُ لان له الحديدُ

وله فيمن اسمه موسى :

آتى موسى بآيةِ خال خدّه حَوَتْهُ صورام الحَدَقِ المراضِ
فآيَةُ ذا بياض فى سواد وآية ذا سواد فى بياضِ
فجاء بِضدِّ ما قد جاءَ موسى كليمُ اللهِ فى الحِقبِ المواضى

---

(١) فاطرًا : مصدعًا .

وللقيراطى فى مليح اسمه بدر (١) :

سَمُّوه بدرا وذاك لَمّا أنْ فاقَ فى حسنه وتما
وأجمعَ الناسُ إذا رأوه بأنّه اسمٌ على مسمى

ولمؤلفه (٢) ـ رحمه الله تعالى ـ فى قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى :

وعظ الأنامُ إمامُنا الحَبْرُ الذى سكَبَ العلُومِ كبحر فضل طافح(٣)
فَشفَى القلَوب بعِلْمِهِ وبوعْظِهِ والعلمُ يَشْفَى إنْ يكُنْ نت صالحِ

وتوجهت مرة إلى بلتاج لأجتمع بالحاج خليل بن منصور فى ضرورة فلم أجده ولم يقم أحد من إخوته بقضاء ما توجهت بسببه فقلت :

خصالُ خليلٍ كُلهن حميدةٌ وأوصافُهُ تزْرِى بكل جميل
فلا خيرَ فى بلتاج إن لم يكنْ بها ولا خير فى الدنَيا بغير خليلِ(٤)

وقال آخر فى مقبل :

يا مَنْ تحجب عن مُحِبّ صادق ما زال عنه كل يوم يسألُ
مَنْ لى بيوم فيه تسمحُ باللقا ويقالُ لى: هذا حبيبك مقبلُ

ولبعضهم فى مليح اسمه « محسن » :

وأَهْيفٍ(٥) يعلو على عشاقه برتبة من الجمال نالها
واسمُهُ وهو العجيبُ محسنٌ وكم دموعٍ فى الهوى أسالَها

ولصفى الدين الحلى فى اسم « حسين » :

حبيبى وافر والشوقُ منى طويل والهوى عندى مديدُ
وأعجبُ أننى أهوى حُسَيْنًا وشوقى فى محبته يزيدُ

(١) القيراطى : هو إبراهيم بن عبد الله الطائى ، برهان الدين القيراطى شاعر من أعيان القاهرة اشتغل بالفقه والأدب، توفى فى مكة ، له ديوان شعر سماه « مطلع النيرين » ومجموع أدب اسمه « الوشاح المفضل » وقد سبق أن ترجم له .

(٢) مؤلف الكتاب (٨٥٠هـ) .

(٣) الحبر : العالم الجليل .

(٤) بلتاج : اسم بلد .

(٥) أهيف : ضامر البطن رقيق الخصر .

ومما قيل فى أسماء النساء فى « فاطمة » :

عجبتُ من فاتنَةٍ لم تزل ... لمرتجى الوصل لها فاطمة
تنكرُ ما ألقاهُ مِن وجدها ... وهى بشوقى والجوى عالمة(١)

وقال ابن مكانس (٢) فى اسم « عائشة » :

يا دهرُ خبرنى بحقك واشْفنى ... فسهام فكرى فى أمورك طائشة(٣)
أيحلُّ أنى فى المحبة ميتٌ؟ ... وحبيبتى من بعد موتى عائشة

وقال شمس الدين البديرى فى اسم « حليمة » :

ولما رأتنى فى هواها مُتيمًا ... أكابدُ من حر الغرام أليمه
فجادتْ بطيبِ الوصل منها ولم تجز ... ومن أين تَدْرِى الجورَ وهى حليمه؟

ولبعضهم فى اسم بركة « دوبيت » :

لما نصب الهوى لقلبى شركه ... ناديت وقلبى تارك من تركه(٤)
يا قلب أفق ولا تمل لشركه ... تغنيك سنين ساعةٍ من بركه

مردوفًا أيضًا :

لما نصبَ الهوى لقلبى شَرَكَه ... فى كُلّ طريق
ناديتُ وقلبى تاركٌ مَنْ تَرَكَه ... لو كان يفيق
يا قلبُ أفقْ ولا تَمِلَ لِشَرَكِه ... ما الشرك يليق
تغنيك سنين ساعةٌ من بركه ... عن كل صديق

ولو تتبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات ولكن فيما ذكرته كفاية والله الموفق وأسأله العناية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) والجوى : الحرقة فى الحب .
(٢) فخر الدين أبو الفرج . عبد الرحمن بن عبد الرزاق . ابن مكانس . شاعر قبطي . حنفي . وزير ناظر الدولة في مصر والظاهر برقوق في الشام . له : ديوان شعر ، مات مسمومًا سنة ٧٩٦ هـ .
(٣) طائشة : غير مصيبة .
(٤) شركه : حباله كى يصيدنى بها .

الباب الخمسون

فيما جاء فى الأسفار والاغتراب ، وما قيل فى الوداع والفراق ، والحث على ترك الإقامة بدار الهوان ، وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء في الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان : فقد قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً﴾ [الملك :١٥] . وفى الأثر: سافروا تغنموا ، وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر ، وهو ميزان الأخلاق إن الله بالمسافر رحيم » ويقال : الحركة ولود والسكون عاقر. وقال حكيم : السفر يُسْفِرُ عن أخلاق الرجال . وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقا عليه . فقال يومًا:

الا خلّنى أمضى لشانى ولا أكنْ على الأهل كَلاً إنّ ذا لَشَديدُ (١)
تهيبنى ريبَ المنون ولم أكن لأهرُبَ عما ليس منه محيدُ
فلو كنتُ ذا مال لَقُرِّب مجلسى وقيل إذا أخطأتُ : أنتَ رشيدُ
فدعنى أجولُ الأرض عُمْرى لَعله يسرُّ صديق أو يغاظُ حسودُ

وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بالدلجة(٢) فإن الأرض تطوى بالليل ولا تطوى بالنهار » وقال كعب بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ : كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل فى غير رفقة ، وقال ﷺ : « الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب » ، وقال ﷺ : « إذا خرج ثلاثة فى ركب فليؤمروا أحدهم ».

وقيل : أغار حذيفة بن بدر على هِجان النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار فى ليلة مسافة ثمانى ليال ، فضرب به المثل في سرعة السير ، وقال قيس بن الخطيم(٣) :

هَمَمْنا بالإقامةِ ثم سَرْنا مسيرَ حذيفةِ الخَيْرِ بنِ بَدْرِ

وسار ذكوان مولى عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ من مكة إلى المدينة فى يوم وليلة . وقال المأمون : لا شيء ألذ من السفر فى كفاية وعافية ، لأنك تحل كل يوم فى محلة لم تحل فيها ، وتعاشر قومًا لم تعرفهم . ومما قيل فى ترك الإقامة بدار الهوان :

---

(١) كَلاً : الكَلُّ : الضعيف عبء وعيال فهو كلٌّ على مولاه يحمله من مكان إلى مكان وقد قال الله تعالى : ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ﴾ [النحل : ٧٦] . .

(٢) بالدلجة : السير من أول الليل ، وأيضا : سير الليل كله .

(٣) قيس بن الخطيم بن عدى بن ظفر الأوسى ، أبو يزيد . شاعر مجيد . مكثر من أشهر شعراء أهل اليمن . أدرك الإسلام وتلبث فى قبوله فقتل قبل أن يسلم وأسلمت زوجة . له ديوان شعر . توفى سنة (٢ ق هـ).

قال الفرزدق :

وفى الأرض عن دار القِلَى متحولٌ   وكُلُّ بَلادِ أوطنَتْكَ بِلادُ(١)

وقال آخر :

وما هى إلا بلدةٌ مثلُ بلدتى   خيارُهُما ما كان عونًا على دهر

وقال آخر :

وإذا البلادُ تغيَّرَتْ عن حالها   فدع المقامَ وبادَرَ التَّحويلا

ليس المقامُ عليك فرضا واجبًا   فى بلدةٍ تدعُ العزيزَ ذليلا

وقال الصفى الحلى :

تنقلْ فلذاتُ الهوى فى التنقل   ورد كل صافٍ لا تقفْ عند منهل(٢)

ففى الأرض أحبابٌ وفيها منازلُ   فلا « تبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل»

ولا تستمعْ قول امرئ القيس إنه   مُضلٍ ومَنَ ذا يهتدى بمضلل

وقال عبد الله الجعدى :

فإن تجَفُ عنى أو تزرنى إهانة   أجد عنك فى الأرض الفرِيضةِ مذهبا(٣)

ومما قيل فى الوداع والفراق والشوق والبكاء :

قال جرير :

لو كنتُ أعلمُ أن آخرَ عهدكم   يوم الرحيل فعلتُ ما لم أفعل

وقيل : لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ما كان جدك صانعًا فى قوله:

.... فَعَلْتَ مَا لَمْ أَفْعَلِ؟

قال : كان يقلع عينيه حتى لا يرى مظعن أحبابه ثم أنشد يقول :

وما وجْد مغلول بصنعاءَ مُوثَق   بساقيه من ماء الحديد كُبُولُ (٤)

قليلُ الموالى مُسلمٌ بجزيرة   له بعد نَوْمات العيون الَيلُ(٥)

يقولُ له الحدَّاد: أنت معذَّبٌ   غداة غدٍ أو مُسلَمٌ فقتيلُ

بأكبرَ منى لوعةً يومَ راعنى   فِراقُ حبيبٍ ما إليه سبيلُ

(١) القلى : البغض .   (٢) ورد : اقصد وأم .

(٣) الفريضة : المتصدقة التى تعطى الإنسان من خيرها ، ومذهب : طريق .

(٤) مغلول : مقيدٌ . الكُبُولُ : أشد وأثقل .   (٥) اليل : أنين وألم وحنين .

وقال الشاعر :

وما أمُّ خِشْفٍ طولَ يومٍ ولَيْلَةٍ ... ببلقعة بيداءَ ظمآن صَاديًا (١)
تهيمُ ولا تُدرى إلى أين تبتغى ... مولَّهة حُزْنًا تجوزُ الفيافيا(٢)
أضرَّ بها حَرُّ الهجير فلم تجد ... لغُلَّتِها من بارد الماء شَافيا
إذا أبعدَتْ عن خِشْفِها انعطفتْ له ... فألفَتْه ملهُوفَ الجَوانِح طاويًا (٣)
بأوجعَ منِّى يوم شدُّوا حَمُولَهمْ ... ونادى منادِ البين أن لا تلاقيَا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة : قال لى المهدى يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك ؟ قال: قلت يا أمير المؤمنين :

لله باكٍ على أحبابه جزعا ... قد كنت أحذر هذا قبل أن يقعا
ما كان والله شُؤْمُ الدهر يَتْرُكنى ... حتى يجرِّعنى من بعدهم جُرَعَا(٤)
إن الزمَان رأى إلفَ السرورَ لنا ... فدبَّ بالبين فيما بيننا وسعى(٥)
فليصنع الدهْرُ بى ما شاء مُجتَهِدًا ... فلا زيادة شىء فوق ما صنعا

فقال : والله لأعيننك فأعطاه عشرة آلاف دينار .

وقال آخر :

وقفتُ يوم النوى منهم على بعدٍ ... ولم أودِّعْهم وجدا وإشفاقا
إنى خشيتُ على الأظعان من نفسى ... ومِنْ دموعى إحراقًا وإغراقا(٦)

وقال عمر بن أحمد :

أتى الرحيلُ فحين جَدَّ ترحَّلتْ ... مُهج النفوس له عن الأجساد
مَنْ لم يبتْ والبينُ يصدع قَلْبَه ... لم يدرِ كيف تَفتُّتُ الأكباد؟

وحكى بعضهم قال : دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون فى شباك ، وهو ينشد شعرًا فقلنا له : أحسنت، فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به ، وقال : المثلى يقال : أحسنت ؟ ففررنا منه

---

(١) أم خشف : أم غزال صغير ، بيداء فلاة صحراء بلقع : أى : لا ماء ولا شجر فيها .
(٢) تهيم : تخرج فى الأرض على غير هدى . تبتغى : تطلب . مولهة : شديدة الحزن الفيافيا : مفردها الفيفاء: الأرض الواسعة المستوية .
(٣) طاويًا : جائعًا .
(٤) جرعًا : ملء الفم ، جمع جرعة .
(٥) البين : الفِراق والبعد . سعى : اجتهد فى التفريق .
(٦) الأظعان : الرحيل .

فقال : أقسمت عليكم إلا رجعتم حتى أنشدكم فإن أحسنت فقولوا : أحسنت ، وإن أنا أسأت فقولوا : أسأت . فرجعنا إليه فأنشد يقول :

لما أناخوا قُبَيْلَ الصبْحِ عِيسَهُمُو ... وحملوها وسارت بالدمى الإبل
وقلبتْ بخلال السُّجَفِ ناظرها ... يرنو إلى ودمعُ العين ينهمل[(١)]
وودعتْ ببنان زانه عَنَمُ ... ناديتُ لا حَمَلَتْ رِجْلاك يا جمل[(٢)]
يا حادى العيس عرج كى أودعهم ... يا حادى العيس فى ترحالك الأجل
إنى على العهد لم أنقض مودتهم ... يا ليت شعرى لطول البعد ما فعلوا

فقلنا له : ماتوا . فقال : والله وأنا أموت ! ثم شهق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى.

وقال آخر :

لما علمتُ بأن القومَ قد رحلوا ... وراهبُ الدِّير بالناقوس مشتغل
شَبَكْتُ عشرى على رأسى وقلت له ... :يا راهب الدير هل مرت بك الإبلُ؟
فحنْ لى وبكى بل رقْ لى ورثى ... وقال لى: يا فتى ضاقتْ بك الحيل
إن الخيامَ التى قد جِئْتَ تطلبُهم ... بالأمسِ كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى ـ رحمه الله تعالى ـ[(٣)] :

ما رحلوا يوم ساروا البُزَّلَ العيسا ... إلا وقَدْ حَمَلوُا فيها الطواويسا[(٤)]
من كل فاتكة الألحاظ مالكة ... تَخَالُها فوق عرش الدُّرِّ بلقيسا
إذا تمشَّت على صَرْحِ الزَّجَاج ترى ... شَمْسًا على فَلَكٍ فى حِجْرِ إدريسا
أَسْقُفَةٌ من بناتَ الرُّوم عَاطلةٌ ... ترى عليها من الأنوار ناموسا
وحشية ما لها أُنسٌ قد اتّخَذَتْ ... فى بيت خَلْوتِها للذِّكر ناووسا
إن أومأت تَطْلُبُ الإنجيلَ تَحْسَبُهُمُ ... قساقسا أو بطاريقًا شماميسا

---

(١) السجف : السِّتْرُ فى المحمل .
(٢) العَنَمُ : نبات أملس له نَوْر أحمر تشبه به أصابع العذارى .
(٣) محيى الدين بن عربى : محمد بن على الحاتمى ، يكنى أبا بكر ، الطائى الأندلسى ، ولد فى « مرسية » من بلاد الأندلس سنة ٥٦٠ هـ ، فانتقل إلى أشبيلية ، وقرطبة حيث التقى بابن رشد ، ثم زار مصر، والحجاز، وتوفى سنة ٦٣٨ هـ ، له كتب كثيرة تكاد تبلغ الأربعمائة منها « الفتوحات المكية » وديوان شعر يحمل كثيرًا من الرموز الصوفية . و « فصوص الحكم » و « التجليات » .
(٤) البزل : النوق . الطواويسا : جمع . طاووس .

ناديتُ إذ رحلوا للبين ناقَتَها يا حادى العيس لا تَحْدُو بها العيسا
غَيّبتُ أُجْنَادَ صَبْرى يوم بَيْنهمُ على الطريق كراديسا كراديسا(١)
ساروا وأصبحتُ أنعى الربعَ بعدهمو والوجدُ فى القلب لا ينفك مغروسا

وقال آخر :

ولما تبدَّتْ للرحيلِ جمالُنا وجدَّ بنا سيرُ وفاضت مدامعُ
تبدت لنا مذعورةً من خبَائها وناظرُها باللؤلُئِ الرَّطْب دامعُ
أشارتُ بأطراف البنان وودَّعَتْ وأومَتْ بعينيها متى أنتَ راجعُ؟
فقلتُ لها :واللهِ ما مِنْ مُسافرِ يسيرُ ويدرى ما به الله صانعُ؟
فشالتْ نقابَ الحسنِ من فوق وجهها فسالتْ من الطرف الكحيل مدامعُ
وقالتْ : إلهى كُنْ لى عليه خليفةً فيا رَبُّ ما خابتْ لديك الودائعُ

وقال آخر :

يا راحلا وجميل الصبرَ يتْبَعُهُ هل من سبيل إلى لقْيَاكَ يتَّفِقُ؟
ما أنصفتْكَ دموعى وهى داميةٌ ولا وَفَى لك قَلْبى وهو يحترِقُ

(وقال البغدادى) :

قالتْ وقد نالها للبين أوجعُهُ والبينُ صعبٌ على الأحباب موقعُه
:اجعل يديك على قلبى فقد ضَعُفَتْ قواه عن حمل ما فيه وأضلعُه
واعطفْ على المطايا ساعةً فعسى مَنْ شَتَّتَ شَملَ الهوى بالبين يجمعُه
كأننى يوم ولت حسرة وأسى غريقُ بحرِ يرى الشاطئَ ويمنعُه

(وقال ابن البديرى) :

قفا حاديًا ليلى فإنى وامقٌ وتعجلا يومًا على من يفارقُ(٢)
وزُمَّا مطاياها قُبيلَ مسيرها ليلتذ منها بالتزود عاشقُ
ولا تزجرا بالسوق أظعانَ عيسها فإن حبيبى للظعائن سائقُ
ولما التقينا والغرامُ يذيبنُا ونحن كلانا فى التفكر غارقُ
وقفنا ودمعُ العين يحجبُ بيننا تسارقنى فى نظرةِ وأسارقُ
فلا تسألا ما حل بالبين بيننا ولا تعجبا إنا مشوق وشائقُ

---

(١) كراديسا : جمع كرْدُوس : القطعة من الخيل .

(٢) وامق : محب وعاشق .

(وقال أيضا) :

تذكرتُ ليلى حين شط مزارُها   وعادت منازلها خليات بلقعُ(١)
بكيتُ عليها والقنا يقرعُ القنا   وسمرُ العوالى للمنايا تشرعُ
وخالفتُ لوامى عليها وعذلى   وخالفتُ سهدى والخليون هجعُ
ولم استطع يوم النوى رد عبرة   فؤادى أسى من حرها يتقطعُ
فقال خليلى إذ رأى الدمعَ دائمًا   يفيضُ دمًا من مقلتى ليس يدفعُ
:لئن كان هذا الدمعُ يجرى صبابةَ   على غير ليلى فهو دَمْعٌ مضيعُ

وقال آخر :

مددتُ إلى التوديع كفا ضعيفةً   وأخرى على الرَّمْضاء فَوْقَ فُؤُادى
فلا كان هذا آخر العَهْدِ مِنْكُمُو   ولا كان ذا التوديعٌ آخر زادىَ

وقال آخر :

ولما وقفنا للوداع عشيةً   وطرفى وقلبى دامع وخفوقُ
بكيتُ فأضحكتُ الوشاة شماتةً   كأنى سحاب والوشاةُ بروقُ

(ولمؤلفه (٢) ـ رحمه تعالى ـ) :

يا سادةً فى سُوَيْد القلب مَسكُنكُم   وفى منامى أرى أنى أعانقُهم
أوحشْتُمونا وعَزَّ الصبرُ بعدكمو   يا من يعزً علينا أن نفارِقَهم

وقال آخر :

لو أن مالكَ عالمٌ بذُرَى الهوى   ومحلِّه من أضلعِ العشاق
ما عَذَّبَ العشاقَ إلا بالهوى   وإذا استغاثُوا غاثهم بفراق

(وقال ابن الوردى) (٣) :

دهرُنا أضحى ضنيناً   باللقا حتى ضنينا(٤)
يا ليالى الوصلِ عودى   اجمعينا أجمعينــــــا

---

(١) شط : بعد . بلقع : جدباء .   (٢) الأبشيهى .

(٣) ابن الوردى : هو زين الدين عمر بن مظفر بن على المعرى الحلبى الشافعى ، شاعر . ناثر . ولد ونشأ بالمعرة ، برع فى اللغة والأدب والفقه ، ونظم الشعر ، وعد نظمه فى درجة المجيدين من مؤلفاته : «البهجة الوردية فى نظم الحاوى بالفتاوى » توفى سنة ٧٤٩ هـ .

(٤) ضنينا : بخيلا ، وضنينا : المعاناة والمقاساة وهنا جناس بين اللفظتين .

(وقال الشريف الرضى) :

عَللانى بذِكْرِهِمُ واسْقِيانِى وامْزُجَا لى دمعى بكأسِ دَهاقِ(١)
وخذا النومَ من جفونى فإنِّى قد خلعت الكرى على العشاقَ

(وقال آخر عن ذلك) :

قالوا . أترقدُ إذْ غِبْنَا ؟ فقلتُ لَهُمْ نَعَمْ وأَشْفُقُ من دَمْعِى علىَ بَصَرى
ما حقُّ طرفٍ هَدَانى نحو حُسْنِكُمُو أنِّى أُعَذِّبُهُ بالدَّمْعِ وَالسَّهَرِ

وقال الموصلى :

فَسَدَتْ لطول بعادكُمْ أحلامُنا وعقُولنا وجفَا الجفون منام
والطّيفُ قد وَعَدَ الجُفُونَ بزورةٍ يا حبَّذا إن صحَّت الأحلام(٢)

ومما قيل فى البكاء :

قال الشاعر :

رجوتُ طـــــيفَ خياله وكيف لى بهجوع؟
والذارياتُ جــــــفونى والمرسلاتُ دمُوعى (٣)

وقال آخر :

ارحمْ رحمتَ لِلَوْعَتى وابعثْ خيالَك فى الكَرَى
ودموعُ عينى لا تَسلْ عن حالها يا ما جرى

وقال آخر :

إنّ عينى مُذْ غاب شخصُكَ عنها يأمرُ السهدَ فى كراها وينهى
بدموعٍ كأنهن الغوادى لا تسل ما جرى على الخد منها(٤)

---

(١) بكأس دهاق : أى مترعة تفيض مما فيها .

(٢) زورة : أى زيارة ، والطيف : الخيال . .

(٣) الذاريات والمرسلات : سورتان من القرآن الكريم والذاريات : الرياح قال تعالى :﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ [الذاريات : ١] والمرسلات : الخيل ، قال تعالى ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ﴾ [المرسلات : ١] .شبه الدموع فى سرعة سيلانها بالرياح وبالخيل المسرعة .

(٤) الغوادى : السحب أو المطر المنطلقة فى البكور .

وقال آخر :

يا قلبُ صبرًا على الفراق ولو روعتَ ممن تُحبُّ بالبين
وأنت يا دمعُ إن ظَهَرْتَ بما أُخفِيه من قلبى سقطْتَ من عينى

وقال آخر :

خاض العواذل فى حديث مدامعى مما غدا كالبحر سرعة سيره
خبَأْتُهُ لأصون سرَ هواكمو حتى يخوضوا فى حديث غيره

وقال ابن المواز :

رحتُ يوم الفراق أجرى دموعى حسرةً إذ قضى الفراق ببينى
قِيلَ : كم إذ تجرى دُمُوعُك تعمى أَوْقفِ الدمعَ قلتُ : من بعد عينى

وقال آخر :

لما لبستُ لبعده ثوبَ الضنى وغدوتُ من ثوب اصطبارى عاريا
أجريتُ وقف مدامعى من بعده وجعلتُهُ وقفًا عليه جاريا

وقال آخر :

ولم أرَ مثلى غارَ من طول ليله عليه كأنّ الليل يعشقُه معى
وما زلتُ أبكى فى دُجى الليل صبوةً من الوجد حتى ابيض من فيض أدمعى(١)

وقال الموصلى :

عينٌ أفاضَتْ دموعى لطول صَدٌ وبَيْن
ووَجْنَةُ الخدُّ قالتْ :رأيتُ غُسْــــلى بعينى

وقال آخر :

وما فارقْتُ ليلى من مُرادِ ولكن شقوةٌ بلغتْ مَدَاها
بكيْتُ نَعَمْ بكيْتُ وكُلّ إلفِ إذا ماتَتْ حبيبَتُه بكاها

وفى بعض الكتب السماوية : إن مما عاقبت به عبادى أن ابتليتهم بفراق الأحبة .

وبما جاء فى الحنين إلى الوطن :

أما محبة الوطن فمستولية على الطباع مستدعية أشد الشوق إليها ، روى أن أبان قدم على

(١) صبورة : عشقًا وغرامًا .

النبى ﷺ فقال : يا أبان كيف تركت مكة ؟ قال : تركت الإذخر وقد أغدق[1] ، والنمام وقد أورق ، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ ، وقال بلال ـ رضى الله تعالى عنه ـ :

ألا ليتَ شعرى هلِ أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحولى إذخرٌ وجليلُ
وهل أرِدَنْ يومًا مياه مجنّةٍ؟ وهل يبدُون لى شامة وطفيل؟

وقيل : من علامة الرشد : أن تكون النفس إلى بلدها تواقة ، مسقط رأسها مشتاقة .

ومن حب الوطن :

ما حكى أن سيدنا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه . فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك ، فلما بعث موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأهلك الله تعالى فرعون لعنة الله . حمله موسى إلى مقابر آبائه ، فقبره بالأرض المقدسة ، وأوصى الإسكندر ـ رحمه الله تعالى ـ أن تحمل رمته فى تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حبًا لوطنه ، واعتل سابور ذو الأكتاف ، وكان أسيرا ببلاد الروم ، فقالت له بنت الملك ـ وكانت قد عشقته ـ: ما تشتهى ؟ قال : شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر ، فأتته بعد أيام بشربة من ماء ، وقبضة من تراب وقالت له : هذا من ماء دجلة ومن تُرْبَةِ أرضك ، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته ، وقال الجاحظ : كان النفر فى زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضه فى جراب يتداوى به ، وما أحسن ما قال بعضهم :

بلاد ألفْنَاها على كل حالةَ وقد يُؤلف الشىء الذى ليس بالحسن
ونستعذِبُ الأرضَ التى لا هواءَ بها وما ماؤها عذبٌ ولكنها وطنُ

ووصف بعضهم بلاد الهند ، فقال : بحرها درّ ، وجبالها ياقوت ، وشجرها عود ، وورقها عطر ، وقال عبد الله بن سليمان فى « نهاوند »: أرضها مسك ، وترابها الزعفران ، وثمارها الفاكهة ، وحيطانها الشهد، وقال الحجاج لعامله على «أصبهان» : قد وليتك على بلدة حجرها الكحل ، وذبابها النحل ، وحشيشها الزعفران، وكان يقال: « البصرة » خزانة العرب وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها ، واتخاذ المسلمين بها وطنًا ومركزًا ، وكان أبو إسحاق الزجاج يقول : «بغداد » حاضرة الدنيا وما سواها بادية وأنا أقول : مصر كنانة الله فى أرضه والسلام.

ومما جاء فى ذم السفر :

قيل لرجل : السفر قطعة من العذاب ، فقال : بل العذاب قطعة من السفر وقال بعضهم:

كُلُّ العذابِ قطعة من السفر يا ربُّ فارددنا على خير الحضر

(١) الإذخر : نبات طيب الرائحة ، وأغدق : أينع وأزهر . والنمام : نبت له بزر كالريحان قوى الرائحة .

وقيل لأعرابى : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان .

ومرّ إياس بن معاوية بمكان ، فقال : أسمع صوت كلب غريب ، فقيل له : بم عرفت بذلك؟ قال : بخضوع صوته ، وشدة نباح غيره ، وأراد أعرابى السفر ، فقال لامرأته :

عدى السنين لغيْبتى وتصَّبرى ... وذَرِى الشُّهورَ فإنَّهُنَّ قِصَارُ

فأجابته :

فاذْكُرْ صَبَابَتَنَا إليك وشوْقَنا ... وارحَمْ بناتكِ إنَّهُنَّ صِغَارُ(١)

فأقام وترك السفر . ويقال : رب ملازمٍ لمهنته فاز ببغيته.

وقال ابن الهيثم :

لعمرُك ما ضَاقَتْ بلادٌ بأهلها ... ولكنَّ أخلاقَ الرِّجالِ تَضيَقُ

وفيما ذكرته كفاية ، وأسأل الله التوفيق والهداية ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١)صبابتنا : الشوق والحنين .

الباب الحادي والخمسون

فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف : ٤٦] . وقيل : الفقر رأس كل بلاء وداعية إلى مقت الناس ، وهو مع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء . فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدا من ترك الحياء ، ومن فقد حياءه فقد مروءته، ومن فقد مروءته مقت، ومن مقت ازدرى به ، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له . وقال رسول الله ﷺ : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » . وفى الحديث : « لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه، ويؤدى به أمانته ، ويستغنى به عن خَلْقِ ربه » وقال على ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ: الفقر الموت الأكبر ، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر ، وقيل: من حفظ دنياه حفظ الأكرمين دينه وعرضه قال الشاعر :

لا تلمْنى إذا وَقِيتُ الأواقى بالأواقى لماء وجهى واقى[(١)]

وقال لقمان لابنه : يا بنى أكلت الحنظل وذقت الصبر ، فلم أر شيئًا أمر من الفقر ، فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلا ينتقصوك ، ولكن اسأل الله تعالى من فضله ، فمن ذا الذى سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه أو تضرع إليه فلم يكشف ما به ؟. وكان العباس ـ رضى الله تعالى عنه ـ يقول : الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس ، وهو عندهم أعذب من الماء ، وأرفع من السماء ، وأحلى من الشهد ، وأزكى من الورد ، خطؤه صواب وسيئاته حسنات وقوله مقبول ، يرفع مجلسه ولا يمل حديثه ، والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب ، وأثقل من الرصاص ، لا يُسَلَّمُ عليه إن قدم ولا يسألُ عنه إن غاب . إن حضر أزدروه، وإن غاب شتموه ، وإن غضب صفعوه ، مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة. وقال بعضهم : طلبت الراحة لنفسى فلم أجد لها أروح ترك ما لا يعنيها ، وتوحشت فى البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء ، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قرينًا أغلب للرجل من المرأة السوء ، ونظرت إلى كل ما يذل القوى ويكسره فلم أر شيئًا أذل له ولا أكبر من الفاقة.

قال الشاعر:

وكُلُّ مقِلٍّ حين يَغْدُو لحاجة إلى كُلِّ ما يَلْقَى من النَّاس مُذْنبُ
وكانت بنو عمِّى يقولُون: مَرْحبًا فلما رأَونِى مُعْدَمًا مَاتَ مَرْحَبُ

(١) وقيت الأواقى : تجنبت المكاره بالأواقى : بالمنع والتذليل وَاق : مانع وساتر .

وقال آخر :

المالُ يرفعُ سقفًا لا عماد له ... والفقرُ يهدمُ بيت العز والشرفِ

وقال آخر :

جروحُ الليالى ما لهُنَّ طبيب ... وعيشُ الفتى بالفقر ليس يطيب
وحسبُك أن المرء فى حال فقره ... تحمقهُ الأقوام وهو لبيب
وَمَنْ يغترْ بالحادثات وصرفِها ... يبيت وهو مغلوبُ الفؤاد سليب
وما ضرنى إن قال : أخطأتَ جاهل ... إذا قال كل الناسِ أنت مُصيب

وقال آخر :

الفقرُ يُزرى بأقوامٍ ذوى حسبٍ ... وقد يسودُ بغير السيد المالُ

وقال آخر :

لعمرُك إن المال قد يجعلُ الفتى ... سنيا وأن الفقر بالمرء قد يُزْرى(١)
وما رفعَ النفسَ الدنيةَ كالغنى ... ولا وضعَ النَّفْسَ النفيسةَ كالفَقْرِ

وقال آخر :

إذ قل مالُ المرْء لانتْ قناتُه ... وهانَ على الأدنى فكيف الأباعدُ(٢)

وقال ابن الأحنف :

يمشى الفقيرُ وكلُّ شىء ضِدُّه ... والناسُ تُغلقُ دونه أبوابَهَا
تراه مَبغضًا وليس بمذنب ... ويرى العداوةَ لا يرى أسبابَهَا
حتى الكلابُ إذا رأتْ ذا ثروة ... خضعتْ لديه وحركَتْ أذنابَهَا
إذا رأتْ يومًا فقيرًا عابرًا ... نبحتْ عليه وكشرتْ أنيابَهَا

وقال آخر :

فقرُ الفتى يُذهبُ أنواره ... مثل اصفِرَارِ الشَّمْسِ عند المغيب
والله ما الإنسانُ فى قومِهِ ... إذا بلَى بالفقر إلا غريب

---

(١) سنيًا : لا معًا معروفًا بين الناس . ويزرى : يهين ويذل.
(٢) لانت قناته : أى ضعف عوده وقوته.

وقال آخر :

إنّ الدَّراهِمَ فى المواطن كُلّها ... تكْسُو الرِّجالَ مهابةً وجمالا
فهى اللسانُ لمن أراد فصاحةً ... وهى السلاحُ لمن أراد قِتالا

وقال آخر :

ما النَّاسُ إلا مع الدنيا وصاحبها ... فكُلّما انقَلَبَتْ يومًا به انقلبوا
يُعظِّمونَ أخَا الدُّنيا فإنَ وثَبَتْ ... يومًا عليه بما لا يشتهى وثَبُوا

وقال بعض الفرس : من زعم أنه لا يحب المال فهو عندى كذاب .

وقال الكنانى :

أصبحتِ الدنيا لنا عِبْرةً ... فالحمد لله على ذلكا
قد أجمعَ الناسُ على ذمّها ... وما أرَى منهُم لها تَارِكَا

وقال الزمخشرى :

وإذا رأيتَ صعوبة فى مطلب ... فاحمل صعوبتَه على الدينار
وابعثه فيما تشتهيه فإنه ... حجرٌ يُليِّنُ قوةَ الأحجار

قال الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبنى الله عليها أحب إلىّ من أن أحتاج إلى لئيم، وفى هذا المعنى قال الشاعر :

إحفظْ عُرَى مالكَ تَحظَ به ... ولا تُفرِّط فيه تبقى ذليل(١)
وإن يقولوا : باخلٌ بالعطَا ... فالبُخْلُ خيْرٌ من سؤال البخيل
واحفظْ على نفسك مِنْ زلَّةٍ ... يُرى عزيزُ القوم فيها ذليلُ

وأما ما جاء فى الاحتراز على الأموال :

فقد قالوا : ينبغى لصاحب المال أن يحترزَ ويحتفظَ عليه من المطمعين والمبرطحين والمحترفين والموهمين والمتنمسين :

فأما المطمعون : فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام والتحية والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدةِ ، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة ، ثم أن أحدهم يذكر لصاحب المال فى معرض المقال أنه كسب

(١) عرى مالك : أى عقدها ورباط الكيس الذى وضعتها فيه.

فائدة كثيرة فى معيشته ، ثم يمشى معه فى الحديث إلى أن يقول : إنى فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات ، وهذا أمر يعود ضرره فى المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب ، وغرضى التقرب إليك ونصحك وخدمتك ، وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدى لك على مال بل يكون تحت يدك أو تحت يد أحد من جهتك . ويخرج له فى صفة الناصحين المشفقين، فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين : إن ائتمنه ، وجعل المال بيده أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح ، وطاول به الأوقات ودفع إليه فى المدة الطويلة الشىء اليسير من ماله، ثم يحتج عليه ببعض الآفات ويدعى الخسارة ، فإن لزمه صاحب المال قابحه ، وبرطل من جملة المال صاحب جاه ، فيدفعه ويقول : هذا رابانى ، فإن روعى صاحب المال وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة ، فلا يستوفى ما فيها إلا فى الآخرة ، وإن هو لم يأتمنه وعول أن يكون القبض بيده ، والمتاع مخزونًا لديه ، واطأ عليه البائعين والمشترين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به ، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أوهمه أن مفاتيح الأرزاق بيده ، وإن كسد المشترى أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال : ليس لى علم بالغيب .

ومن أشد المطمعين المتعرضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون فى عمل الذهب والفضة من غير معدنها، فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم فى شىء من حديثهم ، فإن كذبهم ظاهر ، وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيرًا ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة ، وهذا يستحيل . ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك إلا عدم الإمكان وتعذر المكان ، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة ، فيأخذها وينسحب ، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهى إلى مدة فيقنع فى تلك المدة بالأكل غدوة وعشية وسبيله بعد ذلك إن كان معروفًا قال : فسد على العمل من جهة كيت وكيت ، ويقول للذى ينفق عليه : هل لك فى المعاودة ؟ فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض ، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأى سبب كان . وإن كان منورًا غافل صاحب المكان وخرج هاربًا.

ومن المطمعين : قوم يجعلون فى الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون إنا نعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت ، وكيت ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة؛ ويقولون : نريد أن تأخذ لنا عدة تنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك ، ويوطن نفسه على أن المدة تكون قريبة ، فيعملون يومًا أو يومين فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد ويعتقد الصحة ، ثم يدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى ، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء . وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة فى قماشه أو فى العدة التى معه ؛ فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا ، فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطحون : فهم من الخونة والناس بهم أكثر غررًا . وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحدًا منهم لشراء حاجة سارع فيها واحتاط فى جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو درعها، ووضع من أصل ثمنها شيئًا وزنه من عنده حتى يبيض وجهه عند صاحب المال ، ويعتقد نصحه وأمانته ونُجْحَ مساعيه ، وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقى مقاليد أموره إليه فيستعطفه ، ويفوز به ، ثم يغير الحال الأول فى الباطن . فينبغى لصاحب المال أن لا يغفل عنه .

وأما المحترفون الموهمون : فهم الذين يتعرضون لذوى الأموال، فيظهرون لهم الغنى والكفاية، ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء ، ويعتمدون جودة اللباس ويستعملون كثيرًا من الطيب، ثم إن أحذهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة . فيما يعانيه ويذكر ذلك مع الغير ، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر فى ذهن صاحب المال أنه يكتسب فى كل سنة الجمُلَ الكثيرة من المال ، وأنه لا يبالى إذا أنفق أو أكل أو شرب ، فتشره نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة : يا فلان تريد الدنيا كلها لنفسك ، لم لا تشركنا فى متاجرك هذه وأرباحك ؟ فيقول له : أنت جبان يعز عليك إخراج الدينار ، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك ، ولا تدرى أنه مثل البازى إن أرسلته أكل وأطعمك ، وإن أمسكته لم يصد شيئًا واحتجت إلى أن تطعمه ، وإلا مات ، وأنا والله لو كان عندى علم أنك تنبسط لهذا كنت فعلت معك خيرًا كثيرًا ولكن ما كان إلا هكذا ، وما كان لا كلام فيه، والعمل فى المستأنف ، فيشكره صاحب المال ،ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه ، فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه . فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتنمسون : فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ، ومجانبة الحرام ، ومواظبة الصلاة والصيام لكى يشتهر ذكرهم عن الخاص والعام ثم يلقون ذوى الأموال بالبشر والإكرام والتلطف فى المقال ، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهانى بالأعياد . وربما يأتى معه بأحد من الأولاد ، ويظهرون النزاهة والغنى ، ويجعلون الدين سلمًا إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال ،وتفوض إليهم الوصايا ، ويجلهم العوام ، وتقبل شهادتهم الحكام ، وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال ، وهؤلاء أشرٌ من اللصوص والقطاع ، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم ، وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم . قال الشاعر :

صَلَّى وصامَ لإمرٍ كان أمله ... حتى حواهُ فما صلَّى ولا صاما

وقيل : لا فقير أفقر من غنى يأمن الفقر . قال الشاعر :

ألم ترَ أن الفقرَ يرجى له الغنى ... وأنَّ الغنى يُخشى عليه من الفقر؟

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له : يا بُنَىّ عليك بطلب العلم ، وجمع المال ، فإن الناس طائفتان : خاصة ، وعامة ، فالخاصة : تكرمك للعلم. والعامة: تكرم للمال .

وقال بعض الحكماء : إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به موثقًا ، وأساء به الظن من كان ظنه حسنًا ، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدًا من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه ، وما من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير عيب ، فإن كان شجاعًا سمى: أهوجَ ، وإن كان مؤثرًا سمى: مفسدًا ، وإن كان حليمًا سمى: ضعيفًا ، وإن كان وقورًا سمى : بليدًا، وإن كان لسنًا سمى : مهذارًا ، وإن كان صموتًا سمى: عييًا ، قال ابن كثير :

النَاسُ أتباعُ من دامتْ له نعمٌ ... والويلُ للمرء إن زلتْ به القدم
المالُ زين ومَنْ قلتْ دراهمُه ... حَىٌّ كمَنْ مات إلا أنه صنمُ
لَمّا رأيتُ أخلائى وخالصتى ... والكلُّ مُستترٌ عنِّى ومحتشمُ
أبدوا جفاءً وإعراضًا فقلتُ لهم ... :أذنبتُ ذنبًا؟ فقالوا: ذنبُك العَدَمُ(١)

وكان(٢) ابن مقله وزيرًا لبعض الخلفاء ، فزور عنه يهودى كتابًا إلى بلاد الكفار وضمنه أمورًا من أسرار الدولة ، ثم تحيل اليهودى إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه ، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودى، فأعطته درجًا بخطه ، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذى كان فى الدرج ، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة ، وكان ذلك يوم عرفة ، وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفى موكبه كل من فى الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد، لم يأت أحد إليه ولا توجع له ، ثم اتضحت القضية فى أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودى والجارية فقتلهما شر قتلة . ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعًا سنية وندم على فعله واعتذر إليه ، فكتب ابن مقلة على باب داره يقول :

تحالفَ الناسُ والزمانُ ... فحيثُ كان الزمانُ كانوا
عادانى الدهرُ نصفَ يومٍ ... فانكشفَ الناسُ لى وبانوا
يا أيها المعرضون عنى ... عُودُوا فقد عادَ لى الزمانُ

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى ، قال بعضهم :

إنما قوةُ الظهور النقودُ ... وبها يكملُ الفتى ويسودُ
كم كريمٍ أزرى به الدهرُ يومًا ... ولَئِيمٍ تسعى إليه الوفودُ

---

(١) العدم : الفقر .

(٢) محمد بن على بن الحسين بن مقلة ، أبو على . أديب شاعر . حسن الخط (٢٧٢ ـ ٣٢٨ هـ) . اتهمه القاهر . فقطع يده ولسانه وسجنه وتوفى فى سجنه .

والأطباء يعلمون أمراضًا من علاجها اللعب بالدينار وشرب الأدوية والمساليق التى يغلى فيها الذهب .

قال الشاعر :

أحرص على الدرهم والعَيْن تُسْلم من العيْلة والدين (١)
فقُوةُ العين بإنسانها وقوةُ الإنسانِ بالعين (٢)

واعلم أن القلب عمود البدن ، فإذا قوى القلب قوى سائر البدن ، وليس له قوة أشد من المال وبالضد إذا ضعف الفقر ضعف له البدن .

حكى: أن ملكًا رأى شيخًا قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه ، والشاب يعجز عن ذلك، فعجب منه ، فاستحضره ، فحادثه فى ذلك ، فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه . وقال لقمان لابنه : يا بنى شيئان إذ أنت حفظتهما لا تبالى بما صنعت بعدهما ، دينك لمعادك، ودرهمك لمعاشكَ والكلام فى هذا المعنى كثير . وقد اقتصرت منه على النّزْرِ اليسير . وقد كان فى الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخرًا .

فمن ذلك : ما حكى عن أحمد بن طولون أنه دخل يومًا بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهرة فاستحسنه، فدعا بغدائه فتغدى ، ثم دعا بشرابه فشرب ، فلما انتشى قال : على بألف مثقال من المسك ، فنثره على أوراق النرجس ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف .

حكى الرشيد بن الزبير فى كتابه الملقب « بالعجائب والطرف » : أن أبا الوليد ذكر فى كتابه المعروف « بأخبار مكة » أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام الفتح فى سنة ثمان من الهجرة، وجد فى الجب الذى كان فى الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان يهدى للبيت، قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار . وباع زهرة التميمى يوم القادسية منطقة كان قد قتل صاحبها بثمانين ألف دينار ، ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفًا ، وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوض عنها ثلاثين ألف دينار ، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتى ألف .

ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريقًا مرصعًا بالجوهر ، فلم يدر أحد ما قيمته ، فقال رجل من الفرس : أنا آخذه بعشرة آلاف دينار ، ولم يعرف قيمته ، فذهب إلى سعد بن أبى وقاص ، فأعطاه إياه وقال : لاتبعه إلا بعشرة آلاف دينار ، فباعه سعد بمائة ألف دينار .

ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى فى سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته

---

(١) العين : الأملاك وما شابهها.
(٢) إنشان العين : يؤبؤها.

خاتون ، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه ونسيت الأخرى، فأصابها المسلمون ، فقومت بمائتى ألف دينار .

ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى فى سنة تسع وثمانين وجد فيها قدر ذهب ينزل إليها بسلالم. ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مولاه فصًا من ياقوت أحمر ، وقال له : انج به ، وكان قد قوم ذلك الفص بألف ألف درهم ، فأخذه زياد ورضه (١) بين حجرين وقال: والله لا ينتفع به أحد بعد مصعب .

وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان فى ولايته ظهر على كنز ، فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب مرصعة بالدر والجواهر والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد ، فحملها إلى مصعب بن الزبير ، فخرج مَن قَوَّمها فبلغت قيمتها ألفى ألف دينار ، فقال: إلى من أدفعها ؟ فقيل : إلى نسائك وأهلك . فقال : لا ، بل إلى رجل قدم عدنا يدًا، وأولانا جميلاً ادع لى عبد الله ابن أبى دريد ، فدفعها إليه .

ولما صار موجود عماد الدولة فى قبضة أمير الجيوش وجد فى جملته دملج (٢) ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشر مثقالاً ، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر ، فقومت بتسعين ألف دينار .

ووجد فى بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعد له من آلة الشرب يوم قتل ، سبعمائة صينية من ذهب وفضة . ووجد له مائة ألف مثقال عنبر. وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثنى عشر ألف قميص وشى ، وعشرة آلاف تكة حرير ، وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل ، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار ، ولم تأت دولة بنى العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم ، وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين .

ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش فى شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة ، خلف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين إردبًا وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج، ودواة من الذهب قوم ما عليها من الجواهر واليواقين بمائتى ألف دينار ، وعشر بيوت فى كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونًا، وخَلَّف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها ، وخلَّف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذى لا يوجد مثله ، وخلف خمسمائة صنق كبار لكسوة حشمه وخلف من الزبادى الصينى والبلور المحم وسق (٣) مائة جمل ، وخلف عشرة آلاف ملعقة فضة وثلاثة آلاف ملعقة ذهب ، وعشرة آلاف زبدية مملوءة فضة كبار وصغار ،

---

(١) رضه : دقه جريشا . أو : كسره .

(٢) دُمْلُجُ : سِوار يحيط بالعضد .

(٣) الوسق : حمل البعير أو العربة أو السفينة .

وأربع قدور ذهبًا كل قدر وزنها مائة رطل ، وسبعمائة جام[١] ذهبًا بفصوص زمرد ، وألف خريطة [٢] مملوءة دراهم خارجًا عن الأرادب فى كل خريطة عشرة آلاف درهم ، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلى النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى ، وخلف ألف حسكة ذهبًا وألفى حسكة فضة ، وثلاثة آلاف نرجسة ذهبًا ، وخمسة آلاف نرجسة فضة ، وألف صورة ذهبًا وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب ، وثلاثمائة ثور ذهبًا ، وأربعة آلاف ثور فضة ، وخلف من البسط الرومية والأندليسة ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد ، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه فى كل سنة بثلاثين ألف دينار ، وخلف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى .

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظًا به ، فلما رأوه سخروا منه ، فضرب عليه إنسان فضرط ، فضحكوا منه ، ثم أمسكه آخر وضربه ، فضرط ، فضحكوا عليه ، فكسروه استهزاء وسخرية ، ولم يدروا خاصيته ، وكانت الفائدة فيه : أنه وضع للقولنج ، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره . وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزًا لا تحصى ، وبعد ذلك ماتوا ونفدت ذخائرهم وفنيت أموالهم، فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه . قال بعضهم :

هَب الدنيا تقادُ إليك عفوًا ... أليس مصير ذلك للزوال

فضمنت أنا [٣] هذا البيت ، وقلت :

أيَا مَنْ عاش فى الدنيا طويلا ... وأفنى العمر فى قيل وقال
وأتْعبَ نفسَه فيما سَيفْنَى ... وجَمَّع من حَرامٍ أو حلال
هَبِ الدنيا تُقادُ إليك عَفْوًا ... أليس مصيرُ ذلك للزَّوالِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) جام : إناء للشرب أو الطعام من فضة وغلب استعماله فى قدح الشراب .
(٢) الخريطة : وعاء من الجلد .
(٣) المؤلف لهذا الكتاب ـ الأبشيهى .

الباب الثاني والخمسون
فى ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾[العلق : ٦ ، ٧] على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان . وسئل أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى من طغى من خلق الله عز وجل إلا بالغنى ؟ وتلا هذه الآية المتقدمة. والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا فى المال . وكان الصحابة ـ رضى الله تعالى ـ عنهم يرون الفقر فضيلة. وحدث الحسن ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بأربعين عامًا» ، فقال جليس للحسن : أمن الأغنياء أنا أو من الفقراء ؟ فقال: هل تغديت اليوم ؟ قال : نعم ، فهل عندك ما تتعشى به ؟ قال : نعم ، قال : فإذًا أنت من الأغنياء وقال ابن عباس ـ رضى الله تعالى ـ عنهما كان النبى ﷺ يبيت طاويًا ليالى ما له ولا لأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير ، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول . هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يقول : « اللهم توفنى فقيرًا ولا تتوفنى غنيًا واحشرنى فى زمرة المساكين». وقال جابر ـ رضى الله تعالى عنه ـ : دخل النبى ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء ـ رضى الله تعالى عنها ـ ، وهى تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة » .

قال الله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾[الضحى : ٥] . وقال ﷺ : « الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره ، ولا يختار إلا أولياء الله تعالى » . وفى الخبر إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل لملائكته : أدنوا إلىَّ أحبائى ، فتقول الملائكة : ومن أحباؤك يا إله العالمين ؟ فيقول : فقراء المؤمنين أحبائى، فيدنونهم منه ، فيقول : يا عبادى الصالحين إنى ما زويت الدنيا عنكم لهوانكم علىَّ ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إلىَّ وتمتعوا ما شئتم . فيقولون : وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنا منها ، ولقد أحسنت بما صرفت عنا ، فيأمر بهم ، فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان . وقال ﷺ : «هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم ، والذى نفسى بيده ليدخلن فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام ، والأغنياء يحاسبون على زكاتهم » . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره ـ أى لو قال: اللهم إنى أسأل الجنة لأعطاه الجنة ـ ولم يعطه من الدنيا شيئا » وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به ، الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم ، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم يُنصَتْ لهم ، حوائج أحدهم تتلجلج فى صدره لو قسم نوره

على الناس يوم القيامة لوسعهم » .

وروى عن خالد بن عبد العزيز أنه قال : كان حيوة بن شريح من البكائين ، وكان ضيق الحال جدًا ، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو ، فقلت له : يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك فى معيشتك، قال : فالتفت يمينًا وشمالاً فلم ير أحدًا ، فأخذ حصاة من الأرض وقال : اللهم اجعلها ذهبًا ، فإذا هى تبرة فى كفه ما رأيت أحسن منها ، قال: فرمى بها إلىَّ وقال : هو أعلم بما يُصلحُ عباده ، فقلت : ما أصنع بهذه ؟ قال: أنفقها على عيالك ، فهبته والله أن أردها عليه ، وقال عون بن عبد الله : صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحدًا أكثر منى همًا لأنى كنت أرى ثيابًا أحسن من ثيابى ، ودابة أحسن من دابتى ، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك، فاسترحت. قال بعضهم :

وقد يُهْلِك الإنسانَ كَثْرَةَ مَالِهِ ... كما يُذْبَحُ الطاووسُ من أجْلِ رِيشِه

وقال عبد الله بن طاهر :

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنى ... ويأخذ ما أعطى ويفْسد ما أسدى(١)
فمَنْ سره أن لا يَرىَ ما يسوءُهُ ... فلا يتخذ شيئًا ينالُ به فقدا

وكان من دعاء السلف ـ رضى الله تعالى عنهم ـ: « اللهم إنى أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى » . وقيل : مكتوب على باب مدينة الرقة : ويل لمن جمع المال من غير حقه ، وويلان لمن ورثه لمن لا يحمده وقدم على من لا يعذره .

ولما فُتِحتْ بلخُ فى زمن ـ عمر رضى الله تعالى عنه ـ وجد على بابها صخرة مكتوب فيها : إنما يتبين الفَقير من الغنى بعد الانصراف من بين يدى الله تعالى أى : بعد العرض ، قال الشاعر:

ومن يَطْلُبِ الأعلى من العَيْش لم يزلْ ... حزينًا على الدنيا رهين غُبُونها (٢)
إذا شئت أن تحيا سعيدًا فلا تكن ... على حالةٍ إلا رضيت بدونها

وقال آخر :

ولا ترهبَنَّ الفقرَ ما عشتَ فى غدِ ... لكلٍّ غدٍ رزقٌ من الله وارِدُ

وقال هارون بن جعفر الطالبى :

بُوعِدَتْ هِمّتِى وقُوربَ مالى ... فَفَعَالى مُقَصِّر عن مَقَالى

(١) سدى : قدم وأحسن .

(٢) غبونها : نقصها وعدم إقبال . يقال غَبنته حقه : أى انتقصه.

ما اكتسى الناسُ مثَل ثوب اقْتناع   وهو من بين ما اكْتَسَوا سرْبالى
ولقدْ تَعْلَمُ الحوادَثُ التّى   ذو اصطبارِ على صُرُوفِ اللّيَالى

وقال أعرابى : من ولد فى الفقر أبطره الغنى ، ومن ولد فى الغنى لم يزده إلا تواضعًا ، فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه ، وأعظم أجر من رضى به ، وصبر عليه ، اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الباب الثالث والخمسون
فى التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم ـ رضى الله تعالى عنه ـ ، أن رسول الله ﷺ قال : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » . وما سئل ـ عليه السلام ـ شيئًا قط ، فقال لا . وأتى أعرابى إلى على ـ رضى الله تعالى عنه ـ ، فسأله شيئًا ، فقال : والله ما أصبح فى بيتى شىء فضل عن قوتى ، فولى الأعرابى وهو يقول : والله ليسألنك الله عن موقفى بين يديك يوم القيامة ، فبكى على رضى الله تعالى عنه بكاءً شديدًا ، وأمر برده ، وقال : يا قنبر ائتنى بدرعى الفلانية ، فدفعها إلى الأعرابى ، وقال : لا تخدعن عنها فطالما كشفتُ بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ، فقال قنبر يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهمًا ، فقال يا قنبر والله ما يسرنى أن لى زنة الدنيا ذهبًا وفضة ، فتصدقت به ، وقبل الله منى ذلك ، وأنه يسألنى عن موقف هذا بين يديه . وقال ـ على رضى الله تعالى عنه ـ : إن لكل شىء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح . وقال مسلمة لنصيب : سلنى . فقال : كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة، فقال لحاجبه : ادفع إليه ألف دينار . وسأل رجل الحسن ـ رضى الله تعالى عنه ـ فقال له : ما وسيلتك ؟ قال : وسليتى أنى أتيتك عام أول فبررتنى ، فقال : مرحبًا بمن توسل إلينا بنا ، ثم وصله وأكرمه . ويقال : الكريم إذا سئل ارتاح، واللئيم إذا سئل ارتاع .

ولما وفد المهدى من الرّىّ إلى العراق امتدحه الشعراء ، فقال أبو دلامة :

إنى نذرتُ لئن رأيتُكَ قادمًا ... أرضَ العراق وأنتُ ذو وَفْرِ[(١)]
لَتُصَلِّيَنَّ على النبى محمدٍ ... ولتملأن دراهمًا حِجْرِى

فقال المهدى : صلى الله على محمد ، فقال أبو دلامة : ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية ، فضحك وأمر ببدرة ، فصبت فى حجره . وسمع الرشيد أعرابية بمكة تقول :

طحنتنا كلاكل الأعوام ... وبرتنا طوارق الأيام[(٢)]
فأتيناكُمُو نمد اكفًا ... لالتقامٍ من ذادكم والطعامِ[(٣)]
فاطلبوا الأجرَ والمثوبةَ فينا ... أيها الزائرون بيتَ الحرامِ

فبكى الرشيد ، وقال لمن معه : سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم ، فألقوا

---

(١) ذو وفر : ذو عظمة وثبات وهيبة .
(٢) كلاكل الأعوام : ثقلها وشدتها وطوارق الأيام : نوازلها ومصائبها .
(٣) لالتقام : لأخذ اللقمة .

عليها الثياب حتى وارتها كثرة وملأوا حجرها دراهم ودنانير . وسأل أعرابى بمكة وأحسن فى سؤاله ، فقال : أخ فى الله ،وجار فى بلد الله، وطالب خير من عند الله ، فهل من أخ يواسينى فى الله؟ . قال الشاعر :

ليس فى كل وهلة وأوان تتهيأ صنائعُ الإحسان
فإذا أمْكَنَتَ فبادرٌ إليهاَ حَذَاراً(١) من تعذرِ الإمكان

وقال البصرى :

أضحت حوائجُنا إليك مناخة معقولة(٢) برحابك الوصال
أطلقْ فَدَيْتُكَ بالنجاح عِقالها حتى تثورَ بنا بغير عقال

وعن على ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : يا كميل مر أهلك أن يروحوا فى كسب المكارم، ويدلجوا فى حاجة من هو نائم ، فو الذى وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفًا ، فإذا نابته نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل . وقال لجابر بن عبد الله : يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه كثرت حوائج الناس إليه ، فإذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء ، ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها . وكان لبيد رحمه الله تعالى آلى على نفسه كلما هبت الصبا أن ينحر ويطعم ، وربما ذبح العتاق إذا ضاق الخناق ، فخطب الوليد بن عتبة يومًا فقال : قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته ، ثم بعث إليه بخمس من الإبل وبهذه الأبيات :

أرى الجزارَ يشحذ مُديتَيْه إذا هبَّت رياح بنى عقيل(٣)
طويلَ الباع أبْلَجْ جعْفَرِىٌ(٤) كريمُ الجد كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعبرى بما نواه على العلات بالمال القليل

فدعا لبيد بنتًا له خماسية وقال:يا بنية إنى تركت قول الشعر، فأجيبى الأمير عنى؛ فقالت:

إذا هبتْ رياحُ بنى عقيل تداعينا لهبتها الوليدا
طويلُ الباع أبلجُ عَبْشَى أعان على مروءته لبيدا(٥)
بأمثالِ الهضاب كأن رعيًا عليها من بنى حام قعودا

---

(١) حَزَرًا : تيقظ واستعد. (٢) معقولة : مربوطة بالعقال.
(٣) تشحذ : تسن وتصقل . (٤) أبلج : منير.
(٥) عبشي : من عبد شمس.

أبا وَهْبَ جزاك اللهُ خيرًا نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعد إن الكريمَ له مَعاد وظنى فى ابن عُتبةَ أن يعودا

فقال : لقد أحسنت والله يا بنية لولا أنك سألت وقلت: عد ، فقالت : يا أبت إن الملوك لا يُسْتَحيَا منهم فى المسألة ، فقال : والله أنت فى هذا أشعر منى .

ووفد رجل من بنى ضبة على عبد الملك ، فأنشده :

واللهِ ما ندري إذا ما فاتنا طلب إليك من الذى نتطلبُ
ولقدْ ضربنا فى البلاد فلم نجدْ أحدًا سواك إلى المكارم يُنسبُ
فاصبر لعادتِكَ التى عودتنا أوْ لا فارشدْنا إلى مَنْ نذهبُ

فأمر له بألف دينار ، فعاد إليه من قابل ، وقال : يا أمير المؤمنين إن الروى(١) لينازعنى، وإن الحياء يمنعنى ، فأمر له بألف دينار وقال : والله لو قلت حتى تنفد بيوت الأموال لأعطيتك . وقيل : إن رجلاً عرض للمنصور ، فسأله حاجة فلم يقضها ، فعرض له بعد ذلك ، فقال له المنصور : أليس قد كلمتنى مرة قبل هذه ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض وبعض البقاع أعز من بعض ، فقال : صَدَقت ، وقضى حاجته وأحسن إليه .

وروى: أن أبا دلامة الشاعر كان واقفًا بين يدىْ السفاح فى بعض الأيام فقال له : سلنى حاجتك ، فقال: كلب صيد ، فقال : اعطوه إياه ، فقال : ودابة أصيد عليها ، فقال : اعطوه دابة . فقال : وغلامًا يقود الكلب ويصيد به قال : اعطوه غلامًا ، قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال : اعطوه جارية ، فقال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولابد لهم من دار يسكنونها . قال : اعطوه دارًا تجمعهم ، قال : فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أقطعته عشر ضياع عامرة وعشر ضياع غامرة ، فقال : ما الغامرة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما لا نبات فيها . قال : قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافى بنى أسد، فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة ، فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها كيف ابتدأ بكلب صيد؟ فسهل القضية ، وجعل يأتى بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى ما سأله ، ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليه .

وحكى عن المأمون : أنه قال ليحيى بن أكثم يومًا : سِرْ بنا نتفرج ، فسارا ، فبينما هما فى

(١) الروى : رواية الشعراء.

الطريق وإذا بمقصبة خرج منها رجل بقصبة للمأمون يتظلم له ، فنفرت دابته ، فألقته على الأرض صريعًا ، فأمر بضرب عنق ذلك الرجل ، فقال يا أمير المؤمنين : إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور وهو عالم به ، ويتجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه ، ولو أحسنت الأيام مطالبتى لأحسنت مطالبتك ،ولأنت عليَّ رَدّ ما لم تفعل أقدر منى على رد ما قد فعلت . قال : فبكى المأمون وقال : بالله أعد عليَّ ما قلت ، فأعاده ، فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه ؟ والنبى ﷺ يقول : « المرؤُ بأصغريه: قلبه ولسنه » . والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمى ، فوقف وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه، فلم هم المأمون بالانصراف قال الرجل : يا أمير المؤمنين : بيتان قد حضرانى ، ثم أنشد يقول :

ما جادَ بالوفرِ إلا وهو مُعْتذرٌ ... ولا عفا قطٌّ إلا وهو مُقْتَدرُ
وكُلما قصدوه زاد نائِلُهُ ... كالنارِ يؤخذُ منها وهى تَستَعِرُ

وقيل : إن بعض الحكماء لزم باب كسرى فى حاجة دهرًا ، فلم يوصل إليه ، فكتب أربعة أسطر فى ورقة ودفعها للحاجب ، فكان فى السطر الأول : العديم لا يكون معه صبر على المطالبة ، وفى السطر الثانى : الضرورة والأمل أقدمانى عليك ، وفى السطر الثالث : الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء ، وفى السطر الرابع : أما « نعم » فَمُثْمِرَةٌ ، وأما «لا» فمريحة فلما قرأها كسرى دفع له فى كل سطر ألف دينار .

وحكى: أن رجلاً كان جارًا لابن عبيد الله ، فأصاب الناس قحط بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه ، فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد فى طلب المعيشة ، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر ، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له إذا سافرت من الذى ينفق علينا ؟ قال : إن لى على ابن عبيد الله دينًا ومعى به إشهاد عليه شرعى، فخذى الإشهاد وقدميه إليه ، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر ، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول :

قالتْ وقد رأت الأحمالَ مُحْدَجَةٌ ... والبيْنُ قد جَمَعَ المشكوَّ والشاكى(١)
مَنْ لى إذا غِبْتَ فى المَحْلِ قُلْتُ لها ... : الله وابنُ عبيد الله مولاك

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها ، وأخبرته بسفره ، وناولته الرقعة ، فقرأها ، وقال : صدق زوجك وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبر والإحسان إلى أن قدم زوجها فشكره على فضله وإحسانه .

وحكى: أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة ، ثم أنشدها بين يديه ، فلما

(١) محدجة : محملة .

فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه ، فقال : يا مطيع إن شئت أعطيناك وإن شئت مدحناك كما مدحتنا ، فاستحيا مطيع من اختيار الثواب وكره اختيار المدح وهو محتاج ، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين :

ثناء من أمير خيرُ كسبٍ لصاحب نعمة وأخي ثراء
ولكن الزمانَ برى عظامِى وما لى كالدراهم من دواءِ

فلما قرأها معن ضحكِ وقال : ما مثلُ الدراهم من دواء . وأمر له بصلة جزيلة ومال كثير.

قال الشاعر:

هززتُك لا أنّى جعلتُك ناسيًا لأمرى ولا أنى أردت التقاضيا
ولكن رأيتُ السيفَ من بعد سله إلى الهز محتاجًا وإن كان ماضيا(١)

وقال آخر :

ماذا أقولُ إذا رجعْتُ وقيل لى ماذا لقيت من الجواد الأفضَل؟
إن قلتُ : أعطانى كَذَبْتُ وإن أقل :بَخلَ الجوادُ بماله لم يَجْمُلُ؟(٢)(٣)
فاختَرْ لنفسك ما أقولُ فإننى لأبُدَّ أخبِرُهُم وإن لم أسأَلِ

وقال آخر :

لِنَوائبِ الدنيا خبأْتُك فانتبه يا نَائما من جُمْلَةَ النَّوام
أعلى الصِّراطِ تُزيلُ لوعةَ كُرْبَتى أمْ فى المَعَادِ تجودُ بالأنعام؟

ومماث يستحسن إلحاقه بهذا الباب :

ذكر شىء مما جاء فى ذم السؤال والنهى عنه :

روى عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعى ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ﷺ ؟ فبسطنا أيدينا وكنا حديثى عهد بالمبايعة ، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام يا رسول الله نباعيك ؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وتقيموا الصلوات الخمس ، وتطيعوا الله» ، وأسر كلمة خفية وهى : «ولا تسألوا الناس شيئًا ، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا يناوله إياه » ، رواه مسلم .

(١) ماضيًا : قاطعًا . (٢، ٣) لم يجمل : أى لم يحسن.

وقال رجل لابنه : إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء فى وجهه ، وكان لقمان يقول لولده : يابنى إياك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه ، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك . وأوحى الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ لإن تدخل يدك فى فم التنين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غنى قد نشأ فى الفقر . وقيل لأعرابى : ما السقم الذى لا يبرأ ، والجرح الذى لا يندمل ؟ قال : حاجة الكريم إلى اللئيم . وقال أبو محلم السعدى :

إذا ما رماك الدهرُ فى الضَّيق فانتجعْ قديمَ الغنى فى النَّاس إنَّكَ حامدُهْ[1]
ولا تطلبنَّ الخيرَ ممن أفادهَ حديثًا ومَنْ لا يُورثُ المجد والدُهْ

وقال رسول الله ﷺ : « مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها » . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه » . قال الشاعر :

ما اعتاض باذلُ وجْهِه بسؤاله عوضًا ولو نال الغنى بسؤال
وإذا السؤالُ مع النَّوالِ وَزَنْتَهُ رَجَحَ السؤالُ وخَفَّ كلُّ نَوَالِ

وقال أحمد الأنبارى :

لموتُ الفتى خير من البُخْل للغنى وللبخل خير من سؤال بخيل
لعمْرُكَ ما شىء لوجهك قيمة فلا تلق إنسانًا بوجه ذليل

وقال سلم الخاسر :

إذا أذنَ اللهُ فى حاجة أتاك النجاحُ على رِسْلِه
فلا تسألِ الناسَ من فضلهم ولكن سَلِ اللهَ مِنْ فضلِه

ويقال: أحب الناس إلى الله من سأله ،وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، وفى هذا المعنى قيل:

لا تسألن من ابن آدمَ حاجةً وَسَلِ الذى أبوابه لا تُحجبُ[2]
الله يغضبُ إن تركتَ سؤالَه وبنى آدم حين يُسألُ يغضبُ

(١) انتجع : أمَّ وقصد .
(٢) ورد صدر هذا البيت « ولا تسألن بنى آدم حاجة » .

وقال محمود الوراق :

شاد الملوكُ قصورَهم وتحصّنوا ... من كل طالب حاجة أو راغبِ
فارغَبْ إلى ملكِ الملوك ولا تكن ... ياذا الضراعةِ طالبًا من طالبِ

وقال ابن دقيق العيد (١):

وقائلةٍ : ماتَ الكرامُ فمَنْ لنا ... إذا غضَّنا الدهرُ الشديدُ بنابِه
فقلتُ لها: مَنْ كان غايةٌ قصدهِ ... سؤالاً لمخلوق فليس ببابِه
إذا ماتَ مَنْ يُرجى فمقصودنا الذى ... ترجينه باقٍ فلوذى ببابِه

وقال بعض أهل الفضل :

لما افتقرتُ لصحبى ما وجدتهمو ... لجاتُ لله لبَّانى وأغنانى
واهًا على بذل وجهى لِلْوَرَى سَفَهًا ... فلو بذلتُ إلى مولاى وَالانى

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال : سألت فلانًا حاجة أقل من قيمته ، فردنى رد أقبح من خلقته . وسأل عروة مصعبًا حاجة فلم يقضها فقال : علم الله تعالى أن لكل قوم شيخًا يفزعون إليه وأنا أفزع منك . ويقال لا شىء أوجع للأيار من الوقوف بباب الأشرار . وقال الإمام الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ:

بلوتُ بنى الدنيا فلم أرَ فيهمُ ... سوى من غدا والبخل ملء إهابه (٢)
فجرَّدْتُ من غِمْدِ القناعة صارمًا ... قطعت رجائى منهم بذبابه (٣)
فلا ذا يرانى واقفًا فى طريقه ... ولا ذا يرانى قاعدًا عند بابه
غنى بلا مال عن الناس كلهم ... وليس الغنى إلا عن الشىء لا به
إذا ظالمًا يستحسن الظلم مذهبًا ... ولج عتوًا فى قبيح اكتسابه (٤)
فكله إلى صرف الليالى فإنها ... ستبدى له ما لم يكن فى حسابه (٥)
فكمْ قد رأينا ظالمًا متمردًا ... يرى النجم تيهًا تحت ظل ركابه (٦)

---

(١) ابن دقيق العيد : هو محمد بن وهب المعروف بابن دقيق العيد ، قاض من أكابر العلماء بالأصول ، مجتهد، له تصايف كثيرة منها « أحكام الأحكام » مجلدان و «تحفقة اللبيب فى شرح التقريب » . له أشعار وملح وأخبار توفى سنة ٧٠٢ هـ .

(٢) اهابه : الإهاب : الجلد .

(٣) ذبابه : ذباب السيف : حده .

(٤) عتوًا : استكبارًا ومجاوزة للحد.

(٥) كله : أوكله واتركه.

(٦) تيهًا : تكبرًا وافتخارًا.

فعمًّا قليلٌ وهو فى غفلاته أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يُرتجى ولا حسنات تلتقى فى كتابه
وجوزى بالأمر الذى كان فاعلاً وصب عليه الله سوط عذابه

وقال آخر :

لا تسألن إلى صديق حاجة فيحولُ عنك كما والزمانُ يحولُ
واستغن بالشىء القليل فإنه ما صان عرضَك لا يقالُ : قليلُ
مَنْ عف خف على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملولُ
وأخوك مَنْ وفرْتَ ما فى كفه ومتى عَلِقْتَ به فأنت ثقيلُ

وقال آخر :

ليس جودًا أُعطيته بسؤال قد يهزُ السؤالُ غيرَ جواد
إنما الجودُ ما أتاك ابتداءً لم تذقْ فيه ذلّة الترداد

وقال آخر :

لا تحسبنَّ الموتَ موتَ البلى إنما الموتُ سُؤَال الرِّجال
كلاُ مما مَوْتُ ولكن ذا أخفُّ من ذاك لِذُلِّ السؤال

وقال الشافعى ـ رضى الله تعالى عنه ـ :

قنعتُ بالقُوتِ من زمانى وصُنْتُ نَفْسى عن الهوان
خوفًا من الناسَ أن يقولوا :فضلُ فَلانِ على فلان
مَنْ كنتُ عن ماله غنيًا فلا أبالى إذا جفانى
ومَنْ رآنى بعين نقصٍ رأيتُه بالتى رآنى
ومَنْ رآنى بعينِ تِمٍّ رأيتُه كاملَ المعانى

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والخمسون

فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : ٨٦] فسرها بعضهم بالهدية ، وقال ﷺ : « تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحناء » . وقال ﷺ : « الهدية مشتركة » . وقال ﷺ : «من سألكم بالله فأعطوه ، ومن استعاذكم فأعيذوه ، ومن أهدى إليكم كرعًا (١) فاقبلوه » . وكان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها . وفى الأثر: الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر .

ومن الأمثال : إذا قدمت من سفر فأهد أهلك ولو حجرًا . وقال الفضل بن سهل : ما استرضى الغضبان ، ولا استعطف السلطان ، ولا سلبت السخائم (٢) ، ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب ، ولا توقى المحذور بمثل الهدية . وأتى فتح الموصلى بهدية وهى خمسون دينارًا فقال : حدثنا عطاء ، عن النبى ﷺ : أنه قال : « من أتاه الله رزقًا من غير مسألة ورده فكأنما رده على الله تعالى » . وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر : فردها ، فقال : «يا عمر لم رددت هديتى؟» فقال ـ رضى الله عنه ـ : إنى سمعتك تقول : خيركم من لم يقبل شيئًا من الناس . فقال :« يا عمر إنما ذاك ما كان عن ظهر مسألة ، فأما إذا أتاك من غير مسألة فإنما هو رزق ساقه الله إليك » . وقالت أم حكيم الخزاعية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تهادوا فإنه يضاعف الحب ويذهب بغوائل(٣) الصدور » . ويقال : فى نشر المهاداة طى المعاداة.

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها :

أهدى إلى سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ثمانية أشياء متباينة فى يوم واحد . **فيلة** من ملك الهند ، **وجارية** من ملك الترك ، **وفرس** من ملك العرب ، **وجوهر** من ملك الصين ، **وإستبرق** من ملك الروم ، **ودرة** من ملك البحر ، **وجرادة** من ملك النمل ، **وذرة** من ملك البعوض . فتأمل ذلك ، وقال : سبحان القادر على جمع الأضداد .

وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية ، فقال المأمون : أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة ليعلم عز الإسلام ونعمة الله تعالى علينا ، ففعلوا ذلك ، فلما عزموا على حملها قال : ما أعز الأشياء عندهم ؟ قالوا : المسك والسمور . قال : وكم فى الهدية من ذلك ؟ قالوا : مائتا رطل

(١) كراعًا : من البقر والغنم ، مستدق الساق
(٢) السخائم : الضغائن والأحقاد .
(٣) غوائل الصدر : أحقادها .

مسكًا ومائتا فروة سمور .

وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله فى يوم نيروز فى سنة ، اثنتين وثمانين ومائتين هدية كان فيها عشرون صينية ذهبًا فى عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً ، وعشرون صينية فضة فى عشرة منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلاً ، وخمس خلع وشى قيمتها خمسة آلاف دينار ، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار .

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد على الله هدية فى بعض السنين من جملتها عشرة بازات منها بار أبلق لم ير مثله ، ومائة مهر ، وعشرون صندوقًا على عشر بغال فيهم طرائف الصين وغرائبه ، ومسجد فضة بدرابزين يصلى فيه خمسة عشر إنسانًا ، ومائة رطل من مسك ، ومائة رطل عود هندى ، وأربعة آلاف درهم.

وأهدت ثريا بنت الأوبارى ملكة إفرنجة وما والاها إلى المكتفى بالله فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين . خمسين سيفًا وخمسين رمحًا وعشرين منسوجًا بالذهب ، وعشرين خادمًا صقليًا ، وعشرين جارية صقلية ، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع ، وستة بازات ، وسبعة صقور ، ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح ، يتلون فى كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحًا منكرًا، وصفقت بأجنحتها حتى يعلم ذلك ، وخرزًا يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة فى قدر البغل ، وآذانها شبه آذن البغل ، وهى مخططة تخطيطًا عامًا لجميع خلقتها .

وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارًا من الذهب الأحمر كل قنطار منه عشرة آلاف دينار عربية قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية .

وحكى : أن الخيزران جارية المهدى كانت أديبة شاعرة ، فعزم المهدى على شراب دواء ، فأنفذت إليه جام بلور فيه شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال ، وكتبت إليه تقول :

إذا خرجَ الإمامُ من الدواء ... وأعقبَه بالسلامة والشفاء
وأصلحَ حالَه من بعد شربٍ ... بهذا الجام من هذا الطلاء[1]
فَيَنْعمُ للتي قد أنفذتْه ... إليه بزورةٍ بعد العشاء

(١) الجام : إناء للشراب والطعام من فضة . وقد غلب استعماله في قدح الشراب .

فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع ، وزار الخيزران ، وأقام عندها يومين .

وأهدى الصابى إلى عضد الدولة أسطرلابا فى يوم المهرجان وكتب إليه يقول :

أَهْدَي إليك بنو الأملاك واحتفلوا ... في مهرجان جديد أنت تُبليه
لكن عبدَكَ إبراهيم حين رأي ... سمو قدرِك عن شيء يُدانيه
لم يرضَ بالأرضِ يَهديها إليك وقد ... أهدي لك الفلكَ الأعلي بما فيه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها إنّ الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن ، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلت كانت أوقع وأنفع.

وأهدى مرة أبو الهذيلى إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة ، ثم لم يزل يذكرها ، وكلما ذكر شيء بجمال أو سمن قال : هو أحسن أو أسمن من الدجاجة التى أهديتها إليكم ، وإن ذكر حادث قال : ذلك قبل أن أهدى لكم الدجاجة بشهر ، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل ، فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية ، ويذكرها . قال الشاعر :

وَإنِ امرؤٌ أهدي إليَّ صنيعة ... وذكَّرنيها مَرةً لَلَئيمَ

وقال سفيان الثورى : إذا أردت أن تتزوج فأهد للأم . وكان سفيان يروى عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ: من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها ، فأهدى إليه صديق له ثيابًا من ثياب مصر وعنده قوم ، فذكروا الخبر ، فقال : إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب أما فى ثياب مصر فلا .

وكتب الحمدونى إلى جارية اسمها برهان . وقد حج مواليها ، فقال :

حَجُّوا مَواليكِ يا برهانُ واعتمروا ... وقد أتَتْكَ الهدايا من مواليك
فأطرفيني بما قد أطرفوك به ... ولا تكن طُرْفتي غير المساويك
ولستُ أقبلُ إلا ما جلوتِ به ... ثنيتَيْكِ وما ردَّدْتِ في فيكِ(١)

وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول :

(١) ثنيتيك : الأسنان التى فى مقدم الفم .

تفضَّلْ بالقبول علىَّ إنى بعثتُ بما يقلّ العبد عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية فى يوم نيروز ، وكتب إليه يقول : هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العبيد للسادة ، وقدر الأمير يجل عما تحيط به المقدرة ، وفى سؤدده ما يوجب التفضل ببسط المعذرة ، وقد وجهت ما حضر علمًا بأنه لا يستكثر ما جل ولا يستقل لعبده ما قل ، فإن رأى أن يتطول بقبول القليل كتطوله بإهداء الجزيل فعل ، وجعل يقول :

رأيتُ كثيرَ ما يُهدَى إليكم قليلا فاقتصرتُ على الدعاء

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول : ظالم ولى المظالم ، فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال : الحمد لله الذى ولى علينا من يعرف حقوقنا ، فقيل له : كنت تذمه ثم الآن تمدحه ، فقال: حدثنى خيثمة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» (١) .

وقال عبد الملك بن مروان : ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : **الكتاب** : يدل على عقل كاتبه ، **والرسول** : يدل على عقل مرسله ، **والهدية** : تدل على عقل مهديها .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) موضوع : رواه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٢٨٧) والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٩٩ ، ٦٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢١) والخطيب في « تاريخه » (٧/ ٣٤٦) والبيهقي في « الشعب » (٨٩٨٣) وفي سنده إسماعيل بن أبان ، قال أحمد : روى أحاديث موضوعة عن فطر وغيره فتركناه . وقال أبو داود : كان كاذبًا .

الباب الخامس والخمسون

فى العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل : فقد روى عن النبىﷺ أنه قال : « أفضل العمل أدومه وإن قل » . وقال على ابن أبى طالب ـ كرم الله تعالى وجهه ـ : قليل مدام عليه خير من كثير مملول . وفى التوراة : حرك يدك أفتح لك باب الرزق . وكان إبراهيم بن أدهم[1] يسقى ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلى بالليل . وعن على ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : جاء رجل إلى النبىﷺ ، فقال : يا رسول الله ما ينفى عنى حجة العلم ؟ قال : العمل. وعنهﷺ أنه قال : « الكيس[2] من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى». وقال الأوزاعى : إذا أراد الله بقوم سوءًا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل . وأنشد يقول:

ومَا المرء إلا حيثُ يجعلُ نفسَه ... ففى صالح الأعمال نفسَك فاجْعَلِ

وقال بعض الحكماء : لا شىء أحسن من عقل زانه حلم ، ومن عمل زانه علم ، ومن حلم زانه صدق . ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له : عظنى . فقال له الولى : بلغنى ـ رحمك الله ـ أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى ، فانظر ماذا تعرض على رسول اللهﷺ من عملك ؟. فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه . وقيل : من جدَّ وجدَ ، وأنشدوا فى المعنى :

إنى رأيتُ وفى الأيام تجربةٌ ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جَدَّ فى أمر يحاولُه ... واستصْحَبَ الصبْرَ إلا فاز بالظفر[3]

وتقول العرب : فلان وثاب على الغرض وقال بعضهم :

وإنى إذا باشرتُ أمرًا أريدُه ... تدانتْ أقاصيه وهان أشدُّه

وعن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ : يتبع الميت ثلاث . يرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه

---

(١) إبراهيم بن أدهم : توفى سنة ١٦١ هـ ، أحد الزهاد المشهورين فى بلخ ، يعيش من شغل يديه . تنقل فى بغداد والشام والحجاز يعظ الناس بمثاله وكلامه ، أخذ كثيرا عن علماء هذه الأقطار ، وكان يلبس فى الشتاء فروًا لا قميص تحته ولا يتعمم فى الصيف ولا يحتذى ، يصوم فى السفر والإقامة ، وكان إذا حضر مجلس سفيان الثورى وهو يعظ أوجز سفيان فى كلامه مخافة أن يزل .

(٢) الكيس : العاقل اللبق الفطن.

(٣) الظفر : الفوز والنصر .

أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله ، وماله ، ولا يرجع عمله . وقال بعضهم : العمل : سعى الأركان إلى الله ، والنية : سعى القلوب إلى الله ، والقلب : ملك والأركان جنود ولا يحارب الملك إلا بالجنود ، ولا الجنود إلا بالملك . وقيل : الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم ، والعلم كله هباء إلا موضع العمل ، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ، هذا هو العمل.

وأما الكسب : فقد جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء : ٨٠] . أى دروع من الحديد ، وذلك أن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يدور فى الصحارى فإذا رأى من لا يعرفه تحدث معه فى أمر داود، فإذا سمعه عابه بشىء يصلحه من نفسه ، فسمع يومًا من يقول : إنى لا أجد فى داود عيبًا إلا أنه يأكل من غير كسبه ، فعند ذلك صلى داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى محرابه وتضرع بين يدى الله تعالى وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته ، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله فى يده كالشمع ، فاحترفها ، واستعان بها على أمره ، وسار يحكم منها الدروع. وقال رسول الله ﷺ : « جعل رزقى تحت ظل رمحى» فكانت حرفته الجهاد وقال رسول الله ﷺ : «إن الله يحب العبد المحترف » وقال ﷺ : « إن الله تعالى يبغض العبد الصحيح الفارغ » . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « من اكتسب قوته ولم يسأل الناس لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة . ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل رجلاً شيئًا وهو يجد قوت يومه ، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كدِّ يده إن الله تعالى يبغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة » . وعن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ ، عن النبى ﷺ : « من بات كالاً فى طلب الحلال أصبح مغفورًا له » . وعن الحسن ـ رحمه الله ـ : كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف . وقيل لمحمد بن مهران : إن ها هنا أقوامًا يقولون: نجلس فى بيوتنا وتأتينا أرزاقنا ، فقال : هؤلاء قوم حمقى إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلوا ، وقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة . وقال أيضًا : إنى لأرى الرجل فيعجبنى ، فأقول: أله حرفة ؟، فإن قالوا : لا ، سقط من عينى ، واشترى سليمان وسقًا(١) من طعام وهو ستون صاعًا . فقيل له فى ذلك فقال : إن النفس إذا أحرز رزقها اطمأنت ، قال بعضهم فى السعى :

خاطرْ بنفسك كى تصيبَ غنيمةً ... إن الجلوسَ مع العيال قبيحُ

وقيل : إن أول من صنع لسان الميزان عبد الله بن عامر ، وكان الناس إنما يزنون بالشاهينى.

(١) وسقًا : حملاً .

وعن أنس ـ رضى الله عنه قال ـ : غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله سعر لنا ، فقال : إن الله الخالق القابض المسعر الرازق ، وإنى لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحد يطلبنى بمظلمة ظلمته بها فى أهل ولا مال » .

وأما ما جاء فى العجز والتوانى (١):

فقد روى عن على بن أبى طالب ـ كرمً الله وجهه ـ أنه قال : من أطاع التوانى ضيع الحقوق، ومن العجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه .

قال الشاعر :

على المرء أن يسعى ويبذلَ جهدَه ... ويقضى إلهُ الخلقِ ما كان قاضيًا

ومثله قوله :

على المرء أن يسعى ويبذل نفعه ... وليس عليه أن يساعدَه الدهرُ

وقيل : احذر مجالسة العاجز ، فإنه من سكن إلى عاجز أعداه من عَجْزه ، وأمده من جزعه، وعوده قلة الصبر. ونسّاه ما فى العواقب ، وليس للعجز ضد إلا الحزم ، وقال بعض العلماء : منَ الخذلان مسامرة الأمانى ، ومن التوفيق بغض التوانى . وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « باكروا فى طلب الرزق والحوائج فإن الغدو بركة ونجاح » . وقال الإمام الشافعى ـ رضى الله تعالى عنه ـ : احرص على ما ينفعك ، ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة الناس ، وقال على ـ رضى الله تعالى عنه ـ : التوانى مفتاح البؤس ، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة ، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد . وقال حكيم : من دلائل العجز : كثرة الإحالة على المقادير . وقال بعض الحكماء : الحركة بركة والتوانى هلكة شؤم ، وكلب طائف خير من أسد رابض ، ومن لم يحترف لم يعتلف . وقيل: من العجز والتوانى تنتج الفاقة . قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتين من جملة أبيات :

كأن التوانى أنكَحَ العجزَ بنتَهُ ... وساقَ إليها حين زوَّجها مَهْرا
فراشًا وطيئًا ثم قال لها اتّكى ... فإنّكما لابد أن تَلِدَا الفقرا

وقال آخر :

توكَّل على الرحمن فى الأمر كُلِّه ... ولا ترغَبَنَّ فى العَجْزِ يومًا عن الطَّلبْ
ألم تر أن الله قال لمريم ... وهُزى إليك الجذع يساقطُ الرُّطَبْ
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ولكن كُلٌّ رزق له سَبَبٌ؟

(١) التوانى : ضعف وفتر وكسل . ولم يبادر إلى العمل .

وسأل معاوية ـ رضى الله تعالى عنه ـ سعيد بن العاص عن المروءة فقال : العفة والحرفة . وكان أيوب السختيانى يقول : يا فتيان احترفوا فإنى لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم ، يعنى الأمراء . وقال رجل للحسن : إنى أنشر مصحفى فأقرؤه بالنهار كله ، فقال اقرأه بالغداة والعشى ويكون يومك فى صنعتك وما لا بد منه . ومرّ ـ رحمه الله تعالى ـ بإسكاف ، فقال : يا هذا اعمل وكُلْ ، فإن الله يحب من يعمل ويأكل ولا يحب من يأكل ولا يعمل .

وقال أبو تمام :

أعاذلتِى ما أحسنَ الليلِ مركبًا ... وأحسن منه فى الملمات راكبه
ذرينى وأهوال الزمان أقَاسِها ... فأهواله العظمى تليها رغائبُه
أرى عاجزًا يَدْعُو جليدًا لقسمةٍ ... ولو كُلف التقوى لكلت مضاربُه(١)
وعفًّا يسمّى عاجزًا بعفافه ... ولولا التقوى ما أعجزتّه مذاهبه
وليس بعجز المرئ أخطأه الغنى ... ولا باحتيالٍ أدرك المالَ كاسبه

وقال آخر :

فلا تركنْ إلى كسلٍ وعجزٍ ... يحيلُ على المقادر والقضاء(٢)

وقال أعرابى : **العاجز** : هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأمانى المستحيلة . ويقال : فلان يخدعه الشيطان عن الحزم فيمثل له التوانى فى صورة التوكل ، ويريه الهوينا بإحالته على القدر .

وقال لقمان لابنه : يا بنى إياك والكسل والضجر ، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقًا وإذا ضجرت لم تصبر على حق . وقال أبو العتاهية :

إذا وضعَ الراعى على الأرض صدرَه ... فحقٌّ على المعزى أنْ تتبدّدا

فالتوانى : هو الكسل وتضييع الحزم وعدم القيام على مصالح النفس وترك التسبب والاحتراف والإحالة على المقادير وهذا من أقبح الأفعال .

وأما التأنى : فإنه خلاف التوانى ، وهو الرفق ورفض العجلة ، والنظر فى العواقب . وقد قيل : من نظر فى عواقب الأمور سلم من آفات الدهور . ومما جاء فى ذلك قوله تعالى : **﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾** [طه : ١١٤] . وقال رسول الله ﷺ : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من الدنيا والآخرة ». وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لعائشة :

---

(١) كلت : ضعفت وهانت .
(٢) تركن : تعتمد وتتكل .

« عليك بالرفق فإن الرفق لا يخالط شيئًا إلا زانه ، ولا يفارق شيئًا إلا شانه » . وفى التوراة : الرفق رأس الحكمة . وقالوا : العقل أصله التثبت وثمرته السلامة . ووجد على سيف مكتوبًا : التأنى فيما لا يخاف الفوت أفضل من العجلة فى إدراك الأمل . وقال بعض الحكماء : إذا شككت فاجزم ، وإذا استوضحت فاعزم . وقالوا : يد الرفق تجنى ثمرة السلامة ، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة ، وأنشدوا فى ذلك :

قد يدركُ المتأنى بعضَ حاجتِهِ وقد يكونُ مع المستعجل الزللُ

وقالوا : التأنِّى : حصن السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة . وقالوا : إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأنى : فبما يدرك ؟ . وقال المهلب : أناة فى عواقبها درك خير من عجلة فى عواقبها فوت . وقالوا : من تأنى نال ما تمنى . والرفق مفتاح النجاح . وقال بعض الحكماء : إياك والعجلة فإنها تُكَنَّى أم الندامة ، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويحمد قبل أن يجرب ، ولن تصحب هذه الصفة أحدًا إلا صحب الندامة وجانب السلامة .

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها :

فقد روى عن سهل بن سعد ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « عمل الأبرار من الرجال الخياطة ، وعمل الأبرار من النساء الغزل » . وكان ﷺ يخيط ثوبه ويخصف(١) نعله، ويحلب شاته ، ويعلف ناضحه(٢) . وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطًا . وقيل : كان إدريس ـ عليه السلام ـ خياطًا . ووقف على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ على خياط، فقال له : يا خياط نكلتك النواكل ، صلِّب الخيط ودقق الدروز ، وقارب الغروز ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه ، واحذر السقاطات ، فإن صاحب الثوب أحق بها ، ولا تتخذ بها الأيادى وتطلب المكافأة».

وقال فيلسوف : إن من القبيح أن يتولى امتحان الصناع من ليس بصانع . وفى الحديث : «أكذب أمتى الصواغون الصباغون وكذب الدلال مثلٌ » . وقالوا : لكل أحد رأس مال ورأس مال الدلال الكذب .

وقال عبد الرحمن بن شبل سمعت رسول الله ﷺ يقول : « التجار هم الفجار »، فقيل :

(١) يخصف : يصلح ويرقع.
(٢) ناضحة : أى ما ينضحه اللبن كالغنم والبقر وغيرها.

أليس الله تعالى قد أحل البيع ؟ قال: نعم . ولكن يحدثون فيكذبون ، ويحلفون فيحنثون » .

وقال الفضيل : بخس الموازين سواد فى الوجه يوم القيامة ، وإنما هلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا ، وعطلوا الحدود ، ونقصوا الكيل والميزان .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء : ١١١] . قيل : هم الحاكة والأساكفة . وقيل : إن حائكًا سأل إبراهيم الحربى ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطفًا (١) ما الذى يجب عليه ؟ فتبسم إبراهيم ، ثم قال : يتصدق بدرهمين ، فلما مضى قال : ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق . وقيل لرجل : هل فيكم حائك؟ قال: لا . قيل : فمن ينسج لكم ثيابكم ؟ قال : كل منا ينسج لنفسه فى بيته .

وكان أردشير بن بابك لا يرتضى لمنادمته ذا صناعة رديئة كحائك وحجام ، ولو كان يعلم الغيب مثلاً .

قال كعب: لا تستشيروا الحاكة ، فإن الله تعالى سلب عقولهم ونزع البركة من كسبهم ، لأن مريم ـ عليها السلام ـ مرت بجماعة من الحياكين ، فسألتهم عن الطريق فدلوها على غير الطريق، فقالت نزع الله البركة من كسبكم ، وقال أبو العتاهية :

ألا إنما التقوي هي العزُ والكرم وحبُّك للدنيا هو الذلُ والسقم
وليس على عبد تقي نقيصةٌ إذا صحح التقوي وإن حاك أو حجم

وهذا ما أردنا سياقه فى هذا الباب . والله الموفق للصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) ناطفًا : حليًا.

الباب السادس والخمسون

فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله ، والصبر على المكاره والتسلى عن نوائب الدهر

وفيه ثلاثة فصول :الفصل الأول : فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روى عن أنس بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : « ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذى قبله خير منه سمعت ذلك من نبيكم ﷺ » وكان معاوية ـ رضى الله تعالى عنه ـ يقول : معروف زماننا منكر ، زمان قد مضى ، ومنكره معروف زمان لم يأت . وكانت ناقة رسول الله ﷺ العصباء لا تسبق ، فجاء أعرابى فسبقها ، فشق ذلك على الصحابة ـ رضى الله تعالى عنهم ـ ، فقال ﷺ : « إن حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه » .

وحكى عن شيخ من همدان قال : بعثنى أهلى فى الجاهلية إلى ذى الكلاع الحميرى بهدايا، فمكثت شهرًا لا أصل إليه ، ثم بعد ذلك أشرف الشرافة من كوة ، فخر له من حول القصر سجدًا ، ثم رأيته من بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص واشترى بدرهم لحمًا ، وسمطه خلف دابته، وهو القائل هذه الأبيات :

أُفٌّ للدنيا إذا كانتْ كذا ... أنا منها في بلاء وأذي
إن صفا عيشُ امرئ في صَحْبِهَا ... جرَّعَتْه ممسيا كأس الردي
ولقد كُنْتُ إذا ما قيلَ : مَنْ ... أنعمُ العالم عَيْشًا ؟ قيل: ذا

وقال يونس بن ميسرة : لا يأتى علينا زمان إلا بكينا منه ، ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه. ومن قوله ذلك :

رُبَّ يومٍ بكيتُ منه فلما ... صِرْتُ في غيره بكيتُ عليه

ومثله :

وما مرَّ يوم أرْتجى فيه راحة ... فأخبُرَهُ إلا بكيت على أمسي

ومن كلام ابن الأعرابى (١) :

عن الأيام عدّ فعنّ قليل ... تري الأيام في صُورِ الليالى

(١) محمد بن زياد ، أبو عبد الله المعروف بابن الأعرابى . لغوى . نحوى . راوية . نَسَّابة . متكلم . كوفى المذهب من آثاره :« كتاب الأنواء » و « كتاب النوادر » و « كتاب الألفاظ » توفى سنة ٢٣١ هـ .

وقال ـ رضى الله عنه ـ: ما قال الناس لشىء طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء . قال الشاعر :

فما النّاسُ بالناس الذين عهدتُهُم ولا الدّار بالدَّار التي كنت أعهدُ

ودخل داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ غارًا ، فوجد فيه رجلاً ميتًا وعند رأسه لوح مكتوب فيه، أنا فلان ابن فلان الملك عشت ألف عام ، وبنيت ألف مدينة ، وافتضض ألف بكر ، وهزمت ألف جيش ، ثم صار أمرى إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم فى رغيف فلم يوجد ، ثم بعثت زنبيلاً من الجواهر فلم يوجد ، فدققت الجواهر إستفيتها (١) فمتُ مكانى ، فمن أصبح وله رغيف وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كما أماتنى .

وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولى خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق فى كل يوم ألف درهم على نفسه فإنه يكفيه ، فرؤى بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وانفقها .

وقال هيثم بن خالد الطويل : دخلت على صالح مولى منارة فى يوم شات وهو جالس فى قبة مغشاة بالسمور ، وجميع فروشها سمور وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود . ثم رأيته بعد ذلك فى رأس الجسر وهو يسأل الناس .

ولما قَتَلَ عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ، ونزل فى داره ، قعد على فرشه . دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عامر : إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ فى عظتك . وقال مالك بن دينار : مررت بقصر تضرب فيه الجوارى بالدفوف ويقلن :

ألا يا دارُ لا يدخُلُك حُزُنُ ولا يغْدُرْ بصاحبك الزَّمانُ
فنعم الدارُ تأوي كُلَّ ضَيَفِ إذا ما ضَاقَ بالضّيفِ المكانُ

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز ، فسألته عما كنت رأيت وسمعت ، فقالت: يا عبد الله إن الله يغير ولا يتغير ، والموت غالب كل مخلوق ، قد والله دخل بها الحزن ، وذهب بأهلها الزمان .

وقال أبو العتاهية :

لئن كنت في الدنيا بصيرًا فإنما بلاغُك منها مثلُ زاد المسافر
إذ أبقت الدنيا على المرء دينَهُ فما فَاتُه منها فليس بضائر (٢)

(١)واستفيتها : أى أكلها بعد أن طحنها من غير ماء .

(٢)ضائر : أى مضر .

وقال عبد الملك بن عمير : رأيت رأس الحسين ـ رضى الله عنه ـ بين يدى ابن زياد فى قصر الكوفة ، ثم رأيت رأس زياد بين يدى المختار ، ثم رأيت رأس المختار بين يدى مصعب ، ثم رأيت رأس مصعب بين يدى عبد الملك، قال سفيان ، فقلت له : كم كان بين أول الرؤوس وآخرها ؟ قال : اثنتا عشرة سنة .

إن للدهر صرعة فاحذرها ... لا تبيتن قد أمنت الشرورا
قد يبيت الفتى معافي فيردى ... ولقد كان آمنًا مسرورًا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر فى قصره على الدجلة ينظر ، فإذا هو بحشيش فى وسط الماء وفى وسطه قصبة على رأسها رقعة ، فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعرًا وهو للشافعى ـ رضى الله تعالى عنه ـ :

تاه الأعيرج واستعلى به البطر ... فقل له خير ما استعملته الحذر
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

قال : فما انتفع بنفسه مدة . **وأعجب ما وجد فى السِّيَرِ** : خبرُ القاهر أحد الخلفاء ، وقلعه من الملك ، وخروجه إلى الجامع فى بطانة جبة بغير طهارة ، ومد يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض ، فتبارك الله يعز من يشاء ويذل من يشاء .

وقيل : كان لمحمد المهلبى قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف ، فبينما هو فى بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول :

ألا موت يباع فأشتريه ... فهذا العيش ما لا خيرَ فيه
ألا رحِمَ المهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ ... تصدَّق بالوفاء على أخيه

قال : فرثى له رفيقه ، وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه ، وحفظ الأبيات وتفرقا . ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة ، وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذى كان رفيقه ، فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها :

ألا قل للوزير فدته نفسي ... مقال مذكرًا ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنك عيش ... ألا موت يباع فأشتريه

فلما قرأها تذكر ، فأمر له بسبعمائة درهم ووقع تحت رقعته : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة : ٢٦١] . ثم قلده عملاً يرتزق منه.

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال له : أى الزمان أدركته افضل؟، وأى الملوك أكمل؟ فقال : أما الملوك : فلم أر إلا حامدًا وذامًا ، وأما الزمان : فيرفع أقوامًا ويضع آخرين ، وكلهم يذكر أن يبلى جديدهم ويفرق عديدهم ، ويهرم صغيرهم ويهلك كبيرهم .. وقال حبيب بن أوس :

لم أبك مِنْ زمن لم أرضَ خلته إلا بكيتُ عليه حين ينصرم

وقال آخر :

يا مُعْرِضًا عنى بوجه مُدْبر ووجوه دنياه عليه مُقبلةْ
هل بعد حالك هذه من حالة أو غاية إلا انحطاط المنزل؟

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير :

ذهب الذين إذا رأونى مُقبلا بشّوا إلىّ ورحبُوا بالمقبل
وبقيتُ فى خلف كان حَديثَهُم وَلْغُ الكلاب تهارشَتْ فى المنزِلِ (١)

وقال آخر فى معناه :

يا منزلاً عبثَ الزمانُ بأهْلِهِ فأبادهم بتفرُّق لا يُجْمَعُ
أين الذين عهدتُهُم بك مرة كان الزمان بهم يضرُّ وينفعُ
أيام لا يغشي لذكرك مربَعٌ إلا وفيه للمكارم مرتَعُ
ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبَقي الذين حياتُهُم لا تَنفعُ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى (٢) :

وانى رأيت الدهر منذ صحبته محاسنه مقرونة ومعايبه
إذا سرني في أول الأمر لم أزل على حذر من أن تذم عواقبه

---

(١) ولغ الكلاب : أى تدنيس الآنية بأفواهها .

(٢) إسحاق بن إبراهيم الموصلى : أبو محمد بن النديم من أشهر ندماء الخلفاء ، تفرد بصناعة الغناء ، كان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ، راويًا للشعر ، حافظًا للأخبار ، فارسى الأصل ولد فى بغداد سنة ١٥٥ هـ ، وتوفى فيها سنة ٢٣٥ هـ . له تصانيف كثيرة منها : « أغانى معبد » ، « والاختيار من الأغانى » ، « والنوادر المتخيرة » .

وقال بعضهم :

ذهب الرجالُ المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر مُنْكر
وبقيتُ فى خَلَفٍ يزيِّن بَعْضُهُ بعضًا ليدفع مُعْورٌ عن مُعْوِرِ(١)
حلفَ الزمانُ ليأتيِّنَّ بمِثْلِهم حَنَثَتْ يمينك يا زمان فكفِّرِ(٢)

وكان يقال : إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتى الخير ، وكان يقال : بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال . ويقال : زمام العافية بيد البلاء ، ورأس السلامة تحت جناح العطب . وقال بعضهم : نحن فى زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارًا ، والشر إلا إقبالاً ، والشيطان فى هلاك الناس إلا طمعًا ، اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيرًا يكابد فقرًا ، أو غنيًا بدل نعمة الله كفرًا ، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفرًا ، أو متمردًا كان بسمعه عن سماع المواعظ وقرًا؟. وقال آخر : نحن فى زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب ، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب . ويؤيد ذلك قوله ﷺ : **« لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتنى مكانه »** .

ويقال : لا يقاوم عز الولاية بذل العزل .

ما من مسىء وإن طالت إساءته إلا ويكفيك يوم من مساويه

وقال الأمين :

يا نفس قد حُقَّ الحذرْ أين المفر من القدر؟
كل امرئٍ مما يخا ف ويرتجيه علي خطر
من يرتشف صفو الزما ن يغص يومًا بالكدر

وقال بعضهم :

وقائلة : ما بال وجهك قد نَضَتْ محاسنُهُ والجسْمُ بأنَ شُحوبُهُ
فقلت لها هاتي من الناس واحدًا صَفَا وقْتُه والنائبات تنُوبُهُ

وللأمير أبى على بن منقذ :

أما والذى لا يملك الأمْرَ غيره ومن هو بالسر المُكتَّم أعلَمُ
لئن كان كِتْمان المصائب مُؤلِمًا لإعلانُها عندى أشَدُّ وأعظمُ
وبي كل ما يُبكي العيون أقلّهُ وإن كُنْتُ منه دائمًا أتبسَّمُ

---

(١) المعور : القبيح من الرجال .
(٢) حنثت : أى لم تف بالقسم .

وقال علي بن أبي طالب ـ كرم الله تعالى وجهه ـ : وايم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها ، لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد ، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لردّ عليهم كل شارد ، وأصلح لهم كل فاسد . قال الشاعر :

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فَسَدَ الزمانَ

وكفي بالقرآن واعظًا . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثانى : فى الصبر على المكاره ومدح التثبت ، وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة ، وأمر به ، وجعل أكثر الخيرات مضافًا إلى الصبر، وأثنى على فاعله ، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه ، وحث على التثبت في الأشياء ، ومجانبة الاستعجال فيها ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] فبدأ بالصبر قبل الصلاة ، ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] . وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة : ٢٤]. وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

وبالجملة : فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز فى نيف وسبعين موضعًا وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة ، فمن ذلك قوله ﷺ : « النصر فى الصبر» . وقوله ـ ﷺ ـ: « بالصبر يتوقع الفرج » . وقوله : « الأناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان ، فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر فى مواطن طلباته ، والتثبت في حركاته وسكناته ، وكثيرًا ما أدرك الصابر مرامه أو كاد . وفات المستعجل غرضه أو كاد ».

وقال الأشعث بن قيس : دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهارًا ، فقلت يا أمير المؤمنين إلى كم تصبر

على مكابدة هذه الشدة ؟ فما زادني إلا أن قال :

اصبر على مضض الإدْلاجِ في السَّحَرِ وفي الرَّواح إلى الطَّاعات في البكرِ
إني رأيتُ وفي الأيام تجربةٌ للصَّبْر عاقبةٌ محمودةٌ الأثرِ
وقلَّ من جَدَّ في أمرٍ يؤمِّلُهُ واستصْحَبَ الصَّبْرُ إلا فازَ بالظَّفرِ

فحفظتها منه وألزمت نفسي الصبر في الأمور ، فوجدت بركة ذلك . وعن أبي سعيد الخدرى وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما يصيب المسلم من نصب [١] ولا وصب [٢] ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها ، إلا حط الله بها من خطاياه». وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أرا الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة » . وقال ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط » . رواه الترمذى ، وقال حديث حسن . وعن إسحاق ابن عبد الله بن أبى فروة ، عن أنس بن مالك قال : قال النبى ﷺ : « الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، وعظم الأجر على قدر المصيبة ، ومن استرجع بعد مصيبته [٣] جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها » .

وروى عن على بن أبى طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : احفظوا عنى خمسًا . اثنتين واثنتين وواحدة : لا يخافن أحدكم إلا ذنبه ، ولا يرجو إلا ربه ، ولا يستحى أحد منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول : لا أعلم ، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد ، وإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد ، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور ، وأيما رجل حبسه السلطان ظلمًا ، فمات فى حبسه مات شهيدًا فإن ضربه فمات ، فهو شهيد».

وروى فى الخبر لما نزل قوله تعالى : ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء : ١٢٣] .

قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يا رسول الله : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله ﷺ : « غفر الله لك يا أبا بكر ، أليس تمرض ؟، أليس يصيبك الأذى ؟، أليس تحزن؟ قال: بلى يا رسول الله . قال : فهذا ما تجزون به . يعنى جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك ، وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء .

وروى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة

---

(١) النصب : التعب والشقاء . (٢) الوصب : المرض .
(٣) استرجع : أى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل ـ لعنه الله ـ : أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفى محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم فأخذه وأتى به . فلما سجد ﷺ وضع بين كتفيه السلى والفرث (١) والدم ، فضحكوا ساعة ، وأنا قائم أنظر ، فقلت: لو كان لى منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ ، والنبى ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان ، فأخبر فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ، فجاءت فطرحته عن ظهره ، ثم أقبلت عليهم فسبتهم ، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم ؛ فقال : اللهم عليك بقريش ، ثلاث مرات ، فلما سمع القوم صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته فقال : اللهم عليك بأبى جهل ، وعتبة ، وشيبة ، وربيعة ، والوليد ، وأمية بن خلف ، فقال على ـ رضى الله عنه: والذى بعث محمدًا بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر .

وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثلاث من رزقهن فقد رزق خيرى الدنيا والآخرة : الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والدعاء فى الرخاء ».

وحكى : أن امرأة من بنى إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة ، فسرقها سارق ، فصبرت وردت أمرها إلى الله ، ولم تدع عليه ، فلما ذبحها السارق ، ونتف ريشها نبت جميعه فى وجهه ، فسعى فى إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبرًا من أحبار بنى إسرائيل ، فشكا له ، فقال : لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة ، فأرسل إليها من قال لها : أين دجاجتك ؟ فقالت : سرقت ، فقال : لقد آذاك من سرقها . قالت : قد فعل ، ولم تدع عليه. قال : وقد فجعك فى بيضها . قالت : هو كذلك ، فما زال بها حتى أثار الغضب منها، فدعت عليه ، فتساقط الريش من وجهه ، فقيل لذلك الحبر : من أين علمت ذلك ؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتصر الله لها ، فلما انتصرت لنفسها ، ودعت عليه سقط الريش من وجهه .

فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ، ويحمد الله ، ويعلم أن النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسرًا ، وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج . والفرح عاجلاً .

ومن أحسن ما قيل فى ذلك من المنظوم :

وإذا مسَّك الزمانُ بضرٍ عظمتْ دونه الخطوبُ وجلَّت
وأنت بعده نوائبُ أخري سَئِمَتْ نفسُك الحياةَ وملَّت
فاصطبرْ وانتظرْ بلوغَ الأمانى فالرزايا إذا توالتْ تولَّت
وإذا أوهنتْ قواك وجلَّت كُشِفَتْ عنك جُمْلَةً وتخلَّت

(١) السلى : جلدة يكون ضمنها الولد في بطن أمه . والفرث : بقايا الطعام في الكرش .

ولمحمد بن بشر الخارجى (١) :

إن الأمورَ إذا استدت مسالكها فالصبرُ يفتحُ منها كلَّ ما رتجا (٢)
لا تَيَأَسَنَّ وإنْ طالتْ مطالبُه إذا استعنتَ بصبر أن ترى فرجًا

ولزهير بن أبى سلمى :

ثلاثٌ يعزُّ الصبرُ عند حُلولها ويذهلُ عنها عقلُ كلِّ لبيب
خروجُ اضطرارٍ من بلاد يُحبُّها وفُرقةُ إخوانٍ وفقدُ حبيب

وقال بعضهم :

عليك بإظهار التجلد للعدا ولا تُظهرنْ منك الذبولَ فتُحْقرا
أما تنظرُ الريحان يُشْمُمُ ناضرًا ويطرحُ فى البيدا إذا ما تغيرا

ولابن نباتة :

صبرًا على نوب الزما ن وإن أبى القلبُ الجريح
فلكل شىء آخر إما جميل أو قبيح

وقال أبو الأسود وأجاد :

وإن امرؤ قد جرب الدهرَ لم يخف تقلبَ عصريه لغيرُ لبيب
وما الدهرُ والأيام إلا كما ترى رزيه مال أو فراقُ حبيب

ومن كلام الحكماء : ما جوهد الهوى بمثل الرأى ، ولا استنبط الرأى بمثل المشورة ، ولا حفظت النعم بمثل المواساة ، ولا اكتسب البغضاء بمثل الكبر ، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر.

وقال نهشل (٣) :

ويوم كأن المصطلين بحرّه وإن لم يكن نارًا قيامٌ على الجمر
صبرنا له صبرًا جميلاً وإنما تفرّجُ أبواب الكريهة بالصبر

---

(١) أبو سليمان . شاعر حجازى فصيح . من شعراء الدولة الأموية . له ديوان شعر .

(٢) رتج : أقفل .

(٣) نهشل : هو نهشل بن حرى بن حمزة الدارمى : شاعر مخضرم أدرك الجاهلية وعاش فى الإسلام ، أسلم ولم ير النبى ، صحب عليًا فى حروبه ، وبقى إلى أيام معاوية . قال الجمحى : « نهشل شريف مشهور». توفى نحو ٤٥ هـ .

قال ابن طاهر :

حذرتنى وذا الحذر ليس يغنى من القدر
ليس مَنْ يكتمُ الهوى مثل مَنْ باح واشتهر
إنما يُعرفُ الهوى من على مره صبر
نفسُ يا نفسُ فاصبرى فاز بالصبر مَنْ صبر

وكان يقال : من تبصَّر تصبّر . وكان يقال : إن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر . وكان يقال : لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر . ولله دَرُّ القائل :

الدهرُ أدَّبنى والصبرُ ربانى والفوتُ أقنعنى واليأسُ أغنانى
وحنَّكتنى من الأيام تجربةٌ حتى نهيتُ الذى قد كان ينهانى

وما أحسن ما قال محمود الوراق :

إنى رأيتُ الصبرَ خيرُ مُعْوَلِ فى النائبات لِمَنْ أراد معْولا(١)
ورأيتُ أسباب القناعةِ أُكّدث بعرى الغنى فجعلتها لى مَعْقلا
فإذا نبا بي منزل جَاورتُه وجَعَلْتُ منه غيره لى منزلاً
وإذا غلا شيء علىَّ تَركتُه فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم :

إذا ما أتاك الدهرُ يومًا بِنكبَة فَأَفرِغْ لها صبرًا ووسِّع لها صدرا(٢)
فإن تصاريفَ الزمان عجيبة فيومًا ترى يسرًا ويومًا ترى عسرا

وقال بعضهم :

وما مسنى عُسرٌ ففوضتُ أمره إلى الملك الجبّار إلاّتيسرا

وما أحسن ما قيل :

الدهرُ لا يبقى على حاله لابُد أن يُقْبِلَ أو يُدْبِر
فإنَ تلقاك بمكروهَةٍ فاصبِرْ فإنَّ الدهرَ لايَصْبِر

ونقل عن محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ قال : كنت معتقلاً بالكوفة ، فخرجت يومًا من

(١) المعول : المعين .
(٢) افرغ : أى اجعل لها مكانًا .

السجن مع بعض الرجال ، وقد زاد همى ، وكادت نفسى أن تزهق ، وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت ، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل علىَّ ورأى ما أنا فيه من الكآبة . فقال : ما حالك؟ فأخبرته القصة ، فقال : الصبر الصبر ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « الصبر ستر للكروب وعون على الخطوب » . وروى عن ابن عمه على ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : الصبر مطية لا تدبر ، وسيف لا يكل ، وأنا أقول :

ما أحسن الصبر فى الدنيا وأجْمَلَهُ ... عند الإله وأنجاه من الجَزَعِ
من شد بالصَّبْرِ كفا عند مؤلمةٍ ... الوَتْ يداهُ بحبلٍ غَيْرِ مُنْقَطِعِ

فقلت: بالله عليك زدنى ، فقد وجدت بك راحة . فقال : ما يحضرنى شىء عن النبى ﷺ ولكنى أقول:

أما والذى لا يعلمُ الغيبَ غيرُه ... ومَنْ لي فى كلِّ الأمور له كُفُوُ
لئنْ كان بـدءُ الصبر مُرًّا مَذاقُه ... لقد يجتنى من بعده الثمرُ الحلوُ

ثم ذهب ، فسألت عنه ، فما وجدت أحدًا يعرفه ، ولا رآه أحد قبل ذلك فى الكوفة ، ثم أخرجت فى ذلك اليوم من السجن ، وقد حصل لى سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به . ووقع فى نفسى أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى كى يوقظنى ويؤدبنى ويسلينى .

وقيل : إن رجلاً كان يضرب بالسياط ويجلد جلدًا بليغًا ، ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوه ، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له : أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى ، قال : لمَ لا تصيح ؟ فقال : إن فى هذا القوم الذين وقفوا علىَّ صديقًا لى يعتقد فىَّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبنى بعينه ، فأخشى إن ضجيت يذهب ماء وجهى عنده ويسوء ظنه بى ، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك . قال الشاعر :

على قدر فضلِ المرء تأتى خطوبهُ ... ويُحْمَدُ منه الصَّبر مما يُصيبُهُ
فمنْ قلّ فيما يلتقيه اصطبارُهُ ... لقد قلّ فيما يَرْتَجيه نَصيبُهُ

وقال رسول الله ﷺ لعائشة ـ رضى الله عنها ـ : «يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر ، ولم يكلفنى إلا ما كلفوا به ، فقال عز وجل : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥]. وإنى والله لأصبرن كما صبروا ». فإن النبى ﷺ لما صبر كما أمر أسفر وجه صبره عن ظفره ونصره ، وكذلك الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ الذين هم أولو العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا ، وقد اختلف أهل العلم فيهم على

أقوال كثيرة ، فقال مقاتل ـ رضى الله تعالى عنه ـ: هم : نوح ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب، ويونس ، وأيوب ـ صلوات الله عليهم ـ ، وقال قتادة: هم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ـ عليهم الصلاة والسلام ـ . ويقال : ما الذى صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولى العزم ؟ فأقول ذكر ما صبروا عليه .

أما نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: فقد قال ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ:كان نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُضرب ثم يُلف فى لبد ويُلقى فى بيته يرون أنه قد مات ، ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى ، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه ، فقال لابنه : يا بنى انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرك ، فقال له ابنه: يا أبت مكّنى من العصا ، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فشج بها رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فقال : رب قد ترى ما يفعل بى عبادك ، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم ، وإلا فصبرنى إلى أن تحكم ، فأوحى الله تعالى إليه : ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [هود : ٣٦ ، ٣٧] . قال : يارب ، وما الفلك ؟ قال: بيت من خشب يجرى على وجه الماء أنجى فيه أهل طاعتى ، وأغرق أهل معصيتى ، قال : يارب ، وأين الماء ؟ قال : أنا على كل شىء قدير ، قال : يارب ، وأين الخشب ؟، قال : اغرس الخشب ، فغرس الساج (١) عشرين سنة. وكف عن دعائهم ، وكفوا عن ضربه ، إلا أنهم كانوا يستهزئون به ، فلما أدرك الشجر ، أمره ربه ، فقطعها وجففها، وقال: يارب كيف أتخذ هذا البيت ؟ قال : اجعله على ثلاث صور ، وبعث الله له جبريل فعلمه ، وأوحى الله تعالى إليه أن عجل بعمل السفينة ، فقد اشتد غضبى على من عصانى ، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نــوح ونجاته، وإهلاك قومه ، وعذابهم إلا من آمن معه . وفار التنور ، وظهر الماء على وجه الأرض ، وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب ، حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال ، وعلا فوق أعلى جبل فى الأرض أربعين ذراعًا ، وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وفى تمام قصته وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه ، فهذا زبدة صبر نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وانتصاره على قومه.

وأما إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: فإنه لما كسر أصنام قومه التى كانوا يعبدونها ، لم يروا فى قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه ، فآذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حائزًا كالحوش طول جداره ستون ذراعًا فى سفح جبل عال ونادى مناد ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ومن تخلف عن

(١) الساج : شجر عظيم طويل عريض صلب الخشب أسوده .

الاحتطاب أحرقه ، فلم يتخلف منهم أحد ، وفعلوا ذلك أربعين يومًا ليلاً ونهارًا حتى كاد الحطب يساوى رؤوس الجبال ، وسدوا أبواب ذلك الحائز ، وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها ، ثم بنَوا بنيانًا شامخًا ، وبنوا فوقه منجنيقًا، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان ، فرفع إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقيل: كان عمره يومئذ ست وعشرين سنة ، فنزل إليه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقال: يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال: أما إليك فلا ، فقال جبريل : سل ربك ، فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى. فقال الله تعالى : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٩]. فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ، فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذبًا ، قال كعب : ما أحرقت النار غير كتافه ، وأقام فى ذلك الموضع سبعة أيام ، وقيل : أكثر من ذلك، ونجاه الله تعالى، ثم أهلك نمرود وقومه بأخس الأشياء، وانتقم منهم وظفر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهم .

فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى ، ولم يجزع منها وصبر ، وفوض أمره إلى الله تعالى فى ذلك ، وتوكل عليه ووثق به . ثم جاءته قصة ذبح ولده ، وأمره الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامتثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إمهال ، وقصته مشهورة ، وتفاصيل القصة فى كتب التفسير مسطورة ، فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولاه وصبره على ما قدره وقضاه عوضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه ، واتخذه خليلاً من بين خلقه واجتباه ، وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه صبر على بلية الذبح .

وتلخيصها : أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذبح ولده قال : إنى أريد أن أقرب قربانًا، فأخذ ولده والسكين والحبل ، وانطلق ، فلما دخل بين الجبال قال ابنه : أين قربانك يا أبت ؟ قال : إن الله تعالى قد أمرنى بذبحك ، فانظر ماذا ترى : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، يا أبت اشدد وثاقى كى لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أمى فيشتد حزنها وأسرع إمرار السكين على حلقى ليكون أهون للموت علىَّ وإذا لقيت أمى ، فاقرأ السلام عليها ، فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويبكى ويقول : نعمَ العون أنت يابنى على ما أمر الله تعالى .

قال مجاهد : لما أمر السكين على حلقه انقلبت السكين ، فقال يا أبت : اطعن بها طعنًا . وقال السدى : جعل الله حلقه كصفيحة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئًا ، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودى أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك ، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح ، فأخذه

وأطلق ولده وذبح الكبش ، فلا جرم أن جعل الذبيح نبيًا بصبره وامتثاله لأمره .

وأما يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ : فإنه لما ابتلى بفراق ولده وذهاب بصره واشتداد حزنه قال : ﴿ **فصبر جميل** ﴾ . وكذلك يوسف ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ لما ابتلاه الله تعالى بإلقائه فى ظلمة الجب ، وبيعه كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه ، وإدخاله السجن ، وحبسه فيه بضع سنين ، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله ، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما، واتساع القدرة بالملك فى الدنيا مع ملك النبوة فى الآخرة .

وأما أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ: فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله ، وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله . ولنذكر شيئًا مختصرًا من ذلك وهو أن ملكًا من ملوك بنى إسرائيل كان يظلم الناس ، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم وسكت عنه أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فلم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له فى مملكته ، فأوحى الله تعالى إلى أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك ، لأطيلن بلاءك ، فقال إبليس لعنه الله : يارب سلطنى على أولاده وماله ، فسلطه ، فبث إبليس مردته من الشياطين ، فبعث بعضهم إلى دوابه ، ورعاتها ، فاحتملوها جميعا وقذفوها فى البحر ، وبعث بعضهم إلى زرعه وجناته فأحرقوها ، وبعث بعضهم إلى منازله وفيها أولاده ؛ وكانوا ثلاثة عشر ولدًا وخدمه وأهله ، فزلزلوها فهلكوا ، ثم جاء إبليس إلى أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهو يصلى ، فتمثل له فى صورة رجل من غلمانه . فقال : يا أيوب أنت تصلى ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة ، وقذفت الجميع فى البحر ، وأحرقت زرعك ، وهدمت منازلك على أولادك وأهلك ، فهلك الجميع ، ما هذه الصلاة ؟ فالتفت إليه وقال : الحمد لله الذى أعطانى ذلك كله ، ثم قبله منى . ثم قام إلى صلاته ، فرجع إبليس ثانيًا، فقال : يارب سلطنى على جسده ، فسلطه ، فنفخ فى إبهام رجله فانتفخ ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقى أمعاؤه تبين وهو مع ذلك كله صابر محتسب مفوض أمره إلى الله تعالى ، وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجًا عن البيوت من نتن ريحه ، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه متفقدة ، فجاءها إبليس يومًا فى صورة شيخ ومعه سخلة (١)وقال لها : ليذبح أيوب هذه السخلة على اسمى فيبرأ ، فجاءته، فأخبرته، فقال لها : إن شفانى الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة . تأمرينى أن أذبح لغير الله تعالى ، فطردها عنه ، فذهبت وبقى . ليس له من يقوم به ، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا

(١)السخلة : ولد الضأن والمعزى .

أحد من الناس يتفقده . خرَّ ساجدًا لله تعالى . وقال ربّ : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طول هذه المدة وهى على ما قيل ثمانى عشرة سنة ، وقيل غير ذلك ، وأنه تلقى جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق ما نزل به . عاد الله تعالى بألطافه عليه ، فقال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] وأفاض عليه من نعمه ما أنساه بلوى نقمه ، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه فى يمينه تحله قسمة ، ومدحه فى نص الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوى الحزم وسماهم بسبب صبرهم أولى العزم ، وفتح لهم بصبرهم أبواب مرادهم وسؤالهم ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم ، فما أسعد من اهتدى بهداهم واقتدى بهم، وإن قصر عن مداهم . وقيل : العسر يعقبه اليسر ، والشدة يعقبها الرخاء ، والتعب يعقبه الراحة ، والضيق يعقبه السعة ، والصبر يعقبه الفرج ، وعند تناهى الشدة تنزل الرحمة ، والموفق من رزقه صبرًا وأجرًا ، والشقى من ساق القدر إليه جزعًا ووزرًا (١) .

ومما شنف السمع من لمح هذه الإشارة ، وأتحف النفع فى نهج هذه العبارة ، ما روى عن الحسن البصرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : كنت بواسط ، فرأيت رجلاً كأنه قد نبش من قبر ، فقلت : ما دهاك يا هذا ؟ فقال : اكتم على أمرى ، حبسنى الحجاج منذ ثلاث سنين، فكنت فى أضيق حال ، وأسوأ عيش ، وأقبح مكان ، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معى ، فضربت رقابهم ، وتحدث بعض أعوان السجن أن غدًا تضرب عنقى فأخذنى حزن شديد وبكاء مفرط ، وأجرى الله تعالى على لسانى فقلت : إلهى اشتد الضر ، وفقد الصبر ، وأنت المستعان ، ثم ذهب من الليل أكثره ، فأخذتنى غشية ، وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتانى آت فقال لى: قُم فصل ركعتين وقل :(يا من لا يشغله شيء عن شيء ، يا من أحاط علمه بما ذرأ وبرأ وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصى وساوس الصدور ، وأنت بالمنزل الأعلى ، وعلمك محيط بالمنزل الأدنى ، تعاليت علوًا كبيرًا ، يا مغيث أغثنى ، وفك أسرى ، واكشف ضرى ، فقد نفد صبرى) ، فقمت وتوضأت فى الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه ، ولم تختلف علىَّ منه كلمة واحدة ، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلى ، ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت ، فقمت ، فخرجت ولم يعارضنى أحد ،

(١) وزرًا : ذنبًا وإثمًا .

فأنا والله طليق الرحمن، وأعقبنى الله بصبرى فرجًا ، وجعل لى من ذلك الضيق مخرجًا ، ثم ودعنى وانصرف يقصد الحجاز .

وفيما يروى عن الله تعالى : أنه أوحى إلى داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، يا داود من صبر علينا وصل إلينا ، وقال بعض الرواة : دخلت مدينة يقال لها : دقار ، فبينما أنا أطوف فى خرابها إذا رأيت مكتوبًا بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات :

يا مَنْ ألح عليه الهمُّ والفكرُ ... وغيَّرتْ حَالَه الأيامُ والغِيَرُ(١)
أما سمعتَ لما قِيلَ فى مَثَلٍ ... عند الأياس فأين الله والقدرُ؟
ثم الخطوبُ إذا أحداثها طرقتْ ... فاصبر فقد فاز أقوامٌ بما صبروا(٢)
وكُلُّ ضيق سيأتى بعده سعةٌ ... وكل فوتٍ وشيكٌ بعده الظفرُ

ولما حُبس أبو أيوب فى السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته ، وقل صبره ، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره ، فرد عليه جواب رقعته يقول :

صبرًا أبا أيوب صبرَ مُبرِّحٍ ... وإذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إن الذى عقد الذى انعقدت به ... عقد المكاره فيك يملك حلّها
صبرًا فإن الصبرَ يعقبُ راحةً ... ولعلها أن تنجلى ولعلها

فأجاب أبو أيوب يقول :

صبرْتَنى ووعَظْتَنى وأنا لَهَا ... وستنْجَلى بل لا أقولُ لعلها
ويحلُها من كان صاحِبَ عقْدِها ... كَرَمًا به إذْ كان يْملِكُ حَلَّها

فما لبث بعد ذلك أيامًا حتى أطلق مكرمًا :

وأنشدوا :

إذا ابتليتَ فثق باللّه وارض به ... إن الذى يكشفُ البَلْوى هو اللهُ
اليأسُ يقْطَع احيانًا بصاحبه ... لا تيأسن فإنَّ الصانع اللهُ
إذا قضى الله فاستسلِم لِقُدْرَتِهِ ... فما ترى حيلةً فيما قضى اللهُ

---

(١) الغير : صروف الزمان وأحداثه .
(٢) طرقت : حلت وتزلت .

الفصل الثالث : من هذا الباب : فى التأسى فى الشدة والتسلى عن نوائب الدهر

قال الثورى ـ رحمة الله تعالى ـ: لم يفقه عندنا من لم يعد البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة .

وقيل : الهموم التى تعرض للقلوب كفارات للذنوب . وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر : لا أراك الله مكروهًا ، فقال: كأنك دعوت عليه بالموت ، فإن صاحب الدنيا لابد أن يرى مكروهًا. وتقول العرب : ويلٌ أهون من ويلين : وقال ابن عيينة : الدنيا كلها غموم ، فما كان فيها من سرور فهو ربح . وقال العتبى : إذا تناهى الغم انقطع الدمع بدليل أنك لا ترى مضروبًا بالسياط ولا مقدمًا لضرب العنق يبكى .

وقيل : تزوج مغن بنائحة فسمعها تقول : اللهم أوْسِعْ لنا فى الرزق ، فقال لها : يا هذه إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفى ذلك ، فإن كان فرح دعونى ، وإن كان حزن دعوك .

وقال وهب بن منبه : إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء .

وقال مطرف : ما نزل بى مكروه قط فاستعظمه إلا ذكرت ذنوبى فاستصغرته . وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله تعالى عنه ـ يرفعه : « يود أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء » وروى أبو عتبة عن النبى ﷺ قال : « إذا أحب الله عبدًا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قالوا : وما اقتناه ؟ قال : لا يترك له مالا ولا ولدًا » . ومر موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ برجل كان يعرفه مطيعًا لله عز وجل قد مزقت السباع لحمه وأضلاعه وكبده ملقاة على الأرض ، فوقف متعجبًا ، فقال : أى رب عبدك ابتليته بما أرى ؟، فأوحى الله تعالى إليه إنه سألنى درجة لم يبلغها بعمله ، فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة.

وكان عروة بن الزبير صبورًا حين ابتلى ، حكى : أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطئ عظمًا، فما بلغ دمشق حتى بلغ به كل مذهب ، فجمع الوليد الأطباء ، فأجمع رأيهم على قطع رجله ، فقالوا له : اشرب مرقدًا ، فقال : ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى ، فأحمى له المنشار ، وقطعت رجله ، فقال : ضعوها بين يدى ولم يتوجع ، ثم قال : لئن كنت ابتليت فى عضو فقد عوفيت فى أعضاء . فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد ، فسقط بينها فمات . فقال : الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحدًا لقد أبقيت جماعة .

وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير ، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى وعيالى ، ولا أعلم عبسيًا يزيد ماله على مالى ، فعرسنا فى بطن واد ، فطرقنا سيل ، فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبى صغير وبعير ، فشرد البعير ، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير ، فسمعت صيحة الصبى ، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب فى بطنه وهو يأكل فيه ، فرجعت إلى البعير، فحطم وجهى برجليه، فذهبت عيناى ، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل ، فقال الوليد: اذهبوا إلى عروة ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه . وقيل : الحوادث الممضة(١) مكسبة لحظوظ جليلة ، إما ثواب مدخر أو تطهير من ذنب أو تنبيه من غفلة أو تعريف لقدر النعمة .
قال البحترى : يسلى محمد بن يوسف على حبسه :

وما هذه الأيامُ إلاَّ منازلُ ... فمِن منزلٍ رحبٍ إلى ضَنْكِ
وقد دهمتْكَ الحادثاتُ وإنما ... صفا الذهب الإبريز قبلك بالسّبك
أما فى نبى الله يوسفَ أسوةٌ ... لمثلك محبوسٌ عن الظلم والإفك(٢)
أقام جميلَ الصبر فى السجن برهةً ... فآلَ به الصبرُ الجميلُ إلى الملكِ

وقال على بن الجهم لما حبسه المتوكل :

قالوا : حبِستَ فقلت: ليس بضائرى ... حبسى وأى مهندٍ لا يغمد
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ ... عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والنار فى أحجارها مخبوءةٌ ... لا تصطلى إن لم تثرها الأزند
والحبسُ ما لم تغشَه لدنيّةٍ ... شنعاءَ نعم المنزلُ المتودّد
بيتٌ يُجدِّدُ للكريم كرامة ... ويزُارُ فيه ولا يزورُ ويحمدُ
لو لم يكنْ فى الحَبْس إلاَّ أنّه ... لا تستذلك بالحجاب الأعبدُ
غُرٌ الليالى باديات عُوَّدٌ ... والمالُ عاريةٌ يعُار وينْفَدُ
ولِكُلّ حىٍّ معقب ولربما ... أجلى لك المكرُوه عمّا يحمدُ
لا يؤيسنك من تفرج نكبة ... خطبٌ رماك به الزمانُ الأنكدُ
كم من عليلٍ قد تخطاه الردى ... فنجا ومات طبيبُه والعودّ(٣)
صبرًا فإن اليوم يعقبه غدٌ ... ويد الخلافة لا تطاولها يدُ

---
(١) الممضة : المؤلمة .
(٢) الإفك : الإثم والخطيئة .
(٣) العود : الزوار .

قال وأنشد إسحاق الموصلى فى إبراهيم المهدى حين حبس :

هى المقاديرُ تجرى فى أعنَّتها فاصبرْ فليس لها صبرٌ على حال(١)
يومًا تريُك خسيسَ الأصلِ ترفَعُه إلى العلاء ويومًا تخفض العالى

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون ـ رضى الله عنه ـ .

وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب فى إبراهيم ابن المدنى حين عزل :

لِيَهْنَ أبا إسحاق أسبابُ نعمةٍ مجددة بالعزل والعزلُ أنبلُ
شهدتُ لقد منوا عليك وأحسنوا لأنك يوم العزل أعلى وأفضلُ

وقال آخر :

قد زاد ملكُ سليمان فعاوَدَهُ والشمسُ تنحطُّ فى المجرى وترتفعُ

وقال أبو بكر الخوارزمى لمعزول : الحمد لله الذى ابتلى فى الصغير وهو المال ، وعافى فى الكبير وهو الحال:

ولا عارَ إنْ زالت عن الحرِّ نعمةٌ ولكنّ عارًا أنْ يزول التجمّل(٢)

وقيل : المال حظ ينقص ثم يزيد ، وظل ينحسر ثم يعود . وسئل بزرجمهر عن حاله فى نكبته ؟ فقال : عولت على أربعة أشياء : **أولها** : أنى قلت القضاء والقدر لابد من جريانهما ، **والثانى** : أنى قلت إن لم أصبر فما أصنع ؟، **الثالث** : أنى قلت : قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا ، **الرابع** : أنى قلت : لعل الفرج قريب .

والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) أعنتها : أى فى خيرها وشرها . والعنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة .
(٢) التجمل : الصبر .

الباب السابع والخمسون

ما جاء فى اليسر بعد العسر ، والفرج بعد الشدة ، والفرح والسرور ، ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فمما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل قوله تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق : ٧] . وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨] . وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف : ١١٠] . ويروى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : « لو كان العسر فى حجر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه » . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « عند تناهى الشدة يكون الفرج ، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء » . وقال على ـ رضى الله عنه ـ ، عن النبى : « أفضل عبادة أمتى انتظارها فرج الله تعالى» . وقال الحسن : لما نزل قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] ، قال النبى ﷺ : « أبشروا فلن يغلب عسر يسرين » .

ومن كلام الحكماء : إن تيقنت لم يبق هَمٌّ . وقال أبو حاتم :

إذا اشْتملتْ على البؤس القلوبُ ... وضاقَ بما به الصدرُ الرحيبُ
وأوطَنَتِ المكارِه واطمأنَّتْ ... وأرستْ فى مكانها الخطوبُ
ولم نر لانكشاف الضرِّ وجهًا ... ولا أغنى بحيلته الأريبُ (١)
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ ... يَمُنُّ به اللطيفُ المستجيبُ (٢)

وقال آخر :

عسى الهمُّ الذى أمسيتُ فيه ... يكونُ وراءه فرجٌ قريبُ
فيأمنُ خائف ويُغاثُ عانٍ ... ويأتى أهله النائى الغريبُ(٣)

وقال آخر :

تصبرْ أيها العبدُ اللبيبُ ... لعلك بعد صبرك ما تخيبُ
وكُلُّ الحادثاتِ إذا تناهتْ ... يكونُ وراءها فَرجٌ قريبُ

---

(١) الأريب : الفطن الذكى .

(٢) القنوط : اليأس .

(٣) عانٍ : مقاس للمتاعب والأمراض . النائى : البعيد عن وطنه .

وقال إبراهيم بن العباس :

ولرُبَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرجُ (١)
ضاقتْ فلماَ استحكمتْ حلَقاتُها ... فُرِجَتْ وكان يَظنُّها لا تُفْرَجُ

وقال آخر :

لئن صَدَعَ البَيْنُ المشتتُ شَمْلَنَا ... فللبينِ حُكْمٌ فى الجُمُوع صَدُوعُ(٢)
وللنجم من بعد الرجوع استقامةٌ ... وللشَّمْسِ من بَعْدِ الغروب طُلُوعُ
وإنْ نعمةٌ زالت عن الحرِّ وانقضت ... فإنَّ بها بعد الزوال رجوعُ
فكنْ واثقًا بالله واصبرْ لحكمه ... فإنَّ زوالَ الشر عنك سريعُ

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة :

روى : أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة ، أن أخرج الحسن بن الحسن بن على من السجن ، وكان محبوسًا واضْرِبْهُ فى مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط ، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه ، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء على بن الحسين ـ عليه السلام ـ، فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن ، فقال : يابن العم مالك ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك، قال : ما هو يا ابن العم ؟ فقال : « لا إله إلا اللّه الحليم الكريم لا إله إلا الله العلى العظيم ، سبحان رب السموات ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين »، ثم انصرف عنه، وأقبل الحسن يكررها فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال : أراه فى سجنه مظلومًا أخرجوه وأنا أراجع أمير المؤمنين فى أمره ، فأطلق بعد أيام وأتاه الفرج من عند الله تعالى .

وقال الربيع لما حبسَ المهديُ موسىِ بنِ جعفرٍ ، رأى فى المنام عليًا ـ رضي اللّه تعالى عنه ـ وهو يقول : يا محمد : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد : ٢٢] ، قال الربيع ، فأرسل المهدى إلىَّ ليلاً فراعنى ذلك ، فجئته ، فإذا هو يقرأ هذه الآية ، وكان حسن الصوت، فقص علىَّ الرؤيا ثم قال : ائتنى بموسى بن جعفر ، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه ، وقال : يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ علىَّ كذا فعاهدنى أن لا تخرج علىَّ ولا على أحد من ولدى ، فقال : والله ماذاك من شأنى ، فقال : صدقت ، ثم قال: يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورده إلى أهله بالمدينة ، قال الربيع : فأحكمت أمره ليلاً،

(١) ذرعًا : مكانًا وصبرًا ، وذرع البيت أى مشى فيه من ناحية إلى ناحية من الهم وغيره .
(٢) صدَّع : فرق . صَدُوع : الشق فى الشيء الصلب أى قدرته على التفريق والشتات .

فما أصبح إلا على الطريق ، وقال إسماعيل بن بشار :

وكلُّ حرٍّ وإن طالتْ بليته يومًا تُفرّجُ غماه وتنكشفُ

وقال مسلم بن الوليد : كنت يومًا جالسًا عند خياط بإزاء منزلى فمر بى إنسان أعرفه ، فقمت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلى لأضيفه وليس معى درهم بل كان عندى زوج أخفاف ، فأرسلتها مع جاريتى لبعض معارفها ، فباعهما بتسعة دراهم واشترت بها ما قلته لها من الخبز واللحم ، فجلسنا نأكل ، وإذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان ؟ ففتحت الباب وخرجت ، فقال : أنت مسلم بن الوليد ، قلت : نعم ، واستشهدت له بالخياط على ذلك فأخرج لى كتابا ، وقال : هذا من الأمير يزيد بن مزيد ، فإذا فيه : قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون فى منزلك ، وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا ، فأدخلته إلى دارى وزدت فى الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا فأكلنا ، ثم وهبت لضيفى شيئًا يشترى به هدية لأهله ؛ وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة فوجدناه فى الحمام ، فلما خرج استؤذن لى عليه فدخلت ، فإذا هو جالس على كرسى وبيده مشط يسرح به لحيته ، فسلمت عليه فرد أحسن رد ، وقال : ما الذى أقعدك عنا ؟ قلت : قلة ذات اليد وأنشدته قصيدة مدحته بها ، قال: أتدرى لم أحضرتك ؟ قلت : لا أدرى ، قال : كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه ، فقال لى : يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات :

سلَّ الخليفةَ سيفًا من بنى مضرٍ يمضى فيخترق الأجسام والهاما(١)
كالدهر لا ينثنى عما يهمُّ به قد أوسع الناس إنعامًا وإرغاما (٢)

فقلت : والله لا أدرى يا أمير المؤمنين ، فقال سبحان الله ، أيقال فيك مثل هذا ولا تدرى من قاله ؟ فسألت فقيل لى : هو مسلم بن الوليد ، فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد ، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبلت الأرض وسلمت فرد علىَّ السلام ، فأنشدته ما لى فيه من شعر ، فأمر لى بمائتى ألف درهم وأمر لى يزيد بمائة وتسعين ألف درهم ، وقال : ما ينبغى لى أن أساوى أمير المؤمنين فى العطاء ، فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم وما أحسن ما قيل :

الأمنُ والخوفُ أيامٌ مداولةٌ بين الأنام وبعد الضيقِ تتسَّعُ

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال، ضيق على يزيد بن أبى مسلم ، فلما ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبى

(١) الهام : الرءوس جمع هامة .
(٢) إنعامًا وإرغامًا : أى أن سيفه حماية للطائعين ، وحربًا على العاصين والمتمردين .

مسلم أفريقية ، وكان محمد بن يزيد واليًا عليها فاستخفى محمد بن يزيد ، فطلبه يزيد بن أبى مسلم وشدد فى طلبه ، فأتى به إليه فى شهر رمضان عند المغرب وكان فى يد يزيد بن أبى مسلم عنقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه : يا محمد بن يزيد ، قال : نعم، قال : طالما سألت الله أنْ يمكننى منك ، فقال : وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرنى منك ، فقال : والله ما أجارك ولا أعاذك ، وإن سبقنى ملك الموت إلى قبض روحك سبقته ، والله لا آكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك . ثم أمر به فكُتِّف ووضع فى النطع وقام السياف فأقيمت الصلاة، فوضع العنقود من يده وتقدم ليصلى ، وكان أهل أفريقية قد أجمعوا على قتله فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله ، وقيل لمحمد بن يزيد : اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الأمير وفك الأسير .

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : رأيت رسول الله ﷺ فى النوم وهو يقول اطلق القاتل ، فارتعت لذلك ودعوت بالشموع ونظرت فى أوراق السجن ، وإذا ورقة إنسان ادعى عليه بالقتل وأقر به ، فأمرت بإحضاره فلما رأيته وقد ارتاع ، فقلت له : إن صدقتنى أطلقتك ، فحدثنى أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة ، وأن عجوزًا جاءت لهم بامرأة فلما صارت عندهم صاحت الله الله وغشى عليها ، فلما أفاقت قالت : أنشدك الله فى أمرى فإن هذه العجوزة غرتنى ، وقالت : إن فى هذه الدار نساء صالحات وأنا شريفة جدى رسول الله ﷺ وأمى فاطمة وأبى الحسين بن على ، فاحفظوهم فى ، فقمت دونها وناضلت عنها فاشتد على واحد من الجماعة ، وقال : لابُدَّ منها وقاتلنى فقتلته ، وخلصت الجارية من يده ، فقالت : سترك الله كما سترتنى ، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً والسكين بيدى ، فأمسكونى وأتوا بى إليك وهذا أمرى ، فقال إسحاق : قد وهبتك لله ولرسوله فقال : وحق اللذين وهبتنى لهما لا أعود إلى معصية أبدًا .

وأمر الحجاج بإحضار رجل من السجن فلما حضر أمر بضرب عنقه ، فقال : أيها الأمير أخرنى إلى غد ، قال : وأى فرج لك فى تأخير يوم واحد ؟ ثم أمر برده إلى السجن فسمعه الحجاج فى السجن يقول :

عسى فرجٌ يأتى به اللهُ إنه ... له كُلَّ يوم فى خليقته أَمْرُ

فقال الحجاج : والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن : ٢٩] . وأمر بإطلاقه.

وقال بعض جلساء المعتمد : كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس ؛ فقال : لا تبرحوا حتى أغفى سويعة ، فغفا ساعة ثم أفاق جزعا مرعوبًا ، وقال : امضوا إلى السجن وائتونى بمنصور الجمال ، فجاءوا به ، فقال له : كم لك فى السجن ؟ قال : سنة ونصف ، قال : على ماذا؟

قال : أنا جمال من أهل الموصل ، وضاق عليَّ الكسب ببلدى ، فأخذت جملى وتوجهت إلى بلد غير بلدى لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمى الحال ، وهم مقدار عشرة أنفس ، وجدوهم يقطعون الطريق ، فدفع واحد منهم شيئًا للأعوان فأطلقوه وأمسكونى عوضه وأخذوا جملى فناشدتهم الله فأبوا وسجنت أنا والقوم ، فأطلق بعضهم ومات بعضهم وبقيت أنا فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين دينارًا فى كل شهر وقال : اجعلوه على جمالنا ، ثم قال : أتدرون ما سبب فعلى هذا ؟ قلنا: لا . قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول : أطلق منصورًا الجمال من السجن وأحسن إليه .

وأخذ الطاعون أهل بيت فَسُدَّ بابه ، ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبة ترضعه مع جرو لها ، فسبحان القادر على كل شيء لا إله غيره ولا معبود سواه .

قال الشاعر :

إذا تضايقَ أمرٌ فانتظرْ فرجًا ... فأضيَقُ الأمرِ أدْناهُ إلى الفرج

وقال آخر :

فلا تجزعنْ إن أظلم الدهر مرةً ... فإن اعتكارَ الليل يؤذن بالفجرِ

وقال آخر :

لَعَمْرُك ما كُلُّ التعاطيل ضائرًا ... ولا كُلُّ شغلٍ فيه للمرء مَنْفَعَهْ (١)

إذا كانت الأرزاق فى القرب والنوى ... عليك سواءٌ فاغتنمْ لذة الدعه (٢)

فإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ... الا ربَّ ضيقٍ فى عواقبه سعه

وقال الرياشى : ما اعترانى هَمٌّ فأنشدتُ قول أبى العتاهية حيث قال :

هى الأيامُ والغيرُ ... وأمرُ الله يُنتظرُ

أتيأسُ أن ترى فرجًا ... فأينَ اللهُ والقَدَرُ؟

إلا سرى عنى وهبت ريح الفرج .

ويروى : أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم ، فأرسل إلى قائد البحر ، وقال له : انفذ الآن مركبًا إلى افريقية يأتـونى بأخبارها ، فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب فى موضعه كأنه لم يبرح ، فقال الملك لقائد البحر : أليس قد فعلت ما

(١) التعاطيل : من التعطيل ، وهو عدم العمل ، وضائرًا : مضرًا .

(٢) النوى : البعد . الدعه : الاستقرار والأمان .

أمرتك به؟ قال: نعم ، قد امتثلت أمرك وأنفذت مركبًا فرجع بعد ساعة وسيحدثك مقدم المركب فأمر بإحضاره، فجاء ومعه رجل فقال له الملك : ما منعك أن تذهب حيث أمرت ؟ قال : ذهبت بالمركب فبينما أنا فى جوف الليل ، والرجال يجدفون إذا بصوت يقول : يا الله يا الله يا غياث المستغيثين ، يكررها مرارًا ، فلما استقر صوته فى أسماعنا ، ناديناه : لبيك ، لبيك ، وهو ينادى يا الله ، يا الله ، يا غياث المستغيثين فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقًا فى آخر رمق من الحياة ، فطلعنا به المركب ، وسألناه عن حاله فقال : كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت وما زلت أصيح حتى أتانى الغوث من ناحيتكم ، فسبحان من أسهر سلطانًا وأرقه فى قصره لغريق فى البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الوحدة ، فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه .

وحكى : سيدى أبو بكر الطرطوشى فى كتابه « سراج الملوك » قال : أخبرنى أبو الوليد الباجى عن أبى ذر قال : كنت أقرأ على الشيخ أبى حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءًا من الحديث فى حانوت رجل عطار ، فبينما أنا جالس معه فى الحانوت إذ جاء رجل من الطوافين ممن يبيع العطر فى طبق يحمله على يده ، فدفع إليه عشرة دراهم ، وقال له : أعطنى بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها ، فأخذها فى طبقه وأراد أن يمضى ، فسقط الطبق من يده فانكب جميع ما فيه ، فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه . فقال أبو حفص لصاحب الحانوت : لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء ، فقال : سمعًا وطاعة ، فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ودفع له ما عدم منها ، وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له : لا تجزع فأمر الدنيا أيسر من ذلك ، فقال الطواف : أيها الشيخ ليس جزعى لضياع ما ضاع لقد علم الله تعالى أنى كنت فى القافلة الفلانية فضاع لى هميان (١) فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك فما جزعت لضياعها حيث كان لى غيرها من المال ، ولكن ولد لى ولد فى هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء ، ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم ، فخشيت أن أشترى بها حاجة النفساء ، فأبقى بلا رأس مال وأنا قد صرت شيخًا كبيرًا لا أقدر على التكسب ، فقلت فى نفسى: أشترى بها شيئًا من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى استفضل شيئًا أسد به رمق أهلى ويبقى رأس المال أتكسب به ، واشتريت هذا العطر فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبق لى إلا الفرار منهم ، فهذا الذى أوجب جزعى .

قال أبو حفص وكان رجل من الجند جالسا إلى جانبى يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص : يا سيدى أريد أن تأتى بهذا الرجل إلى منزلى ، فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئا ، قال : فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطواف ، وقال له : عجبت من جزعك ، فأعاد عليه القصة ، فقال

(١) هميان : حزام من جلد توضع فيه الدراهم .

له الجندى : وكنت فى تلك القافلة ؟ قال : نعم ، وكان فيها فلان ، وفلان فعلم الجندى صحة قوله ، فقال : وما علامة الهميان ؟، وفى أى موضع سقط منك ؟ فوصف له المكان والعلامة ، قال الجندى : إذا رأيته تعرفه، قال: نعم، فأخرج الجندى له هميانا ووضعه بين يديه فحين رآه صاح ، وقال: هذا هميانى والله ، وعلامة صحة قولى : أن فيه من الفصوص ما كيت وكيت ، ففتح الهيمان فوجده كما ذكر ، فقال الجندى : خذ مالك بارك الله لك فيه ، فقال الطواف : إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فخذها وأنت فى حل منها ونفسى طيبة بذلك ، فقال الجندى : ما كنت لآخذ على أمانتى مالا وأبى أن يأخذ شيئًا ، ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها ومضى ودخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الأغنياء، اللهم اغن فقرنا ويسر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

وحكى : أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباء دواؤه ولم يجدوا له شفاء ، فدسوا على قتله وأرصدوا له رجلاً ومعه خنجر ، فلما كان فى بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر ، فجاءت الضربه أسفل خاصرته فلم تخط المعى الذى فيه القولنج ، فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى وبرئ أحسن ما كان.

ويضدّ هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشى قال : حدثنا القاضى أبو مروان الدارانى بطرطوشة قال : نزلت قافلة بقرية خربه من أعمال دانية ، فأووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم وسووا معيشتهم ، وكان فى تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجل منهم : يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد فى هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولا فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجًا عنهم ، ولم يقرب ذلك المكان ، فأصبحوا فى عافية وحملوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك إذ دخل الرجل إلى الدار ليقضى حاجته فخر عليه الحائط فمات لوقته .

قال : وأخبرنى أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال : لقد جرت فى هذه الدار ـ وأشار إلى دار هناك ـ، قضية عجيبة ، قلت : وما هى ؟ قال : كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة. . فى تجارة الخز ، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخز فى خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة ، فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمار فثقل عليه فأمر إنسانًا هناك فأعانه على إنزاله ، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد ، فقال له الرجل : كن رفيقى آنس بك ، وتعيننى على سفرى ، ونفقتك ومؤنتك على ، فقال له الرجل : وأنا أيضًا أختار صحبتك وأرغب فى مرافقتك ، فسار معه فى سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى «تكريت »، فنزل الرفقة خارج المدينة ، ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم ، فقال التاجر لذلك

الرجل : احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشترى ما نحتاج إليه ، ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه ، ورحلت الرفقة ولم ير أحدًا فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم ، فلم يزل يسير ويجد في السير فى المشى إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد ، فسألهم عن صاحبه ، فقالوا : ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته . فكر الرجل راجعًا إلى « تكريت » وسأل عن الرجل فلم يجد له أثرًا ولا سمع له خبرًا ، فيئس منه ورجع إلى « الموصل » مسلوب المال فوصلها نهارًا فقيرًا جائعًا عريانًا مجهودًا فاستحى أن يدخلها نهارًا فتشمت به الأعداء ـ نعوذ بالله من شماتتهم ـ وخشى أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة ، فاستخفى إلى الليل ، ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقيل له : مَنْ هذا ؟ قال : فلان يعنى نفسه ، فأظهروا له سرورًا عظيمًا وحاجة إليه ، وقالوا : الحمد لله الذى جاء بك فى هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة ، والحاجة ، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية ، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم ، والله ما وجدنا ما نشترى به شيئًا للنفساء ، فأتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا .

فلما سمع ذلك ازداد غمًا على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك ، فأخذ وعاءً للدهن ووعاء للدقيق ، وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك ، وكان البياع أطفأ سراجه وأغلق حانوته ونام ، فناداه فعرفه فأجابه ، وشكر الله على سلامته ، فقال له : افتح حانوتك وأعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن ، فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب ، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت ، فرأى خرجه الذى هرب به صاحبه فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه، وقال : يا عدو الله ائتنى بمالى ، فقال له البياع : ما هذا يا فلان ؟ والله ما علمتك متعديًا وأنا أبدًا ما جنيت عليك ولا على غيرك ، فما هذا الكلام ، قال : هذا خرجى هرب به خادم كان يخدمنى وأخذ حمارى وجميع مالى، فقال البياع : والله ما لى علم غير أن رجلاً ورد على بعد العشاء واشترى منى عشاءه وأعطانى هذا الخرج فجعلته فى حانوتى وديعة إلى حين يصبح ، والحمار فى دار جارنا ، والرجل فى المسجد نائم، قال له: احمل معى الخرج وامض بنا إلى الرجل فرفع الخرج على عاتقه ، ومضى معه إلى المسجد ، فإذا الرجل نائم فى المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوبا ، فقال : مالك ؟ قال : أين مالى يا خائن؟ قال: ها هو فى خرجك فوالله م أخذت منه ذرة ، قال : فأين الحمار وآلته؟ قال : هو عند هذا الرجل الذى معك ، فعفا عنه وخلَّى سبيله ، ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالمًا فوسع على أهله وأخبرهم بقصته ، فازداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود . فسبحان من لا يخيب من قصده ولا ينسى من ذكره .

(ولنلحق بهذا الباب ذكر شيء مما جاء فى التهنئة والبشائر)

كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خبرًا استبشر به : سمعت عنك خبرًا سارًا . كتب فى الألواح وامتزج بالأرواح ، وعُدّ فى جملة البشائر العظام ، وجرى فى العروق وتمشى فى العظام. وكان خالد بن عبد الله القسرى أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع وكان يقول له : إنى لأرى فيك آثار الخلافة ولا تموت حتى تليها ، فقاله له : إن أنا وليتها فلك العراق فلما ولى أتاه فقام بين الصفين ، وقال : يا أمير المؤمنين أعزك الله بعزته ، وأيدك بملائكته ، وبارك لك فيما ولاك ، ورعاك فيما استرعاك ، وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة وعلى أهل الشرك نقمة ، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها ، وأنت لها أزين منها لك ، وما مثلها ومثلك إلا كما قال الأحوص هذه الأبيات :

وإنَّ الدُرَّ زاد حُسنَ وجوه ... كان للدرّ حسن وجهك زينا
وتزيدنَّ أطيبَ الطيب طيبًا ... إنْ تمسسه أينَ مثلُكَ أينا

ودخل على المهدى أعرابى فقال له : فيم جئت ؟ قال : أتيتك برسالة ، قال : هاتك . قال: أتانى آت فى منامى . فقال : ائت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات :

لكم إرثُ الخلافةِ من قرَيْش ... تُزَفُّ إليكمو أبدًا عروسا
إلى هارون تُهدى بعد موسى ... تميسُ وما لها أن لا تميسا(١)

فقال المهدى يا غلام : علىَّ بالجواهر ، فحشا فاه حتى كاد ينشق ، ثم قال : اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها فى بخانق (٢) صبياننا .

وقال إبراهيم الموصلى فى تهنئة الرشيد بالخلافة :

ألم ترّ أنَّ الشمس كانت مريضةً ... فلما أتى هارونُ أشرق نورُها
تلبّسَتِ الدنيا جمالاً بملْكِه ... فهارونُ واليها ويحيى وزيرُها

وغناه بهما من وراء الحجاب ، فوصله بمائة ألف دينار ، ويحيى بخمسين ألفًا .

ودخل عطاء بن أبى صيفى على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنئة والتعزية ، فقال: رزئت خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبه ، ووليت الرئاسة وكنت أحق بالسياسة ، فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، واشكر الله على أعظم العطية .

---

(١) تميس : تتمايل مفتخرة .
(٢) البخانق : مفردها : البُخْنُقُ وهى البراقع ما تتقنع به المرأة فتشد طرفيه تحت حنكها ـ البرنس ـ .

ومر عمر بن هبيرة [1] بعد إطلاقه من السجن بالرقة ، فإذا امرأة من بنى سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلاً ؛ وهى تقول : لا والذى أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا، فرمى إليها بصرة فيها مائة دينار ، وقال : قد خلص الله عمر بن هبيرة ، فطيبى نفسًا وقرى عينًا .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) عمر بن هُبيرة بن سعد بن عدي الفزاري (أبو المثنى) أمير من الدهاة الشجعان . توفي نحو ١١٠هـ .

الباب الثامن والخمسون

فى ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان:

الفصل الأول : فى مدح العبيد والإماء والاستيصاء بهم خيراً

عن علی ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : أول من يدخل الجنة شهيدٌ، وعبدٌ أحسن عبادة ربه ، ونصح لسيده » . وعن ابن عمر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ (رفعه) «إن العبد إذا نصح لسيده ، وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين » . وكان زيد بن حارثة خادمًا لخديجة ـ رضى الله تعالى عنها ـ ، اشترى لها بسوق عكاظ ، فوهبته لرسول الله ﷺ ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه ، فقال رسول الله ﷺ : « إن رضى بذلك فعلت » فسئل زيد . فقال : ذُلُّ الرق مع صحبة رسول الله ﷺ أحب إلىَّ من عِزِّ الحرية مع مفارقته .فقال رسول الله ﷺ : « إذا اختارنا اخترناه » ، فأعتقه وزوجه أم أيمن ، وبعدها زينب بنت جحش . وعن على ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : كان آخر كلام رسول الله ﷺ : « أوصيكم بالصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » . وعن أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ: لا يقولن أحدكم : عبدى وأمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل : غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى. وعن ابن مسعود الأنصارى قال : ضربت غلامًا لى فسمعت من خلفى صوتًا : « اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه » . فالتفت فإذا هو النبى ﷺ ، فقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى، فقال: « أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار » .

وروى عن ابن عمر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كم تعفو عن الخادم ؟ ثم أعاد عليه فصمت ، فلما كانت الثالثة قال له : أعفو عنه كل يوم سبعين مرة . وعن أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : حدثنى أبو القاسم نبى التوبة ﷺ : « من قذف مملوكه وهو برىء مما قال جلد له يوم القيامة حدًا » . وقيل : أراد رجل بيع جاريته فبكت ، فقال لها : مالك ؟ فقالت : لو ملكت منك ما ملكت منى ما أخرجتك من يدى، فأعتقها وتزوجها . وقال أبو اليقظان : إن قريشًا لم تكن ترغب فى أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم : على بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله . وذلك أن عمر ـ رضى الله تعالى عنه أتى ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيات ، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادى عليهن بالسوق ، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه فصاح : واعمراه ، وشكا إليه ، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة ، فقال على ـ رضى الله تعالى عنه ـ: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال : « أكرموا عزيز قول

ذل ، وغنى قوم افتقر . إن بنات الملوك لا يبعن ، ولكن قوموهن » فقومهن وأعطاه أثمانهن ، وقسمهن بين الحسين بن على ، ومحمد بن أبى بكر ، وعبد الله بن عمر ، فولدن هؤلاء الثلاثة ، وقيل : استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة وكان ابن أمة ، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى :

نَهيْتُكُمُ أن تَحمِلُوا فوقَ خيلكم ... هجينًا لكم يوم الرهان فيدركُ[1]
فتعثرُ كفاه ويسقط سوطه ... ويخدرُ ساقاه فما يتحركُ
وهل يستوى المرآن هذا ابن حُرَّةٍ ... وهذا ابنُ أخرى ظهرها متشركُ[2]

فقال له مسلمة : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلى ، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الأبيات :

فما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زادنا فيها السِّباءُ مذلة ... ولا كلفت خبزًا ولا طبخت قدرا
وكَم قَدْ تَرَى فينا من ابن سبيَّةٍ ... إذا لقى الأبطال يطعنهم شزرا[3]
ويأخذُ ريانَ الطعانِ بكفِّهِ ... فيوردُها بيضًا ويصدرها حمرا[4]

فقبل رأسه وعينه ، وقال : أحسنت يا بنى ذاك والله أنت ، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم .

الفصل الثانى : فى ذم العبيد والخدم

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بئس المال فى آخر الزمان المماليك » . وقال مجاهد : إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين . وقال لقمان لابنه : لا تأمنن امرأة على سر ولا تطأ خادمًا تريدها للخدمة . ووصف بعضهم عبدًا، فقال : يأكل فارهًا[5] ، ويعمل كارهًا ،ويبغض قومًا ، ويحب نومًا . وقيل لبعهضم : ألك غلام ؟ فقال :

ومالي غلامٌ فأدْعُو به ... سوى مَنْ أبوهُ أخو عمَّتى

---

(١) هجينًا : اللئيم ، أو من كانت أمه غير عربية وأبوه عربى .
(٢) متشرك : أى يشترك فيه عدة رجال « زانية » .
(٣) شزرًا : مغضبًا وهو ينظر بطرف عينيه .
(٤) ريان الطعان : أي الرمح المرن .
(٥) فارهًا : أى هو شديد الأكل .

وقال أكثم :

الحرُّ حرٌ وإن مسّه الضرُّ والعبدُ عبدٌ وإن البسته الدرُّ

ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغى لهم من الخدمة فقال :

إذا لم يكن في منزل المرء حُرَّة رأى خَلَلاً فيما تولي الولائدُ
فلا يتَّخذْ منهنَّ حُرٌّ قعيدةً فهنَّ لعَمْرُ الله بِئْسَ القَعَائِدِ

وكان لرجل غلام من أكسل الناس ، فأرسله يومًا يشترى له عنبًا وتينا ، فأبطأ عليه حتى عيل صبره ، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال : ينبغى لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضى حاجتين ، فمرض الرجل ، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب ، فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر ، فسأله عنه فقال : أما ضربتنى وأمرتنى أن أقضى حاجتين فى حاجة واحدة ، فجئتك بالطبيب ، فإن شفاك الله تعالى ، وإلا حفر لك هذا قبرك ، فهذا طبيب وهذا حفار .

وقيل: كان عمرو الأعجمى يلى حكم السند ، فكتب إلى موسى الهادى أن رجلاً من أشراف أهل الهند من آل المهلب بن أبى صفرة اشترى غلامًا أسود فرباه وتبناه ، فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها ، فأجابته ، فدخل مولاه يومًا على غفلة منه من حيث لا يعلم ، فإذا هو على صدر مولاته ، فعمد إليه فجبَّ ذَكَره وتركه يتشحط فى دمه ، ثم أدركته عليه رقة ، وندم على ذلك فعالجه إلى أن برئ من علته ، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ويدبر عليه أمرًا يكون فيه شفاء غليله ، وكان لمولاه ابنان : أحدهما طفل ، والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر ، فغاب الرجل يومًا عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عال ، فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فرأى ابنيه فى شاهق مع الغلام ، فقال : ويلك عرضت ابنى للموت قال: أجل والله الذى لا إله يحلف العبد بأعظم منه لأن لم تجب ذكرك مثل ما جبيتنى لأرمين بهما. فقال : الله الله يا ولدى فى تربيتى : لك . قال : دع هذا عنك فو الله ما هى إلا نفسى وإنى لأسمح بها فى شربة ماء ، فجعل يكرر عليه ويتضرع له ولا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من ذلك الشاهق . فقال أبوهما : ويلك فاصبر حتى أخرج مدية أفعل ما أمرت ، ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاهق فتقطعا . وقال : إن جبك لنفسك ثأرى وقتل أولادك زيادة فيه ، فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادى ، فكتب موسى لصاحب السند عمر الأعجمى بقتل الغلام وقال : ما سمعت بمثل هذا قط ، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود فما ترى أردأ من العبيد، ولا أقل

خيرًا منهم ، وأكثرهم رداءة المولدون لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكره ، كأن لم ير منك شيئًا ، وكلما أحسنت إليه تمرد ، وإن أسأت إليه خضع وذل ، وقد جربت أنا ذلك كثيرًا . وما أحسن ما قيل :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكْتَه ... وإنْ أنْتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا(١)

وقيل : إن العبد إذا شبع فسق ، وإن جاع سرق . وكان جدى لأمى يقول : شر المال تربية العبيد ، والمولدون منهم الأم من الزنوج وأرداً ، لأن المولد لا يعرف له أبًا وربما يعرف الزنجى أبويه .

ويقال فى المولد : بغل لأنه مجنس والبغل تكون أمه فرسًا وأبوه حمارًا ، وبالعكس فلا تثق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير وإن كان فذاك نادر والنادر لا حكم له .

وأنا استغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) هذا البيت من قصيدة للمتنبى فى مدح سيف الدولة وهو من شعر الحكمة .

الباب التاسع والخمسون

فى أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم ، وذكر غرائب من عوائدهم ، وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أوابد وعوائد (١) كانوا يرونها فضلا ، وقد دلَّ على بعضها القرآن العظيم ، وأكذب الله دعاويهم فيها ، فمن ذلك قوله تعالى: **﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾** [المائدة : ١٠٣] .

قال أهل اللغة :البحيرة : ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكرًا بحروا أذنها أى شقوا أذنها وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى . وكان الرجل إذا أعتق عبدًا وقال: هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث ، وأما **الوصيلة** : ففى الغنم كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم ، إن ولدت ذكرًا جعلوه لآلهتهم ، فإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم . **وأما الحام** : فالذكر من الإبل ، كانت العرب إذا نتج عن صلب الفحل عشرة أبطن قالوا : حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

وقال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [المائدة : ٩٠] ، **فالخمر** : ما خمر العقل ، ومنه سميت الخمر خمرًا ، **والميسر** : القمار ، **والأنصاب** : حجارة كانت لهم يعبدونها وهى الأوثان واحدها نصب ، **والأزلام** : سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرنى ربى وعلى بعضها نهانى ربى، فإذا أراد الرجل سفرًا أو أمرًا يهتم به ضرب بتلك القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج النهى لم يمض .

ومن أوابدهم :وأد البنات أى دفنهن أحياء كانوا فى الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها ، وإذا بشر بها ضاق صدره وكظم غيظه واسود وجهه هو قوله تعالى : **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾**[النحل : ٥٨] وقال تعالى : **﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾**[الأسراء:٣١] . وقد قيل: إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار . وبمكة جبل يقال له : أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات.

وقيل: إن صعصعة جد الفرزدق كان يشترى البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل. وفاخر الفرزدق رجلاً عند بعض خلفاء بنى أمية فقال : أنا ابن محيى الموتى ،

(١)الأوابد : جمع آبدة : وهى الأمور العجيبة وغرائب الكلام . عوائد : جمع عادة . الشىء جعله عادة لنفسه. وأيضا المعروف والصلة والعطف .

فأنكر الرجل ذلك ، فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة : ٣٢] .

وأما الرفادة فى الحج : فكانت خرجًا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالهم إلى قصى ، فيصنع به طعامًا للحاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وذلك أن قصيًا فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيوف الله ، وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم ، فيدفعونه إليهم .

وقيل : أول من أقام الرفادة عبد المطلب ، وهو الذى حفر بئر زمزم وكانت مطمومة ، واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى ، وسبعة أسياف وخمسة دروع سوابغ ، فضرب من الأسياف باب الكعبة ، وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب ، وجعل الآخر فى الكعبة .

واعلم وفقنى الله وإياك : أنه لم يسمع بعجب [١] أعظم من عجب سعيد بن زرارة ، وعبد الله بن زياد التميمى ، وابن سماك الأسدى الذي ضرب بهم المثل . **فأما** سعيد بن زرارة فقيل: إنه مرت به امرأة فقالت له : يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا ؟، فقال لها : يا هنتاه مثلى يكون من عبيد الله ؟!**وأما** عبد الله بن زياد التميمى ،فقيل : إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز ، فنودى من نواحى المسجد كثر الله فينا مثلك ، فقال : لقد كلفتم الله شططًا. **وأما** ابن سماك ، فإنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد فقال : والله لئن لم يرد راحلتى علىّ لا صليت له أبدًا . فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر ، فقيل له : رد الله عليك راحلتك فصل، فقال : إنما كانت يمينى قصداً .

فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثًا مستبشعًا ومثلا بين العالمين مستشنعًا ؟. نعوذ بالله من الخذلان المؤدى إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

حكى : عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه قيل له : كيف وجدت منزلك بالعراق ؟ قال : خير منزل إن الله أظفرنى بأناس بلغنى الأمل فيهم ، وأعاننى على الانتقام منهم ، فكنت أتقرب إليه بدمائهم ، فقيل له : من هم ؟ فذكر هؤلاء الثلاثة ، وذكر حديثهم ولا محالة أنها محاسن الحجاج ، وإن قلت : فى جنب سيئاته . والله تعالى أعلم.

---

(١) العجب : الخيلاء والكبر .

ذكر أديان العرب فى الجاهلية : كانت النصرانية : فى ربيعة ، وغسان ، وبعض قضاعة ، **وكانت اليهودية** : فى نمير ، وبنى كنانة ، وبنى الحرث بن كعب ، وكندة ، **وكانت المجوسية**: فى بنى تميم ، منهم زرارة بن عدى ، وابنه على، وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم : الأقرع بن حابس كان مجوسيًا ، وكانت **الزندقة** فى قريش أخذوها من الجزيرة ، وكانت بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية صنمًا من حيس فعبدوه دهرًا طويلاً ، ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه .

وقد قيل : إن أول من غير الحنيفية عمرو بن لحى أبو خزاعة ، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام ، فأعجبه ذلك ، فقال : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدوتها ؟ قالوا : هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال : أعطونى منها صنمًا أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنما يقال له : هبل ، فقدم به مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

وقيل : إن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل ، وسبب ذلك أنه لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم وتفرقوا فى البلاد ، وما من أحد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوا من الحجارة ، ثم خلفت الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال .

وكانت قريش قد اتخذت صنمًا على بئر فى جوف الكعبة يقال له : هُبل ، وأيضًا اتخذوا إسافًا ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندهما ويطعمون . وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأة ، فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنمًا يعبدونه فإذا أراد الرجل سفرًا تمسح به حين يركب ، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله .

واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها ، وكانت لقريش وبنى كنانة : العزى ، وكان حجابها بنى شيبة . وكانت اللات : لثقيف بالطائف ، وكان حجابها بنى مغيث من ثقيف . وكانت مناة : للأوس والخزرج ومن دان بدينهم . وأما يغوث . ويعوق . ونسر: فقيل : إنهم كانوا أسماء أولاد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكانوا أتقياء عبادًا فمات أحدهم فحزنوا عليه حزنًا شديدًا ، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته فى قبلة مسجدهم ليذكروه إذا أنظروه ، فكرهوا ذلك ، فقال : اجعلوه فى مؤخر المسجد ، ففعلوا وصوره من صفر ورصاص. ثم مات آخر ، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم ، فصوّروهم هناك ، وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسن لهم الشيطان عبادة شىء غير الله ، فقالوا له : من نعبد ؟ قال : آلهتكم

المصورة فى مصلاكم فعبدوها إلى أن بعث الله نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فنهاهم عن عبادتها ، فقالوا : كما أخبر الله عنهم : ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا ﴾ [نوح : ٢٣]. ولما عم الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زمانًا طويلاً ، فأخرجهما الشيطان لمشركى العرب فعبدوها .

وذكر الواحدى فى « الوسيط » أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، فسول الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوروا صورهم ليكون أنشط لهم وأشوق للعبادة كما رأوهم ففعلوا ، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها . وأن من سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم .

وقال الواقدى : كان ود: على صورة رجل، وسواع: على صورة امرأة، ويغوث: على صورة أسد، ويعوق: على سورة فرس، ونسر: على صورة نسر، والله تعالى أعلم أى ذلك كان.

ذكر أوابدهم : الرتم : شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصنًا منها ، فإذا عاد من سفر ووجده قد انحل قال : : قد خانتنى امرأتى ، وإن وجده على حالته قال : لم تخنى . **الرتيمة** : ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدوا عينيها حتى تموت . يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها . **التعمية والتفقئة** : كان الرجل إذا بلغت إبله ألفًا قلع عين الفحل . يقولون : إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا ازدادت على الألف فقأ عينه الأخرى . **لعرداء** : يصيب الإبل شبه الجرب ، كانوا يكوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبرئ داء العر .

ضرب الثور عن البقر : كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب .

الهامة : كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يأخذ بثاره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو : كالبومة ، فلا يزال يصيح على قبره اسقونى إلى أن يؤخذ بثأره.

وكان للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفس ، وتنازع فى كيفياتها : فمنهم : من زعم أن النفس : هى الدم ، وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم الإنسان الذى منه نفسه . وقالوا : إن الميت لا يوجد فيه الدم ، وإنما يوجد فى الحياة مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حيى فيه حرارة ورطوبة ، فإذا مات ذهبت حرارته وحل به اليبس والبرودة .**وطائفة منهم** : يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل ، ولا يزال متصوراً فى صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشًا له . وفى ذلك يقول بعضهم :

سُلّط الموتُ والمنونُ عليهم فلهم في صدى المقابر هامُ (١)

ثم جاء الإسلام ،والعرب ترى صحة أمر الهام ، حتى قال النبى ﷺ : « لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا صفر ، ولا هام» . وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرًا ويكبر حتى يصبر كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ ، ويوجد فى الديار المعطلة والنواويس (٢) ومصارع القتلى ، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت .

والصفر :زعموا أن الإنسان إذا جاع عضّ على شُرْسُوفه الصفر وهى حية تكون فى البطن . تثنية الضربة: زعموا أن الحية تموت فى أول ضربة ، فإذا تثنيت عاشت .

الغيلان والتغول للعرب :فى الغيلان والتغول أخبار وأقوايل ، يزعمون : أن الغول يتغول لهم فى الخلوات فى أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم ، وزعمت طائفة من الناس : أن الغول حيوان مشئوم وأنه خرج منفردًا لم يستأنس وتوحش ، وطلب القفار ، وهو يشبه الإنسان والبهيمة ، ويتراءى لبعض السفار فى أوقات الخلوات وفى الليل .

وحكى :أن سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ رآه فى سفره إلى الشام فضربه بالسيف . وقال الجاحظ : الغول : كل شيء يتعرض للسيارة ويتلون فى ضروب من الصور والثياب . وفيه خلاف ، وقالوا : إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى . **وأما القطرب** :فى قولهم.، فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم ، فيظهر فى أكناف اليمن ، وصعيد مصر فى أعاليه ، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه ، فيدود دبره فيموت . وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحى التى ذكرناها : أمنكوح هو أو مذعور ؟ فإن كان قد نكحه أيسوا منه ، وإن كان قد ذعر سكن روعه وشجع قلبه ، وإذا رآه الإنسان وقع مغشيًا عليه، **ومنهم** :من يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه .

ذكر الهواتف : **أما الهواتف** :فقد كانت كثرت فى العرب ، وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺوإن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى .

ومن عجيب ما حكى من أمر الهواتف :ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال : خرجنا حجاجًا، فصاحبنا رجل ، وجعل يقول فى طريقه :

لَيتَ شعرى هَلْ بغَتْ عَلَىّ ؟

---

(١)هام : طائر يقال : إنه يخرج من رأس الميت ويعرف « بالصدى » .

(٢)النواويس : مقابر النصارى .

فلما انصرفنا من مكة قالها فى بعض الطريق ، فأجابه صوت فى الظلام :

نَعمْ نَعمْ ونَاكَها حَجَيَّةْ وهو رَجُلٌ أحمر ضخمُ فى قفاه كيَّه

فسكت الرجل ، فلما سرنا إلى البصرة أخبرنا ذلك الرجل قال : دخل جيرانى يسلمون علىَّ فإذا فيهم رجل أحمر ضخم فى قفاه كيه ، فقلت لأهلى : من هذا ؟ قالت : رجل كان ألطف جيراننا بنا ، فجزاه الله خيراً ، فسألتها عن اسمه ، فقالت : حجية ، فقلت : الحقى بأهلك .

وأما بكاء المقتول : فكانت النساء لا يبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره ، فإذا أخذ بثأره بكينه .

وأما رمى السن : فكانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر ، فرمى سنه فى عين الشمس بسبابته وإبهامه ، وقال : أبدلينى بأحسن منها ، فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج .

وأما خضاب النحر : فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد ، فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة .

وأما نصب الراية : فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها .

وأما جزَّ النواصى : فكانوا إذا أسَرُوا رجلاً ومنُّوا عليه ، وأطلقوه جزوا ناصيته .

وأما الالتفات : فكانوا يزعمون أن من خرج فى سفر والتفت وراءه لم يتم سفره ، فإن التفت تطيروا له ، وكانوا يقولون : من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر ، وذلك أن الجن تهرب من الأرانب لأنها تحيض وليست من مطايا الجن . ويزعمون : أن المرأة إذا أحبت رجلا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه ، وتشق عليه برقعها فسد حبهما . **ويزعمون** : أن الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها ، فوقف على بابها قبل أن يدخلها ، ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها ، **ويزعمون** : أن الحرقوص : وهو دويبة أكبر من البرغوث تدخل فى فروج الأبكار فتفتضهن. **ويزعمون** : أن الرجل إذا ضل ، فقلب ثيابه اهتدى . وكانوا يزعمون : أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تسكن . وكانت لهم خرزة **يزعمون** : أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى : السلوان .

ونكاح المقت : من سنتهم : وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فالقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها ، فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض إخوته بمهر جديد ، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال .

ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة ، والله تعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الستون

في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

أما الكهانة : فكانت فاشية في الجاهلية حتى جاء الإسلام ، فلم يسمع فيه بكاهن ، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها ؛ وللكهنة أخبار :

فمنهم : سطيح ورد عليه عبد المسيح ، وهو يعالج الموت ، وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله، وذلك أن الموبذان رأى إبلاً صعابًا تقود خيلاً عرابًا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح أعلم كسرى بذلك ، فتصبر كسرى تشجعًا ، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته ، فلبس تاجه وقعد على سريره وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر ، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، وارتجاس الإيوان ، فازدادوا غمًا على غمهم .

فكتب كسرى كتابًا إلى النعمان بن المنذر : أما بعد : فوجه إلى رجلاً عالمًا بما أريد أن أسأله عنه . فوجه إليه عبد المسيح الغساني ، فقال له كسرى أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال : ليخبرني الملك فإن كان عندي علم منه وإلا أخبرته بِمَنْ يَعلمُه به ، فأخبره بما رآه الموبذان، فقال: علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له : سطيح . قال : فأته فاسأله عما سألتك ، وائتني بالجواب ، فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح ، فوجده قد أشرف على الضريح ، فسلم عليه وحياه ولم يخبر عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشد شعرًا يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم ، ولم يذكر له السبب فرفع رأسه وقال : عبد المسيح علي جمل يسيح إلى سطيح ، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان ، رأى إبلاً صعابًا تقود خيلاً عرابًا قطعت الدجلة وانتشرت في بلادها ، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وفاض وادي سماوة ، وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاما ، ولا العجم لعبد المسيح مقاما ، يرتفع أمر العرب ، وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب ، يملك منهم ملوكًا وملكات بعدد الشرافات ، وكل ما هو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه ، فسار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسري بذلك.

وحكي . . . أن ربيعة بن مضر اللخمي رأى منامًا هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته :ما يفسره لك إلا شِقٌ وسطيح فأحضرهما ، وقال لسطيح: إني رأيت منامًا هالني ، فإن عرفته فقد أصبت تفسيره ، فقال : رأيت جمجمة خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض نهمة ، فأكل منها كل ذات جمجمة ، فقال له الملك : ما أخطأت شيئًا من تفسيره ، قال : ليهبطن بأرضك الحبش، وتملك ما بين أبين إلى جرش ، فقال الملك : إن هذا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفي زماني أم بعده ؟ قال : بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضي من السنين، ثم يقتتلون بها أجمعين ،

ويخرجون منها هاربين ، قال : ومن ذا الذي يملك بعدهم ؟ قال : أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحدًا باليمن . قال الملك : فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي يأتيه الوحي من العلي ، قال : وممن يكون هذا النبي؟ قال : من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون في قومه الملك إلى آخر الدهر . قال : وهل للدهر من آخر؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ، ويشقى المسيئون . قال : أو حق ما تخبر ؟ قال : والشفق والقمر إذا اتسق أن ما أنبأتك به لحق. ثم دعا بشق فقال مثل ما قاله سطيح .

ومن ذلك ما حكي : أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفاخرة، فقال له هاشم : أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة ، فرضي أمية بذلك وجعل بينهما الخزاعي الكاهن حكمًا ، فخبأوا إليه شيئًا ، وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما ، فقالوا: قد خبأنا لك خبيئا فإن علمته تحاكمنا إليك ، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك .

فقال: لقد خبأتم لي كيت وكيت قالوا : صدقت احكم بين هاشم بن عبد مناف وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتا ونسبا ونفسًا فقال : والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر. لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ولأمية أواخر ، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين ، ويقال: إنها أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية .

وحكي أن هند بنت عتبة بنت ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة ،وكان الفاكه من فتيان قريش ،وكان له بيت ضيافة خارجًا عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن ، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند ، ثم نهض لحاجة فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رأى هندًا رجع هاربًا ، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله ، وقال لها : من هذا الذي خرج من عندك ؟ قالت : ما رأيت أحدًا قط وما انتبهت حتى أنبهتني ، قال : فارجعي إلى بيت أبيك وتكلم الناس فيها . فقال أبوها : يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام فإن يكن الرجل صادقًا دسّيت عليه من يقتله لينقطع كلام الناس ، وإن يك كاذبًا حاكمته إلى بعض كهان اليمن . فقالت له : لا والله ما هو علي بصادق . فقال له : يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني إلى بعض كهان اليمن ، فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم وخرج أبوها في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة ، فلما شارفوا البلاد قالوا : غدًا نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هند، فقال لها أبوها : إني أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه عندك ، فقالت : لا والله ، ولكن أعرف أنكم تأتون بشرًا يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يسمني بسيما تكون على سبة (١). فقال

(١) يسمني : يترك في علامة سبة وعار لا تمحى . وأصل : وسم : كواه فأثر فيه بعلامة .

لها : لا تخشي فسوف أختبره ، فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل في إحليله (١)حبة حنطة وربطه ، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ، ونحر لهم فلما تغدوا قال له عتبة : قد جئناك في أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها ، قال : خبأتم لي ثمرة في كمرة (٢). قال : إني أريد أن أبين من هذا . قال : حبة بر في إحليل مهر ، قال : فانظر في أمر هؤلاء النسوة ، فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها : انهضي حتى بلغ هندًا فقال : انهضي غير رسحاء(٣) ولا زانية وستلدين ملكًا اسمه معاوية ، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها ، فجذبت يدها من يده ، وقالت : إليك عني فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان فولدت منه أمير المؤمنين معاوية ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

وأما القيافة : فهي على ضربين : قيافة البشر ، وقيافة الأثر : **فأما قيافة البشر :** فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم: بنو مدلج ، يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفرًا فيلحقه بأحدهم .

وحكي : عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكبًا على بعيره يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم ، وقال : ما أشبه الراكب بالقائد ، قال : ولد التاجر فوقع في نفسي من ذلك شئ فلما رجعت إلى أمي ذكرت لها القصة. فقالت : يا ولدي إن أباك كان شيخًا كبيرًا ذا مال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ما له فمكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك ، ولولا أن هذا شيء ستعلمه غدًا في الدار الآخرة لما أعلمتك به في الدنيا.

وأما قيافة الأثر: فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب ، أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به .

ومن العجب : أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ ، والمرأة من الرجل ،والبكر من الثيب، والغريب من المستوطن . ويذكر أن في قطية . وثغر البرلس أقوامًا بهذه الصفة وقد وقعت من قريش حين خرج النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد وأحجار صم ولا طين ولا تراب تبين فه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ بما كان من نسيج العنكبوت وما لحق القائف من الحيرة ، وقوله : ههنا انتهت الأقدام . هذا ومعهم الجماعة من قريش أبصارهم سليمة ، ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعني في علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى .

وقيل القيافة : لبني مدلج في أحياء مضر . واختلف رجلان من القافة في أمر بعير وهما بين

---

(١) إحليله : عضو الذكر للفرس وغيره .
(٢) ثمرة : حبّة القمح . كمرة : فتحة رأس الذكر.
(٣) رسحاء : قبيحة .

مكة ومنى . فقال أحدهما : هو جمل ، وقال الآخر : هي ناقة ، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه : أهو ذا ؟ قال : نعم ، فوجداه خنثى [(١)] فأصابا جميعًا .

ومنهم : من كان يخط الرمل في الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتى بعده .

وقال رجل: شردت لي إبل فجئت إلى خراش فسألتها عنها ، فأمر ابنته أن تخط لي في الأرض فخطت ، ثم قامت فضحك خراش ، ثم قال : أتدري قيامها لأي شيء ؟ قلت : لا ، قال : قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها ، فاستحيت ثم خرجت فوجدت إبلي ثم تزوجتها . وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعي غازيين ، فمرا بامرأة وهي تخط للناس في الأرض فضحك منها مالك هزوًا ، وقال : ما هذا ؟ فقالت : أما والله لا تخرج من سجستان حتى تموت ويتزوج عمرو هذا زوجتك فكان كما ذكرت .

وأما الزجر والعرافة : فأحسنه ما روي أن كسرى أبرويز بعث إلى النبي ﷺ حين بعث زاجرًا ومصورًا ، فقال للزاجر انظر ما ترى في طريقك وعنده ، وقال للمصور ائتني بصورته ، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر : ماذا رأيت؟ قال : ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك .

وبعث صاحب الروم إلى النبي ﷺ رسولا ، وقال له : انظر إليه ومل إلى جانبه، وانظر إلى ما بين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة ، فقدم الرسول فرأى النبي ﷺ على نشز عال واضعًا قدميه في الماء وعن يمينه علي ـ رضي الله عنه ـ فلما رآه رسول الله ﷺ قال له : تحول فانظر ما أمرت به، فنظر الرسول فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر؛ فقال : ليعلون أمره وليملكن ما تحت قدمي، فتفاءل بالنشز العلو ، وبالماء الحياة .

وقال المدايني وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان ، حين أتاها فخرج هاربًا ونزل بقرية من قرى الصعيد ، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان ، فقال للرسول: ما اسمك ؟ قال : طالب بن مدرك ، فقال: أواه ما أظن أني أرجع إلى الفسطاط . فمات ولم يرجع . وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية ، فقال لفاختة بنت قرظة : اذهبي فانظري إليها، فذهبت ونظرت، فقالت : ما رأيت مثلها ولكني رأيت تحت سرتها خالاً ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها؛ فطلقها معاوية ، وتزوجها بعده رجلان حبيب بن مسلمة ، والنعمان ابن بشير فقتل أحدهما : ووضع رأسه في حجرها .

---

(١) الخنثى : من له عضو الرجال والنساء معا.

وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان ،وكان هناك عراف ، وقيل : قياف ، فقام فتبعه ثوبان مولى مروان فسأله ، فقال : صدع الزجاج صدع السلطان ستذهب الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندي واضح البرهان ، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان .

وروى المدايني أن عليًا ـ رضي الله عنه ـ بعث معقلاً ، في ثلاثة آلاف ليقيم بالرقة وذلك في وقعة صفين ، فسار حتى نزل الحديبية فبينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين ينتطحان فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشًا فذهب به ، فقال شداد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر: إنكم لتصرفون من موجهكم هذا لا تُغلبون ولا تَغلبون أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتفرقا ولا فضل لأحدهما على الآخر .

وحكي : أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوبًا فلما رأته قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكًا ذا طول وعرض ،ثم دخل عليها بعد ذلك، فقالت :ستعزل من الملك، قال : فغضب عند ذلك ،فقالت له: لا تغضب فإنك في المرة الأولى دخلت علي والشقة بيدي أدير طولها وعرضها ، ودخلت علي الآن والشقة في يدي أريد قطعها لأني قد فرغت من نسجها فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات . قال الراوي : فكان كذلك .

وحكي : أن سيف بن ذي يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم، فخرج إليهم ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة ، وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم ، قال: وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له: زهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره: اصبر لتنظر ما يكون من أمره، فقال: فتحول بعد ذلك إلى فرس ثم إلى بغل ثم ، إلى حمار ، وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار لما أنه استصغرهم واستحقرهم،وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى، وقال: احملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

وحكي : أنه كان عراف من الطرقيين ببغداد يخبر بما يسأل عنه فلم يخطئ ، فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق ؟، قال : نعم ،ويخلع عليه . قال : فقلت له : بأي شيء عرفت ذلك؟ فقال : إنك لما سألتني التفت يمينًا وشمالاً فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس ، وتفريقه بالانطلاق ، ووضعها على كتفه بالخلعة ، قال: وكان ذلك الأمر كذلك .

وأما الفأل : فقد روي أن النبي ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن . وروي أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له يا بشار ويا سالم فقال ﷺ لأبي بكر ـ رضي الله تعالى

عنه ـ : أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار .

وقال الأصمعي :سألت ابن عون عن الفأل فقال : هو أن يكون مريض فيسمع يا سالم أو طالب حاجة ، فيسمع يا واجد وما أشبه ذلك .

وأما الطيرة : فقد كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة . وقيل : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : «من عرض له من هذه الطيرة شيء ،فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (١). وعنه ﷺ أنه قال « ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما ـ رفعه « من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر » (٢). وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : «من أتى كاهنًا فصدقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضًا فى دبرها فقد برئ مما نزل على محمد » (٣). وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول:

لا يعلمُ المرء ليلاً ما يُصَبِّحُهُ   إلا كواذبَ ما يري به الفالُ
والفألُ والزجرُ والكهانُ كُلُّهُمُ   مُضَلَّلُون ودونَ الغيب أقفالُ

وقال لبيد :

لَعَمْرِي ما تدري الطوارقُ بِالحَصَى   ولا زاجراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صانعُ

وقال آخر :

تَعلَّم أنّه لا طيرَ إلا   على مُتَطَيِّرِ وهو الثبورُ
بَلَى شيءٌ يوافقُ بعض شيءٍ   أَحَايِينًا وبَاطِلُه كثيرُ

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس . وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها: العاطوس : كانوا يكرهونها ، وكانوا إذا أرادوا سفرًا خرجوا من الغلس والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها ، فإن أخذت يمينًا أخذوا يمينًا وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً ، ومنه قول امرئ القيس :

وقد اغتَدِى والطيرُ في وُكُناتِها   بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ معًا   كجلمود صخرٍ حطه السيلُ مِنْ عَلِ

(١) صحيح : رواه أحمد (٢ / ٢٢٠) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وليس فيه زيادة « ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

(٢) حسن : رواه أبو داود فى « الطب » (٣٩٠٥) وابن ماجه فى « الأدب » (٣٧٢٦) .

(٣) حسن : رواه أبو داود فى « الطب » (٣٩٠٤) مرفوعًا إلى النبى ﷺ .

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب ، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ويسمونه: حاتمًا لأنه يحتم عندهم بالفراق ، ويسمونه الأعور على جهة التطير إذا كان أصبح الطير بصرًا ، وفيه يقول بعضهم :

إذا ما غرابُ البَيْنِ صاح فَقُلْ له رفَّقْ رَمَاك اللهُ يا طيرُ بالبعدِ
لأنتَ على العشاق أقبحُ مَنظرٍ وأبشعُ في الأبصار من رؤية اللحدِ
تصيحُ بِبَيْنٍ ثم تَعثُر ماشيًا وتبرزُ فى ثوبٍ من الحزن مسودِّ
متى صِحْتَ صَحّ البين وانقطع الرَّجا كأنك من يوم الفراق على وعدِ

وأعرض بعضهم عن الغراب وتطير بالإبل ، وسبب ذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل . وفي ذلك قال بعضهم مفردًا وأجاد :

زعموا بأن مَطِيَّهُم سَبَبُ النوى والمؤذناتُ بِفُرْقة الأحبابِ

وقالوا : من تطير من شيء وقع فيه .

وحكي عن إبراهيم بن المهدي قال : أرسل إلي محمد بن زبيدة في ليلة من ليالي الصيف مقمرة يقول : يا عم إني مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا ، فجئته وقد بسط له على سطح زبيدة وعنده سليمان بن أبي جعفر وجاريته نعيم؛ فقال لها :غنينا شيئا فقد سررت بعمومتي فغنت وهي تقول هذه الأبيات :

هُمُو قتلوهُ كي يكونوا مكَانَهُ كما فعلتْ يومًا بكسْرى مَرَازِبُهُ
بني هاشمٍ كيف التواصلُ بيننا وجُنْدُ أخيه سَيْفُهُ ونجائبُه

قال : فغضب وتطير وقال لها ما قصتك ؟ويحك انتبهي وغني ما يسرني . فغنت تقول

كليبٌ لَعَمْرِي كان أكثرَ ناصرًا وأكثرَ حزمًا منك ضُرِّجَ بالدمِ

فقال لها : ويحك ما هذا الغناء في هذه الليلة؟ غني غيره فغنت تقول هذه الأبيات :

ما زال يَعْدُو عليهم رَيْبُ دَهْرِهِمُ حتى تفانوا وريبُ الدهرِ عدَّاءُ
تَبْكي فِرَاقَهُم عيني فَأَرَّقَها إنَّ التفرقَ للمشتاقِ بكاءُ

قال : فانتهرها، وقال لها : قومي إلى لعنة الله. فقالت : يا مولاي لم يجر على لساني غير هذا ، وما ظننت إلا أنك تحبه . ثم إنها قامت من بين يديه ،وكان بين يديه قدح بلور، وكان أبوه يحبه فأصابه طرف ردائها فانكسر .

قال إبراهيم بن المهدى : فالتفت إلي وقال :يا عمي أرى أن هذا آخر أمرنا ، فقلت : كلا بل

يبقيك الله يا أمير الومنين ويسرك فسمعت هاتفا يقول : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : ٤١] . فقال لي: أسمعت ما سمعت يا عم ؟ فقلت : ما سمعت شيئا ، وما هذا إلا توهم فإذا الصوت قد علا . فقال : يا عم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال :فانصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدي به .

خرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل، فلما أراد الدخول إليها اندق لواءه فى أول درب منها فتطير لذلك ؛ فأنشده أبو الشمقمق (١)يقول :

ما كان مُندقُ اللواء لرِيبةٍ تخشى ولا أمرٍ يكون مُبَذَّلا
لكن هذا الرمحَ ضَعُفَ مَتْنُهُ صُغْرُ الولاية فاستَقَلَّ الموصلا

فَسُرَّ خالد وأمر لأبي الشمقمق بعشرة آلاف درهم . ودخل الحجاج الكوفة متوجها إلى عبد الملك فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك ، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال : شاهت الوجوه وتبت الأيدي ويؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم ، وإني على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع وأشأم من يوم نحس مستمر ، وإني لأعجب من لوط وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ هود : ٨٠] ، فأي ركن أشد من الله تعالى أوما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين وقد وليت عليكم أخي محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺمعاذا في أهل اليمن فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وقد أمرته أن يسيء إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن مسيئكم ، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدي : لا أحسن الله له الصحابة ، وأنا معجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة، أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم.

وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه ، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيدا كثيرا فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال فقال : لا حاجة لي به ولكن ائذن لي في الكلام ، فقال : تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتني فضربتني وحبستني ،وتلقيتك فصدت وسلمت فأينا أشأم صباحًا على صاحبه ؟ فضحك منه وأمر له بصلة.

وحكي أيضًا : أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت :

هذي الليالي عَلِمنا أنْ ستطوينا فَشَعْشِعينَا بماء المزنِ واسقينا

قال : فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ، ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات .

---

(١)سبق التعريف به.

وحكي : أن نور الدين محمود، وهمام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرج ، فتجاولا في الكلام ثم قال محمود : يا من درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم ؟ فقال له همام الدين : قل: هل نعيش إلى آخر هذا الشهر؟ ؛ فإن العام كثير قال: فأرى الله على منطقهما ما كان مقدراً في الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ، ومات الآخر قبل تمام العام .

وأما الفراسة : فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] . وقال رسول الله ﷺ : « **اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله** » (١). وقال علي ـ رضي الله تعالى ـ عنه: ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه . وقيل : أشار ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ على عليٍّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ بشيء فلم يعمل به ، ثم ندم فقال : يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .

وحكي أبو سعيد الخراز : أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته فأنفت نفسي منه، فتفرس ذلك مني فقرأ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٣٥] فندمت واستغفرت الله في قلبي فتفرس ذلك أيضًا فقرأ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى : ٢٥].

وحكي :عن الشافعي ، ومحمد بن الحسن : أنهما رأيا رجلاً . فقال أحدهما : إنه نجار ، وقال الآخر: إنه حداد ، فسألاه عن صنعته فقال : كنت حداداً وأنا الآن نجار.

وحكي : أن شخصًا من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة . فقال له : اجلس فإني أشم من كلامك رائحة الكفر ، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل فوصل إلى القسطنطينية فدخل في دين النصرانية . قال من رآه : ولقد رأيته متكئًا على دكة وبيده مروحة يروح بها عليه ، فقلت : السلام عليكم يا فلان ، فسلم علي وتعارفنا ، ثم قلت له بعد ذلك : هل القرآن باق على حاله أم لا ؟ فقال له : لا أذكر منه إلا آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر : ٢] . قال : فبكيت عليه وتركته وانصرفت ، وكان الحسن بن السقاء من موالي بني سليم ولم يكن في الأرض أحرز منه ، كان ينظر إلى السفينة فيحرز ما فيها فلا يخطئ، وكان حرزه للمكيول والموزون والمعدود سواء . كان يقول : في هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ، ويأخذ العود الآس فيقول : فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطئ . وقالوا : إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [القصص : ٦٠ والشورى: ٣٦] .

---

(١) ضعيف : رواه الترمذى فى « التفسير » (٣١٢٧) وأبو نعيم فى « الحلية » (١٠/ ٢٨١) والعقيلى فى «الضعفاء » (٤ / ١٢٩) وفى سنده عطية العوفى وهو ضعيف.

فاعلم أن جواره وليمة ولم يدع إليها ، وإذا رأيت قومًا يخرجون من عند قاض وهم يقولون: ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾[يوسف : ٨١] فاعلم : أن شهادتهم لم تقبل . وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله : كيف ما تقدمت عليه ؟ فقال : الصلاح خير من كل شيء ، فاعلم : أن امرأته قبيحة ، وإذا رأيت إنسانًا يمشي ويلتفت ، فاعلم أنه يريد أن يحدث . وإذا رأيت فقيراً يعدو ويهرول فاعلم أنه في حاجة غني . وإذا رأيت رجلاً خارجًا من عند الوالي وهو يقول ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[الفتح : ١٠] فاعلم أنه صفع. ويقال: عين المرء عنوان قلبه.

وكانوا يقولون :عظم الجبين يدل على البله ، وعرضه يدل على قلة العقل ،وصغره يدل على لطف الحركة ، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد ، والعين المتوسطة في حجمها دليل الفطنة ، وحسن الخلق والمروءة ، والتى يطول تحديقها يدلً على السمع والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان ، وكانت الفُرْسُ تقول: إذا فشا الموت في الوحوش دلَّ على ضيقه ، وإذا فشا في الفأر دلَّ على الخصب ، وإذا نعق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب ، وإذا قوقت دجاجة فجاوبها غراب خرب العمار .

والله أعلم بكل شيء عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾[الأنعام : ٥٩] .

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما : فقد روى عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ عن الرسول ﷺ أنه قال : « أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل »(١) . وروي أن أم سليمان ابن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ قالت : يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن صاحب النوم يجيء يوم القيامة مفلسًا ، وكان زمعة بن صالح يصلى ليلاً طويلاً فإذا أسحر نادى أهله :

يا أَيُّها الركبُ المعرسونا(٢) أَكُلَّ هذا الليل ترقُدُونا

فيتواثبون بين باك وداع ومتضرع فإذا أصبح نادى : عند الصباح يحمد القوم السرى (٣) .

---

(١) ضعيف : رواه ابن أبى الدنيا فى « التهجد » (٤) والبيهقي فى « شعب الإيمان » (٢٧٠٣) وفى سنده سعد بن سعيد الجرجانى . قال البخارى : لا يصح حديثه .

(٢) المعرسونا : المسافرون الذين ينزلون آخر الليل للراحة .

(٣) المثل فى الفاخر/ ١٩٣.

(وأنشدوا) :

يا أيُّها الراقدُ كم ترقدُ ... قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخُذْ من الليل وساعاته ... حظًا إذا ما هجع الرقدُ
مَنْ نام حتى ينقضي لَيْلُه ... لم يبلغ المنزلَ أو يجهد
قل لذوي الألباب أهل التقى ... قنطرةُ الحشر لكم موعدُ

وقيل: إن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون، وأنشد بعضهم:

الا إن نوماتِ الضحى تورثُ الفتى ... غمومًا ونوماتِ العصير جنونُ

وعن ابن العباس بن عبد المطلب أنه مر يومًا بابنه وهو نائم نومة الضحى ، فوكزه برجله، وقال له : قم لا أنام الله عينك أتنام في ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد ؟ أو ما سمعت ما قالت العرب : إنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة .

والنوم على ثلاثة أنواع : نومة الخرق ، ونومة الخلق ، ونومة الحمق ، فنومة الخرق : نومة الضحىٰ ، ونومة الخلق : هي التي أمر النبي ﷺ بها أمته فقال : قيلوا : فإن الشياطين لا تقيل، ونومة الحمق : النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون . وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده : لا تصطبح بالنوم فإنه شؤم ونكد . وقال الثوري لطبيب : دُلني على شيء إذا أردت النوم جاءني ، فقال : ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله ، وكان طاوس يقول : لأن تختلف السياط على ظهري أحب إلي من أن أنام يوم الجمعة، والإمام يخطب . وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحبة على المقلى ويقول اللهم : إن النار منعتني النوم ، وأنشدوا في المعني :

غيرت موضع مرقدي ... يومًا ففارقنى السكونُ
قُلْ لي فأول ليلتي ... في حفرتي أنى أكونُ

وأنشد أبو دلف :

امالكتي رُدِّي عَلَيَّ رُقَادِيا ... ونومي فقد شرَّدِته عن وِسَادِيا(١)
أما تتقين الله في قتل عاشقٍ ... أمت الكرى عنه فأحيا اللياليا(٢)

وأنشد أبو غانم الثقفي :

رقدتُ رُقاد الهِيم حتى لو انني ... يكونُ رقُادي مغُنمًا لَغَنيتُ (٣)

(١)الوساد : التى ينام عليها تحت رأسه .
(٢)الكرى : النعاس .
(٣)الهيم : شدة العطش .

فقيل : لمن هذا ؟ فقال : لرقاد من رقاد العرب . وقيل : إن نوم عبود يضرب به المثل ، وكان عبود هذا عبدًا أسود قيل: إنه نام أسبوعًا ،وقيل: إنه تماوت على أهله ،وقال : اندبوني لأعلم كيف تندبونى إذا أنا مت ؟ فسجى ونام وندب فإذا هو قد مات .

وأما الرؤيا : فقد قيل فيها أقاويل :وهو أنهم قالوا : إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد ، ومنهم من رأى : أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح . ومنهم من زعم: أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية والطبائع .

وذهب جمهور الأطباء : إلى أن الأحلام من الأخلاط وإن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته ، فالذي يغلب عليه الصفراء : يرى بحورًا وعيونًا ومياهًا كثيرة ، ويرى أنه يسبح ويصيد سمكًا ، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في منامه أجداثًا وأمواتًا مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة ، ومن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهي والثياب المصبغة .

والذي يقع عليه التحقيق : أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزء من النبوة ، وكان النبي ﷺ أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . والرؤيا على ضربين : فمنهم: من يرى رؤيا فتجيء على حالها لا تزيد ولا تنقص ، ومنهم: من يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له .

فمن ذلك ما حكي : أن النبي ﷺ رأى في الجنة غرفًا فقال : لمن هذه ؟ فقيل : لأبي جهل ابن هشام ، فقال : ما لأبي جهل والجنة والله لا يدخلها أبدًا . قال : فأتاه عكرمة ولده مسلمًا ، فتأولها به . وكذلك تأول في قتل الحسين لما رأى أن كلبًا أبقع (١) يلغ في دمه ، وكان ذلك بعد رؤياه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بخمسين عامًا ،وكذلك حين قال لأبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ إني رأيت كأني رقيت أنا وأنت درجًا فى الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف ، فقال أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ: يا رسول الله أقبض بعدك بسنتين ونصف . ورأت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ سقوط ثلاثة أقمار فى حجرتها فأولها أبوها بموته ، وموت النبي ﷺ، وموت عمر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك .

وحكي : أن أم الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر ، ثم تفرق في كل بلد قطعة ، فَأُوِّلَ بعالم يكون بمصر ،وينتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك .

وحكي أيضًا : أن عاملاً أتى عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقال : رأيت الشمس والقمر

(١) أبقع : خالط لونَهُ لونٌ آخر. يلغ فيه : أدخل لسانه فيه وشرب .

اقتتلا، فقال له عمر مع من كنت ؟ قال : مع القمر ، فقال : مع الآية الممحوة والله لا وليت لي عملاً فعزله . ثم اتفق أن عليًا ـ رضي الله تعالى عنه ـ وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية .

وأما من مهر في تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين . جاءه رجل فقال له : رأيت كأني أسقي شجرة زيتون زيتًا ، فاستوى جالسًا فقال : ما التي تحتك ؟ قال : علجة اشتريتها ، وفي رواية جارية ، وأنا أطؤها فقال : أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدها أمه . وجاءه رجل فقال: رأيت كأن في يدي خاتمًا أختم به فروج النساء وأفواه الرجال ، فقال له أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء . وجاءه رجل فقال : رأيت جارة لي قد ذبحت في بيت من دارها ، فقال هي امرأة نكحت في ذلك البيت ، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتم لذلك ثم بلغه أن الرجل قدم في تلك الليلة وجامع زوجته في ذلك البيت . وجاءه رجل معه جراب فقال له : رأيت في النوم كأني أَسُدُّ الزقاق سدًا وثيقًا شديدًا ، فقال له : أنت رأيت هذا ؟ قال : نعم ، فقال لمن حضره : ينبغي أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان وربما تكون في جرابه آلة الخنق ، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتارًا وحلقًا فسلموه إلى السلطان . وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له : رأيت في النوم كأن القمر دخل في الثريا ، ونادي مناد من خلفي أن ائتي ابن سيرين فقص عليه ، فتقلصت يده ،وقال : : ويلك كيف رأيت هذا ؟ فأعادت عليه فقال لأخته : هذه تزعم أني أموت لسبعة أيام وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع ومات بعد سبعة أيام. وجاءه رجل فقال : رأيت كأني آخذ البيض وأقشره فآكل بياضه وألقى صفاره ، فقال : إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان كذلك .

وحكى : أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصي ، وقال : يموت الحسن وأموت بعده . وهو أشرف مني فمات الحسن ومات بعده بمائة يوم .

وحكي : أن رجلاً رأى عيسى ـ عليه السلام ـ قال له : يا نبي الله صلبك حق ، قال : نعم، فعبره على بعضهم ، فقال: تكذب رؤياك بقوله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. ولكن هو عائد على الرائي فكان كذلك . وأتى ابنة مغيث آت في المنام فقال لها:

لك البشيرى بولد أشبه شيء بالأسد
إذا الرجال في كبد تغالبوا على بلد
كان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبي عبيد : وذلك في عام الهجرة . وقال رجل لسعيد بن المسيب : رأيت

كأني بُلْتُ خلف المقام أربع مرات . قال : كذبت لست صاحب هـذه الرؤيا ، قـال : هـو عبد الملك ، فقال : يلي أربعة من صلبه الخلافة . وقال الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ: رأيت عليًا ـ رضي الله تعالى عنه ـ في المنام فقال لي : ناولني كتبك فناولته إياها فأخذها وبددها فأصبحت أخا كآبة ، فأتيت الجعد فأخبرته فقال : سيرفع الله شأنك وينشر علمك .

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : من رآني في منامه فقد رآني حقًا، فإن الشيطان لا يتمثل بي ، وجاء إلى النبي ﷺ فقال : رأيت كأن رأسي قد قطع وأنا أنظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال : بأي عين كنت تنظر إلى رأسك فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي وأولوا رأسه بنبيه ونظره إليه باتباع سنته ، وقال رجل لعلي بن الحسين : رأيت كأني أبول في يدي ، فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امـرأته رضاع. وقال أبو حنيـفة ـ رضي الله عنه رأيت كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدري فهالني ذلك فسألت ابن سيرين، فقال : ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا ، قلت : أنا رأيتها . قال: إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك ﷺ .

وقال النبي ﷺ: « الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة في الدنيا والآخرة». وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: تضرعت إلى ربي سنة أن يريني أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألته فقال : لولا رحمة الله لهلك أبوك . إنه سألني عن عقال بعير للصدقة ، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز ، فصاح وضرب بيده على رأسه ، وقال : فعل هذا بالتقي الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الحادى والستون

فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة : من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يستبح بها محظور ، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل في الفقه فقال : علمكم الله ذلك فإنه قال : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص: ٤٤] . وكان ﷺ إذا أراد غزوة ، ورى بغيرها ، وكان يقول : « الحرب خدعة»(١) . ولما أراد عمر ـ رضي الله عنه ـ قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدح فيه ماء ، فأمسكه في يده واضطرب فقال له عمر : لا بأس عليك حتى تشربه ، فألقى القدح من يده فأمر عمر بقتله : فقال: أو لم تؤمني ؟ قال : كيف أمنتك ؟. قال : قلت : لا بأس عليك حتى تشربه وقولك :لا بأس عليك أمان ولم أشربه ، فقال عمر: قاتلك الله أخذت مني أمانًا ولم أشعر .

وقيل : كان دهاة العرب أربعة ، كلهم ولدوا بالطائف: معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، والسائب بن الأقرع . وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل . وكان يقال : ليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها ، بل العاقل الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها . وقال الضحاك بن مزاحم لنصراني : لو أسلمت ، فقال : ما زلت محبًا للإسلام إلا أنه يمنعني منه حبي للخمر، فقال : أسلم واشربها، فلما أسلم . قال له : قد أسلمت ، فإن شربتها حديناك وإن ارتددت قتلناك ، فاختر لنفسك ، فاختار الإسلام وحسن إسلامه ، فأخذه بالحيلة .

وقيل : دليت من السماء سلسلة في أيام داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس ، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذبًا لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة ، فارتفعت ، وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهرة ، فخبأها في مكانه في عكازة ، ثم إن صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها ، فتحاكما عند السلسلة ، فقال المدعي : اللهم إن كنت صادقًا فلتدن مني السلسلة ، فدنت منه فمسها ، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعي وقال : اللهم إن كنت تعلم أني رددت الجوهرة إليه ، فلتدن مني السلسلة ، فدنت منه فمسها ، فقال الناس : قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم ، فارتفعت بشؤم الخديعة ، وأوحى الله تعالى إلى داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أن احْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْبَيِّنَةِ وَالْيَمِينِ . فبقي ذلك إلى قيام الساعة .

وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي من دهاة ثقيف وثقيف دهاة العرب ، قيل : إنه وجه إبراهيم ابن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد، ثم دعا برجل من خواصه ، فدفع إليه حمامة بيضاء

---

(١) رواه البخارى فى « الجهاد » (٣٠٢٩) ومسلم فى « المغازى » (٤٤٥٨) عن جابر رضى الله عنه .

وقال له : إن رأيت الأمر عليكم فأرسلها ، ثم قال للناس : إني لأجد في محكم الكتاب، وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعاب ، تأتي في صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة، فأرسلها ، فتصايح الناس: الملائكة الملائكة وحملوا ، فانتصروا وقتلوا ابن زياد .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله ، فاختصمتا في الصبي الباقي إلى داود ـ عليه الصلاة السلام ـ فقال : كيف أمركما ؟ فقصتا عليه القصة ، فحكم به للكبرى منهما ، فاختصما إلى سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : ائتوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منكما نصف ، فقالت الصغرى : أتشقه يا نبي الله ؟ قال : نعم ، قالت : لا تفعل ونصيبي فيه للكبرى ، فقال : خذيه ، فهو ابنك، وقضى به لها ، وجاء رجل إلى سليمان بن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وقال : يا نبي الله إن لي جيرانًا يسرقون أوزي ، فلا أعرف السارق ، فنادى الصلاة جامعة ، ثم خطبهم وقال في خطبته : وإن أحدكم ليسرق أوز جاره ، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه ، فمسح الرجل رأسه ، فقال سليمان : خذوه فهو صاحبكم .

وخطب المغيرة بن شعبة ، وفتى من العرب امرأة ، وكان شابًا جميلاً ، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها ، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما ، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب، وعاين جماله علم أنها تؤثره عليه ، فأقبل على الفتى وقال : لقد أوتيت جمالاً ، فهل عندك غير هذا ؟ قال : نعم ، فعدد محاسنه ثم سكت ، فقال له المغيرة : كيف حسابك مع أهلك ؟ قال : ما يخفى علي منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردل . فقال المغيرة : لكني أضع البدرة في بيتي ، فينفقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها. فقالت المرأة : والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إلي من هذا الذي يحصي علي مثقال الذرة ، فتزوجت المغيرة.

وبلغ عضد الدولة أن قومًا من الأكراد يقطعون الطريق ، ويقيمون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم ، فاستدعى بعض التجار ودفع إليه بغلاً عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة ، ودنانير وافرة ، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء ، ففعل التاجر ذلك ، وسار أمام القافلة ، فنزل القوم ، فأخذوا الأمتعة والأموال ، وانفرد أحدهم بالبغل ، وصعد به الجبل ، فوجد به الحلوى ، فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه ، فاستدعاهم ، فأكلوا على مجاعة ، فماتوا عن آخرهم ، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

وأتى لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة ، فأقامهما بين يديه ، ثم دعى بشربة ماء ، فجيء

له بكوز ، فرماه بين يديه ، فارتاع أحدهما وثبت الآخر ، فقال للذي ارتاع : اذهب إلى حال سبيلك ، وقال للآخر : أنت أخذت المال ، وتلذذت به ، وتهدده فأقر ، فسئل عن ذلك، فقال: إن اللص قوي القلب ، والبرىء يجزع ولو تحرك عصفور لفزع منه .

وقصد رجل الحج ، فاستودع إنسانًا مالاً ، فلما عاد طلبه منه ، فجحده المستودع ، فأخبر بذلك القاضي إياسًا ، فقال : أعَلِم بأنك جئتني ؟ قال : لا ، قال : فعد إليّ بعد يومين ، ثم إن القاضي إياسًا بعث إلى ذلك الرجل ، فأحضره ، ثم قال له : اعلم أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم ،وودائع للناس ، وإنى مسافر سفرًا بعيدًا وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين منزلك ، فقال : حبًا وكرامة . قال : فاذهب وهيئ موضعًا للمال وقومًا يحملونه ، فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة . فقال له القاضي إياس : امض إلى صاحبك ، وقل له : ادفع إلي مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس ، فلما جاء ، وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه ، فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره . ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي ، فقال له القاضي بعد أن أخذ الرجل ماله منه : بدا لي ترك السفر امض لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك .

ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للداخل عليه ليقتله : إني لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حقك علي . قال : وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني ، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر ، فأخرج الصندوق فإذا فيه حقٌ فيه حَبٌ ، ورقعة مكتوب فيها : من تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أبكار ؛ وكان لشيرويه غرام في الباه ، فتناول منه حبَّةً فهلك من ساعته ، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله .

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء ، فقال له الرشيد: لِمَ تخلفت ؟ فقال : عاقني عائق ، فقال : اقرأوا عليه كتاب البيعة ، فقال يا أمير المؤمنين : هذه البيعة في عنقي إلى قيام الساعة، فلم يفهم الرشيد ما أراد ، وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر ، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس .

وقال المغيرة ان شعبة : لم يخدعني غير غلام من بني الحرث بن كعب ، فإني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها ، فقال : أيها الأمير لا خير لك فيها ، فقلت : ولم ؟ قال : رأيت رجلاً يقبلها، فاعرض عنها ، فتزوجها الفتى ، فلمته ، وقلت : ألم تخبرني أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال : نعم رأيت أباها يقبلها .

وأتى رجل إلى الأحنف ، فلطمه ، فقال : ما حملك على هذا ؟ فقال : جُعِل لي جَعْلٌ على أن ألطم سيد بني تميم ، فقال : لست بسيدهم عليك بحارثة بن قدامة ، فإنه سيدهم ، فمضى إليه ، فلطمه فقطعت يده .

وقال الشعبي : وجهني عبد الملك إلى ملك الروم ، فقال لي : من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت : لا ، ولكني رجل من العرب ، فكتب إلى عبد الملك رقعة ودفعها إلي ، فلما قرأها عبد الملك قال لي : أتدري ما فيها ؟ قلت : لا ، قال فيها : « العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره ؟ » . قال : أتدري ما أراد بهذا ؟ قلت : لا ، قال : حسدني عليك ، فأراد أن أقتلك ، فقلت : إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئًا إلا سألني عنه، وأنا أجيبه ، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي . فقال : لله أبوه ما عدا ما في نفسي :

ولما ولى عبد الملك بن مروان أخاه بشرًا الكوفة ، وكان شابًا ظريفًا غزلاً ، بعث معه روح ابن زنباع ، وكان شيخًا متورعًا ، فثقل على بشر مرافقته ، فذكر ذلك لندمائه فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً في خفية ، فكتب على حائط قريب من مجلسه هذه الأبيات:

يا روحُ مَنْ لِبُنَيَّاتٍ وأرملةٍ إذا نعاكَ لأهلِ المغربِ النَّاعي
إنَّ ابنَ مروانَ قد حانتْ مَنِيَّتُهُ فاحتلْ بِنَفْسِكَ يَا روحُ بنُ زنباع

فتخوف من ذلك وخرج من الكوفة ، فلما وصل إلى عبد الله أخبره بذلك ، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك ، وقال : ثقلت على بشر وأصحابه ، فاحتالوا لك .

ومن الحيل الطريفة :ما حكي أن النبي ﷺ لما فتح خيبر وأعرس بصفية ، وفرح المسلمون جاء الحجاج بن علاط السلمي ، وكان أول من أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر ، فقال: يا رسول الله إن لي بمكة مالاً عند صاحبتي أم شيبة ، ولي مال متفرق عند تجار مكة ، فأذن لي يا رسول الله في العودة إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم ، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة ، فأذن لي لعلي أخلصه ، فأذن له رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إني أحتاج إلى أن أقول ، فقال له رسول الله ﷺ: قل ، وأنت في حل ، قال الحجاج : فخرجت، فلما انتهيت إلى الثنية - ثنية البيضاء وجدت بها رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار ، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر ، فلما أبصروني قالوا : هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجاج، فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمدًا ﷺ قد سار إلى خيبر ، قال : قلت :إنه سار إلى خيبر وعندي من الخبر ما يسركم ، قال : فأحدقوا حول ناقتي يقولون: إيه يا حجاج؟ قال : فقلت : هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وأُسِرَ محمد وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم . قال : فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم ، فيقتل بين أظهركم . قال : فقلت أعينوني على جمع مالي من غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر ، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه أن يسبقني

التجار إلى هناك ، فقاموا معي ، فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب ، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل علي حتى وقف إلى جانبي ، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال : يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به ؟ قال : فقلت : وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر ؟ فقال : نعم والله. قال : قلت: استأخر عني حتى ألقاك على خلاء ، فإني في جمع مالي كما ترى ، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة ، وأجمعت على الخروج، لقيت العباس ، فقلت له : احفظ علي حديثي يا أبا الفضل ، فإني أخشى أن يتبعوني ، فاكتم علي ثلاثة أيام ، ثم قل ما شئت . قال : لك علي ذلك . قال : قلت: والله ما تركت ابن أخيك إلا عروسًا على ابنة ملكهم يعني صفية ، وقد افتتح خيبر ، وغنم ما فيها، وصارت له ولأصحابه . قال : أحق ما تقول يا حجاج ؟ قال : قلت :أي والله، ولقد أسلمت ، وما جئت إلا مسلمًا لآخذ مالي خوفًا من أن أغلب عليه ، فإذا مضت ثلاثة ، فاظهر أمرك فهو والله على ما تحب ، قال : فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب ، وأخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى الكعبة ، فطاف بها ، فلما رأوه قالوا : يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة ، قال : كلا والذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروسًا على ابنة ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها ، فأصبحت له ولأصحابه ، قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذي جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلمًا وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمدًا وأصحابه ليكون معهم . قالوا : تفلت عدو الله أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال : ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك ، فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله .

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق ، وقصدوا المدينة ، وتظاهروا وهم في جمع كثير وجم غفير من قريش وغطفان ، وقبائل العرب وبني النضير ، وبني قريظة من اليهود ، ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ، واشتد الأمر ، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١٠ ، ١١] . فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال له رسول الله : خذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة ، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان نديمًا لهم في الجاهلية ، فقال: يا بني قريظة : قد علمتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم ، فإن البلد بلدكم وبه أموالكم ، وأبناؤكم ، ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره،

وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وأموالهم وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم ، وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً ، قالوا : أشرت بالرأي ، ثم أتى قريشًا ، فقال لأبي سفيان بن حرب وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش : قد علمتم ودي لكم، وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحًا لكم ، فاكتموه علي .

قالوا : نعم ، قال : اعلموا أن معشر يهود بني قريظة قد ندّموا على مافعلوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ، فنسلمهم إليك، فتضرب رقابهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم ، فنستأصلهم ، فأرسل يقول: نعم. فإن بعث إليكم يهود بني قريظة يلتمسون منكم رهائن من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً ، ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر ، فاعتدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ فيما بيننا وبينه، فأرسلوا يقولون لهم : إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به ، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون : إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال ، فاخرجوا وقاتلوا ، فقال بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق ، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا ، فأبوا عليهم ، فخذل الله تعالى بينهما ، وأرسل عليهم الريح ، فتفرقوا وارتحلوا . وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التى عم نفعها وحسن وقعها .

وأما ما جاء في التيقظ والتبصر في الأمور: فقد قالت الحكماء: من أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ أيس عدوه من كيده له، وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: **اليقظة** حارس لا ينام، وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشي، فمن تدرع بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر، إن كسرى أنوشروان كان أشد الناس تطلعا في خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى في زمانه تفحصا وبحثا عن أسرار الصدور، وكان يبث العيون على الرعايا والجواسيس في البلاد ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان، ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك فليس له من الملك إلا اسمه، وسقطت من القلوب هيبته.

وروي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ في ليلة من الليالي يطوف يتفقد أحوال المسلمين، فرأى بيتًا من الشَّعْرِ مضروبًا، فلم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلاً قاعدًا، فدنا منه وقال له: من الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق. قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا، فانطلق عمر الرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنهم ـ: هل لك في أجر قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن شئت، قال: فخذي معك ما يصلح للمرأة من الخِرَق والدهن، وائتني بقدر وشحم وحبوب. فجاءت به، فحمل القدر، ومشت خلفه حتى أتى البيت، فقال: ادخلي إلى المرأة، ثم قال للرجل: أوقد لي نارًا، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم ـ رضي الله عنها ـ: بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول: يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب: من ولي شيئًا من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره، فإنه عنها مسئول ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة، ثم قام عمر ـ رضي الله عنه ـ، وأخذ القدر من على النار وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم، وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ للرجل: قم إلى بيتك وكُل ما في البرمة، وفي غدٍ ائت إلينا، فلما أصبح جاءه، فجهزه بما أغناه به وانصرف.

وكان ـ رضي الله عنه ـ من شدة حرصه على تعرف الأحوال وإقامة قسطاس العدل ، وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعس بنفسه ، ويباشر أمور الرعية سرًا في كثير من الليالي ، حتى أنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج ، وسمع حديثًا ، فوقف على الباب يتجسس ، فرأى عبدًا أسود قدامه إناء فيه مِزْرٌ (١) وهو يشرب ومعه جماعة ، فهم بالدخول من الباب ، فلم يقدر من تحصين البيت ، فتسور على السطح ونزل إليهم من الدرجة ، ومعه الدرة ، فلما رأوه قاموا ، وفتحوا الباب وانهزموا (٢) فمسك الأسود ، فقال له : يا أمير المؤمنين قد أخطأت وإني تائب ، فاقبل توبتي ، فقال : أريد أن أضربك على خطيئتك . فقال يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت في واحدة ، فأنت قد أخطأت في ثلاث : فإن الله تعالى قال : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] وأنت تجسست ، وقال تعالى : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [البقرة : ١٨٩] وأنت أتيت من السطح ، وقال تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النور : ٢٧] ، وأنت دخلت وما سلمت ، فهب هذه لهذه ، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود ، فاستتوبه ، فاستحسن كلامَهُ .

وله ـ رضي الله تعالى عنه ـ وقائع كثيرة مثل هذه .

وكان معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله تعالى عنه ـ قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ في ذلك ، وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه في حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زيادًا لا يعرفه ، فقال : أنا فلان ابن فلان فتبسم زياد وقال له : أتتعرف إلي ، وأنا أعرف بك منك بنفسك ؟ . والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك ، وأعرف جدك وجدتك ، وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان، وقد أعارك إياها ، فبهت الرجل وارتعد ، حتى كاد يغشى عليه .

ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم وهو : عبد الملك بن مروان ، والحجاج ، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق ، واقتفى آثار ذلك الفريق إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس . ولي الخلافة بعد أخيه السفاح ، وهى فى غاية الاضطراب فنصب العيون ، وأقام المتطلعين ، وبث في البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والرعايا ، فاستقامت له الأمور ، ودانت له الجهات ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازعوه ، وأرادوا خلعه ، وتمردوا عليه ، وتكاثروا ، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم ، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم ، لكنه بث العيون فعرف من انطوى على خلافه فعالجه بإتلافه ، واطلع على عزائم المعاندين فقطع

---

(١) المِزْرُ : نبيذ الذرة خاصة .

(٢) انهزموا : تكسروا وتفرقوا هربا.

رءوس عنادهم بأسيافه ، وكان بكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه ، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه ، فذلت له الرقاب ، ولانت لخلافته الصعاب ، وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب .

فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدي قال : دخلت مع الجند على المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لي : من أنت ؟ فقلت : رجل من الأزد وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص ، فقال : إني لأرى لك هيبة وفيك نجابة، وإني أريدك لأمر وأنا به معني ، فإن كفيتنيه رفعتك ، فقلت : إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين ، فقال : أخف نفسك واحضر في يوم كذا . قال : فغبت عنه إلى ذلك اليوم، وحضرت ، فلم يترك عنده أحدًا، ثم قال لي : اعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتياله ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم ، فخذ معك عينًا(١) من عندى ، والطافًا ، وكتبًا ، واذهب حتى تأتى عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فاقدم عليه متخشعًا ، والكتب على ألسنة أهل تلك القرية والألطاف من عندهم إليه ، فإذا رآك فإنه سيردك ويقول لا أعرف هؤلاء القوم ، فاصبر عليه وعاوده وقل له : قد سيروني سرًا ، وسيروا معي الطافًا وعينًا ، وكلما جبهك ، وأنكر اصبر عليه ، وعاوده ، واكشف باطن أمره .

قال عقبة : فأخذت كتبه والعين والألطاف ، وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن ، فلقيته بالكتب ، فأنكرها ونهرني وقال: ما أعرف هؤلاء القوم قال عقبة : فلم أنصرف ، وعاودته القول وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم ، وأن معي ألطافًا ، وعينًا، فأنس بي ، وأخذ الكتب وما كان معي . قال عقبة: فتركته ذلك اليوم ، ثم سألته الجواب ، فقال : أما كتاب ، فلا أكتب إلى أحد ، ولكن أنت كتابي إليهم ، فاقرئهم السلام وأخبرهم أن ابني محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا ، قال عقبة : فخرجت من عنده ، وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك ، فقال لي المنصور : إني أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقاني بنو الحسن وفيهم عبد الله ، فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه ، وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله ، ونظرت إليه ، فتمثل بين يدي ، وقف قدامه، فإنه سيصرف وجهه عنك ، فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك ثم انصرف عنه، وإياك أن يراك وهو يأكل . ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن ، فأجلس عبد الله إلى جانبه وحادثه ، فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه ، فلما فرغوا أمر برفعه ، فرفع ، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال : يا أبا محمد قد علمت أن مما أعطيتني من العهود

(١) العين : جاسوسًا.

والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ولا تكيد لي سلطانًا ، قال : فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين . قال عقبة : فلحظني المنصور بعينه ، فقمت حتى وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن ، فأعرض عني، فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلي ، فرفع رأسه وملأ عينيه مني ثم وثب حتى جثى بين يدي المنصور، وقال : أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله . فقال له المنصور : لا أقالني الله إن لم أقتلك ، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمد وإبراهيم ويستعلم أخبارهما .

قال علي الهاشمي صاحب غدائه : دعاني المنصور يومًا فإذا بين يديه جارية صفراء ، وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها : ويلك أصدقيني ، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتيني لأصلن رحمه ولأتابعن البر إليه . وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب . وهي تقول : لا أعرف له مكانًا ، فأمر بتعذيبها ، فلما بلغ العذاب منها أغمي عليها ، فقال : كفوا عنها ، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال : ما دواء مثلها ؟ قالوا : شم الطيب وصب الماء البارد على وجهها وأن تسقى السويق(١) ، ففعلوا بها ذلك ، وعالج المنصور بعضه بيده ، فلما أفاقت سألها عنه ، فقالت : لا أعلم ، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها : أتعرفين فلانة الحجامة ؟، فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها . وقالت : نعم يا أمير المؤمنين تلك من بني سليم . قال : صدقت . هي والله أمتي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر، وكسوة شتائها وصيفها من عندي سيرتها ، وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركم ثم قال لها : أتعرفين فلانًا البقال ؟ قالت : نعم يا أمير المؤمنين هو في بني فلان ، قال: صدقت هو والله غلامي دفعت إليه مالاً ، وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة ، وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء، وحوائج ، فقال لها : ما تصنعين بهذا ؟ قالت : كان محمد بن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع ، وهو يدخل الليلة ، وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أرواجهن من المغيب . فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف ، وأذعنت له بالحديث وحدثته بكل ما أراد .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ،وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير.

الباب الثانى والستون

فى ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات
وما أشبه ذلك مرتبا على حروف المعجم
حرف الهمزة

(الأسد) من السباع ، والأنثى أسدة ، وله أسماء كثيرة ، فمن أشهرها : أسامة ، والحرث، وقسورة ، والغضنفر ، وحيدرة ، والليث ، والضرغام ، ومن كُنَاه : أبو الإبطال ، وأبو شبل ، وأبو العباس ، وهو أنواع : منها : ما وجهه وجه إنسان ، وشكل جسده كالبقرة ، وله قرون سود نحو شبر ، ومنها : ما هو أحمر كالعناب وغير ذلك ، وتلده أمه قطعة لحم ، وتستمر تحرسه ثلاثة أيام ، ثم يأتى أبوه فينفخ فيه ، فتنفرج أعضاؤه وتشكل صورته ، ثم ترضعه، وتستمر عيناه مغلوقة سبعة أيام ، ثم تفتح ويقيم علي تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر، ثم يتكلف الكسب بعد ذلك وله صبر على الجوع والعطش . وعنده شرف نفس يقال: إنه لا يعاود فريسته ، ولا يأكل من فريسة غيره ، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب وفى ذلك يقول بعضهم :

سأترُكُ حبكم من غير بغض وذاك لكثرة الشّركَاءِ فيه
إذا وقع الذبابُ على طعام رفعتُ يدى ونفسى تشتهيه
وتجتَنِبُ الأسودُ ورود ماء إذا كان الكِلابُ يَلَغْن فيه

وإذا أكل نهش نهشًا ، وريقه قليل جدًا ، لذلك يوصف بالبخر(١) ، وعنده شجاعة وجبن وكرم ، فمن شجاعته : الإقدام على الأمور ، وعدم الاكتراث بالغير ، ومن جبنه : أنه يفر من صوت الديك والسنور ، والطست، ويتحير عند رؤية النار . ومن كرمه : أنه لا يقرب المرأة خصوصا إذا كانت حائضا ، وقيل : أربع عيون تضىء بالليل: عين الأسد ، وعين النمر ، وعين السنور ، وعين الأفعى .

وروى أنه لما تلا رسول الله ﷺ : ﴿ والنجمُ إذا هَوى ﴾ [النجم: ١] قال عتبة بن أبى لهب: كفرت برب النجم يعنى نفسه، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك ينهشه ، فخرج مع أصحابه فى عير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له: الزرقاء، زأر الأسد، فجعلت فرائصه ترتعد ، فقالوا له : من أى شىء ترتعد فرائصك ، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء؟ فقال: إن محمدًا دعا على. . ووالله ما أظلت السماء من ذى لهجة أصدق من محمد . ثم وضعوا العشاء فلم يدخل يده فيه ، ثم جاء النوم ، فحاطوا أنفسهم بمتاعهم ، وجعلوه

(١) البخر : نتن رائحة الفم .

بينهم، وناموا ، فجاء الأسد يتهمس وشمهم رجلا رجلا حتى انتهى إليه ، فضغطه ضغطة كانت إياها ، فسمع وهو بآخر رمق يقول : ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس . ولبعضهم فى الأسد :

عبوسٌ شموسٌ مُصَلّخَدٌ مُكابِدُ ... جرىء على الأقران للقرن قاهرُ (١)
براثنُه شثن وعيناه فى الدجى ... كجمر الغَضَى فى وجهه الشر ظاهرُ (٢)
يديلُ بأنياب حداد كأنها ... إذا قلص الأشداق عنها خناجرُ (٣)

فائدة : إذا أقبلت على واد مسبع ، فقل : أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد ، وسبب ذلك ما قيل : إن بختنصر رأى فى نومه أن هلاكه يكون على يد مولود ، فجعل يأمر بقتل الأطفال ، فخافت أم دانيال عليه، فجاءت إلى بئر، فألقته فيه ، فأرسل الله له أسدا يحرسه ، وقيل : إن بختنصر توهم ذلك فى دانيال ، فضرى له أسدين وجعلهما فى الجب وألقاه عليهما، فلم يؤذياه، وصارا يبصبصان حوله ، ويلحسانه، فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم اشتهى الطعام والشراب فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشام أن اذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا بمكان كذا.

قال أرمياء : فسرت إلى ذلك الموضع ، فلما وقفت على رأس الجب ناديته ، فعرفنى فقال : من أرسلك إلى ؟ قلت : أرسلنى الله إليك بطعام وشراب ، فقال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذى لا يخيب من قصده، والحمد لله الذى من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحسانا وبالصبر نجاة وغفرانا ، والحمد لله الذى يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا ، قال : ثم صعد به أرمياء من الجب ، وأقام عنده مدة، ثم فارقه ورجع .

وحكي : أن يحيى بن زكريا ـ عليهما الصلاة والسلام ـ مرّ بقبر دانيال ـ عليه الصلاة والسلام، فسمع منه صوتًا يقول : سبحان من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت . قال بعض الصالحين : من قال هذا الكلمات استغفر له كل شىء .

وحكي : أن إبراهيم بن أدهم كان فى سفره ومعه رفقة ، فخرج عليهم الأسد ، فقال لهم: قولوا : اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واحفظنا بركنك الذى لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا، فلا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله . يا الله قال : فولى الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى ،

---

(١) مصلخد : قوى شديد .الأقران : مفرده القرن وهو المثيل له من الحيوانات.
(٢) الشثّن : الغليظة . والغضى : شجر فحمه شديد اللهب والحرارة .
(٣) يديل : يتمتع ويمتاز.

وهى أول حمى نزلت فى الأرض ، ثم شكوا إليه العذرة، فأمر الله تعالى الخنزير ، فعطس فخرج منه الفأر ، فلما كثر وزاد ضرره ، فشكوا ذلك لنوح ـ عليه السلام ـ ، فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد ، فعطس ، فخرج منه الهر ، فحجب الفأر عنهم ، ويحرم أكل السبع لنهيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير .

خواصه : فمن خواصه : أن صوته يقتل التماسيح ، وشحمه من طلى به يده لم يقربه سبع، ومرارة الذكر منه تحل المعقود ، ولحمه ينفع من الفالج ، وإذا وضعت قطعة من جلده فى صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة ، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره ، وهو من الحيوان الذى يعيش ألف سنة على ما ذكر ، وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه .

(الإبل) قيل : ما خلق الله شيئًا من الدواب خيراً من الإبل . إن حملت أثقلت ، وإن سارت أبعدت ، وإن حلبت أروت ، وإن نحرت أشبعت . وفى حديث : « الإبل عز لأهلها، والغنم بركة ، والخيل معقود بنوصيها الخير إلى يوم القيامة » ، وهى من الحيوان العجيب ، وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس ، وقد أطاعها الله للآدمى وغيره حتى قيل : إن قطاراً كان ببعض حبله دهن ، فمرت فأرة ، فجذبته ، فسار معها القطار بواسطة جذبها له ، وهى مراكب البر ، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٢] . ولما كانت مراكب البر والبر . فيه ما ماؤه قليل ، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبراً على العطش حتى قيل : إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر . وفى الحديث : « لا تسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى أى مما يوسع به على الناس » . حكاه ابن سيده . والذى يعرف : لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن .

قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان : ليس لشىء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه، فإنه يسوء خلقه ، فيظهر زبده ، ويقل رغاؤه فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل ويقل أكله، ويخرج له عند رغائه شقشقة لا تعرف من شىء هى من أجزائه ، وهو من الأحرار حتى قيل : إنه لا ينزو لا على أمه ولا على أخته حتى قيل : إن بعض العرب ستر ناقته بثوب ثم أرسل عليها ولدها ، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله ، فأكله ، ثم حقد على صاحبه حتى قتله، وليس له مرارة ، ولذلك كثر صبره . وقيل : يوجد على كبده شىء رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة فى العين كحلاً ، وفى معدته قوة حتى أنها تهضم الشوك وتستطيبه ، ويحل أكله بالنص والإجماع ، وأما تحريم يعقوب ـ عليه السلام ـ أكلها فباجتهاد منه، وذلك أنه كان يسكن البوادى، فاشتكى عرق النساء ، فلم يجد ما هو يلائمه إلا ترك أكل لحومها ، فلذلك حرمها .

وأما انتقاض الوضوء بأكل لحمها : فاختلف العلماء فى ذلك : فذهب الأكثرون إلى أنه لا ينقض ، وعليه الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبى ، وابن عباس ، وأبو الدرداء ،

وأبــو طلحة، وعامر بن ربيعة ، وأبو أمامة ، وجماهير التابعين ، وبه أخذ مالك ، والشافعى ، وأبو حنيفة ، وأصحابهم ، وخالف فى ذلك : أحمد ، وإسحاق ، ويحيى بن يحيى ، وابن المنذر ، وابن خزيمة ، واختاره البيهقى ، وهو مذهب الشافعى القديم .

خواصه : قال ابن زهير وغيره : أكله يزيد فى الباه (١) وفى الإنعاظ (٢) بعد الجماع ، وبوله يفيق السكران ، ووبره إذا أُحرق وذر على دم سائل قطعه ، وقراده إذا رُبط على كم عاشق يزول عشقه .

(الأرضة) بفتح الهمزة والراء : دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق ، ولما كان فعلها فى الأرض أضيف اسمها إليها . **قال القزوينى** : إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما ، **ويقال** : إنها الدابة التى دلت الجن على موت سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، **ومن شأنها** : أنها تبنى لنفسها بيتًا من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطًا من أسفله إلى أعلاه ، وله فى إحدى جهاته باب مربع ، **ومنه** تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم، والنمل عدوها ، وهو أصغر منها ، فيأتى من خلفها ويحتملها ويمشى إلى جحره لأنه لو أتاها مستقبلاً لا يغلبها .

(الأرنب) حيوان شبه العناق قصير اليدين طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه ، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى وله شدة شبق وربما تسفد وهى حبلى ، ويكون عامًا ذكرًا وعامًا أنثى . **ومن عجائبها** : أنها تنام وعيناها مفتوحتان ، فيأتى الصياد ، فيظنها مستيقظة ، قيل: من رأى أرنبًا عند خروجه من بيته أول ما يخرج أو رآه عند قيامه من نومه ، واصطبح به لم تقض له حاجة فى ذلك اليوم ، **ومن عجيب أمره** : أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفًا على أولادها من الإنسان ، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى أنها تخرب الجدران ، وعند ولادتها ينتحل شعرها ، وهى تحضن الأولاد إلى عشرين يومًا .

ومن طبعه : أنه أبله ، وفيه قوة وشدة ، وفى سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالسنانير، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة ، وعند سفاده تدير له وجهها فإذا ملكها بعد ذلك فإنها تجرى به وهو راكب عليها ويجرى معها .

فائدة : ذكر ابن الأثير فى « الكامل » أن صديقا له اصطاد أرنبًا وله أنثيان وذكر وفرج .

وقيل : التقطت الأرنب تمرة فاختلسها الثعلب ، فأكلها ، فانطلقا يتخاصمان إلى الضب ، فقال الأرنب : يا أبا حسل ، فقال : سميعًا دعوت . قالت : أتيناك لنختصم . قال : عدلاً وحكيمًا . قالت : فاخرج إلينا ، قال : فى بيته يؤتى الحكم . قالت: إنى وجدت تمرة حلوة قال

(١) الباه : الفطنة .

(٢) الإنعاظ : الشبق عند المرأة والرجل.

فكليها . قالت : اختلسها الثعلب . قال : لنفسه بغى الخير . قالت : فلطمته. قال : بحقك أخذت ، قالت : فلطمنى . قال : اقتص . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيت ، فذهبت أقواله أمثالاً [١] .

ومن ذلك ما حكى: أن عدى بن أرطأة أتى شريحا القاضى فى مجلس حكمه ، فقال له : أين أنت ؟ قال : بينك وبين الحائط . قال : فاسمع منى . قال : للاستماع جلست . قال : إنى تزوجت امرأة . قال : بالرفاء والبنين ، قال : شرط أهلها أن لا أخرجها من بينهم ، قال : أوفِ لهم بالشرط . قال : فأنا أريد الخروج . قال : الشرط أملك . قال : أريد أن أذهب . قال : فى حفظ الله . قال : فاقض بيننا . قال : قد فعلت . قال : فعلى من قضيت ؟ قال : على ابن أمك . قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالك .

الخواص : قال الجاحظ : من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر ، وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش العارض من البرد ، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر ، ولدت ذكرًا ، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى ، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل ، والأرنب البحرى من السموم فلا يحل أكله .

(الأفعى) الأنثى من الحيات والذكر أفعوان ، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال ، ويعرف بالشجاع ، والأسود، وهو أشر الحيات ، وأشرها حيات وأفاعى سجستان ، ومن عجيب ما يحكى عنها : أنها لدغت إنسانًا فى رجله فانصدعت جبهته .

وحكى : أنها نهشت ناقة وفصيلها يرضع ، فمات قبل أمه ، وقيل : لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له: يا شبيب أدخلت سجستان ؟ فقال له : نعم . قال : صف لى أفاعيها قال: يا أمير المؤمنين هى دقاق الأعناق، صغار الأذناب ، مقلصة الرؤوس ، رقش برش ، كأنما كُسِيْنَ أعلام الحبرات ، كبارهن حتوف ، وصغارهن سيوف، وقيل : إنها تندفن فى التراب أربعة أشهر فى البرد ، ثم تخرج ، وقد أظلمت عيناها فتمر بشجر الرازيانج وهو : الشمر الأخضر ، فتحك عينيها به ، فيرجع إليها بصرها ، فسبحان من ألهمها ذلك ، وقال الزمخشرى : إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن تأتى البساتين تلقى نفسها على هذه الشجرة ، وتحك عينيها بها فتبصر ، وقيل : إذا قطع ذنبها عاد كما كان ، وإذا قُلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام ، وهى أعدى عدو للإنسان ، وقال بعضهم : رأيت حية قد ابتلعت كبشًا عظيم القرنين ، فجعلت تضرب به الحجارة يمينًا ويسارًا حتى كسرت القرنين، وابتلعته وقرنيه والله تعالى أعلم. **وقيل :** إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر ، وقيل : إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها ، وقيل : إن جلدها ينسلخ عنها فى كل سنة مرة وقيل : إن الجلد لا ينسلخ ، وإنما الذى ينسلخ

---

(١) المثل : في مجمع الأمثال (٢/ ٧٢) وفي كتاب « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » ص ٢١ .

قشر فوق الجلد ، وغلاف يخلق لها كل عام ، وهى تبيض على عدد أضلاعها ، أى ثلاثين بيضة، فيجتمع عليها النمل ، فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً . **ومن عجيب أمرها** : أنها لا ترد الماء ولا تريده ولكنها إذا شمت رائحة الخمر ، فلا تكاد تصبر عنه مع أنه سبب هلاكها لأنها إذا شربت سكرت ، فتعرضت للقتل ، والذكر لا يقيم فى الموضع ، وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة ، فإذا قويت أخذتهم وانسابت ، فأى جحر وجدته دخلت فيه ، وأخرجت صاحبه منه ، وعينها لا تدور وإذا قلعت عادت. **ومن عجيب أمرها** : أنها تهرب من الرجل العريان وتفرح بالنار وتقرب منها ، وتحب اللبن حبًا شديداً ، وإذا دخلت بصدرها فى جحر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه ، ولو قطعت قطعا ليس لها قوائم ولا أظفار وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها .

وحكى عمر بن يحيى العلوى : قال : كنا فى طريق مكة ، فأصاب رجلاً منا استسقاء ، فاتفق أن العرب سرقوا منا قطار جمال ، على أحدها ذلك الرجل . قال : ثم بعد أيام جمعتنا المقادير ، فوجدته قد برئ ، فسألناه عن حاله ، فقال : إن العرب لما أخذونى جعلونى فى أواخر بيوتهم ، فكنت فى حالة أتمنى فيها الموت ، وبينما أنا كذلك إذ أتوا يوما بأفاعى اصطادوها وقطعوا رؤوسها وأذنابها وشووها بعد ذلك ، فقلت فى نفسى : هؤلاء اعتادوها، فلا تضرهم ، فلعلى إن أكلت منها مت فاسترحت ، فاستطعمتهم ، فأطعمونى واحدة ، فلما استقرت فى بطنى أخذنى النوم ، فنمت نومًا ثقيلاً ، ثم استيقظت ، وقد عرقت عرقًا شديداً ، واندفعت طبيعتى نحو مائة مرة ، فلما أصبحت وجدت بطنى قد ضمر ، وقد انقطع الألم ، فطلبت منهم مأكولاً، فأكلت ، وأقمت عندهم أيامًا ، فلما نشطت ، ووثقت من نفسى بالحركة أخذت فى الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة .

فائدة : قيل : إن الريحان الفارسى لم يكن قبل كسرى ، وإنما وجد فى زمانه ، **وسببه** : أن كسرى كان ذات يوم جالسًا فى بعض متفرجاته إذ جاءته حية ، فانسابت بين يديه ، وتمرغت وصارت تتقلق مثل الذى يشتكى ، فأراد بعض الجند قتلها ، فمنعهم الملك ، ثم قال لهم : انظروا أمرها ، فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه ، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذى تريده ، قال : فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه . قال : فنظروا فإذا فيه حية عظيمة وعلى ظهرها عقرب أسود فنخسها بعضهم برمح ، فقتلها ، وتركوها ورجعوا ، فأخبروا الملك بذلك، فلما كان الغد جاءت الحية للملك ، وفى فمها بذر فنثرته بين يدى الملك ، وذهبت ، فقال الملك: إنها أرادت مكافأتنا ؛ اجعلوه فى الأرض لننظر ما يكون من أمره . قال : ففعلوا ذلك ، فطلع منه الريحان. قال : فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك قال : وكان به زكام ، فشمه فبرئ.

لطيفة : من غريب ما اتفق لعماد الدولة : أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه وطلبوا منه

مالاً ، ولم يكن عنده ما يرضيهم به ، فاغتم لذلك ونام مستلقيًا على قفاه مفكرًا فى ذلك ، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت فى سقف آخر قال : فطلب سلمًا وصعد لينظر المكان الذى خرجت منه . فلما رآه وجد كوة فنظر فى داخلها ، فإذا هى مطمورة ، فدخلها ، فوجد فيها صندوقًا فيه خمسمائة ألف دينار ، فأمر بإخراجه وإنفاقه على عسكره .

ومن ألطف ما اتفق له أيضًا :أنه كان بتلك البلد خياط أطروش ، وكان الملك الذى قبله قد أودع عنده وديعة مال ، قال ، فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذى يخيط للموك . قال : فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة ، فلما حضر بين يدى عماد الدولة قال له : إن فلانًا الملك لم يدع عندى سواى اثنى عشر صندوقًا، ولم أدر ما فيها ، فأمر بإحضارها، فأحضرها ، فأخذها عماد الدولة ، ووسع بها على جنده ، وتعجب من هاتين القضيتين فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له .

وأمر النبى ﷺ بقتل الحيات بعد أن تنذر ثلاث مرات، وقيل: ثلاثة أيام ، وأما سكان البيوت، فالإنذار لها متعين . وفى الحديث : « من قتل حية فكأنما قتل مشركًا ، ومن لبس خفًا فلينفضه ، ومن آوى إلى فراشه فلينظفه » .

الخواص :يقال: إن دمها يجلو البصر ، وقلبها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر، وضرسها إذا علق على من وبه وجع الضرس سكن الأيمن للأيمن والأيسر للأيسر ، ولحمها قال بقراط الحكيم : من أكله أمن من الأمراض الصعبة.

(الأنيس) وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم ، وهو طير له لون حسن غذاؤه الفاكهة ، ومأواه الأنهار والبساتين والغياض وله صوت حسنٌ كالقمرى .

(الأوَزُّ) طير يحب السباحة : وفراخه تخرج من البيضة تسبح .

الخواص : فى جوفه حصاة تنفع المبطون ،ودهنه ينفع من ذات الجنب ، وداء الثعلب إذا طلى به، ولسانه ينفع لقطار البول ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم .

(الأيل) بتشديد الياء المكسورة ، ذكر الوعل ، وله أسماء باختلاف اللغات ، وهو يشبه بقر الوحش وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأسه الجبل ولا يتضرر بذلك ، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر فأكل السرطان فيشفى .

خواصه : إن السمك يحب رؤيته ، وهو يحب ذلك ، ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر والصيادون يعرفون ذلك، فيلبسون جلده ليراهم السمك ، فيأتى لهم وهو مولع بأكل الحيات وربما لسعته ، فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك ، ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع ، فتؤخذ وتجعل دواء للسم ، وهو الذى يسمى: بالبنزهير الحيوانى ،

وأجوده الأصفر ، وأكثر ما يكون ببلاد الهند والسند وفارس ، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها ،وإن وضعه الملسوع فى فيه نفعه ، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد سنتين وينبتان فى أول الأمر مستقيمين ، ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب ،ولا يزال يزيد إلى ست سنين ، فحينئذ يصيران كنخلتين ، ثم بعد ذلك يلقيهما فى كل سنة مرة ، ثم ينبتان . قال أرسطو : وهذا النوع يصاد بالصفير والأصوات المطربة ، فإنه يحب الطرب ،والصيادون يشغلونه بذلك، ويأتونه من ورائه ، فإذا رأوه قد استرخت أذناه وثبوا عليه ، وقرنه مصمت ،وإحليله من عصب لا عظم فيه ولا لحم . وهو من الحيوان الذى يزيد فى السمن ، فإذا حصل له ذلك فَرَّ من مكانه خوفًا من الصيادين ، **وحكمه** :حل أكله .

الخواص : إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التى فيه ، وإذا أحرق واستاك به الذى به صفرة الأسنان زال ذلك عنده ، ومن علق عليه شيء منه ذهب نومه .

ومن خواصه :أن دمه يفتت الحصاة التى بالمثانة شربًا ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حرف الباء الموحدة

(باز)كنيته : أبو الأشعث وهو من أشد الحيوان تكبرًا ، وأضيقها خلقًا، قال القزوينى : إنها لا تكون إلا أنثى وذكرها من غيرها إما من جنس الحدأة أو الشواهين ، ولأجل ذلك تختلف الوانها ، **وهو أصناف منها** :البازى ، والباشق ، والشاهين ، والبيدق ، والصقر ، والبازى أحرها مزاجًا لأنها لا يصبر على العطش ، فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة والظل والظليل، وهو خفيف الجناح سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه ، لأن كلما طار انحط لحمه وهزل ، **وأحسن أنواعه** :ما قل ريشه ، واحمرت عيناه مع حدة فيهما . قال الشاعر :

لو استضاء المرء فى إدلاجِه ... بِعَيْنِه كَفتْه عن سراجِه (١)

ودونه :الأزرق ، الأحمر العينين ، والأصفر دونهما . **ومن صفاته المحمودة** :أن يكون طويل العنق، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين ، شديد الانحطاط من الجو ، غليظ الذراعين مع قصر فيهما .

لطيفة :من عجيب أمره : أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد ، فأرسل بازًا ، فغاب قليلاً ثم اتى وفى فمه سمكة ، فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك ، فقال مقاتل: يا أمير المؤمنين روينا عن جدك ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أنه قال : إن الجو معمور بأمم مختلفة

---

(١)الإدلاج : الظلمة .

الخلق، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش ، فأجاز مقاتلاً على ذلك وأكرمه .

(**بالة**) سمكة عظيمة . . قال القزوينى : يقال : إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع ، وقال غيره: خمسون ، ويقال لها : العنبر وهى تظهر فى بعض الأحايين لأصحاب المراكب فإذا رأوها طبلوا بالطبول حتى تنفر لأن لها جناحين كالقناطر إذا نشرتها أغرقتهم ، فإذا بغت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها ، فتنزل إلى قعر البحر وتضرب راسها به حتى تموت ثم تطفو بعد ذلك ، فيقذفها الريح إلى الساحل ، فيأخذها أهله ويشقون جوفها ويستخرجون منها العنبر .

(**ببغاء**) هى أصناف كثيرة منها : الأخضر ، والرمادى ، والأصفر ، والأبيض . يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها وصوتها وفصاحتها .

حكى : أنه أهدى لمعز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمنقار ويقال: إن نوعًا منها يقرأ القرآن .

الخواص : من أكل لسانها تفصح وإذا جفف دمها وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة ، وزبلها يخلط بماء الحصرم ، ويكتحل به ينفع من الرمد وظلمة البصر .

(**بجع**) طائر أبيض اللون يميل إلى الصفرة طويل المنقار كبير البطن أكثر أكله السمك .

(**بح**) طائر لطيف يأوى أطراف الماء وهو خلقة شريفة لم يوجد غالبًا إلا اثنين فقط .

(**براق**) هو الدابة التى ركبها النبى ﷺ وهو دون البغل وفوق الحمار أبيض اللون .

(**برذون**) نوع من الخيل دون الفرس العربى ، وفى الحديث أن النبى ﷺ ركبه ، وكذا عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ فلما ركبه عمر جعل يتخلخل به، فنزل عنه ،وضرب وجهه وقال : لا علم الله من علمك هذه الخيلاء ، ولم يركب برذونًا قبله ، ولا بعده ، وكنيته : أبو الأخطل لطول ذنبه . وأنشد السراج الوراق فى ذم البراذين (١) يقول :

لصاحب الأحباس بَرْذُونةٌ بعيدةُ العَهْدِ عن القُرْط(٢)
إذا رأت خيلاً على مربط تقولُ سبحانك يا معطى
تمشى إلى خلف إذا ما مشت كأنما تكتُبُ بالقِبْطِى

الخواص : إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبدًا ، وزبله يخرج المشيمة والجنين الميت ، وإذا جفف

(١) البراذين : حيوان أصغر من الحصان ، غليظة الأعضاء ضخمة تتخذ للعمل .
(٢) الأحباس : يقال: حبس الشىء أى منعه ، والقرط : العشب ، أو الزنمة التى تتعلق فى الأذن .

وذر منه على من به الرعاف انقطع رعافه ، وكذا الجرح .

(برغوث) تفتح منه الباء وتضم وكنيته : أبو طامر ، وأبو عدى وأبو وثاب. وهو يثب إلى ورائه.

حكى : أنه يعرض له الطيران كالنمل وهو يطيل السفاد ويبيض ويفرخ وأصله أولاً من التراب لا سيما فى الأماكن المظلمة وسلطانه فى أواخر الشتاء وأول فصل الربيع ، ويقال إنه على صورة الفيل وله أنياب وخرطوم ، وقال بعضهم : دبيبها من تحتى أشد من عضها وليس ذلك بدبيب ولكن البرغوث خبيث يستلقى على ظهره ويدع القمل ، فقال له أنس فى ذلك فقال : أبدأ بالفرسان وأمر على الرجالة ، وأنشد الأعرابى :

ليل البراغيث أعيانى وأنصبنى ... لا بارك الله فى ليل البراغيث(١)
كأنهنَّ وجِلْدى إذ خَلَوْن به ... أينامُ سوء أغاروا فى المواريث

وقال أبو الرماح الأزدى :

تطاولَ بالفُسْطَاطِ ليلى ولم يكنْ ... بوادى الغضى ليلى على يطولُ
تؤرقنى حدب قصار أذلة ... وإن الذى يؤذينه لذليلُ
إذا جَلَتْ بعضَ الليالي منهن جولة ... تعلقنَ فى رجلى حيث أجول
إذا ما قتلناهن أضعفنَّ كثرة ... علينا ولاينْعَى لهن قتيل
الا ليتَ شعرى هل أبيتن ليلةً ... وليس لبرغوث علىَّ سبيل

وقال ابن أيبك الصفدى :

أشكو إلى الرحمنِ ما نالنى ... من البراغيثِ الخِفافِ الثِّقَالِ
تَعصَّبوا بالليل لما دروا ... أنى تقنَّعْتُ بطيفِ الخيالِ

ولا يسب البرغوث لما ورد أن النبى ﷺ سمع رجلاً يسب برغوثًا فقال : لا تسبه فإنه أيقظ نبيًا إلى صلاة الفجر(٢) .

فائدة : سئل مالك عن البرغوث من يقبض روحه فقال : أله نفس ؟ قيل : نعم .. قال : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر : ٤٢] .

---

(١) النصب : التعب .
(٢) موضوع . رواه الطبرانى فى « الأوسط » (٩٣١٨) وفى سنده سعد بن طريف ، قال ابن حبان : كان يضع الحديث على الفور.

ولقد شكا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام؛ فكيف إليه إذا أودى أحدكم إلى فراشه فليقرأ: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية [إبراهيم:١٢] . وقال حنين بن إسحاق: الحيلة فى دفع البرغوث أن تأخذ شيئًا من الكبريت فتدخن به فى البيت فإنها تفر من ذلك . وقيل: يرش البيت بماء السذاب ، وقيل : مشاق المراكب يحرق فى البيت مع قشور النارنج .

(**بعوض**) قيل : إنه على عظم خلقة الفيل إلا أنه أكثر أعضاء منه فإن للفيل أربعة أرجل وللبعوض ستة ، ويزيد عليه بأربعة أجنحة، وله خرطوم مجوف نافذ ، فإذا طعن به جسد إنسان استقى الدم، وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم . ومما ألهمه الله تعالى أنه إذا جلس على عضو إنسان يتبع مسام العروق فإنها أرق وأسرع له فى إخراج الدم ، وعنده شره فى مصه حتى قيل : إنه لا يمص شيئًا فيتركه باختياره إلى أن ينشق أو يطار . ومن عجيب أمره : أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيتركه طريحًا .

وقال الجاحظ : من علم البعوض أن وراء جلد الجاموس دمًا وأن ذلك الدم غذاء لها ، وأنها إذا طعنت فى ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه، ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيفة الحد لانكسرت . فسبحان من رزقها على ضعفها بقوته وقدرته . قال بعضهم :

أقولُ لنازل البستان طُوبى ... لعيشكَ لم تشكُ فيه البعوضُ
يململه فليس له قرار ... ويُثْخِنُهُ فليس له نهوضُ
حماهُ قَرْصَه وطنينَه أن ... يبيتَ وعينه فيها غُمُوضُ
كأنَّك حين تهدى بالأغانى ... تكرّر وفى مسامعكِ العروضُ

ومن الحكم التى أودعها الله تعالى إياها: أن جعل الله فيها قوة الحافظة ، والفكر ، وحاسة اللمس ، والبصر ، والشم ، ومنفذ الغذاء ، وجوفًا وعروقًا ، ومخًا وعظامًا، فسبحان من قدر فهدى ،ولم يترك شيئًا سدى ، وقال الزمخشرى [(١)] فى تفسير سورة البقرة فى ذلك :

يا مَنْ يَرى مَدّ البعوضِ جناحَها ... فى ظلمة اللَّيل البهيم الألْيَل
ويرى مناط عُرُوقِها فى نَحْرِها ... والمخَّ من تِلْكِ العِظَامِ النُّحَّل (٢)
ويرى خريرَ الدم فى أوداجها ... متنقلاً من مفصل فى مفصل

(١)الزمخشرى : هو محمود بن عمر بن أحمد الخوارزمى، أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ، ولد فى زمخشر من قرى خوارزم ، توفى فى الجرجانية من أشهر مؤلفاته « الكشاف فى تفسير القرآن » و « أساس البلاغة »، و« المقدمة » معجم عربى فارسى . كان معتزلى المذهب شديد الإنكار على المتصوفة. توفى سنة ٥٣٨ هـ .

(٢)مناط عروقها : مكان علق بالقلب إلى الرئتين .

ويرى وصول غذا الجنين ببطنها فى ظلمة الأحشا بغير تمقل[1]
ويرى مكانَ الوطءِ من أقدامها فى سيرها وحثيثها المستعجل
ويرى ويسمعُ حِسَّ ما هو دُونَها فى قاع بحرٍ مُظْلِمٍ مُتَهَوَّلِ
امننْ على بتوبة تمحو بها ما كان منى فى الزمانِ الأولِ

(**بغل**) معروف وكنيته: أبو قموص، وأبو حرون ،وله كنى غير ذلك كثيرة ، وهو مركب من الفرس والحمار ولذلك صار له صلابة الحمار ،وعظم الخيل، وهو عقيم لا نسل له .

روى ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » عن على ـ كرم الله وجهه ـ أنها كانت تتناسل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع فى نقل الحطب لنار المنجنيق ، فقطع الله نسلها ، وهو أشر الطباع لأنها تجاذبه الأعراق المتضادة ، والأخلاق المتباينة ، والعناصر المتباعدة .

ومن العجيب : أن كل عضو فرصته منه كان بين الفرس والحمار .

الخواص : يقال : إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرد الفأر إذا بخر به البيت ، وإذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بدهن الآس وجعل على رأس الأقرع نبت شعره ، وزبله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكر .

(**بقر**) هو حيوان شديد القوة خلقه الله تعالى لمنفعة الإنسان ،وهو من أنواع الجواميس ، وهى أكثر ألبانًا وكل حيوان إناثه أرق أصواتًا من ذكوره إلا البقر ، وأنثاه يضربها الفحل فى السنة مرة ، وإذا اشتد شبقها تركت المرعى، وذهبت وإذا طلع عليها الفحل التوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صلابة ذكره . قال المسعودى : رأيت بالرى البقر تحمل كالبعير فتبرك على ركبتيها ثم تثور بالحمل .

(**عجيبة**) حكى فى الأحياء أن شخصًا كان له بقرة وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعه ، فجاء السيل فى بعض الأودية وهى واقفة ترعى فمر عليها فغرقها ، فجلس صاحبها يندبها فقال له بعض بنيه : يا أبت لا تندبها فإن المياه التى كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فغرقتها .

فائدة : ذكر ابن الفضل فى كتابه عن وهب بن منبه أنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينة ، فخلق الله تعالى ملكًا فى نهاية العظم والقوة ،أن يدخل تحتها ويجعلها على منكبيه ، فدخل وأخرج يدًا من المشرق ويدا من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ، ثم لم يكن لقدميه قرار فخلق الله تعالى لصخرة من ياقوتة حمراء فى وسطها سبعة آلاف ثقب ، فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ، ثم أمر الصخرة أن تدخل

تحت قدمى الملك ، ثم لم يكن للصخرة قرار ، فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً يقال له : كيوثاء له أربعة آلاف عين ومثلها أنوف وآذان وأفواه وألسنة وقوائم ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونه ، ثم لم يكن للثور قرار فخلق الله تعالى حوتا يقال له : يهموت ، ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته ، ثم جعل الحوت على ماء ثم جعل الماء على الهواء ، ثم جعل الهواء على ماء أيضًا ، ثم جعل الماء على الثرى ، ثم جعل الثرى على الظلمة ثم انقطع علم الخلائق .

الخواص : شحم البقر إذا خلط بزرنيخ أحمر طرد العقارب ، وإذا طلى به إناء اجتمعت البراغيث إليه وإذا شرب لبنها زاد فى الإنعاظ ، وقرنها إذا سحق وجعل فى طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى ، ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء ،وإذا طلى به على الأثر الأسود فى البدن أزاله ، وخصية الفحل إذا جففت وسحقت وجعلت فى عسل وأكلت فإنها تزيد فى الباه ، وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان ، وإذا خلط مع السكنجبين وشرب نفع من الطحال على ما ذكر.

(**بومة**) وكنيتها: أم الخراب وأم الصبيان ومن طبعها أن تدخل على كل طير فى وكره، وتأكل أفراخه ولمعاداة الطيور لها يجعلون الصيادون فى أشراكهم حتى يقع عليها الطير . ونقل المسعودى عن الجاحظ : أن البومة لا تخرج بالنهار خوفًا من العين لأنها تظن أنها حسناء ، وهى أصناف ، وكلها تحب الخلوة بنفسها .

الخواص : من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها والأخرى مفتوحة، فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فص خاتم ، فمن لبسه لم ينم ما دام فى يده ،وعكسها المغموضة ، وإذا أردت معرفة ذلك فألقهما فى الماء ، فالراسبة للنوم والطافية لليقظة وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة وهى نائمة تحدثت بجميع ما فعلته فى نومها.

(**بوقير**) طير أبيض يأتى منه فى كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد يقال له : جبل الطير ، فيه كوة ، فتدخل من تلك الكوة فيمسك منها شىء فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب ، وإن أمسكت اثنتين كان كثير الخصب ، وإن لم تمسك شيئًا كانت السنة مجدبة، وأهل تلك الناحية تعرف بذلك ، وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبى ﷺ.

حرف التاء

(**تمساح**) حيوان عجيب على صورة الضب له فم واسع وفيه ستون نابًا ، وقيل : ثمانون ، وبين كل نابين سن صغيرة وهى أنثى فى ذكر إذا أطبق فمه على شىء لا يفلته حتى يخلعه من موضعه ،وله لسان طويل ،كالسلحفاة ولا يعمل الحديد فيه، وله أربعة أرجل ،وذنب طويل وهو لا يوجد إلا بنيل مصر . وقال المسافرون : إنه يوجد ببحر الهند ، وطوله فى الغالب ستة أذرع

إلى عشرة فى عرض ذراعين أو ذراع ، ويقيم فى البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر، وذلك فى زمن الشتاء ويتغوط من فيه فى الغالب ، ويحصل فى فيه الدود ، فيؤذيه فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيرًا يقال له القطقاط فيدخل فى فيه فيأكل ما فيه من الدود فيحصل له راحة فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله ، فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى فى جناحيه كريشة الفصاد ،فيؤلمه فيفتح فاه فيخرج . ولذلك يضرب به المثل. فيقال : جاراه مجازاة التمساح ، **وزعم الباحثون** عن أحوال التمساح: أن له ستين نابًا وستون عرقًا ويسفد ستين مرة ويبيض ستين بيضة ، ويحضن ذلك ستين يومًا ويعيش ستين يومًا ، فإذا أفرخ فما صعد الجبل صار وَرَلاً وما نزل البحر صار تمساحا ، وفكه الأسفل لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظمًا متصلاً بصدره ، وإذا أراد السفاد أخذ أنثاه وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها ، فإذا قضى حاجته قلبها ثانيًا لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت ، وما ذلك إلا لأنها لا تستطيع الانقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته ، وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان وهو كلب الماء. يقال: إنه يتبلط بالطين ، ويغافل التمساح ويقذف بنفسه فى فيه فيبتلعه لنعومته فإذا حصل فى جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مراق بطنه فيقتله.

الخواص : عينه تشد على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى ، وشحمه إذا قطر فى أذن من به صمم نفعه .

(**تنين**) ضرب من الحيات وهو طويل كالنخلة السحوق ،وجسده كالليل أحمر العينين لهما بريق واسع الفم والجوف يبتلع الحيوان ، وأول أمره يكون حية متمردة ،ثم تطغى وتتسلط على حيوان البر، فيستغيث منها فيأمر الله تعالى ملكًا فيحملها ويلقيها فى البحر، فتقيم فيه مدة ، ثم تتسلط على حيوانه أيضًا فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بإلقائها فى النار فيعذب بها الكافرين . وقيل: يأمر الله تعالى بإلقائها على يأجوج ومأجوج .

وروى ابن أبى شيبة عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يسلط الله على الكافر فى قبره تسعة وتسعين تنينًا تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تنينًا نفخ على الأرض ما نبتت فيها خضراء » .

حرف الثاء

(**الثعلب**) وهو معروف ذو مكر وخديعة ،وله حيل فى طلب الرزق ، وحيلته هذه لا تتم على كلب الصيد . **ومن حيلته** : أنه إذا تعرض للقنفذ نفش شوكه، فيسلح هو عليه، فيلم شوكه، فيقبض على مراق بطنه، ويأكله، وسلحه أنتن من سلح الحبارى .

ومن لطيف أمره : أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها فى فيه ونزل فى الماء والبراغيث تطير قليلاً قليلاً حتى تجتمع فى تلك الصوفة فيلقيها فى الماء ويخرج . وفروه: أرقى الفراء وفيه الأبيض والرمادى وغير ذلك ، وذكر فى **«عجائب المخلوقات»** : أنه أهدى إلى أبى منصور السامانى ثعلب له جناحان من ريش إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد لصقهما .

لطيفة : ذكر ابن الجوزى فى آخر كتاب (الأذكياء) والحافظ أبو نعيم فى (حلية الأولياء) عن الشعبى أنه قال مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ما خلا الثعلب، فنم عليه الذئب ، فقال الأسد : إذا حضر فأعلمنى ، فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبر بما قاله الذئب فقال الأسد : أين كنت يا أبا الفوارس ؟ قال : كنت أتطلب لك الدواء . قال : وأى شيء أصبته؟ قال : قيل لى : خرزة فى عرقوب أبى جعد . قال : فضرب الأسد بيده فى ساق الذئب فأدماه ولم يجد شيئًا فخرج دمه يسيل على رجله وانسل الثعلب فمر به الذئب فناداه: ياصاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالأمانات .

وقيل : خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش وضبًا وغزالاً ثم جلسوا يقتسمون فقال الأسد للذئب : اقسم علينا فقال : حمار الوحش لى، والغزال لأبى الحرث، والضب للثعلب، فضربه الأسد فى رأسه فرضخها فقال الثعلب : أنا أقسم حمار الوحش لأبى الحرث يتغذى به، والغزال لأبى الحرث يتعشى به، والضب لأبى الحرث يتنقل به فيما بين ذلك؛ فقال له الأسد : لله درك من فرضى ، ما أعلمك بالفرائض من علمك هذا ؟ قال: علمنى التاج الأحمر الذى ألبسه هذا ؟، وأشار إلى الذئب .

وحكى : أن الثعلب مر فى السحر بشجرة فرأى فوقها ديكًا فقال له : أما تنزل نصلى جماعة؟ فقال : إن الإمام نائم خلف الشجرة، فأيقظه فنظر الثعلب فرأى الكلب، فضرط وولى هاربًا فناداه: أما تأتى لنصلى ؟ فقال: قد انتقض وضوئى فاصبر حتى أجدد لى وضوءًا وأرجع.

ومن العجيب فى قسمة الأرزاق: أن الذئب : يصيد الثعلب فيأكله، والثعلب: يصيد القنفذ فيأكله، والقنفذ : يصيد الأفعى فيأكلها ، والأفعى : تصيد العصفور والعصفور: يصيد الجراد ، والجراد : يصيد الزنانبير، والزنابير: تصيد النحل، والنحل : تصيد الذباب، والذباب: يصيد البعوض، والبعوض :يصيد النمل والنمل، يأكل كل ما تيسر من صغير وكبير؛ فتبارك الله الذى أتقن ما صنع.

الخواص : رأسه إذا ترك فى برج حمام هرب الحمام منه، ونابه يشد على الصبى يحسن خلقه، ومرارته تجعل منها فى أنف المصروع يبرأ ولحمه ينفع من اللقوة والجذام، وخصيته تشد

على الصبى تنبت أسنانه، وفروه أنفع شيء للمربوط ، ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون بلوغ، وطحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ .

(**ثعبان**) هو الكبير من الحيات ذكرًا كان أو أنثى ،وهو عجيب الشأن فى هلاك بنى آدم يلتوى على ساق الإنسان فيكسرها ،وليس له عدو إلا النمس، ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر.

لطيفة : قيل : إن عبد الله بن جدعان كان فى ابتداء أمره صعلوكًا ،وكان شريرًا يفتك ويقتل، وكان أبوه يعقل عنه، فضجر من ذلك وأراد قتله فخرج هاربًا على وجهه فتوصل لجبل فوجد فيه شقًا فدخل فيه فوجد فى صدره شيئًا كهيئة الثعبان فدنا منه وقال: لعله يثب على فيقتلنى وأستريح ، قال : فدنا منه فوجده مصنوعًا من ذهب وعيناه ياقوتتان، ثم وجد من داخله بيتًا فيه جثثا طوال بالية على أسرة الذهب والفضة وعند رؤوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم، وإذا بهم رجال من جرهم وفى وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر والزمرد والذهب والفضة واللؤلؤ، فأخذ منه قدر ما يحمل وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم، ورجع فلم يدر مكان الشق . قال رسول الله ﷺ : « لقد كنت أستظل بجفنة عند عبد الله بن جدعان من الهجير »، قالت عائشة: يا رسول الله هل ينفعه ذلك شيئًا ؟ قال : « لا . لأنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين».

حرف الجيم

(**جراد**) حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة وإنما يكون هائمًا هاربًا ،وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور فضربها بذنبه فتفرج له فيلقى بيضه فيها وله ستة أرجل وأطراف أرجله كالمنشار ؛ وهو ألوان عديدة . . وفيه خلقة عشرة من الجبابرة : وجه فرس ، وعينا فيل ، وعنق ثور ، وقرنا أيل ، وصدر أسد ، وبطن عقرب ، وجناحا نسر ، وفخذا جمل ، ورجلا نعامة، وذنب حية .

وهو من الحيوان الذى ينقاد إلى رئيسه كالعسكرى إذا ظعن أميره تتابع خلفه ، وفى الحديث أن جرادة وقعت بين يدى رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية نحن جند الله الأكبر، ولنا تسعة وتسعون بيضة ،ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها . فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اللهم اقتل كبارها وأمت صغارها وأفسد بيضها ، وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن

معايشهم إنك سميع الدعاء »(١) . قال : فجاء جبريل فقال : إنه استجيب لك فى بعضها وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى خلق ألف أمة ، ستمائة منها فى البحر وأربعمائة فى البر وإن أول هلاك هذه الأمة الجراد فإذا هلك الجراد تتابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه » ، قيل كان طعام يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد وقلوب الشجر وكان يقول من أنعم منك يا يحيى وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه .

ومن خواصه : أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول.

(**جرو**) بكسر الجيم وفتحها وضمها وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع ، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب وسببه أن جبريل ـ عليه السلام ـ وعده ليأتيه فتأخر ، قال : فلقيه النبى ﷺ بعد ذلك فقال : ما أخرك عن وعدك؟ فقال: ما تأخرت ولكن لا ندخل بيتًا فيه صورة ولا كلب فأمر بقتلها ، وروى مسلم والطبرانى عن خولة بزيادة ولفظها أن جروًا دخل تحت سرير فى بيته ﷺ فمات ، فمكث النبى ﷺ أيامًا لا يأتيه الوحى قال : لعله حدث فى البيت شىء فخرج للمسجد فنزل عليه الوحى قالت خولة فقممت(٢) البيت فوجدت الكلب تحت السرير .

عجيبة : حكى أن رجلاً لم يولد له ولد، فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهته زوجته عن ذلك، وقالت : يؤاخذك الله بذلك ،فقال : لو آخذ لفعل فى يوم كذا وصار يعدد أفعاله لها فقالت له: إن صاعك لم يمتلئ ولو امتلأ أخذك قال : فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلهما وطرد الجرو قال : فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فانطلق إلى نبى لهم فأخبره بذلك فقال : ألهما لعبة كانا يعلبان بها ؟ قال : جرو كلب. قال : ائتنى به فأتاه به فجعل خاتمه بين عينيه ثم قال له: اذهب خلفه فأى بيت دخله ادخل معه فإن أولادك فيه قال : فجعل الجرو يجوب الدروب والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما وهو قائم يحفر لهما مكانًا يدفنهما فيه فأمسكوه وأتوا به لنبيهم فأمر بصلبه فلما رأته زوجته على الخشبة قالت : ألم أحذرك من هذا اليوم؟ تقول ما تقول الآن امتلأ صاعك . وسيأتى الكلام على الكلب فى حرف الكاف إن شاء الله تعالى .

(**جُعَل**) دويبة معروفة تسمى جعران والزعقوق يعض البهائم فى وجهها فتهرب منه، وهو أكبر من الخنفساء شديد السواد فى بطنه لون حمرة. للذكر قرنان يوجد كثيرًا فى مراح البقر والجاموس. قيل : إنه يتولد من أخثائهما . ومن شأنه جمع الروث وادخاره ، **ومن عجيب أمره**

---

(١) موضوع . رواه ابن الجوزى فى « الموضوعات » (٣/ ١٤) وقال : قال أبو حاتم بن حبان : هذا شىء لا يشك فيه أنه موضوع.

(٢) قممت : كنست .

أنه إذا شم الورد مات، ويعيش بعوده للروث. وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار، وله ستة أرجل وسنام مرتفع جدًا ، وهو يمشى القهقرى ، ومن طبعه : أنه يحرس النيام فإذا قام أحدهم يتغوط تبعه ليأكل من رجيعه ، وذلك من شدة شهوته للغائط .

حرف الحاء

(حَجَلٌ) طير فوق الحمامة أغبر اللون أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البر وهو صنفان: نجدى وتهامى ، النجدى أغبر والتهامى أبيض وله شدة الطيران وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب وله شدة شبق، وأفراخه تخرج من البيض كاسية ويعمر فى الغالب عشرين سنة ،وإذا قوى على غيره أخذ بيضه فحضنه ، ومن سر الله تعالى: أنه إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التى باضته، ومن طبعه: أن يخدع غيره فى قرقرته،ولذلك يتخذه الصيادون فى أشراكهم .

غريبة : قيل: إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمى الأكراد فأتى على سماطه بحجلتين مشويتين فلما رآها ضحك، فقال : مم تضحك ؟ قال : كنت أقطع الطريق فى عنفوان شبابى فمر بى تاجر، فأخذته فلما أردت قتله تضرع إلى فلم أقتله فلما علم أنه لا بد لى من قتله التفت يمينًا وشمالاً فرأى حجلتين كانتا بقربنا ، فقال : اشهدا لى أنه قاتلى ظلمًا فقتلته ، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حمقه فى استشهاده بهما ؛ فقال أبو نصر: والله لقد شهدتا عليك عند من أقادك بالرجل، ثم أمر به فضربت عنقه .

الخواص : لحمها جيد معتدل الهضم، ومرارتها تنفع الغشاوة فى العين ،وإذا سعط بها إنسان فى كل شهر مرة جاد ذهنه ،وقل نسيانه ،وقوى بصره .

(حدأة) بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة: أخس الطير تبيض بيضتين وربما باضت ثلاثًا وتحضن عشرين يومًا ومن ألوانها الأسود والرمادى ، وهى لا تصيد إلا خطفًا، وفى طبعها أنها تقف فى الطيران وهى أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل أفراخ جارها ،ويقال: إنها طرشاه ، وفى طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء وهى سنة ذكر وسنة أنثى كالأرنب .

عجيبة : روى الحافظ النسفى فى فضائل الأعمال أن عاصم بن أبى النجود شيخ القراء فى زمانه قال : أصابتنى خصاصة فجئت إلى بعض إخوانى فأخبرته بأمرى فرأيت فى وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة ، فصليت ما شاء الله، ثم وضعت رأسى على الأرض، وقلت : يا سامع الأصوات يا مجيب الدعوات يا قاضى الحاجات اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى

بفضلك عمن سواك ، قال : فوالله ما رفعت رأسى حتى سمعت وقعة بقربى فإذا بحدأة قد طرحت كيسًا أحمر، فقمت فأخذته فإذا فيه ثمانون دينارًا وجوهرة ملفوفة فى قطن قال: فاتجرت بذلك واشتريت لى عقارًا وتزوجت .

الخواص : مرارتها تجفف فى الظل وتنقع فى إناء زجاج ، فمن لسع وقطر منها فى ذلك الموضع واكتحل مخالفًا لجهة اللسع ثلاثة أميال أبرأته ، ودسمها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس، وإذا وضع فى بيت لم تدخله حية ولا عقرب .

(حِرْباء) دويبة صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس العجل . إذا رأت الإنسان انتفشت وكبرت ، ولها أربعة أرجل وسنام كهيئة الجمل ،ولها كنى كثيرة منها : أم قرة ، ويقال لها: جمل اليهود ،وهى أبدًا تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال: إنها مجوسية، وتستقبلها بوجهها، وتدور معها كيفما دارت فإذا غابت الشمس أخذت فى كسبها ومعاشها . ويقال: إن لسانها طويل نحو ذراع وهو مطوى فى حلقها ، فذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتلعه، والأنثى من هذا النوع تسمى: أم حبين، ويقال: إن الصبيان ينادونها أم حبين انشرى برديك إن الأمير ناظر إليك ،وضارب بسوطه جنبيك ، فإذا زادوا عليها نشرت جناحيها وانتصبت على رجليها، فإذا ازدادوا عليها أيضًا نشرت أجنحة أحسن من تلك ملونة ، وإذا مشت تطأطئ برأسها، وتتلون ألوانًا، ولذا يقال: يلتون كالحرباء.

(حمار أهلى) معروف ليس فى الحيوان من ينزو على غير جنسه إلا هو والفرس ، ونزوه بعد تمام ثلاثين شهرًا وكنيته : أبو محمود، وأبو جحش وغير ذلك ، وهو أنواع ، فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة ، ومنه ما هو بضد ذلك ، ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق .

لطيفة : فى الحديث عن النبى ﷺ أنه لما فتح خيبر أصاب حمارًا أسود فكلمه فقال : ما اسمك ؟ فقال: يزيد من شهاب أخرج الله تعالى من نسل جدى ستين حمارًا كلها لا يركبها إلا نبى ولم يبق من الأنبياء غيرك ، وكنت أتوقعك لتركبنى، وأنا عند يهودى يجيع بطنى، ويضرب ظهرى ، وكنت أعثر به عمدًا فسماه النبى ﷺ: يعفورًا وقال له : أتشتهى الإناث ؟ قال : لا . وكان ﷺ يركبه فى حوائجه، وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه، فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضى حاجته ، فلما مات النبى ﷺ ذهب إلى بئر كانت لأبى الهيثم فتردى فيها جزعًا على النبى ﷺ فكانت قبره وقيل: هذا الحديث منكر ، وقد ذكره السهيلى فى «التعريف والأعلام »، وللناس فى ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض . فمَنْ مدحه: أن أبا صفوان وجد راكبًا على حمار فقيل له فى ذلك فقال : عير هى من نسل الأكراد يحمل

الرحل، ويبلغ العقبة ويمنعنى أن أكون جبارًا فى الأرض . وقال آخر : أقل الدواب مؤنة ، وأكثرها معونة، وأخفضها مهوى، وأقربها مرتعًا . وكان حمار أبى يسارة مثلاً فى الصحة القوة وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة ، وكان خالد بن صفوان، والفضل بن عيسى الرقاشى يختاران ركوب الحمار ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة . **ومن ذمه**: ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال : لا تركب الحمار فإنه إن كان فارهًا أتعب يدك وإن كان بليدًا أتعب رجلك وقيل : ما ينبغى لمركب الدجال أن يكون مركبًا للرجال . وقال أعرابى: الحمار بئس المطية إن أوقفته أدلى وإن تركته ولى . كثير الروث قليل الغوث. سريع إلى الفرارة. بطىء فى الغارة لا توقى به الدماء، ولا تمهر به النساء، ولا يحلب فى الإناء ، قال الزمخشرى :

إنَّ الحمارَ ومَنْ فوقَهُ حماران شرُّهما الرّاكبُ

ومن العرب من لا يركبه أبدًا ولو بلغت به الحاجة والجهد .

قيل : كان لرجل بالبادية حمار، وكلب ،وديك. فالديك: يوقظه للصلاة ،والكلب: يحرسه إذا نام، والحمار: يحمل أثاثه إذا رحل . قال : فجاء الثعلب فأكل الديك فقال : عسى أن يكون خيرًا ،ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عسى أن يكون خيرًا ، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال عسى أن يكون خيرًا ، قال : ثم إن جيرانه من الحى أُغِير عليهم فأُخِذُوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلت فقيل لهم: إنما أخذوا بأصوات دوابهم فقال : إنما كانت الخيرة فى هلاك ما عندى فمن عرف لطف الله رضى بفعله .

(حمام) هو أنواع كثيرة والكلام فى الذى ألف البيوت وهو قسمان: أحدهما: برى وهو الذى يوجد فى القرى . والآخر: أهلى، وهو أنواع وأشكال، فمنه الرواعب، والمراعيش، والشداد، والغلاب، والمنسوب ، ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان فى مسافة بعيدة، ولأجل ذلك يحمل الأخبار ، ومنه من يقطع عشرة فراسخ فى يوم واحد، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين؛ وهو على ثبات عقله وقوة حفظه حتى يجد فرصة، فيطير، ويعود إلى وطنه. وسباع الطير تطلبه أشد الطلب ،وخوفه من الشاهين أشد من غيره، وهو أطير منه ، لكن إذا أبصره يعتريه ما يعترى الحمار إذا رأى الأسد، والشاة إذا رأت الذئب، والفأر إذا رأى الهِرّ. ومن طبعه: أنه لا يريد إلا ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما ويحب الملاعبة والتقبيل ويسفد لتمام أربعة أشهر ويحمل أربعة عشر يومًا ويبيض بيضتين ويحضن عشرين يومًا ويخرج من إحدى البيضتين ذكر والأخرى أنثى

واتخاذها فى البيوت لا بأس به ، غير أنه لا يجوز تطييرها والاشتغال بها والارتقاء بها على الأسطحة. وعليه حمل أهل العلم قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « شيطان يتبع شيطانه حين رأى شخصًا يتبع حمامه »[1] ، فإن لم يحصل شيء مما ذكر جاز اتخاذها . قال رسول الله ﷺ : «اتخذوا الحمام فى بيوتكم فإنها تلهى الجن عن صبيانكم واللعب بها من عمل قوم لوط »[2] .

وقال النخعى : من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر ولم يوجد شيء أبله من الحمام، فإنه تؤخذ أفراخه ، فتذبح فى مكان ثم يعود فى ذلك المكان ويبيض فيه ويفرخ .

وقال الجاحظ : وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تبتاع بخمسمائة دينار ، ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير غيره ، وهو الهادر الذى جاوز الغاية . قالوا : ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة ولو حدثت أن برذونًا أو فرسًا بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمرًا ، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنانير ، والفرخ بعشرين ، فمن كان له زوج منه قام في الغلة مقام ضيعة وأصحابه يبنون من أثمانه الدور والحوانيت وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق .

الخواص : دمه ينفع الجراحات العارضة للعين والغشاوة ، ويقطع الرعاف ويبرئ حرق النار إذا خلط بالزيت منه، وزبل الأحمر منه ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صينى نفع من الحصاة .

حرف الخاء

(**الخطاف**) أنواع كثيرة ، فمنه نوع دون العصفور رمادى اللون يسكن ساحل البحر ، ومنه : ما لونه أخضر ، وتسميه أهل مصر الخطار ، ونوع طويل الأجنحة رقيق يألف الجبال، ونوع أصفر يألف المساجد يسميه الناس : السنونو ، وزعم بعضهم أنه الطير الأبابيل . ويقال: إن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما أُهبِط إلى الأرض حصل له وحشة، فخلق الله له هذا الطير يؤنسه، فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت ، وهى تبنى بيتها فى أعلى مكان بالبيت وتحكم بنيانه وتطينه ، فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرغت فى التراب والماء وأتت فطينته ، وهى لا تزبل داخله بل على حافته أو خارجًا عنه، وعنده ورع كثير لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها

---

(١) حسن . رواه أحمد (٢/ ٣٤٥) وأبو داود (٤٩٤٠) وابن ماجه (٣٧٦٥، ٣٧٦٦) عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ .

(٢) موضوع . رواه ابن الجوزى فى « الموضوعات » (٣ / ١٢) وقال : هذا الحديث موضوع ، والمتهم به محمد ابن زياد . . كان يضع الحديث . قلت : وليس فى الحديث زيادة (واللعب بها من عمل قوم لوط) .

فى أقواتهم ولا يلتمس منهم شيئًا ، ولقد أحسن واصفه حيث يقول :

كُنْ زاهدًا فيما حَوَتْه يَدُ الورى تبقين إلى كُلِّ الأنامِ حبيبًا
وانظُرْ إلى الخطافِ حرّم زادَهُمُ أضحى مُقيمًا فى البيوتِ ربيبًا

ومن شأنه: أنه لا يفرخ فى عش عتيق بل يجدد له عشًا ، وأصحاب اليرقان يلطخون أفراخه بالزعفران ، فيذهب، فيأتى بحجر اليرقان ، ويلقيه فى عشه لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس ، فعند ذلك يأخذه مَنْ به اليرقان ويحكه ويستعمله . **ومن عجيب أمره:** أنه يكاد يموت من صوت الرعد وإذا عمى ذهب إلى شجرة يقال لها: عين شمس فيتمرغ فيها ، فيفيق من غشوته ويفتح عينيه .

لطيفة : قيل : إن خطافًا وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافة ، وروادها عن نفسها ، فامتنعت ، فقال لها : تتمنعين منى ولو شئت قلبت هذه القبة . قال : فسمع سليمان ، فدعاه، وقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال : يا نبى الله إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم .

الخواص : مرارته تسود الشعر ،ولحمه يورث السهر ،وقلبه يهيج الباه إذا أكل جافًا ، ودمه يسكن الصداع .

(خفاش) طير يوجد فى الأماكن المظلمة . وذلك يعد الغروب وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهارًا ولا فى ضوء القمر وقُوتُهُ البعوض ، وهذا الوقت هو الذى يخرج فيه البعوض أيضًا لطلب رزقه ، فيأكله الخفاش ، فيتسلط طالب رزق على طالب رزق ، وهو من الحيوان الشديد الطيران. قيل : إنه يطير الفرسخين فى ساعة. وهو يعمر مثل النسر ،وتعاديه الطيور فتقتله ، لأنه قيل : إن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما سأله النصارى فى طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى فهى تكرهه لأنه مباين لخلقتها ومن طبعها الحنو على ولده حتى قيل : إنه يرضعه وهو طائر .

(خنزير) حيوان معروف وله كنى كثيرة ، منها: أبو جهم، وأبو زرعة، وأبو دلف . وهو مشترك بين البهيمة والسبع لأنه ذو ناب ، ويأكل العشب والعلف ، وهو كثير الشبق حتى قيل: إنه يجامع الأنثى وهى سائرة فيرى فى مشيها ستة أرجل ، فيتوهم الرائى أنه حيوان بستة أرجل وهو ليس كذلك . والذكر منها يطرد الذكر مثله ، فمن غلب استقل بالنزو على الأنثى، وتحرك أذنابها فى زمن هيجانها وتطأطئ رأسها وتغير أصواتها وتحمل من نزوة واحدة ، وتحمل ستة أشهر وتضع عشرين ولدًا ، وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر ، وقيل : أربعة باختلاف البلاد ، وقيل : ثمانية، وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل ، وهذا الجنس أفسد الحيوان ، والذكر أقوى الفحول، وليس لذوات الأربع ما للخنزير فى نابه من القوة . حتى قيل: إنه يضرب به السيف

والرمح فينقطع مالاقاه ، وإذا التقى ناباه من الطول مات ، لأنهما حينئذ يمنعانه من الأكل . **ومن عجيب أمره** : أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها ، وإذا عض كلبًا سقط شعره ، وإذا مرض وأطعم السرطان يفيق ، **ومن عجيب أمره** : أيضًا أنه إذا ربط على ظهر حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات ، ولا يسلخ جلده إلا بالقلع مع شيء من لحمه على ما ذكروا .

(**خنفساء**) دويبة تتولد من عفونات الأرض، وبينها وبين العقرب مودة ، وكنيتها : أم فسو، لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة .

فائدة : قيل : إن رجلاً رأى خنفساء ، فقال : ما يصنع الله بهذه ؟ ، فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها ، فبينما هو ذات يوم إذا بطرقى يقول : من به وجع كذا إلى أن قال : من به قرحة ، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به ، قال : ائتونى بخنفساء ، فضحك منه الحاضرون ، فقال : ائتوه بالذى يطلب ، فأتوه بها ، فأخذها ، فأحرقها ، وأخذ رمادها وجعل منه على تلك القرحة فبرئت ، فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئًا سُدًى ،وأن فى أخس المخلوقات أهم الأدوية ، فسبحان القادر على كل شيء .

الخواص : إذا قطعت رؤوس الخنافس ،وجعلت فى برج الحمام كثر الحمام فى ذلك البرج، والاكتحال بما فى جوفها من الرطوبة يحد البصر ويجلو الغشاوة والبياض ، وإذا بخر المكان بورق الدلب (١) هربت منه الخنافس على ما ذكر .

(**خيل**) جماعة الأفراس، وسميت بذلك لأنها تختال فى مشيتها، وهى من الحيوان المشرف ، ولقد مدحها الله تعالى ووصى بها النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فقال : « الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة » (٢) . وقال : «عليكم بإناث الخيل ، فإن ظهورها عز وبطونها كنز » . وروى عن ابن عباس أو على ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ قال : لما أراد الله تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب ، وقال : إنى خالق منك خلقًا ، فاجتمعى، فاجتمعت ، فأتى جبريل ، فأخذ منها قبضة ، فخلق الله منها فرسًا كُميتًا (٣) ، وقال : خلقتك عربيًا ، وفضلتك على سائر البهائم ، فالرزق بناصيتك والغنائم تقاد على ظهرك ، وبصهيلك أرهب المشركين وأعز المؤمنين ، ثم وسمه بغرة وتحجيل ، فلما خلق الله تعالى آدم قال : يا أدم اختر أى الدابتين : الفرس أو البراق ، فقال : الفرس يا رب فقال الله تعالى : اخترت عزك وعز أولادك ، وفى الحديث : « ما من فرس إلا ويقول فى كل يوم : اللهم من

---

(١) الدلب : جنس شجر للتزيين . من الزهريات ويحب الماء .
(٢) رواه البخارى فى «الجهاد» (٢٨٥٠) ومسلم فى «المغازى» (٤٧٦٦) عن عروة البارقى رضى الله عنه .
(٣) الكُميت : الفرس لونه بين الأسود والأحمر .

جعلتنى له فاجعلنى أحب أهله إليه » (١).

وقيل : الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وهى المغزو عليها ، وفرس لك وهى التى تسابق عليها ، وفرس للشيطان : وهى التى جعلت للخيلاء . وفى الحديث : « إن الملائكة لا تحضر شيئًا من اللهو إلا فى مسابقة الخيل ، وملاعبة الرجل أهله »(٢) . ولقد سابق النبى ﷺ على الخيل ، وقيل : إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى ، ولا يرد على ركوب جبريل فى قصة موسى وفرعون الأنثى لأن ذلك من حكمة الله تعالى حتى تبعتها أحصنهم ، فأغرقوا لأن الحصان إذا رأى الحجرة تبعها ، وقيل : إن الله تعالى أمر نبيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يعبر البحر فعبره ، وهم خلفه ، فأعمى أعينهم عن الماء ، فكانوا يرون بلقعًا ، والخيل تراه ماء ، فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم ، **وهى أصناف منها: الصافنات** (٣) ، وهى التى إذا ربطت فى مكان وقفت على إحدى رجليها وقلبت بعض الأخرى فى الوقوف ، وقيل غير ذلك، وكانت الصافنات: ألف فرس لسليمان ـ عليه الصلاة السلام ـ ، فعرضها يومًا ففاتته الصلاة ، قيل : صلاة العصر ، فأمر بعقرها فعوضه الله عنها الريح ، فكانت فرسه . وقيل: إنما عقرها على وجه القربى كالهدى . وقيل : إن الفرس لا يحب الماء الصافى ولا يضرب فيه بيده كما يضرب فى الماء الكدر ، فرحًا به ، فإنه يرى شخصه فى الماء الصافى، فيفزعه ، ولا يراه فى الماء الكدر ، وقد قيل فى الحث على حب الخيل :

أَحبُّوا الخيلَ واصطبرُوا عليها ... فإنَّ العزَّ فيها والجمالا
إذا ما الخيلُ ضيَّعَها أناسٌ ... ربَطْنَاها فأشْرَكَتِ العيالا
نُقاسِمُها المعيشةَ كلَّ يومٍ ... وتُكْسِبُنا الأباعرَ والجمالا(٤)

حرف الدال

(دابة) اسم لكل ما دب على الأرض وأما التى ذكرها الله تعالى فى سورة سبأ ، فقيل : الأرضة ، وقيل : السوسة ، وسبب ذلك أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه ، ودخل فيه وأراد أن يصفو له يوم واحد من دهره ، فدخل عليه شاب ، فقال له : كيف دخلت من غير استئذان ؟ فقال : أذن لى رب البيت ، فعلم سليمان أن رب البيت هو

---

(١) لم أقف عليه . (٢) لم أقف عليه.

(٣) ذكرت فى القرآن الكريم ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ [ص : ٣١] . والصافنات : الفرس قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة .

(٤) الأباعر : من أبعر الأُبَيْجر : رجيع ذوات الخف وذوات الظلف ، أخرج ما فيه من بعر « السماد » .

الله تعالى ، وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه . فقال: سبحان الله هذا اليوم طلبت فيه الصفاء فقال : طلبت مالم يخلق قال : وكان قد بقى من بناء المسجد الأقصى بقية . فقال له: يا أخى يا عزرائيل أمهلنى حتى يفرغ قال ليس فى أمر ربى مهلة قال : فقبض روحه ، وكان من عادته الانقطاع فى التعبد شهرين وثلاثة ، ثم يأتى ، فينظر ما صنعت الجن ، فلما قبض كان متوكئًا على عصاه ، واستمر ذلك مدة ، والجن تتوهم أنه مشرف عليها ، فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام حتى أراد الله ما أراد ، فسلط على العصا الأرضة فأكلتها ، فخر ميتًا ، فتفرقت الجن عنه . **وقيل** :إن واحدًا منهم مر عليه، فسلم ، فلم يجبه فدنا منه، فلم يجد له نفسًا ، فحركه، فسقطت العصا ، فإذا هو ميت . قال : وكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة ، والعصا التى اتكأ عليها من خرنوب ، قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾[سبأ : ١٤] . قال : فشكرت الجن الأرضة حتى قيل: إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت .

وأما الدابة التى من أشراط الساعة : فاختلف فى أمرها ، فقيل : تخرج من الصفا ، وهو الصحيح ، وقيل : من الطائف ، وقيل: من الحِجْرِ . وطولها ستون ذراعًا ذات قوائم ، وهى مختلفة الألوان وذلك فى ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى أو سائرين إلى منى ومعها عصا موسى وخاتم سليمان لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب تلحق المؤمن، فتضربه بالعصا فتكتب فى وجهه مؤمن وتدرك الكافر ، فتسمه بالخاتم وتكتب فى وجهه كافر . وروى أنها تخرج إذ انقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقل الخير .

(**داجن**) وهو ما يربيه الناس فى البيوت من صغار الغنم، والحمام، والدجاج وغير ذلك ، وفى حديث الإفك : « ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن تعجن، وتنام فتأتى الداجن، فتأكل العجين » .

(**دُبٌّ**) من السباع ، وكنيته : أبو جهل، وأبو جهينة، وغير ذلك ، ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء وإذا جاع يمص يديه ورجليه، فيندفع جوعه، وهو كثير الشبق ،وينعزل بأنثاه ، وتضع جروًا واحدًا ، وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفًا عليه من النمل لأنها تضعه قطعة لحم ، ثم لا تزال تلحسه، وترفعه فى الهواء حتى تنفرج أعضاؤه وتخشن ويصير له جلد، وفى ولادتها صعوبة وربما ماتت منها وقد تلده ناقص الخلق شوقًا منها للسفاد، وهى من الحيوان الذى يدعو الإنسان للفعل به ، وقيل : إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز ، ثم يصعد فيرمى بالجوز إليها إلى أن تشبع ، وربما قطع من الشجر الغصن العتل الضخم الذى لا يقطع إلا بالفأس ، والجهد ، ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحدا إلا قتله .

(**دجاجة**) وكنيتها: أم ناصر الدين، وأم الوليد ،وغير ذلك، وإذا هرمت لم يبق لبيضها مح ،

وتوصف بقلة النوم، وقيل: إن نومها بقدر ما تتنفس وعندها خو ف الليل ، ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكانًا عاليًا وتخشى الثعلب . قيل: إنها إذا رأته ألقت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع ، وقيل : يعرف الذكر من الأنثى بإمساك منقاره ، فإن تحرك فذكر وإلا فأنثى ، ومن الدجاج ما يبيض فى اليوم مرتين وهو من أسباب موتها ويستكمل خلق البيضة فى بطن الدجاجة فى عشرة أيام ، وفى الحديث أن النبى ﷺ أمر باتخاذ الغنم للأغنياء، وباتخاذ الدجاج للفقراء ؛ **ومن العجيب** فى صنعة الله تعالى : أن خلق الفروج من البياض ، وجعل الصفار غذاء له كما خلق الطفل من المنى، وجعل دم الحيض غذاء له ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

الخواص : لحم الدجاج الفتى يزيد فى العقل ،ويصفى اللون ، ويزيد فى المنى ،ويقيم الباه، والمداومة عليه تورث النقرس والبواسير على ما ذكر .

(**دَجٌّ**) طير كبير أغبر بساحل البحر كثيرًا ، وبالقرب من الإسكندرية ، والناس يصطادونه ويأكلونه .

(**دود**) اسم جنس ، ومنه دود القز ويقال لها: الهندية . **ومن عجيب أمرها** :أنها تكون أولاً مثل بذر التين، ثم تصير دودًا ، وذلك فى أوائل فصل الربيع ، ويكون عند خروجه مثل البذر فى قدره ولونه ، ويخرج فى الأماكن الدافئة إذا كان مصرورًا فى حُقّ ، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصرته ، فيخرج وغذاؤه ورق التوت الأبيض . قال : ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر إصبع ، وينتقل من السواد إلى البياض وكل ذلك فى مدة ستين يومًا . قال : ثم يأخذ فى النسج بما يخرجه من فيه إلى أن ينفذ ما فى جوفه ثم يخرج شيئًا كهيئة الفراش له جناحان لا يسكنان من الاضطراب وعند خروجه يهيج إلى السفاد ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتحمان مدة ، ثم يفترقان . قال: ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء فينشران البذر عليها ، ثم يموتان ، هذا إذا أريد منهما البذر وإن أريد الحرير تركا فى الشمس بعد فراغهما من النسج ، فيموت ، وهو سريع العطب، حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس، ومس المرأة الحائض والرجل الجنب ، ورائحة الدخان والحر الشديد والبرد الشديد ، ونحو ذلك ، قال أبو الفتح البستى :

أَلَمْ ترَ أن المرءَ طُولُ حَيَاته ... مُعنًى بأمر لا يَزالُ يُعالجُه
كذلك دُودُ القَزِّ يَنْسجُ دائمًا ... ويهلِكُ غمًا وَسْطَ ما هو ناسِجُهْ

وقال آخر :

يُفْنى الحريصُ بجمع المال مُدَّتَهُ ... وللحوادثِ ما يُبْقى وما يَدَعُ
كدودة القَزِّ ما تبنيه يُهلِكُها ... وغيرُهَا بالذى تبنيه يَنْتَفِعُ

(**ديك**) وكنيته: أبو حسان ،وأبو حماد، وغير ذلك ، ويسمى الأنيس والمؤانس ، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة، وهو أبله الطبيعة لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدى إلى الرجوع إليه ، وفيه من الخصال الحميدة ما لا يحصر منها : أنه يساوى بين أزواجه فى الطعمة ، ويذكر الله تعالى فى الليل حتى إنه ليوقته ويقسمه ، وربما لا يخرم فى توقيته ، وفى الحديث : « إذا سمعتم صياح الديك ، فاذكروا الله تعالى : فإنه يصيح بصياح ديك للعرش » . وروى الغزالى عن ميمون بن مهران أن لله ملكًا تحت العرش على صورة الديك ، فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه ، وقال : ليقم المسلمون ، فإذا مضى الثلث الثانى ضرب بنجاحيه وقال : ليقم الذاكرون، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال: ليقم الغافلون، وعليهم أوزارهم ، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « إن لله ديكًا أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، ورأسه تحت العرش وقوائمه فى الهواء ، فإذا كان ثلث الثاني الليل الأول خفق بجناحيه وقال سبحان الملك القدوس ، فإذا كان الثلث خفق بجناحيه وقال : قدوس قدوس ، فإذا كان الثلث الثالث خفق بناحيه وقال : ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو »(١). وروى الثعلبى بإسناده عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن، وصوت المستغفر بالأسحار »(٢) . وفى الحديث : « لا تسبوا الديك، فإنه يؤقت للصلاة » . وزعم أهل التجربة : أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب فى أهله وماله .

نادرة : قيل : كان لإبراهيم بن مزيد ديك ، وكان كريمًا عليه ، فجاء العيد وليس عنده شيء يضحى عليه ، فأمر امرأته بذبحه واتخاذ طعام منه وخرج إلى المصلى ، فأرادت المرأة أن تمسكه، ففر ، فتبعته ، فصار يخترق من سطح إلى سطح ، وهى تتبعه ، فسألها جيرانها وهم هاشميون عن موجب ذبحه ، فذكرت لهم حال زوجها ، فقالوا : ما نرضى أن يبلغ الاضطرار بأبى إسحاق إلى هذا القدر ، فأرسل إليه هذا . شاة، وهذا شاتين ،وهذا بقرة ،وهذا كبشًا حتى امتلأت الدار ، فلما جاء ورأى ذلك . قال : ما هذا ؟ فقصت عليه زوجته القصة ، فقال : إن هذا الديك لكريم على الله ، فإن إسماعيل نبى الله فدى بكبش واحد ، وهذا فدى بما أرى .

حرف الذال

(**ذباب**) وكنيته أبو جعفر وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة . **ومن عجيب أمره** :أنه يلقى رجيعه على الأبيض يسود ، وعلى الأسود يبيض ، ولا يقعد على شجرة الدباء (٣) ، وفى

(١) موضوع . رواه أبو الشيخ عن ابن عمر رضى الله عنه .
(٢) موضوع . رواه الديلمى عن أم سعد بنت زيد بن ثابت .
(٣) الدبَّاء : القرع .

الحديث: « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم ، فليغمسه ، فإن فى أحد جناحيه دواء وفى الأخرى داء »[(١)]، وإن من طبعه أن يلقى نفسه بالجناح الذى فيه الداء .

وحكى : أن المنصور كان جالسًا ، فألح عليه الذباب حتى أضجره ، فقال : انظروا مَنْ بالباب من العلماء ، فقالوا: مقاتل بن سليمان ، فدعا به ، ثم قال : هل تعلم لأى حكمة خلق الله الذباب ؟ قال : ليذل به الجبابرة ، قال : صدقت ، ثم أجازه . ومن خصائص النبى ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب قط ، وقال المأمون : قالوا :إن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه ، فلسعنى زنبور ، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة ، فما سكن له الم ، فقالوا هذا كان حتفًا قاضيًا ، ولولا هذا العلاج لقتلك ، **وقال الجاحظ** : من منافع الذباب أنها تحرق وتخلط بالكحل ، فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما يكون ، **وقيل**: إن المواشط تستعمله ويأمرن به العرائس ، **وقيل** : إن الذباب إذا مات وألقى عليه برادة الحديد عاش ، وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب .

(ذئب) حيوان معروف ،وكنيته :أبو جعدة ، وأبو جاعد ، وأبو ثمانة . لونه رمادى وهو من الحيوان الذى ينام بإحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تمل ، فيغمضها ، ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه :

ينامُ بإحدى مُقلتَيْه وَيَتَّقِى بأخْرى المنايا فهو يقظانُ هاجعُ[(٢)]

وإذا أراد السفاد اختفى، ويطول فى سفاده كالكلب. وإذا جاع عوى، فتجتمع الذئاب حوله ، فمن هرب منها أكلوه وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه ، وليس فى الأرض أسد يعض على عظم إلا ويسمع لتكسيره صوت بين لحييه إلا الذئب ، فإن لسانه يبرى العظم برى السيف ولا يسمع له صوت ، وقيل : إذا أدماه الإنسان ، فشم الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه ، وإن كان أشد الناس قلبًا وأتمهم سلاحًا ، كما أن الحية إذا خدشت طلبها الذَّرُّ[(٣)] فلا تكاد تنجو منه ، وكالكلب إذا عض الإنسان يطلبه الفأر فيبول عليه ، فيكون فى ذلك هلاكه ، فيحتال له بكل حيلة، وقيل : لا يعرف الالتحام عند السفاد إلا فى الكلب والذئب ، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلهما كيف شاء ، والله أعلم .

---

(١) رواه البخارى فى « الطب » (٥٧٨٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) الهاجع : الراقد والنائم . والبيت منسوب فى كتاب « الحيوان » لمحمد بن ثور الهلالى.

(٣) الذرٌّ : النمل .

حرف الراء

(**رخ**) طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين ، قال أبو حامد الأندلسى : ذكر لى بعض المسافرين فى البحر أنهم أرسوا بجزيرة ، فلما أصبحوا وجدوا فى طرفها لمعانًا وبريقًا ، فتقدموا إليه ، وإذا هم بشىء مثل القبة قال : فجعلوا يضربون فيه الفؤوس إلى أن كسروه ، فوجدوا كهيئة البيضة ، وفيه فرخ عظيم قال ، فتعلقوا بريشه وجروه ، ونصبوا القدور ، وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطبًا يقال له : حطب الشباب فلما أكلوا ذلك الطعام اسودّت لحية ولمّة[١] كل ذى شيب قال ، فلما أصبحوا جاءهم الرخ ، فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا ، فذهب ، وأتى فى رجليه بحجر عظيم وتبعهم بعدما ساروا فى البحر وألقاه على سفينتهم ، فسبقت السفينة ، وكانت مشرعة بتسع قلوع ، ووقع الحجر فى البحر ، فنجاهم الله تعالى منه، وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم قال : وقد كان بقى معهم أصل ريشة قيل : إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قربة ، فسبحان الخالق الأكرم.

(**رخم**) طير أغبر أصفر المنقار معروف وهو من أشر الطيور، ويقال : إنها صماء. وسبب ذلك ما قيل فى بعض الحكايات : أن موسى عليه السلام لما مات تكلمت بموته ، وكانت تعرف مكانه ، فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحدًا إلى موضعه .

حرف الزاى

(**زرافة**) حيوان غريب الخلقة ، ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق الله تعالى يديها أطول من رجليها ، وهى ألوان عجيبة يقال : إنها متولدةٍ من ثلاث حيوانات : الناقة الوحشية ، والبقرة الوحشية، والضبع ، فينزو الضبع على الناقة فيأتى بذكر، فينزو ذلك الذكر على البقرة فتتولد منه الزرافة ، والصحيح أنها خلقت بذاتها ذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئًا إلا بحكمة .

(**زُنْبُورٌ**) حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه الله حكمة فى بنيانه بيته؛ وذلك أنه يبنيه مربعًا له أربعة أبواب كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربع ، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض ويبقى إلى أيام الربيع ، فينفخ الله تعالى فيه الروح فيخرج ويطير ، وفى طبعه التهافت على الدم واللحم ، **ومن خاصيته**: أنه إذا وضع فى الزيت مات ،وفى الخل عاش ، ولسعته تزال بعصارة الملوخية .

---

(١) اللمة : شعر الرأس المجاور شحمة الأذن.

حرف السين

(**سعلاة**) نوع من المتشيطنة . قال السهيلى : هو حيوان يتراءى للناس بالنهار ويغول بالليل، وأكثر ما يوجد بالغياض ، وإذا انفردت السعلاة بإنسان وأمسكته صارت ترقصه تلعب به كما يلعب القط بالفأر . قال: وربما صادها الذئب وأكلها وهى حينئذ ترفع صوتها، وتقول: أدركونى فقد أخذنى الذئب ، وربما قالت : مَنْ ينقذنى منه وله ألف دينار ؟، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك ، فلا يلتفتون إلى كلامها .

(**سقنقور**) دابة شكلها كالورغة [1] إذا أُخذَت وسلخت وملحت وشُرِبَ منها مثقال. زاد فى الباه. وهو من الأشياء النفيسة عند أهل الهند يقال : إنه يهدى إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب، ويحشونه من ملح مصر ، فإذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أو بيض نفع نفعًا عظيمًا .

(**سمندل**) حيوان يوجد بأرض الصين ، **ومن عجيب أمره** : أنه يبيض فى النار ، ويفرخ فيها ويؤخذ وبره ، فينسج ويجعل منه المناشف ، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت: فى النار ، فتأكل النار وسخها ولا تحرقها .

حكى : أن شخصًا بَلَّ واحدة من هذه المناشب بالزيت وجعلت فى النار ، وأوقدت ساعة ولم تحترق .

(**سنجاب**)حيوان كهيئة الفأر يوجد فى بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الإنسان هرب منه ، وشعره كشعر الفأر وهو ناعم ، فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فرواً يلبس ، وطبعه موافق لكل طبع وأحسنه الأزرق .

(**سِنَّوْرُ**)حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات ، كناه وأسماؤه كثيرة.

حكى: أن أعرابيًا صاد سنورًا ، فرآه شخص ، فقال : ما تصنع بهذا القط؟ ، ولقيه آخر ، فقال : ما تصنع بهذا الخيدع ؟ ولقيه آخر ، فقال : ما تصنع بهذا الخيطل ؟ ولقيه آخر ، فقال: ما تصنع بهذا الهِرِّ ؟ قال : أبيعه . قال: بكم ؟ قال : بمائة درهم ، فقال : إنه يساوى نصف درهم ، قال : فرمى به ، وقال : لعنه الله ما أكثر أسماؤه وأقل قيمته ، وهذا الحيوان يهيج فى زمان الشتاء فى شهرين منه وتراهُنَّ يترددنَ صارخات فى طلب السفاد ، فكم من حرة خجلت وذى غيرة هاجت حميته ، وعزب تحركت شهوته ، وطيبُ فم السنور كطيب فم الكلب فى النكهة ، وقيل: إن الهرة تحمل خمسين يومًا، وهو يجمع بين العض والناب والخمش بالمخلاب ، وليس كل سبع كذلك ، وهو يناسب الإنسان فى بعض الأحوال ، فيعطس ويتمطى، ويغسل وجهه بلعابه ، ويلطخ وبر ولده بلعابه حتى يصير كأنه الدهن يسرى فى جلده ، **وقيل** : إذا بال

---

(١) الورغة : ضرب من الزواحف شبيهة بالسلحفاة : سام أبرص .

الهر شم بوله ودفنه قيل : لأجل الفأر ، فإذا شمه علم أن هناك هرًا ، فلم يخرج ، وأما سنور الزباد ، فهو بأرض بالهند ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذيه .

(**سوس**) هو دود الحبوب والفاكهة . **ومن الفوائد** التى تكتب فى الحبوب فلا تسوس : أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم ، فقال :

أَلا كُلُّ مَنْ لا يَقْتَدى بِأَئِمة ... فَقِسْمَتُهُ ضِيزى عن الحق خارِجَه (١)
فَخُذْهُم عُبَيْدُ الله عُروةُ قاسِمٌ ... سَعيدُ أبو بكرٍ سليمانُ خارجَه

حرف الشين

(**شاد هوار**) حيوان يوجد بأرض الترك يقال: إن له قرنًا عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوفة، فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش ، وربما قيل : إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن، **وأخرى**: تورث الفرح والضحك ، وأنه أهدى إلى بعض الملوك شىء من شعبها ، فرأى ذلك ، ويقال : إن من الحيوان شيئًا يوجد بالغياض فى قصبة أنفه اثنا عشر ثقبًا إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمار ، فتأتيه الحيوانات لتسمعه ، فتدهش ، فيغفل بعضها من الطرب، فيثب عليه ، فيأخذه ، ويأكله ، وهى تعلم ذلك منه وتحترز ، فإذا لم يمسك منها شيئًا ضاق خلقه وصاح بها صيحة ، فتهرب وتتركه .

(**شاهين**) طير يكون كهيئة الصقر إلا أنه عظيم الهامة واسع العينين ، ومزاجه أيبس من مزاج الصقر ، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى ، ولذلك ينقض على الطير بشدة ، فربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة ، فيموت ، وقيل : أول من صاد به قسطنطين (٢) ، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار، فاتفق فى بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه ، وسار . قال : فطار واحد منها وانقض على صيد ، فأخذه ، فأعجب الملك ذلك وصار يتصيد به .

(**شحرور**) طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات مطربة .

حرف الصاد

(**صرد**) حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له : الصوام لأنه أول طير صام يوم عاشوراء.

(**صعو**) طير من صغار العصافير أحمر الرأس .

---

(١) ضيزى : قسمة جائزة غير منصفة. وفي الكتاب العزيز ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم : ٢٢] .

(٢) قسطنطين اسم أحد عشر أمبراطرة منهم قسطنطين الأكبر (٢٧٤ ـ ٣٣٧ م) وآخرهم الحاديث عشر . قسطنطين باليولوغوس (١٤٠٥ ـ ١٤٥٣ م) آخر الامبراطرة البيزنطيين . قتل في دفاعه عن القسطنطينية ضد محمد الثاني .

حرف الضاد

(**ضأن**) نوع من الحيوانات ذوات الأربع ، وهو من الحيوانات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد واثنين ، وفيها البركة ، وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة ، وليس فيها بركة ، وإذا رعت زرعًا نبت عوضه ، وذلك لبركتها بخلاف ذوات الشعر ، **ومن عجيب أمرها** : أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ولا تخاف من سائر السباع. قال بعض القُصاص : مما أكرم الله تعالى به الكبش أن خلقه مستور العورة من قُبُلٍ ومن دبُرِ(١) ، ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك الستر مكشوف العورة من قُبُل ومن دُبر ، ويقال : الضأن من دواب الجنة ، وهى صفوة الله من البهائم ، ويقال فى المدح : هو كبش من الكباش ؛وفى الذم هو تيس من التيوس ، وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال :

تقولُ لى الإِخوَانُ حين طَبَخْتُها أتطبخُ شِطرَنْجًا (٢) عظامًا بلا لحم ؟

ومن العجب: أنه يأتى غنم من الهند للكبش منها ألية فى صدره وأليات فى كتفيه ، وألية على ذنبه ، وربما تكبر ألية الضأن حتى تمنعه من المشى ، **ومن عجيب أمرها** :أنها إذا تسافدت وقت المطر لا تحمل ،وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكرًا ، وجنوبية حملت أنثى، والله أعلم .

ومن خواصها : أن لحمها ينفع للسوداء ، ويزيد فى المنى والباه ، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها ، وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه ، وإذا دفن قرن كبش تحت شجرة كثر حملها على ما ذكر والله أعلم .

(**ضَبٌّ**) حيوان يجعل جحره فى الأرض الصلدة وعنده بَلَه(٣) ، فربما لا يهتدى لجحره إذا خرج منه ، فلذلك لا يحفره إلا بقرب كودية أو إشارة ، وهو من الحيوان الذى يعمر . قيل : إنه يعيش سبعمائة سنة ، ومن طبعه أنه يصبر على الماء ، يقال : إنه لا يشرب ، فإنه يبول فى كل أربعين يومًا قطرة ، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر، وتجعلها فى الأرض ، وتتعاهدها فى كل يوم إلى أربعين يومًا ، فيخرج ، وبيضها قدر بيض الحمام ، وهذا الحيوان شديد الخوف من الآدمى ، ولذلك يجعل العقارب فى جحره حتى يمتنع بها ، ويخرج من جحره كليل البصر ، فيستقبل الشمس ، فيحصل له بذلك حدة فى بصره ، وإذا عطش نشق النسيم فيروى ، وبينه وبين الأفاعى مناسبة، وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء .

فائدة : قيل : إن أعرابيا أتى النبى ﷺ وفى كمه ضب قد صاده ، وقال : لولا أن تسمينى العرب عجولاً لقتلتك ، وسررت الناس بقتلك ، فقال عمر، دعنى يا رسول الله أقتله ،

---

(١) من قُبُلٍ ومن دبُرِ : العورة من أمام ومن خلف .
(٢) شِطْرَنْجًا : لعبة تمثل جيشين متحاربين يتألف كل منهما من ستٍّ عشرة قصعة . من خشب ونحوه .
(٣) البَلَه : الغفلة وضعف العقل.

فقال - عليه الصلاة والسلام ـ : مهلاً يا عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيًا ؟ قال : ثم أقبل الأعرابى على النبى ﷺ وقال : والله لا آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب ، وأخرجه من كمه قال : فعند ذلك قال النبى ﷺ: يا ضب فأجابه بلسان فصيح لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين ، فقال : من تعبد ؟ قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عذابه ، فقال : من أنا ياضب ؟ قال : رسول الله رب العالمين قد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك ، قال : فقال الأعرابى عند ذلك : يا ويلاه ضب اصطدته بيدى من البرية يشهد لك بالرسالة . أنا أولى منه بذلك ، هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله حقًا ، ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضا منى إليك ، ولقد صرت الآن أذهب من عندك وما على وجه أحدًا أكثر محبة منى إليك، ولأنت الساعة أحب إلىَّ من أهلى وولدى وما تملك يدى ، فقد آمن بك شعرى وبشرى وداخلى وخارجى وسرى وعلانيتى ، فقال النبى ﷺ: الحمد لله الذى هداك لهذا الدين الذى يعلو ولا يعلو عليه ، ولكن لا يقبله الله إلا بصلاة ، ولا يقبل الصلاة إلا بقراءة . قال : فعلمنى يا حبيبى . قال : فعمله سورة الفاتحة ، وسورة الإخلاص ، وقال : من قرأها ثلاث مرات ، فكأنما قرأ القرآن . قال : إلهنا يقبل اليسير ويعفو عن الكثير ، ثم سأله : ألك مال ؟ فقال : يا حبيبى ليس فى بنى سليم أفقر منى ، فقال لأصحابه : أعطوه ، فأعطوه حتى أثقلوه، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله عندى ناقة عشارية أعطيها له ، فقال : إن الله يعطيك ناقة فى الجنة من دُرَّة قوائمها من الزبرجد الأخضر وعيناها من الياقوت الأحمر ، وعليها هودج من السندس تخطفك من الصراط كالبرق . قال : فخرج الأعرابى من عنده ، فتلقاه ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبى ﷺ فأخبرهم بقصته ، فأسلموا عن آخرهم ، وأمر النبى ﷺ خالد بن الوليد عليهم ، وهذه القصة ذكرها : الدارقطنى بتمامها ، والبيهقى والحاكم ، وابن عدى .

الخواص :قلبه يذهب الحزن والخفقان ، وشحمه يطلى به الذكر يزيد فى الباه ، وكعبه يشد على وجه الضرس يبرأ ، وإذا جعل على وجه فرس لا يسبقه شىء ، وبعره يذهب البرص والكلف طلاء ، ومن أكل لحمه لا يعطش زمانًا طويلاً .

(ضبع)حيوان معروف ، ومن كناه أم عامر ومن طبعه : حب لحم الآدمى حتى قيل : إنه ينبش القبور وإذا مر بإنسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه وبقر بطنه وشرب دمه .

الخواص :من شرب دمه ذهب وسواسه ، ومن علق عليه عينه أحبه الناس ، وإذا جعلها فى خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم فكل من كان به سحر ، وجعل الخاتم فى قليل ماء وشربه زال سحره .

(**ضفدع**) حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجرى ، ومن العفونات وعقيب الأمطار وأول ما يظهر مثل الحب الأسود ، ثم ينمو ، ثم تتشكل له الأعضاء ، وإذا نَقَّ جعل فكَّه الأسفل فى الماء والأعلى من خارج وفى صوته حدة. قال سفيان : ليس من الحيوان أكثر ذكرًا لله تعالى من الضفدع ، وفى الآثار أن داود ـ عليه السلام ـ قال : لأسبحن الله تعالى بتسبيح ما سبحه أحد قبلى ، فنادته ضفدعة يا داود تمن على الله بتسبيحك ، وأنا لى تسعون سنة ما جف لسانى عن ذكر الله تعالى. قال: فما تقولين فى تسبيحك؟ قالت: أقول: سبحان من هو مُسَبَّحٌ بكل لسان ، سبحان من هو مذكور بكل مكان ، فقال داود : ما عسى أن أقول . وقال بعضهم : إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

حرف الطاء

(**طاووس**) طير مليح ذو ألوان عجيبة وعنده الزهو فى نفسه والعجب ، **ومن طبعه**: العفة، وهو من الطير كالفرس من الحيوان ، والأنثى تبيض حين يمضى لها من العمر ثلاث سنين ، وفى ذلك الأوان يكمل ريش الذكر ويتم لونه ، وتبيض الأنثى مرة واحدة فى كل شهر ، ففى السنة اثنتا عشرة بيضة أو أقل أو أكثر ، ويسفد الذكر فى أيام الربيع ، ويرمى ريشه فى أيام الخريف، كالشجر فإذا بدأ طلوع الورق طلع ريشه ، ومدة حضنه ثلاثون يومًا .

فائدة : قيل : إن آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس لعنه الله ، فذبح عليها طاووسًا ، فشربت دمه ، فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قردًا ، فشربت دمه ، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسدًا، فشربت دمه ، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيرًا ، فشربت دمه ، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه ، ويميس عجبًا كالطاووس ، فإذا جاء مبادئ السكر لعب وصفق بيديه كالقرد ، فإذا قوى سكره قام وعربد ، كهيئة الأسد ، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير ، ثم يطلب النوم . والناس تتشاءم بإقامته بالدور ، قيل : لأنه كان سببًا لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها ، والله على كل شىء قدير .

حرف الظاء

(**ظبى**) واحد الغزلان ، وهو ثلاثة أصناف : **الأول**: الآرام ، وهو ظباء الرمل ولونها رمادى وهى سمينة العنق . **والثانى**: العفر لونها أحمر وهى قصيرة العنق . **والثالث**: الآدم وهى طويلة العنق ؛ وتوصف بحدة البصر ، **وقيل**: إن الظبى يقضم الحنظل ويمضغه مضغًا يسيل من شدقيه ويرد الماء المالح فيشرب الماء الأجاج ويغمس خرطومه فيه كما تغمس الشاة لحييها فى العذب ، فأى شىء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلى مرارة الحنظل.

الخواص : لسانه يجفف ويطعم للمرأة السليطة تزول سلاطتها ، وبعره وجلده يحرقان

ويسحقان ويجعلان فى طعام الصبى يزيد ذكاؤه ، ويصير فصيحًا ذلقا حافظًا .

(ظربان) دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح . تزعم العرب أن من صادها وفست فى ثوبه لا تزول الرائحة منه حتى يبلى الثوب. ويحكى من شؤمها : أنها تأتى بيت الظبى،فتفسو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه، وتأكله بعد ذلك .

663حرف العين

(عجل) حيوان معروف وهو ذكر البقر وسمى بذلك لاستعجال بنى إسرائيل بعبادته. **والسبب فى ذلك:** أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وَقَّتَ الله له ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامرى فى قلبه من حُبٍّ عبادة البقر شيء فابتلى الله به بنى إسرائيل ، فقال : ائتونى بحلى قال : فأتوه بجميع حليهم فصنع منه عجلاً جسدًا وألقى عليه قبضة من التراب الذى كان أخذه من أثر فرس جبريل ـ عليه السلام ـ فصار له خوار كما أخبر الله تعالى (١) ، فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى ، وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون فيخرج منه تصويت كهيئة الكلام فيتعجبون من ذلك ويظنون أنه تكلم ، وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يطغيهم .

فائدة : نقل القرطبى عن سيدى أبي بكر الطرطوشى ـ رحمهما الله ـ أنه سئل عن قوم يجتمعون فى مكان فيقرأون من القرآن ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ويطربون ، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة هل الحضور معهم حلال أم حرام فقال مذهب الصوفية : إن هذه بطالة وجهالة وضلالة وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ **وأما الرقص والتواجد** : فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذوا العجل ، فهذه الحالة هى حالة عباد العجل وإنما كان النبى ﷺ مع أصحابه فى جلوسهم كأنما على رؤوسهم الطير مع الوقار والسكينة ، فينبغى لولاة الأمر وفقهاء الإسلام أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب الشافعى وأبو حنيفة ومالك وأحمد ابن حنبل ـ رحمهم الله تعالى ـ .

(عقرب) هو من الحشرات . قال الجاحظ : إنها تلد من فيها مرتين وتحمل أولادها على ظهرها وهم كهيئة القمل كثير العدد ، وقال غيره إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا كهيئة الذر ثم يكثرون ويطوفون بالأرض ، ولها ثمانية أرجل ، **ومن عجيب أمرها** :أنها لا تضرب النائم إلا إذا تحرك شيء منه ، والخنافس تأوى إليها وربما لسعت التنين العظيم فتقتله .

---

(١) فى قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

(٢) وقال تعالى : ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ . فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه : ٨٧ ، ٨٨] .

غريبة : قال ذو النون المصرى : بينما أنا فى بعض سياحتى إذ مررت بشاطئ البحر فرأيت عقربًا أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطئ البحر ، فظننت أنه يشرب فقمت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء، وأتاه فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب ، قال ذو النون : فاتزرت بمئزرى وعمت خلفه حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة ، فوجدت تحتها غلامًا نائمًا من شدة السكر قد أقبل عليه تنين عظيم ، قال : فلصقت العقرب برأس التنين ، ولسعته فقتلته ، ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعبر بها إلى الماء وسار بها إلى المكان الذى جاءت منه قال ذو النون فتعجبت من ذلك وأنشدت :

يا راقدًا والجليلُ يحفظُه ... مِن كلِّ سوءٍ يكنُ فى الظلمِ
كيف تنامُ العيونُ عن ملكٍ ... يأتيكَ منه فوائدُ النعمِ

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك . قال : فلما سمع ذلك قال : أشهدك على أني قد تبت عن هذه الخصلة ، ثم جررنا ذلك التنين ورميناه فى البحر ، ولبس ذلك الغلام مسحًا وساح إلى أن مات ـ رحمة الله تعالى عليه ـ ، وما أحسن ما قال بعضهم :

إذا لم يسالِمْكَ الزمانُ فحاربِ ... وباعدْ إذا لم تنتفعْ بالأقاربِ
ولا تحتقرْ كيدَ الضعيف فربما ... تموتُ الأفاعى من سموم العقارب
فقد هدّ قدمًا عَرْشَ بلقيسَ هدهدٌ ... وخربَ فأرٌ قَبْلَ ذا سَدَّ مأربَ
إذا كان رأسُ المال عُمرَك فاحترزْ ... عليه من التضييع فى غير واجبَ
فبين اختلافِ الليلِ والصبحِ مَعْرَكٌ ... يكرُّ علينا جيشُه بالعجائبِ(١)

فائدة : إذا لُدغَ أحد فاقرأ عليه هذه الكلمات وهى : سلام على نوح فى العالمين وصلى الله على سيدنا محمد فى المرسلين أعيذك من حاملات السم أجمعين لا دابة بين السماء والأرض إلا ربى آخذ بناصيتها كذلك يجزى عباده المحسنين إن ربى على صراط مستقيم . نوح قال لكم: مَنْ ذكرنى لا تلدغوه إن ربى بكل شىء عليم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم .

وقال بعض العلماء : من قال عقدت زبان العقرب ولسان الحية ويد السارق بقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أمن من العقرب والحية والسارق .

وفى البخارى « أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ وقال : يا رسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتنى البارحة؟ فقال له النبى ﷺ : « أما إنك لو قلت إذا أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات

(١) معرك : زمان فيه كر وفر.

من شر ما خلق لم تضرك » ، وروى الترمذى « أن من قال حين يمسى أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات ثم قال : ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الصافات : ٧٩] لم تضره الحية والعقرب »(١) ، والسرُّ فى ذكر نوح دون غيره هو أنه لما ركب فى السفينة سألته الحية والعقرب أن يحملهما معه ، فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك .

الخواص: مَنْ بَخَّر البيت بزرنيخ أحمر وشحم بقر هربت منه العقارب، ومن شرب مثقالين من حب الأترج أبرأه من سمها ، ومن علق عليه شيء من ورق الزيتون برئ أيضًا لوقته .

(عقعق) طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة وهو لا يأوى إلا الأماكن العالية.وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب خوفًا عليه من الخفاش لا يفسده .

الخواص : دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل والشوكة الغائبة فى البدن أخرجه .

(علق) دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والآدمى، فإذا علقت بك فرش عليها ماء وملحًا وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه . **ومن خواصه** : أن البيت إذا بحر به هرب ما فيه من البق والبعوض وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطلى به مكانه منع نباته .

(عنقاء) اختلف فيها فقال بعضهم : هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان وفيه من كل حيوان لون. وقال بعضهم : هو طير غريب الشكل يبيض بيضًا كالجبال ويبعد فى طيرانه ، وسميت بذلك لأنه كان فى عنقها طوق أبيض ، **قال القزوينى** :إنها تخطف الفيلة لعظمها وكبر جثتها كما تخطف الحدأة الفأر ، قال : وكانت فى قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروسًا بحليها فذهب أهلها إلى نبى ذلك الزمان فشكوها إليه فدعا عليها فذهب بها إلى بعض الجزائر التى خلف خط الاستواء، وهى جزيرة لا يصل إليها أحد ، وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالفيل والكركند وغير ذلك . **وقال أصحاب التواريخ**: إن هذا الطير يعمر حتى قيل: إنه يعيش ألفى سنة، ويتزوج إذا مضى عليه خمسمائة .

وحكى الزمخشرى فى « ربيع الأبرار » :أن الله تعالى خلق فى زمن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ طيرًا يقال له: العنقاء له وجه كوجه الإنسان ، وأربعة أجنحة من كل جانب، وخلق له أنثى مثله ، ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أنى خلقت خلقًا كهيئة الطير رزقه الوحوش والطير

(١) لم أجده فى سنن الترمذى . والله أعلم.

التى حول بيت المقدس قال : فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفى موسى - عليه الصلاة والسلام - انتقلت إلى نجد والعراق ، فلم تزل تأكل الوحوش ، وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العبسى ، فشكوها له ، فدعا عليها ، فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت .

(عنكبوت) دويبة لها ثمانية أرجل ، وستة عيون ، وهى من الحيوان الذى صيده الذباب وولده يخرج قويًا على النسج من غير تعليم ولا تلقين ، ويخرج أولاده دودًا صغيرًا ، ثم يتغير وتصير عنكبوتًا وتكمل صورته .

فائدة : **قيل** : إن امرأة ولدت جارية ، ثم قالت لخادم لها: اقتبس لها نارًا ، فخرج ، فوجد بالباب سائلاً، فقال له: ما ولدت سيدتك ؟ فقال : بنتًا ، فقلل : لا تموت حتى تبغى بألف رجل، ويتزوجها خادمًا ، ويكون موتها بالعنكبوت ، فقال الخادم ، وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل ، فصبر حتى قامت أمها لتقضى بعد شؤونها وعمد إلى البنت ، فشق بطنها بسكين وهرب ، قال: فجاءت أمها ، فوجدتها على تلك الحالة ، فدعت بمن يعالجها حتى شفيت، فلما كبرت بغت ، قال : ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر ، فأقامت هناك تبغى . **قال:** وأما الرجل فإنه صار من التجار ، وقدم لتلك المدينة ومعه مال كثير ، فقال لامرأة عجوز هناك: اخطبى لى امرأة حسنة أتزوج بها قال : فوصفتها له وقالت : ليس هنا أحسن منها ، ولكنها تبغى ، فقال للعجوز ائتنى بها ، قال : فذهبت وأخبرتها بالقصة ، فقالت لها : حبًا وكرامة ، فإنى قد تبت من البغى ، فتزوج بها ، وأحبها حبًا شديدًا وأقام معها أيامًا ، وكان يود أن يراها متجردة ، فلم يمكنه ذلك حتى إذا كان فى بعض الأيام خرج على عادته لقضاء أشغاله ودخلت هى الحمام ، وعرضت له حاجة ، فرجع إلى الدار ، وصعد إلى قصرها ، فلم يرها ، فسأل عنها ، فقيل له هى فى الحمام ، فدخل عليها ، فرآها متجردة ، ورأى فى بطنها أثر كالخياطة ، فقال : ما هذا ؟ قالت : لا أعلم إلا أن أمى أخبرتنى أنه كان لنا خادمًا وأنه يوم ولادتى غافل أمى وشق بطنى بسكين وهرب وأنها حين رأتنى كذلك دعت بعض الأطباء ، فخاط بطنى وعالجنى حتى اندمل جرحى وشفيت ، وبقى هذا الأثر ، فقال لها : أنا ذلك الخادم ، وحكى لها السبب ، وأن ذلك السائل أخبره أنها تموت بالعنكبوت ، ثم إنه اهتم بأمرها وجمع مهندسى البلدة التى هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لا ينسج عليه العنكبوت ، فقالوا : كل بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لنعومته لا ينسج عليه ، فأمرهم أن يصنعوا لها قصرًا من البلور ، وبذل لهم ما أرادوا ، فعملوه وفرشوه ، وأمرها أن تقيم فيه لا تخرج منه خوفًا عليها من العنكبوت . **قال** : فبينما هو ذات يوم إذ رأى عنكبوتًا قد نسج فى ذلك القصر ، فقام إليه ، فرماه وقال لها هذا الذى يكون موتك منه قال : فداسته بإبهامها وقالت كالمستهزئة : أهذا الذى يقتلنى؟ فشدخته، فتعلق بطرف إبهامها مِنْ مائِهِ شىء فعمل بها حتى ورمت ساقها، ثم وصل

الورم إلى قلبها ، فقتلها ، فما أفاده قصره ولا صرحه شيئًا . قال الله تعالى : ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء : ٧٨] .

فائدة : نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع : على غار النبى ﷺ . وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعثه النبى ﷺ لخالد الهذلى ، فقتله ، وحمل رأسه ، ودخل به فى غار خوفًا من أهله، ونسج على عورة زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهم - لما صُلِبَ عريانًا ، **وقيل**: إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه.

الخواص : نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها ، ويجلو الفضة إذا دلكت به، والذى يوجد من نسجها فى بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به .

(ابن عرس) حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ،ويسمى: العرسة وهو عدو للفأر وعنده الحيل ، قيل : إنه عدا خلف فأر ، فصعد منه على شجرة ، فصعد خلفه ، وأمر أنثاه أن تقف تحت الشجرة ، ثم قطع الغصن الذى كان عليه الفأر ، فسقط ، فأخذته أنثاه . **ومما حكى**: أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه .

عجيبة : قيل: إن رجلاً صاد فرخًا من أولاده وحبسه تحت طاسة ، فجاء أبوه ، فوجده ، فذهب وأتى بدينار ، فوضعه ، فلم يفلته ، ثم ذهب وأتى بآخر وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنانير ، فلم يفلته ، ثم أتى بخرقة ، فلم يفلته ، فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله به فلما علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شىء، فأفلته له.

حرف الغين

(غراب) وكنيته: أبو حاتم .وله كنى غير ذلك ، وهو أنواع كثيرة ، منها الأكحل ، وغراب الزرع ، والأزرق وهذا النوع يحكى جميع ما سمعه ، والعرب تتفاءل بصياح الغراب ، فتقول : إذا صاح مرتين فَشَرٌّ ، وإذا صاح ثلاثة فخير ، وهو كالإنسان عند الجماع ، **وفى طبعه**: الاستتار عن الناس عند مجامعته ، والأنثى تبيض ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا ، وتحضن ذلك والأب يسعى فى طعمتها إلى أن تفرخ ، فإذا فرخت خرجت أفراخها قبيحة المنظر ، فتتفرق عنها وتتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتتغذى به ثم لا تزال تعاهدها حتى ينبت لها الريش فتأتيها ومنه قول الحريرى (١) :

(١) الحريرى : هو القاسم بن على أبو محمد الحريرى البصرى ، الأديب الكبير صاحب المقامات الحريرية . لغوى ، نحوي . ناظم . ناثر . من كتبه « درة الغواص فى أوهام الخواص » و« ملحمة الإعراب » . له شعر حسن فى ديوان . كان دميم الصورة . مولده بالمشان قرب البصرة ،توفى بالبصرة سنة (٥١٦ هـ) . ونسبته إلى عمل الحرير أو بيعه ترجمت مقاماته إلى اللاتينية.

يا رازقَ النَّعَّاب فى عشِّهِ وجابرَ العظمِ الكسير المهيضِ(١)

ومن طبعه: أنه لا يتعاطى الصيد بل إن وجد رِمَّة أكل منها ويقم من الأرض ما وجد ويسمى بالفاسق لأنه لما أرسله نوح ـ عليه السلام ـ ليكشف عن الماء ، فوجد فى طريقه رِمَّةً فسقط عليها وترك ما أرسل إليه ، ويسمى بالبين لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق فى أثرهم .
ومن الغرائب : أن بين الغراب وبين الذئب ألفة . وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها ومعه الذئب لا يضره .

الخواص : إذا غُمِسَ الغراب فى الخل ثم جفف وسحق ريشه، وطلى به الشعر سوده ، وإذا علق منقاره على إنسان زالت عنه العين . وزبل الغراب الأبقع ينفع الخوانيق والخنازير طلاء ، وإن صُرَّ فى خرقة على من به السعال زال .

(غرغر) دجاج بنى إسرائيل يقال : إنه فرقة من بنى إسرائيل كانت بتهامة ، فطغت وبغت وتجبرت وكفرت ، فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة، وكلابهم الأسود، وعنبهم الأراك، وجوزهم المقل ،ودجاجهم الغرغر ، وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه لرائحته الكريهة، وهذا مُشاهَد فى زماننا هذا الآن على ما نقل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

حرف الفاء

(فاختة)(٢) طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت ، **يحكى** : أن الحيات تهرب من صوتها ، **وفى طبعها** : الأنس ، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها فى البيوت ، وهى من الحيوان الذى يعمر، وقد ظهر منها ما عاش خمسًا وعشرين سنة .

الخواص : دمها ينفع من الآثار فى العين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها .

(فأرة) وكنيتها: أم خراب وغير ذلك وتسمى: بالفويسقة ، وذلك أن النبى ﷺ انتبه ليلة ، فوجدها قد جذبت الفتيلة ، وأحرقت طرف سجادته ، فقتلها ، وأمر بقتلها ، وهى التى قطعت حبل سفينة نوح ، وأذاها لا يكاد ينحصر . **ومنه** : أنها تأتى إلى إناء الزيت ، فتشرب منه ، فإذا نقص صارت تشرب بذنبها ، فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت فى فِيهَا بماء وأفرغته فيه حتى يعلو لها الزيت ، فتشربه ، وربما وضعت فيه حجراً ، فكسرته، ويقال : إنها بقايا الممسوخين الذين كانوا يهودا ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة فى إناء ، فإن لم تشربه فهى منهم.

---

(١) النعاب : الغراب ، والمهيض : المكسور بعد ما كاد ينجبر .

(٢) الفاختة : جمعها : فواخت . نوع من الحمام المطوق . إذا مشى توسع فى مشيه وتمايل.

الخواص: عينه تشد على الماشى يسهل تعبه ، وإذا بخر البيت بزبل الذئب أو الكلب ذهب منه الفأر .

(فرس البحر) حيوان غليظ أفطس الوجه ناصيته كالفرس، ورجلاه كالبقر، وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير ، وجلده يوجد بالنيل ووجهه أوسع من وجه الفرس يصعد البر ويرعى الزرع وربما قتل الإنسان وغيره .

(فهد) حيوان شرس الأخلاق . قال أرسطو : هو متولد من الأسد والنمر . **فى طبعه:** مشابهة بطبع الكلب ، ونومه ثقيل ، **وفى طبعه:** الحنو على أنثاه، وقيل : أول من صاد به كليب بن وائل، وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية ،وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراسانى .

(فيل) حيوان يوجد بأرض الهند ، **وكنيته:** أبو الحجاج ، والأنثى: أم سبل. وهو ينزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين ، وتحمل أنثاه سنتين ثم تضع ولا يقربها الذكر فى مدة حملها، ولا بعده بثلاث سنين ولا يلقح إلا ببلاده، وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجليها لاينثنيان ، فتخاف عليه ، والذكر يحرسها خوفًا على ولده من الحيات ، فإنها تأكله ، وهو عند شدة غلمته كالجمل ، ويهيج فى زمن الربيع ، وزعم أهل الهند : أن لسانه مقلوب، ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه ، وقيل : إن ثدييه فى صدره كالإنسان ، وهو أضخم الحيوان ، وأعظمه جرمًا، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة سن ، وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم رشيق، وربما مر الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد فلا يشعر برجله ولا يحس بمروره لخفة همسه ، واحتمال بعض جسده لبعض . وأهل الهند يزعمون: أن أنياب الفيل ، وقرناه يخرجان مستبطنين حتى يخرقان ، وخرطوم الفيل أنفه ويده وبه يتناول الطعام إلى جوفه وبه يقاتل وبه يصيح ، وصياحه ليس فى مقدار جرمه . وقيل : إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه كما يغيب الجاموس جميع بدنه إلا منخريه ، ويقوم خرطومه مقام عنقه والخرق الذى فى خرطومه لا ينفذ ، وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو ماء أولجه فيه لأنه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى ، وأهل الهند تجعله فى القتال وهو أيضًا يقاتل مع جنسه ، فمن غلب دخلوا تحت أمره ، وقيل: جعل الله فى طبع الفيل الهرب من السنور .

حكى عن هارون مولى الأزد أنه خبأ معه هرًا ، ومضى بسيف إلى الفيل ، فلما دنا منه رمى بالهر فى وجهه فأدبر هاربًا وكبر المسلمون ، وظنوا أنه هرب منه . قال أبو الشمقمق :

يا قومٌ إنى رأيتُ الفيلَ بَعْدَكُمُ تباركَ اللهُ لى فى رُؤيَة الفيل

رأيتُ بيتًا له شىءٌ يُحرّكُه فكدتُ أفعلُ شيئًا فى السراويلِ (١)

وقيل: إذا اغتم الفيل لم يكن لسواسه (٢) هَمٌّ إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه ، **ومن عجيب أمره**: أن سوطه الذى به يحث ويضرب محجن جديد أحد طرفيه فى جبهته والآخر فى يد راكبه، فإذا أراد شيئًا غمزه به فى لحمه ، وأول شىء يؤدبون به الفيل يعلمونه السجود للملك .

قيل : خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل وأحدق به ثلاثون ألف فارس، فلما رأته الفيلة سجدت له ، فما رفعت رؤوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيالون، وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقًا غليظًا سائلاً أطيب من رائحة المسك ، ولا يعرض ذلك العرق إلا فى بلادها خاصة ، وإن عِظامَ الفيل كلها عاج إلا أن جوهر نابه أكرم وأثمن ، ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة فى قوله : نحن أكثر منكم عاجًا وساجًا وديباجًا وخراجًا . وقيل : إن الفيلة لا تتسافد فى غير بلادها .

فائدة : من قرأ سورة الفيل ألف مرة فى كل يوم عشرة أيام متوالية ، ثم جلس على ماء جار، وقال : اللهم أنت الحاضر المحيط بمكنونات الضمائر ، اللهم عز الظالم وقلّ الناصر ، وأنت المطلع العالم ، اللهم إن فلانا ظلمنى وأساءنى ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكه ، فأهلكه اللهم سربله سربال الهوان ، وقمصه قميص الردى، اللهم اقصفه ست مرات ، اللهم اخفضه مرتين ، ﴿ **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ** (٢١) ﴾ [غافر : ٢١] ، فإن الله يستجيب له ما لم يكن ظالمًا .

الخواص : جلده إذا بخر به بيت هرب بقه . وإذا سقى إنسان من وسخ أذنه نام نومة طويلة، وإذا علق من نابه شىء على شجرة لم تثمر ، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس .

حرف القاف

(قاقم) دويبة تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجًا ، وهو أبيض يقق ، وجلده أعز قيمة من السنجاب .

(قاوند) طير يكون بساحل البحر يبيض فى الرمل ويحضن بيضه سبعة أيام ، ثم تخرج أفراخه بعد ذلك ، فيزقها بعد سبعة أيام ، ويقال : ما يمسك الله البحر فى هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكرامًا له لأنه يقال : إنه يبر والديه .

---

(١) فكدت أفعل شيئًا فى السراويل : يعنى أن ذلك قد كاد يمكن أن يحدث له من شدة الخوف والدهش .

(٢) سواسة : جمع : سائس .

خواصه : أنه يقيم المقعد ويحلل البلاغم المزمنة، وينفع الأمراض الباردة وأوجاع الأعصاب .

(**قرد**) حيوان معروف .وكنيته: أبو خالد ، وغير ذلك ، وهو قبيح المنظر ، مليح الذكاء، سريع الفهم ، يتعلم الصنائع . قيل : إنه أُهْدِى للمتوكل قرد خياط ، وآخر صائغ ، وأهل اليمن يعلمون القرد البيع والجلوس فى الدكاكين حتى قيل: إنه يخرز النعل ويصر القرطاس، وهو ذو غيرة ، وعنده لواط حتى قيل : إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة ، والتفت ابن الرومى يومًا إلى أبى الحسن الأخفش وهو يحاكى مشية القرد فقال :

هَنِيئًا يا أبــــا الحســـن المُفَدّى ‏ ‏ ‏ بلغتَ من الفصائل كلَّ غاية
شركتَ القردَ فى قُبحٍ وسُخفٍ ‏ ‏ ‏ وما قصَّرْتَ عنه فى الحكايــة

(قنفذ) بالذال المعجمة وكنيته : أبو سفيان ، **ومن عجيب أمره** : أن يصعد الكرم ، فيرمى العنقود ، ثم ينزل ، فيأكل منه ما أطاق ، فإن كان له أفراخ تمرغ فى الباقى فيتعلق بشوكه ، فيذهب به إلى أولاده ، وهو مولع بأكل الأفاعى ، فإذا لدغته لا يؤثر فيه سمها لدفع ذلك بشوكه، وإذا تأذي منها ذهب فأكل السعتر البرى، فيزول أذاها ، وهو الحيوان الذى يسفد مباطنة كالرجل ،وله خمسة أرجل .

حرف الكاف

(كركند) حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة وهو دون الجاموس وله قرن واحد عظيم لا يستطيع رفع رأسه منه لثقله ، وهو مصمت قوى يقاتل به الفيل ، فيغلبه ، ولا تعمل نابأه شيئًا معه وعرض قرنه شبران ، وليس بطويل جدًا ، وهو محدد الرأس شديد الملامسة ، وإذا نشر قرنه ظهرت فى معاطفه صور عجيبة كالطواويس ، والغزلان ، وأنواع الطير ، والشجر ، وبني آدم ، ولذلك يتخذ منه صفائح الأسرة والمناطق (١) للملوك ، ويتغالون فى ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف أو أكثر ، والأنثى تحمل ثلاث سنين ويخرج ولدها نابت الأسنان والقرورن ، قوى الحافر، ويقال: إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها وصار يرعى أطراف الشجر، فإذا شبع أدخل رأسه فى بطن أمه ، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئًا حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هيبة له وهربا منه ، ويسمى الحمار الهندى ، هو شديد العداوة للإنسان يتبعه إذا سمع صوته ، فيقتله ، ولا يأكل منه شيئًا .

(**كروان**) طير معروف لا ينام غالب الليل خصوصًا فى القمر ، وعنده ذكاء . قيل : إنه يتكلم بجميع ما يبصره ولا يحتمل المغابنة .

---

(١) المناطق : واحدها : المِنْطَقَةُ : حزام يشد به الوسط.

(كركى) طير محبوب للملوك ، له مشتى ومصيف ، فمشتاه بأرض مصر ، ومصيفه بأرض العراق ، وهو من الحيوان الرئيس ، قيل : إنه إذا نزل بمكان اجتمع حَلَقَةً ونام ، وقام عليه واحد يحرسه ، وهو يصوت تصويتًا لطيفًا حتى يفهم أنه يقظان ، فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته ، قال القزوينى : وإذا مشى وطئ الأرض بإحدى رجليه ، وبالأخرى قليلا خوفا من أن يحس به ، وإذا طار سار سطرًا يقدمه واحد كهيئة الدليل ، ثم تتبعه البقية .

(كلب) معروف وهو نوعان : أهلى وسلوقى ، وهذان النوعان سواء إلا أن الأنثى السلوقى أسرع فى التعلم من ذكره ، وهذا الحيوان حليم ، وعنده رياضة ، وفى طبعه : إكرام الأجلاء من الناس .

وحكي: أن رجلاً عزم جماعة ، فتخلف شخص منهم فى منزله ، ودخل على زوجة صاحب المنزل فضاجعها ، فوثب الكلب عليهما ، فقتلهما ، فرجع صاحب المنزل ، فوجدهما قتيلين ، فأنشد يقول :

ومَاَ زَالَ يَرْعى ذِمَّتي وَيَحُوطُنى ... وَيَحْفَظُ عَهْدى والخَليلُ يخونُ
فواعجبًا للخل يهتك حرمتى ... وَوَاعَجبًا للكَلْبْ كَيْفَ يَصُونُ (١)

وحكى أبو عبيدة قال : خرج رجل إلى الجبانة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس ، فتبعه كلب له ، فضربه ورماه بحجر ، فلم ينته ، ولم يرجع ، فلما قعد ربض الكلب بين يديه ، فجاء عدو له فى طلبه ، فلما رآه خاف على نفسه ، فإذا بئر هناك قريبة القعر ، فنزل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب ، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سبيلهما ، وصار الكلب ينبح حوله فلما انصرف العدو أتاه الكلب ، فما زال يبحث فى التراب إلى أن كشفه عن رأسه ، فتنفس الرجل ، ومر به أناس ، فتناولوه وردوه إلى أهله ، فلما مات ذلك الكلب عمل له قبرًا ودفنه فيه ، وجعل عليه قبة يسمى ذلك قبر الكلب وفى ذلك قيل :

تَفَرَّقَ عَنْه جارُهُ وَشَقيقُهُ ... وَمَا حَادَ عنه كَلْبُه وهو ضارِبُهُ

ومن ذلك ما حكى: أن رجلاً قتل ودُفِن ، وكان معه كلب فصار يأتى كل يوم إلى الموضع الذى دفن فيه ، وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك ، فقال الناس: إن لهذا الكلب شأنًا ، فكشفوا عن ذلك وحفروا ذلك الموضع ، فوجدوا قتيلاً ، فقبضوا على ذلك الرجل الذى ينبح عليه الكلب وضربوه ، فأقر بقتله ، فقتل ، وهو من الحيوان الذي يعرف الحسنة ، وقيل : إن الأنثى تحيض فى كل شهر سبعة أيام ، وأكثر ما تضع اثنا عشر جروًا ، وذلك فى النادر ،

(١) الخل : الصاحب والصديق. والبيتان للشاعر الفرزدق . همام بن غالب توفي سنة ١١٠ هـ وارجع إلى كتاب « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » بتحقيقنا . الناشر : مكتبة الإيمان بالمنصورة .

والغالب خمسة أو ستة ، وربما ولدت واحدًا ، ويعيش الكلب فى الغالب عشر سنين ، وربما بلغ عشرين سنة ، ووصف للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد ، فأرسل من جاء به إليه ، فجوع أسدًا وأطلقه عليه ، فتهارشا وتواثبا حتى وقعا ميتين . وقيل : كلب الصياد يشبه به الفقير المجاور للغنى لأنه يرى من نعمته وبؤس نفسه ما يفتت كبده، وقيل لرجل : ما بال الكلب يرفع رجله إذا بال ؟ قال : يخاف أن يلوث ذراعيه . وقيل : أوَ لِلْكلب ذراعان ؟ . قال : هو يتوهم ذلك .

فائدة : حكى: أن الإمام أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه ـ سمع شخصًا من وراء النهر يروى أحاديث مثلثة ، فسار إليه ، ودخل عليه فوجده يطعم كلبًا ، وهو مشتغل به . قال الإمام أحمد: فأخذت فى نفسى ، وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلىّ ، ثم قال : حدثنى أبو الزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « مَن قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة ، فلم يلج الجنة »(١) ، وإنَّ أرضنا هذه ليست بأرض كلاب، وقد قصدنى هذا الكلب ، فخشيت أن أقطع رجاءه . قال : فقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: هذا الحديث يكفينى ، ثم رجع قافلاً إلى أهله .

فائدة أخرى : قال الترمذى : لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليسُ السباعَ ، وكان أشدها الكلب، قال : فنزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ ، وأمره أن يضع يده عليه ، ففعل، واطمأن إليه ، وألفه وصار يحرسه ، وبقيت الألفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة ، وقيل: إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ، وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل ، فيفسدون ما صنعه فى السفينة بالنهار ، فأمره الله أن يتخذ كلبًا حارسًا ، ففعل ، قال : فكان الكلب إذا أتاه مفسد قام عليه ، فيتيقظ نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيدفعه .

فائدة أخرى : قيل : كان كلب أهل الكهف أسمر ، واسمه : قطمير ، وقيل : أصفر ، وقيل : خلنجى اللون ، وليس فى الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو ،.وكبش إسماعيل، وناقة صالح ،وحمار العزيز، وبراق النبى ﷺ .

فائدة أخرى : إذا نبح عليك كلب ، وخفت منه فاقرأ : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن : ٣٣] . وقل بعد ذلك : لا إله إلا الله ، فإنك تكفاه .

حرف اللام

(لغلغ) طير معروف . قيل : إنه من طيور الفواخت ويأتى إلى أرض مصر فى أيام الشتاء،

(١) لم أقف عليه.

فيأكل ما قسم الله له من الرزق ، ويأكل منه من له فيه رزق ، ثم يرحل إلى بلاده .

حرف الميم

(مالك الحزين) طير يوجد بالضحضاح غذاؤه السمك وسمى بذلك لأنه قيل : إنه لا يشرب حتى يروى خوفًا من أن ينقص الماء ، وإذا نشف الضحضاح حزن لأنه يستطيع العوم ، ونظيره دويبة بأرض فارس معروفة عندهم يقال : إن غذاءها التراب ، فإذا أكلت لا تشبع خوفًا من أن يفرغ .

حرف النون

(نمل) قال - عليه الصلاة والسلام - : « ألا تنظرون إلى صغير مِنْ خَلْقِ الله كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر ، وسوى له العظم والبشر ، انظروا إلى النملة فى صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على الأرض، وسعت فى مناكبها ، وطلبت رزقها؟ تنقل الحبة إلى جحرها تجمع فى حرها لبردها ،وفى وردها لصدرها لا يغفل عنها المنان ، ولا يحرمها الديَّدان ، ولو فكرت فى مجارى أكلها فى علوها وسفلها وما فى الجوف من شراسيف [١]بطنها ، وما فى الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجبًا ، وللقيت من وصفها تعبًا ، فتعالى الذى أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها لم يشركه فى فطرها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر ، لا إله إلا هو ولا معبود سواه ».

وقيل: إذا خافت على حبها أن يعفن أخرجته إلى ظهر الأرض ليجف ، وقيل : إنها تفلق الحبة نصفين خوفًا من أن تنبت ، فتفسد إلا الكزبرة ، فإنها تفلقها أربعًا لأنها من دون الحب ينبت نصفها ، وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا ، فسبحان من ألهمها ذلك ، وقيل : إنها تَشُمُّ رائحة الشيء من بعيد ولو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة ، وإذا عجزت عن حمل شيء استعانت برفقتها ، فيحملونه جميعًا إلى باب جحرها ، وقيل : إذا انفتح باب قرية النمل ، فجعلت فيه زرنيخًا أو كبريتاً هجرتها ، والله أعلم .

(نحل) حيوان له نظر فى العواقب، وله معرفة بفصول السنة ، وأوقاتها وأوقات المطر ، وفى طبعه : الطاعة لأميره والانقياد له ، ومن شأنه: فى تدبير معاشه أنه يبنى له بيتًا من الشمع شكلا مسدسا لا يوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة إذا طار ارتفع فى الهواء وحط على الأماكن النظيفة ، وأكل نوار الزهر ، والأشياء الحلوة وشرب من الماء الصافى ، وأتى ، فأخرج ذلك ، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء ، ثم العسل وقيل : إنه يقسم الأعمال ، فبعضه يعمل البيوت ، وبعضه يعمل الشمع ، وبعضه يعمل العسل ، وفي طبعه : النظافة فيجعل رجيعه خارج الخلية، وما مات منه أخرجه ورماه ، وعند الطرب فيحب الأصوات اللذيذة ، وله آفات تقطعه كالظلمة والغيم والريح ، والمطر والدخان والنار ، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة

---

(١) الشُرْسُوف : الطرف اللعين من الضلع مما يلي البطن .

الغفلة ، وغيم الشك ، وريح الفتنة ، ودخان الحرام ، ونار الهوى .

فائدة : قيل: مرض شخص ، فقال : ائتونى بماء وعسل ، فأتوه بذلك ، فخلط الجميع وشربه فشفى ، وروى: أن شخصًا شكا النبى ﷺ بطن أخيه ، فأمره بشرب العسل ، فشربه ، ثم جاء ثانيًا ، فأمره بشربه ، ثم جاء فى الثالثة ، فقال: يا رسول الله إن بطنه لم يزل ، فقال: رسول الله ﷺ : « صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً، فسقاه الثالثة فشفى »[1] .

نادرة : قيل : إن بعضهم حضر مجلس المنصور ، فقال بعض الحاضرين : المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي من كُلِّ الثَّمرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٩] أهل البيت فإنهم النحل ، والشراب القرآن ، فقال له بعض من حضره من اللطفاء : جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بنى هاشم ، فضحك الحاضرون عليه ، وأبهته .

الخواص : إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص ، واكتحل به نفع من نزول الماء فى العين والتلطخ به يقتل القمل ، ولعقه علاج لعضة الكلب ، والمطبوخ منه نافع للمسموم .

(نسر) هو سيد الطيور يعمر طويلاً ، قيل : إنه يعيش ألف سنة، وله قوة على الطيران حتى قيل : إنه يقطع من المشرق إلى المغرب فى يوم، وجثته عظيمة حتى قيل: إنه يحمل أولاد الفيلة، وله قوة حاسة الشم ، حتى قيل : إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هيبة له حتى يفرغ من الأكل ، وعنده شره . قيل : إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إمساكه فى تلك الحالة أمسكه، وإذا باض ذهب وأتى بورق الدلب ، فجعله فى عشه خوفًا من الخفاش أن يفسد بيضه، وهو لا يحضن البيض ، وإنما يبيض فى الأماكن العالية ويبقيه فى الشمس ، فتكون حرارتها له بمنزلة الحضن ، ومن طبعه : أنه لو شم الطيب مات ، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل : إنه ليموت كمدًا ، ويقال للأنثى منه :أم قشعم ، وفى الحديث : « أتانى جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد لكل شىء سيد ، فسيد البشر : آدم ، وسيد ولد آدم : أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سلمان ، وسيد الحبش بلال ، وسيد الطيور : النسر ، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام : الجمعة ، وسيد الكلام : العربى ، وسيد العربى : القرآن ، وسيد القرآن سورة البقرة » .

الخواص : إذا أخذ قلب النسر وجعل فى جلد الذئب وعلق على شخص كان مهابًا عند الناس مقضى الحاجة ، وإذا عسر على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها .

---

(١) فى المسند الجامع . أبو سعيد الخدرى ٦ / ٤٥٠٢ .

(نعام) يذكر ويؤنث ، وتسمى الأنثى: بأم البيض ،والذكر: بالظليم ، ومن عجيب أمرها: أنها تبيض بيضًا طوالاً متساوية القدر وتجعلها أثلاثًا ثلثًا للحضن وثلثًا تأكله فى حضنها، وثلثا تكسره وتفتحه فيتعفن ويدود فيكون منه غذاء أولادها ، وعندها الحمق أنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها ، فتحضنه وتترك بيض نفسها .

فائدة : روى كعب الأحبار[1] ـ رضى الله تعالى عنه ـ أن الله تعالى لما خلق القمح وأنزله على آدم كان على قدر بيض النعام ، وقال له : هذا رزقك ورزق أولادك قم فاحرث وازرع ، قال : ولم يزل الحب على ذلك مدة ، ثم نزل إلى بيض الدجاجة ، ثم الحمامة ، ثم النبق وكان فى زمن العزيز على قدر الحمص ، وقيل : كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالأخرى إلا النعام، فإنه يبرك إلى أن يموت ، وخلق الله تعالى له قوة الشم البليغ حتى قيل : إنه يشم رائحة القناص من مسيرة نصف ميل ، وهى لا تشرب الماء كالضب ويقال : إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها فى شىء إما شعب أو جحر تظن أنها قد استترت منه ، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصوان والجمر، وفى طبعها: الأذى ، يقال : أنها تخطف الحلق من أذن الصغير ، وقيل إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه ما دام الأبوان حاضرين لأنهما إذا رأياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى ، فتركضه إلى أن تسلمه الذكر ولا يزالان به حتى يقتلاه أو يعجزهما هربًا ، وقيل : أشد ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح وتقول العرب : صنفان من الحيوان أصمان لا يسمعان النعام، والأفاعى ، وسأل أبو عمرو الشيبانى [2] بعض العرب: عن الظليم هل يسمع؟ ، فقال : يعرف بعينه وأنفه ،ولا يحتاج معهما إلى سمع .

(نمِر) حيوان أغبر، وكنيته: أبو الصعب ، وهو صنفان : صنف عظيم الجثة صغير الذنب ، والآخر بالعكس . قال الجاحظ : وهو يحب الشراب وعنده شراسة فى خلقه ، ويقال : إن أنثاه لا تدع ولدها إلا مطوقًا بحية ولا يضرها نهشها ، وذلك لأجل الصياد حتى لا يظفر به ، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ ، وفى طبعه: عدواة الأسد ، وعنده شرف فى نفسه يقال : إنه لا يأكل جيفة، ولا يأكل من صيد غيره ، ولا يملك نفسه عند الغضب ، وأدنى وثبة عشرون ذراعًا وأكثرها أربعون .

الخواص : من حمل من جلده شيئًا صار مهابًا عند الناس ، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت بواسيره.

حرف الهاء

(هدهد) طير معروف ، وهو من رسل سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعنده حدة البصر حتى قيل : إنه يرى الماء تحت الأرض وسبب غيابه عن خدمة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ

(١) كعب الأحبار : هو كعب بن ماتع توفي سنة ٣٢ هـ . وقد سبق أن ترجم له .

(٢) أبو عمرو الشيباني : إسحاق بن مرار الشيباني بالولاء . لغوي . أديب . من رمادة الكوفة جاور بني شيبان، وأدب بعض أولادهم فنسب إليهم . توفي سنة ٢٠٦ هـ . معجم الأعلام : ٩٦ . من آثاره : كتاب « النوادر الكبير » و « غريب الحديث » .

حين سأل عنه ولم يجده هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا ، فذهب لينظره فدخلت الشمس من مكانه ، فرآها سليمان عليه الصلاة والسلام ، فتفقده وطلبه ، فلما حضر قال: يا نبى الله إنى رأيت كيت وكيت ، وقص عليه القصة ، ويقال : إنه قال لسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما أراد تعذيبه ، يا نبى الله : اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى، فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه .

الخواص : إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام عنه ، وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه وريشه إذا حمله إنسان وخاصم غلب خصمه وقضيت حاجته وظفر بما يريد ، ولحمه إذا أكل مطبوخًا نفع من القولنج (١)، وإن بخر بمخه برج الحمام لم يقربه شىء يؤذيه ، ومن علق لحـــيه الأسفـــل أحبه الناس ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

حرف الواو

(ورشان) طير يتولد بين الحمام والفاختة ، وهو حسن شديد الحنو يقال: إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدة حنوه ، وقال بعضهم : إنه يقول فى صياحه : لدوا للموت وابنوا للخراب(٢)، **والهدهد** يقول : إذا نزل القضاء عمى البصر ، والفاختة تقول : ليت هذا الخلق ما خلقوا وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا، وليتهم عملوا لما علموا؟ ، **والخطاف** يقول : قدموا خيرًا تجدوه عند ربكم ، **والحمامة** تقول : سبحان ربى الأعلى ، **والبازى** يقول : سبحان ربى وبحمده ، **والسرطان** (٣) يقول : سبحان المذكور بكل لسان ، **والدراج** (٤) يقول : الرحمن على العرش استوى ، **والعقاب** (٥) يقول : البعد عن الناس رحمة ، **ومن الطيور**: من يقرأ الفاتحة كالدرة (٦) ويمد صوته فى الضالين كالقارىء .

حرف الياء

(**يأجوج ومأجوج**) : سموا بذلك لكثرتهم ، وقيل : بل هو اسم أعجمى غير مشتق ، قال مقاتل : وهم ولد يافث بن نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقول من قال : إن آدم نام ، فاحتلم، فالتصق منيه بالتراب . فتولد منه هذا الحيوان مردود بعدم احتلام الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، وفى الحديث : « يأجوج ومأجوج أمة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة »(٧) انتهى . وهم أصناف منهم : ما طوله عشرون ذراعًا ، وما طوله ذراع وأقل وأكثر . وعن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ : إن لهم مخالب الطير ، وأنياب السباع ، وتداعى الحمام وتسافد البهائم ، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد ، وإذا مشوا فى الأرض كان أولهم بالشام وآخرهم بخراسان ، يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية ، ويمنعهم الله تعالى

(١) القولنج : مرض معوي ـ الإمساك ـ مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح . وسببه التهاب القولون .
(٢) صدر بيت شعر لأبي العتاهية . وعجزه : فَكُلُّكُمْ يَصيرُ إلى تَبَابِ .
(٣) السرطان : حيوان بحري من القشريات العشريات الأرجل .
(٤) الدرّاج : نوع من الطير يدرج في مشيه .
(٥) العقاب : طائر من كواسر الطير . قوي المخالب . له منقار قوي . قصير أعقف . حادّ البصر .
(٦) الدرّة : الببغاء عند العامة .
(٧) ضعيف . رواه البيهقى وابن عساكر.

من دخول مكة والمدينة وبيت المقدس ، ويأكلون كل شىء يمرون به ، ومن مات منهم أكلوه ، ويقال : إن صنفًا منهم له أذنان إحداهما صلدة ، والأخرى وبرة ، فهو يلتحف بإحداهما ويفترش الأخرى [١]، وفى الحديث : أنه عليه الصلاة والسلام: سئُل هل بلغتهم الدعوة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « دعوتهم ليلة أسرى بى ، فلم يجيبوا ، فهم خلق النار».

وفى الحديث أيضا : « إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة قال : يا آدم أرسل بعث النار ، فيقول يا رب ، وما بعث النار ؟ فيقول الله تعالى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار وواحدة للجنة . قال: فاشتد الأمر على المسلمين : فقال رسول الله ﷺ : أبشروا ، فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا ومنكم واحدًا » [٢]. وفى الحديث أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فأخبره بالردم [٣]. فقال : صفه ، فقال: يا رسول الله : انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه، فدخلت فى بيت ، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعتنى ، فارتعدت منها قال ، فقال صاحب البيت: لا بأس عليك إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم ، أتريد أن تنظر إليه؟ فإذا لبنه مثل الصخرة ، ومساميره مثل جذوع النخل ، كله من حديد كأنه البرد المحبر ، فقال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى من رأى الردم، فلينظر إلى هذا الرجل » ، قال المفسرون : وهذا هو السَّدُّ الذى بناه ذو القرنين ، وهذه الأمة خلفه تطلب المجىء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم ، فيعيده الله كما كان إلى أن يقضى الله أمره ثم يسلط الله عليهم بعد ذلك دودًا يطلع فى حلاقيمهم ، فيهلكهم الله به ، والأخبار فى ذلك كثيرة .

(يحمور) دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر ، وقيل : هو كالأيل يلقى قرنيه فى كل سنة ، وهما صامتان . وقال الجوهرى : هو الحمار الوحشى .

نادرة : قيل : ترافق رجلان فى طريق ، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر : قد صار لى عليك حق ، وإنى رجل من الجان ولى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ . قال : إذا وصلت إلى المكان الفلانى من هذه المدينة ، فهناك عجوز عندها ديك ، فاشتره منها واذبحه ، فقال له الآخر : وأنا أيضًا لى إليك حاجة ، قال: وما هى ؟ قال : إذا ركب الجنى إنسانًا ما يعمل له. قال : تشد إبهاميه بسير من جلد اليحمور ،وتقطر فى أذنيه من ماء السذاب[٤] فى اليمنى أربعًا ، وفى اليسرى ثلاثًا ، فإن الراكب له يموت تفرقًا، ودخل الأنسى ففعل ما أمره به

(١) كل هذا لم يصح فيه شىء عن النبى ﷺ وانظر تفسير ابن كثير (٣ / ١٠١) .
(٢) رواه البخارى فى « الأنبياء » (٦ / ٣٨٢) ومسلم فى « الإيمان (٥٢١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.
(٣) ذكره الله تعالى : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الكهف : ٩٥] .
(٤) السذاب : جنس نباتات طيبة .

الجنى من شراء الديك ، وذبحه ، فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له : أنت ساحر. ومن حين ذبحت الديك سلبت من صبية عندنا عقلها ، فلا نفلتك إلا إلى صاحب المدينة ، قال : ائتونى بسير من جلد اليحمور ، وقليل من ماء السذاب ، ودخلت على الصبية ، فشددت وقطرت ماء السذاب فى أذنيها ، فسمعت صوتًا يقول : آه علمتك على نفسى ، ثم مات من ساعته ، وشفى الله تلك الشابة .

فصل : فى خواص الطير ، والحيوان على الإجمال

الضب، والخنزير: لا يلقيان شيئًا من أسنانهما أبدًا ، وكل حيوان يعوم بالطبع ، إلا الإنسان ، والقرد وكل ذى عين، فإن أهداب عينه فى الجهة العليا فقط إلا الإنسان فإنه فى الجهتين ، والفرس : لاطحال له والبعير: لا مرارة له، والظليم: لا مخ لعظمه ، والحيات: لا ألسنة لها ، والسمكة: لا رئة لها لأنها تتنفس من كبدها ، وكل حيوان لا حافر له فله قرن وما لا قرن له فله حافر ، والحيوان المتهم باللواط القرد ، والخنزير، والحمار ، والسنور ، والعيون التى تضىء بالليل عين الأسد والنمر والأفعى والسنور ، والذى يدخر القوت من الحيوان الإنسان والفأر، والغراب، والنحل، والنمل ، والذى يحيض من الحيوان: الإنسان، والفرس، والكلب والأرنب، والضبع، والخفاش ، ويقال أيضًا : الرعاد من السمك فتبارك الله أحسن الخالقين ، وهذا آخر ما قصدت إيراده فى هذا الباب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

الباب الثالث والستون

فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودى[١] فى كتابه عن بعض العلماء : أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانيًا وعشرين أمة على خلَقٍ مختلفة ، وهى أنواع: منها : ذوات أجنحة وكلامهم قرقعة ، ومنها ما له أبدان كالأسود ورؤوس كالطير ، ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوى ، ومنها: ما له وجهان واحد من قبَلِه والآخر من خلفه ، وأرجل كثيرة، ومنها: ما يشبه نصف الإنسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرانيق ، ومنها: ما وجهه كالآدمى وظهره كالسلحفاة وفى رأسه قرن، وكلامهم مثل عوى الكلاب ومنها : ما له شعر أبيض وذنب كالبقر ، ومنها: ما له أنياب بارزة كالخناجر وآذان طوال، ويقال : إن هذه الأمم تنكاحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة ، ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان ، وقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: خلق الله تعالى ألف أمة وعشرين أمة منها ستمائة فى البحر ، وأربعمائة وعشرون فى البر ، وفى الإنسان من كل خلق ، فلذلك سخرّ له جميع الخلق ، واستجمعت له جميع اللذات: وعمل بيده جميع الآلات ، وله النطق والضحك والبكاء ، والفكرة ، والفطنة ، واختراعات الأشياء ، واستنباط جميع العلوم ، واستخراج المعادن وعليه وقع الأمر والنهى والوعد والوعيد والنعيم والعذاب ، وإياه خاطب وله قرب ، وخلق الله تعالى إسرافيل ـ عليه السلام ـ على صورة الإنسان ، وهو أقرب الملائكة إليه . وفي الحديث « لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرافيل» . وآيات الله تعالى فى البشر أكثر من أن تحصر: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] . وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب (تحفة الألباب): دخلت إلى (باشقرد) فرأيت قبور عاد ، فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران ، وكان عندى فى (باشقرد)[٢] نصف ثنية أخرجت لى من فك أحدهم الأسفل، فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ألف ومائة مثقال ، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعًا وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع . وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام . قال : ولقد رأيت فى (بلغار)[٣] سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلاً طويلاً طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعًا وكان يسمى : دنقى أو دبقى وكان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب (بلغار) قد اتخذ له درعًا تحمل على عجلة وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل ، وكان يأخذ

---

(١) على بن الحسين بن على المسعودى ، أبو الحسن . مؤرخ وجغرافى . ولد فى بغداد . له رحلات . بحاثة . إخبارى علامة لكنه روى أشياء لم يتحققها بعينه . عابه عليها النقاد . . من آثاره : « مروج الذهب ومعادن الجوهر» توفى سنة ٣٤٦ هـ .

(٢) باشقرد : اسم بلدة في روسيا في ولاية « أوفا » سكانها أكثرهم مسلمون مختلط بالعنصر المجرى .

(٣) بُلغار : شعب تكونت منه دولتان في أوائل القرون الوسطى إحداهما على نهر الفلفا والأخرى على نهر الطونة .

فى يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله ، وكان خيرًا متواضعًا ، كان إذا لقينى يسلم علىَّ ويرحب بى ويكرمنى ، وكان رأسى لا يصل إلى ركبتيه رحمة الله تعالى عليه ، ولم يكن فى بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة ، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات فى بلغار ، وقال لى قاضى بلغار يعقوب بن النعمان : إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان أقوى أهل بلغار قيل : إنها ضمته إليها ، فكسرت أضلاعه ، فمات من ساعته .

وروى عن وهب بن منبه [١] فى عوج بن عنق[٢] : أنه كان من أحسن الناس وأجملهم إلا أنه كان لا يوصف طوله ، قيل : إنه كان يخوض فى الطوفان ، فلم يبلغ ركبتيه ، ويقال: إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعًا، وكان يجتار المدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير ، وعُمِّرَهُ الله دهرًا طويلاً حتى أدرك موسى ـ عليه السلام ـ، وكان جبارًا فى أفعاله يسير فى الأرض برًا وبحرًا ويفسد ما شاء ، ويقال : إنه لما حصر بنو إسرائيل فى التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم فبعث الله طيرًا فى منقاره حجر مدور فوضعه على الحجر الذى على رأسه ، فانشق من وسطه وانخرق فى عنقه ، وأخبر الله عز وجل نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذلك، فخرج إليه وضربه بعصا فقتله ، ويقال: إن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع ، وقفز فى الهواء عشرة أذرع، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤]، ومن ذلك ما قيل عن أمه عنق بنت آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وكانت مفردة بغير أخ ، وكانت مشوهة الخلقة لها رأسان ، وفى كل يد عشرة أصابع ، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : هى أول من بغى فى الأرض وعمل الفجور ، وجاهر بالمعاصى واستخدم الشياطين وصرفهم فى وجوه السحر ، وكان قد أنزل الله على آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أسماء عظيمة تطيعه الشياطين بها وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها ، فغافلتها عَنَقُ وسرقتها واستخدمت بها الشياطين ، وتكلمت بشىء من الكهانة ، فدعا عليها آدم، وأمنت على ذلك حواء ، فأرسل الله عليها أسدًا أعظم من الفيل ، فهجم عليها وقتلها ، وذلك بعد ولادتها عوجًا بسنتين.

ومن ذلك ما حكى عن بعض فقهاء الموصل : أنه شاهد ببلاده الأكرا المحمدية فى جبل من جبال الموصل إنسانًا طوله تسعة أذرع ـ وهو صبى لم يبلغ الحلم ـ وكان يأخذ بيده الرجل القوى ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه ، فقيل له : فى عقله خبل ، فتركه .

وروى عن الإمام الشافعى ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : دخلت بلدة من بلاد اليمن ، فرأيت بها إنسانًا من وسطه إلى أسفله بدن واحد ، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأربع أيد ، وهما يأكلان ويشربان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان . قال : ثم غبت

(١) سبق أن ترجم له .

(٢) عوج بن عنق . أو عاج بن عناق : ملك باشان الجبار المذكور بالتوراة باسم « عج » جاء في أساطير العرب: أنه قتل فصارت جثته جسرًا على النيل . « المنجد » معجم الأعلام الشرق والغرب / ٣٦١ .

عنهما قليلاً ورجعت ، فقيل لى : أحسن الله عزاءك فى أحد الشقين ، فقلت : وكيف صنع به؟ فقيل : ربط فى أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل ، ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهبًا وراجعًا .

ومنه : ما أرسله بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة ، وهو رجلان فى جسد واحد ، فأحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تجوعان وتعطشان معًا ؟ قالا : نعم. فقالوا له : لا يمكن فصلهما ، ويقال: إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما ، فأخبر أنهما يختصمان فى بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما .

ومن ذلك : ما ذكر أنه أُهدى إلى أبى منصور السامانى فرس له قرنان ، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما ، وإذا بعد ألصقهما ، وذكر القاضى عياض ـ رحمة الله تعالى عليـه ـ : أنه ولد له مولود على أحد جنبيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهذا لا يبعد ، فإنه يوجد كثيرًا فى السنور الدبركى ، وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل ، ومثلها أيد ، وذكر أنه كان لبعض ولاة مصر مملوك يدعى طقطو ، فولاه قوص من أعمال الصعيد فتزوج بها وولد له ولد ، ثم انقلب امرأة فتزوج بها وولدت ولدين ، وكبش بأربعة قرون ،ودجاجة بأربعة أرجل ، وحيوان برأسين ، والمخرج واحد ، فكثير ، وعجائب الله تعالى فى مصنوعاته غير متناهية ، فللّه الحمد على ما أنعم به علينا لا نحصى ثناء عليه .

ومن ذلك : إنسان الماء وهو حيوان يشبه الآدمى ، وفى بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء، ويستبشر الناس فى تلك السنة بالخصب .

ومن ذلك : بنات الماء وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدى وفروج ، وهن حسان ولهن كلام لا يفهم ، وضحك ولعب ، ولهن رجال من جنسهن ويقال : إن الصيادين يصطادونهن ويجامعونهن ، فيجدون لذة عظيمة لا توجد فى غيرهن من النساء ، ثم يعيدوهن فى البحور ثانيًا ، ويقال : إن هذا الصنف يوجد (بالبرلس (١) ورشيد) على ما ذكر .

وحكى عن الشيخ أبى العباس الحجازى قال : حدثنى بعض التجار أنه فى سنة من السنين خرجت إليه سمكة عظيمة فنقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال ، وأخرجوها ، ففتحت أذنها ، فخرجت جارية حسناء بيضاء سوداء الشعر حمراء الخدين كحلاء العينين من أحسن ما يكون من النساء ومن صرتها إلى نصف ساقيها شىء كالثوب يستر قبلها ودبرها ودائر عليها كالإزار ، فأخذها الرجال إلى البر ، فصارت تلطم وجهها وتنتف شعرها ، وتعض يدها وتصيح كما تصيح

(١) البرلس : بحيرة فى دلتا النيل على البحر الأبيض المتوسط من أعمال مصر . رشيد : مدينة فى مصر على شاطئ ساعد النيل.

النساء حتى ماتت فى أيديهم فالقوها فى البحر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وحكى القزوينى عن بعض البحريين : أن الريح القتهم على جزيرة ذات أشجار ، وأنهار ، فأقاموا بها مدة ، وكانوا إذا جاء الليل يسمعون بها همهمة وأصواتًا وضحكًا ولعبًا ، فخرج من المركب جماعة وكمنوا فى جانب البحر ، فلما جاء الليل خرج بنات الماء على عادتهن ، فوثبوا عليهن ، فأخذوا منهن اثنتين ، فتزوج بهما شخصان فأما أحدهما فوثق بصاحبته ، فأطلقها ، فوثبت فى البحر ، وأما الآخر فبقى مع صاحبته زمانًا وهو يحرسها حتى ولدت له ولدًا كأنه القمر ، فلما طاب الهواء ، وركبوا البحر ووثق بها ، فأطلقها ، فأغفلته وألقت نفسها فى البحر، فتأسف عليها تأسفًا عظيمًا ، فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر ودنت من المراكب وألقت لصاحبها صدفًا فيه در وجوهر ، فباعه وصار من التجار .

ونظير هذه الحكاية : ما ذكره ابن زولاق (١) فى (تاريخه): أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسناء الوجه سوداء الشعر حمراء الخدين نجلاء العينين كأنها البدر ليلة التمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين وأحبها حبا شديدًا وأولدها ولدًا ذكرًا ، وبلغ من العمر أربع سنين ، ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه ، ووثق بها ، فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها فى البحر ، فكاد أن يلقى نفسه خلفها حسرة عليها ، فلم يمكنه أهل المركب من ذلك ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفًا كثيرًا فيه در ، ثم سلمت عليه وتركته، فكان ذلك آخر العهد بها ، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه ، وما لم نشاهده ونسمع به أكثر ، فسبحان القادر على كل شىء لا إله إلا هو ولا معبود سواه ، فالعاقل: يعرف الجائز ، والمستحيل، ويعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدره الله تعالى قليل ، وإذا سمع عجبًا جائزًا استحسنه ولم يكذب قائله. والجاهل: إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله ، وتزييف ناقله، وذلك لقلة عقله ، وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤] . وقد أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات فى الآفاق والسماوات ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] . فلا تكن منكر العجائب، فكل الأشياء من آياته:

فيا عجبًا كيف يُعْصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحدُهُ الجاحدُ (٢)
وفى كلِّ شىءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه الواحدُ

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد ، وكذلك حجر الماس الذى يعجز عن كسره

(١) الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن . . . بن زولاق الليثي المصري . مؤرخ من آثاره « سيرة جوهر » و«التاريخ الكبير على السنن » و « فضائل مصر وأخبارها » توفي سنة ٣٨٧ هـ .

(٢) الجاحد : من أنكر الشىء مع علمه به. والبيتان منسوبان للشافعي ، وللبيد ، ولأبي العتاهية. وراجع ذلك في «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » تحقيقنا . نشر مكتبة الإيمان ـ المنصورة .

الحديد ويكسره الرصاص ويثقب الياقوت والفولاذ ، ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذى أودعه هذا السر قادر على كل شىء ، فلا تكن مكذبًا بما لا تعلم وجه حكمته ، فإن الله تعالى قال : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُه﴾ [يونس : ٣٩] . قال صاحب (تحفة الألباب) : إن فى بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم . وقد ذكرهم الشعبى فى كتاب سير الملوك ، وذكر فى بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ، ولا يعيش فى أرضهن ذكر ، وأن هؤلاء النساء يدخلن فى ماء عندهن، فيحبلن من ذلك، وتلد كل امرأة منهن بنتًا ولا يلدن ذكرانًا أبدًا ، وقيل : إن ولد تبع اليمانى وصل إليهن لما أراد أن يصل إلى الظلمات التى دخلها ذو القرنين ، وأن ولد تبع هذا كان اسمه (إفريقش)، وهو الذى بنى إفريقية ، وسماها باسمه ، وأنه وصل إلى واد السبت ، وهو واد يجرى فيه الرمل كما يجرى فيه السيل لا يمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك ، فلما رآه استعجل الرجوع ، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت ، فسكن جريانه فعبره إلى أن وصل إلى الظلمات ، فيما يقال والله سبحانه وتعالى أعلم ، وتلك الأمة التى لا رؤوس لهم أعينهم فى مناكبهم وأفواههم فى صدورهم ، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم ، وأما الملك العظيم والعدل الكثير والنعم الجزيلة والسياسة الحسنة ، والرخاء والأمن الذى لا خوف معه ، ففى بلاد الهند وبلاد الصين ، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب وعلم النجوم والهندسة والصناعات العجيبة التى لا يقدر أحد سواهم على أمثالها ، وفى بلادهم وجزائرهم ينبت العود وشجر الكافور ، وجميع أنواع الطيب كالقرنفل والسنبل والدارصينى، والكبابة ، والبسباسة ، وأنواع العقاقير والأدوية ، وعندهم حيوان المسك ، وهو حيوان كالغزال يجتمع المسك فى سرته ، وعندهم حيوان الزباد وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق كالقطران أسود ثخين يسيل من جسده وتزيد رائحته بالتغرُّب بحيث يكون أذكى من المسك الأذفر ، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت ، وأكثرها فى جزيرة سرنديب ، وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال .

وحكى: أنه كان «ببابل» سبع مدائن كل مدينة فيها أعجوبة : كان فى إحداها: تمثال الأرض، فإذا التوى على الملك بعض أهل مملكته وامتنعوا عن القيام بالخراج خرج أنهارها عليهم فى التمثال، فلا يطيق أهل تلك الناحية سد الماء حتى يعتدلوا ، وما لم يسد التمثال لا يسد فى ذلك البلد ، وفى الثانية :حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحب من الشراب، فصبه فى ذلك الحوض ، فاختلطت الأشربة ، فكل من سقى من ذلك الحوض كان شرابه الذى جاء به ، وفى الثالثة : طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه ، فإن كان حيًا سمع له صوت ، وإن كان ميتًا لم يسمع له صوت . وفى الرابعة :مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها ، فأبصروه على أى حالة هو عليها ، كأنهم يشاهدونه ، وفى الخامسة : إوزة من نحاس ، فإذا دخل الغريب صوتت الإوزة صوتًا يسمعه أهل المدينة ، وفى

السادسة: قاضيان جالسان على الماء فيأتى الخصمان ، فيمشى المحق على الماء حتى يجلس مع القاضيين ، ويقع المبطل فى الماء ، وفى السابعة :شجرة ضخمة لا تظل إلا ساقها ، فإن جلس تحتها أحد أظلته إلى ألف شخص ، فإذا زادوا على الألف واحدًا جلسوا فى الشمس كلهم ، ولو بسطت المقال فى ذلك لاتسع المجال ، وقد اقتصرت فى ذلك على ما ذكرت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والستون

فى خلق الجان ، وصفاتهم

روى عن الشيخ عبد الله صاحب « تحفة الألباب » أنه قال : قرأت فى بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجان خلق نار السموم، وخلق من مارجها خلقًا سماه جانًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر : ٢٧] . وقال الله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن : ١٥] . وقيل : إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار ، والجان: من لهبها، والشياطين من دخانها ، وقد جاء فى بعض الأخبار أن نوعًا من الجن فى قديم الزمان قبل خلق آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانوا سكانًا فى الأرض قد طبقوها برًا وبحرًا ، سهلاً وجبلاً ، وكان فيهم الملك والنبوة والدين والشريعة ، وكانوا يطيرون إلى السماء ، ويسلمون على الملائكة، ويستعلمون منهم خبر ما فى السماء ، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبياءهم ، فأرسل الله تعالى عليهم جندًا من الملائكة ،فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجن وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أُمَمًا كثيرة، وذكر المسعودى: أن الفرس واليونا قالوا : كان الجن بالأرض قبائل منهم من يسترق السمع ، ومنهم من ينط مع لهب النار ، ومنهم من يطير ، ولكل قبيلة ملك ، وكان من جملتهم إبليس تحاسدوا لعنه الله ، ثم بعد خمسة آلاف سنة افترقوا وملكوا عليهم ملوكًا ، وأقاموا على ذلك مدة طويلة ، ثم تحاسوا على الملك ، وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب ، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء ويختلط بالملائكة ، فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة ، فهزم الجن ، وقتلهم ، وتملك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه ، فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر والمحيط وسكن هناك ، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد بل يلقح كالطير ، ويبيض ويفرخ قيل : إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان ، فيسلطهم على الخلق ، وأقربهم إليه وأدناهم منه ، ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق . وفى الحديث : « إن إبليس لعنه الله قال با رب أنزلتني إلى الأرض وطردتنى وجعلتنى رجيمًا فاجعل لى مسكنًا قال : مسكنك الأسواق قال : فاجعل لى طعامًا ، قال : ما لم يذكر اسمى عليه . قال : فاجعل لى شرابًا : قال : كل مسكر . قال : فاجعل لى مؤذنًا . قال المزامير . قال : فاجعل لى صيدًا ، أو قال: مصائد قال : النساء » .

فصل : فى مكايده ـ لعنه الله ـ

منها : أنه كان فى بنى إسرائيل عابد يدعى(برصيصا) وله جار له بنت . فحصل لها

مرض، فقال له جيرانه لو حملتها إلى جارك (برصيصا)ليدعو لها ، قال: فجاء إبليس إلى العابد، وقال : إن لجارك عليك حق الجوار ، وإن له بنتًا مريضة ، فما ضرك لو جعلتها عندك فى جانب البيت ودعوت الله لها عقب عبادتك ، فعسى أن تشفى من مرضها ، قال : فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد : دعها وانصرف . قال : فتركها عنده مدة حتى شفيت، فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها، فحملت منه ، فلما حملت جاء له إبليس لعنه الله فقال له : اقتلها لئلا تفتضح قال: فقتلها ، ودفنها . قال : فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك ، فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته ، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه، فعارضه إبليس اللعين فى الطريق ، فقال له : إن سجدت لى خلصتك منهم ، فسجد له ، فعند ذلك تبرأ منه ومات الرجل كافرًا . اللهم اعصمنا من مكائد الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين.

ومن ذلك ما اتفق أن بنى إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها ، فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها ، فعارضه إبليس لعنه الله ، وقال له : تركت عبادتك وجئت لشىء لا يعود عليك نفعه، ولم يزل حتى تقاتل معه ، فصرعه العابد ، وجلس على صدره ، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك فى كل يوم ثلاثة أيام ، فلما رآه لا يرجع قال له : اترك قطعها ، وأنا أجعل لك فى كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك ، وعاهده على ذلك ، فرجع . قال : فجعل له تحت وسادته دينارين ، ثم دينارين ، ثم قطع ذلك عنه ، فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة فعارضه إبليس فى الطريق ، وتحاور معه ، وتجاذبا ، فصرعه إبليس وجلس على صدره، وقال له : إن لم ترجع عن قطعها ، وإلا ذبحتك ، فقال له العابد : خل عنى ، وأخبرنى كيف غلبتنى؟ ، فقال له : لما غضبت لله غلبتنى ، ولما غضبت لنفسك غلبتك .

ومنها :أشياء كثيرة ليس هذا محل استيفائها . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف : ٥٠] .

فصل : فى المتشيطنة . وهم أنواع كثيرة

منها : الولهان يوجد فى جزائر البحار على صورة الإنسان.

حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب ، وصاح بهم صيحة عظيمة ، خروا منها على وجوههم ، وأخذ بعض من فى المركب ، ومنها: السعلاة

يحكى: أن صنفًا منها يتزيا بزى النساء ، ويتراءى للرجال .

وحكى: أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم ، فأقامت معه مدة وولدت منه أولادًا ذكورًا وإناثًا ، فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح ، فنظرت ، فرأت نارًا من بعد عند الجبانة، فاضطربت ، وقالت ألم تر نيران السعالى، وتغير لونها ، وقالت : بنوك وبناتك أوصيك بهم خيرًا ، ثم طارت ولم تعد إليه ، ومنها: نوع يقال له : المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم .

وحكى : أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها ، فأتاه شخص بسراج وطعام ، فتعجب العابد من ذلك ، فقال له شخص بالصومعة : إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتى، والله إنى لأعلم أنه شيطان ، وقال بعض الصوفية : المذهب أصناف منهم :من يحمل الفانوس بين يدى الشيخ ، ومنهم :من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك ، ومنهم: من ينشد الشعر.

وقال بعض المسافرين: أبق لى غلام ، فخرجت فى أثره ، فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق وجرير ، قال : فدنوت منهم ، وسلمت عليهم ، فقالوا : ألك حاجة ؟ فقلت : لا ، فقال بعضهم : تريد غلامك . قلت : وما أعلمك بغلامى ؟ قال : كعلمى بجهلك ، قلت : أوَ جاهل أنا ؟ قال : نعم ، وأحمق ، قال : ثم غاب، وأتانى بالغلام مقيدًا ، فلما رأيته غشى علىَّ ، فلما أفقت قال : انفخ فى يده ، ففعلت ، فانفرج القيد عنه وصرت لا أنفخ فى شىء من ذلك ولا فى وجع من الأوجاع إلا برئ وخلص ، ومنها: نوع يقال له : العفريت يخطف النساء ، يقال: إن رجلاً اختطِفَتْ ابنته فى زمن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ.

وقال بعض المسافرين : بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لى قضاء الحاجة ، فانفردت عن رفقتى ، وضللت عنهم ، فبينما أن سائر فى أثرهم إذ رأيت نارًا عظيمة وخيمة ، فجئت إلى جانبها ، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها ، فسألتها عن حالها ، فقالت : أنا من فزارة اختفطنى عفريت يقال له : ظليم وجعلنى ههنا ، فهو يغيب عنى بالليل ، ويأتينى بالنهار ، فقلت لها : امضى معى ، فقالت : أَهْلَكُ أنا وأنت ، فإنه يتبعنا ويأتينا ، فيأخذنى ويقتلك ، فقلت : لا يستطيع أخذك ولا قتلى ، ومازلت أرددها الحديث حتى رضيت ، فأنخت لها ناقتى، فركبتها ، وسرت بها حتى طلع الفجر ، فالتفت ، فإذا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان فى الأرض ، فقالت : ها هو قد أتانا ، فأنخت ناقتى، وخططت حولها خطًا ، وقرأت آيات من القرآن ، وتعوذت بالله العظيم ، فتقدم وأنشد يقول :

يا ذَا الذى لِلْحَيْنِ يَدْعُـــوه القادرُ
خَلِّ عن الحسناءِ رسلاً ثُمَّ سِرْ

وإنْ تكنْ ذا خِبْرَةٍ فينـــا اصطبـــرْ(١)

قال ، فأجبته :

يَا ذَا الـذى لِلْحَيْن يَدْعُـوه الحَمَـقُ
خَـلٍّ عـن الحسنـاء رِسْلاً وانطلـقْ(٢)
مـا أنتَ فى الجِـنْ بـأوّل مَنْ عشـق

قال : فتبدى لى فى صورة أسد ، وجاذبنى ، وجاذبته ساعة ، فلم يظفر أحد منا بصاحبه، فلما أيس منى قال : هل لك فى جز ناصيتى، أو إحدى ثلاث خصال ؟ قلت : وما هن ؟ قال: مائتنان من الإبل ، أو أخدمك أيام حياتى ، أو ألف دينار الساعة ، وخلّ بين وبين الجارية ، فقلت: لا أبيع دينى بدنياى، ولا حاجة لى بخدمتك ، فاذهب من حيث أتيت . قال : فانطلق، وهو يتكلم بكلام لا أفهمه ، وسرت بالجارية إلى أهلها ، وتزوجت بها، وجاءنى منها أولاد.

وقيل: لما سخّر الله تعالى الجن لسليمان ـ عليه الصلاة والسلام نادى جبريل ـ عليه السلام ـ: أيها الجن أجيبوا نبى الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى، قال: فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والغيران والأودية والفلوات والآجام(٣) وهم يقولون: لبيك لبيك والملائكة تسوقهم سوق الراعى للغنم حتى حشرت بين يدى سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ طائعة ذليلة، وكانوا إذ ذاك أربعًا وعشرين فرقة ، فنظر إلى ألوانها ، فإذا هى سود وشقر ورقط وبيض وصفر وخضر ، وعلى صور جميع الحيوانات ، ومنهم: من رأسه رأس أسد وبدنه بدن الفيل ، ومنهم من له خرطوم وذنب ، ومنهم: من له قرون وحوافر ، وغير ذلك من الأنواع . قال: فعند ذلك تعجب نبى الله سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هذه الأشكال ، وسجد شكرًا لله تعالى، وقال إلهى ألبسنى هيبة من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم ، وهم يجيبونه ، ثم فرقهم فى الصنائع: من قطع الصخور والأحجار والأشجار والغوص فى البحار ، وأبنية الحصون ، وفى استخراج المعادن والجواهر . قال الله تعالى:﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾[ص : ٣٩]. ونكتفى من ذلك بهذا القدر اليسير ، والله المسئول فى تيسير كل عسير ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) الحين : الموت والقضاء . وخل : أى تخلى عنها.

(٢) ورسلا : رفقًا وتحببًا ، وعلى رسلك : أى تمهل.

(٣) الغيران : جمع غَوْر : البيت الصغير المنقور فى الجبل ، الأودية : جمع وادٍ : كل منفرج بين الجبال والتلال والآكام . الفلوات : جمع فلاة : الأرض الواسعة المقفرة . الآجام : القُصور والحصون ، وأيضًا الشجر الكثير الملتف.

الباب الخامس والستون

فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

الفصل الأول : فى ذكر البحار

روى عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أنه قال : لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء، خلق ياقوته خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا الله سبحانه وتعالى ، ثم نظر إليها بعين الهيبة، فذابت وصارت ماء فاضطرب الماء ، فخلق الريح ووضع عليها الماء ، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء وعليه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُه عَلَى الْمَاءِ ﴾ [هود : ٧] .

واعلم أن بحر الظلمات لا يدخله شمس ولا قمر ، وأن بحر الهند خليج منه ، وبحر اللاذقية خليج منه ، وبحر الصين خليج منه ، وبحر الروم خليج منه ، وبحر فارس خليج منه، وكل هذه البحار التى ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذى يقال له : البحر المحيط ، وأما بحر الخزر وبحر خوارزم ، وبحر أرمينية ، والبحر الذى عند مدينة النحاس ، وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة ن البحر الأسود ، ولذلك ليس فيها جُزْرٌ ولا مَدٌّ ، وقيل : سئل النبى ﷺ عن الجزر[١] والمد ، فقال : هو ملك عال قائم بي البحرين إن وضع رجله فى البحر حصل له المد، وإذا رفعها حصل له الجزر » ، وقيل : إنما سمى البحر الأسود لأن ماءه فى رأى العين كالحبر الأسود ، فإن أخذ منه الإنسان فى يده شيئًا رآه أبيضًا صافيًا إلا أنه أمرّ من الصبر. مالح شديد الملوحة ، فإذا صار ذلك الماء فى بحر الروم تراه أخضر كالزنجار[٢] ، والله تعالى يعلم لأى شىء ذلك ، وكذلك يرى فى بحر الهند: خليج :أحمر كالدم ، وبحر: أصفر كالذهب، وخليجٍ: أبيض كاللبن تتغير هذه الألوان فى هذه المواضع ، والماء فى نفسه أبيض صاف ، وقيل: إن تغير الماء بلون الأرض.

وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره ، فقد روى عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر ، وأمرّ علينا أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه نتلقّى عير قريش ، وزودنا جرابًا من تمر لم يجد لنا غيره ، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء ، فتكفينا يومنا إلى الليل ، فأشرفنا على ساحل البحر ، فرأينا شيئًا كهيئة الكثيب[٣] الضخم ، فأتيناه ، فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر ، فأقمنا شهرًا نأكل منها ، ونحن ثلاثمائة حتى سمنا ، ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذى فى وقب عينيها بالقلال[٤] ، ونقطع منه القطعة كالثور ، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقب عينها ، وأخذ ضلعًا من أضلاعها فأقامها ، ثم رحل أعظم بعير معنا ، فمر من تحتها

(١) لم أقف عليه. (٢) الزنجار : صدأ النحاس .
(٣) الكثيب : الرمل المستطيل المحدودب .
(٤) القلال : جمع قُلَّة : إناء من فخار يشرب منها . وقُلَّة كل شيء أعلاه .

وتزودنا من لحمها ، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله ﷺ ذلك ، فقال : «هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم شيء من لحمها ، فتطعمونا ؟» فأرسلنا له منه ، فأكله . وقيل : يخرج من البحر سمكة عظيمة ، فتتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها فتهرب منها إلى مجمع البحرين ، فتتبعها ، فتضيق عليها مجمع البحرين ، لعظمها وكبرها ، فترجع إلى البحر الأسود ، وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ ، فتبارك الله رب العالمين .

وقال صاحب « تحفة الألباب »: ركبت فى سفينة مع جماعة ، فدخلنا إلى مجمع البحرين ، فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم ، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى ، فكاد قلبى ينخلع ، وسقطت على وجهى أنا وغيرى ، ثم ألقت السمكة نفسها فى البحر، فاضطرب البحر اضطرابًا شديدًا ، وعظمت أمواجه ، وخفنا الغرق ، فنجانا الله تعالى بفضله ، وسمعت الملاحين يقولون: هذه سمكة تعرف بالبغل قال : ورأيت فى البحر سمكة كالجبل العظيم ، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار كل عظم أطول من ذراعين وكان بيننا وبينها فى البحر أكثر من فرسخ ، فسمعت الملاحين يقولون : هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها نصفين ، ولقد سمعت أنا من يقول إن جماعة ركبوا سفينة فى البحر ، فأرسوا على جزيرة فخرجوا إلى تلك الجزيرة ، فغسلوا ثيابهم واستراحوا، ثم أوقدوا نارًا ليطبخوا ، فتحركت الجزيرة ، وطلبت البحر ، وإذا بها سمكة ، فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه ، وقيل : إن فى البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها يقال : إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة فتلقى نفسها عليها ، فتحطمها ، وتهلك من فيها ، فإذا أحس بها أهل السفينة صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا الطبول ونقروا الطسوت والسطول والأخشاب لأنها إذا سمعت تلك الأصوات، ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضله ورحمته .

وقال الشيخ عبد الله صاحب « تحفة الألباب » : كنت يومًا فى البحر على صخرة ، فإذا أنا بذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع فطلبت أن تقبض على رجلى ، فتباعدت عنها ، فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت الصخرة ، فسللت خنجرًا كبيرًا كان معى فطعنت به رأسها ، فغار فيها ، فلم أقدر على خلاصه منها ، فأمسكت نصابه بيدى جميعًا وجعلت أجرّه حتى ألصقتها بباب الجحر ، فتركت الجحر ، وخرجت من تحت الصخرة ، فإذا هى خمس حيات فى رأس واحدة ، فتعجبت من ذلك ، وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية : فقال : هذه تعرف بأم الحيات وذكروا أنها تقبض على الآدمى فى الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله ، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعًا ، وأنها تقلب الزوارق ، وتأكل من قدرت عليه من أصحابها ، وأن جلدها أرق من البصل ، ولا يؤثر فيها الحديد شيئًا .

قال : ورأيت مرة فى البحر صخرة عليها شيء كثير من النارنج الأحمر الطرى الذى كأنه قطع من شجرة ، فقلت فى نفسى : هذا قد وقع من بعض السفن ، فذهبت إليه ، فقبضت منه نارنجة، فإذا هى ملتصقة بالحجر ، فجذبتها ، فإذا هى حيوان يتحرك ويضرب فى يدى ، فلففت يدى بكم ثوبى ، وقبضت عليه وعصرته ، فخرج من فيه مياه كثيرة ، وضمر ، فلم أقدر أن زقلعه من مكانه ، فتركته عجزاً عنه ، وهو من عجائب خلق الله تعالى ، وليس له عين ولا جارحة إلا الفم ، والله سبحانه وتعالى أعلم لأى شيء يصلح ذلك .

قال : ولقد رأيت يومًا على جانب البحر عنقود عنب أسود كبير الحب أخضر العرجون(١) كأنما قطف من كرمه ، فأخذته ، وكان ذلك فى أيام الشتاء ، وليس فى تلك الأرض التى كنت فيها عنب ، فرمت أن آكل منه ، فقبضت على حبة منه ، وجذبتها ، فلم أقدر أن أقتلعها من العنقود حتى كأنها من الحديدة قوة وصلابة ، فجذبتها جذبة أقوى من الأولى فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشرة العنب وفى داخلها عجم كعجم العنب ، فسألت عن ذلك ، فقيل لى : هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك ، وفى البحر أيضًا حيوان رأسه يشبه رأس العجل، وله أنياب كأنياب السباع ، وجلده له شعر كشعر العجل ، وله عنق وصدر وبطن ، وله رجلان كرجل الضفدع ، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودى ، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر ، ويلقى نفسه فى البر ولا يتحرك ، ولا يأكل ، ولو قتل ، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد ، فحينئذ يدخل البحر ولا تلحقه السفن لخفته وقوته وجلده ، يتخذ منه نعل لصاحب النقرس ، فلا يجد له ألمًا مادام ذلك الجلد عليه ، وهو من العجائب .

وقيل : إن فى بحر الروم سمكًا طويلاً طول السمكة مائة ذراع ، وأكثر ، وله أنياب كأنياب الفيل تؤخذ وتباع فى بلاد الروم ، وتحمل إلى سائر البلاد وهى أحسن وأقوى من أنياب الفيل، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة ، ويسمونه الجوهر ، ويتخذون منه نصبًا (٢) للسكاكين، وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص ، وفى البحر أيضًا سمك يسمى الرعاد إذا دخل فى شبكة ، فكل من جر تلك الشبكة أو وضع يده عليها أو على حبل من حبالها تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئًا كما يرعد صاحب الحمى ، فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة ، فإن أعادها عادت إليه الرعدة ، وهذا من العجائب ، فسبحان الله جلت قدرته.

وقال : صاحب « تحفة الألباب » : حدثنى الشيخ أبو العباس الحجازى قال : حدثنى رجل

---

(١) العرجون : العذق وهو من النخل كالعنقود من العنب . والجمع : عراجين . فقال تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس : ٣٩] .

(٢) نُصُب : مَقَابِض .

يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد أنه ركب سفينه فى بحر الهند ، فرأى طاووسًا قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألوانًا . قال : فكبر لحسنه فجعل يَسُبِّحُ وينظر لنفسه، وينشر أجنحته ، وينظر إلى ذنبه ساعة ، ثم غاص فى البحر ، وفى البحر: دابة يقال لها : الدرفين تنجى الغريق لأنها تدنوا منه حتى يضع يده على ظهرها ، فيستعين بالاتكاء عليها ، ويتعلق بها ، فتسبح به حتى ينجيه الله تعالى بقدرته ، فسبحان من دبّر هذا التدبير اللطيف ، وأحكم هذه الحكمة البالغة .

وزعموا: أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن ، ويصبوا لسماعه ، وربما قيل : إن بعض الصيادين يحفرون فى البحر حفائر ، ثم يجلسون فيضربون بالمعازف وآلات الطرب ، فيجتمع السمك ، ويقع فى تلك الحفائر ، وقيل : إن الدرفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر ، وقيل : إن خيل البحر توجد بنيل مصر ، وهى صفة خيل البر، وقيل : إنها تأكل التماسيح وربما خرجت فرعت الزرع ، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيل ينتهى فى طلوعه إلى ذلك المكان ، وقيل : إن فى البحر المحيط شيئًا يتراءى كالحصون ، فيرتفع على وجه الماء ويظهر منه صور كثيرة ، ويغيب ومن عجيب ما حكى أن فيه جزير فيها ثلاث مدن عامرة ، وهى كثيرة الأمطار ، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم ويجعلونه فى بيت ويوقدون حوله النيران حتى يجف . وعجائبه لا تحصى، ولا يمكن حصرها ، ويقال : إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مر بجزيرة بها أمة رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار ، وخرجوا إلى مراكبه ، وحاربوه ، ثم تخلص منهم وسار ، فرأى صورًا متلونة بألوان شتى وسمكًا طوله مائة ذراع ، وأكثر ، وأقل، فسبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه.

ويقال : إنه مر فى بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قناديل لا تطفأ .

ومن جزائر البحر جزيرة القمر: يقال : إن بها شجرًا طول الشجرة مائتا ذراع ، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعًا ، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم ، ويقال : إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر ، وإن هذه الأمة التى بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعى - رضى الله تعالى عنه - ، وهم فى غاية اللطافة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبالقرب منهم معدن الذهب والياقوت ،وبها الفيلة البيض ، وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها ، وبها العود، والقمارى، والأبنوس والطواويس ، وبها مدن كثيرة .

ومنها :جزيرة الواق خلف جبل يقال له : أصطفيون داخل البحر الجنوبى ، ويقال: إن هذه

الجزيرة كانت ملكتها امرأة ، وإن بعض المسافرين وصل إليها ودخلها ورأى هذه الملكة ، وهى جالسة على سرير ، وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربعمائة وصيفة كلهن أبكار ، وفى الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز ، وخيار الشنبر ويحمل حملاً كهيئة الإنسان ، فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق ، ثم يسقط ، وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيمهم ومقاود كلابهم وأطواقها من الذهب .

ومنها جزيرة الصين يقال : إن بها ثلاثمائة مدينة ونيفا سوى القرى والأطراف ، وأبوابها اثنا عشر بابا ، وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة ، وهذه الجبال تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام ، وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت فى ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذى تريده ، وفيها من الأدوية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه ، فتبارك الله رب العالمين .

وقيل: إن الإسكندر لما فرغ من بناء سده حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نام ، وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أعلى وسد الأفق ، فظن من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم ، ففزعوا، فقال : ما لكم ؟ فقالوا له : انظر ما حل بنا ، فقال :ما كان الله ليأخذ نفسًا قبل انقضاء أجلها، وقد منعنى من العدو فلا يسلط علىَّ حيوانًا من البحر . قال : فإذا بالحيوان قد دنا من الملك ، وقال : أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر ، وقد رأيت هذا السد بنى وخرّب سبع مرات ، ولم يزد على ذلك ، ثم غاب فى البحر ، فتبارك من له هذا الملك العظيم ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وقيل : إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر، وطولها نحو ستة فراسخ ، وهى حصينة ذات كروم، ونخيل ، وأشجار ، وغير ذلك ، وإذا أراد الإنسان الدخول فيها حثى فى وجهه بالتراب ، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع ، وقيل: إنها معمورة بالجان ، وقيل : بخلق من النسناس ، ويقال : إنهم من بقايا عاد الذى أهلكهم الله بالريح العقيم ، وكل واحد منهم شق إنسان ، ونقل عن بعض المسافرين أنه قال: بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبيتنا بواد ، فلما أصبح الصباح سمعنا قائلا يقول من الشجر : يا أبا بجير الصبح قد أسفر ، والليل قد أدبر ، والقناص قد حضر ، فالحذر . قال : فلما ارتفع النهار أرسلنا كلبين كانا معنا نحو الشجرة ، فسمعت صوتًا يقول : ناشدتك . قال ، فقلت لرفيقى : دعهما ، قال : فلما وثقا بنا نزلا هاربين ، فتبعهما الكلبان وجدًا فى الجرى ، فأمسكا شخصًا منهما قال : فأدركناه وهو يقول :

الويلُ لى مما به دَهَانِى ... دَهْرِي من الهمومِ والأحـزان[1]

---

(١) دهانى : أصابنى بداهية . المصيبة العظيمة .

قِفَا قليلاً أَيُّهَا الكلبان إِلَـى متـى إلىَّ تجريـــانِ ؟

قال : فأخذناه ورجعنا ، فذبحه رفيقى وشواه ، فعفته ولم آكل منه شيئًا ، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه ، لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثانى
فى ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ [الزمر : ٢١] . قال المفسرون: هو المطر ، ومعنى سلكه أدخله فى الأرض ، وجعله عيونًا ومسايل ومجارى كالعروق فى الجسد ، فمن الأنهار: ما هو من الأمطار المجتمعة ، ولهذا ينقطع عند فراغ مادته ، ومنها :ما ينبع من الأرض ، وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ ، وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة ، وبين ذلك ، وكلها تبتدئ من الجبال ، وتنتهى إلى البحار والبطائح، وفى ممرها تسقى المدن والقرى وما فضل منها ينصب فى البحر المالح ويختلط به ، ولا يمكن استيفاء عددها لكنا نشير إلى بعضها فنقول :

النيل المبارك : ليس فى الأنهار أطول منه لأنه مسيرة شهرين فى بلاد الإسلام ، وشهرين فى بلاد النوبة ، وأربعة فى الخراب ، وقيل : إن مسافته من منبعه إلى أن يصب فى البحر الرومى ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخًا . قــال : ذلك صاحـب (مباهج الفكر ومناهج العبر) (١) . واختلف فى زيادته : فقيل: إن الأنهار والعيون تمده فى الوقت الذى يريده الله تعالى. وفى الحديث : « إنه من أنهار الجنة » ، وقال أهل الأثر : إن الأنهار التى من الجنة تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب ، ثم تمر بالبحر المحيط ، وتشق فيه . قالوا: ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور .

نهر الفرات : يوجد بأرض أرمينية . فضائله كثيرة ، والنيل أصدق حلاوة منه ، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قنطارًا بالدمشقى ، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن يأتى إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخًا ، وفى وسطه مدن وجزائر تعد من أعمال الفرات .

جيحون : نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة ، ويمر على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم ، ولا ينتفع به شىء من البلاد سوى خوارزم لأنها منسفلة عنه ، ثم يصب فى بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام ، وهو يجمد فى الشتاء خمسة أشهر، والماء يجرى من تحت الجمد ، فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليسقوا منها ، وإذا اشتد جموده مروا عليه بالقوافل والعجل المحملة، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين .

(١) لـ « محمد بن عبد الله الانصاري » توفى سنة ٢١٥ هـ .

سيحون : نهر عظيم . قيل : إن مبدأه من حدود الترك ويجرى حتى يتصل ببلاد الفرغانة، وربما يجتمع مع جيحون فى بعض الأماكن .

الدجلة : نهر بغداد . وله أسماء غير ذلك، وماؤه أعذب المياه بعد النيل وأكثرها نفعًا . قيل: مقداره ثلاثمائة فرسخ ، وفى بعض الأوقات يفيض حتى قيل: إنه يخشى على بغداد الغرق منه، وهو نهر مبارك كثيرًا ما ينجو غريقه.

حكى : أنه وجد به غريق فيه الروح ، فلما أفاق سألوه عن حاله ، فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأن أحدًا يحمله ويصعده ، وروى فى الأثر :أن الله تعالى أمر دانيال ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يحفر لعباده ما يستقون منه وينتفعون به ، فكان كلما مرّ بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات.

وأما الأنهار الصغار : فكثيرة ولكنا نذكر نها طرفًا فنقول :

نهر حصن المهدى : قال صاحب (تحفة الألباب) : إنه بين البصرة والأهواز ، وإنه يرتفع منه فى بعض الأوقات شىء يشبه صورة الفيل ، ولا يعرف أحد شأنه .

نهر أذربيجان : قيل: إن بالقرب منه نهرًا يجرى فيه الماء سنة ، ثم ينقطع ثمان سنين ، ثم يعود فى التاسعة ، وقيل: إنه ينعقد حجرًا ويستعمل منه اللبن ويبنى به . وقيل: إن فى تلك الأرض بحيرة تجف فلا يوجد فيها ماء ولا سمك ، ولا طين سبع سنين ، ثم يعود الماء والسمك والطين ، فتبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

نهر صقلاب : يجرى فيه الماء يومًا واحدًا فى كل أسبوع ثم ينقطع ستة أيام .

نهر العاصى : بأرض حماة . وقيل : بحمص وهو نهر معروف . وفيه يقول بعضهم :

مَدِينَةُ حِمْصٍ كعبةُ القصف أَصْبَحَتْ ... يَطوفُ بها الداني ويَسْعى لها القَاصى(١)
بها رَوْضَةٌ مِنْ حُسْنِها سُنْدُسِيَّةٌ ... تعلق فى أَكْنَاقِ أذيالها الْعَاصِى(٢)

نهر العمود : بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد ، وقيل : من نحاس ،وتحتها عمود مَنْ نحاس ، وقيل : من حديد . طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع ، وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محددة ، ، وعنده رجل يقرأ كتاب الله تعالى ، ويقول : يا عظيم البركة طوبى لمن صعد هذه الشجر وألقى بنفسه على هذا العمود ، فيدخل الجنة ، وقال أهل تلك الناحية : مَنْ يريد ذلك فليصعد على تلك الشجرة ويلقى نفسه ، فينقطع .

---

(١) القصف : اللهو والأكل والشراب.

(٢) السندس : نوع من رقيق الحرير . والأكناف : الأطراف والجوانب.

نهر باليمن : قال صاحب (تحفة الألباب) : إنه عند طلوع الشمس يجرى من المشرق إلى المغرب ، وعند غروبها يجرى من المغرب إلى المشرق.

نهر ببلاد الحبشة والسودان : يجرى إلى المشرق يشبه النيل فى زيادته ونقصانه ، وأرضه بها الخصب والبركة ، وبها شجر كالأراك يحمل ثمراً كالبطيخ داخله شىء يشبه القند (١) فى الحلاوة، ولكن فيه بعض حموضة، وهذا النهر يجرى فى بلادهم ثمانية أشهر ، ثم ينصب فى البحر المحيط ، فسبحان من دبّر هذا التدبير ، وأحكم هذه الصنعة ، لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

الفصل الثالث
فى ذكر الآبار

قال مجاهد : كنت أحب أن أرى كل شىء غريب ، فسمعت أن ببابل بئر هاروت وماروت، فسرت إليها ، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتًا ، فدخلت فى بعضها، فوجدت شخصًا ، فسلمت عليه ، فرحب بى وسألنى عن حاجتى ، فذكرت له غرضى فأمر يهوديًا يذهب معى ، فيوقفنى على البئر ، ويطلعنى على الملكين . قال: فسرنا إلى البئر ، ففتح سردابًا ونزلنا ، فأمرنى ألا أذكر اسم الله تعالى . قال: فلما رأيت الملكين رأيت شيئًا كالجبلين العظيمين منكسين على رؤوسهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما . قال مجاهد: فلما رأيت ذلك ذكرت الله تعالى . قال : فاضطربا اضطرابًا شديدًا حتى كادا يقطعان السلاسل . قال ، ففر اليهودى ، فتعلقت به، فقال : أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك.

بئر برهوت : بقرب حضرموت ، وهى التى قال النبى ﷺ: « إنها مجمع أرواح الكفار ». قال علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ: أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود منتن تأوى إليها أرواح الكفار ، والموكل بها ملك يسمى دومة.

بئر عسفان : ماؤها يستشفى به ، قيل: إن النبى ﷺ تفل فيها ، قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنهما ـ: كنا نغسل المريض منها ، فيعافى . وقيل : إن النبى ﷺ توضأ منها.

بئر معروفة بأرض حلب : خاصيتها: أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه ما لم يجاوز

(١) القند : عسل قصب السكر إذا جمد .

الأربعين ، وبنيسابور آبار كثيرة ، وهى معادن الفيروزج[1] ، وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها. وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء في وقت من السنة، فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ويجرى، فينتفع به فى سقى الزرع ، ثم يعود إلى ما كان وعجائب الله كثيرة لا تكاد تنحصر . لا إله إلا الله ولا معبود سواه.

(١) الفيروزج : حجر كريم غير شفاف . لونه أزرق كلون السماء أو هو أميل إلى الخضرة.

الباب السادس والستون

فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

الفصل الأول

فى ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : « إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا منها عالم واحد ، وما العمران فى الخراب إلا كخزدلة فى كف أحدكم »[1]. وقال رواة الأثر : إن لله عز وجل دابة فى مرج من مروجه فى غامض علمه رزقها فى كل يوم بقدر رزق العالم بأسره . وجميع مدائن الدنيا :أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وست وخمسون مدينة ، وقيل : غير ذلك وأقاليم الأرض سبعة : الإقليم الأول: الهند ، الثانى: الحجاز ، والثالث : إقليم مصر ، والرابع : إقليم بابل ، والخامس : إقليم الروم والشام ، والسادس : إقليم الترك ، والسابع : إقليم الصين . وأوسط الأقاليم إقليم بابل ، وهو أعمرها، وفيه جزيرة العرب ، وفيه العراق الذى هو سرة الدنيا وبغداد فى وسط هذا الإقليم فَلاعتدَاله اعتدلت ألوان أهله ، فسلموا من شُقّرة الروم ، وسواد الحبشة ، وغلظ الترك ، وجفاء أهل الجبال ، ودمامة أهل الصين .

والممالك المشهورة التى ضبطت عدتها فى زمن المأمون ثلاثمائة وأربعون مملكة ، أوسعها ثلاثة أشهر وأضيقها ثلاثة أيام . وقال أهل الهيئة : إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان فى سنة واحدة ، وأنه يكون فى بعض البلاد ستة أشهر ليل وستة أشهر نهار وبعضها حر وبعضها برد ، فسبحان من خلق كل شىء ، فأتقنه . لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثانى

فى ذكر الجبال

قيل : إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت ، فخلق الجبال وأرساها[2] بها ، فاستقرت ، ومجموع ما عرف بالأقايم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً ، فمنها: ما طوله عشرون فرسخًا ، ومنها :ما طوله مائة فرسخ إلى ألف فرسخ .

ولنذكر منها ما هو مشهو ومعروف بين الناس .

فمن أعجبها جبل سرنديب : وطوله مائتان ونيف وستون ميلاً وفيه أثر أقدام آدم ﷺ حين

---

(١) من الإسرائيليات التي اطلع عليها وهب فهو كثير الإخبار عن الكتب القديمة . يعد من التابعين . والله أعلم.

(٢) ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ ﴾[النازعات] .

أهبط وحوله الياقوت وفى أوديته الماس الذى يقطع به الصخور ويثقب به اللؤلؤ ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد .

جبل الروم : الذى فيه السد طوله سبعمائة فرسخ وينتهى إلى بحر الظلمات.

جبل أبى قبيس : سمى بذلك لأن آدم ـ عليه الصلاة ـ والسلام ـ كنّاه بذلك حين اقتبس منه النار التى بين أيدي الناس ، وقيل غير ذلك .

جبل القدس : جبل شريف مبارك فيه غار يضيء بالليل من غير سراج ، ويزوره الناس.

جبل أروند بهمذان : برأسه عين تخرج من صخرة أيامًا معدوة فى السنة تقصد من كل وجه يستشفى بها .

جبل بالشام : لونه أسود كالفحم وترابه أبيض تبيض به الثياب.

جبل الأندلس : فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلتها يه أوقدت ، وبها جبل به عينان إحداهما باردة والأخرى حارة والمسافة التى بينهما مقدار شبر وجبل به معدن الكبريت ،والزئبق، والزنجفر.

جبل سمرقند : يقطر منه ماء فى الصيف يصير جليداً وفى الشتاء يحرق من حرارته .

جبل الصور : بكرمان يكسر حجره ، فيخرج منه كصور الآدميين قائمين وقاعدين ومضطجعين، وإذا سحق وطرح فى الماء يرى كذلك .

جبل الأرجان : بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجراً مسدسًا أو مثمنًا.

جبل هرمز : ينزل منه ماء إلى وهدة ، فإن صاح إنسان صيحة وقف فإن ثنى جرى.

جبل الطير : بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير فى كل سنة مرة ،ويدخل فى كوة هناك ، فتمسك الكوة على واحدة، وتطير البقية ، ويكون ذلك علامة الخصب فى تلك السنة . ولنقتصر على ذلك ، ومن أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ « مرآة الزمان » (١) .

الفصل الثالث

فى ذكر المبانى العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ ، ونقلة الأخبار : إن أول بناء على وجه الأرض الصرح الذى بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام وبقعته بكوثى من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات ، قالوا : كان طوله خمسة آلاف ذراع بناه بالحجارة والشمع واللبان ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان ، فأخرب الله تعالى ذلك الصرح فى ليلة واحدة بصيحة ، فتبلبلت بها ألسنة الناس ، فسميت أرض بابل .﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ

---

(١) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، لمؤلفه الشيخ قزاوغلي المعروف بـ « بسبط بن الجوزي» المتوفي سنة ٦٥٤ هـ .

مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر] . .

حكى: الشعبى فى كتاب (سير الملوك) (١): أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة فى الأجسام وقوة حتى قالوا : من أشد منا قوة ؟ قال الله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] .وأن الله تعالى بعث إليهم هودًا نبيًا عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى ، فقال له شداد : إن آمنت بإلهك فماذا لى عنده ؟. قال : يعطيك فى الآخرة جنة مبنية من ذهب ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر . قال شداد : أنا أبنى مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعدنى به . قال : فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضًا واسعة كثيرة الماء طيبة الهواء بعيدة من الجبال ليبنى فيها مدينة من ذهب. قال : فخرج أولئك الأمراء ، ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه ، فساروا فى الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن ، فرأوا هناك أرضا واسعة طيبة الهواء ، فأعجبتهم تلك الأرض ، فأمروا المهندسين والبنائين ، فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها أربعون فرسخًا من كل جهة عشرة فراسخ ، فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليمانى حتى ظهر على وجه الأرض ثم أحاطوا به سورًا ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس ، وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا ، فاستخرج منها الذهب واتخذه لبنًا (٢)، ولم يترك فى يد أحد من الناس فى جميع الدنيا شيئًا من الذهب إلا غصبه ، واستخرج الكنوز المدفونة ، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع ، وأجرى في وسطها أنهارًا ، وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل ، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلى قصورها بصفائح الذهب والفضة ، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلئ ، وطلى حيطانها بالمسك والعنبر ، وجعل فيها جنة مزخرفة له، وجعل أشجارها الزمرد والوياقيت وسائر أنواع المعادن ، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة: الصادح والمغرد ، وغير ذلك ، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فلما كمل بناؤها أمر فى مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا فى البلاد بسطًا وستورًا وفرشًا من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف ، وأمر باتخاذ أوانى الذهب والفضة ، فاتخذوا جميعًا ما أمر به ، فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت فى أهل مملكته ، وقصد مدينة «إرم ذات العماد» ، فلما أشرف عليها ورآها قال: قد وصلت إلى ما كان هود يعدنى

---

(١) لعبد الملك بن منصور الثعالبي المتوفي سنة ٤٣٠ هـ .

(٢) اللَّبِن : الطوب الذى يبنى به غير محروق.

به بعد الموت ، وقد حصلت عليه فى الدنيا ، فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكًا ، فصاح بهم صيحة الغضب ، وقبض ملك الموت أرواحهم فى طرفة عين ، فخروا على وجوههم صرعى . قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ [النجم] وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم ، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس ، فكانوا يرون بالليل فى تلك البرية التى بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضىء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئًا .

وقد نقل: رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له : عبد الله بن قلابة الأنصارى دخل إليها، وذلك أنه ضلت له إبل ، فخرج فى طلبها ، فوصل إليها ، فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهبة وحيره ، وقال فى نفسه : هذه تشب الجنة التى وعد الله بها عبادة المتقين فى الآخرة ، فقصد بابًا من أبوابها ، فلما وصل إليه أناخ راحلته ، ودخل المدينة، فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار ، ولم ير فى المدينة أحدًا ، فقال : أرجعُ إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها ، ثم حمل معه شيئًا من تلك الجواهر واليواقيت فى وعاء ، وجعله على راحلته وعلم على المدينة علامة ، وقال قربها من جبل عدن كذا ، ومن الجهة الفلانية كذا ، ثم انصرف عنها بعدما ظفر بإبله ، ثم دخل على معاوية ـ رضى الله تعالى ـ بدمشق ، وأخبره بجميع ما رآه ، فقال له معاوية : فى اليقظة رأيتها أم فى المنام ؟ قال : بل فى اليقظة ، وقد حملت من حصبائها وأخرج له شيئا مما حمله من الجواهر واليواقيت فتعجب معاوية من ذلك ، ثم أرسل إلى كعب[1] الأحبار ـ رضى الله تعالى عنه ـ، فلما دخل عليه قال له معاوية : يا أبا إسحاق هل بلغك أن فى الدنيا مدينة من ذهب ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وقد ذكرها الله عز وجل فى القرآن لنبيه ﷺ بقوله عز من قائل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر] . وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس ، وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى ، ثم التفت ، فرأى عبد الله بن قلابة فقال : ها هو يا أمير المؤمنين ، وصفه واسمه فى التوراة ، ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة . وقيل : إن ذلك كان فى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى ـ عنه ، وأن الرجل الذى دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ، ولا من كان حاضرًا بل إن النبى ﷺ قال : يدخلها بعض أمتى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومن المبانى العجيبة : الخورنق : الذى بناه النعمان بن امرئ القيس وهو النعمان الأكبر بناه فى عشرين سنة ، فلما انتهى أعجبه ، فخشى أن يبنى لغيره مثله ، فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه ، فألقوه فتقطع ، واسم بانيه سنمار ، فصارت العرب تضرب به المثل : يقولون : « جزاه جزاء

---

(١) كعب بن ماتع . ت ٣٢ هـ . وقد سبق أن ترجم له .

سنمار[1] . قال الشاعر :

جَارَى بَنُوه أبَا الغيلان عن كبرٍ ... وحُسْنِ فعلٍ كما يُجْزَى سِنِمَّارُ

ومن المباني العجيبة حائط العجوز : واسمها دلوك القبطية ، وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولدًا ، فأخذت له الرصد فقيل لها يخشى عليه من التمساح ، فلما شب الغلام خافت عليه ، فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى أسوان شاملا لكورة مصر من الجانب الشرقي ، وقيل : بنته خوفًا على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها ، وقد قيل : إنها أرادت أن تخوف ولدها من التمساح حتى لا ينزل البحر ، فصورت له صورة التمساح ، فرآه شكلا مهولا، فأذهله، وأخذ الفزع والهم فضعف وانسل إلى أن مات . لا مفر من قضاء الله تعالى.

ومن المباني العجيبة الأهرام : وهي بالجانب الغربي من مصر مشاهدة في زماننا هذا. قيل: إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة آلاف ذراع من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع ، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر ، وفتح منها هرمًا ، وتعجب من بنيانها وصفتها وقيل : إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعًا في عرض عشرة أذرع ، وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقًا صغيرًا على إحكامه ، وهي من عجائب الدنيا . قال بعضهم :

أَيْنَ الذي الهَرَمان من بُنْيانه؟ ... ما قومُهُ ؟ ما يومُه ؟ ما المصرعُ؟

تتخلفُ الآثارُ عن سُكَّنها ... حينًا ويدركُها الفناءُ فتُصرعُ[2]

وزعم قوم : أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم كما تميزوا عنهم في حياتهم ، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور . ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بنقبها ، فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل ، فوجد داخله مزاليق ومهاوي يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ، ووجد في أعلاه بيتًا ، وفي وسطه حوضًا من رخام مطبق ، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية ، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه . ويقال : إن الذي بناها اسمه سوريد بن سهراق بن سرياق لرؤيا رآها: وهي آفة تنزل من السماء وهي الطوفان ، فقالوا : إنه بناها في ستة أشهر وقال : قل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة ، والهدم أيسر من البنيان وكسوناها الديباج الملون ، فليكسها حصرًا ، والحصر أهون من الديباج ، والأمر فيها عجيب جدًا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومن المباني العجيبة منارة الإسكندرية : التي بناها ذو القرنين ، قيل : إنها كانت مبنية بحجارة مهندسة مغموسة في الرصاص ، فيها نحو من ثلاثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل

---

(١) في مجمع الأمثال : « جَزَاء سِنِمَّار » أي : جزاني جزاء سنمار . برقم ٨٢٨ / ١ / ١٥٩ قال الشاعر :

* جَزَتْنا بنو سَعْدٍ بِحُسْنِ فِعَالِنَا ... جَزَاءَ سِنِمَّار وَمَا كان ذا ذَنْب *

(٢) تتخلف : أي تتأخر عنهم بقاء.

بيت ، وللبيوت طاقات تطل على البحر. ويقال: إن طولها كان ألف ذراع ، وفى أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر ، فإذا صار العدو على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدو ، فيستعدون له ، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوّت تصويتًا مطربًا ، ويقال : إنه كان بأعلاها مرآة من الحديد الصينى عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بحزيرة قبرص ، وقيل : كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم ، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من المدينة ، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس ، واستقبلوا بها السفن، فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق فى البحر ، ويهلك كل من فيها ، وكانت الروم تؤدى الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن ، ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك .

قال المسعودى : قيل إن ملكًا من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يـريد الإسلام ، وأرسل إليه تحفًا ، وهدايا ، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن ببلاده دفائن ، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه ، وأرسل معهم أموالا قيل إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال وقالوا للوليد : إن تحت المنارة كنوزًا وبإزائها خبية بها كذا وكذا ألف دينار ، فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة ، فإن كان ذلك حقًا استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم ، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها فهدموها ، فلم يجدوا تحتها شيئًا، وهرب أولئك القسيسون ، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه ، فندم على ذلك غاية الندم، ثـم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة ، فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت ، فصدئت ، ولم يروا فيها شيئًا مثل ما كانوا يرون أولا ، وبطل إحراقها ، فندموا على ما فعلوا ، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وقد عملت الجن لسليمان بن داود ـ عليهما الصلاة السلام ـ فى الإسكندرية مجلسًا على أعمدة من الجزع اليمانى المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشى خلفه لصفائها ، وفى وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعًا ، وفى تلك الأعمدة عمود واحد يتحرك شرقًا وغربًا بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه .

وفى مدينة حمص(١): مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا . فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والماء الجارى فى كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى . وعند

(١) حمص : مدينة فى سوريا على نهر العاصى.

«حوران» (١)مدينة عظيمة يقال لها : اللجأة ، فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه ألسنة العقلاء. كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت ليس فى الدار خشبة واحدة بل أبوابها وغرفها وسقوفها وبيوتها من الصخر المنحوت الذى لا يستطيع أحد أن يعمله من الخشب ، وفى كل دار بئر وطاحون ، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى ، وكل دار كالقلعة الحصينة إذا خاف أهل تلك النواحى من العدو دخلوا إلى تلك المدينة فينزل كل إنسان فى دار بجميع عياله وخيله ، وغنمه وبقره ، ويغلق بابه ، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه ، وفى هذه المدينة أكثر من مائتى ألف دار ، فيما يقال ، ولا يعلم أحد من بناها ، وسمتها العرب: اللجأة لأنهم يلْجأون إليها عند الخوف .

ومن المبانى العجيبة : إيوان كسرى أنوشروان : بناه سابور ذو الأكتاف فى نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع فى عرض خمسين ، بناه بالآجر ، والجص ، وجعل طول كل شرافة من شراريفه خمسة عشر ذراعًا ، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان ، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهبًا .

وحكى: أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه وأن يجعل آلته فى بنائه ، فقيل له : إن نقضه يتكلف بقدر العمارة ، فلم يسمع وهدم شرافة ، وحسب ما أنفق عليه ، فوجد الأمر كذلك ، وقيل : إن بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه : هو آية الإسلام ، فلا تهدمه .

وحكى: أنه كان بمدينة «يسارية» كنيسة بها مرآة إذا اتهم الرجل امرأته بزنا نظر فى تلك المرآة، فيرى صورة الزانى، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه ، فعمد أهلها إليها ، فكسروها .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقد اقتصرتُ من ذلك على هذا القدر اليسير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى اله وصحبه وسلم .

(١) حوران : اتجاه جنوبى دمشق فى سوريا . يحدها غربًا جبل الشيخ ، وشرقًا حرات أرض اللجْاة وأوائل منطقة جبل الدروز.

الباب السابع والستون

فى ذكر المعادن ، والأحجار ، وخواصها

المعادن لا تكاد تحصى لكن منها ما يعرفه الناس ،ومنها ما لا يعرفونه وهى مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب، والذى اشتهر بين الناس من المعادن سبعة : وهى : الذهب ، والفضة، والنحاس ، والحديد ، والقصدير ، والأسرب ، والخارصينى ، ولنبدأ أولا بذكر :

(**الذهب**) فقيل: طبعه حار لطيف لشدة اختلاط أجزائه المائية بالترابية . قيل : إن النار لا تقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق ولا يبلى ولا يصدأ ، وهو لين براق ، حلو الطعم ، أصفر اللون ، فالصفرة من ناريته ، والليونة من دهنيته ، والبراقة من صفاء مائه .

خواصه : يقوى القلب: ويدفع الصرع تعليقًا ، ويمنع الفزع والخفقان، ويقوى العين كحلا، ويجلوها إذا كان ميلا(١) ، ويحسن نظرها، وإذا ثقبت به الأذن لم تلتحم وإذا كوى به لم ينفط ويبرأ سريعًا ، وإمساكه فى الفم يزيل البخر .

(**الفضة**) قريبة منه، وتصدأ وتحترق، وتبلى بالتراب ، وإذا أصابتها رائحة الرصاص والزئبق انكسرت أو رائحة الكبريت اسودّت .

ومن خواصها : أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه ، وإذا أذيبت مع الزئبق وطلى بها البدن نفع ذلك من الحكة والجرب وعسر البول .

(**النحاس**) قريب منها ولكنه أيبس ، وأغلظ فى الطبع .

ومن خواصه : إذا صدئ وطلى بالحامض زال صدؤه والأكل فى آنيته يولد أمراضا لا دواء لها.

(**الحديد**) كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلاّ وله فيها مدخل .

ومن خواصه : أنه يمنع غطيط النائم إذا علق عليه ، وحمله يقوى القلب، ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة ويسر النفس ، وصدؤه ينفع أمراض العين كحلا والبواسير تحملا .

(**القصدير**) صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض .

ومن خواصه : أنه إذا ألقى فى قدر لم ينضج ما فيها .

(**الأسرب**) هو الرصاص .

---

(١) المِيل : ما يكتحل به.

ومن خواصه: أنه يكسر الماس ، ومن خواص الماس : الدخول فى كل شىء ، وإذا شد من الرصاص قطعة على الخنازير ، والغدد أبرأتها .

(الخارصينى) حجر لونه أسود ، لونه يعطى حمرة .

ومن خواصه : إذا عمل منه مرآة ونظر فيها فى الظلمات نفعت للقوة ،وإذا نتف الشعر بملاط منه لم ينبت .

الأحجار الجوهرية : أصل الجوهر ، وهو الدُّرُّ على ما قيل: إن حيوانًا يصعد من البحر على ساحلة وقت المطر ويفتح أذنه يلتقط بها المطر ، ويضمها ويرجع إلى البحر ، فينزل إلى قراره ولايزال طابقًا أذناه على ما فيها خوفًا أن يختلط بأجزاء البحر حتى ينضج ما فيها ، ويصير دُرًّا، فإن كانت القطرة صغيرة كانت الدّرَّةُ صغيرة ، وإن كانت كبيرة فكبيرة ، فإن كان فى بطن هذا الحيوان شىء من الماء المرّ كانت الدرة كدرة ، وإن لم يكن كانت صافية ، وقيل غير ذلك . **والدر نوعان**: كبير ، وصغير . قيل : إنه تصل الواحدة إلى مثقال .

ومن خواصه : أنه يفرح القلب ويبسط النفس ويحسن الوجه ويصفى دم القلب ، وإذا خلط مع الكحل شد عصب العين .

(**الياقوت**) سيد الأحجار ، **وأصول ألوانه أربعة** : الأحمر ، والأصفر ، والأزرق ، والإسمانجونى . ويتولد منها ألوان كثيرة وأعدلها الأحمر الخالص الرمانى الشبيه بحب الرمان الأحمر ، ودونه الأحمر المشرب ببياض ، ثم الوردى ، ثم الخمرى ، ثم العصفورى، وأردؤه الأزرق ، الذى لونه يشبه زهر السوسن، وأقله قيمة الأبيض .

خواصه : أنه لا يعمل فيه الفولاذ ولا حجر الماس ولا تدنسه النار ويورث لابسه مهابة ووقارًا، ويسهل قضاء الحوائج ويدر الريق فى الفم ويقطع العطش ويدفع السم ويقوى القلب ، وجميعه ينفع للمصروع تعليقًا ، والأبيض منه يبسط النفس ، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثالا على ما قيل .

(البلخش) هو مقارب الياقوت فى القيمة ودونه فى الشرف .

ومن خواصه : أنه يورث قبض النفس وسوء الخلق والحزن؛وهو ألوان : أحمر، وأخضر ، وأصفر .

(البنقش) أصناف أحمر مفتوح اللون صاف، وأحمر قوى الحمرة ، وأسود يعلوه حمرة مطوسة بزرقة خفيفة ، ثم أصفر مفتوح اللون .

(عين الهر) حجر يتكون من معدن الياقوت ، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط، ومائيته رقيقة شفافة ؛ وفى مائيته سِرّ إذا حرك يمينًا تحركت يسارًا وبالعكس .

ومن خواصه : إذا علق على العين أمن عليها من الجدرى على ما قيل .

(الماس) يوجد بواد بالهند يقال : إنه مشحون بالحيات ، فيأتى من يريد استخراجه من ذلك الوادى؛ فيضع فى الوادى مرآة كبيرة ، فتأتى الحيات فتنظر إلى خيالها فى المرآة فتفر من ذلك الجانب فينزل ، فيأخذ ما له فيه رزق، وقيل: إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها فى ذلك الوادى، فيلتصق الماس وغيره باللحم ، فتأتى الطير ، فتختطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر، فيأخذه صاحب اللحم، وقيل: إن الحيات لها مشتى ستة أشهر فى مكان ، ومصيف ستة أشهر فى مكان آخر، فإذا ذهبت إلى مشتاها ومصيفها أخذ الحجر فى غيبتها، والله أعلم بصحة ذلك، ومن عجيب أمره:أنه إذا أريد كسره جعل فى أنبوبة قصب وضرب فإنه يتفتت،وكذا إذا جعل فى شمع أو قار، وإذا جعل عليه دم تيس وقرب من النار ذاب.

ومن خواصه : أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه ، وهو من السموم القاتلة القطعة الصغيرة منه إذا حصلت فى الجوف ولو بقدر السمسمة خرقت الأمعاء .

ومن خواصه الجليلة : أنه يعرق عند وجود السم أو الطعام المسموم .

(الزمرد) ويسمى الزبرجد وهو ألوان أخضر ، وزنجارى(١) ، وصابونى ، ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقل .

ومن خواصه : أنه يدفع العين، ويفرح القلب، ويقوى البصر ، ويصفى الذهن، وينشط النفس.

(الفيروزج) نوعان : إسحاقى ، وخلنجى ، وأجوده الإسحاقى الأزرق الصافى .

خواصه : النظر فيه يجلو البصر ، ويقويه ، وينشط النفس ، ولا يصيب المتختم به آفة من قتل أو غرق ، وقال جعفر الصادق ـ رضى الله تعالى عنه ـ: ما افتقرت يد تختمت بفيروزج ، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقض لونه ، ولا يزال كذلك حتى ينطفئ .

(العقيق) معدن بأرض صنعاء باليمن ، وهو ألوان يوجد عليه غشاوة ،ويحمى عليه ببعر الإبل ، ثم يبرد ويكسر، وقيل : يوجد بالهند ولكن اليمنى أجود .

خواصه : التختم به وحمله يورث الحلم والأناة ، وتصويب الرأى، ويسر النفس ، ويكسب حامله وقارًا ، وحسن خلق ، ويسكن الحِدَّة عند الخصومة ، قال رسول الله ﷺ :« من تختم بالعقيق لم يزل فى بركة » .

(الجزع) هو حجر أيضًا يؤتى به من اليمن والصين ، وألوانه كثيرة ، والناس يكرهونه لأنه

---

(١) زنجاري : صدأ النحاس . درجة من درجات الأخضر .

يورث الهم والأحلام الرديئة ، وسوء الخلق ، وتعسر قضاء الحوائج ، ويكثر بكاء الصبى وسيلان لعابه ، ويثقل اللسان إذا سحق وشرب ماؤه ، وإذا وضع بين قوم لا علم لهم به حصلت بينهم العداوة لكنه يسهل الولادة تعليقًا .

(**البلور**) هو صنف من الزجاج ، يحكى أن ببلاد كيسان جبلين : أحدهما بلور ، وإذا أريد قطع البلور فى ذلك الموضع قطع فى الليل لأنه فى النهار يكون له شعاع عظيم .

خواصه : النظر فيه يشرح القلب ، ويبسط النفس ، ويسكن وجع الضرس .

(**المرجان**) هو واسطة بين النبات والمعدن لأنه بتشجره يشبه النبات ، وبتحجره يشبه المعدن، ولا يزال لينًا فى معدنه ، فإذا فارقه تحجر ويبس .

خواصه : النظر فيه يشرح الصدر، ريبسط النفس، ويفرح القلب ، ويذهب بالداء المحتبس فى العين ، ويسكن الرمد، وسحاقته المخلوطة بالخل تجلو قلح الأسنان ، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ ، **وأنواعه** كثيرة : أحمر ، وأزرق ، وأبيض ، وأصله من البحر ، قيل : إنه شجر ينبت ، وقيل : إنه من حيوان .

(**حجر الماطليس**) هو حجر هندى لا يعمل فيه الحديد ، والبيت الذى يكون فيه لا يدخله السحر، ولا الجن؛ ولأجل ذلك كان الإسكندر يجعله فى عسكره .

(**الحجر الماهانى**) من تختم به أَمِنَ من الروع ،والهم، والحزن، والغم ، **ولونه**: أبيض وأصفر ، ويوجد بأرض خراسان .

(**حجر مراد**) يوجد بناحية الجنوب .

وخاصيته : إن الجن تتبع حامله ، وتعمل له ما أراد .

(**الدهنج**) **خاصيته** : أنه إذا سقى إنسان من محكمه يفعل فعل السم ، وإذا سقى شارب السم منه نفعه ، وإذا مسح به موضع اللدغ سكن، وينفع من خفقان القلب، وإذا طلى بحكاكته بياض البرص أزاله ، وإن علق على إنسان غلب عليه الباه .

(**السبج**) **خواصه** : أنه يقوى النظر الضعيف من الكبر أو نزول الماء ، ولبسه ينفع عسر البول، وإدمان النظر فيه يحد البصر ، وسحاقته تجلو البصر ، وإذا علق على من به صداع زال عنه .

(**المغناطيس**) يوجد فى بحر الهند ، وهناك لا يتخذ فى السفن حديد ، ويوجد ببلاد الأندلس أيضًا ، وأجود أنواعه: ما كان أسود يضرب إلى حمرة .

خواصه : الاكتحال بسحاقته يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه ، ويسهل الولادة تعليقًا،

ومن تختم به كانت حاجته مقضية ، وتعليقه فى العنق يزيد فى الذهن ، وإذا سحق وشرب من سحاقته من به سم بطل سمه ، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته ، وإذا غسل بالخل عاد إلى حالته ، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد.

(**حجر الخطاف**) الخطاف يوجد فى عشه حجران: أحدهما أحمر ، والآخر: أبيض ، فالأحمر: إذا علق على من يفزع فى نومه زال فزعه ، والأبيض : إذا علق على من به صرع زال عنه .

(**حجر الزاج**) إذا دخن البيت بسحاقته هرب منه الفأر والذباب .

(**حجر الزنجفر**) أصله من الزئبق واستحال .

وخاصيته : أنه يدمل الجراحات، وينبت اللحم .

(**حجر الملح**) هو أنواع ، وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط ، وقد جعله الله قوامًا للدنيا .

ومن خاصيته : أنه يحسن الذهب ، ويزيد فى صفرته ، وعن النبى ﷺ أنه قال :« يا على ابدأ بالملح واختم به، فإن فيه شفاء من سبعين داء » .

(**حجر النطرون**) قال أرسطو(١) : ينفع الأرحام التى غلبت عليها الرطوبة ينشفها ويقويها ، وإذا ألقى فى العجين طيبه وبيضه ونشفه ، وهو نوعان : أبيض، وأحمر .

(**حجر اللازورد**) مشهور ، قال أرسطو : من تختم به عظم فى أعين الناس ، وينفع من السهر ، والله أعلم .

ومن أراد التعمق فى ذلك ، فعليه بالكتب الموضوعة له ، ولكن قد ذكرنا ما هو معروف ، والحمد لله على كل حال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) أرسطو : أو أرسطو طاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) : مؤدب الإسكندر . فيلسوف يونانى من كبار مفكرى البشرية . تأثرت بوادر التفكير العربى بتآليفه . من آثارة : المقولات . الجدل . السماء والعالم . الكون والفساد والخطابة .

الباب الثامن والستون

في الأصوات والألحان ، وذكر الغناء ، واختلاف الناس فيه ؛ ومن كرهه ومن استحسنه

وما ذكرت ذلك إلا لأني كرهت أن يكون كتابى هذا بعد اشتماله على فنون الأدب ، والتحف، والنوادر ، والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب ، وأخذه بمجامع النفس.

فصل : في الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ١] هو الصوت الحسن ، وعن النبى ﷺ أنه قال: « أتدرون متى كان الحداء؟» قالوا : لا بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله . قال :« إن أباكم مضر خرج فى طلب مال له ، فوجد غلامًا قد تفرقت إبله ، فضربه على يده بالعصا ، فعدا الغلام فى الوادى وهو يصيح : وايداه ، فسمعت الإبل صوته ، فعطفت عليه ، فقال مضر : لو اشتق من الكلام مثل هذا لكان كلامًا تجتمع عليه الإبل ، فاشتق الحداء»(١) . وقال النبى ﷺ لأبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ لما أعجبه حسن صوته : «لقد رأيت مزمارًا من مزامير آل داود » (٢) ، وقيل : إن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يومًا فى الأسبوع ، وتجتمع عليه الخلق ، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا تضبطان جسده ضبطًا شديدًا خيفة أن تنخلع أوصاله مما كان ينتحب ، وكانت الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته. قال مالك بن دينار(٣) ـ رحمه الله تعالى ـ: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام ـ يوم القيامة عند ساق العرش ، فيقول : يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم .

وقال سلام الحادى للمنصور ، وكان يضرب المثل بحداثه : مر يا أمير المؤمنين بأن يُظمئوا إبلا ثم يوردوها الماء فإنى آخذ فى الحداء فترفع رؤوسها ، وتترك الشرب ، وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجرى فى الجسم مجرى الدم فى العروق ، فيصفو له الدم ، وتنمو له النفس

---

(١) لم أقف عليه ، وعلامات الوضع لائحة عليه .

(٢) رواه البخارى فى « فضائل القرآن » (٥٠٤٨) باب حسن الصوت بالقراءة بالقرآن .

(٣) مالك بن دينار البصرى ، أبو يحيى (.... ـ ١٣١هـ ـ ... ـ ٧٤٨م) من رواة الحديث .

ويرتاح له القلب ، وتهتز له الجوارح ، وتخف له الحركات ، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء ، حتى يرقص ويطرب ، وزعمت الفلاسفة : أن النغم فصل بقى من النطق لم يقدر اللسان على استخراجه ، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع ، فلما ظهر عشقته وحنت إليه الروح . ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان ، واستراحت إليها أنفسهم؟، وليس من أحد كائنا من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعجبه طنين رأسه ، ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس فى الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا صيد إلا وفيها معاناة على البدن ، وتعب على الجوارح ما خلا السماع ، فإنه لا معاناة فيه على البدن ولا تعب على الجوارح ، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيرى الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الأرحام ، والذب (١) عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكى الرجل بها على خطيئته ، ويتذكر نعيم الملكوت ، ويمثله فى ضميره، ولأهل الرهبانية نغمات ، وألحان شجية يمجدون الله تعالى بها ، ويبكون على خطاياهم ، ويتذكرون نعيم الآخرة ، وقد تحن القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم ، وكان صاحب الفلاحات يقول : إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء . قال الشاعر :

والطَّيرُ قــد يسوقُهُ للموتِ ... إِصْغاؤُه إلى حنين (٢) الصوتِ

وزعموا أن فى البحر دواب ربما زمرت أصواتًا مطربة ، وألحانًا مستلذة يأخذ السامعين الغشى من حلاوتها ، فاعتنى بها ، وضعة الألحان بأن شبهوا بها أغانيهم ، فلم يبلغوا ، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطافة وصوله إلى الدماغ وممازجته القلب . ألا ترى إلى الأم كيف تناغى ولدها ، فيقبل بسمعه على مناغاتها ، ويتلهى عن البكاء ؟ ، والإبل تزداد في نشاطها وقوتها بالحداء ، فترفع آذانها وتلتفت يمنة ويسرة ، وتتبختر فى مشيتها ، وزعموا أن السماكين بنواحى العراق يبنون فى جوف الماء حفائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فتجتمع السمك فى الحفائر فيصيدونه ، وقد نبهت على ذلك فى باب ذكر البحار ، وما فيها من العجائب ، والراعى إذا رفع صوته ، ونفخ فى يراعته (٣) تلقته الغنم بآذانها ، وجدّت فى رعيها، والدابة تعاف الماء فإذا سمعت الصفير بالغت فى الشرب وليس شىء مما يستلذ به أخف مؤونة من السماع . قال أفلاطون : من حزن فليسمع الأصوات الحسنة ، فإن النفس إذا حزنت خمدت نارها ، فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمدت. وما زالت ملوك فارس تلهى المحزون بالسماع،

(١) الذّبّ : الدفع والطرد . (٢) الحنين : الاشتياق والعطف .
(٣) القصبة المثقبة ـ الناى ـ التى يزمر فيها الراعى .

وتعلل به المريض ، وتشغله عن التفكير ، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيبانى :

وسماعُ مُسمعةٍ يُعللُنا حتى نَنَامَ تناوُمَ العَجَمِ

وحكى أن البعلبكى[١] مؤذن المنصور رجع[٢] فى أذانه ليلة وجارية تصب الماء على يد المنصور ، فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها ، فقال له المنصور : خذ هذه الجارية ، فهى لك لا تعد ترجع هذا الترجيع ، وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمارة فى قينة [٣] :

أَلَمَ ترَها لا أبْعَدَ الله دَارَها إذا رجَعت فى صوتها كيف تَصنَعُ؟

تُدِيرُ نظامَ القولِ ثم تَرُدُّه إلى صَلْصلٍ [٤] مِنْ صَوْتها يترجَّعُ

وبعد ، فهل خلق الله شيئًا أوقع بالقلوب ، وأشد اختلاسًا للعقول من الصوت الحسن لاسيما إذا كان من وجه حسن ؟ . كما قال الشاعر :

ربَّ سمـاعٍ حســنٍ سمِعْتُه مــن حَسَنِ

مقرّبٌ مــن فَرَحٍ مُبَعّد مــن حــزنِ

لا فارقانــى أبــدًا فى صِحَّةٍ مِنْ بَدَنِ

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغنى بقول جرير :

قُلْ للجبانِ إذا تأخَرَ سَرْجُهُ هل أنتَ مِنْ شَرَكِ المنيةِ[٥] ناجى

إلا شاجن [٦] شجعت نفسه ، وقوى قلبه ، أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يومًا يغنى بقول حاتم الطائي[٧] :

يرى البخيلُ سبيل المال واحدةً إنَّ الجواد يرى فى ماله سبُلا

إلا انبسطت أنامله ، ورشحت أطرافه ؟، واختلف الناس فى الغناء ، فأجازه عامة أهل الحجاز، وكرهه عامة أهل العراق ، فَمنْ حجة من أجازه ما روى أن النبى ﷺ قال لحسان : «شن الغطاريف (٨) على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام » (٩) . واحتجوا فى إباحة الغناء ، واستحسانه بقول النبى ﷺ لعائشة ـ رضى الله تعالى

(١) البعلبكى : مظفر بن عبد الرحمن ت ٦٧٥ هـ. (٢) رجَّع : رجَّع فى صوته : ردده فى حلقه .
(٣) القينة : الأمة المغنية . (٤) صلصل : رجع الصوت فى تنغيم .
(٥) الشرك : حبائل الصيد . المَنِيَّةُ : الجمع منايا : الموت . (٦) الشاجن : الحزين المهموم .
(٧) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى . القحطانى : (... / ـ ٤٦ ق هـ ـ .... ـ ٥٧٨ م) فارسي ـ شاعر . جواد . جاهلى . يضرب المثل بجوده .
(٨) الغطاريف : جمع غطريف : السيد الكريم . (٩) لم أقف عليه .

عنها ـ : « أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟» قالت : نعم . قال : « فبعثتم معها من يغنى ؟» قالت : لم نفعل . قال : أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول ، ألا بعثتم من يقول :

أَتَيْناكُــــم أَتَيْنَاكُــــم فَحيّونــــا نُحَيِّيكُــــم
ولولا الحبةُ السمراءُ لـــم نُحلُلْ بَواديكُم

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرم ، ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة وغيرها ، فإن فيه تحريكًا لزيادة سرور مباح أو مندوب ، ويدل عليه ما روى من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبى ﷺ حيث قلن :

طَلَعَ البدرُ عَلَيْنا مِنْ ثنيَّاتِ الوداعِ
وجَبَ الشُّكْرُ علينا ما دَعَا للَّهِ داعِ
أيّها المبعوثُ فينا جِئْتَ بالأمرِ المطاعِ

ويدل عليه ما روى عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أنها قالت : « رأيت النبى ﷺ يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد الحرام حتى أكون أنا التى أسأمه » ، ويدل عليه أيضًا ما روى فى الصحيحين من حديث عقيل ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أن أبا بكر دخل عليها ، وعندها جاريتان فى أيام منى يدففان ويضربان والنبى ﷺ متغش بثوبه ، فانتهرها أبو بكر ، فكشف النبى ﷺ عن وجهه ، وقال : «دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد »، وعن قرة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال : قال عمر ابن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ للنابغة الجعدى : أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك (١) ، فأسمعه كلمة ، فقال له ، وإنك لقائلها . قال : نعم : طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب ، وعن عبد الله بن عوف قال : أتيت باب عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ ، فسمعته يغنى بالركابية يقول :

فَكَيْفَ ثَوَائِى بِالمدينةِ بعْدَمَا قَضَى وطرًا منها جميلُ بنُ معمر

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر قال ، فلما استأذنت عليه قال لى : أسمعت ما قلت؟ قلت : نعم . قال: إذا خلونا قلنا ما يقول الناس فى بيوتهم . وقد أجازوا تحسين الصوت فى القراءة والأذان ، فإن كانت الألحان مكروهة ، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها ، وإن كانت غير مكروهة ، فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن ، وما جعلت العرب الشعر موزونًا إلا لِمَدّ

(١) الهنات : جمع الهنة : الشرور والفساد .

الصوت والدندنة (١) ، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور . ومن حجة من كره الغناء أنه قال : إنه ينفر القلوب ، ويستفز العقول ، ويبعث على اللهو ، ويحض على الطرب، وهذا باطل فى أصله ، وتأولوا فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ [لقمان : ٦] . وأخطأ من أول هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير ، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن ، ويقولون : إنها أفضل منه ، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزوًا، وقال رجل للحسن البصرى : ما تقول فى الغناء يا أبا سعيد ؟ فقال: نعم العون على طاعة الله تعالى يصل الرجل به رحمه ويواسى به صديقه . قال : ليس عن هذا أسألك . قال : وعمّ سألتنى ؟ قال : أن يغنى الرجل . قال : وكيف يغنى ؟ فجعل الرجل يلوى شدقيه ويفتح منخريه ، فقال الحسن : والله يا ابن أخى ما ظننت أن عاقلا يفعل بنفسه هذا أبدًا ، فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه وتعويج فمه ، وسمع ابن المبارك سكران يغنى هذا البيت :

أذَلّنِي الهوى فَأنَا الذليلُ ... وليس إلى الذى أهْوى سبيلُ

قال : أخرج دواة وقرطاسًا ، وكتب البيت ، فقيل له : أتكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران ؟ ، فقال : أما سمعتم المثل : « رُبَّ جَوْهَرَةٍ فى مَزْبَلَةٍ » . وكان لأبى حنيفة جار من الكيالين مغرم بالشرب ، وكان يغنى على شرابه بقول العرجى(٢) :

أَضَاعُونى وأَيُّ فَتًى أَضَاعُوا ... لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وسَدَادِ ثغر

قال : فأخذه العسس (٣) ليلة وحبسه ، ففقد أبو حنيفة صوته ، واستوحش له ، فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيال ؟ قالوا : أخذه العسس ، وهو فى الحبس ، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى (٤) ، فاستأذن عليه ، فأسرع إذنه ، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتى أبواب الملوك ، فأقبل عليه عيسى بن موسى ، وسأله عما جاء بسببه ، فقال : أصلح الله الأمير: إن لى جارًا من الكيالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا ، فوقع فى حبسه ، فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من فى الحبس إكرامًا لأبى حنيفة ، فأقبل الكيال على أبى حنيفة يتشكر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له : هل أضعناك يا فتى ؟. يُعرِّضُ له بشعره الذى ينشده قال :

(١) الدندنة : الرجل نَغَّم ولم يفهم منه كلامٌ .
(٢) هو: عبد الله بن عمر الأموى القرشى . شاعر غزل . كان شغوفا بالصيد واللهو . لقب بالعرجى : لسكناه قرية العرج قرب الطائف . توفى سنة (١٢٠ هـ) .
(٣) العسس : من يطوفون بالليل يحرسون الناس ، ويكشفون أهل الريبة وهم رجال الشرطة .
(٤) أمير . من الولاة القادة . وهو ابن أخى السفاح . كان يقال له : « شيخ الدولة » توفى سنة (١٦٧ هـ) .

لا والله ولكنك بررت وحفظت . وكان عروة بن أذينة (١) ثقة فى الحديث روى عنه مالك بن أنس، وكان شاعرًا مجيدًا لبقًا غزلا ، وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره وينحلها للمغنين . قيل : إنه وقفت عليه امرأة يومًا وحوله التلاميذ ، فقالت له : أنت الذى يقال فيك : الرجل الصالح ، وأنت تقول :

إذا وَجَدْتُ أوارُ (٢) الحبِّ فى كَبِدِى عمدتُ نحو سقاء القوم أبترد
هَبْنِي بَرُدَتُ بِبَرْدِ الماءِ ظَاهِرَهُ فَمَنْ لِنَارٍ على الأحْشَاء تَتَّقِدُ ؟

وكان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبى رباح (٣) فى العبادة . قيل: إنه مر يومًا بسلامة (٤) وهى تغنى ، فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها ، فقال له : هل لك أن تدخل، وتسمع ؟ فأبى ، فلم يزل به حتى دخل فغنته ، فأعجبته ، ولم يزل يسمعها ، ويلاحظها النظر حتى شغف بها ، فلما شعرت بلحظه إياها غنته :

رُبَّ رَسُولَيْنِ لَنَا بَلَّغَا رسالةً من قبل أنْ نَبْرَحَا
الطرفُ للطرفِ بَعَثْنَاهُمَا فَقَضَيَا حَاجًا وما صَرَّحَا(٥)

قال : فأغمى عليه ، وكاد يهلك ، فقالت له : إنى والله أحبك . قال : وأنا والله أحبك، قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك . قال : وأنا والله كذلك . قالت : فما يمنعك من ذلك ؟ قال أخشى أن تكون صداقة ما بينى وبينك عداوة يوم القيامة . أما سمعت قوله تعالى: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] . ثم نهض وعاد إلى طريقته التى كان عليها ، وأنشأ يقول :

قد كنتُ أعذلُ (٦) فى السَّفاهة أهلَها فاعْجَبْ لِمَا تَأْتِى بِهِ الأَيَّامُ
فاليومَ أعْذُرَهم وأَعْلَمُ أنّما سُبُلُ الضلالةِ والهدى أقسامُ

وقدم عبد الله بن جعفر (٧) على معاوية بالشام ، فأنزله فى دار عياله ، وأظهر من إكرامه ما يستحقه ، فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية . فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن

---

(١) هو : عروة بن يحيى . توفى سنة (١٣٠ هـ) . (٢) أوار : حَرٌّ نار الحب والعشق والهيام .
(٣) هو : عطاء بن أسلم بن صفوان ، ابن أبى رباح (٢٧ ـ ١١٤ هـ) تابعى ، من أجلاء الصحابة .
(٤) سلامة القَسِّ : مغنية . شاعرة ، من مولدات المدينة . توفيت (نحو ١٣٠هـ) .
(٥) الطرف : النظر بمؤخرة العين . (٦) أعذل : ألوم .
(٧) ابن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى . صحابى . توفى سنة (٨٠ هـ) .

جعفر ، فجاءت إلى معاوية فقالت : هلم ، فاسمع ما فى منزلك الذى جعلته من لحمك ودمك، وأنزلته بين حرمك ، فجاء معاوية ، فسمع شيئًا حركه وأطربه، فقال : والله إنى لأسمع شيئًا تكاد الجبال أن تخر له ، ثم انصرف ، فلما كان فى آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر ، وهو قائم يصلى ، فنبه فاختة ، وقال لها : اسمعى مكان ما أسمعتنى ، هؤلاء قومى ملوك بالنهار رهبان بالليل ، ثم إن معاوية أرق ذات ليلة ، فقال لخادمه : اذهب فانظر من عند عبد الله بن جعفر ، وأخبره أنى قادم عليه؟ ، فذهب وأخبره ، فأقام عبد الله كل من كان عنده، فلما جاء معاوية : لم ير فى المجلس غير عبد الله فقال : مجلس من هذا ؟ قال عبد الله: هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين قال معاوية مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد قال : مجلس من هذا ؟ قال : مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين قال: إن أذنى عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه وكان مجلس بديح المغني فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه ، فقال له معاوية : داو أذنى من علتها ، فتناول العود وغنى وقال :

وَدِّعْ سُعادَ فإنَّ الركبَ مُرتحلٌ   وهل تُطيقُ وداعًا أيُّها الرَّجُلُ(١)؟

قال : فحرك عبد الله بن جعفر رأسه ، فقال له معاوية : لم حركت رأسك يا ابن جعفر؟ قال : أريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لقيت لأبليت ، ولو سئلت لأعطيت ، وكان معاوية قد خضب (٢). قال ، فقال ابن جعفر لبديح : هات غير هذا ، وكان عند معاوية جارية من أعزّ جواريه عليه ، وكانت تتولى خضابه ، فغنى بديح وقال :

أليس عِندكَ شكُر للتى جَعَلَتْ   ما ابيضَّ من قادمات الرأس كالحُمَمِ
وجدَّدتْ مِنْكَ ما قد كان أخْلَقَهُ   صَرْفُ الزمانِ وطولُ الدهرِ والقِدَمِ ؟

فطرب معاوية طربًا شديدًا ، وجعل يحرك رجله ، فقال له ابن جعفر: يا أمير المؤمنين إنك سألتنى عن تحريك رأسى ، فأجبتك وأخبرتك ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك ، فقال : كل كريم طروب ، ثم قام ، وقال : لا يبرح أحد منكم حتى يأتى له إذنى ، ثم ذهب ، فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كسوته ، وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب . وحدّث ابن الكلبى ، والهيثم بن عدى (٣) قالا : بينما عبد الله بن جعفر فى

---

(١) البيت للأعشي . وفيه : « وَدِّعْ هُرَيْرَةَ » .
(٢) الخضاب : الحناء .
(٣) أبو عبد الرحمن : (١١٤ ـ ٢٠٧ هـ) مؤرخ . عالم بالأدب والنسب . أصله من (منبج) وإقامته وشهرته بالكوفة . ووفاته فى فم الصلح (قرب واسط) .

بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء ، فأصغى إليه ، فإذا صوت رقيق لقينة تغنى وتقول:

قُلْ للكرام ببابِنَا يَلِجُوا ... ما فى التّصابى على الفتى حرجٌ

فنزل عبد الله عن دابته ، ودخل على القوم بلا إذن ، فلما رأوه قاموا إجلالا له ، ورفعوا مجلسه ، فأقبل عليه صاحب المجلس ، وقال: يا ابن عم رسول الله ﷺ : أتدخل مجلسنا بلا إذن ، وليس هذا من شأنك ؟ فقال عبد الله: لم أدخل إلا بإذن . قال : ومن أذن لك ؟ قال: قينتك هذه سمعتها تقول : قل للكرام ببابنا يلجوا ، فولجنا، فإن كنا كرامًا ، فقد أذن لنا ، وإن كنّا لئامًا خرجنا مذمومين ، فقبّل صاحب المنزل يده ، وقال : جعلت فداك ، والله ما أنت إلا من أكرم الناس ، فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه ، فحضرت ودعا بثياب وطيب، فكسا القوم ، وطيبهم ، ووهب الجارية لصاحب المنزل ، وقال : هذه أحذق بالغناء من جاريتك .

وسمع سليمان بن عبد الملك مغنيًا فى عسكره ، فقال : اطلبوه ، فجاءوا به ، فقال : أعد علىّ ما غنيت به ، فغنى وأحفل [1] . وكان سليمان أغير الناس ، فقال لأصحابه: كأنها والله جرجرة الفحل فى الشوك ، وما أظن أنثى تسمع هذا إلا صبت [2] إليه، ثم أمر به فخصى .

أصل الغناء ومعدنه :

قال أبو المنذر هشام [3] : الغناء على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج ، **فأما النصب:** فغناء الفتيان والركبان ، **وأما السناد** : فالثقيل الترجيع الكثير النغمات ، **وأما الهزج** : فالخفيف كله وهو الذى يستفز القلوب ويهيج الحليم . وقيل : كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى، فاشيًا ظاهراً ، وهى المدينة والطائف وخيبر وفدك ووادى القرى، ودومة الجندل، واليمامة ، وهذه القرى مجامع أسواق العرب ، ويقال : إن أول من صنع العود لامك بن قاين بن آدم ، وبكى به على ولده ، ويقال : إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى ، وهو كتاب اللحون الثمانية ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك ، وحسبنا الله ، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) أحفل : الاهتمام والمبالغة والتزين فى الغناء . (٢) صبت : صنت . ومالت . واشتاقت .

(٣) هو هشام بن عُروة بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى ، أبو المنذر (٦١ ـ ١٤٦ هـ ـ ٦٨٠ ـ ٧٦٣ م) تابعى من أئمة الحديث . من علماء « المدينة » .

الباب التاسع والستون

في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء في مجالس الرؤساء

قيل : إن أول من غنى في العرب قينتان للنعمان يقال لهما : الجرادتان ، ومن غنائهما :

ألا يا قَيْنُ وَيْحُكَ قمْ فهَيْنِمْ(١) لعلَّ الله يَسقِينا غَمَامَا

وإنما غنتا هذا حين حبس الله عنهم المطر ، وقيل : أول من غنّى في الإسلام الغناء الرقيق طويس (٢) وهو الذي علم ابن سريج (٣) والدلال نوبة الضحى ، وكان يكنى أبا عبد النعيم ، ومن غنائه ، وهو أول صوت غنى به في الإسلام هذا البيت :

قَدْ بَرَاني الشوق حتى كدتُ من وَجْدى أذوبُ (٤)

ثم نجم بعد طويس ، ابن طنبور ، وأصله من اليمن ، وكان أهزج الناس وأخفهم غناء ، ومن غنائه :

وفتيانٍ على شُرْب جميعًا دَلَفْتُ لهم بباطية هدُورِ (٥)
فلا تشربْ بلا طرَبٍ فإني رأيت الخيل تشربُ بالصفير

ومنهم حكم الوادي (٦) ، ومن غنائه :

أَمْدَحُ الكَأسَ ومَنْ أعْمَلَهَا واهجُ قومًا قتلونا بالعطشْ
إنَّما الراحُ ربيعٌ بَاكِرُ فَإِذَا مَا وَافَتِ المرءَ انْتَعَشْ

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم : إبراهيم الموصلي (٧) ، وابن جامع السهمي وغيرهما ، وكان له زامر يقال له : برصوما ، وكان إبراهيم أشدهم تصرفًا في الغناء ، وابن جامع أحلاهم نغمة ، فقال الرشيد يومًا لبرصوما: ما تقول في ابن جامع ؟ قال يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي من حيثما ما ذقته فهو طيب . قال : فإبراهيم الموصلي ؟ قال : بستان فيه جميع الأزهار والرياحين ، وكان ابن محرز (٨) يغنى كل إنسان بما يشتهيه كأنه

---

(١) هينم : الصوت الخفي .
(٢) طويس المغني ; هو : عيسى بن عبد الله : أعظم مغنٍ في الإسلام . توفي سنة (٩٢هـ) .
(٣) عبيد الله بن سريج توفي سنة ٩٨ هـ .
(٤) براني : البرى الهزال والضعف . الوجد : أحبه حبًا شديدًا .
(٥) دلف : مشى ودنا . الباطية : إناء من زجاج يملأ من الشراب . هدر : غلا فيها النبيذ . مشيت أحمل إناءً من زجاج مملوء بالنبيذ .
(٦) حكم بن ميمون . أو ابن يحيى بن ميمون الوادي . مُغَنٍّ من الطبقة الأولى في عصره . توفي سنة ١٨٠هـ معجم الأعلام : ٢٢٢ .
(٧) (١٢٥ ـ ١٨٩ هـ ـ٧٤٢ ـ ٨٠٤م) ولد في الكوفة . توفي في بغداد . فارس الأصل . من أشهر موسيقى العرب . برع في الغناء والعزف على العود .
(٨) مسلم بن محرز فارسي (المغني) ت ١٤٠ هـ .

خلق من قلب كل إنسان ، وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات :

وأذكرُ أيامَ الحِمَى ثُمّ أنثنَى على كبدى من خشية أن تصدّعا
فَلَيْسَتْ عَشِياتِ الحِمَى بِرَواجعٍ عليك ولكن خل عينيك تَدْمَعَا
بكَتْ عينى اليسرى فلما نَهيْتُها عن الجهل بعد الحلم أَسْبَلَتَا معا

قال : فاستخف الرشيد الطرب ، فأمر له بمائة ألف درهم .

وحدّث ابن الكلبى [(١)] عن أبيه قال : كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء وأنبههم فيه ، وكـان مـن أضيق الناس خـلقًا إذا قيل له: غنٍّ قال : لمثلى يقال غن على عتق رقبة إن غنيت يومى هذا ، فلما كان فى بعض الأيام سال وادى العقيق ، فلم يبق فى المدينة مخبأة ولا مخدرة[(٢)] ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره ، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغنى وهو معتجر[(٣)] بفضل ردائه ، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنهم ـ ، وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته، فقال لهما : أقسم بالله إن لم تفعلا ما آمركما به لأنكلن بكما ، فقالا : يا مولانا قل ما أمرتنا به ،فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا : قال : فاذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه فامسكاه ، فإن لم يفعل ما آمره به وإلا فاقذفا به فى العقيق [(٤)] . قال : فمضيا والحسن يقفوهما، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه ، فقال : من هذا ؟ فقال له الحسن : أنا هذا يا ابن عائشة ، فقال : لبيك وسعديك بأبى أنت وأمى قال : اسمع منى ما أقول لك، واعلم أنك مأسور فى أيديهما ، وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطرحانك فى العقيق . قال فصاح ابن عائشة : وا ويلاه وا عظم مصيبتاه ، فقال له الحسن : دعنا من صياحك وخذ فيما ينفعنا . قال : اقترح وأقم من يحصى ، ثم أقبل يغنى ، فترك الناس العقيق ، وأقبلوا عليه ، فلما تمت أصواته مائة كبّر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض ، وقالوا للحسن : صلى الله على جدك حيًا وميتًا ، فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت ، فقال له الحسن : ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة ، فقال ابن عائشة : والله ما مرت بى شدة أعظم من هذه لقد بلغت أطراف أعضائى ، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له : ما أشد يوم مر عليك ؟ يقول: يوم العقيق .

وحدّث أبو جعفر البغدادى قال : حدثنى عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبى عكرمة

---

(١) هشام بن محمد بن السائب بشر بن عمرو الكلبي . الكوفي . (أبو المنذر) نسابه . إخباري . من آثاره : جمهرة الأنساب . خزاعة . الأصنام . كتاب « عاد الأولى والآخرة » . توفي سنة ٢٠٤ هـ .

(٢) مخدرة : المراة الزمها خدرها وسترها وصانها عن الخدمة .

(٣) معتجر : لَفَّ العمامة على راسه ورد طرفها على وجهه .

(٤) العقيق : الوادى الذى شقه السيل .

قال: خرجت يومًا إلى المسجد الجامع ، فمررت بباب أبى عيسى بن المتوكل ، فإذا على بابه المشدود ، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء ، فقال : أين تريد يا أبا عكرمة ؟ قلت: المسجد الجامع لعلى أستفيد حكمة أكتبها ، فقال : ادخل بنا إلى أبى عيسى . قلت : أمثل أبى عيسى فى قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن ؟ فقال للحاجب : أعلم أمير المؤمنين بمكان أبى عكرمة ، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إلىّ فحملونى حملاً ، فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء ، ولا أظرف منها هيئة ؛ فلما نظرت إلى أبى عيسى . قال لى : ما يعيش من يحتشم اجلس ، فجلست ، فأتينا بطعام كثير ، فلما انقضى أتينا بشراب ، وقامت جارية تسقينا شرابًا كالشعاع فى زجاجة كأنها كوكب درّى ، فقلت : أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه ولا سلبه ما وهبه . قال : فدعا أبو عيسى بالمغنين وهم المشدود ودبيس ورقيق . ولم يكن فى ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء ، فابتدأ المشدود وغنى يقول :

لما استقلَّ بأرداف (١) تجاذُبُه ... واخضرَّ فُوقَ بياض الدُّرِّ شاربُه
وأَشْرقَ الوردُ من نِسْرين وجْنتيه ... واهتزَّ أعلاه وارْتجّتْ حَقَائِبه (٢)
كلّمتُه بجفونٍ غير ناطقةٍ ... فكان من ردِّهِ ما قال حَاجِبُه

ثم سكت ؛ وغنى دبيس :

الحبُّ حُلْوٌ أمرَّته عواقبُهُ ... وصاحبُ الحبِّ صبٌّ القلب ذائبُه
أسْتَوْدِعُ الله مَنْ بالطرف ودّعنى ... يوم الفراق ودَمْعُ العين ساكبُهُ
ثم انصرفت وداعى الشَّوْق يَهتفُ بى ... ارفقْ بقلبِكَ قد عزَّتْ مطالبُهُ

ثم سكت وغنى رقيق:

بدرُ من الإنس حَفَّتْهُ كواكبه ... قَدْ لاَحَ عَارِضُه واخْضَرَّ شَارِبُهُ
إن يُوعَد الوَعْدَ يومًا فهو مُخْلِفُهُ ... أو يَنْطِقَ القولَ يومًا فهو كاذبُهُ
عَاطَيْتُهُ كَدَمِ الأوْداَجِ (٣) صَافِيَةً ... فقام يَشْدُو وقد مَالَتْ جوَانِبُهُ

---

(١) أرداف : جمع رِدف : الأعجاز : مؤخرة المرأة عجز .
(٢) نسرين : مفرده « نِسْرينة » ورد أبيض عطرى الرائحة (فارسي) . اهتز : تحرك أعلاه النهدان . ارتجت : اهتزت . حقائبه : مفرده (حقيبة) :مؤخرتها عجزها . والمعنى : وجنتاها بيضاء وقد صبغت بحمرة الورد . ونهد صدرها نافجا فإذا ما سارت اهتز صدرها وعجيزتها . فى جمال ودلال وتدلدل .
(٣) الأوداج : واحده « ودج » عرق فى العنق ينتفخ عند الغضب . وهما وَجَدَان . عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة . والمعنى : احتسيت معه الخمرة الحمراء الصافية .

ثم سكت ، وابتدأ المشدود يقول :

يا ديرَ حنّة من ذات الأُكَيْراحِ(١) مَنْ يَصْحُ عنك فإنىّ لستُ بالصاحى

ثم سكت ، وغنى دبيس :

دَعِ البساتين من آسٍ وتُفَّاحِ واعدل هديت إلى شيخ الأكيراح(٢)
واعدِلْ إلى فتيةٍ ذابتْ لُحُومُهُمَ من العبادة إلاَّ نِضْوَ أشباحِ(٣)
وخمرةٍ عُتِّقَتْ فى دنّها حِقبًا كأنّها دمعةٌ فى جَفْنِ سيّاحِ

ثم سكتَ ، وغنى رقيق:

لا تَحفِلَنَّ بقول اللائمِ اللاحِى واشْربْ على الورد من مَشْمُولةِ الراح(٤)
كأسًا إذا انحدرتْ فى حلَقِ شاربِها أغْنَاه لألأوَها عن كُلِّ مِصباحِ
ما زلتْ أَسْقى نَدمى ثم ألثمُه والليلُ مُلتَحِفٌ فى ثوب أمساحِ(٥)
فقام يَشْدو وقد مَالتْ سَوالِفُه يا دَيْرَ حَنّة مِنْ ذاتِ الأُكيّراحِ

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له : غنِّ لى شعرى فغناه :

يا لُجَّةَ الدمعِ هل للغَمْضِ مَرْجوعْ أم للكرى من جفون العين ممنوعُ؟
ما حِيلَتِى وفؤادى هائمٌ دَنِفٌ بِعَقْربِ الصَّدْغِ مِنْ مولاى مَلْسوعُ(٦)
لا والذى تَلِفَتْ نَفْسِى بِفُرْقَتِه فالقلبُ من فَرَقِ الأحزانِ مَصْدوعُ(٧)
ما أرَّق العينَ إلا حبٌّ مبتدعٍ ثوبُ الجمالِ على خَدّيه مخلوعُ

قال أبو عكرمة : فوالله لقد حضرت من المجالس مالا يحصى عدده إلا الله تعالى ، فما حضرت مثل ذلك المجلس ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا .

وحكى عن الرشيد : أنه قال يومًا للفضل بن الربيع : من بالباب من الندماء ؟ قال : جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بنى أمية ، وأمير المؤمنين يشتهى سماعه . قال : فأذن له وحده، فدخل ، فقال : هات يا هاشم ، فغناه من شعر جميل حيث يقول :

إذا ما تراجعنا الذى كان بيننا جرى الدمعُ من عينى بُثينةَ بالكحلِ

---

(١) الأُكَيْراح : بيت الراهب . (٢) الآس : نبات ورقه دائم الخضرة . زهره أبيض . ويسمى أيضًا « الريحان» .
(٣) النضو : المهزول . (٤) اللاحى : اللائم . الراح : الخمر .
(٥) الثم : أَقْبَلُ . القبلة فما لِفم خاصة . ملتحف : ملفوف فى ثوب الراهب الأسود .
(٦) دنف : اشتد مرضه وأشفى علىٰ الموت من جمال صدغها الذى لسعه فكان كلسعة العقرب التى لا شفاء منها.
(٧) فرقته : حدثت الفرقة والابتعاد . فِرق الأحزان : شدة الحزن . مصدوع : الجرح العميق والشقّ البعيد .

فَيَا وَيْحَ نَفْسِى حَسْبُ نفسى الذى بها   وَيَا وَيْحَ عقلى ما أَصَبْتُ به أهلى
خليلىَّ فيما عِشْتُما هل رأيْتُما   قتِيلا بكى مِنْ حُبٍّ قاتله قَبْلى

قال : فطرب الرشيد طربًا شديدًا ، وقال : أحسنت لله أبوك ، ثم قلّده عقدًا نفيسًا ، فلما رآه هاشم ترقرت عيناه بالدموع ، فقال له الرشيد : ما يبكيك يا هاشم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن لهذا العقد حديثًا عجيبًا إن أذن لى الأمير حدثته به ، فقال : قد أذنت لك . قال : يا أمير المؤمنين : قدمت يومًا على الوليد وهو على بحيرة طبرية ، ومعه قينتان لم ير مثلهما جمالا وحسنًا ، فلما وقعت عينه علىَّ قال : هذا أعرابى قد ظهر من البوادى ادعوا به لنسخر به ، فدعانى ، فسرت إليه ، ولم يعرفنى ، فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لى ، فأخطأته الجارية، فقلت لها : أخطأت يا جارية ، فضحكت ، ثم قالت : يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابى يعيب علينا غناءنا؟ فنظر إلىَّ كالمنكر ، فقلت : يا أمير المؤمنين أنا أبين لك الخطأ ، فلتصلح وتر كذا ، ووتر كذا ، ففعلت وغنت شيئًا ما سمع منها إلا فى هذا اليوم ، فقامت الجارية مكبة علىَّ وقالت : أستاذى هاشم ورب الكعبة ، فقال الوليد : أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين ، وكشفت عن وجهى ، وأقمت معه بقية يومنا ، فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقالت الجارية : يا أمير المؤمنين أتأذن لى فى بر أستاذى ؟ فقال الوليد : ذلك إليك ، فحلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعته فى عنقى ، وقالت: هو لك ، ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه ، فركب فى السفينة وطلعت معه إحدى الجاريتين ، وأتبعتها صاحبتى، فأرادت أن ترفع رجلها ، وتطلع السفينة فسقطت فى الماء ، فغرقت لوقتها ، وطلبت، فلم يقدر عليها ، فاشتد جزع الوليد عليها ، وبكى بكاء شديدًا ، وبكيت أنا عليها أيضًا بكاء شديدًا ، فقال لى: يا هاشم ما نرجع عليك مما وهبناه لك، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به ، فبعنى إياه ، فعوضنى عنه ثلاثين ألف درهم ، فلما وهبتنى العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته ، وهذا سبب بكائى ، فقال الرشيد : لا تعجب ، فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم . وقال على بن سليمان النوفلى : غنى دحمان (١) الأشقر عند الرشيد يومًا فأنشده :

إذا نحن أدلجنا (٢) وأنت أَمَامنَا   كفى لمطايانا برؤياكَ هَادِيَا
ذَكَرْتُكِ بالديزين يومًا فأشْرَفَتْ   بناتُ الهوى حتى بلغْنَ التراقيا
إذا ما طواكِ الدهرُ يا أمَّ مالكِ   فَشأنُ المنايا القاضيات وشانيا

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو . توفى سنة (١٦٥هـ) .   (٢) أدلجنا : سرنا الليل كله .

قال: فطرب الرشيد طربًا شديدًا واستعاده منه مرات ، ثم قال له : تمنّ عليَّ . قال : أتمنى الهنىء والمرىء وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار فى كل سنة ، فأمر له بهما ، فقيل له: يا أمير المؤمنين إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما ، فقال الرشيد: لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت ، ولكن احتالوا فى شرائهما منه ، فساموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار ، فرضى بذلك ، فقال الرشيد : ادفعوها له ، فقالوا : يا أمير المؤمنين فى إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن ، ولكن نقطعها له ، فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها .

ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلى قال : كان الواثق [(١)] بن المعتصم أعلم الناس بالغناء ، وكان يضع الألحان العجيبة ويغنى بها شعره ، وشعر غيره ، فقال له يومًا : يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر فى كل شىء ، فغنى شعرا أرتاح إليه ، وأطرب عليه يومى هذا ، قال إسحاق : فغنيته هذه الأبيات :

ما كنتُ أعلمُ ما فى البَيْن من حُرَقٍ حتى تَنَادَوْا بأنْ قد جِيءَ بالسُفُنِ
قامت تودّعُنِى والدمعُ يغلبُها فهمهمتْ بعض ما قالتْ ولم تبن
مالتْ إلىَّ وضمّتْنِى لِتَرْشُفَنى كما يميلُ نَسِيمُ الريح بالغُصْنِ
وأعْرَضَتْ ثم قَالَتْ وهى باكيةُ يا لَيْتَ مَعْرِفتِى إياكَ لم تَكُنِ

قال : فخلع علىَّ خلعة كانت عليه وأمر لى بمائة ألف درهم .

وقال وغنيته يومًا :

قِفِى ودِّعينا يا سعادُ بنظرةٍ فقد حان منا يا سعادُ رحيلُ
فيا جنّةَ الدنيا ويا غاية المنى ويا سُؤْلَ نفسى هل إليك سَبيلُ؟
وكنتُ إذا ما جِئْتُ جِئْتُ لِعلَّة فَأَفْنَيتُ عِلاَّتى فكيف أقُولُ؟
فما كُلُّ يومٍ لى بأرضك حاجةٌ ولا كُلُّ يومٍ لى إليك وُصُولُ

فقال :والله لا سمعت يومى غيره وألقى علىَّ خلعة من ثيابه ، وأمر لى بصلة ما أمر لى قبلها بمثلها .

---

(١) تاسع الخلفاء العباسيين (٨٤٢ ـ ٨٤٦م) قال بمذهب المعتزلة . على أيامه تسلط الأتراك على جيوش الخلافة . وغزا العرب جزيرة صقلية .

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم :

ما حكى عن إبراهيم بن المهدى قال : قال جعفر ابن يحيى يومًا لبعض ندمائه : إنى قد استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غدًا ، فهل من مساعدة ؟ فقلت جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمشاهدتك ، فقال : بكر بكور الغراب ، قال : فأتيته عند الفجر ، فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرنى فى الميعاد ، فما زلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام وأطيبه ، فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم خلعت علينا ثياب المنادمة ، وضمخنا بالخلوق (١) وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدت الستائر وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم ثم إنه داخله الطرب ، فدعا بالحاجب وقال له : إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ولو كان عبد الملك بن صالح (٢)بنفسه ، فاتفق بالأمر المقدر أن عمّ الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا فى ذلك الوقت وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعه ، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه ، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه ، فلما قدم ودخل به الحاجب علينا فلما رأيناه رمينا ما فى أيدينا وقمنا إجلالاً له نقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا ، وزاد بنا الحياء ، فقال : لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه ، ثم صاح بغلام ، فدفع له ثيابه ، ثم أقبل علينا وقال : اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال : فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم وقدمت إليه موائد الطعام والشراب ، فطعم وشرب الشراب لساعته ، ثم قال : خففوا عنى فإنه شيء ما فعلته والله قط . قال : فتهلل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك ، فقال له : جعلت فداءك قد علوت علينا وتفضلت ، فهل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت ؟ قال: بلى إن فى قلب أمير المؤمنين بعض تغير علىَّ ، فتسأله الرضا عنى، فقال جعفر : قد رضى عنك أمير المؤمنين قال: وعلىَّ عشرة آلاف دينار ، فقال جعفر: هى حاضرة لك من مالى ولك من مال أمير المؤمنين مثلها ، قال : أريد أن أشد ظهر ابنى إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين قال : قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال : وأحب أن تخفق الألوية على رأسه قال : وقد ولاّه أمير المؤمنين مصر، فانصرف عبد الملك بن صالح وبقيت متعجبًا من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان ، وقلت : عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا إلا المصاهرة . قال : فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم ، فدخل جعفر فلم يلبث أن دُعِىَ بأبى يوسف القاضى ثم بإبراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر الرايات والألوية تخفق على

(١)ضمخه بالخلوق : لطخه بالخلوق ـ نوع من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

(٢)عبد الملك العباسى بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس . (ابن عم الخليفتين : السفاح ، والمنصور) أمير . حكم المدينة ومصر والشام والعراق . توفى سنة (١٩٦هـ ـ ٨١١م) .

رأسه ، وخرج كل من فى القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح ، قال : ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر ، وقال : أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح وأحببتم سماع ذلك ، قلنا : هو كما ظننت قال : لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال : كيف كان يومك يا جعفر بالأمس ؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح فكان متكئًا فاستوى جالسًا، وقال : لله أبوك ما سألك ؟ قلت : سألنى رضاك عنه يا أمير المؤمنين ، قال بم أجبته ؟ قلت: قد رضى عنك أمير المؤمنين ، قال : قد رضيت عنه ، ثم ماذا قلت ؟ ، وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار ، قال : فبم أجبته ؟ قلت : قد قضاها عنك أمير المؤمنين ، قال : وقد قضيتها عنه ، ثم ماذا ؟ قلت : ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه . قال : فبم أجبته ؟ قلت : قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية ، قال : قد أجبته إلى ذلك ، ثم ماذا ؟ قلت قال : أحب أن تخفق الألوية على رأسه ، قال : فبم أجبته ؟ قلت : قد ولاه أمير المؤمنين مصر ، قال : وقد وليته إياها، ثم نجز له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم بن المهدى : فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلاً ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط أم إقدام جعفر على الرشيد أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر ، فهكذا تكون مكارم الأخلاق .

وحكى: أبو العباس عن عمر الرازى قال : أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير فى جمد من الأرض ، فسمعت غناء لم أسمع مثله ، فقلت : والله لأتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود، فقلت له : أعد علىَّ ما سمعت فقال : والله لو كان عندى قرىً[1] أُقْرِيكَهُ لفعلت ، ولكنى أجعله قراك ، فإنى والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط، أو عطشان فأروى ، ثم اندفع يغنى ويقول :

وكنتُ إذا ما جئتُ سُعْدى أزُورُها ... أرى الأرضَ تُطوى لىَ وَيَدْنُوَ بعيدُها
من الخفرات البيض[2] ودَّ جَلِيسُها ... إذا ما انقضتْ أحْدُوثةٌ لو تَعيدُها

قال عمر : فحفظته منه ، ثم تغنيت به على الحالات التى وصفها إلىَّ فإذا هى كما ذكر .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) القِرَى : الضيافة والكرم .

(٢) الخَفر : الحياة . وهو حمرة تظهر فى وجه الفتاة البيضاء البشرة ـ وتسمى حمرة الخجل .

الباب السبعون

في ذكر القينات والأغاني

حكى على بن الجهم قال : لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد الله ابن طاهر من خراسان جارية يقال لها : محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت فى الجمال والأدب وأجادت قول الشعر ، وحذاقة الغناء ، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة ، ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء، فهجرها، قال على بن الجهم[1]: فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظنى ، فقال : يا على . قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : قد رأيت الليلة فى منامى كأنى رضيت على محبوبة وصالحتها ، فقلت : خيراً رأيت يا أمير المؤمنين ، أقر الله عينك إنما هى جاريتك والرضا والجفاء بيدك ، فوالله إنا لفى حديثها إذ جاءت وصيفة ؛ فقالت : يا أمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة . فقال: قم بنا يا على ننظر ما تصنع؟ ، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هى تضرب بالعود وتقول:

أَدُورُ فى القصر لا أرى أحدًا ... أشكو إليه ولا يُكَلِّمُنى
كَأَنِّى قد أَتَيْتُ مَعْصِيَةً ... ليس لها توبةٌ تُخَلِّصُنِى
فهل شفيعٌ لنا إلى ملكٍ ... قد زارنى فى الكَرَى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح لاح لنا ... عاد إلى هَجْرِهِ وَصَارِمَنِى[2]

قال : فصاح أمير المؤمنين ، فلما سمعته تلقته ، وأكبت على رجليه تقبلهما ، فقال : ما هذا؟ قلت : يا مولاى رأيت فى منامى هذه الليلة كأنك قد رضيت عنى ، فأنشدت ما سمعت، قال : وأنا والله رأيت مثل ذلك ، ثم قال : يا على هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق ؟ ، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان .

قيل : وكان أمير المؤمنين الواثق إذا شرب رقد فى موضعه الذى شرب فيه ومن كان معه من ندمائه وشرب ؛ رقد ولم يخرج ، فشرب يومًا وخرج من كان عنده إلا مغنيًا واحدًا أظهر

---

(١) على بن الجهم بن بدر ، أبو الحسن . من بنى سامة . من لؤى بن غالب (. . . ـ ٢٤٩هـ ـ . . . ـ ٨٦٣م) شاعر ، رقيق الشعر أديب من أهل بغداد .

(٢) صارمنى : فارقنى وقاطعنى .

التراقد فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة ، فلما خلا المجلس كتب المغنى رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها :

إِنِّى رأيتُكِ فى المنامِ ضَجِيعَتِى ... مسترشفًا من ريق فيك البارد[١]
وكأنَّ كَفَّكِ فى يدى وكأنَّنا ... بتنا جَميعًا فى لحافٍ واحد
ثم انتبهتُ ومِنكَباكِ كِلاهُما ... فى رَاحَتَىَّ وَتَحْتَ خدّكِ ساعِدِى[٢]
فَقَطَعتُ يومى كلّه متراقدًا ... لأراك فى نومى ولست براقدِ

فكتبت إليه على ظهرها تقول :

خيرًا رأيتَ وَكُلُّ ما أمّلتهُ ... سَتَنَالُهُ مِنِّى برُغْمِ الحاسد
وتَبِيتُ بَيْنَ خلاخلى ودمالجى ... وتَحُلُّ بَيْنَ مَرَاشِفِى وَنَواهِدِى[٣]
ونكونُ أنعمَ عاشِقَيْنِ تَعَاطيا ... مُلَحَ الحديثِ بِلا مَخَافةِ راصِدِ

فلما مدت يدها لترمى إليه بالرقعة رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها وقال : ما هذا ؟ فحلفا له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام ولا كتاب ولا رسول إلا أن العشق قد خامرهما قال: فأعتقها من وقتها وزوجها به ، وقال : خذها ولا تقربنا بعد اليوم . وكان لأسماء بنت المهدى جارية يقال لها كاعب وكانت بكرًا ناهدًا بنت ثلاث عشرة سنة قال : فتلاعب عليها أبو نواس، فتمنعت فوقع فى قلبه منها ما وقع وأحبته هى أيضًا ، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت ، فظفر بها ليلة من الليالى فى ناحية من القصر ، فأمسكها ، فبكت وقالت له: يا سيدى الموت دون ذلك ، فقال أبو نواس : هذا جزع الأبكار ، فاتفق أنه خرج يومًا من القصر وقد ترقرق الدجا[٤] فوجدها نائمة فى سدلة ، وهى سكرى لا تفيق ، فقرب منها وحل سراويلها ووقع عليها فإذا هى خالية من البكارة ، فارتاع وظن أن يكون أتاها دم، فلم يجد ، فقام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول :

وَنَاهَدَةِ الثَّديَيْنِ مِنْ خدم القصر ... مرقوقةُ الخدّين ليليّةُ الشعر
كَلَفْتُ بِهَا دهرًا على حُسنِ وَجْهَهَا ... طويلاً وما حُبُّ الكواعب مِنْ أَمرى
فما زِلْتُ بالأشعارِ حتى خَدَعتُها ... وَرَوَّضْتُها والشِّعْرُ من خدَعِ السحر
أَطْلُبُها شيئًا فقالتْ بِعَبْرةِ ... أَموتُ وَلاَ هَذَا وَدَمْعَتُهَا تَجْرِى

(١) ضجيعتي : راقدة « نائمة معى فى فراش واحد » . مسترشفا : ممتصًا ريقك .
(٢) منكباك : مجتمع رأس الكتف والعضد.
(٣) الدمالج : سوار يحاط بالعضد .
(٤) الدجا : دجا الليل عمت ظلمته .

فلما تعارضنا (٢) توسّطت لُجةً غَرِقْتُ بها يا قومُ فى لُجَجِ البحرِ
فَصِحْتُ أغِثْنِى يا غلامُ فجاءنى • وقد زَلَقَتْ رِجْلِى وصِرْتُ إلى الصدرِ
ولولا صياحى بالغلام وإنَّه تَداركنى بالحبل صِرْتُ إلى القعرِ
فأقْسَمْتُ عُمْرِى لا ركبت سَفِيَنةً ولا سِرْتُ طول الدهرِ إلا على ظهرِ

ومن ذلك ما حدث الشيبانى قال : كان عند رجل بالعراق قيْنة ، وكان أبو نواس يختلف إليها ، وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شابًا يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات :

وَمُظْهِرةٍ لِخَلْقِ الله ودًا وتلقى بالتحية والسّلام
أتيتُ لِبابِها أشكو إليها فلم أخلصْ إليه من الزّحامِ
فَيَا مَنْ ليس يكفيها خليلٌ ولا ألفا خليلٍ كلَّ عامِ
أراكِ بقيةً من قوم موسى فهم لا يَصْبِرون على طعام

وقال أبو سويد : حدثنى أبو زيد الأسدى قال : دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس فى إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر فى وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها ، وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الزياح على الأشجار فتمايلت ، فقلت: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وكان مطرقًا ، فرفع رأسه ، وقال : أبا زيد فى مثل هذا الحين تصاحبنا، فقلت : أصلح الله الأمير أو قامت القيامة ؟ قال : نعم على أهل المحبة ، ثم أطرق مليًا ورفع رأسه وقال : أبا زيد ما يطيب فى يومنا هذا ؟ قلت : أصلح الله الأمير قهوة حمراء فى زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة لفاء أشربها من كفها وأمسح فمى بخدها ، فأطرق سليمان مليًا لا يرد جوابًا تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق ، فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه ، ثم رفع رأسه ، فقال : أبا زيد حضرت فى يوم فيه انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك والله لأضربن عنقك أو لتخبرنى ما أثار هذه الصفة من قلبك . قلت : نعم أصلح الله الأمير كنت جالسًا عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر

(١) التقينا وتقابلنا على الفراش .

كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب اسكندرانى يبين منه بياض بدنها وتدوير سرتها ونقش تكتها ، وفى رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بذؤابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها ، وعينان مملوءتان سحرًا ، وأنف كأنه قصبة بلور ، وفم كأنه جرح يقطر دمًا وهى تقول: عباد الله من لى بدواء ما لا يشتكى وعلاج مالا يسمى طال الحجاب وأبطأ الجواب ، والقلب طائر ، والعقل عازب والنفس والهة، والفؤاد محتبس، رحمة الله على قوم عاشوا تجلدًا ، وماتوا كمدًا، ولو كان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمرًا جميلاً ، ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها ، فقلت لها : أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية ، سماوية أنت أم أرضية ؟ فقد أعجبنى ذكاء عقلك وأذهلنى حسن منطقك ، فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترنى ، ثم قالت: اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد ، والمقاساة لصب معاند ، ثم انصرفت ، فوالله ما أكلت طعامًا طيبًا إلا غصصت به لذكرها ، ولا رأيت حسنًا إلا سمج فى عينى لحسنها . فقال سليمان: أبا زيد كاد الجهل يستفزنى ، والصبا يعاودنى ، والحلم يعزب عنى لشجو ما سمعت . اعلم يا أبا زيد أن تلك التى رأيتها هى الذلفاء التى قيل فيها :

إنّما الذلفاءُ يَاقُوتَةٌ أُخرِجَتْ مِنْ كِيسِ دِهْقانِ (١)

شراؤها على أخى ألف ألف درهم ، وهى عاشقة لمن باعها والله إن مات ما يموت إلا بحبها ولا يدخل القبر إلا بغصتها ، وفى الصبر سلوة وفى توقع الموت نهية ، قم أبا زيد فى دعة الله تعالى ، ثم قال : يا غلام نقله ببدرة ، فأخذتها وانصرفت ، قال : فلما أفضت الخلافة إليه صارت « الذلفاء» إليه ، فأمر بفسطاط ، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب فى روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغن يقال له : سنان ، به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه ، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان فى أكمل سرور ، وأتم حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه ، فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له : نريد قِرًا أصلحك الله ، قال : وما قراكم ؟ قالوا : أكل وشرب وسماع ، قال: أما الأكل والشراب فمباحان لكم ، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلا ما كان فى مجلسه ، قالوا : لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم

---

(١) الدهقان : رئيس المدينة أو الإقليم . وأيضًا : مَنْ له مالٌ وعقار .

تسمعنا . قال : فاختاروا صوتًا واحدًا أغنيكموه . قالوا : غننا صوت كذا ، فرفع صوته يغنى بهذه الأبيات :

محجوبَةٌ سمعتْ صَوتى فأرَّقها ... مِنْ آخر الليل لما نبّه السحرُ
فى ليلة البدر ما يَدرى مُضاجعُها ... أوجهُهَا عنده أبهى أم القمرُ؟
لم يَحْجب الصوتَ أحراسٌ ولا غُلَقٌ ... فَدَمْعُها لِطُروق الصوت مُنحدرُ
لو مكَنتْ لمشتْ نَحْوِى على قدمٍ ... تكاد من لينها فى المشى تَنفطِرُ

قال : فسمعت الذلفاء صوت سنان ، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع ، فجعلت لا تسمع شيئًا من حسن خلق ولطافة قط إلا رأيت ذلك كله فى نفسها وهيئتها ، فحرك ذلك ساكنًا من قلبها ، فهملت عيناها ، وعلا نحيبها ، فانتبه سليمان فلم يجدها معه ، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال ، فقالَ : ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت :

ألاَ رُبَّ صوتٍ رائعٍ من مشوّهٍ ... قبيحِ المُحَيَّا واضع (١) الأبِ والجدِ
يَرُوعُكَ منه صَوْتُه ولَعَلَّه ... إلى أمةٍ يُعزى معًا وإلى عبدِ

فقال سليمان : دعينى من هذا ، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر ، ثم قال : يا غلام علىَّ بسنان ، فدعت «الذلفاء» خادمًا لها ، فقالت له : إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان، فحذرته ، فلك عشرة آلاف درهم ، وأنت حر لوجه الله تعالى ، فخرج الرسولان ، فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان ، فلما أتى به قال : يا سنان : ألم أنهك عن مثل هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين حملنى على ذلك حلمك ، وأنا عبد أمير المؤمنين ، وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده ، فليفعل ، قال : قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل وَدقَتْ له الحجرة ، وأن الفحل إذا هدر ضبعت (٢) له الناقة ، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة ، وإياك إياك والعود إلى ما كان منك ، فيطول غمك .

وحكى : أن الرشيد فُصِدَ (٣) يومًا فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحًا فيه شراب مع وصيفة لها حسنة الوجه جميلة الطلعة بديعة المحيا ، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات :

فَصَدْتَ عِرقًا تَبْتَغى صِحّةَ ... ألبسكَ الله به العافيه

---

(١)واضع : وضاعة الأصل وحقارته .
(٢)ضبعت : أرادت الفحل ، واشتدت شهوتها .
(٣)الفصد : فصد المريض أخرج مقدارًا من دم وريده بآلة مشحذة بقصد العلاج .

فاشربْ بهذا الكأس يا سيدى ‏ ‏ واهنأ به من كَفِّ ذى الجاريه
واجعل لِمَنْ أنفذه خَلْوَةً ‏ ‏ تحظى بها فى الليلة الآتِيَهْ

قال : فنظر الرشيد إلى الوصيفة التى جاءت بالقدح فاستحسنها ، فافتضها ، ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك ، فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات :

بعثتُ الرسولَ فَأَبْطأ قليلاً ‏ ‏ على الرغم منىَّ فصبرًا جميلاً
وكنت الخليلَ وكان الرسولُ ‏ ‏ فَصَرتَ الرسولَ وصار الخليلاَ
كذا مِنْ يُوجّه فى حاجةٍ ‏ ‏ إلى من يحِبُّ رسولا جميلاَ

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها : أنا عندك الليلة . وأهدى داود بن روح المهلبى إلى المهدى جارية، فحظيت عنده ، فواعدته المبيت عنده ليلة ، فمنعها الحيض ، فكتب إليها يقول :

لاَهْجُرَنْ حبيبًا خَانَ مَوعِدَه ‏ ‏ وكان منه لِصَفْو العيش تكديرُ

فأرسلت إليه تجيبه :

لا تَهْجُرَنْ حبيبًا خان مَوْعِدَه ‏ ‏ ولا تَذُمَّنْ وعدًا فيه تأخيرٌ
ما كان حَبْسِى إلا من حُدوثِ أذىً ‏ ‏ لا يُستطاع له بالقول تفسيرُ

وقال محمد بن مروان يصف جارية له :

أَمْسَتْ تُباع ولو تباعُ بوزنها ‏ ‏ درًا بكى أسفًا عليها البائع

وكان للمأمون جويرية من أحسن الناس ، وأسبقهم إلى كل نادرة فحظيت عنده ، فحسدها الجوارى وقلن : لا حسب لها ، فنقشت على خاتمها حَسَبِى حُسْنى ، فازداد بها المأمون عجبًا ، فسمتها الجوارى ، فماتت ، فجزع عليها المأمون جزعًا شديدًا وقال :

اختُلِسَتْ رَيْحانَتِى مِنْ يَدِى ‏ ‏ أبكى عليها آخر الأبدَ
كانت هى الأنسُ إذا استَوْحَشَتْ ‏ ‏ نفسى من الأقرب والأبعد
وروضةً كان بها مَرْتَعى ‏ ‏ ومَنْهَلاً كان بها مَوْرِدى
كانتْ يدى كان بها قُوَّتى ‏ ‏ فاختلسَ الدهرُ يَدِى من يَدِى

وللمتوكل فى قينة :

أمازِحُهَا فتغضبُ ثم تَرْضى فكلُّ فِعَالها حَسَنٌ جميلٌ
فإنْ غضِبتْ فأحسنُ ذى دلالٍ وإن رضِيتْ فليس لها عديلُ(١)

وحدث أبو عبد الله بن عبد البر قال : حدثنى إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدى قال: كان فى المدينة رجل من بنى هاشم وكان له قينتان يقال لإحداهما: رشا وللأخرى : جؤذر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين ، فأرسل الهاشمى إليه ذات يوم ليسخر به ، فلما أتاه قال له: أصلحك الله إنك لفى لذتك ولا لذة لى قال : وما لذتك؟ قال : تحضر لى نبيذًا ، فإنه لا يطيب لى عيش إلا به ، فأمر الهاشمى بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر ، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمى وغمز جاريتيه عليه ، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز قال فى نفسه : ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض ، فقال لهما : يا حبيبتى أين المرحاض ؟ فقالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول سيدنا ؟ قالت : يقول غنيانى :

رحضْتَ (٢) فُؤَادِى فَخَلَّيْتنِى أهيمُ من الحب فى كل وادى

فاندفعتا تغنيانه : فقال فى نفسه : والله ما أظنهما فهمتا عنى ، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها : المخارج، فقال : يا حبيبتى أين المخرج ؟ فقالت : إحداهما لصاحبتها : ما يقول سيدنا ؟ قالت يقول : غنيانى :

خرجتُ لها من بطنِ مكّةَ بعدما أقامَ المنادى بالعشى فأعتما

فاندفعتا تغنيانه : فقال فى نفسه لم يفهما عنى ، وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسموها المذاهب ، فقال : يا حبيبتى أين المذاهب ؟ فقالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول حبيبنا؟ قالت: يقول غنيانى :

ذَهَبَت من الهجران فى كُلِّ مَذْهبِ ولم يكُ حقًا كُلّ هذا التجنبِ(٣)

فغنتاه الصوت ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لم يفهما عنى ، وما أظن القحبتين إلا مدنيتين، وأهل المدينة يسمونها : بيت الخلاء ، فقال: يا حبيبتى أين بيت الخلاء؟

(١) العديل : المثل . (٢) الرحض : أصابته الحمى .
(٣) البيت : لعلقمة الفحل . ت ٢٠ ق . هـ .

فقالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول سيدنا ؟ قالت : يقول غنيانى :

خَلاَ علَىَّ بقاع الأرض إذْ ظَنُّوا　　　مِنْ بطنِ مكَّةَ واستَرعَائِى الْحزُنُ

قال فغنتاه ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين ، وأهل البصرة يسمونها الحشوش ، فقال: يا حبيبتى أين الحشوش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول سيدنا؟ قالت : يقول غنيانى :

أَوْحَشُونِى وَعَزَّ صَبْرِى فِيهِمُ　　　ما احْتِيَالى وما يكونُ فِعالى

قال: فاندفعتا تغنيانه فقال : ما أراهما إلا كوفيتين ، وأهل الكوفة يسمونها : الكنف ، فقال لهما : يا حبيبتى أي الكنف؟ فقالت إحداهما لصاحبتها : يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحًا من هذا الرجل . قالت : ما يقول ؟ قالت : يسأل أن نغنى له :

تكَنَّفَنِى الْهَوَى طِفْلاً فَشَيَّبَنِى وَمَا اكْتَهَلا

فقال : وا ويلاه ، وا عظم مصيبتاه ، هذا والهاشمى يتقطع ضحكًا فقال لهما : يا زانيتان إن لم تعلمانى به أنا أعلمكما ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش ، فانتبه الهاشمى وقد غشى عليه من شدة الضحك ، وقال : ويلك ما هذا ؟ تسلح على وطائى فقال الرجل : حياة نفسى أعز علىَّ من وطائك ، وقيل : إنه لما قيل له : ويلك ما هذا ؟ قال المضحك هذه الأبيات:

تكَنَّفَنِى الملاحُ وأَضْجَرُونِى　　　على ما بى بُنَيّاتُ الزوانى
فلَما قلّ عن ذاك اصْطِبارِى　　　قذفت به على وَجْهِ الغَوَانِىَ

قال : فانبسط الهاشمى ودفع إليه مالا ومضى إلى سبيله .

قال على بن الجهم قلت لقينة :

هَلْ تَعْلَمِين وراء الحبِّ مَنْزِلَةً　　　تدنى إليك فَإِنَّ الْحُبَّ أَقْصَانِي؟

قالت : تأتى من باب الذهب وأنشدت :

اجعلْ شَفِيعَكَ مَنقُوشًا تُقدّمُهُ　　　فلم يزل مدينًا من ليس بالدّانى

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة ، فجلس عندها يومًا يطارحها الغناء فلما أراد الخروج قال لها : ناولينى خاتمك أذكرك به . قالت : إنه من ذهب ، وأخاف أن تذهب ، ولكن خذ هذا

العود ، فلعلك أن تعود ، وناولته عودًا من الأرض ؛ وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانب ، ثم أصابتها علة فتغير حالها ، فكانت تنشد :

ولى كبد مقروحة مَنْ يبيعنى بها كبدًا ليست بذات قروح
أباها علىَّ الناس لا يشترونها ومن يشترى ذا علةٍ بصحيحِ

وكان المعتصم يحب قينة من حظاياه فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها فى بعض الطريق، فاشتاق إليها ، فغلبه الوجد ، فدعا مغنيًا له وقال : ويحك قد ذكرت جاريتى فلانة بنت فلان ، فأقلقنى الشوق إليها فعسى أن تغنينى شيئًا فى معنى ما ذكرته لك ، فأطرق مليًا ثم غناه :

وَدَدْتُ من الشوق المبرِّح أنّنى أُعَارُ جَنَاحَىْ طائرٍ فأطِرُ
فَمَا لنعيم ليس فيه بشاشة وما لسرور ليس فيه سرورُ
وإِنّ امرؤٌ فى بلدةٍ نصفُ قَلْبِه ونِصْفُ بأخرى غيرها لَصَبورٌ

والحكايات فى معنى ذلك كثيرة ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات ، ولكن ما قلَّ وجل خير من كثير يمل، وفيما ذكرته كفاية ، والله المسؤول أن يمدنى منه باللطف والعناية ونسأله التوفيق والهداية ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الحادي والسبعون

في ذكر العشق ومن بلى به ، والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق وما فى معنى . ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى وصف العشق

قال الجاحظ : العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود ، وقال أعرابى : العشق خفى أن يرى وجلى أن يخفى فهو كامن ككمون النار فى الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى ، وقيل : أول العشق النظر وأول الحريق الشرر ، وكان العاشق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته ، والمرأة تشق رداء حبيبها ويقولان إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما ، وقال عبد بنى الحسحاس (١) :

وكم قد شققنا من رداءٍ محبّرٍ ... ومن بُرْقُعٍ عن طفلة غير عانس(٢)
إذا شُقّ بردٌ شُقّ بالبرد برقعٌ ... مِنْ الحبٌ حتى كُلّنا غير لابسِ

وقيل لأعرابى :ما بلغ من حبك لفلانة ؟ قال : إنى لأذكرها وبينى وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك وقيل : رأى شبيب أخو بثينة جميلاً عندها ، فوثب عليه وآذاه ، ثم إن شبيبًا أتى مكة وجميل فيها ، فقيل لجميل : دونك شبيبًا ، فخذ بثأرك منه فقال :

وقالوا يا جميلُ أَتَى أخوها ... فَقلتُ : أتى الحبيبُ أخو الحبيبِ

وأنشد الأخفش الحداد يقول :

مطَارِقٌ الشوقِ منها فى الحشى أثرٌ ... يطرقْنَ سندان قلبٍ حَشْوه الفِكرُ
ونارُ كُورِ الهوى فى الجسم مُوقدةٌ ... ومِبْردُ الحُبٌ لا يبقى ولا يذرُ (٣)

وفى « الجليس الأنيس » لأبى العالية الشامى قال : سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم (٤) عن العشق ما هو ؟ فقال : هو سوانح تسنح للمرء ، فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه ،

(١)سحيم ؛ عبد بنى الحسحاس (. . .ـ نحو ٤٠هـ = . . .نحو ٦٦٠م) شاعر ، رقيق الشعر . كان عبدًا نوبيًا أعجمى الأصل اشتراه بنى الحساس (وهم بطن من بنى أسد) فنشأ فيهم .

(٢)محبر : به وشى وأصباغ ألوان . طفلة : صغيرة السن . عانس : التى فاتها سن الزواج ولم تتزوج .

(٣)الكور : منفاخ من جلد يستخدمه الحداد يؤجج به النار . لا يذر : لا يبقى على شيء .

(٤)التميمى الأسيدى المروزى ، أبو محمد (١٥٩ ـ ٢٤٢هـ = ٧٧٥ ـ ٨٥٧ م) قاض . رفيع القدر . عالى الشهرة . من نبلاء الفقهاء . يتصل نسبه بأكثم صيفي حكيم العرب .

وقال ثمامة (١) : العشق جليس ممتع ، وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه ضيقة ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأعطى عنان طاعتها وقوة تصريفها ؛ توارى عن الأبصار مدخله ، وخفى فى القلوب مسلكه ، وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال لسليمان بن عمرو ومن معه : أنتم أدباء ، وقد سمعتم الحكمة ولكم حداء ونغم ، فهل فيكم عاشق ؟ قالوا : لا. قال : اعشقوا ، فإن العشق يطلق اللسان ، ويفتح جبلة البليد ، والبخيل ، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس وتطييب المطعم ، ويدعو إلى الحركة والذكاء ، وتشريف الهمة وقال المجنون (٢) :

قالتْ: جُنِنت على ذكرى فقلت لها ... الحبُّ أعظم مما بالمجانين
الحبُّ ليس يفيق الدهرَ صاحبُهُ ... وإنّما يُصْرعُ المجنونُ فى الحينِ

قال ذو الرياستين (٣) : إن بهرام جور كان له ابن وكان قد رشحه للأمر من بعده ، فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة خامل النفس مسىء الأدب ، فغمه ذلك ، فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه ، فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يومًا ، فقال له المؤدب : قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء فى فلاحه ، قال : وما ذاك الذى حدث ؟ قال : رأى ابنة فلان المرزبان، فعشقها ، فغلبت عليه فهو لا يهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها ، فقال بهرام : الآن رجوت فلاحه ، ثم دعا بأبى الجارية ، فقال له : إنى مسر إليك سرًا فلا يعدوك ، فضمن له ستره ، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته ، وأنه يريد أن ينكحها إياه ، وأمره أن يأمرها بإطماعه فى نفسها ومراسلته من غير أن يراها ، وتقع عينه عليها ، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره ، فإن استعلمها علمته أنها لا تصلح إلا لملك ، ثم لتعلمنى خبرها وخبره ، ولا تطلعهما على ما أسره إليك ، فقبل أبوها ذلك منه ، ثم قال للمؤدب ، والموكل بأدبه : حضه وشجعه على مراسلة المرأة ، ففعل ذلك ، وفعلت المرأة كما أمرها أبوها ، فلما انتهت إلى التجنى عليه ، وعلم الفتى السبب الذى كرهته لأجله أخذ فى الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية

---

(١) لعله : ثمامة بن أشرس النميرى ، أبو معن من كبار المعتزلة وأحد الفصحاء البلغاء المُقدمين . توفى سنة (٢١٣هـ).

(٢) قيس بن الملوح بن مزاحم العامرى ، مجنون ليلى . شاعر غزل . من المتيمين . من أهل نجد . لم يكن مجنونًا . . وإنما لقب بذلك لهيامه بحب ليلى بنت مهدى بن سعد توفى سنة (٦٨ هـ) .

(٣) سبق أن ترجم له .

وضرب الصولجان حتى مهر فى ذلك ، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء ، وما أشبه ذلك ، فسر الملك بذلك ، وأمر له بما طلب ، ثم دعا مؤدبه ، فقال له : إن الموضع الذى وضع به ابنى نفسه من خبر هذه المرأة لا يدرى به ، فتقدم إليه ، وأمره أن يدفع أمرها إلىّ ويسألنى أن أزوجه إياها ، ففعل المؤدب ذلك ، فرفع الفتى ذلك لأبيه ، فدعا بأبيها وزوجه إياها وأمر بتعجيلها إليه ، وقال : إذا اجتمعت أنت وهى فلا تحدث شيئًا حتى أصير إليك ، فلما اجتمعا صار إليه، فقال : يا بنى لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك ، وليست فى خبائك فإنى أمرتها بذلك وهى أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذى تصلح معه للملك من بعدى فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك ، ففعل الفتى وعاش مسرورًا بالجارية ، وعاش أبوه مسرورًا به وأحسن ثواب أبيها ، ورفع منزلته لصيانة سره ، وأحسن جائزة المؤدب لامتثال ما أمره به .

وكان عبد الله بن عبيدة الريحانى يهوى جارية ، فزارته يومًا ، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق ، فحان وقت الظهر ، فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن ، فقال : رويدك حتى تزول الشمس أى حتى تقوم الجارية ، وقالت ليلى العامرية فى قيسها :

لم يكن المجْنُونُ فى حالةٍ ... إلا وقد كُنْتَ كَمَا كَانَا
لَكنَّه بَاحَ بِسرٍّ الهوىَ ... وإنَّنى قد ذُبْتُ كتمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب :

إنِّى لَيُرْضِينِى المرءُ ببابها ... وَأَقْنَعُ منها بالشَّتِيمَةِ والزجْرِ

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل :

أَيُّها العاشقُ المعذبُ صبْرًا ... فخطايا أخى الهوى مَغْفُورَه
زَفْرة فى الهوى أحطّ لذنبٍ ... مِنْ غزاةٍ وحِجّةٍ مَبْرُورَهْ

وقال عمر بن أبى ربيعة : كنت بين امرأتين هذه تساررنى وهذه تعضنى فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه ، وأنشد شيبان العذرى يقول :

لو حُزَّ بالسيف رَأْسِى فى محبتها ... لَطَارَ يَهْوِى سَرِيعًا نَحْوها رَأْسِى

وقال يحيى بن معاذ الرازى: لو أمرنى الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذابا.

الفصل الثانى من هذا الباب
فيمن عشق وعف ، والافتخار بالعفاف

روى عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ: « من عشق فعف، فمات ، فهو شهيد»(١) ، وقال ﷺ : « عفوا تعف نساؤكم » (٢). وقال بعضهم : رأيت امرأة مستقبلة البيت فى غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو ، فقلت لها : هل من حاجة ؟ فقالت : حاجتى أن تنادى فى الموقف بقولى :

تزوَّدَ كُلُّ الناسِ زادًا يَقِيهِمُ ... وَمَا لِيَ زَادُ والسلامُ على نَفْسِي

فناديت كما أمرتنى ، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إلىَّ ، فقال : أنا الزاد ، فمضيت به إليها ، فما زاد على النظر والبكاء ، ثم قالت : له انصرف بسلام ، فقلت : ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا ، فقالت : أمسك يا هذا . أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد ؟ قال إبراهيم بن محمد المهلبى :

كما قد ظفرتْ بِمَنْ أهوى فَيَمْنَعُنى ... منه الحياءُ وخوفُ الله والحذرُ
وكم خلوتُ بِمَنْ أهوى فَيُقْنِعُنى ... منه الفكاهةُ والتأنيسُ والنظرُ
أهوى الملاحَ وأهوى أَنْ أُجَالِسَهُمْ ... وليس لى فى حَرامٍ منهم وطر
كذلك الحبُّ لا إتيانَ معصيةٍ ... لا خيرَ فى لذّةٍ مِنْ بعدها سَقَرُ

وقال بعض بنى كَلْبٍ :

إِنْ أكُنْ طامِحَ اللحظِ فإنّى ... والذى يملكُ الفؤادَ عفيفُ

ونحو ذلك قول القائل :

فَقَالَتْ : بحق اللهِ لا أَتيتنَا ... إذا كان لونُ الليل شبهَ الطيالسِ(٣)
فَجِئْتُ وما فى القوم يقظان غَيْرَها ... وقد نام عنها كُلُّ واشٍ وحارسِ
فَبِتنا بليلٍ طيّبٍ نَسْتَلِذُّهُ ... جميعًا ولم أقلب لها كفَّ لامس

ونزل رجل على صديق له مستترًا خائفًا من عدو له ، فأنزله فى منزله وتركه فيه ، وسافر

(١) ذكره ملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة فى الأحاديث الموضوعة » ص ٣٣٨ . الحديث ٥٠٨ .
(٢) ذكره ابن الجوزى فى « الموضوعات » (٣ / ١٠٦) ، والضعيفة (٢٠٤٣) .
(٣) الطيالسي : الغبرة إلى السواد .

لبعض حوائجه ، وقال لامرأته : أوصيك بضيفى هذا خيرًا ، فلما عاد بعد شهر قال لها : كيف ضيفنا : قالت : ما أشغله بالعمى عن كل شيء ، وكان الضيف قد أطبق عينيه ، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره ، وكان عمر بن أبى ربيعة عفيفًا يصف ويعف ويحوم ولا يرد . ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان ، فقال لها : يا بثينة ما أرى فيك شيئًا مما كان يقوله جميل ، فقالت : يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلىَّ بعينين ليستا فى رأسك ، قال : فكيف رأيته فى عشقه ؟ قالت : كان كما قال الشاعر :

لا والذى تَسْجدُ الجباه لهُ ... ما لى بما تَحْتَ ذَيْلِها خبرُ
وَلاَ بِفِيها ولا هَمَمْتُ بها ... ما كان إلا الحديثُ والنظرُ

وقد قدمت هذين البيتين فى الجزء الأول ، فيما جاء فى الكتابة على سبيل الرمز . وعن أبى سهل الساعدى قال: دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت ، فقال لى : يا أبا سهل إن رجلاً يلقى الله ولم يسفك دمًا ، ولم يشرب خمرًا ، ولم يأت فاحشة أفترجو له الجنة ؟ قلت: أى والله ، فمن هو ؟ قال : إنى لأرجو أن أكون ذلك ، فذكرت له بثينة ، فقال : إنى لفى آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لا نالتنى شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسى بريبة قط . وعن عبد الله بن عبد المطلب أبى النبى ﷺ أنه دعته بغى إلى نفسها ، وبذلت له مالاً ، وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول الله ﷺ ، وكانت جميلة ، فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبى ﷺ منها للنور الذى رأته بين عينيه ، فأبى وقال :

أمّا الحرامُ فالحِمامُ دونه ... والحِلُّ لا نأبى ونستدينه
فكيف بالأمرِ الذى تَبْغِينَه ... يَحْمِى الكريمَ عَرْضُه وَدِينَه

وقال آخر :

وأحورُ مخضوبُ البنان محجّبٌ ... دعانى فلم أعرفْ إلى ما دعا وَجْها
بَخِلْتُ بنفسى عن مقامٍ يَشِينُها ... ولستْ مُريدًا ذاك طوعًا ولا كرها

وراود شاب ليلى الأخيلية عن نفسها فاشمأزت ، وقالت :

وذى حاجة قُلْنا له لا تَبحْ بها ... فَلَيْس إليها ما حييتُ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا يَنْبِغى أنْ نخونه ... وأنتَ لأِخْرى صاحبٌ وخليلُ

وقال ابن ميادة (١):

مَوانِعُ لا يُعطين حبّةَ خردلٍ — وهنّ دوانٍ فى الحديث أوانسُ
ويكرهْنَ أن يَسْمَعْنَ فى اللهو ريبةً — كما كرهتْ صَوتَ اللجام الشوامِسُ (٢)

وقال آخر :

حُورٌ حرائرُ ما هَمَمْنَ بِريبةٍ — كظباء مكّة صَيْدُهُنّ حرامُ
يُحسبن من لين الكلام فواسقًا — ويصدّهن عن الخنى الإسلامُ (٣)

وكان الأصمعى يستحسن بيتى العباس بن الأحنف (٤):

أتأذنون لصَبٍّ فى زيارتكم — فَعِنْدَكُم شَهواتُ السمع والبصرِ
لا يَظهرُ الشوق إن طال الجلوسُ به — عفٌّ الضمير ولكن فاسقُ النظرِ

واختفى إبراهيم بن المهدى(٥) فى هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبى جعفر ، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك ، وكانت واحدة زمانها فى الحسن والأدب طلبت منها بخمسمائة ألف درهم ، فهويها إبراهيم ، وكره أن يراودها عن نفسها ، فغنى يومًا وهى قائمة على رأسه:

يَا غزَالاً لِى إلَيْه — شافعٌ مِنْ مُقْلَتَيْه
أنا ضَيْفٌ وجزاءُ الـ — ـضَّيْفِ إحسانٌ إلَيْهِ

ففهمت الجارية ما أراد ، فحكت ذلك لمولاتها فقالت : اذهبى إليه ، فأعلميه أنى وهبتك له، فعادت إليه ، فلما رآها أعاد البيتين ، فأكبت عليه ، فقال لها : كفى ، فلست بخائن ، فقالت: قد وهبتنى لك مولاتى وأنا الرسول، فقال : أما الآن فنعم .

وأنشد المبرد (٦) :

---

(١) ابن ميادة : الرماح بن أبرد. توفى سنة (١٤٩ هـ) .
(٢) الشوامس : مفرده الشامس من الخيل الذى يمنع ظهره ولا يكاد يستقر .
(٣) الخنى : الفحش فى الكلام .
(٤) العباسى بن الأحنف بن الأسود الحنفى اليمانى ، أبو الفضل . شاعر . غزل رقيق توفى سنة (١٩٢ هـ) .
(٥) إبراهيم بن المهدى العباسى . عَمّ المأمون وأخو هارون الرشيد . لم تكن له مواهب الحاكم . تعاطى الغناء . والملاهى . وحسن المنادمة . توفى سنة (٢٢٤هـ = ٨٣٨م) .
(٦) المبرد : محمد بن يزيد ، أبو العباس . علم فى بغداد . ممثل لمذهب البصرة باللغة ، وخصمه « ثعلب » ممثل مذهب الكوفة . من أهم مؤلفاته كتاب « الكامل » جمع فيه منتخبات شعرية ونثرية ، وفسر فيه كل كلام غريب . توفى سنة (٢٨٦هـ) .

ما إنْ دعَانِى الهوىَ لفاحشةٍ إلاّ نَهانى الحياءُ والكرمُ
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدى ولا مَشَتْ بى لِزَلّةٍ قَدَمُ

وقال آخر :

يقولون لا تنظـــــر فذاك بَلِيَّةٌ بلى كُلُّ ذى عينين لا بدّ ناظر
وهل باكتحال العين بالعين رِيبَةٌ إذا عَفَّ فيما بَيْنَهُنَّ السرائِرُ

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعرًا ، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة . قال : فبينما هو فى الطواف يومًا إذ نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه ، فقال له : يا هذا اتق الله أفى مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لخنى ، ولكنها ابنة عمى وأعز الناس علىّ وإن أباها منعنى من تزوجها لفقرى وفاقتى ، وطلب منى مائة ناقة ، ومائة أوقية من الذهب ، ولم أقدر على ذلك . قال : فطلب الخليفة أباها ، ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه ، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها ، ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر ، فقالت له جارية من حظاياه : أراك اليوم يا مولاى تنشد الشعر ، أفنسيت ما نذرت أم نراك قد هويت ؟ ، فأنشدها هذه الأبيات يقول :

تقولُ وَلِيدَتِى لَـمَّا رأتْنِى طَرِبْتُ وكُنْت قد أسليت(١)حينا
أراكَ اليوم قد أحدثْتَ عهدًا وأورثَكَ الهوى داءً دفينا
بحقك هل سمعت لها حديثا فشاقَكَ أو رأيتَ لها جَبِينا
فقلتُ شكَا إلىَّ أخٌ محبٌّ كَمِثْلِ زماننا إذ تعْلَمينا
وذُو الشَّجْوِ القديم وإنْ تعزّى مُحِبٌّ حين يلقى العاشقينا

ثم عدّ الأبيات فإذا هى خمسة أبيات ، فأعتق خمس رقاب ، ثم قال : لله درك من خمسة أعتقت خمسة ، وجمعت بين رأسين فيالحلال . وروى عن عثمان الضحاك قال : خرجت أريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة ، فأعجبنى حسنها فتمثلت بقول نصيب(٢):

بزينبَ الْمِمْ قبل أن يَرْحَلَ الرَّكْبُ وَقُلْ لا تَملّينا فما ملك القَلَبُ

---

(١) أسليت : أسلى : أنسيت .

(٢) نصيب بن رباح ، أبو محجن ، مولى عبد العزيز بن مروان . شاعر فحل مقدم فى النسيب والمدائح . شهرته ذائعة . وأخباره مع عبد العزيز ، وسليمان ، والفرزدق وغيرهم معروفة .

فقالت : يا هذا أتعرف قائل هذا البيت ؟ قلت : بلى هو نصيب ، فقالت : أتعرف زينبه؟ قلت : لا . قالت : أنا زينبه . قلت : حياك الله وحباك . قالت : أما والله إن اليوم موعده، وعدنى العام الأول بالاجتماع فى هذا اليوم، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه . قال : فبينما هى تكلمنى إذ أنا براكب قالت : ترى ذلك الراكب ؟ قلت : نعم . قالت : إنى لأحسبه إياه ، فأقبل فإذا هو نصيب ، فنزل قريبًا من الخيمة ، ثم أقبل فسلم ، ثم جلس قريبًا منها ، فسألته أن ينشدها ، فأنشدها . فقلت فى نفسى : محبان قد طال التنائى بينهما ، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ، فقمت إلى بعيرى لأشد عليه ، فقال : على رسلك إنى معك ، فجلست حتى نهض معى فسرنا وتسامرنا، فقال لى : أقلت فى نفسك : محبان التقيا بعد طول تناء فلابد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ؟ . قلت : نعم قد كان ذلك . قال: ورب البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلسًا هو أقرب من مجلسى هذا ، فتعجبت لذلك ، وقلت: والله هذه هى العفة فى المحبة .

وعن محمد بن يحيى المدنى قال : سمعت بعض المدنيين يقول : كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح أن يرى من يراها ، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم هو يشير إليها ، وتشير إليه ويعدها وتعده ، فإن التقيا لم يتشاكيا حبًا ولم يتناشدا شعرًا بل يقوم إليها ، ويجلس بين شعبتيها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة ، وقال الأصمعى قلت لأعرابية : ما تعدون العشق فيكم ؟ قالت : الضمة والغمزة والقبلة ، ثم أنشأت تقول :

ما الحبُّ إلا قُبْلَةٌ وَغَمْزُ كَفٍّ وَعَضُدْ
ما الحبُّ إلا هكذا إِنْ نُكِحَ الحبُّ فَسَدْ

ثم قالت :كيف تعدون أنتم العشق ؟ قُلْتُ : نمسك بقرنيها ونفرق بين رجليها . قالت : لست بعاشق أنت طالب ولد ، ثم أنشأت تقول :

قَدْ فَسَدَ العشْقُ وَهَانَ الهوى وصارَ مَنْ يَعْشَقُ مُسْتَعْجِلا
يُرِيدُ أَنْ يَنْكِحَ احْبَابَهُ مِنْ قَبْلِ أن يُشْهِدَ او يَنْحَلا (١)

وقيل لرجل ، وقد زفت عشيقته على ابن عم لها : أيسرك أن تظفر بها الليلة ؟ قال : نعم

---

(١) يشهد : الشهود الذين يحضرون عقد النكاح . ينحلا : النحلة الصداق والمهر .

والذى أمتعنى بحبها وأشقانى بطلبها . قيل : فما كنت صانعًا بها ؟ قال : كنت أطيع الحب فى لثمها وأعصى الشيطان فى إثمها ، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره، وينشر قبيح أخباره إنى إذن للئيم لم يلدنى كريم .

ومر سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ فى ليلة فى بعض سكك المدينة ، فسمع امرأة تقول :

ألا طَالَ هذا الليل وازورَّ جانبهُ ... وليس إلى جَنبى خليلٌ ألاعِبُه(١)
فوالله لولا الله تُخشى عَواقِبُه ... لحرِّكَ مِنْ هذا السريرِ جَوَانبُه
مَخافةُ ربِّى والحياءُ يَعفُّنى ... وإكرامُ بَعْلِى أن تُنالَ مراتِبُه

قال ، فسأل عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ عنها ، فقيل له : إنها امرأة فلان ، وله فى الغزاة ثمانية أشهر ، فأمر عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر .

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزى فى كتاب « تلقيح فهوم الأثر » عن محمد بن عثمان بن أبى خيثمة السلمى عن أبيه عن جده قال : بينما عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ يطوف ذات ليلة فى سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول :

هَلْ مِنْ سبيلٍ إلى خمرٍ فَأَشْرَبُها ... أم من سبيلٍ إلى نصر بن حجاج؟(٢)
إلى فتى ماجد الأعراق مُقْتَبِلٍ ... سهلِ المُحيَّا كريم غير مِلْجَاجِ (٣)
تنيمه أعراقُ صَدقٍ حين تنسبُهُ ... أخى وفاءٍ عن المكروبِ فراجِ

فقال عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ لا أرى معى بالمدينة رجلا تهتف به العواتق فى خدورهن. علىَّ بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهًا وأحسنهم شعرًا ، فقال عمر عزيمة من أمير المؤمنين لنأخذن من شعرك ، فأخذ من شعره ، فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر ، فقال له : اعتم فاعتم ، فافتتن الناس بعينيه ، فقال له عمر : والله لا تساكننى فى بلدة أنا فيها ، فقال: يا أمير المؤمنين ما ذنبى ؟ قال : هو

(١) ازور : عدل وانحرف . خليل : الصديق الخالص المختص .
(٢) نصر بن حجاج بن علاط السلمى . شاعر من أهل المدينة . جميل الصورة .
(٣) ملجاج : ألح فى المسألة وطلب السرعة فى قضائها .

ما أقول لك ، ثم سيره إلى البصرة ، وخشيت المرأة التى سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شيء فدست إليه المرأة أبياتًا وهى :

قُلْ لِلإمام الذى تُخْشَى بوادرهُ ... مَا لِى وَلِلْخَمْرِ أو نصر بن حجاج
لا تَجْعَلِ الظنّ حقًا أن تبيّنه ... إن السبيلَ سبيل الخائف الراجى
إن الهوىَ زُمَّ (١) بالتَّقْوَى فَتَحْبِسَهُ ... حتى يُقرّ بإلجامٍ وإسراجِ

قال : فبكى عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ وقال : الحمد لله الذى زم الهوى بالتقوى قال : وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة ، فخرجت أمه يومًا بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر فإذا هو قد خرج فى إزار ورداء وبيده الدرة ، فقالت له : يا أمير المؤمنين والله لأقفن أنا وأنت بين يدى الله تعالى ، وليحاسبك الله أيَبِيتَنَّ عبد الله وعاصم إلى جنبيك ، وبينى وبين ابنى الفيافى، والأودية ؟ ، فقال لها : إن ابنى لم تهتف بهما العواتق فى خدورهن ، ثم أرسل عمر إلى البصرة بريدًا إلى عتبة بن غزوان فأقام أيامًا ثم نادى عتبة : من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين ، فليكتب، فإن البريد خارج ، فكتب نصر بن حجاج : بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد، فاسمع منى هذه الأبيات :

لَعَمْرِى لَئنْ سَيَّرْتَنى أو حَرَمْتَنِى ... وما نِلْتُ مِنْ عِرْضى عليك حرامُ
فأصبحتُ منفيًا على غيرِ ريبةٍ ... وقد كان لى بالمَكَّتَيْن مُقَامُ
لئنْ غَنَّتِ الذلفاء يومًا بمنيةٍ ... وبعض أمانى النساء غَرامُ
ظَنَنَت بى الظَّنَّ الذى ليس بَعْدَهَ ... بقاءٌ وما لى جُرَمَةٌ فألامُ
فَيَمْنَعُنِى مما تقولُ تكَرُّمى ... وآباءُ صِدْقٍ سَالِفُون كِرامُ
ويَمْنَعُها مما تقول صلاتها ... وحالٌ لها فى قَوْمِهَا وصيامُ
فهاتان حالان فَهَلَ أنتَ رَاجِعِى؟ ... فقد جُبَّ منى كاهلٌ وَسَنَامُ (٢)

قال : فلما قرأ عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ هذه الأبيات قال : أما ولى السلطان فلا ، وأقطعه دارًا بالبصرة فى سوقها ، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) زَمَّ : منع وربط . (٢) جُبَّ : قطع . الكاهل : من الإنسان ما بين كتفيه . أو موصل العنق في الصلب .

الفصل الثالث من هذا الباب
فى ذكر من مات بالحب والعشق

حدث أبو القاسم بن عبد الله المأمون قال : حدثنى أبى قال : كان بالمدينة قينة من أحسن الناس وجهًا وأكملهم عقلاً وأكثرهم أدبًا ، قد قرأت القرآن وروت الأشعار ، وتعلمت العربية؛ فوقعت عند يزيد بن عبد الملك ، فأخذت بمجامع قلبه ، فقال لها ذات يوم : ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه وأسدى إليه معروفًا ؟ قالت : يا أمير المؤمنين أما قرابة فلا ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاى وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه ، فكتب إلى عامله بالمدينة فى إحضارهم إليه وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم فى الدخول عليه فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم ، فأما اثنان منهم فذكرا حوائجهما فقضاها، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال : يا أمير المؤمنين ما لى حاجة ، قال : ويحك أولستُ أقدرُ على حوائجك ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ولكن حاجتى ما أظنك تقضيها فقال : ويحك فاسألنى فإنك لا تسألنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتها ، قال : فلى الأمان يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قال : إن رأيت يا أمير المؤمنين ، أن تأمر جاريتك فلانة التى أكرمتنا بسببها تغنى ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل ، قال : فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها ، فقالت : وما عليك يا أمير المؤمنين فأمر بالفتى فأحضر وأمر بثلاثة كراسى من ذهب فنصبت فقعد يزيد على أحدها ، والجارية على الآخر ، والفتى على الثالث ؛ ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ثم قال للفتى سل حاجتك . فقال : تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر :

لا أستطيعُ سُلُوًّا عن مودتها ... أو يَصنعُ الحبُّ بى فوق الذى صنعا
أدعو إلى هَجْرِها قلبى فيسعدنى ... حتى إذا قلت : هذا صادقٌ نزعا

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ثم أمر بالأرطال فملئت وقال للفتى سل حاجتك فقال : مرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

تخيرْتُ مِنْ نُعمانَ عودَ أراكه ... لِهِنْد ولِكنْ مَنْ يُبلِّغُهُ هِنْدَا
ألا عَرِّجا بى بارك الله فيكما ... وإنْ لم تكنْ هِنْدُ لأرضكما قَصْدا

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ؛ ثم أمر بالأرطال فملئت وقال للفتى: سل حاجتك فقال : تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

مِنّىَ الوصال ومنكم الهجرُ حتى يفرِّق بيننا الدّهرُ
والله لا أسلُوكمُو أبدًا ما لاح بدْرٌ أو بدا فَجْرُ

فأمرها فغنت قال : فلم تتم الأبيات حتى خرّ الفتى مغشيًا عليه فقال يزيد للجارية : قومى انظرى ما حاله فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت ، فقال لها يزيد : ابكيه ، فقالت: لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حى ، فقال لها : ابكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك فبكت الجارية وبكى أمير المؤمنين، وأمر بالفتى فجهز ودفن، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أيامًا قلائل وماتت.

وحكـى عن عبد الله بن جعفـر بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنهـم ـ أنه قـدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكرا الغناء والجوارى المغنيات والعشق فقال عبد الملك لعبد الله: حدثنى بأمر ما مر لك فى هذه الأغانى ، وما رأيت من الجوارى . قال : نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إلى فى شأنها فكتبت إليه : والله لا تخرج منى ببيع ولا هبة فأمسك عنى فكانت عندى على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حبًا ، فبينما أنا ذات ليلة إذ أتتنى عجوز من عجائزنا فذكرت لى أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه ويراها وتراه وإنه يجىء كل ليلة متنكرًا فيقف بالباب فيسمع غناءها ويبكى شغفًا وحبًا ، فراعيت ذلك الوقت الذى قالت عليه العجوز فإذا به قد أقبل مقنعًا رأسه وقعد مستخفيًا ، فلم أدع بها فى تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعه فإذا بها تكلمه ويكلمها ولم أر بينهما إلا عتبًا ولم يزالا كذلك حتى أبيض الصبح، فدعوت بها وقلت لقيّمة الجوارى : أصلحى فلانة بما يمكنك ، فأصلحتها وزينتها ، فلما جاءت بها قبضت على يديها وفتحت الباب وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعورًا فقلت : لا بأس عليك ولا خوف هى هبة منى لك ، فدهش الفتى ولم يجبنى فدنوت إلى أذنه وقلت: قد أظفرك الله تعالى ببغيتك فقم وانصرف بها إلى منزلك فلم يرد جوابًا فحركته فإذا هو ميت فلم أر شيئًا قط كان أعجب من أمره قال عبد الملك : لقد حدثتنى بعجب فما صنعت الجارية قلت : ماتت والله بعده بأيام بعد نحول عظيم وتعليل وماتت كمدًا ووجدًا على الغلام وقيل : إن عبد الله بن عجلان النهدى (١) رأى أثر كف عشيقته فى ثوب زوجها فمات .

(١) عبد الله بن العجلانِ بن عامر النهدى . من قضاعة . شاعر جاهلى . من العشاق المتيمين . وسيد من سادات قومه . توفى نحو (٥٠ ق هـ = نحو ٥٧٤ م) .

وذكر محمد بن واسع الهيتي أن عبد الملك بن مروان بعث كتابًا إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد . . . إذا ورد عليك كتابى هذا وقرأته فسير لى ثلاث جوار مولدات أبكارًا يكون إليهن المنتهى فى الجمال ، واكتب لى بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال ؛ فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين ، وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين ، وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض ، وأعطاهم المال وكتب لهم كتبًا إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلم يزالوا من بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل . قال : وكان الحجاج فصيحًا فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة ، وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ، ثم كتب كتابًا إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل : وصلنى كتاب أمير المؤمنين أمتعنى الله تعالى ببقائه يذكر فيه أنى أشترى له ثلاث جوار مولدات أبكارًا وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثمنها فأما الجارية الأولى ـ أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين ـ : فإنها جارية عبيطاء(١) السوالف ، عظيمة الروادف ، كحلاء العينين ، حمراء الوجنتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذاها كأنها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل :

بيضاءُ فيها إذا استَقْبَلْتَها دَعَجُ   كأنَّها فِضَّةٌ قَدْ شَابَها ذَهَبُ (٢)

وثمنها ـ يا أمير المؤمنين ـ : ثلاثون ألف درهم ، وأما الثانية : فإنها جارية فائقة فى الجمال معتدلة القدر والكمال تشفى السقيم بكلامها الرخيم ، وثمنها ـ يا أمير المؤمنين ـ : ستون ألف درهم ، وأما الثالثة : فإنها جارية فاترة الطرف ، لطيفة الكف ، عميقة الردف شاكرة للقليل مساعدة للخليل ، بديعة الجمال كأنها خشف الغزال ؛ وثمنها ـ يا أمير المؤمنين ـ : ثمانون ألف درهم ثم أطنب فى الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم : تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى إلى أمير المؤمنين فقال أحد النخاسين : أيد الله الأمير إنى رجل كبير ضعيف عن السفر ولى ولد ينوب عنى أفتأذن لى فى ذلك ؟ قال : نعم ، فتجهزوا وخرجوا ، وفى بعض مسيرهم نزلوا يومًا ليستريحوا فى بعض الأماكن فنامت الجوارى فهبت الريح فانكشف بطن إحداهن وهى الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها « مكتوم » فنظر إليها ابن

---

(١) عبيطاء : مرتفعة .

(٢) الدعج : العين اشتد سواد سوادُها ، وبياض بياضها ، واتّسَعَت . شابها : خلطه به .

النخاس وكان شابًا جميلاً ففتن بها لساعته ، فأتاها على غفلة من أصحابه ، وجعل يقول :

أمكتومُ : عَيْنِى لا تَمَلُّ من البكا   وَقَلْبِى بإسهام الأسى يترشّقُ؟
أمكتومُ: كَمْ من عاشقٍ قَتَلَ الهوى   وَقَلْبِي رهين ؟ كيف لا أتَعشّقُ؟

فأجابته تقول :

لَوْ كَانَ حَقًّا ما تَقُولُ لَزُرْتَنَا   لَيْلاً إذا هَجَعَتْ عيونُ الحُسَّدِ

قال : فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب بها ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسورًا معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان فلما مثلوا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجوارى ولم توافق الثالثة ورأى فى وجهها صفرة وهى الجارية الكوفية فقال للنخاسين : ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التى ذكرها الحجاج فى كتابه؟ ، وما هذا الاصفرار الذى بها والانتحال ؟ ، فقالوا : يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان ، قال: وإن كذبتم هلكتم فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفّد بالحديد فلما قدموه بين يدى أمير المؤمنين بكى بكاء شديدًا وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول :

أَميرَ المؤمنين أتيتُ رُغْمًا   وقد شُدَّتْ إلى عنقى يديّا
مُقرًّا بالقبيح وَسُوءَ فعلى   ولَسْتُ بما رميت به بريًا
فإنْ تَقْتُلْ ففوقَ القتلِ ذَنْبِى   وإن تعفْ فَمِنْ جُودٍ عَلَيَّا

فقال عبد الملك : يا فتى ما حملك على ما صنعت؟ ، استخفاف بنا أم هوى الجارية ؟، قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية . فقال : هى لك بما أعددته لها فأخذها الغلام بكل ما أعده لها أمير المؤمنين من الحلى والحلل وسار بها فرحًا مسرورًا إلى نحو أهله حتى إذا كان ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلاً فتعانقا وناما فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهما فوجدوهما ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك .

ومـن ذلك . . . مـا روى عن النبى ﷺ أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومى ـ رضى الله تعالى عنه ـ إلى مشركى خزاعة قال خالد : فأخرجنى إليهم رسول الله ﷺ فى عشرة آلاف

فارس من أهل النجدة والبأس قال : فجد بنا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديدًا حتى تعالى النهار وطار الشرار وهاجت الفرسان وتلاحمت الأقران فلولا الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ، ولكن تداركنا الله برحمة منه فهزمناهم وقتلناهم قتلاً ذريعًا ولم ندع لهم فارسًا إلا قتلناه ، ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا ، فلما هدأ القتال والنهب أمرت أصحابى بجمع السبايا لنقدم بهن على رسول الله ﷺ فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهق الحلم ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشابة جميلة فقلنا له : يا غلام انعزل عن النساء فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا فوالله لقد قتل منا فى بقية نهارنا مائة رجل ،قال خالد: فرأيت أصحابى قد كرهوا قتاله وتأخروا عنه فملك منهم جوادًا وعلا على ظهره ونادى البراز يا خالد قال : فبرزت إليه بنفسى بعد أن أنشدت شعرًا فوالله لم يمهلنى حتى أتم شعرى بل حمل علىَّ فتطاعنا حتى تكسرت القنا وتضاربنا بالسيوف حتى تفللت فوالله لقد اقتحمت الأهوال ومارست الأبطال فما رأيت أشد من حملاته ولا أسرع من هجماته فبينما نحن نعترك إذ كبا به فرسه فصار بين قوائمه فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له: افد نفسك بقول : أشهد أنْ لاَ إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأنا أردك من حيث جئت ، قال : يا خالد ما أنصفتنى اتركنى حتى أجد من نفسى القوة ، قال خالد : فتركته وقلت : لعله أن يسلم ثم شددته وثاقًا وصفدته بالحديد وأنا أبكى إشفاقًا على حسن شبابه ، ثم أوثقته على بعير لى فلما علم أن لا خلاص له قال : يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمى على ناقة أخرى إلى جانبى؟ قال خالد : فأخذتها وشددتها على ناقة أخرى إلى جانبه ووكلت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح ، وسرنا ، فلما استقامت مطاياهما جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار ويبكيان إلى آخر الليل فسمعته يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذكر أن لا يسلم أبدًا فأخذت السيف وضربته فرميت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة فأبركنا الأباعر وحفرنا ودفناهما فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحدثه بعجيب ما رأينا مع الغلام فقال : لا تحدثونى شيئًا أنا أحدثكم به فقلنا : من أعلمك به يا رسول الله ؟ قال : أخبرنى جبريل عليه السلام وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهما وموافقة أجلهما .

ومن ذلك ، ما حكاه الثورى ، قال : حدثنى جبلة بن الأسود وما رأيت شيخًا أصبح ولا أوضح منه قال : خرجت فى طلب إبل لى ضلت ، فما زلت فى طلبها إلى أن أظلم الظلام

وخفيت الطريق فسرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدهما فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتًا حسنًا بعيدًا وبكاء شديدًا فشجانى حتى كدت أسقط عن فرسى فقلت لأطلبن الصوت ولو تلفت نفسى فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت واديًا فإذا راعٍ قد ضم غنمًا له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم :

وكنت إذا ما جئتُ سُعْدى أزورُها أرى الأرضَ تُطْوى لى ويدنو بَعِيدُها
من الخفرات البِيض ودّ جَليسُهَا إذا ما انقضت أحدوثةٌ لو تُعِيدُها

قال : فدنوت منه وسلمت عليه فرد السلام وقال : من الرجل ؟ فقلت : منقطع به المسالك أتاك يستجير بك ويستعينك ، قال : مرحبًا وأهلاً انزل على الرحب والسعة فعندى وطاء وطىء وطعام غير بطىء ، فنزلت فنزع شملته وبسطها تحتى ثم أتانى بتمر وزبد ولبن وخبز ثم قال : اعذرنى فى هذا الوقت فقلت : والله إن هذا لخير كثير فمال إلى فرسى فربطه وسقاه وعلفه فلما أكلت توضأت وصليت واتكأت فإنى لبين النائم واليقظان إذا سمعت حس شىء ، وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادى فضحت الشمس حسنًا فوثب قائمًا إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها ، وجعلا يتحادثان فقلت : هذا رجل عربى ولعلها حرمة له ، فتناومت وما بى نوم فما زالا فى أحسن حديث ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنهما لا يهم أحدهما لصاحبه بقبيح فلما طلع الفجر عانقها وتنفسا الصعداء وبكى وبكت ثم قال لها : يا ابنة العم سألتك بالله لا تبطئى عنى كما أبطأت الليلة ، قالت : يا ابن العم أما علمت أنى أنتظر الواشين والرقباء حتى يناموا، ثم ودعته وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويبكى ، فبكيت رحمة لهما ، وقلت فى نفسى : والله لا أنصرف حتى أستضيفه الليلة وأنظر ما يكون من أمرهما ، فلما أصبحنا قلت له: جعلنى الله فداءك الأعمال بخواتيمها وقد نالنى أمس تعب شديد فأحب الراحة عندك اليوم ، فقال : على الرحب والسعة لو أقمت عندى بقية عمرك ما وجدتنى إلا كما تحب ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلىّ فأكلت وأكل معى إلا أنه أكل من لا يريد الأكل، فلم أزل معه نهارى ذلك ولم أر أشفق منه على غنمه ولا ألين جانبًا ولا أحلى كلامًا إلا أنه كالولهان ولم أعلمه بشىء مما رأيت فلما أقبل الليل وطأت وطائى فصليت وأعلمته أنى أريد الهجوع لما مر بى من التعب بالأمس ، فقال لى: نم هنيئًا ، فأظهرت النوم ولم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقًا شديدًا وزاد عليه فبكى ثم جاء نحوى فحركنى فأوهمته أنى كنت نائمًا فقال : يا أخى ، هل

رأيت الجارية التى كانت تتعهدنى وجاءتنى البارحة ؟، قلت : قد رأيتها ، قال : فتلك ابنة عمى وأعز الناس علىّ وإنى لها محب ولها عاشق وهى أيضًا محبة لى أكثر من محبتى لها ، وقد منعنى أبوها من تزويجها لى لفقرى وفاقتى وتكبر علىّ فصرت راعيًا بسببها فكانت تزورنى فى كل ليلة وقد حان وقتها الذى تأتى فيه واشتغل قلبى وتحدثنى نفسى أن الأسد قد افترسها ، ثم أنشأ يقول :

ما بال مَيَّةَ لا تأتى كعادَتِهَا ... أعاقها طربٌ أم صدَّها شُغْلُ
نفسى فداؤك قد أحْلَلْتَ بى سقمًا ... تكاد مِنْ حَرِّه الأعضاءُ تَنْفَصِلُ

قال : ثم انطلق عنى ساعة فغاب وأتى بشىء فطرحه بين يدى فإذا هى الجارية قد قتلها الأسد وأكل أعضاءها وشوه خلقتها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحه ثم أنشأ يقول :

الاَ أيها الليثُ المدِلُّ بنفسه ... هَلَكْتَ لقد جَرَيْتَ حقًا لك الشرّا
وَخَلَّفْتَنِى فردًا وقد كنت آنسًا ... وقد عادتِ الأيامُ مِنْ بَعْدها غُبْرا

ثم قال : بالله يا أخى إلا ما قبلت ما أقول لك فإنى أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة فإذا أنا مت فخذ عباءتى هذه فكفنّى فيها وضم هذا الجسد الذى بقى منها معى ، وادفنا فى قبر واحد وخذ شويهاتى هذه وجعل يشير إليها فسوف تأتيك امرأة عجوز هى والدتى فأعطها عصاى هذه وثيابى وشويهاتى وقل لها : مات ولدك كمدًا بالحب فإنها تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا منى السلام ، قال : فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح ووضع يده على صدره ومات لساعته ، فقلت : والله لأصنعن له ما أوصانى به فغسلته وكفنته فى عباءته وصليت عليه ودفنته ودفنت باقى جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكيًا حزينًا فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهي كالولهانة فقالت لى : هل رأيت شابًا يرعى غنمًا فقلت لها : نعم ، وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكى وأنا الاطفها إلى أن أقبل الليل وما زالت تبكى بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هى مكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك فحركتها فإذا هى ميتة فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسى وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول :

كُنَّا على ظهرِها والدهرُ يَجْمَعُنا ... والشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ والدارُ والوطنُ

فَمَزَّق الدهرُ بالتَّفريق أُلفتَنَا وصار يَجْمَعُنَا فى بَطْنِها الْكَفَنُ

قال : فأخذت الغنم ومضيت إلى الحىّ لبنى عمهم فأعطيتهم الغنم وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحى بكاء شديدًا ثم مضيت إلى أهلىّ وأنا متعجب مما رأيت فى طريقى .

ومن ذلك . . . ما حكى أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كثير الخبر فقال : والله لأحجنّ لعلى أفوز من عزة بنظرة ، قال : فبينما الناس فى الطواف إذا نظر كثير لعزة ، وقد مضت إلى جمله فحيته ومسحت بين عينيه وقالت له: يا جمل فبادر ليلحقها ففاتته فوقف على الجمل وقال :

حيّتكَ عَزَّةُ بعد الحجّ وانصرفَتْ فحىّ ويْحكَ مَنْ حيّاك يا جملُ
لو كُنْت حيّيتها ما كُنْتَ ذا سَرَف عندى ولا مسّكَ ٱلإدلاجُ والعملُ (١)

قال : فسمعه الفرزدق فتبسم وقال له : من تكون يرحمك الله ؟ ، قال : أنا كثير عزة فمن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا الفرزدق بن غالب التميمى ، قال : أنت القائل :

رحلتْ جمالُهُم بكلّ أسيلةٍ تركت فؤادى هائمًا مخبولا (٢)
لو كنت أملكهم إذًا لم يرحلوا حتى أودّع قلبى المتبولا (٣)
ساروا بقلبى فى الحدوج وغادروا جسمى يعالج زفرةً وعويلا (٤)

فقال الفرزدق : نعم ، فقال كثير : والله لولا أنى بالبيت الحرام لأصيحن صيحة أفزع هشام ابن عبد الملك وهو على سرير ملكه ، فقال الفرزدق : والله لأعرفن بذلك هشامًا ثم توادعا وافترقا، فلما وصل الفرزدق إلى دمشق، دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كثير، فقال له : اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها ونزوجه إياها ، فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غرابًا على بانة (٥) وهو يفلى نفسه وريشه يتساقط فاصفرّ لونه وارتاع من ذلك ، وجدّ فى السير ثم إنه مال ليسقى راحلته من

(١)الإدلاج : القوم ساروا من أول الليل .
(٢)أسيلة : الوجه أملس ناعم رقيق . هائمًا : الجنون من العشق . مخبولا : الحبُّ أفسد عقله وأذهب فؤاده .
(٣)المتبول : أسقمه الحبّ وأذهب عقله .
(٤)الحدوج : مراكب النساء كالهودج والمحفة . زفرة : إخراج النفس من الصدر حارًا . عويلا : حرارة حزن المحب من غير بكاء .
(٥)البان : شجر حسن القوام ، يشبه به الحسان فى الطول واللين .

حى بنى فهد وهم زجرة الطير ، فبصر به شيخ من الحى فقال : يا ابن أخى أرأيت فى طريقك شيئًا فراعك ؟ قال : نعم ، رأيت غرابًا على بانة يتفلى وينتف ريشه فقال له الشيخ: أما الغراب فإنه اغتراب ، والبانة بين ، والتفلى فرقة ، فازداد كثير حزنًا على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام ، وجدّ فى السير إلى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فنزل وصلى معهم ، فلما قُضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كثير عن هذا اليوم ، فقال : ما هذا اليوم يا سيدى ؟ فقال : إن هذه عزة قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشيًا عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

فَمَا أعْرَفَ الفَهْدِىَّ لا دَرّ درهُ … وَأَزْجَرَه للطَّيْرِ لا عَزَّ ناصرهُ
رَأَيْتُ غُرابًا قد علا فوق بانة … يَنْتِفُ أعلَى رِيشَه وَيُطَايِرُه
فقال: غُرابٌ واغترابٌ من النَّوَى … وبانةُ بَيْنٍ مِنْ حَبِيب تُعَاشِرُه

ثم شهق شهقة فارقت روحه الدنيا ومات من ساعته ودفن مع عزة فى يوم واحد .

وحكى الأصمعى : قال : بينما أنا أسير فى البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:

أيَا مَعْشَرَ العشّاقِ بالله خَبِّرُوا … إذا حَلَّ عِشقٌ بالفتى كَيْفَ يَصْنعُ؟

فكتبتُ تحته :

يُدَارِى هَوَاه ثم يكْتُمُ سِرَّهُ … وَيَخْشَعُ فى كُلِّ الأمورِ ويَخْضَعُ

ثم عدت فى اليوم الثانى فوجدت مكتوبًا تحته :

فَكَيْفَ يُدارى والهوى قاتلُ الفتى … وفى كُلِّ يوم قَلْبُه يَتَقطعُ؟

فكتبت تحته :

إِذَا لَمْ يَجِدْ صبرًا لِكتمَانِ سِرِّ … فليس له شىءُ سوى الموتِ أنْفعُ

ثم عدت فى اليوم الثالث فوجدت شابًا ملقى تحت ذلك الحجر ميتًا . فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقد كتب قبل موته :

سَمِعْنا أَطَعْنَا ثُمَّ مِتْنَا فَبَلِّغُوا … سَلاَمِى عَلَى مَنْ كَانَ لِلْوَصْلِ يَمْنَعُ

وحكى : أيضًا عن الأصمعى ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال : بينما أنا نائم فى بعض مقابر

البصرة إذ رأيت جارية على قبر تندب وتقول :

بِرُوحِي فتىً أوفى البَرِيَةِ كُلِّها ... وَأَقْوَاهُمُ فى الحبِّ صَبْرًا على حُبِّ

قال : فقلت لها : يا جارية بم كان أوفى البرية ؟ وبم كان أقواها ؟ فقالت : يا هذا ، إنه ابن عـمى هـوينى فهـويته فـكان إن أبـاح عنّفوه وإن كتم لاموه فأنشد بيتىْ شعر وما زال يكررهما إلى أن مات والله لأندبنه حتى أصير مثله فى قبر إلى جانبه فقلت لها : يا جارية فما البيتان؟ قالت :

يَقُولون لى :إنْ بُحْتَ قَدْ غرَّكَ الهوى ... وَإنْ لمْ أَبُحْ بالحبِّ قالوا :تَصَبَّرَا

فَمَا لامْرِئٍ يَهوى ويَكْتُمْ أَمْرَهُ ... مِنَ الحبِّ إلاَّ أنْ يمُوتَ فَيُعْذَرا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت روحها الدنيا ـ رحمة الله تعالى عليها ـ .

والحكايات فى ذلك كثيرة، وفى الكتب مشهورة ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا فى هذا المعنى أشياء كثيرة، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة ،والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثانى والسبعون

فى ذكر رقائق الشعر ، والمواليا ، والدوبيت ، وكان وكان ، والموشحات والزجل . والحماق . والقومة . والألغاز . ومدح الأسماء والصفات ، وما أشبه . ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام : مرقص :كقول أبى جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس:

والشمسُ لا تشربُ خمرَ الندى   فى الروض إلا من كؤوسِ الشَّقيقِ

ومطرب : كقول زهير :

تراه إذا ما جِئتَه مُتَهَلّلاً   كأنّك تُعطِيه الذى أنتَ سَائِلهُ

ومقبول : كقول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجه الطبع كقول ابن المعتز :

سقى المطيرةَ ذاتِ الظلّ والشجرِ   ودَيْرَ عبدون هَطّالٌ من المطرِ

ومتروك وهو ما كان كلا على السمع والطبع كقول الشاعر :

تَقَلْقَلَتُ بالهمّ الذى قلقلَ الحشى   قَلاقِلُ هَمٌ كُلُهُنّ قلاقِلُ

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حسبما بوب أبو تمام فى الحماسة ، وقال عبد العزيز بن أبى الأصبع الذى وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فنًا . وهى : غزل . ووصف. وفخر . ومدح . وهجاء . وعتاب . واعتذار . وأدب . وزهد . وخمريات . ومراث . وبشارة. وتهانى . ووعيد . وتحذير . وتحريض . ومُلَحٍ ، وباب مفرد للسؤال والجواب . ولنذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار .

ولنبدأ من ذلك ذكر الغزل المذكر (ابن نباتة) :

أالغصانُ بانٍ ما أرى أم شمائلُ   وأقمارُ تم ما تضمّ الغلائلُ
وبيضُ رقاقٍ أم جفونُ فواترٌ   وسمرٌ دقاقٌ أم قدودٌ قواتلُ
وتلك نبالُ أم لحاظٌ رواشقٌ   لها هدفٌ منىٌ الحشى والمقاتلُ
بروحى أفدى شادنًا قد ألفتُه   غدوت وبى شغل من الوجد شاغلُ

أميرُ جَمالٍ والملاحُ جنودُه ... يجورُ علينا قَدُّهُ وهو عادلُ
له حاجبٌ عن مقلتى حَجَبَ الكـ ... ـرى ناظرُهُ الفتّانُ فى القلبِ عاملُ
رفعتُ إليه قِصةَّ الدمعِ شاكيًا ... فوقع يَجْرى فهو فى الخدِ سائلُ
شكوتُ فما ألوى وقلتُ فما صَغَى ... وجدّ بقلبى حبّه وهو عازلُ
طويلُ التوانى دلُّه متواترٌ ... مديدُ التجنى وافرُ الحسن كاملُ
أُطارحُهُ بالنحو يومًا تَعلُّلا ... فيبدو وللإعرابِ فيه دلائلُ
ويرفعُ وصلى وهو مفعولٌ فى الهوى ... وينصبُ هَجْرِى عامدًا وهو فاعلُ
تَفَقَّهْتُ فى عِشْقى له مثل ما غدا ... خبيرًا بأحكام الخلاف يُجادلُ
فيا مالِكى ما ضرَّ لو كنتَ شافعى ... بوصلك فافعل بى كما أنتَ فاعلُ
فإنى حِنيفِىّ الهوى متحنبلٌ ... بعشقك لا أُصْغى وإن قال قائلُ

كمال الدين بن النبيه (١) :

اللّهُ أكبرُ كُلُّ الحسن فى العرب ... كم تحت لِمَّة ذا التركى من عجبِ
صُبْحُ الجبين بليل الشَّعْرِ منعقدٌ ... والخدُّ يجمعُ بين الماء واللهبِ
تنفسَتْ عن عبيرِ الراحِ رِيقتُه ... وافتَرَّ مَبْسمُهُ الشَّهْدِىُّ عن حببِ
لا فى العذيب ولا فى بارقٍ غزلى ... بل فى جَنَى فَمِهِ أو ريقه الشنبِ (٢)
كأنَّه حين يرمى عن حَنِيَّته ... بدرٌ رمى عن هلالِ الأفق بالشهبِ (٣)
يا جاذبَ القوسِ تقريبًا لِوَجْنَته ... والهائمُ الصبّ منها غيرُ مقتربِ
أليس من نكد الأيام يُحْرمُها ... فمى ويلثمُها سهمٌ من الخشبِ ؟
مَنْ لى بأغْيَدَ قاسى القلبِ مُبتسمٌ ... لا عن رضا مُعرضٍ عنى بِلاَ غَضَبِ ؟
فكم له فى وجود الذنب من سببٍ ... وليس لى فى قيامِ العُذرِ من سببِ
تميلُ أعطافُه تِيهًا بِطُرَّتِه ... كما تميلُ رماحُ الخط بالعَذَبِ (٤)

---

(١) شاعر من أهل مصر مدح الأيوبيين . تولى ديوان الإنشاء للملك الأشرف موسى . توفى فى نصيبين سنة (٦١٩هـ) .

(٢) الشنب : جمال الثغر وصفاء الأسنان .

(٣) يرمى : يكشف . حنيته : حاجبه مال وانعطف مثل الهلال فى تقوسه .

(٤) أعطافه : هو من رأس الإنسان إلى وركه ثنى عطفه ـ قده ـ وتمايل فى تيه ـ ومر معجبًا بنفسه . طرته : قصته شعر مقدم الرأس ـ خصلة من الشعر يسد لها على جبينها دلالا وعجبا وتكبرا وسموقا .

أشارَ نَحْوى وجُنحُ الليلِ مُعتكرٌ ... بِمعْصمٍ بشعاعِ الكأس مُختضِبِ
بِكرٌ جلاها أبوها قبل ما جُلِيَتْ ... فى حُجْرِ الدَّنِّ أو فى قِشْرةِ العنبِ (١)

البهاء زهير (٢):

يُعاهِدُنى لا خاننى ثم ينكُثُ ... واحلفُ لا كلّمتُهْ ثم أحنثُ
وذلك دأبى لا يزالُ ودأبهُ ... فيا معشرَ العشاق عَنا تحدثوا
أقول له : صِلْنى يقول : نعم غدًا ... ويكسرُ جفنًا هازئًا بى ويعبثُ
وما ضرّ بعضُ الناس لو كان زارنى ... وكنّا خلونا ساعةً نتحدثُ
أمَوْلاى إنّى فى هواكَ مُعذّبٌ ... وحتّام أبقى فى الغرام وأمكثُ
فَخذْ مرةً روحى تُرِحْنى ولا أرى ... أموتُ مِرارًا فى النهارِ وأُبعثُ
فإنىّ لهذا الضيمِ منك لحاملٌ ... ومنتظرٌ لطفًا من اللّه يحدثُ
أُعيذُكَ من هذا الجفاءِ الذى بدا ... خلائقُك الحسنى أرقُّ وأدمثُ
تردّد ظنُّ الناس فىّ فأكثروا ... أحاديثَ فيها ما يطيبُ ويخبثُ
وقد كَرُمَتْ فى الحبّ منىّ شمائلُ ... ويسألُ عنى من أراد ويبحثُ

النابلسى (٣) :

ما كُنتُ أعلمُ والضمائرُ تَصدُقُ ... إنَّ المسامعَ كالنواظِرِ تُعشقُ
حتى سمعتُ بِذكرِكم فهويتُكم ... وكذاك أسبابُ المحبة تَعْلَقُ
ولقد قنعتُ من اللقاء بساعةٍ ... إنْ لم يكنْ لى الدوامُ تطرقُ (٤)
قد يُنعِشُ العطشانَ بلةُ ريقهِ ... ويغصُ بالماء الكثير ويشرقُ (٥)
فعسى عيونى أنْ ترى لك سيدى ... وجهًا يكادُ الحسنُ فيه ينطِقُ

---

(١) لدن : الطرى الرخص .

(٢) البهاء زهير : هو أبو الفضل زهير بن محمد على المهلبى . ولد فى مكة أو فى واى نخلة بالقرب منها . شاعر رقيق العاطفة قويها اتصل بالأيوبيين وامتدحهم . له ديوان أكثره غزل توفى سنة (٦٥٦ هـ = ١٢٥٨م).

(٣) النابلسى : عبد الغنى بن إسماعيل (١٦٤٠ ـ ١٧٣١م) ولد وتوفى فى دمشق ، من كبار علماء المسلمين الصوفيين. من آثاره : (إيضاح الدلالات فى جواز سماع الآلات) .

(٤) تطرق: ابتغى إليه طريقا توسلا : أى تطرق إلى الموضوع .

(٥) يغص : ما يعترض فى الحلق من طعام أو شراب .

أبو الحسن الجزار [١] :

فى خَدِّه من بقايا اللثمِ تخميشُ وبى لتشويشِ ذاك الصُّدْغ تشويشُ
ظبى من الترك أغنته لواحظُهُ عما حَوَتْه مِنَ النَّبْلِ التراكيشُ
إذا تثنى فقلبُ الغصنِ مُنكسرٌ وإنْ تَبَدَّى فَطَرْفُ البدرِ مدهوشُ
يا عاذلى إنْ تكنْ عن حسن صورته أعمى فإنّى عَمًّا قلتَ أطروشُ
كم ليلةٍ بات يسقينى المدامَ على روض له بثياب الغيم ترقيشُ
والغيثُ كالجيش يرتجُّ الوجودُ له والبرقُ رايتهُ والرعدُ جاويشُ
فى مجلسٍ ضحكَتْ أرجاؤه طربًا لأِنَّه ببديعِ الزَّهْرِ مَفروشُ

سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء :

تُرى متى منْ فُتُور اللحظِ ينتشطُ من قلبِهِ بحبالِ الشَّعرِ مُرتبطُ
قدر رَقَّ لى خصرُه المضنى فناسبنى فقلتُ : خيرُ الأمورِ الأنسَبُ الوسطُ
وقد خَفِى الردْفُ عنى من تثاقله فقلتُ : هذا على ضَعْفِى هو الشَّطَطُ
وصدره الرحبُ قد عانقْتُه سحرًا والقلبُ مُنْبعثُ الآمال مُنبسطُ
وفيه تلك النهودُ المشتهاة ترى رمَّانَهَا فيه قلبى أمرُهُ فرطُ
إنَّ الصوابَ لتعجيلِ السرورِ فقمْ قبل الفواتِ فأوقاتُ الهنا غلطُ

القاضى مجد الدين بن مكانس [٢]:

أَهْى تحيَّتُهُ وجادَ بِوعْدِه أَفْديه من قمرٍ بَدا فى سَعْدِه
بدرُ جرى ماءُ الحياة بثغره وترددَتْ فضلاتُهُ فى خَدِّه
أسكنتُه قلبى فأوقدَ خَدُّه نيرانُ أَحَشائى عليه وَوَجْده
مُ لى به حلو الشمائل أهيفٌ رَوَتِ العوالى عن مثقَّفِ قَدِّه [٣]
يا عاذل فى حبه لو أبصرتْ عيناك فوقَ الرِّدْفِ مُسْبِلَ جَعْده [٤]
لعذرتَ كُلَّ مُتيَّمٍ فى حبه وعَلِمْتَ أنَّ ضَلالَه فى رُشده
فو حَقِّ موتى فى هواه صبابةً وحَيَاةِ مَبْسمه الشَّهِىِّ وبرده
مَا جَادَ غيثُ الدمع إلاَّ عَنْ هَوَى خَلَعَ القُلُوبَ بِبَرْقِهِ وَبِرَعْدِهِ

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الرزاق توفى سنة (٧٩٤هـ) . (٢) العوالى : الرماح .
(٣) الردف : العجز . والشعر الجعدى اجتمع وتقبض والتوى فوق العجز .
(٤) جمال الدين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن على . المعروف بالجزار . شاعر مصرى مشهور . نشأ مع أبيه الجزار . ثم تأدب ونبغ فى الشعر وهجر الجزارة . ثم عاد إليها . توفى سنة ٦٧٩ هـ .

قُم يا رسولُ وأبلغِ العشاقَ ما … ألقاه من جور الحبيب وبُعْدِه
وإذا سألتُكَ أن تُؤدِّى فى الهوى … خبرى فَصِفْ فَعَلَ الغرامِ وأبْدِه

عز الدين الموصلى :

والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها فى ديوانه :

نفسٌ عن الحب ما أغفَتْ وما غفَلَتْ … بأى ذنبٍ وقاكَ اللَّهُ قد قُتِلَتْ
دَعْها ومَدْمعَها الجارى لقد لقِيتُ … ما قَدَّمَتْ من أسى قلبى وما عَمِلَتْ
أفديكَ من ناشطِ الأجفانِ فى تَلَفى … والسحرُ يُوهِمُ فى أنَّها كَسِلَتْ
وأوضحَ الحسنُ لوشاءتْ ذوائبُه … فى الأفقِ وَصْلَ دُجا الظلماءِ لاتَّصَلَتْ (١)
معسَّلٌ بِنُعاسٍ فى لواحظه … أما تراها إلى كُلِّ القلوبِ حَلَتْ (٢)
مَنْ لى بألحاظِ يدّعى كَسَلاً … وكم ثيابِ ضَنَى حاكَ وكم غزَلَتْ (٣)
وحمرةٌ فوقَ خدّيه ومَرْشَفه … هذى مَحاسِنُها تَزْهو وذى ذَبُلَتْ (٤)
أما كَفَانِىَ تكحيلُ الجفونِ أسى … حتى المراشفُ منه باللَّمَى كُحِلَت (٥)
أستودعُ اللَّهَ أعطافًا شَوَتْ كَبِدى … وكُلَّمَا رُمْتُ تجديدَ الوصال قَلَت (٦)
ومهجةٌ لِى كَمْ ألْقَتْ بِمَسْمِعها … إلى الملامِ ولا واللَّهِ ما قبلت

غيره للفاضل :

شرْخُ الشبابِ بحبِّكُم أفنيتهُ … والعمرُ فى كَلَفٍ بكم قَضَّيتُه
وأنا الذى لو مرّ بى من نحوكمْ … داعٍ وكنتُ بِحُفْرَتى (٧) لبّيته
كيف التعرّض للسلو وحبُّكُمْ … حبٌّ بأيــام الشبــاب شَرَيْتُه
للّهِ داءٌ فى الفؤادِ أجنُّهُ … يزدادُ نُكْسًا (٨) كلّما داويْتُهُ
قالوا : حبيبُكَ فى التجنىِّ مسرفٌ … قاسٍ على العشاقِ قلتُ : فديته
أأرومُ مِنَ كَلَفى عليه تخلّصًا ؟ … لا والذى بَطْحاء مكةَ بَيْتُه
ولو استطعتُ بكل اسمٍ فى الورى … مِنْ لذةِ الذِّكْرى به سَمَّيْتُهُ

---

(١) ذوائبه : شعر مقدم الرأس المعنى شديدة سواد شعر الرأس غزيرته .
(٢) نظرها المختلس الفاتر الناعس ترشق بسهام اللحظ القلوب .
(٣) يتمنى أن تنظره لحاظ نظراتها الفاتره التى تنسج يتاب المرض من غزلها .
(٤) جمال وجهها فى صفائه وحمرة فى بياض تجلو جمالها الزاهى والعاشق يزوى ويذيل من هذا الجمال الباهر.
(٥) المراشف : الشفاه . اللمى : سمرة فى الشفة تستحسن .
(٦) قلّت : هجرت . (٧) الحفرة : القبر . (٨) النكس : معاودة العلة المريض .

وللشيخ بدر الدين الدماميني (١) :

سلَّ سيفًا من الجفون صَقيلاً ... مُذْ تَصَدّى جلاه رُحْتُ قتيلا
صَحَّ عن جَفْنِه حديثُ فتورٍ ... وهو ما زالَ من قديمٍ عليلا
مَنْ أبدى لنا من الخَصْرِ ردفًا ... فأرانا مع الخفيفِ ثَقيلا
ذو قوامٍ كأنَّه الغُصْنُ لكنْ ... بالهوى نَحْوَ وَصْلنَا لَنْ يَميلا
كاملُ الحسنِ وافرٌ ظِلٌّ وَجْدِى ... فيه يا عاذلى مديدًا طويلا
فَاتِكُ الجفنِ ذو جمَال كثير ... أَتْلَفَ العشّاقَ إلاَّ قليلا
قلت : إذا لاح طَرْفُه وَلَمَاهُ ... : فاترُ اللحْظِ بُكْرَةً واصيلا
كيف حالى؟ وهل لِصَبٌّ إليه ... مِنْ سبيلٍ ؟ فقال لى : سَلْ سَبِيلا

وقال آخر :

لو أنَّ قلبَكَ لى يرقُّ ويرحمُ ... ما بتُّ من ألم الجوى أتألمُ
وَمِنْ العجائب أنَّنى لا سَهمَ لى ... من ناظرَيك وفى فؤادى أسهُمُ
يا جامعَ الضدَّين فى وجناته ... ماءٌ يرقُّ عليه نارٌ تضرمُ
عَجَبى لِطَرْفكَ وهو ماض لم يزلْ ... فَعَلامَ يُكْسَرُ عندما تَتَكلَّمُ
ومِنَ المروءةِ أنْ تواصلَ مُدْنَفًا ... والدهرُ سمحٌ والحوادثُ نُوَّمُ

وقال آخر :

تصدقْ بوعدٍ إن دَمْعى سائلُ ... وَزَوِّدْ فؤادى نظرةً فهو راحلُ
فخدُك موجودٌ به التِّبْرُ دائمًا ... وحُسْنُكَ معدومٌ لديه المماثلُ
أيا قمرًا من شمس طلعة وجهه ... وظلٌّ عِذارَيْه الدّجا والأصائلُ (٢)
تَنقَّلْتُ من طرف مع القلبِ والهوى ... وهاتيك للبدرِ المنيرِ مَنازلُ
جعلتُكَ للتمييز نصبًا لخاطرى ... فَهَلاّ رفعتَ الهجَر والهجرُ فاعلُ

وقال ابن صابر :

---

(١) محمد بن أبى بكر المخزومى القرشى ، عالم بالشريعة وفنون الأدب . ولد فى الإسكندرية . استوطن القاهرة . انتقل إلى دمشق ثم إلى مكة . من آثاره : « نزول الغيث » و « تحفة العروس » و « جواهر البحور فى العروض». توفى بالهند سنة (٨٢٧هـ) .

(٢) عذاريه : جانبا خديه : ظلام الليل وما بين العصر إلى الغروب وقت الأصيل تكون الشمس ذهبية .

قبّلتُ وجنتَه فألفتُ جيدَه ... خَجلاً ومال بعطفه الميّاس
فانهَلَّ من خدّيْه فوق عذاره ... عرقٌ يحاكى الطّلّ فوق الآس(١)
فكأنّنى استَقْطرتُ وَرْدَ خُدُودِه ... بتصاعد الزفرات من أنفاسى

وقال آخر :

وغزالٌ كُلُّ مَنْ شبَّهَهُ ... بهلالٍ أو ببدرٍ ظلمه
قال : إذا قبّلْتَ وَهْمًا فَمَهُ ... قد تعدّيت وأسرفت فمه

وقال آخر :

بأبى غلامٌ لستُ غيرَ غلامه ... مذ جادَ لى بسلامِهِ وكلامِهِ
ذو حاجبٍ ما إنْ رأيتُ كَنُونِهِ ... أبدًا وصُدْغٍ ما رأَيْتُ كلامَهُ (٢)

وقال جمال الدين بن مطروح(٣) :

ذكرَ الحِمىٰ فَصَبا وكان قد ارْعَوَى ... صبٌّ على عرشِ الغرامِ قد استوى
تجرى مَدامِعُه ويَخفُقُ قلبه ... مهما جرى ذكر العقيق مع اللوى
وإذا تألّق بارقٌ من بارقٍ ... فهناك ينشر من هواه ما انطوى
فخذوا أحاديث الهوى عن صادقٍ ... ما ضلّ فى شرع الغرام وما غوى
وبمهجتى رشأ أطالت عذّلى ... فيه الملام وقد حوى ما قد حوى
قالوا : أفيه سوى رشاقة قدّه ... وفتور عينيه ؟ وهل موتى سوى ؟
ما أبصرته الشمس إلا واكتست ... خجلا ولا غصن النقا إلا التوى (٤)
يروى الأراك محاسنًا عن ثغره ... يا طيب ما نقل الأراك وما روى

وقال آخر :

عبث النسيمُ بِقَدّه فتأوّدَا ... وسرى الحياءُ بِخَدِّه فتوردّا
رَشأٌ تفرّد فيه قلبى بالهوى ... لما غدا بِجماله مُتفرِّدا (٥)
قَاسُوه بالغصنِ الرطيبِ جهالةً ... تاللهِ قد ظَلَمَ المشبِّه واعتدى
حسنُ الغصون إذا اكتست أوراقَهَا ... وتراه أحسن ما يكونُ مُجرَّدا

وقال غيره :

---

(١) الآس : جنس نباتات . ورقها دائم الخضرة . زهرها أبيض . ثمارها صغيرة ولذيذة . ويسمى بالريحان .
(٢) كَنُونِه : يشبه حرف النون .
(٣) جمال الدين بن مطروح : يحيى بن عيسى . توفى سنة (٦٤٩هـ) .
(٤) النقا : خياره وخلاصته .
(٥) الرشأ : ولد الظبية إذا قوى ومشى .

يا حُسنًا مَالكَ لم تُحسِنْ إلى قُلوبٍ فى الهَوَى مُتعبَهْ
رُقمتَ بالوُرْدِ وبالسوسنِ صَفْحَةَ خَدٌّ بالسنا مُذهَّبه
وقد أبى خدُّك أن أجْتَنى منه وقد السعنى عَقْرَبُه
يا حُسْنَه إذا قال : ما أحْسنى ويا لذاك اللفظِ ما أعذبه
قلت له كلّك عندى سنًا وكل الفاظك مُسْتَعْذَبه
فَفوّق السَّهمِ ولم يخطنى ومُذْ رآنى ميّتا أعجبه
وقال : كم من عاشق حبّنى وحبه إياى قد أتعبه
يرحمه الله على أننى قتلى له لم أدر ما أوْجبهُ

وقال آخر :

مَلِيحٌ يَغارُ الغصنُ عند اهتزازِه ويخجلُ بدرُ التَّمِّ عند شروقهِ
فَمَا فيه معنى ناقصٌ غير خَصْرِه وما فيه شىءٌ باردٌ غيرُ رِيقِه

وقال يحيى أكثم (١) :

دنا هاجرى نحوى بمقلته الكحلا فلما رأى ذلّى ثنى عطفه دلا
فتيّمنى شوقًا وأنحلنى أسىّ وأفقدنى صبرًا وأعدمنى عقلا
شكوت فما ألوى وولى وما لوى وأعرض مزورًّا فسل الحشى سلا
إذا ما دعاه فرط سقمى لزورةٍ يناديه فرطٌ العجب من عطفه كلا

وقال أيضا :

بأبى غزالا غَارَلَتَهْ مُقْلَتِى بين العذيبِ وبين شطىْ بارقِ
وسألتُ منه زَوْرةً تَشْفى الجوى فأجابنى عنها بوعد صادقِ
بِتْنا ونحنُ من الدجا فى خيمةٍ ومن النجوم الزهرِ تحت سرادقِ
عَاطَيْتُه والليلُ يَسحبُ ذيلَه صهباءَ كالمِسْك الذكى لناشقِ
وضَمَمْتُه ضَمّ الكمىّ لسيفه وذؤاباته حمائلٌ فى عاتقىِ
حتى إذا مالت سِنَةَ الكرى زَحْزَحْتُه عنى وكان مُعانقىِ
أبعدتُّه عن أضلع تَشْتَاقُه كى لا ينامَ على فراشٍ خافقِ
لما رأيتُ الليلَ آخر عُمْره قد شاب فى لِمَمٍ لـه ومفارقِ

(١) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمى الأسيدى المروزى، أبو محمد (١٥٩ـ٢٤٢هـ= ٧٧٥ ـ ٨٥٧م) قاض. رفيع القدر ، عالى الشهرة . من نبلاء الفقهاء ؛ يتصل نسبه بأكثم بن صيفى حكيم العرب .

وَدَّعتُ من أهوى وقلتُ تأسّفًا   صعبٌ علىَّ بأن أراكَ مُفارقى

وقال ابن نباتة (١) :

بدا ورَنَتْ لواحِظُهُ دَلالا   فما أبهى الغزالةَ والغزالا (٢)

وأسفر عن سنا قمرٍ منير   ولكن قد وجدتُ به الضلالا (٣)

صقيلُ الخد أبصرَ من رآه   سواد العين فيه فخَالَ خالا

وممنوعُ الوصال إذا تبدّى   وجدتُ له من الألفاظُ لالا

عجبتُ لثَغرِه البسّامِ أبدى   لنا دُرًّا وقد سكن الزّلالا

شَهِدْتُ بِشَهْدِ ريقتِهِ لأنّى   رأيت على سَوَالِفِه نمالا

فيا عجبًا لحسن قد حواه   وقد أهدى إلى قلبى الوبالا

سأشكو الحسنَ ما بقيتْ حياتى   وأشكرُ مِنْ صنائعِه الجمالا

القاضى فخر الدين بن مكانس (٤) :

يا غصنًا فى الرياض مالا   حَمَّلتَنى فى هواك مالا

يا رائحًا بعد أن سبانى   حَسْبُكَ ربٌّ السمّا تعالى

وله أيضًا :

أجاركَ اللّهُ قد رَثَتْ لى   ممّا ألاقى عدًا وحسّد

وعاذلى مُذ رأى ضُلوعى   تَعُدّ سَقْمًا بكى وعدّد

ابن رفاعة :

يقولون هل منّ الحبيب بزورة   ومنّاكُم المطلوبَ قُلْنَا لَهُم منّا

فقالوا لنا : غُوصُوا على قَدّه وما   يحاكى إذا ما اهتَزَّ قلنا لهم غصنا

الشيخ برهان الدين القيراطى (٥) :

---

(١) ابن نباتة : محمد بن محمد . ولد فى ميافارقين . . من أصدقاء أبى الفداء المؤرخ . عاش فى دمشق . له ديوان شعر . توفى فى القاهرة سنة (٧٦٨هـ) .

(٢) الغزالة : مؤنث الغزال . والغزالا : الشمس .

(٣) أسفر : كشف . السنا : الضوء .

(٤) القاضى فخر الدين بن مكانس (٧٤٥ - ٧٩٤هـ) وزير . شاعر مصرى . حنفى المذهب . ولد فى القاهرة ودفن فيها . له : « ديوان إنشاء » و « ديوان شعر » .

(٥) إبراهيم بن عبد الله بن عسكر الطائى . من أعيان القاهرة . شاعر أديب . اشتغل بالفقه . توفى بمكة من آثاره : « مطالع النيرين » وهو ديوان شعر . و « الوشاح المفصل » أدب .

ووردى خدٌّ نرجسىٌّ لواحظ ... مشايخُ عِلْمِ السحر عن لحظه رووا
وداوات صُدْغَيْه حكَيْن عقاربًا ... من المسك فوق الجُلَّنار قد التووا (١)
ووجنته الحمرا تلوّحُ كجمرةٍ ... عليها قلوبُ العاشقين قد اكتووا
وُدِّى له باقٍ ولست بسامع ... لقول حسودٍ والعواذلُ إذ عووا
ووالله ما أسلو ولو صِرْتُ رِمّةً ... فكيف وأحشائى على حبِّه انطووا ؟

وللشيخ برهان الدين القيراطى أيضًا :

شبّه السيف والسنان بعينى ... مَنْ لِقَتْلى بين الأنامِ استَحَلاّ
فَأبى السيفُ والسِنّانُ وقالا ... حَدّنا دون ذاك حاشى وكلا

وله أيضا :

بأبى أهيفُ المعاطفِ لَدنُ ... حَسَدَ الأسمرُ المثقفُ قدّه
ذو جفون مُذْ رُمْتُ منها كلامًا ... كَلَّمتْنِى سُيوفهنّ مُحدّه

وقال آخر :

تَمَلَّكَ رِقّى شادنٌ قد هَوِيتُه ... من الهند مَعسولُ اللَّمى أهيفُ القَدِّ (٢)
أقولُ لِصَحْبى حين يَرْنو بِطرفِه ... خذوا حِذرَكم قد سَلّ صَارِمَه الهندى

ومما قيل فى الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديرى (٣) :

خيالُ سلمى عن الأجفانِ لم يغبْ ... وطيفُها عن عِيانى غيرُ مُحتجبِ
وذكرها أُنسُ رُوحى وهى نائيةٌ ... والقلبُ ما زال غَيْرُ مُنقلبِ
لِمَ أصغِ فيها للاحٍ راحَ يَعْذِلُنى ... ولا لواشٍ خلى بات يلعب بى
عذابها فى الهوى عذبٌ ألذُّ به ... ومرُّ هِجْرانها أحْلى من الضَّرَبِ (٤)
فَإنْ نَأَتْ أو دَنَتْ وَجْدِى كما عَلِمَتْ ... تشيبُ فيهِ الليالى وهو لم يَشِبِ
دَعْهَا فأمرُ هوى المحبوبِ مُتّبعٌ ... وغيرُ طاعَتِه فى الحبِّ لم يَجِبِ

وقال عفا الله عنه :

سقى طللاً حَلّتْهُ سَلْمَى مُعاهدٌ ... وحيّاه من دمعى مذابٌ وجامدُ
فَرَبْعٌ به سلمى مصيفٌ ومربعٌ ... وأرضٌ نأت عنها قفارٌ جَلامِدُ (٥)
وحيثُ ثَوَتْ أرضًا فأعذبُ مَوردٍ ... ولو كَدّرَتْ منها علىّ الموارِدُ

---

(١) الجلنار : زهر الرمان . (٢) اللمى : رضاب ريقها . (٣) محمد بن محمد : توفى ١١٤٠هـ .
(٤) الضرب : العسل الأبيض الغليظ . (٥) جلامد : الصخر . قفار : المكان الخالى من الناس .

رعى اللّهُ دهرًا سَالَمتنى صروفُه … وظلّت لياليه بِسَلمى تساعدُ (١)
وقد غَفَلَ الواشون عني ولم أزلْ … ويقظانُ طرفِ البين عنىّ راقدُ
وأيامنا بالقرب بيضٌ أزاهرُ … وأوقاتنا بالوصلِ خُضْرٌ أمَالدُ (٢)
وأرواحنا ممْزُوَجةٌ وقلوبُنا … ونحن كأنَّا فى الحقيقة واحدُ
وكم قد مَرَجْنا في مُروج صَبَابَة … ولم يطْردْ فينا من البين طارد
نجُرُّ ذُيولَ اللهو في قُمُص الهوي … تلوحُ علينا للغرام شواهدُ
ولم يَخْطرِ التفريقُ منا بخاطرٍ … ولم نحسبِ الأيام فينا تُعاندُ (٣)
فهل أنتِ يا سلمي وقد حكم الهوي … كما كنت لى أم حادٍ بالقلب حائدُ ؟
وهل ودُّنا باق وَإلاَّ تغيرت … على عادة الأيام منك العوائدُ ؟
وهل مُحيتْ آثارُ رَسْمِ حَديثنا … وأنساك حفْظَ الودِّ هذا التباعدُ ؟
وهل تَذْكُرِينَ العهدَ إذا نحن باللِّوى … وقولُك لا عاش الخؤون المعاهدُ (٤)؟
وهل أنتِ غَيَّرْتِ الذى أنا حافظٌ … وهل أنت أحللتِ الذى أنا عاقدُ (٥)؟
وهل بُدِّلَتُ منكِ المودّةُ بالجفا … وفيكِ يقينى بالوفا منُك شَاهدُ (٦)؟
وإنّى ما بَدّلتُ عَهْدَكِ فى الهوى … ولا اخْتَلَفَتْ فيما عَلمتْ العوائدُ
ولا بِتُّ مسرورًا وَعَيشُك ليلةً … وكيف سُلوى والحبيبُ مُباعدُ ؟
فإن كُنتِ حَبْلَ الودِّ صَرَّمْتِ طَرْفَه … فَوُدِّى طريفٌ فى هواكِ وتَالدُ (٧)
وإنْ قُلْتِ: إنَّ الحبَّ غيرُ النوى … لَعَمْرى وَجْدِى بالحشاشةِ وَاقدُ
وإن أوردوا يومًا صَبَابَةَ عاشق … فبى يَضْرِبُ الأمثالَ مَنْ هو واردُ
فما شِئْتِ كُونى إنّى بكِ مُدنفٌ … صبورٌ على البلوى شكورٌ وحامدُ
وَمِنْكِ تَساوى عندى الوصل والجفا … وفيك لقد هانت علىّ الشدائدُ
ولو رُمْتُ ألْوِى عن هواكِ أعِنّتِى … لَقَادَ زِمَامِى نحو حُبّكِ قائد (٨)
نَصَبْتِ شراكَ الحُبِّ صِدْتِ حشاشتى … فكيف خَلاصى والهوى منك صَائدُ؟
بَعُدْتُ وقُلْتُ البينُ يُسْلى أخا الهوى … وهَلْ يُسْلِى ذا الأشجانِ هذا التباعدُ؟

---

(١) صروف الدهر : مصائبه .
(٢) الأملد : الناعم الملمس .
(٣) الخاطر : ما يخطر بالقلب أو النفس من أمر
(٤) اللوى : اسم مكان .
(٥) أحللت : فك العقد ونقض العهد .
(٦) الجفا : البعد .
(٧) طريف : جديد . تالد : قديم .
(٨) أعنتى : جمع عنان : لجام الفرس والدابة .

وما غَيرُ التفريق ما تعهدينه وسُوقُ (١) سُلُوِّى فى المحبِّين كاسدُ
وَجُلّ مُناى القربُ منك وإنّما إذا عَظُمَ المطلوبُ قلَّ المساعدُ

وقال عفا اللهُ عنه :

تُهدّدنى بتبريح (٢) وبَيْنِ وتُوعِدنى بتفريق وَصَدِّ
وتحلفُ لى لَتُلْبسُنِى سَقامًا تهى جِلْدِى به وتُذيبُ جِلْدِى (٣)
وتَرْمينى بنبلٍ من الجفون فتُضْنِينِي وتُصْمِينى وتُرْدِى
وتحرِقُنى بنارِ الصدّ حتى تُذيبَ حشاشتى كمدًا وكبدِي
فقلتُ لها ودَمعى فى انْسِكابِ يَفيضُ دمًا على صفحاتِ خدّى
ومَنْ لى أنْ يقالَ قتيلُ وجدٍ وأذكرُ فى هواكِ ولو بصدّى

وقال عفا الله عنه :

سُلُوى عَنكِ شىءٌ ليس يُرْوى وحُبى فيكِ سَارَ مع الرّكابِ
ولم يَمرُرْ سواكِ على ضميرى ووَجْدِى فيك أيْسرُه عذَابى
ومَا لَكِ عن سوادِ العينِ يومًا وما لِسَوادِ قَلْبِى من حجابِ
وما اخْضَرَّتْ دوَاعِى الشوقِ إلا هزَزْتُ إليكِ أجنحةَ التَّصَابى

وقال عفا الله عنه :

قِفَا نَبْك دارًا شطّ عنّا مَزارُها وأنحلَنَا بُعْدُ البعاد ادكارُها
وعُوجا بأطلالٍ مَحَتْها يَدُ النَّوى فأظلَم بالنَّأى المشُتُّ نَهَارُها (٤)
فَقَدْنا بها رِيمًا من الإنسِ إن رَنَتْ بمُقْلَتِها يُصْمى القلوبَ احْورَارُها (٥)
تصيدُ قلوبَ العاشقين أنيسةٌ ويَحسنُ منها صدّها ونفارُها
ريهزأُ بالأغصان لينُ قَوامها إذا مالَ فوق الغصنِ منها خمارُها
وليس لِبدرِ التّمّ قامةُ قَدِّها وما هو إلا حِجلُها وسوارُها (٦)
منازلُها منّى الفؤادُ وإنْ نأى عن العين مَثْواها ففى القلب دَارُها
يمثلُها بالوَهْمِ فِكْرى لناظرى وأكثرُ ما يُضْنِى النفوسَ افْتِكارُها

---

(١) سوق : ما يتجمع الناس فيه للبيع والشراء .
(٢) تباريح : لوعة الحب وقسوته .
(٣) تهى : تضعف . الجلد : الصبر والقدرة .
(٤) شط : تباعد وتناءى . المشت: المباعد المفرق.
(٥) الريم : الظبى الخالص البياض . احورارها : السحور : شدة البياض مع شدّة السواد مع الاتساع في العين .
(٦) الحجال : الخلخال يلبس في الرِجْل . السّوار : حِلْيَة من الذهب ونحوه مستديرة تلبس فى المعصم .

وهيّج دمعى حَرُّ نار صبابتى وما خمدت بالدمع منى نارها
وساعدنى بالأيْكِ ليلا حمائمٌ تُهاتِفُ شجوًا لا يقرّ قرارُها (١)
بكَيْنَ ولم تسفحْ لهنّ مدامعٌ وعينىّ فاضت بالدمعِ بِحارُها

ولمؤلفه ـ رحمه الله تعالى ـ ، وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله ستر ما يراه من عيوبه وأن يدعو له بمغفر ذنوبه :

نسيمَ الصبا بلّغْ سُلَيْمى رسائلى بلطف وقل عن حال صبك سائلى
فقد صار بالأسقامِ صبًّا مُعَذبا قريح جفون من دموع هوامل
صبورًا على حَرِّ الغرامِ وبَرْده حليف الضنى لم يصغ يومًا لعاذل (٢)
يبيتُ على جَمَرِ الغضى مُتقلبًا يئن غرامًا فارحميه وواصلى
الا يَا سُلَيْمَى قد أضرّ بى الهوى وهاجت بتبريح الغرام بلابلى
رُميتُ بِسهم مَنْ لِحَاظِكَ قاتلٍ فلم يخُطِ قلبى والحشى ومقاتلى
كتمتُ غرامى فى هواكِ ولم أبح بسر فناحت أدمعى برسائلى
سُلَيْمَى سَلِى ما قد جَرى لى من النوىٰ فقد عاد لى حال له رقّ عاذلى
لعلّ تجودى لِلْكَئِيبِ وتَسْمحى بوعدِ بعد الوعد إن شئت ماطلى
عسى تنْطفِى بالوعدِ نارى واشْتفِى فبالسقم أعضائى وهت ومفاصلى (٣)
خَفيت عن العوّاد لولا تأوّهى وعظم أنينى لا يرانى مسائلى
فرِقّى فقد رَقّتْ عِداى لِذلّتى وفاضت على حالى عيون عواذلى
قطعتُ زمانى فى عسى ولعلّها وما فزت فى الأيام منك بطائل (٤)
فما آن أنْترضى علىّ وَترْحَمى ضنى جسدى فالوجدُ لا شك قاتلى
توسّلت بالمختارِ فى جَمْعِ شَمْلنا نبى له فضل على كل فاضل

وله رحمه اللّه تعالى :

يا ربّةَ الحسنِ مَنْ بالصدِّ أوصَاكى حتى قَتَلْتِ بفرطِ الهجر مُضنَاكى
ويا فتاةً بفتّانِ القوام سَبَتْ مَنْ فى الورى يا تُرى بالقتلِ أفتَاكى
لقد جُنِنْتُ غَرامًا مذ رأى نظرى فى النوم طيفَ خيال مِنْ مُحياكى

---

(١)الأيك : الشجر كثير الأغصان لينها . تهاتف : شديد الصياح والتجاوب .
(٢)الضنى : شدة المرض حتى نحل جسمه . (٣)أشتفى : أبرأ . السقم : المرض . وهت : ضعفت .
(٤)عسى : فعل من أفعال الرجا . لَعَلّ : من أخوات « إنّ »تفيد التوقع وتَرَجّى المحبوب .

وَمُذْ رآه جفا طيبُ المنام وقد أضحى عليلا حزينًا لم يزل باكى
عذّبتنى بالتجنىّ وهو يعذِبُ لى فهل ترى تسمحى يومًا برؤياكى؟
إن كُنْت لم تذكرينا بعد فرقتنا فالله يعلم أنّا ما نسيناكى
ما آن أنْ تعطفى جودًا علىّ فقد أضحى فؤادى أسيرًا لحظ عيناكى
ما كنتُ أَحْسَبُ أن العشقَ فيه ضنى ولا عذاب نفوس قبل أهواكى
حتى تولّع قلبى بالغرام فما أمسى أسيرًا سوى فى حسن معناكى
رقّى لعبدكِ جودًا واعطفى وذرى ولا تطيلى بحقّ الله جفواكى
يا هندُ رِفقًا بقلبٍ ذابَ فيكِ أسى ومهجةٍ تلفت ما هند أقساكى
رَقَّ العذولُ الحالى فى الهوى ورثى وأنت يا هند لا ترثى لمضناكى
واللّهِ لو مِتُّ ما أسلاك يا أملى ولو فنيت غرامًا لست أنساكى

وقال آخر :

كأنّ فؤادى يوم سِرْتُ دليلُ يسير أمام العيس وهو ذليل ُ(١)
فصرتُ عقيب الظاعنين لكى أرى فؤادى سَرى فى الركب وهو عجولُ (٢)
وقائلةٍ لى كيف حالُكَ بعدنا ؟ لتعلمَ ما هذا إليه يؤولُ
فقلت لها : قدْ مُتُّ قبل ترحلى فَمِنُ باب أوَلى أن يَجِدّ رحيلُ
وقلت : فليلى طال همّا فأنشدت وما زال ليلُ العاشقين طويلُ
فقلت : وجسمى لم يزل مترجّفًا فقالتْ وجسم العاشقين نحيلُ
فقلت لها : لو كنتُ أدرى فراقنا بيومِ وداعٍ ما إليه سبيلُ
قلعت لعينى فى هواكِ بأصبعى لكيلا أرى يومًا علىّ ثقيلُ

وقال الوأواء الدمشقى (٣)ـ عفا اللّه عنه ـ :

يَا مَنْ نَفَتْ عنىّ لذيذَ رُقادِى مَا لى وما لك قد أطلتِ سُهادى
فَبِأَىِّ ذنبِ أمْ بِأية حالةٍ أبْعَدتنى ولقد سكنتِ فؤادى
وصددتِ عنىّ حين قد مَلَكَ الهوى روحى وقلبى والحشا وقيادى

---

(١)العيس : كرام الإبل .
(٢)عقيب : خلف الراحلين . عجول : مسرع .
(٣)هو محمد بن أحمد الغسانى الدمشقى ، أبو الفرج . شاعر مطبوع . كان فى البدء مناديا بدار البطيخ بدمشق آثاره : ديوان شعر مطبوع توفى فى دمشق نحو سنة ٣٨٥هـ .

ملكتْ لحاظُك مُهجتى حتى غدا … قلبى أسيرًا ماله من فادى
لا غرو إن قتلتْ عيونُك مُغرمًا … فَلَكَمْ صَرَعَتْ بها من الآسادى
يا مَنْ حَوت كُلّ المحاسن فى الورى … والحسنُ منها عاكفٌ فى بادى (١)
رِفقًا بمن أسرَتْ عيونُك قلبَه … ودعى السيوفَ تقرُّ فى الأغماد
وتَعطفى جُودًا علىّ بِقُبلة … فبميم مَبْسمِك شفاهُ الصَّادى (٢)
مَاتَتْ أطال اللّه عُمْرَك سلوتى … ولقد فنى صبرى وعاش سهادى
وَمِنَ المنى لو دام لى فيك الضَّنى … يا حبذا لأراك من عوّادى (٣)
وأجيل منك نواظرى فى نضر … من خدّك المترقرق الوقّاد
وأقولُ ما شئتِ اصنَعى يا مُنْيَتِى … مَا لِى سِواك ولو حُرِمْتُ مُرادى (٤)
إلا مديحَ المصطفى هو عمدتى … وبه سألقى اللّهَ يوم ميعادى

وقال البهاء زهير (٥) :

إذا جنّ لَيْلِىَ هامَ قلبى بذكرِكُمْ … أنوحُ كما ناح الحمامُ المطوّقُ
وفوقى سحابُ يمطرُ الهَمَّ والأسى … وتحتي بحارٌ بالجوى تتدفّقُ
سلوا أمّ عمروٍ كيف بات أسيرُها ؟ … تفُكُّ الأسارى دونه وهو مُوثقُ
فَلا أنا مقتولٌ ففى القتلِ راحةٌ … ولا أنا مَمْنُونٌ عليه فَيُعْتقُ

مجنون ليلى :

وقد خبّرونى أن تيماءَ منزلٌ … للَيْلى إذا ما الَّليْلُ ألقى المراسيا
فهذى شهورُ الصيف عنّا ستَنْقَضى … فَمَا للنوى يرمى بليلى المراميا
أَعُدّ الليالى لَيْلَةً بعد ليلة … وقد عشتُ دهرًا لا أعدُّ اللّيَاليا
وأخرج من بين البيوتِ لعلّنى … أُحدِّثُ عنك النفس بالليل خاليا
ألا أيها الركبُ اليمانون عَرّجوا … علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
يمينًا إذا كانت يمينًا فإن تكن … شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا
أُصلّى فما أدرى إذا ما ذكرتُها … اثنتين صلّيت الضُّحى أم ثمانيا
خليلىّ لا واللّهِ لا أملك الهوى … إذا عَلَمٌ من أرض ليلى بَدَا لى

(١)العاكف : المقيم : البادى : الطارق غير المقيم .
(٢)الصادى : الظامئ .
(٣)عوادى : زُوّارى .
(٤)سِواك : غيرِك . مُرادى : مطلبى .
(٥)سبق التعريف به .

خليلىّ لا واللهِ لا أملك الذى … قضى اللّهُ فى لَيْلَى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبّها … فهلا بِشىء غيرِ ليلى ابتلانيا
ولو أنّ واشٍ باليمامة دارُه … ودارِى بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وددتُ على حُبّى الحياة لو أنه … يزاد لها فى عمرها من حياتيا
على أنّنى راض بأن أحمل الهوى … وأخلصُ منه لا علىّ ولا ليا
إذا ما شكوتُ الحبَّ قالتْ : كَذَبْتَنى … فما لى أرى الأعضاءَ منك كواسيا (١)
فلا حُبّ حتى يَلْصقَ الجلد بالحشى … وتَخرُسُ حتى لا تُجيبَ المناديا (٢)

وقال آخر :

قالت لطيف خيالٍ زارنى ومضى … : باللّهِ صِفْه ولا تُنْقِصْ ولا تَزِدِ
فقال : خلّفته لو مات من ظمأ … وقلت قف عن ورود الماء لم يردِ
قالتْ : عهدتُ الوفا والصدقَ شِيمتَهُ … يا برد ذاك الذى قالت على كبدىِ

كمال الدين بن النبيه (٣) :

أما وبياضُ مَبْسَمِك النقى … وسُمْرَةُ مِسكَةِ اللَّمْسِ الشهى
ورمّانٌ من الكافورِ تعلو … عليه طوابعِ النَدّ الندى (٤)
وقَدّ كالقضيبِ إذا تثنىّ … خشيتُ عليه من ثقلِ الحلى
لقد أسْقَمْتِ بالهجران جسمى … وأعطشنى وصَالكُ بعد ريّى
إلى كم أكتمُ البلوى ودمْعِى … يبوحُ بمضمر السِّر الخفى
وكم أشْكو للاهيةٍ غرامى … فويلٌ لِلشَّجِىّ مِنْ الخلى

صفى الدين الحلى (٥) :

أبت الوصالَ مخافةَ الرُّقباء … وأتتك تحت مُدارعِ الظلماء
أصْفَتْكَ من بعد الصدود مودةً … وكذا الدواءُ يكونُ بعد الداءِ

(١) أرى الأعضاء كواسيا : ممتلئة شحما ولحما . وهذا تعليل لكذبه وأمارة ذلك الذى تراه .
(٢) علامات الحب الحقيقى : الضمور فيلزم الجلد بأحشاء البطن . ويضعف الصوت فلا يقدر على إجابة من يناديه .
(٣) كمال الدين بن النبيه (١٢١٠ ـ ١٢٨٢م) . شاعر مصرى . العصر الأيوبى. كتب للملك الأشرف موسى . توفى في نصيبين . له ديوان « الخليفيات » .
(٤) النَّدُّ : نبات يتبخر بعوده .
(٥) عبد العزيز بن سرايا بن على الطائى . شاعر مادح لكل من يلقاه من الملوك والأعيان . آثاره : « الدر النفيس فى أجناس التجنيس » و « النتائح الإلهية » . توفى فى بغداد سنة ٧٥٠هـ .

أَحيَتْ بِزَوْرَتِها النفوسَ وطالما ضَنّتْ بها فقضَتْ على الأحياء
أَمْسَتْ بليلٍ والنجومُ كأنّها درٌّ بباطن خيمةٍ زرقاء
أَمْسَتْ تُعاطينى المدام وبيننا عتبٌ غَنِيتُ به عن الصهباء (١)
آبت إلى جسدى لتنظرَ ما انتهتْ مِنْ بَعْدِها فيه يَدُ البرحاء (٢)
ألفت به وقعِ الصِّفاحِ فَراعَها جزعًا وما نظرتْ جِراحَ حشائى
أمصيبةٌ منا بنبلِ لحاظها ؟ ما أخطأته أسنةُ الأعداءِ
أَعَجِبْتِ مما قد رأيتِ وفى الحشا أضعافُ ما عَايَنْتِ فى الأعضاء
أمسى ولست بسالم من طعنةٍ نجلاء أو من مُقْلةٍ نجلاء

وله رحمه اللّه تعالى :

قِفى وَدِّعينا قبل وَشْكَ التّفرُّقِ فما أنا من يحيا إلى حين نلتقى
قضيتُ وما أودى الحمامُ بمهجتى وشِبْتُ وما حلّ البياضُ بمفرقى
قنعتُ أنا بالذلِ فى مذهب الهوى ولم تفرقى بين المنعّم والشقى
قَرَنْتِ الرضا بالسخطِ والقربِ بالنوى ومزّقتِ شمل الوصالِ كُلّ ممزقِ
قبلتِ وصايا الهجر من غير ناصحِ وأحببت قول الهجر من غير مشفقِ
قطعتِ زمانى بالصّدود وزرتنى عشية زمّتْ للترحُّلِ أينقى (٣)
قَضَى الدهرُ بالتفريقِ فاصطبرى له ولا تَذْمُمِى أفعاله وترفّقى

وقال عفا اللّه عنه :

جاءت لتنظر ما أَبْقَتْ من المهجِ فعطّرت سائر الأرجاء بالأرج (٤)
جلت علينا محيا لو جلته لنا فى ظلمةِ الليلِ أَغْنَتْنا عن السُرُجِ (٥)
حوريّة الخد تحمى ورد وجنتها بحارسٍ من نبال الغنجِ والدّعج (٦)
جزت إساءة أفعالى بمغفرة فكان غُفرانُها يُغنىِ عن الحججِ
جادت لعرفانها أنّى المريض بها فما علىّ إذا أذنَبْتُ من حَرَجِ
جسّت يدى لترى ما بى فقلت لها كَفَى فَذاك جوى لولاك لم يهجِ (٧)

(١) الصَهْباء : الخمر . (٢) البرحاء : شدة الحمّى .
(٣) أينقى : النوق . زمت : استعدت وتهيأت للرحيل .
(٤) المهج : جمع مهجة : خالص كل شىء . دم القلب . وأيضا : الروح . الأرج : الطيب .
(٥) الجلى : الكشف والوضوح .
(٦) الغنج : التدلل . الدعج : سعة فى العينين مع شدة السواد . (٧) الجوى : حرقة الحب وقسوته .

جَفَوْتَنِى فرأيتُ الصبرَ أجمل بى والصمتُ فى الحب أولى من اللهج
جارتْ لحاظُكِ فينا غير راحمةٍ ولذّةُ الحبِّ جورُ الناظرِ الغنج

وقال ابن نباتة (١) :

رقّت لنا حين همّ السفرُ بالسفرِ وأقبلت فى الدجى تسعى على حذرِ
راض الهوى قَلْبَها القاسى فجادَ لنا وكان أبخلَ من تموزَ بالمطرِ
رأت غداة النوى نار الكليم وقد شبّت لم تبقِ من قلبى ولم تذرِ (٢)
رشيقةٌ لو تراها عندما سفرَت والبدرُ ساهٍ إليها سهو معتذر
رأيت بدرين من وجهٍ ومن قمرٍ فى ظل جنحين من ليلٍ ومن شَعْرٍ
رشفت درّ الحميّا من مُقبّلها إذ نبّهتنى إليها نسمةُ السّحرِ
رَنَتْ نجومُ الدجى نحوى فما نظرت مَنْ يرشفُ الراح قبلى من فم القمرِ (٣)
راق العتابُ وأبدتْ لى سرائرَها فى ليلةِ الوصل بل غُرَّةِ القمرِ

وقال ابن الساعاتى(٤) :

قبّلتها ورشفتُ خمرةَ رِيقِها فوجدت نارَ صَبابةٍ فى كوثرِ
ودخلتُ جنةَ وَجْهِها فَأَباحنى رِضْوانُها المرجوّ شربَ المسكرِ

وقال آخر :

بكتْ للفِراقِ وقد راعَها بكاءُ المحب لبعد الدّيار
كأنَّ الدموعَ على خدّها بقيةُ طَلٍّ على جُلَّنارْ (٥)

الوأواء الدمشقى تضمين :

قالتْ متى الظعنُ يا هذا ؟ فقلت لها إمّا غدًا زعموا أو لا فبعدُ غَدِ

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) الكليم : موسى ـ عليه السلام : « نار » الكلم : ذكرها الله بقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ [القصص : ٢٩] .

(٣) رنت : رنا : أدام النظر فى سكون طرف .

(٤) على بن رستم بن هردوز . المعروف بابن الساعاتى (٥٥٣ ـ ٦٠٤هـ) بهاء الدين . أبو الحسن . شاعر . آثاره : «ديوان شعر فى مجلدين » وديوان آخر سماه « مقطعات النيل » توفى بالقاهرة .

(٥) الطلّ : المطر الخفيف . جلنار : زهر الرمان .

فأمطرتْ لؤلؤًا من نَرْجِسٍ وَسَقَتْ ... وردًا وعضّت على العناب بالبَرَدِ (١)

لابن نباتة :

عذولى لستُ أسمعُ منه قولا ... على غيداءَ مثل البدرِ تمًّا (٢)

له طرفٌ ضريرٌ عن سَنَاهَا ... ولى أذنٌ عن الفحشاء صَمّا

وقال آخر :

وربّ ليالٍ فى هواها سَهِرْتُها ... أرْعَى نجومَ الليل فيها إلى الفجر

حديثى عالٍ فى السهادِ لأنّنى ... رَوَيْتُ أحاديثَ السُّهادِ عن الزّهرىَ

السراج الوراق (٣):

يا لائمى فى هواها ... أسْرَفْتَ فى اللومِ جَهْلا

ما يعلمُ الشوقَ إلا ... ولا الصبابة إلا

وقال آخر :

وَعَدَتْ أن تزورَ ليلا فَألْوَتْ ... وأتت فى النهار تسحبُ ذَيْلا

قلتُ هلا صدقت فى الوعد ؟ قالتْ ... : كيف صدّقْتَ أن ترى الشمسَ ليلا ؟

لعز الدين الموصلى :

قد سلونا عن الغزال بخودٍ ... ذات وجه بها الجمالُ تُفْتَنُ (٤)

وَرَجَعْنا عن التهتّك فيه ... وَدَفَعْنَاه بالتى هى أحسن

وقال آخر :

قالتْ وناولتُها سِوَاكا ... سادَ بفيها على الأدرك

سواى ما ذَاقَ طَعمَ رِيقى ... قُلْتُ لَهَا ذَاقَه سِوَاكِى

وقال آخر :

سألتُها أن تعيدُ لفظًا ... قالت مُحبٌ دَعُوه يُعْذَرُ

حديثُها سُكَّرٌ شَهِىٌّ ... وأحسنُ السكَّرِ المكرّرُ

---

(١) لؤلؤا : استعارة تصريحية : اللؤلؤ : الدمع .النرجس : نبت من الرياحين . زهرته تُشبَّه به الأعين . الورد: الخدود استعارة تصريحية أيضا شبه الخد بالورد . وحذف الخد . العناب : شجر ثمره أحمر . يعنى أصابعها أطرافها حمراء . غضها بأسنانها التى تشبه الماء الجامد الذى يسمى : حَبُّ الغمام ، وحَبُّ المزن ـ المطر ـ .

(٢) الغيداء : الحسناء .

(٣) سراج الدين عمر بن محمد بن حسَن الوراق المصرى . الفائزى . شاعر مجيد . ولد بمصر . تكسَّب بنسخ الكتب وبيعها فلقب بـ« الوراق » ت ٦٩٥هـ .

(٤) الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخلق .

ابن نباتة :

وملومةٍ في الحبِّ لما أنْ راتْ أثر السَّقامِ بِجِسْمي المنهاضِ
قالت تَغَيَّرْنا فقلتُ لها نَعَمْ أنا بالسَّقام وأنتِ بالإعراضِ

وقال أبو الطيب المتنبى :

بأبي الشموسِ الجانحاتِ غواربا اللابساتِ من الحرير جلاببا
الناهباتِ عيوننا وقلوبنا وجناتهنّ الناهباتِ النّاهبا
الناعماتِ القاتلاتِ المحيياتِ المبدياتِ من الدلالِ غرائبا
حَاولنْ تَفْدِيَتي وَخِفْنَ مُراقبًا فَوَضَعْنَ أيديهُنّ فوقَ ترائبا
وَبَسِمْنَ عن بَرْدٍ خَشِيتُ أذيبُه من حَرِّ أنفاسِي فكنتُ الذائبا
يا حبّذا المتجملون وحبّذا وادٍ لَثِمْتُ به الغزالةَ كَاعبا
كيف الرجاءُ من الخطوبِ تخلّصا مِنْ بعدِ أنْ أنشبْنَ فى مخالبا

وله أيضًا من جملة قصيدة :

ولما التقينا والنوي وَرَقيبُنَا غَفُولان عنّا ظَلْتُ أبكى وَتبسُمُ
فلم أر بدرًا ضاحكًا قبل وجهها ولم تَرَ قَبْلى ميّتًا يَتَكلمُ

الشريف الرضى :

وتميسُ بين مُزعفَرِ ومُعَصفَرِ ومُعنبرِ ومُمَسّك ومُصندل (١)
هيفاء إن قال الشبابُ لها : انْهضي قالت روادفها اقْعُدى وَتَمهَّلِي
وإذا سألتَ الوصل قال جمالُها جُودى وقالَ دَلالُها لا تَفْعَلِي

ابن إسرائيل (٢) :

وَعَدَتْ بوصلٍ والزمانُ مُسَوِّفُ حواراءُ ناظرُها حسامٌ مرهفُ
نشوانةٌ خصباء مُنهلُ ثَغرُها درٌّ وَرِيقُها سُلافٌ قَرْقَفُ (٣)
وتخالُ بين البدرِ منها والنَّقا غُصنًا يَميسُ به النسيمُ مُهَفْهَفُ (٤)
لا تَحْسَبَنَّ الخُلْفَ شِيمة مِثْلِها وَعَدتَ ولكنّ الزّمانَ يُسوّفُ

---

(١) تميس : تتمايل . مصندل : شجر هندى أبيض ، وخشبه طيب الرائحة .

(٢) محمد بن سوار . . نجم الدين الشيبانى ، ولد بدمشق . شاعر غزل . تصوف . ماثل ابن الفارض . رحل فى البلاد . وذاعت شهرته . آثارة : ديوان شعر . توفى فى دمشق سنة ٦٧٧هـ .

(٣) سلاف : خمز قرقف : خمز صافية . (٤) مهفهف : متحرك لضمور بطنها . ودقة خصرها ونحافته .

يا بانةً قد أطْلَعَتْ أغصانُها ... وردًا جنيًّا باللواحظ يُقطَفُ
وغزالةً يَحكي الغزالةَ وَجْهُهَا ... ويُعِيرُ ناظَرها الحسامُ الأوْطَف (١)
ما تأمرين لِمُغْرَمٍ تَسْطو به ... اجفانُكِ المرضى ولا تُستَعطفُ
قَسَماً بوجهكِ وهو صبحٌ مُشرقٌ ... وسوادُ شَعْرِكِ وهو ليلُ مُسْدفُ (٢)
وَيهزَّ غصنُ البانُ مَنكِ علي النقا ... ما لى إلى أحدٍ سِواك تشوُّفُ (٣)

ولنذكر إن شاء الله تعالى فى هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب للشيخ شمس الدين بن الرندى (٤) :

ولما نأتْ سلمى وشطّ بها النوى ... وأيقنت أنّى بالغرام أذوبُ
علقتُ بأخرى غيرها مُتلاهيًا ... ليُطفى ضرامُ فى الحشا ولهيبُ

وله فى المعنى :

تلاهيتُ عنها فى الغرام بغيرها ... وقلتُ لقلبى هذه هىَ زينبُ
وَقَبَّلْتُ فاهًا مُبردًا لِصبابتى ... فأضرمت نارًا فى الحشا تتلهّبُ
فكنتُ كمن هو ذا غريقًا بلجةٍ ... تمسّك بالموج الذى يتقلّبُ

وقال أيضًا :

سألتُ القلبَ هل مَيلى لليلى ؟ ... وهل عند الفؤاد لها التفاتُ ؟
فقال : الآن لا لكنْ تَأَنَّى ... فقلتُ الحبُّ فيه تقلُّباتُ
فإنَّ الحبَّ يهجمُ بعد يأسٍ ... ويَعْتادُ المحبُّ تَغَيُّرَاتُ
فلا تُظهرْ لها يومًا سُلوًا ... فتفضحك التصابى الوارداتُ
وتُرمى بالصدودِ وبالتَّجَنى ... وتنحلك الوعودُ الكاذباتُ
فكن جلْدًا ولا تك ذا لَجَاجٍ ... فما يُغنِيكَ إنْ فاتَ الفواتُ (٥)

وقال البيطار (٦) :

---

(١) الغزالة : الشمس عند طلوعها : الأوطف : كثيرة شعر العينين والحاجبين وكذ الأشفار .
(٢) مسدف : مظلم . (٣) تشوف : تطلع إليه .
(٤) يوسف بن موسى (القاضى الشاعر) . توفى سنة ٧٦٧هـ .
(٥) جلدًا : صلبا قويا . لجاج : التمادى فى الأمر ورفض الانصراف عنه .
(٦) الحسين بن أحمد المعروف بالبيطار أبو عبد الله . عالم مشارك فى الفقه والحديث والأدب ومعانى القرآن ، التفسير، والتصوف . رحل إلى الحجاز والعراق . توفى سنة ٣٦٣هـ .

يقولون : هذى أمّ عمروٍ قريبةٌ دنتْ بِكَ أرضُ نحوها وسماءُ
ألا إنّما قُرْبُ الحبيبِ وبُعْدُه إذا هو لم يوصلُ إليه سَواءُ

وقال غيره :

وقالوا بعْ حبيبَكَ وابْغِ عنه حبيبًا آخرًا تحيا سعيدًا
إذا كان القديمُ هو المصافِى وخان فكيف أأْتمِنُ الجَدَيَدا؟

وقال آخر :

لم أنسَ إذ قلتُ من وجدى لها غلطًا ووجهها مُشرق فى حِنْدسِ الظُّلَمِ (١)
: سلوت عنك فقالت وهى ضاحكةٌ لتقْرَعنّ عَلَىّ السن من ندم

وقال آخر :

أمِنَ المروءَةِ أن أَبيتَ مُسهّدًا قلقًا أبلُّ مَلابسى بِدُموعِى
وتبيتُ ريّان الجفونِ من الكرَى وأبيتُ مِنكِ بليلةِ الملسوعِ

وقال آخر :

إلى اللّه أشكو جور أهيفِ شادن وقعتُ فما لى مِنْ يَدَيْه خلاصُ
جرحتُ بعينى خدّه وهو جارحٌ بِعينيه قلبى و الجروح قِصاصُ

وقال آخر :

قد كنتُ أسمعُ بالهوى فأُكذّبُ وأرى المحبّ وما يقولُ فأَعْجبُ
حتى رُمِيتُ بِحلْوه وبِمُرِّه مَنْ كان يتهمُ الهوى فيُجَرّبُ

وقال آخر :

سألتُها التقبيلَ مِنْ خدّها عشرًا وما زادَ يكونُ احتسابُ
فَمُذْ تلاقَيْنا وقَبّلْتُها غَلِطتْ فى الْعَدِّ وضاعَ الحِسَابُ

وقال آخر :

يا مَنْ سقامى من سَقَامِ جفُونه وسوادِ حظّى مِنْ سوادِ عيُونه
قَدْ كُنْتُ لا أَرْضى الوصالَ وفَوْقَهُ واليومُ أقنعُ بالخيالِ وَدُونه

وقال آخر :

صبّحتُه عند المساء فقال لى : تَهْزَى بِقَدْرى أو تريدُ مزَاحا (٢)
فأجبتُه إشراقُ وَجْهكَ غرّنى حتّى توهّمْتُ المساءَ صبَاحا

---

(١) غَلِط : غَلَطا : أخطأ وجه الصواب . حِنْدس : الليل الشديد الظلمة . (٢) تهزى : تهزأ وتسخر .

أبو عبد الله الغواص :

مَنْ عَذِيرى من عَذولٍ فى رشا فأمرَ القلبُ هواه فَقَمَرْ؟
قَمَرُ لم يُبقِ منى حُسْنَه وهواه غيرَ مقلوبِ قَمَرْ(١)

وقال آخر :

جَاذَبْتها والريحُ تَجذبُ بُرْقعًا من فَوْقِ خَدٍّ مثل قَلْبِ العقربِ (٢)
وَطَفِقْتُ أَلْثُمُ ثَغْرهَا فَتَحَجَبّتْ وتَسَتَّرَتْ عنى بقلبِ العقربِ (٣)

وقال آخر :

لو متُّ من كثرة الأشواقِ وانْبَدَلَتْ مَدامِعى بِدمٍ من كثرة السّهرِ
ما اخترت عنك سُلواً ولا نَظَرَتْ عينى لِغَيْرِ محيا وجهكِ القمرِ

إبراهيم بن العباس (٤) :

تمر الصبًا صفحًا بساكنِ ذى الغَضى ويُسرعُ قلبى إذا يَهُبَّ هبوبُها (٥)
قريبةُ عهدٍ بالحبيبِ وإنّما هوى كل نفسٍ أين حلّ حبيبها

وقال النوفلى :

إذا اختلجت عينى رأت من تُحبُّه فدام لعينى ما حَيِيتُ اختِلاجُها (٦)
وَمَا ذُقْتُ كاسًا مُذْ عَلِقْتُ بِحبِّها فأشربه إلاَّ وَدَمْعِى مِزَاجُها

وقال آخر ـ رحمه اللّه تعالى ـ :

يا ذا الذى زارَ وما زار كأنَّه مُقْتَبِسٌ نارا
قامَ ببابِ الدار مِنْ تِيهِهِ ما ضَرّه لو دَخَلَ الدارا

وقال آخر :

ولقد جَعلتُك فى الفؤاد مُحدّثى وَأَبَحْتُ منّى ظاهرى لِجَليسى
فالْكُلُّ منّىَ لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ وحبيبُ قَلبى فى الفؤادِ أَنِيسِى

---

(١) قمر . مقلوبه : رمق : بقية الروح أى أبقت فيه بقية الحياة .
(٢) برقع : قناع الوجه للنساء ـ اللثام ـ والجمع براقع .
(٣) طفق : فعل من أفعال الشروع والبدء فى اللثم .
(٤) إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول ، أبو إسحاق الموصلى (١٧٦ ـ ٢٤٣هـ) كاتب العراق فى عصره .
(٥) الصبًا : ريح لينة مهبها من جهة الشرق .
(٦) اختلاجها : اضطربت واهتزت .

ابن نباتة :

أناشِدُه الرحمنَ فى جمع شملنا ... فَيُقْسِمُ هذا لا يكونُ إلى الحشرِ
إذا ما غدا مِثلَ الحديد فؤادُهُ ... فو العصرِ إنّ العاشقين لفى خُسْرِ

أمين الدين بن أبى الوفاء :

يا نازلا منّى فؤادًا راحلا ... ومن العجائب نازلا فى راحل
أَضرَمْتَ قلبَ مُتيّم أهلكتَه ... وسكنته والنارُ مثوى القاتلِ

وقال آخر :

يا عاذلى فى هواه ... إذا بدا كيف أسلُو؟
يمرُّ بى كلَّ وقتٍ ... وكلّما مرّ يَحلُو

وقال الحاجبى :

ملأتُ فؤادى من محبة فاتنٍ ... أميلُ إليه وهو كالظبى رائغُ
وقلتُ لقلبى : قِمْ لِتَعْشقَ شادنًا ... سَوَاه فقال : القلبُ ما أنا فارغُ

وقال ديك الجن (١):

ولى كَبِدٌ حرّى ونفسٌ كأنّها ... بكفّ عدو ما يريدُ سَرَاحَها
كأنَّ على قلبى قطاةً تَذَكَّرتْ ... على ظمإ وردًا فهزّتْ جَنَاحَها

وقال عبد الله بن طاهر (٢):

أقامَ ببلدةٍ ورحلتُ عنه ... كلانا بعد صاحبه غريبُ
أَقَلُّ الناسِ فى الدنيا سرورًا ... مُحبٌّ قد نأى عنه الحبيبُ

وقال آخر :

ما اخترتُ تَرْكَ وَدَاعِكُم يوم النوى ... واللّه لا مَلَلا ولا لتجنّبِ
لكن خشيتُ بأن أموتَ صبابةً ... فيُقالُ : أنتَ قَتَلْتَه فَتُقَادَ بى (٣)

وقال ابن المعتز :

(١)عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام . . . بن تميم الكلبى . الحمى . السلمانى . المعروف بـ « ديك الجن » أبو محمد . شاعر . أصله من سلميه ولد بحمص سنة ١٦١ هـ . آثاره : ديوان شعره توفى سنة ٢٣٥هـ .

(٢)عبد الله بن طاهر الخزاعى بالولاء . أمير خراسان . ومن أشهر ولاة العباسيين فى الشام ومصر . ثم خراسان إلى أن توفى . سيدًا نبيلاً . ربيب المأمول توفى سنة ٢٣٠هـ .

(٣)تقاد : القود : القصاص . أى تقتل بقتلى .

هبْ لعينى رُقادَها وانْفِ عنها سُهادَها
وارْحم المقلةَ التى كنتَ فيها سَوادَها
كُنْ صَلاحًا لها كما كنتَ دَهرًا فَسادَها

وقال آخر :

وقالوا دَعْ مُراقبةَ الثّريَّا ونمْ فالليلُ مُسْوَدُّ الجناحِ (١)
فقلتُ : وهل أفاقَ القلبُ حتى أُفرِّقَ بين ليلى والصبَّاحِ

وقال آخر :

ولى فؤادٌ إذا طال النزاعُ به طار اشتياقًا إلى لُقْيَا مُعذِّبِه
يُفدِّيكَ بالنفس صبٌّ لو يكون له أعزُّ من نفسه شىءٌ فداكَ به

وقال آخر :

وما هَجَرَتْكِ النفسُ يَا مَىُّ إنَّها قَلَتْكِ ولا أنْ قَلّ منْك نصيبها (٢)
ولكنَّهم يا أحسنَ الناسِ أُولِعُوا بقولٍ إذا ما جِئْتِ : هذا حَبِيبُهَا (٣)

وقال المحاربى (٤):

إذا أنتَ لم تُوقِنْ بما صَنَعَ الهوى بأهل الهوى فافْقِدْ حبيبًا وجرّبِ
ترى حُرقاتٍ يلدغُ القلب حَرُّها بأنضجَ من كَىٍّ الغضى المتلهبِ

وقال الأقرع بن مُعاذ :

أقولُ لمِفْتٍ ذات يوم لَقِيتُه بمكةَ والأنضاء مُلَقى رحالُها (٥)
بحقِّكَ أخبرنى أما تأثم التى أضرّ بجسمى منذ مرّ خيالُها
فقال بلى واللّهِ أو سيصيبُها من اللّهِ بلوى فى الزمان تنالُها
فقلتُ ولم أملِكْ سوابِقَ عَبرةٍ سريع على جيبِ القميصِ انهمالُهَا
عفا اللّهِ عنها كُلَّ ذنبٍ ولُقّيَتْ مُنَاهَا وإنْ كانتْ قليلا نوالها

وقال آخر :

---

(١)الثُّريَا : مجموعة من النجوم .
(٢)قَلَتْكِ : ابغضتك .
(٣)أولِع : أحب الشىء وتعلق به .
(٤)المحاربى : لقيط بن بكير بن النضر بن سعيد المحاربى . من قيس عيلان شاعر . إخبارى من رواة الكوفة من علماء الأدب . مصنفاته : كتاب فى الناس . كتاب السمر . الخرّاب واللصوص و « أخبار الحين » . توفى سنة ١٩٠هـ .
(٥)الأنضاء : الضعاف المهزولة من البهائم .

بالله ربكما عوجا على سكنى وعاتباه لعلّ العتبَ يعطفُه
وعرّضا بى وقولا فى حديثكما ما ضرّ لو بوصالٍ منك تُسْعفُه
فإنْ تبسّمَ قولا عن ملاطفة ما بال عَبْدكَ بالهجران تُتْلفُه
وإنْ بدا لكما من سيدى غضبٌ فغالطاه وقولا ليس نَعْرِفُه

وقال عبد الله بن أبى الشيص (١) :

ومعرضةٍ تظنُّ الهجرَ فَرضًا تخالُ لحاظُها للضَّعفِ مَرْضَى
كأنّى قد قتلتُ لها قتيلاً فما منّى بغير الهجرِ تَرضَى

وقال الحسين بن الضحاك (٢) :

بعضى بنار الهجر ماتَ حريقًا والبعضُ أضحى بالدموع غَرِيقَا
لم يَشْكُ عِشقًا عاشقٌ فَسمعتُهُ إلا ظَنَنتُكَ ذلك المعشوقَا

وقال آخر :

وأجيلُ فِكرى فى هوا كِ بلا لسانٍ ناطقِ
أَدْعُو عليكِ بِحُرقةِ من غيرِ قَلْبٍ صادقِ

وقال آخر :

يا ويحَ مَنْ خَبَّلَ الأحبةَ قَلْبُه حتى إذا ظفروا به قتلوه
عزّوا ومالَ به الهوى فأذّله إنَّ العزيزَ على الذليلِ يَتِيهُ
انظر إلى جسدٍ أضرَّ به الهوى لولا تقلّبُ طَرْفه دَفَنُوه
مَنْ كان خلوًا من تباريحِ الهوى فأنا الهوى وحليفُه وأخُوه

وقال أحمد بن طاهر :

تقولُ العاذلاتُ : تَسَلَّ عنها وداوِ عليلَ صَبرِك بالسلُو
فكيف ونظرةٌ منها اختلاسًا ألذّ من الشماتَةِ بالعدُوِّ؟

وقال إسحاق مولى المهلب :

هَبِينى يا مُعذبَتِى أساتُ وبالهجران قَبْلَكُمْ بداتُ
فأين الفضلُ مِنكِ فَدَتْكِ نفسى علىَّ إذا أساتِ كما أساتُ؟

(١) محمد بن على بن رزين بن سليمان بن تميم الخزاعى . المعروف بأبى الشيص ، أبو جعفر . شاعر . من أهل الكوفة له ديوان شعر . عمله أبو بكر الصولى . توفى سنة ١٩٦هـ .

(٢) الحسين الخليع الباهلى . شاعر من ندماء الخلفاء ولد بالبصرة . مدح الأمين ، والمعتصم ، والواثق . اتهم أبا نواس بسرقة معانيه فى الخمر . توفى فى بغداد سنة ٢٥٠هـ .

وقال أبو العتاهية :

يقول أناسٌ : لو نَعَتَ لنا الهوى ... واللّه ما أدرى لَهمْ كيفَ أنْعتُ (١) ؟
سَقامٌ على جسمى كثيرٌ موسعٌ ... ونومٌ على عينى قليلُ مُفوّتُ
إذا اشتدّ ما بى كان أفضلَ حِيلتى ... له وَضْعُ كفى فوق خدى وأسكتُ

وقال بشار :

يا قرّةَ العينِ إنى لا أُسمِّيكِ ... أُكنّىَ بأخرى أُسمِّيها وأَعْنيكِ
أخشى عليك من الجارات حاسدةً ... أو سَهمَ غيران يَرْمينى ويرميكِ (٢)
لولا الرقيبان إذا ودَّعتُ غاديةً ... قَبَّلْتُ فاكِ وقلتُ : النفسُ تفديكِ
يا أطيبَ الناسِ ريقًا غير مُختبرٍ ... إلا شهادةَ أطرافِ المساويكِ
قد زُرْتِنَا مرةً فى الدهرِ واحدةً ... باللّهِ لا تجعليها بَيْضةَ الديكِ (٣)

وقال آخر :

ألم تَعلمِى يا أحسنَ الناسِ أنّنى ... أُحبُّكِ حبًا مُستكنًا وباديا ؟
أُحبُّكِ ما لو كان بين قبائلٍ ... من الناس أعداءٌ لجرّ التصافيا

وقال آخر :

أقول لشادنٍ فى الحسن أضحى: ... يصيدُ بِطرْفه قلبَ الكَمىّ (٤)
ملكتَ الحُسنَ أجمعَ فى نصابِ ... فأدّ زكاةَ مَنظرِك البَهىّ
وذاك بأن تجودَ لِمُستهامٍ ... برشفٍ من مُقَبَّلِكَ الشَّهىّ
فقال أبو حنيفة لى إمامٌ : ... يُرى أن لا زكاةَ على الصَّبىّ

وقال آخر :

سقى اللّهُ رَبْعًا كنتُ أخلو بوجهِكم ... وثغرُ الهنا فى روضةِ الحسنِ ضاحكُ
أقمنا زمانًا والعيونُ قريرةٌ ... وأصبحتُ يومًا والجفونُ سَوافكُ

وقال آخر :

ألم تعلمى يا عَذبَةَ الماء أنّنى ... أظلُّ إذا لم أُسقَ ماءَكِ صاديا؟
وما زِلتَ بى يا بينُ حتى لو أنّنى ... من الوجدِ أَستبكى الحمامَ بكى لِيَا

---

(١) أنعت : أصف . (٢) غيران : كيد مَنْ فى قلبه الغيرة .

(٣) مثل يضرب للشىء يكون مرة واحدة . لأن الديك يبيض فى عمره مرة واحدة فيما يقال . والمثل فى مجمع الأمثال ١/ ٩٦ .

(٤) الكمى : الفارس لابس السلاح ـ الدرع والبيضة .

أبو العباس الشهير بالنفيس (١) :

يا راحلا وجميلُ الصبرِ يتبعُه هل من سبيلٍ إلى لُقياك يتفقُ
ما انصفَتْكَ جفُونى وهى دامية ولا وَفَى لك قلبى وهو يحترقُ

الوزير ظهير الدين الملقب بأبى شجاع :

لأعذّبنَّ العينَ غير مُفكّرٍ فيها بكتْ بالدمع أو فاضتْ دَما
ولأهجرنَّ من الرقاد لذيذَهُ حتى يعودَ على الجفون مُحرّماً
هى أوقعتنى فى حبائلِ فتنة لو لم تكنْ نظرتْ لكنتُ مُسلَّما
سفكتْ دمى فلأسفحَنَّ دموعَها وهى التى بدأتْ فكانتْ أظْلَما

وقال العتبى :

أضحتْ بخدّى للدموع رسومُ أسفًا عليك وفى الفؤادِ كُلومُ (٢)
والصبرُ يُحمدُ فى المواطن كُلّها إلاَّ عليكِ فإنَّه مَذمومُ

الرفاء الأندلسى :

ومهفهفٍ كالغصنِ إلا أنَّه تتحيرُ الألبابُ عند لقائه
أضحى ينامُ وقد تكلّلَ خدّه عَرقًا فقلتُ : الوردُ رُشّ بمائه

وقال آخر :

أخضرّ واصفرّ لاعتلال فصار كالنَّرْجسِ المضعّف
كأنَّ نِسْرِين وجنتيه بشَعْرِ أصداغه مُغلَّف
يرشح منه الجبين ماءً كأنّه لؤلؤُ مُنصَّف

وقال آخر :

ما زال ينهلُ من صرْف الطلا قَمرى حتى غدتْ وجنتاه البيضُ كالشفقِ (٣)
وقام يخطرُ والأردافُ تُقْعِدُه طورًا وحاولَ أن يَسعى فلم يَطقِ
فعائلٌ فعلتْ فِعْلَ الشَّمول به فعلَ النسيمِ بِغُصنِ البانة الورقِ (٤)
جاذبتُه لِعِناقِى فانْثَنَى خَجلاً وكُلّلَتْ وجنتاه الحمرُ بالعرقِ
وقال لى بفتورٍ من لَواحِظه إنَّ العناقَ حرامٌ قلتُ فى عُنُقِى

وقال آخر :

(١) أحمد بن عبد الغنى . . . بن مسلم اللخمى المصرى القطرس المنعوت بالنفيس (أبو العباسى) اديب . شاعر توفى بقوص ٦٠٣هـ . وله ديوان شعر . وضوء البدر على النيل .
(٢) كُلُوم : جمع كَلْمٌ : جرج والجمع جروج .
(٣) صِرْف الطلا : الخمر الصافية التى لم تمتزج بغيرها .
(٤) الشمول : الخمر .

بأركانِ هذا البيتِ إنّى لطائفٌ ... وفى الكونِ أسرارٌ وفيه لطائفُ
رَعَى اللَّهُ أيامًا وناسًا عهدتُهُم ... جيادًا ولكن الليالى صَيارِفُ
وَبِى ذهبىٌّ اللون صِيغَ لِمحْنتى ... يريدُ امتحاناتى وما أنا زَائِفُ
يُذيبُ فؤادًا وهو لا غِشّ عنده ... فيا ذَهَبِىٌّ اللون إنَّك خائفُ

وقال آخر :

أسنى ليالى الدهرِ عندى ليلةٌ ... وملكتُ بَسْطَ الأمر فى التعذيبِ
فَرّقَتْ فيها بين جَفنى والكرى ... ولكنتُ أقلعُ عين كُلٍّ رقيبِ

ومما قيل فى الرقباء :

لو أنَّ لى فى الحبِّ أمرًا نافذًا ... وملكتُ بَسْطَ الأمر فى التعذيبِ
لَقَطعْتُ ألسنةَ العواذِلِ كُلَّها ... ولكنتُ أقلعُ عين كُلٍّ رقيبِ

وقال أعرابى :

بسهم الحبّ كَلَمٌ فى فؤادى ... ولا كالكَلْمِ من عين الرقيبِ
تمكّنَ ناظراه به وأضحى ... مكانَ الكاتبين من الذنوبِ
وَمِنْ حَذَرِ الرقيبِ إذا التقينا ... نسلّمُ كالغريبِ علي الغريبِ
ولولاه تشاكينا جميعاً ... كما يشكو المحبُّ إلي الحبيبِ

وقال آخر :

من عاش في الدنيا بغيرِ حبيبِ ... فحياتُه فيها حياةُ غريبِ
عينُ الرقيب غَرقتْ في البحر العَمِيَ ... لا أنتَ لا بل عَيْنُ كُلٍّ رقيبِ

وقال أحمد بن أبى سلمة :

يعْذُلُني فية جميعُ الوري ... كأنَّني جئْتُ بأمرِ عجيبِ
أَظُنُّ نفسي لو تَعشَقْتُها ... بليتُ فيها بملامِ الرقيبِ
وأنا الغريبُ فلا ألامُ علي البكا ... إنَّ البكا حَسَنٌ بكلِّ غريبِ

وقال آخر :

وما فارقتُ سُعدي عن قَلاَها ... ولكنْ شِقوةٌ بلغتْ مَدَاها
بكيتْ نَعَمْ بكيتُ وكلُّ إلفِ ... إذا بَانَتْ حَبِيبَتُه بكَاها

وقال آخر :

وقائلةٍ ما بالُ دَمْعكَ أبيضُ ... فقلتُ لها : يا عَلْوُ هذا الذي بَقِي

ألم تعلمي أن البكا طَال عُمْره ؟ فشابت دموعي عندما شاب مفرقي
وعمّا قليلٍ لا دموعَ ولا دمًا ولم يبق إلا لوعتي وتحرّقي

وقال آخر :

ولم أرَ مثلي غارَ من طول لَيْله عليه لأن الليل يعشقه معي
وما زلتُ أبكي في دُجي الليلِ صَبْوَةً من الوجد حتي ابيض من فيض أدمعي

وقال آخر :

رجــوتُ طيفَ خيـالٍ وكيف لــي بهجــوع (١)
والذاريـــاتُ جفُونـــي والمرســـلات دمــوعـــى (٢)

وقال آخر :

يا نازحَ الطيفِ مِنْ نَوْمي يعاوِدُني فقد بكيتُ لِفرطِ النازحين دَمَا
أوجبتَ غُسلاً علي عيني بأدمُعِها فكيف وهى التى لم تبلغِ الحُلُمَا

وقال آخر :

ارحــمْ رُحِمْتَ لِلَوْعَتِى وابعثْ خَيالَكَ فــى الكرى
ودمـــوعَ عينَي لا تَسَلْ عـــن حَالِها يا مَا جَــرى

وقال آخر :

أَمَّلْتُ أن تتعطفوا بوصالِكم فرأيتُ من هجرانِكم ما لا أري
وعملتُ أن فراقكُم لا بدّ أن يجري به دمعي دمًا وكذا جَرَى

وقال آخر :

إنّ عينى مُذْ غاب شخصُكَ عنها يأمرُ السُّهْدُ فى كراها وينهى
بدموعٍ كأنّهنّ الغوادى لا تسل ما جرى على الخد منها

وقال آخر :

يقولون لى والدمع قَرَّحَ مُقْلَتَىْ بنار أسى من حبّة القلبِ تقدحُ
أدمعُك جمرٌ ؟ قلت : لا تتعجبوا فكلٌ وعاءٍ بالذى فيه ينضحُ

---

(١) الهجوع : النوم ليلا .
(٢) الذاريات والمرسلات . سورتان من سور القرآن : رياح سريعة كنى بهما عن غزارة الدموع ودوام سيلانها.

وقال البدر الذهبى :

قالوا : تَبَاكى بالدموعِ وما بكَى بدمٍ على عيش تَصَرَّم وانقضى
فأجَبْتُهم هو مِنْ دمى لكنّه لما تصاعدَ صار يقطرُ أبيضا

قال ابن مطروح فى الغيرة (١) :

ولو أمسى على تَلفِى مُصِراً لقلتُ : مُعذِّبى باللَّهِ زدْنى
ولا تسمحْ بوصلِكَ لى فإنِّى أغارُ عليك مِنْكَ فكيف مِنِّى ؟

وقال آخر :

أغارُ عليكَ من نظرى ومنِّى ومِنْكَ ومِنْ مكانتِكَ والزمانِ
ولو أنّى خبَأْتُكَ فى جفونى إلى يوم القيامةِ ما كفانى

المظفر بن عمر الآمدى :

قولى لِمنْ قَدْ جَفَونى إذ لَهِجْتُ بهمْ دونَ الأنام وخيرُ القولِ أصدقُه
أُحِبُكم وهلاكى فى محبّتكم كعابدِ النارِ يهواها وتحرقُهُ

وقال غيره :

لم أنسَ الصِّبا والهوى للَّهِ أيــامُ النَّجــا والنَّجاحْ
ذاك زمانٌ مَرّ حُلُوُ الجنى ظفرت فيه بحبيبٍ وراحْ

الشريف الرضى :

علّلانى بذكرِكـــم واسقيانى وامزجا لى دمعى بكأسٍ دهاقِ
وخذا النوم من جفونى فإنِّى قد خَلعتُ الكرى على العشاقِ

وقال آخر :

قالوا أترقدُ مُذْ غِبْنا فقلتُ لهم نَعَمْ وأشفقُ من دمعى على بَصَرى
ما حَقُّ طَرْفِ هدانى نحو حُسْنِكم أنّى أُعَذِّبُه بالدمعِ والسهَرِ

عز الدين الموصلى :

فسُدتْ لطول بُعادكم أحلامنا وعقولُنا وجفا الجفونَ منامُ
والطيفُ قد وعد الجفونَ بزورةٍ يا حبّذا إنْ صحّتِ الأحلامُ

---

(١) هو يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح ولد بأسيوط سنة ٥٩٢هـ . ومن رجالات الدولة أيام الملك الصالح نجم الدين الأيوبى . شاعر . أديب . كاتب له : ديوان مطبوع توفى بالقاهرة سنة ٦٤٩هـ ودفن بسفح المقطم .

ومما قيل فى السهر وطول الليل ونحو ذلك قال الشاعر :

وربَّ ليلٍ سَهِرْناه وقد طلعتْ بقيةُ البدر فى أولى تَسايُرِه
كأنما أدهمُ الظلماء حين نجا من أشهبِ الصبحِ ألقى نَعْلَ حَافِرِه

وقال آخر :

ليلُ المحبين مَطوىٌّ جوانبُه مشمّرُ الذيل مَنسوبُ إلى القِصَرِ
ما ذاك إلا لأن الصبحَ نَمَّ بنا فأطلعَ الشمسَ من غيظٍ على القمرِ (١)

وقال غيره :

فلم أرَ مِثْلَ ليلِ ذوى التَّصَابى وكُلٌّ يشتكِيه بِكُلِّ حالِ
فَيَشْكُو طُولَه أهل التَّجَافِى ويَشْكُو قِصَرَه أهلُ الوصالِ

وقال آخر :

لَيْلِى ولَيْلَى سواءٌ فى اختلافهما قد صيّرانى جميعًا فى الهوى مثلا
يجودُ بالطول لَيْلِى كُلَّما بَخِلَتْ بالطولِ لَيْلَى وإنْ جادتْ به بَخِلا

وقال آخر :

إنّ الليالِىَ للأنامِ مناهلُ تُطوى وُتنشرُ بينها الأعمارُ
فَقِصارُهُنَّ مع الهمومِ طويلةٌ وطوالهنّ مع السرورِ قِصارُ

وقال غيره :

ربّ ليلٍ لم أذقْ فيه الكرا حظُّ عينى فيه دمعٌ وسهرْ
كُلّما هَيَّجَ لَيْلِى حُرَقِى صِحْتُ بالليلِ أما فِيكَ سَحرْ

وقال آخر :

يا لَيْلُ طُلّ أوْ لاَ تَطُلْ لا بُدّ لى مِن سَهَرِكْ
لو باتَ عِنْدى قَمَرِى ما بِتُّ أرْعى قَمَرَك

وقال بشارِ بن برد :

خليلىَّ ما بال الدُّجى لا يُزحزحُ وما بال ضَوءُ الصبحِ لا يتوضحُ
أَضَلَّ إليها المستنيرُ طريقَه أمِ الدّهرُ ليلٌ كُلُّه ليس يَبرحُ ؟

وقال آخر :

---

(١) نَمَّ : وشى .

كأنَّ الثرايا راحةٌ تَشْبُرُ الدجى ... لِيعلمَ طال الليلُ أم قد تعرَّضا (١)
فليلٌ تراه بين شرقٍ ومغربٍ ... يـقاس بشبرٍ كيف يرجى له انقضا ؟

وقال ابن منفذ :

لما رأيتُ النجم ساهٍ طرفُه ... والقطبُ قد ألقى عليه سُبَاتَا (٢)
وبَنَاتُ نَعْشٍ فى الحدادِ سوافرُ ... أيقنتُ أنَّ صَبَاحَهم قد مَاتا (٣)

وقال أخر فى ليلة ممطرة :

أقولُ والليلُ فى امتدادٍ ... وأدمعُ الغيثِ فى انسفاحِ
أَظُنُّ لَيْلِى بغيرِ شَكٍ ... قد باتَ يبكى على الصباحِ

ومما جاء فى الأشعار الخمرية قول صفى الدين الحلى :

بدتْ لنا الراحُ فى تاجٍ من الحببِ ... فخرقَتْ حُلَّة الظلماء باللهبِ
بكرٌ إذا زُوِّجتْ بالماء أَوْلدَها ... أطفالُ دُرٍّ على مَهدٍ من الذّهبِ
بقيةٌ من بقايا قومِ نوحٍ إذا ... لاحتْ جلَتْ ظلمَ الأحزانِ والكربِ
بعيدةُ العهدِ بِالمِعْصارِ لو نَطقتْ ... لحدَّثَتَنا بما فى سَالِفِ الحقبِ
باكَرْتُها برفاق قد ذهبتْ بهمْ ... قبل السلافِ سُلافِ العِلم والأدبِ
بكلّ مُتَّشحٍ بالفضلِ مُؤتزرٍ ... كأنَّ فى لفظه ضربًا من الضربِ (٤)
بل ربَّ ليلٍ غدا مثلُ الإهابِ غدتْ ... تنقض فيه كؤوسُ الراح كالشهبِ (٥)
بذلتُ عقلى صِدقًا حين بِتُّ به ... أزوّج ابن سحابٍ بابنةِ العنبِ (٦)
بِتْنَا بكاساتِها صرعى ومُطْرِبُنا ... يُعيدُ أرواحَنا من شدّة الطربِ
بعثٌ ألمّ فلم تعلمْ لِفرحَتِنا ... من نفخةِ الصورِ أم من نَفْخَة القصبِ
بروضةٍ طَلَّ فيها الطلُّ أدْمُعَه ... والزهرُ مُبتسمٌ عن ثغره الشنبِ

---

(١) تشبرُ : تقيس بالشبر . وهو ما بين طرف الإبهام وطرف الخنصر الإصبع الصغير عند بسط الكف . تعرَّض: نصبه بالعرض . جعله عرضة وهدفا . أى توقف الليل عن المسير فى حسّه .

(٢) ساه : غفل عنه . والسبات : النوم والراحة .

(٣) بنات نعش (فى الفلك) : مجموعتان من النجوم إحداهما : الكبرى . والأخرى : الصغرى . فى ثوب الحداد ـ ملابس الحزن . هى سوافر ـ سافرة الوجة ـ منيرة وسط الظلماء .

(٤) الضرب : العسل .

(٥) الإهاب : الجلد . الراح : الخمر .

(٦) الصداق : المهر . ابنة السحاب : ماء المطر . ابنة العنب : الخمر .

وقال أيضًا :

تابَ الزمانُ من الذنوبِ فواتِ ... واغنمْ لذيذَ العيش قبلَ فواتِ
تَمَّ السرورُ فَقُمْ يا صاحبى ... نستدركُ الماضى بِنَهْبِ الآتى
توّجْ بكاسات الطّلا هامَ الرُّبا ... فى روضةِ مطلولة الزهراتِ (١)
تغدو سلافُ القطر دائرةٌ بها ... والكأسُ دائرةٌ بكفّ سُقاة
تَلَفُ النُّضارِ على العُقار غَنيمَتى ... وفراغُ راحتى على الراحات (٢)
تَرْكى لأكياسِ النَّضَارِ جَهالةٌ ... مَنْ ذا أَحَقُّ بها من الكاساتِ
تَبَّتْ يدا مَنْ تابَ عن رَشْفِ الطـ ... ـلا والكأسِ مُتقدٌ كخدّ فتاة
تابعْ إلى أوقاتها داعى الصبا ... واعْجبْ لما فيها من الآياتِ
تَمِّمْ بها نَقصَ السرورِ فإنَّها ... عندَ الكرام تَتَمةُ اللذاتِ

وقال أيضا :

حىّ الرفاقَ وَطُفْ بكأسِ الراحِ ... واطْرُزْ بكاسك حُلَّةَ الأفراحِ
حُثّ الكؤوس على جسومٍ أصبحت ... فيها المدامُ شريكةُ الأرواحِ
حاشِ الأنامَ وعَاطِنى مَشمولةً ... ظُنّت فسادى وهى عَيْنُ صلاحى
حمراءُ لو تَرَكَ السقاةُ مِزَاجَها ... أغنى تلألؤها عن المصباح
حَبَبٌ تظلُّ به الكؤوس كأنّها ... خَصْرُ الفتاة مُمَنْطقٌ بوشاحِ
حَجَبَ الحبابُ شُعَاعَها فكأنّه ... شفقٌ تَلهَّبَ تحتَ ذيلِ صباحِ
حكَمَ الزمانُ وغَضَّ عنّا طَرْفَه ... يا صاحِ لا تقنعْ بأنّك صاحِ

وقال آخر :

قد قلتُ إذا أضحى بَعبّسُ كُلَّما ... دارتْ عليه بالمدامِ الأكؤسُ
تاللَّه ما أنصَفْتَهَا يا سيّدى ... تأتيكَ باسمةً وأنتَ تُعبّسُ

عز الدين الموصلى(٣) :

لَئِنْ شبّه الساقى المدامَ بِعَسجد ... فقد مال بالتشبيه عن صيغة الأدب
ولكن رآها جوهرًا سُمّيت طَلاً ... فميّز ما قد حلّت الكاسُ بالذهبِ

يزيد بن معاوية :

(١) هام : رأس أعالى الربا : الأماكن المرتفعة . جمع ربوة .
(٢) التلف : الضياع . النضار : الذهب الخالص .
(٣) على بن الحسين بن على الموصلى : شاعر مجيد . سكن دمشق . توفى فيها سنة ٧٨٩هـ .

وشمسة كرم بُرجُها قَعْرُ دنِّها ... وطلعتُها الساقى ومغربُها فَمِى
مُدامٌ كَتِبْرٍ فى إناء كفضَّةٍ ... وساقٍ كبدرٍ مع ندامى كأنجم

وقال آخر :

كأنَّ الندامى والسقاةُ ودننا ... وكاساتنا فى الروضِ تُملَى وتُشربُ
شموسٌ وأقمارٌ وفلكٌ وأنجمٌ ... ونورٌ ونُوَّارٌ وشرقٌ ومغربُ

وقال آخر :

فكأنَّها وكأنَّ حاملَ كَأسِها ... إذا قام يجلُوها على الندماءِ
شمسُ الضحى رَقصَت فَنَقَّط وجهَها ... بدرُ الدجى بكواكبِ الجوزاءِ

وقال كشاجم :

صَدحَ الديكُ فى الدجى فاسْقِنِيها ... خمرةً تَتْركُ الحليمَ سَفِيها
لستُ أدرى مِن رقةٍ وصفاءٍ ... هى فى الكأسِ أم هو الكأسُ فِيها

كمال الدين بن النبيه :

قُمْ يا غلامُ ودَعْ مقالةَ مَنْ نَصحْ ... فالدّيكُ قد صدعَ الدجى لما صَدَحَ
خفِيَتْ تباشيرُ الصباحِ فاسقنى ... ما ضَلّ فى الظلماء من قَدَحٍ القَدَح
صهباءُ ما لمعت بكفٌ مُديرِها ... لمقطبٍ إلا تهلَلَ وانْشَرَح
تاللّه ما مَزجَ المدامَ بمائها ... لكنّه مَزجَ المَسَرَّةَ بالفَرَح
هي صَفْوَةُ الكرمِ الكريمِ فما سَرَتْ ... سَرَاؤها فى باخلٍ إلا سَمَح
مِنْ كَفٌ فَتَّانِ اللحظِ بوجهه ... عُذْر لمن خَلَعَ العِذَار أو افْتَضَح

وقال غَيره :

وليلـــــــة أَوْسَعَتْنـــــى ... حُســنًا ولـهـــوًا وأُنْسًا
مـــا زلْتُ أَلثمُ بَـــدرًا ... بهـــا وأشْهَـــدُ شَمْسًا

عبد الله بن محمد العطار وقيل يزيد بن معاوية :

وكأسٍ يرينا آيةَ الصبح فى الدجى ... فأوَّلُها شمسٌ وآخرها بدرُ
مُقطِّبةٌ ما لم يَزُرْها مِزاجُها ... فإنْ جاءها جاء التبسُّم والبشرُ
فيا عجبًا للدهرِ لم يُخلِ مُهجةً ... من العشقِ حتى الماء يَعْشَقُه الخمرُ

وقال ابن تميم(١) :

وليلةٍ بِتُّ أُسقَى من غياهبِها ... راحا تسلُّ شبابى من يَدِ الهَرِمِ

(١) محمد بن يعقوب بن على بن تميم . (أبو عبد الله . مجير الدين) من أمراء الجند . من أهل دمشق . شاعر استوطن حماة . توفى سنة ٦٨٤هـ .

ما زلتُ أشربُها حتى نظرتُ إلى ... غزالةِ الصبحِ ترعى نَرْجِسِ الظَّلَمِ(١)

ابن مكانس :

نــــزلَ الطلُّ بكــــرةً ... وتــــوالــــى تجــــدّدا
والندامــــى تجمَّعــــوا ... فأجلُ كأسى على الندى

الشيخ شهاب الدين بن حجازى :

كأسنا يا صــــاح صرفا ... جليــــت بيــــن الندامــــى
لم نجــــد مــــاءً لمزجٍ ... فقنعنــــا بالنــــدامــــى

صفى الدين الحلى :

كيف لا تخضعُ العقولُ لَدَيْها ... وهى سلطانُ سائرِ المسكراتِ
ألَفُوا فى الكؤوس إذ مَزَجُوها ... بين ماءِ الحيا وماءِ المماتِ

غيره :

صهباءُ فى الكأسِ صِرْفًا ... غَلَبَتْ ضوءَ السراجِ
ظَنَّها فى الكأسِ نارًا ... فطفاهــــا بالمِــــزَاجِ

مجد الدين بن تميم :

نديمى لا تَسْقنى ... سوى الصِّرفِ فهو الهنى
وَدَعْ كَاسَها أطْلَسًا ... ولا تَسْقنى مع دِنّى

تقى الدين بن حجة :

حيّا بها عاصِرَها فى كأسها ... مُشرقةً باسمةً كالثغرِ
وقال : هذى(٢) تحفةٌ فى عَصْرِنا ... قلت اسقِنِيها يا إمامِ العصرِ

أبو الطيب المتنبى :

يا صاحبى امزجا كأسَ المدام لنا ... كَيما يُضىءُ لنا من أُفْقِها الغسقُ
خمرًا إذا ما نَديمى همَّ يَشْرَبُها ... أَخْشى عليه من اللألاء يَحترقُ
لو راح يَحلفُ أنَّ الشمسَ ما غَرُبَتْ ... فى فيه كَذّبه فى وَجْهِهِ الشَّفَقُ

وقال آخر :

بنت كرامٍ يَتَّمُوها أمها ... وأهانُوها بدوسٍ بالقدمْ
ثم داروا حكموها فِيهمُ ... وَيْلَهم من جَوْرِ مَظلومٍ حكَمْ

---

(١) الغزالة : الشمس .

(٢) أحمد بن محمد بن على بن الحسن بن إبراهيم الحجازى الأصل . الأنصارى الخزرجى . . القاهرى البلقينى . مصنف . أديب . شاعر . توفى سنة ٨٧٥هـ .

وقال آخر :

عناقيدُ على قُضُبٍ تَدلّت حكى مُنظومُها عُقَد اللآلى
إذا عُصِرتْ بدا فى الكأس منها دوالى قد تَربَّت فى دوالى

برهان الدين العمار :

باكرْ لِكَرمِ العنبِ المُجتَنى واستَجْنِه من عند عَنَّا به
واعصره واستخرجْ لنا ماءه لكى تُزيلَ الهمّ عَنّا بهِ

جولان العاذلى :

إذا ما الخمرُ فى الكاسات صُبّتْ رأيتَ لها شموسًا فى بُروج
وإنْ جُلِيَتْ على الندمان يومًا تَزَاحَمَتِ الهمومُ على الخروجِ

وقال في الشراب المطبوخ :

يا منْ يُعذّبُ ماءَ الكرمِ يَحْرِقُه بالنار فى أىّ شىء تَظْلِمُ العنبا
إنّ التى طَبَخَتْها الشمسُ أنفعُ لى ولستُ أَخْسَرُ لا قِدرًا ولا حطبا

وقال أيضًا :

وعتيقةٍ رقّتْ وراقَ مَزاجُها لُطفًا وأنحلَها الزمانُ الغابرُ
لم يبقَ منها غيرُ نزرٍ ساطعٍ لا يستطيعُ يجولُ فيه الناظرُ
تَرنُو إليكَ من الحبابِ بأعينٍ خُلِقَتْ ولم تخلقْ لهنّ مَحاجِرُ

وقال غيره :

لا تعصرنَّ زبيبًا واعتِصرْ عِنبا فبينَ هذين فَرّقنا بِتصريح
هذا من الحيِّ للأحياءِ مُعتصرٌ وذاك يُعصَرُ من جسمٍ بلا روحِ

وقال غيره :

عابوا علىَّ مُدامًا أخرّتُهـــا لِصَبُوحـــى
واستنكرُوهــــا وقالـــوا ارتحت قلـــتُ : رُوحِى

وقال آخر فى الشراب على الرعد والبرق :

أما ترى الرعدَ بكى فاشتكى والبرقُ قد أومضَ فاستضحكا
فاشربْ على غيمٍ كصبغ الدجى أضحكَ وجهَ الروضِ لما بكى
وانظرْ لماء النيلِ فى مَدِّهِ كأنّه صندلٌ أو مُصطكا (١)

---

(١) المصطكا : شجر ينبت بريا يستخرج منه .

وقال آخر :

يا ليلةً جمعتْ لنا الأحبابا لو شئْتِ دام لنا النعيمُ وطابا
بِتْنا بها نُسْقى سُلافًا قَرْقفًا يَذَرُ الصحيحَ بِعَقْلِه مُرتابا (١)
من كفٍّ غانيةٍ كأنَّ بَنانَها من فضَّةٍ قد قمّعت عِنَّابا

وقال آخر :

أما ترى الغيثَ كالباكى بأدمُعه والأرضُ تضحكُ والأزهارُ فى فرحِ
فَقُمْ فديتُكَ نَشْكُوا ما نُكابِدُه من الزمانِ وما نلْقَى إلى القدحِ

ابن تباتة :

أما ترى الليلَ قد ولّت غياهِبُه وعارضُ الفجرُ بالإشراقِ قد طلعا
فاشربْ على وردةٍ وردية قدمَتْ كأنَها خدٌّ ريمٍ ريمَ فامْتَنَعا (٢)

ومن شعرِ عضد الدولة :

طربتُ إلى الصَّبوحِ مع الصباحِ وشرْبِ الرّاحِ والغُرَرِ الملاحِ
وكان الثلجُ كالكافورِ نثرًا ونارى بين نارنجى وراَحى
فَمَشْمُومى ومَشْرُوبى ونارى وثَلجِى والصباحُ مَعَ الصبَاحِ
لهيبٌ فى لهيبٍ فى لهيبٍ صباحُ فى صباحٍ فى صباحِ

ابن وكيع (٣) :

وصفراء من ماءِ الكرومِ كأنّها فراقُ عدو أو لِقاءُ صديقِ
كأنَّ الَحَبابَ المستديرَ بطوقِها كواكبُ دُرٍّ فى سماءِ عقيقِ
صببتُ عليها الماء حتى تعوَّضَتْ قَميصَ بهارٍ من قميص شقيقِ

وقال آخر :

وحمراءَ قبل المزجِ صفراءَ بعدَه أَتَتْ بين ثوبى نَرْجسٌ وشقائقِ
حكتْ وجنةَ المعشوقِ صِرفًا فَسَلَّطوا عليها مِزاجًا فاكتَسَتَ لونَ عاشقِ

---

(١) السلاف : أفضل الخمر وأخلصها . قرقف : أرعد من البرد .
(٢) ريم : الأولى : الظبى الخالص البياض . ريم الثانية : قصد .
(٣) الحسن بن على بن أحمد ... الضبى . المعروف بابن وكيع التنيسى ، أبو محمد شاعر . ظريف ، بارع . ولد وتوفى بتنيس فى مصر سنة ٣٩٣هـ . آثاره : « ديوان شعر » و « منظومة فى بحر الأوهام » و « المصنف فى الدلالات على سرقات المتنبى » .

وقال آخر :

إذا الكروانُ صاحَ على الرمال ... وحلّ البدرُ فى بُرْجِ الكمالِ
وجعّد وجه برْكتِنا هبوبٌ ... تمرّ به الجنوبُ مِنَ الشمالَ
وحرّكتِ الغصونَ فَشَابَهَتْها ... قدودُ سُقَاتِنا فى كُلِّ حالِ
فهات الكأسَ مُترعةً ودَعنى ... أبادرُ لذّتى قبل ارْتحَالى
فكلٌّ جماعة لا شَكَّ يومًا ... يُفرّقُ بينهم صرفُ الليالى

وقال آخر فى الشرّاب على الغيم :

أرى غيمًا تؤلفُه جنوبٌ ... ويوشكُ أن يوافِقَنا بهطلِ
فوجهُ الرأى أن تدعو برطلٍ ... فَتَشْرَبَه وتدعو لى برطلِ

وقال آخر :

فيا بكْرُ باكره بكْرةً بِكْرَ كَرْمةٍ ... تفزْ ببُكورِ باكرتْكَ بها بِكْرُ
وداو خُمار الخمرِ بالخمرِ إنّما ... دواءِ خُمار الخَمْرِ من دائها الخمرُ

وقال الصنوبرى :

لا تَبكِيَنّ على الأطلال والدّمن ... ولا على منزل أقوى من السكن (١)
وقمْ بنا نصطبحْ صهباءَ صافيةً ... تنفى الهمومَ ولا تُبقى على الحزن
بِكرًا مُعتقة عذراءَ واضحةً ... تبدو فتخبرُنا عن سالف الزمنِ
حمراءَ مُرَوَّقَة صفراءَ فاقعة ... كأنّما مُزِجَتْ من طَرْفِك الوَسَنِ (٢)
يسعى بها غنجٌ فى خده ضرجٌ ... فى ثغره فلجٌ يُنمى إلى اليمن (٣)
فى ريقه عسلٌ قلبى به خبلٌ ... فى مشيه مَيَلٌ أربى على الغصن (٤)
كأنّه قمرٌ ما مِثْلُه بَشرٌ ... فى طرفه حورٌ يَرنو فَيَجْرَحُنى
سبحانَ خالِقه يا ويحَ عاشقه ... يهدى لرامقه صِنْفًا من الشّجنِ (٥)
فى روضةٍ زهرتْ بالنبت قد حسنتْ ... كأنّها فُرِشتْ من وَجْهه الحسنِ
يا طيبَ مَجْلِسنا والطيرُ يُطرِبُنا ... والعودُ يُسعِدُنا مع مُنْشِدٍ لَسِنَ

(١) أقوى : يقال أقوت الدار : خلت من سكانها .
(٢) الوَسَنُ : وسن يَوْسَنُ : أخذ فى النعاس وفى القرآن : ﴿لا تأخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .
(٣) الغنج : التدلل بملاحة . ضرج: الحمرة فى الخد .خجلا الفلج : تباعد ما بين الأسنان .
(٤) أربى : زاد .
(٥) رامقه : رمقه أتبعه بصره يتعهده وينظر إليه ويرقبه .

كمال الدين بن النبيه :

طابَ الصبوحُ لنا فهاكِ وهاتِ واشْربْ هنيئًا يا أخا اللّذاتِ
كم ذا التوانى والزمانُ مُساعدٌ والدهرُ سمحٌ والحبيبُ مُواتى
قُمْ واغتَبِقْ من شمسِ كأسكَ واصطبحْ بكواكبٍ طلعتْ من الكاساتِ (١)
حمراءَ صافيةٍ تُوقَدُ نُورُها فعجبتُ للنيران فى الجنّاتِ
يَنْسَلُّ فى قاعِ الظروف حبُابُها والدرُّ مُجتلَبٌ من الظلماتِ (٢)
عذراءُ واقعَها المزاجُ أما ترى منْديلَ عُذْرَتِها بِكَفّ سُقاة
يَسْعى بها عبلُ الروادفِ أهيفُ خَنِثُ الشّمائلِ شاطرُ الحركاتِ (٣)
يهوى فتَسْبِقُه ذوائبُ شَعْرِه مُلْتَفةٌ كأسَاوِدِ الحيّاتِ
لو قُسّمتْ أرزاقُنا بيمينه عَدَلَ الزمانُ على ذوى الحاجاتِ

وقال أيضًا :

باكرْ صَبُوحَكَ أهنى العيشِ باكرُه فقد ترنّم فوق الأيْكِ طائرُهُ
والليلُ تَجرى الدّرارى فى مَجَرَّتِه كالرّوضِ تَطْفُو على نهرٍ أزاهره
وكوكبُ الصبحِ نجّابٌ على يده مُخلّقٌ تملأُ الدنيا بشائرُه
فانهضْ إلى ذوبِ ياقوتٍ لها حَبَبٌ تنوبُ عن ثغرِه مَنْ تَهوى جَوَاهِرُه
حمراءُ من وجنةِ الساقى لها شبهٌ فهل جَناها من العنقودِ عَاصِرُه ؟
ساقٌ تكوّن من صبحٍ ومن غَسَقٍ فابْيَضّ خدّاه واسْوَدّت غدائرُه (٤)
بيضٌ سوالِفُه لُعسٌ مَرَاشِفُهُ نعسٌ نواظرُه خُرْسٌ أساوِرُه (٥)
مُفَلَّجُ الثغر مَعسولُ اللمى غنجٌ مؤنثُ الجَفْنَ فَحلُ اللحظ شاطِرُه
مهفهفُ القدّ يُبْدِى جِسْمُه ترفًا مُخَصَّرُ الخَصْرِ عَبْلُ الرِّدْفِ وَافِرُه
تعلّمَتْ بَانَةُ الوادى شمائلَهُ وزوّرَتْ سِحْرَ عَيْنَيْه جآذره(٦)
كأنّه بِسَوادِ اللحظ مُكتحلُ وركّبَتْ فوقَ صُدْغَيْه مَحاجِرُه

---

(١) اغتبق : الغبوق : شرب العشى . (٢) الظروف : جمع ظرف : أوعية الخمر : الدنان والكاسات .
(٣) عبل الروادف : ضخم القواعد من النساء . مؤخرها . خنث : اللين والرخامة فى الحديث والحركة .
(٤) غذائر : جمع غديرة : الذوائب المضفورة من شعر المرأة .
(٥) لُعس : الشفة اسود باطنها وهو سواد مستحسن .نعس نواظرها : فيها فتور وهو دلال وزيادة فى الأسر . خرس أساورها : لا تسمع لحليها صوت لامتلاء رسخها . فهى عبلة الذراعين . فلا تتحرك الأساور . وهذا جمال فى المرأة .
(٦) جآذره: جمع جؤذر ولد البقرة الوحشية. يشبه به جمال العينين فى الاتساع وشدة السواد مع شدة البياض فيهما

فلو رأتْ مُقْلَتا هاروتَ آيتهَ الـ ـكبرى لآمَنَ بعد الكفرِ سَاحِرُه
خُذْ من زمانكَ مَا أعطاكَ مُغتنمًا وأنتَ ناه لهذا الدهرِ آمِرُه
فالعمرُ كالكأسِ تُستَحْلَى أوائلُه لكنّه رُبما مَرَّتْ أواخِرُه
واجْسُرْ على فُرَصِ اللذاتِ مُحتقرًا عظيمَ ذَنْبِكَ إنَّ اللَّهَ غافِرُه

وقال آخر :

شربنا بالبواطى ثم رُحْنَا نُعَلِّلُ بالكؤوسِ وبالقِنَانِى(١)
ولولا خيفةُ الإجرامِ قُلْنَا لِسَاقِيهَا : أَدِرْهَا بالدِّنَانِ

برهان الدين القيراطى :

أرى جِرَارَ الخمرِ تَغْلُو وقد عَزَّتْ وبالإفلاسِ حالى عَجِيبُ
جِئْنا لِخَمَّارٍ وقُلْنا لَهُ احْمِلْ إلينا جَرَّةً كَىْ نَطيبُ
قال : زَبِيبًا تريدون أم خمرًا فإنَّ الكُلَّ مِنِّى قَرِيبُ
قُلْنا له : خمرًا فنادى زِنُوا فى جَرَّةٍ عشرين قُلْنا : الزَبِيبُ

وقال أيضًا :

صرفُ الزبيب لِصَرْفِ هَمِّى نَصٌّ على نفعه طَبِيبِى
آهًا على سكرةٍ لَعَلِّى أن أخلطَ الهَمَّ بالزبيبِ

وقال :

قالوا : اتركِ الخمرْ واجْتنبها لا تَتَعدَّ الحرامَ حَدًّا
قلتُ : أراها للروحِ قُوتًا وطالبُ القوتِ ما تَعدّى

ومما قيل فى شرب الفقهاء :

يحمون بالفقه عرضَ الدين من سَفَه عِلْمًا بتصريفِ أحوالٍ وتحقيقِ
وبعضُهم يكرعُ الصهباءَ مُغتنمًا تحتَ الظلامِ بأفواه الأباريقِ

ومما قيل فيمَنْ يُطيلُ الحديث والكأسُ فى يده :

وشادنٍ نُطْقُه جارٍ إذا شَفَعَتْ فى مجلسِ الشُّرْبِ كاساتُ بطاساتِ
يَظَلّ يَحكى وكأسُ الراحِ فى يده حكايةً عرضُها عَرْضُ السمواتِ

ومما قيل فى كريم السكر لئيم الصحو :

(١) البواطى : جمع باطية إناء كبير من الزجاج يحفظ فيه الشراب . نُعللّ : العَلَلُ : الشرب الثانى أو تباعا .

إذا هزّ اللئيمَ السكرُ يومًا | بدا فى بذل مالٍ فيه ضنّا
يجودُ بِمَاله فى الشربِ سُكرًا | ويأكلُ كَفَّه فى الصحو حُزْنا

وقيل فى شجاع السكر :

إذا شَرِبَ الجبانُ الخَمرِ يومًا | أَعَارَتْهُ الشجاعةَ باللسانِ
وَعِنْدَ الصَّحْوِ تلقاه جَزوعًا | إذا اشْتَدّ اللقا يومَ الطعانِ

وفيه أيضًا :

يقول جبانُ القومِ فى حال سُكْرِه | وقد شَرِبَ الصهباءَ : هلْ من مُبارِزِ ؟
وأين الخيولُ الأعوجياتُ فى الوغى | أُناقلُ فيها كُلَّ لبثٍ مُناهِزِ (١)
ومنْ لى بحربٍ ليس تخمدُ نارُها | لَعَمْرِى إنّى لستُ فيها بعاجزِ
ففى السُّكْرِ قيسٌ وابن معدى وعامرٌ | وفى الصحو تلقاه كبعضِ العجائزِ

وقال في شرب الثلاثة :

ثلاثةٌ فى مجلسٍ طيّبٍ | وَعَيْشُهُمْ ما فيه تكْرِيرُ
هذا يُغنى ذا وهذا الذى | يَسقِى وَذَا بالشّرْب مُسْرُورُ

وقيل فى شرب الأربعة :

ألا إنما خيرُ المجالسِ مَجلسٌ | به وله صَفْو الزمان مُساعدُ
فتاةٌ وساقٍ والمغنّى وصاحبٌ | وخامِسُهم هَمّ عَلى الكُلِّ زَائدُ

وقيل فى شرب الستة :

خير المجالسِ خمسةٌ أو ستةٌ | أو سبعةٌ وعلى الكثيرِ ثَمَانيه
فإذا تعدّى صار شُغْلا شَاغِلا | وتكسّرَتْ بين الرّجال الآنيَه
فاهْرَبْ إذا ما كُنتَ تاسعَ مَجلسٍ | ولَئِنْ أتيتَ به فأمّك زَانيَه

ومما قيل فى شرب مع التجار :

شربتُ مع التجارِ وكان يومًا | جَعلتُ حضورَنا فيه وَدَاعا
فذاكَ يقول : كم أطلقتُ بيعًا | ووفيتُ الذى بِعتُ الذّراعا
وهذا قال : عندى كُلُّ شىء | ولكن لا أبيعُ ولا أباعا
فلا تَجعَلْهُمُو أبدًا ندامى | فَتَكْسِبَ من مجالسِهم صُداعا

---

(١) الأعوجيات : جياد ركبت صغيرة فاعوجت قوائمها .

فيمن أكل على الشراب :

وندمان إذا ما الكأسُ دارت بغيرِ الأكلِ ارتعدتْ يَداه
نديمٌ دأبُهُ فى السكرِ أكلٌ فلا يُبقِى على شىء يَرَاه

وقيل فى قدح :

غرامى وَوجدى بالذى كان فى الثرى مُهانا فأضحى فى المجالس حاكما (١)
قَضَى ما عليه من وُرُودِ جهنمٍ فصارَ لِجنّاتِ النعيمِ مُلازِمَا

محمد بن جعفر الأنصارى يستدعى بعض أصدقائه إلى الشراب :

بساطُ الأرض مِسكٌ وعَبِيرٌ وزهرُ الروضِ وشىٌ أو حريرُ
وقد صَفَّى الدنانُ الخمرُ حتى لقد عاد لدينا وهى نورُ
وَمَنْ يردِ السرورَ يَعِشْ هنيئًا إذا العيشُ الهنىءُ هو السرورُ
وعندى اليومَ فتيانٌ كرامٌ وجوهُهُمُو شموسٌ أو بدورُ
وقُطْبُ الأمرِ أنتَ وهلِ لأمرٍ بغير القُطبِ فيه رَحى تَدورُ ؟
فرأيكَ فى الحضورِ فَحَقٌّ يومى عليكَ وقد دَعَاكَ له الحضورُ

وقال آخر :

باكر صبوحَك واشْربْها مُشعشعةً واهنأْ بعيشٍ حميدٍ غير مذمومِ
حمراءَ من بعد ما احْمَرَّت موردةً طافتْ علينا فَسَرّتْ كُلَّ مهمومِ
كأنّ فى كاسِها والماءُ يَقْرَعُها أكارعُ النملِ أو نَقْشِ الخواتيمِ
لا صاحبتنى يدٌ لم تغن ألف يدِ ولم تردِ القنا حُمْرَ الخياشيمِ

وقال آخر :

بادرْ بجودِك بادرْ قبل عائقةٌ فإنَّ خُلْفَ الفتى عندى من اللُّوَّمِ

سيف الدولة ابن حمدان فى سَاق :

وساقٍ فى صبيحٍ للصبوحِ دعوتُه فقام وفى أجفانه سِنَةُ الغمضِ
يطوفُ بكاسات العُقارِ كأنْجُمٍ فما بين مُنْقَضٍ علينا ومنفضٌ
وقد نَشَرَتْ أيدي النجوم مطارفاً على الجو دُكْناً والحواشى على الأرضِ (٢)
يُطرِّزُها قوسُ السماءِ بأصفرٍ على أحمرَ فى أخضرَ تحت مُبْيَضٌ (٣)

---

(١) الثرى : التراب المبلل : أى الصغير الفقير الحقير .
(٢) مطارف : جمع مطرف : الملحة والتحفة . دُكنا : مال إلى السواد .   (٣) طرز : الثوب وشّاه وزخرفه .
قوس السماء : قوس قزح يظهر فى السماء وقت وبعد المطر وهو متعدد الألوان.

كأذيالِ خُودٍ أقبلتْ في غلائلٍ مُصبّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضِ (١)

ابن نباتة :

سَقَي وَوَاعَدَنِي وَصْلاً ألذُّ به عند المنام ولا واللَّهِ ما وَصَلا
قبيلةُ اللهُ مِنْ ساقٍ مَواعِدُه كانت مواعيدَ عُرقوبٍ لها مَثَلا

وقال آخر فى ساق :

وساقٍ كالهلالِ سعي بكأسٍ لِربَّةِ نَرْجِسٍ فَسَقى وَحيّا
فقلتُ : تأملوا بدراً منيراً سقى شمسًا وحيّا بالثُّريًا

وفيه لابن نباتة :

ساقٍ صحيفةُ خدّه ما سوّدتْ عبثًا بلامِ عِذاره وبنُونه
جَمَدَ الذي بِيَمينه في خدّة وجرى الذى فى خدّه بِيَمينه

فى جارية ساقية :

نديمتى جاريةٌ ساقيةٌ ونُزهتِى ساقيةٌ جاريه
جاريةٌ أعْيُنُها جنةٌ وجنةٌ أعينها جَارِيه

فيمن حبس الكأس فى يده :

قالوا: الذى تهواه يَحْبِسُ كاسَه فى كَفِّه من غير ذنبٍ مُوجبِ
فأجبتُهم كُفّوا الملام فإنّه قمرٌ يُنزِّهُ طرفَه فى كوكبِ

وقال آخر فى مجلس أنس :

ومجلسُ راقٍ من واشٍ يُكدرهُ ومن رقيبٍ له باللوم إيلامُ
ما فيه ساعٍ سوى الساقى وليس له على الندامى سوى الريحانِ نمامُ

صفى الدين الحلى فى عود :

وعودٍ به عاد السرورُ لأنَّه حوى اللهو قِدمًا وهو ريّانُ ناعمُ
يُغَرِّبُ فى تغريدِه فكأنَّه يُعيدُ لنا ما لقنته الحمائمُ

وقال آخر فى زامرة :

وناطقةٍ بالنفخ عن روح ربِّها تعبرُ عمّا دوننا وتُترجمُ
سكتنا وقالتْ لقلوب فأطربتْ فنحن سُكوتٌ والهوى يتكلمُ

---

(١) خود : جمع خَود : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . غلائل : جمع غِلالة : ثوب رقيق يلبس تحت الدثار ـ ملامس للجسد .

ومما قيل فى فانوس لابن تميم :

انظرْ إلى الفانوس تلقَ مُتيّمًا ذَرَفَتْ على فَقْدْ الحبيبِ دموعُهُ
يبدو تَلَهُّبُ جِسمِه لِنُحوله وتُعَدُّ من تحت القميص ضُلوعُه

وقال لابن قزل :

وكأنما الفانوسُ فى غسقِ الدجى دنفٌ براه شوقُه وسهادُهُ
أظلاعُه خَفِيَتْ ورقَّ أديمُهُ جرَتْ مدامعُه وذاب فؤادُهُ

ولبعضهم فى شمعة :

حكتنى وقد أودى بى السُّقْمُ شمعةٌ وإن كنتُ صبًّا دونها مُتوجعا
ضنًى وسهادًا واصفرارًا ورِقةً وصبرًا وصمتًا واحتراقًا وأَدْمُعا

ومما قيل فى الربيع والرياض والبساتين والمياه والنواعير (١) ونحو ذلك :

قال الشاعر :

هذا الربيعُ وهذه أزهارُهُ مُتجاوبٌ فى أَيكِه أطيارُهُ
وبدا البَنَفْسَجُ والشقائق مونق والوردُ يضحكُ بينها وبهارُهُ (٢)
فاشربْ على وجه الحبيبِ وغنِّ لى وهذا هواكَ وهذه آثارُهُ

وقال غيره :

غدونا على الروضِ الذى طلّه الندى سحيرًا وأوداجُ الأباريقِ تُسْفَكُ (٣)
فلم نر شيئًا كان أحسن منظرًا من النور يجرى دمعه وهو يضحك

وقال آخر :

أما ترى الأرضَ قد أعطَتْكَ زهرتَها بخضرةٍ واكتسى بالنورِ عاريها
فللسماء بكاءٌ فى جوانبها وللربيعِ ابتسامٌ فى نواحيها

وقال غيره :

إنَّ السماءَ إذا لم تبك مُقْلَتُها لم تضحَكِ الأرضُ عن شىء من الزهرِ
والأرضُ لا تَنجلى أنوارُها أبدًا إلا إذا رَمِدَتْ من شدّة المطرِ

---

(١) النواعير : جمع ناعورة : الساقية التى يرفع بها الماء من الأنهار لرى الأرض .
(٢) الشقائق : عشب حولى أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء . مفرده : شقيقة . مونق : حسن ومعجب ورائع .
بهاره : نبت طيب الريح .
(٣) أوداج : جمع ودج عرق فى العنق . وهما ودجان . إذا قطع عند الذبح مات .

وقال ابن قرناص :

أيا حُسنَها من رياضٍ غدا جنونى فنونًا بأفنانها
مشى الماءُ فيها على رأسه لتقبيلِ أقدامِ أغصانِها

وقال آخر :

أنظُرْ إلى الأغصان كيفِ تَعانقتْ وتَفَارَقَتْ بعد التعانُقِ رُجَّعَا
كالصبِّ حَاوَلَ قُبلَةً من إلْفهِ فرأى المراقب فَانْثَنَى مُتوجِّعَا

وقال ابن تميم :

وحديقةٍ ينسابُ فيها جدولُ طرفى برونق حُسنها مدهوشُ
يبدو خيالُ غُصونِها فى مائه فكأنما هو مُعصمٌ منقوشُ

وقال أيضًا عفا اللّٰه عنه :

لِمَ لا أهيمُ إلى الرياضِ وحُسْنِها وأظلُّ منها تَحْتَ ظِلٍ ضافى(١)؟
والزهرُ حَيَّاتى بثغرٍ باسمٍ والماء وافانى بقلبٍ صَافِى

وقال آخر :

قد سعينا نَبْغى زيارةَ دَوْحٍ قد حيانا باللطفِ والإكرامِ
ناولتنا أيدى الغصونِ ثمارًا أخرجَتْهَا لنا من الأكمامِ

(ومما قيل فى الأزهار والثمار) قال بعضهم فى الورد :

يا راقدًا ونسيمُ الصبحِ مَنَبهٌ فى روضةِ القصف والأطيارِ تنتحبُ
الوردُ ضيفٌ فلا تجهلْ كرامتَه فَهَاتِهَا قهوةً فى الكأس تلتهبُ
سَقيًا له زائرًا تحيا النفوسُ به يجودُ بالوصلِ شهرًا ثم يحتجبُ

وقال آخر فيه :

طابَ الزمانُ وجاء الوردُ فاصْطَبِحا ما دام للوردِ أنوارٌ وأزهارُ
واستَقْبِلاَ عَيْشَنا بالكأسِ مُترعةً لا طُوِّلَتْ للئامِ الناسِ أعمارُ

وقال آخر :

اشرب على الوردِ من حمراءَ صافيةٍ شهرًا وعشرًا وخمسًا بعدها عددا
واستَوْفِ بالكأسِ من لهوٍ ومن طربٍ فلستَ تأمنُ صَرْفَ الحادثات غَدَا

(١) ضافى : سابغ ساتر يَعُمّ الشىء كله .

وقال آخر :

اشربْ على ورد الخدود فإنَّها ... أيامُ وردٍ والصبوحُ يطيبُ
ما الوردُ أحسنُ منظرٍ من وجنةٍ ... حمراءَ جاء بها عليك حبيبُ

وقال بعضهم :

ولقد رأيتُ الوردَ يلطمُ خدّه ... ويقولُ هو على الْبَنَفْسَجِ يَحنقُ
لا تقربوه وإنْ تَضَوَّعَ نشرُهُ ... من بينكم فهو العدوُّ الأزرقُ

(ومما قيل فى البنفْسَج) قال ابن المعتز :

وَلاَزَوَرْدِيَّةٍ وافتْ بِزُوْرَتِها ... بين الرياض على زُرق اليواقيتِ
كأنما فوق طاقاتٍ ضُعِفْنَ بها ... أوائلُ النارِ فى أطرافِ كبْريتِ

وقال آخر :

اشربْ على زَهْر الْبَنَفْسَجِ قَهوةً ... تُهْدِى السرورَ لِكُلّ صَبٍّ مُكْمَدِ
فكأنه قُرْصٌ بخدٍّ مُهفهفٍ ... أو أعينٍ زُرقٍ كُحِّلْنَ بِأثمِدِ

ولبعضهم فى الورد :

للورد فضلٌ على زهرِ الربيع سوى ... أنَّ الْبَنَفْسَجَ أزكى منه فى الْمُهَجِ (١)
كأنّه وعيونُ النَاس ترمُقُه ... آثارُ قَرْصٍ يدٍ فى خدٍّ ذى غَنِجِ

وقال آخر :

يا مُهديًا لى بَنَفسَجًا أَرِجًا ... يرتاحُ صدرى له ويَنْشَرِحُ
بَشَّرَتْنِى عاجلاً مُصَحَّفُهُ ... بأنَّ ضيق الأمورِ يَنْفَسِحُ

وقال غيره فى النرجس :

وقُضْبُ زمردٍ تعلو عليها ... عيونٌ لم تذقْ طَعْمَ الغماض
تَوَهَّمَتِ الغمامَ لها رقيبًا ... فَنَكَّسَتِ الرؤوسَ إلى رياضِ

وقال آخر فيه :

أنتَ يا نَرْجِسُ روضٌ ... لزهــــورِ الأرضِ سِتٌّ
ودليلُ القولِ فِيكَ ... أنَّ أوراقَكَ سِتٌّ

وقال آخر :

أقولُ وطرفُ النَّرْجِسِ الغضِّ شاخصٌ ... إلىَّ وللنَّمَّامِ حــــولى إلمامُ

---

(١) المهج : جمع مهجة : دم القلب . وأيضًا الروح .

أيا رَبُّ حتى فى الحدائقِ أعينٌ علينا وحتى فى الرياحينِ نَمَّامُ

وقال أيضًا فيه :

لما تمادى الوردُ فى زَهْوِه وراحَ من إعجابه يَرْأسُ
تَلوّن المنثورُ مما بَه واصفرّ من غَيظٍ به النَّرْجِسُ

ومما قيل فى اللينوفر لابن المعز المصرى :

وبركة تَزْهو بِلَيْنُوفَرٍ نسيمُه يُشبِهُ نشرَ الحبيبة
مُفتحٌ الأجفانِ فى نومه حتى إذا الشمسُ دنتْ للمغيبِ

وقال تميم بن المعز المصرى :

رأيتُ فى البركة لَيْنُوفَرٍ فقلتُ ما شَأْنُكَ وَسْطَ البِرَكِ
فقال لى غَرِقْتُ فى أدمعى وَصَادَنى ظَبْىٌ الفلا بالشرَكِ
فقلتُ ما بالُ اصفرارٍ بَدا فيك ؟ وما هذا الذى غَيَّرك ؟
فقال لى : ألوانُ أهلِ الهوى صفرٌ ولو ذُقْت الهوى صَفّرَك

ومما قيل فى البان :

قد أقبل الصيفُ ووَلّى الشتا وعن قليلٍ تسأمُ الحَرّا
أما ترى البانَ بأغصانِه قد قلَبَ الفرو إلىَّ تبرًا

وقال آخر فيه :

أو ما ترى البانَ الذى يزهو على كُلٍّ الغصون بِقَدِّه المَيّاسِ
وافى يُبَشّرُ بالربيع وقُرْبِه يختالُ فى السَنجابِ والبِرْطاسِ (١)

وقال فى الشقيق :

حَيَّيْتُه بشقائقٍ فى مجلس ورأى الرقيَب فَشقّ ذاك عليه
فاحمرّ من خجلٍ فأنبتَ خدُّه أضعافَ ما حَمِلَتْ يداى إليه

وقال آخر :

لو لم أعانقُ مَنْ أُحبُّ بروضة أحداقُ نَرْجِسِها إلينا تَنْظرُ
ما انشقَّ جيبُ شقيقِها حَسدًا ولاَ باتَ النسيمُ بِذَيْله يَتَعثَّرُ

(١) السنجاب : حيوان أكبر من الفأر ، ذيله طويل كثير الشعر . البرطسة : راكب الإبل والحمير .

وقيل : إن ابن الرومى زار قبر أخيه يومًا فوجد الشقائق نبتت على قبره فأنشد يقول:

قالتْ شقائقُ قَبْره ولَرُبَّ أَخْرَسَ ناطقُ
فَارَقْتَه ولَزِمْتُهَ فأنَا الشقيقُ الصادقٌ

ومما قيل فى المنثور :

تخالُ منثورَها فى الدَّوْح مُنْتَثِرًا كأنّما صِيغَ من درٍّ وعقيانِ
والطيرُ يُنشدُ فى أغصانِه سَحَرًا هذا هو العيشُ إلا أنّه فانى

وقال آخر :

قد أقبلَ المنثورُ يا سيدى كالدرِّ والياقوت فى نظمه
ثَنَاكَ لا زال كأنفاسِه ومخٌّ من يَشْنَاك مثلُ اسْمِه

ولبعضهم فيه :

ولقد خلَوْتُ مع الأحبّةِ مَرّةً فى روضة للزهر فيها مُعَركُ
ما بين منثورٍ أقام ونَرْجِسٍ مع أقحوانٍ وَصْفُه لا يُدْرَكُ
هذا يشيرُ بأصبعٍ وعيونُ ذا ترنو إليه وثغرُ هذا يضحكُ

ومما قيل فى الياسمين :

والأرضُ تبسمْ عن ثغور رياضها والأفقُ يُسفِرُ تارةً ويقطّبُ
وكأنَّ مُخضرَّ الرياضِ مُلاءَةٌ والياسمينُ لها طِرازٌ مُذْهَبُ

وقال آخر :

رأيتُ الفألَ بشرّنى بخير وقد أهدى إلىَّ الياسمينُ
فلا تحزنْ فإنَّ الحزنَ شَيْنٌ ولا تيأسْ فإن اليأسَ مِينُ

ومما قل فى السوسن للأخطل الأهوازى :

سقيًا لأرض إذا ما نمت نبّهني بعد الهدوّ بها قرعُ النواقيسِ
كأنَّ سَوْسَنَها فى كلّ شارقة على الميادين أذنابُ الطواويسِ

ومما قيل فى الأقحوان لعبد القادر بن مهنًا المغربى :

أفدى الذى زارنى سِرًّا فاتحفنى بأُقحوانٍ يُحاكى ثغرَ مُبتسمٍ
فبتُّ من فرحى أفنى مقبله لثمًا وأرشفُ من ريق له شَبَمٍ (١)

ولبعضهم فيه :

(١) يرشف : يَمُصُّ . الشبم البارد .

إنَّ فاه ثغرُ الأقاحى فى تشبُّهِهِ ... بثغر حبّك واستولى به الطربُ
فَقُلْ له عندما يَحكيه مُبتسمًا ... : لقَد حكَيْتَ ولكنْ فاتك الشنبُ (١)

وبما قيل فى الجلنار :

وجلّنَــــارٍ مُشـــــرق ... علـــــى أعالـــــى شَجَره
كـــأنّ فـــى غُصْنه ... أحمـــــرِه واصفـــــرِه
قراضةٌ من ذهبٍ ... فـــى خِرقةٍ مُعصفره

ومما قيل فى الآس :

أهديتُ مُشبه قدّك المياس ... غصنًا نضيرًا ناعمًا من آس
فكأنما يَحكيكَ فى حركاته ... وكأنما تَحكيه فى الأنفاسِ

ومما قيل فى الريحان :

وغُصنٍ من الريحان أخضرَ ناضرٍ ... نما بين غُصنى نَرْجسٍ وشقائقِ
يُريكَ إذا كفُّ الصبا عَبَثَتْ به ... شمائلُ مَعشوقٍ وذِلَّةَ عاشِق

وفيه أيضًا :

وريحانٍ يميسُ بحسنٍ قَدٌّ ... إذا ما بدا للعين لونُ الزّبرجد
كسودانٍ لَبِسْنَ ثيابَ خزٍّ ... عذارى تبدّى فى سوالف أغْيَدِ

وقال آخر :

قضيبٌ من الريحان شاكلَ لونُه ... إذا ما بدا للعين لونُ الزّبرجد
فشبّهته لما بدا مُتجعّدًا ... عذارى تبدّى فى سوالف أغيد

(ومما قيل فى الفواكه والثمار على اختلافهما فى الأترج) قال ابن الرومى :

كلُّ الخِلالِ التىْ فيكم مُحاسِنُكم ... تشابهَت منكم الأخلاقُ والخَلَقُ
كأنكم شجرُ الأتَرْجُ طاب معًا ... حملا ونشرًا وطاب العودُ والورِقُ

ولبعضهم فيه :

حيّاك مَن تهوى بأترجة ... ناعمة مقدودة غضّه
فجلدُها من ذهبٍ أصفر ... وجسمُها الناعمُ من فضَّه

وقال آخر :

---

(١) الشنب : جمال الثغر وصفاء الأسنان .

يا حبّذا أترجةٌ تُحْدث للنفس الطربْ
كأنَّها كافورةٌ لها غشاءٌ من ذهبْ

وفى الليمون قول أبى الحسن رئيس الرؤساء :

يا حُسنَ ليمونةٍ حيّا بها قمرٌ حلو المقبّل ألْمَى باردُ الشَّنَبِ
كأنها أكرةٌ من فضَّةٍ خُرِطَتْ واستودعوها غلافًا صِيغَ من ذَهَبِ

وفيه أيضًا :

وصاحب ناديتُه والطيرُ لم يغردِ
انهضْ إلى الراح ولا ترضى بعيشٍ نكِسدِ
واشْرَبْ سُلافًا قرقفًا من كَفٌ ساقٍ أغيدِ
قد اكتستْ تلهبًا من خدّه الموردِ
ولا تَدَعْ مُجتهدًا لذّة يوم لغدِ
أما ترى الليمونَ فى غُصن يومٍ لغدِ
كأُكَرةٍ من فضةٍ مملوءةٍ من عسجدِ

فى النارنج لعبد الله بن المعتز :

نَظَرتُ إلى نَارَنْجَةٍ فى يمينه كجمرة نارٍ وهى باردة اللمس
فقرّبها من خدّه فتألفت فشبّهتها المريخَ فى دارةِ الشمسِ

وقال آخر :

ونارنجةٍ بين الرياضِ نَظرتُها على غُصن رَطْبٍ كَقامةِ أغْيَدِ
إذا مَيّلْنها الريحُ مالت كأكرةٍ بَدَتْ ذهبًا فى صولجانٍ زبرجدِ

وقال آخر :

ونارنجٍ يلوحُ على غصونٍ ومنه ما نرى كالصولجانِ
أشبّهها ثُديًا ناهداتٍ غلائِلُها صُبِغْنَ بزعفرانِ

وقال آخر :

وأشجارُ نارنج كأنْ ثمارَها حِقَاقُ عقيقٍ مُلِئن من الدُّرِّ (١)
نُطالعُها بين الغصونِ كأنّها قدودُ عذارى فى مَلاحفها الخُضْرِ
أتَتْ كلُّ مُشتاقٍ بريا حَبيبِهِ فهاجتْ له الأشجارُ من حيث لا يَدْرِى

(١) حِقَاقُ : جمع حُقٌّ : وعاء صغير من عاج أو زجاج . عقيق : حجر كريم احمر .

فى التفاح لبعضهم :

ولما بدا التفاحُ أحمرَ مُشرقًا دعوتُ بكأسى وهى ملأى من الشفقِ
وقُلتُ لِسَاقِيها أَدِرها خدود الأغانى قد جُمِعْنَ على طبقِ

وقال آخر فى تفاحة :

وتفاحةٍ من سندس صِيغَ نصفُها ومن جلّنار نصفُها وشقائقِ
كأن الهوى قد ضمّ من بعد فُرْقَةٍ بها خدّ معشوقٍ إلى خد عاشقِ

ولبعضهم فيه :

تُفاحةُ كُسِيَتْ لَونين خلتُهما خَدَّىْ مُحِبٍّ ومَحْبُوب قد التصقا
تَعانَقَا فَبَدَاوَاشٍ فَزَاعَهما فاحمرّ ذا خجلاً واصفرّ ذا فَرَقا (١)

وقال آخر :

وتفاحةٍ وردية ذهبيةٍ تُجلى عن المهموم ليل همومه
كأنَّ سلافَ الخمرِ روَّى أديمها بخمر فجاءت بأحمرارِ أديمه
تُذَكرُنى شكلَ الحبيبِ وحُسْنه وتوريدَ خدّيه وطيبَ نَسيمه

وقال آخر :

حمرةُ التفاح فى خضرتِه أشْبَه الألوانِ من قَوْسِ قزحْ
فَعلَى التفاحِ فاشْرَبْ قَهْوَةً واسقِنيها . بنشاطٍ وفرحْ

وفيه أيضًا :

أَهْدَى لنا التفاحَ من كَفِّه من لم يزل يجنيه من خدّه
وخطّ بالمسكِ على بعضِها قد عَطَفَ المولى على عَبْده

ومما قيل فى السّفَرْجَلِ :

حاز السَّفَرْجَلُ لذاتِ الورى فغدا على الفواكه بالتفضيل مشهورا
كالراح طعمًا وشَمُّ المسك رائحة والتبرِ لونًا وشكلِ البدر تدويرا (٢)

وقال آخر :

سَفَرْجَلَةٌ صفراءُ تحكى بلونها مُحيًا شَجاه للحبيبِ فِراقٌ
إذا شَمّها المشتاقُ شَبَّه رِيحَها بريحِ حَبيبٍ لذّ منه عِناقُ

---

(١) واش : نمام . راعهما : فَزِعًا . الفرق : شدّة الخوف والجزع .
(٢) التبر : الذهب الخالص . البدر تدويرا : بياض الوجه واستدارته .

وطيّبةٍ عند المذاق فَطَعْمُها كريقِ حبيبٍ طابَ منه مذُاقٌ

وقال آخر :

سَفَرْجَلَةٌ جمعت أربعًا فكان لها كلٌّ معنى عجيبِ
صفار النّضار ، وطعمُ العقار ولونُ المحبّ وريحُ الحبيبِ

وقيل فى الكمثرى :

وكمثرى لذيذُ الطعمِ حُلْو شهى جاء من دَوْحِ الجنان (١)
مناقيرُ الطيورِ إذا اقتتلنا مُغَبَّرَةٌ بلون الزغفرانِ

ابن برغش متغزلاً :

وكمثرى سَبَانى منه طعمٌ كطعم الشّهد شيب بماء ورد
لذيذٌ خلقه لما أتانا نهودُ السُّمْرِ فى معنى وَقَدٌ

وما قيل فى المشمش :

بدا مِشْمِشُ الأشجار يذكو شِهابُه على غصنِ أغصانِ من الروضِ مُيَّدِ
حكى وحكت أشجاره فى اخضراره جلاجلَ تِبرٍ فى قباب زبرجدِ

ما قيل فى الإجاص (٢) :

انظر إلى شجر الإجاص قد حملت أغصانه ثمرًا ناهيك من ثمر
تراه فى أخضر الأوراق مستترًا كما اختبى الزنج فى خضر من الأرز (٣)

ما قيل فى الخوخ :

أهدى إلىّ الصديقُ خوخًا مَنظره مَنْظرُ أنيقُ
من كُلٍّ مخصوصة بحسن معناه فى مثلها دقيقُ
حمراءُ صفراءٌ مُستعيرُ بهجتها التبرُ والعقيقُ
كوجنة مَسّها خلَوقٌ فزال عن بعضها الخَلُوقُ (٤)

وما قيل فى الفستق :

تفكرت فى معنى الثمار فلم أجد لها ثمرًا يبدو بحسن مجرّدِ

---

(١) الدوح : شجر عظيم متشعب ذات فروع ممتدة . الجنان : الجنات .
(٢) يُطلق فى سوريا وفلسطين وسيناء على الكمثرى .
(٣) الأرز : شجر عظيم عقيم صلب من الفصيلة الصنوبرية دائم الخضرة .
(٤) الخلوق : نوع من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

سوى الفستقِ الرطب الجنى فإنّه زها بمعان زينت بتجرّد
غِلاَلَة مُرَجْان على جِسْمِ فِضَّة وأحشاءُ ياقوتِ وقلوبُ زبرجدِ

ما قيل فى البندق :

ولقد شربتُ مع الحبيب مُدامةً حمراء صافيةً بغير مزاجِ
فتفضَّلَ الظبى البهىّ ببندقٍ شبّهتُه ببنادقٍ من ساجِ (١)
فكسرته فوجدت ثوبًا أحمرًا قد لُفُّ فيه بنادق من عاجِ

ومما قيل فى النبق :

وسِدْرَةَ كُلُّ يوم من حسنها فى فنون
كأنما النبقُ فيها وقد حلا فى العيون
جلاجل من نُضارِ قد عُلِّقَتْ فى الغصون

ومما قيل فيى اللوز :

ومهدٍ إلينا لوزةً قد تضمّنت لمبصِرها قلبين فيها تلاصقا
كأنّهما حِبّان فاز بخلوة على رقبةٍ فى مجلسٍ فتعانقا (٢)

فى العنب لبعضهم :

هديةُ شرفتنا من أخ ثقةٍ نعم الهديةُ إذ وافتك من يده
نوعان من عنبٍ جاءا على طبقٍ كأنَّ طيبَهما من طيب مُحتده (٣)
فأبيضُ العين يحكى لونَ أبيضِه وأسودَ العين يحكى لونَ أسودهِ

وقال فى قصب السكر :

ورِمَاح لغيرِ طعنٍ وضَرْبِ بل لأكْلٍ ومَصٍّ لُبٍّ ورَشْفِ
كَمُلَتْ فى استوائها واستقامت باعتدالٍ وحسنٍ قدّ ولطفِ

ومما قيل فى البطيخ الأصفر :

أتانا غلامٌ فاق حسنًا على الورى ببطيخة صفراءَ فى لونِ عاشق
فشبّهته بدرًا يَقدُّ أهلةً من الشمسِ ما بين النجوم ببارقِ

وقال آخر :

---

(١) بندق . نوع من الذهب . يقال له : الذهب البندقى . ساج : غطاه .
(٢) حِبَّان : يطلق عل الاثنين . فهما متحابان . رِقبة : التحفظ والملاحظة والانتظار .
(٣) محتده : أصله .

وبطيخةٍ وافى بها فوق كفه إلينا غلامٌ فاق كلّ غلام
فَخَيِّل لى شمسُ الأصيلِ أهِلَّة يقطِّعُها بالبرقِ بَدْرُ تمام

ومما قيل فى البطيخ الأخضر :

وظبى أتى فى الكف منه بمدية وقد لاح فى خدّيه شبه شقيق
فمال إلى بطيخةٍ ثم شقّها وفَرَقَها ما بين كُلٍّ صديقِ
فشبّهتها لما بدت فى أكفّهم وقد عَمِلَتْ فيهم كؤوسُ رحيقِ
صَفَائِحُ بلّورِ بدت فى زَبَرْجَدٍ مرصَّعةٍ فيها فصوصُ عقيقِ

وقال آخر :

وبطيخةٍ خضراءَ فى كفّ أغيدٍ أتانا بها فارتاح ذو الهمّ وابتهجَ
وأقبل يَفْرِيها بِمُدْيَتِهِ وقد فرى طرفه الساجى القلوبَ مع المهجِ (١)

ومما قيل فى القثاء :

انظُر إليها أنابيبًا منضّدَةً من الزمرُّد خُضْرًا ما لها ورق
إذا قَلَبْتَ اسمها بانت ملاحتها وصار فى عكسه أنى بكم أثق (٢)

ومما قيل فى الباذنجانِ :

وكأنّما الأبلنج سُودُ حمائمٍ أوكاره خَمْلُ الربيع المبكر (٣)
نقرت مناقِرُه الزمرّدَ سِمْسِمًا فاستودعَتْه حواصلا من عنبرِ

(ومما قيل ف الأنهار والبرك والنواعير) :

أما ترى البركةَ الغرَّاءَ قد كُسِيَتْ نورًا من الشمس فى حافاتها طلعا
والنهرُ من فوقه يلهيك مَنْظَرُه شهبٌ سماويةٌ فارتَجَّ والتمعا
كأنّه السيفُ مَصقولا يقلبه كفُّ الكمى إلى ضرب الكُمَاةِ سعى

وقال آخر فى البركة :

يا مَنْ يرى البركةَ الحسناءَ رؤيتها والآنسات إذا لاحتْ مَغانيها (٤)

---

(١)المدية : الشفرة الكبيرة ـ السكين . فرى : شقق : الطرف : النظر بالعين مع سكونه . المهج : جمع مهجة: الروح.
(٢)قلب الاسم : أثق .
(٣)خَمْل القطيفة . وأيضا ريش النعام .
(٤)لاحت : بدت وظهرت . مغانيها : المنزل الذى غنى به أهله .

فلو تمر بها بَلْقَيسُ عن عرض قالتْ هى الصرحُ تمثيلا وتشبيها (١)
كأنها الفضةُ البيضاءُ سائلةٌ من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصَّبا أبدتْ لها حُكبًا مثل الجواشن مصقولا حواشيها (٢)
فحاجبُ الشمسِ أحيانًا يُضاحِكُها وريقُ الغيثِ أحيانًا يُبَاكِيها (٣)
إذا النجومُ تراءت فى جوانبها ليلا حَسِبْتَ سماءٌ رُكّبَتْ فيها

وقال آخر :

وبركةٌ للعيونِ تبدو فى غاية الحسنِ والصفاء
كأنّها إذا صَفَتْ وراَقَت فى الأرض جزءٌ من السماء

وقال محمد بن سارة المغربى :

النهرُ قد رقتْ غُلالةُ صِبْغه وعليه من صَبْغِ الأصيل طرازُ
تترقرقُ الأمواجُ فيه كأنّها عُكنٌ الخصورِ تهزّها الأعجازُ (٤)

وقال آخر :

يومٌ لَقَا بالنيل مُختصرًا ولكلِ وقتِ مَسرّةِ قِصرُ
فكأنّما أمواجُه عُكنٌ وكأنما دارتُه سُرَرُ

وقال آخر فى نهر سبح فيه الغلمان :

خليجٌ كالحُسَامِ له صِقالٌ ولكن فيه للرائى مَسَرّهْ
رأيتُ به الملاحَ تُجِيدُ عَوْمًا كأنّهن نجومٌ فى المجرّه

وقال آخر فى النيل :

النيلُ قال وقوله إذ قال مِلءُ مَسامعى
فى غيظِ مَنْ طلبَ العلا عمّ البلادَ مَنَافِعى

---

(١١) بلقيس : ملكة سبأ فى اليمن على عهد سيدنا سليمان. الصرح : ذكره الله بقوله : ﴿ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل : ٤٤]

(٢) الصَّبا : النسيم مهبها من الشرق . الحبك : الغيم . وذكرت فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات : ٧] الجواشن : جمع جوشن : الدروع . مصقول حواشيها : مجلوة أطرافها وجوانبها .

(٣) يصور وجه البركة المملوءة بالماء ونسيم الصبا يداعبها . والجو يصفو فتظهر الشمس . فظهر البريق واللمعان كمن يضحك . وعندما تحجب الشمس وتتساقط حبات المطر فكأنهما متباكيان .

(٤) العكن : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . الخصور : جمع : خصر . وسط الإنسان . الأعجاز : جمع . عَجز : مُؤخرة المرأة . مقعدتها من الردف .

وعيونُهم بعد الوفا قلّعتُها بِأصَابِعِى

وقال آخر :

كأنَّ النيلَ ذو فهم ولُبٌّ لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى عند حاجتِهم إليه ويمضى حينَ يستغنون عنه

وقال آخر فيه :

وَفَّتْ أصابعُ نيلنا وطَغَتْ وطافَتْ فى البلاد
وأتَتْ بِكُلٍّ مَسَرَّةٍ ما ذى أصابعُ ذى أيادِي

وقال آخر :

سدّ الخليجُ بِكَسْرِه جَبْرَ الورى طرًا فكلٌّ قد غدا مسرورا
والماءُ سلطانٌ فكيف تواترَتْ عنه البشائرُ إذا غدا مكسورا

وقال آخر :

ونهرٌ خَالفَ الأهواء حتى غَدَتْ طوعًا له فى كلّ أمرِ
إذا عَصفَتْ على الأغصانِ ألْقَتْ إليه بها فيأخذُها ويجرى

وقال آخر فى ناعورة :

وكريمةٌ سَقتِ الرياضَ بِدرّها فَغَدَتْ تنوبُ عن الغمامِ الهامعِ
بلسانِ محزونٍ ومدمعِ عاشقٍ ومسيرِ مُشتاقٍ وأنّةِ جازعِ

وقال آخر :

وناعورةٌ قالت وقد حَالَ لَونُها وأضلُعُها كادت تعد من السَّقَمِ
: أدورُ على قلبى لأنّى فقدتُه وأما دموعى فهى تجرى على جسمى

وفيها أيضًا :

وحنّانةٌ من غيرِ شوقٍ ولا وَجْد يفيضُ لها دمعٌ كمنتثر العقد
أحنُّ إذا حَنَّتْ وأبكى إذا بكَتْ فليس لنا من ذلك الفعل من بدّ
ولكنّها تبكى بغير صبابة وأبكى بإفراطِ الصبابةِ والوجدِ
وأدمُعُها من جدولٍ مُستعارةٌ ودمعى من عينى يَفِيضُ على خدّى

وفها أيضًا قال الخطيرى :

ربَّ ناعورةٍ كأنّ حبيبًا فارَقَتْه فقد غدت لى تَحْكى
أبدًا هكذا تَئِنُّ بشجوٍ وعلى إِلْفِها تدورُ وتبكى

ابن تميم :

تأملْ إلى الدولابِ والنهرِ إذ جرى ... ودمعُهما بين الرياضِ غديرُ
كأنَّ نسيمَ الجوّ قد ضاع منهما ... فأصبحَ ذا يجرى وذاك يدورُ

فصل : فى ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك

لابن عفيف [1] فى قاض مليح :

وربَّ قاضٍ لنا مَليحٍ ... يُعْرِبُ عن منطقٍ لذيذِ
إذا رنَا لِى بِسهْمِ لحظٍ ... قلنَا له : دائِمُ النفوذَ

وقال فى فقيه مليح :

وبمهجتى ظبى غدا مُتفقهًا ... وهو المهذّبُ فِى الرشاقةِ والحورِ
أمسى بَسيطُ الشَّعْرِ منه مُطَوّلا ... لَكِنْ وجيزُ الخصْرِ منه المختصرِ

وقال فى محدث ملح :

عَلقْتُه مُحدِّثًا ... شَرَّدَ عن جفنى الوَسَنْ
حَديثُه ووجهُهُ ... كِلاَهما عندى حَسن

وقال فى إمام :

جاء يسعى إلى الصلاةِ بوجه ... يُخجِلُ البدرَ فى ليالى السُّعودِ
فتمنّيتُ أنَّ وجهى أرضٌ ... حين يُومى بوجهه للسّجودِ

ابن الرومى فى عروضى وأجاد :

فى عَرُوضِىٍّ مليحِ ... مَوْتَتِى فيه حياةُ
عاذِلاتى فى هواه ... فاعلاتٌ فاعلاتُ

فى مؤذن مليح :

مؤذنٌ أضحى كريمًا وَجْهُهُ ... لكنّه بالوصلِ أىُّ شحيحِ
أبدًا أموتُ بِهَجْرِه لكِنَّنِى ... من بَعْدِ ذاك أعيشُ بالتسبيحِ

لابن عربى [2] :

وبنفسِى مؤذّن قد سَبَانِى ... لم يفدنى شكوى الغرامِ إليه
كيفَ أصغِى لما يقولُ حبيبٌ ... واضعٌ أصبُعَيْه فى أذُنَيْه؟

وقال آخر فى مريد :

مُرادُ قَلْبِى مُرِيدٌ ... مُخبًّأ فى الزَّوَايا

---

(١) محمد بن سليمان بن على بن عبد الله التلمسانى . المعروف بالشاب الظريف وبابن العفيف (شمس الدين ، أبو عبد الله شاعر . ولد بالقاهرة . وعمل بدمشق ، وتوفى بها ٦٨٨هـ . من آثاره : ديوان شعر . ومقامات العشاق . فى ورقتين .

(٢) محمد بن على بن محمد بن العربى . الحاتمى . الطائى . الأندلسى . المعروف بـ « محى الدين بن عربى » فيلسوف . من أئمة المتكلمين . ولد فى الأندلس . زار بلاد العرب فى الشام والعراق والحجاز . أنكر عليه أهل مصر . ما صدر منه من شطى ت » حبس ثم أطلق . له : الفتوحات المكية » و « محاضرات الأبرار ومسامرة الأخيار » و « ديوان شعر » . توفى سنة ٦٣٨هـ .

وليس ذا بعجيبٍ ففى الزوايا خبايا

وفى فقير مليح :

بى فقيرٌ يتغنّى بسنًا وجه منيرِ
لا تَلُمْنى فى افتضاحى فَغَرامِى بالفقيرِ

فى أمير شكار لابن دانيال (١):

بى من أمير شكار وَجْدٌ يُذيبُ الجوارحْ
لَمَّا حكَى الظبىُ حسنًا حنّتْ إليه الجوارحْ

فى مليح مغن :

أضحى يخرُّ لوجهه قمرُ الدّجا وغدا يلين لحسنه الجلمود(٢)
فإذا بدا فكأنما هو يوسفٌ وإذا شَدَا فكأنَّه داود(٣)

فى مليح عواد :

غنّى علي العود ظبىٌ سهمٌ ناظِرِه أمسى به قلبى المضنى على خطرِ
دنا إلىَّ وَجسَّتْ كفُّه وترًا فراحتِ الروحُ بين السَّهمِ والوترِ

فى مليح كاتب :

بِروحىَ كاتبًا كالبدرِ حُسنًا بديعًا ما رأينا منه أجملْ
على ريحانِ عَارِضِه المفدّى بوِجَنْتِه غدا دَمْعِى مُسلسَلْ

غيره :

ورَاقَنَا ذا المفدّى فيه تَزايَدَ عِشْقِى
فلو يَجودُ بوصلٍ لكان مَالِكَ رِقِّى

وفيه أيضًا :

يا حُسْنَ ورّاقٍ أرى خَدَّه قد رَاقَ فى التقبيلِ عندى وَرَق
تميلُ فى الدّكانِ أعطافُهُ ما أحسنَ الأغصانَ بَيْنَ الورَق

للسيد الشريف صلاح الدين الأسيوطى فيه أيضًا :

فديتُكَ أيها الورّاقُ قلبى لمَطْلِكَ بالوصالِ يكادُ يَبْلَى
وقد طلبَ الوفاءَ وغيرَ بدعٍ مُحبٌ يسألُ الورّاقَ وصلا

فى مليح صيرفى :

يا سَائِلاً عن حالتى ما حالُ من أمسى بعيدَ الدارِ فاقدَ إلفِهِ

---

(١) محمد بن دنيال بن يوسف الموصلى الخزاعى أديب شاعر ولد بالموصل . انتقل إلى مصر . احترف تكحيل العيون بتكسب بها . بمحلة «باب الفتوح» فعرف بالحكيم الكحال. توفى سنة ٧١٠هـ . له: ديوان شعر.

(٢) الجلمود : الصخر .(٣) يوسف: نبى الله. كان آية فى الجمال. وداود: نبى الله حباه الله بجمال وحلاوة الصوت.

بى صيرفىٌ لا يَرِقُّ لحالتى قد متُّ من جور الزمان وصَرْفِه
فى مليح بخانقى :
تَسلطنَ فى الملاحِ بِخَانِقى ولا يرضى ببدرِ التمّ نائب
وقد صَفَّتْ له الاتراكُ جنداً وأصبحَ راكبًا تحت العصائِب
فى مليح فراء (١) :
قلتُ لفراءٍ فرى أديمى وزاد مصداً وطال هجرا
قد فرّ نومى وفرَّ صبرى فقال لما عَشِقْتُ فَرّا
سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء فى مُزَيِّنٍ :
حَسْبِى المزينُ وافى بعد البعاد بِنَشْطَه
ومصّ دُمَّلَ قلبى بكاسٍ راحَ وبَسَّطِهِ
فى مليح قصاص :
أشكو إلى اللّه قصاصًا يُجرعُنى بالهجرِ والصدّ أنواعًا من الغُصَص
إن تُحسنِ القصَّ يمناه فَمُقْلَتُهُ أيضًا تقصُّ علينا أحسنَ القَصَصِ
فى مليح صياد :
ومُولِعُ بِفِخَاخِ يَمُدُّها وشِرَاكِ
قالتْ له العينُ : ماذا تصيد ؟ قال : كَرَاكِى
فى مليح رامى بندق :
وأهيفِ القدّ ذى دلال طائرُ قلبى عليه واجبْ
كالشمسِ فى كفّه هلالٌ يرمى إلى البدرِ بالكواكبْ
وقال آخر فى راع :
أفديه من راعٍ كبدرِ الدُّجى قَوامُه فاق الغصونَ الرّشاق
ضيَّفنى بالجدى ناديته ما القصدُ يا مولاى إلا العِنَاقِ
القيراطى فى مليح طَحّان :
حُسْنُ طحان سبانى بِلِحَاظ وبَقامه
خاف من واشٍ فأضحى يجعلُ الغمزَ علامَه
القاضى بدر الدين البلقيى فى تَرَّاب :
وُبَّ تَرَّابٍ مَليحٍ أورثَ القلبَ عذَابا

---

(١) البيتان : لابن الوردى . عمر بن مظفر بن عمر . شاعر . توفى سنة ٧٤٩ هـ .

قلتُ لَمَّا أنْ بَدَا لِى : لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابَا

وقال آخر فى مليح عوام :

يا حُسنَ عَوَّامٍ كغصنِ النقا يبخلُ بالوصلِ لِمَنْ هاما
وتقنعُ العشاقُ منه بأنْ يُرِيهم الأردافَ إنْ عَاما

ابن نباته فى مليح حبشى :

بروحى مشروطًا على الخد أسمرًا دنا وَوَفَى بَعْدَ التجنّب والسُّخطِ
وقال : على اللثمِ اشترطنا فلا تَزِدْ فقبّلتُه القَا على ذلك الشَّرْطِ

وله أيضًا :

وَمِنْ عَجَبٍ تُدعى لِلُطْفكَ سُنْبُلا ونشرُك كافور وذِكْرُك عَنْبَرُ (١)
وسَعدُكَ إقبالٌ ، وحُسْنُكَ مُرْشِدٌ ، وَخَلْقُكَ ريحانُ ، وَلَفْظُكَ جَوْهَرُ

وقال آخر فيمن به صفرة :

قالوا : به صُفْرَةٌ شانت مَحاسنَه فقلتُ : ما ذاك من عَيبٍ به نزلا (٢)
عيناه مطلوبةٌ فى ثار مَنْ قَتلتْ فلستَ تَلقاه رلا خائفًا وَجِلا

للشيخ شهاب الدين بن حجر فى مليح اسمه زائد :

وزائرٍ قال قلبى للطّرف : يا طَرْفُ شَاهدْ
مَدَحْتُه فَتَجنَّى تِيهًا عَلَىَّ بِزَائِد(٣)

وقال آخر فى مليح أرمد :

شكا رمدًا فقلتُ : الآنَ كَلَّتْ لواحظُه من الْفَتكَاتِ فينا
وقالوا : سيفُ مُقْلَتِه تصدّى فقلتُ : نَعَمْ لِقَتْلِ العاشقينا

لمجد الدين بن كانس فيه :

تورّمتْ مُقْلَةُ المحبوبِ من رَمَدٍ وبات يشكو لهيبَ القلبِ والألما
وباتَ يرمى مُحِبِّيه بأسهُمِهِ فيا له من حبيبٍ قد شكا ورما

لابن أبى حجلة فى أعور :

ما شانَ مَنْ أهواه عَيْنٌ أصبحتْ مَقْلُوعَةً بمَحاسنٍ مُتزايِدَه
لولا استخفّ العالمين بأسْرِهم ما ظلَّ ينظرُهم بعينٍ واحده

---

(١) النشر : الريح الطيبة . رائحة الكافور .
(٢) شان : العيب والقبح .
(٣) تَجنّى: أذنب . تاه : تيها : تكبر .

وقال آخر فى مليح راهب :

رأيته يضربُ الناقوسَ قلتُ لهُ :من علّم البدرَ ضربًا بالنواقيسِ
وقلتُ للنفْسِ :أى الضرّب يُؤْلِمُكَ؟ ضربُ النواقيس أم ضربُ النوى قيسى

القيراطى فى مليح اسمه بدر:

سمّوه بدرًا وذاك لما أن فاق فى حُسْنه وتمّا
وأجمعَ النّاسُ إذ رأوه بأنه اسْمٌ على مُسمّى

وآخر فى مليح اسمه حمزة :

متى يبدو لحمزةَ ما بقلبى ويرثى لى وينظرُ فى بلائى
واشفى بالمُبَّردِ من لَماهُ وأجمعُ بين حَمزَةَ والكِسائى (١)

وقال آخر :

كَلِفتُ به ولم أبلغْ مُرادى غزالُ قد تحكم فى قيادى
فتصحيفُ اسمه فى وجنتيه وفى معسولِ فيه وفى فؤادى

فى مليح اسمه سروجى :

فُتِنْتُ به سُروجِيًا بديعًا به قد ذُبْتُ وجدًا من ضَجِيجى
إذا جذبَ الغرامُ له عِنانى يلذُّ لى الركوب على السروجِ

وقال آخر فى مليح محموم :

قالوا : حبيبُك مَحمومُ فقلتُ لهم :أنا الذى كنتُ فى حُمَّاته السَّبَبَا
عانقته ولهيبُ النارِ فى كبدى فأثَرتْ فيه تلك النّارُ فالْتَهبا

لأبى نواس فى مليح ألثغ :

ومهفهفِ دنفِ الصّبا ذى لثغة تصبو إليه ذوى العقولِ الرُجَّحِ
قَبَّلْتُ فاه فقال لى مُتخوّفًا من كاشح متدلّلِ بالثاء : اثْتَحِى

وقال فى مليح خباز :

إنّ خبازَنا المليحَ المفدّى فى حَشا الصَّبّ من جَفاء كُلُومُ
خِلْتُ دكانَه البديعَ سماءً وهو بدرٌ والخبزٌ فيه نُجومُ

وقال فى مليح حائك :

(١) اللمى : الرضاب . حمزة ، والكسائى . من علماء اللغة والنحدى .

وحائكٍ يا صاحِ أبصرتُه … كالبدرِ فى كفّيه ماسوره
فلم أَرُح إلا ورُوحِى لما … عَايَنَتْ فى كفّيه مأسوره

وقال فى مليح لاعب شطرنج :

لعبتُ بالشطرنج مع أهيفٍ … رشاقةُ الأغصان مِنْ قَدِّه
أحلُّ عقد البند من خَصْره … وألْثمُ الشاماتِ من خَدِّه

وفيه أيضًا قال :

تلاعبتُ بالشطرنجِ مع مَنْ أحبّهُ … فنادمنى حتى سكِرْتُ من الوجد
وأنشدنى مالى أراكَ مُفكرًا … تدورُ على الشامات وهىَ على الخد ؟ (١)

فى مليح خياط :

خياطُنا الفاتنُ المفدّى … بديعُ حُسنٍ فريدُ شكلِ
فصَّل للجسمِ ثوبَ سُقْمٍ … لّما جفانى وكَفَّ وَصْلى

وقال غيره :

فُتِنْتُ بخياطٍ بديعٍ ملاحةً … له طلعةُ أبهى ضياءً من الشمس
تراه على الكرسى للثوب خائطًا … فتُقسمُ حقّا أنَّه آية الكرسى

الصفى الحلى فى مليح قلع ضرسه.

لَحَا اللهُ الطبيبَ لقد تعدّى … وجاء لِقَلْعِ ضِرسِكَ بالمحالِ
أعاقَ الظبى فى كِلْتا يديه … وسلّط كَلْبَتَيْنِ على غزالِ

وقال فى مليح سلم عليه :

تنبّأ فيك قلبى فاسترابَتْ … به قومٌ وعمّهُمُ الضلالُ
وصدّهم الهوى أن يؤمنوا بى … وقالوا : إنَّ مُعْجزَهُ محالُ
وَمُذْ سلّمْتُ سَلّمَتِ البريا … إلىّ وقَيلِ كَلّمه الغزالُ

وقال فى مليح يرمى بالسهام:

وظبى بعشرٍ فوق طرفٍ مفوّق … بِقَوسْ رمى فى النقعِ وحشًا بأسهُم
كبدرٍ بأفقٍ فوقَ بَرْقٍ بكفّه … هلالٌ رمى فى الليلِ جنًا بِأَنْجُمِ

وقال فى مليح يضرب باللعود :

فَتَنَ الأنامَ بِعودهِ وَبِشَدْوِه … شادٍ تجمعتِ المحاسنُ فيه

(١) الشامات : جمع شامة : علامة فى البدن أو فى الوجه يخالف لونها لون البشرة ـ سمراء غالبًا .

حتى كأنَّ لسانَه بِيَمِينه وكأنَّ ما بيمينه فى فيه

وقال أيضًا فيه :

وأغنَّ قد أبدى لنا مِنْ عُودِه نَغَمًا أصح به القلوب وأمرضا
بيدٍ إذا سَخِطَتْ على أوتَاره نال الرفاقُ بِسُخْطِها عينَ الرضا

وقال فى مليح مشبب :

يا نافخَ الصُّورِ بل بَاعِثَ الصورِ من رَقْدَةَ السُّكْرِ لا من رَقْدَة الحفرِ
قرنْتَ حُسنَكَ بالإحسانِ فيه لنا فكان فيك مُرادُ السمعِ والبصرِ
ضَمَّنْتَ للصحْبِ إقبالُ السرور كما ضَمّنت نَأيَك نأى الهَمِّ والفكرِ
صوتٌ بسيطٌ به أرواحُنا انبسطَتْ إذ جِئْتَ فى اللفظ والمعنى على قَدَرِ

وقال فى مليح ساق :

من بنى الأتراكِ طفلٍ أَتِيهُ بِه على جَمْعِ الرِّفاقِ
أملّكُه قيادى وهو رِقّى وأفديه بعينى وهو ساقى

وقال أيضًا فى رسول مليح أتاه من عند من يحبه :

مَنْ كنتَ أنتَ رسولُه كان الجوابُ قَبولَه
يا طلعةَ الشمسِ الذى جاء الصباحُ دليلَهُ
لم يَبْدُ وَجْهُك قِبْلَةً إلا ارْتَقَبْتَ وُصُولَهُ
فلذاك إذ وَاجَهْتَنِى بل الفؤادُ غليله

فى مليح قارئ :

نفسى الفداءُ لشادنٍ شاهدْتُه يومَ الزيارة قارئًا فى المصحف
فَتَنَ الأنامَ ببهجةٍ وبلهجةٍ تَسْبى وتُضْنى كُلَّ صَبٌ مدنفِ
فتلا مليًّا جُلّ سُورةِ يوسفَ وَجَلا مُحيًّا مثلَ صُورةِ يوسفِ

وقال آخر فى مليح مكتمل العذار :

وكاملِ العارضِ قَبّلْتُه فصدّنى وازْوَرَّ مِنْ قُبْلَتِى
وقال : كَمْ أَنهاكَ عن مِثْلِ ذا وأنتَ ما تُفكِّرُ فى لِحْيَتِى

وقال آخر فى مليح حجّام :

كلِفتُ بحجّامٍ تحكّم طرفُه فغدا على سَفْكِ الدماءِ يُواطِى
أضحى كثيرَ الاشتِطَاطِ ولم تكنْ منه اللحَاظُ كَلِيلَةَ المِشْراطِ

فصل فى الألغاز

فى غزال :

اسمُ مَنْ قــد هَوِيتُه ظاهــرُ فـــى صُرُوفِــه
فـــإذا زالَ رُبْعَه زالَ باقـــى حُرُوفِـــه

فى كوز فقاع :

ومحبوسٍ بلا ذنبٍ جناه له فى السجن ثوبٌ من رصاص
إذا أَطْلقتَه وَثَبَ ارتفاعًا يُقبِّلُ فاك من فَرَحِ الخلاصِ

فى زر موزة :

مَطِيَّةٌ فارِسُهـــا راجـــلُ تَحْمِلُه وهـــو لها حاملُ
واقفةٌ بالبــــابِ مَزْبُولَةٌ لا تشربُ الدَّهرَ ولا تَأكُلُ

وقال فى طاحون :

ومسرعةٍ فى سَيْرِها طولُ دَهْرِها تراها مدى الأيام تَمْشى ولا تَتْعَبُ
وفى سَيْرَها ما تقطعُ الأكلَ ساعةً وتأكلُ مع طولِ المدى ولا تشربُ
وما قطعتْ فى السَّيْرِ خمسةَ أذرعٍ ولا ثُلْثَ من ذراعٍ ولا أقربُ

فى دواة :

وَمُرْضعة أولادَها بعد ذَبْحِهِم لها لَبَنٌ ما لَذّ قَطُّ لشاربِ
وفى بَطْنها السكينُ والثّدْىُ رَأْسُها وأولادُها مَذْخُـــورَةٌ لِلنوائبِ

وفى دواة أيضًا :

وَمَا أمٌّ يُجامِعُها بَنُوها وليس عليهم تَجِبُ الحدودُ
كأنّهم إذا ولجوا حَشَاها أفاعى فـــى أَمكانِها رَقودُ

فى قلم :

وأهيفُ مدبوحٍ على صَدْرِ غَيْرِه يُترجمُ عن ذى منطقٍ وهو أَبْكَمُ
تراه قصيرًا كُلّما طال عُمْرُه وَيَضْحَى بَليغًا وهو لا يَتَكَلّمُ

وفيه أيضًا :

بصيرٌ بما يُوحى إليه وما له لسانٌ ، ولا قلبٌ ، ولا هو سامعُ
كأنّ ضميرَ القلبِ باحَ بِسِرِّه إليه إذا ما حَرَّكَتْه الأصابعُ

وفيه أيضًا :

وأصفرُ عارٍ أنحلَ السقمُ جسْمَه ... يُشتّتُ شملَ الخَطْبَ وهو جُموعُ
حَمى الجيشَ مَفطومًا كما كان تَحتَمِى ... به الأسْدُ فى الغاباتِ وهو رَضِيعُ

وفيه أيضًا :

وذى نُحولٍ راكعٍ ساجد ... أعْمَى بصيرُ دَمْعُه جارِى
ملازمُ الخَمْسِ لأوْقَاتِها ... مُجتهدٌ فى طاعةِ البَارِى

فى مرملة :

معشوقةٌ لِذَواتِ العزّ قدْ صُنِعتْ ... حزينةٌ ما تراها قطُّ تبتسمُ
كأنَّها من صروفِ الدهرِ خائفةٌ ... تَبْكى دِماءً على ما سَطَّرَ القلمُ

فى كتاب :

وذوى أوجهٍ لكنَّه غيرُ بائحٍ ... بسرٍّ وذو الوجهين للسرّ يظهرُ
تُناجيكَ بالأسرارِ أسرارُ وَجْهِهِ ... فَتَسْمَعُها بالعينِ ما دُمْتَ تُبصِرُ

فى سلطان حسن لابن أبى حجلة:

ما اسم مُحبّبُ للقلوبِ لأنّه ... حين الحروف يجودُ بالإحسان
تَصحِيفُه (١) أمسى حبيبًا كُلَّما ... صَحّفْتَ أحْرُفَه بِحُسْنِ بيانِ
لو جادَ لى يومًا برؤية وَجْهِه ... نِلْتُ المرادَ وعِشْتُ بالسلطانِ

فى شبّابة :

وما صفراءُ شاحبةٌ ولكنْ ... تُزيِّنُها النضارةُ والشبابُ
مُكتَّبَةٌ وليس لها بَنَانُ ... مُنَقَّبَةٌ وليس لها نقابُ
تصيحُ لها إذا قَبّلتَ فاها ... أحاديثُ تلذُّ وتُستَطَابُ
ويحلو المدحُ والتَشْبيبُ فيها ... وليستْ لا سعادُ ولا الربابُ

وفيها أيضًا :

ومقروحةُ الأجفانِ مِثْلى شجيَّةٌ ... تَنَاءَتْ عن الأهلين أسْقَمَها البُعْدُ
تزوّجَها عشرٌ وذاك محرّمٌ ... ولا حرجٌ كَلاَّ ولا وَجَبَ الحدُّ
إذا وَطِئَها قومٌ تصرُخُ صرخةً ... يلينُ إليها كُلُّ قلبٍ ولو صَلْدُ

(١) التصحيف : قراءة الكلمة على غير صحتها وتكون فى الحروف المتشابهة المنقوطة وغير المنقوطة مثل ج يقرأها ح والسين ، شين ، والزاى ـ راء والذال دال والعكس .

وفيها أيضًا :

منقبةٌ مهما خلَتْ مع مُحبّها يُزوِّدُها لقمًا وينظرُها شزرا
وتَصْحِيفُها فى كَفٍّ حَامِلَها فَقُلْ :إذا شِئْتَ فى اليمنى وإن شِئْتُ فى اليسرى

فى دملج :

إلــــى النســـــاء يلتجــى وعندهــــنّ يوجـــــدُ
الجســـمُ منـــه فِضّةٌ والقلبُ منــــه جَلْمَدُ

فى خلخال :

أيا عجبًا من صابرٍ صامتٍ ولم يَفُه بكلام قَطُّ فى ساعة الضَّرْبِ
أقام ولم يبرحْ مكانًا ثوى به على أنّه أضحى يدورُ على الكعبِ

فى شعر اللحية :

وذى عددٍ كالرمل سامٍ مَحلُّه جميلٍ على كُلِّ الملاح له حَقُّ
يحاذرُ من موسى وَيَرْهَبُ باسمه وفى القلبِ هارونُ له الهلك والمحق

وفى التين :

أىَّ شىءٍ لذّ طَعْمُه ناعِمُ الملمسِ لَيِّنُ
كيف لا يَبْدُو وُضُوحًا وهو فى التَّصْحِيف بيِّنُ

فى الموز :

ما اسمٌ لشىءٍ حَسَنٌ شكْلُه تَلْقاه عند الناسِ مَوْزُونا
تراه معدودًا فإن زِدْتَه واوًا ونونًا صار مَوْزُونا

فى حمزة :

مَنْ لى بِمُعْتَدلِ القوامِ مُهفهف أزرى بِغُصْنِ البان لَيِّنَةُ قَدَّه
فى فيه تصحيفُ (١) اسمه وبخدّه وبقلبِ عاشِقِه لِشِدّةِ صَدِّه

وفيه أيضًا :

اسم الذى أنا أهْواه وأَعْشَقُه وطولُ دهرى أَخْشى من تَجنّيه
تَصْحِيفة فى فؤادى دائمًا أبدًا يبدو فى خدّه أيضًا وفى فيه

فى ساقية :

وجاريةٍ لولا الحوافرُ ما جَرت أُشاهِدُها تجرى وليس لها رِجْلُ

(١) تصحيف حمزة : جمرة : الحاء صحفها جيما ، والزاء : راء : فصحفت : جمرة .

وترضعُ أطفالاً ولا هى أمُّهُمْ   وليس لها ثدىٌ وليسَ لها بَعْلُ(١)

وفيها أيضًا :

وجاريةٍ تبكى إذا الليلُ جَنَّها   بلا أَلَم فيها ولا ضَرْبِ ضاربِ
عليها رجالٌ شُنِّقوا بعد حَرْقِهِمْ   وما كان شَنْقُ القومِ إلا بواجبِ

فى زر وعروة :

وما أُختٌ يُجامِعُها أَخُوها   وليس عليهما فيه جُنَاحُ
ترى بجوازِه الحُكامُ طُرًّا   وفى أعناقِهِمُ ذاك النِّكاحُ

فى راوية :

وسوداءُ تشربُ من رأسِها   وإن شِئْ[illegible]ـثِيكَ من فَردِ يَدْ
ولونها مِثلُ لونِ أُختِها   وَثِنْتَاه[illegible] حدُ فى العددْ
وتَحْبلُ فى الوقتِ هى وأُختُها   وفِ[illegible] ـةِ يضعان الولدْ

فى شطرنج :

يا ذا النُّهى ما اسم له حالةٌ   يحار فيها الذهنُ والفكرُ
له حروفٌ خمسةٌ إنما   ثلاثةٌ منها له شَطْرُ

فى فيل :

أيّما اسمٌ تركيبُه من ثلاث   وهو ذو أربعٍ تعالى الإِلَهُ
حيوانٌ والقلبُ منه نباتٌ   لم يكنْ عند جُوعِه يَرْعَاه
فِيكَ تصحيفةٌ ولكن إذا ما   رُمْتَ عكسًا يكون لى ثلثاه

فى بجع :

ما طائرٌ فى قَلْبِه   يلوحُ للناسِ عَجَبْ
مِنْقارُه فى بَطْنِه   والعينُ منه فى الذَّنَبْ

فى نَار :

وما اسمٌ ثلاثى به النفعُ والضَّرَرْ   له طلعةٌ تُغنى عن الشمسِ والقمر
وليس له وجهٌ وليس له قفا   وليس له سمعٌ وليس له بصرْ
يمدُّ لِسانًا يَخْتَشِى الرمحُ بأسَه   ويهزأُ يومَ الضَّرْبِ بالصارمِ الذكرْ

---

(١) البعل : الزوج .

يموتُ إذا ما قُمْت تَسْقيه عامدًا ... ويأكلُ ما يُلْقى من النبتِ والشجرْ
فيا قارِئَ الأبياتِ دُونَكَ شَرْحُها ... وإلا فَنَمْ عنها ونبّه لها عُمَر

وفيها أيضًا :

وآكلةٌ بغيرِ فَمٍ وبَطْنٍ ... لها الأشجارُ والحيوانُ قُوتُ
إذا أَطْعَمْتَها انتعَشَتْ وعَاشتْ ... وإنْ أَسْقَيْتَها ماءً تَموتُ

فى يد الهاون :

قُلْ لى فما شىءٌ يُرى ناعمًا ... مُنتصِبُ القامةَ طولَ الزمانِ
أطولَ مِنْ شِبْرٍ له حزةٌ ... مُفَيْشِلُ الرَّأسِ قَوِىٌّ الجنانِ
يَسْمَعُ فى القَعْرِ له رنَّةٌ ... ويُظهِرُ الصَّفْقَ بأعلى مكانِ

وفيه أيضًا :

خبِّرُونى أى شىءٍ ... أوسعُ ما فيه فَمُه
وابْنُه فى بَطْنه ... يَرْفُسَهُ ويَلْكُمُهُ
وقد علا صِياحُه ... ولم يجدْ مَنْ يَرحمُهْ

فى خشخاش :

وما قبةٌ مبنيةٌ فوق شاهقٍ ... لها علمٌ يحكى الملاحَةَ بالظرفِ
وأولادُها فى بَطْنِها فى جَماعةٍ ... يكونون أَلْفًا أو يزيدون عن ألفِ
ويأخذُها الطِفْلُ الصغيرُ بِجهلِه ... وقَلْبُها عَسفًا على راحةِ الكفٍّ

فى كوز زير :

وذى أُذُنٍ بِلا سَمْعٍ ... له قَلْبٌ بِلاَ لُبٌّ
إذا استولى على صَبٍّ ... فَقُلْ ما شئت فى الصَّبِّ

فى اسم على :

اسْمُ الذى أَعْشَقُه ... أَوَّلُه فى نَاظِرِه
إنْ فَاتَنِى أَوَّلُه ... فإنَّ لِى فى آخِرِه

فى موسى للصفدى :

وما شىءٌ له حدٌّ وخدٌّ ... يُكَلِّمُ مَنْ يُلامِسُه بحِقِّه
وكُلّ حلَقِه من تحتِ راسِى ... وهذا الرأسُ صارتُ تَحْت حَلْقِه

فى حلب لابن الفارض ـ رحمه الله تعالى ـ :

ما بَلْدَةٌ بالشام قلبُ اسمها تَصْحِيفه أخرى بأرض العجم(١)
وثلثه إن زال من قلبه وجدته طيرًا شجىّ النغم

وقال فى سمرقند :

وما اسم سُدَاسِىٌّ إذا ما لمحته ترى فيه أجزاءً تُذَمّ وتُشكرُ
له ثلثُ يأتى به الموتُ فجاةً وثلثُ مع الكتاب يُطوى ويُنشرُ(٢)
وثلثٌ رعاك اللّهُ يا صاحبى على مدى الأيام نَشْرِ مُعطرُ(٣)
وفى نِصْفه لما تحرّك بعضُه حديثٌ شهىّ فى الليالى يُذكرُ
وفى نِصْفِه الثانى إذا ما أَعَدْتَه إلى النارِ للتحليلِ والعقد سُكرُ
ففسّرْ لنا ذا اللغز إن كنتَ ذا حجا(٤) فليس على ذى العقل لُغْزُ مُعسرّ

وقال فى كمون :

يا أيها العطارُ أَعْرِبْ (٥) لنا عن اسم شىءٍ قَلَّ فى سَوْمِكَ
تَرَاه بالعينِ فى يَقْظةٍ كما ترى بالقلبِ فى نَوْمِكَ

وقال فى قالب الطوب :

وما آكلٌ فى قعدة ألف لُقمة ولُقْمَتُه أضعافُ أضعافُ وَزْنه
إذا أُنزِلَ المأكولُ جَنْبَيْه لم يقمْ سوى لحظةٍ أو لحظتين بِبَطْنِه

فى العين :

وباسطةٍ بلا عُصُبٍ جناحا وتسبقُ ما يطيرُ ولا تطيرُ
إذا ألقمتُها الحجَرَ اطمأنَّتْ وتَجزَعُ أن يُباشرَها الحريرُ

ويكفى من ذلك ما أشرت إليه وما نبهت من هذا الفن عليه ، وقد مضى القول من الفنون السبعة على فن الشعر القريض ، وما فيه من الفنون المتقدم ذكرها .

ولنذكر إن شاء الله تعالى بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار . والفنون السبعة المذكورة عند الناس : هى الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والزجل ، والمواليا ، والكان وكان،

---

(١) حلب : قلبها : بلح وتصحيف الحاء . خاءً فتصير اسم البلد : بلخ .
(٢) الثلث الذى يأتى به الموت « سم » والثلث مع الكتاب « رق » .
(٣) الثلث النشر المعطر . « ند » عود نبات يتبخر به .
(٤) الحجا : العقل . (٥) أعْرِب : أَبِنْ وافصح .

والقوما ، ومنهم : من جعل الحماق من السبعة ، وفى ذلك اختلاف . وعند جميع المحققين أن : هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدا ، لا يغتفر اللحن فيها ، وهى : الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، ومنها : ثلاثة ملحونة أبدًا ، وهى : الزجل ، والكان وكان، والقوما . ومنها: واحد وهو البرزخ بيتهما يحتمل الإعراب ؛ واللحن : وهو المواليا ، وقيل : لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة ، فإن هذا أقبح العيوب التى لا تجوز، وإنما يكون المعرب منه نوعان بمفرده ، ويكون الملحون فيه ملحونًا لا يدخله الإعراب . وقد أوضح قاعدة الجميع ، وأمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الحلى فى ديوانه ، وسماه : « بالعاطل الحالى ، والمرخص الغالى » ولو بسطت المقال لاتَّسَعَ المجال ، وكثر المقال ، ولكن الاختصار يذهب الأوجال ، والحمد لله رب العالمين على كل حال .

فصل : فى بيان الفن الثانى وهو « الموشح »

لابن المبارك :

قد أنحلَ الجسمَ أسمرُ أكحلُ وأوجل القلب فيه مُذْ حَلْ

دور :

أميلُ له فلا يميلُ يحولُ وعنه لا أحولُ
أقولُ إذا زاد بى النحولُ
أمَا حَلَّ عقدَ الصدودِ ينحل وترحلُ عن نجمِ المزحل

دور :

كم أبْعَدُوكُمْ ابيتُ مكمد ويعمدُ بهجرِهِ لأفقِد
وأجهدُ لارتضاءِ مِنْ قَدِّ
تَحمَّل والحاسدون رُحَّلُ تَمَحلَ والوعدُ منه مَاحِلُ

دور :

متوج بالحسنِ هذا الأبلجُ مُدبّجُ عِذاره البَنَفْسج
مفلج وطرفه ذا الأدعج
مكحل وثغره منحل مخلخل بعنبر معجل

دور :

برغمى من يَسْتَحِلُّ ظلمى ويرمى بحربه لسلمى
وجسمى من التزام سقمى

منحل وقد غدا مرحل فمن حَلَّ دمى وما حَلَّ

دور :

قلانى واشتطَّ ذا الفلانى غزانى بطرفه اليمانى
ترانى أُنشدُ لِمَنْ يرانى
قد أنحلَ الجسمَ أسمرُ أكحل وأوحلُ القلبَ فيه مُذْ حَلَّ

لابن سناء الملك :

كلّلى يا سُحْب تيجانِ الربّا بالحُلَى واجعلى سوارَكِ مُنْعطفَ الجدولِ

دور :

يا سَمَا فيك وفى الأرض نجومٌ وما كُلَّما أَخْفَيْتَ نَجمًا اظهرتْ انجما
وهى ما تَهطِلُ إلا بالطلى والدما
فاهْطلى على قطوفِ الكرمِ كى تَمتَلِى وانقلى لِلدَّنِّ طَعمْ الشَّهْدِ والقَرَنْفُلِ

دور :

تَتَّقِدُ كالْكَوْكَبِ الدرىّ للمرتصد يعتقدُ فيها المجوسى بما يعتقدُ
فاتَّئِدْ يا ساقى الرّاح بها
وامِلْ لى حتى ترانى عنك فى معزلِ قل لى فالراحُ كالعشقِ إن يزدْ يقتلِ

دور :

لا أليم فى شُرْبِ صهبا وفى عشقِ رِيمِ فالنعيمُ عيشُ جديدُ ومدامُ قديمُ
لا أهيمُ إلا بهذين فَقُمْ يا نَدِيمُ
واجْلُ لى من أكْؤُسٍ صِيرَت من فَوْفَلِ الذُّ لى من نَكْهَةِ العنبرِ والمَنْدَلِ

دور :

خُذْ هنى واعطنى كاسى مثل كاسِكَ هنى واسْقِنى على رِضَابِ الفَطِن المُلْسِنِ
وَالْهنِى ببعضِ ما صِيغَ من الأَلْسُنِ
لَوَ تَلَى مدح سناه مع رشأ أكحلِ لَذَّ لِى على سنَا الصَّهباء والسلسلِ

دور :

أزهرتْ ليلتُنا بالوصلِ مُذْ أسفرَتْ أصْدَرَتْ بزورة المحبوبِ إذ بَشَّرَتْ
أَخَّرَتْ فَقلتُ للظلماءِ مذ قَصَّرْتَ
طُولى يا ليلةَ الوصلِ ولا تَنْجَلى واسْبلى سِتْرَك فالمحبوبُ فى مَنْزِلى

دور:

مَنْ ظُلِم فى دولة الحسن إذا ما حكم فالألمُ يجولُ فى باطنه والندمُ
والقلمُ يكتبُ فيه عن لسانِ الأُمَمِ
مَنْ ولى فى دَوْلَةِ الحسنِ ولم يَعْدِلِ يُعْزى لالحاظِ الرَّشا الأكْحَلِ
وله أيضًا :

تُرى هل يَشْتَفِى منكَ الغليلُ ويَشفَى من صَبَابَتِهِ العليلُ؟
دور :

لقد أَسْرَفْتَ فى هجرى وصَدّى بلا سببٍ سوى كلفى ووجدى
وماذا فى سُلُوٍّ عنك يُجْدِى ؟
خِضابُ الوجدِ ليس له نصولُ وأسيافُ الهوى فينا تَصولُ
دور :

لَئِنْ شَحَّيْتَ عنى بالسلامِ وَطَيْفُكَ قد جَفَا لِجفَا المنامِ
فقد جادتْ بأربعةٍ سِجَامِ
جفونٌ بالْبُكا كادتْ تحولُ على خَدٍّ أَسَفًا به النحولُ
دور :

لقد أرسلتُ فى طَىِّ النسيمِ حديثَ هَوى عن الوجدِ القديمِ
فعادت وهى عاطرة الشميم
تُخبِّرٌ أَنَّ ظُعْنَهُمُ نزولٌ بدارٍ لا يَلمُّ لها نزيلُ
دور :

تَلَقَّتْهُ الموالى والموالى بِأَلحاظٍ وزُرْقٍ مِنْ نصالِ
فَكَمْ بَطلٍ هُنَاكَ وَكَمْ قتيلِ بِسيفٍ مِنْ لَوَاحِظه قتيلُ
وأعطافٍ وسمرٍ من عوالى
وله أيضًا :

شمس المحيا أم القمرُ أم بارقُ الثَّغرِ يا بِشْرُ
أم الْبَهَا حفَّه الخَفَرُ بطرز خَدَّيْكَ مُسْتَطِرُ
سلسلة :

قُمْ تَبَاها بِمَا تَبَاها وَلاَ تَلاَها

قفلة :

فَكُلُّ أحبابِنا حَضُروا والعودُ يُشجِيكَ والوترُ

الدور :

أَفْديكَ بالسمعِ والبصرِ يا أهيفُ وَصْلُه وَطَرى
بدرٌ بدا فى دُجىْ الشَّعْرِ قد لَذّ فى حبّه سَهَرِى

سلسلة :

إذا تَجَلَّى وقد تَجَلَّى عليكَ يُجْلَى

قفلة :

تَحَيَّر فى وَصْفِه الفِكْرُ والعقلُ والسمعُ والنظرُ

الدور :

فهاكَ حدّث عن الطربِ وعن سُلافِ ابنةِ العنبِ
إذا سَقَاها مع الضَّرْبِ بدرُ بِأُفقِ الجِمالِ ربَّى

سلسلة :

فى ظل بان على المثانى من غير ثانى

قفلة :

إلاَّ الندامى إذا سكروا والروضُ والماءُ والشجرُ

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ :

وَا نَسِيمَ السَّحَرِ هَلْ لَك خَبَرُهُ عن عُرَيْبَ هُمُو بالْمنْحَنى؟
فارقونى ولم أقضِ الوطرَ من لِقَاهُم ولا نِلْتُ المنى
قلتُ : يا قلبُ صَبرًا ما صَبَر والنبى ما الهوى إلا عنا
ما كتمتُ الهوى إلاَّ ظَهَر مع شهودِ المدامعِ والضنى

دور :

لِيش تَمنعْ وصالَكَ يا حبيبُ عن مُحبكَ وهو لا يعشقُ سِواك
رَاقبِ اللَّهَ وارجعْ من قريبِ قبل يُبْلى جِسْمُهُ فى هواك
لستْ ألقى لِدائى من طبيبِ غيرَ رَشْفِى يا حبيبى من لِمَاكَ
لو رأى حالى العاذلُ عَذَرَ حينما ينظرُ جَمَالَكَ والسَّنَا

دور :

يا قمرٌ فوقَ غصنٍ من نَقَا أثخنْتَنا مطَالُكَ والصدودُ
يا رَعَى اللَّه لِوَيْلات اللقا ليتها يا خِلُّ يومًا لى تعودُ
ليلةُ السَّعْد ما فيها شقا كيف تَشْقى وطلعُها سُعودُ؟
صَفْوُها لَا يُمَازِجُه كَدَرٌ بالمسراتِ وأوقاتُ الهَنَا

غيره :

حَمَلْتُ مُذْ سارتِ الحُمولُ وَجْدًا مَضى العمُر وهو باقى

دور :

ساروا وسارَ الفؤادُ لكن جِسْمى مُقِيمٌ على المساكينِ
وعن الحبُّ صارَ ظاعنْ
مَالى إلى وَصْلِه وُصولُ لو سِرْتُ بالبرقِ والبُرَاقِ

دور :

وغادةٌ كالقضيب قَدًّا والوردُ والياسمينُ خدًّا
كأنَّها البدرُ إذ تَبَدَّى
وَشَعْرُها أَسْودُ طويلُ كأنَّه ليلةُ الفِراقِ

دور :

هَوْنًا أَتَتْنَا تَمِيلُ مَيْلاَ سحابةٌ كالسحابِ ذَيْلا
فقلتُ شمسُ تزورُ لَيْلا
وَمَا دَرى كاشحُ (١) عذولٌ فذاكَ من أعجبِ اتّفَاقِ

دور :

وَسَّدْتُها سَاعِدى لِسَعْدِى وبتُّ أرعى رِيَاضَ وَرْدِى
وخمرُ رِيقٍ كَذَوْبِ شَهْدِ
لو ذَاقَها مُدَنَّفٌ عليلٌ لعاشَ والروحُ فى التراقى(٢)

دور :

لما رَأَتْنى أذوبُ سُقْمًا وَمِنْ وُرُودِ الرضابِ (٣) أَظْمَا

---

(١) الكاشح : العدو المبغض . (٢) مُدَنَّف : المحب الذى أمرضه لوعة الحب وأشرف على الموت . التراقى : أعالى الصدر . وقال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ [القيامة : ٢٦] . (٣) الرضاب : الريق .

قالتْ : كَلَمْتَ الخدودَ لَثْمًا
ما يَشْتَفِى مِنْكَ ذا الغليلِ بغيرِ نومى وَشَيْلِ سَاقى

فصل فى الفن الثالث . وهو « الدوبيت »

لسيدى شرف الدين بن الفارض ـ رحمه الله تعالى ـ :

أهوى قمرًا له المعانى رَقٌّ من صُبْحِ جَبِينَه أضاءَ الشرقَ
أتَدْرِى باللَّهِ ما يقولُ البرقُ ما بين ثَناياه وَبينى فَرْق؟

وقال أيضًا :

أهوى رشأً كلّ الأسى لى بعثا مُذْ عاينه تَصبُّرى ما لبثا
نَادَيْتُ وقد فكرتُ فى خِلْقَتِه سُبحانَكَ ما خَلَقْتَ هذا عبثا

وقال أيضًا :

عرّج بِطُوَيْلِعٍ فلى ثَمَّ هوى واذكرْ خَبَرَ الغرامِ واسْنِدْه إلىّ
واقصص قَصَصِى عليهم وابْكِ علىّ قُلْ :ماتَ ولم يحظَ من الوصلِ بشىّ

وقال أيضًا :

رُوحِى لَكَ يا زائرًا فى الليلِ فدا يا مُؤْنسَ وَحْدَتى إذا الليلُ هَدَا
إنْ كان فِراقُنا مع الصبحِ بَدَا لا أَسْفَرَ بَعْدَ ذاك صُبْحٌ أبدا

وقال آخر :

يا شمسَ ضُحى جَبِينُه وَضَّاحُ ساعاتُ وِصَالُكَ كُلُّها أفراحُ
عُشَاقُكَ لو فَعَلْتَ ما شِئْتَ بِهِمُ ماتوا كمدًا وبالهوى ما باحوا

وقال آخر :

أهواه مُهفهفًا ثَقيلَ الرِّدْف كبدرِ يَجِلُّ حُسْنُه عن وَصْف
ما أحسنَ واو صُدْغِه حين بَدَتْ يا رَبُّ عسى تكونُ واو العطفِ

وقال التلعفرى (١) :

قلبى ذَهبَتْ لِبُعْدِكم رَاحتُه ما الصَّبْرُ على بعادكُم عَادَتُه
بنتُمْ فرثى لما به شَامَتُه لا كان فِرَاقُكُم ولَا سَاعَتُه

وقال المنشدى :

إحسانُك طولَ الدهرِ لاَ أنْسَاهُ لا أذكرُ بعد خَالقى إلاَّهُ

---

(١) محمد بن يوسف بن مسعود الشيبانى (أبو عبد اللّه . شهاب الدين) . شاعر . نسبته إلى (تل أعفر) بين سنجار والموصل . ولد بالموصل . وتوفى بحماة سنة ٦٧٥ هـ .

إن أبعدك الزمان عنى حسدا مولاى خليفتى عليك الله

وقال آخر :

إن جئت ربا الحمى ولاحت نجدُ فاذكر ولهى وما جناه البعدُ
قد كنت أقاسى الصدق حتى رحلوا يا ليتهم عادوا وعاد الصد

فصل فى الفن الرابع وهو الزجل

حمل للغبارى :

قُل لِغزلان وادى مصر والشام يقصروا ذا النفار
لهم اجعلْ حشاشتى مَرعى وفؤادى قِفارَ

دور :

مصر والشام فيها ملاح أقمار بالمحاسن تَسُودُ

دور :

ذا أبيضُ وذا أحمرُ وذا مليحٌ أسمرُ لو عُيُونُ لحل سُودُ ذا غزالُ صار يفوقُ على الغِزْلان ويصيدُ الأُسودَ
وذا غُصنُ بان أهيفُ قوامٌ قد وَقَدَ الأعضانَ جِهارَ وذا بدر الكمال ظهر فى الليل وذا شمسُ النهارِ

دور :

تدر بالله إيش قالتْ مليحُ الشام بعد ذاك الصدودِ
قد سُمِّينا بصحةِ الأبدان واعتدالِ القدودِ وتُخضَبُ تفاحنا الأحمر فوق بياضِ الخدود
وأنتم يا عشاقُ لكم قلنا والحسودُ راح بنا أنتم التفاحُ وما نقصدُ منكم إلا الخيارَ

دور :

وملاح مصر قالت : إحنا أصحاب الوجوه الملاح
والحلاوةُ وطيبةُ الأخلاق فى الخلائق مباح إحنا أقمار وإحنا بدور الليل وشموسُ الصباح
وفى الألفاظ والظرف والمعنى ليس لنا حد صار وورثنا الحسنَ من يوسفَ واكتسبنا الفخارَ

دور :

حسبى حبى الفرارجى فرحه بدر فى السعد لاح
فرخٌ ناجبٌ خرج من القشرة فاق ملاحَ الملاح كُلَّما أعمل على رضاه يُفْسِدُ بجفاه الصلاحَ
ومن البيضةِ قد خرجَ نافرَ رد جفنى بنار وجفانى وخد بياض جسمى خلطوا بالصفار

دور : وقع الطل خط بالأبيض فى اخضرار الطروس

قم يا ساقى على بساط زهرى تحت ظل العروس هاتها شمس راح شمول قرقف بكر عذرا عروس

عروس لها صفو النسيم ولطف اللمى وابتهاج الثمار قد جلوها فى ماس زجاج أبيض فاكتسى باحمرار

دور : خمر فيها سر لو جعل أشياف رد الأعمى بصير

اقطع القطف اسود يحاكى الليل شفق أحمر يصير يا ترى ذا السر فى كرمه أو يكون فى العصير

وترى النور دا عليه يلمع ذاك من إيش استنار وكذا الكاس يحاكى يا سمير من كساه جلنار

دور : فهو عطار عندى وشراب هندى وبرانى جفاه

كل من مص من لسانو ريقو يلتقى فيه شفاه ورد خد وحبتو سودا شبه خال فى صفاه

جبل آس عارضو أسر قلبى والكبار والصغار فى المحب غاروا على حسنو وكل من حب غار

دور : دورونى الملاح على كعبى ونصوا نصوص

بلا دعوى التف لف اليسير فى هواهم خصوص وعليا صار نقشهم قاعد مثل نقش الفصوص

والبساط انطوى وحين ما رأوا خلف له همه ولو قمرونى فى عشق هذا القمر والمحبة قمار اصطبار

دور : لحبيبى ثغر من جوهر والشفيفات عقيق

وعوارض ما ضرهم عارض غير نبات الشقيق وخدود ورد من غير نمش ووصفنا عن حقيق

يحرس الورد خال عنبر تحت أهداب غزار فى صفا وجهو أنزه طرفى عند خلع العذار

دور : فى رياض صفوف من الأزهار قابلتها صفوف

كيف لا نرقص والنسيم بها موصول وورقها دفوف وأعجب من النهر إذا صفق لو من الموج كفوف

والغيوم نقطت وحين جا النسيم طار أعلى مطار باختلاف الألحان سحر فى الروض صاح على عود وطار

دور :

أشرف الخلق بين الإسلام والهدى والضلال

والشرايع والحق والباطل والحرام والحلال نبى من بين أصابعه تحقيق نبع الماء الزلال
لو أن النبات جميعه أقلام والمداد البحار والخلايق تكتب مديحو تاه كل كاتب وحار

دور :

خلف أستاذ فى الفن ما ينطق ذاق عداه المنون

ما يعيبو فى الفن غير ناقص عقل زايد جنون شيخ مصدر لبيب قيم فى جميع الفنون
باتضاعو مع الصغار مرفوع فوق رؤوس الكبار وأهل الفنون تجرى وما تلحق للغبارى غبار

غيره لناصر الغيطى :

كنز روضى طالبو بسعد يا خليع قم فى دجى الأسحار تلتقى در الندى يرهج فوق فصوص غرائب النور

دور :

كنز روضى نزهة الطالب جوهر وبين الندى يرهج

وجبين الما بيتكسر يا خليع هيا تعا اتفرج بين عنابر تلتقى الخلع كل حد مع إلفو يدرج
وامش فى عرض الرياض وارتع بين أغصان وأطيار فوق بساط زمرد ذو قضبان كل وردة حكت لنا دينار

دور :

وترى الياسمين بحال فضه ضربت لأهل النزه صلبان

والشحارير لابسين أسود وقلانس كنهم رهبان وكذا الكتاب وهو أصفر بعمائم زرق للناس بان
وانجلت بين القوس فى ألحان وعلينا دارها الخمار والقطيع الراهبى يحكى لشماس لابس الزنار

دور :

الفراق نار والوصال جنّة والخلائق بعضهم يعشق

دا حبيب قلبو عليه راضى وذا محبوبو عليه يشفق ولهيب الهجر يتوقد والوصال من الملاح يشتق
والمليح عندى وأنا مطمن وسط روضا زهر لها معطار فى تعيم مع حور ومع ولدان والعذول مسكين صبح فى نار

دور :

وعمل فى الروض سماع باكر بين الأغصان والزهور أنغام

والنسيم شبب والغدير صفق والخليع من كتر وجدو والنخيل بأكمامها ترقص وأقبل الريحان بحال أعجام
والعصافير شيخهم ريق لو طريق بين الأزاهر طار والبلبل بالغنا يشجى فكأنو ناى أو مزمار

دور ناصر الغيطى:

يا خلايا صحبت إنسان أنكر الصحبة وعادانى

وبغضنى حين بقيت مسمى والإله بالفضل أسمانى فى بلاد قبلى وأرض الشام يشكرونى ساير أقرانى
والشجيع الشاطر المذكور فى جميع الأرض لو تذكار والبلط يوقع لو تعلق ما يحصل شىء مع الشطار
للغبارى :

جار حبيبى فقلت : ذا الحجاج جا يجوز أو يزيد أو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد
دور :

أقلع القلب فى هوى العشاق والدموع فى انحدار

وبحور الهوى إذا هاجت ليس لها من قرار كنت أحسب قلبى معرويس غرتو ذا البحار
صحت لما وحلت يا محبوب قلبى بحر عشقك يزيد خفت فيه الغرق فقال افرح من غرق مات شهيد
دور :

أنا يوم فى الغبوق باتفرج على شط الغدير

إذا رأيت على الشط واحد واقف شب صياد صغير نظرت مقلتى* إلى منظر ما لحسنو نظير
قلت يا عين إن غرك الصياد بالجمال المصيد يوقعك فى فخاخ شباك عشقو وكراكى يصيد
دور :

من نحبو جديد حبيب قلبى يوم صدفتو صدف

قلت : لين يا قاسى لمن دمعو سال وحالو وقف دار وقال لى ما لاسم بالإنجيل قلت اسمى خلف
قال : علينا يكتب ومن يسمع دا الكلام يستفيد فى الحقيقة من لا يكون داود ما يلين لو الحديد
دور :

لك عوارض فى الخد مرقومة ليس لها من مثال

وجفاك صار حماق وباب وصلك كان وكان يا غزال وأنت دوبيت موشح القاما يا عزيز الدلال
ولك ألفاظ صارت مواليا بالزجل والنشيد وبشعرك متوج القاما وأنت بيت القصيد
دور :

عن محرم شرابنا ضمنا ونفطر بالثمار

حين وجدنا سفرجل البستان يذهب الاصفرار وغنا الطير به الجماد يطرب وكذا الجلنار
فى ربيع حين رأى الثمر قاعد فيه تعاليق عقيد حسب الروض النص من شعبان صار يقيد فيه وقيد
دور :

من لهيب مدمعى جرى الطوفان للهيب ما طفى

وأنا هو الغبارى فى العشاق ما جرى لى كفى حين عليا بالصد والهجران والبعد والجفا
جار حبيبى فقلت ذا الحجاج جا يجور أو يزيد لو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد
دور :
حين سكنت القلب يا عيسى أمسى من بعدك الحزين فرحان
وتقديس بك ولكنو ما جرت فيه يا ابن عين سلوان

دور : عارضوا لما عشق خدو غرت من وجدى بقيت جاير
جيت إلى طرفو وناديت لو أحرسو وكون عليه ناظر بعد حين نظرت فى خدو النقى العارض وهو داير
وعليه قد دب بالسرقة جيت لطرفو قلت يا كسلان هكذا فى عادة الحراس قال لى : اعذرنى أنا نعسان

دور : بدر شعبان منيتى لما فى بروج السعد لاح نجمو
قلت لو أقضى بفيض دمعى أطلقوا واجراه على رسمو قلت لو دام الله اطلاقك فالحزين قلبو المشوم قسمو
ايش قد أذنب حين قطرتو دا يملغط قول بالبهتان قال لى صوم عن الوصال ناديت ليس أصوم يابدر فى شعبان

دور : حين تدبج احمرار خدو باخضرار العارض أسبانى
ضحك فابيض واتبسم واسوداد شعرى وأبكانى وحين أضحيت باصفرار لونى أشعث أغبر فى هواه عانى
قال لى :لونك قد صبح حايل وقد أبصر مدمعى ذقت تبريح الغرام ناديت فى هواك ذقت الهوان ألوان
طوفان
دور : قلت : لو حين عنى تخلف الله كن لى يا رشيد مهدى

قد تلون دمعى من بعدك وتجرى اليوم على خدى دار إلى إنسان مقلتى قال : لو أنت ما عندك نظر بعدى
ما ترى ما قد جرى منك على الخدود وقال يا فتان جرى الماء تحت من بعدك راقب الله فيا يا إنسان
دور : ذا الغزال النافر الأنسى للغزالة قد أعار النور

كسر قلبى كسير جفنو فاعجبوا للكاسر المكسور وبخمر الدن قد عربد وادعى أنى أنا المخمور
وابتسم لى عن نقا ثغرو وخطر والبشر فيا بان صحت يا قلبى صفا وردك أنت ما بين النقا والبان
للصفى الحلى:

أنت يا قبلة الكرام زينة المال والبنين
الله يعطيك فوق ذا المقام ويعيدك على السنين

دور :

أنت يا شاما بين الأنام الله يحرس شمايلك

ويزيدك بالدوام كى نعيش فى فواضلك ما ينطوى ذكر الكرام لما تنشر فضايلك
ونهنيك لكل عام والخلائق تقول آمين قد بقينا بك فى آمان الله يحييك طول السنين

دور :

ما رأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعم

كل من جاء ليسألك ليس تقول له سوى نعم أمَلَكٌ أنتَ أو ملكٌ ؟ ضاعف الله لَكَ النِّعَمَ
أنت فى الجود كالغمام وسماك فوق ماردين دَرَّ غيثُكَ فى انسجام عَمَّ كل السائلين

دور :

الله يحييك من خير قوم بالغ القصد والمنى

لا عدمنا كل صوم ذا السحور فيك والهنا كل ليلة ولك يوم ينشر الذكر والثنا

دور :

حتى تقضى ذا الصيام ويليه باقى السنين وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

دور :

خال عبد الرحيم حبر من غير قاف ولام رميم ثغر معشوقى الفتان نون وعين وميم
شال السعد فوق راسو عين ولام وميم داللى قد هواه قلبى صاد وبا ويا
مليح ما رأيت مثله ظا وبا ويا ما أحلاه عندما يلبس قاف وبا ويا
ذقت من صدود حبى غين وصاد وصاد لما رأيت صبرى نون وقاف وصاد
النوم من جفون عينى خا ولام وصاد وأصبحت وجود فكرى عين ودال وميم
قلت يوم لمن كان لى سين ونون ودال اعدل فى الذى صبرو نون وفا ودال
ولا تهجر العشاق با وعين ودال ما أفلح قط يا ناس ظا ولا ميم

جمل فى الألغاز : (المطلع فى العين) :

وما طير أكلوا الحجر يا كرام وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح
ولمس الحرير يؤذيه وريش النعام يصول بين جناحين سود كبيض الصفاح

دور فى السراج :

وما بجر ما هو ما وفى الليل يزيد ... وينقض ولا هو خوض ولا هو غريق
وفيه شىء صفات حيه بلا وكر استفيد ... لها جوهره فى فمها يا رفيق
بلا شك ينظره القريب والبعيد ... ويخفى ويظهر كل يوم عن حقيق
يغيب فى النهار لكن إذا جاء الظلام ... نشوفو يضىء بين الوجوه الصباح
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام ... قتيل الهوى بين الربا والبطاح

دور فى جوزة الكنافة :

وما هى التى تركب على ستين ألف ... وما مثل ذاك فسر لنا يا خبير
مليحة وقصيفه وتلبس ترف ... وتحمل وتوضع كل يوم فى السعير
لها عشرة أعوان حالهم مختلف ... يشيلو أودها الكبير والصغير
لها فحل يخدمها عليه السلام ... يحادى سراها فى المجى والرواح
وأكثر تعبها فى ليالى الصيام ... وذا اللغز قلته ومن غير مزاح

دور فى الغربال :

وما هو الذى يا سعد كله عيون ... ولا يعتلم ضوء الظلام والضيا
وهو بين خشب مصلوب لتلك الفنون ... وميت وهو يحيى أصول الحيا
إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون ... ولا حد يعوض موضعه لو عيا
وكم من رقيص فى صنعته باهتمام ... مكابد عجاجه فى المسا والصباح
ويحتاج له الناس كل يوم فى الدوام ... على شان فنونه دول فنون ملاح

الفن الخامس فى المواليا
وله وزن واحد وأربع قوافي:
فمن تلك الأربعة واحدة لصفى الدين الحلى

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت ... والمخصب الربع والأمواه قد غارت
هواطل السحب من كفيك قد غارت ... والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

وقال آخر :

سَلْ مُقلتيكَ الكحالَ عمن سلاسِلها ... ومرشَفيْكَ مَنْ رشف منها سلاسِلَها
وعارضَيْكَ التى مدت سَلاسِلَها ... كم من أسودِ ضوارى فى سلاسلها

وقال آخر :

قد أوعدونا الغضابا أننا نخلو ... فى ظل بستان حافف بالتمر نخلو

والطَّلُّ من فوقنا قد بلنا نخلو ... ومن كلام الأعادى قَطُّ ما نخلو

وقال آخر :

قسمًا وباللّهِ مُفرِّقُها وجامعُها ... ومن أمرنا بمسجدها وجامعها
لَوْحَلَّ مع بغيتى عايد وجامعها ... كأن افتتن فى محاسنها وجامعها

ومن اثنين واثنين قال آخر :

قومِ اسقنى ما تُبقى فى أباريقو ... أما ترى الصبح قد لاحت أباريقو
مع شادنٍ كلما دارَ شقاريقو ... سقى المداما وإن عزت سقى ريقو

وقال :

البارحة رأيت بعينى فى الدجاجيين ... اثنين مثل البدوره فى الدجى جيين
ناديتهم فين كنتم يا خفاجيين ... قالوا لمن قد وعدنا فى الخفا جيين

وقال :

قد زدت هجرك فجد بالعفو عن صبك ... ارحم خضوعى وخف فى قتلتى ربك
يكفيك بهجر تكدر قلب من حبك ... ما ظن فى الناس أقسى قلب من قلبك

غيره خمرى عاطل :

كاس الطلا لطلاها طال لما سر ... وصار لما حوى حمرا مكلل در
مدام لو طعم كله حلو ما هو مُرٌّ ... ما حل مملوك إلا صار مالك حر

غيره حربى :

لك يا إمام الوغا فى كل موقع حرب ... سماع يطرب له السامع وينفى الكرب
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب ... سيوف تفنى وكفك لا يمل الضرب

الصفى الحلى فى المدح :

أغنت وأقنت كفوفك فى الندى والحرب ... فى القرب والبعد من شرقها والغرب
وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب ... ذا الكرب فرج وهذا قد رمى فى الكرب

وقال أيضًا :

مَنْ قال جودة كُفُوفُك والحيا مثلين ... أخطأ القياس وفى قوله جمع ضدين
ما جدت إلا وثغرك مبتسم يا زين ... وذاك ما جاد إلا وهو باكى العين

وقال فى التهنئة :

رأيت ذا العيد أول يوم فى عصرك ... رأيت ذا اليوم مع ذا الشهر فى نصرك

وريت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك ... والكل بالكل أول مبتدا عمرك

فى المعاتبة :

عنى تسليت وأسياف الجفا سليت ... ومذ توليت عن طرق الوفا وليت
لما تمليت بالأعمال لى مليت ... إذا تخليت تعرف قدر من خليت

وقال أيضًا :

يا قلب إن غدر فاغدر وإن خانوا ... فنحن وإن هم قسوا فاقسا وإن لانوا
فلن وإن قربوا فاقرب وإن بانوا ... فبن وكن لى معاهم كيفما كانوا

وقال آخر :

حلف عليا جكاره أن يقاطعنى ... وصد عنى وأقسم ما يطاوعنى
كم ذا يصد وكم يرجع يصد عنى ... إن كنت أنا هو المطلق لا يراجعنى

وقال آخر هجوًا :

قطع قفا ابن أخت خالك وابن اخو عمك ... والحق يصفع أبو بنتك أو ابن أمك
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك ... وإن كنت تسكت يبول الكلب فى فمك

وقال آخر :

إن ردت تسلم بطول الدهر ما تبرح ... لا تيأسن ولا تقنط ولا تمرح
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرح ... وإن ضاق صدرك ففكر فى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾

وقال آخر :

إن كنت عاقل وربك بالتقى برك ... إدفع أذاك وهات خيرك ودع شرك
وإن تعدى حسودك والحسد ضرك ... ناديه ﴿ يَا أَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ﴾

وقال آخر :

يا قلب إن خانك المحبوب لا تدبر ... عنو وعن قصة السلوان لا تخبر
واستعمل الصبر دائم للعدا تقهر ... فإن الله ما خاب الذى يصبر

الفن السادس كان وكان

وله وزن واحد وقافية واحدة ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثانى .

فمنه هذا الوعظيات :

يا قاسى القلب مالك تستمع وما عندك خبر ... ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار

أفنيت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك ليتك على ذى الحاله تقلع عن الإصرار
تحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشتغل فكيف يا متخلف تحسب من الحضار
ويحك تنبه يا فتى وافهم مقالى واستمع ففى المجالس محاسن تحجب عن الأبصار
يحصى دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه وكيف تعزب عنه غوامض الأسرار
تلوت قولى ونصحى لمن تدبر واستمع ما فى النصيحة فضيحة كلا ولا إنكار

وقال أيضًا :

صرح بذكر المحبة ما فى العمى فائدة وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه
ودع حديث العواذل ليس الخير مثل النظر أنا عاشق لحبيب كل المعانى فيه
من أين للبدر حسن يحكيه أو شمس الضحى؟ حاشا لذاك المحيا من مشبه يحكيه
إن غبت فهو أنيسى وإن حضرت نديمى وإن شربت مدامى فالكأس هو ساقيه
فمنه روحى وراحى إذا سكرت وراحتى وفيه عزى وذلى بمهجتى أفديه
قولوا لمن يلحانى فى الحب قصر واعتبر هذا لذى قد عشقته قد حار وصفى فيه

الصفى الحلى :

شاهدت فى الليل طيرى وقمت حتى أنصب شرك ما كل صيد يحصل يفرح الصياد
طيرى الذى كان إلفى لو ردت مثله ما حصل وهو علىَّ معود وأنا عليه معتاد
قد كان شرطى وخلقى لبرج يرى ما عرف كأنا فى الصحبة جينا على ميعاد
من قبل ما أبصبص له يجى ويدخل قصورى أنا أرصده فى مطاره خائف عليه ينصاد

وقال آخر :

ما ذقت عمرى جرعة أمر من طعم الهوى الله يصبر قلبى على الذى يهواه
الناس تعلم منى حال الجلادة والقوى وما أطيق التجلد على أليم جفاه
لى حب مثل الخوخة لو لون وطعم وريحة ما أكثر مغابن حبيبى وما أقل وفاه
أنا عرفتو حظى وكل ما أحسن لو يسىء لو كنت أعشق ظلى ما كنت قط أراه

وله فى الفراقيات :

يا سادة هجرونى وهم نزول بخاطرى لا أوحش الله منكم فى سائر الأوقات
أوحشتم العين منى وأنسكم فى خاطرى والقلب فى النور منكم والعين فى ظلمات
قد انتهى الصبر منى وما بقى فيها رمق هيهات إنى أحيا من بعدكم هيهات
لم يبق غير خيالى يلوح كالشبح الخفى أعد بين الأحياء وأنا مع الأموات

ودعتمونى وسرتم والقلب يتبع ركبكم إيش ضر لو كان جسمى من جملة التبعات
ما مر ما ريت ضدى يقول لى من فرحته هنا تشق المراير وتسكب العبرات
لو لم أسل روحى وأرض نفسى بالمنى لكان قلبى تقطع من بعدكم حسرات
وقفت لما رحلتم حيران بين أظعانكم أخفض جناح المذلة وأرفع الأصوات
طول إلليل أساهر كنى أريد الكيميا أقطر الدموع منى وأصعد الزفرات
ما أطول ليالى جفاكم ساعتها مثل السنة وما أقصر أيام وصلى كأنها ساعات
مالى أرى حسناتى بالسيئات تبدلت وسيئات الأعادى اتبدلت حسنات
خالفتمونى وعمرى ما زلت أتبع أمركم كذا العبيد تتابع أوامر السادات
أسكت وأصبر عنكمو ويفعل الله ما يشا والدهر من عاداته يقلب الحالات

الفن السابع فى فن القوما

قيل : أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ؛ والصحيح أنه مخترع من قبله . وكان الناصر يطرب له ، كان لابن نقطة ولد صغير ماهر فى نظم القوما ، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه ، فتعذر عليه ذلك ، فصبر إلى دخول شهر رمضان ، ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ، ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة ، وغنى القوما بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة إليه وطرب له ، فكان أول ما قاله قوله :

يا سَيِّدَ السادات لكْ بالكرم عادات
وأنا بنى ابن نقطةَ تعيش أبويا مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار ، فاستحضره ، وخلع عليه ، وفرض له ضعفى ما كان لأبيه.

ومنها للصفى الحلى :

من كان يهوى البدرَ ووصلَ بيض الخدورِ
بالبيض والصفر يسخو وقد جلس فى الصدورِ
مَنْ حَبّ بِيضَ الخدور ورامَ لزوم الصدورِ
يسمحْ وإلا فبقى من بينهم مهدورِ
كم بين سُجْفِ الخدور مِنْ عاشِق مصدورِ
يرعى الكواكبَ تعلو يرى جمالَ البدورِ

بين الحُلَلِ والخدورِ وجوه مثل البدور
إشراقُها فى المعاجز وغربها فى الصدور
قد كنتُ فوق الصدور بين الظبا والبدور
فصرت أحسد من أبصر خيامهم والخدور
نوائبُ المقدرر مثل الكواكب تدور
من بعد طيب الخواطر يقضى بضيق الصدور
غيرى يلازم الصدور أنا عليكم أدور
واصْطَلِى الصدّ وأنا من بينهم مهدور

حالُ الهوى مخبورُ يريد جلد صبور
يصونُ سِرَّهُ وإلا يبقى من أهل القبور
من كان هواه مستور يحظى برفع الستور
ومن هتك سر حبو يمحى من الدستور
أبذلُ لبيضٍ النحور أموالَ مثلَ البحور
إن أردتَ تملك وتظفر ولدانهم والحور
قُمْ فابذل المذخور وفى العطا لا تجور
تريد هذى المحبه قلوب مثل الصخور
كم حول تلك الخدور من عاشق مذعور
مثل الدواليب تجرى دموعها وتدور
من يركب المحذور هو فى الهوى معذور
يظفر بحبه ويبلغ قصده ويوفى النذور
كنْ بالهوى مسرور ولاتبيت مغرور
واجعل تراب أعتابهم لأجفان عينك درور
طرق المحبة وعور كم بينها معذور
من فتك بيض السوالف على سَوَاد الشعور
كم عاشق مذعور فى حب بيض الثغور
يغار قلبه ولكن مدامِعُه ما تغور

كم بينهم يعفور كالظبى أنس نفور
من أهل بدر فديته إيش ما عمل مغفور

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء فى رمضان :

لا زال سعدك جديد دائم وجدك سعيد
ولا برحت مُهنًّا بكل صوم وعيد
فى الدهر أنت الفريد وفى صفاتك وحيد
والخلق شعر مُنَقَّحٌ وأنت بيتُ القصيد
يا من جنابه شديد ولطف رأيه سديد
ومن يلاقى الشدائد بقلب مثل الحديد
لا زلت فى تأييد فى الصوم والتعييد
ولا برحت مُهنًّا بكل عام جديد
نحن لذكراك نشيد بقولنا والنشيد
ونبعث أوصاف مدحك على خيول البريد
ظلك علينا مديد ما فوق جودك مزيد
وكم غمرت بفضلك قريبنا والبعيد
لا زلت فى كل عيد تحظى بجد سعيد
عمرك طويل وقدرك وافر وظلك مديد
لا زال قدرك مجيد وظل جودك مديد
ولا برحت موقى كما يوقى الوليد
ما زال برك يزيد على أقل العبيد
وما برح جود كفك منا كحبل الوريد
لا زال برك مزيد دائم وبأسك شديد
ولا عدمنا نوالك فى صوم فطر وعيد

ومما قيل : فى فن الحماق :

أنا ما عبورى الحمام لجسمى لكى ينظف
إلا لدمع جارى على الما ولا يوقف
وديك المجارى تجرى ودمعى يسابقها

تقول الأنام فى الحمام له أحباب فارقها

وقال آخر :

ترى كل من نعشقو علينا يقيم أنفه
فاسلاه واترك هواه وسُدًّ الطريق خلفه
وإن زاد على عشقو وزاد بى الهوى والذل
تركتو ولو كان يحيى لأهل القبور الكل

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة .

وذكرت منها ما تبتهج به النفوس وتقر به العيون ، واختصرت ذلك إلى الغاية ، فجاء بتوفيق الله فى الحسن نهاية ، وأسأل الله التوفيق بمنه وكرمه والمزيد من بره ونعمه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

•

الباب الثالث والسبعون
فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول
الفصل الأول : فى النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى : ﴿ فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء] . وقال تعالى: ﴿ وَأَنكحُوا الأَيَامَىٰ منكُمْ وَالصَّالحينَ منْ عبَادكُمْ وَإِمَائكُم ﴾ [النور : ٣٢] . وقال تعالى : ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُم ﴾ [البقرة : ٢٣٥] . وقال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (١) . وقال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عوان عندكم » (٢) ، وقال رسول الله ﷺ: « تزوجوا الودود الولود، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » (٣) . وقال ﷺ : « سوداء ولود خير من حسناء عقيم » . وقال رسول الله ﷺ : «أحسن النساء بركة أحسنهن وجهًا وأرخصهن مهرًا » (٤) فينبغى للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب فى ذات الدين وأن يختار الشرف والحسب .

كما حكى: أن نوح بن مريم قاضى مرو أراد أن يزوج ابنته ، فاستشار جار له مجوسيًا ، فقال: سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتينى ! قال : لا بد أن تشير عَلَيَّ . قال: إن رئيسنا كسرى كان يختار المال ، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ، والعرب كانت تختار الحسب والنسب ، ورئيسكم محمد كان يختار الدين ، فانظر أنت بأيهم تقتدى .

وقال رجل للحسن : إن لى ابنة فمن ترى أن أزوجها له ؟ قال : زوجها ممن يتقى الله عز وجل ، فإن أحبها أكرمها ،وإن أبغضها لم يظلمها . وقيل لرجلي من الحكماء : فلان يخطب فلانه فقال: أموسر من عقل ودين ؟ فقالوا : نعم . قال: فزوجوه إياها ، ويستحب أن يختار البكر لقوله ﷺ : « عليكم بالأبكار فإنهن أطيب أفواهًا وأنتق (٥) أرحامًا» (٦) . وقالوا : أشهى المطى ما لم يركب وأحب اللآلئ ما لم يثقب ، وأنشد بعضهم :

---

(١) رواه البخارى فى « الصوم » (٥٠٦٥) ، ومسلم في « النكاح » (٣٣٣٨) عن ابن مسعود رضى الله عنه.

(٢) حسن : رواه النسائى فى « عشرة النساء » (٣٤) ، والترمذى (١ / ٢١٨) وابن ماجه (١٨٥١) .

(٣) صحيح : رواه أبو داود (٢٠٥٠) والنسائى (٣٢٢٧) والحاكم (٢/ ١٦٢) وصححه ووافقه الذهبى .

(٤) ضعيف : رواه الطبرانى فى « الكبير » (١٩ / ٤١٩ / ١٠٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٤/٢٥٨) : فيه على بن الربيع وهو ضعيف .

(٥) « أنتق » امرأة : كثيرة الأولاد .

(٦) حسن لشواهده : رواه ابن ماجه في النكاح (١٨٦١) وانظر الصحيحة (٦٢٣).

قالوا نكحت صغيرةً فأجبتُهُم ... أشهى المطىِّ إلىَّ ما لمْ يركبِ
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبةٍ ... نظمت وحبة لؤلؤ لم تثقبِ

فأجابته امرأة :

إنَّ المَطِيَّةَ لا يَلَذّ ركوبُها ... حتى تذلَّل بالزِّمام وتُرْكَبا
والدرُّ ليس بنافعٍ أربَابَه ... حتى يؤلَّف بالنظام ويُثْقَبا

قال خالد بن صفوان (١) :

عليك إذا ما كنت فى الناس ناكحًا ... بذات الثنايا الغرّ والأعين النجلِ

وقيل: استشار رجل داود عليه السلام فى التزويج ، فقال له : سل سليمان وأخبرنى بجوابه، فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راكبًا قصبة فسأله فقال : عليك بالذهب الأحمر أو الفضة البيضاء ، واحذر الفرس لا يضربك . فلم يفهم الرجل ذلك ، فقال له داود عليه السلام: الذهب الأحمر البكر ، والفضة البيضاء الثيب الشابة ، ومن وراءهما كالفرس الجموح . وقال رسول الله ﷺ : « تخيروا لنطفكم » (٢) ، وقال ﷺ « انظر فى أى شىء تضع ولدك، فإن العرق دساس » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن ». قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ » قال : «المرأة الحسناء فى المنبت السوء » (٣) ، وأنشدوا فيه :

إذا تزوّجت فكن حاذقًا ... واسأل عن الغصن وعن منبته

وقال بعضهم :

وأوّل خبث الماء خبثُ ترابه ... وأول خبث القوم خبث المناكح

وعن علىّ رضى الله تعالى عنه ، عن النبى ﷺ قال: « لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإن اللبن يعدى». وقيل : إن جعفر بن سليمان بن على عاب يومًا على أولاده ، وأنهم ليسوا كما يحب ، فقال له ولده أحمد بن جعفر : إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة وإماء الحجاز فأوعيت فيهن نطفك ثم تريد أن ينجبن وإنما نحن كصاحبات الحجاز فهلا فعلت فى ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقلية قومها ، فزوجها منك ، وأنشدوا :

صفاتُ من يستحب الشرع خطبتها ... جلوتها لأولى الألباب مُختصِرا
صبيةٌ ذات دينٍ زَانَه أدبٌ ... بكرٌ ولود حكت فى نفسها القمرا

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه والدارقطنى والحاكم . وانظر «الصحيحة» (١٠٦٧).
(٢) ضعيف جدا : رواه القضاعى فى « مسند الشهاب » (٩٥٧) وفى سنده محمد بن عمر الدارمى وهو متروك.
(٣) لم أقف عليه .

غريبة لم تكن من أهل خاطبها ... تلك الصفات التى أجلو لمنْ نظرا
فيها أحاديثٌ جاءت وهى ثابتةٌ ... أحَاط علمًا بها من فى العلوم قَرا

وقال آخر:

مطيّات السرور فويق عشر ... إلى العشرين ثم قف المطايا
فإنْ جُزْتَ المسير فسرْ قليلا ... وبنت الأربعين من الرزايا

وقال آخر:

فإيّاك إيّاك العجوز ووطأها ... فما هو إلا مثلُ سمٍّ الأراقم (١)

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة ، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التى لا تسكن النفس إلى عشرتها ولا تقر العيون برؤيتها . وفى حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها ، والمرأة السفيهة تهدمه .

وروى: أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر ، خطب فقال : الحمد الله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسوأس حرمه ، وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به برًا وفضلا وكرمًا ومَجدًا ونبلا ، فإن كان فى المال قلّ . فالمال ظل زائل ورزق حائل ، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالى كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل .

ولما خطب عمرو (٢) بن حجر الكندى إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك، أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها ، فكان مما أوصتها به أن قالت : أى بنية إنك مفارقة بيتك الذى منه خرجت وعِشك الذى منه درجت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة ليكون لك عبدًا ، واحفظى له خصالا عشرًا يكن لك ذخرًا ، فأما الأولى والثانية ، فالرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه ، فإن شدة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مَغضبة، وأما السابعة والثامنة : فالإحراز لماله والإرعاء على حشمه وعياله ، وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصِي له أمرًا ، ولا

(١) الأراقم : جمع الأرقم : ذكر الحيات وأخبثها .

(٢) في رواية : الحارث بن عمرو ملك كندة . . واسم أمّها : أمامة بنت الحارث. مجمع الأمثال ٢ / ٢٦٢ برقم (٣٧٥٩) المثل : ما وراءك يا عصام ؟ .

تفشى له سرًا ، فإنك إن خالفتِ أمره أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتمًا ، والكآبة لديه إذا كان فرحًا . فقبلت وصية أمها ، فأنجبت وولدت له الحارث بن عمرو جد امرىء القيس الملك الشاعر .

وعن الهيثم بن عدى الطائى[1] عن الشعبى قال : لقينى شريح ، فقال لى : يا شعبى عليك بنساء بنى تميم ، فإنى رأيت لهن عقولا ، فقلت وما رأيت من عقولهن ؟ قال : أقبلت من جنازة ظهرًا ، فمررت بدورهن وإذا أنا بعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجوارى ، فعدلت إليها ، واستسقيت وما بى عطش . فقالت لى : أى الشراب أحب إليك ؟ قلت ما تيسر قالت : ويحك ياجارية ائتيه بلبن ، فإنى أظن الرجل غريبًا ، فقلت للعجوز ومن تكون هذه الجارية منك ؟ قالت : هى زينب بنت جرير إحدى نساء بنى حنظلة . قلت : هى فارغة أم مشغولة ؟ قالت : بل فارغة . قلت أتزوجينيها ؟ قالت : إن كنت كفؤا (ولم تقل كفوا) ، وهى بلغة بنى تميم ، فتركتها ومضيت إلى منزلى لأقيل[2] فيه ، فامتنعت منى القائلة ، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخوانى من العرب الأشراف علقمة والأسود والمسيب ، ومضيت أريد عمها، فاستقبلنا وقال : ما شأنك أبا أمية ؟ قلت : زينب ابنة أخيك قال : ما بها عنك رغبة ، فزوجنيها ، فلما صارت فى حبالى ندمت وقلت أى شىء صنعت بنساء بنى تميم، وذكرت غلظ قلوبهن فقلت : أطلقها ، ثم قلت : لا ، ولكن أدخل بها ، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك، فلو شهدتنى يا شعبى وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت على . فقلت : إن من السنّة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلى ركعتين. ويسأل الله تعالى من خيرها ويتعوذ من شرها . فتوضأت . فإذا هى تتوضأ بوضوئى وصليت فإذا هى تصلى بصلاتى ، فلما قضيت صلاتى أتتنى جواريها فأخذن ثيابى وألبستنى ملحفة قد صبغت بالزعفران فلما خلا البيت دنوت منها ، فمددت يدى إلى ناصيتها ، فقالت على رِسْلِكَ[3] أبا أمية . ثم قالت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلى على محمد وآله ، أما بعد، فإنى امرأة غريبة لا علم لى بأخلاقك فبين لى بما تحب فآتيه ، وما تكره فأجتنبه ، فإنه قد كان لك منكح فى قومك ولى فى قومى مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمرًا كان مفعولا، وقد ملكت ، فاصنع ما أمرك الله تعالى به ، وإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وأقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولك ولجميع المسلمين . قال : فأحوجتنى والله يا شعبى إلى الخطبة فى ذلك الموضع ، فقلت : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأصلى على محمد وآله أما بعد، فإنك قلت كلامًا إن ثبت عليه يكن ذلك

(١) هيثم بن عدي بن عبد الرحمن الثعلبي الطائي البحتري . (أبو عبد الرحمن) مؤرخ . عالم بالأدب والنسب أصله من (منبج) إقامته وشهرته بالكوفة . ووفاته في (فم الصلح) قرب واسط . سنة ٢٠٧ هـ . الشعبي : عامر بن شراحيل ت ١٠٣ هـ وقد ترجم له .

(٢) أقيل : وقت القيلولة الظهيرة ـ عندما تشتد حرارة الشمس أستظل وأستروح .

(٣) الرِّسْلُ : الرفق والتؤدة .

حظًا لى ، وإن تدعيه يكن حجة عليك أحب كذا وأكره كذا ، وما رأيت من حسنة فابثثها ، وما رأيت من سيئة فاسترها ، فقالت : كيف محبتك لزيارة الأهل ؟ فقال : ما ، أحب أن يملنى اصهارى (١) . قالت : فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له ، ومن تكرهه أكرهه؟ ، قلت: بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء . قال: فبت معها يا شعبى بأنعم ليلة ، ومكثت معى حولا لا أرى منها إلا ما أحب ، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، وإذا أنا بعجوز فى الدار تأمر وتنهى . وقلت من هذه ؟ قالوا: فلانة أم حليلتك قلت : مرحبا وأهلا وسهلا فلما جلست أقبلت العجوز ؟ فقالت السلام عليك يا أبا أمية ، فقلت: وعليك السلام ومرحبا بك وأهلا . قالت : كيف رأيت زوجتك قلت : خير زوجة ، وأوفق قرينة لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة، فجزاك الله خيرًا، فقالت: أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالا منها فى حالتين، قلت: وما هما؟ قالت: إذا ولدت غلامًا أو حظيت عند زوجها، فإن رأيك مريب فعليك بالسوط ، فوالله ما حار الرجال فى بيوتهم أشر من الروعاء المدللة .

فقلت : والله لقد أدبت ، فأحسنت الأدب ، وريضت فأحسنت الرياضة ، قالت : كيف تحب أن يزورك أصهارك؟ قلت : ما شاءوا ، فكانت تأتينى فى رأس كل حول فتوصينى بتلك الوصية ، فمكثت معى يا شعبى عشرين سنة لم أعب عليها شيئًا . وكان لى جار من كندة (٢) يفزع امرأته ويضربها ، فقلت فى ذلك :

رأيت رجالا يضربون نساءهم ... فشلّت يمينى يوم تضربُ زينبُ
أأضربها من غير ذنب أتتْ به؟ ... فما العدلُ منى ضَرْبُ مَنْ ليس يُذنبُ
فَزَيْنَبُ شمسٌ والنساءُ كواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفى ألف فى السر وخمسمائة ألف فى العلانية ، فأجابه إلى ذلك ، وحملها إلى العراق ، فأقامت عنده ثمانية أشهر، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافدًا نزل بدمشق ، فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة . ومعه الناس . فاستقبله ابنُ جعفر بالترحيب فقال له الوليد : لكنك أنت لا مرحبًا بك ولا أهلا . قال : مهلا يا ابن أخى ، فلست أهلاً لهذه المقالة منك، قال : بلى ، والله وبشر منها ، قال : وفيم ذلك ؟ قال : لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بنى عبد مناف . فعرضتها لعبد ثقيف يتفخذها . قال : وفى هذا عتبٌ علىَّ يا ابن أخى . قال : نعم ، فقال عبد الله : والله ما أحق الناس أن لا يلومنى فى هذا إلا أنت وأبوك، لأن من كان

---

(١) أصهارى : القوم الذين تزوج منهم ـ أهل الزوجة ـ.

(٢) بنو كندة : عرب قطنوا جنوب الجزيرة العربية فى الجاهلية.

قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمى ويعرفون حقى ، وإنك وأباك منعتمانى رفدكما حتى ركبنى الدين أما والله لو أن عبدًا حَبَشيًا مجدعًا أعطانى بها ما أعطانى عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتى ، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل علي عبد الملك ، فقال : مالك يا أبا عباس ؟ قال : إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بنى عبد مناف، فأدركت عبد الملك غيرة ، فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل ، قال : ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقًا ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا وما زال واصلا لعبد الله بن جعفر حتى مات . وما كان يأتى عليه حول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف .

وحكي: أن المغيرة بن شعبة لما ولى الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهى فيه عمياء مترهبة ، فاستأذن عليها فقالت : من أنت ؟ قال : المغيرة بن شعبة الثقفى . قالت : ما حاجتك؟ قال : جئت خاطبًا . قالت : إنك لم تكن جئتنى لجمال ولا مال ، ولكنك أردت أن تتشرف فى محافل العرب ، فتقول : تزوجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأى خير فى اجتماع عمياء وأعور ، وكان عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل ، وكانت من أجمل نساء قريش ، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهًا وأبرّهم بوالديه . فلما دخل بها غلبت على عقله وأحبها حبًا شديدًا . فثقل ذلك على أبيه ، فمر به أبوبكر يومًا ، وهو فى غرفة له ، فقال: يا بنى إنى أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك ، وغلبت على عقلك ، فطلقها ، قال : لست أقدر على ذلك ، قال : أقسمت عليك إلا طلقتها ، فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها ، فجزع عليها جزعًا شديدًا ، وامتنع عن الطعام والشراب ، فقيل لأبى بكر: أهلكت عبد الرحمن ، فمر به يومًا ، وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع فى الشمس ويقول هذه الأبيات :

فوالله لا أنساك ما ذرّ شارقٌ ... وما ناح قمرىُّ الحمام المطوّقُ (١)
فلم أر مثلى طلَّق اليوم مثلها ... ولا مثلها فى غير شىء يطلّقُ
لها خلقٌ عفٌ ودينٌ ومحتدٌ ... وخلقٌ سوىٌّ فى الحياء ومَنْطقُ (٢)

فسمعه أبوه فرقّ له وقال له راجعها يا بنى ، فراجعها ، وأقامت عنده حتى قتل يوم الطائف

---

(١) ذَرَّ شارق : الشمس ظهر أول شروقها . ناح: سجعت . القُمْرى : نوع من الحمام . مطوق فى عنقه حسن الصوت . والأنثى قُمْرِية. والجمع قَمَارِىّ . والقمرة : شدة البياض .

(٢) الخُلُق : الأولى . حالة للنفس فطرية راسخة تصدر عنها الأفعال . والخَلْقُ: الثانية الصورة التى صنعه الله وأبدعه عليها ـ الصورة الجسمية . محتد: الأصل الكريم.

مع رسول الله ﷺ أصابه سهم فقتله ، فجزعت عليه جزعًا شديدًا وقالت ترثيه :

فآليت لا تنفكُّ نفسى حزينةٌ عليك ولا ينفكُّ جلدى أغبرّا (١)
فتى طول عمرى ما أرى مثله فتى أكرّ وأحمى فى الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها إلى القرن حتى يترك الرمح أحمرا

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته ، ودعا الناس إلى وليمته ، فأتوه، فلما فرغ من الطعام وخرج الناس قال له على بن أبى طالب رضى الله عنه: يا أمير المؤمنين ائذن لى فى كلام عاتكة حتى أهنيها، وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة ، فقالت: إن أبا الحسن فيه مزاح، فائذن له يا أمير المؤمنين ، فأذن له، فرفع جانب الخدر . فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق ، فقال لها : يا عاتكة ألست القائلة:

فآليت لا تنفكُّ نفسى حزينةٌ عليك ولا ينفكُّ جلدى أغبرا

وقيل : إن عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعًا شديدًا ، وتزوجت بعده الزبير بن العوام ، وكان رجلا غيورًا ، وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها ، فشق ذلك عليه ،وكان يكره أن ينهاها عن الخروج إلى الصلاة لحديث رسول الله ﷺ « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»(٢) ، فعرض لها ليلة فى ظهر المسجد وهى لا تعرفه ، فضرب بيده عجيزتها ثم انصرف ، فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد ، وكان يقول لها : ألا تخرجين ياعاتكة ؟ فتقول : كنا نخرج إذا الناس ناس وما بهم من باس ، وأما الآن فلا . ثم قُتِلَ عنها الزبير قتله عمرو بن جرموز بوادى السباع وهو نائم ، ثم تزوجها بعده محمد بن أبى بكر ، فقتل عنها بمصر ، فقالت:لا أتزوج بعده أبدًا إنى لأحسبنى أنى لو تزوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم.

وحكى :عن الحارث بن عوف (٣) بن أبى حارثة أنه قال لخارجة بن سنان : أترى أنى أخطب إلى أحد فيردنى . قال : نعم ، قال ومن هو ؟ قال : أوس بن حارثة بن لام الطائى ، قال : اركب بنا إليه ، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة فى بلاده ، فوجدناه فى فناء منزله ، فلما رأى الحارث بن عوف قال : مرحبًا بك ياحارث ، ثم قال : ما جاء بك ؟ قال : جئت خاطبًا. قال : لست هناك، فانصرف ولم يكلمه ، فدخل أوس على امرأته مغضبًا ، فقالت له: من الرجل الذى سلم عليك ، فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه ؟ فقال : ذلك سيد العرب الحارث ابن عوف ، فقالت : فما لك لا تستنزله ؟ قال : إنه استهجننى . قالت : وكيف ؟ قال: لأنه جاءنى خاطبًا. قالت : ألست تزعم أنه سيد العرب ؟ قال : نعم . قالت : إذا لم تزوج سيد

(١) آليت : أقسمت : تنفك: فعل من أفعال المقاربة قرب حدوث الحزن للنفس . والغبرة للجلد .
(٢) صحيح : رواه أحمد (٤٣٨/٢ ، ٤٧٥، ٥٢٨) وأبو داود (٥٦٥) عن أبى هريرة .
(٣) الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري . من فرسان الجاهلية .

العرب فى زمانه . فمن تزوج ؟ قال : قد كان ذلك. قالت : فتدارك ما كان منك ، قال : فبماذا ؟ قالت : بأن تلحقه فترده . قال : وكيف ، وقد فرط منى إليه ما فرط ، قالت : تقول له: إنك لقيتنى وأنا مغضب لأمر ، فلك المعذرة فيما فرط منى ، فارجع ولك عندى كل ما طلبت ، قال : فركب فى أثرهما ، قال خارجة بن سنان : فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته . فقلت للحارث وهو ما يكلمنى هذا أوس فى أثرنا ، فقال : ما أصنع به ، فلما رآنا لا نقف قال : يا حارث اربع (١) علىّ . فوقفنا له . وكلمه بذلك الكلام . فرجع مسرورًا، قال خارجة بن سنان : فبلغنى أن أوسًا لما دخل منزله قال لزوجته ادعى لى فلانة أكبر بناته . فأتته . فقال لها : أى بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءنى خاطبًا . وقد أردت أن أزوجك منه . فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأن فى خلقى رداءة وفى لسانى حدة . ولست بابنة عمه ، فيراعى رحمى ولا هو بجارك فى البلد فيستحى منك . ولا آمن أن يرى منى ما يكره ، فيطلقنى ، فيكون علىَّ بذلك مسبة ، قال لها : قومى بارك الله فيك، ثم دعا ابنته الأخرى ، فقال لها مثل قوله لأختها ، فأجابته بمثل جوابها ، فقال لها : قومى بارك الله فيك . ثم دعا بالثالثة ، وكانت أصغرهن سنًا، فقال لها مثل ما قال لأختيها ، فقالت له أنت وذاك . فقال لها : إنى عرضت ذلك على أختيك ، فأبتاه ، ولم يذكر لها مقالتهما ، فقالت : والله إنى الجميلة وجهًا الرفيعة خلقًا الحسنة رأيًا ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه ، فقال لها : بارك الله فيك . ثم خرج إليه ، فقال : زوجتك يا حارث بابنتى « هُنَيْسَةَ » ، قال: قد قبلت نكاحها ، وأمر أمها أن تهيئها له ، وتصلح شأنها ، ثم أمر ببيت فضرب له ، وأنزله إياه ، ثم بعثها إليه ، فلما دخلت عليه لبث (٢) هنيهة . ثم خرج إلىَّ ، فقلت له : أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله ، قلت له : وكيف ذلك ؟ قال : لما مددت يدى إليها قالت: مه (٣) أعند أبى وإخوتى هذا ، والله لا يكون . ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معًا وسرنا ما شاء الله . قال لى: تقدم ، فتقدمت ، فعدل عن الطريق ، فما لبث أن لحقنى ، فقلت : أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله، قلت ولم ؟ قال : قالت تفعل بى كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل مثلك لمثلى، فقلت : والله إنى لأرى همة وعقلا ، فقال : صدقت . قال : أرجو الله أن تكون المرأة النجيبة ، فوردنا إلى بلادنا، فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إلىَّ ، فقلت : أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله . قلت: ولم ذاك ؟ قال : دخلت عليها أريدها ، فقلت لها أحضرت من

---

(١) أربع علَىَّ : توقف . (٢) لبث : مكث وانتظر وتوقف .

(٣) مه : اسم فعل أمر ، بمعنى : اكفف .

المال ما تريدين، **قالت** : والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك ، قلت : ولم ذاك ؟ قالت : أتستفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضًا ، وكان ذلك فى أيام حرب قيس وذبيان . **قلت**: فماذا تقولين ؟ **قالت** : اخرج إلى القوم ، فاصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد ، فقلت : والله إنى لأرى عقلا ورأيًا سديدًا ، قال: فاخرج بنا ، فخرجنا حتى أتينا القوم ، فمشينا بينهم بالصلح ، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم تؤخذ الدية، فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير ، فانصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها ، فقالت له: أما الآن ، فنعم، فأقامت عنده فى ألذ عيش وأطيبه ، وولدت له بنين وبنات وكان من أمرهما ما كان ، والله أعلم بالصواب .

وحكى : الفضل أبو محمد الطيبى قال : حدثنا بعض أصحابنا أن رجلا من بنى سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال ، وكان شجاعًا فارسًا ، فلما رآها قال : طوبى لمن كان له امرأة مثلك، ثم أتبعها رسولا يسأل ألها زوج ويذكره لها؟ وكان جميلا ، فقالت للرسول وما حرفته ، فأبلغه الرسول ذلك ، فقال: ارجع إليها وقل لها :

وَسَائلة مَا حِرْفَتِى؟ قُلْتُ حرفتى ... مُقَارَعَةُ الأبطالِ فى كل شَارِقِ
إذا عرضت خيل لخيل رأيتنى ... أمام رعيل الخيل أحمى حقائق
أصبّر نفسى حين لم أر صابرًا ... على إلم البيض الرقاق البوارق

فلحقها الرسول ، فأنشدها ما قال ، فقالت: له ارجع إليه وقل له: أنت أسد ، فاطلب لك لبوة . فلست من نسائك، وأنشدته تقول :

الا إنما أبغى جوادًا بماله ... كريمًا محيّاه كثير الصدائق
فتىً همّه مذ كان خَودُ خَرِيدَةٌ ... يعانقها فى الليل فوق النمارق (١)

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن عبد الحكم عن الإمام الشافعى رضى الله عنه قال: تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة فكانت جارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول:

وما يستوى الرجلان رجل صحيحة ... وأخرى رمى فيها الزمان فَشُلَّتِ

ثم تعود وتقول :

وما يستوى الثوبان ثوبٌ به البلى ... وثوبٌ بأيدى البائعين جديدُ

فمرت جارية القديمة على باب الجديدة يومًا وقالت :

نقل فؤادك ما استطعتَ من الهوى ... ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ

(١) الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . الخريدة : البكر ، النمارق : جمع النمرقة : الوسادة الصغيرة يتكئ عليها. وذكرها الله بقوله : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ [الغاشية : ١٥].

كَم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأوّل منزل

وقال عمرو بن العلاء ، وكان أعلم الناس بالنساء :

فإن تسألونى بالنساء فإنى بصيرٌ بأدواء النساء طبيبُ
إذا شاب رأس المرئ أو قلّ ماله فليس له فى ودهنّ نصيب

وسئل المغيرة بن شعبة (١) عن صفة النساء فقال : بنات العم أحسن مؤاساة ، والغرائب انجب، وما ضرب رؤوس الأقران مثل ابن السوداء ، وقال عبد الملك بن مروان : من أراد أن يتخذ جارية للمتعة ، فليتخذها بربرية ، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية ، ومن أراد أ يتخذها للخدمة فليتخذها رومية ، قال الشاعر :

لا تشتمنّ امرأ ممّن يكون له أمٌّ من الروم أو سوداء عجماء
فإنّما أمهات القوم أوعيةٌ مستودعات وللأنساب آباءُ

وقال الأصمعى: أتانى رجل من قريش يستشيرنى فى امرأة يتزوجها ، فقلت : يا ابن أخى أقصيرة النسب أم طويلته ؟ فلم يفهم عنى ، فقلت : يا ابن أخى ، أما القصيرة النسب فالتى إذا ذكرت أباها اكتفت به ، والطويلة النسب فهى التى لا تعرف حتى تطيل فى نسبها ، فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيرًا من الدنيا مع دناءة فيهم ، فتضيع نسبك فيهم . وخرج رجل من أهل الكوفة فى غزاة ، فكسب جارية وفرسًا وكان مُملّكًا على ابنة عمه ، فكتب إليها يعيرها ويقول :

الا بلّغوا أمّ البنينَ بِأنّنا غنينا وأغنَتنَا الغطَارِفَةُ النُّجُدُ
بعيد مناط المنكبين إذا جرى وبيضاء كالتمثال زيّنها العقد
فهذا لأيام العدو وهذه لحاجة نفسى حين ينصرف الجند

فلما ورد عليها كتابه وقرأته قالت : يا غلام هات الدواة ، وكتبت جوابه تقول :

الا فاقرأ منى السلام وقل له غنينا وأغنَتنَا الغطارفة المرد
إذا شئت أغنانى غلامٌ مرجّلٌ ونازعته فى ماء معتصر الورد
وإن شاء منهم ناشىء مدّ كفه إلى عكن ملساء أو كفلٍ نهدى (٢)
فما كنتم تقضون حاجة أهلكم شهودًا فتقضوها على النأى والبعد
فعجّل إلينا بالسّراح فإنّهُ منانًا ولا ندعو لك الله بالرد

(١) الغطارفة : جمع غطريف : السيد الشريف . النجد : الشجاع المسارع فيما يقصر عنه غيره.
(٢) العكن : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا. ملساء: لين ناعم الململمس كفل: العجز . نهد: الثدى مرتفع.

فلا قفل الجند الذى أنت فيهم وزادك رب الناس بعدًا على بعد

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه ، فكان أول شىء بدأها به بعد السلام أن قال لها : بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك؟ ، فقالت له: الله فى قلبى أعظم وأجل وأنت فى عينى أذل وأحقر من أن أعصى الله فيك ، فكيف ذقت طعم الغيرة ؟ . فوهب لها الجارية ، وانصرف إلى الغزاة ، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الثانى
فى صفات النساء المحمودة

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، شريفة فى قومها ، ذليلة فى نفسها ، مؤاتية لبعلها .

فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثدييها ، فكتب إليه لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها، فتدفئ الضجيع ، وتروى الرضيع ، وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان : صف لى أحسن النساء ؟ قال: خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ، ردماء الكعبين ، ناعمة الساقين ، ضخماء الركبتين، لفاء الفخذين ، ضخمة الذراعين ، رخصة الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين، كحلاء العينين ، زجاء الحاجبين لمياء الشفتين بلجاء الجبين ، شماء العرنين ، شنباء الثغر، محلولكة الشعر ، غيداء العنق ، مكسرة البطن . فقال : ويحك وأين توجد هذه ؟ قال : تجدها فى خالص العرب ، وفى خالص الفرس . وقال حكيم : عليكم بمن تربت فى النعيم ثم أصابتها فاقة فأثر فيها الغنى وأدبها الفقر . وقال رجل لخاطب : ابغ لى امرأة لا تؤنس جارًا ولا توطن دارًا ، يعنى لا تدخل على الجيران ولا تدخل الجيران عليها ، وفى مثل هذه قال الشاعر:

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلفٌ عيطاءْ غامضة الكعبين معطار(١)
خودٌ من الخفرات البيض لم يرها بساحة الدار لا بعلٌ ولا جار(٢)

وقال الأعشى :

لم تمشِ مِيلاً ولم تركبْ على جملٍ ولم تر الشمس إلا دونها الكلل(٣)

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهًا ، وكان هو من أقبح الناس وجهًا ، فقال لها يومًا : أنا وإياك فى الجنة إن شاء الله تعالى . فقالت له : وكيف ذلك ؟ فقالت : لأنى

(١) هيفاء : دقة الخصر وضمر البطن . الصلف : التكبر والتفاخر . عيطاء : طويلة العنق . جمع عيط ، غامضة من الكعوب ، والسُّوقُ : السمين .

(٢) الخفرات : الحييات .

(٣) الميل : مقياس للطول يساوى ١٦٠٩ من الأمتار . الكِلَلُ : جمع كِلَّة : ستر رقيق .

أعطيت مثلك فشكرت وأعطيت مثلى فصبرت ، والصابر والشاكر فى الجنة ، وقال بعضهم : رأيت فى طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهًا ، فقعدت أنظر إليها ، وأتعجب من جمالها ، فجاء شيخ قصير ، فأخذ بردائها وسار بها ومضى فلقيتها مرة أخرى ، فقلت لها : من هذا الشيخ ؟ قالت : زوجى ، قلت : كيف يرضى مثلك بمثله ؟ فأنشدتْ :

أيا عجبًا للخود يجرى وشاحها تزف إلى شيخٍ بأقبح تمثالِ
دعانى إليه أنه ذو قرابة يعزُّ علينا من بنى العم والخال

وسمع بعضهم قائلا يقول :

ومن لا يُرد مدحى فإن مدائحى توافقَ عند الأكرمين توامى
نوافقُ عندَ المشتَرِى الحمد بالندى نفاقُ بنات الحارث بن هاشم

فقال: يا ابن أخى ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام ؟ قال : كن من أجمل النساء وجوهًا وكان أبوهن إذا زوجهن يسوقهن ومهورهن إلى بعولتهن . فقال : يا ابن أخى لو فعل هذا إبلس ببناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون. وقال عبد الملك لابن أبى الرقاع كيف علمك بالنساء ؟ قال : أنا والله أعلم الناس بهن ، وجعل يقول:

قضاعية الكعبين كندية الحشا خزاعية الأطراف طائية الفم
لها حكم لقمانٍ وصورة يوسفٍ ومنطق داود وعفة مريم

وقالوا : الوجه الحسن أحمر ، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث فى الكن والتضمخ بالطيب . وقالوا إن الوجه الرقيق البشرة الصافى الأديم إذا خجل يحمر وإذا فرق يصفر . ومنه قولهم ديباج الوجه ، يريدون تلونه من رقته ، قال على بن زيد فى وصفه:

حمرة خلطَ صفرةَ فى بياض مثل ما حاك حائكٌ ديباجا

(وقال على بن عبد ربه) :

بيضاء يحمر خدها إذا خجلت كما جرى ذهبٌ فى صفحتى ورق

وقالوا :إن الجارية الحسناء تتلون بتلون الشمس فهى بالضحى بيضاء وبالعشى صفراء فقال ذو الرمة: بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضةّ ومن ذهب

قالوا :ليست المرأة الجميلة التى تأخذ ببصرك جملة على بعد فإذا دنت لم تكن كذلك ، بل الجميلة التى كلما كررت بصرك فيها زادتك حسنًا ، وقالوا إن أردت أن ينجب ولدك فاغضبها ثم قع عليها قال الشاعر :

ممن حملن به وهنّ عواقد حُبُك النطاق فعاش غير مهبّلِ
حملت به فى ليلةٍ مزؤودةٍ كرها وعقد نطاقها لم يحللِ

الفصل الثالث
فى صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

فى حكمة داود عليه السلام : « إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضى الله تعالى عنه » . وقيل : المرأة السوء غل يلقيه الله تعالى فى عنق من يشاء من عباده. وقيل لأعرابى كان ذا تجربة للنساء : صف لنا شر النساء فقال : شرهن النحيفة الجسم القليلة اللحم المحياض المراض المصفرة الميشومة العسرة المبشومة السلطة البطرة النفرة السريعة الوثبة ، كأن لسانها حربة تضحك من غير عجب وتبكى من غير سبب وتدعو على زوجها بالحرب أنف فى السماء وإست فى الماء ، عرقوبها حديد ، منتفخة الوريد كلامها وعيد ، وصوتها شديد ، تدفن الحسنات وتفشى السيئات ، تعين الزمان على بعلها ، ولا تعين بعلها على الزمان ، ليس فى قلبها عليه رأفة ولا عليها منه مخافة إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت ، كثيرة الدعاء ، قليلة الإرعاء تأكل لـمًّا ، وتوسع ذمًّا ، ضيقة الباع ، مهتوكة القناع، صبيها مهزول وبيتها مزبول ، إذا حدثت تشير بالإصبع وتبكى فى المجامع بادية من حجابها ، نباحة عند بابها تبكى وهى ظالمة ، وتشهد وهى غائبة قد دلى لسانها بالزور وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور . ويقال : إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه ، وإن كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه ، قال بعضهم :

لقد كنت محتاجًا إلى موت زوجتى ... ولكن قرين السوء باقٍ معمَّرُ
فيا ليتها صارت إلى القبر عاجلا ... وعذّبها فيه نكيرٌ ومنكر

وقال زيد بن عمير :

أعاتبها حتى إذا قلت أقلعت ... أبى الله إلا خزيَها فتعود
فإن طمثت قادت وإن طهرت زنت ... فهاتيك تزنى دائمًا وتقود (١)

وقال داود عليه السلام : المرأة السوء على بعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير ، والمرأة الصالحة: كالتاج المرصع بالذهب كلما رآها قرت عينه برؤيتها والله أعلم.

(١) الطمث : الحيض . فهى فاسقة فى حالة الحيض قوادة تجمع الزناة ، وفى حالة الطهر : تزني أعاذنا الله منها ومن شرها وفعلها .

الفصل الرابع
فى مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن

فى حكمة داود عليه الصلاة والسلام : وجدت فى الرجال واحدًا فى ألف ولم أجد واحدة فى جميع النساء . وقيل : إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقى إبليس يسوق أربعة أحمرة عليها أحمال فسأله ، فقال : أحمل تجارة وأطلب مشترين ، فقال : ما أحدها ؟ قال : الجور ، قال: من يشتريه ؟ قال : السلاطين . قال : فما الثانى ؟ قال : الحسد . قال : فمن يشتريه ؟ قال : العلماء ، قال : فما الثالث؟ قال : الخيانة . قال : فمن يشتريها ؟ قال: التجار . قال: فما الرابع ؟ قال : الكيد . قال : فمن يشتريه ؟ قال : النساء . وقال حكيم: النساء شر كلهن وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن . وقالت الحكماء : لا تثق بامرأة ولا تغتر بمال ، وإن كثر . وقال : النساء حبائل الشيطان . قال الشاعر :

تمتّع بها ماساعفتك ولا تكن ... جزوعًا إذا بانت فسوف تبين (١)
وخنها وإن كانت تفى لك إنها ... على قدم الأيام سوف تخون
وإن هى أعطتك الليان فإنها ... لغيرك من طلابها ستلين
وإن حلفت أن ليس تنقض عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين
وإن سكبت يوم الفراق دموعها ... فليس لعمر الله ذاك يقين

وقال ابن بشار:

رأيتُ مواعيد النساء كأنّها ... سرابٌ لمرتاد المَنَاهَلِ حافل (٢)
ومنتظر الموعود منهنّ كالذى ... يؤمل يومًا أن تلين الجنادل

قال بعض الحكماء : لم تنه عن شىء قط إلا فعلته ، وقال الغنوى :

إنّ النساء متى ينهين عن خلقٍ ... فإنّه واقعٌ لا بدّ مفعول

وقال النخعى : من اقتراب الساعة طاعة النساء ، ويقال : من أطاع عرسه فقد أضاع نفسه، وقال على رضى الله تعالى عنه : إياك ومشاورة النساء ، فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن، اكفف أبصارهن بالحجاب ، فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياب ، وليس خروجهن

---

(١) ساعفتك : أمكنه وألم به . الجزوع : قليل الصبر على ما نزل به وذكره الله بقوله : ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج : ٢٠] .

(٢) السراب : ما يرى في وسط النهار من اشتداد الحرارة كالماء فى المفاوز والصحارى . المناهل : جمع منهل ورد الماء.

بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن ، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل ، قال السمعانى :

لا تأمنن على النساء ولو أخًا ما فى الرجال على النّساء أمين
إنَّ الأمين وإن تحفَّظ جهده لا بدَّ أنَّ بنظرة سَيَخُونُ

وقال غيره :

لا تركننّ إلى النساء ولا تثق بعهودهنّ
فرضاؤهن جميعهن معلَّقٌ بفروجهنّ

وقال علىّ رضى الله تعالى عنه : لا تطلعوا النساء على حال ولا تأمنوهن على مال ولا تذروهن إلا لتدبير العيال، إن تركن وما يردن أوردن المهالك ، وأفسدن الممالك ينسين الخير ويحفظن الشر يتهافتن فى البهتان ويتمادين فى الطغيان . وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: ذل من أسند أمره إلى امرأة . وقيل : إن صيادًا أتى أبرويز [1] بسمكة ، فاعجبه حسنها وسمتها فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فخطأته سيرين زوجته ، فقال لها : ماذا أفعل ؟ فقالت له : إذا جاءك فقل له أذكر كانت أم أنثى ؟ فإن قال لك ذكر ، فاطلب منه الأنثى ، وإن قال لك أنثى فاطلب منه الذكر ، فلما أتاه سأله ، فقال كانت أنثى ، فقال ائتنى بذكرها ، فقال عمّر الله الملك كانت بكرًا لم تتزوج ، فقال زه [2] وأمر له بثمانية آلاف درهم ، وقال : اكتبوا فى الحكمة: الغدر ومطاوعة النساء يؤديان إلى الغرم الثقيل . وقال حكيم اعص النساء وهواك وافعل ما شئت . وقال عمر رضى الله تعالى عنه : أكثروا لهن من قول لا ، فإن نعم تغريهن على المسألة ، قال : استعيذوا بالله من أشرار النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر.

ومما قيل فى الباءة : ذكر الجماع عند الإمام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه : قال هو نور وجهك ومخ ساقك فأقلل منه أو أكثر . وقال معاوية رضى الله تعالى عنه : ما رأيت نهمًا فى النساء إلا عرفت ذلك فى وجهه . وخلا تمام بجارية له فعجز عنها فقال : ما أوسع حرك [3]، فأنشأت تقول :

---

(١) أبروزبن هرمز : ملك ساسان حكم من ٥٧٩ ـ ٥٩٠م. انتصر عليه قائده بهرام جدبين . لكنه استعاد سلطانه ثانية .

(٢) زه : فارسية بمعنى : ضاعفه .

(٣) الحِرُ : فرج المرأة خاصة .

أنت الفداء لمنْ قد كان يملؤه ويشتكى الضيق منه حين يلقاه

وقال آخر :

شفاء الحب تقبيل وملمسٌ وسحبٌ بالبطون على البطون
ورهز تذرف العينان منه وأخذٌ بالمناكب والقرون(١)

وقالت امرأة من أهل الكوفة : دخلت على عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقيل هى مع زوجها فى القيطون (٢)، فسمعت شهيقًا ، وشخيرًا لم أسمع مثله ثم خرجت إلى وجبينها يتصبب عرقًا ، فقلت لها : ما ظننت حرة تفعل هذا بنفسها ، فقالت : إن الخيل تشرب بالصفير. وعاتبت امرأة زوجها على قلة إتيانها ، فأجابها يقول :

أنا شيخٌ ولى امرأة عجوز تروادنى على ما لا يجوز
وقالت رق أيرك مذ كبرنا فقلت بل قد اتسع القفيز (٣)

وكان لرجل امرأة تخاصمه وكلما خاصمته قام إليها فواقعها ، فقالت ويحك كلما تخاصمنى تأتينى بشفيع لا أقدر على رده. وأتى رجل إلى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وقال : إن لى امرأة كلما غشيتها تقول قتلتنى ، فقال : اقتلها بهذه القتلة وعلى إثمها . وقالوا : من قلّ جماعه فهو أصح بدنًا وانقى جلدًا وأطول عمرًا ، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان، وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول أعماراً من البغال ، ولا أقصر أعمارًا من العصافير ، وهى أكثرها سفادًا، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الخامس
فى الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد بن أخى الأصمعى قال : قال عمى للرشيد فى بعض حديثه : يا أمير المؤمنين بلغنى أن رجلا من العرب طلق فى يوم واحد خمس نسوة ، قال : وكيف ذلك ؟ وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة ، قال: يا أمير المؤمنين كان متزوجًا بأربعة فدخل عليهن يومًا ، فوجدهن متنازعات وكان شريرًا ، فقال : إلى متى هذا النزاع ؟ ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة

(١) الرهز : الاهتزاز والنشاط فى حركة الجماع . المناكب جمع منكب : مجتمع رأس العضد والكتف . القرون : جمع قرن : الذؤابة : الشعر المضفور من رأس المرأة .
(٢) القيطون : المخدَعُ (أعجمى) اللسان ـ قطن ـ .
(٣) الأير: اسم الذكر . القفيز: مكيال كان يكال به قديما. ويكنى به عن اتساع فتحة الفرج .

اذهبى . فأنت طالق . فقالت له صاحبتها : عجلت عليها بالطلاق ، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح. فقال لها : وأنت أيضًا طالق ، فقالت له الثالثة : قبحك الله ، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين ، فقال لها : وأنت أيضًا أيتها المعدِّدة أياديهما (١) طالق ، فقالت الرابعة ، وكانت هلالية ضاق صدرك إلا ان تؤدب نساءك بالطلاق . فقال لها ، وأنت طالق أيضًا ، فسمعته جارة له ، فأشرفت عليه ، وقالت له والله ما شهدت العرب عليك ، ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم ، أبيت إلا طلاق نسائك فى ساعة واحدة ، فقال لها : وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعنيك طالق إن أجازنى بعلك ، فأجابه زوجها قد أجزت لك ذلك فعجب الرشيد من ذلك .

وطلق رجل امرأته ، فلما أرادت الارتحال قال لها : اسمعى وليسمع من حضر إنى والله اعتمدتك برغبة وعاشرتك بمحبة ولم أجد منك زلة ولم يدخلنى عنك ملة ، ولكن القضاء كان غالبًا ، فقالت المرأة : جزيت من صاحب ومصحوب خيرًا فما استقللت خيرك ولا شكوت ضيرك ولا تمنيت غيرك ولا أجد لك فى الرجال شبيهًا وليس لقضاء الله مدفع ولا من حكمة علينا ممنع . وقال رجل لابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ما تقول فى رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء ؟ فقال : يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء .

ذكر من طلق امرأته فتبعتها نفسه : قال الهيثم بن عدى : كانت تحت ابن الغربان بن الأسود بنت عم له ، فطلقها فتبعتها نفسه ، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع ، فكتبت إليه تقول :

إن كنت ذا حاجةٍ فاطلبْ لها بَدلا ... إنَّ الغزال الذى ضيّعت مشغُولُ

فكتب إليها يقول :

إن كان ذا شغلٍ فالله يكلؤهٌ ... فقد لَهوْنا به والحبْلُ موصول

وقد قضينا من استظرافه وطرًا ... وفى الليالى وفى أيامها طول

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى ، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب فقال له : هل لك أن تبلغ سعدى عنى رسالة ولك عشرة آلاف درهم؟ قال : أقبضنيها ، فأمر له بها فلما قبضها قال له : هات رسالتك ، قال ائتها ، فأنشدها:

أسُعْدَى هل إليك لنا سبيلُ ... ولا حتى القيامة من تلاقِ؟

بلى ولعلَّ دهرًا أنْ يؤاتى ... بموتٍ من خليلك أو فراقِ

(١) أياديهما : مجاز مرسل علاقته السببية فضائلهما.

قال ، فأتاها أشعب ، فاستأذن عليها ، فأذنت له ، فدخل ، فقالت له : ما بدا لك فى زيارتنا يا أشعب ؟ فقال: يا سيدتى أرسلنى إليك الوليد برسالة ثم أنشدها الشعر ، فقالت لجواريها عليكن بهذا الخبيث فقال : يا سيدتى إنه دفع إلىَّ عشرة آلاف درهم ، فهى لك ، واعتقينى لوجه الله ، فقالت والله لا أعتقك أو تبلغ إليه ما أقول لك ، قال: يا سيدتى فاجعلى لى جعلا قالت : لك بساطى هذا ، قال : قومى عنه ، فقامت : فأخذه ، وألقاه على ظهره، وقال هاتى رسالتك ، فقالت:

أتبكى على سعدى وأنت تركتها فقد ذهبت سعدى فما أنت صانعٌ

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأخذته كظمة فقال لأشعب : اختر منى إحدى ثلاث إما أن أقتلك ، وإما أن أطرحك من هذا القصر . وإما أن ألقيك إلى هذه السباع فتفترسك ، فتحير أشعب وأطرق مليًا ثم قال : يا سيدى ما كنت لتعذب عينًا نظرت إلى سعدى، فتبسم وخلى سبيله ، وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه: الفرزدق الشاعر طلق النوار. ثم ندم على طلاقها ، وقال :

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار
فأصبحت الغداة ألوم نفسى بأمر ليس لى فيه اختيار
وكانت جنّتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضّرار
ولو أنى ملكت بها يمينى لكان علىَّ للقدر الخيار

وممن طلّق امرأته ، فتبعتها نفسه فندم :قيس بن ذريح ، وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم على ذلك فأنشأ يقول:

فنى صبرى وعاودنى رداعى وكان فراق لُبنَّى كالخداع
تكنّفنى الوشاة فأزعجونى فيا للناس للواشى المطاع
فأصبحت الغداة ألوم نفسى على أمرٍ وليس بمستطاع
كمغبون يعضٍ على يديه تبينّ غبنه عند البياع

وحدث العتبى قال : جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم وهو على الكوفة ، فقال : إن امرأتى هذه شجّتنى فسألها عبد الرحمن ، فقالت : نعم يا مولاى غير متعمدة لذلك ، كنت أعالج طيبًا فوقع الفهر من يدى على رأسه وليس عندى علم ولا يقوى بدنى على القصاص ، فقال للرجل: علام تمسكها ، وقد فعلت بك ما أرى ؟ فقال: يا مولاى إن صداقها على أربعة آلاف درهم ، ولا تطيب نفسى بفراقها . قال : فإن أعطيتك الأربعة آلاف

درهم تفارقها ، قال : نعم ، قال : هى لك ، قال : فهى إذن طالق . فقال لها عبد الرحمن احبسى علينا نفسك ، وأنشأ يقول:

يا شيخِ يا شيخ من دلاك بالغزل   قد كُنْتَ يا شيخُ عن هذا بمعتزلِ
رُضْتَ الصعاب فلم تحسنْ رياضَتها   فاعمدْ لنفسك نحو القرّح والذللَ

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والسبعون
فى تحريم الخمر وذمها والنهى عنها

قد أنزل الله تعالى فى الخمر ثلاث آيات . الأولى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : ٢١٩] . فكان من المسلمين من شارب ، ومن تارك إلى أن شرب رجل ، فدخل فى الصلاة فهجر ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]. فشربها من شربها من المسلمين، وتركها حتى شربها عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ ، فأخذ بلحى بعير وشَجَّ به رأس عبد الرحمن بن عوف ، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر(١) يقول :

وكائن بالقليب قليب بدر ... من الفتيان والعرب الكرام
أَيُوعِدُنى ابن كبشة أن سنحيا؟ ... وكيف حياة أصداء وهام؟
أيعجزُ أن يردّ الموت عنّى ... وينشرنى إذا بَلِيَتْ عظامى؟
ألا من مبلغ الرحمن عنّى ... بأنى تاركٌ شهر الصيام
فقلْ لله : يمنعنى شرابى ... وقُلْ لله: يمنعنى طعامى

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضبًا يجر رداءه ، فرفع شيئًا كان فى يده ، فضربه به ، فقال : أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] . فقال عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ: انتهينا انتهينا.

ومن الأخبار المتفق عليها فى تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة مدمن خمر»(٢). وقوله ﷺ : « أول ما نهانى ربى بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحاة الرجال»(٣). وممن تركها فى الجاهلية عبد الله بن جدعان ، وكان جوادًا من سادات قريش ، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبى الصلت الثقفى ، فضربه على عينه ، فأصبحت عين أمية مخضرة

---

(١) الأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم . من بني تميم . شاعر . فصيح . جواد . مُقل في الشعر . من سادات تميم . كان ينادم النعمان بن المنذر . كف بصره . توفي سنة ٢٢ ق .ـ هـ .

(٢) ضعيف : رواه الطبرانى فى « الكبير » (١١١٧٠) وفى سنده خصيف بن عبد الرحمن الجذرى وهو سيئ الحفظ خلط بآخره ، وعتاب بن بشير يروى عن خصيف أحاديث منكرة .

(٣) ضعيف جدًا : رواه الطبرانى فى « الكبير » (٢٠/ ٨٣ / ١٥٧) وأبو نعيم فى « الحلية » (٩ / ٣٠٣) عن معاذ بن جبل .

فخاف عليها الذهاب ، فقال له عبد الله : ما بال عينك ؟ فسكت . فألح عليه ، فقال: ألست ضاربها بالأمس؟ . فقال : أو بلغ منى الشرب ما أبلغ معه إلى هذا ؟ لا أشربها بعد اليوم . ثم دفع له عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر علىّ حرام لا أذوقها بعد اليوم أبدًا .

وممن حرمها فى الجاهلية أيضًا :قيس بن عاصم ، وذلك أنه سكر ذات ليلة ، فقام لابنته أو لأخته ، فهربت منه، فلما أصبح سأل عنها، فقيل له : أو ما علمت ما صنعت البارحة ؟ فأخبر بالقصة ، فحرم الخمر على نفسه .

وممن حرمها فى الجاهلية أيضًا: العباس بن مرادس ، وقيس بن عاصم ، وذلك أن قيسًا شرب ذات ليلة ، فجعل يتناول القمر ويقول والله لا أبرح حتى أنزله ، ثم يثب الوثبة بعد الوثبة ويقع على وجهه ، فلما أصبح وأفاق قال : مالى هكذا ؟ فأخبروه بالقصة . فقال : والله لا أشربها أبدًا ، وقيل للعباس بن مرادس : لم تركت الشراب ، وهو يزيد فى سماحتك ؟ فقال : أكره أن أصبح سيد قومى وأمسى سفيههم .

ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشدة ، فأعجبه إنشاده وشعره ووصله ، ثم دعا بالطعام ، فطعم منه؛ فقال له عبد الملك : يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين جلدى أسود ،وخلقى مشوه ،ووجهى قبيح ، وتكفينى مجالستك ومؤاكلتك ، ولم يوصلنى إلى ذلك إلا عقلى ،وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه ، فأعجبه كلامه ووصله .

وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج فى وفدة وفدها عليه : هل لك فى الشراب ؟ قال : يا أمير المؤمنين لا خلاف لما أمرت ،ولكن أنا أمنع أهل عملى منه، وأكره أن أمنعهم عن شيء ولا أمتنع منه . وقد الله تعالى : ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ [هود : ٨٨] . وقال تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [البقرة : ٤٤] . وقيل لأعرابى : لم لا تشرب النبيذ ؟ فقال : لا أشرب ما يشرب عقلى . وقال الضحاك بن مزاحم لرجل : ما تصنع بشرب النبيذ ؟ قال : يهضم طعامى. قال : أما أنه يهضم من دينك وعقلك أكثر ؟ قال ابن أبى أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر :

ألا يا لقومى ليس فى الخمر رفعةٌ   فلا تقربوا منها فلست بفاعل
فإنى رأيتُ الخمرَ شيئًا ولم يزَلْ   أخو الخمرِ دخَّالا لِشرٍّ المنازلِ

وقال الحسن : لو كان العقل يشترى لتغالى الناس فى ثمنه ، فالعجب ممن يشترى ما يفسده، وقال ـ عليه السلام ـ : «حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنساء حبائل الشيطان ، والخمر داعية إلى كل شر» . وقال بعضهم .

بلوتُ نبيذَ الخمر فى كل بلدة   فليس لإخوانِ النبيذِ حِفَاظُ
إذا دارت الأرطال أرضوك بالمنى   وإن فقدوها فالوجوه غلاظ

وقال حكيم : إياك وإخوان النبيذ فبينما أنت متوج عندهم مخدوم معظم إذ زلت بك القدم، فجروك على شوك السلم ، فاحفظ قول القائل فيه :

وكلٌّ أناس يحفظون حريمهم وليس لأصحاب النبيذ حريم
فإن قلْت هذا لم أقلْ عن جهالةٍ ولكننى بالفاسقين عليم

وللأعرج الطائى(١) :

تركتُ الشّعرَ واستبدلتُ منه إذا داعى صلاةِ الصبحِ قاما

وقال الصفدى :

دَعِ الخمرَ فالراحاتُ فى ترك رَاحِها وفى كأسها للمرئ كسوة عار
وكم ألبستْ نفسُ الفتى بعد نورها مَدارعَ قارٍ فى مدار عقارِ

نكتة : اجتمع نصرانى، ومحدث فى سفينة ، فصب النصرانى خمرًا من زِقٍّ كان معه فى شربة وشرب ، ثم صب فيها وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة ، فقال النصرانى : جعلت فداءك إنما هى خمر . قال : من أين علمت أنها خمر ؟ قال : اشتراها غلامى من يهودى وحلف أنها خمر ، فشربها المحدث على عجل . وقال للنصرانى : يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة ، ويزيد بن هارون، أفنصدق نصرانيًا عن غلامه عن يهودى ، واللهِ ما شربتها إلا لِضَعْفِ الإسناد .

ومن المجون فى ذلك ما حكى: أن سكرانًا استلقىَ على طريق ، فجاء كلب فلحس شفتيه ، فقال: خدمك بنوك ولا عدموك ، فبال على وجهه ، فقال : وماء حارًا أيضًا بارك الله فيك.

وقيل : حالة السكارى ثلاث : قرد حرك رأسه فرقص ، وكلب هارش فنبح ، وحية زويت فنامت، ومر عقال الناسك بمرادس بن خادم الأسدى ، فاستسقاه لبنًا ، فصب له خمرًا وعلاه بلبن فشربه ، وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام فقال :

سَقَيْتُ عُقَالاً بالعشية شَرْبَةً فمالت بعقل الْكَاهِلِىّ عقالى
قرعتُ بِأُمِّ الخلّ حبّةَ قلبه فلم ينتعشْ منها ثلاث ليالى

ويقال : الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور ، اللهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .

(١) سويد بن عدى الأعرج الطائى . شاعر مخضرم جاهلى وأدرك الإسلام وأسلم . وترك الشعر والخمر وحرمها على نفسه.

الباب الخامس والسبعون
فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعيم وفيه فصول
الفصل الأول
فى النهى عن المزاح

قال رسول الله ﷺ : « المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى » (١). وعن على : ما مزح أحد مزحة إلا مجّ الله من عقله مجة . وعنه : إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكًا ، وإن حكيت ذلك عن غيرك . وكتب عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ إلى عماله : امنعوا الناس من المزاح ، فإنه يذهب المروءة ويوغر الصدور ، وقال بعض الحكماء : تجنب سوء المزاح ونكد الهزل ، فإنهما بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد غَمٍّ . وقال آخر : لكل شىء بذر وبذر العداوة المزاح ، وعن محمد بن المنكدر قال : قالت لى أمى : لا تمازح الصبيان تهن عندهم ، وخرج أعرابى بالليل ، فإذا بجارية جميلة فراودها ، فقالت : أما لك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك؟ ، فقال : والله ما يرانا إلا الكواكب ، فقالت له:يا هذا،وأين مكوكبها ؟ فأخجلَهُ كلامُها ، فقال لها : إنما كنت مازحًا، فقالت :

فإيَّاك إيَّاك المزاحَ فإنّه يُجرِّئُ ... عليك الطِّفْلَ والرجلَ النذلا
ويُذْهِبُ ماء الوجه بعد بهائه ... ويُورِثُ بعد العِزِّ صاحبَه ذُلا

وقال الأحنف : كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئًا عرف به ، ومما روى عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كأنهم لم يعرفوا أحدًا .

الفصل الثانى
فيما جاء فى الترخيص فى المزاح والبسط والتنعيم

لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفهًا . والله تعالى وعد فى اللمم بالتجاوز والعفو فقال : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَم﴾ [النجم : ٣٢] . وقيل: إن يحيى بن زكريا لقى عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : مالى أراك لاهيًا كأنك آمن ، فقال له عيسى : مالى أراك عابسًا كأنك آيس ، فقال : لا تبرح حتى ينزل علينا الوحى ، فأوحى الله إليهما أنّ أحبكما إلىّ أحسنكما ظنًا بى ، ويروى: أن أحبكما إلى الطَّلْقُ البسامُ ، وقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ لجارية : خلقنى خالق الخير وخلقك خالق الشر فبكت الجارية ، فقال عمر : لا بأس

(١) لم أقف عليه .

عليك فإن الله خالق الخير والشر ، قال الشاعر :

إنَّ الصديقَ يريدُ بسطك مازحًا فإذا رأى منك الملالة يقصرُ
وترى العدوَ إذا تيقن أنّه يؤذيك بالمزح العنيف يكثِرُ

وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًا ، فمن مزحه ﷺ أنه جاء رجل ، فقال : يا رسول الله احملنى على جمل ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : لا أحملك إلا على ولد الناقة، فقال: يا رسول الله إنه لا يطيقنى فقال له الناس : ويحك ، وهل الجمل إلا ولد الناقة؟ وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار : الحقى زوجك ففى عينيه بياض ، فسعت إلى زوجها مرعوبة، فقال لها : ماـ دهاك ؟ قالت: إن النبى ﷺ قال لى :إن فى عينيك بياضًا ، فقال: نعم والله وسوادًا ، وأتته أيضًا عجوز أنصارية ، فقالت : يا رسول الله : ادع الله لى أن يدخلنى الجنة ، فقال لها : يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز ، فولت المرأة تبكى ، فتبسم ﷺ وقال لها: أما قرأت قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً** ﴿٣٥﴾ **فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا** ﴿٣٦﴾ **عُرُبًا أَتْرَابًا** ﴾ [الواقعة : ٣٥، ٣٧] . وقالت عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ: سابقت رسول الله ﷺ فسبقته ، فلما كثر لحمى سابقته ، فسبقنى ، فضرب بكتفى ، وقال: هذه بتلك، وعنها أيضًا قالت : كان رسول الله ﷺ يدخل وأنا ألعب مع صويحباتى ولا يعيب على .

وسئل النخعى: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون ؟ قال : نعم ، والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى ، وكان نعيمان الصحابى من أولع الناس بالمزاح والضحك ، قيل: إنه يدخل الجنة وهو يضحك ، فمن مزحه: أنه مرَّ يومًا بمخرمة بن نوفل الزهرى وهو ضرير، فقال له : قدنى حتى أبول ، فأخذه بيده حتى أتى به إلى المسجد ، فأجلسه فى مؤخره، فصاح به الناس إنك فى المسجد ، فقال : من قادنى ؟ قالوا : نعيمان ، قال لله علىَّ نذر أن أضربه بعصاى هذه إن وجدته ، فبلغ ذلك نعيمان ، فجاء إليه، وقال له : يا أبا المنور هل لك فى نعيمان؟ ، قال : نعم ، قال : ها هو قائم يصلى وأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلى ، وقال : هذا نعيمان ، فعلاه بعصاه، فصاح الناس : أمير المؤمنين ، فقال: من قادنى؟ قالوا : نعيمان ، فقال : والله لا تعرضت له بسوء بعدها .

وقال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير يقصٌ علينا حتى يبكينا ، وربما لم يقم حتى يضحكنا . وكان رجل يسمى : تاج الوعظ ؛ يعظ الناس ، ويقصّ عليهم حتى يبكيهم ، ثم لم يقم حتى يضحكهم ويبسط آمالهم.

فمن لطائفه: أنه حكى يومًا بعدما فرغ من ميعاده قال : سمعت الناس يتكلمون فى التصحيف وكنت لا أعرفه ، فوقع فى قلبى أن أتعلمه ، فدخلت فى سوق الكتبية، واشتريت كتابًا فى

التصحيف ، فأول ما تصفحته وجدت فيه «سكباج» تصحيفه «شك تاج »، فرميت الكتاب من يدى وحلفت أنى لا أشتغل به أبدًا ، فضحك الناس حتى غشى عليهم .

ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان ، فوجده يتأوه ، فقال: يا أمير المؤمنين لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ويباسطك استرحت ؟ فقال : لست بصاحب لهو، فقال : ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين ؟ قال : هاج بى عرق النسا فى ليلتى هذه ، فبلغ منى ما ترى ، فقال : إن بديحًا مولاى أرقى الخلق منه ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه قال عبد الملك : يا بديح أرق رجلى ، فقال: يا مولاى أنا أرقى الناس لها ، ثم وضع يده عليها، وجعل يقول ما لا يسمع ، فقال: عبد الملك : قد وجدت راحة بهذه الرقية ، أين فلانة ؟ ائتونى بها تكتبها لئلا يهيج بى الوجع بالليل ، فقال له بديح : الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتى ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال :يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جائزتى إلى بيتى ، قال : تحمل ، فحملت ، فقال : يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه، ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال :

ألا إنَّ ليلى العامرية أصبحت ... على البعد منىّ دنبَ غيرى تنقُمُ

فقال : ويلك ما تقول ؟ فقال : الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها ، فقال : اكتمها علىَّ ، فقال: كيف؟ ، وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر ، فضحك حتى فحص برجليه ، وأعجبه هذا البسط.

وروى أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر :

أنبِئْتُ أنَّ فتاةً كنـــت أخطُبُهـــا ... عُرْقُوبُها مِثلُ شهرِ الصَّوْمِ فى الطولِ(١)

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

ومما جاء فى الشطرنج واللعب به والنهى عنه والترخيص فيه :

أما النهى عنه ، فقد قيل : إن عليًا ـ كرَّم الله وجهه ـ مَرَّ بقوم يلعبون الشطرنج ، فقال لهم: **ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟** . وكان أبو القاسم الكسروى يقول: لا ترى شطرنجيًا غنيًا إلا بخيلا، ولا فقيرًا إلا طفيليًا ، ولا تسمع باردة إلا على الشطرنج . واحتضر شطرنجى فصار يقول : شاه مات شاه مات مكان الشهادتين حتى مات .

وأما الترخيص فيه : فقد سئل الشعبى عن اللعب بالشطرنج ، فقال : لا بأس به إذا لم يكن

---

(١) العرقوب : من الإنسان : وتر غليظ فوق عقبه . وعُرقوب : رجل من العمالقة يضرب به المثل فى خلف الوعد . يقال : « مواعيد عرقوب » . الفاخر / ١٣٣ .

هناك تقامر وتبادل ، وقال بعضهم : كنا فى السجن مع ابن سيرين ، فكان يرانا ونحن نلعب بالشطرنج ، فيقوم ، فيأتى ويقول : ارفع الفرس ارفع كذا افعل كذا ، ولا يعيب علينا . وعن سعيد بن المسيب قال : كنت ألعب الشطرنج مع صديق فى بيته حين خفت الحجاج . ومما قيل لعلى بن الجهم فى الشطرنج ، وقيل للمأمون :

أرضٌ مربعةٌ حمراءُ من أدمٍ ما بين حرّين مَعْرُوفين بالكرمِ
تذكّر الحرب فاحتالا لها فطنًا من غير أن يَأْثَما فيها بِسَفْكِ دمِ
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يُغيرُ وَعَيْنُ الحزمِ لم تنمِ
فانظر إلى هممٍ جاشت بمعركةٍ فى عسكرين بلا طَبْلٍ ولا عَلَمِ

قالوا : إن سبب وضع الشطرنج: أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال ، فإذا تنازع ملكان فى كورة(١) أو مملكة تلاعبا بالشطرنج ، فيأخذها الغالب من غير قتال . وقيل : إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر والقطعة منه بثلاثة آلاف دينار.

ومما جاء فى لعب الغلمان :

ومما حكى: أن غلمانًا من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة وأسقف البحرين قاعد ، فوقعت الكرة على صدره فأخذها ، فجعلوا يطلبونها منه فأبى ، فقال غلام منهم : سألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا ، فأبى لعنه الله ،وسب رسول الله ﷺ ، فأقبلوا عليه بصوالجهم ، فما زالوا يخبطونه حتى مات لعنة الله عليه ، فَرُفِع ذلك إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ فوالله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقَتل الغلمان لذلك الأسقف ، وقال : الآن عز الإسلام إن أطفالا صغاراً شتم نبيهم فغضبوا له، وانتصروا ،واهدر دم الأسقف .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١)الكورة : البقعة التى تجتمع فيها المساكن والقرى .

الباب السادس والسبعون

فى النوادر
وفيه فصول
الفصل الأول من هذا الباب
فى نوادر العرب

خرج المهدى يتصيد ، فغار به فرسه حتى وقع فى خباء أعرابى ، فقال : يا أعرابى هل من قرى؟ ، فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ فى ركوة فسقاه ، فلما شرب قال : أتدرى من أنا ؟ قال : لا ، قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة، قال : بارك الله لك فى موضعك ، ثم سقاه مرة أخرى، فشرب فقال : يا أعرابى: أتدرى من أنا؟ قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال : لا . أنا من قواد أمير المؤمنين ، قال : رحبت بلادك وطاب مرادك ، ثم سقاه الثالثة ، فلما فرغ قال: يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال :لا ، ولكنى أمير المؤمنين . قال: فأخذ الأعرابى الركوة ، فوكأها (١) ، وقال : إليك عنى ، فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله ، فضحك المهدى حتى غشى عليه ، ثم أحاطت به الخيل ، ونزلت إليه الملوك والأشراف ، فطار قلب الأعرابى فقال له : لا بأس عليك ، ولاخوف ، ثم أمر له بكسوة ، ومال جزيل .

ووجد أعرابى يأكل ويتغوط ويفلى ثوبه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أخرج عتيقًا، وأدخل جديدًا ، وأقتل عدوًا . وقيل لبعض الأعراب : إن شهر رمضان قدم ، فقال : والله لأبددن شمله بالأسفار . وسمع أعرابى قارئًا يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى : ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا** ﴾ [التوبة : ٩٧] فقال : لقد هجانا ، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ : ﴿ **وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [التوبة : ٩٩] فقال : لا بأس هجا ومدح. هذا كما قال شاعرنا :

هَجَوْتُ زهيرًا ثم إِنّى مَدَحْتُه ... وَمَا زالت الأشرافُ تُهجى وتُمدحُ

وحضر أعرابى على مائدة يزيد بن مزيد فقال لأصحابه : أفرجوا لأخيكم ، فقال الأعرابى: لا حاجة لى بأفراجكم إن أطنابى(٢) طوال يعنى سواعده ، فلما مد يده ضرط ، فضحك يزيد ، فقال: يا أخا العرب أظن أن طنبًا من أطنابك قد انقطع . ورئى أعرابى يغطس فى البحر ومعه خيط ، وكلما غطس عقد عقدة ، فقيل له : ما هذا ؟ قال : جنابات الشتاء أقضيها فى الصيف.

---

(١) وكأها : ألقاها ورمى بها .

(٢) أطناب : جمع الطنب : حبل يشد به الخباء والسرادق ونحوهما .

وسرق أعرابى غاشية(١) من على سرج، ثم دخل المسجد يصلى فقرأ الإمام : ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ** (١) **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ** (٢) ﴾ [الغاشية : ١] فقال : يا فقيه لاتدخل فى الفضول ، فلما قرأ : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ** (٢) ﴾ [الغاشية : ٢] ، قال : خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهى لا بارك الله لكم فيها ثم رماها من يده وخرج .

وحضر أعرابى مجلس قوم فتذاكروا قيام الليل فقيل له : يا أبا أمامة أتقوم الليل ؟ فقال : نعم ، قالوا: ما تصنع؟ قال : أبول وأرجع أنام .

وسرق أعرابى صرة فيها دراهم، ثم دخل المسجد يصلى ، وكان اسمه موسى ، فقرأ الإمام، ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ** (١٧) ﴾ [طه :] ، فقال الأعرابى: والله إنك لساحر ، ثم رمى الصرة وخرج.

وحكى الأصمعى قال : ضلت لى إبل ، فخرجت فى طلبها ، وكان البرد شديدًا ، فالتجأت إلى حَىٍّ من أحياء العرب ، وإذا بجماعة يصلون وبقربهم شيخ ملتفِ بكساء ، وهو يرتعد من البرد وينشد :

أيا ربّ إن البردَ أصبح كَالحًا ... وأنت بحالى يا إلهى أعلم
فإنْ كنتَ يومًا فى جهنم مُدخِلى ... ففى مثل هذا اليوم طابت جهنم

قال الأصمعى : فتعجبت من فصاحته ، وقلت : يا شيخ أما تستحى تقطع الصلاة ،وأنت شيخ كبير ، فأنشد يقول :

أيطمع ربّى فى أن أصلى عاريًا ... ويكسو غيرى كُسْوةَ البردِ والحرِّ
فوالله لا صليتُ ما عِشتُ عاريًا ... عِشاءً ولا وقت المغيب ولا الوترِ
ولا الصبحَ إلا يومَ شَمس دفيئة ... وإن غَيَّمَتْ فالويل للظهرِ والعصرِ
وإنْ يكْسُنى ربّى قميصًا وجبّةً ... أصلى له مهما أعيشُ مِنَ العمرِ

قال : فأعجبنى شعره وفصاحته ، فنزعت قميصًا وجبّة كانا علىَّ ودفعتهما إليه ، وقلت له: البسهما، وقم ، فاستقبل القبلة ، وصلى جالسًا وجعل يقول :

إليك اعتذارى من صلاتى جالسًا ... على غير طُهرِ مُوميًا نحو قبلَتى
فما لى ببرد الماء يا رَبِّ طاقةٌ ... ورجلاى لا تقوىٍ على ثَنى رُكْبَتى
ولكننى أستغفرُ الله شاتيًا ... وأَقضِيكَها يا ربُّ فى وجه صيْفَتى
وإنْ أنا لم أفعلْ فأنتَ مُحكمٌ ... بما شئتَ من صَفْعِى ومِنْ نَتْفِ لِحيَتى

---

(١) الغاشية : الغطاء .

قال : فعجبت من فصاحته ، وضحكت عليه وانصرفت .

وصلى أعرابى مع قوم فقرأ الإمام: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ [الملك : ٢٨] فقال الأعرابى : أهلكك الله وحدك إيش كان ذنب الذين معك ، فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك .

وقيل : دخلت أعرابية على قوم يصلون ، فقرأ الإمام : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء : ٣]. وجعل يرددها ، فجلت الأعرابية تعدو وهى هاربة حتى جاءت لأختها، فقالت: يا أختاه مازال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا عليَّ .

وصلى أعرابى خلف إمام ، فقرأ الإمام: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات : ١٦] وكان فى الصف الأول ، فتأخر إلى الصف الآخر ، فقرأ : ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ [المرسلات : ١٧] فتأخر ، فقرأ : ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾[المرسلات : ١٨] . وكان اسم البدوى مجرمًا ، فترك الصلاة وخرج هاربًا ، وهو يقول : والله ما المطلوب غيرى ، فوجده بعض الأعراب ، فقال له : مالك يا مجرم ؟ فقال : إن الإمام أهلك الأولين والآخرين ،وأراد أن يهلكنى فى الجملة، والله لا رأيته بعد اليوم .

وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندمائه فاحتاج إلى بيت الخلاء ، فدلوه عليه ، فلما دخل جعل يضرط ضراطًا شنيعًا ، فضحكوا عليه ، فأنشد يقول :

إذا ما خلا الإنسانُ فى بيت غائط ... تراختْ بلا شَكٍّ مصاريعُ فَتْحَتِه(١)
فَمَنْ كان ذا عقلٍ فَيَعْذِرُ ضَارِطاً ... وَمَنْ كان ذَا جَهلٍ ففى وَسَطِ لحيتِه

وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك يسمى مرزوبان(٢) ، فظهر له من الملك جفوة ، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب ،وعوى الذئاب، ونهيق الحمير ، وصهيل الخيل ، وصوت البغال ، ثم احتال حتى دخل موضعًا بقرب خلوة الملك وأخفى أمره ، فلما خلا الملك بنفسه نبح نبيح الكلاب ، فلم يشك الملك فى أنه كلب ، فقال : انظروا ما هذا ؟ ، فعوى عواء الذئاب، فنزل الملك عن سريره ، فنهق نهيق الحمير ، فمضى الملك هاربًا ، ومضت الغلمان يتبعون الصوت ، فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل ، فاقتحموا عليه وأخرجوه عريانًا، فلما وصلوا به إلى الملك ، ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكًا شديدًا ، وقال له :ما حملك على ما صنعت ؟ قال : إنَّ الله عز وجل مسخنى كلبًا ،وذئبًا ،وحمارًا ،وفرسًا لما غضب عليَّ الملك. قال : فأمر

(١) مصاريع : جمع مصراع : أحد جزأى الباب .
(٢) المرزُبان : رئيس الفرس . والفارس الشجاع المقدم على القوم ودون الملك فى المرتبة.

الملك أن يخلع عليه وأن يُرَدَّ إلى مرتبته الأولى .

ومن الملح: قول بعض الشعراء :

أَيَا مَنْ فاق حسنًا واعتدالا ... وولَّجَ فى عطيته الشبابا
أما فى مَالِ رِدْفِكَ مِنْ زكاةٍ ... فتدخلَ فيه لى هذا النصابا؟

وحكى الأصمعى: أن عجوزًا من الأعراب جلست فى طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذًا ، فسقوها قدحًا ، فطابت نفسها ، فتبسمت فسقوها قدحًا آخر ، فاحمر وجهها وضحكت ، فسقوها ثالثًا ، فقالت: خبرونى عن نسائكم بالعراق أيشربن النبيذ ؟ قالوا : نعم : قالت : زنين ورب الكعبة ، والله إن صدقتم ما فيكم من يعرف أباه.

وصلى أعرابى خلف إمام ، فقرأ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [نوح : ١] ، ثم وقف وجعل يرددها، فقال الأعرابى أرسل غيره يرحمك الله ، وأرحنا وأرح نفسك . وصلى آخر خلف إمام ، فقرأ : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف : ٨٠]، ووقف وجعل يرددها ، فقال الأعرابى: يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك فى هذا الليل نظل نحن وقوفا إلى الصباح، ثم تركه وانصرف .

ولزم أعرابى سفيان بن عيينه مدة يسمع منه الحديث ، فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان : يا أعرابى ما أعجبك من حديثنا ؟ قال : ثلاثة أحاديث: حديث عائشة ـ رضى الله تعالى ـ عنها عن النبى ﷺ أنه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه: ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابدأوا بالعشاء ، وحديث عائشة عنه أيضا : «ليس من البر الصوم فى السفر» ، وقيل لأعرابية: ما صفة الأير عندكم ؟ قالت : عصبة ينفخ فيها الشيطان ، فلا يرد أمرها .

وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى ، فإذا هو بشيخ من الأعراب على حمار وهو رطب العينين ، فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك ؟ قال : ما أحوجنى إلى ذلك، قال : خذ عيدان الهواء ،وغبار الماء فصيره فى قشر بيض الذر، واكتحل به ينفعك، فانحنى الشيخ وضرط ضرطة قوية ،وقال : خذ هذه فى لحيتك أجرةَ وَصِفْتَكَ ، وإن زدت زدناك . فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته .

وخرج معن بن زائدة (١) فى جماعة من خواصه للصيد ، فاعترضهم قطيع ظباء ، فتفرقوا

---

(١) أبو الوليد بن مطر : جواد . شجاع . ناصر يزيد بن معاوية . لما قتل يزيد . استتر معن ثم دافع عن المنصور قتله الخوارج فى مدينة بست (١٥٢ هـ = ٨٧٦٩ م) .

فى طلبه ، وانفرد معن خلف ظبى حتى انقطع عن أصحابه ، فلما ظفر به نزل ، فذبحه ، فرأى شيخا مقبلا من البرية على حمار ، فركب فرسه واستقبله ، فسلم عليه ،فقال : من أين؟ وإلى أين ؟ قال : أتيت من أرض لها عشرون سنة مجدبة ، وقد أخصبت فى هذه السنة فزرعتها مقثأة، فطرحت فى غير وقتها ، فجمعت منها ما استحسنته ، وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور ، وفضله المشهور، ومعروفه المأثور، وإحسانه الموفور ، قال : وَكَمْ أَمَّلْتَ منهُ ؟ قال : ألف دينار ، قال : فإن قال لك: كثير ، قال: خمسمائة ، قال : فإن قال لك كثير. قال : ثلاثمائة . قال : فإن قال لك كثير .قال : مائة . قال فإن قال لك كثير . قال: خمسين، قال : فإن قال لك :كثير . قال: فإن أقلّ من الثلاثين ، قال : فلا قال لك كثير . قال: أدخل قوائم حمارى فى حرِّ أمه ،وأرجع إلى أهلى خائبا . فضحك معن منه ، وساق جواده حتى لحق بأصحابه ونزل فى منزله ، وقال لحاجبه : إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به على ، فأتى بعد ساعة ، فلما دخل عليه لم يعرفه لهيبته وجلالته ، وكثرة حشمه وخدمه وهو متصدر فى دسته(١) ، والخدم والحفدة قيام عن يمينه وعن شماله وبين يديه ، فلما سلم عليه قال : ما الذى أتى بك يا أخا العرب؟ قال : أملت الأمير ، وأتيته بقثاء فى غير أوان ، فقال : كم أملت فينا ؟ قال : ألف دينار . قال : كثير ، فقال : والله لقد كان ذلك الرجل ميشوما علىّ، ثم قال خمسمائة دينار ، قال: كثير فما زال إلى أن قال: خمسين ديناراً ، فقال له: كثير ، فقال : لا أقل من الثلاثين ، فضحك معن ، فعلم الأعرابى أنه صاحبه ، فقال: يا سيدى إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب ،وها معن جالس ، فضحك معن حتى استلقى على فراشه ، ثم دعا بوكيله ، فقال : أعطه ألف دينار وخمسمائة دينار وثلاثمائة دينار ومائة دينار وخمسين دينارا وثلاثين دينارا ، ودع الحمار مكانه ، فتسلم الأعرابى المال وانصرف .

الفصل الثانى
فى نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال: كنا فى دهليز(٢) عثمان بن شيبة، فخرج إلينا فقال: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ﴾ [القلم : ١] فى أى سورة ؟. ومر بعضهم بقارئ يقرأ : « ألم غلبت الترك فى أدنى الأرض »، فقال له: الروم . فقال له: كلهم أعداؤنا قاتلهم الله . وكان جماعة يجلسون إلى أبى العيناء

(١) الدست : صدر المجلس ، وأيضًا منصب الوزارة .
(٢) الدهليز : المدخل بين الباب والدّار.

وفيهم رجل لا يتكلم فقيل له يوما : كيف علمك بكتاب الله ؟ قال : أنا عالم به ، فقيل له : هذه الآية فى أى سورة : « الحمد لله لا شريك له » ، فقال له : فى سورة الحمد ، فضحكوا عليه، وجاء رجل إلى فقيه ، فقال : أفطرت يوما فى رمضان ، فقال : اقض يوما مكانه ، قال: قضيت وأتيت أهلى ، وقد عملوا مأمونية ، فسبقتنى يدى إليها ، فأكلت منها ، فقال : اقض يوما آخر مكانه ، قال : قضيت ، وأتيت أهلى وقد عملوا هريسة ، فسبقتنى يدى إليها، فقال: أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك .

وجاء رجل إلى بعض الفقهاء ، فقال له : أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل، وإنى توضأت وصليت ، فبينما أنا فى الصلاة إذ أحسست ببلل فى سراويلى يتلزق ، فشممته فإذا رائحته كريهة خبيثه ، فقال الفقيه : عافاك الله خريت بإجماع المذاهب .

وجاء رجل إلى فقيه قال : أنا رجل أفسو فى ثيابى حتى تفوح روائحى ، فهل يجوز لى أن أصلى فى ثيابى ؟ قال: نعم لكن لا كثر الله فى المسسلمين مثلك .

ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة ، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما ، فدخل إليها وقال : إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عمش عينيه ، ودقة ساقيه، وضعف ركبتيه ، ونتن إبطيه ، وبخر فيه ، وجمود كفيه ، فقال له الأعمش : قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبى ما لم تكن تعرفه . وسكن بعض الفقهاء فى بيت سقفه يقرقع فى كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة فقال له: أصلح السقف ، فإنه يقرقع ، قال : لا تخف ، فإنه يسبح الله تعالى قال : أخشى أن تدركه رقة فيسجد .

الفصل الثالث
فى نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة . فقرأ يوما فى المصحف . ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾[هود : ٦] ، فقال لغلامه : أطلق البغلة ورزقها على الله ، فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكل من قشور الباذنجان ،وقشور الرمان، وقشور البطيخ ، وقمامات الطريق ، فماتت ، فأمر الغلام بإحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم ، فطلبوا من القاضى عشرة دراهم أجرة حملها وقالوا : ليس لنا شيئ نرتزق منه إلا من مثل هذا ، وسيدنا رجل غنى، وله أشياء كثيرة : العدالة ، والتزويج ، والعقود ، والوراقة، والسجن، والإطلاق، وحاكمية الحكم ، وأجرة اليمين، والتدريس، والأوقاف ، فقال لهم القاضى: ألمثلى يقال هذا ؟ وأنتم لكم اثنا عشر بابا من المنافع ، منها : الوسخ ، والزفر، والهلع ، والولع ، وبيت النبذة،

وشركة النفوس ، وجباية الأسواق ، وحرق النار ، وسلب الشطار ، ولكم الصياح وثمن الإصلاح ، وما تروحوا من هذه البغلة، بلا شيء ، جلدها للدباغين، وذنبها للغرابلية، ومعرفتها للشعار ،وتطبيقتها للبيطار ، قال : فتقدم أحدهم إليه ، وقال : بحق من تاب عليك، ورد عاقبتك إلى خير، وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشيء ، ولا تدعنا نروح بلاش .

تفسير هذه الألفاظ . الزفر : النساء الزانيات ، والوسخ : المراحيض . والهلع : جباية الأسواق ، والولع : القمار ، وبيت النبذة: محل المزر ، وشركة النفوس : كل من حمل ميتًا، ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه . وسلب الشطار: كل من شنقوه لهم سلبه .

وولى يحيى بن أكثم قاضيًا على أهل جبلة ، فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة ، فقال لأهل جبلة : إذا اجتاز الرشيد فاذكرونى عنده بخير . فوعدوه بذلك ، فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه ، فسرح القاضى لحيته ، وكبر عمته وخرج ، فرأى الرشيد فى الحراقة ومعه أبو يوسف القاضى ، فقال: يا أمير المؤمنين نعم القاضى قاضى جبلة عدل فينا ، وفعل كذا وكذا. وجعل يثنى على نفسه ، فلما رآه أبو يوسف عرفه ، فضحك، فقال له الرشيد : مِمَّ تضحك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين المثنى على القاضى هو القاضى ، فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض ، ثم أمر بعزله فعزل . وأحضر رجل ولده إلى القاضى فقال : يا مولانا إن ولدى هذا يشرب الخمر ولا يصلى ، فأنكر ولده ذلك ، فقال أبوه : يا سيدى أفتكون صلاة بغير قراءة؟ ، فقال: الولد إنى أقرأ القرآن : فقال له القاضى ، اقرأ حتى أسمع فقال :

عَلَقَ القلبُ الربابا بعدما شابت وشابا
إن دينَ الله حقٌّ لا أرى فيه ارتيابا

فقال أبوه : إنه لم يتعلم هذا إلا البارحة ، سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه ، فقال القاضى ، وأنا الآخر أحفظ آية منها وهى :

فارحمى مُضْنىً كئيبًا قد رأى الهجرَ عَذابا

ثم قال القاضى : قاتلكم الله يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به .

وتقدم اثنان إلى أبى صمصامة القاضى ، فادعى أحدهما على الآخر طنبورًا ، فأنكر ، فقال للمدعى : ألك بينة؟ فقال : لى شاهدان فأحضر رجلين شهدا له ، فقال المدعى عليه :سلهما يا سيدى عن صناعتهما ، فأخبر أحدهما :أنه نباذ ، وقال الآخر: أنه قواد ، فالتفت القاضى إلى المدعى عليه ، وقال : أتريد على طنبور أعدل من هذين ؟ ادفع إليه طنبوره .

وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبى يوسف القاضى فى الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب؟ ، فقال

أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب ، فأمر الرشيد بإحضارهما ، وقدما بين يدى أبى يوسف، فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نصف الجامين ثم قال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته .

وأتى بعض المجان لبعض القضاة فقال: يا سيدى إن امرأتى قحبانا ، فقال له القاضى طلقهانا، فقال عشقانا ، فقال قودهانا ، وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدين ، فجعل القاضى يميل إليها بالحكم ، فقال الرجل : اصلح الله القاضى حجتى أوضح من هذا النهار ، فقال له القاضى : اسكت يا عدو الله ، فإن الشمس أوضح من النهار ، قم لا حق لك عليها، فقالت المرأة : جزاك الله عن ضعفى خيرًا فقد قويته ، فقال الرجل : لا جزاك الله عن قوتى خيرًا فقد أوهيتها . ورفعت امرأة زوجها إلى القاضى تبغى الفرقة ، وزعمت أنه يبول فى الفراش كل ليلة، فقال الرجل للقاضى : يا سيدى لاتعجل على حتى أقص عليك أقصتى ، إنى أرى فى منامى كأنى فى جزيرة فى البحر وفيها قصر عالٍ ، وفوق القصر قبة عالية ، وفوق القبة جمل وأنا على ظهر الجمل ، وإن الجمل يطأطئ برأسه ليشرب من البحر ، فإذا رأيت ذلك بلت من شدة الخوف ، فلما سمع القاضى ذلك بال فى فراشه وثيابه ، وقال : يا هذه أنا قد أخذنى البول من هول حديثه ، فكيف بمن يرى الأمر عيانا ؟ .

وحكى: أنا تاجرا عبر إلى حمص ، فسمع مؤذنا يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشهدون أن محمدا رسول الله ، فقال : والله لأمضين إلى الإمام وأسأله ، فجاء إليه ، فرآه قد أقام الصلاة وهو يصلى على رجل ورجله الأخرى ملوثه بالعذرة ، فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر ، فسأل عنه فقيل إنه فى الجامع يبيع الخمر ، فمضى إليه ، فوجده جالسا وفى حجره مصحف وبين يديه باطية مملوءة خمرا وهو يحلف للناس بحق المصحف أن الخمرة صرف ليس فيها ماء ، وقد اردحمت الناس عليه وهو يبيع ، فقال : والله لأمضين إلى القاضى وأخبره، فجاء إلى القاضى ، فدفع الباب ، فانفتح ، فوجد القاضى نائما على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحشة ، فقال التاجر : قلب الله حمص ، فقال القاضى لم تقول هذا ؟ فأخبره بجميع ما رأى . فقال : يا جاهل أما المؤذن : فإن مؤذننا مرض فاستأجرنا يهوديا صيتا يؤذن مكانه ، فهو يقول ما سمعت ، وأما الإمام : فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مسرعا ، فتلوثت رجله بالعذرة وضاق الوقت ، فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى ، ولما فرغ غسلها، وأما المحتسب :فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلا كرم ، وعنبه ما يؤكل ، فهو يعصره خمرا ويبيعه ويصرف ثمنه فى مصالح الجامع ، وأما الغلام الذى رأيته ، فإن أباه مات وخلف مالاً كثيرا وهو تحت الحجر ، وقد كبر وجاء جماعة شهدوا عندى أنه بلغ ، فأنا أمتحنه ، فخرج التاجر من البلد ، وحلف أن لا يعود إليها أبدا.

الفصل الرابع
فى نوادر النحاة

وقف نحوى على بياع يبيع أرزا بعسل وبقلا بخل ، فقال : بكم الأرز بالأعسل والأخلل بالأبقل ؟ فقال : بالأصفع فى الأرؤس والأضرط فى الأذقن . ووقع نحوى فى كنيف ، فجاء كناس ليخرجه ، فصاح به الكناس ليعلم أهو حى أم لا، فقال له النحوى : اطلب لى حبلا دقيقا، وشدنى شدا وثيقا ،واجذبنى جذبا رفيقا ، فقال الكناس : امرأتى طالق إن أخرجتك منه، ثم تركه وانصرف .

وكان لبعضهم ولد نحوى يتقعر فى كلامه . فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت، فاجتمع عليه أولاده ، وقالوا له : ندعوا لك فلانًا أخانا ، قال : لا إن جاءنى قتلنى، فقالوا : نحن نوصيه أن لا يتكلم ، فدعوه ، فلما دخل عليه قال له: يا أبت : قل: لا إله إلا الله تدخل بها الجنة وتفوز من النار ، يا أبت : والله ما أشغلنى عنك إلا فلان، فإنه دعانى بالأمس ، فأهرس، وأعدس ،واستبذج، وسكبج، وطهبج، وافرح، ودحج ، وأبصل، وأمضر ،ولوزج وافلوزج، فصاح أبوه غمضونى ، فقد سبق ابن الزانية ملك المو ت إلى قبض روحى .

وجاء نحوى يعود مريضًا ، فطرق بابه ، فخرج إليه ولده ؛ فقال : كيف وجدت أباك ؟ قال: يا عم ورمت رجليه، قال : لا تلحن قل: رجلاه ، ثم ماذا ؟ قال : ثم وصل الورم إلى ركبتاه . قال : لا تلحن قل: إلى ركبتيه . ثم ماذا ؟ قال : مات وأدخله الله فى بظر عيالك، وعيال سيبويه، ونفطويه، وجحشويه . وعاد بعضهم نحويًا ، فقال : ما الذى تشكوه ؟ قال : حمى جاسية ،نارها حامية ،منها الأعضاء واهية، والعظام بالية ، فقال له : لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية.

الفصل الخامس
فى نوادر المعلمين

قال الجاحظ: مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة ،وعصا قصيرة، وصولجان، وكرة ، وطبل، وبوق ، فقلت: ما هذه؟ فقال : عندى صغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لى بضرطة ، فأضربه بالعصا القصيرة ، فيتأخر ، فأضربه بالعصا الطويلة ، فيفر من بين يدى، فأضع الكرة فى الصولجان وأضربه فأشجه ، فتقوم إلى الصغار كلهم بالألواح، فأجعل الطبل فى عنقى، والبوق فى فمى ، أضرب الطبل، وأنفخ فى البوق، فيسمع أهل الدرب ذلك ،

فيسارعون إلى ويخلصونى منهم.

وحكى الجاحظ: أيضًا قال : مررت على خربة . فإذا بها معلم وهو ينبح نبيح الكلاب . فوقفت أنظر إليه، وإذا بصبى قد خرج من دار ، فقبض عليه المعلم . وجعل يلطمه ويسبه ، فقلت: عرفنى خبره . فقال : هذا صبى لئيم يكره التعليم ،ويهرب ،ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به ، فإذا سمع صوتى ظن أنه الكلب فيخرج فأمسكه.

وجاءت امرأة إلى المعلم بولدها تشكوه فقال له : إمَّا أن تنتهى وإلا فعلت بأمك ، فقالت: يا معلم هذا صبى ما ينفع فيه الكلام فافعل ما شئت لعله ينظر بعينه ويتوب ، فقام وفعل بها أمام ولدها.

وقال الجاحظ : رأيت معلمًا فى الكتاب وحده فسألته ،فقال : الصغار داخل الدرب يتصارعون فقلت: أحب أن أراهم ، فقال : ما أشير عليك بذلك ، فقلت : لابد ، قال : فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعوك حتى تعمى .

وقال بعضهم : رأيت معلمًا وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما : هذا عض أذنى ، فقال الآخر: لا والله يا سيدنا هو الذى عض أذن نفسه ، فقال المعلم : يا ابن الزانية هو كان جمل يعض أذن نفسه .

وقال بعضهم : رأيت معلمًا وهو يصلى العصر ، فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه ، ونظر إلى الصغار وهم يلعبون، وقال: يا ابن البقال قد رأيت الذى عملت وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة.

وحكى عن الجاحظ: أنه قال : ألفت كتّابًا فى نوادر المعلمين ، وما هم عليه من التغفل ، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك ، فدخلت يومًا مدينة ، فوجدت فيها معلمًا فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد على أحسن رد ،ورحب بى، فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن، فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو ،وعلم المنقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب، فقلت : هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب . قال : فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يومًا لزيارته ، فإذا بالكتّاب مغلق ولم أجده ، فسألت عنه ، فقيل : مات له ميت ، فحزن عليه، وجلس فى بيته، للعزاء ، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب ، فخرجت إلى جارية ، وقالت : ما تريد ؟ قلت :سيدك ، فدخلت، وخرجت ، وقالت : باسم الله ، فدخلتُ إليه، وإذا به جالس ، فقلتُ: عظم الله أجرك لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال :لا، قلت: فوالدك ، قال: لا ، قلتُ: أخاك ؟ قال :لا ، قلتُ: فزوجتك ؟ قال :لا ، فقلت :وما هو منك ؟ قال: حبيبتى. فقلت فى نفسى: هذه أول المناحس . فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها ،

فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت: وهذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال: أعلم أنى كنت جالسًا فى هذا المكان، وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا عليه بردٍ وهو يقول :

يا أُمَّ عَمْرو جزاكِ اللهُ مكرمةً رُدِّى عَلَىَّ فؤادى أينما كانا
لا تأخذين فؤادى تَلْعَبِين به فكيف يلعبُ بالإنسانِ إنساناً

فقلت فى نفسى: لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ، ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مَرَّ ذلك الرجل بعينه، وهو يقول :

لَقَدْ ذَهَبَ الحمارُ بِأُمّ عمروٍ فَلا رَجَعَتْ ولا رَجَعَ الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزت عليها ، وأغلقت المكتب وجلست فى الدار ، فقلت : يا هذا إن كنت ألفت كتابًا فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قَوّيتَ عزمى على إبقائه، وأول ما أبدأ ، أبدأ بك إن شاء الله تعالى .

الفصل السادس
فى نوادر المتنبئين

ادعى رجل النبوة فى أيام الرشيد ، فلما مثل بين يديه قال له : ما الذى يقال عنك ؟ قال : إنى نبى كريم ، قال: فأى شىء يدل على صدق دعواك ؟ قال : سل عما شئت ، قال : أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى ، فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقال : كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى وأغير هذه الصورة الحسنة ، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مرادًا فى لحظة واحدة ، فضحك منه الرشيد، وعفا عنه، وأمر له بصلة .

وتنبأ إنسان ، فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة ، فقال : أطرح لكم حصاة فى الماء فتذوب . قالوا : رضينا فأخرج حصاة معه وطرحها فى الماء فذابت ، فقالوا : هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا ودعها تذوب ، فقال : لستم أجل من فرعون، ولا أنا أعظم حكمة من موسى، ولم يقل فرعون لموسى: لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندى تجعلها ثعبانا . فضحك المأمون وأجازه .

وتنبأ رجل فى أيام المعتصم ، فلما حضر بين يديه قال : أنت نبى ؟ قال : نعم ، قال : وإلى من بعثت ؟ قال : إليك ، قال : أشهد أنك لسفيه أحمق ، قال : إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم، فضحك المعتصم وأمر له بشىء ، وتنبأ رجل فى أيام المأمون وادعى أنه إبراهيم الخليل، فقال له

المأمون : إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين ، قال : وما براهينه ؟ قال : أضرمت له نارًا وألقى فيها ، فصارت عليه بردًا وسلامًا ، ونحن نوقد لك نارًا ونطرحك فيها، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك ، قال : أريد واحدة أخف من هذه ، قال : فبراهين موسى ، قال : وما براهينه ؟ قال : ألقى عصاه فإذا هى حية تسعى وضرب بها البحر ، فانفلق، وأدخل يده فى جيبه فأخرجها بيضاء . قال : وهذه على أصعب من الأولى . قال : فبراهين عيسى . قال: وما هى؟ قال : إحياء الموتى . قال : مكانك قد وصلت . أنا أضرب رقبة القاضى يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة ، فقال يحيى : أنا أول من آمن بك وصدق .

وتنبأ آخر فى زمن المأمون ، فقال المأمون : أريد منك بطيخًا فى هذه الساعة ، قال :أمهلنى ثلاثة أيام ، فقال : ما أريده إلا الساعة ، قال : ما أنصفتنى يا أمير المؤمنين إذا كان الله تعالى الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ما يخرجه إلا فى ثلاثة أشهر ، فما تصبر أنت على ثلاثة أيام ، فضحك منه ووصله .

وتنبأ آخر فى زمن المأمون ، فلما مثل بين يديه . قال له: من أنت ؟ قال : أنا أحمد النبى. قال : لقد ادعيت زورًا ، فلما رأى الأعوان قد أحاطت به وهو ذاهب معهم قال : يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبى ، فهل تذمه أنت؟ ، فضحك المأمون منه وخلى سبيله .

وتنبأ آخر فى زمن المتوكل ، فلما حضر بين يديه قال له : أنت نبى؟ قال : نعم . قال : فما الدليل على صحة نبوتك؟ قال : القرآن العزيز يشهد بنبوتى فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾[النصر : ١] . وأنا اسمى نصر الله ، قال : فما معجزتك ؟ قال : ائتونى بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم فى الساعة ويؤمن بى، فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته ، فقال الوزير : أما أنا فأشهد أنه نبى الله ، وإنما يعطى زوجته من لا يؤمن به . فضحك المتوكل وأطلقه . وادعى رجل النبوة زمن خالد بن عبد الله القسرى، وعارض القرآن فأتى به إلى خالد فقال له : ما تقول؟ قال : عارضت القرآن. قال: بماذا ؟ قال : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾[الكوثر : ١] . وقلت: إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ولا تطع كل ساحر . فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب، فمر به خلف بن خليفة الشاعر، فضرب بيده على الخشبة وقال : إنّا أعطيناك العود، فصل لربك من قعود، وأنا ضامن لك أن لا تعود .

وأتى المأمون برجل ادعى النبوة ، فقال له : ألك علامة على نبوتك ؟ قال : علامتى أنى أعلم ما فى نفسك ، قال : وما فى نفسى ؟ قال : فى نفسك أنى كاذب ، قال : صدقت ، ثم أمر به إلى السجن ، فأقام فيه أيامًا . ثم أخرجه ، فقال : هل أوحى إليك بشىء ؟ قال : لا. قال : ولم ؟ قال : لأن الملائكة لا تدخل الحبوس . فضحك منه وخلى سبيله .

وأتى بامرأة تنبأت فى أيام المتوكل ، فقال لها : أنت نبية ؟ قالت : نعم . قال : أتؤمنين بمحمد؟ قالت: نعم ، قال : فإنه ﷺ قال : لا نبى بعدى ، قالت : فهل قال: لا نبية بعدى، فضحك المتوكل وأطلقها .

وتنبأ رجل يسمى: نوحًا ، وكان له صديق نهاه ، فلم يقبل فأمر السلطان بقتله ، فصلب، فمر به صديقه ، فقال له : يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصارى.

الفصل السابع
فى نوادر السؤال

وقف أعرابى بباب يسأل ، فقال له صغير: مَنْ بباب الدار بورك فيك؟ ، فقال : قبح الله هذا الفم لقد تعلمت الشر صغيرًا ، ووقف سائل على باب فقال : يا أصحاب المنزل ، فبادر صاحب الدار قبل أن يُتِمَّ كلامه، وقال : فتح الله عليك ، فقال السائل : يا قرنان كنت تصبر لعلى جئت أدعوك إلى وليمة .

وقال أبو عثمان الجاحظ : وقف سائل بقوم فقال : إنى جائع، فقالوا له : كذبت ، فقال: جربونى برطلين من الخبز ،ورطلين من اللحم .

ووقف سائل على باب ، فقالوا: يفتح الله عليك، فقال: كسرة ، فقالوا : ما نقدر عليها ، قال : فقليل من بر أو فول أو شعير ، قالوا : لا نقدر عليه ، قال : فقطعة دهن أو قليل زيت أو لبن . قالوا : لا نجده قال : فشربة ماء . قالوا: ليس عندنا ماء ، قال : فما جلوسكم هاهنا قوموا فاسألوا ، فأنتم أحق منى بالسؤال .

الفصل الثامن
فى نوادر المؤذنين

قيل لمؤذن : ما نسمع أذانك ، فلو رفعت صوتك ، فقال : إنى أسمع صوتى من مسيرة ميل. وقال بعضهم : رأيت مؤذنًا أذن ثم غدا يهرول ، فقلت له : إلى أين ؟ فقال : أحب أن أسمع أذانى أين بلغ .

واختصم رجلان فى جارية فأودعاها عند مؤذن . فلما أصبح وفرغ من الأذان قال : لا إله إلا الله ذهبت الأمانة من الناس . فقالوا له: كيف ذهبت الأمانة من الناس؟ قال : هذه الجارية التى وضعت عندى . قيل: إنها بكر ، فلما أتيتها وجدتها ثيبا .

وسمع مؤذن حمص يقول فى سحور رمضان : تسحروا قد أمرتكم، وعجلوا فى أكلكم قبل أن أؤذن ، فيسخم الله وجوهكم . وشوهد مؤذن يؤذن من رقعة . فقيل له : ما تحفظ الأذان ؟

فقال : سلوا القاضى ، فأتوه ، فقالوا : السلام عليكم ، فأخرج دفترا وتصفحه وقال : وعليكم السلام ، فعذروا المؤذن .

وسمعت امرأة مؤذنا يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول الصلاة خير من النوم ، فقالت: النوم خير من هذه الصلاة . وَمَرَّ سكران بمؤذن ردىء الصوت فجلد به الأرض، وجعل يدوس بطنه ، فاجتمع الناس فقال : والله ما بى رداءة صوته ، ولكن شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين .

الفصل التاسع
فى نوادر النواتية (١)

حكى: أن بعض النواتية تولى أحد الكراسى السلطانية لما ساعده الزمان ، فبينما هو جالس فى داره إذ سمع صوتا وراء الباب؛ فقال لزوجته : إنى أسمع غاغة فى البر حلى قلوعى واعملى أسفيرتى على جامورى، وقدمى إلى أسقالة الرجل ، وقيمينى بمدرة ، فامتثلت كلامه ، فنزل وجلس على مصطبته، وقد علت مرتبته ، واصطفت المقدمون بين يديه، ووقفت الجبرتية حواليه، وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعه وعمامته فى حَلْقِه، والدم نازل من أنفه، وهو يصيح بصوت عالى : أنا بالله وبالوالى ، فقال: تعالى يا شيخ مالى أرى أرطمونك فى حلقك، وشبورتك مكسورة، وأنت بتزلع ماء متغير، وتقيم الهليلا فى الساحل دَلّ عليك شرد غربى وإلا دخلت على بواجى ، فقال الشيخ: والله يا سيدى بعض نواتيه البحر عمل بى هذا ، فقال: يا أولاد جيبوا عويموه ويخنسوا عدته وقشطوا ظهره وجروه على مقدمه، فامتثلوا كلام الأمير وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له : ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر، أنت الذى قطعت القلس، وخرجت فى الشعث حتى لقيت هذا الرجل نطحت مخطمته، وكسرت استقالته ، لو انصلح كنت عملتك فى بدراوة، وعلقتك فى الصارى ، فلما سمع الرجل كلام الوالى علم أنه من أولاد المعيشة ، فقال له: بهمترة النواتية : والله يا خوند هو كارزنى فى معاشى اجصطن على الوحشة وأنا عايم فى الليل إلا وشرد جانى من الشرق كابس هز أطرافى وكسر شابورتى، وقطع لبانى، وها هو يحمد الله على بر السلامة ، وإن كان انصلح فيه شىء فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلفات . أسد فتحه، وأعيد له وسقه، وأخليه يروح فى طريقه ، فقال له الوالى : أنت بتقذف فى وجهى، وتطرح مقاديفك حتى تعبر على الحجر ، يا رجالة الصارى سلسلوا أطرافه، وعروا مقاديفه ، وبلو شيبنه اللبان، وانزلوا عليه وأوسقوه الجنبين والظهر حتى تلعب المية على بطونسته، هيا قوامك خلوا جنب برا وجنب جوا قدام الخن وراء الصارى ، فأكل علقة من كعبه

(١)النواتية : جمع نُوتِىّ : الملاح الذى يدير السفينة فى البحر.

إلى أذنه ، فقالت النواتية : يا خوندا هو خنسفت عليه الطمية البحرية؟ قال : مدراتين وقيموه . فلما أقاموه باس يد الأمير وقال : يا خوندا سألتك بهبوب الرياح، وطيب النسيم، الرب لا يبليك بجر اللبان فى الحلافى ، وأنت حافى فى الصيافى ويكفيك شر الأربعينات. قال : فرق عليه قلب الأمير وقال له : وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا عند بخنسة الريح وفروغ الزاد بعيد من البلاد، وعياط الركاب عند قيام الموجة، وبعد البر فى أيام النيل ، لولا شفاعة الركاب لكنت أهد أسقالتك، وأقعد فى زوايدك، حتى أخلى ظهرك جيفة، فقال له : والله يا خوند ما بقى جنبى يحمل هذا الوثق العظيم ،ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه أخسف من أضلاعى لوح ،وغرقنى بالقايم ، فقال له الأمير : احمد الله على السلامة واخرج فى دى الطيابة، وكتب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية للنواتية الله لك الله لى يا عملات على أبوس .

الفصل العاشر
فى نوادر جامعة

سمعت امرأة فى الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة ، فصامت إلى الظهر، ثم أفطرت وقالت: يكفينى كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان ، وأسلم مجوسى فى شهر رمضان فثقل عليه الصيام ، فنزل إلى سرداب وقعد يأكل فسمع ابنه حِسَّه؛ فقال : من هذا ؟ فقال : أبوك الشقى يأكل خبز نفسه ويفزع من الناس .

وسئل بعض القصاص عن نصرانى قال : لا إله إلا الله ، لا غير إذا مات أين يدفن ؟ قال: يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذبذبا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وأهدى إلى سالم القصاص خاتم بلا فص ، فقال : إن صاحب هذا الخاتم يعطى فى الجنة غرفة بلا سقف . وبنى بعض المغفلين نصف دار وبنى رجل آخر النصف الآخر . فقال المغفل يوما : قد عولت على بيع النصف الذى لى ، واشترى به النصف الآخر لتكمل لى الدار كلها.

وسئل جامع الصيدلانى عن عمر ابنته فقال : لا أدرى إلا أن أمها ذكرت أنها ولدتها فى أيام البراغيث .

وقيل لطفيلى : أى سورة تعجبك من القرآن؟ قال : المائدة . قال : فأى آية ؟ قال : ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر : ٣] ، قيل : ثم ماذا ؟. قال : ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف : ٦٢] ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر : ٤٦] ، قيل : ثم ماذا؟ قال : ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر : ٤٨] . وقيل لعثمان بن دراج الطفيلى يوما : كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها ؟ قال : أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك ،

فيدخلونى ، وقيل له : أتعرف بستان فلان ؟ قال : إى والله إنه الجنة الحاضرة فى الدنيا ، قيل : لِمَ لا تدخله، وتأكل من ثماره ،وتستظل بأشجاره، وتسبح فى أنهاره ؟ قال : لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال . وقيل له يوما : ما هذه الصفرة التى فى لونك؟ قال : من الفترة بين الصحنين . وقال : مرت بنا جنازة يوما ومعى ابنى ومع الجنازة امرأة تبكى، وتقول : الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه ولا غطاء ، ولا وطاء ،ولا خبز ولا ماء ، فقال ابنى : يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون .

وحكى عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقا شديداً ، فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكى : إنى أرقت هذه الليلة وضاق صدرى ولم أعرف ما أصنع ، وكان خادمه مسرور واقفا أمامه فضحك ، فقال له : ما يضحكك استهزاء بى أم استخفافاً ؟ فقال : وقرابتك من سيد المرسلين ﷺ ما فعلت ذلك عمدًا ،ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر إلى أن جئت إلى جانب الدجلة؛ فوجدت الناس مجتمعين ، فوقفت، فرأيت رجلا واقفا يضحك الناس يقال له ابن المغازلى ، فتفكرت الآن فى شىء من حديثه وكلامه ، فضحكت والعفو يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: ائتنى الساعة به ، فخرج مسرور مسرعا إلى أن جاء إلى ابن المغازلى فقال له: أجب أمير المؤمنين ، فقال: سمعا وطاعة ، فقال له: بشرط أنه إذا أنعم عليك بشىء يكون لك منه الربع والبقية لى ، فقال له : بل اجعل لى النصف ولك النصف ، فأبى ، فقال : الثلث لى ولك الثلثان ، فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم . فلما دخل على الرشيد سلم ، فأبلغ وترجم فأحسن ، ووقف بين يديه ، فقال له أمير المؤمنين : إن أنت أضحكتنى أعطيتك خمسمائة دينار وإن لم تضحكنى أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات ، فقال ابن المغازلى فى نفسه : وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب ؟ وظن فى نفسه أن الجراب فارغ ، فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالا عجيبة تضحك الجلمود ، فلم يضحك الرشيد ، ولم يتبسم، فتعجب ابن المغازلى وضجر وخاف ، فقال له الرشيد : الآن استحقيت الضرب، ثم أنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان، فضربه ضربة ، فلما وقعت الضربة فى رقبته صرخ صرخة ، عظيمة وافتكر الشرط الذى شرطه عليه مسرور ، فقال : العفو يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمتين . قال : قل: ما بدا لك . قال : إن مسروراً شرط على شرطا واتفقت أنا وإياه على مصلحة ، وهو أن ما حصل لى من الصدقات يكون له فيه الثلثان ولى فيه الثلث ، وما أجابنى إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم . وقد شرط على أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيبى منها واحدة ونصيبه اثنتان ، وقد أخذت نصيبى وبقى نصيبه . قال : فضحك الرشيد، ودعا مسرورا ، فضربه ، فصاح ، وقال : يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقى . فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار ، فأخذ كل واحد منهما خمسمائة دينار ، ورجع ابن المغازلى شاكراً.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والسبعون

فى الدعاء وآدابه وشروطه

وفيه فصول

الفصل الأول : فى الدعاء وآدابه

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] . اختلف فى سبب نزولها ، فقال مقاتل : إن عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ واقع امرأته بعدما صلى العشاء فى رمضان فندم على ذلك وبكى وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ورجع مغتمًا ، وكان ذلك قبل الرخصة ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: قالت اليهود: كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء مثل ذلك ؟ فنزلت هذه الآية . وقال الحسن : إن قومًا قالوا للنبى ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت هذه الآية . قوله تعالى : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]. أى أقبل عبادة من عبدنى.

فالدعاء :بمعنى العبادة ؛ والإجابة: بمعنى القبول. وقال قوم : إن الله تعالى يجيب كل الدعاء، فإما أن يعجل الإجابة فى الدنيا ، وإما أن يكفر عن الداعى، وإما أن يدخر له فى الآخرة لما رواه أبو سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ: « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته. وإما أن يدخر له ثوابها. وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها » (١) .

وروى: أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة فى الجنة ، فبينما العبد المؤمن فى قصره ، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله. فيقول :ما هذا؟ أليس الله قد أنعم على وأكرمنى؟، فيقولون: ألست كنت تدعو الله فى الدنيا؟ هذا دعاؤك الذى كنت تدعوه قد أدخر لك.

واعلم أن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط : **فشرط الداعى:** أن يكون عالمًا بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط فى قبضته ، ومسخرة بتسخيره ، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب ، فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه ، وأن يكون متجنبًا لأكل الحرام ،ولا يمل من الدعاء، **ومن شروط المدعو فيه:** أن يكون من الأمور الجائزة الطلب، والفعل شرعًا كما قال ـ عليه الصلاة

---

(١) صحيح رواه أحمد (٣ / ١٨) وأبو يعلى (١٠١٩) والحاكم (١ / ٤٩٣) وصححه ووافقه الذهبى.

والسلام ـ:« ما لم يدع بإثم، أو قطعية رحم »، فيدخل فى الإثم كل ما يأثم به من الذنوب ، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم .

قال ابن عطاء الله : إن للدعاء أركانًا وأجنحة، وأسبابًا، وأوقاتًا ، فإن وافق أركانه قوى، وإن وافق أجنحته، طار إلى السماء، وإن وافق مواقيته فاز ،وإن وافق أسبابه نجح ، فأركانه: حضور القلب ،والخشوع . وأجنحته: الصدق. ومواقيته: الأسحار . وأسبابه: الصلاة على النبى ﷺ .
ومن شروط الدعاء : أن يكون سليمًا من اللحن ، كما قال بعضهم :

يُنادى ربّه باللحن لَيْثٌ　　　كذلك إذا دَعَاه لا يُجَابُ

وقيل : إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف، ولا شرطى، ولا جاب، ولا عشار ،ولا صاحب عرطبة ، وهى الطنبور، ولا صاحب كوبة ، وهى الطبل الكبير الضيق الوسط .

ومن آداب الدعاء: أن يدعو الداعى مستقبل القبلة، ويرفع يديه . لما روى عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ربكم حَىٌّ كريم ليستحى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا »(١). وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء ، لما روى عن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله ﷺ : « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء ، أو ليخطفن الله أبصارهم »(٢) . وأن يخفض الداعى صوته بالدعاء لقوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : ٥٥] . وعن أبى عبد الرحمن الهمدانى قال : صليت مع أبى إسحاق الغداة فسمع رجلا يجهر فى الدعاء قال: كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفيًا ، وينبغى للداعى أن لا يتكلف، وأن يأتى بالكلام المطبوع غير المسجوع ، لقوله ﷺ : « إياكم والسجع فى الدعاء بحسب أحدكم أن يقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » .
وقيل: ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق . وكانوا لا يزيدون فى الدعاء على سبع كلمات. فما دونها ، كما فى آخر سورة البقرة .

وعن سفيان بن عيينة : لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه . فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس ، إذ قال : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحجر : ٣٦]. وعن النبى ﷺ :« **إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة، فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، ومن أبطأ عليه من ذلك شىء فليقل: الحمد لله على كل حال. وعن سلمة بن الأكوع** قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا قال: « **سبحان ربى الأعلى الوهاب**» . وعن أبى

(١) حسن : رواه أحمد (٥ / ٤٣٨) وأبو داود (١٤٨٨) والترمذى (٣٥٥٦) وابن ماجه (٣٨٦٥) .
(٢) رواه مسلم فى الصلاة (٩٤٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

سليمان الدارانى : من أراد أن يسأل الله حاجة ، فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ ، وينبغى للمؤمن أن يجتهد فى الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريمًا .

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة : وذلك وقت السحر، ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة ، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة ، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الجيش فى سبيل الله تعالى ، وفى الثلث الأخير من الليل لما جاء فى الحديث: « إن فى الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه »(١) . وفى حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء»(٢) ، وما بين الظهر والعصر فى يوم الأربعاء، وأوقات الاضطرار وحالة السفر، والمرض» . هذا كله جاءت به الآثار.

قال جابر بن عبد الله - رضى الله تعالى عنه - دعا رسول الله ﷺ فى مسجد الفتح ثلاثة أيام: يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء ، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين ، فعرفت السرور فى وجهه ، قال جابر : ما نزل بى أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة . وفى بعض الكتب المنزلة : يا عبدى إذا سألت فاسألنى فإننى غنى، وإذا طلبت النصرة فاطلبها منى فإنى قوى ، وإذا أفشيت سرك فافشه إلى فإنى وفى، وإذا أقرضت فأقرضنى فإنى ملى ، وإذا دعوت فادعونى فإنى حفى » .

وعن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخير فيقول من يدعونى فأستجيب له، من يسألنى فأعطيه. من يستغفرى فأغفر له »(٣) .

وقال وهب بن منبه :بلغنى أن موسى مر برجل قائم يبكى، ويتضرع طويلاً فقال موسى : يا رب أما تستجيب لعبدك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : «يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه، ورفع يديه حتى بلغ عَنان السماء ما استجبت له » . قال: يا رب لم ذلك ؟ قال: لأن فى بطنه الحرام .

وَمَرَّ إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه ، وقالوا : يا أبا إسحاق ما لنا ندعوا فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء : **الأول**: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا

---

(١) رواه مسلم فى الصلاة (١٧٤٠) عن جابر رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم فى الصلاة (١٠٦٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى فى التهجد (١١٤٥) ومسلم فى الصلاة (١٧٤١) عن أبى هريرة رضى الله عنه وهو حديث متواتر.

حقه ، **الثانى** : زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته ، **والثالث** : قرأتم القرآن ولم تعملوا به ، **الرابع** :أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها ، **الخامس** : قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه ، **السادس** : قلتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها ، **السابع**: قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها ، **الثامن** : قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له ، **التاسع** : انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم ، **العاشر** : دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بها.

وكان يحيى بن معاذ يقول : من أقر لله بإساءته جاد الله عليه بمغفرته ، ومن لم يمن على الله بطاعته أرصله إلى جنته ، ومن أخلص لله فى دعوته من الله عليه بإجابته . وقال على رضى الله تعالى عنه : ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء . وعن أنس رضى الله تعالى عنه (يرفعه) : « لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد »

الفصل الثانى
فى الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح ـ رحمه الله تعالى ـ: اللهم إنى أسألك الجنة بلا عمل عملته ، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته ، ودعت أعرابية عند البيت فقالت : إلهى لك أذل وعليك أدل .

وكان من دعاء بعض الصالحين:(اللهم إن كنا عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك وهو الإشراك وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك؛ وهو شهادة أن لا إله إلا أنت، وأن رسلك جاءت بالحق من عندك).

ومن دعاء سلام بن مطيع : « اللهم إن كنت بلغت أحدًا من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية » . وقيل لفتح الموصلى : ادع الله لنا فقال : اللهم هبنا عطاءك ولا تكشف عنا غطاءك . وكان من دعاء بعض السلف : اللهم لا تحرمنى خير ما عندك لشر ما عندى فإن لم تقبل تعبى ونصبى فلا تحرمنى أجر المصاب على مصيبته ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضيع .

وقال الحسن : من دخل المقابر ، فقال : اللهم رب الأرواح الفانية، والأجساد البالية ، والعظام النخرة التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة، أدخل عليها روحًا من عندك وسلامًا منى، كتب الله بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات .

وحكى عن معروف القاضى: أن الحجيج كانوا يجتهدون فى الدعاء، وفيهم رجل من التركمان ساكت لا يحسن أن يدعو ، فخشع قلبه وبكى، فقال بلغته: اللهم إنك تعلم أنى لا أحسن شيئًا من الدعاء . فأسألك ما يطلبون منك بما دعوا ، فرأى بعض الصالحين فى منامه أن

الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركمانى لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة.

وقال الأصمعى : حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت. وهى : اللهم إن ذنوبى وإن كثرت وجلت عن الصفة فإنها صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى . وركب إبراهيم بن أدهم فى سفينة ، فهاجت الريح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك ، وكان إبراهيم نائمًا فى كساء ، فاستوى جالسًا، وقال : أريتنا قدرتك فأرنا عفوك ، فذهب الريح وسكن البحر .

وقال الثورى : كان من دعاء السلف ، اللهم زهدنا فى الدنيا، ووسع علينا فيها، ولا تزوها عنا، ولا ترغبنا فيها . وكان بعض الأعراب إذا آوى إلى فراشه قال : اللهم إنى أكفر بكل ما كفر به محمد وأؤمن بكل ما آمن به ، ثم يضع رأسه . وسمعت بدوية تقول فى دعائها : يا صباح يا مناح يا مطعم يا عريض الجفنة يا أبا المكارم ، فزجرها رجل ، فقالت : دعنى أصف ربى وأمجد إلهى بما تستحسنه العرب .

وقال الزمخشرى فى كتابه « ربيع الأبرار » سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليمانى: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه ، وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم والنزاهة عن القبيح على طريق الاستعارة ، لأنه لا فرق عندهم بين الكريم وأبى المكارم، ولا بين الجواد ، والعريض الجفنة، ولا بين المنزه والأبيض الوجه .

وقيل لأعرابى : أتحسن أن تدعو ربك ؟ قال : نعم . ثم قال : اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك .

وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى ، فيدعو فتبطئ عنه الإجابة ، فقال : بلغنى أن الله تعالى يقول : كيف أرحمه من شىء به أرحمه. وقال طاوس : بينما أنا فى الحجر ذات ليلة إذ دخل عَلَىَّ عَلِىُّ بن الحسين، فقلت: رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمعن دعاءه، فسمعته يقول: عبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك . فما دعوت بهما فى كرب إلا فرج عنى، ودعا أعرابى فقال : اللهم إنا نبات نعمتك .

وقال ابن المسيب : سمعت من يدعو بين القبر والمنبر اللهم إنى أسألك عملاً بارًا ،ورزقًا دارًا، وعيشًا قارًا ، فدعوت به ، فما وجدت إلا خيرًا . ودعت أعرابية بالموقف ، فقالت : أسألك سترك الذى لا تزيله الرياح ،ولا تخرقه الرماح . وقيل : اتقوا مجانيق الضعفاء أى دعواتهم ، ودعا أعرابى فقال : اللهم أمح ما فى قلبى من كذب وخيانة ، واجعل مكانه صدقًا وأمانة. وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك، وبادر القيام ، فجذب ثوبه وقال : أما لك إلى ربك حاجة ؟ وقال سفيان الثورى : سمعت أعرابيًا يقول : اللهم إن كان رزقى فى السماء، فأنزله ، وإن كان فى الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيدًا فقربه ، وإن كان قريبًا فيسره، وإن كان قليلاً فكثره ، وإن كان كثيرًا فبارك لى فيه.

وقال أبو نواس :

أحببت من شعرِ بشارٍ ولِحُبِّكُمُ   بيتًا لهجتُ به مِنْ شعرِ بشارِ
يا رحمةَ اللهِ حلى فى منازلنا   وجاورينا فدتك النفسُ من جارِ

وكان بشار يعنى بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتغزل بها ، ونعنى بها هنا ـ رحمة الله ـ التى وسعت كل شىء . وسمع على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ رجلا يقول وهو متعلق بأستار الكعبة : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، أذقنى برد عفوك ،وحلاوة مغفرتك ، فقال على : والذى نفسى بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك . ومن دعائه ـ رضى الله تعالى عنه ـ : اللهم صن وجهى باليسار ،ولا تبدل جاهى بالإقتار . فأسترزق طامعًا رزقك من غيرك ، وأستعطف شرار خلقك وأبتلى بحمد من أعطانى ، وأفتتن بذم من منعنى ، وأنت من وراء ذلك كله ، ولى الإجابة والمنع .

وعن أبى عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ ، عن النبى ﷺ قال : « ما انتهيت إلى الركن اليمانى قط إلا وجدت جبريل قد سبقنى إليه يقول : قل يا محمد « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر، والفقر ، والفاقة ، وهى من مواقف الخزى » .

وهبط جبريل على يعقوب فقال: يا يعقوب إن الله تعالى يقول لك قل: يا كثير الخير، يا دائم المعروف رد على ابنى ، فقالها فأوحى الله تعالى إليه : وعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك. وكان أبو مسلم الخراسانى إذ نابه أمر قال : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. قال جعفر بن محمد: ما المبتلى الذى اشتد بلاؤه بأحق الدعاء من المعافى الذى لا يأمن وقوع البلاء. وكان الزهرى يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول : اللهم إنى أسألك من خير ما أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة ، وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة . وعن عقبة بن عبد الغافر دعوة فى السر أفضل من سبعين دعوة فى العلانية . واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكيات .

وعن أبى الدرداء قال : صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فمر بنا كلب ، فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتًا ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال : من الداعى على الكلب آنفًا ؟ قال رجل من القوم : أنا يا رسول الله . قال: لقد دعوت الله باسمه الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى . كيف دعوت الله ؟ قال : قلت اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام . وقيل : إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة فعالجها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صماخه فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن ، فشكا له ما أصابه من الحصاة ، فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمى وهو :

«يا على يا عظيم ياحليم يا عليم». قال الراوى فما برحنا حتى خرجت الحصاة من أذنه ، ولها طنين حتى ضربت الحائط . وعن أنس إذا قال العبد : يا رب يا رب يا رب يقول الله عز وجل لبيك عبدى ، وعنه قال : مَرّ رسول الله ﷺ برجل وهو يقول : يا أرحم الراحمين ، فقال له الرسول ﷺ سل حاجتك . فقد نظر الله إليك .

وروى عن رسول الله ﷺ: أنه قال : « إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر ، فإن الله يستجيب له ». وروى عن على بن أبى زفر عن أخ له وكان فاضلا صالحًا فقال: دعوت الله أن يرينى الاسم الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، فقمت ليلة أصلى فسمعت قعقعة فى سقف البيت، ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهى وإذا مكتوب بالنور فقرأته : يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام .

ومن دعاء الكرب ما روى عن وهب أن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال له : هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب ؟ قال : نعم . اللهم إنى أسألك يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين ، فإن لكل مسألة منك سمعًا حاضرًا وجوابًا عتيدًا، ولكل صامت منك علمًا ناطقًا محيطًا ، أسألك بمواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ، ورحمتك الواسعة أن تفعل بى كذا وكذا ، فقال ابن عباس هذا دعاء علمته فى النوم ما كنت أرى أن أحدًا يحسنه .

وعن وهب أيضًا قال : لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة ، فهبط إليه جبريل وقال : يا آدم ، هل أعلمك شيئًا تنتفع به فى الدنيا والآخرة ؟ قال: بلى . قال: قل : اللهم أتمم النعمة حتى تهنينى المعيشة ، اللهم اختم لى بخير حتى لا تضرنى ذنوبى ، اللهم أكفنى مؤنة الدنيا وكل هول فى القيامة حتى تدخلنى الجنة معافى .

وعن معروف الكرخى قال: اجتمعت اليهود ـ أخزاهم الله ـ على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام بزعمهم ، وأهبط الله تعالى عليه جبريل، وفى باطن جناحيه مكتوب: اللهم باسمك الكبير المتعالى الذى ملأ الأركان كلها ، أن تكشف عنى ضر ما أصبحت وأمسيت فيه ، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن ارفع عبدى إلىَّ ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه عليكم بهذا الدعاء، ولا تستبطئوا الإجابة ، فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إسناد هذا متصل إلى معروف الكرخى ، ثم هو منقطع ، ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف كان كافيًا فى قبوله والعمل به .

حدث عبد الله بن أبان الثقفى ـ رضى الله عنه ـ قال : وجهنى الحجاج بن يوسف فى طلب أنس بن مالك ، فظننت أنه يتوارى عنى ، فأتيته بخيلى ورجلى ، فإذا هو جالس على باب داره مادًا رجليه ، فقلت له : أجب الأمير ، فقال: أى الأمراء ؟ فقلت: أبو محمد الحجاج ، فقال

غير مكترث به : قد أذله الله ما أرانى أعزه لأن العزيز من عز بطاعة الله ، والذليل من ذل بمعصية الله ، وصاحبك قد بغى، وطغى، واعتدى، وخالف كتاب اللهِ والسنة ، والله ليتنقم الله منه ، فقلت له : أقصر عن الكلام، وأجب الأمير ، فقام معنا حتى حضر بين يدى الحجاج، فقال له : أنت أنس بن مالك ؟ قال: نعم قال : أنت الذى تدعو علينا وتسبنا ؟ قال: نعم ، قال: ومم ذاك ؟ قال : لأنك عاص لربك مخالف لسنة نبيك تعز أعداء الله، وتذل أوليائه . فقال له : أتدرى ما أريد أن أفعل بك ؟ قال : لا ، قال : أريد أن أقتلك شر قتلة قال أنس : لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله ، قال الحجاج : ولِمَ ذاك ؟ قال: لأن رسول الله ﷺ علمنى دعاء ، وقال: من دعا به فى كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل ، وقد دعوت به فى صباحى هذا، فقال الحجاج: علمنيه ؟ فقال : معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت فى الحياة . فقال الحجاج : خلو سبيله . فقال الحاجب : أيها الأمير لنا فى طلبه كذا وكذا يومًا حتى أخذناه، فكيف تخلى سبيله ؟ قال : رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين فاهاهما . ثم إن أنسًا ـ رضى الله عنه ـ لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو : بسم الله الرحمن الرحيم. باسم الله خير الأسماء. باسم الله الذى لا يضر مع اسمه أذى ، باسم الله الكافى ، باسم الله المعافى، باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ، باسم الله على نفسى ودينى. باسم الله على أهلى ومالى باسم الله على كل شىء أعطانيه ربى ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر الله ربى لا أشرك به شيئًا ، عَزَّ جارك ، وجَلَّ ثناؤك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك. اللهم إنى أعوذ بك من شر كل جبار عتيد وشيطان مريد ، ومن شر قضاة السوء ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . وهذا دعاء مشهور الإجابة وله شرح طويل وتركناه لطوله وهو : اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك ، وانقاد كل شىء لعظمتك، وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخره كله بيدك لا بيد غيرك، اجعل لى من كل هم وغم أصبحت أو أمسيت فيه فرجًا ومخرجًا ، إنك على كل شىء قدير . اللهم إن عفوك عن ذنوبى ،وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك عن قبيح عملى أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه منك مما قضيته لى أدعوك آمنًا وأسألك مستأنسًا لا خائفًا ولا وجلا لأنك أنت المحسن إلى وأنا المسىء إلى نفسى، فيما بينى وبينك تتودد إلى بالنعم مع غناك عنى ، وأتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك ، فلم أر مولى كريمًا أعطف منك على عبد لئيم مثلى ، لكن الثقة بك حملتنى على الجراة على الذنوب، فأسألك بجودك وكرمك وإحسانك وطولك ، أن تصلى على محمد وآله وأن تفتح لى باب الفرج بطولك ، وتحبس عنى باب الهم بقدرتك ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأعجز ، ولا إلى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين .

وروى الحافظ النسفى بإسناده عن الزهرى ، عن أبى مسلمة ، عن أبى هريرة قال : مر رسول الله ﷺ برجل ساجد يقول فى سجوده : اللهم إنى استغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلى ، فأيما عبد من عبادك أو أمة من إمائك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها إياه فى مال، أو بدن ، أو عرض علمتها أو لم أستطع أن أتحللها ، فأسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت ، ثم تهبها لى من لدنك إنك واسع المغفرة ولديك الخير كله يا رب ما تصنع بعذابى ورحمتك وسعت كل شىء ، فلتسعنى رحمتك ، فإنى لا شىء ، وأسألك يا رب أن تكرمنى برحمتك ولا تهنى يذنوبى وما عليك أن تعطينى الذى سألتك يا رب يا الله ، فقال رسول الله ﷺ : ارفع رأسك فقد غفر الله لك إن هذا دعاء أخى شعيب ـ عليه السلام ـ. وقال صالح المزنى قال لى قائل فى منامى: إذا أحببت أن يستجاب لك ، فقل اللهم إنى أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطيب الطاهر المطهر المقدس ، فما دعوت بها فى شىء إلا تعرفت الإجابة .

وقيل: إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنى أسألك بالعزة التى لا ترام، والملك الذى لا يضام ، والعين التى لا تنام، والنور الذى لا يطفأ، وبالوجهه الذى لا يبلى، وبالديمومة التى لا تفنى، وبالحياة التى لا تموت، وبالصمدية التى لا تقهر، وبالربوبية التى لا تستذل ، أن تجعل لنا فى أمورنا فرجًا ومخرجًا حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين» . وقال سعيد بن المسيب : دخلت المسجد فى ليلة مقمرة وأظن أنى قد أصبحت وإذا الليل على حاله ، فقمت أصلى ، وجلست أدعو وإذا بهاتف يهتف من خلفى يا عبد الله قل: قلت: ما أقول ؟ قال: قل اللهم إنى أسألك بأنك ملك، وأنت على كل شىء قدير ، وما تشاء من أمر يكون . قال سعيد : فما دعوت به قط فى شىء إلا رأيت نجحه .

وعن الشيخ كمال الدين الدميرى قال : روينا عن قاضى القضاة عز الدين بن جماعة قال : أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزارى خطيب دمشق ، أنبأنا الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسى بقراءتى عليه ، قال : أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبى محمد بن الحافظ أبى القاسم على بن الحسين بن هبة الله ابن عساكر قراءة عليه ، وأنا أسمع ، قال : رويت بالإسناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعى الجليل محمد بن سيرين ، قال : نزلنا « بنهر تيرا » ، فأتانا أهل ذلك المنزل فقالوا لنا : ارحلوا فإنه لم ينزل هذا المنزل احد إلا أُخذَ متاعه فرحل أصحابى وتخلفت ، فلما أمسينا قرأت آيات ، فما نمت حتى رأيت أقوامًا قد أقبلوا وجاءوا إلى وجهتى أكثر من ثلاثين نفرًا ، وقد جردوا سيوفهم ، فلم يصلوا إلى، فلما أصبحت رحلت فلقينى شيخ على فرس ومعه قوس عربية، فقال لى : يا هذا إنسى أنت أم جنى ؟ فقلت: بل أنا من بنى آدم، قال: فما بالك لقد أتيناك فى هذه الليلة أكثر من سبعين مرة ؛ وفى كل ذلك يحال بيننا وبينك بسور من حديد ، قلت : حدثنى

ابن عمر - رضى الله تعالى عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال : من قرأ فى ليلة ثلاثًا وثلاثين آية لم يضره فى تلك الليلة لص طار ولا سبع ضار ، وعوفى فى نفسه وأهله وماله حتى يصبح، فنزل عن فرسه وكسر قوسه وأعطى الله تعالى عهدًا أن لا يعود لهذا الأمر ، وهذه الآيات وهى أن تقرأ بعد الفاتحة ، ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ إلى قوله ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وآية الكرسى إلى قوله ﴿ فِيهَا خَالِدُونَ ②٥٧ ﴾[البقرة] . ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ إلى آخر السورة،﴿وان ربكم الله الذى. . . إلى . . . قوله المحسنين﴾ [الرحمن]﴿ وقل ادعوا الله وادعوا ﴾ ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ إلى قوله تعالى﴿ لازب﴾ ، ﴿ ويا معشر الجن والإنس إن استطعتم إلى قوله تعالى فلا تنتصران ﴾ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا ﴾ إلى آخرها ،﴿ وانه تعالى جدر بنا﴾ إلى قوله ﴿شططا﴾ زاد البونى إلى قوله ﴿شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن : ٩] ، ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ [الحشر : ٢٤] إلى قوله ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ ، قال محمد بن سيرين ، فذكرت هذا الحديث لشعيب بن حرب، فقال : كنا نسميها آيات الحرز . ويقال: إن فيها شفاء من مائة داء ، وعدوا منها الجذام وغير ذلك .

قال محمد بن على قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى ذلك الفالج.

قال البونى : هذه الآيات شرفها مشهور ،وفضلها مذكور. لا ينكرها إلا غبى أو غيور ، وقد جربها المشايخ ، وعرف سرها من له فى العلم قدم راسخ وقدر شامخ ، وهى على ما رويناه بل ما رأيناه أولها الفاتحة، ثم أول البقرة إلى آخر الآيات .

وقال أبو العباس أحمد القسطلانى: سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشى يقول : سمعت أبا زيد القرطبى يقول فى بعض الآثار: إن من قال : لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار، فعملت ذلك رجاء بركة الوعد ، ففعلت منها لأهلى، وعملت أعمالا ادخرتها لنفسى، وكان إذ ذاك يبيت معنا شاب يكاشف بالجنة والنار ، وكانت الجماعة ترى له فضلا على صغر سنه، وكان فى قلبى منه شىء ، فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله ، فنحن نتناول الطعام والشراب معًا إذ صاح صيحة منكرة ، واجتمع فى نفسه ، وهو يقول : يا عم هذه أمى فى النار؛ ويصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر ، فلما رأيت ما به من الانزعاج قلت: اليوم أجرب صدقة . فألهمنى الله تعالى السبعين ألفًا ، ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى، فقلت فى نفسى: الأثر حق ،والذين رووه لنا صادقون : اللهم إن هذه السبعين ألفًا فداء أم هذا الشاب من النار ، فما استتمت هذا الخاطر فى نفسى أن قال : يا عم هذه أمى أخرجت من النار ، والحمد لله فحصل عندى فائدتان امتحانى لصدق الأثر، وسلامتى من الشاب، وعلمى بصدقه .

ومن خاف إنسانًا فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبهته على التراب، ويقول : يا

شديد المحال يا عزيز أذللت بعزتك جميع من خلقت . صل على محمد وآله واكفنى فلانًا بما شئت ، كفاه الله تعالى شره .

وروى الثقفى ـ رحمه الله تعالى ـ بإسناده إلى محمد بن على بن الحسين ـ رضى الله تعالى عنهم ـ أنه كان يقول لولده : يا بنى من أصابته مصيبة فى الدنيا ، أو نزلت به نازلة، فليتوضأ، وليحسن الوضوء ، وليصل أربع ركعات أو ركعتين ، فإذا انصرف من صلاته يقول : يا موضع كل شكوى، ويا سامع كل نجوي، ويا شاهد كل بلوى، ويا منجى موسى والمصطفى محمد، والخليل إبراهيم ـ عليهم السلام ـ ، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته ، وضعفت حركته، وقلت حيلته ، دعاء الغريب الغريق الفقير الذى لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، قال على بن الحسين ـ رضى الله عنهما ـ: لا يدعو به مبتلى إلا فرج الله عنه ، وقيل: الاسم الأعظم هو بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنى أسألك يا مؤنس كل وحيد ، يا قريبًا غير بعيد ، يا شاهدًا غير غائب، يا غالبًا غير مغلوب، يا حى يا قيوم ،يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام ، أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذى عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، ووجلت له القلوب أن تصلى على محمد وعلى آله، وأن تعطينى كذا وكذا إنك على كل شىء قدير . **وهذه** أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البونى قيل: إن فيها اسم الله الأعظم وهذه هى :

إنى لأرجو عطفةَ اللهِ ولا ... أقولُ إنْ قيل متى؟ ذاك متى؟
لا بدّ أن يُنشرَ ما كان طوى ... جوادًا وأنْ يُمطِرَ ما كان خَوَى
وربما يَنشرُ ما كان زَوَى ... وربّما قدّرَ ما كان لوى
وكُلُّ شىء ينتهى إلى مدى ... والشىءُ يُرْجى كشفه إذا انتهى
لطائفُ اللهِ وإنْ طال المدى ... كلمحةِ الطرفِ إذا الطرفُ رمى
كم فرجٍ بعد إياسٍ قد أتى ... وكم سرورٍ قد أتى بعد الأسى
مَنْ لاذَ بالله نجا فيمَنْ نجا ... مِنْ كُلِّ ما يَخْشَى ونال ما رجا
سُبْحَانَ مَنْ نَهْفُو ويَعْفُو دائمًا ... ولم يزلْ مهما هَفا العبدُ عَفَا
يُعْطِى الذى يُخْطِى ولا يَمْنَعَهُ ... جَلالُهُ مِنَ الْعَطَا لِذِى الخُطَا

ومن المنظوم أيضًا :

يَا مَنْ يَرى ما فى الضمير ويَسمعُ ... أَنْتَ الْمُعَدُّ لكلِّ ما يُتَوقعُ
يَا مَنْ يُرجَّى للشدائِد كُلِّها ... يَا مَنْ إليه الْمُشْتَكَى والمفزعُ

يَا مَنْ خزَائِنُ رِزْقِه فى قوله : كنْ أمْنُنّ فإنَّ الخيرَ عنْدَك أجمعُ
مَالِى سِوَى فَقْرِى إلَيْك وَسيلةٌ فَبالافتقَار إليك فَقْرى أدفعُ
مَالِى سِوى قَرْعِى لبَابكَ حيلةٌ فَلَئِنْ رُددْتُ فَأىُّ بَاب أقرعُ
ومَنْ ذا الذى أدْعُو وأهتفُ باسْمه إن كان فضلُك عن فَقيرك يُمنعُ
حاشا لجُودكَ أن تُقنّطَ عاصيًا الفضلُ أجزلُ والمواهبُ أوسعُ
ثم الصَلاةُ على النبىِّ وآلِهِ خَيْرِ الأنامِ وَمَنْ به يُتَشفعُ

وقال آخر :

يا خالقَ الخلقِ يا ربَّ العبادِ ومنْ قد قال فى محكم التنزيل ادْعُونى
إنّى دَعوتُكَ مُضطرًا فَخُذْ بيدى يا جاعلَ الأمرِ بين الكاف والنون
نَجَّيْتَ أيوبَ من بلواه حين دعا بصبر أيوبَ يا ذا اللطف نجّينى
واطلقْ سراحىَ وامْنُنْ بالخلاص كما نجّيت من ظلمات البحر ذا النون

ثم يقرأ : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] . قال بعضهم :

يارَبِّ ما زال لُطفٌ منك يشملنُى وقد تجدّد بى ما أنتَ تَعلمُهُ
فاصرِفْه عنى كما عودّتنى كرمًا فَمَن سِواك لهذا العبدِ يَرحمُهُ

وقال آخر:

يا مَنْ تُحلُّ بذكره عقد النّوائب والشّدائدْ
يا مَنْ إليه المشتكى وإليه أمر الخلق عائد
يا حىُّ يا قيومُ يا صمدٌ تَنَّزهَ عن مُضادد
أنتَ الرقيبُ على العبـ ـاد وأنت فى الملكوتِ واحد
أنتَ المعزُّ لِمَنْ أطا عَكَ والمذلُّ لكل جاحدْ
إنى دعوتُك والهمو مُ جُيوشُها نحوى تُطارد
فافرجْ بحولك كُرْبَتِى يا مَنْ له حُسْنُ العوائد
فَخفىُّ لُطفكَ يُستعا نُ به على الزمنِ المعاند
أنتَ الميسِّرُ والمسبِّـ ـبُ والمسهّلُ والمساعدْ
يَسّرْ لنا فرجًا قريـ ـبًا يا إلهى لا تُباعِد

كُنْ راحمى . فلقد يَئِسْـ ـتُ من الأقاربِ والأباعِد
ثم الصلاةُ على النبىِّ وآله الغُرِّ الأماجد
وعلى الصحابةِ كُلِّهم ما خَرَّ للرحمن سَاجِدِ

دعاء عظيم مأثور

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس أنت رب المستضعفين، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بغيض ،يتجهمنى أو إلى قوى ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بى غضبك، أو ينزل بى سخطك، فلك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يا رب العالمين.

ومما جاء فى أدعية الناس بعضهم لبعض

دعا رجل لآخر فقال : سرك الله بما ساءك، ولا ساءك فيما سرك . ودعا رجل لآخر فقال: لا أخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق، ودعاء صالح واق . ودعا أعرابى لآخر فقال : رحب واديك وعز ناديك ، ولا ألم بك، ولا طاف بك عدم ، وسلمك الله ولا أسلمك . وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول : سلمك الله تعالى من الرهق والوهق ، وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل ، وسلمك الله ، من الشاردات والواردات ، وسلمك الله بين الأعنة والأسنة.

ودعا أعرابى لعبد الله بن جعفر ـ رضى الله عنه ـ فقال : لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار ، وتناسخت الظلم والأنوار ، ودعا بعضهم لآخر فقال : زودك الله تعالى الأمن فى مسيرك، والسعد فى مصيرك ، ولا أخلاك من شهر تستجده ،وخير من الله تستمده ، وعزى شبيب بن شبة يهوديًا . فقال : أعطاك الله على مصيبتك ما أعطى أحدًا من أهل ملتك.

ومما جاء فى الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم : دعا أعرابى على ظالم فقال : لا ترك الله لك شفرًا ولا ظفرًا ، أى عينا ولا يدا . ومن دعاء العرب : « فتّه الله فتًا ، وحته حتًا، وجعل أمره شتى » . وخرج أعرابى إلى سفر وكانت له امرأة تكرهه ؛ فأتبعته نواة ،وقالت : شط نواك ونأى سفرك ، ثم أتبعته روثة، وقالت : رثتك أهلك وورث خيرك ، ثم أتبعته حصاة، وقالت : حاص رزقك وحص أثرك . ودعا أعرابى على آخر فقال : أطفأ الله ناره ، وخلع نعليه، أى جعله أعمى مقعدِا . ودعا أعرابى على آخر فقال : سقاه الله دم جوفه أى قتل

ابنه ، وأخذ ديته، فشرب لبنها . ودعا أعرابى على آخر فقال : بعث الله عليه سنة قاشورة تحلقه كلما يحلق الشعر بالنورة ، ودعا رجل على أمير فقال :

أزال اللهُ دولتَه سريعًا فقد ثقلتْ على عُنُقُ الليالى

وقالت امرأة من بنى ضبة فى زوجها :

وما دعوتُ عليه حين أَلْعَنُهُ إلا وآخرُ يتلوه بآمين
فليتَه كان أرضُ الروم منزلَهُ وليتنى قَبْلَه قد صِرْتُ للصين

وقال رسول الله ﷺ فى خطبته يوم الأحزاب : « اللهم كِلَّ سلاحهم، واضرب وجوههم، ومزقهم فى البلاد تمزيق الريح للجراد » . ودعا رجل ، فقال : اللهم اكفنا أعداءنا ومن أرادنا بسوء ، فَلْتُحِطْ به ذلك السوء إحاطة القلائد بترائب الولائد ، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو : اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك، وغرقتنا فى بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك ، إلهى إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عملت . وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت ، والعجز شامل، والحصر حاصر، والتسليم أسلم، وأنت بالحال أعلم ، إلهى ما عصيتك جهلا بعقابك لا تعرضنا لعذابك ، ولكن سولتها نفوسنا، وأعانتنا شقوتنا ،وغرنا سترك علينا ،وأطمعنا فى عفوك برك بنا ، فالآن من عذابك من ينقذنا ؟ وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا ؟ واخجلتاه غدا من الوقوف بين يديك ، وافضيحتاه إن عرضت فعالنا القبيحة عليك ، اللهم اغفر ما علمت ولا تهتك ما سترت . إلهى إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل حيث علمنا أن لنا ربا يغفر لنا ولا يبالى ، إلهى تحرق بالنار وجها كان لك مصليا ،ولسانا كان لك ذاكرا وداعيا ، لا بالذى دلنا عليك، وأمرنا بالخشوع بين يديك وهو محمد ﷺ خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك ، فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك ، كما أن منزلته لديك أشرف المنازل ، سيد خلقك، ومعدن أسرارك ، صل يا رب على محمد وآله وأصحابه، وارحم عبادا غرّهم طول إمهالك ، وأطمعهم كثرة أفضالك، فقد ذلوا لعزك وجلالك، ومدوا أكفهم لطلب نوالك ، ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك ، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن والسبعون

فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجرى فى العالم من حركة وسكون، وخير وشر، ونفع وضر ، وإيمانا وكفر، وطاعة ومعصية ، فكل بقضاء الله وقدره ، وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه ، ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته ، كما لا يجرى شىء من ذلك إلا وقد سبق علمه به . واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره ، فهو كائن لا محالة كما أن ما فى علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب ، وما قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب ، والطلب أيضا من القدر، فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن اتفق شىء فبتيسيره ، فمن رام أمرا من الأمور ليس الطريق فى تحصيله أنه يغلق بابه عليه ، ويفوض أمره لربه ، وينتظر حصول ذلك الأمر ، بل الطريق أن يشرع فى طلبه على الوجه الذى شرعه له فيه .

وقد ظاهر النبى ﷺ بين درعين ، واتخذ خندقا حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدو، وأقام الرماة يوم أُحُد ليحفظوه من خالد بن الوليد ، وكان يلبس لأمة الحرب ويهيئ الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم ، واسترقى وأمر بالرقية ، وتداوى وأمر بالمداواة ، وقال : « الذى أنزل الداء أنزل الدواء » ، فإن قيل : قد روى أن النبى ﷺ قال: «من استرقى، أو اكتوى، فهو برىء من التوكل » ، قلنا : أليس قد قال : اعقلها وتوكل؟ . فإن قيل : فما الجمع بين ذلك ؟ قلنا: معناه من استرقى أو اكتوى متكلا على الرقية أو الكى ، وأن البرئ من قبلهما خاصة ، فهذا يخرجه عن التوكل ، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله . وقد أمرنا بالكسب والتسبب . ألا ترى أن الله قال لمريم ـ عليها السلام ـ:﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم : ٢٥] فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها . وأنشدوا فى ذلك :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قال لمريمَ ... وهزّى إليك الجذعَ يُساقِط الرُّطَبُ
وَلَوْشَاءَ أَنْ تَجنِيه من غيرِ هزِّها ... جَنَته ولكنْ كلُّ شىءٍ له سببُ

وقد تقدم هذا الشعر فى باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله ﷺ :« لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يزرق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »(١) ، فلم يحمل أرزاقها إليها فى أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح . وقد جمعوا بين الطلب والقدر، فقالوا : إنهما كالعدلَيْن(٢) على ظهر الدابة ، إن حمل فى واحد منهما أرجح مما فى الآخر سقط حمله، وتعب

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٤) .

(٢) العدلين : مثنى العدل : المثل والنظير . نصف الحِمْل يكون على أحد جنبى البعير.

ظهره، وثقل عليه سفره ، وإن عادل بينهما سلم ظهره، ونجح سفره، وتمت بغيته .

وضربوا فيه مثالا عجيبا ، فقالوا : إن أعمى ومقعدا كانا فى قرية بفقر وضُرٍّ لا قائد للأعمى، ولا حامل للمقعد ، وكان فى القرية رجل يطعمهما قوتهما فى كل يوم احتسابا لله تعالى ، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل، فلبثا أياما، واشتد جوعهما وبلغ الضُّرُّ منهما جهده ، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد، فيدله المقعد على الطريق ببصره، فاشتغل الأعمى بحمل المقعد، ويدور به، ويرشده إلى الطريق، وأهل القرية يتصدقون عليهما ، فنجح أمرهما ؛ ولولا ذلك لهلكا .

فكذلك القدر سببه الطلب ،والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه ، الاترى أن من طلب الرزق والولد، ثم قعد فى بيته لم يطأ زوجته، ولم يبذر أرضه معتمداً فى ذلك على الله واثقا به أن تلد امرأته من غير مواقعه ، وأن ينبت الزرع من غير بذر ، كان عن المعقول خارجا، ولأمر الله كارها ؟ .

قال الغزالى: أما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم، وتسكينا لقلوبهم؛ وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة ، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا ، وقال : أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا . وقال عبد الله بن الفرج : اطلعت على إبراهيم بن أدهم ، وهو فى بستان بالشام فوجدته مستلقيا على قفاه ، وإذا بحية فى فمها باقة نَرْجِس ، فما زالت تذب عنه حتى انتبه . فحسبك توكل يؤدى إلى هذا .

وعن عبد الله الهروى قال : كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبى قبيس فقال : لو أن رجلا صدق فى توكله على الله، ثم قال لهذا الجبل: اهتز لاهتز ، فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك ، فقال له الفضيل ـ رحمه الله تعالى ـ: لَمْ أَعْنِكَ(١) ـ رحمك الله فسكن .

وفى الإسرائيليات :أن رجلا احتاج إلى أن يقترض ألف دينار ، فجاء إلى رجل من المتمولين فسأله فى ذلك وقال له : تمهل على بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلانى فإن لى مالا آتيك به، وأوفيك منه ، وتكون مدة الأجل بينى وبينك كذا وكذا ، فقال له : هذا غرر ، فأنا ما أعطيك مالى إلا أن تجعل لى كفيلا إن لم تحضر طلبته منه . فقال الرجل : الله كفيل بمالك، وشاهد على أن لا أغفل عن وفائك ، فإن رضيت فافعل ، فداخل الرجل خشية الله تعالى ، وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذى ذكر ، فلما قرب الأجل الذى بينه وبين صاحبه جهز المال وقصد السفر فى البحر، فعسر عليه وجود مركب ، ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركبا ، فاغْتَمَّ(٢) لذلك ، وأخذ الألف دينار وجعلها فى خشبة، وسمر عليها

(١) أَعْنِكَ : اقصدك .

(٢) اغتم : حزن.

ثم قال : اللهم إنى جعلتك كفيلا بإيصال هذه إلى صاحبها ، وقد تعذر على وجود مركب وعزمت على طرحها فى البحر وتوكلت عليك فى إيصالها إليه ، ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال ، وطرحها فى البحر بيده وأقام فى البلد مدة بعد ذلك، إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال ، فابتداه وقال : أنت سيرت الألف دينار فى خشبة صفتها كيت وكيت ، وعليها منقوش كذا وكذا ؟ قال : نعم ، قال : قد أوصلها الله تعالى إلىَّ ، والله نعم الكفيل ، فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال : لما مضى الأجل المقدر بينى وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرنى عنك ، فوقفت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إلى ولم أرَ لَهَا طالبا ، فأخذها الغلام ليجعلها حطبا ، فلما كسرها وجد ما فيها، فأخبرنى بذلك ، فقرأت ما عليها ، فعلمت أن الله تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل .

وقيل : إن سبب بداية **ذى النون المصرى** ـ رحمه الله تعالى ـ أنه رأى طيرا أعمى بعيدا عن الماء والمرعى، فبينما هو يتفكر فى أمر ذلك الطائر ، فإذا هو بسكرجتين [١] برزتا من الأرض إحداهما: ذهب، والأخرى: فضة ، هذه فيها: ماء، والأخرى فيها: قمح ، فلقط القمح، وشرب الماء . ثم غابا بعد ذلك فذهل ذو النون ، وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت .

وحكى: أن رجلا من أبناء الناس كانت له يد فى صناعة الصياغة ، وكان أوحد أهل زمانه، فساء حاله وافتقر بعد غناء ، فكره الإقامة فى بلده ، فانتقل إلى بلد آخر ، فسأل عن سوق الصاغة ، فوجد دكانا لمعلم السلطنة، وتحت يده صناع كثيرون يعملون الأشغال للسلطنة ، وله سعادة ظاهرة مابين مماليك وخدم وقماش وغير ذلك ، فتوصل الصائغ الغريب إلى أن بقى من أحد الصناع الذين فى دكان هذا المعلم، وأقام يعمل عنده مدة ، وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة ، وتكون أجرة عمله تساوى عشرة دراهم ، فيكسب عليه ثمانية دراهم فى كل يوم ، فاتفق أن الملك طلب المعلم وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص فى غاية من الحسن قد عملت فى غير بلاده ،كانت فى إحدى يد محاظية ، فانكسرت ، فقال له : الحمها ، فأخذها المعلم ، وقد اضطرب عليه فى عملها ، فلما أخذها وأراها للصناع الذين عنده وعند غيره فما قال له أحد إنه يقدر على عملها ، فازداد المعلم لذلك غما ، ومضت مدة وهى عنده لا يعلم ما يصنع ، فاشتد الملك على إحضارها ، وقال : هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة ولا يحسن أن يلحم سوارا ، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال فى نفسه : هذا وقت المروءة أعملها ولا أؤاخذه ببخله على، وعدم إنصافه، ولعله يحسن إلى بعد ذلك ، فحط يده فى درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ،ثم صاغها كما كانت ، ونظم عليها جواهرها ،

(١) السكرجة : الصحفة التى يوضع فيها الأكل (فارسية).

فعادت أحسن مما كانت ، فلما رآها المعلم فرح فرحا شديدا ، ثم مضى بها إلى الملك ، فلما رآها استحسنها، وادعى المعلم أنها صنعته ، فأحسن إليه وخلع عليه خلعة سنية ، فجاء وجلس مكانه، فبقى الصائغ يرجو مكافأته عما عامله به . فما التفت إليه المعلم ، ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئا ، فما مضت إلا أيام قلائل ،وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة ، فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج، إليه وأكد عليه فى تحسين الصنعة، وسرعة العمل ، فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك ، فامتثل مرسومه، ولم يزل منتصبا إلى أن عمل الزوجين ، وهو لا يزيده شيئا على الدرهمين فى كل يوم، ولا يشكره، ولا يَعِدُهُ بخير ولا يتجمل معه ، فرأى المصلحة أن ينقش على زوج الأساور أبياتا يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك ، فنقش فى باطن أحدهما هذه الأبيات نقشا خفيفا يقول :

مَصائبُ الدهرِ كُفّى إنْ لَمْ تكُفّىِّ فعفّى
خرجتُ اطلبُ رِزْقِى وَجَدْتُ رِزْقِى تُوُفِّى
فَلا بِرِزْقِىَ أَحْظَى وَلا بصنعةِ كَفّى
كَمْ جاهلٍ فى الثُرَيَّا وَعَالِـــــــمٍ مُتَخَفِّـــــــى

قال : وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم شرح له ما عنده، وإن غم عليه ولم يَرَها كان ذلك سبب توصله إلى الملك ، ثم لفهما فى قطن وناولها للمعلم فرأى ظاهرهما، ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة ، ولِمَا سبق له فى القضاء ، فأخذها المعلم ومضى بهما فرحا إلى الملك، وقدمهما إليه ، فلم يشك الملك فى أنهما صنعته ، فخلع عليه وشكره ، ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع ، وما زاده فى آخر النهار شيئا على الدرهمين ، فلما كان اليوم الثانى خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التى عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما فى يديها، فأخذهما ليعيد نظره فيهما وفى حسن صنعتهما ، فقرأ الأبيات ، فتعجب، وقال : هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب ، فغضب عند ذلك ، وأمر بإحضار المعلم ، فلما حضر قال له : من عمل هذين السوارين ؟ قال : أنا أيها الملك ، قال : فما سبب نقش هذه الأبيات؟ قال: لم يكن عليهما أبيات . قال : كذبت . ثم أراه النقش . وقال : إن لم تصدقنى الحق لأضربن عنقك ، فأصدقه الحق . فأمر الملك بإحضار الصانع ، فلما حضر سأله عن حاله ، فحكى له قصته ، وما جرى له مع المعلم ، فرسم الملك بعزل المعلم، وأن تسلب نعمته، وتعطى للصانع ، وأن يكون عوضا عنه فى الخدمة، ثم خلع عليه خلعة سنية ، وصار مقدما سعيدا ، فلما نال هذه الدرجة . وتمكن عند الملك تلطف به حتى رضى عن المعلم الأول، وصارا شريكين ومكثا على ذلك إلى آخر العمر . ورحم الله من قال :

إذا كان سعدُ المرئ فى الدهر مُقْبِلا تدانَتْ له الأشياءُ مِنْ كُلِّ جانبِ

وقال آخر :

ما سلَّمَ اللهُ هو السالِمُ ليس كما يزعمُ الزّاعمُ
تجرى المقاديرُ التى قُدّرَتْ وأنفُ مَنْ لا يَرْتَضِى راغمُ

وقال كعب بن زهير :

لو كنتُ أعجبُ من شيء لأعجبنى سعىُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدرُ
يسعى الفتى لأمور ليس يُدركُها والنفسُ واحدةٌ والهَمُّ مُنتشرُ
والمرؤُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا ينتهى ذاك حتى ينتهى العمرُ

وروى فى الإسرائيليات: أن نبيا من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مرّ بفخ منصوب وإذا بطائر قريب منه . فقال له الطائر : يا نبى الله : هل رأيت أقل عقلا ممن نصب هذا الفخ ليصيدنى به وأنا أنظر إليه ؟ قال : فذهب عنه ذلك النبى ـ عليه السلام ،ثم رجع، وإذا بالطائر فى الفخ، فقال له: عجبا لك ألست القائل كذا وكذا آنفا ؟ فقال : يا نبى الله إذا جاء الحين(١) لم يبق أذن ولا عين .

ويروى أن رجلا قال لبزرجمهر: تعال نتناظر فى القدر . قال : وما تصنع بالمناظرة؟ قال : رأيت شيئا ظاهرا استدللت به على الباطن ، رأيت جاهلا مبرورا، وعالما محروما ، فعلمت أن التدبير ليس للعباد . ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب : أنت أدهى الناس وأعلمهم ، فكيف طرحت نفسك فى يد سليمان ؟ فقال: إن الهدهد ينظر إلى الماء فى الأرض على ألف قامة، ويبصر القريب منه والبعيد على بعد فى التخوم (٢)، ثم ينصب له الصبى الفخ بالدودة أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه، وأنشدوا فى ذلك :

وإذا خَشِيتَ من الأمور مُقدَّرًا وفررتُ منه فنحوه تتوجَّهُ

وقال آخر :

أقام على المسير وقد أنيختْ مطايـــاه وغـــرّد حادياهـــا
وقال : أخاف عاديةَ الليالى على نفسى وأنْ ألقى ردَاها
مَشيْناها خُطًا كُتبَتْ علينا ومَنْ كُتبَتْ عليه خطًا مُشَاها
ومَنْ كانت منيّتُه بأرضٍ فليس يموتُ فى أرْضٍ سِوَاها

(١) الحين : الهلاك .
(٢) التخوم : الحدود الفاصلة بين أرضين.

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد فى منطقته كتاب فيه : إذا كان القضاء حقا فالحرص باطل . وإذا كان الغدر فى الناس طباعا فالثقة بكل أحد عجز . وإذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة إلى الدنيا حمق .

وقال ابن عباس، وجعفر بن محمد ـ رضى الله تعالى عنهم ـ فى قوله تعالى :﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ [الكهف : ٨٢] . إنما كان الكنز لوحا من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن ؟، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب؟ ، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح؟ ، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل؟ ، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ ، لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وحكى الطرطوشى ـ رحمه الله تعالى ـ فى كتابه « سراج الملوك » قال : من عجيب ما اتفق بالإسكندرية أن رجلا من خدم نائب الإسكندرية غاب عن خدمته أياما ، ففى بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب، فانفلت فى بعض الطرق وترامى فى بئر، والمدينة إذ ذاك مُسَرْدَبَة بسرداب يمشى الماشى فيه قائماً ، فما زال الرجل يمشى إلى أن لاحت له بئر مضيئة، فطلع منها فإذا البئر فى دار النائب ، فلما طلع أمسكه النائب وأدبه ، فكان فيه المثل السائر : الفار من القضاء الغالب كالمتقلب فى يد الطالب . وأنشدوا فيه :

قالـــوا تُقِيمُ وقـــد أحاط بك العـــدوُّ ولا تَفِرُّ
لا نلتُ خيرًا إنْ بقيـ ـتُ ولا عَدَانى الدهرُ شر
إن كنـــتُ أعلمُ أن غيرَ الله ينفعُ أو يضرْ

الباب التاسع والسبعون

فى التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة . وأمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور : ٣١] . ووعد بالقبول فقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى : ٢٥] . وفتح باب الرجاء فقال :﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

روى فى الصحيح عن ابن عمر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإنى أتوب إلى الله تعالى فى اليوم مائة مرة » .

وروى أحمد بن عبد الرحمن السلمانى قال : اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم» فقال الثانى : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول: «إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم » فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول:« إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحوة » أو قال بضجعة ، فقال الرابع : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » .

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال :« الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته ، فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال : أرجع إلى المكان الذى ضللتها فيه وأموت ، فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه . فالله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده ». وعن أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة (رواه البخارى) وعن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها (رواه مسلم) وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن نبى الله ﷺ قال : « كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فسأل عن أعبد أهل الأرض فَدُلَّ على راهب فأتاه فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ قال : لا ، فقتله وكمل به المائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالم

فأتاه وقال له: إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم . ومَنْ يَحُلْ بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة: وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمه جاء تائبًا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرًا قط . فأتاهم ملك فى صورة آدمى فحكموه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو أقرب لها ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة « متفق عليه وفى الصحيحين : « فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشبر فجعل من أهلها ».

وعن أبى نُجَيدْ بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعى ـ رضى الله عنه ـ ، أن امرأة من جُهَيْنة أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت : يا رسول الله أصبت حدًا فأقمه على ، فدعا نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال عمر: يا رسول الله تصلى عليها وقد زنت ؟ قال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل ممن جادت بنفسها لله عز وجل ؟ (رواه مسلم).

وعن أبى نضرة قال : لقيت مولى لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فقلت له : سمعت من أبى بكر شيئًا ، قال : نعم، سمعته يقول : قال رسول الله ﷺ : « ما أضر من استغفر ولو عاد إلى الذنب فى اليوم سبعين مرة.

حكى : أن نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أتته امرأة حسناء تشترى تمرًا ، فقال لها : هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه ، فذهب بها إلى بيته ،وضمها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له : اتق الله ، فتركها وندم على ذلك ، فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً**﴾ [آل عمران : ١٣٥] إلى آخر الآية .

وعن أسماء بن الحكم الفزارى قال :سمعت عليًا يقول: إنى كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله حديثًا ينفعنى الله منه بما شاء أن ينفعنى ، وإذا حدثنى أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لى صدقته ، وإنه حدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول : « ما من عبد يذنب ذنبًا فيحسن الطهور ويصلى ثم يستغفر الله إلا غفر له ».

وروى فى الصحيح أيضًا عن أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أذنب العبد ذنبًا فقال: يا رب أذنبت ذنبًا فاغفره لى ، قال الله عز وجل : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له . ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنبًا آخر، فقال : يا رب أذنبت ذنبًا فاغفره لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى فليفعل ما شاء ». وكان قتادة ـ رضى الله تعالى عنه ـ يقول : القرآن يدلكم

على دائكم ودوائكم ، أما دواؤكم فالاستغفار ، وأما داؤكم فالذنوب ، وكان على ـ رضى الله تعالى عنه ـ يقول: العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة ، قيل : وما هى ؟ قال : الاستغفار . وقال رسول الله ﷺ : « من قال عشرًا حين يصبح وحين يمسى : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ،وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب ، غُفِرَتْ ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج . ومن قال: سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءًا فاغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، غُفِرَتْ ذنوبه ولو كانت مثل دبيب النمل» .

وقال أبو عبد الله الوراق : لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر، وزبد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار ، وهو هذا : اللهم إنى أسألك وأستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك من كل ما وعدتك من نفسى ثم لم أوف لك به ، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك ، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستعنت بها على معصيتك ، يقول الله عز وجل لملائكته : وَيْحَ ابْنُ آدَمَ يُذْنِبَ الذَّنْبَ ثُمَ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرُ لَهُ ، ثُمَّ يُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرُ لَهُ لا هُوَ يَتْرُكَ الذَّنْبَ مِنْ مُخَافَتِى وَلا يَيْأَسْ مِنْ مَغْفِرَتِى، أَشْهِدُكُمْ يَا مَلائِكَتِى أَنِّى قَدْ غَفَرْتُ لَهُ .

وقال بشر الحافى: بلغنى أنّ العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين ترفقوا عليه سبع ساعات، فإن استغفرنى فلا تكتبوها وإن لم يستغفرنى فاكتبوها.

نكتة . . قيل : انقطع الغيث عن بنى إسرائيل فى زمن موسى ـ عليه السلام ـ حتى احترق النبات وهلك الحيوان، فخرج موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى بنى إسرائيل ، وكانوا سبعين رجلا من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى ، قد بسطوا أيدى صدقهم وخضوعهم وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجرى على خدودهم ثلاثة أيام ، فلم يمطر لهم ، فقال موسى اللهم أنت القائل : ادعونى أستجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى إن فيهم من غذاؤه حرام وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبى ، وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب ؟ فقال موسى : ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا؟ فقال الله تعالى : يا موسى لست بهتاك ولا نمام . ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم أن يتوبوا معكم فأجود بإنعامى عليكم ، فنادى منادى موسى فى بنى إسرائيل أن اجتمعوا فأعلمهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما أوحى إليه، والعصاة يسمعون ، فذرفت أعينهم ورفعوا مع بنى إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل ، وقالوا : إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين ، ورجعا إلى بابك طالبين فارحمنا يا أرحم الراحمين ، فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى ، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين .

أوحى الله إلى داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ: يا داود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم، ورفقى بهم ،وشوقى إلى ترك معاصيهم؟ ، لماتوا شوقًا إلى، وتقطعت أوصالهم من محبتى ، يا داود هذه إرادتى فى المدبرين عنى فكيف إرادتى بالمقبلين على؟ ، ولقد أحسن من قال:

أُسِيءُ فَيَجْزِى بالإساءة إفْضَالا وأَعْصى فَيُولِينِى بِرًا وَإِمْهَالا
فحتى متى أجفوه وهو يَبرُّنى وأَبْعدُ عنه وهو يُبْدلُ إيصالا
وكم مرةٍ قد زُغتُ عن نَهْجِ طاعةٍ ولا حال عن سَتْرِ القبيحِ ولاَ زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى فى هذا الباب ، والله أعلم بالصواب .

الباب الثمانون

فيما جاء فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء ، وما جاء فى السنة من العيادة وما أشبه ذلك . وفيه فصول:

الفصل الأول

فى الأمراض والعلل وما جاء فى ذلك من الأجر والثواب

روى عن عبد الله بن أنيس ـ رضى الله تعالى عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال : « أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم؟ فقالوا : كلنا يا رسول اللّه ، قال : أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوالة؟ ، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات؟؛ والذى بعثنى بالحق نبيًا إن الرجل لتكونن له الدرجة فى الجنة فلا يبلغها بشىء من عمله، فيبتليه اللّه تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله » (١) ، وقال ﷺ : « ما من مسلم يمرض إلا حط الله من خطاياه كما تحط الشجرة ورقها » ، وكان يقول : «لا تزال الأوصاب(٢) والمصائب بالعبد حتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة ».

وقيل : إن الناس قد حُمّوا فى فتح خيبر ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس إن الحمى رائد الموت ، وسجن اللّه فى الأرض ، وقطعة من النار ، فإذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء فى الشنان (٣) ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء ، ففعلوا ذلك فزالت عنهم ».

وعن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : دخل رسول اللّه ﷺ على شاب وهو فى الموت فقال له كيف تجدك؟ فقال: أرجو اللّه وأخاف ذنوبى ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « هما لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه اللّه ما يرجو وآمنه مما يخاف » (٤) .

وعن عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة ـ رحمها اللّه تعالى ـ ، أنها سمعت رجلا يقول: ما أشد العمى على من كان بصيرًا ، فقالت له : يا عبد اللّه عمى القلب عن اللّه أشد من عمى العين عن الدنيا . واللّه لوددت أن اللّه وهب لى كنه معرفته ولم يبق منى جارحة إلا أخذها .

وكتب مبارك لأخيه سفيان الثورى يشكو إليه ذهاب بصره ، فكتب إليه : أما بعد . . فقد

---

(١) ضعيف رواه الأصفهاني فى « الترغيب والترهيب » (٥٥٥) والبيهقى فى « الشعب » (٩٨٥٦) وفى سنده محمد بن أبى حميد الزرقى وهو ضعيف كما فى « التقريب » (٢ / ١٥٦) .

(٢) الأوصاب : جمع وصب : المرض . والمصائب : جمع مصيبة : كل مكروه يحل بالإنسان .

(٣) الشنان : القربة يكون الماء فيها أبرد من غيرها .

(٤) حسن رواه الترمذى فى الدعوات (٢٥٤٠) وانظر الصحيحة (١٢٧) .

فهمت كتابك فيه شكاية ربك ، فاذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام.

وقيل لعطاء فى مرضه : ما تشتهى ؟ قال : ما ترك خوف جهنم فى قلبى موضعًا للشهوة .

وأصاب ابن أدهم بطن فتوضأ فى ليلة سبعين مرة . وقيل لأعرابى فى مرضه : ما تشتهى ؟ قال: الجنة ، فقيل : أفلا ندعوا لك طبيبًا ؟ قال: طبيبى هو الذى أمرضنى .

الفصل الثانى
فى ذكر العلل: كالبخر والعرج والعمى والصمم والرمد والفالج وغير ذلك. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة فى الدنيا والآخرة

قيل : تسارر أبخر وأصم ، فقال له الأصم : قد فهمت ثم فارقه . فسأله رجل فقال : واللّه لا أدرى غير أنه فسا فى أذني . وقيل : إن عبد الملك بن مروان كان أبخرًا فعض يومًا على تفاحة ورمى بها إلى زوجته ، فدعت بسكين فقال :ما تصنعين بها ؟ قالت : أميط الأذى عنها . فشق عليه ذلك منها فطلقها . وسارر أبو الأسود الدؤلى سليمان بن عبد الملك وكان أبو الأسود أبخر فستر سليمان أنفه بكمه فعبر أبو الأسود وهو يقول : لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر . وقيل : طول انطباق الفم يورث البخر ، وكل رطب الفم سائل اللعاب سالم منه. وقيل : إن الزنج أطيب الناس أفواهًا ، والسباع موصوفة بالبخر ، والمثل مضروب بالأسد ، والصقر . . فى البخر ، والكلب من بينهما طيب الفم ، وليس فى البهائم أطيب أفواهًا من الظباء .

وحكى : أن أبخر تزوج بامرأة . فلما ضاجعها عافته ، وتولت عنه بوجهها . ثم أنشدت تقول :

يا حِبُّ والرحمنِ إنّ فاكا أهلكنى فولنى قفاكا
إذا غدوتَ فاتخذ مِسْواكا من عُرُفُطٍ إنْ لم تجدْ أراكا
لا تقربنى بالذى سوّاكا إنّى أراك ماضغًا خرَاكا

وفى ديوان المنثور :كم من ذى عَرَجٍ فى دَرَجِ المعالى عَرَجَ ، وكم من صحيح قَدَمٍ ليس له فى الخير قدم . وقيل : إن من الصم من يسمع السّر فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه . ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب ، ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشى . وقيل : إن طريفًا الشاعر مدح عمرو بن هدَّاب ، وكان أبرص فلما انتهى إلى قوله : أبرص فياض اليدين

مهذب. صاح به الناس وقالوا : قطع اللّه لسانك ، فقال عمرو : مَهْ إن البرص مما تتفاخر به العرب أما سمعتم قول سهل حيث قال :

أَيشْتُمِنى زيدُ بأنْ كُنْتُ أبرصًا وكلٌّ كريمٍ لا أَبَا لَكَ أبرصُ

وقال :

كفى حزنًا أنّى أعاشرُ معْشرًا يخـ وضون في بعض الحديث وأمسك
وما ذاك من عىّ ولا من جهالة ولكنه ما فى للصوت مسلك
فإن سد منى السمع فالله قادرٌ على فتحه والله للعبد أملك

ومما جاء فى العمى : ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : من عدم إحدى كريمتيه ضمنت له على الله الجنة . وكان أبو عبد الرحمن بن الحرث بن هشام يطعم الطعام ، وكان أعور ، فجعل أعرابى يطيل النظر إليه حابسًا نفسه عن طعامه ، فكلمه المغيرة فى ذلك فقال : واللّه إنى ليعجبنى طعامك وتريبنى عينك ، قال : فما يريبك من عينى ؟ قال : أعور وأراك تطعم الطعام وهذه صفة الدجال . فقيل له : إن عينه أصيبت فى فتح الروم فقال : إن الدجال لا تصاب عينه فى سبيل اللّه . وعن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال : من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار . وقال على ـ كرَّم اللّه وجهه ـ : ربما أخطأ البصر قصده وأصاب الأعمى رشده ، وقال أبو على النصير ـ :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
لقد يستضىء القوم بى فى وجوههم ويخبو ضياء العين والقلب ثاقب

وقال :

إذا عدمت طلابة العلم ما لها من العلم إلا ما تسطّر فى الكتب
غدوت بتشمير وجدّ عليهم ومحبرتى سمعى وها دفترى قلبى

وقال :

إن يأخذ الله من عينى نورهما ففى لسانى وسمعى منهما نورُ
فَهْمِى ذكىٌ وقلبى غير ذى غفل وفى فمى صارمٌ كالسيف مشهورُ

وقال :

عزاءَكِ أيها العينُ السكوبُ وحقُّكِ أنها نُوَبٌ تَنُوبُ
وكنتِ كريمتى وسراجِ وَجْهى وكانتَ لى بك الدنيا تطيبُ
على الدنيا السلام فما لشيخ ضريرِ العين فى الدنيا نصيب
يموتُ المرؤُ وهو يُعَدَّ حيًا ويخلف ظنه الأمل الكذوب
إذا ما مات بعضك فابكِ بعضًا فإنّ البعض من بعضٍ قريب

وحكى . . . أن ربيعة رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول :

عيْنَا ربيعةَ رَمْدَاوَان فاحتَسِبِي بنظرة منك تشفيه من الرمد
إن تكتحل بك عيناه فلا رمدٌ على ربيعة يخشى آخر الأمد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبى ﷺ أنه قال : «داء الأنبياء الفالج » واللقوة .

قال الجاحظ : ومن المفاليج سيدنا إدريس - عليه الصلاة والسلام - ، وأكثر ما يعترى المتوسطين من الناس لأن الشاب كثير الحرارة والشيخ كثير اليبس . وقيل: إن أبان بن عثمان كان أفلج حتى صار مثلا ، فكانت الناس تقول : لا رماك اللّه بفالج ابن عثمان ، وكان معاوية ألوق ، وعبد الملك بن مروان أبخر ، وحسان أعمى ، وابن سيرين أصم ، وممن فلج ابن أبى دؤاد قاضى قضاة المعتصم كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة . قد ضرب المثل بفالجه .

قال الشاعر فى رجل ضرب غلامه:

أتضربُ مثلَهُ بالسّوط عشرًا ضُرِبْتَ بفالجِ ابن أبى دؤاد

وشجة عبد الحميد كانت مثلا فى الحسن ،وهو عبد الحميد بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنهم -، وكان بارعًا فى الحسن والجمال فزادته حسنًا إلى حسنه حتى أن النساء كن يخططن فى وجوههن شجة عبد الحميد ، وكان يقال لعمر بن عبد العزيز : أشج بنى أمية، وكان عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - يقول : إن من ولدى رجلا بوجهه أثر فى جبهته، قال أصبغ : اللّه أكبر هذا أشج بنى أمية يملأ الأرض عدلا . وقال أعور لأبى الأسود: ما الشىء ونصف الشىء ولا شىء ؟. فقال : أما الشىء فالبصير كأنا ، وأما لا شىء فالأعمى ، وأما نصف الشىء فأنت يا أعور .

اللهم اكفنا شر العاهات برحمتك ومنك وكرمك آمين.

الفصل الثالث
فى التداوى من الأمراض والطب

قال رسول اللّه ﷺ : « تداووا فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء » . وقال ﷺ : « ما أنزل الله داء إلا ولـه دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله » . وسُئِلَ رسول اللّه ﷺ عن الدواء والرقى هـل يردان شيئًا من قضاء اللّه تعالى ؟ قال : « هما من قدر اللّه تعالى » . وقال عبد الله ابن عكرمة : عجبت لمن يحتمى من الطعام خوف الداء ، ولا يحتمى من الذنوب خوف النار .

وقيل : إن الربيع بن خيثم لما مرض قالوا له : ألا ندعوا لك طبيبًا ؟، فقال لهم : إن مرضى من الطبيب ، وأنه متى أراد عافانى ، ولا حاجة لى بطبيبكم ، وأنشد :

فاصبحت لا أعود طبيبًا لطبه ولكننى أدعوك يا منزل القطرِ

وعاد الفرزدق مريضًا فقال :

يا طالبَ الطبِّ مِنْ داءٍ تَخَوَّفَهُ إنَّ الطبيبَ الذى أبلاكَ بالداءِ
فهو الطبيبُ الذى يُرْجى لِعَافِيَةٍ لا مَنْ يُذيبُ لك الترياق[1] بالماءِ

قال : لما مرض بشر الحافى ـ رحمه اللّه تعالى ـ قالوا : أندعوا لك طبيبًا ؟ فقال : إنى بعين الطبيب يفعل بى ما يريد ، فألح عليه أهله وقالوا : لابد أن ندفع ماءك إلى الطبيب ، فقال لأخته : ادفعى إليهم الماء فى قارورة ، وكان بالقرب منهم رجل ذمى ، وكان حاذقًا فى الطب ، فأتوه بمائه فى القارورة ، فلما رآه قال : حركوه ثم قال : ضعوه ، ثم قال : ارفعوه . فقالوا له : ما بهذا وصفت لنا ؟، قال : وبم وصفت لكم ؟ قالوا : بالحذق والمعرفة ، قال : هو كما تقولون غير أن هذا الماء إن كان ماء نصرانى فهو راهب . قد فتتت كبده العبادة ، وإن كان مسلمًا فهو ماء بشر الحافى . . فإنه أوحد أهل زمانه فى السلوك مع اللّه تعالى ، قالوا : هو ماء بشر الحافى ، فأسلم النصرانى ، وقطع زناره ، فلما رجعوا إلى بشر قال لهم : أسلم الطبيب، فقالوا: وَمَنْ أعلمك ؟ قال : لما خرجتم من عندى هتف لى هاتف ، وقال : يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب ، وصار من أهل الجنة .

وفلج الربيع بن خيثم فقيل له : هلا تداويت ؟ فقال : قد عرفت أن الدواء حق ، ولكن عاد وثمود وقرونٌ بين ذلك كثيرا كانت فيهم الأوجاع كثيرة ، والأطباء أكثر ، فلم يبق المداوِى ولا المداوَى ، وقد أبادهم الموت . ثم قال هذا المفرد :

هلك المُدَاوِى والمدُاوَى والذى جَلَبَ الدواءَ وباعه والمشترِى

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة : أما تتعالج ؟ فقال : إذا كان الداء من السماء بطل الدواء من الأرض ، وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المربوب . ومرّ قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات مطببات وهن من أجمل الناس، فأحبوا أن يروهن فحكوا ساق أحدهم حتى أدموها ، ثم قصدوهن ، فقالوا : هذا جريح مريض فهل من طبيب ؟ فخرجت صغراهن وهى كأنها الشمس الطالعة فلما رأت جرحه قالت : ليس هو بمريض بل خدشه عود بالت عليه حية، فإذا طلعت الشمس مات ، فكان الأمر كما قالت .

(١) الترياق : دواء يدفع السموم .

وقيل : دواء كل مريض بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع لهوائها . وقالوا : من قدم إلى أرض غير أرضه ، وأخذ من ترابها ، وجعله فى مائها وشربه ، لم يمرض فيها وعوفى من وبائها، واحتمى أحمد بن المعدل لعلة أصابته فبرئ. فقال : الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا تبرئهم من المرض ، ولأهل الآخرة تبرئهم من النار . وقيل : إن الأبدان المعتادة بالحمية آفتها التخليط ، والمعتادة بالتخليط آفتها الحمية ، لأن الحكماء تقول : عودوا كل جسد بما اعتاد .

وكان كسرى أنوشروان يمسك عما تميل إليه شهوته ولا ينهمك عليه ، ويقول : تركنا ما نحبه لنستغنى عن العلاج بما نكرهه . وقال لقمان : لا تطيلوا الجلوس على الخلاء فإنه يورث الباسور . وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحشوش . أى : الكنف . وقيل : كفى بالمرئ عارًا أن يكون صريع مأكوله ، وقتيل أنامله.

فكم أَكْلةٍ أَكَلَتْ نَفْسَ حرٌّ وكَمْ أَكْلَةٍ جَلَبَتْ كُلَّ ضرٌّ

وقيل : من غرس الطعام أثمره الأسقام . وعن بعض أهل البيت النبوى ـ عليهم السلام ـ ، أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم والعسل واستوهب من مهر أهله شيئًا ، وكان يقول: قال الله تعالى : ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا**﴾ [ق : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ **فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾ [النحل : ٦٩] . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « ماء زمزم لِمَا شرب له ». وقال تعالى : ﴿**فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا**﴾ [النساء : ٤] . فمن جمع بين ما بورك فيه وبين ما فيه شفاء وبين الهنيء المرىء يوشك أن يلقى العافية .

وقيل خمسة من المهلكات : دخول الحمام على الشبْع ، والمجامعة على الشبع ، وأكل القديد ، وشرب الماء البارد على الريق ، ومجامعة المرأة العجوز . وقال : لا تَنْكِحِ العجوز ، ولا تُخْرِجِ الدم وأنت مستغن عن إخراجه . وقال الإمام عَلِىٌّ ـ رضى الله عنه ـ :

توقَ مدى الأيام إدخال مطعم على مطعم من قبل هضم المطاعم
وكلّ طعام يعجز السنّ مضغهُ فلا تقربنه فهو شرّ لطاعم
ووفر على الجسم الدماء فإنها لقوّة جسم المرء خير الدعائم
وإيّاك أن تنكح طواعن سنهم فإنّ لها سمًا كسم الأراقم
وفى كلّ أسبوع عليك بقيئة تكن آمنًا من شر كلّ البلاغم

ومما يورث الهزال : النوم على غير وطاء ، وكثرة الكلام برفع الصوت . وقال النظام ـ رحمه الله تعالى ـ: **ثلاثة تخرب العقل** : طول النظر فى المرآة ، وكثرة الضحك ، والنظر إلى النجوم . وفى الحديث احتجم رسول اللّه ﷺ فى أم مغيث وهى وسط الرأس، وكان ﷺ

يحتجم فى الأخدعين ، ونهى عن الحجامة فى نقرة القفا فإنها تورث النسيان ، وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور . وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال ، فقال فى آخر خطبته : من كان يشكو سعلا فليتداو بالخل ، ففعلوا فعافاهم اللّه .

وقال بعض الحكماء : إياك أن تطيل النظر فى عين أرمد ، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك ، فرب شظية حقيرة قلعت عينًا خطيرة . وقيل : كانت الأدوية تنبت فى محراب سليمان ـ عليه الصلاة السلام ـ ويقول كل دواء : يا نبى اللّه أنا دواء لكذا وكذا.

وقال جالينوس : البطنة تقتل الرجال ، وتورث الفالج ، والإسهال الذريع ، والإقعاد ، وصنفًا من الجذام يقال له : الفهد لا يسمع صاحبه ولا يبصر ، نسأل اللّه العفو والعافية . وقيل: البطنة تورث الصداع ، والكمنة فى العينين ، والضربان فى الأذنين ، والقولنج فى البطن، فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى ، واتق الليل وطعامه جهدك .

وقال جالينوس : الغم المفرط يميت القلب ، ويجمد الدم فى العروق فيهلك صاحبه ، والسرور المفرط يلهب حرارة الدم حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه . وقيل : إنه وضع على مائدة المأمون فى يوم عيد أكثر من ثلاثين لونًا ، فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته . فقال يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين إن خضنا فى الطب : فأنت جالينوس فى معرفته، أو فى النجوم : فأنت هرمس فى صناعته . أو فى الفقه : فأنت على بن أبى طالب ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ فى علمه ، أو فى السخاء : فأنت حاتم فى كرمه ، أو فى الحديث : فأنت أبو ذر فى صدق لهجته ، أو فى الوفاء : فأنت السموأل بن عادياء فى وفائه ، فسر بكلامه، وقال : يا أبا محمد إنما فُضل الإنسان على غيره بالعقل ، ولولا ذاك لكانت الناس والبهائم سواء . وقال طبيب الهند : إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر. وقال سفيان بن عيينة : أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام ، وقالوا : إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع فى البر . وقيل : الشراب فى آنية الرصاص أمان من القولنج. وعرض رجل على طبيب قارورته ، فقال له : ما هى قارورتك لأنه ماء ميت وأنت حى تكلمنى ، فما فرغ من كلامه حتى خر الرجل ميتًا .

وقيل: إن ملكًا من الملوك حصل عنده صداع فى رأسه فأحضر الطبيب فأمره أن يضع قدميه فى الماء الحار ، وكان عنده خصى فقال : أين القدمان من الرأس ؟ فقال له الطبيب : وأين وجهك من خصيتك ؟ نزعتا فذهبت لحيتك .

وقيل: إن المأمون حصل له صداع بطرسوس، فأحضر طبيبًا كان عنده فلم ينفعه علاجه . فبلغ قيصر فأرسل إليه قلنسوة وكتب له : بلغنى صداعك فضعها على رأسك يزل ما بك ، فخاف أن تكون مسمومة فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شيء ، ثم إنه أحضر رجلا به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به ، فتعجب المأمون ثم أنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوبًا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة للّه تعالى فى عرق ساكن وغيرساكن حم عسق لا يصدعون عنها ولا ينزفون من كلام الرحمن خمدت النيران ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم .

وقال على ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ: ادهنوا بالبنفسج فإنه حار فى الشتاء بارد فى الصيف ، وقال أيضًا ـ رضى الله عنه ـ: عليكم بالزيت فإنه يذهب البلغم ، ويشد العصب ، ويحسن الخلق ، ويطيب النفس ، ويذهب الغم. وعنه ـ رضى اللّه عنه ـ إن لم يكن فى شيء شفاء ففى شرطة حاجم ، أو شربة من عسل .

وقال الحجاج لطبيبه : أخبرنا بجوامع الطب . فقال : لا تنكح إلا فتاة ولا تأكل من اللحم إلا فتيًا ، وإذا تغديت فنم ، وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك ، ولا تدخلن بطنك طعامًا حتى تستمرئ ما فيه ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء ، وكل الفاكهة فى إقبالها وذرها فى إدبارها .

وأوصى حكيم خليفته وصية ووعده أنه إذا لازمها لا يمرض إلا مرض الموت . فقال : إياك أن تدخل طعامًا على طعام ، ولا تمش حتى تعيا ، ولا تجامع عجوزًا ، ولا تدخل حمامًا على شبع، وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء ، وعليك فى كل أسبوع بقيئة ، ولا تأكل الفاكهة إلا فى أوان نضجها ، ولا تأكل القديد من اللحم ، وإذا تغديت فنم ، وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة ، ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها ، وتستريح الكبد من حرارة المعدة . ولا تنم على يمينك فيبطئ الهضم ، ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع . ولا تنم ليلا حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج . واقعد على الطعام وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه . قال بعضهم:

شره النفوس على الجسوم بليةٌ ... فتعوّذوا من كلِّ نفس تَشْرَهُ
ما من فتى شَرِهَتْ له نفسٌ وإنْ ... نال الغنى إلا رأى ما يكرَهُ

وقال أبو الفيض القضاعى يمدح الفضل وقد قصد :

أرقتُ دمًا لو تسكبُ المزنُ مِثْلَه ... لأصبحَ وَجْهُ الأرض أخضر زاهيا
دمًا طيبًا لو يطلقُ الشرعُ شربه ... لكان من الأسقام للناس شافيا

الفصل الرابع
فيما جاء فى العيادة وفضلها

قال رسول اللّه ﷺ : « ثلاثة فى ظِلّ العرش: عائد المريض ، ومشيع الموتى ، وطائع والديه». وفى رواية : ومعزى الثكلى ». ومن السنة تخفيف الجلوس فى العيادة . مرض بكر بن عبد اللّه المزنى فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنده فقال : المريض يعاد والصحيح يزار ، وقال الشاعر :

يَعُدْنَ مريضًا هن هَيَّجْنَ داءَهُ ألا إنَّما بعضُ العوائدِ دائيا

وقيل : إذا دخل العواد على الملك فحقهم أن لا يسلموا عليه فيحرجوه إلى رد السلام ويتعبوه، فإذا علموا أنه لاحظهم دعوا له وانصرفوا . قيل : مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه : كشف اللّه عنك ما بك من السقم ، وطهرك بالعلة من الخطايا ، ومتعك بأنس العافية ، وأعقبك دوام الصحة . ومرض إنسان فكتب إليه صديقه :

بإخوانك الأدنين لا بك كلّ ما شكوت إلىّ اليوم من ألم الورد
فكلٌّ امرئٍ منهم بقدر احتماله وإنْ عجزوا عنه تحملته وحدى

(وقال آخر):

بى السوءُ والمكروه لا بِكَ كلّما أرادك كانا بى وكان لك الأجرُ

(وقال عبد اللّه بن مصعب) :

ما لى مرضت فلم يعدنى عائدٌ منكم ويمرض كَلْبُكم فأعودُ

فسمّى بعد ذلك عائد الكلاب . وعاد مالك بـن أنـس رضى الله تعالى عنه بعض المرضى فقال :

عادنى مالكٌ فَلستُ أبالى بَعْدُ من عادنى ومَنْ لَمْ يَعدْنِى

وقال علىّ بن الجهم :

أراقدَ الليل مسرورًا عدمتُ إذا عيشى وأحمدُ يرعى ليله وصبا
اللهُ يعلمُ أنّى قد نذرتُ له صيامَ شهرِ إذا ما أحمدٌ ركبا

(وقال آخر) :

إذا مرضتم أتيناكم نعودُكُمُو وتُذنبون فَنأتِيكم ونَعْتذِرُ

(وقال آخر) :

أعاذك اللهُ من أشياءَ أربعة: الموتُ، والعشقُ: والإفلاسُ، والجربُ

وقيل : إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر:

قالتْ : مرضتُ فعدتُها فتبرّمتْ فهى الصحيحةُ والعليلُ العائدُ
والله لو أن القلوب كَقَلْبِها ما رَقَّ للولدِ الصغيرِ الوالدُ
حَقُّ العيادةِ يومٌ بعد يومين وجَلسةٌ مثل خَلْس(١) اللحظ بالعين
لا تُبرِمَنّ عليلاً فى مُساءَلة يكفيك من ذاك تسألُ بحرفين

وفضل العيادة: مشهور ، وشرفها مذكور ، وبها تعظم الأجور . وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والله الموفق للصواب.

(١) الخَلْسُ : الأخذ سلبا فى نهزه ـ سرعة ـ وهى كناية عن سرعة الزيارة . وأن تكون الجَلسة ـ خفيفة سريعة .

الباب الحادي والثمانون

فى ذكر الموت ، وما يتصل به من القبر ، وأحواله

روى عن ابن عباس ـ رضى اللّه تعالى عنهما ـ أنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا مات لأحدكم ميت فحسنوا كفنه ، وعجلوا إنجاز وصيته ،وأعمقوا له فى قبره ،وجنبوه جار السوء »، قيل: يا رسول اللّه ، وهل ينفع الجار الصالح فى الآخرة ؟ قال : « وهل ينفع فى الدنيا ؟ » قالو: نعم . قال : « وكذلك فى الآخرة ». ومن وصية على ـ رضى الله عنه ـ لأبى ذر : زر القبور تذكر بها الآخرة ، ولا تزرها بالليل ، وغسل الموتى يتحرك قلبك ، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله تعالى ، ويقال : جزعك فى مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك فى مصيبتك أحسن من جزعك . ونظر فيلسوف إلى ميت يُحْمَلُ إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد . ودخل عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ على معاوية فى مرضة مرضها ، فقال له : أعائد أنت أم شامت ؟ فقال له عمرو :ولم تقول هذا ؟، واللّه ما كلفتنى رهقًا ، ولا أصدعتنى زلقًا ، ولا جزعتنى علقًا ، فلم أستطل حياتك ، ولم استبطئ وفاتك . فأنشد معاوية يقول :

فَهَلْ مِنْ خالدين إذا هَلَكْنا؟ وهل فى الموتِ بين الناس عَارُ؟

ولما مرض معاوية ـ رضى الله عنه ـ مرضه الذى مات فيه ، وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله: مهدوا لى فراشًا ، واسندونى ، وأوسعوا رأسى دهانًا ، ثم أكحلوا عينى بالإثمد ، ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا على قيامًا ولا تجلسوا عندى أحدًا ، ففعلوا ذلك ، فلما خرجوا من عنده أنشد يقول :

وتجلدى للشامتين أُرِيهمُ أنّى لريب الدهر لا أتضعضعُ
وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارها ألفيتُ كُلَّ تميمةٍ لا تَنْفعُ

وقيل : لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت:

هو الموتُ لا مَنْجَى مِنَ الموتِ والذى نحاذرُ بعدَ الموتِ أَدْهَى وأقطعُ

ثم قال: رفع يديه وقال : اللهم أقل العثرة واعف عن الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة وليس لذى خطيئة منك مهرب . ومات ـ رحمه الله تعالى ـ . وذكر أبو العباس الشيبانى قال: وفد على أبو دلف عشرة من أولاد على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وعنهم ـ فى العلة التى مات فيها فأقاموا ببابه شهرًا لا يؤذن لهم لشدة العلة التى أصيب بها ، ثم أفاق فقال لخادمه بشر : إن قلبى يحدثنى أن بالباب قومًا لهم إلينا

حوائج فافتح الباب ولا تمنعن أحدًا ، قال: فكان أول من دخل آل على ـ رضى اللّه عنه وعنهم ـ فسلموا عليه ؛ ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال : أصلحك اللّه أنا من أهل بيت رسول اللّه ﷺ وفينا من ولده وقد حطمتنا المصائب ، وأجحفت بنا النوائب ، فإن رأيت أن تجبر كسيرًا ، وتغنى فقيرًا لا يملك قطميرًا فافعل . فقال لخادمه : خذ بيدى وأجلسنى . ثم أقبل معتذرا إليهم ودعا بدواة وقرطاس وقال : ليكتب كل منكم بيده أنه قبض منى ألف دينار، قالوا : فبقينا واللّه متحيرين فلما أن كتبنا الرقاع ووضعناها بين يديه قال لخادمه : على بالمال. فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه : يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع فى كفنى ، فإذا لقيت محمدًا ﷺ فى القيامة كانت حجة لى أنى قد أغنيت عشرة من ولده ثم قال: يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف دينار ينفقها فى طريقه حتى لا ينفق من الألف دينار شيئًا حتى يصل إلى موضعه، قال : فأخذناها ودعونا له وانصرفنا ثم مات ـ رحمه اللّه ـ.

وقيل : لما دفن عمر بن عبد العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء ، فوجدوا بردة مكتوبًا فيها بالنور (بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار). وقيل لأعرابى : إنك تموت، قال : وإلى أين أذهب ؟ قالوا : إلى اللّه تعالى ، فقال : لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه .

وبكى الخولانى (١) عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكى لطول السفر ، وقلة الزاد، وقد سلكت عقبة ولا أدرى إلى أين أهبط ؟ وإلى أى مكان أسقط ؟.

ودخل ملك الموت على داود ـ عليه السلام ـ فقال له: من أنت ؟ قال : أنا الذى لا يهاب الملوك، ولا تمنع منه القصور ، ولا يقبل الرشا ، فقال : إذن أنت ملك الموت ، وإنى لم أستعد بعد ، فقال له : يا داود أين فلان جارك ؟ أين فلان قريبك ؟قال : ماتا ، قال : أما كان لك فى موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ، ثم قبضه ـ عليه السلام ـ .

(وفى الخبر) من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: إن الملائكة تكتنف العبد وتحتبسه ولولا ذلك لكان يعدو فى الصحراء والبرارى من شدة سكرات الموت وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم فليكن المرؤ على أهبة من ذلك ، وقيل : بينما حسان جالس ، وفى حجره صبى يطعمه الزبد والعسل إذا شرق الصبى فمات. فقال :

اعْمَلْ وأنتَ صحيحٌ مطلقٌ فَرِحٌ ... ما دُمْتَ وَيْحَك يا مغرورُ فى مهلِ(٢)
يرجو الحياةَ صحيحٌ ربمّا كَمَنَتْ ... له المنيةُ بينَ الزبدِ والعسلِ(٣)

---

(١) يحيى بن أيوب الخولاني . المصري . الشافعي . محدث . من آثاره : الرد على ابن عُلَّية . ت ٢٦٤ هـ .
(٢) مطلق : حرٌّ . المغرور : الغافل . (٣) كمنت : استخفت واختبأت . .

وقيل : إن المأمون لما قربت وفاته دخل عليه بعض أصدقائه فوجده قد فرش له جلد دابة ، وبسط عليه الرماد وهو يتمرغ فيه ويقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه .

ولما احتضر عمرو بن العاص دعا بِغُلّ وقيد وقال : ألبسونى إياهما فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول :« إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر ابن آدم بنفسه » (١) ، ثم استقبل القبلة ، وقال : اللهم إنك أمرتنا فعصينا ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائذ بك فإن تعف فأنت أهل العفو ، وإن تعاقب فبما قدمت يداى . لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، ثم مات وهو مغلول القيد ، فبلغ ذلك الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنهما ـ: فقال : استسلم الشيخ ولعلها تنفعه.

ولما احتضر المعتصم جعلوا يهونون ـ عليه فقال : هان على النظارة ما يمر بظهر المجلود ، وسمع أبو الدرداء رجلا فى الجنازة يقول : من هذا ؟ فقال : أنت ، فإن كرهت فأنا . وقيل : مات عكرمة مولى ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ ، وكثير عزة فى يوم واحد . فقال : اللهم كما جمعتهما فى زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم النشور . فما بقى فى المدينة أحد إلا استحسن كلامه.

ولما احتضر إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال : هل رأيت خليلا يقبض روح خليله؟ فأوحى اللّه إليه : هل رأيت خليلا يكره لقاء خليله ؟ قال : فاقبض روحى الساعة . وقيل : إذا قضى اللّه لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها . وقال بعضهم:

إذا ما حِمَامُ المرئِ كان ببلدةٍ دَعَتْه إليها حاجةٌ فَيطيـــرُ

حكى: أن شابا تقيا من بنى إسرائيل كان يجتمع مع سليمان ـ عليه السلام ـ ويحضر مجالسه، فبينما هو عند سليمان فى مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه ، فلما رآه الشاب صفر لونه وارتعدت فرائصه ، وقال : يا بنى اللّه إنى خفت من هذا الرجل ، فَمُرِ الريح أن تذهب بى إلى الهند ، فأمر سليمان الريح فذهبت به ، فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب ، فقال له سليمان : ممّ تتعجب ؟ قال : أعجب أنى أمرت بقبض روح الشاب الذى كان عندك بأرض الهند ، ودخلت عليك فوجدته عندك ، فصرت متعجبا ، ثم توجهت إلى الهند فرأيته هناك وقبضت روحه فهذا عجبى . فقال له سليمان : إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب منى أن تحمله الريح إلى الهند فأمرتها فحملته .

وفى ذلك المعنى قال محمد بن الحسن :

ومُتعبُ الرُّوحِ مرتاحٌ إلى بلدِ والموتُ يَطلبُه فى ذلك البلدِ

(١) حسن : رواه الترمذى فى« الدعوات » (٣٥٣٧) وابن ماجه فى « الزهد » (٤٢٥٣) .

وقيل : إن الإنسان يحصل له عند الموت قوة حركة ، نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة وضياء ساطع ، وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة . والله أعلم .

وقيل : إن الرشيد ماتت له جارية ، وكانت من خواص محاظيه، فجزع عليها جزعاً شديداً، فقال لبعض أصدقائه: أما ترى ما بليت به ؟ ما أحببت أحداً إلا مات . فقال: يا أمير المؤمنين : أحببنى ، فقال : ويحك إن الحب ليس هو شيء يصنع إنما هو شيء يقع فى القلب تسوقه الأسباب . فقال : قل : أنا أحبك ، قال : نعم أحبك . فَحُمّ من وقته ومات .

وفى الحديث (المرفوع) : « كسر عظم الميت ككسره فى حياته »[1] . وقال يزيد بن أسلم : لقد كان يمضى فى الزمن الأول أربعمائة سنة ما يسمع فيها بجنازة ، وعن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ بالطائف ، فلما وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكفانه ، ثم دخل فيها فالتمسناه فلم نجده ، ولما سوينا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾. [الفجر : ٢٧ ، ٢٨] . قال ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ إن قبر آدم ـ عليه السلام ـ بمسجد الخيف بمنى. وقال عطاء : بلغنى أن قبره تحت المناره التى وسط الخيف . وكان عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ إذا وقف على قبر بكى ما لا يبكيه عند ذكر الجنة والنار ، فقيل له فى ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا العبد منه فما بعده أيسر منه »[2] . وعن معاذ بن رفاعة الزرقى قال :أخبرنى رجل من قومى أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى رسول الله ﷺ فى جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق ، فقال : يا محمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش ؟، فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه مبادراً إلى سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ فوجده قبض ، وقال الحسن ـ رضى الله عنه ـ: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات ، فمن رآه على لهو أو لعب ، أو معصية ، أو ضاحكًا حرك رأسه وقال له : مسكين هذا العبد غافل عما يراد به ، ثم يقول له : اعمل ما شئت ، فإن لى فيك غمزة أقطع بها وتينك .

وقال عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ لرجاء بن حيوة[3] :يا رجاء إذا وضعت فى لحدى، فاكشف الثوب عن وجهى فإن رأيت خيرًا فاحمد الله وإن رأيت غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك . قال رجاء : فلما دفناه كشفت عن وجهه ، فرأيت نورًا ساطعًا ، فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير . وقال أيضًا : دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو يحتضر فقال: يا رجاء

(١) موضوع : رواه أبو داود (٣٢٠٧) وابن ماجة (١٦١٦) وأحمد (٦ / ٥٨ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٣٦٤) عن عائشة ـ رضى الله عنها . (٢) حسن : رواه البيهقى فى إثبات عذاب القبر (٢٤٦) وفى الشعب (٣٩٧) .

(٣) رجاء بن حيوة بن جرول الكندي ، أبو المقدام شيخ أهل الشام في عصره . ت ١١٢ هـ .

إنى أرى وجوهًا كرامًا ليست بوجوه إنس ولا جان ، وهو يقلب طرفه يمينًا وشمالا ، ثم رفع يده فقال : اللهم أنت ربى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت، فإن غفرت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت ، الا إنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدًا عبدك ورسولك المصطفى ونبيك المرتضى ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، فعليه السلام والرحمة ، ثم قضى نحبه ـ رحمه اللّه ـ .

وعن أسماء بنت عميس قالت : كنت عند أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى اللّه عنه ـ بعدما ضربه ابن ملجم إذ شهق شهقة بعد أن أغمى عليه ، ثم أفاق وقال : مرحبًا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فقيل له : ما ترى ؟ قال: هذا رسول اللّه ﷺ ، وهذا أخى جعفر ، وعمى حمزة ، وأبواب السماء مفتحة ، والملائكة ينزلون على يبشروننى بالجنة ، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصائفها من الحور العين ، وهذه منازلى لمثل هذا فليعمل العاملون.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد : إذا أنا متّ إياك أن تجلس وتعصر عينيك كالمرأة الوكعاء ، لكن ائتزر وشمر والبس جلد النمر وضعنى فى حفرتى وخلنى وشأنى، وعليك شأنك . وادع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه هكذا ، فقل له بسيفك هكذا، ثم بعث إلى محمد وخالد ابنى يزيد بن معاوية ، فقال : هل عندكما ندامة فى بيعة الوليد ؟ فقالوا : لا نعرف أحدًا أحق منه بالخلافة ، فقال : أما أنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذى فيه أعينكما ، ثم رفع كنار فراشه ، فإذا تحته سيف مسلول تحت يمينه ، كل هذا وروحه تتردد فى حنجرته ، وهو يقول : الحمد للّه الذى لا يبالى أصغيرًا أخذ أم كبيرًا، لا إله إلا اللّه محمد رسول الله . ثم بعد ساعة نفدت روحه ، فدخل عليه الوليد ومعه بناته يبكون .

فتمثل بقول الشاعر:

ومستخبرٍ عنا يريدُ بنـــا الـــردى ... ومستخبـــراتٍ والعيـــونُ سواكـــنُ

وقال محمد بن هارون :

كأنّى بإخوانى على جنب حُفْرَتى ... يهيلون فوقى والعيون دمًا تجرى
فيا أيها المذرى علىّ دُموعَه ... ستُعرِضُ فى يومين عنى وعن ذكرى
عفا الله عنىّ أَنْزِلُ القبرَ ثاويا ... أزارُ فلا أدرى وأُجْفى فلا أدرى

وكان يزيد الرقاشى يقول : من كان الموت موعده ، والقبر بيته ، والثرى مسكنه ، والدود

أنيسه وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر ، كيف تكون حالته ؟، ثم يبكى حتى يغشى عليه .

فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره ، ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل ، ولا يغتر بالأمل ، فإن من عاش مات ومن مات فات . وكل ما هو آت آت.

نسأل اللّه أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وأن يجعل الموت خير غائب ننتظره وأن يختم لنا بالخير وأن يتغمدنا برحمته إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ؛ وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والثمانون

في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي ونحو ذلك . وفيه فصول :

الفصل الأول

في الصبر

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ [البقرة : ١٥٦] وقال ﷺ: « ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدها فأحدث استرجاعًا إلا أحدث اللَّه له مثله ، وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها » (١). وعن أنس بن مالك ـ رضى اللَّه تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :« من أصبح حزينًا أصبح ساخطًا على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو اللَّه ، ومن تواضع لغنى سأله ما في يده أحبط اللَّه ثلثى عمله، ومن أعطى القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار أبعده اللَّه عن رحمته لأنه هو الذى فعل ذلك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن » (٢).

وروى عن أبى هريرة ـ رضى اللَّه تعالى عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال : « من مات له ثلاثة من الولد لا يلج النار إلا تحلة القسم ، يعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] (٣) . وعن أم سلمة ـ رضى اللَّه تعالى عنهما ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « من أصيب بمصيبة فقال كما أمر اللَّه إنّ للّه وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ، وأعقبنى خيرًا منها، إلا فعل اللَّه به ذلك » (٤) وروى: أنه لما مات إبراهيم ابن رسول اللَّه ﷺ ذرفت عيناه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا رسول اللَّه ألم تنه عن البكاء ؟ قال : إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين والندب ، ولكن هذه رحمة جعلها اللَّه تعالى فى قلوبنا ، ومن لا يَرحم لا يُرحم ، فإن القلب يخشع والعين تدمع ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، ولا نقول إلا ما يرضى اللَّه ربنا إنّا للّه وإنا إليه راجعون » . وقال ابن عباس ـ رضى اللَّه عنهما ـ: أول شىء كتبه اللَّه فى اللوح المحفوظ إننى لا إله إلا أنا محمد عبدى ورسولى ، من استسلم لقضائى ، وصبر على بلائى ، وشكر نعمائى كتبته صديقًا وبعثته مع الصديقين ، ومن لم يستسلم لقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى فليتخذ ربًا سواى .

(١) ضعيف جدًا : رواه ابن ماجة فى « الجنائز » (١٦٠٠) وفى سنده هشام بن زياد وهو متروك .

(٢) ضعيف جدًا : رواه الطبرانى فى « الصغير » (١ / ٢٥٧) وقال الهيثمى فى « المجمع » (١٠ / ٢٤٨) : فيه وهب بن راشد البصرى وهو متروك .

(٣) رواه البخارى فى « الأيمان والنذور » (٦٦٥٦) ومسلم فى « الأدب» (٦٥٧٣) .

(٤) رواه مسلم فى « الجنائز » (٢٠٩١) .

وقال ابن المبارك : إن المصيبة واحدة ، فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان : لأن لإحداهما : المصيبة بعينها . والثانية : ذهاب أجره وهو أعظم من المصيبة .

وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبى ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة فقال : لا تبكى يا بنتاه قولى إذا مت : إنا للّه وإنا إليه راجعون ، فإن لكل إنسان مصيبة معوضة . قالت : ومنك يا رسول اللّه ؟ قال: ومنى . وعن عطاء بن أبى رباح قال : قال رسول الله ﷺ :« من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بى فإنها من أعظم المصائب » (١).

وعن أبى هريرة ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ أنه قال : من أخذت حبيبتاه يعنى عينيه فصبر واحتسب أدخله اللّه الجنة . وقيل: إن امرأة أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالت : لو دعوت اللّه تعالى أن يشفيك ، فقال لها : ويحك كنا فى النعماء سبعين عامًا ، أفلا نصبر على الضراء مثلها، فلم يلبث إلا يسيرًا أن عوفى .

وقيل : الصبر مفتاح الظفر ، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح .

وقيل :من لم يلق نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه . وقيل : إن معاوية ـ رضى الله تعالى عنه ـ خرج يومًا ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبى ، وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب، فقال له معاوية : يا عبد العزيز أتانى نعى سيد شباب العرب ، فقال له : ابنى أو ابنك قال : لا ابنك. قال : للموت تلد الوالدة .ومما قيل : اصبر لحكم من لا تجد معولا إلا عليه ولا مفزعًا إلا إليه . وقال سويد السدوسى :

فأوصيكما يا ابنىْ سدوسٍ كلاكما ... بتقوى الذى أعطاكما ويراكما
بشكرٍ إذا ما أحدث الله نعمةً ... وصبرٍ لأمر الله فقيما ابتلاكما

وقال :

أيا صاحبى إنْ رمت أن تكسب العـ ... ـلا وترقى إلى العلياء غير مزاحم
عليك بحسن الصبر فى كل حالة ... فما صابرٌ فيما يروم بنادم

وقال آخر :

هو الدهر قد جرّبته وبلوته ... فصبرًا على مكروهه وتجلدا (٢)

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ، فقالت : نضر اللّه وجهك ، وشكر صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ،

(١) ضعيف لإرساله . (٢) التجلد : التصبر ، والتماسك ، والتقوى .

وللآخرة معزًا بإقبالك عليها ، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول اللّه ﷺ وأكبر الأحداث بعده ، فإن كتاب اللّه تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر فى المصيبة ، وأنا تابعة له فى الصبر ، فأقول :إنَّا للّه وإنا إليه راجعون ، ومستعيضة بأكثر الاستغفار لك ، فسلام اللّه عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا رازئة على القضاء فيك.

ولما مات ذر الهمدانى جاء أبوه ، فوجده ميتًا وكان موته فجأة ، وعياله يبكون عليه فقال : ما لكم ، والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق ، ولا أصابنا فيه ، ما أخطأ من كان قبلنا فى مثله . ولما وضعه فى حفرته قال : رحمك اللّه يا بنى وجعل أجرى فيك لك ، واللّه ما بكيت عليك إنما بكيت لك ، فواللّه لقد كنت بى بارًا ، ولى نافعًا ، وكنت لك محبًا ، وما بى إليك من وحشة ، وما بى إلى أحد غير اللّه من فاقة ، وما ذهبت لنا بعزة ، وما أبقيت لنا من ذل ، ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، يا ذر لولا هول المطلع لتمنيت ما صرت إليه ، فليت شعرى ماذا قلت ؟ وماذا قيل لك ؟، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك ، اللهم قد وهبت ما جعلت لى من الأجر إلى ذر صلة منى فلا تحرمنى ولاتعرفه قبيحًا وتجاوز عنه ، فإنك رحيم بى وبه ، اللهم وقد وهبت لك إساءته لى فهب لى إساءته إليك ، فإنك أجود منى وأكرم . اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقًا ، وجعلت لى عليه حقًا قرنته بحقك . فقلت : ﴿ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان]. اللهم إنى قد غفرت له ما قصر فيه من حقى ، فاغفر له ما قصر فيه من حقك ، فإنك أولى بالجود والكرم . فلما أراد الانصراف قال : يا ذر قد انصرفنا وتركناك ولو أقمنا عندك ما نفعناك.

وفى الحديث : إذا مات ولد العبد يقول اللّه تعالى للملائكة : ماذا قال عبدى عند قبض روح ولده ، وثمرة فؤاده ؟ فيقولون : إلهنا حمدك واسترجع ، فيقول اللّه تعالى : أشهدتكم يا ملائكتى أنى بنيت له بيتا فى الجنة ، وسميته بيت الحمد . وعن عبد اللّه بن عمر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أنه دفن ابناً له وضحك عند قبره . فقيل له : أتضحك عند القبر ؟ قال : أردت أن أرغم أنف الشيطان ، فينبغى للعبد أن يتفكر فى ثواب المصيبة فتسهل عليه ، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها ، حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة . وقد وعد اللّه تعالى فى المصيبة ثواباً عظيماً إذا صبر صاحبها ، واحتسب ، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ .[محمد : ٣١] . وقال تعالى:﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

اللهم رضينا بقضائك ، وصبرنا على بلائك ، واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يارب العالمين .

الفصل الثانى من هذا الباب
فى التعازى والتأسى

روى الترمذى وفى كتاب السنن للبيهقى عن عبد اللّٰه بن مسعود عن النبى ﷺ قال :« من عزى مصاباً فله مثل أجره » (١) . وروينا فى كتاب الترمذى أيضا بسند متصل إلى رسول اللّٰه ﷺ قال :« من عزى ثكلى كسى برداء فى الجنة » (٢). وروينا فى سنن ابن ماجة ، والبيهقى بإسناد حسن، عن عمرو بن حزم عن النبى ﷺ قال :« ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة إلا كساه اللّٰه من حُلَلِ الكرامة يوم القيامة » (٣) .

واعلم أن التعزية هى التصبر وذكر ما يسلى صاحب الميت ويخفف حزنه ، ويهون مصيبته وهى مستحبة ، فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى أيضا داخلة فى قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ .[المائدة : ٢] .

وهى من أحسن ما يستدل به فى التعزية . وثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال :« واللّٰه فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » .

واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده ، وتكره بعد ثلاثة أيام ، لأن التعزية لتسكين قلب المصاب ، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام ، فلا يجدد الحزن . هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعى ـ رضى اللّٰه تعالى عنه ـ. وقيل : إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا فى صورتين، وهما : إذا كان المعزى أو صاحب المصيبة غائبا حال الدفن ، فاتفق رجوعه بعد الثلاثة ، وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه ، فبأى لفظ عزاه حصلت ، واستحب أصحاب الشافعى أن يقول فى تعزية المسلم بالمسلم : عظم الله أجرك ، وأحسن عزاءك وغفر لميتك . وفى المسلم بالكافر : أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك ، وفى الكافر بالكافر : أخلف اللّٰه عليك ولا نقص لك عدداً .

روى: أن النبى ﷺ فقد بعض أصحابه فسأل عنه فقالوا : يا رسول اللّٰه بُنَيَّهُ الذى رأيته هلك، فلقيه النبى ﷺ ، فسأل عن بنيه ، فقال : يا رسول اللّٰه هلك ، فعزاه فيه ثم قال : يا فلان أيما كان أحب إليك أن تتمتع به عمرك أو لا تأتى غداً بابًا منَ أبواب الجنة إلا وجدته وقد

(١) ضعيف : رواه الترمذى (١٠٧٣) والبيهقى فى « السنن » (٤ / ٥٩) وابن ماجة (١٦٠٢) وفى سنده على بن عاصم ، قال البيهقى : تفرد به علي بن عاصم ومسعر وهو أحد ما أنكر عليه .
(٢) ضعيف : رواه الترمذى (١٠٧٦) وقال : هذا حديث غريب وليس إسناده بالقوى .
(٣) حسن : رواه ابن ماجة فى « الجنائز » (١٦٠١) .

سبقك إليه ، فيفتحه لك ؟ . فقال : يا رسول الله سَبْقُهُ إلى باب الجنة أحب إلى من التمتع به فى دار الدنيا . قال : ذلك لك .

وروى البيهقى بإسناده فى مناقب الشافعى قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدى مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً ، فبعث إليه الشافعى ـ رحمه الله ـ يقول : يا أخى عزّ نفسك بما تعزّ به غيرك ، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك ، واعلم أن أَمَضّ المصائب فَقْدُ سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر ؟ ألهمك الله عند المصائب صبراً ، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً .

وروى عن ابن المبارك قال : مات لى ابن فمرّ بى مجوسى وقال : ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال : اكتبوها منه . وعن معاذ بن جبل أنه قال : مات لى ابن، فكتب إلى رسول الله ﷺ : من محمد رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل ، سلام عليكم ، فإنى أحمد الله الملك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فَعَظَّمَ الله الأجر لك ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك الشكر ، ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية ، وعواريه المستودعة ، يمتعنا بها إلى أجل معدود ، ويقبضها لوقت معلوم ، ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى ، والصبر إذا ابتلى ، وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعواريه المستودعة . متعك الله به فى غبطة وسرور ، وقبضة بأجر كبير إن صبرت واحتسبت ، فاصبر واحتسب ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ولا يطرد حزناً .

وروى أن أبا بكر ـ رضى الله تعالى عنه ـ كان إذا عزى مرزأ . قال : ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة ، والموت أشد مما قبله ، وأهون مما بعده ، فاذكر مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك .

وعزى الإمام الشافعى ـ رضى الله تعالى عنه ـ صديقا له فقال :

إنا نُعزِّيكَ لا إِنا على ثقة ... من الحياة ولكن سنة الدين
فما المعزَّى بباق بعد ميته ... ولا المعزى ولو عَاشَا إلى حين

وكتب بعضهم إلى أخ له يعزيه : أنت يا أخي أعزك الله عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء، وإنها لم تُعْطِ إلا أخذت ، ولم تَسُرْ إلا أحزنت ، وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لا دافع عنه ولا مؤخر لما قضى الله عز وجل منه ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وعزى رجل بعض الخلفاء بابن له ، فكتب إليه يقول:

تَعَزَّ أميرَ المؤمنين فإنّه لِمَا قد ترى يغدو الصغيرْ ويولدُ
هل الابنُ إلا من سلالةِ آدم؟ لكلٍّ على حوض المنية مَوْرِدُ

وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال :

الموتُ أخفى سواةً للبناتِ وَدَفْنُها يُرْوَى من المكرماتِ
أما رأيتَ اللهَ سبحانَه قد وضع النعشَ بِجَنْبِ البناتِ

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه ويسليه : ما تصنع يا أخي والقضاء نازل ، والموت حكم شامل ، وإنْ لم تَلُذْ بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر ، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لاتدفع إلا بعزائم الصبر ، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة ، والدمعة الساكبة حاجبًا من فضلك ، وحاجزًا من عقلك ، ودافعًا من دينك ، ومانعًا من يقينك ، فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر ، فصبرًا صبرا ، ففحول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها ، فعزيز علي أن اخاطب مولاي معزيًا وأكاتبه مسليًا عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو ينتهي إلى جملته ، فكيف بالصنو الأكرم ، والذخر الأعظم ، والركن الأشد ، والسهم الأسد ، والشهاب الأسطع ، والحسام الأقطع ؟ ، لكن التعزية سيرة سائرة ، وسنة ماضية غابرة ، وَقَدَرُ اللّه هو المقدر ، وأجل اللّه إذا جاء لا يؤخر ، ولولا أن الذكرى تنفع ، والتعزية يستوى فيها الأشرف والأوضع ، لأجللت موّلاى ان أفاتحه معزياً وأخاطبه مسلياً، ولكن بحمد اللّه العالم لا يعلم ، والسابق لا يتقدم ، فبمولاى يُقْتَدَى فى الصبر على النوائب ، وبنوره يُهْتَدَى فى مشكلات المذاهب ، وكل ما كان من الردى أوجع كان الأجر عليه أوسع . جعل اللّه مولاى من الصابرين على المصيبة ، وأعظم أجره ، وجعل الجنة نصيبه .

وعزى رجل فتى عن أبيه فلم يجده كما أحب . فقال : يا بُنَيَّ سوء الخلف أضر علنا من فقد السلف .

ومات لبعض ملوك كندة ابنة: فوضع بن يديه بدرة من المال وقال : من بالغ فى تعزيته فهى له ، فدخل عليه أعرابى وقال : عظم اللّه اجر الملك كُفِيت المُؤُونة ، وسُتِرت العورة، وَنِعْم الصِّهْرُ القبرُ، فقال : قد أبلغت ، وأوجزت ، ثم دفعها له .

وعزت أعرابية قوماً فقالت: جافى اللّه عن ميتكم الثرى ، وأعانه على طول البلى ، وآجركم ورحمه . وكان لعلى بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعا شديداً ، فعزاه على بن الحسين ـ رحمه الله ـ ووعظه . فقال : يا ابن رسول اللّه إن ابنى كان مسرفا على نفسه ، فقال :

لا تجزع ، فإن من ورائه ثلاث خلال : أولهن : شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وأن سيدنا محمداً رسول اللّه ، والثانية : شفاعة جدى ﷺ ، والثالثة : رحمة اللّه التى وسعت كل شىء، فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال ؟ .

وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة : إن فى كبدى جمرة لا يطفئها إلا عبرة ، فقال عمر : اذكر اللّه يا أمير المؤمنين ، وعليك بالصبر ، فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته ، فقال رجاء : أفضها يا أمير المؤمنين ، فما بذلك من بأس، لقد دمعت عينا رسول اللّه ﷺ على ابنه إبراهيم ، وقال : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » . فأرسل سليمان عينيه حتى قضى اربه[1] ، ثم أقبل عليهم ، قال : لولا أن نزفت هذه العبرة لانصدع [2] كبدى ، ثم إنه لم يبك بعدها .

وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل : إذا وصل إليك كتابى هذا فاجمعى أهل بلدك، وأعدى لهم طعاماً ، ووكلى بالأبواب مَنْ يمنعُ مَنْ أصابته مصيبةٌ فى أم أو أب أو أخت أو ولد ، ففعلت ، فلم يدخل إليها أحد ، فعلمت أن الإسكندر عزاها فى نفسه .

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيها فيه . فقال : يا أماه لا تحزنى على الفضل ، فأنا خلف منه ، فقالت : كيف أحزن على ولد عوضنى عنه خليفة مثلك ؟، فعجب المأمون من جوابها ، وكان يقول : ما سمعت قط أحسن منه ، ولا أجلب للقلوب . فقال لها : عليك بالصبر ، فإن فيه مزيد الأجر .

وممن جزع على ولده جعفر بن عَلِىّ لما قتله الحرث قام نساء الحى يبكين عليه ، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقة فذبحه وألقاها بين أيديهن وقال لهن : ابكين معى على جعفر ، فما زالت النوق ترغو ، والشياه تعير ، والنساء يصرخن ويبكين وهو يبكى معهن ، فلم يرى مأتم كان أوجع منه .

وقال يحيى بن خالد : التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن ، والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح .

ومما قيل فى التأسى والتسلى بالخلف عن السلف :

قيل : عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية فى والده فقال :

اصبرْ يزيدُ فقد فارقتَ ذا ثقة ... واشكر إلهك من بالملك حاباكا
لا رُزْءَ أصبحَ فى الأيام نَعرِفُه ... كما رُزِئتَ ولا عُقْبَى كعقباكا

(١) اربه : حاجته .
(٢) النزف : الخروج نزف دمعه سال . وسال دمه من جرح أو علة . الصدع : الشق .

وقال آخر :

لا بُدَّ مِنْ فَقْدٍ ومِنْ فَاقِدِ هَيْهاتَ ما فى الناس من خالدِ

وقال آخر :

تبصرّ فلو أن البكاء ردّ هالكاً على أحد فأكثِرْ بُكَاك على عُمَرَ

وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم فى والدهم فقال :

فلو كان فَيْضُ الدَّمعِ ينفعُ باكِيًا لعلمتُ غربَ(١) الدمعِ كيف يسيلُ؟
فإن غاب بدرٌ فالنجومُ طوالعٌ ثوابتُ لا يقضى لهنّ افولُ(٢)
يُغَاثُ بها فى ظلمةِ الليلِ حائرٌ ويَسْرى عليها بالرفاقِ دَلِيلُ

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد ، وولد له فى تلك الليلة ولد ، فقال : سرك اللّه يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك ، وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر . وقال بعضهم :

ألیس لهذا صار آخرُ أمرنا ؟ فلا كانتِ الدنيا القليلُ سُرورُها
فلا تعجبى يا نفسُ مما تَرِينَه فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعى عن قول الخنساء فى نعيها صخر حين مات ونعته فقالت :

يُذكِّرُنى طلوعُ الشمسِ صخراً وأَنْدُبُه لِكُلِّ غروبِ شمسِ

فقالوا له : لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب ؟ فقال : لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يَشنُّ الغارات ، وعند غروبها يجلس مع الضيفان ، فذكرته بهذا مدحا لأنه كان يغير على أعدائه ويتقيد بضيفه ، وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها :

ألا يَا نَفسُ لا تَنْسِيه حتى أفارقَ عِيشتى وأَزُورَ رَمْسِى(٣)
ولولا كثرةُ الباكين حولى على أمواتهم لقتلتُ نفسى
وما يَبكُون مِثلَ أخى ولكنْ أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسىّ

---

(١) الغرب : الدلو العظيم . (٢) أفول : غياب .
(٣) رمسى : قبرى .

وقال آخر :

ولولا الأسى ما عشت فى الناس ساعة ولكنْ إذا ناديت جاوبنى مِثْلى

وقال آخر :

وَهَوَّنَ وَجْدِى عن خليلى أَنَّنِى إذا شئتُ لاقيتُ الذى أنا صاحبه

وقال آخر :

ومما يؤدينى إلى الصبر والعزا تردّد فكرى فى عموم المصائب

الفصل الثالث
فى المراثى

لما توفى رسول اللّه ﷺ رثاه جماعة من أصحابه وآله بمَرَاثٍ كثيرة منها: ما روى عن أبى بكر الصديق ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ ، فإنه كان أقرب الناس إليه ، وهو أول من رثاه فقال :

لما رأيتُ نبينا مُتَجَنْدلاً(١) ضَاقَتْ عَلى بعرضهنّ الدّورُ
فارتاع قلبى عند ذاك لموته والعظم منى ما حييت كسير
أعتيقُ ويحك إنّ خِلَّكَ قد ثوى والصبر عندك ما بقيت يسيرُ
يا ليتنى من قبل مهلك صاحبى غيِّبْتُ فى لَحْدٍ عليه صخورُ
فَلَتَحْدُثَنَّ بدائعٌ مِنْ بَعْدِه تَعيًا(٢) بهن جوانحٌ وصدورُ

وقال آخر:

فَقَدَتْ أرضُنا هناك نبياً كان يغدو به النباتُ زكيا
خلقاً عالياً وديناً كريماً وصراطاً يهدى الأنام سويا
وسراجاً يجلو الظلام منيرا ونبيّاً مؤيداً عربيا
حازماً عازماً حليماً كريماً عائداً بالنوال برًّا تقيّا
إن يوماً أتى عليك ليومٌ كوِّرت شمسه وكان خليا
فعليك السلام منّا جميعاً دائمٌ الدهر بكرةً وعشيا

---

(١) متجندلاً : الشديد من كل شيء .
(٢) تعيا : التعب الشديد .

ورثاه ﷺ أبو سفيان بن الحرث فقال :

أرِقْتُ فبات ليلى لا يزولُ ... وليلُ أخى المصيبة فيه طولُ
وأسعدنى البكاء وذاك فيما ... أصيب المسلمون به قليلُ
لقد عظمت مصيبتنا وجلتْ ... عشية قيلَ: قد قُبِضَ الرسولُ
واضحت أرضنا مما عراها ... تكاد بنا جوانبها تميلُ
فَقَدْنا الوحىَ والتنزيلَ فينا ... يروحُ به ويغدو جبرائيلُ
وذاك أحقُّ ما سالت عليه ... نفوسُ الناس أو كادت تسيلُ
نبىٌّ كان يجلو الشَّكَّ عنا ... بما يُوحَى إليه وما يقولُ
ويهدينا فلا نخشى ملاما ... علينا والرسولُ لنا دليلُ
أفاطمُ إن جزعت فذاك عُذْرٌ ... وإن لم تجزعى فهو السبيلُ
فَقَبْرُ أبيك سيِّدُ كلِّ قَبرٍ ... وفيه سيّدُ الناسِ الرسولُ

ولما مات أبو بكر الصديق ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ رثاه عمر بن الخطاب ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال :

ذهب الذين أحبُّهم ... فعليك يا دنيا السلامُ
لا تذكرين العيشَ لى ... فالعيشُ بعدهُم حرامُ
إنِّى رضيعُ وِصَالهم ... والطفلُ يؤْلِمُهُ الفطامُ

ورثى بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال :

سألتُ الندى والجودَ مالى أراكما ... تبدّلتما عزًّا بِذُلٍّ مُؤَبَّدِ
وما بالُ رُكن المجد أمسى مُهدَّماً ... فقالا: أُصِبْنَا بابن يحيى محمد
فقلتُ : فهلاَّ متُّما بعد موته ... وقد كُنْتُما عَبْدَيْه فى كلِّ مشهد
فقالا: أقمنا كى نُعزَّى بفقده ... مسافة يوم ثم نتلوه فى غدِ

وقال آخر:

ولا أرتجى فى الموت بعدك طائلاً ... لا أتقى للدهر بعدك من خَطْبِ

وفى المعنى لبعضهم :

لقد أمنتْ نفسى المصائبَ بعده ... فأصبحتُ منها آمناً أن أُرَوَّعَا
فما أتقى للدهر بعدك نكبةً ... ولا أرتجى للعيش بعدك مرتعا

ورثى أشجع السلمى عبد اللّه بن سعيد فقال :

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرقٌ ... ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ
وما كنت أدرى ما فواضلُ كَفِّه ... على الناس حتى غَيَّبَتْهُ الصفائحُ(١)
واصبحَ فى لحدٍ من الأرض ميتاً ... وكان به حيًّا تضيقُ الصحاصحُ(٢)
سأبكيكَ ما فاضتْ دُموعى فإن تَفِضْ ... فَحَسْبُك منى ما تكنُّ الجوانحُ
وما أنا من رزءٍ وإن جلّ جازعٌ ... ولا بسرور بعد فقدك فارحُ
لئن حسنت فيك المراثى بذكرها ... فقد حسنت من قبل فيك المدائحُ

وقال آخر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس إننى ... أرى الأرض تبقى والأخلاّء تذهبُ
أخِلاَّى لو غَيْرُ الحمامِ أصابكم ... عتبتُ ولكنْ ما على الدهرمعتبُ

وقال العباس بن الأحنف :

إذا ما دعوتُ الصبرَ بَعْدَكَ والبكا ... أجاب البكا طوعاً ولم يجبِ الصبرُ
فإنْ ينقطعْ منك الرجاءُ فإنّهُ ... سيبقى عليك الحزنُ ما بقىَ الدهرُ

وقال آخر يرثى صديقه :

خليلى ما أزدادُ إلاّ صبابةً ... إليك وما تزدادُ إلا تنائيا(٣)
خليلىَ لو نفسٌ فدت نفسَ ميِّت ... فديتُك مسروراً بنفسى وماليا
وقد كنتُ أرجو أن تعيشَ وأن أَمُتْ ... فحال قَضاءُ اللهِ دون رجائيا
الا فَلْيَمُتْ مَنْ شاء بعدك إنَّما ... عليك من الأقدار كان حذاريا

أخذها بعضهم فقال :

كُنْتَ السوادَ لِمُقْلَتِي ... يبكى عليك الناظرُ
مَنْ شاء بعدك فَلْيَمُتْ ... فعليك كنتُ أحاذرُ

(١) الصفائح : حجارة القبر .
(٢) الصحاصح : الأرض المستوية الواسعة .
(٣) التنائى : البعد .

وقال آخر يرثى بعض أولاده :

وقاسمنى دهرى بَنِىَّ مُشاطِراً فلما تقضىّ شَطْرَه عاد فى شَطْرِى
ألا ليت أمِّى لم تلدنى وليتنى سبقتُكَ إذْ كُنَّا إلى غاية تجرى
وقد كنتَ ذا نابٍ وظُفْرٍ على العدا فأصبحتُ لا يَخْشَوْن نابى ولا ظُفْرِى

وقال عمر بن الخطاب ـ رضى اللّه عنه ـ للخنساء أخبرينى بأفضل بيت قلتيه فى أخيك ؟ فقالت :

وكُنْتُ أُعِيرُ الدمْعَ قَبْلَكَ مَنْ بكَى فأنتَ على مَنْ ماتَ بَعْدَك شاغِلُهْ

ولأبى المحاسن الشواء فى صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته :

لم أنسَهُ وبنو الملوكِ أمامه يُدمُون للأسف الأكفَّ عِضَاضَا
والثلجُ قد غطى الرُّبَا فكأنَّها مِنْ حُزْنِها لبستْ عليه بياضا

وقال آخر :

وليس صَرِيرُ النعشِ ما تسمعونُه ولكِنَّه أصلابُ قومٍ تَقصَّفُوا
وليس نسيم المسك ريًّا حَنُوطِه ولكنّه ذاك الثناء المخلف

وقال مقاتل بن عطية يرثى الوزير نظام الملك :

كان الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً يتيمةً صاغها الرحمنُ من شرفِ
عزَّتْ ولم تعرفِ الأيامُ قِيمتَها فردها عندما عزّتْ إلى الصدفِ(١)

وقال آخر :

وقبرتُ وجهَكَ وانصرفتُ مُودّعاً بأبى وأمى وَجْهكَ المقبورُ
وأرى ديارك بعد وجهك قفرةً والقبرُ منك مُشيّدٌ معمورُ
فالناسُ كُلُّهم لِفقدك واجدٌ فى كل بيت رنةٌ وزفيرُ
عجباً لأربع أذرعٍ فى خمسةٍ فى جوفها جبل أشمٌّ كبيرُ

وكان رجل توفى ولده فى يوم عيد فقال:

لبس الرجالُ جديدَهم فى عيدهم ولبستُ حزنَ أبِى الحسين جديدا

---

(١) الصدف : غشاء الدُّرِّ .

أيسرُّنى عيدٌ ولم أرى وَجْهَهُ فيه الا بعداً لذلك عيدا
فارقتُه وبقيتُ أخلد بعده لا كان ذاك بقاً ولا تخليدا
مَنْ لم يمتْ جَزعاً لفقد حبيبه فهو الخؤون مودةً وعهودا
مُتْ مع حبيبك إنْ قدرتَ ولا تعشْ من بعده ذا لوعة مكمودا
ما أمّ خُشْفٍ(١) قد ملا أحشاءَها حذراً عليه وجفنها تسهيدا
إن نام لم تهجعْ وطافت حوله فيبيتُ مكلُوماً بها مرصودا
منىٌّ بأوجعَ إذ رأيتُ نوائحا لأبى الحسين وقد لطمنَ خدودا
ولقد عدمت أبا الحسين جلادتى لما رأيت جمالك المفقودا
كنتُ الجليدَ على الرزايا كُلِّها وعلى فراقك لم أجد تجليدا
ولئن بقيتُ وما هلكتُ فإن لى أجلاً وإن لم أحْصِه معدودا
لا موت لى إلا إذا الأجل انقضى فهناك لا أتجاوزُ المحدودا
حُزْنى عليك بقدر حبِّك لا أرى يوماً على هذا وذاك مزيدا
ما هَدّ ركني بالسنين وإنما أصبحتُ بعدك بالأسى مهدودا
يا ليت أني لم أكن لك والدا وكذاك إنَّكَ لم تكنْ مولودا
فلقد شَقِيتُ وربما شَقِي الفتى بفِراقِ مَنْ يهوي وكان سعيدا
مَنْ ذَمَّ جفنًا باخلاً بدموعه فعليك جفني لم يزل محمودا
فَلأَنْظُمَـــنَّ مَراثِيًــا مشهــورةً تُنسي الأنامَ كثيرًا ولبيدا
وجميعَ مَنْ نَظَمَ القريضَ مفارقٌ ولدًا له أو صاحبًا مفقودا

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصرى :

سألتُ رسومَ القبر عَمّنْ ثوى به لأعلمَ مــا لاقــى فقالتْ جوانبُهُ
أتسألُ عمّن عاش بعد وفاته بإحسانــه إخوانــه وأقاربُهُ؟

وقال الإمام السبكى ـ رحمه اللّه تعالى ـ يرثى فضل اللّه العالم:

مصابٌ ليس يشبِهُهُ مصابُ لذى الألباب إذ فقد الشّهابُ
إمامٌ قد حوى من كلِّ ذى علمٍ كنُوزاً نحوها يسعى الرّكابُ
ليبكى كلُّ ذى علمٍ عليه فكم عِلْمٌ له ضمّ الترابُ

(١) الخشف : ولد الظبية .

وكم كَلِمٍ موانعٌ قد أتته ثناها وهى عاصيةٌ صعابُ
فسلطانُ البلاغ بغير شَكٌ شهابُ الدين ما فيه ارتيابُ
سقى اللهُ الكريمُ ثَرَاهُ صَوْباً لـــه مـــن رِضْوان رِضَابُ

وقال الصدفى :

يا غائباً فى الثرى تَبْلَى محاسنُه اللهَ يُوليكَ غفراناً وإحسانا
إن كنتَ جُرّعْتَ كأسَ الموتِ واحدةً فى كل يومٍ أذوقُ الموتَ ألوانا

وقال محمد بن عبد اللّه العتبى يرثى ابناً له :

أضحتْ بخدى للدموعِ رسومُ أسفاً عليك وفى الفؤاد كُلُومُ
والصبرُ يُحمدُ فى الموطن كُلّها إلا عليـــك فإنَّـــه مذمـــومُ

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثى بنتاً له فقال :

عَجَبًا للمنـــون كيـــف أَتَتْهَا وَتَخَطَّتْ عَبْدَ الحميـــد أخـــاكَ
شملتنـــا مُصيبَتَـــان جميعًا فقدنـــا هـــذه ورؤيةُ ذاكـــا

وله يرثى الأمير يلبغا :

ألا إنَّما الدنيا غرورٌ وباطلٌ فطوبى لِمَنْ كَفَاه منهـــا تفرّغا
وما عجبى إلا لَمِنْ بات واثقاً بأيام دهرٍ ما وعى حَقّاً بليغا

وقال آخر :

إلى اللهِ أَشْكُو ان كُلَّ قبيلةٍ من الناسِ قد أفنى الحِمَامُ خِيارَها

وقال رجل يرثى صديقاً له توفى وكان من الكرماء:

ومـــا دَرَى نَعْشُهُ ولا حَامِلُـــوه ما على النَعْشِ مِنْ عَفَافٍ وجودِ

ولبعض الكتاب فى ابن مقلة :

استَشْعَرَ الكتـــابُ فَقْدَكَ سالفـــاً وقضتْ بصحةٌ ذلـــك الأيامُ
فلذاك سُوّدتِ الدواةُ كآبةً أسفًا عليـــك وشُقَّـــتِ الأقلامُ

وقال الحسن بن مطير الأسدى يرثى معن بن زائدة ـ رحمه اللّه تعالى ـ :

هَلُمَّا إلى معنٍ وقولا لقبره :سقتك الغوادى مربعاً ثم مربعا
فيا قَبْرَ مَعْنٍ كنتُ أولَ حفرةٍ من الأرض خُطّت للسماحة مضجعا

ويا قَبْرَ مَعْنٍ كيف واريت جوده؟ وقد كان منه البرُّ والبحرُ مترعا
بلى قد وَسِعَتْ الجودَ والجودُ ميتٌ ولو كان حَيّاً ضِقْتَ حتى تصدعا
فتىً عاش فى معروفه بعد موته أناسٌ لهم بالبِرِّ قد كان أوسعا
ولما مضى مَعْنٌ مضى الجودُ كُلُّه وأصبح عِرنينُ المكارم أَجْدَعا

وقال آخر :

عجبتُ لصبرى بعده وهو ميّتٌ وقد كنتُ أبكيه دَماً وهو غائبُ

وقالت ريطة بنت عاصم :

وقفت فأبكتني ديارُ عشيرتي على رزئهن الباكياتُ الحواسرُ
غدوا كسيوف الهند ورّادَ حَوْمةٍ من الموت أعيا وِرْدُهُن المصادرُ
فوارسُ حاموا عن حريمي وحافظوا بدار المنايا والقنا متشاجرُ(١)
ولو أنْ سلمى نالها مثل رزئنا لهدّتْ ولكنْ محمل الرزء عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور ، أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ، ومحمد وكانا فى حبسه ، وكان أبوه قائما يصلى فقال له محمد : أوجز فأوجز وسلم ، فلما أتاه وضع الرأس فى حجره ، وقال : أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم تالله لقد كنت من الناس الذين قال اللّه تعالى فى حقهم: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [الرعد : ٢٠] . ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول :

فتى كان يَحْمِيه مِنَ العارِ سَيْفُه ويكفيه سوآتِ الأمورِ اجتنابُها

ثم قال للربيع : قل لصاحبك المنصور : قد مضى من بؤسنا أيام ، ومن نعمتك أيام ، والملتقى غداً بين يدى اللّه تعالى ، فكان ذلك فالاً على المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة .

وقيل لحسان : ما بالك لَمْ تَرْثِ رسولَ اللّه ﷺ؟ قال : لم أر شيئاً إلا رأيته يقصر عنه .

واللّه أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) حاموا : حموا ودافعوا وحفظوا الحرمات من أن تعاب وتهتك .

الباب الثالث والثمانون

فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ . [النساء : ٧٧] . فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل ، وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلاً ، ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو لقوله تعالى : ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ . [الحديد : ٢٠] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ . [العنكبوت : ٦٤] . فلا تبع أيها العاقل حياة قليلة تفنى بحياة كثيرة تبقى ، كما قال ابن عياض : لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، والآخرة خزفاً يبقى ، لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى ، ثم تأمل بعقلك هل أتاك اللّه من الدنيا مثل ما أُتى سليمان ـ عليه الصلاة السلام ـ ؟حيث ملكه اللّه تعالى جميع الدنيا من إنس وجن ، وسخر له الريح والطير والوحوش، ثم زاده اللّه تعالى أحسن منها حيث قال : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . [صٓ: ٣٩] . فواللّه ما عدها نعمة مثل ما عددتموها ، ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجا من حيث لا يعلم فقال : ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ . [النمل: ٤٠] . وهذا فصل الخطاب لمن تدبر . هذا وقد قال لك ولجميع أهل الدنيا : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . [الحجر: ٩٣] . وقال تعالى ﴿إِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ . [الأنبياء : ٤٧] .

وروى عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » (١) . وعن أبى هريرة ـ رضى اللّه عنه ـ قال : قال لى رسول اللّه ﷺ : « الا أريك الدنيا بما فيها ؟» قلت : بلى يا رسول اللّه ، فأخذ بيدى وأتى إلى واد من أودية المدينة ، فإذا مزبلة فيها رءوس الناس ، وعذرات ، وخرق بالية ، وعظام البهائم ، فقال : « يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرص حرصكم ، وتأمل آمالكم ، وهى اليوم صارت عظاما بلا جلد ، ثم هى صائرة عظاماً رميماً ، وهذه العذرات وألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها فى الدنيا ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد . فمن كان باكيا على الدنيا فلبيك » قال : فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا (٢).

وروى أن عمر بن الخطاب ـ رضى اللّه عنه ـ دخل على النبى ﷺ وهو على سرير من الليف

(١) صحيح : رواه الترمذى فى « الزهد » (٢٣٢٠) عن سهل بن سعد رضى الله عنه .

(٢) لم أقف عليه .

وقد أثر الشريط فى جنبه ، فبكى عمر ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ ، فقال رسول اللّه ﷺ :« ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : تذكرت كسرى وقيصر. وما كانا فيه من سعة الدنيا ، وأنت رسول اللّه ، وقد أثر الشريط بجنبيك ، فقال ﷺ : « هؤلاء قوم عُجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا فى الآخرة ». وروى عن الضحاك قال : لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدا ريح الدنيا وفقدا ريح الجنة غشى عليهما أربعين يومًا من نتن الدنيا . وعن ابن معاذ قال : الحكمة تهوى من السماء إلى القلوب فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال: ركون إلى الدنيا ، وَهَمٌ عدو ، وحسد أخ ، وحب شرف . وعن النبى ﷺ أنه قال لعلى :« يا على أربع خصال من الشقاء ، جمود العين ، وقسوة القلب ، وبُعْد الأمل ، وحب الدنيا .

وروى عن ابن عباس ـ رضى اللّه عنهما ـ أنه قال : يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين أنيابها بادية ، مشوهة الخلق لا يراها أحد إلا هرب منها ، فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : لا نعوذ باللّه من معرفة هذه ، فيقال : هذه الدنيا التى تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها .

وعن الفضيل بن عياض أنه قال : جعل الخير كله فى بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا. وجعل الشر كله فى بيت واحد . وجعل مفتاحه حب الدنيا . وقيل : إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فَرّ ، وإن تركته تبعك، وفيه قال بعضهم:

إنَّما الرزقُ الذى تطلبُه ... يُشْبِهُ الظلَّ الذى يَمشى مَعَكَ
أنتَ لا تُدْرِكُهُ متَّبِعًا ... وهو وإنْ وُليتَ عنه تَبِعَكْ

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال :

رأيت خيالَ الظلّ أعظمُ عِبْرَةٍ ... لِمَنْ كان فى علم الحقائق راقى
شخوصًا وأصواتًا يخالفُ بعضها ... لبعض وأشكالا بغيرِ وفاق
تجىء وتمضى بابةٌ بعد بابةٍ ... وتفنى جميعًا والمحرّك باقى

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك :

ما أنعم اللهُ على عبد ... بنعمةٍ أوفى من العافيه
وكلُّ مَنْ عُوفى فى جِسْمه ... فإنّه فى عيشه راضيه
والمالُ حلوٌ حسنٌ جيّدٌ ... على الفتى لكنّه عاريَه
ما أحسنَ الدنيا ولكنّها ... مع حُسْنِها غَدّارَة فَانيَه

وتوفى رحال من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات :

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أنْ الحِمَامَ بكم علينا قادمُ
لو تَنْزِلُون بِشِعْبِنا لَعَرفتُمو ... أنَّ المفرّطَ فى التزوّد نادمُ
لا تستعزّوا بالحياة فإنَّكم ... تَبْنُون والموتُ المفرّق هادمُ
سَاوى الرَّدَى ما بيننا فى حُفْرَةٍ ... حَيْثُ المخدّم واحدٌ والخادمُ

وقال آخر:

عن قليل أصيرُ كومَ تراب ... وتقولُ الرفاقُ : هذا فلانُ
صار تحتَ التراب عَظمًا رَمِيمًا ... وجفاه الأصحابُ والخِلانُ

وما أحسن ما قال عبد اللّه بن طاهر :

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا ... فلا كانت الدنيا القليلُ سرورُها
فلا تعجبى يا نفسُ مِمّا تَرِينَه ... فكُلُّ أمورُ الناسِ هذا مصيرُها

وقال شرف الدين بن أسد :

يا مَنْ تملّك مُلكًا لا بقاء له ... حَمَّلْتَ نَفْسَك آثامًا وأوزارا
هل الحياة بذى الدنيا وإنْ عذبتْ ... إلا كطيف خيال فى الكرى زارا؟

وقال بعضهم :

وغاية هذى الدارِ لذّةُ ساعة ... ويعقبُها الأحزانُ والهمُّ والندمُ
وهاتيك دارُ الأمنِ والعزّ والتُّقَى ... ورحمةُ ربّ الناسِ والجودُ والكرمُ

وقال غيره :

حَسَّنْتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تخفْ سوءَ ما يأتى به القدرُ
وسالمتك الليالى فاغتررتَ بها ... وعند صفو الليالى يحدثُ الكدرُ

وقال آخر:

فإن كنتَ لا تَدْرى متى الموتُ فاعْلَمَنْ ... بأنّك لا تبقى إلى آخر الدهرِ

أبن آدم ؟ أين الأولون والآخرون ؟، أين نوح شيخ المرسلين ؟، أين إدريس رفيع رب

العالمين؟، أين إبراهيم خليل الرحمن ؟، أين موسى الكليم من بين سائر النبيين ؟، أين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين ، وإمام السائحين ؟، أين محمد خاتم النبيين ؟، أين أصحابه الأبرار ؟، أين الأمم الماضية ؟، أين الملوك السالفة ؟، أين القرون الخالية ؟، أين الذين نُصِبَتْ على مفارقهم التيجان ؟، أين الذين قهروا الأبطال والشجعان ؟، أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب ؟، أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب ؟، أين الذين تاهوا على الخلائق كبرًا وعتيًا ؟، أين الذين راحوا فى الحلل بكرة وعشيا ؟، أين الذين اغتروا بالأجناد ؟، أين أصحاب الوزراء ؟، والقواد ؟، أين أصحاب السطوة والأعوان ؟، أين أصحاب الإمرة والسلطان؟، أين أصحاب الأعمال والولايات ؟، أين الذين خفقت على رءوسهم الألوية والرايات ؟، أين الذين قادوا الجيوش والعساكر ؟، أين الذين عمروا القصور والدساكر ؟، أين الذين أعطوا النصر فى موطن الحروب والمواقف ؟، أين الذين آمنوا بسطوتهم كل خائف ؟، أين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخرًا وعزًا ؟، أين الذين فرشوا القصور حريرًا وقزًا ؟، أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزا هل ؟ تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ذكرا ؟، أفناهم الله مفنى الأمم ، وأبادهم مبيد الرمم ، وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل والصخور ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم . لم ينفعهم ما جمعوا ، ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا. أسلمهم الأحباء والأولياء وهجرهم الإخوان الأصفياء ، ونسيهم الأقرباء والبعداء لو نطقوا لأنشدوا :

مقيمٌ بالحجون رهين رمس ... وأهلى راحلون بِكُلِّ واد
كأنى لم أكُ لهمو حبيبًا ... ولا كانوا الأحبةَ فى السواد
فعرجوا بالسلام فإن أبيتم ... فَأَوْمُئوا بالسلام على البعاد

وقالوا : لا فخر فيما يزول ، ولا غنى فيما لا يبقى ، وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين : قِدْرٌ يغلى وكنيف يملى ؟، وفى هذا المعنى قال الشاعر :

ولقد سألتُ الدارَ عن أخبارِهم ... فَتَبَسَّمَتْ عَجَبًا ولم تُبْد
حتى مررتُ على الكنيف فقال لى ... :أَمْوَالُهم وَنَوالُهم عندى

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال للرشيد لما قال له : عظنى ، وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك ، قال : نعم ، قال : يا أمير المؤمنين : لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ، فقال له: لا خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بولة .

وقال ابن شبرمة : إذا كان البدن سقيمًا لم ينفعه الطعام ، وإذا كان القلب مغرمًا لم تنفعه الموعظة .

وروى أن أبا العتاهية مَرَّ بدكان وراق وإذا بكتاب فيه :

لا تَرْجِعُ الأنفسُ عن غيِّها مَا لَمْ يكنْ منها لها زاجرُ

فقال : لمن هذا البيت ؟ فقيل : لأبى نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال وعشق الملاح فقال : وددت أنه لى بنصف شعرى .

وممن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها ، إبراهيم بن أدهم بن منصور، كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ زهد الدنيا . زهد فى ثمانين سريرًا . قال ابن بشار : سألت إبراهيم بن أدهم : كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا ؟ فقال : كان أبى من ملوك خراسان ، وكان قد حبب إلى الصيد ، فبينما أنا راكب فرسى وكلبى معى إذ رأيت ثعلبًا أو أرنبًا ، فحركت فرسى نحوه ، فسمعت نداء من ورائى : يا إبراهيم ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت ، فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحدًا ، فقلت : لعن اللّه الشيطان، ثم حركت فرسى فسمعت نداء أعلى من الأول : يا إبراهيم ما لهذا خُلقت ، ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحدًا، فقلت : لعن اللّه الشيطان ، ثم حركت فرسى ، فسمعت النداء من قربوس سرجى : يا إبراهيم ما لهذا خُلقت ، ولا بهذا أمرت، فوقفت وقلت : هيهات جاءنى النذير من رب العالمين ، واللّه لا عصيت ربى ما عصمنى بعد يومى هذا ، فتوجهت إلى أهلى ، وخلفت فرسى ، وجئت إلى بعض رعاة أبى ، فأخذت جبته وكساءه ، وألقيت إليه ثيابى ، فلم أزل أَرضٌ تُقلِّنى وأَرضُ تَضعُنى حتى صرت إلى العراق فعملت بها أيامًا فلم يُصَفُ لى شىء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال: عليك بالشام ، قال : فانصرفت إلى بلد يقال لها :« المنصورية »، فعملت بها أيامًا فلم يصف لى شىء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ فقال : إن أردت الحلال ، فعليك «بطرسوس » ، فإن المباحات بها والعمل فيها كثير ، فانصرفت إليها . قال : فبينما أنا قاعد على باب البحر إذ جاءنى رجل فاكترانى أنظر له بستانًا ، فتوجهت معه فأقمت فى البستان أيامًا كثيرة ، فإذا خادم له قد أقبل ومعه أصحابُ له ، ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرته ، فقعد فى مجلسه ثم قال : يا ناطورنا ، فأجبته . قال : اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه . فأتيته برمان ، فكسر الخادم واحدة ، فوجدها حامضة ، فقال : يا ناطورنا أنت منذ كذا وكذا فى بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا ولا تعرف الحلو من الحامض ؟ فقلت واللّه ما أكلت من فاكهتكم شيئًا ، ولا أعرف الحلو من الحامض .قال : فغمز الخادم أصحابه ، وقال : ألا تعجبون من هذا ؟، ثم قال لى: لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة، قال : ثم تحدث الناس بذلك ، وجاءوا إلى البستان ، فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون ، وأنا هارب منهم ، وكان يأكل من كسب يده، وكان يحصد ، ويحفظ البساتين ، ويعمل فى الطين ، فبينما هو يومًا يحرس كرمًا إذ مَرّ به جندى فقال: أعطنا من هذا

العنب ، فقال له : إن صاحبه لم يأذن لى ، فضربه بالسوط فطأطأ رأسه وقال : اضرب رأسًا طالما عصى اللّه يا سيدى الجندى ، فاستحى الرجل وتركه ومضى.

وروى أن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ بينما هو يسيح فـى الجبال إذ مَرَّ علـى غار فـيه رجـل عظيم الخلقة من بنى آدم مُلقى على ظهره ، وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه : أنا دوسم الملك ألف عام وفتحت ألف مدينة ، وهزمت ألف جيش ، وفضضت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشى ، والحجر وسادى ، فمن رآنى فلا تَغُرُّه الدنيا كما غـرتنى.

وقال وهب بن منبه : خرج عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذات يوم مع أصحابه ، فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك . فقالوا : يا نبى اللّه إنَّا جياع فأوحى اللّه تعالى إليه أن ائذن لهم فى قوتهم . فأذن لهم فتفرقوا فى الزرع يفركون ، ويأكلون ، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول : زرعى وأرضى ورثتها من أبى وجدى ، فبإذن من تأكلون يا هؤلاء ؟ قال: فدعا عيسى ربه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة، فإذا عند كل سنبلة ما شاء اللّه من رجل، وامرأة يقولون : أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا ، فَفَرَّ الرجل منهم ، وكان قد بلغه أمر عيسى ، ولكن لا يعرفه ، فلما عرفه قال : معذرة إليك يا نبى اللّه إنى لم أعرفك ، زرعى ومالى حلال لك ، فبكى عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال : ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ، ثم ارتحلوا عنها ، وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم ، ليس لك أرض ولا مال .
ولما مات إسكندر قال أرسطاطاليس : أيها الملك لقد حركتنا بسكونك ، وقال بعض الحكماء من أصحابه : لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس ، أخذه أبو العتاهية فقال :

كَفَى حُزْنًا بِدَفْنِكَ ثم إنىّ   نفضتُ تُرابَ قَبْرِكَ من يديّا
وكانتْ فى حياتك لى عِظاتٌ   وأنتَ اليوم أَوْعظُ مِنْكَ حيّا

وقال عبد الله بن المعتز :

نسيرُ إلى الآجالِ فى كلِّ ساعةٍ   فأيامُنا تُطْوَى وَهُنَّ مراحلُ
ولَمْ أرَ مِثْلَ الموتِ حتى كأنّه   إذا ما تخطّته الأمانى باطلُ
وما أقبحَ التفريطَ فى زمن الصبّا   فكيف به والشيبُ فى الرأسِ شاعلُ؟
تَرَحَّل من الدنيا بزادٍ مِنْ التقى   فَعُمْرُكَ أيامٌ تُعَدُّ قلائلُ

وقال عبد اللّه بن المعلم : خرجنا من المدينة حُجّاجًا فإذا أنا برجل من بنى هاشم من بنى

العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا ، وأقبل على الآخرة ، فجمعتنى وإياه الطريق ، فأنست به وقلت له : هل لك أن تعادلنى ؟، فإن معى فضلا من راحلتى ، فجزانى خيرًا ، وقال : لو أردت هذا لكان سهلا ، ثم أنس إلى فجعل يحدثنى فقال : أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة ، وكنت ذا كبر شديد ، ونعمة طائلة ، ومال كثير ، وبذخ زائد . فأمرت يومًا خادمًا لى أن يحشو لى فِراشًا من حرير ، ومخدة بورد نثير ، ففعل ، فإنى لنائم إذا بقمع وردة قد نَسِيَهُ الخادم، فقمت إليه فأوجعته ضربًا ، ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدة، فأتانى آت فى منامى فى صــورة فظيعة فهزنى وقال : أفق من غشيتك وانتبـه من رقدتك، ثم أنشأ يقول:

يا خِلُّ إِنَّكَ إِنْ تُوسَّدُ لِيِّنًا وَسُدْتَ بُعَدَ اليوم صُمّ الجَنْدَلِ
فامْهِدْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا تَسْعَدْ به فلتندمنّ غدًا إذا لم تفْعَلِ

فانتبهت مرعوبًا ، وخرجت من ساعتى هاربًا إلى ربى كما ترانى ، ثم أنشأ يقول :

مَنْ كان يعلمُ أن الموتَ يُدركُه والقبر مسكنه والبعث يخرجُهُ
وأنّه بين جناتٍ مزخرفة يوم القيامة أو نارٍ ستُنضجُه
فكُلُّ شيءٍ سوى التقوى به سمجٌ وَمَنْ أقامَ عليه منه أسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنًا لم يدرِ أنَّ المنايا سوف تُزْعِجُهُ

قال وهب بن منبه : أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذى يزن بأرض صنعاء اليمن ؛ وكان من الملوك الأجلة مكتوبًا بالقلم المسندى (١) فترجم بالعربى ، فإذا هى أبيات جليلة وموعظة عظيمة وجليلة وهى هذه الأبيات :

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الأجبالِ تحرسُهم غُلْبُ الرجالِ فلم تنفعهُم القُلَلُ(٢)
واستُنْزِلُوا من أعالى عِزّ مَعقلهم فَأُسكِنوا حُفْرةً يا بِئْسَ ما نَزَلُوا
فإذا هُمُو صارخٌ من بعد ما دُفِنُوا أَيْنَ الأسرَّةُ والتيجانُ والحللُ؟
أينَ الوُجُوهُ التى كَانَتْ مُحَجَّبةً وكان مِنْ دُونها الأستَارُ والكللُ؟(٣)
فَأفصحَ القبرُ عَنْهُمْ حين سَاءَلَهُم تلْكَ الوُجُوه عليها الدودَ يَقْتَتِلُ
قَدَ طَالَمَا أَكَلُوا دَهرًا وما شَرِبُوا فَأَصبَحوُا بعد ذاك الأكلِ قد أُكِلُوا

(١) المسندى : خط كانت تستعمله بنو حميَر .
(٢) أجبال : جمع جبَل . قلل : قمم الجبال وأعلاها .
(٣) الكِلَلُ : جمع كِلَّةِ : ستروقيق ذو ثقوب يرفع فوق السرير ليتوقى به من البعوض وغيره .

وروى أن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان معه صاحب فى بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لصاحبه : انطلق فاطلب لنا طعامًا من هذه القرية ، وأعطاه ما يشترى به، فذهب الرجل وقام عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصلى ، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة ، فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة فأبطأ عليه ، فأكل رغيفًا ، وكان عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ رآه حين جاء ، ورأى الأرغفة ثلاثة ، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين ، فقال له : أين الرغيف الثالث ؟ فقال الرجل : ما كانا إلا رغيفين ، فأكلاهما . ثم مرا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا ـ عيسى عليه الصلاة والسلام ـ واحدًا منها ، فجاءه فذكاه [١] وأكلا منه . فقال له عيسى : بالذى أراه هذه الآية من أكل الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا اثنين . ثم مرا على وجوههما حتى جاءا فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية ، فأنطق الله له لبنة ، فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد، وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى : بحق من أراك هذه الآية : من صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا اثنين . فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج [٢] ، فأخذ عيسى ـ صلوات اللّه عليه ـ بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر ، فقال الرجل : سبحان اللّه !، فقال عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: بالذى أراك هذه الآية : من صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا اثنين . فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام ، وقيل : ثلاثة أكوام من الرمل ، فقال لها : كونى ذهبًا بإذن اللّه، فكانت ، فلما رآها الرجل قال: هذا مال ، فقال عيسى : نعم واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ، فقال الرجل : أنا صاحب الرغيف الثالث ، فقال عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : هى لك كلها ، ثم فارقه عيسى ، وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه ، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه ، فقال اثنان منهما للثالث : انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق فلما غاب قال أحدهما للآخر : إذا جاء قتلناه واقتسمنا المال بيننا ، فقال الآخر : نعم ، وأما الذى ذهب ليشترى الطعام ، فإنه أضمر لصاحبيه السوء، وقال أجعل : لهما فى الطعام سمًا فإذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسى ، فوضع السم فى الطعام ، وجاء فقاما إليه فقتلاه ، وأكلا الطعام ، فماتا ، فمر بهم عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهم مصروعون حولها فقال : هكذا الدنيا تفعل بأهلها .

وقال الهيثم بن عدى : وجد غار فى جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك ، وفيه رجل مسجى على سرير من الذهب ، وعند رأسه لوح من الذهب أيضًا مكتوب فيه بالرومية :أنا سبأ

---

(١) ذكاه : ذبحه .

(٢) العجاج : النهر امتلأ بالماء .

ابن نواس خدمت عيصو ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر ، وعشت بعده دهرًا طويلا ، ورأيت عجبًا كثيرًا ، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت ، وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبابه ، ويعلم أنه صائر إليهم ، ثم لا يتوب ، وقد علمت أن الأجلاف الجفاة يستنزلوننى عن سريرى ، ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ، ويكثر الهذيان ، ويترأس الصبيان، فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلا ، ومات ذليلا .

وعن عمرو بن ميمون أنه قال : افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه : أنا بهرام ملك فارس كنت أغناهم بطشًا ، وأقساهم قلبًا ، وأطولهم أملا ، وأحرصهم على الدنيا ، قد ملكت البلاد ، وقتلت الملوك ، وهزمت الجيوش ، وأذللت الجبابرة ، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلى ، ولم أستطع أن أفتدى به من الموت إذ نزل بى .

ويروى فى الإسرائيليات أن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بينما هو فى سياحته إذ مر بجمجمة نخرة فسأل اللّه أن تتكلم فأنطقها اللّه له فقالت : يا نبى اللّه : أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ، ورزقت ألف ولد ، وافتضضت ألف بكر ، وهزمت ألف جيش، وفتحت ألف مدينة ، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم ، فمن سمع قصتى فلا يغتر بالدنيا . فبكى عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكاء شديدًا حتى غشى عليه .

ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه وباد أهله ، وأظلمت نواحيه هذه الأبيات :

هذى منازلُ أقوامٍ عَهِدْتُهُمُ ... يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذممِ
تبكى عليهم ديارٌ كان يُطرِبُها ... ترنُّمُ المجدِ بَيْنَ الجودِ والكرمِ

وقيل فى المعنى :

باللهِ ربِّكَ كَمْ قصرٍ مررتَ به ... قد كان أُعْمِرَ باللّذاتِ والطربِ
نادى غُرابُ المنايا فى جوانِبِهِ ... وصاحَ من بعده بالويلِ والحربِ

وفيه :

أَيُّهَا الرّافعُ البناءَ رُوَيدًا[1] ... لا يَرُدُّ المنونَ عَنْك البناءُ

وحكى : أن رجلين تنازعا فى أرض فأنطق اللّه تعالى لبنة من جدار تلك الأرض ، فقالت: إنى كنت ملكًا من الملوك ملكت الدنيا ألف سنة ، ثم صرت رميمًا ألف سنة ، ثم أخذنى خزاف

(١) رُويدًا : اسم فعل أمر بمعنى : مَهْلا .

وعملنى إناء ، فاستعملت ألف سنة حتى تكسرت ، وصرت ترابًا ، فأخذنى طواب وعملنى لبنًا، وأنا فى هذا الجدار كذا وكذا سنة ، فَلِمَ تتنازعان فى هذه الأرض وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون ؟! والله سبحانه وتعالى أعلم .

وروى : أن ملكًا بنى قصرًا وقال : انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه ، فقال رجل : أرى فيه عيبين . فقالوا له : وما هما ؟ قال : يموت الملك ، ويخرب القصر . قال : صدقت ، ثم أقبل على الله ، وترك القصر والدنيا .

وقيل : سُئِلَ الخضر ـ عليه السلام ـ عن أعجب شيء رآه فى الدنيا مع طول سياحته ، وقطعه للقفار والفلوات ، فقال : أعجب شيء رأيته أنى مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها ، فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة ؟ فقالوا : سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت ، وما زالت كذلك من عهد الطوفان ، ثم غبت عنها خمسمائة سنة ومررت بها ، فإذا هي خاوية على عروشها ، ولم أر أحدًا أسأله ، وإذا رعاة غنم فدنوت منهم، فقلت : أين المدينة التى ها هنا ؟ فقالوا : سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان هاهنا مدينة ، ثم غبت خمسمائة سنة ، ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر ، وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية ، فقلت للغواصين منذ كم هذا البحر هاهنا ؟ فقالوا : سبحان الله لم يذكر آباؤنا ، ولا أجدادنا إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان . فغبت خمسمائة سنة ، وجئت فإذا البحر قد غاص ماؤه ، وإذا مكانه غيضة صيادون يصيدون فيها السمك فى زوارق صغار فقلت لبعضهم ، أين البحر الذى كان ها هنا ؟ فقالوا : سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ها هنا بحر. فغبت خمسمائة عام ، ثم جئت إلى ذلك ، فإذا هو مدينة على الحالة الأولى ، والحصون والقصور والأسواق قائمة ، فقلت لبعضهم : أين الغيضة التى كانت ها هنا ؟ ومتى بنيت هذه المدينة ؟ ، فقالوا : سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان . فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ، ثم أتيت إليها ، فإذا عاليها سافلها ، وهى تدخن بدخان شديد ، فلم أر أحداً أسأله ، ثم أتيت راعيا فسألته أين المدينة ؟ قال : سبحان الله لم يذكر آباؤنا ، ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان . فهذا أعجب شيء رأيته فى سياحتى .

فسبحان مبيد العباد ، ومفنى البلاد ، ووارث الأرض ومن عليها ، وباعث من خلق منها بعد رده إليها. ولبعضهم:

قِفْ بالديار فهذه آثارُهُمْ ... تبكى الأحبَّةَ حَسْرَةً وتشوّقا
كم قد وقفتُ بها أُسائلُ أَهْلَها ... عن حالِها مُتَرَحِّما أو مُشْفِقَا
فأجابنى دَاعِى الهوى فى رَسْمِها ... فَارَقْتَ مَنْ تهوى وَعَزَّ الملتقى

ولبعضهم :

أَيُّها الربعُ الذى قد دثرا وكان عَيْناً ثم أضحى أثرا
أَيْنَ سُكَانُكَ ؟ماذا فعلوا؟ خبِّرَنْ عَنْهُم سُقِيتَ المطرا
فلقد نادى مُنادِى دَارِهُمْ رَحَلُوا واستَوْدَعُونِى عِبَرا

وقال عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أوحى اللّه إلى الدنيا من خدمنى فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه ، يا دنيا مُرّى على أوليائى ولا تحلى لهم فتفتنيهم ، وقال بعض الحكماء : الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبها شُرْباً ازداد عطشا ، أو كالكأس من عسل وفى أسفله سُمٌّ فللذائق من حلاوة عاجلة وفى أسفله الموت ، أو كحلم النائم يفرح فى منامه فإذا استيقظ زال فرحه ، أو كالبرق يضىء قليلا ثم يذهب . ولما بنى المأمون قصره الذى ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلا يقول :

أتبنى بناءَ الخالدين وإنَّما بقاؤك فيها إنْ عَقِلْتَ قليلُ؟
لقد كان فى ظلّ الأراكِ كِفايةٌ لِمَنْ كلّ يَومٌ يقتضيه رحيلُ

قال ، فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات وقال :

وَمَنْ يأمن الدنيا يكُنْ مِثْلَ قابضٍ على الماء خَانَتْهُ فُرُوجُ الأصابعِ

ووجد مكتوب على قصر باد أهله :

هذى منازلُ أقوامٍ عهدتُهُم فى خفض(1) عَيْشٍ نَفِيسٍ مَا لَهُ خَطَرُ
صَاحَتْ بِهِمْ نائباتُ الدهرِ فانْقَلَبُوا إلى القبورِ فلا عينٌ ولا أثرُ

ولو قيل للدنيا : صفى نفسك ما عَدَتْ ما وصفها به أبو نواس بقوله :

وَمَا الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالك وذو نَسَبٍ فى الهالكين عَرِيقُ
إذا امتَحنَ الدنيا لبيبٌ تكَشَّفَتْ له عن عدو فى ثيابِ صديقِ

وروى أن على بن أبى طالب ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ لما رجع من صفين ، ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً فقال : قبر من هذا ؟ فقالوا : قبر خباب بن الأرت ، فوقف عليه وقال : رحم اللّه خبابا أسلم راغبا ، وهاجر طائعا ، وعاش مجاهداً وابتلى فى جسمه آخـراً الا وإن اللّه لا

(1) خفض العيش : كناية عن النعيم والسعة والسعادة والهناء .

يضيع أجـر من أحسن عملاً ، ثم مشى فإذا هو بقبور ، فجاء حتى وقف عليها ، وقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل ليوم الحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن اللّه تعالى ، ثم قال : يا أهل القبور أمّا الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وهذا ما عندنا ، فما عندكم ؟، ثم التفت إلى أصحابه ، وقال : أما أنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى .

واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

فيما جاء من فضل الصلاة على رسول الله ﷺ . وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب

ولنذكر أربعين حديثًا فى فضل الصلاة على النبى ﷺ :

الحديث الأول : عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على صلت عليه الملائكة ومن صلت عليه الملائكة صلى الله عليه ومن صلى الله عليه لم يبق شىء فى السموات ولا فى الأرض إلا صلى عليه » .

الحديث الثانى : :قال رسول الله ﷺ : « من صلى على صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبا عليه ذنبًا ثلاثة أيام » .

الحديث الثالث : :قال رسول الله ﷺ : « من صلّى علىّ مرة خلق الله من قوله ملكًا له جناحان جناح بالمشرق وجناح بالمغرب رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول : اللهم صلّ على عبدك ما دام يصلى على نبيك » .

الحديث الرابع : : قال رسول الله ﷺ : « من صلّى علىّ مرة صلّى الله عليه بها عشرًا ومن صلى على عشرًا صلى الله عليه بها مائة ومن صلى علىّ مائة صلى الله عليه ألفًا ومن صلى على ألفًا لم يعذبه الله بالنار » .

الحديث الخامس : قال رسول الله ﷺ : « من صلىّ على مرة كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات » .

الحديث السادس : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل يومًا وقال يا محمد جئتك ببشارة لم آت بها أحدًا من قبلك وهى أن الله تعالى يقول من صلى عليك من أمتك ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائمًا قبل أن يقعد وإن كان قاعدًا غفر له قبل أن يقوم فعند ذلك خر ساجدًا لله شاكرًا» .

الحديث السابع : : قال رسول الله ﷺ : « من صلّى على فى الصباح عشرًا محيت عنه ذنوب أربعين سنة » .

الحديث الثامن : قال رسول الله ﷺ : « من صلّى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئته ثمانين سنة » .

الحديث التاسع : قال رسول الله ﷺ : « من صلّى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة ووكل الله به ملكًا حين يدفن فى قبره يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه

بالهدية » .

الحديث العاشر : قال رسول الله ﷺ : « من صلّى على فى يوم مائة مرة قضيت له فى ذلك اليوم مائة حاجة » .

الحديث الحادى عشر : قال رسول الله ﷺ : « أقربكم منى مجلسًا أكثركم على صلاة » .

الحديث الثانى عشر : قال رسول الله ﷺ:« من صلّى علىّ ألف مرة بشر بالجنة قبل موته ».

الحديث الثالث عشر : قال رسول الله ﷺ : « جاءنى جبريل عليه السلام وقال لى يا رسول الله لا يصلى عليك أحد إلا ويصلى عليه سبعون ألفًا من الملائكة » .

الحديث الرابع عشر : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء بعد الصلاة على لا يرد » .

الحديث الخامس عشر : قال رسول الله ﷺ : « الصلاة على نور على الصراط وقال عليه الصلاة والسلام لا يلج النار من يصلى على » .

الحديث السادس عشر : قال رسول الله ﷺ : « من جعل عبادته الصلاة على قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة » .

الحديث السابع عشر : قال رسول الله ﷺ : « من نسى الصلاة على أخطأ طريق الجنة » .

الحديث الثامن عشر : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة فى الهواء بأيديهم قراطيس من نور لا يكتبون إلا الصلاة على وعلى أهل بيتى » .

الحديث التاسع عشر : قال رسول الله ﷺ : « لو أن عبدًا جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا ولم تكن فيها الصلاة على ردت عليه ولم تقبل منه » .

الحديث العشرون : قال رسول الله ﷺ : « أولى الناس بى أكثرهم على صلاة » .

الحديث الحادى والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « من صلّى على فى كتاب لم تزل الملائكة تصلى عليه مالم يندرس اسمى من ذلك الكتاب » .

الحديث الثانى والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغون الصلاة على من أمتى فأستغفر لهم » .

الحديث الثالث والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « من صلّى على كنت شفيعه يوم القيامة ومن لم يصل على فأنا برىء منه » .

الحديث الرابع والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق قالوا يا رسول الله ولمَ ذاك ؟ قال : سمعوا اسمى ولم يصلوا على » .

الحديث الخامس والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « يؤمر برجل إلى النار فأقول ردوه إلى

الميزان فأضع له شيئًا كالأنملة معى فى ميزانه وهو الصلاة على فترجح ميزانه وينادى سعد فلان».

الحديث السادس والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « ما اجتمع قوم فى مجلس ولم يصل على فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغلسوه » .

الحديث السابع والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى وكّل بقبرى ملكًا أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلى على أحد إلى يوم القيامة إلا بلغنى اسمه وقال رسول الله إن فلان بن فلانه صلى عليك » .

الحديث الثامن والعشرون : عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال : « الصلاة على النبى ﷺ أمحى للذنوب من الماء لسواد اللوح » .

الحديث التاسع والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك ومن روحك لجسدك فأكثر الصلاة على النبى الأمى ﷺ » .

الحديث الثلاثون : قال رسول الله ﷺ : « إن ملكًا أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك ولم يبادر إلى اقتلاعها ، فغضب الله وكسَّر أجنحته فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله فسأل الله فيه فأمره أن يصلى على النبى ﷺ فصلى عليه فغفر الله له ورد عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبى ﷺ » .

الحديث الحادى الثلاثون : عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت من صلى على رسول الله ﷺ عشر مرات وصلى ركعتين ودعا الله تعالى تقبل صلاته وتقضى حاجته ودعاؤه مقبول غير مردود .

الحديث الثانى الثلاثون : عن زيد بن حارثة قال سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فقال ﷺ : صلوا على واجتهدوا فى الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى ال محمد » .

الحديث الثالث الثلاثون : عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «صلوا على فإن صلاتكم على زكاة لكم واسألوا الله الوسيلة » .

الحديث الرابع والثلاثون : عن سهل بن سعد الساعدى أن النبى ﷺ قال : « لا صلاة لمن لا يصلى على نبيه » .

الحديث الخامس الثلاثون : **عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال** : قال رسول الله ﷺ : «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِ علىّ » .

الحديث السادس والثلاثون : عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله

ﷺ: « من قال جزى الله عنا محمدًا خيرًا وجزى الله نبينا محمدًا بما هو أهله فقد أتعب كاتبيه».

الحديث السابع والثلاثون : عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » .

الحديث الثامن والثلاثون : عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يصلى علىّ إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه » .

الحديث التاسع والثلاثون : قال رسول الله ﷺ : « أقربكم منى منزلا يوم القيامة أكثركم علىّ صلاة » .

الحديث الأربعون : نقل الشيخ كمال الدين الدميرى رحمه الله تعالى عن شفاء الصدور لابن سبع أن النبى ﷺ قال : « من سره أن يلقى الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة علىّ فإنه من صلى علىّ فى كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبدًا وهدمت ذنوبه ومحيت خطاياه ودام سروره واستجيب دعاؤه وأعطى أمله وأعين على عدوه وعلى أسباب الخير وكان ممن يرافق نبيه فى الجنان».

اللهم صلّ على سيد المرسلين وخاتم النبين ورسول رب العالمين الذى أنزل عليه فى محكم الكتاب العزيز تعظيمًا له وتوقيرًا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب : ٤٦ ، ٤٧] . فهذا خطاب خاص ولم يخاطب الله أحدًا من المرسلين ولا من الأنبياء ولا رسولا بالرسالة إلا سيد خلقه محمد ﷺ فإن الله تعالى نادى أبا البشر : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا ﴾ [هود : ٤٨] ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [هود : ٧٦] ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ [ص : ٢٦] وقال لمحمد ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : ٦٧] . ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ ﴾ [المائدة : ٤١] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال : ٦٤] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾[الأنفال :٦٥] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [التوبة : ٧٣] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾[الطلاق : ١] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ [التحريم :١] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب :١] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦]. وما ناداه باسمه يا محمد كغيره إلا فى أربع مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ . الأول قوله عز وجل ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

من قَبْلِهِ الرُّسُل ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد قد قتل محمد وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ولو قال وما رسولى لقال الأعداء ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن أسمه محمدًا. الثانى قوله عزوجل : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] . الثالث قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ [محمد : ٢] . فلو قال وآمنوا بما نزل على رسولى فقال الأعداء ليس هو فعرفه باسمه محمد ﷺ . الرابع قوله عز وجل محمد رسول الله والحكمة فى ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فكان من الأعداء من يقول من هو الذى أرسله فعرفه باسمه فقال محمد رسول الله ﷺ وسماه تعالى باسمه أحمد فى موضع واحد وله حكمة وهى أن الله تعالى لما أرسل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بنى إسرائيل يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدى من التوراه التى أنزلت على موسى ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد لأنهم كانوا يعرفونه فى التوراة أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد ولا أحمد وإنما ذكر ذلك إعلاما به وتعريفًا له وما ناداه إلا بالنبوة والرسالة فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[الأحزاب : ٤٦] . أى شاهدًا بالإيمان للمؤمنين ومبشرًا لأهل التمجيد ونذيرًا لأهل التجحيد ، وقيل شاهدًا لأهل القرآن ومبشرًا لهم بالغفران ونذيرًا لأهل الكفر والعصيان . وقيل : شاهدًا لأمتك ومبشرًا بشفاعتك ونذيرًا لمن ارتكب مخالفتك . وقيل : شاهدًا بالمنة ومبشرًا بالجنة وقوله وداعيًا إلى الله بإذنه أى تدعو الناس بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله . قال تعالى ، وأنه لما قام عبد الله يدعوه وسمى رسول الله ﷺ نفسه داعيًا فقال : أنا الداعى إلى الله ، وقوله تعالى: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ .أى يهتدى به كما يهتدى بالسراج فى ظلمة الليل .

فإن قلت : ما الحكمة فى قوله تعالى : ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ . ولم يقل قمرًا منيرًا . فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر لأن المراد بالسراج هنا الشمس . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٦] . والشمس أعم نفعًا ونورًا من القمر ، وقيل : المراد بقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ . السراج الذى يقتبس منه لأن القمر لا تصل إليه الأيدى حتى يقتبسون منه ، السراج إذا كان فى بلد يملأ ذلك البلد نورًا لأن كل من جاء يقتبس منه ، والقمر ليس

كذلك ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته ﷺ ظلامًا فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة ، فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر . ومن النساء خديجة ومن الشباب على ومن الموالى زيد ومن العبيد بلال رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس وصهيب من الروم وبلال من الحبشة ، ووفد الوفود واقتبسوا ، وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها حتى امتلأت الأرض من نور سراجه فهو ﷺ أعظم الأنبياء وأكرم المرسلين وسيد الخلق أجمعين لم يخلق الله أحسن ولا أجمل ولا أكمل ولا أفضل ولا أفصح ولا أرجح ولا أسمح ولا أجل ولا أعظم ولا أسخى ولا أكرم ولا أبهى ولا أنصف ولا أعدل منه ﷺ ، فلو أن البحار مداد والنبات أقلام وجميع الخلق تكتب معجزاته ﷺ لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته ﷺ . اللهم اجعلنا من خالص أمته واحشرنا فى زمرته وأمتنا على محبته ولا تخالف بنا عن ملته ولا عما جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى عدد ما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون نحمدك يا من هيأت لكسب الآداب جميع المعدات وفتحت للتحلى بأنوار آياتك سبل الخيرات ونصلى ونسلم على من كملت آدابه ورشحت بكمال البيان وإعجار التبيان جنابه سيدنا محمد القائل : إن من البيان لسحرا ، وعلى آله وصحبه ما أطلعت حدائق الأتباع زاهرًا.

أما بعد :

فقد تم بحمده تعالى طبع كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف تأليف العلامة الفاضل واللوذعى الكامل الشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهى رحمه الله تعالى وأعلى منزله فى دار رضاه.

المحتويات

الموضوع | الصحفة